

اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام (اليونسكو)

# تاريخ إفريقيا العام

المجلد الأول

المنهجية وعصر ما قبل التاريخ  
في إفريقيا

المشرف على المجلد: ج. كني - زيمبو



جين أفريك / اليونسكو

تاريخ  
إفريقيا  
العام



# المحتويات

٩	مقدمة، بقلم ا. م. امبو
	عرض المشروع
١٥	بقلم ب. ا. أوجوت
١٨	التاريخ
	مقدمة عامة
١٩	ج. كى - زيربو
	الفصل الأول
	تطور التدوين التاريخي في أفريقيا
٤١	ج. د. فاج
	الفصل الثاني
	مكانة التاريخ في المجتمع الأفريقي
٥٩	بوبو هاما وج. كى - زيربو
	الفصل الثالث
	الاتجاهات الحديثة في البحوث التاريخية الأفريقية واسهامها في التاريخ بصورة عامة
٧١	ب. د. كورتن
	الفصل الرابع
	المصادر والتقنيات الخاصة بالتاريخ الأفريقي - لمحة عامة
٨٩	ت. أوبنجا
	الفصل الخامس
	المصادر المكتوبة السابقة للقرن الخامس عشر
١٠٣	ه. جعيط

الفصل السادس	
المصادر المكتوبة بدءاً من القرن الخامس عشر	
١. هريك	١٢٧
الفصل السابع	
المأثور المنقول ومنهجيته	
ج. فانسينا	١٥٥
الفصل الثامن	
المأثور الحي	
أ. هباتي با	١٧٧
الفصل التاسع	
علم الآثار الأفريقي وتقنياته بما في ذلك أساليب تحديد تاريخ الآثار	
ز. اسكندر	٢١٣
الفصل العاشر	
أولاً - اللغات والتاريخ الأفريقي	
ب. ديانى	٢٤١
ثانياً - النظريات المتعلقة بـ «العروق» وتاريخ أفريقيا	
ج. كى - زيربو	٢٧١
الفصل الحادي عشر	
الهجرات والاختلافات السلوكية واللغوية	
د. أولدروج	٢٨١
الفصل الثاني عشر	
أولاً - تصنيف لغات أفريقيا	
ج. هـ. كرينبرك	٣٠١
ثانياً - خريطة لغوية لأفريقيا	
د. دالبي	٣١٩
الفصل الثالث عشر	
الجغرافيا التاريخية: المظاهر الطبيعية	
س. دايارا	٣٢٧
الفصل الرابع عشر	
الجغرافيا التاريخية: الجوانب الاقتصادية	
١. مابوكونجى	٣٤٥
الفصل الخامس عشر	
مناهج تداخل العلوم المعتمدة في هذا الكتاب	
ج. كى - زيربو	٣٦١

## الفصل السادس عشر

## الاطار الزمني للمراحل المطرية والجمودية بأفريقيا

- أولا - ز. سعيد ..... ٣٧٣
- ثانيا - هـ. فور ..... ٣٨٧

## الفصل السابع عشر

## ظهور الإنسان: المشاكل العامة

- أولا - وى كوبنس ..... ٤١٣
- ثانيا - ل. بالوت ..... ٤٣٥

## الفصل الثامن عشر

## البشرىات الأحفورية الإفريقية

- ر. لايبكى ..... ٤٥١

## الفصل التاسع عشر

## أفريقيا الشرقية قبل التاريخ

- ج. أ. غ. سوتن ..... ٤٦٧

## الفصل العشرون

## أفريقيا الجنوبية قبل التاريخ

- ج. د. كلارك ..... ٥٠١

## الفصل الحادي والعشرون

## ما قبل تاريخ أفريقيا الوسطى

- أولا - ر. دي بايل دي هرمنس ..... ٥٣٣
- ثانيا - ف. فان نوتن

- بالاشتراك مع: ب. دى مارى، ج. ميرسن، ك. ونغامويا، و. روش ..... ٥٥٣

## الفصل الثاني والعشرون

## أفريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ

- ل. بالوت ..... ٥٧٣

## الفصل الثالث والعشرون

## الصحراء في ما قبل التاريخ

- هـ. ج. هوغو ..... ٥٩١

## الفصل الرابع والعشرون

## أفريقيا الغربية في ما قبل التاريخ

- ث. شو ..... ٦١٥

## الفصل الخامس والعشرون

## وادي النيل قبل التاريخ

- ف. دى بونو ..... ٦٤١



## الفصل السادس والعشرون الفن الأفريقي، في ما قبل التاريخ

ج. كى - زيربو ..... ٦٦٥

## الفصل السابع والعشرون بداية التقنيات الفلاحية وتطورها وانتشارها

ر. بورتيروج. بارو ..... ٦٩٧

## الفصل الثامن والعشرون اختراع المعادن وانتشارها وتطور النظم الاجتماعية الى القرن الخامس قبل الميلاد

ج. فركوتر ..... ٧١٧

## الخاتمة

## من الطبيعة الخام الى انسانية متحررة

ج. كى - زيربو ..... ٧٤٧

أعضاء اللجنة العلمية الدولية للكتابة تاريخ أفريقيا العام ..... ٧٥٩

بيانات عن مؤلفي المجلد الأول ..... ٧٦١

ببليوغرافيا عامة ..... ٧٦٥

المختصرات المستخدمة في الببليوغرافيا ..... ٧٦٥

كشاف ..... ٨٢٩

ملاحظات: ساهمت السيدة كاترين بيرلس في تنظيم الفصول الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين والحادي والعشرين والرابع والعشرين

أدخلت السيدة هيلين روش بعض اضافات على الفصل التاسع عشر.

## المجلد الأول من الطبعة العربية من تاريخ أفريقيا العام

الترجمة: من المقدمة الى الفصل الرابع عشر: السيد م. السويسي، كلية الآداب بجامعة تونس.

من الفصل الخامس عشر الى الخاتمة: السيد ر. الحمزاوي، تونس

المراجعة: من المقدمة الى الفصل الرابع عشر: السيد ع. البهنسي: المدير العام للآثار، دمشق

من الفصل الخامس عشر الى الخاتمة: السيد ح. بنعيسى، الجزائر

نظرت لجنة القراءة العربية، المتفرعة من اللجنة العلمية الدولية، في جميع فصول المجلد ونقحتها. وتتألف لجنة القراءة هذه من السادة: م. الفاسي (المغرب)؛ ي. ا. طالب (سنغافورة)؛ هـ. جعيط (تونس).

# مقدمة

السيد أحمد مختار أمبو  
المدير العام  
لليونسكو

لقد ظلت الأساطير والآراء المسبقة بمختلف صورها تحني عن العالم لزمن طويل التاريخ الحقيقي لأفريقيا. فقد اعتبرت المجتمعات الأفريقية مجتمعات لا يمكن أن يكون لها تاريخ. وعلى الرغم من البحوث الهامة التي اضطلع بها منذ العقود الأولى من هذا القرن رواد مثل ليفرو بينيوس، وموريس ديلافوس، وأرتورو لابر يولا، فإن عددا كبيرا من الأخصائيين غير الأفريقيين المتشبهين بمسلمات معينة قد ظلوا ينحازون إلى القول بأن هذه المجتمعات لا يمكن أن تكون موضوعا للدراسة العلمية، مستندين في قولهم هذا بصفة خاصة إلى نقص المصادر والوثائق المكتوبة.

وإذا كان من الممكن أن تعتبر الإلياذة والأوديسا بحق مصادر أساسية لتاريخ اليونان القديمة، فإن ذلك كان يقابله انكار كل قيمة للتراث الأفريقي المنقول، الذي يعتبر بمثابة ذاكرة تنتظم في نسجها الكثير من الأحداث التي تميزت بها حياة شعوب أفريقيا. وقد اقتصر الاهتمام عند كتابة تاريخ جزء كبير من أفريقيا على مصادر خارجة عن أفريقيا، فانهتى ذلك إلى رؤيا لا تكشف عن المسار المرجح لشعوب أفريقيا عبر تاريخها، بل تعبر عن رأي البعض في الطريق الذي لا بد وأن يكون هذا المسار قد سلكه. ونظرا لأن «العصر الوسيط» الأوروبي هو الذي كان يتخذ في الغالب منطلقا للدراسة ونقطة للحالة، فإن أساليب الانتاج والعلاقات الاجتماعية والنظم والمؤسسات السياسية في أفريقيا لم تكن تدرس إلا من منطلق المقارنة مع ماضي أوروبا.

وقد كان ذلك في الواقع رفضا للاعتراف بأن الأفريقي مبدع لثقافات أصيلة ازدهرت واستمرت تسلك عبر القرون مسالك خاصة بها، لا يستطيع المؤرخ أن يدركها إلا إذا تخلى عن بعض آرائه المسبقة، والا إذا جدد منهجه.

كذلك يبدو أن القارة الأفريقية لم تعتبر قط كيانا تاريخيا له ذاتيته المتميزة. وإنما انصب التأكيد

بصفة خاصة على كل ما من شأنه أن يعزز الرأي القائل بوجود انقسام منذ الأزل بين «أفريقيا بيضاء» و «أفريقيا سوداء» تجعل كل منها الأخرى. وكثيرا ما صورت الصحراء الكبرى على أنها فضاء منيع يحول دون امتزاج الاثنيات والشعوب وتبادل السلع والمعتقدات والتقاليد والعادات والأفكار بين المجتمعات التي تقوم على الجوانب المختلفة من تلك الصحراء. وبذلك رسمت الدراسات حدودا مصطنعة صارمة بين حضارتي مصر القديمة والنوبة وبين حضارات الشعوب القاطنة جنوبي الصحراء.

حقيقة ان تاريخ أفريقيا شمالي الصحراء كان أكثر ارتباطا بتاريخ حوض البحر المتوسط من تاريخ أفريقيا جنوبي الصحراء، ولكن من المعترف به الآن على نطاق واسع أن حضارات القارة الأفريقية — عبر لغاتها وثقافتها المتنوعة — تشكل بدرجات مختلفة الروافد التاريخية لمجموعة من الشعوب والمجتمعات التي تربط بينها روابط عريقة.

وهناك ظاهرة أخرى أضرت كثيرا بالدراسة الموضوعية للماضي الأفريقي. وأنا أعني هنا ما اقترنت به تجارة الرقيق والاستعمار من ظهور أفكار عنصرية جامدة عن الأجناس تولد عنها الازدراء وعدم الفهم، وكانت من شدة الرسوخ بحيث امتد تشوئها الى مفاهيم كتابة التاريخ ذاتها. فبدأ استخدام عبارات مشحونة بأفكار معينة، مثل «البيض» و «السود» لتمييز نوعين عامين من البشر هما المستعمرون منظورا اليهم كنوع ممتاز من ناحية وأهالي المستعمرات من ناحية أخرى، صار لزاما على الأفريقيين أن يقاوموا عبودية مزودجة، اقتصادية وسيكولوجية. أما وقد صار الأفريقي موسوما ببلون بشرته، وتحول الى سلعة بين السلع، وسخر للأعمال التي لا تتطلب الا القوة العضلية، فقد أصبح يمثل في أذهان قاهريه ماهية جنسية خيالية، هي ماهية الزنجي المنحطة التي توهموها. وأدى هذا التصنيف الزائف الى المبسوط بتاريخ الشعوب الأفريقية في عقول الكثيرين الى مستوى التاريخ الاثنى، الذي لا يمكن فيه تجنب التزييف في تقدير الوقائع التاريخية والثقافية.

وقد تطور الوضع كثيرا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وخاصة بعد أن أخذت البلاد الأفريقية، وقد نالت استقلالها، تشارك مشاركة فعالة في حياة المجتمع الدولي وفي العلاقات المتبادلة التي هي أساس حياة هذا المجتمع، فتزايد حرص المؤرخين على دراسة أفريقيا بمزيد من الدقة والموضوعية والتفتح الذهني، وأخذوا يستعينون بالمصادر الأفريقية ذاتها، وان لم يخل ذلك بطبيعة الحال من التحفظات التي رسمت بحكم العادة. أما الأفريقيون أنفسهم فقد بدأوا يشعرون اذ يمارسون حقهم في المبادرة التاريخية بحاجة عميقة الى أن يعيدوا الى مجتمعاتهم صفاتها التاريخية على أسس راسخة.

ومن هنا كانت أهمية «التاريخ العام لأفريقيا»، الذي تبدأ اليونسكو اصداره في ثمانية مجلدات.

ولقد راعى الأخصائيون الذين جاءوا من بلاد عديدة وساهوا في المؤلف أن يرسوا أولا أسسه النظرية والمنهجية. ومن ثم حرصوا على أن يعيدوا النظر في التبسيطات المخلّة التي نتجت عن تصور خطي ضيق للتاريخ العالمي، وعلى أن يبرزوا من جديد حقيقة الأحداث التي وقعت كلها كان ذلك ضروريا وممكنا. وجدّوا في استخلاص المعطيات التاريخية التي تيسر تقصي تطور مختلف الشعوب الأفريقية بما لها من خصوصية اجتماعية ثقافية.



اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام (اليونسكو)

# تاريخ إفريقيا العام

المجلد الأول

المنهجية وعصر ما قبل التاريخ  
في إفريقيا

المشرف على المجلد: ج. كي - زيربو

جين أفريك / اليونسكو

© اليونسكو ١٩٨٠  
الترقيم الدولي الموحد للكتب

ISBN Jeune Afrique 2-85258-314-3  
ISBN UNESCO 92-3-201707-5

وفي هذه المهمة التي تتميز بالجسامة والتعقيد والعسر نظرا لتنوع المصادر وتشتت الوثائق، سارت اليونسكو على مراحل. فكانت المرحلة الأولى (١٩٦٥ - ١٩٦٩) هي مرحلة الأعمال الخاصة بتوثيق الكتاب وتخطيطه، حيث تم القيام بأنشطة ميدانية في الموقع: ما بين حملات لجمع التراث المنقول، وإنشاء لمراكز التوثيق الإقليمية المخصصة لهذا التراث، وجمع للمخطوطات غير المنشورة بالعربية و «العجمية» (اللغات الأفريقية المكتوبة بالحروف العربية) وحصر للمحفوظات، واعداد لدليل لمصادر تاريخ أفريقيا بالاستناد الى محفوظات ومكتبات البلدان الأوربية، وهو الدليل الذي نشر في تسعة مجلدات. ومن ناحية أخرى، نظمت للأخصائيين لقاءات تولى فيها الأفريقيون وغيرهم من القارات الأخرى مناقشة القضايا المنهجية وحددوا الخطوط العريضة للمشروع بعد فحص دقيق للمصادر المتاحة.

ثم كانت مرحلة ثانية خصصت لوضع الكتاب في صورته وتقسيمه وتفصيله، وامتدت من ١٩٦٩ الى ١٩٧١. وفي هذه الفترة اضطلع اجتماعان دوليان لخبراء عقدا في باريس (١٩٦٩) وأديس أبابا (١٩٧٠) بدراسة وتحديد المشكلات التي تتعلق بصياغة الكتاب ونشره، وهي: ظهوره في ثمانية مجلدات، وطبعه طبعة رئيسية بالانجليزية والفرنسية والعربية، وكذلك ترجمته الى لغات أفريقية مثل السواحيلية والهاوسا والبيول واليوروبا واللينجالا. ومن المتوقع كذلك اعداد ترجمات الألمانية والروسية والبرتغالية والاسبانية والسويدية، فضلا عن اصدار طبعات مختصرة ميسرة للجمهور الأفريقي والدولي على نطاق أوسع.

وخصصت المرحلة الثالثة للصياغة والطبع. وقد بدأت بتشكيل لجنة علمية دولية من ٣٩ عضوا، ثلثاهم من الأفريقيين والثلث الآخر من غير الأفريقيين، عليها أن تهض بالمسؤولية الفكرية عن الكتاب.

ولما كان المنهج المتبع يتسم بالجمع بين عدة تخصصات، فقد تميز بتعدد المناحي النظرية وتعدد المصادر. وينبغي أن يذكر في مقدمة ذلك علم الآثار الذي يفتح كثيرا من المغاليق في تاريخ الثقافات والحضارات الأفريقية، والذي بفضل أصبح من المتفق عليه اليوم أن أفريقيا كانت على أرجح الاحتمالات مهد البشرية، وأنها شهدت إحدى أوائل الثورات التكنولوجية في التاريخ وهي ثورة العصر الحجري الحديث، وأنها بفضل وجود مصرفها كانت موطننا لازدهار حضارة من أكثر الحضارات القديمة تألقا في العالم. ثم ينبغي بعد ذلك ذكر التراث المنقول، فقد استهين به في الماضي، لكنه يبدو اليوم مصدرا ثميناً من مصادر تاريخ أفريقيا، يتيح تتبع مسيرة شعوبها المختلفة في المكان والزمان، ومن ثم تفهم الرؤيا الأفريقية للعالم من داخلها، وادراك السمات الأصيلة للقيم التي تركز عليها ثقافات القارة ومؤسساتها.

واننا لنشعر بالامتنان للجنة العلمية الدولية المسؤولة عن هذا التاريخ العام لأفريقيا ولقررها وللمشرفين على مختلف المجلدات والفصول ومؤلفيها لأنهم ألقوا ضوءا أصيلا على ماضي أفريقيا في مجموعته، وتجنبوا كل نزعة قطعية في دراسة المسائل الجوهرية، مثل تجارة الرقيق التي كانت «استنزافا لا ينقضي» نتجت عنه عملية من أقسى عمليات الترحيل في تاريخ الشعوب وأدى الى تفرغ القارة من جزء من قواها الحيوية، في حين أنه لعب دورا حاسما في ازدهار الاقتصاد



والتجاري لأوروبا ومثل الاستعمار بكل ما ترتب عليه من نتائج في نواحي الاقتصاد والسكان والنواحي النفسية والثقافية؛ ومثل دراسة العلاقات بين أفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى والعالم العربي؛ وعملية إزالة الاستعمار والبناء الوطني التي مازالت تحرك العقول والمواطف في اناس لا يزالون أحياء ولا يزال بعضهم يمارس نشاطه كاملا. وقد عولجت جميع هذه المسائل بروح الحرص على التزام الأمانة والدقة، وهما ليسا أهون ما في هذا الكتاب من مزايا؛ إذ أن له كذلك مزية كبرى، هي أنه يطلعننا على آخر تطورات معارفنا عن أفريقيا ويعرض الثقافات الأفريقية من وجهات نظر شتى، ويقدم رؤيا جديدة للتاريخ، فيبرز لنا بذلك مناطق النور والظل دون أن يخفي اختلاف الآراء بين العلماء.

ان هذا الكتاب الجديد اذ يبين قصور مناهج البحث التي ظلت تستخدم زمنا طويلا في دراسة أفريقيا، فإنه يدعو الى تجديد وتعميق تناولنا للإشكالية المزدوجة المتعلقة بكتابة التاريخ وبالذاتية الشفافية، وبما يجمع بينهما من روابط متبادلة. وهو مثل أي مؤلف تاريخي قيم يفتح الطريق لبحوث جديدة متعددة.

وقد حدا ذلك باللجنة العلمية الدولية بدورها الى أن تحرص — بالتعاون الوثيق مع اليونسكو — على اجراء دراسات تكميلية للتعلم في عدد من المسائل التي تتيح رؤية أكثر وضوحا لبعض الجوانب في ماضي أفريقيا. ومن شأن هذه البحوث التي تطبع في سلسلة «اليونسكو — دراسات ووثائق — التاريخ العام لأفريقيا» أن تكون تكملة مفيدة لهذا الكتاب. وسوف يتابع هذا الجهد كذلك عن طريق اعداد دراسات عن التاريخ الوطني أو شبه الاقليمي.

ان هذا التاريخ العام يلقى الضوء في نفس الوقت على وحدة تاريخ أفريقيا وعلى علاقاتها بالقارات الأخرى — وخاصة الأمريكتين ومنطقة الكاريبي. فلقد دأب بعض المؤرخين لفترة طويلة على عزل مظاهر التعبير الابداعي لدى أحفاد الأفريقيين في الأمريكتين وتصنيفها تحت عبارة جامعة غريبة باسم الخصائص الأفريقية. أو «الأفريقيات». وغنى عن الذكر أن مؤلفي الكتاب الذي نحن بصدد لا يعتنقون هذه النظرة. فلقد رأوا الرأي الصائب في مقاومة الرقيق الذين رحلوا الى أمريكا، وفي ظاهرة «التهجين» السياسي والثقافي، وفي اشتراك أحفاد الأفريقيين دوما وعلى نطاق ضخم في كفاح حركة الاستقلال الأمريكي الأولى وفي حركات التحرير الوطنية، وأدركوا هذه الأمور على حقيقتها باعتبارها محاولات قوية لتأكيد الذاتية أسهمت في صياغة المفهوم الشامل للانسانية. وانه لمن الواضح اليوم أن التراث الأفريقي قد أثر بدرجات متفاوتة في أساليب الشعور والتفكير والتخيل والعمل لدى عدد من البلاد في نصف الكرة الغربي، كل حسب موقعه. فمن جنوب الولايات المتحدة حتى شمال البرازيل مروراً بمنطقة الكاريبي، وعلى ساحل المحيط الهادي، تبدو الآثار الشفافية المنقولة عن أفريقيا واضحة في كل مكان. بل انها في بعض الحالات هي الأسس الجوهرية للذاتية الثقافية لدى عدد من أهم القطاعات بين السكان.

كما يبرز هذا المؤلف على نحو واضح ما لأفريقيا من علاقات بمجنوب آسيا عبر المحيط الهندي، وما قدمته من مساهمات أفريقية لغيرها من الحضارات عن طريق العلاقات المتبادلة. واني لعل اقتناع بأن ما تبدله شعوب أفريقيا من جهود لنيل استقلالها وتوطيده ولتأمين تطورها وترسيخ خصائصها الثقافية حري بأن يتأصل في وعي تاريخي مجدد يؤثر تأثيرا عميقا في حياة أصحابه ويتناولونه جيلا بعد جيل.

وان ما تلقيته من تعليم، وما حصلته من خبرة كمعلم ورئيس، منذ بدايات الاستقلال ومنذ أول لجنة أنشئت لاصلاح برامج تعليم التاريخ والجغرافيا في بعض بلاد أفريقيا الغربية والوسطى، قد أتاح لي أن أقدر كم هو ضروري لتعليم النشء ولاعلام الجمهور أن يوجد كتاب للتاريخ أعده علماء يعرفون من الداخل مشكلات أفريقيا وأماها، ويملكون القدرة على النظر الى القارة ككل. ولجميع هذه الأسباب، ستعمل اليونسكو على أن ينشر هذا التاريخ العام لأفريقيا على نطاق واسع وبلغات عديدة، وعلى أن يكون أساسا لاعداد كتب للأطفال وكتب مدرسية وبرامج اذاعية أو تلفزيونية، وهذا يمكن للنشء والتلاميذ والطلاب والكبار في أفريقيا وفي غيرها أن يكونوا صورة أفضل عن ماضي القارة الأفريقية وعن العوامل التي تفسر هذا الماضي، وأن يتوصلوا الى فهم أصدق لتراثها الثقافي ولاسهامها في التقدم العام للانسانية. فهذا الكتاب جدير اذن بأن يشجع التعاون الدولي ويوطد تضامن الشعوب فيما تطمح اليه من عدالة وتقدم وسلام؛ أو هذا على الأقل هو ما أرجوه بكل اخلاص.

و يبقى لي أن أعرب عن امتناني العميق لأعضاء اللجنة العلمية الدولية ومقررها والمشرفين على مختلف المجلدات وإلى المؤلفين وجميع الذين ساهموا في تحقيق هذا المشروع الضخم. فان ما قاموا به من عمل وما قدموه من مساهمة هو خير دليل على ما يمكن أن ينجزه في الاطار الدولي الذي تتيحه اليونسكورجال جاءوا من آفاق متباينة تحفزهم نية صادقة واحدة وعزيمة واحدة الى خدمة الحقيقة الخالصة، فتمكنوا من إنهاء مشروع تكاد أهميته العلمية والثقافية أن تكون بلا حدود. كما أقدم شكري كذلك الى المنظمات والحكومات التي مكنت اليونسكو بفضل هباتها السخية من أن تصدر هذا الكتاب بلغات مختلفة وأن تكفل له ما يستحقه من انتشار عالمي النطاق في خدمة المجتمع الدولي بأكمله.

# عرض المشروع

بقلم الأستاذ بثويل أ. أوجوت  
رئيس اللجنة العلمية الدولية  
لتحرير تاريخ أفريقيا العام

طلب المؤتمر العام لليونسكو، في دورته السادسة عشرة، من المدير العام المشروع في تحرير تاريخ عام لإفريقيا. وقد عهد بهذا العمل الضخم الى لجنة علمية دولية أنشأها المجلس التنفيذي في ١٩٧٠.

ووفقا للنظام الأساسي للجنة، الذي اعتمدته المجلس التنفيذي لليونسكو في ١٩٧١، تتكون هذه اللجنة من ٣٩ عضوا (الثلثان من الأفريقيين والثلث الباقي من غير الأفريقيين) يشتركون في اجتماعاتها بصفاتهم الشخصية ويعينهم المدير العام لليونسكو لمدة صلاحية اللجنة. وكانت المهمة الأولى للجنة تحديد الخصائص الرئيسية للمصنف. وقد حددتها في دورتها الثانية على النحو التالي:

● ان هذا التاريخ، ولئن كان يستهدف بلوغ أرفع مستوى علمي ممكن، لا يتوخى شمول كل شيء وانما هو مصنف يجمع بين عناصر شتى دون تعصب لرأي معين. وسيتكون في أحيان كثيرة من عرض للمشكلات مع توضيح للوضع الراهن للمعارف والتيارات الكبرى للبحث، ولا يتقاعس عن التنويه عند الاقتضاء، بتباين المذاهب والآراء. وهو بذلك يهد السبيل لوضع مؤلفات لاحقة.

● تعتبر إفريقيا كلا واحدا. والغرض هو اظهار العلاقات التاريخية بين مختلف أجزاء القارة، التي غالبا ما كانت تخضع لتقسيمات فرعية كثيرة في المؤلفات التي ظهرت حتى الآن. وتحظى صلات أفريقيات التاريخية مع القارات الأخرى بالعناية التي تستحقها، وتحلل تلك الصلات من زاوية المبادلات والمؤثرات متعددة الأطراف على نحو يبرز بصورة ملائمة اسهام أفريقيا في تطور البشرية.



● تاريخ أفريقيا العام، هو قبل كل شيء، تاريخ أفكار وحضارات ومجتمعات ومؤسسات. وهو يقوم أساسا على مصادر متعددة باللغة المتنوع يدخل فيها التراث المنقول والتعبير الفني.

● ينظر الى هذا التاريخ أساسا من الداخل. فضلا عن كونه مصنفًا علميًا فهو أيضا. الى حد بعيد انعكاس أمين لكيفية رؤية المؤلفين الأفريقيين لحضارتهم. وعلى الرغم من اعداد هذا التاريخ في نطاق دولي واستعانت به جميع البيانات العلمية المتوفرة حاليا، فانه سيمثل أيضا أحد العناصر الأساسية في التعرف على التراث الثقافي الأفريقي وسيبرز العوامل التي تسهم في وحدة هذه القارة. ويشكل هذا الاتجاه نحو رؤية الأشياء من الداخل الجانب الجديد في هذا المصنف، ويمكنه أن يضفي عليه فضلا عن مزاياه العلمية، قيمة كبيرة بالنسبة للأحداث الراهنة. واذ يظهر هذا التاريخ الوجه الحقيقي لأفريقيا، في عصر تهيمن عليه ضروب المنافسة الاقتصادية والتقنية، فانه يمكن أن يطرح للبحث تصورا خاصا للقيم الانسانية.

وقررت اللجنة أن يصدر هذا المصنف، الذي يتناول ما يربو على ثلاثة ملايين سنة من تاريخ أفريقيا، في ثمانية مجلدات يقع كل منها في حوالي ٨٠٠ صفحة من النصوص، ويتضمن عددا من اللوحات والصور الفوتوغرافية والخرائط والرسوم الخطية.

ويعين مشرف رئيسي لكل مجلد يساعده، عند الاقتضاء واحد أو اثنان من المشرفين المعاونين. وتنتخب اللجنة المشرفين على المجلدات من بين أعضائها أو من غير أعضائها بأغلبية الثلثين. ويناط بالمشرفين اعداد المجلدات وفقا للقرارات التي تتخذها اللجنة والخطط التي تضعها. ويكون المشرفون مسؤولين من الناحية العلمية أمام اللجنة أو أمام مكتبها بين دورات انعقادها، عن مضمون المجلدات وعن الصياغة النهائية للنصوص وعن الصور، وبوجه عام عن جميع الجوانب العلمية والفنية للتاريخ. ويكون المكتب هو المرجع الأخير في اقرار المخطوط النهائي. ويقوم بتسليمه للمدير العام لليونسكو عندما يرى أنه أصبح معدا للنشر. وتظل السلطة اذن منوطة باللجنة، أو بالمكتب بين دورات انعقاد اللجنة.

ويحتوي كل مجلد على قرابة ثلاثين فصلا. ويحرر كل فصل مؤلف رئيسي يساعده عند الاقتضاء معاون أو اثنان.

وتختار اللجنة المؤلفين بعد الاطلاع على بيانات المؤهلات والخبرة الخاصة بهم، ويفضل المؤلفون الأفريقيون بشرط أن يكونوا حائزين على المؤهلات المطلوبة. وتحرص اللجنة بوجه خاص على أن يراعى قدر المستطاع في اختيار المؤلفين أن تكون جميع مناطق القارة وكذلك جميع المناطق التي كانت لها علاقات تاريخية أو ثقافية مع أفريقيا ممثلة تمثيلا عادلا.

وبعد أن يعتمد المشرف على المجلد نصوص مختلف الفصول ترسل الى جميع أعضاء اللجنة لكي يقدموا تعليقاتهم عليها..

وفضلا عن ذلك، يعرض النص المرسل من المشرف على المجلد على لجنة قراءة لدراسته، وتعين هذه اللجنة من بين أعضاء اللجنة العلمية الدولية، تبعا لاختصاصات الأعضاء، وتكلف هذه اللجنة باجراء تحليل متعمق لمضمون الفصول وشكلها.

و يتولى المكتب إقرار المخطوط بصورة نهائية.

وقد تبين أن هذه الاجراءات التي قد تبدو طويلة ومعقدة هي اجراءات لازمة لأنها تضمن أكبر قدر من الدقة العلمية للتاريخ العام لأفريقيا. فقد حدث فعلاً أن رفض المكتب بعض المخطوطات أو طلب إجراء تعديلات هامة لها بل وعهد باعادة تحرير الفصل الى مؤلف آخر. وأحياناً يستشار اخصائيون في فترة معينة من فترات التاريخ أو في مسألة معينة من أجل وضع المجلد في صيغته النهائية.

و يصدر المؤلف بادىء الأمر في طبعته رئيسية بالانجليزية والفرنسية والعربية وفي طبعة عادية بنفس اللغات.

وتصدر نسخة مختصرة من المؤلف بالانجليزية والفرنسية تتخذ أساساً للترجمة الى اللغات الأفريقية. وقد اختارت اللجنة العلمية الدولية اللغة السواحلية ولغة الهوسا كأول لغتين أفريقيتين يترجم اليهما المؤلف.

ومن المزمع أيضاً العمل، بقدر المستطاع، على أن ينشر تاريخ أفريقيا العام في عدة لغات واسعة الانتشار على الصعيد الدولي (ومنها الأسبانية والألمانية والإيطالية والبرتغالية والروسية والصينية واليابانية، الخ...).

فالأمر يتعلق إذن، كما نرى، بمشروع ضخم يشكل مغامرة كبرى بالنسبة لمؤرخي أفريقيا والأوساط العلمية بوجه عام وكذلك بالنسبة لليونسكو التي تشملها برعايتها. ذلك أنه ليس من المتعذر ان نتصور مدى تعقيد مهمة مثل تحرير مصنف عن تاريخ أفريقيا يغطي في المكان قارة بأكملها وفي الزمان الأربعة ملايين عام الأخيرة و يلتزم بأرفع المعايير العلمية ويستعين كما ينبغي، بأخصائيين ينتمون الى شتى البلاد والشقافات والمذاهب الفكرية والتقاليد التاريخية. انه لمشروع قاري ودولي وجامع لفروع العلم على اوسع نطاق.

واود في النهاية أن أنهو بأهمية هذا المصنف بالنسبة لأفريقيا والعالم أجمع. ففي الوقت الذي تكافح فيه شعوب أفريقيا من أجل اتحادها وتعمل سوياً من أجل صنع مصائرهما، يمكن للمعرفة الصحيحة بماضي أفريقيا وللوعي بالروابط التي توحد ما بين الأفريقيين من ناحية، وبين أفريقيا وسائر القارات من ناحية أخرى، أن تيسر الى حد بعيد التفاهم بين شعوب الأرض بل وأن تنشر على الأخص المعرفة بتراث ثقافي هو ملك للبشرية جمعاء.

بثويل . أ. أوجوت

٨ أغسطس / آب ١٩٧٩

رئيس اللجنة العلمية الدولية

لتحرير تاريخ أفريقيا العام

# التاريخ

لقد تقرر تدوين التواريخ الخاصة بعصر ما قبل التاريخ على النحو التالي:  
— إتما بالاشارة الى الحاضر باعتبار سنة الأساس + 1950 وتكون جميع التواريخ  
للمبنة بالنسبة الى + 1950:  
— أوبالاشارة الى بداية التاريخ الميلادي وتوضع علامة + أو — أمام التواريخ  
المحددة بالنسبة للتاريخ الميلادي.

أمثلة: (1) 2300 قبل الحاضر = — 350

(2) 2900 قبل الميلاد = — 2900

1800 ميلادية = + 1800

(3) القرن الخامس قبل الميلاد = القرن الخامس قبل العصر الحالي

القرن الثالث ميلادي = القرن الثالث من العصر الحالي

# المنهجية، وعصر ما قبل التاريخ في أفريقيا

بقلم ج. كي زيربو

## مقدمة عامة

لأفريقيا \* تاريخها، فلقد انقضى الزمن الذي كانت فيه أجزاء كاملة من خرائط الكرة الأرضية أو من أدلة السواحل، تمثل هذه القارة، على أنها هامشية مستعبدة، وكانت معرفة العلماء تتلخص بهذه الصيغة الاستطردادية التي تتم عن غياب أفريقيا: «هنا توجد أسود». وبعد الأسود، اكتشفت المناجم ذات المردود الكبير، وهذه المناسبة نفسها اكتشفت «القبائل الوطنية» التي كانت تملك هذه المناجم، إلا أنها ألحقت في حساب الأمم المستعمرة بالمناجم. وبعد «القبائل الوطنية» بدت شعوب نفذ صبرها من النير، فشرع نبضها يدق على ايقاع محموم لنضالات التحرير.

\* ملاحظة للمشرع على المجلد: يصعب حتى الآن توضيح أصل كلمة أفريقيا. وقد فرضت هذه الكلمة نفسها منذ عهد الرومان في شكل «أفريقيا» الذي أعقب اللفظ اليوناني أو المصري الأصل «ليبيا» بلد الليب أو اللوبيين المذكورين في سفر التكوين. وبعد أن كانت كلمة «أفريقيا» تدل على شاطئ شمال أفريقيا أصبحت تنطبق منذ أواخر القرن الأول قبل الميلاد على القارة في جملتها. ولكن ما هو الأصل الأول لهذا الاسم؟

— يمكننا أن ندلي بالتفسيرات التالية: بدءاً بأيسرها قابلية للتصديق:

— قد يكون أصل كلمة أفريقيا اسم شعب من البربر كان يعيش جنوبي قرطاج وهو: «الأفريجي». ومن ثم «أفريقيا» أو «أفريقيا» للدلالة على بلاد الأفريجي.

— وثمة أصل لغوي آخر لكلمة أفريقيا مصدره لفظان فينيقيان يعني أحدهما سنبلة، وهي رمزا لخصوبة هذه المنطقة، والآخر «فاريكيا» ويعني بلاد الفاكهة.

— وقد تكون كلمة أفريقيا مشتقة من الكلمة اللاتينية «أبريكا» (شمش) أو من الكلمة اليونانية «أبريكي» (خال من البرد).

— وقد يكون أحد الأصول الأخرى المصدر الفينيقي «فرق» الذي يعبر عن فكرة الافتراق أي التشتت. ومن الجدير بالذكر أن هذا المصدر ذاته يوجد في عدد من اللغات الأفريقية (البنبارا).

— وفي اللغتين السنسكريتية والهندية يدل المصدر «أبارا» أو «أفريقيا» على ما يقع، جغرافياً، «بعد» أي الغرب. فأفريقيا هي القارة الغربية.

— وعن رواية تاريخية نقلها ليون الأفريقي أن قائداً مينياديس «أفريقوس» غزا شمال أفريقيا في القرن العشرين قبل الميلاد وشيد مدينة تسمى «أفريقيه». ولكن الأرجح هو أن المصطلح العربي أفريقيا هو المرادف بالحروف العربية لكلمة أفريقيا.

— وذهب بعضهم إلى حد القول بأن «أفريقيا» كان من أحفاد إبراهيم ومن رفاق هرقل!

ان تاريخ افريقيا ككتاب تاريخ البشرية جمعاء هو تاريخ انبعاث الوعي، ومن الواجب أن تعاد كتابة تاريخ افريقيا، اذ هو حتى الآن كثيرا ما كان مقنعا، ومموها، ومشوها، ومبتورا، بالضرورة أي بسبب الجهل أو المصلحة الخاصة.

وهذه القارة التي أنهكتها قرون من الضيم، قد شهدت أجيالا من المسافرين ومن النخاسين، ومن الرواد المستكشفين ومن المبشرين الدينيين، ومن الحكام الطغاة، ومن العلماء من كل الفئات، يمثلون صورتها في شناعة البؤس والوحشية واللامسؤولية والهمجية. وأسقطت هذه الصورة، وتكاملت الى ما لا نهاية له مع مر الزمن مبررة بذلك واقع الحال والمستقبل.

وليس ما يهمنا هنا أن نشيد تاريخا مقابلا يرمي مصني التاريخ الاستعماري بقذيفة معاكسة، بل أن نغير المنظور، وأن نحكي الصور المنسية «أو الضائعة». ومن الواجب أن نعود الى العلم كي نبعث في هؤلاء وأولئك وجدانا صادقا، ومن الواجب إعادة بناء المخطط الحقيقي، فلقد آن الآوان أن نغير محور الكلام.

ولئن كانت هذه هي أغراض هذا المشروع وأسبابه، فالكيفية، أعني المنهجية، تبقى كالعادة أشد عسرا. وهذا فعلا أحد أغراض هذا المجلد الأول من تاريخ افريقيا العام والمحرف بإشراف منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو).

## الأسباب

يتعلق الأمر بمشروع علمي. ويمثل الظلال والظلام الذي اكتنف ماضي هذه القارة تحديا مشيرا لحب الاطلاع البشري. ولا يعلم من تاريخ افريقيا الا القليل، فكم من أجيال عرجاء وكم من توار يخ مفقودة وكم من بنيات تبدو منقطة شأن الاشكال الانطباعية، أو هي عاتمة وراء ضباب كثيف. وكم من شفافات فلمية تبدو لغوا اذا ألغى ما سبقها من أجزاء الشريط! وهذا الشريط المفكك الجزئي، وهو صورة عن جهلنا، قد جعلنا منه بشكل مثير للأسف أو الغضب، تحريفا للصورة الواقعية لتاريخ افريقيا كما جرى بالفعل. فهل يبقى من المستغرب اذن أن يخصص للتاريخ الافريقي مكان ملحق بين جميع توار يخ البشرية أو الحضارات.

على أنه منذ بضع عشرة سنة عمل آلاف من الباحثين، وللكتير منهم فضل كبير بل استثنائي في إزاحة الغبار عن جوانب كاملة من وجه افريقيا القديم، وتظهر كل سنة عشرات من المطبوعات الجديدة ذات النظرة الايجابية أكثر فأكثر، وثمة اكتشافات افريقية، مذهلة أحيانا، تعيد النظر في مدلول بعض الأطوار في مجمل تاريخ البشرية.

ولكن وفرة المصادر هذه ليست في مأمن من المخاطر، كخطر البلبلة الناشئة عن كثرة البحوث غير المنسقة وغير المرتبة، والجدال الأجوف بين مدارس تفضل الباحثين بالنسبة الى موضوع البحث الخ...

لذا كان من المهم احتراما لكرامة العلم أن يتم جلاء الحقيقة بصورة منزهة تلو على الشبهات وبرعاية منظمة اليونسكو، ومن قبل جماعات من العلماء الافريقيين وغير الافريقيين، وتحت إشراف لجنة علمية دولية ومديرين أفارقة.

وهذه تجربة لا تقدر للتعاون الدولي نظرا لوفرة وكفاءة الباحثين الذين جتدوا لهذا الكشف الجديد العظيم لافريقيا.

ولعل التاريخ هو علم بشري أكثر من أي اختصاص آخر، إذ هو يخرج بكامل الحرارة من مصهر الشعوب المدوي الصاخب، يصنع الانسان التاريخ حقا في معامل الحياة، هو يبينه عقليا في المختبرات والمكتبات وحقول التنقيب الأثري، والتاريخ عدا ذلك قد جعل للانسان وللشعب لكي ينير وجدانه ويثبته.

وليس تاريخ افريقيا عند الافريقيين، مرآة نرجسية لعشق النفس، ولا هو ذريعة دقيقة لتبديد أعباء اليوم، فهذا الاتجاه الموهوس قد يعوق ما للمشروع من أغراض علمية. وبالعكس أليس جهل الانسان لماضيه أي لجزء كبير من ذاته، استلابا للشخصية؟ إن الآلام التي تصيب افريقيا في يومنا هذا، وكذلك الفرص التي تتراءى فيها، هي حاصلة قوى لا تحصى قذف بها التاريخ. وكما أن تشخيص تطور مرض ما هو المرحلة الأولى من مشروع منطقي لتحديد المرض ولعالجته، كذلك فإن العمل الأول للتحليل الشامل للقارة الافريقية، هو العمل التاريخي. وإذا نحن لم نختار اللا شعور أو الاستلاب فانه لن يكون بوسعنا أن نعيش بدون ذاكرة أو بذكرة الغير.

والتاريخ ذاكرة الشعوب، وعودة الانسان الى نفسه قد تؤدي الى تطهير النفس وتحريرها، كما يتم عند الغوص في الذات بواسطة التحليل النفسي، فتظهر أسباب كبت شخصيتنا، وتحل في الآن نفسه العقد التي تقيد وعينا في الجذور القائمة مما تحت الشعور. ولكن لكيلا يستبدل وهم بآخر، ينبغي أن تكون الحقيقة التاريخية قالب الضمير الحر والأصيل، وأن تكون ممتحنة بشدة ومستندة الى حجج.

## الكيفية

وينتج عن ذلك مسألة عويصة، هي مسألة الكيفية، أي مشكلة المنهجية، وفي هذا المجال كما في غيره ينبغي الحذر معا من تمييز افريقيا تمييزا متطرفا أو ربطها ربطا وثيقا بالنظم الأجنبية. فيزعم بعضهم أنه من الواجب أن نسعى للعثور على وثائق تشابه تلك الموجودة في أوروبا، وأن نحصل على عين المجموعة من الحجج المكتوبة أو المخطوطة، كي نتحدث عن تاريخ حقيقي لافريقيا، وعندهم اذن أن مشاكل المؤرخ هي في كل مكان سواء في خط الاستواء أو في القطب. ويجب أن نؤكد هنا مرة أخرى وبكل وضوح، أنه ليس القصد أن نخمد العقل اذا لم يكن لدينا ما نمده به. فلم يكن العقل ليعتبر استوائيا بتعله أنه قام بعمله في خط الاستواء، وللعقل سيادة مطلقة فهو لا يعترف بسلطان الجغرافيا، ان نظمه ومساعيه الأساسية ولا سما تطبيق مبدأ العلية، كل ذلك يبقى كما هو، أنى كان. وليس العقل أعمى، لذلك كان عليه أن يميز ما اختلف في الواقع، كي يكون لتمكنه منه دائما، عين الدقة والصواب.

فبادئ النقد الداخلي والخارجي تطبق بمنهج ذهني مختلف عن منهجنا ازاء النشيد الحماسي



«سند جاتا فاسا» (١) وكذلك الأمر بالنسبة الى أوامر «دي فليس» أو المناشير الموجهة الى عمال نابليون. أي أن الأساليب والطرق المادية تبقى مختلفة، على أن هذا المنهج لا يستمر صالحا بعينه في كل أجزاء افريقيا، وتقوم تاريخ وادي النيل وواجهة البحر الأبيض المتوسط، يبقى أقل طرافة، بالنسبة الى أوروبا، من افريقيا الواقعة جنوب الصحراء.

وفي الحقيقة أن الصعوبات النوعية في تأريخ افريقيا تتوضح أولا في ملاحظة حقائق الجغرافيا الطبيعية لهذه القارة. ان افريقيا قارة منعزلة ان صح التعبير، فهي تدير ظهرها لبقية العالم القديم الذي لا تربط به الا بجبل سرى هزيل هو مضيق السويس، وبالعكس هي تغمس، بدون تحفظ، كتلتها المترصة في مياه الجنوب وعلى جنبها مرتفعات ساحلية تقتحمها الأنهار عن طريق مضائق صماء، تشكل هي ذاتها عراقيل في وجه التدخل الغريب في البلاد. والممر الوحيد المهم الذي يقع بين الصحراء وجبال الحبشة تعترضه مروج بحر الغزال الفسيحة. وتهب الرياح والتيارات البحرية العنيفة ممتدة من الرأس الأبيض الى الرأس الأخضر، بينما في قلب القارة ثلاث صحار تحمل العزلة الخارجية بممارسة التقسيم الداخلي.

ففي الجنوب صحراء كالا هاري، وفي الوسط الصحراء الخضراء المكونة من الغابة الاستوائية، ذلك الملجأ الرهيب الذي ينبغي على الانسان ان يصارع كي يفرض سيطرته عليه، وفي الشمال الصحراء، رأس الفيافي، تلك المصفاة الاقليمية العظيمة، وذلك المحيط الاشقر من الكشبان ومن مساحات الأرض الرخوة، وهو بما يحيطه من جبال الأطلس، يفصل مصير منطقة البحر الأبيض المتوسط عن مصير باقي القارة.

واذا لم تكن هذه القوى البيئية جدارا عازلا ولا سببا طيلة ما قبل التاريخ، فانها أثرت تأثيرا قويا في المصير الافريقي في جميع الميادين، وانما منحت الشرفات الطبيعية قيمة فريدة، فلعبت دور الجسور في استكشاف المجال الافريقي، ذلك الاستكشاف الذي قامت به الشعوب منذ آلاف الآلاف من السنين، ولنكتف بذكر الانهدام الطولاني العملاق بوادي (الرفت) الممتد من حجر افريقيا بالذات الى العراق عبر الرصيف الحبشي، وفي اتجاه العرض فان الأودية في صنعاء والابونغي والزايير قد مثلت أيضا ممرا ممتازا. وليس من قبيل المصادفة أيضا أن قامت أولى الممالك في افريقيا السوداء، في هذه الجهات من البلاد المفتوحة، هذه السواحل (٢) التي استفادت في الوقت نفسه من قابلية النفوذ الى الداخل ومن بعض الانفتاح على الخارج، ومن الاتصالات مع المناطق الافريقية المجاورة ذات الموارد المختلفة المتكاملة.

وهذه المناطق المفتوحة وذات النظام التطوري السريع هي برهان «خلف» على أن العزلة كانت أحد العوامل الأساسية في سير افريقيا على مسارب بعض التقدم (٣).

(١) «مدح سندجاتا» بلغة ملنكي. سندجاتا هومنشئ امبراطورية مالي في القرن الثالث عشر وكان بطلا من الأبطال الأكثر شعبية في التاريخ الافريقي.

(٢) الكلمة مأخوذة عن العربية - وتعني الساحل كما هو واضح ولكن تعني هنا سواحل الصحراء المعتبرة بمثابة محيط من الرمال. (٣) ليس من الممكن اهمال العامل المناخي، ولقد أكد الاستاذ ثورتن شاو أن بعض الجيوب التي تتأقلم مع المناخ المتوسطي (أمطار الشتاء)، لا تستطيع أن تتأقلم مع وادي النيجر، وذلك لأنه في جنوب البحرة الموازية للارتفاع في الشمال، ولسبب سد الجهة ما وراء الاستوائية، فإن التأقلم يصبح مستحيلا، انظر ج. أ. هـ. ١٢ - ١ - ١٩٧١ ص ١٤٣ - ٤٥٤.

يقول ف. برودل: «ان الحضارات تعتمد على الأرض و يضيف «ان الحضارة وليدة العدد». وعلى هذا فان اتساع رقعة هذه القارة مع سكانها المنتشرين المتقلين بسهولة في طبيعة كريمة (ثمار، معادن، الخ...) وقاسية (الأمراض المستوطنة والأوبئة) (٤) قد منعت من ادراك الحد الأدنى من التجمع البشري الذي كاد أن يكون دائما من الشروط الأولية للتحويلات الكيفية الجسيمة في الحقل الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، أضف الى ذلك أن ما قامت به النخاسة من ابتزازات بشرية قاسية منذ عصور عريقة في القدم، ولا سيما منذ تجارة العبيد في القرن الخامس عشر الى القرن العشرين، قد كان من شأنه أن يحرم افريقيا من الحيوية البشرية، ومن الاستقرار اللازمين لعملية ابداع معتبر، حتى في المستوى التكنولوجي، فلم تكن الطبيعة ولا الناس، ولا الجغرافية ولا التاريخ رافقة بأفريقيا.

ولابد من العودة الى هذه الظروف الاساسية للحركة التطورية كي نضع المشاكل في حدود موضوعية وليس في شكل أوهام مذهلة مثل الانحطاط العرقي والقبلية الوراثية والقصور الذاتي التاريخي الذي وصم به الأفارقة. وهذه الآراء الذاتية اللامنطقية ليس من شأنها في أحسن الأحوال، الا أن تسبب جهلا اراديا.

## المصادر الصعبة

لايد أن نعترف فيما يخص هذه القارة، أن الحصول على المصادر مهمة صعبة: فركائز المعرفة التاريخية تمثل في ثلاثة مصادر رئيسية: الوثائق المكتوبة وعلم الآثار والتواتر الشفاهي. و يدعم هذه المصادر الثلاثة علم اللغات وعلم الأجناس البشرية، اللذان يكتنان من تمييز وتعميق تأويل المعطيات، تلك المعطيات التي قد تكون أحيانا خاما أو شديدة العمق إن لم تمارس هذه الممارسة الأشد تعمقا. على أنه قد يكون من الخطأ أن ترتب هذه المصادر المختلفة مسبقا ترتيبا تسلسليا قطعيا.

### المصادر المكتوبة

ان لم تكن المصادر المكتوبة قليلة جدا فهي على الأقل موزعة توزيعا فاسدا في الزمان والمكان. و«أحلك» العصور في التاريخ الافريقي هي التي لا تتمتع بانارة واضحة مدققة نابعة من شواهد كتابية، كالعرون السابقة للميلاد واللاحقة له، بينما كانت افريقيا الشمالية في هذا الوقت متقدمة. ولكن حتى ولو وجد هذا الشاهد، فان تفسيره كثيرا ما تكتنفه الالتباسات والصعوبات. فانطلاقا من قراءة جديدة لرحلة ابن بطوطة مثلا وبعد إعادة قراءة الأساء المختلفة للمواقع التي استعملها هذا الرحالة كما استعملها العمري، نرى ان بعض المؤرخين آل بهم الأمر الى مناقشة كون نياني - سور - سنكراني هي عاصمة المالي القديم (٥).

وعلى المستوى الكمي، فان أكدا س عظيمة من المواد الكتابية ذات الطابع الوثائقي أو القصصي لم يتم بعد استغلالها، كما تدل على ذلك الفهارس الحديثة الجزئية الخاصة بالمخطوطات التي لم تنشر

(٤) انظر في هذا الموضوع - جون فورد - اكسفورد - ١٩٧١.

(٥) انظر ج. أ. هنبوك ١٩٧٣ ص ١٩٥ - ٢٠٨. يخاطر المؤلف بحجة السكوت: «لوعبر ابن بطوطة النيجر أو نهر السنغال لذكره».

والمعلقة بتاريخ إفريقيا السوداء، هذه الفهارس التي يتم اجلاء الغبار عنها في خزانات المغرب (٦) والجزائر وأوربا، وكذلك في خزانات الأعيان والعلماء السودانيين عبر مدن منعطف النيجر (٧)؛ واستنادا على عناوينها، يمكن الوقوف على مصادر جديدة تعد بالكثير. وقد أنشأت منظمة اليونسكو بطنبيكتو مركز أحمد بابا للبحث عن أمثال هذه الوثائق. وفي مستودعات الوثائق بآيران والعراق وأرمينيا والهند والصين علاوة على أمريكا، نبذ عديدة من تاريخ هذه القارة، تنتظر من الباحث الفكر الشاقب الخلاق، وفي دار الوثائق بالوزارة الأولى باسطنبول، حيث رقت دفاتر أوامر الديوان السلطاني العثماني، توجد رسائل لم تنشر مؤرخة في ماي (أيار) ١٥٧٧ مرسلة من السلطان مراد الثالث إلى ماي ادريس علاوة، وإلى باي تونس، تلقي ضوئا جديدا جدا على دبلوماسية (الكارم برنو) في ذلك العهد وعلى الحالة في القرن (٨).

واستطاعت معاهد الدراسات الإفريقية ومراكز البحوث التاريخية في البلدان الإفريقية التي دخلتها الثقافة الإسلامية، القيام بعمل حثيث لجمع الوثائق، ومن جهة أخرى قد نشرت أدلة جديدة كالتي قام بنشرها المجلس الدولي للوثائق تحت إشراف منظمة اليونسكو، الغرض منها توجيه الباحثين إلى الوثائق المكسدة والمودعة في كل أطراف العالم الغربي.

ويبقى المجهود الممكن في مجال النشر العلمي وإعادة النشر وفي الترجمة والتوزيع، مع هذه التحولات المتزايدة الحديثة، قادرا على اجتياز نقطة جديدة حرجية في كيفية رؤية الماضي الإفريقي.. وكذلك سيكون للعدد المتراكم من الوثائق أهميته في تحديد الرؤية الجديدة التي ستنعقد على هذه الوثائق. واننا ندعو بشدة إلى إعادة قراءة العديد من النصوص التي تم استغلالها في القرن التاسع عشر في عهد الاستعمار، وإلى تطهيرها من كل حكم مسبق مضى عهده واضفاء طابع المسيرة الداخلية عليها. ونذكر مثلا أنه لا ينبغي التهاون بالمصادر المكتوبة بالكتابة الصحراوية الجنوبية، (فاي، باموم، عجمي).

### علم الآثار

كثيرا ما تكون الشواهد الصامته التي أظهرها علم الآثار أفصح من الشهود الرسميين المتمثلين في بعض مصنفي التواريخ، وعلم الآثار قد أحرز كثيرا من الجدارة من قبل التاريخ الإفريقي من جراء مكتشفاته الرائعة ولا سيما (ما يرجع إلى عدة آلاف من آلاف السنين من ماضي إفريقيا) حيث لم يتوفر وجود أخبار شفاهية أو كتابية. فالأشياء الشواهد وحدها، المدفونة مع من تشهد لهم، تحفظ من وراء الكفن الثقيل الذي غلفت به أموات الأرض، ماضيا لا وجه له ولا صوت، وبعض هذه الأشياء الشواهد تدل دلالة متميزة على معالم ومعايير الحضارة، مثل أدوات الحديد وصناعاتها والخزفيات وطرق إنتاجها ونماذجها ومصنوعات البلور والكتابات والأقلام التي ضبطتها، وتقنيات البحارة والصيد البحري، والنسيج والمنتجات الغذائية، وكذلك بنيات شكل الأرض وهياكل الري والأوضاع النباتية التابعة لتطور الإقليم.. وفي لغة اللقى الأثرية، بطبيعتها، شيء من الموضوعية التي لا

(٦) انظر يونسكو: مجموعة مختارة من نصوص عربية مستمدة من وثائق مغربية بقلم الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني. س ش: ن س: ٢٩٤.

(٧) انظر دراسات مالية. أ. س. ه. م. عدد ٣ سبتمبر ١٩٧٢.

(٨) ب. ج. مرتان ١٩٦٩ ص ١٥ - ٢٧.

تزد، فدراسة نماذج الحرفيات مثلاً ومصنوعات العظم والمعدن في الصحراء النيجرية التشادية، تقيم الدليل على الارتباط بين شعوب قبل الاسلام (ساو) في حوض التشاد، وبين المجالات الثقافية الممتدة حتى النيل والصحراء الليبية. ان تماثيل صغيرة من صلصال مشوي، ذات حائل متقاطعة، وزينات بدنية على التماثيل تحمل أشكال الأوعية والأساور والرماح والعظام ورؤوس السهام أو شوكلاتها وسكاكين الرماية، كل ذلك يحكي ما بينها من قرابة الأواصر الحية في الزمن الماضي من وراء المنظور المعاصر، وقد أناخ عليها الجموع والعزلة بكلكها (٩). ان تحديد المواطن الاثرية الافريقية وتصنيفها وحمايتها تفرض نفسها كأولوية متأكدة جداً قبل أن ينهاها المفسدون أو الجهال غير المسؤولين، والسياح المجردون من نية العلم فيبدونها ويجردونها من كل قيمة تاريخية جدية. ولكن استغلال هذه المواقع الاثرية بواسطة مشاريع ذات أولوية للتنقيب على مستوى فسيح، لن ينمو الا في اطار برامج مشتركة افريقية يعاضدها تعاون دولي قوي.

### النقل الشفاهي

الى جانب المصدرين الأولين للتاريخ الافريقي، أي الوثائق المكتوبة وعلم الآثار يبدو النقل الشفاهي، الحافظ والحامل لرأس مال الايداعات الاجتماعية الثقافية الذي جمعه الشعوب التي لم تستخدم الكتابة بعد: فهو حقاً متحف حي. والخبر التاريخي هو مجرد خيط عنكبوتي له من الهشاشة ما لا يمكنه من اجتياز السرايب المظلمة في متاهات الزمان، يحمله القدامى ممن ابيضت رؤوسهم وتقطع صوته و اغبرت احيانا ذاكرتهم، ممن لا تسامح لديهم في آداب السلوك (للشيخوخة الاستحقاق): فهم أجداد بالقوة.. وهم بمثابة جزيرات أخيرة متبقية من منظر كان قديماً قائماً، يدعمه في عناصره جمعاء نظام دقيق، انجرف اليوم وتطرق وصرعته أمواج «المعاصرة» الحادة. وأصبح من المتحجرات المؤجلة.

وكلما اختفى أحدهم، تقطع سلك من الخيط وهو جزء من المنظر الذي يصير تحت الارض. ذلك أن النقل الشفاهي هو المصدر التاريخي الأكثر لفة وهو أعذب المصادر، وما يغذيه، أكثر من غيره، رواء الصدق. يقول مثل افريقي «فم الشيخ أبخر لكنه يتفوه بالأمر الطيبة المنجية»، والكتابة مهما كانت مفيدة تتجمد وتتيبس، وهي تضني وتشرح وتختزل وتتججر. والحرف يقتل. الخبر يكسو هيكل الماضي لحماً وألواناً ويرويهِ دماً — وهو يعرض في مدى الأبعاد الثلاثة ما انطبق كثيراً على سطح ذي بعدين من صفيحة ورقة. ان فرح أم (سندجاتا) اذ اضطربت لبرء ابنها المفاجئ، مازال يرن في صوت سحرة مالي الجمهوري الحار. أجل، انه من اللازم اقتحام الكثير من العقبات لتصفية مادة النقل الشفاهي وغرلة جبوب الوقائع من تبن الكلمات الفخوخ، مما يشبه النوافذ الكاذبة التي تقام قصد التناظر، وتجاوز زيف العبارات وبريقها، والتي لبست الغلاف الظرفي للرسالة الآتية من بعيد.

لقد قيل إن الخبر المتواتر لا يوثق به اذ هو وظائف، كذلك فان أي رسالة بشرية بحسب تعريفها ليس وظائفية، بما في ذلك وثائق المخطوطات، وهي بمجمودها ذاته وتحت حيادها الموضوعي الظاهر كم تحفي من أكاذيب لما أغفلته ومع ذلك فهي تكسو الخطأ بصيغة الاحترام. مما لا شك فيه أن الخبر وبخاصة الحماسي منه، هو اعادة خلق شبه اسطوري للماضي، هو نوع

من التثليل النفساني يكشف للمجموعة جذورها ومجموعة القيم التي تدعم شخصيتها، هوزاد سخري لقصد العودة على نهر الزمان نحو مملكة الأجداد، ولذا لا يطابق القول الحماسي مطابقة مدقة الخبر التاريخي، بل هو يمتطيه مسقطاً آياه اسقاطات فات وقتها من قبل، ومن بعد بالنسبة الى الزمان الواقعي، مصادماً معه اصطدامات شبيهة بتلاشي التضاريس في الآثار. ولكن هل تتخلص الكتابات نفسها من هذه التداخلات اللغوية؟ وفي هذا كما في غيره يجب البحث عن الكلمة المتحجرة الموجهة. وينبغي اذا أمكن أن نجهز أنفسنا بكاشف المعدن الخالص، لخراج الشوائب والخبث.

نعم، يمثل وهن التسلسل التاريخي موطن الضعف الحقيقي في الخطاب الملحمي، واللقطات الزمانية المبعثرة تكون تركيباً معقداً لا تأتينا منه صورة الماضي واضحة مستقرة كما تأتينا من المرأة البصالحه، ولكنها كالحيال الخاطف الراقص على الماء المضطرب، ومعدل عمر الممالك أو الأجيال من الأمور التي يشتد فيها الخلاف، حيث لا يوثق كثيراً بالاستكالات المستمدة في الفترات الحديثة، ولو من جراء التحولات العمرانية والسياسية. فأحياناً يستقطب ملك فذ، كالمغنطيس، الوقائع السابقة التي حدثت لسابقه وتابعيه وقد اختفت صورتهم تماماً، ومن بين هؤلاء سلالة ملوك روندا، ومثل الملك دامنزن ملك سيقو (أوائل القرن التاسع عشر) اذ ينسب اليه السحرة كل فتح عظيم في هذه المملكة.

وعدا ذلك فإن النص الادبي الشفاهي اذا ما اخرج من سياقه يكون كالسمكة خارج الماء فيموت ويتحلل. واذا ما عزل الخبر يكون كذلك الاقنعة الافريقية المقتلعة من الرسوم الدينية التي يقوم بها المؤمنون، فتعرض كي يطلع عليها العالمين. فيفقد مضمونه ومعناه وحياته. على أن الخبر بطبيعته — اذ تحمله دائماً شهود جدد كلفوا بنقله — فهو يلائم انتظار مستمعين جدد، ملازمة تتعلق خاصة بنقل الرسالة، الا أنه لا يبقى المحتوى على حاله. ألسنا نرى أيضاً منتفعي أو مرتزقة الخبر يعرضون عند الطلب نسخاً من النصوص المكتوبة، يلقي بها من جديد في سياق الخبر المنقول!

وأخيراً كثيراً ما يكون محتوى الرسالة نفسه مستغلقاً بل مستبطناً، والكلمة عند الافريقى ثقيلة، وهي قوة ذات حدين في امكانها الفعل والنقض، وفي امكانها أن تحمل الشرور، ولذا لا يتلفظ بها بوضوح ومباشرة، بل تحيط بها الأمثال والتلميحات والمعاني الحفية والأمثال الواضحة والمغلقة بالنسبة الى العامة، لكنها نيرة عند من أوتي حساسية استشعار الحكمة. وفي افريقيا الكلمة الثقيلة لا تبثذل، وكلما ارتفعت منزلة الانسان وسلطانه كلما قلل من الحديث بين العموم. فاذا ما قيل لشخص: «أكلت الضفدع ورميت برأسه» فيعلم حالاً أنه اتهم بالتخلص من بعض مسؤولياته (١٠)، وهذا الاستغلال المتمثل في «نصف القول» يدل على قيمة الخبر الشفاهي الفائقة وعلى حدودها، اذ يكاد يكون من المتعذر نقل قيمته كاملة من لغة الى أخرى، ولا سيما اذا كانت اللغة المنقول اليها غريبة عن الأولى بنية ومجتمعاً. ولا يتحمل الخبر الترجمة الا قليلاً جداً، فاذا ما اقتلع من وسطه فقد نسفه وأصلته، ذلك أن اللغة هي «بيت الوجود» والعديد من الأخطاء المنسوبة الى الخبر، انما هي ناشئة عن مترجم عاجز أو غير مسؤول.

ومهما يكن من أمر، فلقد قام على شرعية الخبر الشفاهي الدليل اليوم بصورة وثيقة ويؤكد تأكيدا واسعا ما يقابل به مع مصادر أثرية أو كتابية، كما هو شأن موقع «كمي - صالح»، وأنقاض بحيرة «كيسال»، أو أحداث القرن السادس عشر التي نقلتها «الشونا»، والتي أثبت د. ب. ابراهم مطابقتها لكتابات الرحالة البرتغاليين في ذلك الزمن.

والخلاصة أن سرد الخبر، سواء كان ملحميا أو نثريا أو تعليميا أو أخلاقيا، قد يكون تاريخيا أيضا من أوجه نظر ثلاثة. أولا هو يكشف عن مجموعة من العادات والقيم التي تحرك شعبا وتحكم في أعماله المقبلة بتمثله نماذج الأمم. وهكذا فإن الملحمة تعكس التاريخ ولكنها أيضا تخلقه. فإذا ما توجه الإنسان الى دامنزن قائلا: «يا مولى المياه ومولى البشر» فهو يقرر بذلك طابع سلطان دامنزن المطلق، على أن الأقصوصات عنها ترينا اياه مستشارا بلا انقطاع، من جنوده وكهنته ونسائه (١١). ومعنى الشرف والسمة يتضح في الجواب الشهير في «نشد القوس» مجدا سندياتا (سندياتا فاسا) «سابا كوسا ملويا» (١٢). وتكشف هذه القيمة عن نفسها أيضا في فصل مائة «بكري ديان» على «بولس الكرنارني»، فلقد انعزل البطل بكري ديان في قريته (دنقورنقو) وتوسل الناس اليه أن يرجع على رأس جيوش (سيقو). فسلم في النهاية حين مسوا وتره الحساس، وتر الكبير ياء والمجد: «عليك أن تتناسى ما وقع تبادلته من الكلام القديم، عليك الآن أن تنظر الى اسمك، فتحن نأتي هذه الدنيا لنكتب اسما، وإذا ما أنت ولدت وترعرت وميت بدون اسم، فانك تكون قد جثت عبثا وانصرفت عبثا» فيصبح قائلا: «يا كهنة (سيقو)، اذ أنتم أتيتم فلن يكون ثمة مستحيل. وسأفعل ما تطلبون في سبيل سمعتي، ولن أفعل ذلك في سبيل (دامنزن) ولن أفعله لأي كان في (سيقو)، سأفعل فقط من أجل سمعتي، وحتى بعد مماتي سيضاف فعلي الى اسمي».

وأذكر أيضا هذه النكتة الحضارية الحقوقية، قال سلامكا: «انكم لمحوظون اذ حرم علي أن أقتل الرسل».

وعلى ذلك فإن إعادة تركيب الماضي بعيدة أن تكون خيالية تماما، في الماضي شرائح من الذكريات ومسالك من التاريخ كثيرا ما تكون أشد التصاقا بالمألوف من تزويقات الخيال الملحمي الملونة: «وهكذا نشأت منظمة الرعاية الجماعية هذه في مدن (مبرا). وان اصطفت وصرت راعيا فقد صرت (بولس) عموميا وكان البوالسة العموميون يرعون قطعان الملك، وكانوا رجالا من جنسيات مختلفة، وكان رئيس الرعاية فيهم يسمى «بنكي» أو هكذا: «في ذلك العهد لم يكن الناس ينتعلون الأحذية بل سمارات من جلد البقر المدبوغ، في أنفها حبل حول إبهام الرجل وفي العرقوب حبل». وأخيرا ان القصة الملحمية تلونها تلميحات الى الصنائع والأشياء ليست أساسية في سير الحديث، الا أنها تشير الى بيئة الحياة «أرسل (دامنزن) ستين من ملاحه جذعية سومونو، ثلاثين في مقدم الجذعية وثلاثين في مؤخرتها، وكانت الجذعية مزينة بأفخر الزينات» «هيئت السلام ونصبت على السور وتسلقها صيادو (سيقو) مهاجرين وتسلكوا الى المدينة... ورمى خيالة (سيقو)

(١١) نظري. كسطوط، ج ١ - ٣ - ٤.

(١٢) الموت أفضل من العار

بسبهم ملتبه. واشتعلت النيران في بيوت القرية»، «وتأهبت ساران، المرأة المولعة بدامزن، لتبلى بارود بندقيات محاربي كوري».

ويمارس المؤرخ تشخيصا مدققا يصل أحيانا الى التحليل النفسي، لهوس الجمهور أو ناقلي الأخبار، محاولا ادراك زبدة الواقع التاريخي.

وتعدد الروايات المنقولة من قبل فرق متناوثة، كما تم عند كهنة موالى سيد شريف (هوروت، دياتيني) لايشكل عامل نقص بل هو ضمان اضافي للنقد التاريخي. أما توافق الروايات، كما في صورة كهنة مبارا وبولس المنتمين الى شقين متعادين، فانه يبرز بروزا خاصا صدق هذا الشاهد، وكما يبدو من جالة «الكوروا» الذين تربط بينهم تقاليد باطنية متحررة اندماجية تتناقلها الأجيال، وتتعايش مع تقليد الجمعية السرية الباطني الفوضوي. إن الخبر التاريخي بما له من توليدات متعددة يتضمن عناصر للنقد الذاتي. وذلك أنه ليس ملكا خاصا بل ملك مشاعا تسأل عنه زمرات مختلفة من المجتمع، والمهم أن يعتني بالنقد الداخلي لهذه الوثائق وذلك بمعرفة دقيقة للأسلوب الأدبي المستعمل، بموضوعه وأساليبه ورموزه وقوابله وعبارات الحشوفيه والاستطرادات الاصطلاحية، واللغة في تطورها والجمهور وما ينتظره من الكاتب التقليدي. وينبغي خاصة الاعتناء بالطبقة الشعبية التي ينتمي اليها هؤلاء وقواعد عيشها وتكوينها ومثلها ومدارسها. ومن المعلوم مثلا أنه في مالي وغينيا وجدت مدارس حقيقية للمعارف الأولية منذ قرون، كذلك الأمر في كيتا ونياقسولا ونياني الخ.

وهذا التقليد الصامد المقتن الوضعي هو عادة. أقوى بنية، وأشد دعما من موسيقى البلاط التي تتجسم فيه، وترتله على فقرات تعليمية وفنية. وبعض الآلات المستعملة، كالسوسوبلا (بالافون سوما أوروكنتي) مازالت هي عنها كعملمة تستحق ان يبحث فيها بحثا أثريا.

الا أن الأواصرين نماذج آلات الموسيقى ونماذج الموسيقى والأناشيد والرقصات، تمثل عالما دقيق التنظيم، تميز به بسهولة، البدع والملحقات المضافة مؤخرا.

وهكذا فلكل فن أدبي شفاهي آله الخاصة في كل منطقة ثقافية، الآلة الخشبية (بالا) والبولون (قانون — عود) للملحمة مندق، وبندري الموسيقى. (طبل ضخمة مدور ذو وجه واحد، مقطوع من ثمرة الدباء يضرب عليه بالأكف العارية) للتحميس، في جو كثيرا ما يكون صامتا، واسامي الحرب (زابويوا) للملوك، والميات (قيثارة) لشعراء الفنك الموسيقيين في ملحمتهم الاستوائية، هذه الآلات تحمل الكلمة التاريخية فتقدها وتقدها، فهي تتحد مع الفنان في الواقع، ومكانتها تزداد أهمية في أداء الرسالة، بفضل لغات ذات جرس تصير بها الموسيقى مركزة بصورة مباشرة، وتصير الآلة صوت الفنان دون أن يضطر هذا الى التفوه بكلمة واحدة. ويصير هذا الايقاع النغمي الثلاثي، من الكثافة والاستمرار موسيقى ذات دلالة داخل هذا الضرب من «الدلالة — الترفية» التي تحدث عنها مارسيل جوس. والحق أن الموسيقى صارت جزءا من التقاليد، اذ لا يمكن أن تنقل بعض الأفاصيص الا في الشكل الغنائي، والأنشودة الشعبية نفسها التي تتم عن نبض «الارادة العامة» في شكل هجائي يحتد أحيانا التهكم القائم فيه، والذي يبقى حيويا حتى خلال الحملات الانتخابية في القرن العشرين، هو نوع نفيس يعدل ما ترويه «الوثائق» الرسمية ويكملها.

وما قيل هنا عن الموسيقى ينطبق تماما على وسائل أخرى للتعبير، كالفنون التشكيلية التي تقدم لنا نتائجها أحيانا، كما في ممالك أبوماي وبنين (حفر بارز) أو في بلاد كوبا (تماثيل) وفيها التعبير المباشر للأشخاص والأحداث أو للثقافات التاريخية.

وباختصار ان الخبر الشفاهي ليس مجرد مصدر يلجأ اليه في آخر المرحلة حين يضطربنا اليأس من غيره، بل هو مصدر له حظ كامل ومنهجية تم الآن إرساؤها، ثم هو يوفر لتاريخ القارة الافريقية أصالة قوية.

### علم اللغات

ليس علم اللغات علما مساعدا للتاريخ الافريقي، بل هو اختصاص يسير بالتاريخ مباشرة إلى صميم موضوعه، وينقف على ذلك بوضوح في مثال النوبة التي غابت وراء صمت مزدوج، صمت أطلال (ميروي) الكشيف، وصمت الخط الميروتي الذي لم يكشف سره اذ بقيت اللغة مجهولة (١٣).

لا شك أن هناك أمورا كثيرة يجب القيام بها في هذا المجال، بدء من اثبات اللغات اثباتا علميا، فلا ينبغي أن يضحى بالعمل الوصفي لفائدة العمل التنظيري والتأليفي بدعوى التصنيفية والتوليد. ان التحليل القاسي المدقق للغة ما بها لها من مميزات في الأحرف الصوتية وأحرف المد والجرس، وبما لها من حرية التوليفات في الرسوم التخطيطية المركبة التعبير، وبما لها من مدلول عاشه المتلفظون به في مجتمع محدد (١٤)، هذا التحليل يمكن من بناء استكمالات للماضي، هي عملية عسيرة لعدم وجود عمق تاريخي لمعرفة هذه اللغات، اذ ليس في الامكان قياسها على غيرها الا ابتداء من الطبقة المعاصرة بواسطة طريقة التزامن، وهذا الأساس لا بد منه لكل تأليف تطوري توليدي. ان الأمر صعب، وليس غريبا ان وجدت صراعات علمية هنا وهناك، خاصة في مادة البانتوية. «فلكولم قشري» يقرر نظرية التكوين الذاتي، بينما يدافع «جوزيف غرينبرغ» ببراءة عن نظرية تقول إنه يجب أن توضع اللغات البانتوية في إطار قاري أكثر اتساعا. ويرر هذا الإطار، بأواصر ليست من باب التشابه العرضي الناشئ عن التأثيرات الخارجية، بل بأواصر قرابة وراثية ذاتية، يكشف عنها الشبه في الضمائر، وفي المفردات الأساسية وفي الخواص النحوية، كنظام الأصناف الاسمية، فيما بين مئات من اللغات من (الولوف) الى (البانكا) (جمهورية السودان). وليس كل هذا الجدل عند المؤرخ، محض تمارين مدرسية. فنحن نرى مثلا أن مصنفنا يعتمد على توزيع مجموعات الألفاظ المتشابهة التي تدل على معنى الحروف في افريقيا الوسطى على حافة الغابة، يلاحظ أن هذه المجموعات المتجانسة لا تخترق الحافة النباتية بل تنشر موازية لها، مما يوحي أن هذه الأغنام تنتشر حسب المنطقتين الجغرافيتين الملاصقتين للسهل والغابة، بينما تترتب الصورة اللسانية في الشرق على امتداد شرائط طولانية من افريقيا الشرقية الى افريقيا الجنوبية، مما يدعو إلى فرض وجود طريق يتدخل عموديا على الأول، ويوضح، بقياس التقابل، الدور المعطل للغاية في نقل التقنيات (١٥). ولكن هذا الدور يختلف باختلاف التقنيات، وباختصار ان الدراسات اللسانية تبرهن أن طرقات

(١٣) نظمت اليونسكو سنة ١٩٧٤ ملتقى علميا للكشف عن هذه اللغة الافريقية.

(١٤) انظر موريس هويس ١٩٧١ ص ٤٥.

(١٥) انظر كرمستوف اهرت ١٩٦٣ ص ٢١٣ - ٢٢١.



النزوح ومسارها، وأن انتشار الثقافات المادية والروحية، مرتبط بانتشار الألفاظ المتقاربة. وهذا يدل على أهمية التحليل اللساني التطوري وأهمية التسلسل الصوتي عند المؤرخ الذي يريد أن يقف على حركية التطور واتجاهه.

وهكذا أوضح ج. غرينبرغ ما أتى به «الكنوري» للهوسا من المصطلحات الثقافية ومن الفن الحربي، مما يظهر تأثير الامبراطورية البرنوانية في تطور ممالك الهوسا، وبخاصة ألقاب الممالك البرنوانية القريبة من ألفاظ كاموري، مثل كيقاما، ماجيرا الخ.. التي انتشرت انتشارا ملحوظا حتى في قلب الكرون والنيجيريا، وثمة دراسة نظامية لأسماء الأماكن وأسماء الأشخاص من شأنها أن تقدم دلالات محددة، شريطة أن يعاد النظر في هذه الأسماء عن طريق نظرة محلية. وذلك أن كثيرا من الأسماء قد تم تحريفه بسبب النطق به أو كتابته بكتابة أجنبية من قبل غير الأفريقيين، أو من قبل افريقيين استخدموا تراجمة وكتابا أجنبيا، ويبقى اصطيد اللفظ الصحيح حتى ولو استقر بالكتابة منذ قرون عملا من الأعمال الأشد تشعبا بالنسبة للنقد التاريخي الإفريقي.

مثال: ان لفظ (قاوفا) الذي استعمله ليون الافريقي للدلالة على مملكة السودان، كثيرا ما قرون بلفظ (قاو)، ولكن تحليل اسم المكان هذا بالاعتماد على لغة التيدا والكانوري يمكننا من تعيين موقع مملكة (القاوفا) بين الوادي (تشاد) والدارفور (السودان) والفريت (افريقيا الوسطى) (١٦). وأما الرجوع الى التتبعين بلد الأصل للعديد من الأسر المالكة السودانية، فلقد أعيد النظر فيه بصورة جدية من قبل هـ. ز. بلنر: ولا ينبغي لنا أن نفسر لفظ مين حسب ما يذكره مؤرخو المسلمين من معنى ديني يتجه نحو منطقة «العربية السعيدة»، بل الاحالة الى البلد القديم (منه مين)؟ (١٧). ويبدو النظر في المعجم السواحلي المحيى بألفاظ من أصل عربي، وفي معجم بلدان الساحل الشرقي الملغاشي (انتييمورو انتالوترا، انوزي) المعمورين بالتيارات العربية، سيكشف عن معلومات جديدة أن يستمد منها المؤرخ.

وعلى كل ان (علم اللغات) أو اللسانية التي كان لها فضل على التاريخ الافريقي، يجب أن تنتزع منذ البداية الاحتقار العنصري الذي اصطفت به اللسانية الافريقية التي خزرها أ. شليقل وأوغست شليشر، وعندهما: «ان لغات الاسرة الهندية الاوربية في قمة التطور ولغات السود في أسفل درجة من السلم، على أنه فيما يظن أن هذه اللغات قد يكون لها أهمية في عرض وضع قريب من الوضع الأصلي للغة، حيث كانت اللغات بدون نحو والكلام مكون من سلسلة كلمات ذات المقطع الواحد، ويقتصر المعجم على كشف أولي للألفاظ» (١٨).

### علم الانسان وعلم اللغات

وتبقى الملاحظة نفسها مقبولة في مجال علم الانسان وعلم الأجناس. والواقع أن الكلام

(١٦) انظر بيار كلك ١٩٧٢ ص ٥٢٩ — ٥٤٨.

(١٧) انظر أبو الدريج محمدو ص ١٣٠ — ١٥٥.

(١٨) انظر ج. هويس، ١٩٧١، ص ٢٧.

الاجتناسي (١٩) كان بطبيعة الحال، كلاهما ذا دلالة واضحة التمييز والعنصرية وذا نتائج سياسية واضحة، وبينهما ممارسة «علمية» غامضة بالطبع.

وأهم فرضياته المسبقة كانت التطور الخطي، وعلى رأس القافلة البشرية أوربا رائدة الحضارة، وفي المؤخرة، «الأقوام» البدائية في الاقيانوس وبلاد الأمازون وافر يقيا. فكيف يمكن أن يكون الانسان هنديا، أسود، بابو أو غريبا؟ «فالغير» هو متأخر متوحش بربري على درجات، وهو مختلف دائما. ولذلك كان موضوع اهتمام الباحث أو مجال نهم المعالج. فالانتولوجيا تلقت تفويضا عاما لتصبح وزارة للفضول الأوربي، إزاء «مواطنينا». إن النظر الإنتروبولوجي يتمتع بحالات البؤس والعراء، والفلكلور كثيرا ما كان ساديا شهوانيا، وفي أحسن الظروف يتظاهر ببعض العواطف الأبوية. وكانت المذكرات والتقارير الناشئة عن هذه النظرة، إلا ما شذ منها، تبرر الوضع الراهن وكانت تعمل على «إنماء التخلف في النمو» (٢٠). فالنظرية التطورية التي جاء بها داروين، رغم مزاياها الرفيعة الأخرى، والانتشارية في اتجاه واحد التي طالما نظرت الى افر يقيا كموطن خامل للاكتشافات الأخرى، وأخيرا وظائفية مالتينوفسكي وراد كليف براون التي كانت تحجب كل بعد تاريخي للمجتمعات البدائية، كل هذه المدارس كانت بالطبع تتعاطف مع الوضع الاستعماري الذي كانت تنمويه كما لو كانت في تربة خصبة (٢١).

ونظرتها، التي فقدت قيمتها في النهاية في تفهم المجتمعات النائية الخارجية، تجردت من الجدارة أيضا، إذ أن المجتمعات التي اهتمت بها بصورة خاصة كانت بالفعل أكثر المجتمعات شذوذا، أعني نماذج من البشرية استقرت في البدائية، بينما كانت هي لا تمثل سوى جرائم لا يستهان بدورها التاريخي، بل هو أحيانا دور هام، إلا أنه في أغلب الأحيان، هامشي بالنسبة الى المجموعات الاجتماعية السياسية الأشد قوة والأكثر عراقة في تيار التاريخ.

وهكذا فلقد رمز الى جميع افر يقيا بصور قد كان الأفارقة أنفسهم يستغربونها، تماما كما لو شخصت أوربا في بداية القرن العشرين باستعمال الخوان والمسكن أو بالمستوى التقني في مجموعات بريطانيا الداخلية أو في الكنطال أو سردينيا.

على أن الطريقة الانتولوجية انما تعتمد على الاستقصاء الفردي الموسوم بميسم التجربة الذاتية الشامة، لأنه مكثف، ولكنها تامة في مستوى الانسان فقط وتؤول الى نتائج «موضوعية» هزيلة جدا اذا ما زعم استكمالها من الخارج.

وأخيرا فان موضوع الانتولوجية نفسه من جراء جدلية حتمية، وبتأثير الاستعمار، قد تضاعل

(١٩) خصص لفظ جنس الى الشعوب المعروفة بانعدام الكتابات فتضمن منذ البداية رأيا مسبقا عنصريا، يقول كليمان مارو في القرن ١٦ «وثني أو جنسي» الانتوغرافيا جمع وصفي للوثائق — الانتولوجيا هي عين التأليف النظري.

(٢٠) انظر ج. كوينس، ١٩٧١ ص ٤٥ «المذهبية الاستعمارية والانتولوجيا ترتفع الى عين التشكيك، ويوجد بين هاتين المرتبتين من الظواهر، عمل مشترك يتحكم في غوه النسبي».

(٢١) انظر ج. وفي ١٩٧٧ ص ٤٢٩ «انه يشبه الداروينية الشقافية التي توحى الى الفكر في القرن ١٩؛ الانتروبولوجية تبرر الاستعمار، فلا يكون هذا ثمرة ظرف سياسي بل نتاج بنية بيولوجية، أي صورة خاصة من المزاج الطبيعية. وانتروبولوجيا القرن التاسع عشر تريح ضمير أوربا الامبريالية».

شيئا فشيئا. والشعوب البدائية التي كانت تعيش من جني الثمار والصيد، اذا لم يكن من «أكل البشر»، تحولت شيئا فشيئا الى الطبقة الكادحة المتنقلة من المراكز المحيطية، في نظام عالمي للانتاج، أقطابه يقيمون في نصف الكرة الأرضية الشمالية.

وكان العمل الاستعماري يلتهم و يستهلك موضوعه ذاته، فلذا قرر أولئك الذين وضعوا الأفارقة في قائمة الأشياء، ان يشرعوا في محاولة مبادهة، لصنع التاريخ، زاعمين أنه في بعض الأوجه، ليس البدائيون كما حسبوا.

وبعيدا عن حكم سابق، وفي الوقت نفسه، فإن الباحثين الذين عملوا على كشف خيط التاريخ والوقوف على بنيات أصيلة في المجتمعات الافريقية الدولية أو غيرها، هؤلاء الرواد أمثال فريبنوس ودولافوس وبالروايفانس بريتشارد، قد واصل مساعيهم وأخذها عنهم وأعادها ودققها بماثون آخرون معاصرون. ورأى هؤلاء أنه اذا ما طبقت الأدوات العقلية عينها للعلوم والانسان، واذا ما تمت ملاءمتها للمادة الافريقية، يكون بالامكان أن ندرك نتائج موضوعية. وهكذا نبذت النظريات الفاسدة المستندة اما الى الفرق الوراثي والمادي لمواطنين، واما الى وضعهم البدائي في طريق الحضارة. ويكني أن نعترف أنه اذا كان الكائن الافريقي هو هو الكائن الانسان الناطق، فان «وجودهم في العالم» مختلف. وعندها يمكن شحذ أدوات جديدة للوقوف على تطورهم الفريد.

وفي نفس الوقت فان النظرة الماركسية، على أن لا تكون عقائدية، ونظرة لبني ستراوس البنيوية، تأتيان أيضا بوجهات نظر مقبولة، ولكنها متباينة فيما يخص تطور الشعوب المعروفة بانعدام الكتابة فيها. فالطريقة الماركسية والتي تقوم على أساس تاريخي، تعتبر التاريخ ضميرا جماعيا في العمل، وهي تؤكد كثيرا على القوى المنتجة وعلاقة الانتاج، كما تؤكد على البراكسيس (السلوك) والنظم، بينما ترمي الطريقة البنيوية الى ممارسة الآلية اللاشعورية ولكن المنطقية، وممارسة المجموعات المنسقة التي تؤثر عمل العقول والمجتمعات وتؤطرها. ونأمل أن تكون الانتروبولوجيا المرتوية من منابع جديدة، شيئا مغايرا لعنقاء تظهر فجأة، لضرورة الحالة، من رماد بعض الانتولوجيات (٢٢).

على الانتروبولوجيا اذن أن تنقد مسلكتها الخاص، وأن تؤكد كل التأكيد على المثل وعلى التطبيقات، والا تتداخل عندها العلاقات الاجتماعية التي يمكن أن تتكشف بالتجربة، بالبنيات التي توترها، وبذلك تُغني الواحد بالآخر، المثل والبنيات والآراء، مستخدمة بكثرة التقنيات الكمية والجماعية الخاصة بالبحث، بمنطقة الكلام جاعلة اياه موضوعيا. وتهم التفاعلات بين العوامل الانتروبولوجيا على الخصوص، وكذلك التأليف التاريخي. وتشاهد مثلا تقابلات بين المسالك التجارية التي يوجد عليها امتياز ملكي من جهة، وبين الأشكال السياسية المتمركزة من جهة أخرى: (غانة والمالي القديمين، وفي امبراطورية اشتطبي في القرن الثامن عشر وفي مملكة لندا بالزاير الخ) بينما في التجربة العكسية الحاسمة خلافا للنقوندو (والزولو)، وهي شعوب لها عين اللغات

(٢٢) تكون السوسولوجيا علما اجتماعيا داخليا في نظر العالم المعاصر، بينما تكون الانتروبولوجيا نظرة مقارنة (بين المجتمعات)، ولكن أليس في ذلك احياء للأصناف. الفرق القابلة للجدال يتبعها من تاريخ جنسي وآثار—جنسية ونبات—جنسي ورياضيات—جنسية.

وعين العوائد (النياكوسا والكوسا) ولكنها تعيش بمعزل عن هذه التيارات، لم تبلغ مرحلة الملكية (٢٣). وقد نحاول أن نستنتج من ذلك شبه «قانون» انتروبولوجي أو سوسولوجي سياسي. ثم إن بنيات القرابة قد ينتجم عنها عدد من الآثار الهامة في تحديد التطور التاريخي. فإذا التقت مجموعتان من اللغات المتبانية، فإن لغة القرآن بينها تقرر اللغة التي يكون لها التفوق، إذ أن لغة الأم لا يمكن أن تغلب إلا إذا اتخذت النسوة زوجات لا اماء وجواري. وهكذا فإن المجموعات «نقوني» تحتفظ بلغتها الأصلية، بينما فقد البعض الآخر ممن اتخذوا أزواجا «سوتو»، لغتهم لفائدة السوتو. كذلك شأن رعاة الفلاتيين القادمين من مسينا ومن فوطا جالون الذين تزوجوا منديقات وأنشأوا مقاطعة «واسولو» فلم يبق لهم من الفلاتيين سوى الاسم، وسوى بعض الملامح الطبيعية، فلقد أضاعوا لغتهم الأصلية لفائدة المالنكي أو (لمبرا).

إن أهم مصادر التاريخ الافريقي التي أشرنا إليها آنفا ليس بالامكان تصنيفها مسبقا حسب سلم قيم يمكن أن يفضل باستمرار واحدة أو أخرى من بينها، ومن الواجب أن ينظر في كل حالة على حدة، فليس الأمر، أمر شواهد من أجناس متبانية تباينا تاما، إذ أن كل ذلك يستجيب لتعريف الاشارات التي أتت من الماضي، حاملة الرسالات، فهي اذن ليست محايدة بل هي تجسم نوايا صريحة أو ضمنية.

وهكذا تخضع جميع هذه المصادر للنقد المنهجي بحسب الصور، فقد يحتل كل منها المحل الأفضل، وقد يؤدي كل منها الى الأنواع الأخرى. فالخبر الشفاهي مثلا، كثيرا ما ساق الى موقع أئري، بل في وسعه أن يوازن بين بعض الوثائق المكتوبة.

فالمؤرخ الكبير ابن خلدون مثلا في كتابه «تاريخ البربر» يقول عن سندجاتا: «وخلفه ابنه منسا والي، ومنسا في لغتهم الكتابية تعني سلطان، والي يقابل عليا» بينما يفسر التقليديون اليوم «منسا والي» بمعنى «الملك ذو البشرة البيضاء».

### المبادئ الأربعة الكبرى

وإذا ما أردنا أن نحدد حدا جديدا للجهة الرائدة في تدوين التاريخ الافريقي، لابد أن يتحكم في البحث أربعة مبادئ كبيرة.

أولا: اشتراك الاختصاصات وهو من الأهمية بدرجة تجعلنا نعتبره في ذاته مصدرا متميزا. فالسوسولوجيا السياسية إذا طبقت على الرواية الشفاهية في مملكة سيقو فهي تثري النظرة اثرءا عظيما، ولولاها لاقتصرت على خطوط هزيلة من شجرة نسب عليها بعض المآثر المتحجرة. ويلوح التشعب والتداخل بين بنيات مقولبت على الهيمنات القديمة (النموذج المالي) وعلى واقعها الملموس الحي. وفي بلدان الدلتا النيجرية تمكنت الروايات الشفاهية من اكمال عوامل النهضة التي طالما اقتصرت على تأثيرات تجارة النخاسة وزيت النخيل. فثمة علامة وطنية سابقة، من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب، حتى لاغوس وحتى بلد اجويشدها الخبر الشفاهي المؤيد، والذي أغنته بكيفية عجيبة تلميحات (بشيكوبريرا) في الاسمرلندو (٢٤).

(٢٣) انظر طومسون، ١٩٦٩، ص ٧٢ - ٧٣.

(٢٤) انظر ج. الاتوا، ١٩٧٣.

عنصر من الانتروبولوجيا الثقافية (النص التعليمي للرعاة الفلانيين) (٢٥) هو الذي مكن بعض الاخصائيين به ما قبل التاريخ من التفسير الصحيح، لالغاز (رسوم) التاسيلي وما فيها من حيوانات بدون أرجل في اللوحة المدعوة، الشور ذو الافعوان، وحرف « U » السحري لأوان درباوان الخ..

وبعد فاصل يزيد عن ١٠٠٠٠ سنة نرى طقوس اليوم تساعد على معرفة الأخوات الخمس الخرافية من أصل سبعة أبناء للجد الكبير كيكالا، وتطبيقها على الراقصات الخمس البدعية في لوحات جبارين.

ان انتشار البننتو — الذي تشهد به مصادر متطابقة من اللسنية والخبر الشفاهي وعلم الآثار والانتروبولوجيا، وأولى المصادر المكتوبة بالعربية والبرتغالية والانكليزية والافريقية، يصبح واقعا ملموسا يمكن أن يرتب ضمن تأليف، تتدقق حروفه عند تلاقي هذه المستويات المختلفة، وتتلاق حجج اللسنية أيضا مع حجج التكنولوجيا لتؤكد انتشار الصنوج الملكية والنواقيس المتزاوجة للزينة في المناطق الممتدة من افريقيا الغربية الى الزاير السفلى والشحابا وزامبيا. ولكن ثمة براهين أثرية قد تأتي بالطبع بحجج كبيرة القيمة. وتشتد الحاجة الى تكتل المصادر اذا كان الأمر يتعلق بضبط الصعوبات المتعلقة بتاريخ الأحداث. اذ لا يتوفر لنا دائما تحديد التاريخ بطريقة الفحم ١٤. على أنه ينبغي أن تفسر هذه الارشادات وأن تقابل مع معطيات أخرى كالمعادن والفخار (مواد وغاذج)، وليس لدينا دائما شبه ما يوجد في شمال التشاد (٢٦) من أكوام عظيمة من كسور الفخار، يمكننا من انشاء نموذج لسلم زمني على ستة مستويات. وثمة دلالة رائعة تأتي عن تضافر كل المصادر المتوفرة، يمكننا من وضع علم أشكال متطور لأساليب الرسم والفخار. وذلك بمقابلة بعضها ببعض، كي تتضح سلسلة زمنية تمتد عبر ثمانية آلاف من السنين. كل ذلك تدعمه أسبار لدراسة الطبقات وتؤيده تأريخات الفحم ١٤، ودراسة النبات والحيوان والمسكن والرواية الشفاهية (٢٧).

ان خارطة الكسوفات المؤرخة والمرئية بحسب المناطق، قد تمكن من الوقوف على توافقات عجيبة اذا ما كانت هذه الأحداث مرتبطة بملك سلالة واحدة من سلالات الملوك، ولكن التاريخ عادة لا يدرك الا بتعبئة الكثير من المصادر خاصة، وان معدل طول سلطة أو جيل قد تدخل عليه تغيرات، وأن طبيعة العلاقة بين الملوك وأعقابهم ليست دائما واضحة، واذ أن مدلول لفظ ابن ليس دائما بيولوجيا بل اجتماعي، وقد يعطي الملك الواحد أحيانا ثلاثة أو أربعة أسماء أو «القاب»، وكما هو الأمر عند الببا تندمج قائمة المرشحين الى السلطة مع قائمة الرؤساء.

ودون أن ننقص من قيمة تسلسل الأحداث، الذي هو العمود الفقري للمادة التاريخية ودون أن نتخلى عن الجهود المبذولة في سبيل ارسائه على قواعد متينة، نتساءل مع ذلك ما اذا كان من الضروري أن نقع أسرى مرض الدقة مهما كانت التكاليف، اذ سيؤول الأمر الى خطر الوقوع في الدقة المخطئة؟ لماذا نحرص على كتابة عام ١٠٨٦ كتاريخ لسقوط كمي صالح، بينما نستطيع أن

(٢٥) انظر مياتي وجرمان ديتزلان، ١٩٦١.

(٢٦) انظر ايف كوينس، ١٩٦٠ ص ١٢٩ وما بعدها.

(٢٧) أ. بايود، ١٩٦١ ص ٥١ وما بعدها.

نقول «في نهاية القرن الحادي عشر»؟ اذ ليس لكل التواريخ عين القيمة، وما يتطلب حدا من التدقيق، يختلف من حادث الى آخر ويجب أن لا نجعل من كل حدث صنما.

وعدا ذلك فانه من الضروري ان يرجع تيار السياق التاريخي كله في اطار الزمن الافريقي.. وليس لهذا حساسية مرهفة ازاء تركيب معطى الحادث ليصبح تركيبا مفصليا ضمن سلسلة من الأحداث ينشئ أحدها الآخر بموجب السببية والعلية. نعم، ان للافارقة راي في الزمن مرتكز على مبدأ العلية، الا أن هذا المبدأ يطبق بحسب نظم طريقة تسري فيها عدوى الخرافة في السلوك المنطقي وتثنيه، ولا يخلق فيه الطور الاقتصادي الابتدائي الحاجة الى الزمن المرقم، وهي المادة الأولية للربح، وحيث ايقاع الأعمال والأيام تصبح توقيتا كافيا للنشاط البشري، وتكون فيها التقاويم التي ليست مجردة ولا عالمية تابعة للظواهر الطبيعية (هلال، شمس، جفاف) ولحركات الحيوانات والناس، وتحدد كل ساعة بأعمال محسوسة، ففي برندي مثلا: في اماكانا (وقت الحلب: تكون الساعة السابعة) وفي متوروكا (وقت خروج القطعان: هو الساعة الثامنة) وفي كواساز (انتشار الشمس: في الساعة التاسعة) وفي كوماساز (اذا امتدت الشمس على المضاب: فيعني ذلك الساعة العاشرة) الخ.. وفي هذا البلد الريفي يحدد الوقت بحياة الرعي والفلاحة، وفي غيره من البلدان تسمى الأطفال يوم ميلادها وبالحادث الذي سبقه أو تلاه، ومسلمو افريقيا الشمالية قد يسمون أولادهم بأسماء الأشهر التي ولدوا فيها: رمضان، شعبان، مولود.

وهذا التطور الزمني، تاريخي من عدة جوانب، وفي المجتمعات الافريقية الخاضعة لسلطة الشيخ، فكرة الاسبقية في الزمن لها معنى أرجح مما في غيرها، فعليها وحدها تعتمد الحقوق الاجتماعية، كالخطبة في الناس والمساهمة في رقصة مخصصة، وتناول بعض الأطعمة، والزواج واحترام الغير الخ. واذا لم يكن للوليد الأول حق مقصور عليه في خلافة الملك، يكون عدد المرشحين (أعمام، اخوة، أبناء) عددا مرتفعا دائما وللسن دور في المزاخة المفتوحة، مما يجعل للتوقيت والتاريخ أهمية متزايدة، وليس من الضروري أن نعرف أنه ولد في سنة كذا بل المهم أن يثبت الشخص أنه ولد قبل فلان. ولا تتوحد المراجع الدقيقة في المجتمعات الأكثر اتساعا وعمومية.

وليس مفهوم الزمن الاجتماعي جامدا، إذ انه في سياق الفلسفة الافريقية في حركية كل العالم، يكون الأمر دائما أن ينمي الفرد شكله الحيوي، وهو اجتماعي الى أعلى درجة، وهذا ما يتضمن فكرة الرقي في المجموعة وبواسطتها كما يقول بكري ديان: «حتى بعد موتي سيضاف الى اسمي».

وفي بعض اللغات فان اللفظ الواحد (بونيا مثلا بالجمبرا) يدل على عدة معان تدل على العطاء المادي والشرف والنمو.

وحسب الفصول كثيرا ما يعتمد على المشاهدة الفلكية بالنسبة الى سلسلة من المكوّنات كالدب الأعظم، فعند الكومو (الزايير الأعلى) تشبه الثريا بسلة من السواطير، مما ينبئ بزمن شحذ هذه الأدوات لاستصلاح الحقول. وعند الحاجة صار مفهوم الزمن هذا ألصق بالرياضيات: فحزرات من أخشاب خاصة تحفظ كوثائق في كهوف بلدة دوغون، ووضع حبة من التبر كل عام في آنية من

قصدير في معبد العروش في مملكة بونومانسو، أو حصاة في جرة في بيت الملوك في بلد مندنغ، دون أن نذكر بالطبع الآثار الجلييلة في مصر الفرعونية وفي الممالك الاسلامية (كالموحدين مثلاً). وإذا ما ذكرنا صعوبة تحويل متتالية من عصور الملوك الى متتالية من التواريخ، وحتمية الوقوف في نقطة ثابتة تتخذ معلماً، لاحظنا أن هذه النقطة في أغلب الأحيان هي معلم خارجي مؤرخ، مثال ذلك هجوم اشنطي على بونومانسو.

ان استعمال الكتابة والدخول في الديانات المعقدة عالمياً، والتي كانت لديها، تقاوم تقف عند نهاية محددة، كما أن الدخول في عالم المردود وتجميع المال، كل ذلك قد غير شكل مفهوم الزمن التقليدي الا أن هذا المفهوم كان يوافق في عصره، موافقة جيدة، حاجيات المجتمعات المعنية بالأمر. ومن اللازم الحتمي أيضاً أن ينظر الى هذا التاريخ من الداخل، انطلاقاً من قطب افريقي، لا أن يقاس باستمرار بمقياس القيم الأجنبية، إذ أن الوعي الذاتي وحق التمييز مبدآن مسبقان وجوبيان لتكوين شخصية جماعية مستقلة.

ولا شك أن اختيار البحث الذاتي ونظرة، لا تعني أن يقطع قطعاً اصطناعياً ما بين افريقيا وبين القارات الأخرى من العالم القديم والجديد من ارتباطات تاريخية، الا أن هذه الارتباطات سيتم تحليلها على أنها تعويضات تبادلية، وتأثيرات متعددة الجوانب، ستتجلى فيها المساهمات الإيجابية لافريقيا في تطور البشرية. والنظرة التاريخية الافريقية لن تكون نظرة انتقام أو نظرة الرضى عن النفس. بل هي ممارسة حيوية للذاكرة الجماعية تسمح حقل الماضي لتتعرف فيه على جذورها الذاتية.

وبعد العديد من النظرات الخارجية وحتى الاشرطة المعاصرة التي كونت لافريقيا صورة نموجية، تتفق مع المنافع الخارجية، فإن الوقت قد حان لكي تنتشر النظرة الداخلية المتمثلة بالذاتية والأصالة والوعي «عزود الى الوطن» كما يقول جاك برك، كدلالة على الرجوع الى المصادر. وإذا ما نظرنا الى قيمة الفعل والاسم في افريقيا حيث يكاد اسم الشخص أن يصير ملكه، كما أن الأشخاص المحترمين (الأب، الزوج، الملك) كان يشار اليهم بمجل أو بألقاب. بهذا ندرك لماذا كانت سلسلة المسببات كلها وسلسلة التصورات ومجموعة الصيغ المتحجرة والأشكال الذهنية المتعلقة بتاريخ افريقيا، تتبع الاستلاب الأكثر نفاذاً. فمن اللازم هنا أن نشور ثورة كوبرنيكية حقيقية، تبتدئ بالمعنى، فهي وان لا تنكر متطلبات العلم العالمي، تسترجع صبغة هذه القارة التاريخية في قوالب جديدة (٢٨).

كما سجل ج. مكنزي منذ سنة ١٨٨٧ بالنسبة الى الطسوافا (بوتسونا). كم من شعوب لم يذكر أحد اسمها بل لم تتفوه به هذه الشعوب نفسها ولا غيرها من الشعوب الافريقية. لقد مرت هذه الشعوب بمحنة الاستعمار، وخرجت منه الى الاستلاب. والطريق الاقوم للخروج منه نهائياً، أن تكتب أكثر فأكثر كتب التاريخ الافريقية باللغة الافريقية، وهذا يتطلب منا اصلاحات أخرى في

(٢٨) انظر في هذا المعنى البرهان المفيد الذي أدلى به أ. أ. اكنجيين، ١٩٦٧. انطلاقاً من المقارنة بين نظام الابي (الاسرة الموسعة) الذي قد يكون مصدر سلطة الدويو على الاسر، وبين النظام الديمومي الراعي الى ملائمة النخاسة بواسطة ملكية قوية على الافراد، وهو يفسر الخلاف بين النظامين، انظر أيضاً ب. فرناق ١٩٧٤ ص ١٥٦: «الحدث الحام خيال، واللغة التي تبدل عليه هي نظرية الحديث».

هيكّل الكتاب. فكم من كتاب في تاريخ إفريقيا لم يعدنا بأكثر من بضعة عشرة من صفحاته في تاريخ فترة ما قبل الاستعمار، بتعلة أننا لا نعرف الماضي كما ينبغي، فيقفز مباشرة من «العصور الحالكة» الى سائح مكتشف عظيم، أو الى حاكم ترعاه العناية من اله نجم فجأة، فعنده يتبدى التاريخ الحق، اذ قرر أن يكون ماضي إفريقيا كله ضرباً من قبل التاريخ المحجل. نعم ليس الشأن أن ينكر ما كان للتأثيرات الخارجية من عمل اسراع أو تفجير، فادخال الاسلحة النارية مثلاً في القرن السادس عشر الى السودان الأوسط، جعل للمشاة المكونين من العبيد الأولين هيمنة على الخيالة الاقطاعيين. كان لهذا التحول أثره في بنية السلطة في السودان الأوسط، فحل الملك الكسيلا أو الكيغما من اصل العبيد، محل الوزير الشريف سيروما، الا أن التفسير الآلية المعتمدة على التأثيرات الخارجية (يدخل في ذلك مساند الرؤوس) والمقابلات الاتوماتيكية، بين التأثيرات الخارجية وحركات التاريخ الإفريقي، لابد أن تنبذ وأن يقام بتحليل دقيق جداً لابرار التناقضات والحركات الوطنية (٢٩).

ثم ان هذا التاريخ لن يكون الا تاريخ الشعوب الإفريقية في مجموعها، باعتباره كلا يشمل الكتلة القارية، والجزر المجاورة لها، كمدغشقر حسب تحديد وثيقة «منظمة الوحدة الإفريقية». يضم تاريخ إفريقيا بالطبع قطاع البحر الأبيض المتوسط في وحدة أقرتها كثرة الروابط منذ آلاف السنين (أحياناً دامية) ولكن في غالب الأحيان أغنت بعضها البعض، فجعلت من إفريقيا على ضفتي مفصل الصحراء مصرعي باب واحد ووجهي ميدالية واحدة.

وهو تاريخ للشعوب، اذ نرى في إفريقيا أن استبداد بعض الأسر المالكة نفسه قد خففت منه دائماً المسافة وانعدام الوسائل التقنية التي تزيد ثقل التمركز خطراً، كما خففت منه استمرار الديمقراطية القروية، فن جميع المستويات. من القاعدة الى القمة، يلتئم المجلس من النقاش من أجل النقاش. وهو يمثل عقل الجسد السياسي، هو تاريخ شعوب، اذ فيها عدا العشرية المعاصرة، لم يتقوّل هذا التاريخ ضمن الحدود التي أقرها الاستعمار وذلك لان المجال الجغرافي للشعوب الإفريقية تجاوز من كل جانب، الحدود الموروثة عن التقسيم الاستعماري.

لنأخذ مثلاً من بين ألف مثل، السنوف المنتشرين على جزء من مالي ومن ساحل العاج ومن فولتا العليا. وفي الاطار القاري العام يجب التأكيد على العوامل المشتركة الناجمة عن أصول مشتركة ومن مبادلات جهوية خلال آلاف السنين موضوعها الرجال والبضائع والصنائع والافكار، وبعبارة واحدة، الخيرات المادية والفكرية.

فبرغم العقبات الطبيعية ورغم ضعف مستوى الصناعات، كان من قبل التاريخ ثمة تضامن تاريخي قاري، بين وادي النيل والسودان حتى الغابة الغنية، وبين وادي النيل نفسه وإفريقيا الشرقية، ومع الأحداث انتشر اللولو بين السودان وإفريقيا الوسطى، وتفرق البنو بين واجهة المحيط الاطلسي والساحل الشرقي بواسطة التجارة عبر القارة من خلال السحابة.

(٢٩) انظر. س. س. لاور. يفسر المؤلف انحطاط ايدو بالاعتماد على التوترات الداخلية بين الأصناف الاجتماعية التي كان لها مطمح في السلطة: العبيد، عمال الالافنغ (الملك) في المقاطعات، المقاطعات في الحكم الثلاثي من الحصان الملكيين (من الوسط، ومن اليمين، ومن اليسار).



ينبغي أن لا تحلل ظواهر الهجرة على مدى كبير في الزمان والمكان كتيار جارف لكتل متدفقة يجلبها الخلاء أو يتكون الخلاء عقب مرورها. وحتى «الساقا» المتباطئة في شاكا والمفكان فلا يمكن تفسيرها بهذه الصبغة فقط، وصعود جموع نحو الشمال (فولطا العليا) انطلاقا من داقوما ومبروسي (غانة)، إنما تم بجماعات من الخيالة تملكوا المناطق مرحلة مرحلة، إلا أنه لم يكن في وسعهم أن يقوموا بعملهم هذا إلا بالالتحام مع أهالي المناطق عن طريق الزواج من نسايتهم. والامتيازات القضائية التي كانوا يمنحونها أنفسهم بعثت بسرعة على نشرة عادة تشرط وجوههم (وهو ضرب من التعريف بالهوية) يتسم على العديد من الوجوه، استطاعت لغتهم ونظمهم الأولية أن تمحي تلك التي للشعوب الأخرى، بينما بقيت عادات، تتصل مثلا بالطقوس الزراعية أو التي كانت ترتب حقوق الإقامة، بقي ذلك بأشرف، رؤساء الأرض المحليين، وانتظمت علاقات «القراية بالمداغة» مع بعض الشعوب التي صادفتها في طريقهم. والفتاح العظيم «موسي» أبرى كان من قبل أيضا «هجيناً» وصورة التطور بالامتصاص هذه لا بد أن يحل محلها في الغالب السناريو الروماني البسيط للزحف الكاسح والخراب، كما صور طويلا وبصورة خاطئة استيلاء بني هلال على شمال إفريقيا.

إن تطرفات الانتروبولوجيا الطبيعية ذات الآراء المسبقة العنصرية، قد ألقى بها اليوم ظهر الحائط المؤرخون الجديون، ولكن «الحاميين» وغيرهم من «الأجناس السمر» الذين افترض وجودهم لأسباب ما، تخامرهم السرابات وأوهام عقلية أصبحت علمية.

يقول هرنيو (٣٠) في نص مهم: «لا يمكن أن يكون مثل هذا وحدة دراسية بيولوجية فلا يؤلف الفلانيون مجموعة بيولوجية بل ثقافية، وأقرب أقرباء الفلانيون في جنوب الكرون مثلا، من الناحية البيولوجية، هم الهيا في تنزانيا. وأما القرابة البيولوجية بين المغاربة والورسالي بالصومال، فهي وراثية من جهة كما هي ناشئة عن البيئة الحيوية المتشابهة التي تتحكم فيها بيئة السهوب القاحلة».

ولا تخلو المعطيات البيولوجية بالذات والتي أدخل عليها الانتقاء أو التغير الوراثي من الاضطراب المستمر منذ آلاف السنين، لذلك لا تشكل مرجعا ثابتا للتصنيف، كذلك الأمر فيما يخص المجموعة الدموية، وتكاثر (العنصر الوراثي) الذي يحدد خضابا دمويا مشوها إذا ما أشرك مع عنصر وراثي طبيعي ضاعف المقاومة ضد حمى الملاريا. وهذا هو الدور الرئيسي الذي تقوم به المواءمة مع الوسط للطبيعي. مثلا أن القامة الطويلة والوركين المعرضين تتطابق مع المناطق ذات الجفاف القوي والحرارة الشديدة. وعلى هذا الأساس فإن شكل الجمجمة الأكثر ضيقا وارتفاعا (ذات الشكل المستطيل) هو مواءمة تمكن من امتصاص الحرارة بكيفية أقل. إن لفظ القبيلة (٣١) إذن سوف يهجر ما أمكن ذلك فيما عدا بعض الجهات في إفريقيا الشمالية، سوف يهجر عند كتابة هذا التاريخ بسبب ما أحيط به من مدلولات الاحتقار وما يشبهه من أفكار مخطئة، وكثيرا ما أكد على أن القبيلة

(٣٠) ج. هرنيو، ١٩٧٠، الصفحة ٥٣ وما بعدها.

(٣١) إن لفظ (قبيلة) باللغة العربية يدل على مجموعة من الأشخاص تربطهم أواصر النسب إلى جد مشترك ويعيشون على أرض محددة. وعند الشعوب السامية (العرب - البربر - الخ) يبقى للانساب أهمية بالغة. والقبيلة وتعني بالفرنسية (TRIBU)، قد لعبت في تاريخ كثير من بلاد شمالي أفريقية وما زالت تلعب أحيانا دورا هاما لا يمكن اغفاله. ولكي نحفظ لهذه الكلمة مدلولها التاريخي والاجتماعي الثقافي، فأننا سنستعملها كما هي في صورتها الأصلية.

هي أساسا وحدة ثقافية وأحيانا سياسية، ولكن بعضهم يستمر على رؤيته لها كرصيد بيولوجي متميز، و يبرز ما في الحروب القبلية من قساوة، تلك الحروب التي كانت تنتهي غالبا ببضع عشرات من الضحايا أو أدنى، بينما هم يتعاملون عن كل التبادلات الإيجابية التي ربطت بين الشعوب الأفريقية، في المستوى البيولوجي والصناعي والثقافي والديني والاجتماعي والسياسي الخ، مما يضفي على الآثار الأفريقية صبغة عائلية لا شك فيها.

و ينبغي أيضا أن يتجنب هذا التاريخ أن يكون تاريخ أحداث فقط، فيكون اذاك عرضة لأن يبرز ابرازا مفرطا، التأثيرات والعوامل الخارجية. نعم، ان اقرار الأحداث الموجهة عمل أساسي لابد منه حتى لاظهار الملامح الاصيلة للتطور الأفريقي. ولكن ما هو أهم أن يتجه الى الحضارات والمؤسسات والبنيات التقنية والزراعية والمعدنية، وإلى الفنون والصناعات التقليدية، الى الدورات التجارية وتطورات السلطة وتعديلاتها، الى المعتقدات والرأي الفلسفي أو الديني، وإلى مشكلة التقنية والمعاصرة عند الأقوام وما قبل الأقوام. و يتطلب هذا الاختيار المنهجي تطلبا أقوى فكرة تعدد الاختصاصات.

وفي النهاية، لماذا هذا الرجوع الى المصادر الأفريقية؟ فلئن كان البحث عن هذا الماضي بالنسبة الى الأجانب، لمجرد ارضاء حاجة حب الاطلاع لديهم أو لممارسة رياضة فكرية منشطة لعقل متلهف، لاستجواب أبي الهول، فإنه ينبغي أن يتجاوز هذا المشروع هذه النظرات الفردية. فتأريخ أفريقيا ضروري لادراك التاريخ العالمي الذي سيبقى عدد من لوحاته الغازا قائمة، ما لم ينيره الأفق التاريخي للقارة الأفريقية.

وعلى المستوى المنهجي فان صياغة التاريخ الأفريقي حسب الانماط الواردة في هذا المجلد، من شأنها أن تدغم خطة أتباع التاريخ التام المكتشف في كل مستوياته وكل أبعاده، بواسطة مجموعة أدوات البحث الموجودة الممكنة.

وهكذا سيصير التاريخ ذلك النهج السموفي الانسجام حيث تعطى فيه الكلمة بصورة متوافقة لجميع أنواع الاختصاص، و يتحول اقتران الأصوات الفريد النوع حسب مواضيع البحث وحسب أوقاته كي توافق متطلبات الخطاب.

ولكن إعادة تشييد البناء بعد فئائه، ذلك البناء الذي كان في الماضي من حجارة حية، بهم أيضا وبالذات الأفرقة الذين يجدون فيه مصلحة محسوسة، والذين يلجون هذا الميدان بعد أن حرموا منه ظليلة قرون أو عشرات السنين من الحرمان، شأنهم شأن المنفي الذي يكشف، في وقت واحد، الخطوط الجديدة والقديمة لمشهد الوطن الذي يخن اليه، لأنه سبق أن أقام فيه.

ان من عاش بدون تاريخ عاش على شكل حطام أولنقل عاش كمن يحمل جذور غيره، أو هو كمن تخلى عن أن يكون هو ذاته، جذرا لغيره ممن يأتي بعده،؟ وهو وسط خضم التطور البشري يرتضي بدور مجهول الاسم، دور كفلق البحر أو أحادية الخلية. فعلى رجل الدولة الأفريقي أن يهتم بالتاريخ كجزء أساسي من التراث القومي، هو وصي عليه، خاصة وانه لن يكون بوسع أن يتعرف على سائر البلدان الأفريقية من خلال منظور الوحدة الأفريقية الا بالتاريخ.

على أن هذا التاريخ ضروري للشعوب نفسها وهو حق أساسي لها، وعلى الدول الأفريقية أن تكون جماعات تعمل على انقاذ أقصى ما يمكن من الآثار التاريخية قبل أن يفوت الأوان، ولا بد من

إنشاء متاحف ومن سن قوانين لحماية المواقع التاريخية والأشياء. ويجب أن تمنح المنح لتكوين علماء في الآثار، ويجب أن تحور المناهج والشهادات طبقا لمنظور افريقي. فالتاريخ منهل يمكننا أن لا نرى فيه خيالنا فحسب، وأن نتعرف على نفوسنا منه، بل ان نرتوي ونجدد القوى لتحقيق التقدم ضمن قافلة الرقي البشرية. وإذا كانت تلك غاية تاريخ افريقيا هذا، فالبحث المضني الممل وما يتخلله من تجارب قاسية، سوف يكشف بلا شك عن طريق بحث مثمر غني عن انجازات متعددة الأشكال.

وتحت رماد الماضي الهامد، تتحرك دائما في موضع ما، شرارات تحمل نور البعث.

## تطوير التدوين التاريخي في أفريقيا

ج. د. فاج

ان أولى محاولات تأريخ افريقيا هي قديمة قدم بداية التاريخ المكتوب. فؤرخو عالم البحر الأبيض المتوسط القديم ومؤرخو الحضارة الاسلامية في العصر الوسيط، اتخذوا كلهم اطارا معتمدا هو مجموع العالم المعروف، وكان يشمل جزءا هاما من افريقيا. وكانت افريقيا الكائنة شمال الصحراء جزءا لا يتجزأ من هاتين الحضارتين، وكان ماضيها واحدا من مواضيع اهتمام مؤرخيهم بنفس قوة اهتمامهم بأوروبا الجنوبية وبالشرق الأدنى، بل ان تاريخ افريقيا الشمالية بقي قسما أساسيا من الدراسات التاريخية حتى امتداد الامبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر.

و اثر حملة نابليون بونابرت على مصر سنة ١٧٩٨ صارت افريقيا الشمالية من جديد حقل دراسات لا يستهان به تولاه المؤرخون. ومع انتشار السلطة الاستعمارية الأوروبية على افريقيا الشمالية الذي أعقب الاستيلاء على الجزائر من قبل الفرنسيين سنة ١٨٣٠، واحتلال مصر من قبل البريطانيين سنة ١٨٨١، سادت أعمال تأريخ شمال افريقيا وجهة نظر أوروبية استعمارية، على أنه منذ سنة ١٩٤٠ ظهرت حركة التجديد في الاسلام، وانتشر التعليم على النقط الاوربي في مستعمرات شمالي افريقيا، ونشأت حركات قومية شمالي افريقيا. كل ذلك أدى لظهور مدارس محلية للتاريخ، كانت تحور لا بالعربية فحسب، بل وبالفرنسية والانكليزية فحققت لافريقيا الشمالية التوازن في الدراسات التاريخية.

فهذا الفصل سيهتم اذن بصورة أولية بتدوين التاريخ في افريقيا الغربية والوسطى والشرقية والجنوبية. ورغم كون المؤرخين الكلاسيكيين والمؤرخين الاسلاميين في العصر الوسيط، لم يعتبروا افريقيا الاستوائية عديمة الاهتمام، فان آفاقهم كانت محدودة، اذ كانت الاتصالات التي من

الممكن أن تكون لهم معها قليلة، عبر الصحراء نحو الحبيشة أو بلاد السودان أو على طول سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي، حتى الحدود التي كانت تسمح بها البحارة الموسمية. ان أخبار المؤرخين القدماء، لا سيما فيما يخص افريقيا الغربية، كانت ضئيلة متفرقة. فهيرودوت ومنيتون وبلين القديم واسترابون وآخرون غيرهم، لم يسردوا باختصار الا عن رحلات قليلة أو زحف عبر الصحراء، أو أسفار بحرية على سواحل المحيط الأطلسي، على أنه أثبتت حول صدق بعض هذه الأحاديث جدالات حادة بين الاختصاصيين. وأما الارشادات المعهودة عن البحر الأحمر والمحيط الهندي فلها أساس أكثر جدية، إذ من المحقق أن تجار البحر الأبيض المتوسط وعلى الأقل تجار الاسكندرية، قد نشروا التجارة على هذه الشواطئ. «فرحلة بحر ارتريا» (حوالي سنة ١٠٠+) وآثار كلود بطليموس (حوالي ١٥٠+) (ولكن يبدو أن النص الذي وصلنا منها يتعلق أكثر بتاريخ يقارب عام ٤٠٠+). وأعمال كوزماس هنديكو بلطس (٦٤٧+)، هي المصادر الرئيسية للتاريخ القديم في افريقيا الشرقية.

ولقد كان المؤلفون العرب أكثر اطلاعا، ففي عصرهم كان استخدام الجمل من قبل شعوب الصحراء قد سهل انشاء تجارة منظمة مع افريقيا الغربية، وامتداد تجار شمالي افريقيا في أهم مدن السودان الغربي، ومن جهة أخرى فقد تطورت التجارة مع الجزء الغربي من المحيط الهندي، حتى أن عددا عظيما من تجار جزيرة العرب ومن الشرق الأدنى، انتشروا على طول السواحل الشرقية من افريقيا.

فالآثار التي قدمها أمثال المسعودي (المتوفي حوالي ٩٥٠+) والبكري (١٠٢٩-١٠٩٤) والادريسي (١١٥٤) وياقوت (حوالي ١٢٠٠) وأبي الفداء (١٢٧٣-١٣٣١) والعسري (١٣٠١-١٣٤٩) وابن بطوطة (١٣٠٤-١٣٦٩) والحسن بن محمد الوزان المعروف في أوروبا باسم ليون الافريقي حوالي (١٤٩٤-١٥٥٢) لها أعظم الأهمية لاعادة بناء تاريخ افريقيا، ولا سيما تاريخ السودان الأوسط، خلال فترة تتراوح تقريبا بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر الميلادي.

على أنه مهما كانت هذه الأعمال مفيدة للمؤرخين المعاصرين، فانه يشك أن نعتبر أحدا منهم أو من الدارسين السابقين، من المؤرخين الرئيسيين لافريقيا. فعظم ما يقدمه كل منهم وصف لجهات افريقيا حسب معلومات أمكنهم جمعها في العصر الذي كتبوا فيه. ولا وجود لدراسة نظامية للتغيرات التي طرأت عبر العصور، وهذا هو الهدف الحقيقي للمؤرخ. وحتى الوصف الوارد لديهم، لم يكن متزامنا فعلا، فان صح أن بعضا من المعلومات كان معاصرا للكاتب، فإن أجزاء أخرى، وان اعتبرت حقيقية في عصر الكاتب، فإنها قد استمدت من تقارير سابقة. و يعاب أيضا على هذه الكتابات أنها عامة، لا تحوي أي وسيلة تساعد على تقوم الخبر، ومعرفة ما اذا كان الكاتب قد تلقاها من ملاحظته الشخصية أم من ملاحظة مباشرة لمعاصره، أو هل هو يروي فقط، ما شاع في عصره، أو يروي رأي مؤلفين سابقين. و يقدم ليون الافريقي مثالا مفيدا في هذا الشأن، فهو نفسه مثل ابن بطوطة ارتحل في افريقيا، ولكن، خلافا لابن بطوطة، ليس من يقين البتة، أن ما يورده من خبر مستمد من ملاحظاته الشخصية.

وقد يكون من المفيد هنا أن نشير إلى أن لفظ «تاريخ» ليس مما لا يداخله الالتباس. ومدلوله المتداول اليوم يمكن تعريفه على أنه عرض منهجي لحدثات فترة محددة، ولكنه أيضا من الممكن أن يعرف حسب التعريف القديم «من أنه: وصف منهجي للظواهر الطبيعية» وهذا المعنى، أساسا، استخدم في العنوان المحدد بالانكليزية في كتاب ليون الأفريقي (ليون الأفريقي: التاريخ الجغرافي لأفريقيا - وبالفرنسية: وصف إفريقيا) ويبقى هذا المعنى صحيحا حتى اليوم في العبارة القديمة. التاريخ الطبيعي (وقد كان فعلا عنوان كتاب بلين).

لكن من بين مؤرخي إفريقيا الأوائل هناك مؤرخ هام جدا، مؤرخ عظيم بأتم معنى الكلمة، هو ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) فلو كان معروفا أكثر عند العلماء الغربيين، لاضطروا أن ينزعوا عن هيرودوت لقب «أب التاريخ». وابن خلدون من شمالي إفريقيا، ولد في تونس. وقد خصّ قسما من كتابه عن إفريقيا (١) وعلاقتها بسائر شعوب البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى. وحسب فهمه لهذه العلاقات، استقرى ابن خلدون مفهومها للتاريخ، جعل منه ظاهرة دورية يستولي فيها أعراب السهوب والبدو على الأراضي الزراعية من الشعوب المستقرة، ويركزون فيها ممالك فسيحة، وبعد ثلاثة أجيال تقرىبا تفقد حيويتها وتصير هي نفسها معرضة لغزوات جديدة من قبل أهل البادية، وهذا بالفعل انفوج صالح لقسم كبير من تاريخ إفريقيا الشمالية. واستعمل مؤرخ عظيم هو مارك بلوك (٢)، آراء ابن خلدون لبيدي بتفسير وضاء لتاريخ أوروبا في بداية القرون الوسطى. وابن خلدون يتميز عن معاصريه، ليس لكونه ارتأى فلسفة للتاريخ، بل لأنه أيضا أو بالأخص لكونه خلافا لهم، لم يكن يرتبط بذات الوزن وذات القيمة، ببند الأخبار التي كان بإمكانه الحصول عليها عن الماضي، وكان يعتبر أنه من الواجب الاقتراب من الحقيقة خطوة خطوة عن طريق النقد والقياس.

وابن خلدون في الواقع مؤرخ عصري شديد المعاصرة، ونحن مدينون له بما يكاد يكون تاريخ إفريقيا الاستوائية بالمعنى العصري، فبوصفه من شمالي إفريقيا وكذلك - ورغم جدة فلسفته وطريقته - لكونه كان يعمل في إطار التقاليد القديمة المتوسطة والاسلامية، انه لم يتخل عن الاهتمام بما كان يجري وراء الصحراء، فشمسة باب من أبواب مؤلفه (٣) هو في الواقع تاريخ امبراطورية مالي التي وصلت في عهده الأوج أو كادت. وهذا الباب كان يعتمد جزئيا على الرواية الشفهية التي كانت تجري في عصره، ولهذا السبب فانه يبقى حتى اليوم، من المصادر الرئيسية لتاريخ هذه الدولة الإفريقية الكبرى.

ولم يكن في إمكان أي دولة عظيمة قوية مثل مالي، أو حتى الدول الأقل أهمية كممالك الهوسا الأولى أو المدن المستقلة على الساحل الشرقي الإفريقي، أن تحتفظ بهويتها وكما لها، بدون رواية معترف بها تتعلق بنشئها وتطورها، ولما اجتاز الاسلام الصحراء وانتشر على طول الشاطئ الشرقي

(١) أهم العروض عن إفريقيا توجد في مؤلفه الأعظم، المقدمة (ترجمة فرنسية لفسنان مونتال) وفي جزء من تاريخه الذي ترجمه دي سلا بعنوان «تاريخ البربر».

(٢) انظر مارك بلوك ١٩٣٩، ص ٩١.

(٣) في ترجمة م. ج. دي سلا بعنوان «تاريخ البربر» (١٩٢٥ - ١٩٥٦) يقع هذا الباب في الجزء ٢، ص ١٠٥ - ١١٦.

أتيا معه بالكتابة العربية، أضاف سود الأفارقة الى الوثائق الشفاهية استعمال النصوص المكتوبة التي كانت بين أيديهم للحفاظ على تاريخهم.

ومن بين النماذج الأولى من هذه المؤلفات التاريخية التي نعرفها اليوم، فإن أنجحها قد يكون كتاب «تاريخ السودان» («كتاب تاريخ الفتاش» (٤) وقد كتب في معظمها، في تنبكتو خلال القرن السابع عشر.

وفي كليهما يعرض المؤلفان أحداث عصرهما والفترة السابقة له، مباشرة، مع عديد من الإرشادات الجزئية غير غافلين عن تحليلها وتفسيرها، ولقد قدما هذه العروض النقدية، بإشارة تتعلق بالروايات الشفوية المتعلقة بعهود أقدم، فكانت النتيجة لا تقتصر على تاريخ امبراطورية صنغاي وعلى فتحها واستيلاء المغاربة عليها فحسب، بل كانت محاولة لتعيين ما كان مهما في تاريخ المنطقة السابق، ولا سيما في تاريخ الامبراطوريات القديمة بغانة ومالي.

لهذا يتعين تمييز توارخ تمبكتو على سائر المؤلفات التاريخية القديمة المكتوبة بالعربية من قبل أفارقة، كالتى تعرف باسم «تاريخ كانو» و «تاريخ كلوا» (٥) فهي تروي لنا تسجيلات كتابية مباشرة لروايات بقيت ولا شك، متداولة شفاهيا حتى ذلك العصر. وان يبدو أن ترجمة تاريخ كلوا قد استغله المؤرخ البرتغالي دوبروس في القرن السادس عشر. وليس ما يدل أن تاريخ كانو كان موجودا قبل بداية القرن التاسع عشر تقريبا.

ومن الجدير بالذكر أن التوارخ العربية من هذا النوع، لم تقتصر حتما على أجزاء افريقيا التي تم ادخالها في الاسلام. ففي وسط غانا الحالي مثلا، قد انتج «كتاب الغنجة» في القرن الثامن عشر، ثم ان أبحاث العلماء الجديدة مثل أبحاث «افورولكس» قد كشفت عن مئات من المخطوطات العربية، أصلها من هذه المنطقة أو من الجهات المجاورة (٦)، ولا ننسى أيضا أن قسا من افريقيا الاستوائية التي صارت اثيوبيا، كان له لغته الخاصة السامية، لغة الفُز في البداية ثم الأمهرية، وفيها حفظت تقاليد أدبية وتطورت طيلة ما يقرب من ألفي سنة. وما لا شك فيه أن هذه التقاليد أنشأت مصنفات تاريخية منذ القرن الرابع عشر مثل تاريخ حروب أمدا سيون (٧). ولم تظهر المصنفات التاريخية في اللغات الافريقية الأخرى، كالهوسا والسواحلي، وهي الكتابات المختلفة عن الكتابات العربية المستوردة، ولكنها تستعمل حروفه، الا في القرن التاسع عشر.

وشرع الأوروبيون في الاتصال بالجهات الساحلية من افريقيا الاستوائية في القرن الخامس عشر، فنتج عن ذلك بسرعة، انتاج أدبي يوفر مواد ثمينة جدا للمؤرخين المعاصرين. ووقع الاهتمام

(٤) ترجم تاريخ السودان الى الفرنسية وعلق عليه أ. هوداس (١٩٠٠) وتاريخ الفتاش لمؤلفيه هوداس وم. دولافوس (١٩١٣).

(٥) توجد ترجمة انكليزية لتاريخ كانولدى ه. ر. بلمر: مذكرات سودانية (١٩٢٨) مجلد ٣، ص ٩٢ - ١٣٢، ومن تاريخ كلوامندج س، ب وفرين قرنفيل «الساحل الشرقي الافريقي» (١٩٦٢) ص ٣٤ - ٦٩.

(٦) عن كتاب الغنجة ومجموعة المحفوظات العربية بغانة المعاصرة، انظر نهمين لفترين «المسلمون والرؤساء في غرب افريقيا» ١٩٦٨، خاصة الصفحات ١٥ - ٢٢، وافرولكس «نشأة التعليم الاسلامي في غانة» مجلة تاريخ الاجتماع، نيجيريا، ٤ (١٩٦٣) ص ٤٠٩ - ٤١٧، وطوماس هدفكين «التقاليد الادبية الاسلامية في غانة» ولدى أ. م. لويس (مؤلف كتاب) الاسلام في افريقيا الاستوائية (١٩٦٦) ص ٤٤٢ - ٤٦٠.

(٧) توجد عدة ترجمات لهذا الكتاب ولا سيما واحدة بالفرنسية قام بها ج. قروثون في المجلة الاستوائية ١٨٨٩.

خاصة بأربع جهات من إفريقيا الاستوائية: السواحل الغينية في إفريقيا الغربية، وجهة الزاير الأدنى والآنقولا، ووادي الزمبار المرتفعات المجاورة له، وأخيرا إثيوبيا. وتوغل التدخل في أراضي هذه الجهات الثلاث الأخيرة، خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، ولكن كما كان الأمر بالنسبة الى المصنفين السابقين الاتباعيين أو العرب، لم تكن النتيجة دائما ومباشرة، القيام بتأليف كتب عن تاريخ إفريقيا.

ان ساحل غينيا هو أول ما اكتشفه الأوروبيون من إفريقيا الاستوائية، وألفت في شأنه عدة كتب منذ عام ١٤٦٠ تقريبا (كدامستو) حتى بداية القرن الثامن عشر (بربو وبسمان)، وكان للكثير من هذه المواد قيمة تاريخية كبرى، اذ توفر شهادات عيان مؤرخة، فيمكن بها أن تعين عددا كبيرا من العلاقات ذات الصبغة التاريخية.

كما اشتملت هذه الكتب على كميات من المواد التاريخية (أي مما لم يكن معاصرها) وبخاصة عند دبر (١٦٨٨) الذي لم يسلك مسلك غيره من المؤلفين في الملاحظة المباشرة، بل اقتصر على جمع روايات غيره. الا أن الغرض الأساسي لدى هؤلاء المؤلفين جميعا، كان يتمثل في وصف الحالة المعاصرة، في كتابة التاريخ. بيد أننا اليوم فقط، وقد تم احياء قسم كبير من تاريخ إفريقيا الغربية أصبح بإمكاننا أن نقدر أقوال هؤلاء المؤلفين حتى قدرها (٨).

وأما في سائر الجهات التي أعارها الأوروبيون اهتماما في القرنين السادس عشر والسابع عشر، فقد كانت الحالة على خلاف ذلك قليلا، ولعل هذا ناشئ عن كونها كانت مجال نشاط المبشرين الأولين، بينما كان المحرك الأساسي للآوربيين في غينيا هو التجارة. فطالما كان الافارقة يوفرون للآوربيين من البضائع ما يبتغون اقتناؤه، كما كان الأمر بصورة عامة في غينيا، لكن ما كان بوسع التجار أن يشعروا بدافع نحو ما يغير المجتمع الإفريقي بل اقتصروا على ملاحظته، على نقيض المبشرين الذين كانوا يحسون الى حد ما بوجوب القيام بتاريخ إفريقيا. ففي إثيوبيا كانت الأسس موجودة من قبل، وكان بالإمكان استغلال التواريخ وسائر كتابات البلاد، وشرع رائدان جليلان من المبشرين في كتابة تاريخ إثيوبيا، هما بدرو بايز (ت ١٦٢٢) ومانول الالميدي (١٥٦٩ - ١٦٤٦) كما ألف تاريخ كامل بقلم أحد المستشرقين الآوربيين الأولين جوب لودلف (١٦٢٤ - ١٧٠٤) (٩).

وفي وادي الكنفو السفلي والآنقولا، كما في وادي الزمبير وحواليه، كانت المصالح التجارية بدون شك أقوى من مصالح التبشير. ولم يكن المجتمع التقليدي الإفريقي بمجمله، مستعدا دون ضغط قوي، لأن يوفر للآوربيين ما كانوا يبتغون، فنتج عن ذلك أن أرغم بكيفية مأسوية على التغيير، فلم يكن بمقدور المحاولات الوصفية نفسها الا أن تصبح الجانب التاريخي. وثمة عناصر مهمة للتاريخ

(٨) رخلات كادامستو، ج. دكرون (١٩٣٧)، جون بربو (١٧٣٢) وويليام بسمان (نشرة معلق عليها ١٩٦٧).

(٩) في كتاب س. بكاري: الامور الاثيوبية في الكتابات الغربية غير المنشورة (روما ١٩٠٥ - ١٩١٧) يحل كتاب بايز في المجلدين الثاني والثالث وكتاب الميدا في المجلدين ٥ و٧. وتوجد ترجمة جزئية انكليزية لالميدا في س. ف. بكتهمام وجوب ومنتفرد: بعض ذكريات إثيوبيا (١٥٩٣ - ١٦٤٦) (١٩٥٤) ونشر تاريخ إثيوبيا للودلف في فرنكفورت سنة ١٦٨١.



توجد فعلا في كتب مؤلفين من أمثال، بقافتا ولوبيز (١٥٩١) وكافاتزي (١٦٨٧)، ونشر كادوريقا سنة ١٦٨١ تاريخ الحروب الانغولية (١٠).

ومنذ القرن الثامن عشر يبدو أن افريقيا الاستوائية نالت من المؤرخين الأوروبيين ما تستحق من الاهتمام، وكان بالامكان مثلا أن يستغل الكتاب السابقون الذين يغلب على أسلوبهم الوصف كمصادر تاريخية، أمثال ليون الافريقي ودبر، بحيث تمكنت كتب التاريخ والجغرافيا العامة في تلك المدة، كالتاريخ العالمي المنشور بانكلترا بين ١٧٣٦ و ١٧٦٥، الذي أمكن أن يخصص لافريقيا عددا من الصفحات لا يستهان به (١١).

ووجدت أيضا محاولات أحادية الموضوع «كتاريخ انقولا» بقلم سلفا كرين (حوالي ١٧٩٢) و«لمحة تاريخية عن غينيا» بقلم بنزيت (١٧٧٢) أو كتابا تاريخ الداهامي: مذكرات ملك بُتْسا أهادي بقلم نريس (١٧٨٩) وتاريخ الداهامي بقلم دلزل (١٧٩٣)، الا أنه ينبغي الإشارة هنا الى أن كتاب سلفا كرين لم ينشر إلا خلال القرن الحاضر (١٢).

وأما الكتب الثلاثة المذكورة أعلاه، فإنها نشرت في ذلك العصر فذلك لأن في القرن الثامن عشر، بدأ الجدل يمتد حول نخاسة العبيد التي كانت العنصر الرئيسي في العلاقات بين أوروبا وافريقيا الاستوائية منذ مائة وخمسين سنة على الأقل. فدلزل ونريس اللذان كانا يستغلان خبرتهما في تجارة العبيد في الداهامي كما فعل بنزيت، قد كانا يقومان بعمل مؤرخين، الا أن كتبها كانت تهدف الى توفير الحجج لمؤيدي أو معارضي الغاء تجارة الرقيق.

ولو كان الأمر بخلاف ذلك، لما وجدت هاته الكتب من يشتريها، اذ في ذلك العصر بدأ الاتجاه الرئيسي للشقافة الأوروبية يعتبر أكثر فأكثر المجتمعات غير الاوربية متخلفة، مصرحا أن ليس لها تاريخ يستحق أن يدرس. ونجحت عن هذه العقلية تيارات التفكير المنبثقة عن النهضة الأوروبية الى عصر النور وحتى الثورة العلمية والصناعية الزاهرة. فبالاعتماد على ما اعتبر تراثا موحدا، اغريقيا رومانيا، ظن المثقفون الأوروبيون أن أغراض مجتمعهم ومعارفه وقوته وثروته، كان لها من السيطرة ما أوجب تقدم الحضارة الأوروبية على ما سواها، فكان تاريخه مفتاح كل معرفة وتاريخ، في سائر المجتمعات التي لم يكن لها قيمة. واتخذ هذا الموقف على الأخص ازاء افريقيا، وذلك أن الاوربيين، صاروا لا يعرفون افريقيا والافارقة الا من زاوية تجارة الرقيق، بينما كانت هذه التجارة عينا هي التي تسببت في فوضى اجتماعية تتفاقم أكثر فأكثر في العديد من أقسام القارة.

وحيد هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) هذا الموقف صراحة في كتابه «فلسفة التاريخ» الذي يحتوي على تأكيدات من هذا النوع: «ليست افريقيا قارة تاريخية، اذ لا تبدي تغييرا ولا تطورا». والشعوب السود (ليس في وسعهم أن يتطوروا ولا أن يتأدبوا، نراهم نحن اليوم على هذه الحال، وهم كانوا دائما كذلك). ومن الجدير أن نلاحظ أنه منذ سنة ١٧٩٣ رأى المسؤول عن نشر كتاب دلزل أنه من اللازم أن يبرر نشر تاريخ للداهامي. فيقف موقف هيجل نفسه و يصرح: «لندرك حقا

(١٠) أ. دي الفيرا دي كادوريقا: التاريخ العام للحروب الانكليزية شرح م. دلقادو وأ. داكها (لشبونة ١٩٤٠ - ١٩٤٢).

(١١) تشمل نشرة «التاريخ العالمي» على ٢٣ مجلدا خصص ١٦ منها للتاريخ المعاصر ومن بين هذه اثنان لافريقيا.

(١٢) لشبونة ١٩٣٧.

الطبيعية البشرية، لا بد من أن نشق طريقا عبر تاريخ أكثر الأقاليم نخوشنا [....] ولا سبيل الى الحكم على قيمة الثقافة في تقويم السعادة البشرية، الا بمقارنات من هذا النوع» (١٣). وتأثير هيجل المباشر على تحرير تاريخ إفريقيا كان ضعيفا، ومع ذلك فإن الرأي الذي كان يظهره، استقاه أصحاب الرأي التاريخي المستقيم في القرن التاسع عشر. وهذا الرأي الذي أكل عليه الدهر وشرب، والذي يفتقد الى مستند، مازال له حتى اليوم أنصار. أفلم يصح أستاذ تاريخ معاصر في جامعة أكسفورد: «قد يصير في المستقبل تاريخ يدرس لإفريقيا، أما اليوم فليس لها تاريخ، وهناك فقط تاريخ الأوربيين في إفريقيا. وما عدا ذلك ظلمات. وليست الظلمات موضوعا للتاريخ. افهموني جيدا، اني لا أنكر أن أناسا قد أوجدوا حتى في البلدان الحالكة والعصور القاتمة، كما لا أنكر أنه كان لهم حياة سياسية وثقافة مفيدة لعلماء الاجتماع والانثروبولوجيا، ولكنني أعتقد أن التاريخ أساسا هو ضرب من الحركة، بل من الحركة المقصودة. وهو ليس مجرد أشباح أشكال وعادات متحولة ومعارك وغزوات، وأسر مالكة واغتصابات وبنيات اجتماعية وتفكك اجتماعي...»

لقد كان يعتبر أن «التاريخ بل دراسة التاريخ، ترمي الى هدف. فنحن ندرسه [....] لنكتشف كيف وصلنا الى ما وصلنا اليه» ويضيف قائلا: أن العالم الحاضر تسيطر عليه أفكار أوربا الغربية وتقنياتها وقيمها سيطرة تجعل تاريخ أوربا وحده هو الذي يعتد به، على الأقل خلال القرون الخمسة الأخيرة، ويقدر ما لتاريخ العالم من أهمية. فلا يمكننا إذن أن نسمح لأنفسنا «أن نتسلل بحركات لا جدوى من ورائها لقبائل بربرية في مناطق جميلة في العالم، لكن لم يكن لها أي أثر على ما عداها» (١٤) ومن عجائب الصدف أنه في حياة هيجل، شرع الأوربيون في اكتشاف إفريقيا اكتشافا حقيقيا عصريا علميا، وشرعوا هكذا في وضع أسس للتقويم المنطقي لتاريخ المجتمعات الإفريقية وما حققته من أعمال، وكان هذا الاكتشاف مرتبطا من جهة برد الفعل ضد الرق وتجارة العبيد، وبالمزاخمة على الأسواق الإفريقية من جهة أخرى.

وكان بعض من الأوربيين الأولين يحذوهم حب صادق للاطلاع على ما في إمكانهم ان يقفوا عليه من ماضي الشعوب الإفريقية، يجمعون المواد التي يعثرون عليها من وثائق مكتوبة ان وجدت، أو من روايات شفاهية وشواهد من آثار الماضي يكتشفونها. وكان انتاج هؤلاء المكتشفين عظيما واشتمل بعض أجزائه على التاريخ بأدق معانيه، وفي جملته كون مادة كبيرة القيمة للمؤرخين الذين أتوا بعدهم. ومن بين قائمة قصيرة للعناوين، يمكن أن نذكر: رحلات لاكتشاف منابع النيل بقلم جيمس بروس (١٧٩٠)، والفصول التاريخية في روايات زيارة كوماسي، عاصمة الأشنتي بقلم ت. أ. بوديش (مهمة من ساحل كواس الى اشنتي) (١٨١٩) وبقليم جوزيف دوبوي (مذكرات اقامة في اشنتي ١٨٢٤) وكتاب هنرثس بارث (١٨٥٧ - ١٨٥٨)، (ووثائق التاريخ والجغرافيا والتجارة في إفريقيا الشرقية) بقلم م. قلان (١٨٥٦) والصحراء والسودان بقلم قُسطاف نُشِتِقال (١٨٧٩ - ١٨٨٩).

(١٣) ارشيبالد دازل: تاريخ الداهامى ١٧٩٣، ص ٥.

(١٤) هذه الاستشهادات مقتبسة من ملاحظات عرض أول محاولة لسلة من الدروس ألقاها الأستاذ أوغ طريفور هو بر حول «ظهور أوروبا المسيحية» انظر: المستمع ٢٨ - ١١ - ١٩٦٣، ص ٨٧١.

ان طريق نشئنا استمر متبعاً في طور جديد تماماً من تاريخ افريقيا، طور شرع فيه الأوروبيون في غزو القارة والهيمنة على سكانها. وكان يبدو أن هذا السلوك يتطلب تبريراً أخلاقياً، واذك دعت الآراء الهيجلية بتطبيق مبادئ داروين.

وكان لهذا التطور نتيجة عرضية تمثلت بظهور علم جديد، هو الانثروبولوجيا وهو طريقة غير تاريخية لدراسة الثقافات ومجتمعات الشعوب («البدائية» وتقنيهما، أولئك الذي لم يكن لهم «تاريخ يستحق الدرس» أولئك الذين «أدنى من الأوروبيين، وكان من السهل التمييز بينهم وبين هؤلاء بلون بشرتهم.

ومن المفيد أن نذكر هنا مثل ريشارد برتن (١٨٢١ - ١٨٩٠) فهو من أكبر الرحالة الاوربيين في افريقيا في القرن التاسع عشر، وقد كان فكراً منيراً مثقفاً متوقداً دائماً ومستشرقاً جليلاً. وكان سنة ١٨٦٣ من مؤسسي الجمعية الانثروبولوجية اللندنية (التي صارت فيما بعد المعهد الانثروبولوجي الملكي)، ومع ذلك فان مسلكه الذي اتسم به كان أكثر نقداً من مسلك نشئنا، أصبح نهاية الاستكشاف العلمي لافريقيا بدون فكرة مسبقة، ذلك الاستكشاف الذي بدأ مع جيمس بروس. فتجد مثلاً في كتابه مهمة الى سيلي، مسلك الداهامي (١٨٦٤) «خروجاً ملحوظاً عن الموضوع في موقع الزنجي في الطبيعة» (وفي الامكان أن يسجل أنه لم يقل «موقع الزنجي في التاريخ»)، ونستطيع أن نقرأ جملاً مثل هذه: «ان الزنجي المحض يحل في الاسرة البشرية تحت العرقين العظيمين العربي والآري» (على أن معظم معاصريه كانوا يرتبون هذين الاخيرين ترتيباً معاكساً).

و «الزنجي في الجملة، لن يتحسن ولن يتجاوز نقطة معينة لا تستحق الاحترام، وهو يبق من الناحية الذهنية صيباً...» (١٥) وعبثاً كان بعض المثقفين الافارقة يقومون بالرد، أمثال جيمس افر يقانس هرتن، عند جدله مع أعيان أعضاء الجمعية الانثروبولوجية اللندنية.

وزاد الطين بلة بالنسبة الى تاريخ افريقيا، أن ثمة مفهوماً لمهنة المؤرخ قد ظهر في ذلك العهد، ولا سيما في المانيا حيث صار التاريخ، لا فرعاً من الأدب أو الفلسفة، بل علماً يعتمد على التحليل الدقيق للمصادر الاصلية. فبالنسبة الى تاريخ أوربا بالطبع، كانت هذه المصادر في معظمها كتابية، وكانت افريقيا تلوح في هذا المجال ضعيفة ضعفاً ملحوظاً. ولقد عرض هذا المفهوم بدقة، للاستاذ أ. ب نيوطن سنة ١٩٢٣ في محاضرة أمام الجمعية الافريقية الملكية في لندن وموضوعها «افريقيا والبحث التاريخي»، فصرح ان «افريقيا لم يكن لها تاريخ قبل قدوم الاوربيين». ويبدأ التاريخ حين يشرع الانسان في الكتابة. ان ماضي افريقيا قبل بداية الامبريالية الاوربية لا يمكن احياؤه اذن الا «بالاستناد الى شواهد البواقي المادية من لغات وعادات بدائية» وهي أمور لا تهم المؤرخين بل تهم علماء الآثار واللغويات وعلماء الانثروبولوجيا (١٦).

على أن نيوطن نفسه كان هامشياً نوعاً ما بالنسبة الى مهنة المؤرخ كما تصورها هذا العصر. وطيلة قسم كبير من القرن التاسع عشر، كان بعض المؤرخين البريطانيين الاجلاء أمثال جيمس اسطيفن (١٧٨٩ - ١٨٥٩) وهرمن مريفال (١٨٠٦ - ١٨٧٤) وج. أ. فرود (١٨١٨ - ١٨٩٤)

(١٥) نفس المرجع أعلاه، طبعة ١٨٩٣، مجلد ٢، ص ١٣١ و ١٣٥.

(١٦) افريقيا والبحث التاريخي مجلة الجمعية الافريقية، ٢٢ (١٩٢٢ - ١٩٢٣).

وج. ر. سيللي (١٨٣٤ - ١٨٩٥) (١٧) قد اهتموا أكثر بنشاطات الاوربيين (او على الاقل بنشاطات مواطنيهم) في بقية أنحاء العالم. وخلف «سيللي» كأستاذ تاريخ معاصر بكمبريدج، لورد اكن (١٨٣٤ - ١٩٠٢) الذي درس في المانيا، فشرح حالا بانجاز «تاريخ كمبريدج المعاصر» فنشر أجزائه الأربعة عشر فيما بين ١٩٠٢ و ١٩١٠. وركز هذا المؤلف على أوروبا بحيث تجاهل كلية تقريبا، حتى نشاطات الاوربيين في العالم. ثم أصبح التاريخ الاستعماري عموما، بيد رجال أمثال السير شارل لوكاس أو فريال هانتوتو في فرنسا (١٨) اللذين اشتغلا أول أمرهما بالشؤون الاستعمارية كما فعل اسطيفن وماريفال وفروود.

بيد أن التاريخ الاستعماري أو الامبريالي ولو كان هامشيا بالنسبة للمهنة، أصبح مقبولا مع الأيام، «فتاريخ كمبريدج الجديد المعاصر» شرع في نشره منذ ١٩٥٧ بأشراف السير جورج كلارك، فخصص بعض الفصول لأفريقيا وآسيا وأمريكا في كل مجلداته الاثني عشر، ولكن من جهة أخرى أثريت مجموعة تاريخ كمبريدج في تلك الفترة، بسلسلة تاريخ كمبريدج للامبراطورية البريطانية (١٩٢٩ - ١٩٥٩) وكان نيوطن واحدا من مديريها المؤسسين. ولكنه يكتفي أن نلقي نظرة سريعة على هذا المؤلف، كي نشاهد أن التاريخ الاستعماري حتى بالنسبة لأفريقيا، يختلف جدا عن تاريخ أفريقيا.

ومن ضمن مجلدات هذا التاريخ الثمانية، خصصت أربعة لكندا وأستراليا ونيوزيلندا الجديدة والهند البريطانية. ويبقى ثلاثة مجلدات عامة موجهة توجيهها قويا نحو السياسة الامبريالية، (فن ضمن ٦٨ فصلا توجد أربعة فصول فحسب تتعلق مباشرة بالعلاقات بين انكلترا وأفريقيا) ومجلد واحد خصص لأفريقيا الجنوبية، أي الزاوية الوحيدة من أفريقيا جنوبي الصحراء التي استقر فيها المستعمرون الأوربيون. استقرا قويا. ويكاد هذا المجلد بأكمله - وهو أضخم المجلدات حجما، أن يكون مخصصا لشؤون هؤلاء المستعمرين الاوربيين المتشعبة، منذ وصول الاولين منهم سنة ١٦٥٢. وأما الشعوب الافريقية التي تشكل معظم السكان فلقد حشرت في فصل تمهيدي (ليس هو تاريخي أساسا) حرره عالم اجتماعي انتروبولوجي، وفي فصلين كتبهما مؤرخان من جنوبي أفريقيا، هما الأشد تبصرا في جيلهما وهما، س. و. دو كيفيت و. و. م. مكيلان، ومع ذلك فهما ينظران الى الأفارقة، بالضرورة من خلال رد فعلهم ازاء الحضور الاوربي. وهكذا فإن تاريخ أفريقيا، كان يبدو باختصار في مجموعات معلمية ضخمة، ومن ذلك كتاب «شعوب وحضارات» تاريخ عام في ٢٠ مجلد، نشر بباريس ١٩٢٧ - ١٩٥٢؛ وج. قلوتر نشر التاريخ العام ١٠ مجلدات بباريس ١٩٢٥ - ١٩٣٨، وبروبيلان ولتاقشخت - ١٠ مجلدات برلين ١٩٢٩ - ١٩٣٣، وتاريخ العالم مختصر

(١٧) كان اسطيفن موظفا في المكتب الاستعماري من ١٨٢٥ الى ١٨٤٧ وأستاذ تاريخ معاصر بكمبريدج من ١٨٤٩ الى ١٨٥٩، أما مريفال فكان أستاذ الاقتصاد السياسي باكسفورد قبل أن يخلف اسطيفن كاتبا أعلى دائما، في المكتب الاستعماري (١٨٤٧ - ١٨٥٩)، وقضى فرود معظم حياته باكسفورد حيث كان أستاذ التاريخ المعاصر من ١٨٩٢ الى ١٨٩٤ ولكنه أرسل في السبعينات للكتابة الاستعمارية بأفريقيا الجنوبية، وكان سيللي أستاذ تاريخ معاصر بكمبريدج من ١٨٦٩ الى ١٨٩٥.

(١٨) كان لوكاس موظفا بالمكتب الاستعماري البريطاني من ١٨٧٧ الى ١٩١١، وارفق حتى درجة مساعد الكاتب الأعلى، ثم حصل على منصب في السوال كوليدج باكسفورد. وكان لهنتوتو (١٨٥٣ - ١٩٤٤) مملك مزدوج، فكان سياسيا ورجل دولة لعب دورا مهما في الشؤون الاستعمارية والحارضية منذ سنة ١٨٩٠، ومؤرخا انتخب بالأكاديمية الفرنسية.

ولتأشخصت في ١٠ مجلدات برن ١٩٥٢؛ «فاسمرناجا اسطوريا = تاريخ عالمي، ١٠ مجلدات، موسكو ١٩٥٥، ونشر الايطالي س. كنتي روسني برومة سنة ١٩٢٨ كتابا ضخما عن تاريخ اثيوبيا. لقد كان المؤرخون الاستعماريون المحترفون اذن ككل المؤرخين المحترفين عامة، مقيدون بفهم للشعوب الافريقية في جنوب الصحراء، مفاده أن لا تاريخ لهم جدير أن يدرس أو يستحق الدرس. وكما رأينا أن نيوطن كان يعتبر هذا التاريخ مجالا لاختصاص علماء الآثار واللغويين والانتروبولوجيين، وإن صح أن علماء الآثار كالمؤرخين يهتمون بموجب مهنتهم بماضي الانسان والمجتمعات، فهم مع ذلك لم يجتهدوا اجتهدا يفوق كثيرا اجتهاد المؤرخين، ليستخدموا مهنتهم في البحث عن تاريخ المجتمع البشري في افريقيا جنوبي الصحراء، وفي توضيحه. ولذلك سببان رئيسيان:

أولا: ان أحد الاتجاهات الرئيسية لعلم الآثار الذي كان يتمخض إذاك، كان يعلن أنه، كالتاريخ توجهه أساسا المصادر الكتابية، فكان يقتصر على مسائل من نوع مسألة البحث عن موقع مدينة طروادة القديمة، أو على رصد أحداث لم تعرفها بعد المصادر الأدبية المتعلقة بالمجتمعات القديمة في اليونان وروما ومصر، وكانت معالمها الرئيسية مصادر تأملات طيلة قرون، فكان، ومازال غالبا، مرتبطا ارتباطا وثيقا بفرع المهنة التاريخية المعروف باسم التاريخ القديم. وكثيرا ما ينصرف الى البحث عن الكتابات القديمة وحل رموزها، أكثر من انصرافه الى العثور على ذخائر أخرى. ونادر جدا - كما في اكسوم وزمباواي وحول موقعها أن اعترف أن في افريقيا على جنوب الصحراء معالم لها من الأهمية ما من شأنه أن يلفت نظر هذه المدرسة الاثرية. ثانيا: ان ثمة نشاطا أساسيا آخر للبحث الأثري كان يتمركز حول أصول الإنسان، من خلال منظور جيولوجي أكثر منه تاريخي ازاء ماضي الإنسان. نعم إن قسما كبيرا من هذا البحث تجمع في النهاية في افريقيا الشرقية والجنوبية، على اثر أعمال علماء أمثال ل. س. ب ليكي وريموند دارت. إلا أن هؤلاء كانوا يبحثون عن ماض متوغل في القدم، مما يصعب معه التأكيد من أن المجتمع كان موجودا، وكان عادة هوة مفتوحة على الفرضيات، بين المستحاثات التي كانوا يكشفون عنها، وبين السكان المعاصرين الذين كان في وسع المؤرخين أن يدرسوا ماضيهم.

فبينما كان علماء الآثار والمؤرخون في جملتهم حتى الخمسينات يعتبرون أن افريقيا على جنوب الصحراء لم تكن لتليق بهم، فإن عظيم الاختلاف في نماذجها الطبيعية ومجتمعاتها ولغاتها لفت حتما انتباه الانتروبولوجيين واللغويين كلما شرعت اختصاصاتهم في التقدم، وكان بالامكان لزمن طويل أن يبقى أحد النوعين أو الآخر، علماء في بيت مغلق ولكن رجالا أمثال برتن وس. و. كوال (تعدد اللغات الافريقية ١٩٥٤) قد برهنوا مبكرا على قيمة العمل الميداني، وكان الانتروبولوجيون خاصة، هم رواد ذلك في افريقيا. ولكن الانتروبولوجيين أو اللغويين، خلافا للمؤرخين والاثريين لم يحسوا بضرورة الكشف عما جرى في الماضي، ووجدوا في افريقيا كثرة من الأحداث تنتظر فقط من يصفها ويرتبها ويحللها مما كان يمثل عبئا ثقيلا، وكثيرا ما كانوا لا يهتمون بالماضي بقدر ما كانوا يحاولون أن يشيدوا من جديد تاريخا كانوا يظنون أنه قد يوجد عند أصل الأحداث المجموعة، وأنه قد يفسرها.

ولكنهم لم يكونوا يفتنون الى أي حد كانت هذه التشييدات تخمينية خيالية، ومن الأمثال الدراسية مثل العالم الانثروبولوجي س. ج. سليقمان الذي كان يكتب بفظاظة في كتابه (عروق افريقيا) الذي أصدره سنة ١٩٣٠: «ان حضارات افريقيا هي حضارات الشاميين وتاريخها هو تاريخ هذه الشعوب، وعلاقتها المشتركة مع العرقين الافريقيين الآخرين، الزوجين، والبسمان...» (١٩).

ويستنتج أن «هذين العرقين الافريقيين الآخرين» في مرتبة متخلفة، وان كل النجاحات التي قد تكون قد أنجزتها هي من اثر «الشاميين» الذين أثروا فيها تأثيرا قويا أو ضعيفا. وفي موضع آخر من هذا الكتاب يتحدث سليقمان عن قدوم رعاة «شاميين» موجة بعد موجة «أشد سلاحا وأذكى في آن واحد» من «المزارعين الزوج المتأخرين» الذين كانوا يؤثرون فيهم (٢٠). ولكنه في الواقع لا يوجد أي برهان تاريخي مهما كان يؤيد التصريحات القائلة «ان الحضارات الافريقية حضارات أبناء الشام» أو أن الترقيات التاريخية التي أنجزتها افريقيا على جنوب الصحراء تعزى اليهم وحدهم، أو حتى بصورة أساسية. ومن المؤكد أن الكتاب نفسه لم يأت بأي برهان تاريخي، وان الكثير من الفرضيات التي يستند اليها لا أساس لها كما ثبت ذلك فيما بعد. فقد بين ج. هـ. غرينبرغ نهائيا أن لا مدلول لألفاظ «شامي أو شاميتي» ماعدا في أحسن الحالات كونها مصطلحات لتصنيف لغوي (٢١).

لا شك أن ليس هناك ارتباط لازم بين لغة التخاطب عند شعب ما وبين أصل هذا الشعب العرقي وثقافته، فمن ذلك أن غرينبرغ يذكر فيما يذكر هذا المثال البديع: «ان المزارعين الهوسا المتكلمين بلغة «شامية» هم تحت سلطة الرعاة الفلانيين المتكلمين بلغة نيجر — كنغو» (أي لغة زنجية) (٢٢) ويدحض أيضا القاعدة الشامية في قسم كبير مما أعاد تشييده سليقمان من تاريخ السود الثقافي، في أجزاء أخرى من افريقيا، خاصة لدى السكان من ناطقي بنتو. ولئن اخترنا هنا سليقمان خاصة، فذلك لأنه كان من الشخصيات المرموقة في مهنته ببريطانية العظمى (ومن الأولين الذين قاموا بأعمال جديّة ميدانية في افريقيا) ولأن كتابه صار الى حد ما مصدرا اتباعيا وأعيد طبعه مرات عديدة، وفي سنة ١٩٦٦ عرضه اعلاميا على كونه «اتباعي في نوعه». ولكن اعتناقه لحرافة تفوق الشعوب ذات البشرة الواضحة على الشعوب ذات البشرة المظلمة، كان ليس الا جزءا من الآراء العامة المسبقة لدى الاوربيين في نهاية القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين. وكان الاوربيون يظنون أن ادعاءهم التفوق على الافارقة السود، أيده الغزو الاستعماري. وفي العديد من الجهات بافريقيا ولا سيما في المنطقة السودانية وجهة البحيرات الكبرى، نرى الناس موقفين أنهم يتابعون نقل الحضارة التي بدأ بارسائها غزاة آخرون من اللون

(١٩) الكتاب المذكور ط. ١٩٣٠، ص ٩٦، وط ١٩٦٦، ص ٦١.

(٢٠) الكتاب المذكور ط. ١٩٣٠، ص ١٥٨، وط ١٩٦٦، ص ١٠١.

(٢١) ج. هـ. قرينبرغ ١٩٥٣ و ١٩٦٣ والواقع أن قرينبرغ كمعظم اللغويين المعاصرين يتجنب استعمال لفظ شاميتي ويضم اللغات التي كانت تسمى شاميتية مع اللغات السامية وغيرها في مجموعة تسمى الافرو-اسيوية أو اريتريّة، وهم لا يعرفون مجموعة شاميتية متميزة.

(٢٢) قرينبرغ ١٩٦٣، ص ٣٠.

الأبيض، يسمون في جملتهم «شاميين» (٢٣) ونجد نفس المعنى في عدد عديد من الكتب في هذه الفترة من ١٨٩٠ الى ١٩٤٠ تقريبا. تلك المصنفات التي تشتمل على أكثر العناصر الجدية للتاريخ، كما لا يوجد في كتب سليقمان. وقد حرر هذه المؤلفات في الغالب رجال ونساء ممن ساهوا في الغزو أو الاستعمار، ولم يكونوا انثروبولوجيين ولا لغويين ولا مؤرخين محترفين، ولكنهم اهتموا صادقين بالمجتمعات الغريبة التي اكتشفوها، وودوا التعرف على المزيد من الارشادات عنها واعلام غيرهم بها، فكانوا هواة بأحسن معاني الكلمة: فالسير هنري جونستن وموريس دولافوس مثلا، قد ساهما فعلا بكيفية عجيبة في اللغوية الافريقية كما ساهما في عدد آخر من المجالات، ولكن الأول سمي دراسته العظيمة الجامعة «تاريخ استعمار افريقيا من العروق المستلبة» (١٨٩٩) نقح وزيد فيه (١٩١٣). وفي الفروع التاريخية من دراسته العظيمة التي قام بها الثاني حول السودان الغربي، «السنغال الاعلى والنيجر» (١٩١٢)، يلوح الغرض العام حين يتعرض الى الهجرة اليهودية السورية لانشاء غانة القديمة، وفلورا شاو في كتابها (تبعية استوائية ١٩٠٦) كانت دهشة من مساهمة المسلمين في تاريخ افريقيا. أما مرجري برهام، صديقة لورد لوقارد وكاتبة تاريخ حياته، فانها تتعرض بألفاظ ملائمة الى «هذه الحركة الجليلية في التاريخ، من أولى غزوات العرب لافريقيا الى غزوات قلدي ولوقارد» (٢٤).

وأخطأ تماما مؤرخ جيد هو، إيف ارفو في كتابه (تاريخ سكان السودان الأوسط ١٩٦٣ وتاريخ برنو ١٩٤٩)، في تفسير معنى التفاعلات بين رجل الصحراء والسود المستقرين، تلك التفاعلات التي يصفها بدقة، بينما يستمر السير رشمند بلمر (مذكرات سودانية ١٩٢٨ وصحراء برنو والسودان ١٩٣٦) وهو عالم آثار موهوب، على البحث عن دوافع عمل الشعوب النيجرية بعيدا في طرابلس أو اليمن.

على أن العلماء السوسيولوجيين الانثروبولوجيين البريطانيين، تمكنوا بعد سليقمان تقريرا، من الانفلات من قبضة الفكرة الخيالية الشامية وساد تكوينهم منذ ذلك تأثير. ب. مالفينسكي وأ. ر. رد كلييف براون، وكانا مناوئين بحزم لكل ضرب من التاريخ المستند الى الفرضيات. وكانت الطريقة الوظائفية المدققة المتبعة في دراسة المجتمعات الافريقية من قبل علماء الانثروبولوجيا البريطانيين بين ١٩٣٠ — ١٩٥٠، تتجه نحو تثبيت الاهتمام التاريخي فيهم حتى ولو يفضل عملهم الميداني، فلقد كانوا في وضع استثنائي ملائم للحصول على المعطيات التاريخية. ولكنه بقي تقليد أقدم من الإثنوغرافيا على القارة الاوربية (وأیضا في أمريكا الشمالية ولأن قليلا من علماء الانثروبولوجيا الاميركان عملوا في افريقيا قبل سنة ١٩٥٠) تقليد يضم من بين خواصه أنه كان يعبر الثقافة المادية من الانتباه أكثر ما يعبره للبنية الاجتماعية.

فكانت نتيجة ذلك كمية كبيرة من الاعمال ذات الأهمية التاريخية ككتاب «ملك جندا»

(٢٣) من الطريف أن نلاحظ أن الطبعة الحالية المصلحة، أي الرابعة، من «عروق افريقيا» (١٩٦٦) يوجد فيها ص ٦١، جملة مهمة لا توجد في الطبعة الاصلية سنة ١٩٣٠، يحدد فيها الشاميون بكونهم «أوربيين»، أي أنهم ينتمون الى عين العرق العظيم من البشرية العرق الابيض.

(٢٤) مرجري برهام: لوقارد، سنون السلطة (١٩٦٠) ص ٢٣٤.

لطور ارستام (١٩٤٤)، «وتجارة غينيا» للسيرسند ستروم (١٩٦٥). على أنه مما يستحق خاصة مؤلفان (Völkerkunde Von Afrika) لهرمن بومن (١٩٤٠)، و «عمل افريقيا» لديدريش وسترم (١٩٥٢) الكتاب الأول هو دراسة موسوعية للشعوب والحضارات الافريقية التي اهتمت اهتماما كافيا بما عرف من تاريخها، ولا يقاس به أي مؤلف آخر في مجلد واحد. أما الكتاب الثاني: «افريقيا شعوبها وتاريخ ثقافتهم» (١٩٥٩) بقلم الانتروبولوجي الامريكاني ج. ب. مردوك فانه ضعيف المقارنة اذا أعوزت مؤلفه، في هذا المجال، تجربة زيارة مباشرة لافريقيا، كان من شأنها أن تمكنه من تقييم مواده، وكذلك لأنه تقدم أحيانا بصور تخيلية لها من التطرف في نوعها، ما لصور سليقمان ولو أنها أقل خبثا (٢٥). وأما وسترمان فقد كان خاصة لغويا، وكتابة عن تصنيف لغات افريقيا، هو في كثير من النقاط رائد لكتاب قرينبرغ. كما وفر لكتاب بومن قسا لغويا، الا أن كتابه (عمل — Geschichte Afrikas) قد أسفدته من سوء الحظ النظرية الحامية وهو أيضا مجموعة ثمينة من الروايات الشفاهية الافريقية كما كانت موجودة في عصره.

ومن الممكن أن نضيف الى هذه الكتب كتاب ه. أ. ويشوف «ثقافة زيمبابوي ومنوموتابا» (١٩٤٣)، على الاقل، لنقدم استاذة ليوفرو بينيوس. كان هذا عالم أجناس انتروبولوجي متخصصا في الثقافات، ولكنه أيضا عالم آثار ومؤرخ. وفي مدة نشاطه الموافقة تقريبا للاربعين سنة الاولى من القرن العشرين، كان بلا شك أخصب مؤرخي افريقيا نتاجا، فقام بنقد وافر من الأشغال الميدانية في كل أقسام القارة الافريقية تقريبا وعرض نتائجه في سلسلة منتظمة من المنشورات، ولكن قليلا من الناس من يطالعها اليوم. لقد كان يحور بالالمانية وهي لغة تضاءلت قيمتها منذ ذلك الوقت بالنسبة الى افريقيا والاختصاصيين في الدراسات الافريقية. وقد ترجم عدد قليل من آثاره، وكثيرا ما يصعب نقل مدلولها اذ تراكم فيها النظريات الخرافية المتعلقة بالاطلنتيد وبتأثير أترسكي على الثقافة الافريقية الخ...

في نظر المؤرخين وعلماء الآثار والانتروبولوجيين العصر بين الذين نشأوا نشأة صارمة، يلوح فرو بينيوس عصاميا أصيلا، ولكن قيمة أعماله تتناقص ليس فقط بسبب تفسيراته المغامرة بعض الشيء، بل أيضا بطريقة عمله السريعة السطحية وأحيانا الهدامة، الا أنه حصل على نتائج، سبق البعض منها سبقا واضحا نتائج باحثين أشد علما أتوا بعده، والبعض الآخر قد يكون من الصعب أو المتعذر الحصول عليها في الظروف الراهنة. ويظهر أنه كان له بالطبع موهبة بل ثقة المخبرين لاكتشاف المعطيات التاريخية. وقد يكون المؤرخون العصر يون ملهمين اذا بحثوا عن هذ المعطيات في



مؤلفاته وقوموها بحسب المعارف الحالية، متحررين من التفسيرات الاعتبارية التي كان يضيفها اليها (٢٦).

ومظاهر الطرافة التي تتميز بها عبقرية عصامية كعبرية فروبينوس التي كانت تستمد وحيا من ذاتها، كان لها من النتيجة أن دعمت المؤرخين المحترفين في ما كان لهم من رأي، من أن تاريخ افريقيا لم يكن حقلا مقبولا لمهنتهم، وعملت على غرض الطرف عن كثير من الاعمال الجدية التي تم القيام بها في الفترة الاستعمارية. ومن العوامل التي كان لها دور، زيادة اهتمام الاوربيين بافريقيا مما أعطى الافارقة أنفسهم صنوفا مختلفة من الثقافات المكتوبة، فكنتهم من التعبير عن اهتمامهم الذاتي بتاريخهم الخاص: وكان هذا هو الشأن خاصة في افريقيا الغربية، حيث كان الاحتكاك بالاوربيين أطول مدى وأبقى، وحيث وجد اقبال على العلم الاوربي منذ بداية القرن التاسع عشر، وبخاصة في الجهات التي صارت فيما بعد مستعمرات بريطانية. كما أن علماء طبينكتو الذين اعتنقوا الاسلام شرعوا في كتابة تواريخهم باللسان العربي، أو بلغة أعجمي، كذلك في نهاية القرن التاسع عشر أجس الافارقة الذين تعلموا الأبجدية اللاتينية بالحاجة الى تسجيل معلوماتهم عن تاريخ شعوبهم بالكتابة خشية أن يتم استلاب الشعوب من قبل الاوربيين وتاريخهم.

ومن أشهر الآثار من هذا النوع، تلك التي كتبها أفارقة كان لهم نشاط كما كان لمصنفي التواريخ قبلهم — في دين الثقافة المستوردة، واشتقت منه أسماؤهم، نذكر منها «تاريخ شاطئ الذهب وأسنت» لصاحبه كارل كريستيان ريندورف (١٨٩٥) «وتاريخ اليوروبا» لصامويل جونسون (تم سنة ١٨٩٧ إلا أنه نشر سنة ١٩٢١) فكلها كتاب تاريخ جدي للغاية. وحتى اليوم ما من أحد في وسعه أن يقوم بعمل في تاريخ اليوروبا بدون أن يرجع الى جونسون. ولكنه لا مناص بدون شك من أن تتبع محاولات في التاريخ من هذا المستوى، بأعمال رواد القومية الأولين ابتداء من ج. أ. ب. هرتن (١٨٣٥ — ١٨٨٣) وأ. و. بليدن (١٨٣٢ — ١٩١٢) الى ج. م. سرباخ (١٨٦٤ — ١٩١٠) وج. أ. كازلي هيفرد (١٨٦٦ — ١٩٣٠) وج. ب. دنكه (١٨٩٥ — ١٩٦٥) الذين تناولوا العديد من المسائل التاريخية. ولكن غالبا لأغراض دعائية. ولعل ج. و. دوكرت جونسون، (بين القومية في افريقيا الغربية) (١٩٢٨)، (الجغرافيا التاريخية لساحل الذهب) (١٩١٩) وأ. ج. ب. براون (قارئ ساحل الذهب وأسبانت) (١٩٢٩) ينتميان الى كلا النوعين: ولكن فيما بعد يلوح أحيانا في بعض الأعمال اتجاه الى تمجيد الماضي الافريقي لمقاومة وهم التفوق الشقائي الأوربي، مثلا لدى ج. و. لوكا «ديانة يوروبا» (١٩٤٩) وج. س. كرافت جونسن (مجد افريقيا) (١٩٥٤)، وقد أظهر بعض المصنفين الاوربيين عين الوجهة، مثلا ايفال ر. ميبروفتر في

(٢٦) من المستحيل في فصل من هذا الطول أن نعطي كثرة انتاج فروبينوس حقه، وكان آخر كتاب تأليف له «العمل الثقافي الافريقي» (فيينا ١٩٣٣)، ومؤلفه الأكثر أهمية كما يبدو مجموعته في ١٢ مجلدا: اطلنطيس.. (فيينا ١٩٢١ — ١٩٢٨)، ولكنه ينبغي أن نذكر أيضا كتابا وصفها رحلاته: مثلا اليوروبا ومنسي: وافريقيا تقول (برلين شرلوطبورغ ١٩١٢ — ١٩١٣). انظر المصادر الكاملة في فريد كرتشمير: ليوفرو بينوس (١٩٣٨)، وبعض الفصول الانكليزية الحديثة (مثلا د. ك. م. ايتا فرو بينوس في تاريخ افريقيا الغربية) «المجلة التاريخ الافريقي» ٤، (١٩٧٢)، والمصنفات المذكورة في هذا الفصل كل ذلك يوحي بتجدد الاهتمام آثار فروبينوس.

كتبها عن الاكان، فهي تسعى الى منحهم أجدادا وأجدادا من البحر الابيض المتوسط، شبيهين بما كان يرمي اليه لوكا بالنسبة الى اليوروبا (٢٧).

على أنه في اطار أضيق، تمادى بعض الافارقة في تسجيل التقاليد التاريخية المحلية بكيفية جدية موثوق بها. ويبدو أنه كان لأهمية الاتصالات بالمبشرين المسيحيين وعمقتها دور كبير. فاوغندا مثلا قد أنجحت مدرسة مهمة من المؤرخين المحليين منذ عصر أ. كغوا (الذي نشر كتابه الأول سنة ١٩٠٦) بينما استقر أ. ر. س. س. لاو، ٢٢ مؤرخا، في بلد يوربا، نشروا تأليفهم قبل ١٩٤٠ غالبا (٢٨)، كمصنفي أوغندا، باللغات المحلية. واشتهر أحد مصنفات هذا النوع وهو كتاب «تاريخ مختصر لبنان» ألفه ج. أ. اكارفا الذي أعيد طبعه عدة مرات، منذ نشرته الأولى سنة ١٩٣٤.

ومن جهة أخرى، فإن بعض المستعمرين ذوي العقل الذكي النابه، كانوا يسعون الى الوقوف على تاريخ من كانوا أتوا لتسييرهم والى تسجيله، فكان في نظرهم للتاريخ الافريقي أيضا قيمة عملية، فكان في وسع الاوربيين أن يكونوا اداريين أفضل مما هم عليه لو كان لهم بعض المعرفة بماضي الشعوب التي استعمروها، ثم انه كان من المفيد أن يلحق شيء من التاريخ الافريقي في المدارس التي أنشأوها شيئا فشيئا هم ومواطنوهم المبشرون، على الأقل كتمهيد لدراسة موسعة. للتاريخ الانكليزي أو الفرنسي، المخصص لتمكين الافارقة من اجتياز الشهادات المدرسية والبيكالوريات، ولانتدابهم كمساعدين شبه اوربيين ذوي قيمة ثمينة.

وقد ذكرنا أنفا فلورا شاو وهنري جونسون وموريس دولافوس، وأيضا إيف ارفاي وريشمند بلمر. وقد ألف غيرهم مصنفات تاريخية عن افريقيا خالية تقريبا من قبلات ثقافية، ولو أنهم أحيانا (هم أو ناشروهم) اختاروا عناوين غريبة، مثلا «خرافات الاصيل من باقندا السوداء» (١٩١٢) لروث فشر، و«بلاد الزنج» ل. س. ه. ستيفند (١٩١٣)، «أسرة مالكة متضائلة: اشنتي» (١٩٢١) للسير فرنسيس فلر، وهي على حسب تقاليد بوديش ودبوى، و«قوافل الصحراء القديمة» أ. و. بوفيل (١٩٣٣)، والعديد من المصنفات ذات الصبغة العلمية لشارل مونتاي (مثلا: امبراطوريات مالي ١٩٢٩) أو لويس طوكيه (مثل: تاريخ النجرا ١٩٤٢). ولعل الفرنسيين قد نجحوا أكثر من الانكليز في كتابة تاريخ افريقي صرف، فكان من أقوى مؤلفات هؤلاء المتجهة بعزم نحو محور أوربي، كتاب «تاريخ ساحل الذهب والشنتي» (١٩١٥) ل. و. و. كلاردج أو «تاريخ القمبيا» (١٩٤٠) لسيرجون قراي — ولكن ماعدا بعض الفصول الحديثة من نفس المؤلف، عن افريقيا الشرقية، ومن الجدير بالذكر أيضا أن عددا من المديرين الفرنسيين عند عودتهم الى فرنسا (مثلا دولافوس، جورج هردى، هنرى لابيوري) (٢٩) شرعوا في كتابة توارخ مخصصة عامة، إما للقارة بأكملها، أو لمجموعة افريقيا جنوبي الصحراء. وسبب ذلك أن الادارة الاستعمارية الفرنسية، كانت ترمي الى الحصول على هياكل أكثر تدقيقا من الادارة الانكليزية للتكوين والبحث، ولتذكر من ذلك (سنة ١٩١٧) انشاء لجنة دراسات تاريخية وعلمية في افريقيا الغربية الفرنسية ومجلتها، وقد

(٢٧) «دولة الاكان المقدسة» (١٩٥١) «التقاليد الأصلية للاكان» (١٩٥٢) الاكان في غانة معتقداتهم القديمة (١٩٥٨).

(٢٨) انظر، ر. س. س. لو. أقدم كتابة تاريخية عن اليوروبا (١٩٤٠).

(٢٩) موريس دولافوس: سود افريقيا (باريس ١٩٢١)، جورج هردى: نظرة عامة من تاريخ افريقيا (باريس ١٩٣٧)، هنري لابيوري: تاريخ سوكا افريقيا (باريس ١٩٤٦).

آل الى المعهد الفرنسي بافريقيا السوداء الذي كان مركزه دكاكار (١٩٣٨) مع نشرته وسلسلة مذكراته ومن هناك الى آثار ضخمة كاللوح الجغرافية لغربي أفريقيا في القرون الوسطى (١٩٥١) بقلم ريمون موني. ومع ذلك فان مؤرخي الفترة الاستعمارية بقوا هواة خارج التيار الرئيسي لمهنة المؤرخ. وكان ذلك يصح بالنسبة الى فرنسا كما يصح بالنسبة الى بريطانيا العظمى، اذ أنه لئن أحرز رجالا أمثال دولافوس ولابوري على مناصب جامعية عند عودتهم الى فرنسا، فان هذه المناصب كانت لتدريس اللغات الافريقية أو الادارة الاستعمارية، لا كمؤرخين دراسيين.

ومن ١٩٤٧ عملت الجمعية الافريقية للثقافة، ومجلتها: «الحضور الافريقي» على ارساء تاريخ افريقي مجرد من الصبغة الاستعمارية، وفي الوقت نفسه شرع جيل من المثقفين الافارقة الذين تمكنوا من التقنيات الاوربية لسبر الماضي، في تحديد نظرية خاصة ازاء الماضي الافريقي، والبحث فيه عن مصادر الاصال الثقافية التي أنكرها الاستعمار، فدقق هؤلاء المثقفون تقنيات المنهجية التاريخية وافسحوا مجالها، مطهرين اياها من عدد من الخرافات والقبليات الذاتية. ولا بد في هذا الصدد من ذكر الملتقى الذي عقدته اليونسكو بالقاهرة ١٩٧٤. فسمح لباحثين افارقة وغير افارقة ان يقابلوا آراءهم بحرية عن مشكل عمران مصر القديمة وسكانها.

وظهر في عام ١٩٤٨ «تاريخ ساحل الذهب» لو. أ. ف. ورد وفي السنة نفسها أنشئ بجامعة لندن منصب «محاضر» في التاريخ الافريقي بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية، وأسند هذا المنصب الى الدكتور رولاند أليفيه، ومنذ ذلك العهد شرعت بريطانيا العظمى في برنامج نشر الجامعات في الاراضي التابعة لها: انشاء معاهد جامعية في ساحل الذهب ونيجيريا، رفعت كلية قوردن باخرطوم ومكريري يكمبلا الى المستوى الجامعي. وتم عين العمل في المستعمرات الفرنسية والبلجيكية. فأنشئت سنة ١٩٥٠ المدرسة العليا للآداب بدكاكار، ثم صارت بعد مضي سبع سنوات جامعة فرنسية ذات حظ كامل. وبدأت لوفانيوم أولى جامعات الكونغو (فيا بعد الزاير) في عملها سنة ١٩٥٤.

ومن وجهة نظر التدوين التاريخي الافريقي، فان تعدد الجامعات الجديدة منذ ١٩٤٨ كان له مغناه أكثر مما كان لوجود المعاهد القليلة التي أنشئت من قبل، فكانت تعيش بضعف نظرا الى قلة امكانياتها، ومن تلك كوليچ ليبيريا بمنروفيا وكوليچ فوره باي بالسيراليون وقد تم انشاؤها سنتي ١٨٦٤ و ١٨٧٦.

ثم ان الجامعات التسع التي كانت سنة ١٩٤٠ في افريقيا الجنوبية، كانت تفت في ساعدها سياسة التمييز العنصري لنظام بريتوريا: فكان البحث التاريخي والتعليم في هذا الميدان يدوران حول مركز أوربا وما كان تاريخ افريقيا سوى تاريخ المستوطنين البيض.

وكل الجامعات الحديثة، بالعكس، قد أحدثت أقساما للتاريخ مما دعا، لأول مرة، المؤرخين المحترفين بعدد وافر الى العمل في افريقيا. ولم يكن من بد في البداية من كون أغلب هؤلاء المؤرخين من جامعات غير افريقية. ولكن الافارقة أتت بسرعة، وأول مدير افريقي لقسم التاريخ كان الاستاذ ك. و. ديك الذي عين في إبادان سنة ١٩٥٦. وتكون عدد من الطلبة الافارقة، وأحسن المدرسون الافارقة عندما صاروا مؤرخين محترفين بالحاجة الى الزيادة في نصيب التاريخ الافريقي في

مناهجهم، وإذا ما كان هذا التاريخ مازال لم يعرف الا قليلا، أحسوا بحاجة اكتشافه بواسطة بحوثهم.

فمنذ ١٩٤٨ صار التدوين التاريخي بإفريقيا يقترب تدريجيا مما هو عليه في أي جزء آخر من الدنيا، نعم ان له مشاكله الخاصة كالضالة النسبية للمصادر المكتوبة بالنسبة الى الفترات القديمة، مما أوجب تنمية المصادر الأخرى كالروايات الشفاهية واللغوية وعلم الآثار. على أن التدوين التاريخي الإفريقي، وان هوساهم مساهمات جلييلة فيما يخص استغلال هذه المصادر وتفسيرها. فهو لا يتميز أساسا عنه في سائر بلدان الدنيا (أميركا اللاتينية وآسيا وأوروبا)، التي تواجه مشاكل مشابهة لمشاكله.

على أن مردود المواد ليس بالأمر الاساسي عند المؤرخ، بل ان العمل المهم يتمثل في استعمال الشواهد استعمالا نقديا ومقارنيا، لخلق وصف ذكي دال على الماضي. والمهم أيضا أنه منذ خمس وعشرين سنة أكنبت جماعات من الجامعيين الافارقة على مهنة المؤرخ. ودراسة التاريخ الإفريقي اليوم نشاط مركز لاختصاصيين من أعلى مستوى. وسيضمن نشرها فيما بعد بفضل التبادلات بين الافارقة، والروابط بين جامعات إفريقيا وجامعات بقية الدنيا. ولكنه ينبغي أن نؤكد أن هذا التطور الايجابي لم يكن ممكنا لولا تحرير إفريقيا من نير الاستعمار. فثورة مدغشقر المسلحة سنة ١٩٤٧، واستقلال المغرب سنة ١٩٥٥، وحرب الشعب الجزائري البطولية وكفاحات التحرير في المستعمرات الإفريقية كلها، قد ساهمت مساهمة قوية في هذا العمل اذ هي كانت تخلق للشعوب الإفريقية امكانية الرجوع الى الالتصاق بتاريخها الذاتي وتنظيم مراقبته. وقد أدركت اليونسكو مبكرا هذه الحاجة، فأثارت أو شجعت لقاءات الاختصاصيين، ووضعت وهي على حق، كشرط مسبق ضروب الجمع المنسق للروايات الشفاهية. وتلبية لرغبة المثقفين والدول الإفريقية، أوعزت اليونسكو منذ ١٩٦٦ بفكرة تحرير تاريخ عام لإفريقيا. ويجري التنفيذ الفعلي لهذا المشروع العظيم منذ سنة ١٩٦٩ تحت إشرافها.

# مكانة التاريخ في المجتمع الأفريقي

بوبو هاما وج. كي. زيربو

الانسان حيوان تاريخي ولا يشذ الانسان الافريقي عن هذا التعريف. فلقد كَوّن الافريقي تاريخه كَمَا هو الشأن في كل مكان، وكَوّن لنفسه فكرة عن هذا التاريخ. وفي مستوى الوقائع، ان الأعمال وبراهين الطاقة المبدعة، هي هنا، تحت أبصارنا تحمل شكل أعمال تطبيقية زراعية وأساليب في الطبخ، ومعالجات بالأدوية، وحقوق عرفية، ونظم سياسية، ومنتجات فنية، ومناسك دينية، وآداب سلوك مدققة. لقد انشأ الأفارقة منذ ظهور بني البشر الأولين وطيلة آلاف السنين، مجتمعا مستقلا تشهد حيويته، على عبقرية منشئه التاريخية. وهذا التاريخ الذي ولده العمل التطبيقي تصوره فيما بعد مبدئيا كمشروع بشري. ثم هوانعكس واستبطن من قبل الافراد والمجموعات، وصار بذلك اطارا للفكرة ومرجعا ومخلا شعوريا وفكريا، ومبررا للعيش، واطارا للحياة أي «انموجا».

ولكن الضمير التاريخي انعكاس لكل مجتمع، بل لكل طور ذي دلالة من تطورات كل مجتمع، فلا غرابة اذا حل تصور الأفارقة لتاريخهم وللتاريخ بصفة عامة علامة غموض الخاص. ويكفي انزال المجتمعات وحده ليكيف النظرة التاريخية تكييفا دقيقا. فلك موسى (قولنا العليا) مثلا كان يلقب بموغونابا، أي ملك العالم، مما يوضح اثر الضغوط التقنية والمادية على الفكرة التي تكون عن الوقائع الاجتماعية السياسية، فيلاحظ مثلا أن الزمن الافريقي زمن خرافي اجتماعي، ولكن الافارقة أيضا يشعرون أنهم صانعو تاريخهم الذاتي، ثم اننا سنرى أن هذا الزمن الافريقي زمن تاريخي حقا.

## الزمن الخرافي والزمن الاجتماعي

يحس القارئ لأول وهلة وعند مطالعة العديد من المؤلفات التكنولوجية، أن الافارقة كانوا مغمورين غارقين في الزمن الخرافي، وهو محيط فسيح لا شاطئ له ولا معالم، بينما كان سائر الاقوام يقطعون شارع التاريخ، وهو محور لحد له تقوم عليه مؤشرات الرقي. نعم ان الخرافة أي تصوير الماضي تصويرا عجيبا طالما ساد فكر الافارقة في تصورهم لدور حياة الشعوب.

وصل ذلك الى حد، أن اختيار الأحداث الواقعية ومدلولها كانا تابعين لأنموذج «خرافي» كان يقدر حتى أتفه الحركات لدى الملك أو الرعية. وكانت الخرافة تتحكم هكذا في التاريخ بأصناف من العوائد المنتمية الى ما وراء الزمن، وتحمل أيضا مسؤولية تبرير التاريخ. وفي هذا السياق ظهرت ميزتان واضحتان للتفكير التاريخي: عدم تقيده بالزمن، وما له اساسا من بعد اجتماعي.

ففي هذه الحالة، ان الزمن ليس هو الديمومة التي تنظم المصير الفردي بل هو النظام التنفسي للمجموعة. وليس هو نهرا يجري في اتجاه واحد من منبع معلوم الى مصب معلوم. وفي البلدان النامية صناعا حتى النصارى يجعلون فرقا واضحا بين «نهاية الأزمان» وبين الأزل. وقد يكون ذلك لأن الانجيل يقابل مقابلة واضحة بين هذه الدنيا الانتقالية وبين العالم الآتي، ولكن لأن الزمن البشري، بهذا الطريق ولأسباب أخرى، زمن علماني فعلا، والزمن التقليدي الافريقي يشمل ويضم الأزل من قبل ومن بعد، فالأجيال الماضية ليست مفقودة بالنسبة للزمن الحاضر، بل تبقى بشكل مادامنا معاصرة ولها من الاثر ما كان لها منه في حياتها بل أكثر منه، وهكذا تعمل السببية بدون شك من السابق الى اللاحق ومن الماضي الى الحاضر ومن الحاضر الى المستقبل ليس بواسطة الأحداث وبما للحوادث الماضية من وزن فقط، بل بجملة مباشرة قد تكون على كل الاتجاهات، فلما أرسل امبراطور مالي كنكو موسى (١٣١٢ - ١٣٣٢) رسولا الى ملك ياطنقا يدعوه الى الدخول في الاسلام، أجابه الأمير موسى أنه لا بد له من أن يستشير أجداده قبل أخذ هذا القرار. فيلاحظ هكذا كيف يرتبط الماضي مباشرة بالحال عن طريق العقيدة، وكيف ينتصب الأجداد قيمين مباشرين ممتازين على أمور تحدث بعد قرون. وفي بلاطات العديد من الملوك نرى موظفين مكلفين بتفسير الرؤى، كان لديهم نفوذ كبير في العمل السياسي المزمع القيام به، فكان هؤلاء المعبرون للأحلام بمثابة وزراء المستقبل. ويذكر في ذلك أن ملك روندا «مازي مياكا يوهي» الثالث (في نهاية القرن السابع عشر) رأى في المنام رجالا وضاحي اللون قادمين من الشرق، فحمل الأقواس والسهام ولكنه قبل أن يرميهم بالسهم زيناها بموزناضج، فجاء هذا السلوك تعبيرا عن صفة المهاجم والمستقبل في آن واحد، أي عن السلوك المرتبك غير الواضح، مما غرس في الضمير الجماعي الروندي صورة متميزة قد لا تكون غريبة عن ظاهرة عدم الصمود في القتال عند هذا الشعب، الذي مارس رغم ذلك الحروب ضد جحافل الألمان في القرن التاسع عشر، وقد شبت بالوجوه البيض التي رآها الملك في حلمه قبل ذلك بقرنين. وفي مثل هذا الزمن «المعلق» قد يكون للحاضر عمل فيما يعتبر ماضيا، ولكنه يبقى معاصرا. ودم ضحايا اليوم تدخل السرور على أجداد الأمس، وحتى اليوم، فان بعض الأفارقة يحرصون أقرباءهم كي لا يغفلوا عن تقديم القرابين باسم من مات من آبائهم، اذ من لا يتقبل شيئا من القرابين يبقى ضمن الطبقة الفقيرة في العالم الموازي، عالم الأموات، ويضطر الى العيش بما يمه به

المحظوظون الذين قدمتم «ضحايا» جلية باسمهم. وبصفة أعمق، ان بعض المذاهب الكونية تسجل في حساب زمن خرافي، انجازات تقدمية تحققت في زمن تاريخي، لم يعرف بنفس الشكل من كل شخص، فردته ذاكرة المجموعة الالاتاريخية. ومن ذلك قصة جيكونيو التي تخبر عن مولد صناعة الحديد: إن موقاي (الإله) قسم الحيوانات بين الرجال والنساء، الا أن النساء كن قاسيات جدا، ففرت حيواناتهن وصارت وحشية. فتوسط الرجال لدى موقاي في سبيل نساكنهم وقالوا: «نريد أن نكرمك بذبح حمل الا أننا لا نود أن نذبحه بموسى من خشب لكي لا نفع فيما وقع فيه نساؤنا من الأخطار» فشكرهم موقاي على حكمتهم، وعلمهم طريقة صهر الحديد ليحصلوا على أسلحة أشد فاعلية.

وكان لهذا المفهوم الخرافي والجماعي من القوة ما جعل الزمن من علامات سلطة الزعماء، فكان الملك سلوك المستودع الفاني لسلطان أبدي، اذ تجمع فيه الزمن الخرافي (و يتجسم فيه البطل الفاتح) والزمن الاجتماعي ويعتبر منبع الحيوية للمجموعة. ولدى البغولارو في الزاير الشرقي، كما لدى البونيورو (أوغندا) ولدى الموسي (فولتا العليا) فان الرئيس هو دعامه الزمن الاجتماعي: «اذا الموامي حاضر فالشعب يحيا، وان غاب الموامي يموت الشعب. فوات الملك قاسم للزمن، يوقف كل نشاط والنظام الاجتماعي، وكل عبارة للحياة من الضحك حتى الزراعة والإجتماع الجنسي لدى الحيوانات أو الناس، وفترة ما بين ملكين، هي بمثابة قوسين في الزمن، وانتصاب ملك جديد يخلق وحده، من جديد، الزمن الاجتماعي، وينفخ فيه روحه ويعمره من جديد، وكل شئ شامل الحضور في هذا الزمن الخارج عن الزمن في الفكرة الوثنية، حيث يمثل الجزء الكل وقد يكون دالا عليه، مثل ذلك الشعر والأظفار التي يتحفظ الانسان من اسقاطها بين يدي العدو خشية أن يكون له أن يضع يده على الشخص ذاته.

نعم انه ينبغي أن نرتفع الى مستوى المفهوم العام للعالم كي ندرك نظرة الزمن عند الأفارقة ومدلوله العميق. فنشاهد عند ذلك في التفكير التقليدي. ان الزمن الواقع تحت حواسنا ما هو الا مظهر من مظاهر زمن آخر عاشته أبعاد أخرى من الانسان، وعندما يأتي المساء ويمتد الرجل على حصيره أو فراشه قصد النوم، فذاك هو الوقت الذي يختاره شخصه الثاني ليذهب كي يستعيد الطريق الذي سلكه الانسان طيلة اليوم، ويحل بالاماكن التي حل بها، وان يعيد الحركات والأعمال التي قام بها في حالة الشعور مدة الحياة اليومية، وخلال هذه التحولات يصطدم الشخص الثاني بقوى الخير وبقوى الشر وبلائكة الخير، كما يصطدم بالسحرة آكلي الأشخاص النسخة الثانية أو «سركو» (في لغة سنغاي وزرما). وانما تحمل شخصية الفرد في خياله أو نسخته الثانية، يقول السنغاي ان خيال الرجل ثقيل أو خفيف ليعبر عن كون شخصيته قوية أو هزيلة، والغرض من التأميم تقوية الخيال وحمايته، والمطمح الاعلى أن يصل الانسان الى أن ينطبق على خياله. وأن ينصهر فيه حتى لا يتكون منها سوى هوية واحدة تبلغ من الحكمة والقوة درجة فوق البشرية.

وحيث لا يكون الزمان (والمكان) من العقبات، لا يبلغ هذه الحالة سوى العريف الأكبر، المعلم (كرتي كونيئو، زمباء) وكذلك كان حال سبي جد العائلة المالكة، كان والد السبي مفزعا، أبو الرعود، واذا ما تعفن سنه عمد الى أكل الحصى؟ واذا ما كان له التآب في الملتحمة اذاك يؤقد النار باهرة، وهو يسح الارض بخطاه الفسيحة وهو في كل مكان ولا يحل بمكان.



● تمثال صغير من البرونز يمثل سلطنة سلالة السنغاي (تيرا، النيجر)، (كليشييه أ. ساليغو).



ان الزمن الاجتماعي والتاريخ الذي عاشته المجموعة هكذا، يجمع السلطان الذي يرمز اليه غالبا و يتمثل في شيء يسلمه الجد أو رئيس القبيلة أو الملك الى من يليه، وقد يكون هذا الشيء كرة من ذهب محفوظة في طبل الحرب مجمعة مع عناصر اقتلعت من جسم الأسد والفيل والفهد، وقد يحتفظ بهذا الرمز في علبه أو كنار، كالرقى (طيبو) التي كانت للملك موسي. وعند السنغاي — زرما هو قضيب من حديد حاد من أحد الطرفين، وعند السركو من امبراطورية قاو القديمة كان ذاك صنما في شكل سمك عظيم في خيشومه حلقة، وعند الحدادين هو موقد حدادة يحمر أحيانا ليلا ليبر عن غضبه، وكان نقل هذه الأشياء يمثل الاسناد القانوني للسلطة. وأعجب مثل هو مثل السونينكي ذرية سني علي. اذ لهم سلاسل من ذهب وقضة أو نحاس تمثل كل حلقة منها جدا من الأجداد، وتمثل المجموعة السلسلة العائلية المالكة حتى سني العظم. وأثناء حفلات سحرية تلفظ هذه السلاسل بمحضر جمهور معجب، وعند الممات ينقل الأب الأكبر السونينكي مرة أخيرة قاذفا السلسلة، ويبلغها من طرفها الثاني الشخص الذي اختاره خلفا له، ويموت اثر تسليمه السلسلة الى من يكون عليه أن يكون استمرار له، وهذه الوصية العملية توضح بجلاء قوة المفهوم الإفريقي للزمن الخرافي والزمن الاجتماعي، وقد ظن أن هذه النظرة للحركة التاريخية نظرة لا حركية عقيمة، اذ وضعت المثل الأعلى في الماضي عند أصل الزمن ويبدو أنها تفرض على جحافل الأجيال أن يكون مثلها في تكرار معجز لحركات الجد ولما أثره. أفليست الخرافة المحرك لتاريخ ساكن؟

سنرى أنه لا يمكن أن نكتفي فحسب بنظرة التفكير التاريخي عند الأفارقة وحدها.

على أنه لا بد أن نعترف أن النظرة الخرافية توجد في أصل التاريخ عند عامة الشعوب، وكل تاريخ في اليد تاريخ مقدس، وهذه النظرة نفسها تتبع التطور التاريخي، فتلوح من حين الى آخر في أشكال عجيبة أو غريبة. ومن ذلك الرمز القومي الذي جعل أحد رؤساء الدول المعاصرين المشهورين يتوجه بالحديث الى بلاده، كما لو توجه الى انسان حي، بينما تتجسم خرافة العرق في النظام النازي في طقوس نابعة من أعماق التاريخ، فتعبد ملايين العباد في سبيل المذابح التي نعرفها.

## هل يشعر الأفارقة أنهم هم صانعو تاريخهم؟

نعم ان للانسان الإفريقي منذ عدة قرون أسبابا متعددة لكي لا يكون بؤرة لوعي مسؤول. فكثيرا ما روضته أوامر الضغط الخارجية المزيلة للشخصية، وحتى بعيدا عن شاطئ العبيد وعن المركز الذي يسيطر عليه الحاكم الأبيض، لم يخل من أن يوسم في زاوية من زوايا روحه بميسم العبودية المبيد.

وكذلك في الفترة السابقة للاستعمار، فلقد كان يبدو على عديد من المجتمعات الإفريقية البسيطة شبه المغلقة، أن أفرادها ما كانوا يعون أنهم يصنعون التاريخ، الا على سلم محدود جدا، وفي مستوى محدود غالبا وضمن نطاق الإسرة العظمى، وفي اطار رقابة تقليدية عسيرة ثقيلة تقوم على زعامة الشيخ. على أنه حتى في هذا المستوى بل خاصة في هذا المستوى، كان الشعور بالتنظيم الذاتي للمجموعة وبالحكم الذاتي جادا قويا، فالفلاح اللوي والكباري في قريته، عندما يكون «رب

بيت» (١) كان يشعر أنه يتحكم تحكما فسيحا في مصيره الذاتي. وأقوى دليل، هو أنه في هذه الجهات ذات «الفوضى» السياسية حيث كانت السلطة أحسن الأمور المقسمة بين الناس، قد لاقى الفاتحون من بين المستعمرين أشد الصعوبات في تمرّكهم وفرض سلطتهم.

وكان الاعتصام بالحرية هنا الحجة على تذوق المبادرة ورفض الاغتراب. وبالعكس في المجتمعات ذات البنيات القوية كان المفهوم الإفريقي للرئيس يمنحه مكانة بارزة في تاريخ الشعوب التي يتجسم فيه مشروعها الجماعي. فلا غرابة إذن أن تسرد الرواية كل التاريخ الأصلي للمالنكي في صورة «مدح سندجاتا»، والأمر نفسه بالنسبة إلى سني علي عند السنغاي في منعطف النيجر، فلا يعبر هذا البتة عن اشتراط ايديولوجي يقتل الفكر النقدي، وكذلك في المجتمعات التي يكون فيها القول أداة الأخبار الوحيدة، كان للسلطات التي ترأب شبكة قوية من الكهنة امتياز خاص تقرّبا لنشر «الحقيقة» الرسمية. ولكن الكهنة ليسوا جمعا موحدا «مؤمما».

ثم أن أحدث تاريخ لافريقيا قبل الاستعمار، يبرهن أن مكانة الزعماء الافارقة في تصورات أذهان الناس ليست من المغالى فيه. فن ذلك حالة «شاكّا» الذي صنع حقا «قوم» الزولو في خضم المعارك. إن كل ما تمكنت الشواهد المكتوبة أو المروية شفاهيا من لمسه من عمل شاكا، كان ولا شك حادثا، عدة مرات في التطور التاريخي الإفريقي. ويرجع تشكيل الفرق الموكلة، كما قيل لنا، إلى سندجاتا، وعمل اسي توتو كعمل انوكي في انشاء «القومية» الاشنتي، يلوحان في مستوى الفكرة التي كانت للاشنتي فيها حتى اليوم، خصوصا وان فكرة الزعيم المحرك للتاريخ تكاد لا تقتصر أبدا على صورة مبسطة تعزو كل النمو البشري إلى شخص واحد.

وفي غالب الأحيان ينحصر الأمر في مجموعة دينامية عرفت بذلك، ولم يغفل عن مصاحبة الزعماء. حتى من كانوا من مستوى وضع (الكهنة والناطقين باسمهم والخدمة) فيلجئون التاريخ كأبطال.

ويصح الأمر نفسه فيما يخص النساء اللاتي يخللن في الضمير التاريخي الإفريقي، خلافا لما صرح به وكرر تكرارا كبيرا، مكانة بدون شك أهم من مكانته في خارج إفريقيا. وهذا يدرك بسهولة في المجتمعات ذات النظام الخطي الامومي. ففي وانزربا التي تقع قرب تيرا (بالنيجر) حيث السيادة على نظام الامومة، عين الفرنسيون في عهد الاستعمار رجلا ليحكم في هذه المجموعة حتى يكون لسكان هذه القرية عين النظام الذي كانت عليه سائر القرى السنغاي، الا أن السونينكي (٢) من جهتهم قد احتفظوا بكاهنتهم التي لم تفتأ حتى اليوم تتحمل مسؤولية السلطة الفكرية. وفي غيرها من البلدان قد بدت النساء للناس على أنهن قن بدور من المرتبة العليا في التطور التاريخي للشعوب. فبنات الملوك وأخواتهم وزوجاتهم وأمهاتهم — كتلك المرأة العجيبة لكودجي التي كانت على التوالي كل ذلك، واستحقت لقب «أم شعب لوندا» — كن في المحل اللائق للتأثير على الاحداث.

(١) ان عبارة مبارا «سوتيفي» تعادل سلما أدنى مرتبة من دوقوتيفي (رئيس قرية) ودياماني تيفي (رئيس مقاطعة) وكيلى تيفي (قائد عام)، تدل تدليلا قويا على هذه السلطة.

(٢) في هذه القبيلة فان السلطة تنتقل (عن طريق الحليب) وعلى الرغم من اعتبار رابطة الدم تقوى هذا الانتقال، ولكن عند السيركوفان السلطة تنتقل فقط عن طريق رابطة الحليب.

وأمينة الشهيرة في بلاد الهوسا التي فتحت في القرن الخامس عشر عددا من الأراضي لصالح زاريا، والمدن التي مازالت تحمل اسمها ما هي الا افئذج آخر من بن آلاف النماذج من الفكر، التي عرفت النساء كيف تجعلها في المجتمعات الافريقية تعبر عن نفوذها التاريخي. ومازالت هذه الفكرة حية حتى اليوم في افريقيا، اثر ما قامت به المرأة من دور في حرب الجزائر وفي الأحزاب السياسية خلال الكفاح القومي في سبيل استقلال جنوبي الصحراء.

نعم ان المرأة الافريقية تستعمل أيضا للمتعة والزينة كما توحى به لنا أولئك اللائي يعرضونها علينا مرتديات أقمشة مستوردة، وتحطن بملك داهمي عند اشرافه على حفلة تقليدية، لكن يشارك في عين هذه المشهد فارسات الأمازون، وهي القوة الضاربة في الجيوش الملكية ضد أو يوضد المهاجمين الاستعماريين في معركة كانا (١٨٩٢). فالنساء الافريقيات، لما ساهمن به في خدمة الأرض وفي الصناعة والتجارة، وبنفوذهن الأدبي على ابناهن أمراء كانوا أو فلاحين، وبحيويتهن الثقافية، اعتبرن دائما كممثلات جليلات في تاريخ الشعوب. وقد كانت معارك في سبيل النساء أو موجهن وما فتئت قائمة دائما، إذ أن النسوة أنفسهن كثيرا ما لعبن الدور المنوط بالحيلة أو الخديعة بواسطة الاغراء، ومثل ذلك مثل أخت سندجاتا أو النساء اللائي أرسلهن ملك سيقودامزن إلى أعدائه. وبالرغم من التمييز الظاهر في الاجتماعات العامة، كل يعلم أن المرأة في افريقيا دائمة الوجود في التطور، فالمرأة هي الحياة، وهي أيضا الوعد بانتشار الحياة، وبها أيضا يتم التحالف بين الفرق المختلفة، هي قليلة الكلام بين الجمهور ولكنها تحل وتعتقد الأحداث في سر البيوت، و يلخص الرأي العام هذا المعنى في المثل «في استطاعة النسوة أن يفسدن كل شيء، وفي استطاعتهم أن يصلحن كل شيء».

وبالجمل ان الامر في افريقيا يبدو كما لو أن استمرار البنيات العنصرية للقاعدة الشعبية خلال الحركة التاريخية، قد منح العمل كله طابعا شعبيا ملحوظا. وضعف امكانيات المجتمعات جعل التاريخ من شأن كل الناس (رغم ضعف تقنية وسائل الابلاغ. ولو أن الطم طم تكفل الابلاغ من قرية الى أخرى)، على أن قلة سعة المجال التاريخي كانت على قدر التخوف الذهني لدى كل واحد، فنشأ عن ذلك حس «ديموقراطي» لا ينكر، نشط تصور التاريخ عند الافارقة في معظم الحالات. لقد كان كل واحد يحس أن له دورا وسلطة وان في امكانه، في النهاية أن يتفلسف من السيطرة ولو بالانشقاق، إذ أدى الحال للجوء الى المدى الممكن. وأحس بذلك شاكا نفسه في نهاية عهده. وهذا الشعور الذي يحس به الانسان، من أنه يكون التاريخ، حتى على مستوى العالم الصغير القروي والاحساس أيضا بانه هباء في التيار التاريخي الذي أنشأه في القمة الملك الشبيه بالخالق، كل ذلك له أهمية كبيرة الى المؤرخ، فهو في ذاته حدث تاريخي يعمل بدوره على خلق التاريخ.

## الزمن الافريقي زمن تاريخي

هل في الامكان أن يعتبر الزمن الافريقي كزمن تاريخي، لقد أنكر بعضهم ذلك وزعم أن الافريقي انما يتصور العالم كتكرار محجر لما كان. فإ الزمان اذا الاتابع للماضي لا يتكرر أمام كل قادم. يقول: «هكذا فعل أجدادنا» ليبرر أعماله وحركاته، ولكن لو كان الأمر كذلك لوجد ابن بظوطة في محل امبراطورية مالي مجموعات مما قبل التاريخ تسكن مأوي منحوتة في الصخور وترتدي

جلود الحيوانات. ان الطابع الاجتماعي نفسه في المفهوم الافريقي للتاريخ يجعل له بعدا تاريخيا لا ينكره، اذ ان التاريخ هو الحياة النامية للمجموعة. وفي هذا الشأن يمكن أن يقال ان الزمن في نظر الافريقي زمن حركي، وليس في المفهوم التقليدي، أو في النظرة الاسلامية التي أثرت في افريقيا، ما يشير إلى أن الانسان سجين حركة قارة في مكانها، أو تكرر دوري. نعم «انه ما دام لا وجود» لفكرة الزمن الرياضي والطبيعي المحسوب بجمع وحدات متجانسة تقاس بأدوات صنعت لهذا الغرض، يبقى الزمن عنصرا معاشا اجتماعيا، ولكنه في هذا السياق ليس عنصرا محايدا لا مباليا. ففي المفهوم العام للعالم لدى الافارقة، أن الزمن هو المحل الذي يستطيع الانسان فيه دائما مصارعة الضمور من أجل تطوير طاقته الحيوية. وهذا هو البعد الرئيسي «للثنائية التجسيمية» (٣) الافريقية، حيث الزمن حقل مغلق وسوق تحتك فيها القوى المصاحبة للعالم وتبادل، والمثل الأعلى عند الافراد كما هو عند المجموعات انما هو في مكافحة كل ما ينقص ذاتيتها ولا يحسن صحتها، فيزيد في القوة البدنية وفي مساحة الحقول التي للشخص، وفي ضخامة قطعة وعدد أولاده ونسائه وقراه. وهذا التصور حركي ولا شك، فقبيلتنا شركو وسنونينكي (التيج) متباينتان، الأولى تمثل الماضي وتسعى الى بسط سلطانها على الليل وتهاجم المجتمع، والثانية بالعكس هي مالكة النهار وهي تمثل الحال وتدافع عن المجتمع. وهذه الرمزية في حد ذاتها فصيحة بينة. ولكن دونك قطعة شعرية ذات دلالة، من الابتهاال السحري عند السنغاي.

ليس هذا من في

هو من فم أ

الذي وهبه ب

وهو اعطاه ج

الذي منحه د

وهو اعطاه هـ

الذي وهبه و

الذي منحني اياه

فما هو لي ليكن في في أفضل مما كان في فم القدماء.

وهكذا يوجد لدى الافريقي ارادة دائمة للانتماء الى الماضي الذي يمثل لديه نوعا من التبرير. ولكن هذا الابتهاال لا يعني السكون ولا يتضارب مع القانون العام المتعلق بتجمع القوى وبالزرق، لذلك جاءت العبارة: «فما هو لي ليكن في في أفضل مما كان في فم القدماء».

يعبر عن السلطان في افريقيا السوداء بلفظ معناه القوة (٤). وهذا الترادف يشير الى الأهمية التي تعطيها الشعوب الافريقية للقوة، ان لم نقل للشدة في جريان التاريخ، ولكنها ليست هي القوة المادية الفظة، بل هي الطاقة الحيوية التي يتجمع فيها عدد من القوى، تمتد من الكمال الطبيعي الى الحظ والى الكمال الاخلاقي، فالقيمة الاخلاقية تعتبر شرطا حتميا لممارسة السلطان ممارسة صالحة،

(٣) الرثنية التجسيمية أو بالاحرى الديانة التقليدية في افريقيا، تتميز بعبادة الله، وبقوى الارواح الوسيطة.

(٤) فنكا (في لغة بمبرا)، ينكا (في لغة موري)، يان (في لغة سامو).

و يشهد على هذه الفكرة ما يوجد في الحكمة الشعبية، اذ تروي القصص عروضاً للرؤساء الغاشمين الذين يحيق بهم العقاب في النهاية، ومن ثم تستخلص العبرة الأخلاقية من القصة. ولا يقصر «تاريخ السودان» ولا «تاريخ الفتاش» في الإشادة بفضائل «الحاج عسكية محمد» ولو أنها كانت في الواقع يطمعان في نفع مادي من وراء ذلك، إلا أنها جعلت علاقة منتظمة بين خصال هذا الملك الجيدة وبين «حظه» وهكذا كان يفكر محمد بلو حين دعا «يعقوبا باوتشي» أن يعتبر من تاريخ امبراطورية سنغاي: وتمكن محمد عسكية بفضل عدله من المحافظة على ميراث «سني علي» بل قام بتنسيته، وعندما خرج أبناء عسكية عن عدل الاسلام، تبددت امبراطوريتهم وتقسمت الى العديد من الدويلات التي لا تملك أي قوة.

وفي نظر ولد عثمان دان فوديو، يصح المبدأ نفسه فيما يخص حكومتهم. «ألقى نظرة الى الماضي والى كل من قاد قبلنا في الماضي... قبلنا وجدت أسرا حاكمة منذ آلاف السنين في بلاد هوسا، وهناك أحرزت شعوب عدة سلطات كبيرة، الا أنها خسرت اذ كانت بعيدة عن أصولها المتمثلة في العدل وفي العرق والتقاليد، فأفسدها الظلم. ولكي ندوم نحن ينبغي أن تكون قوتنا قوة الحق وقوة الاسلام. وفي نظرنا ان قتل يونقا (ه) وتحطيم عمل نفاتا (ه) وأبرشي (ه) وبوازقرزا (ه) يمكن أن يؤثر في الأجيال الحاضرة حتى خارج تأثير الاسلام. ولكن الأجيال التي سنأتي بعدها لن تلاحظ كل ذلك، سوف تحكم علينا بحسب قيمة النظام الذي نكون قد أبقيناه لها، وبحسب قوة الاسلام الدائمة التي نكون قد ركزناها، وبالحق والعدل الذي نكون قد فرضناها في الدولة».

وهذه النظرة الرفيعة لموظيفة الاخلاق في التاريخ، لا تنبعث من معتقدات الزعيم سوكونو الاسلامية فقط، ففي الأوساط الوثنية أيضا، توجد الفكرة القائلة إن نظام القوي الكونية قد يخل بموجب أعمالا منافية للاخلاق، وإن هذا الخلل لا بد أن يضر بفاعله. وهذه النظرة للعالم، حيث تكون القيم والمتطلبات الاخلاقية جزءا لا يتجزأ من نظام العالم نفسه، قد تبدو خرافية. الا أنها كانت تؤثر تأثيرا موضوعيا في سلوك الرجال وبخاصة في سلوك عدد من الزعماء السياسيين الافارقة. وبذلك يمكن أن يقال إن التاريخ إن كان غالبا تبريرا للماضي، فهو أيضا حث على المستقبل. وفي النظم السابقة للنظام الحكومي، كانت السلطة الأدبية التي تضمن سير الشؤون العامة أو تعد لها أحيانا، بيد جمعيات مخصصة، وأحيانا سرية كجمعية «الوفا» في شعب «سينونو» أو البورو في غينيا العليا. وكانت هذه الجمعيات غالبا تكون سلطات موازية، مكلفة بأن تلعب دور المرجع المسؤول خارج النظام المقرر. ولكنها في النهاية، كانت أحيانا تملح سرا محل السلطة النظامية، فكانت تبدو للناس كمراكز سرية للحكم، فتسلب من الشعب ماله من سيطرة على تاريخه الذاتي. وفي هذا النمط من المجتمعات، فإن التنظيم حسب فئات الأعمار، يبقى بنية لها أهمية أساسية في مسيرة تاريخ الشعب. وهذه البنية المقررة حسب دورية معلومة، تمكن من الصعود مع تاريخ الشعوب حتى القرن الثامن عشر، ولكنها أيضا كانت تلعب دورا خاصا في حياة المجتمعات في المجموعات الرفيعة حيث لا تجدد تقني يعتد به - فهي اذن جامدة، ولم تكن نزاعات الأجيال غائبة. فكان من المهم اذن أن

نأخذ على عاتقنا — ان صح القول — ترتيب مد الأجيال وتشديد هيكَل العلاقات بين هذه الأجيال، لتجنب ما قد تؤول اليه من مواجهات عنيفة نتيجة تحول سريع. فليتنبد الجليل الملتزم بالعمل عضواً من أعضائه يبق في صفوف جيل الشبان اللاحق له مباشرة، ولكن دور هذا العضو ليس في اخاد حماسة الشبان وقلة صبرهم بل في توجيه اندفاعهم الغير المتروي، حتى لا يصبح وبالا على المجموعة كلها، وحتى لا يساء اعداد المعنيين بتحمل مسؤولياتهم العامة (٦).

ان الوعي بالزمن الماضي كان حادا جدا لدى الافارقة، وهذا الزمن الذي ينزل بكل ثقله على الحاضر لا يحطم مع ذلك حركيته، كما يشهد بذلك عديد الأمثال. ومفهوم الزمن كالذي يكتشف في المجتمعات الافريقية ليس حقا ضربا من «الطبيعة» الافريقية أو من المصاحبات لعنصرها. بل هو علامة على مرحلة من التطور الاقتصادي والاجتماعي، وبرهان ذلك ما يلاحظ من فروق واضحة حتى اليوم بين الزمن — المال الذي يقول به أهل المدن من الأفارقة، والزمن الذي يدرسه معاصروهم واخوانهم من المروج. فالهم هو وجود فكرة التطور ابتداء من أصول يبحث عنها. وحتى تحت قشور القصص والأمثال وأدران الخرافات، فإن الأمر يتعلق ببذل الجهد لتعجيل التطور الاجتماعي، ولقد بذلت أحيانا الجهود الايجابية للشروع في حساب الزمن التاريخي. ومن الامكان أن يرتبط هذا بالفضاء، كقولك الزمن اللازم لخطو خطوة للدلالة على المدة الدنيا. وقد يرتبط بالحياة البيولوجية كزمن الشهيق والزفير، ولكنه غالبا يتقيد بعوامل خارجة عن الانسان الفرد كالظواهر الكونية والاقليمية والاجتماعية، خاصة اذا كانت مستقرة. ففي منطقة المروج السودانية، يعد عادة العمر عند أهل الديانات التقليدية بعدد فصول الأمطار. فلكي نقول عن انسان إنه مسن، يصرح عادة اما بعدد فصول الأمطار (التي عاشها) أو يستعاض عن ذلك بكيفية مقتضبة بقولهم: «قد شرب ماء كثيرا».

وقد وضعت أحيانا أنظمة أكثر تقديرا للحساب (٧)، ولكن المرحلة الحاسمة كانت في هذا الميدان عند استعمال الكتابة، على أن وجود طبقة مثقفة لا يعني البتة توفر وعي الشعب بكامله بتاريخ جماعي، ولكنها تمكن على الأقل من نصب معالم وسط التيار التاريخي تنظم به سيره. ثم ان اعتناق الديانات التوحيدية المرتبطة بتاريخ معلوم، ساهم في مضاعفة تصور الماضي الجماعي، بأنماط كانت تظهر في المرويات، مثلا في شكل ربط الأسر المالكة ربطا اعتباطيا بأصول الاسلام التي ساعدت قيمها ومثلها، الرسل السود، على قلب مجرى الأحداث في بلادهم الاصلية.

ولكن انقلاب الزمن تم على الخصوص، عندما دخل العالم مجال المردود الاقتصادي والتراكم

(٦) مثلا عند الاديان من موسو (قرب ابيجان) فان التنظيم حسب الأجيال (وعدها ٥ كل يحكم ٩ سنوات) مازال ساري المفعول حتى في الأشغال ذات الطابع «العصري»: انشاءات، افراح، بمناسبة الحصول على شهادة أو ارتقاء الى درجة أعلى.  
(٧) ان ايفور ولكس عند نقده لكتاب د. ب هينج: «تاريخ الرواية الشفاهية» البحث عن شيميرا. يبين هكذا أن الاكان (فنشي، اشنتسي...) كان لديهم نظام يقوم معقد اسبوع ٧ أيام وشهر ستة أسابيع وستة تسعة أشهر و يعدل دوريا لموافقة الدورة الشمسية بطريقة لم توضح تماما حتى الآن، «فكان اذن من الممكن ضمن تقويم أكان أن يرجع الى اليوم الثامن عشر من الشهر الرابع من السنة الثالثة من ملك الاشنتيان اسي بنصو» وهي طريقة للتاريخ ما فتئت تستعمل في البلدان الأوربية حتى القرن الثامن عشر وحتى التاسع عشر. أنظر أ. ولكس ١٩٧٥، صفحة ٢٧٩ و ٥٥٠.

المالي. عندها فقط تغير مدلول الزمن الفردي والجماعي، عن طريق تقمص الثقافات الاشكال الذهنية السائدة في البلدان التي أثرت في الأفارقة اقتصاديا وثقافيا. فاكشف الافارقة أنه غالبا ما ينشئ المال التاريخ، والانسان الافريقي القريب الملتصق بتاريخه، كان يشعر انه هو الذي يصنعه في مجتمعات مصغرة، وهكذا يواجه هذا الانسان في آن واحد خطر اغتراب عظيم، وفرصة المشاركة في الرقي الشامل.

## الاتجاهات الحديثة في البحوث التاريخية الافريقية وإسهامها في التاريخ بصورة عامة ف. د. كورتن

ان الغرض من هذا المجلد ومما يليه من المجلدات، التعريف بماضي افريقيا كما يراه الافارقة. وهو منظور عدل، وقد يكون هو الطريق الأوحيد للوصول الى مجهود دولي، وهذا ما يفضله مؤرخو افريقيا في افريقيا وخارجها. في نظر الافارقة، معرفة ماضي مجتمعاتهم الخاصة تمثل وعيا بالذات لا بد منه لاقرار هويتهم في عالم مائج متنوع. وهكذا فان إحياء افريقيا لاح في العشريّات الأخيرة، لا على أنه مشروع اعتباطي غالي الثمن و ينبغي إرجاؤه الى أن تتوفر عناصر غمّ أشد تأكدا، بل على أنه عنصر أساسي للنمو الافريقي، ولذا كان همّ المؤرخين الأوّل في افريقيا وخارجها، أن يتجاوزوا رواسب التاريخ الاستعماري، وان يربطوا الوثائق من جديد مع التجربة التاريخية للشعوب الافريقية.

وتستعرض أبواب أخرى ومجلدات أخرى هذا التلاقي الجديد، وتدرس التاريخ كتقليد حي دائم الانتشار، ووظيفة المعارف التاريخية في انشاء نظم حديثة للتربية قصد العمل بها في افريقيا المستقلة. وسنعرض في هذا الفصل بالذات مدلول تاريخ افريقيا في الخارج أولا، في نظر مجموعة المؤرخين الدولية، ثم بالنسبة الى مجموع الجمهور المثقف الفسيح.

ان الاهمال القطيع لتاريخ افريقيا حتى الخمسينات، ما هو في حقل الدراسات التاريخية الا علامة من علامات ظاهرة أوسع. وليست افريقيا وحدها التي ورثت من العصر الاستعماري ميراثا ثقافيا من الواجب تعديده. ففي القرن التاسع عشر غزا الاوربيون معظم آسيا وأخضعوها لنيرهم، أما في أمريكا الإستوائية فلقد كان التخلّف وهيمنة أوربي ما وراء البحار على الأهالي الافريقيين الاميركيين والهنود، قد أنتجا ظروف الاستعمار في أراض أشارت اتفاقيات القانون الدولي فيها الى



وجود مجموعة من الدول المستقلة. وفي القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حُرف طابع النظام الاستعماري الذي طبع المعلومات التاريخية، منظورات مفهوم أوربي مركزي لتاريخ العالم الذي تم إقراره في عصر الهيمنة الأوروبية، وانتشر هذا المفهوم بفضل النظم التربوية التي وضعها الأوروبيون في العالم الاستعماري، وحتى في المواطن التي لم تنتصب قط فيها الهيمنة الأوروبية، كانت الكلمة لمعلوماتهم نظرا لعصريتها حتى في مظاهر التدوين التاريخي المتمركز حول أوروبا. وانقرضت اليوم هذه النظرة الأوروبية المتمركزة للعالم من أهم المؤلفات التاريخية الحديثة، إلا أنها مازالت سائدة عند عدة من المؤرخين، وعند الجمهور الأعظم الغير الغربي منه والغربي (١). ويرجع هذا الثبات لكون التاريخ «كان يلقي» عادة في المدرسة، وأنه لم تنح الفرصة لتعديل المعطيات المكتسبة، وحتى المؤرخون المتخصصون في البحث، كانت تعترضهم عقبات كي يكونوا على علم بما تم اكتشافه في ميادين خارجة عن نطاق نشاطاتهم. وحسب البحوث الأخيرة، فإن الكتب المدرسية كانت متأخرة بقدر عشر سنوات الى عشرين سنة، بينما كانت مصنفات التاريخ العام تحتفظ غالبا بقبليات من معارف أخنى عليها الدهر. فلا يتركز أي تفسير حديث، أو أي عنصر جديد بلا كفاح.

ورغم المدد الفاصلة بين الاكتشاف وبين تعريفه للجمهور، فإن دراسات التاريخ تمر في جملتها بشويرة مزدوجة، بدأت هذه الثورة اثر الحرب العالمية الثانية وهي لم تنته بعد، فالشأن من جهة أن يحول التاريخ ابتداء من الأخبار، حتى ينتهي الى علم اجتماعي يهتم بتطور المجتمعات البشرية، ومن جهة أخرى ان تعوض الآراء الوطنية المسبقة بنظرة أكثر اتساعا.

وأنت المساهمات نحو هذه الاتجاهات الجديدة من كل الجهات، من أوروبا نفسها ومن مؤرخي المدرسة الحديثة في افريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية، ومن أوربيي ما وراء البحار، ومن أميركا الشمالية ومن القارة الاوقيانوسية، وشملت جهودهم في افساح اطار التاريخ، في آن واحد، شعوبا وأقاليم مازالت مجهولة حتى ذلك الوقت، كما شملت مظاهر من التجربة الانسانية، طالما دفنت تحت مفاهيم تقليدية ضيقة للتاريخ السياسي والعسكري. ونشأة التاريخ الافريقي في هذا السياق هي ذاتها مساهمة ثمينة، على أن ذلك كان في الامكان أن يؤدي الى اضافة تاريخ جديد انغزالي الى توارخ أخرى، وقد تكون لهذا قيمة في حد ذاته، من شأنها أن تبين على تنمية افريقيا، دون أن توفر لتاريخ العالم أبلغ المساهمات.

ومما لا شك فيه أن التزمست الوطني كان الصفة التي طبعت التقليد القديم التاريخي، أعمق الطبع، وفي النصف الأول من القرن العشرين شرع المؤرخ الضليع في التخلي عن الاتجاه القديم الذي يعتبر التاريخ ملكا شبيها بالخاص.

وحسب هذه النظرة، فإن تاريخ مجتمع معين لا قيمة له الا في ذاته، وأما في الخارج فيفقد كل دلالة. وفي أحسن الحالات ان ما يبيده الأجانب من اهتمام ينتمي الى التطفل، وفي أسوء الحال هو تجسس تقليدي. وهذا التأكيد على الاستحواذ على التاريخ، كان واضحا خاصة في التقليد الاوربي

(١) ان لفظ «الغرب» استعمل في هذا الفصل للدلالة على مناطق في العالم مثقفة ثقافة أوروبية أو مشتقة منها، ويشمل أيضا أميركا بأجزائها واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية واستراليا وزيلاندا الجديدة.

في بداية القرن العشرين، وكانت السلطات المسؤولة عن التربية، تميل الى اعتبار التاريخ كتاريخ قومي لا كتاريخ عام لأوروبا ولا كمنظرة معتدلة لتاريخ العالم. التاريخ خرافة معترف بها استغللت لخلق العزة القومية ولبعث فكرة التضحية في سبيل الوطن. لقد كتب لورد مالك اولي (ان التاريخ في آن واحد قصة واداة للتربية السياسية والأخلاقية) (٢) وكان من المتوقع منه ان يلحق الوطنية لا أن يوحى بنظرات صائبة في تنمية البشرية. وبقيت هذه النظرة سائدة في معظم النظم التربوية.

وقد أدلى بعض المؤرخين باعتراضهم، اما باسم العلم أو باسم الشمول الدولي، ولكن أكثرهم اعتبروا الآراء المسبقة القومية طبيعية مهما كانت غير مرغوب فيها. ففي فرنسا من الممكن أن يحصل الطالب على التبريز في التاريخ مع كونه لا يعرف عن أوروبا من وراء الحدود الفرنسية سوى معلومات هزيلة، وذلك بقطع النظر عن آسيا وإفريقيا وأميركا. وفي العديد من الجامعات الانكليزية من الممكن دائما أن يحرز على الاجازة في الآداب على أساس دراسة التاريخ الانكليزي وحده. واستعمال لفظ «انكليزي» عوض لفظ «بريطاني» استعمال مقصود. فالتلميذ «الانكليزي» قد تكون له كل الحظوظ ليعرف عن تاريخ روما أكثر مما يعرف عن تاريخ بلاد الغال واسكوتلاندا أو أيرلندا قبل القرن الثامن عشر. ومع اعتبار الفروق الايدولوجية، فان المشكلة يكاد يكون عينه في أوروبا الشرقية. ويبدو أن البلدان الأوربية الأقل أهمية كمجموعة البينيلوكس واسكندنافيا، هي وحدها التي تعتبر أوروبا كلاً لا يتجزأ.

ثم إن طريقة أميركا الشمالية المعتمدة — كمنظورها الأوربية — في تاريخ الحضارة مازالت مركزة على الاجناس. ويمثل سؤالها في «كيف صرنا على ما نحن عليه؟» لا في «كيف صارت البشرية على ما نراه اليوم؟».

وكلما رفض مؤرخو كل قارة الاتجاهات المركزة على أوروبا في تاريخهم القومي الخاص، الا ويرجع اليهم واجب الاجلاء الحقيقي نحو تاريخ العالم، حيث يكون لافريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية دور مقبول في المستوى الدولي، وهذا الواجب تحمله خاصة، المؤرخون الذين اهتمت أعمالهم بالثقافات المختلفة، والمؤرخون الافارقة الذين شرعوا في الكتابة عن آسيا أو أميركا اللاتينية، والاوربيون أو الأميركيين الشماليون الذي أخذوا في تفسير تاريخ إفريقيا أو آسيا لصالح مواطنهم محاولين التحرر من الآراء المسبقة المركزة على أوروبا.

وفي اطار هذا الجهد العام، أصبح لدور مؤرخي إفريقيا — في القارة وخارجها — أهمية خاصة وذلك على الأثر لكون تاريخ إفريقيا قد أهمل أهلاً أكبر من أهمل تاريخ سائر المناطق الغير الاوربية، ولكون الخرافات العنصرية شوهدت أكثر من غيرها، ومن المعلوم أن العنصرية داء من العسير جدا اقتلعه لكونه متنوع الشكل. وقد جعلت له نظريات في أشكال مختلفة منذ القرن السادس عشر فتجسم في التاريخ بكيفة حادة، وأحياناً في شكل إبادة جماعية في بعض العهود كعهد النخاسة العبيد السود، والحرب العالمية الثانية، ومازالت العنصرية قائمة في صورة تحد فظيع في

(٢) طوماس بانفطن ماكولي: مذكرة ٢ فيفري (شباط) ١٨٣٥ في موضوع «تربية لمعرفة الهند» اذيع نشرا اذاعة فسيحة، وأخيراً في «امبرالية» بقلم ب: د. كرتين (نيويورك، ١٩٧١) ص ١٨٢.

افريقيا الجنوبية وغيرها وذلك رغم أعمال اليونسكو (٣) ومنظمات أخرى، قصد البرهنة على ما في ذلك من طبيعة غير معقولة، ولكن علاج الآراء المسبقة يطول، إذ أن العنصرية منتشرة ماثلة في الكتب المدرسية، وفي العروض السمعية البصرية المتحيزة، وفي تراث «المعطيات» النفسانية الواعية أو الغير الواعية التي تحملها أحيانا التربية الدينية، وفي الأغلب في الجهالة والظلامية. وفي هذه المعركة يمثل التعليم العلمي لتاريخ الشعوب السلاح الاستراتيجي الحاسم، فذ كانت العنصرية الغربية التي وردت ادعاء التعليم في القرن التاسع عشر، ترتب سلم القيم معتمدة على الفروق الجسمانية، وبما أن أوضح هذه الفروق هولون البشرة، كان الأفارقة يجدون أنفسهم بكيفية أوتوماتيكية في أسفل السلم، إذ كانوا يدون مخالفين للأوروبيين الذين خصصوا أنفسهم بأعلى السلم. وما فتئ العنصريون يصرحون أن تاريخ افريقيا لا أهمية له ولا قيمة: وحيث أن الافارقة لم يكونوا لينشؤوا «حضارة» جذيرة بهذا الاسم، فإن ما من أمر عندهم يبعث على الاعجاب الا قد تم نسخه وتقليده عن الغير. وهكذا صار الافارقة مفعولا للتاريخ لا فاعلا له، واعتبروا قادرين على تلقي التأثيرات الأجنبية دون أن يأتوا مقابل ذلك بأية مساهمة لبقية العالم.

فمنذ زمن بعيد، منذ بداية القرن العشرين كان للعنصرية الشبه العلمية أكبر الأثر، وضعف هذا الأثر، بعد ١٩٢٠ لدى الإحصائيين في العلوم الاجتماعية والطبيعية، وبعد ١٩٤٥ زال هذا الأثر بالقوة في الأوساط العلمية المحترمة. ولكن أثر هذه العنصرية كان يستمر، ففي مستوى معلومات إنسان الشارع كانت العنصرية تغذيها الزيادة في التوترات العرقية في الأوساط المعرضة وقد وافق ظهورها في المدن الغربية ظهور مهاجرين من أصل افريقي أو آسيوي زاد عددهم، فبقيت آثار ردود الفعل الشعبية واضحة. وكان يدعم ذلك ذكر الدروس التي حفظها الناس من المدارس، وبالنسبة لتلامذة عام ١٩١٠، أي الفترة التي كانت فيها العنصرية التي توصف بأطلا بالعلمية، هي التي تمثل المذهب البيولوجي الرسمي، فإن ساعة التقاعد لن تدق الا بعد سنة ١٩٦٠. وأخطر من ذلك ما بقي حيا من استنتاجات اعتمدت على ادعاءات عرقية لم يبق لها معنى بعد. فالمسلمة القائلة: «ليس لتاريخ افريقيا أهمية، لأن الأفارقة من جنس أدنى» لم يبق لها ما يدعمها. إلا أن بعض المثقفين الغربيين كانوا يتذكرون من بعيد أن «ليس لافريقيا ماض» ثم انهم نسوا علة ذلك. وهذه الصفة أو بأخرى، فإن ارث العنصرية ما فتئ يدعم تعصبا وطنيا ثقافيا يميل الى اعتبار الحضارة الغربية هي «الحضارة الوحيدة الحقيقية». وفي نهاية الستينات عرضت الإذاعة البريطانية بعنوان «حضارة» سلسلة طويلة من النشرات، مخصصة للتراث الثقافي بأوروبا الغربية فحسب. نعم. من حين الى آخر، قد اعتبرت بعض المجتمعات كمجتمعات «حضارية». ولكن في منتصف القرن صارت درجة محو الأمية تعين الخط الفاصل بين الحضارة.. وبين ما بقي. وكانت المجتمعات الافريقية في معظمها قبل العصر الاستعماري مجتمعات أمية، فرمي بها في صنف «البدائيين». على أن غالب افريقيا في الواقع كان مثقفا، بمعنى أن طبقة من الكتاب كانوا يعرفون القراءة والكتابة لا بمعنى محو الأمية الجماعي الذي لم يكن في كل مكان الا ظاهرة من ظاهرات العصر بعد الصناعي.

فكان لا ثيوبيا خطها القديم «جيزر». وكل أفريقيا الإسلامية، شمال أفريقيا والصحراء والشرية الشمالي من المنطقة السودانية، من السنغال الى البحر الأحمر، والمدن الساحلية من الشاطئ الشرقي حتى مضيق موزمبيق كانت تستعمل الكتابة العربية، وحتى قبيل العهد الاستعماري، فإن العربية كانت قد دخلت هنا وهناك عبر الغابة المدارية بواسطة تجار (جوولا)، بينما كانت اللغات البرتغالية والانكليزية والفرنسية تستعمل عادة كلفات للتجارة على طول السواحل الغربية. ومع ذلك فإن التعصب القومي الثقافي وقد عززته الجهالة، أدى بالسلطات الغربية الى جعل حدود الصحراء وهي التي تفصل بين الأمية ومحو الأمية، وكان في هذا دعم للنظرية المشؤومة الرامية الى فصل تاريخ أفريقيا الشمالية عن تاريخ باقي القارة.

على أن إبعاد «اللامتضرين» من مملكة التاريخ، لم يكن الا وجها من عنصر أهم من عناصر التقاليد التاريخية الغربية، وكانت الجموع الغربية نفسها تتعجب من هذا الإبعاد، ليس تبعاً لقبليات طبقية واضحة ولا شك، بل لما للتاريخ من طابع تعليمي، كلما مكن مدح مشاهير الرجال من تقديم مثل يقتدي به. ولكن ليس من باب الصدفة أن تكون هذه المثل مأخوذة عن الأغنياء وأصحاب السلطة، فصار التاريخ سرداً لوقائع وأعمال طبقة قليلة من الأعيان. وكانت أنماط السلوك التي تشمل عامة مجتمع يقلل من قيمتها أو تجهل تماماً. وتاريخ الأفكار لم يكن تاريخ آراء الناس بل كان تاريخ «النوايا العظمى». والتاريخ الاقتصادي لم يكن تاريخ الاقتصاد أو السلوكيات الاقتصادية، بل تاريخ بعض السياسات الاقتصادية الحكومية المهمة وبعض المؤسسات الخاصة، وبعض الأعمال الطريفة في الحياة الاقتصادية. وإذا ما كان المؤرخون الأوروبيون لا يولون أي اهتمام لقطاع فيصح من مجتمعهم ذاته، فكيف يكون في الامكان أن يهتموا بمجتمعات أخرى وثقافات أخرى؟

حتى الآن، فإن الاتجاهين الشوريين اللذين ظهرا في الدراسات التاريخية الحديثة. اتبعنا نهجين متوازيين أتم التوازي، وذلك لأن التاريخ المركز على أوروبا، وتاريخ الأعيان كانا يتغذيان من نفس المعين. ولكن شيئاً فشيئاً تم الارتباط الضمني بين من كانوا يعملون على أفساح حقل الدراسة في المجتمع الغربي، ومن كانوا يسعون الى دفع البحوث التاريخية خارج العالم الغربي دفعا أقوى. ففي البداية تقدم الجمعان محفظين بما بينهما من فروق، وكان الهم الرئيسي لمؤرخي أفريقيا، أن يحدوا الزعم القائل أن ليس لأفريقيا ماضٍ أو ماضٍ ذو قيمة، وفي الصورة الأولى كان الهدف أن تجابه الصعوبة مجابهة. وكان بإمكان أخصائيي أفريقيا أن يردوا على من كانوا يزعمون، بأن ليس لأفريقيا ماضٍ، منكرين بوجود ممالك وإمبراطوريات فسيحة يشابه تاريخها السياسي تاريخ أوروبا في بدايتها، وكان اشتمزاز الجمهور الغربي من نظرية النخبة (كما هو الشأن لدى الجمهور الأفريقي المشقف ثقافة غربية) من شأنه أن يمثل وسيلة لاقامة الدليل في النهاية على أهمية التاريخ الأفريقي، وما تلك الا بداية متواضعة كانت تكفي لإبراز مظاهر الماضي الأفريقي التي كانت تشابه ماضي الغرب دون أن تصادق على ما ينجم عن سوء التفاهم من تباينات الثقافة. وقليلاً من المؤرخين أيقنوا حتى ذلك الوقت، أن الإمبراطوريات ما هي الا مؤسسات مضنية فظيعة ليست هي حتماً علامة على الرقي السياسي، وقليل منهم كان مستعداً أن يعترف مثلاً، أن من أعظم منجزات أفريقيا، انشاءها

لمجتمع بدون دولة يعتمد على التعاون أكثر مما يعتمد على الضغط. وإن الدولة الافريقية نظمت نفسها لكي تحقق استقلالات ذاتية عملية حقيقية.

وهذا الاتجاه الرامى الى قبول بعض الخصائص للتدوين التاريخي الدراسي، كخطوة لتجريد التاريخ الافريقي من النظريات الاستعمارية توجد عموما في دراسة الفترة الاستعمارية، حيث يوجد من قبل تاريخ «استعماري» رسمي يسعى الى التأكيد على النشاطات الاوربية والى تجاهل النصيب الافريقي.

وفي أسوأ الحالات، كان هذا التاريخ يصور الافارقة في صورة وحوش جناء أو مختلين. و ينتج عن ذلك أن كائنات رفيعة أتت من أوروبا فحققت ما لم يكن للافارقة أن يحققوه، وحتى في أعلى درجات الموضوعية فإن «التاريخ الاستعماري» لم يكن يسمح للافارقة سوى أدوار ثانوية على مسرح التاريخ.

ودون أن نغير الأدوار، فإن أول مجهود لاصلاح هذا التأويل يقتصر على تغيير القيم. فبعد أن كانوا أباطالا في خدمة الحضارة في سيرها، روادا وولاة مستعمرات وضباط جيش، أصبحوا مستغلين أفضاظا. وصار الافريقي ضحية بريئة، الا أنه ليس له من حيلة الا أن يكون سلبيا، ومازالت حفنة من الأوربيين هي التي جعلت افريقيا وتاريخها كما هما عليه. (لا شك أن الاوربيين كان لهم احيانا الادوار الاولى في الفترة الاستعمارية، ولكن المراجعات المستندة الى البحوث الحديثة في المستوى المحلي، تمكن من التقليل من الأثر الاوربي كما كان يلوح في «التاريخ الاستعماري» المنشور قبل سنة ١٩٦٠).

وثمة خطوة ثانية نحو تحرير تاريخ الفترة الاستعمارية من النزعة الاستعمارية سارت بموازاة موجة الحركات القومية المنادية بالاستقلال، وها قد ظهر أن للافارقة دورا في التاريخ وصار ينبغي ابرازه للعيان. وأزاح الحواجز اخصائيو العلم السياسي الذين كتبوا في عهد الحركات التحريرية (٤). وبعده ذلك بقليل، خاصة في الستينات، شرع العلماء في الرجوع الى الماضي، باحثين عن جذور المقاومة وحركات الاحتجاج في بداية العصر الاستعماري، وأكثر من ذلك، بحثوا عن القفزات الاولى لمقاومة النير الاوربي (٥). ان هذه المؤلفات عن حركات المقاومة والاحتجاج مصصح مهم، ولكن تاريخ افريقيا لم يتصور بعد تصورا موضوعيا. وفي النهاية، ان تحرير التاريخ الافريقي في العصر الاستعماري من النزعة الاستعمارية، سوف ينشأ عن صهر الثورة ضد المركزية الاوربية، مع الحركة المضادة للاعيان. وأخذت الثورة السلوكية تؤثر في تدوين التاريخ الافريقي، الا أن هذا التأثير مازال جديدا محدودا، وبقي الكثير مما يجب نشره، على أن بعض المؤرخين شرعوا في البحث عن طريقة مشتركة متعددة الاختصاصات تمكنهم من تعاطي دراسة تاريخ الفلاحة أو

(٤) انظر مثلا طوماس هوددكين: القومية في افريقيا الاستعمارية لندن ١٩٥٦، ودافيد ابر: ساحل الذهب في تحول (برنستون ١٩٥٦) وجامس س. كولان: نيجيريا، أرضية القومية (بركلاي ١٩٥٨)، وشارل أندري جوليان: افريقيا الشمالية تسير (باريس ١٩٥٢).

(٥) انظر مثلا جورج شبرسون وطوماس برايس ١٩٥٨: الافريقي المستقل وجون شيلمبوي وجذور ثورة الأهالي بنياسالاند سنة ١٩١٥، واستقرارها وبدلولها (ادنبج ١٩٥٨)، ي. و. ونجز: الثورة في جنوبي روديسيا، دراسة مقاومة افريقية (لندن ١٩٦٧)، جون الياف: طغانيكما تحت حكم الألمان ١٩٠٥ - ١٩١٢ (كمبردج ١٩٦٩)، روبرت رتبغ وعلی أ. مزروعى: الاحتجاج والسلطة في افريقيا السوداء، ايف برسن: ساموري: ثورة ديولا - ٣ مجلدات (داكار ١٩٦٨).

تاريخ التعددين، كي يستغلوا سائر العلوم الاجتماعية، وأخذ بعضهم يهتمون بمناطق صغيرة منزلة راجين من دراسات العوالم الصغيرة هذه، أن توضح شبكة تطور البنيات الاقتصادية والاجتماعية الأكثر أهمية والأشد تشعبا (٦). وشقّ البحث طريقه في مجال المشاكل الخاصة في التاريخ الاقتصادي والديني، ولكن التحرر الحقيقي للتاريخ الافريقي من الفكرة الاستعمارية ما فتئ في بدايته.

وتقدم التاريخ التحليلي — وهو أيضا (التاريخ الميداني) المستند الى البحوث والأسئلة الميدانية، وليس الى تصفح الوثائق فقط — وهو خطوة مهمة في هذا الاتجاه، والاستغناء عن الوثائق يلوح أيضا أساسيا بالنسبة الى الفترة الاستعمارية، كما هو بالنسبة الى الفترة التي قبلها حيث كانت الوثائق قليلة نسبيا. وخلافا لما جرى ولما يجري في أوروبا والولايات المتحدة، فإن مشكل «التاريخ الاستعماري دائما» في الوثائق التي تصخم من قبل الأجانب. فكل من ترك مخطوطا ضمنه حتما آراءه المسبقة ومشاعره ازاء نفسه وازاء من كانوا يحكمونه وازاء ما كان لهم من دور. وذلك شأن تاريخ السياسة الداخلية في أوروبا والولايات المتحدة، حيث الآراء المسبقة ليس الا لفائدة الحكومات. وفي العالم الاستعماري قد يكون للمؤرخ عواقب وخيمة، اذ ما اغفل امكانية اسماع صوت آخر يتضمن الشهادة الشفاهية لمعاصري الفترة الاستعمارية.

ومن الممكن أن يكون مؤرخو افريقيا قد تأخروا بعض التأخر عن سائر زملائهم في بعض الطرق الحديثة، ولكنهم باستعمالهم للروايات الشفاهية فيما قبل عصر الاستعمار أكثر منه في عصر الاستعمار، قد قاموا بعمل رائد. ويتقسم هذا العمل الى فترتين، فهي ما بين عامي ١٨٩٠ و ١٩١٤ شرع جيل من الاداريين المثقفين العاملين في مصالح السلطات الاستعمارية، في تأكيد الاحتفاظ بالروايات الشفاهية ذات الأهمية التاريخية. والفترة الثانية ترجع الى نحو الخمس عشرة سنة وانتهت في العشرية ١٩٥٠ — ١٩٦٠ الى الرأي الذي صرح به ج. ب. مردوك سنة ١٩٥٩. فحسب رأيه «لا سبيل الى الوثوق بالروايات الاهلية الشفاهية» (٧) وتفتحت العشرية ١٩٦٠ — ١٩٧٠ على نشرة جان فانسينا «الرواية الشفاهية دراسة في المنهجية التاريخية»، فأشارت هذه النشرة الى المراقبات اللازمة والنقد اللازم لاستعمال الروايات الشفاهية استعمالا علميا. والأعمال التاريخية الحديثة المستندة الى الرواية الشفاهية المستخدمة الى جانب مصادر أخرى للوثائق، يمكن أن تعتبر نجاحا ملحوظا (٨). وأكدت ندوة داكار المنعقدة سنة ١٩٦١ بأشراف «المعهد الدولي الافريقي» حول موضوع (المؤرخ في افريقيا المدارية) وندوة دار السلام سنة ١٩٦٥ حول موضوع (منظورات جديدة عن التاريخ الافريقي)، أكد على النظرات الجديدة الضرورية، مشيرين خاصة الى دور

(٦) انظر بولي هيل: مزارع كوكا في جنوبي غانة (كمبريدج ١٩٦٣).

(٧) مردوك: افريقيا بشعبها وتاريخ ثقافتها، نيويورك ١٩٥٩، ص ٤٣.

(٨) انظر مثلا جان فانسينا: ملكة طيومي ١٨٨٢ الى ١٨٩٥ (اكسفورد ١٩٧٣)؛ ريموند ك. كنت أقدم الممالك بدغشقر ١٥٠٠ — ١٧٠٠ (نيويورك ١٩٧٠)؛ دافيد وليام كوهين: الرواية التاريخية بوساقا، وكننتو (اكسفورد ١٩٧٢)؛ دراسة أ. ج. ألفوا، الملخصة جزئيا في باب (دول دلتا النيجر وجيرانها ١٦٠٩ — ١٨٠٠ في تاريخ افريقيا الغربية لـ د. ج. ف. أ. آجاي وميخائيل كراودر جزآن، لندن ١٩٧١، ج ١، ص ٢٦٩ — ٣٠٣؛ أ. روبرتس، طنزانيا قبل ١٩٠٠ (نيروبي ١٩٦٨) تيان د. ت: سندجاتا على الملحة التدنقية، الحضور الافريقي.

الرواية الشفاهية الذي لا مثيل له كمصدر للتاريخ الافريقي، كما أشار الى ما في وسع المؤرخ أن يستمد من اللسنية ومن علم الآثار المؤكد بالرواية الشفاهية.

واثر مؤرخو افريقيا على سائر العلوم الاجتماعية بواسطة أعمالهم حول الفترة قبل الاستعمارية. ويلوح هذا الأثر في مستويات عدة. وفوق كل شيء نحن مدينون له بكونه فرض الاعتراف بأن افريقيا «التقليدية» لم تبق ساكنة، واتجه علماء الاقتصاد وإخصائيو العلوم السياسية وعلماء الاجتماع الى دراسة التحولات المسيرة، راجعين الى ظروف «قبل» و «بعد». «قبل» مطبقا على «المجتمع التقليدي» باعتباره غير متغير، و «بعد» مطبقا على نظام هذا التحول متضمنا تحويلا حركيا للصورة السابقة. وكان المؤرخون مترصدين للتطور، مراقبين للتغيرات التي لا تفتأ تجري في المجتمعات البشرية. وأقامت بحوثهم في العشريات الأخيرة الدليل على أنه المنظمات والعوائد وظروف العيش والديانات والاقتصاد، في افريقيا قبل الاستعمار، تغيرت بنفس السرعة التي تغيرت بها في مجتمعات أخرى بين الثورتين الزراعية والصناعية، وهذه السرعة أقل منها في النظام بعد الصناعي التقليدي الذي مازال يصانع افريقيا اليوم. على أن جود الماضي (التقليدي) لا نفاق له في أي مكان.

على أن استعمال قاعدة ما واستخدام منطلق «تقليد» سببا لعلماء الانثروبولوجيا أشد المشاكل خطرا. فنذ العشرينات عمل علماء الانثروبولوجيا الناطقون بالانكليزية، انطلاقا من نمط اجتماعي، مكن من التأكيد على الدور الذي كان لكل عنصر تأسيس في الحفاظ على نشاطات الكل. واعترفوا أن المجتمعات الافريقية التي نظروا فيها، قد تغيرت تغيرا كبيرا منذ بداية النظام الاستعماري، واعتبروا ذلك فاسخا لدلائلهم، ففي نظرهم كان من اللائق أن ترتب الأمور متمركزة في فترة واحدة منتقاة بالصدفة من الماضي السابق مباشرة للغزو الاوربي. وكانوا يزعمون أنه بالامكان ان تكتشف طبيعة هذا المجتمع التقليدي بجمع معطيات المشاهدات الحالية، وبقطع النظر عن كل ما كان يشابه التأثير الأجنبي، وكانت النتيجة «الحاضر الانثروبولوجي».

وهذا العمل التمهيدي الوظائف في مدين كثيرا لبرونسلاف مالينوفسكي الذي ساد الانثروبولوجيا البريطانية خلال العشرينيتين الثانية والثالثة من هذا القرن، وساهم هذا العمل كثيرا في فهم «مسيرة» المجتمعات البدائية. وقد أحرز «علماء الوظائف» تقدما هاما باستكشاف المواقع استكشافا مدققا مطولا وبالمشاهدة المشتركة، وليس باستطاق المخبرين فقط. ولكن كل عملة لها قفاها، لقد شرع علماء الانثروبولوجيا في البحث عن مجتمعات بدائية وعن جزر منعزلة ثقافيا فقلبوا الآراء الغربية عن الحضارة الافريقية رأسا على عقب. فنشأ عن ذلك فجوات خطيرة في الميدان الوثائقي الخاص بالمجتمعات الافريقية الأكثر أهمية وتشعبا، فزيدت اضافة جديدة لحرافة «افريقيا البدائية». وساعد مجهودهم الرامي الى تجريد الحاضر الانثروبولوجي من الحاضر الواقعي، على تقوية الاعتقاد بأن التغير في افريقيا، انما كان وجوبا يأتي من الخارج، وذلك لكون فرضياتهم بدت تنكر كل تطور للمجتمعات الافريقية قبل دخول الاوربيين.

ومجهودهم الرامي الى تمجيد المجتمع الشاهد لدراسة سيره الاساسي، قد أدى بهم غالبا الى الغفلة عن كون المجتمع الذي يعالجونه قصد تحليله على أنه مجتمع ساكن، ليس هو كذلك في الواقع. وأكثر من ذلك كله، ان مجهودهم سيمنعهم من التساؤل عن أسباب هذا التطور ووسائله. ولو

تساءلوا عن ذلك لظهور المجتمع الذي يرصدونه في مظهر آخر تماما. ولا شك ان الوظائف قد تتابع رغم كل شيء سيرها دون مزاحمة النظام التاريخي. فهي تأثرت بدراسات التأقلم الثقافي في الاربعينات والخمسينات، بينما اتجه كلود ليفي ستراوس واتباعه اتجاهها مغالفا تماما في العشرينات الموالية للحرب. على أنه فيما يخص الانثروبولوجيا السياسية وبعض مظاهر الانثروبولوجيا الاجتماعية، فلقد أوضحت من جديد، أعمال المؤرخين قبل العصر الاستعماري حركية التطور، وساهمت في منح الانثروبولوجيا قفزة جديدة.

وقد تغيرت دراسة الديانات والمنظمات الدينية الافريقية بتأثير البحوث التاريخية الحديثة. وكان أوائل المنقبين عن الديانة الافريقية في معظمهم، اما علماء الانثروبولوجيا الباحثين عن مجموعة ساكنة من المعتقدات والعادات، واما مبشرين قبلوا فكرة الحاضر الانثروبولوجي في دراستهم للديانات التي كانوا يؤمنون احتلال محلها. فهم اعترفوا بحركية الاسلام التي لا تنكر، وقد كان انتشاره في الفترة الاستعمارية أسرع من انتشار النصرانية، على أن أهم الدراسات عن الاسلام أشرفت عليها الحكومة الفرنسية في افريقيا الشمالية وافريقيا الغربية، بقصد احباط كل حركة انفصالية متوقعة. وكان موضوع هذه الدراسات يهتم بالمنظمات الدينية ورؤسائها أكثر مما يهتم بالتطور داخل الديانة. وفي خلال العشرينات الأخيرة أسهمت عدة عوامل وليس المؤرخون فحسب، في احياء الدراسات الخاصة بالتطور في اطار الديانة. واهتم إخصائيو البعثات التبشيرية بانتشار الديانات الافريقية الجديدة المعتمدة على قواعد بعضها مسيحي، كما اهتموا بالكنائس المستقلة التي انشقت عن البعثات الاوربية. وأكب علماء الانثروبولوجيا المولعون بالتأقلم الثقافي على أعمال مشابهة، وكان للمؤرخين مساهمة ايجابية بما كان لهم قبل كل شيء من فضول إزاء الديانة في حركات التمرد الاستعمارية وحركات الاحتجاج.

وأما فيما يخص الفترة قبل العصر الاستعماري، فقد وقفوا أيضا على ما كان لحركة الاصلاح الديني في مجموع العالم الإسلامي من أهمية عظمى وواضحة. ونتج عن ذلك وعي اقوى بتطور الديانات الغير المسيحية والغير الاسلامية، ولو أن الاخصائيين في مختلف العلوم الاجتماعية، لم يكادوا يشرعون في دراسة خواص هذا التطور بما يستحق من دراسة نظامية.

وفي هذا الموضوع، من الجدير أن نشير الى ما نالت الديانات «الاحيائية» من اهتمام حديث، وكذلك تجمعاتها السرية غالبا ذات الوظيفة التاريخية المهمة.

وبينما يلوح للاخصائيين في مختلف العلوم الاجتماعية أنه في الامكان أن تدرس الديانة الافريقية في جملتها دراسة مفيدة، وذلك بتبادل فسيح في الآراء والطرق، فان الدراسات في الاقتصاد الافريقي مازالت مقسمة تقسما قاسيا. وقد أظهر الاخصائيون في الاقتصاد، كما أظهر مؤرخو الديانة، في السنوات الأخيرة، أن أنماط الاقتصاد المختلفة ما فتئت تتطور، وان هذا التطور نابع من محركات داخلية، كما أثرت فيه مؤثرات من وراء البحار، على أن الاقتصاديين وخاصة إخصائيي الانتشار، منقطعون دوما الى دراساتهم غير مكترئين بالثقافة الاقتصادية التي يحاولون التحكم فيها. ولا يكفي أنهم يميلون الى تجاهل آلية التطور الجاري، بل ان الكثير منهم لا يعيرون كبير اهتمام للأنماط الانسانية الساكنة، التي وضعها علماء الانثروبولوجيا الاقتصاديون.

ولكي تبرر نظرية النمو مثلا، كان من المناسب ان يقرر أن افريقيا الى حد بعيد مكونة من



اقتصادات «عيش» تنتج كل واحدة عائلية في اطارها معظم الخيرات التي تستهلكها وتحقق خدماتها الذاتية. وأكد هذه النظرة خاصة هلامينت حوالي ١٩٦٥، كما أكد في آن واحد نظرية التطور الاقتصادي، المتركة على تحرير الموارد ووسائل الانتاج التي لم يتم استخدامها استخداما كافيا (٩). والواقع أنه لا وجود لمجموعة في افريقيا قبل الاستعمار تفي تماما بمحاجياتها الخاصة حتى لا تتعاطى بعض التجارة، وكانت عدة من المجتمعات الافريقية تملك شبكات متشعبة للانتاج وللصادرات المخصصة لجيرانها. وعلى حدود الصحراء كان عدد من القبائل الرعاة تقتني نصف استهلاكها السنوي من الحروريات أو أكثر بمقايضة منتجات ماشيتهم بالحبوب، وكان البعض الآخر ينتج بانتظام ما زاد عن حاجته في الزراعة، ويبيعه قصد اقتناء بعض المأكولات المستوردة — الملح والماشية وزبدة قلام وجوز كولا والتور. والخطأ الذي يحثني في جدول الاقتصاد الافريقي الساكن، هو بدون شك الخرافة الدائمة لافريقيا «البدائية»، ويقوي هذا الخطأ اتجاه علماء الانتروبولوجيا في اختيار أبسط المجموعات، واتجاههم القديم إلى تجريد تصوراتهم من الزمن.

وقد أوضح أهمية التجارة في افريقيا قبل الاستعمار هؤلاء الاقتصاديون وعلماء الانتروبولوجيا الذين درسوا الاقتصاد الافريقي دراسة ميدانية. وقد لاحظ بعضهم أن الاقتصادات الافريقية كانت تتطور بسرعة قبل دخول الأوربيين في جماعات كثيفة، على أن فريقا جاد عن خط التفكير التقليدي، فأبرز الفروق بين الثقافات الاقتصادية أكثر مما أبرز التشابهات. وقد نعت أعضاء هذا الفريق «بالجوهرية» إذ أكدوا على دراسة طبيعة الانتاج والاستهلاك الجوهرية، وسعوا الى ربط كيفية ارضاء الانسان حاجياته المادية بالاطار الفسيح لمجتمع خاص لا لنظرية رسمية. فحاولوا أن يبرهنوا على أن النظرية الاقتصادية لا تنطبق على ميدان بحثهم (١٠)، مما جعل الهوة فسيحة بين اقتصاديي التوسع العاملين بوحى نظريات الاقتصاد الضخم لا يعلقون أهمية للوقائع الاقتصادية في الحاضر، وبين الجوهرين الذين لا يعبأون بالنظريات المعاكسة لهم. ولم يسد إحصائيوتاريخ الاقتصاد هذه الهوة بعد، كما أنهم لم يؤثروا في الآراء الاقتصادية المتعلقة بافريقيا تأثيرا شبيها بما كان للمؤرخين من أثر على الانتروبولوجيا أو على دراسة الأديان، فتقدم التاريخ الافريقي خطوات شاسعة في السنوات الأخيرة خاصة، مستخدما طرقا جديدة ممتدا الى مناطق لم تكند تكتشف بعد، الا أنه لم يستفد كما يلزم من طرق جديدة فتحت في مجالات أخرى، ولم يقابل بسرعة، مثل الاختصاصات الأخرى، تحدي الثورة السلوكية. ولم يستعد من امكانات التاريخ الكمي العجيبة في المادة السياسية أو ما في ميدان الاقتصاد الكمي.

وخلال جولات معمقة أكثر فأكثر في ماضي افريقيا، كان اشعاع التاريخ الافريقي الحديث من عمل مجموعة من المؤرخين المحترفين ممن أصبح هذا التاريخ عندهم الموضوع الأساسي في تعليمهم وفي كتاباتهم. وإذا كانت معرفة تاريخ افريقيا في العالم الغربي لم تتقدم ولو بالنسبة الى تدوين التاريخ بأسيا أو أميركا اللاتينية، فذلك لأنها كانت من عمل مؤرخين هواة، لهم نشاطات مهنية

(٩) هلامينت: اقتصاد الجهات المتنامية، لندن ١٩٦٤.

(١٠) للخلاصة المفيدة لهذا الموقف انظر جورج دلتن (١٩٦٨) الاقتصادات البدائية والعتيقة والعصرية، بحث كارل بولاني (نيويورك ١٩٦٨).

أخرى، ولكن لبس لهم منزلة ثابتة في العالم الجامعي، فصارت تعوزهم امكانية التأثير على الأوساط التاريخية في أي بلد غربي. وقبل الحرب العالمية الثانية، قامت بعض البحوث عن افريقيا في معاهد اسكندينيا أو أوروبا الوسطى والشرقية، ولكن هذه البحوث بقيت هامشية بالنسبة الى البرنامج العام للتعليم العالي، فلم تساعد على تكوين المؤرخين. ويستثنى من ذلك الدراسات المصرية القديمة وبعض المظاهر من ماضي افريقيا الشمالية في العصر الروماني، وفي عدا ذلك لم يكن قبل ١٩٥٠ الا قليل من المحترفين من بين مؤرخي افريقيا، فكان يوجد عدد من الاداريين الاستعماريين ومن المبشرين الدينيين، كما كان يوجد عدد من أهل الكنيسة أو من رجال الدين الأفارقة المتكلمين باحدى اللغات الدولية، أمثال كارل كرستيان رايندوف في ساحل الذهب وصامويل جونسون عند البيوروبا والشيخ موسى كماره في السنغال، وكتابه «زهرة البساتين في تاريخ السوادين» لم ينشر بعد بأكمله، ولم يكذ غيره من المؤرخين يشرع في الرجوع اليه (١١).

وقد انكب بعض علماء الانثروبولوجيا أيضا على مواضيع تاريخية، ولكن في افريقيا حتى ١٩٥٠ لم تعرض أي جامعة برنامجا لائقا للتخصص في التاريخ الافريقي في مستوى الاجازة، وسنة ١٩٥٠ ما من مؤرخ محترف قصر عمله على تحرير التاريخ الافريقي وعلى تدريسه، وبعد ذلك بعشرين سنة، أحرز نحو خمسمائة مؤرخ على الدكتوراه أو على ما يعادلها اختاروا تاريخ افريقيا ضمن نشاطهم الرئيسي.

وسرعة هذا التحول عجيبة، واذا ما نظر اليها بعد مرور الزمن، فانها تجد لها تفسيراً حسناً، ففي افريقيا وأوروبا وأميركا الشمالية — وعلى كل قارة لأغراض مختلفة — كان الظرف السياسي والثقافي والجامعي ملائماً خاصة لبروز مجموعة من المؤرخين المحترفين الموجهين نحو افريقيا. ففي افريقيا، منذ نهاية الاربعينات، كانت الحاجة اليهم ملحة ولا سيما أن حركة هامة لتحقيق الاستقلال، تشتد شيئاً فشيئاً كانت متوقعة، على الأقل فيما يخص معظم افريقيا الشمالية والغربية. وبعد ١٩٥٠ خلق انشاء جامعات جديدة الحاجة الى تاريخ افريقي متجدد معتبر من وجهة النظر الافريقية — في مستوى الجامعة في البداية — ثم هو انحدر الى المدارس بعد المرور بمعاهد التكوين التربوي. ومن رواد هذا المجهود العام الرامي الى تجديد التربية، ينبغي أن نذكر أنوكاديك، فهو رأس جيل جديد من المؤرخين الأفارقة تجاوزوا مراحل التكوين التربوي الاعتيادي، وتم له ذلك بجامعة لندن. وانخرط في هذه الحركة مؤرخون منفيون عن أوطانهم مثل: د. فاج من جامعة غانة (ساحل الذهب سابقاً)؛ ج. د. هو قر يف في فوره باي بالسيراليون وكر يستوفوري لي وسيريل اهرليش بماكريري كليج.

وفي افريقيا المستعملة للفرنسية ظهرت تدريجياً حركة موازية، فاستمرت الجامعات بالاراضي الفرنسية القديمة، طويلاً بعد الاستقلال، تتبع النظام الجامعي الفرنسي، محتفظة أيضاً بالتقاليد التاريخية الفرنسية. على أن بعض الرواد اتجهوا بهدوء نحو تاريخ افريقيا، وتمت في هذا الاطار

(١١) جونسون: تاريخ البيوروبا (لا قوس ١٩٢١)، كارل كرستيان رايندوف تاريخ ساحل الذهب (بال، د. ت. ١٨٨٩)، الشيخ موسى كماره: حياة الحاج عمر، نشرة افان، ٣٢ (سلسلة ب)؛ ٣٧٠ — ٤١١، ٧٧٠ — ٨١٨ (١٩٧٠)، ترجمه ونشره عمار صمب.

مساهمات جسيمة: في السنغال من قبل أحد مختار أمبو وفي فولطا العليا من عمل جوزيف كي زربو، وفي الكامرون من الأب إنجليبرت مونج ومنذ بداية الخمسينات أكب على البحث المؤرخون الذي أتوا من الخارج، واستقروا في افريقيا المستعملة للفرنسية، والذين سيكون لهم دور فعال في الجامعات فهذا جان فانسينا الذي سيكون له دور في تدريس التاريخ الافريقي بجامعة لوفانيوم، قد كان مايزال يعمل في منشآت البحث للحكومة البلجيكية بالكنغو ورواندا. وفي الايفان بداكار كان ريموند موني الذي أصبح مدرسا للتاريخ الافريقي في الصربون يشتغل بالبحث عن افريقيا الغربية. وأما ايف برسن الذي مازال حاكما استعماريًا، فقد شرع في بحوث ستكون سنة ١٩٦٨ موضوع كتابه «ساموري» وستمكنه من غرس التاريخ الافريقي في جامعات أبيدجان وداكار. وكان «الحضور الافريقي» بواسطة مجلته ومؤتمري الكتاب والفنانين السود بباريس وروما سنة ١٩٥٦ و ١٩٥٩ يدفع دفعا قويا لهذا الاتجاه.

وكانت هذه النشاطات تسير في افريقيا نفسها نحو الدراسات التاريخية الافريقية، وفي هذا التلاقي بين تاريخ افريقيا وتاريخ العالم، كانت الساعة الرئيسية هي تلك التي تقدمت فيها دراسة التاريخ الافريقي على سائر القارات، وكان هذا التقدم مزامنا لتقدم تاريخ افريقيا في الجامعات الافريقية، فنذ ١٩٥٠ شرع رولان اليفيه في تدريس التاريخ الافريقي بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن. وفي الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية الروسية دشن د. أ. الدروج وزملاؤه من المعهد الاثنوغرافي بلينغراد برنامجا نظاميا للبحوث، من شأنه أن يتم في وقت ما، نشر كل الوثائق المعروفة عن افريقيا جنوبي الصحراء منذ القرن الحادي عشر، وأكثره باللغة الشرقية مع ترجمة وتعليقات روسية (١٢)، وفي هذه العشرة نفسها أنشئ أول كرسي للتاريخ الافريقي بالصربون، كما أنشئ كرسي ثاني، كرسي الحاكم السابق للمستعمرات هوبرت ديشان وكرسي ريموند موني، وأشرف هنري برنشفيك من جهته على ادارة البحوث عن التاريخ الافريقي بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا، بينما كان روبرت كرونوفان ينشر النشرة الأولى من خلاصته لتاريخ افريقيا، وقد روجعت عدة مرات وأكملت مرارا منذ ذاك الوقت.

وخارج أوروبا وافريقيا كان التقدم أقل سرعة، وفي أوروبا نفسها لم يقبل التاريخ الافريقي في الدورة الجامعية الا في البلدان المستعمرة. وفي أميركا، حيث جزء كبير من الأهالي من أصل افريقي، كان من المتوقع أن يظهر بعض الاهتمام بذلك. ولكن مهما كانت أهمية الآثار الثقافية الافريقية، فلا البرازيل ولا الكرييب أبدا كيز الاهتمام بها، وفي هايتي أبدى المثقفون شيئا من الميل الى الشقافة الفولكلورية المحلية المرتكزة على الافريقية الراجعة الى أولى اثار الدكتور برايس (١٩٢٠). وفي كوبا شعر بأثر الثقافة الافريقية الكوبية بعض الشخصيات من عالم الآداب، ومن بينهم نيكولا قيلان. على أنه في كوبا أو في البرازيل لم يسبب الميل الى الثقافة الافريقية الاميركية شيئا من الاهتمام بافريقيا ولا بتاريخها. وفي الهند الغربية البريطانية، حظيت حركة ازالة

(١٢) كويل، ل. وف متيف (بالروسية): مصادر عربية لتاريخ افريقيا جنوبي الصحراء واثنوغرافيتها مجلد ١: من القرن السابع الى القرن العاشر (موسكو ١٩٦٠) المجلد الثاني من القرن العاشر الى القرن الثاني عشر (موسكو ١٩٦٥).

الاستعمار بما فيها تحرير التاريخ المحلي بالاولوية البارزة، فلم يكن للافريقانية السياسية حتى بعد عام ١٩٦٠ صدى تاريخي في نفوس مثقفي الانتبي.

وكان الاهتمام أقل حدة في الولايات المتحدة قبل (١٩٦٠)، والقليل من الدراسات التي وجد منها كان مركزا على شمال افريقيا. وأدى سير حديث لاطروحات الدكتوراة المتعلقة بالتاريخ الافريقي المقدمة منذ ١٩٦٠ الى ضبط عددها بـ ٧٤ والحق أن هذا المجموع عجيب، ولكنه يندفع. فعظم الرسائل تتعلق بافريقيا الشمالية وهي من قبل مؤرخين إخصائيين في التاريخ أو الآثار التقليدية أو في افريقيا الشمالية والشرق الاوسط أو — عامة — في الاستعمار الاوربي فيا وراء البحار. وكانت الصدفة وحدها أو تكاد هي التي جعلت موضوع الرسالة يتعلق بافريقيا. وأما موضوع التاريخ الاستعماري فقلما صار إحصائيا حقيقيا بافريقيا، ونجد من الرواد في جامعة يال هنري . ر. رودن. فقد نشر منذ الثلاثينات محاولات عن تاريخ الاستعمار الالماني في افريقيا، وما فتئ اهتمامه بافريقيا يزداد بعد ١٩٥٠. وتكون الأفارقة الاميركيون جعا أكثر أهمية. فأكتب و. أ. ب. دوبا منذ بداية عمله على دراسة افريقيا، ولأنه لم يتمكن من الاشتغال بها إلا زمن حالته عن التقاعد وهجرته الى غانة. وقبله بكثير سنة ١٩١٦ أسس كارتر. ج. وودسن «صحيفة تاريخ السود» وكانت النشرة في الواقع نشرة افريقية أمريكية أكثر مما كانت افريقية. ولكن التاريخ الافريقي كان رسميا في منظورها، وكان يوجد فيها من حين الى آخر فصول عن ماضي افريقيا. ولكن الداعية الحق لتاريخ افريقيا هو ويليام ليوهنسبري من جامعة هورد، فقام بحملة منعزلة لتسجيل تاريخ افريقيا ضمن منهاج التدريس بالجامعات الاميركية، وحيث كان التمييز العنصري ما فتئ قائما، خاصة في المدارس ذات الأغلبية القوية من السود في الولايات الجنوبية.

وهكذا فان ظروف نشر التاريخ الافريقي خارج افريقيا وجدت قبل ١٩٦٠ على درجات مختلفة. وحوالي هذا التاريخ جعل الكفاح في سبيل استقلال افريقيا الشمالية وافريقيا الاستوائية اشعاعا جديدا لافريقيا، فأثار الاهتمام الشعبي الذي اتجه نحو الماضي لا الى الحاضر أو المستقبل. على أن تقدم التاريخ الافريقي في عدة بقاع قد خيب الأمل. فرغم ما أعيرت الوحدة الافريقية من أهمية سياسية فان جامعات افريقيا الشمالية وطلبتها لم يتقدموا الا شيئا فشيئا نحو تصور قاري لدراسة ماضيهم ذاته. فكان المغرب يرتبط مع عالم البحر الأبيض المتوسط ومع العالم الاسلامي ومع العالم الشقافي الناطق بالفرنسية الذي كانت باريس مركزه. وكانت هذه العوالم الثلاثة كافية لتعبئة كل اهتمام الجمهور المثقف. وكثيرا ما أكد لسان الحال الرسمي المصري، أن مصر كانت افريقية بقدر ما كانت عربية اسلامية، ولكن دراسات التاريخ بمصر كانت دائما تنتمي الى فكرة تخيرية في الحين نفسه الذي لفت فيه سد أسوان وأعمال الجماعات الأثرية الدولية في نوبيا النظر الى النيل الأعلى.

ان موضوع «الفكرة التخيرية» تلك، كان — بل أكثر من ذلك — فكرة الدراسات التاريخية في افريقيا الجنوبية. فلم تضعف الرقابة السياسية التي كان يقوم بها اروبوما وراء البحار في جمهورية افريقيا الجنوبية. وفي الجامعات لم يكن يشعر بالتاريخ الافريقي، وأما «التاريخ» فكان تاريخ أوربا وتاريخ الاقلية الاوربية في افريقيا الجنوبية. ومع كتاب «تاريخ اكسفورد لافريقيا الجنوبية» (١٩٦٩ — ١٩٧١) انفسح المجال حتى حوى الأغلبية الافريقية، الا أن أحد مؤلفيه،

المؤرخ ليونارد طومسون لم يزل يدرس في افريقيا الجنوبية، والمؤلفة الثانية، مونيكاس ولسن، وإن كانت مولعة بالتاريخ، فقد كانت عالمة بالانثروبولوجية، وفي زمبراي، حوالي ١٩٦٠، كان الاتجاه يرمي الى اقحام لمحّة عن التاريخ الافريقي ضمن الدراسات التاريخية، ولكن التصريح الوحيد الطرف، المعلن لاستقلال الأقلية البيضاء ازاء بريطانيا العظمى قد عكس الاتجاه، ومن الغريب أن زمبواي قد انتجت من الطلبة في تاريخ افريقيا نسبة أعلى من نسبة افريقيا الجنوبية، ولكن معظمهم اضطر الى مواصلة ممارسة مهنتهم في المنفى.

وكانت افريقيا الاستوائية أول بؤرة لدراسة التاريخ الافريقي على القارة الافريقية وفيها سجلت التقدمات المهمة في العشرية الأولى من الاستقلال، فكان لتاريخ الافريقي مادة من منهاج التدريس بالجامعات الاستوائية ولكن الشيء الهام كان أن يبحث عن توازن لائق بين التاريخ المحلي والجهوي والافريقي والعالمي، أي وبكلمة أدق أن ينزع الاستعمار عن مجموع برنامج التاريخ لا أن يضاف اليه مؤلفة افريقية، وتمت أكبر التغيرات في افريقيا الناطقة بالانكليزية، وبها صارت النظم القاسية التي وضعها الاوروبيون أشد طواعية منها في البلدان الناطقة بالفرنسية. فحلت مواد أخرى محل تدريس تاريخ بريطانيا العظمى وامبراطوريتها، وأخذ تاريخ الامبراطورية البريطانية يضمحل تماما، بينما انصهر تاريخ بريطانيا العظمى مع تاريخ أوروبا. وفيما يخص تدريس تاريخ أوروبا بافريقيا، كان التيار الجديد يرمي الى جعل مختلف التواريخ القومية تابعة لدراسات مواضيع عظمى تتجاوز الحدود، كمواضيع تخطيط المدن أو الثورة الصناعية. وفي الآن نفسه أخذ المؤرخون الافريقيون يعنون بتاريخ مناطق أخرى — منطقة العالم الاسلامي شمالا مع التأكيد خاصة على اثره في جنوبي الصحراء ومنطقة أميركا اللاتينية أو منطقة آسيا الجنوبية الشرقية، إذ كان في الامكان أن تعتبروا موافقتين لبعض مظاهر التجربة الافريقية، ومنطقة آسيا الشرقية حيث كانت التنمية الاقتصادية باليابان تمثل مثالا قد يكون لافريقيا أن تعتبره. وتمثل هكذا اثر التاريخ الافريقي في تجديد الاتجاه العام نحو تصور للعالم وللماضي متمركزا حقا على افريقيا دون أن يعني بافريقيا والأفارقة فحسب، كما كانت السيرة الاوربية القديمة تقصر همها على الاوربيين، بل في اطار نظرة عالمية يكون منطلقها افريقيا لا أوروبا.

ولم يدرك هذا الهدف حتى في أشد الجامعات الناطقة بالانكليزية تقدما، وأنه لا مناص من قضاء مدة لتكوين جيل جديد من المؤرخين الافارقة المجددين، سوف يقتحمون مسالك جديدة يكونون هم أنفسهم قد اختاروها. وبقيت الجامعات الناطقة بالفرنسية متأخرة بنحو عشر سنوات. فجاءت ابيجان وداكار ولباشي (الوارثة لجامعة لوفان في حقل التاريخ) هي أقدم الجامعات الناطقة بالفرنسية، ولم يصبح معظم أساتذة التاريخ فيها أفارقة الا في بداية السبعينات، بينما تم هذا التطور في أقدم الجامعات الناطقة بالانكليزية في بداية الستينات. والآن وقد احتل المؤرخون الأفارقة مناصبهم في الجامعات الناطقة بالفرنسية، فانه من المتوقع أن يتم تعديل مشابه في تصورات التاريخ العلمي. الا أن اصلاح برامج التاريخ في المدارس الثانوية في البلدان الناطقة بالفرنسية تم سنة ١٩٦٣، وتبعه مباشرة اصلاح برامج الدراسات التاريخية الجامعية في اطار منهاج المجلس الافريقي والملاغشي للتعليم.

وكان اثر التاريخ الافريقي على البحث التاريخي وعلى تدريس التاريخ في أوروبا الغربية، مرتبطا بالعلاقات القديمة الاستعمارية، ولذا كانت فرنسا وانكلترا أهم المراكز الاوربية لدراسة التاريخ الافريقي.

على أنه في غيرهما من المراكز سجل بعض التقدم في دراسة التاريخ الافريقي، ولا سيما في تشيكوسلوفاكيا وبولونيا كما في الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية الروسية، حيث يدرس تاريخ افريقيا تدريسا نظاميا في جامعة باتريس لومومبا بموسكو، وتتمثل رسالتها الخاصة في تكوين الطلبة الافارقة. وفي بلدان أخرى يتابع إخصائون منعزلون ببحثهم في مختلف المراكز الجامعية، على أن ذلك انما يتم بانتظام في معاهد البحث التابعة للتقليد الالماني في التنظيم الجامعي. فالباحثون المتخصصون في افريقيا، منعزلون بعض الانعزال، وقد يعلل ذلك كون الدراسات التاريخية في العديد من الجامعات الاوربية، ما عدا انكلترا وفرنسا، لا تخصص أي نصيب لافريقيا.

والتقاليد العامة في الدراسات التاريخية مستوحاة من فكرة تحيزية في هذه البلدان، ولكن تكوين الحكام الاستعماريين كان له وزن خاص فيها. وبدأت عملية ارجاع هؤلاء الحكام الى بلدانهم منذ ١٩٥٥ تقريبا، وشرع عدد منهم في شغل وظيفة جديدة تتمثل في تاريخ البلدان التي كانوا موظفين فيها.

وهكذا كان الأمر في فرنسا كما يشهد عليه أمثال الاستاذين ديشان وبروسن، فبالنسبة الى هذا البلد كما بالنسبة الى انكلترا فان انشاء جامعات جديدة افريقية وغوها — منذ الخمسينات — قد فتحا في افريقيا مواطن للشغل، واختار مؤرخون شبان مواضيع افريقية للتدرب على البحث، أو هم عنوا بالتاريخ الافريقي عندما ذهبوا الى افريقيا قصد التدريس فيها. ثم في الستينات والسبعينات ارجع هؤلاء المؤرخون تدريجيا الى بلدانهم وحلّ محلهم الأفارقة، فأدجوا في سلك التدريس في وطنهم الأب أحيانا، بعدما قضوا ثمانية أو عشرة أعوام في افريقيا. ولم يدرس كل من رجع منهم التاريخ الافريقي ولكن عدد من قام بذلك منهم، عدد له معناه، فعدد المؤرخين العائدين من الجامعات الافريقية الى الجامعات البريطانية بين ١٩٦٥ و ١٩٧٥ قد يتراوح بين ٦٠ و ٧٠ أي أنه يمثل من ٨ الى ١٠ ٪ من جملة المؤرخين المدرسين في الجامعات البريطانية في تلك الفترة. وفي سنة ١٩٧٤ كان ثمة ثلاثة كراس «للتاريخ المعاصر» (والمقصود بذلك عادة تاريخ بريطانيا العظمى المعاصر)، يشغلها مؤرخون، أهم مواضيع بحثهم كانت مخصصة لافريقيا. وانه لمن السابق لأوانه أن نحدد أثر هذه العودة من افريقيا على التقاليد التاريخية البريطانية عامة، ولكنه قد يكون مقبولا في فرنسا، ولو أن الاعداد المشابهة أضعف، وأن المدرسين العائدين من افريقيا يمثلون نسبة مئوية أصغر من الملاك الجامعي. فاننا نلاحظ ظاهرة شبيهة بالسابقة (هناك جيل جديد من المؤرخين أخذ يعني بافريقيا). في باريس وفي مختلف الجامعات كما في مركز الدراسات الافريقية وهو مشترك بين الجامعات، يوجد عدد من الاخصائيين في التاريخ وفي علم الاجتماع وعلم الآثار كانوا كانوا يعملوا مدة تطول أو تقصر في الجامعات الافريقية، وبقوا مرتبطين بها ارتباطا وثيقا، والامر عينه في اكس وبوردو وليون. وعملت الجامعات الفرنسية والبريطانية بصورة متوازية على تكوين مؤرخين أفارقة يحلون محل

العائدين الى بلدانهم (١٣) فالمعاهد من نوع «مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية» بلندن، والفروع المنتشرة المتفرعة عن الصوريون وعن المدارس العليا بباريس، كانت ترمي الى القيام بدور خاص، ففي المدرسة الأولى (SOAS) مثلاً ٥٨% ممن حصلوا على الدكتوراه من ١٩٦٣ الى ١٩٧٣ بدؤوا بالتدريس في افريقيا، وأقل من ٢٠% من المجموع بريطانيون و٣٠% فحسب حصلوا على مناصبهم الأولى في جامعة بريطانية (١٤). وهذا مما نقص قليلا من اثر هذه المدرسة المباشر على التربية البريطانية، ففيها اجتمع أهم مجموع من المؤرخين لافريقيا في أي جامعة من الدنيا، ولكن اثرها الغير المباشر كان عظيماً، وعلاوة على هذه المدرسة فإن جامعات برمنغهام سوسكس وادمبرغ قد خصصت ضمن برامجها مهمة خاصة للتاريخ الافريقي، وعلى الأقل ثمان من الجامعات الأخرى يوجد فيها أخصائي للتاريخ الافريقي يدرس هذه المادة بانتظام لطلبة الحلقة الأولى.

ولعل هذا المستوى الخاص من التطور في بريطانيا العظمى كان متوقعا، نظرا للاهتمامات الاستعمارية والاستعمارية الجديدة الخاصة بهذا البلد ازاء البنيات الجامعية الافريقية. وبالعكس فإن النمو العظيم للبحث عن تاريخ افريقيا في الستينات من قبل أميركا الشمالية، لم يكن متوقعا، خصوصا وأن مؤرخي الولايات المتحدة لم يشتهروا بمعالجة موضوع الأفارقة الاميركان في مجتمعاتهم ذاتها معالجة عادلة. والأقلية الكبيرة من سلالة الأفارقة في الولايات المتحدة منذ الأصل، لم تراثتاما ملحوظا بافريقيا حتى لدى معظم الأفارقة الاميركان. على أن الازدهار المفاجئ لدراسة التاريخ الافريقي يلاحظ في كندا، كما يلاحظ في الولايات المتحدة، ولو أن كندا لم تحكم في أي جزء من افريقيا كما حكمت بريطانيا العظمى، ولا هي ضمت من بين رعاياها أقلية مهمة من الأفارقة الأميركان، كما هو الشأن في الولايات المتحدة.

وقبل ١٩٦٠ لم يكن تاريخ افريقيا يدرس في أمريكا الشمالية، وحوالي ١٩٥٩ بعيد انشائها لم تضم «جمعية الدراسات الافريقية» سوى ٢١ عضوا في الولايات المتحدة أو كندا، يمكن أن يدعى صفة المؤرخ، ومن بينهم أقل من النصف كانوا يشغلون مناصب جامعية تتطلب منهم أن يخصصوا لتاريخ افريقيا أحسن أوقاتهم.. ثم أن أول مؤتمر دولي لافريقيين عقد في أكرا سنة ١٩٦٢ ضم نحو ثمانمائة مشترك، التي أمامهم الرئيس كوامي نكروما خطاب الافتتاح، فوصف مسؤوليات الاختصاص التاريخي ازاء افريقيا الجديدة، ثم كان السيل المهم، فسنة ١٩٧٠ كان عدد الاميركان الشماليين الاخصائيين في التاريخ وفي علم الآثار الافريقية قد بلغ ٣٥٠، وكان بعضهم مؤرخين كانوا قد بدؤوا باختصاص آخر ثم غيروا طريقهم، ولكن معظمهم كانوا طلبة أحيانا لم يكادوا يفارقون الدورة الثانية.

ومن ١٩٦٠ الى ١٩٧٢ خرجت المدارس الاميركية أكثر من ٣٠٠ دكتور في فلسفة التاريخ الافريقي. وكان من بينهم شبان أتوا من افريقيا وبنوون العودة اليها، وكان البعض قد جاء من

(١٣) اني لأشكر الاستاذ ج. ف. أجايي من جامعة لاقوس، والاستاذين ج. د. فاج ورولان أوليفيه، على الارشادات التي أمدوني بها عن اثر التاريخ الافريقي في التاريخ عامة في أوروبا، على أن كل خطأ في الواقع أو في التقرير الذي قد يشتمل عليه هذا النص، انما هو محمول علي وحدي.

(١٤) رولاند أوليفر «الدراسات الافريقية التي أجريت في لندن ١٩٦٣ — ١٩٧٣» دراسة لم تنشر قدمت الى المؤتمر الدولي الثالث لأخصائي الدراسات الافريقية، أديس أبابا، ديسمبر ١٩٧٣.

أوربا ولكن الأغلبية الساحقة كانوا أميركان شماليين، وفيما بين الأفارقة الأميركيين والأوروبيين الأميركيين كانت النسبة هي عنها في جملة السكان — نحو ١٠٪ في الولايات المتحدة، وأقل بكثير في كندا.

وهكذا قد أدى الى نشر تاريخ افريقيات في أميركا الشمالية اتجاهان متناقضان في اطار الدراسات التاريخية، فمن آراء المجموعة الافريقية الامريكية نشأ ايمان ثابت بأن افريقيا ملك للشعوب الافريقية ولأبنائهم المستقرين في سائر القارات، شأنها شأن أوربا حيث كانت التواريخ القومية ملكا لكل أمة أوربية. أي أن الفرق بدا واضحا بين أهداف «تاريخ افريقيا للافريقيين» و«تاريخ افريقيا في اطار التاريخ العالمي»، على أن الفرق لا يعني المناوئة «فالتاريخان» ليسا متنافرين، ولأن كلا منهما اختار التأكيد على جوانب مختلفة من الماضي.

فالالاتجاه المتمركز الاثنولوجي في التاريخ قد زرع جذبا في أميركا الشمالية أكثر من خارجها. ففي العديد من المدارس حل محل «تاريخ العالم» القديم، وما هو في الواقع الا تاريخ الحضارة الغربية الذي فسح المجال خلال الستينات والاتجاهات جديدة أشد أصالة تضع التاريخ في منظور عالمي، حيث وضعت افريقيا على قدم المساواة مع مناطق ثقافية عظيمة أخرى مثل آسيا الجنوبية أو الشرقية. وشرعت عدة أقسام للتاريخ في الجامعات الأمريكية الشمالية في تجاوز التقسيم القديم للتاريخ الى أمريكي وأوروبي، الى تقسيم التاريخ الى ثلاثة فروع الثالث منها — تاريخ العالم الثالث — يعادل الفرعين الاولين.

ولما ينتبه هذا التطور، ولكن بصورة موازية لنشر التاريخ الافريقي في بريطانيا العظمى وفرنسا، ولاعادة التوجيه لبرنامج تدريسي التاريخ في الجامعات الافريقية، توقف التطور في مرحلة على طريق، سوف يمكن التاريخ الافريقي من كامل التأثير على التاريخ عامة. وعلى مدى طويل يرتبط النجاح بتضافر الجهود من قبل إخصائيين أفارقة يحرون تاريخ مجتمعاتهم الخاص، وكذلك جهود مؤرخين غير أفارقة يؤولون التاريخ الافريقي لمجتمعات أخرى، كما يؤدي افساح مجال العلوم الاجتماعية الدولية الى أن ينتبه الاخصائيون في سائر الاختصاصات للمعطيات الافريقية قبل المجازة بكل تعميم حول حياة المجتمعات البشرية.



## المصادر والتقنيات الخاصة بالتاريخ الافريقي لمحة عامة ت. أوبنجا

ان القواعد العامة للنقد التاريخي التي جعلت من التاريخ تقنية الوثيقة، والفكر التاريخي الذي يتطلب دراسة المجتمع البشري في مسيرته خلال العصور، لمن المكتسبات الأساسية التي في امكان كل المؤرخين في كل البلدان أن يستخدموها. واغفال هذه المصادر قد جعل شعوب افريقيا خلال زمن طويل، خارج حقل المؤرخين الغربيين، وقد كانت أوروبا وحدها عندهم هي كل التاريخ، وفي الواقع ان ما كان خافيا لا يظهر بوضوح، هو اعتقاد مستمر بأنه لا وجود لتاريخ في افريقيا، لفقدان النصوص وفقدان الآثار العلمية. فصار من البين اذن أن أول عمل تاريخي، يبتدئ بتحقيق المصادر، ويقترن هذا العمل بمشكل نظري أساسي هو التعرف على الطرق التقنية في العمل التاريخي.

حدثت بالباحثين حاجة جديدة عميقة الى المعرفة والادراك مرتبطة ببداية عصر ما قبل الاستعمار، فأنشؤوا التاريخ الافريقي، ولو أن بناء منهجية خاصة مازال مستمرا. واكتشفت قطاعات فسيحة من الوثائق، فكانت البحث من التساؤل تساؤلات جديدة. ومهما عرفت مخبات التاريخ الافريقي ازداد هذا التاريخ تنوعا وتم بناؤه بناء مغايرا لم يكن متوقعا، فذ خمسة عشرة عاما تقريبا. قلبت آلات العمل رأسا على عقب، واعترف اليوم أنه توجد مصادر تستخدم خاصة التاريخ الافريقي: علم الجيولوجيا والاتنولوجية القديمة وما قبل التاريخ وعلم الآثار والنبات العتيق والبايولوجيا وقياسات النشاط الاشعاعي للنظائر، في امكانها أن توفر معطيات زمنية مطلقة عن عمر أزمان البشرية، وثمة جغرافيا طبيعية ومشاكل بشرية، مشاهدات اتنولوجية اجتماعية وتحليلها، رواية شفاهية، السننية تاريخية أو مقارنة، وثائق كتابية أوربية، عربية، هندية، صينية، وثائق اقتصادية أو ديموغرافية ملائمة للعلاج الالكتروني.

وبقيت مطاوعة المصادر التاريخية الافريقية عجيبة، فمن اللازم دائما أن يبحث بانتظام عن توارثات ذهنية تربط بين قطاعات كانت في الماضي متميزة، أما استخدام المصادر استخداما متقاطعا فقد بدأ من باب التجديد الكيفي، ولا يمكن تحقيق بعض العمق الزمني الا باستعمال عدة أصناف من المصادر في آن واحد، فالحالة المنفردة تبقى، ان صح القول، هامشية بالنسبة الى حركة المجموع، ويمثل التكامل الكلي للطرق وتقاطع المصادر، مساهمة فعالة من افريقيا للعالم، بل وحتى للوعي التدويني للتاريخ المعاصر.

وعلى فضول المؤرخ أن يسير على مسارات عدة في آن واحد. ولا ينحصر عمله في تحقيق المصادر، بل الشأن أن نتملك الماضي البشري بواسطة ثقافة متينة متعددة الأبعاد، فالتاريخ نظرة الانسان الحاضر الى مجموع الأزمنة.

وفي هذا المجلد وصف معظم هذه المصادر والتقنيات المخصصة لتاريخ افريقيا وصفا فسيحا مستمدا من الرياضيات ومن الفيزياء الذرية والجيولوجيا والعلوم الطبيعية والعلوم الانسانية والاجتماعية. وهنا سنؤكد على مظاهر ومشاكل لم يجز تحليلها في محل آخر.

ولا شك أن الحديث المنهجي الحاسم الذي تم في السنوات الأخيرة هو تدخل العلوم الفيزيائية العصرية في دراسة الماضي البشري، بواسطة قياسات النشاط الاشعاعي للنظائر، والذي أكد بيان التسلسل الزمني في الماضي حتى في العصور الأولى من ظهور انسان سايبان (بواسطة الفحم ١٤)، أو في الأزمنة التي تزيد عن المليون من السنوات (بواسطة البوتاسيوم - الارغون).

وتختصر طرائق تحديد العمر المطلقة اليوم، اختصارا عظيما النقاشات في مجال التكنولوجيا القديمة البشرية وما قبل التاريخ (١). ففي افريقيا يؤرخ أقدم وجود للانسان الهوميني بقدر ٥,٣٠٠,٠٠٠ سنة بطريقة البوتاسيوم - ارغون، وهذا العمر هو عمر قطعة من فك أسفل، به ضرس سالم من انسان هوميني عثر عليه الاستاذ بريان بترسن سنة ١٩٧٠ بلوطاغم في الكينيا. ثم إن أسنان الانسان الهوميني التي وجدها في الطبقات التي تنسب الى فيلا برانش بوادي أمونجنوب اثيوبيا، جماعات من الفرنسيين (كاميل - ارمبوغ - ايف كوبنس) والاميركان (ف. كلارك هول)، ترجع من ٢ الى ٤ ملايين سنة. ومستوى زنجنطروب (المستوى ١) من المعدن الشهير بالالدووي في تنزانيا يؤرخ بقدر ١٧٥٠٠٠٠ سنة، وذلك بطريقة البوتاسيوم - الارغون أيضا.

وبفضل طريقة نظائر البوتاسيوم - ارغون، فإن التكوين البشري بالشرق الافريقي، وهو أقدم الوجود فيما نعلم اليوم، هو حقا التكوين البشري، المطلق، بقدر ما صارت العرقية الوحيدة أكثر فاكث اليوم، النظرية المقول بها في التكنولوجيا القديمة العامة. وهكذا تمدنا المتحجرات الافريقية المعروفة اليوم بعناصر حاسمة للجواب على هذا السؤال الأساسي لأصول البشرية الذي عرض بكيفيات عديدة على طول تاريخ البشرية: «اين ولد الانسان؟ ومنذ كم؟»

وتغيرت الآن تماما الأفكار القديمة بالمتحجرة التي كانت تضع افريقيا على ثغور امبراطورية كليو وعلى تخومها. فالأحداث التي أبرزتها مصادر مختلفة وطرق متنوعة، هنا التكنولوجيا القديمة البشرية

والفيزياء النووية، تظهر بالعكس وبوضوح، ما للتاريخ الإفريقي من عمق، وقد انطبقت بالفعل أصولها بأصول البشرية الصانعة لنفسها.

وتنير إرشادات مستمدة من مصادر أخرى، من علوم الأرض مثلاً، تاريخ إفريقيا، بقطع النظر عن كل وثيقة مكتوبة. فحياة سكان الحوض البحيري للتشاد مثلاً، وتاريخها قد يكون من العسير فهمها لولا تدخل الجغرافيا الفيزيائية. ويجدر أن نشير إلى قيمة هذه الطريقة المنهجية.

فالحياة والبشر داخل حوض بحيرة التشاد، لم يوزعا بتوزيعا عشوائيا. وييدي هذا الحوض جدول القياسات الارتفاعية (عن سطح البحر) التي: سهل مركزي تجمعي بين ارتفاع ١٨٥م و ٣٠٠م؛ ومن حول حلقة متقطعة بعض التقطع من الهضاب القديمة المتآكلة وقد أخفت أحيانا عوامل تحولها إلى شبه سهول تخفي نشاطا بركانيا حديثا؛ وبين هذه الهضاب ذات ١٠٠٠م من الارتفاع الوسطي ومناطق التجمع السفلي؛ منحدرات عامة قوية، نتجت عن عوامل تحات شديدة في مناخ قوي الرطوبة. وبالفعل إن منطقة الأراضي الحثائية السهلة القابلة للمطر تبدي أقوى كثافة ديموغرافية، أي من ٦ إلى ١٥ نسمة في الكيلومتر المربع. وفي المناخ الساحلي تشاهد كثافة طيبة أيضا على أراضي النقل التي أخضبتها رشوحات التشاد أو فيضاناته. وعلى الهضاب المرتفعة في الشرق والجنوب في دارفور وأداماوا حيث تنزل روافد البحيرة، تنحط الكثافة السكانية إلى حد نسمة واحدة في الكلم ٢. وهي تزيد انحطاطا في الشمال وقد آل إلى صحراء. وهكذا يرتبط وجه البشرية في هذا الحوض بقوة بمشكل من مشاكل الجغرافيا الطبيعية وعلم شكل الأرض الذي يحدد بذلك التطور البشري.

وتأخرت الحضارة إذن أمام الصحراء وانحصرت ضمن حدود زراعة الذرة والدرع بدون ري تقريبا، إلى خط عرض تشاد الجديد (تجري الزراعات السقوية للخضر والتبغ والقمح على ضفاف لوقون والشاري) ويعيش المزارعون والرعاة والصيدون في المنطقة الجنوبية حيث تحيي مياه الأنهار والبحيرات والأراضي، فتحضر المراعي وتجلب دوريا عددا من الصيادين. وبالعكس إن التحات في المناطق الصحراوية الشمالية يجعل التربة غير ثابتة كما يجعل النبات ضعيفا يتميز بالأدغال الشوكية القتنة.

ولكن هذه البنيات الجيومرفية قد بعثت أيضا نشاطا بشريا آخر، فكثيرا ما طردت غزوات الغاصبين المزارعين الأهالي من الهضاب الصحية والسهول الخصبة دافعة بهم إلى المناطق (المنحدرة أو القمم) الغير الصالحة لتربية المواشي. وهكذا دفع القليلون البوم والدوروا إلى الأراضي الأقل خصبا في الأداماوا والكيروي شمالي الكامرون، وعلى الركامات الغرائبية في سلاسل جبال المنديرا. وخدمة الأراضي المنكشفة عن الفيضان أو المنحدرة هي ولا شك خدمة شاقة وجاحدة لهؤلاء الشعوب ولكنها تلائم ملازمة أفضل أدواتهم البسيطة، ثم إن وجود مساحات مستنقعية دورية أو بصورة دائمة على مناطق النقل، يتبعه كثرة من البعوض (بعوضة الملاريا ذات السوق) وهناك من جهة أخرى أعشاش ذباب النعاس على جانبي اللوقون والشاري في الوحدات الواطئة المحبة للماء بسالكس وميمزا اسبراتا، التي تمتد على الرواسب الحالية. فتصير هذه المناطق مهجورة لما ينتج عن ذلك من مرض الملاريا ومرض النعاس.

وبالجملة كي يدرك المؤرخ ادراكا محسوسا الحياة البشرية في حوض التشاد الذي عرف في الماضي عدة تموجات في العصر الرابع الجيولوجي بسبب تحولات المناخ، يكون حتما عليه أن يرجع

الى جملة متنوعة من المصادر والتقنيات الخاصة المستمدة من علوم الأرض وعلوم الحياة: فالنوزيع الحالي للسكان، وحركات الهجرة الماضية، والنشاط الزراعي والرعوي الخ، كل ذلك يتبع بدقة حالة المحيط.

وما مثل حوض التشاد الا صورة من بين عديد الصور الأخرى. وحيث تحرر الفضول العلمي من بعض التصورات المقيدة، لم تكن النتائج أقل اضاءة وأقل توضيحا. فيوجد فرق ساطع بين دماء من اختبروا من الناس (٣٠٠ شخصا سنة ١٩٧١ و ٣٥٩ سنة ١٩٧٢) النيانقاطوم أو البومي بوادي الاوموقرب التركرا في الشمال الغربي من كينيا. ولم تلاحظ هذه الظروف من الناحية الوبائية بين الأجناس بل بين القرى (التي تحوي من ٢٠ الى ٣٠٠ نسمة). وهذه القرى يسكنها اناس يعيشون بتربية الماشية وبالزراعة وبقطف الثمار والصيد البري والصيد البحري أو النهري، وهي تخضع لنظام قبلي دقيق يشعبه توزيع الى مناطق ترابية، ولكن في هذا المجتمع لا وجود لرئيس على الأكبر سنا. فالفرق الناشئة عن التنظيم الاجتماعي الترابي عند النيانقاطوم ترى معكوسة على علم المصول، وخريطة تفاعلات المصول على المولدات المضادة تصور حرفيا احصاء السكان المختبرين (٢).

وهذا المشال من الاشتراك الحركي بين عالم الطفيليات وعالم الانثروبولوجيا، فيه عبرة للمؤرخ الذي قد يخرج منه بنغم كبير. وليس من الخارج عن اهتمامه أن يتعرف وجود مثل هذه المادة الوثائقية التي قد تظهر نجاعتها في تحليل السلوكات الجنسية، وفي دراسة التزايد الديموغرافي عند النيانقاطوم.

ويسبق مشكل الاستكشاف، ومشكل المعرفة الأساسي هو هو: فعلى المؤرخ في افريقيا أن يكون يقظا تمام اليقظة لكل أنواع طرق التحليل، كي يركب خطابه الذاتي بالاعتماد على موسم خصب من المعارف.

ويسبق «تفتح الفكر» هذا، مطلوبا بصورة خاصة، بالنسبة الى العصور القديمة، حيث لا وجود للوثائق الكتابية ولا للروايات الشفاهية المباشرة. فنحن نعلم مثلا أن القمح والشعير والذرة في آسيا وأوروبا وافر يقيا والذرة في أميركا، كادت تكون قاعدة الزراعة بالنسبة الى الانسان في العصر الحجري الحديث. ولكن كيف يمكن ضبط النظم الزراعية الأولى التي ظهرت منذ هذا الزمن البعيد؟ وكيف يكون في الامكان أن يميز بين عمران مكون من مستقرين... عمران أساسه الفلاحون؟ كيف تم تأهيل النباتات على مختلف القارات ومتى تم ذلك؟ فلن تعيننا الرواية الشفاهية كبير الاعانة في هذا المجال ولا الميثولوجيا أيضا، بل ان علم الآثار وطرق الدراسة للنباتات القديمة وحدها هي التي تمدنا بالجواب المقبول عن هذه الأسئلة المهمة المتعلقة بالتراث الثمين للعصر الحجري الحديث أعني الزراعة.

أن بنية غبار الطلع تواجه الزمان بمقاومة كبيرة في التربة الصالحة غير الحامضة، فيوفر لنا علم الباليينولوجيا القديمة تحليلا مجهريا لهذه البقايا النباتية، ويمكن الحصول على غبار الطلع المتحجر بالتحليل التدريجي لعينة من التراب بواسطة الحوامض في حالة الحرارة (الحامض الفلورهدريك أو

(٢) أعمال فرانسوا رودان، عالم الحشرات، وسيرجي طرناي عالم انتولوجيا، وكلاما أعضاء البعثة الفرنسية في الأوموبادارة السيد ايف كوبنس (١٩٧١ - ١٩٧٢).

الكلورهدريك) فتلغى مادة الغضار والكلس دون أن تؤثر في غبار الطلع، ثم تلقى المواد العضوية والبوتاس. ويعالج الباقي بواسطة الحركة الجابذة ويصنع ثم يعلق بالهلام. ولم يبق إذن للدارس سوى أن يعرف كل حبة ويحدد عدد الحبات، لتركيب جدول مئوي يمكن من تمثيل غبار الطلع في الراسب المدرس، وبذلك يثبت وجود الزراعة في موقع ما. وتطور المشهد المذكور والمناخ المستوحى من خلال تغيرات النباتات، وكذلك العمل المتوقع للإنسان والحيوانات على الغشاء النباتي.

لقد كشفت تحاليل من هذا النوع عن نشاط للتأهيل الزراعي بافر يقيا تقع في عدة مراكز متوزعة على مناطق فسيحة. فالذرة (قد تم تأهيلها على السهوب الممتدة من بحيرة التشاد الى الحد الفاصل بين السودان واثيوبيا) والذرة الصغيرة والارز الافريقي والوندزو وجلبان المرعى ونخيل الزيت (المؤهل على ضفة الغابات) و«ذرة الاصبع» والقناوية والأنيام الافريقي الخ. كانت تلك إذن النباتات الرئيسية المزروعة.

وأما النباتات الأميركية فحديثة الدخول نسبيا كما تشهد ذلك هذه المرة عدة مصادر مكتوبة. فالمنشوك مثلا هو اليوم الغذاء الأساسي لعدة شعوب بافر يقيا الوسطى، لم يدخل مملكة الكنفو من الساحل الاطلسي الا بعد القرن السادس عشر، وذلك أن رسالة بيقافنا لوبز (١٥٩١) لم تذكر من بين النباتات المزروعة على هضبة بمنزاكنغو عاصمة المملكة سوى اللكواي الالوزين كوروكنا وبذرتها مستوردة من ضفاف النيل، في الجهة التي ينصب فيها النهر في البحيرة الثانية (٣) «والمساما كنفو من الحبوب وهي نوع من الذرة، والقطاني، مسنغو أو مسامامبوتو» وهي أحسها وبها تعلف الخنازير (٤)، والارز لوزو و«ليس له كبير قيمة أيضا» (٥)، وأخيرا شجر الموز، ديكندو ونخيل الزيت المسمى «با».

وقليلا ما نعرف أن هناك نباتات افر يقية انتشرت هي أيضا انطلاقا من هذه القارة، فزور الأنواع الافريقية الى الهند مثلا، والى غيرها من الجهات الآسيوية أمثابت ولكنه متأخر، فنوعا الذرة (الذرة الصغيرة وذرة الاصبع) تشهد الاكتشافات الأثرية بوجودها في الهند حوالي سنة ١٠٠٠ ق. م وأما الدرع (الذرة البيضاء) فلقد عرفت هناك فيما بعد، اذ لا وجود للفظ سنسكر يتي يدل عليه.

وقد تفيد المؤرخ كل هذه الارشادات التي يوفرها علم الآثار وعلم النباتات القديمة عند فقد أي وثيقة مكتوبة وأي رواية شفاهية، وتضوح له سلسلة المراجع التي مر بها أجدادنا في العصر الحجري الحديث، من اقتصاد جني الثمار الى اقتصاد الانتاج، وتبدو هذه الأحداث للعيان كتيارات ارتباط بين الحضارات في العصر الحجري الحديث، لا ضربا من الانتشارية.

وتوحي بقايا الكلب والخنزير والضأن والماعز، بأنه شرع في تأهيل الحيوانات، في مراكز الشرق الأدنى، من العصر الحجري الحديث، حوالي الفترة نفسها التي استتبعت الأرض أي بين ٩٠٠٠ و ٨٠٠٠ ق. م، ومنذ ذلك الوقت تسلسل تاريخ نظري لتأهيل مختلف المجموعات من الحيوانات. ثم

(٣) ف. بيقافنا - لوبز، ص ٤٠.

(٤) ف. بيقافنا - لوبز، عين المرجع.

(٥) ف. بيقافنا - لوبز، عين المرجع.

ابتداء من آكلي الجيف كالكلب، ثم الحيوانات الرحالة كالرنة والمعزة والخروف، وفي النهاية ما من الحيوانات يتطلب الحياة القارة: كالمواشي الضخمة والخنزير. وأما الحيوانات الصالحة للجمل والنقل وتشمل الحصان والحمار واللاما، فقد يكون تأهيلها راجعا الى فترة متأخرة جدا. الا أن هذا التسلسل التاريخي العام لا يهم دائما افريقيا.

فالحصان الذي لعب مع الثور والحمار دور «المحرك للتاريخ على مر العصور»، لم يظهر في افريقيا، وبالعكس، كما تشهد بذلك المصادر المخطوطة أو المصورة، الا حوالي نهاية زحف الهكسوس في حدود ١٦٠٠ ق. م. وانتقل الى الليبيين كحيوان حربي منذ القرن الثالث عشر ق. م. وفيما بعد انتقل الى النوبيين في بداية الألف الأولى، وفيما عدا المناطق التي وصلتها الحضارة الرومانية، فان بقية افريقيا لم تستخدم الحصان استخداما كبيرا الا ابتداء من الفتوح الوسيطة العربية. وحسب رواية الكاتب ابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٧) فان من شعارات ملك مالي، حصانين مرجحين ملجمين بجانبها كبشان.

وأما الجمل ذو السنام الواحد، فلم يكن هو الآخر متأخر الدخول في الحضارة الافريقية، فهو يبدو بصورة واضحة في رسم صخري في الصحراء التشادية، من القرن الثالث ق. م. وأدخله رجال قبيلة سنة ٥٢٥ ق. م الى مصر حيث سيكون له دور مهم في الاتصالات بين النيل والبحر الأحمر، وأما دخوله الصحراء الغربية فلقد جاء في فترة متأخرة. فالجمل وهو حيوان صحراوي أساسا حيث يعمل غالبا على الثور والحمار، قد انتشر في المغرب على ما يظهر، عن طريق الجيوش الرومانية ذات الاصل السوري. وتحجر بفضل البرابرة الناثرون على السلم الروماني وعلى عملية تسجيل الأراضي، وقد مكّنهم من الاستقرار خارج الثغور على السبب والصحاري، وبذلك دفع السود المستقرون نحو الجنوب أو هم أدخلوا تحت ربة العبودية.

ونتيجة لما عرضناه سابقا، نصل الى الاعتقاد من أنه غنم منهجي حاسم: يمكن من الحصول على جهاز وثائقي ثري متنوع، انطلاقا من المصادر والتقنيات المستمدة من العلوم الصحيحة والعلوم الطبيعية. ويضطر المؤرخ الى القيام بمجهودات في البحث تصل به الى الجراءة. واعتنقت بعد ذلك الوقت كل الطرق المفتوحة. ونقص حظ: (العلوم المساعدة) بهذه المناهج الجديدة، الا اذا فهم الآن بـ «العلوم المساعدة للتاريخ» تقنيات أساسية للتاريخ مستمدة من أي أفق علمي كان وهي تقنيات لم يتم بعد اكتشافها كلها. وتقنيات البحث صارت جزءا لا يتجزأ من العمل التاريخي ورجحت ماديا كفة التاريخ الى جهة العلم.

وغنم التاريخ هكذا من حصيللة علوم الارض وعلوم الحياة. ولكن جهازه البحثي والنقدي صار غنيا على الخصوص بما ساهمت به علوم البشرية والاجتماعية الأخرى من علم المصريات والالسنية والرواية الشفاهية والعلوم الاقتصادية والسياسية.

ان علم المصريات حتى الآن مازال مصدرا لم يستغل استغلالا كافيا في تاريخ افريقيا فن الواجب اذاك أن يؤكد عليها.

وتتضمن الدراسات المصرية علم الآثار التاريخي وكشف رموز النصوص، وفي كلا الحالتين يكون من اللازم مسبقا معرفة اللغة المصرية، وهذه اللغة التي عاشت نحو ٥٠٠٠ سنة (اذا أخذنا اعتبار القبطية) تبدو ماديا في شكل خطوط ثلاثة متميزة:

— الخط المهيروغليفي وتتنوع علاماته على صنفين كبيرين: رموز أو علامات — كلمات (مثلا صورة سلة من الخيزران لكتابة لفظ «سلة» وأهم مركباته الصوتية نب) وصور الأصوات أو العلامات الأصوات (مثلا صورة السلة التي يحتفظ بقيمتها الصوتية نب فتستعمل لكتابة ألفاظ أخرى لما عين القيمة الصوتية نب، «سيد»، نب «كل»). وتصنف صور الأصوات هكذا: الثلاثية وهي رموز تجمع بين ثلاثة حروف صائتة؛ الثنائية وتجمع صوتين؛ الأحادية وليس فيها سوى حرف صائت أو صامت. هذه هي الأبجدية المصرية الصوتية.

— الكتابة الكهنوتية (المهراطيقية): أما النسخة في المهيروغليفات وتظهر حوالي الاسرة الثالثة (٢٧٧٨ — ١٤٨٣ ق. م) وهو خط موجه من اليمين الى الشمال دائما، يكتب بقلم على أوراق البردي وعلى قطع الخرف والكلس.

ودامت هذه الكتابة مدة طويلة كالمهيروغليفات (أحدث نص هيروغليفي مؤرخ سنة + ٣٩٤).  
— الكتابة الشعبية (الديموطيقية): وهي تبسيط للكتابة الكهنوتية، ظهرت حوالي الاسرة الخامسة والعشرين (٧٥١ الى ٦٥٦) وانقرضت في القرن الخامس. وفي مستوى الحروف الضيق هناك اشتراك في الأصل معترف به بين الكتابة الشعبية المصرية والكتابة الميروتيتية النوبية (التي تحمل لغة لم يكتشف سرها بعد).

وحتى هذا المستوى فحسب من النظام الخطي المصري، تعترضنا أسئلة منهجية مفيدة. وذلك أنه من خلال هذا الانفاق الخطي ذي الوجه الخاص، يلمس المؤرخ وقد انقلب مكتشفا للرموز ضمير الناس في القديم وعزيمتهم بقدر ما يترجم العمل الكتابي المادي دائما قيمة بشرية عميقة. فكشف الرموز هو حوار بفضل ما يقام به من مجهود دائم من الدقة والموضوعية. ثم ان تنوع النظام الخطي المصري وتشعباته وتبسيطاته المتوالية هي ذاتها جزء من التاريخ: تاريخ كشف الرموز الذي هو من المصادر الأساسية لكل طبيعة تاريخية — ومع النظام الخطي المصري حلت افرقيا محلا مهما من الدراسات العامة عن الكتابة كنظام من العلامات ومن التبليغ المشترك بين بني البشر (٦).

ومشكل نشر الكتابة المصرية في افرقيا السوداء، يزيد جهاز المؤرخ المنهجي توسعا وتفتح هكذا آفاق جديدة تماما في وجه البحث التاريخي الافريقي. والأحداث القليلة التالية ملائمة تماما للموضوع، فكان الجيكندي نظاما من الرموز المستعملة قديما لدى الكيكويو في الكينيا، وبين صور هذا النظام الخطي وبين الرموز المصرية شبه ملحوظ. كما اعترف العالم البريطاني ب. اموري طلبو وأشار منذ ١٩١٢ الى الشبه النبوي بين الرموز النسيدي في بلاد الافيك (نيجيريا الجنوبية الشرقية) وبين الرموز المصرية. وتبدو قرابة كتابية واضحة بين العديد من المهيروغليفات المصرية وبين رموز كتابة منده في جنوبي سيراليون. وكذلك شأن بالنسبة الى معظم الرموز في كتابة لوما شمالي ليبيريا. ويوجد ارتباط سببي لاشك فيه بين المهيروغليفات المصرية وبين العديد من رموز الكتابة في جوار منروفيا (ليبيريا). وكتابة البنون بالكامرون التي عرفت هي الأخرى نظامين خطيين لا تقل شها ملحوظا من الشكل الخارجي، مع هيروغليفات وادي النيل. وتاما كما في مصر فان هيروغليفات دوقون وبيرا وبوزو قابلة للتفكيك والتحليل. ولكن أشد الأمور دلالة ان رموز الغرب

الافريقي هذه تصير بها الأشياء والكائنات المكتوبة بواسطة واعية لنفسها، وهذا تصور نموذجي لقدرة الكتابة المتسامية التي نجدها حرفيا في مصر في خط بعض النصوص المتعلقة بالمصير بعد الموت.

وبقيت هكذا الامكانية كبيرة لانشاء وتطوير علم للنقوش وعلم قراءة الكتابات القديمة لم يعرفا اطلاقا حتى الآن وعرضها دراسة مدققة لمجموعات ككتابات السود الأفارقة وما بينها من علاقات مشتركة. وفي ذلك يجد بالطبع المؤرخ ما يرضيه، اذ من خلال تاريخ الكتابة واكتشافات قراءتها يوجد تاريخ البشر المسؤولين عن الخطوط المدروسة. والنظر في الانظمة الخطية في حد ذاته مصدر ثمين للتاريخ. الا أن المؤرخ دائما لا يفقد الاحساس بالزمن، فلا ينبغي أن نتوقع من رواء هذه الكتابات وهي غالبا حديثة، أن تكشف لنا كشوفات قديمة، على أن أهميتها تبرز ما للواقع المصري من عمق زمني عجيب. وقد انقضت هذه الكتابة المصرية على ما يظهر بعد ٣٩٤ ب. م. على أن يبدو لنا منها باستمرار انبثاقات جديدة من القرن السابع عشر الى القرن التاسع عشر.

فالقطيعة بين العصور الحالية وبين ماضي افريقيا الحديث ما هي إذن الا وهم انتجه جهلنا، والواقع أن نفقا يجمع بين هذين القطبين.

ان معرفة الكتابة المصرية واكتشاف قراءة النصوص يمكنان من الوصول الى اللغة الفرعونية. وان المؤرخ لينصح دائما بالرجوع قدر الامكان الى النصوص الأصلية اذ أن الترجمات، حتى أحسنها، قلما تكون سالمة من العيوب. فن عرف اللغة المصرية من المؤرخين في وسعه أن يقرأ مباشرة، أي من قبله، عديد النصوص المختلفة من مصر القديمة: ومثالها نصب مأتية وكتابات منقوشة على العالم، ورسوم ادارية، وأناشيد دينية، وآثار فلسفية وكتب في الطب والرياضيات، ومغمرات أدبية (روايات، قصص، أساطير).

وتوضح سلسلة من النصوص أن الحاجز الذي أزعج تصويره بين مصر الفرعونية وسائر الجهات الافريقية المجاورة، في العصور الحالية لا يوافق مادية الأحداث في شيء..

ونذكر في هذا الشأن الرسالة التي بعث بها نيفر - كا - رع (بيبي الثاني) الفرعون من الأسرة السادسة، حوالي ٢٣٧٠ ق. م، الى هرخوف رئيس البعثة الاقتصادية الى المناطق الجنوبية النائية، «الى بلدان نهاية الدنيا» كما جاء في النص، أي في الراجح الى جهة البحيرات العظمى الافريقية، ورجعت البعثة وهي الرابعة من نوعها بقزم. ويمدنا نص آخر مصري من القرن العشرين ق. م (من البداية الأولى للأسرة الثانية عشرة) بارشادات نفيسة مفيدة جدا عن حياة التجارة في ذلك العهد، والملاحة في البحر الأحمر والعلاقات الاقتصادية بين الساحل الشرقي الافريقي ووادي النيل. وهذا النص هو «قصة الغريق».

ونظمت الملكة حتشبسوت - وقد جلست على العرش المصري طيلة ٢١ عاما (١٥٠٤ - ١٤٨٣) - عدة بعثات تجارية، ولا سيما في السنة التاسعة من ملكها، الى بلاد البونت (الساحل الصومالي) وظهرت هذه البعثة في نقوش دير البحري البديعة في صعيد مصر.

وفي ذلك وجهة جديدة للبحث ليس في الامكان الايتم بها مؤرخ افريقيا. ويلوح ما في اقحام المصرية القديمة بالمنهج التدريسي في الجامعات الافريقية، من أهمية يرتجى منها الكثير لفائدة الدراسة الحية للتراث الثقافي الافريقي، بما له من عمق في الزمان وفي المكان.



أما عن الانتهاء الالسنى للمصرية القديمة، فهذه تدقيقات مستمدة من التقرير النهائي للملتقى الدولي الخطير حول «عمران مصر القديمة واكتشاف قراءة اللغة الميروتية» (القاهرة ٢٨ جانفي (كانون الثاني) — ٣ فيفري (شباط) (١٩٧٤)) فلا يمكن الفصل بين اللغة المصرية وبين السياق الافريقي، ولا تقي السامية بالجواب عن مشكل مولدها، فصار اذن من المعقول أن يبحث عن آباء وأعمام في افريقيا (التقرير النهائي ص ٢٩ فقرة ٥).

وبعبارة أوضح أن اللغة الفرعونية ليست لغة سامية، فمن الواجب حينئذ أن تخرج اللغة المصرية في مجال «الشامية السامية» أو «الأفرو — آسية» التي وضعها فيها بعض الكتاب ولو أنهم في الغالب ليسوا إخصائيين في السامية ولا في المصرية. فيمثل المشكل الأساسي المطروح للتقريب بين المصرية القديمة ولغة السود الافريقية الحالية، باستخدام تقنيات ألسنية ملائمة، قصد ارجاع صيغ سابقة مشتركة، قدر المستطاع، انطلاقا من التباينات والمقارنات الشكلية والمجمعية والصوتية. وينتظر الالسنى عمل عملاق، وعلى المؤرخ هو الآخر أن يتقرب تغيرا جذريا في المنظور، اذا ما كشف عن بنية ثقافية عظمى مشتركة بين مصر الفرعونية وسائر افريقيا السوداء. وهذا الاشتراك هو بالمعنى الرياضي بديهية حدسية تترقب البرهان الشكلي عليها، وهنا، أكثر ما في محل آخر، يكون المؤرخ والألسني مضطرين الى العمل يدا واحدة، وذلك أن الألسنية مصدر تاريخي، وهي كذلك خاصة في افريقيا، حيث تتشعب اللغات العديدة.

والمقصود خاصة الالسنية المقارنة أو التاريخية. والطريقة المستعملة هي المقارنة والاستقراء، إذ أن هدف المقارنة إعادة البناء أي البحث عن نقطة التجمع لكل اللغات المقارنة. وسنسمي هذه النقطة التجمعية «اللغة المشتركة قبل اللهجية».

ولكنه من الواجب أن يكون الباحث شديد الحذر. «فالبنتو المشترك» مثلا المبني انطلاقا من دراسة معمقة لمختلف لغات البنتو المثبتة اليوم، ليست لغة قديمة ولا لغة واقعية أعيدت عناصرها. فعبارة «البنتو المشترك» أو «البنتو الأول» لا تعني سوى نظام التوافق بين لغات البنتو المعروفة، فيرجع به الى عهد كانت فيه هذه اللغات تقريبا هي ذاتها. وكذلك الأمر بالنسبة الى «الهندية الاوربية» مثلا. ففي المستوى الدقيق من الواقع أن الأثرية الالسنية هي، في النهاية محض وهم لأن العصر المستغرق في القدم، قبل التاريخي، الذي كانت فيه اللغة المشتركة المستعادة مستعملة في التخاطب، لم يبق منه أي أثر تاريخي أو حتى ألسني.

ولا تكن صلاحية الالسنية التاريخية كثيرا في كونها توجد «لغة مشتركة قبل اللهجية» بل لكونها تلمس، ان صح القول، المساحة الالسنية الكاملة للغات مختلفة في الظاهر، غريبة الواحدة عن الأخرى. فقلما تحصر لغة في منطقة محددة أتم التحديد، بل هي تفيض في غالب الأحيان عن مساحتها الخاصة، رابطة بينها وبين سائر اللغات المتفاوتة البعد عنها علاقات، أحيانا لا يشعر بها في البداية. ومن وراء ذلك بالطبع مشكل مهم هو مشكل تنقل السكان. فالوحدة الالسنية لا تنطبق حتما على وحدة العرق. بل هي ترشدنا ارشادا لا تقا الى وحدة أساسية، هي الوحدة الفريدة في الواقع، أعني الوحدة الثقافية الأساسية للشعوب الموحدة ألسنيا، المختلفة أحيانا اختلافا كبيرا من حيث الأصل ومن حيث النظم السياسية المتغيرة.

فعائلة «النيجر — الكونغو» مثلا اذا ما تم قط اثباتها تمكن من الاستنتاج أن روابط اجتماعية

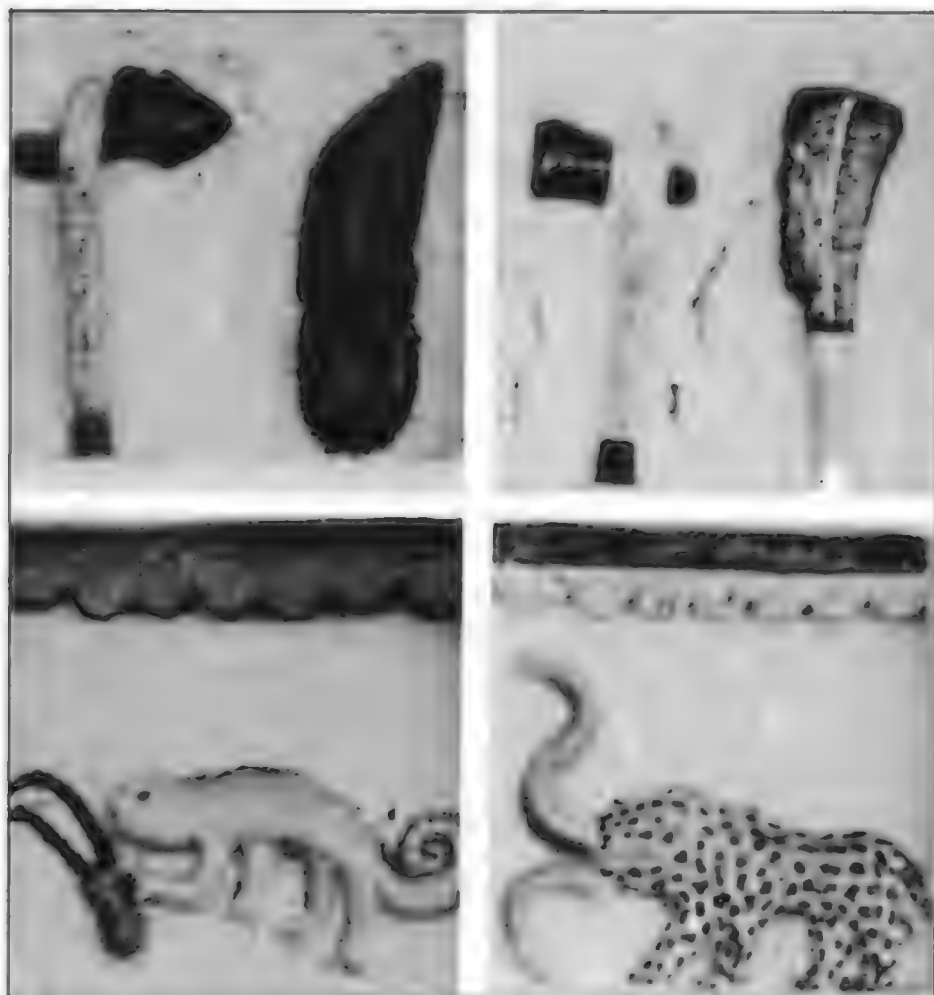
ثقافية عريقة جدا وجدت بين شعوب الغرب الاطلسي، شعوب منده وقور وكوا. والشعوب الكائنة بين البنبوي والكنغو (زاير) وشعوب الآدماوا الشرقي وشعوب البنتو في افريقيا الوسطى والشرقية والجنوبية.

الأسنية التاريخية اذن مصدر ثمين للتاريخ الافريقي كالتاريخ الشفاهية التي طالما استخف بها. والحال أنه أحيانا تكون الرواية الشفاهية هي المصدر الوحيد المتوفر مباشرة بين أيدينا. وذلك هو مثلا شأن مبوشي الكونغو. اذ أن تاريخ مختلف أماراتهم لم يكن بالمستطاع استعادته في المكان وفي الزمان (وهذا الزمان نسبيا قصير) الا بالاعتماد على الرواية الشفاهية. وقد تأتي هذه الرواية أيضا بالجواب الحاسم لمسألة عجزت في حلها الوثيقة المكتوبة. فؤرخو الأحداث (دولابورت ١٧٥٣، وبروبا ١٧٧٦) أجبروا على أن ملوك لونغو (افريقيا الوسطى الغربية) دفنوا في مقبرتين متميزتين: في لوبو في لواندجيلي. فلماذا تم هذا التمييز وتمييز وقع؟ ان الوثائق المكتوبة المعروفة حتى الآن بقيت ساكنة بالنسبة الى هذا السؤال، وفي هذا الشأن ان الرواية الشفاهية عند القبلي الحاليين هي وحدها التي تمكن من تفسير هذه الازدواجية. وذلك أن خصومة شديدة جدا بين بلاط ملونغو وسكان لواندجيلي بعثت الملك وامراء ذلك العصر على تبديل مكان دفنهم. فهجرت مقبرة لونغو لواندجيلي اذن لفائدة مقبرة لوبوتيا لخصومة بين الأسرة المالكة وسكان مقاطعة غنية من المملكة. ويوجد في افريقيا عدد عديد من الأمثلة حيث توجه الرواية الشفاهية — ان صح التعبير — التقيب الأثري كما تلقي أضواء على الخبر المؤرخ المكتوب.

فنتقيا (نقداوست) في مملكة غانة (بالسودان الغربي) أشرف عليها في نهاية ١٩٦٠ الأستاذة ج دوفيرود. وسن روبرت، وكانوا اذاك في جامعة داكار، فاستغلوا في آن واحد وبكيفية متقاطعة الروايات المحلية والتواريخ العربية الوسيطية والتقنيات الأثرية الخاصة. وهكذا تم استرجاع فترة من تاريخ افريقيا لم تكن تعرف كما يجب (القرنان السابع والثالث عشر) الى ذاكرة البشر بفضل علم الآثار نفسه طبعاً، ولكن كذلك بفضل الرواية المحلية والوثائق المكتوبة.

ويمكن تعدد هذه الأمثلة، وهي توضح ان في افريقيا أكثر مما في سواها، تمثل الرواية الشفاهية جزءاً لا يتجزأ من القاعدة الوثائقية للمؤرخ. وهكذا تتسع هذه القاعدة. ولم يعد في الامكان أن يمارس التاريخ الافريقي كما في الماضي بالغاء الرواية الشفاهية من البحث التاريخي وهي مفصل من مفاصل الزمن.

ولم يؤكد بعد على هذه النقطة الأساسية بالذات أي كيف تقدم الرواية الشفاهية الزمن، من جهة، وكيف تعرض الرواية الشفاهية الأحداث خلال الزمان، من جهة أخرى؟ كيف اذن يقدم التاريخ الشاعر القصاص؟ ذاك سؤال حاسم. فالقصاص الافريقي يكاد لا يعمل على لحمة زمنية، وهو لا يعرض مجرى الأحداث البشرية بتسارعاتها أو بنقاط انقطاعها، وما يقوله وما يستعيده جدير بأن يسمع مسقطاً على المستقبل. وليس خلافاً لذلك. وذلك أن القصاص لا يهيم الانسان الا ضمن الوجود كحامل للقيم، وكعامل في الطبيعة، بدون فكرة زمنية، ولذا لا يميل القصاص الافريقي الى تأليف مختلف فترات التاريخ التي يذكرها، وهو يعالج كل فترة في ذاتها، كأن لها معنى خاصاً، ولا علاقة مدققة لها مع سائر الفترات، وفترات الأحداث المروية مقطعة. انه حقاً التاريخ المطلق،



● نقش بارز (تصویر نوپا).

وهذا التاريخ المطلق الذي يعرض، اجمالا بدون أزمنة، مراحل التطور هو، التاريخ البنيوي، لا أكثر ولا أقل.

ويجهل القصاص الافريقي عمليا كمعبارات ممكنة في خطابه ما يطفو زمنا أو يظهر أحيانا ويدعى عند غيره «دورا» (فكرة الدائرة) أو «طورا» (فكرة الزمان والمكان) أو «فترة» (فكرة التوقف أو الوقت الذي يبرزه حدث مهم) أو «جيل» (فكرة الدوام وانسياب الزمان) أو «سلسلة» (فكرة متتالية والتتابع) أو «حصّة» (فكرة البرهة والظرف والزمن الحاضر) الخ... نعم ان القصاص الافريقي لا يجهل الزمن الكوني (الفصول، السنين الخ) ولا الماضي البشري اذ هوي يبعي فعلا ما مضى وانقضى. ولكنه من الصعب عليه ان يصور نموذجا من الزمن بل يدي دفعه واحدة بالجزئيات التي بها يتلئى الزمان.

وفي حقل العلوم البشرية والاجتماعية أيضا فان مساهمة علماء الاجتماع وعلماء السياسة تمكن من اعادة تعريف المعارف التاريخية والثقافية وذلك ان مفاهيم «المملكة» و «الأمة» و «الدولة» و «الامبراطورية» و «الديموقراطية» و «الاقطاعية» و «الحزب السياسي» الخ. المستعملة في غير افريقيا استعمالا لا شك لاثقا لا تنطبق دوما وحتما على الواقع الافريقي. فاذنا نعني حقا «بمملكة الكنفو» مثلا؟ والقوم أنفسهم يسمون الأشياء هكذا نسي اكنغواي حرفيا «البلد» (نسي) «التابع لأهالي كنفو» فلنا اذن مجموعة جنسية (أهالي كنفو) بمنطقة (نسي) ووعي هذه المجموعة بانها تسكن هذه المنطقة التي تصير هكذا بلد (نسي) المجموعة الجنسية المشار اليها. والنهيات أو الحدود شديدة التموج وهي تابعة لتشتت العصبية وتحت مجموعات الجنس المتميز. ولفظ «مملكة» يدل هنا على منطقة ترابية لا يسكنها سوى رجال ونساء ينتمون كلهم الى جنسية واحدة. والتجانس الجنسي واللسني والثقافي، تجانس دقيق و «الملك» (مفومو) هو في الواقع الأكبر (مفومو) والخال (مفومو) لكل الأسر (نزو) وكل العصبية المرتبطة بالأم (مكندا) وهم يتميزون عن الجدود المنشئين المشتركين (بنكلومينغو).

واذا ما نظر الواقع من قريب ان «مملكة كنفو» ترجع في النهاية الى امارة فسيحة، أي الى نظام حكم يتضمن الامارات الصغيرة المحلية و «الملك» هو أكبر الأكابر والخال الأقدم بين الأحياء، ولذا هو «نتينو» (الرئيس الأعظم) «فلكة كنفو» لا تعني اذن دولة يحكمها ملك بالمفهوم الغربي، على أن هذا المفهوم (مملكة لويس الرابع عشر مثلا) هو معنى هجين متأخر، غير لائق، وهو بالجملة صورة خاصة من المرور من الدولة الى الدولة القومية بواسطة الحكم الفردي المطلق.

وبالعكس ان مملكة دنكسو «بنان الحالية» تقترب أكثر من نمط الحكم الفردي المطلق، في صورة المسخ المنكر من حكم هنري الرابع الى حكم لويس السادس عشر في الاطار الفرنسي. وذلك انه توجد أرض أساسية مستمرة تتمتع كما يؤكد الاستاذ م. غليلة بسلطة قضائية مركزية: الملك ووزرائه ونوابهم المفوضون. فالملك جوهر السلطة نفسه، بيده كل خواص السلطان والقيادة، له على رعاياه حق الحياة والموت، ورعاياه هم الاناتو «رجال الشعب» ويختار من بينهم الملك، مولى الخيرات كلها (دوكتو) ويصطفي (القليسي) أي الفلاحين الذين يعدّهم لأراضيه أو يهديهم للأمرء والقواد. وتمارس السلطة المركزية في القرى والجهات، بواسطة قواد باسم الملك. فمملكة دنكسو «تلوح حينئذ كمنظمة دولية شديدة التركز يترج فيها نظام اللامركزية الادارية المتمثل في

«القيادة». فلها سلطة مركزية تراقب الشعب (دنكسومنو) من خلال محفظات القيادات. وعلى مر التاريخ وحسب صدف الغزوات، تضاف البلدان المغزوة الى النواة الجنسية القديمة والى الأرض الدائمة. ففي وقت ما تم الغزو وتم عمل التأقلم الثقافي والخصم بين شعوب وأقارب وجيران مثل (فن، ماهي، الداء، سافي، جودا الخ) وصارت «المملكة» بذلك دولة متعددة الأجناس لها بنيتها ومركزة بفضل تنظيم اداري وحرري قوي وكذلك بفضل اقتصاد موجه حركي. وقبيل التدخل الاستعماري كانت مملكة دنكسوم حقا دولة شعب، حيث كان الحوار والخطاب وموافقة السكان (عن طريق المحافظات) مبدأ من مبادئ الحكم.

على أن كلمة «مملكة» ليس لها عين المدلول في كل مكان من افريقيا. فعلى المؤرخ اذن أن يكون متحفظا عند استعماله هذا اللفظ. وقد يلاحظ أيضا أن المحافظة تقابل نظام حكم في الكونغو، بينما هي نمط من اللامركزية الادارية في المملكة القديمة بالدنكسوم (أبوماي).

وأما لفظ «اقطاعية» وضمن نطاق الملاحظة المتمثلة في أوروبا الغربية (وهو لم يكن له دائما خاصية نموذجية) فيمكن أن يعني به مفهوم الاقطاعيين في القرون الوسطى أصحاب النزعة القانونية، ان الاقطاعية هي ما يرتبط بالاقطاع (وقد ظهر حوالي القرنين العاشر أو الحادي عشر) وبمجموعة العلاقات (وفاء وولاء وأتاوة) التي تربط بين الولي والسيد صاحب الملك. ويبعد عن هذا المدلول، الفلاحون الذين ليسوا من الطبقة العليا من المجتمع.

وأما الماركسيون فيجعلون للفظ «الاقطاعية» مدلولاً أفسح. هي نمط من الانتاج يتميز بالاستغلال الاقتصادي للطبقات السفلى (عبيد الأرض) من قبل الطبقات المسيرة (الاقطاعيين). فعبيد الأرض مقيدون بها تابعون للسيد الذي لم يعد في امكانه أن يقتل القن بل في وسعه أن يبيعه (له ملكية محددة على العامل). فنظام القن حل محل نظام العبودية، ولكن عددا من مظاهر العبودية مازالت قائمة. وليس للقن أو الفلاحين أن يشتركوا في ادارة الأمور العامة وليس لهم أي مسؤولية في أي وظيفة ادارية. والنظام الاقطاعي من وجهة نظر تطور المجتمعات الاوربية. مرحلة وسطى من مراحل تكوين الاقتصاد الرأسمالي. ولكن الكثير من الماركسيين مازالوا يخلطون بين مفهوم «الاقطاعية» السياسي وبين مفهوم «السيادة» الاجتماعي الاقتصادي. وقد علم ماركس المؤرخين منذ ١٨٤٧ كيفية التمييز بين المفهومين.

ومها يمكن المدلول المحتفظ به، فهل النظم الوسيطية الاوربية توجد مجذافيرها في افريقيا السوداء في ما قبل الاستعمار؟ والدراسات الاجتماعية المقارنة وحدها (وهي لم توجد بعد) قادرة أن تذيب على هذا السؤال جوابا لا تقابا يقتضيه من الفروق الدقيقة.

وقد أشير سابقا الى صفة «الاقطاعية» في نظام الباريا (داهماي) وذلك خاصة كفضية للعمل. وقلة تقدم البحوث في هذا الموضوع أي في مسألة «الاقطاعية» في افريقيا السوداء من شأنها أن تقود المؤرخ الى المزيد من الحذر، وفيما يبدو ان «الاتجاهات الاقطاعية» التي تقدمها المجتمعات السوداء الافريقية لم تكن لتحدد تبعا لحقوق عينية يكشفها اسناد أرض «مقطعة»، بل هي تحد شكلا من التنظيم السياسي يعتمد على نظام من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية الخاصة.

فن الممكن هكذا أن تكون تحاليل علماء الاجتماع وعلماء السياسة مصدرا قابلا للاستغلال من

قبل المؤرخ و «خزانة وثائق» المؤرخ بافريقيا تتغير تغيرا كبيرا بحسب المواد والفترات التاريخية وبحسب فضول المؤرخ نفسه أيضا.

وفي افريقيا المجموعات الوثائقية تتجمع من كل أنواع العلوم، الصحيحة والطبيعية والبشرية والاجتماعية، و «العرض» التاريخي يتجدد تماما بقدر ما تمثلت المنهجية في استخدام عدة مصادر وتقنيات خاصة في آن واحد وبكيفية متقاطعة. فأخبار الرواية الشفاهية والمخطوطات العربية النادرة والحفريات الأثرية وطريقة الفهم المتخلف أو فحم ١٤، كل ذلك ادخل من جديد وبصفة نهائية شعب صاو «الخرافي» (تشاد، كامرون، نيجيريا) في تاريخ افريقيا الأصيل...

. وقد احتلت هضبة مداقا في جمهورية التشاد مدة طويلة جدا أي طيلة ما يقرب من ٢٥٠٠ عام، من القرن الخامس ق. م. الى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. ولولا استغلال جملة المصادر المتنوعة استغلالا متقاطعا لكان من المتعذر أن نصل الى ما وصلنا اليه من استنتاجات موفقة غير متوقعة.

ونبذت الآن التصورات الدراسية للنقد التاريخي «كالعلوم المساعدة» و«اختيار المصادر» و«المواد التاريخية الشريفة» الخ. نبذا من البحث التاريخي الافريقي الذي مثل هكذا مرحلة مهمة في التدوين المعاصر للتاريخ.

وصارت ممارسة التاريخ في افريقيا حوارا مستمرا بين مختلف الاختصاصات، وتلوح آفاق جديدة بفضل مجهود نظري لم يسبق له مثيل.

واستخرجت فكرة «المصادر المتقاطعة» من خفايا المنهجية العامة، طريقة جديدة لكتابة التاريخ. ويمكن حينئذ اعداد تاريخ افريقيا وتفصيله أن يلعب دورا مثاليا رائدا، في اشراك اختصاصات أخرى لفائدة البحث التاريخي.

## المصادر المكتوبة السابقة للقرن السادس عشر

هـ. جميعط

ان فكرة المصدر الكتابي فسيحة الى حد تصبح فيه مبهمة. فاذا ما قصد بالكتابي كل ما يوصل الصوت والحس، فان ذلك يشمل الشاهد الكتابي والرسوم المحفورة في الحجر وفي الصخر أو في قطع النقود... وبالاختصار كل رسالة تحفظ اللغة والفكرة، بقطع النظر عن حاملها (١)، وقد يبدو بنا تمديدنا هذا الى أن نقحم في ميداننا العملة والخطاطة وسائر العلوم «المساعدة» التي صارت في حقيقة القول مستقلة عن دائرة النص المكتوب، لذا سنقصر بحثنا على ما هو مخطوط أو مطبوع في علامات تواضعية على حامل ما — بردي أو ورق أو عظم أو ورق، وان هذا الحقل فسيح للبحث والنظر: أولا لأنه يشمل جزءا من الزمن يبتدىء باستنباط الكتابة وينتهي بعتبة الأزمنة المعاصرة (القرن الخامس عشر). ثم لأنه ينطبق على قارة بأكملها، حيث تجاوزت وتعاقت حضارات متنوعة. وأخيرا لأن هذه المصادر تجدد التعبير عنها في لغات مختلفة، وتتطور ضمن تقاليد متغايرة وعلى أنماط متنوعة.

وسننظر فيما تعرضه هذه المصادر من مشاكل عامة (ضبط الفترة والتقسيم الى مناطق ودراسة الأنماط) قبل أن نقيم منها استقراء نقديا.

### المشاكل العامة

لا وجود حتى الآن لدراسة عامة للمصادر الكتابية للتاريخ الإفريقي، ولأجل التخصيص في الزمن أو في المنطقة، بقيت الدراسات القليلة التي أنجزت معقدة بميادين مفصلة من البحث العلمي. فصر الفرعونية مثلا ميدان لدارس الحضارة المصرية القديمة، ومصر البطلمية والرومانية ميدان

للباحث الكلاسيكي، ومصر الاسلامية للباحث في الاسلاميات: هي فترات ثلاث واختصاصات ثلاث تدور حول مدارات أفصح (العالم الكلاسيكي والاسلام). والأمر نفسه بالنسبة الى المغرب، ولو أن الباحث في البيونيقيات هو في نفس الوقت مستشرق وباحث كلاسيكي، كما أن باحث البربريات هامشي لا يمحصر في فئة ما.

وامتد فيما بعد، التاريخ الكتابي، والبحث العصري أيضا، الى افريقيا السوداء في مجال متنوع يتضمن لغات عدة واختصاصات مختلفة، وفيه مصادر كلاسيكية ومصادر عربية ومصادر افريقية صرفة. ولئن وجدنا نفس المصادر الثلاثة الموجودة في شمالي الصحراء، فاننا لا نرى فيها الامتداد نفسه أو المعنى المماثل. وثمة منطقة واسعة لم تكن قبل القرن الخامس عشر تحوي أي مصدر كتابي، وفيما تبقى من مناطق تحوي مصدرا عربيا ذا قيمة ثانوية في المغرب مثلا، هو ذو أهمية أساسية فما يخص حوض النيجر، ولكن اذا ما أكب مؤرخ افريقيا السوداء على وثيقة كتابية عربية فلا ينكب عليها انكباب مؤرخ المغرب عليها، ولا انكباب مؤرخ الاسلام بصورة عامة.

وتتم هذه التقسيمات وهذه التداخلات عن بنية التاريخ الافريقي الموضوعية، وكذلك على اتجاه العلم التاريخي المعاصر منذ القرن التاسع عشر. فالواقع أن مصر فعلا قد ضمت الى العالم الهلنستي والى الامبراطورية الرومانية والى بيزنطة، وعند اعتناقها الاسلام، أصبحت مركز اشعاع له. والواقع أيضا أن الكتاب الكلاسيكيين رأوا تاريخ افريقيا كما لو أنه صورة من تاريخ روما، وإن ثمة افريقيا قد ارتبطت ارتباطا عميقا في مصير الرومانية، ولكن ما هو حقيقي أيضا أن المؤرخ العصري لافريقيا الرومانية استمر تابعا للاتجاه الروماني قبل أن ينتسب للافريقانية، وأن القسم الاسلامي قد انتفى من حقله الاستيمولوجي.

وهكذا فان ادراك التاريخ الافريقي ككل والقاء نظرة من خلال هذا المنظور على المصادر الكتابية، مازال مشروعا دقيقا عسيرا جدا.

## مشكل ضبط الفترة

ونحن حين نقوم بدراسة المصادر الكتابية نشاءل كيف يمكن تبرير الانقطاع الموجود في بداية القرن الخامس عشر؟ أيم ذلك بالبنية الداخلية للكتلة الوثائقية التي بين أيدينا وهي رغم الخلافات الشكافية والزمنية، تحتفظ ببعض الوحدة، أم بحركة التاريخ العام نفسها وهي بجمعها بين العصور الحالية والقرون الوسطى في مدة طويلة واحدة تفصل بينها وبين الزمن المعاصر. والواقع أن الحججتين تشد إحداها الاخرى وتتكاملان: فالمصادر العتيقة والوسيطة تتميز بكتاباتها الادبية، فهي شواهد واعية في معظمها، سموها حوليات ويوميات ورحلات او جغرافيات، بينما صارت منذ القرن الخامس عشر المصادر الوثائقية والشواهد اللاواعية متكاثرة، ومن جهة أخرى لئن كانت النصوص (الكلاسيكية) العربية، في هذه الفترة، أكثر انتشارا فان المصادر العربية قد نضب معينها منذ القرن الخامس عشر، بينما ظهرت الوثيقة الاروبية (الايطالية او البرتغالية الخ..) في حقل الشواهد، كما ظهرت الوثيقة الاهلية في افريقيا السوداء. ولكن هذا التغيير في طبيعة المصادر وفي أصلها يعبر أيضا عن تحول في المصير التاريخي الحقيقي لافريقيا. فالقرن



الخامس عشر هو قرن الانتشار الاوربي (٢): زحف البرتغاليون سنة ١٤٣٤ على سواحل إفريقيا السوداء وقد اقاموا قبل ذلك بعشرين سنة في سبته ١٤١٥ (٣) وأما الشريط الافريقي الاسلامي على البحر الأبيض المتوسط (المغرب — مصر) فظهر فيه فصل بين عصرين تاريخيين منذ القرن الرابع عشر، وقد أحس هذا العالم بآثار توسع الغرب البطيء كما أحس بلا شك بعمل قوى الانحلال الداخلية. ولكن القرن الخامس عشر كان حاسماً، اذ به انقطعت التجارة الاسلامية في الشرق الأقصى فانتهى بذلك ما كان لهذه التجارة من دور بين القارة. ومنذ ذلك انزلت الاسلام الافريقي المتوسطي على هاوية انحطاط، ما فتئ يتفاقم وتجد النهاية الفاصلة في القرن الخامس عشر ما يبررها تبريراً واسعاً على أن تبقى مرنة، ولكن تبريرها قد يزداد، اذا ما تجاوزت الزمن بقرن (الى بداية القرن السادس عشر).

هذا وسوف نقسم الفترة، موضوع دراستنا، الى ثلاثة أقسام رئيسية نظراً لجمعية مزدوجة، حتمية التنوع وجمعية الوحدة.

— العصور العتيقة حتى الاسلام: الامبراطورية القديمة حتى ٦٢٢ م؛

— العصر الاسلامي الأول: من ٦٢٢ م الى منتصف القرن الحادي عشر (١٠٥٠ م)؛

— العصر الاسلامي الثاني: من القرن الحادي عشر الميلادي الى القرن الخامس عشر الميلادي.

ومن المؤكد أن مفهوم «العصور العتيقة» هنا لا يشابه نظيره في تاريخ الغرب، من حيث أنه لا ينطبق الا جزئياً على «العصور العتيقة الكلاسيكية»، فلا ينتهي بزحف أقوام «البربر» بل بانتشار الواقع الاسلامي. ولكن الاسلام، بما كان لأثره من عمق وسعة، يمثل القطيعة مع ماضٍ في الامكان أن ينعت «بالعتيق» أو بما قبل التاريخ، أو ببداية التاريخ حسب المناطق. ثم انه في الواقع أيضاً فان معظم مصادرنا القديمة منذ العصر الهلنستي مكتوبة باليونانية واللاتينية.

ولئن كان من اللازم حسب بنية وثائقنا وحسب الحركة التاريخية الشاملة، أن نعتبر القرن السابع، عصر ظهور الاسلام والمصادر العربية، كبداية لعصر جديد، فان العهد الاسلامي يقضي أن يقسم الى قسمين فرعيين: الأول من الفتح الى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، والثاني من القرن الحادي عشر الميلادي الى القرن الخامس عشر الميلادي. وبالنسبة الى تاريخ افريقيا شمالي الصحراء، فان الطور الأول يوافق طور تنظيم هذه المنطقة على النمط الاسلامي وارتباطها بالامبراطورية العالمية (الخلافة الأموية والعباسية والفاطمية)، وأما الطور الثاني، فيشاهد بالعكس ظهور مبادئ التنظيم الوطني، بينما يطرأ على المستوى الحضاري تحول عميق، ففي المغرب، يمثل منتصف القرن الحادي عشر الميلادي عهد تشكل مملكة المرابطين واسترجاع الحكم الذاتي من قبل بني زيري وما نتج عنه من زحف الهلاليين، وفي مصر تقع القطيعة بعد ذلك بقرن مع الايوبيين، على أن هذا العصر شهد تحول المراكز الحية للتجارة العظمى من الخليج العربي الى البحر الأحمر، وقامت تدريجياً تشكيلات للتبادل على المقياس العالمي، كان لها وقع عظيم.

(٢) يقترح موني تاريخ ١٤٣٤ وهو تاريخ الانتشار البرتغالي البحري على افريقيا السوداء: مشكل مصادر تاريخ افريقيا السوداء حتى الاستعمار الاوربي ضمن المؤتمر الدولي الثاني عشر للعلوم التاريخية، فينا، ٢٩/٨/١٩٦٥، ٢، تقار يرتاريخ القارات ص ١٧٨، انظر أيضاً موني، ١٩٦٦، ص ١٨.

(٣) العروي، ١٩٧٠ ص ٢١٨.

وتوثقت في جنوبي الصحراء أيضا، ومنذ القرن الحادي عشر الميلادي، علاقات مستقرة مع الاسلام، ولا سيما في الحقلين التجاري والديني. وجهازنا الوثائقي نفسه قد تغير شكله، فمن حيث الكم، صار غزيرا متنوعا ومن حيث الكيف وكلما انحدرنا مع الزمن، في افريقيا المتوسطة، عثرنا على مصادر لم نشعر بها (وثائق السجلات، فتاوى قضائية)، كما وجدنا في افريقيا السوداء ارشادات مدققة.

### المناطق العرقية الثقافية وأنماط المصادر

ليس تصنيف المصادر حسب العصور التاريخية فحسب كافيا، بل يجب أن تأخذ بعين الاعتبار انفصال افريقيا الى مناطق عرقية ثقافية تعمل فيها عدة قوى وذلك لابرار فردية هذه المناطق. ومن ثم ايضا نموذجية المصادر التي بين أيدينا فيما وراء العصور التاريخية والفروق المكانية.

### المناطق العرقية الثقافية

إذا ما نظرنا في النقطة الأولى فقد نندفع منذ البداية نحو الفصل العنصري بين افريقيا شمال الصحراء — أي افريقيا البيضاء العربية المسلمة، والتي أثرت في أعماقها حضارات البحر الأبيض المتوسط ونزعت عنها افريقيتها وبين افريقيا جنوب الصحراء، السوداء الافريقية الى أقصى حدود الافريقية، وما لها من نوعية عرقية تاريخية متميزة. ودون أن ننكر ما لهذه التنوعات من وزن، فإن النظر التاريخي الأشد تعمقا يكشف في الواقع عن خطوط فصل أشد تشعبا وأشد تميزا.

فالسودان السنغالي والنيجيري مثلا، عاش في اتحاد وثيق مع المغرب العربي البربري، فكان من جهة المصادر أقرب اليه منه الى العالم البنّو، وكذلك الأمر بالنسبة الى السودان النيلي ازاء مصر، بالنسبة الى القرن الشرقي الافريقي ازاء جزيرة العرب الجنوبية، وقد يستهوي الانسان أن يقابل بين افريقيا المتوسطة الصحراوية والسهوب التي تشمل المغرب ومصر والسودانيين واثيوبيا والقرن الافريقي والساحل الشرقي حتى زنجيبار، وبين افريقيا أخرى وثنية، عميقة، استوائية أو فوق الاستوائية — حوض الكنفو، والساحل الغيني ومنطقة الزمبار لمبوبو، ومنطقة ما بين البحيرات، وأخيرا منطقة افريقيا الجنوبية، وهذا النوع الثاني من التمييز ما يبرره الى حد بعيد من جراء عامل الانفتاح على العالم الخارجي أي بسبب أهمية التسرب الاسلامي.

وتؤكد المصادر المكتوبة هذا الحدث الحضاري، بما تجعل من افتراق بين افريقيا لها نصيب كبير من هذه المصادر — بتدرج من الشمال الى الجنوب، وافريقيا أخرى تعوزها هذه المصادر، على الأقل في الفترة المدروسة، الا أن هذا الاعتبار المزدوج للانفتاح على الخارج وحالة المصادر المكتوبة، قد يؤدي الى أحكام تقويعية، وقد تسدل حجابا قاتما على نصف افريقيا تقريبا (افريقيا الوسطى والجنوبية) وقد لفت عدد من المؤرخين النظر الى خطورة «الرجوع الى المصادر العربية» اذ تبعت على الظن بما أكدت به على المنطقة السودانية، ان هذه المنطقة كانت المركز الوحيد للحضارة وللدولة المنظمة (٤) وسيكون لنا عود الى ذلك، الا أننا نعتزف منذ الآن أن هناك رابطا بين حالة حضارة ما

وحالة مصادرها، وإن هذا الرابط ليس من شأنه أن يوحي تماما بحركة التاريخ الحقيقية. فالمرئخ الموضوعي لا يسمح لنفسه بالحكم على القيم انطلاقا من جهازه الوثائقي، ولكنه كذلك غير قادر أن يغفل عما يوفره له هذا الجهاز، بدعوى أنه قد يكون في استغلاله افراط.

وإذا ما كان بمقدور تاريخ عام يشمل كامل المدة التاريخية ويعتمد على المادة الوثائقية المتوفرة بأكملها، أن يعبر حوض الزاير من الأهمية ما يعيره لحوض النيجر أو لمصر. فالدراسة المحددة بالمصادر المكتوبة حتى القرن الخامس عشر لا يمكنها ذلك.

وبناء على كل الملاحظات التي قدمناها، يمكننا أن نعرض الهيكلية الجهوية الآتية:

- أ — مصر، ليبيا الشرقية، السودان النيلي.
- ب — المغرب بادخال الشريط الشمالي من الصحراء، مناطق أقصى الغرب طرابلس وفزان.
- ج — السودان الغربي، بالمعنى الواسع أي حتى بحيرة التشاد من الشرق شاملا جنوبي الصحراء.
- د — اثيوبيا وارتريا والقرن الشرقي والساحل الشرقي.
- هـ — بقية افريقيا أي خليج غينيا، وافر يقيا الوسطى والجنوب الافريقي.

وإن من مزية هذا التقسيم ألا يعارض بين الافريقيتين، وأنه يجعل للقارة بنية موافقة لمواءمات جغرافية تاريخية موجهة نحو منظور افريقي، كما يعتبر ما للمصادر المكتوبة التي بين أيدينا من طابع خاص. فافريقيا الوسطى أو الجنوبية مهما كانت ثروتها الحضارية، تظهران في مظهر الفقر في المصادر المكتوبة بالنسبة الى أصغر جزء من الوحدات الأخرى (فزان وارتريا مثلا).

ومن جهة أخرى ما من شك في أنه علاوة على التضامن العام الذي يربط بين مصادر افريقيا المعروفة، يوجد تضامن نوعي أدق بين ما لدينا من معلومات عن كل المناطق المحددة، وثمة كشف مفصل لا بد أن يمر عبر النصوص حسب العصور وحسب المناطق، ولكننا نعترف مسبقا أن من وراء المناطق وبكيفية أقل، من وراء الفترات التاريخية، تبدو هذه المصادر ببعض اللغات فحسب، وترجع الى بعض الأنماط المحددة، وأنها ليست دائما مستمدة من المنطقة التي تعالجها ولا هي معاصرة للأحداث التي تصفها.

### نموذجية المصادر المكتوبة

أ — إن اللغات التي كتبت بها وثائقنا متعددة إلا أنها ليس لها عين الأهمية. فاللغات الأكثر استعمالا والتي حملت أكبر كمية من الأخبار هي: المصرية القديمة والبربرية واللغات الاثيوبية والقبطية والسواحلي والهوسا والفلفلد. وأكثر اللغات انتاجا هي لغات من أصل غير افريقي: مثل اليونانية واللاتينية والعربية، ولو أنه تم تقبل العربية كلغة قومية من قبل عدد من الشعوب الافريقية. وإذا صنفنا الوثائق مرتبين اياها ترتيبا حسب كمية وكيفية الأخبار معا، حصلنا على القائمة التقريبية الآتية: العربية، اليونانية، اللاتينية، المصرية القديمة (الكهنوتية والشعبية) القبطية، العبرية، الآرامية، الاثيوبية، الايطالية، السواحلية، الفارسية، الصينية، الخ..

وبحسب التاريخ إن أولى مصادرنا المكتوبة برديات كهنوتية مصرية ترجع الى الامبراطورية الحديثة، ولكن تحريرها الأول قد يرجع الى بداية الامبراطورية الوسطى (بداية الألف الثاني قبل

(الميلاد) وخاصة البردي المعروف بعنوان «تعليم للملك ميريكاري» (٥) ولدينا برديات الامبراطورية الحديثة والمحاذيات كلها بالمصرية الكهنوتية. والمصادر اليونانية التي تعود الى القرن السابع قبل الميلاد المستمرة بلا انقطاع الى فترة متأخرة، تنطبق تقريبا مع انتشار الاسلام (القرن السابع ب. م) والمصادر العبرية (التوراة) والآرامية (يهود فيله) التي تعود الى الأسرة السادسة والعشرين، والنصوص الشعبية من العصر البطلمي والأدب اللاتيني القبطي (باللغة المصرية لكن باستعمال الأبجدية اليونانية مضافا اليها بعض الحروف)

ودشنت هذه ابتداء من القرن الثالث للميلاد، والعربية والصينية (٦) والفارسية فيما يظن، الايطالية ثم الاثيوبية التي يرجع أقدم نص مكتوب فيها الى القرن الثالث عشر الميلادي (٧).  
ب — وإذا ما صنفنا هذه المصادر حسب نوعها فانها تتوزع الى مصادر قصصية ولى مصادر وثائقية، وقد سجل بعضها بأمانة كي تبقى شاهدا، وأما غيرها فينتهي الى الحركة العادية للحياة البشرية. وفيما يخص افريقيا ماعدا مصر ولكن بادخال المغرب، فإن المصادر القصصية تمثل تقريبا كل الجهاز الوثائقي المكتوب حتى القرن الثاني عشر الميلادي، فهي تضم اذا الجاهلية وفجر الاسلام. ومنذ القرن الثاني عشر الميلادي ظهرت التسجيلات الوثائقية، ولو كانت قليلة، وبالمغرب (سجلات موحدة، فتاوى أو استشارات قضائية من العصر الحفصي) وتكثفت هذه الوثائق في عهد الايوبيين والمماليك (ق ١٢م، ١٥م) بينما كانت مخطوطات الديارات الاثيوبية تذييل بوثائق رسمية، ولكن هذا النمط من النصوص بقي عمليا مفقودا من سائر افريقيا في كل الفترة المشار اليها (٨). وعلى كل فإن المصادر القصصية كانت هي الغالبة، وظهرت منذ القرن الثاني عشر الميلادي المصادر الوثائقية أو هي تكاثرت نسبيا في افريقيا المتوسطة، وكانت هذه مفقودة بافريقيا السوداء. ولكن بصفة عامة فإن جهازنا الوثائقي قد تضخم تضخما لا بأس به بعد القرن الحادي عشر الميلادي حتى بلغ القمة في القرنين الثاني عشر والرابع عشر. ودونك خاصيات فترتنا:  
يمكن تعداد أنماط المصادر كما يلي:  
المصادر القصصية:

- توار يخ وحوليات.
- مصنفات جغرافية ورحلات ومؤلفات علماء الطبيعة.
- مصنفات فقهية ودينية سواء كانت كتب الفقه أو الكتب المقدسة أو المدايح.
- مصنفات أدبية حقا.

(٥) غولينشاف: البرديات الكهنوتية رقم ١١١٥ و ١١١٦ أو ١١١٦ ب من المنسك الامير يالي بسان بترسبورغ ١٩١٣، وقد ترجم الرقم ١١١٦. قاردنار في «مجلة الآثار المصرية» لندن ١٩١٤ ص ٢٢ وما بعدها. انظر في الموضوع أ. بريوتون وج. فنديني ١٩٦٢، ص ٢٢٦.

(٦) يوجد نص صيني من النصف الثاني من القرن الحادي عشر ولكن أهم المصادر الصينية التي لم تخصص بعد بالبحث تعني بالقرن الخامس عشر وساحل الشرق الافريقي ويمكن أن نشير الى الأعمال الآتية: ج. دو يفندك ١٩٤٩، ف. هرت ١٩٠٩ — ١٩١٠: فيلزي ١٩٦٢، ابرا ١٩٦٣ ب. ويتلاي ١٩٦٤.

(٧) سرجيو هابل سلاسي، ١٩٦٧، ص ١٣.

(٨) بين أيدينا محارم، وهي رسائل أعطاهام ملك برنوقد ترجع الى نهاية القرن الحادي عشر: رسالة أم جلجي ورسالة أسرة مسبرما. انظر في الموضوع موني ١٩٦١، بلمار ١٩٢٨ ج ٣، ص ٣.

## مصادر وثائقية:

- وثائق خاصة: رسائل عائلية ومكاتبات تجارية الخ.
- وثائق رسمية نابعة عن الدولة أو ممثلها: مكاتبات رسمية، قرارات، رسائل تحريم نصوص شرعية ووثائق تتعلق بالضرائب.
- وثائق فقهية دينية.

ونلاحظ أن المصادر القصصية ظهرت في القرن الثامن قبل الميلاد مع هوميروس وهي تشمل عددا وفيرا من أمهات الفكر والمعرفة البشريين. ونجد فيها عددا من أساء الاعلام ولو أن معظم شواهدنا لا يعالج افريقيا بصفة خاصة ولكنها تجعل لافريقيا مكانة تزداد أهميتها أو تقل في اطار نظرية الى آفاق أفسح. ومن بين هذه الأساء: هيرودوت وبوليبس وبلين القديم وبطليموس وبروكوب والخنوارزمي والمسعودي والجاحظ وابن خلدون. والتسجيل الوثائقي هو الأقدم في العالم، بينما برديات رافينا المحفوظة في أوروبا وهي أقدم وجود للوثائق تؤرخ ببداية القرن السادس بعد الميلاد، على أن برديات الامبراطورية الحديثة المصرية سابقة لها بعشرين قرنا. أجل ان هذا النمط من الشواهد لم يتجاوز في فجر الاسلام حدود مصر، ولم يستشر انتشارا كبيرا حتى نهاية الفترة التي ندرسها. ويعود ذلك بدون شك، الى كون الحضارة الاسلامية الوسيطة تجاهلت عمليا مبدأ الحفاظ على وثائق الدولة، ففي القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وهي أغنى الفترات بالوثائق المكتوبة، فإن المؤلفات الموسوعية هي التي أمدتنا بهذه الوثائق. وينبغي أن ننتظر الفترة الحديثة العثمانية والاوربية، لنشاهد تأسيس مستودعات حقيقية للوثائق.

## الاحصاء حسب الفترات

## الجاهلية: (من البداية الى سنة ٦٢٢م)

ان ما يميز هذه الفترة عن الموالية لها هو أولوية المصادر الأثرية، وبصفة عامة المصادر الغير الأدبية، على أن الوثائق المكتوبة رغم وضعها الثانوي فهي تمدنا أحيانا بتدقيقات تفصيلية، وهي تتكاثر وتزداد دقة كلما انحدرنا مع الزمن، وفيما يخص التوزيع المنطقي نلاحظ أن افريقيا الغربية والوسطى لا وجود لها تماما فيها.

## مصر، النوبة، افريقيا الشرقية

أ) ان المصادر المكتوبة الخاصة بمصر حتى الألف الأولى قبل الميلاد هي مصرية تماما وهي برديات كهنوتية وأسطراكا لا يتجاوز أصلها أبعد من الامبراطورية الحديثة. ولكنها كما ذكرنا، قد تروي أخبارا أقدم (٩)، والبردي والمحاذيات هي عبارة عن المواد المكتوبة: الأول هونبات والثاني كسرة كلسية. وتميز الرسوم الكهنوتية عن الهيروغليفية لشكلها النسخي الذي كان يعدها خاصة الى أن ترسم لا أن تحفر. فالبرديات والاسطراكا المتعددة بالنسبة الى الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين من الامبراطورية الحديثة أو فترة الرامسة (١٣١٤ — ١٠٨٥) عنتت بالحياة الادارية عنايتها بالحياة الخاصة، ففيها تقارير ادارية وعدلية، ووثائق محاسبة، ورسائل خاصة كما فيها

القصص والروايات. والبرديات الفقهية القضائية (١٠) والبرديات الأدبية (١١) خصت بدراسات متقنة ونشریات منذ القرن التاسع عشر.

وإذا لم تأت اكتشافات جديدة بما يخالف ذلك، فإن معرفتنا للنوبة وبلاد البونت ليست مدينة بشيء إلى المصادر المكتوبة، بل هي تعتمد على المادة الأثرية والخطية (ولا سيما النقوش الأثرية).  
(ب) إن فترة الألف الأولى قبل الميلاد ولا سيما بداية القرن السادس قد نوّعت ما أتت به المصادر وجمدته، وانضمت الوثائق القصصية إلى التسجيلات الوثائقية وأحياناً عوضتها، فهذا «سفر الملوك» وهو جزء من التوراة يمدنا بإرشادات قيمة عن انتصاب الأسرة الثانية والعشرين (حوالي ١٩٥٠) و يبقى كبير الفائدة بالنسبة إلى الفترة الموالية أي حتى سيادة الفرس (٥٢٥)، وحرر «سفر الملوك» أولاً قبل تخریب القدس أي قبل ٥٨٦ (١٢) وتناول زمن النبي، إلا أنه يرى تقاليد ترجع إلى بداية الألف الأولى. وتلقي المصادر الأجنبية ولا سيما اليونانية أضواء على الفترة الدنيا، منذ أسرة السائيت الأولى (القرن الثامن): ميناندر وأرستوديموس وفيلوكوروس وهيرودوت. ومن وجهة النظر الوثائقية فإن البرديات تكتب الآن إما باليونانية وإما بالشعبية، وهي كتابة منقولة أقرب إلى النسخي من الكهنوتية. وفي القرن الخامس فإن المصدر الرئيسي مستمد من برديات يهود فيله، بينما حررت في القرنين الرابع والثالث تسلسل التاريخ الديموطيقي أي الشعبي.

(ج) والفترة الفاصلة بين حكم البطالسة في مصر (نهاية القرن الرابع) والفتح العربي ٦٣٩ م تمتد على ألف عام تتميز بالأهمية الكمية للمصادر اليونانية وبروز المنطقة الإثيوبية الأريترية في حقل معرفتنا. فيحدثنا عنها بوليب واسطرابون وديودور وبلين القديم بدقة نسبية لا تخلو من جهل أو بساطة. ويمدنا عالم الطبيعيات الروماني في «تاريخه الطبيعي» بجملة من المعلومات عن العالم الإثيوبي وبخاصة عن منتجات التجارة ودورات التبادلات. نعم إن هذا المؤلف عمل استقرارتي تتفاوت قيمته، ولكنه ثري بتفاصيل متنوعة. وفي منتصف الألف الذي يلي ظهور المسيحية تصبح معلوماتنا أكثر دقة. وكما نعلم أصبحت مصر في القرن الثاني المركز الرئيسي للثقافة الهلنستية فكان من الطبيعي أن تنتج مؤرخين وجغرافيين وفلاسفة وآباء للكنسية. وقد ضمت سياسياً للإمبراطورية الرومانية ثم البيزنطية فعني بها عدد من الكتابات اللاتينية أو اليونانية الخارجية، سواء منها القصصية أو الوثائقية (قانون تيودوز مثلاً أو أحداث جوستينيان) ومن الملاحظ أيضاً أن تيار البرديات لم ينضب. و يبرز من هذه المجموعة الوثائقية الداخلية والخارجية مؤلفات ذات أهمية

(١٠) من الوثائق القضائية نذكر بردي أبوط برديات أمهرت ومين، وكذلك بردي طورينو وعليها تركر معرفتنا الملك رمسيس التاسع والعاشر والحادي عشر. وقد نشرت هذه البرديات، انظر برديات مختارة بالحروف الكهنوتية من مجموعات المتحف البريطاني لندن ١٨٦٠، نيوبري: بردي أمهرت لندن ١٨٩٩، بيت: بردي مير لندن ١٩٢٠، بيت: القبور الكبيرة: الأسرة المصرية العشرون مجلدان. أكسفورد ١٩٣٠.

(١١) إن مجموعة المتحف البريطاني ثرية بالبرديات الأدبية، نجد فيها قصة الحق والكذب وقصة هوروس وسات. وقد استقرى بوسنر الاختصاص في هذه المادة استقراء مستوف الآثار الأدبية المصرية فيبلغ ٥٨ عنواناً: مجلة الدراسات المصرية، ٦١، ١٩٥١ ص ٢٧ - ٤٨ ونشر بوسنر أيضاً بعض المحاربات: جدول الاسطراكا الكهنوتية الأدبية بدير المدينة القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٣٦.

(١٢) أ. لودس: رسل إسرائيل وبداية اليهودية، باريس ١٩٥٠ ص ٧ در يوتون وفنديني: الكتاب المذكور قبله، دورس ١٩٧١ ج ١ ص ٤٧ - ٦١.

خاصة. الجغرافيا لبطليموس (حوالي ١٤٠٤) (١٣) رحلة بحر اريتريا (١٤) وهي من عمل كاتب مجهول ويعتقد أنها أنشئت حوالي عام ٢٣٠م وقد زعم أنها ترجع الى القرن الأول، الطبوغرافيا المسيحية (١٥) لكسماس انديقلوستاس (حوالي ٥٣٥م) وتمثل هذه الكتب قاعدة معرفتنا فيما يخص اثيوبيا والقرن الشرقي لافريقيا. ولكن هذا العرض الخاطف يبرز في الجملة اختلالين للتوازن، عدم توازن معرفتنا لمصر ازاء معرفتنا للنوبة وللعالَم الاريتري.

### المغرب القديم

ان التاريخ المكتوب للمغرب القديم نشأ عن مجابهة قرطاج لرومة، أي أنه ليس لدينا أي معلومات هامة سابقة للقرن الثاني قبل الميلاد، فهناك بدون شك اشارات مبشرة عند هيرودوت وفي آثار مؤرخين يونانيين آخرين، والفترة البونيقية حقا مدينة لعلم الآثار وللخطاطة، ومن جهة أخرى فان تاريخ قرطاج قبل هنيبل كما هو الشأن أيضا بالنسبة الى تاريخ مجابهتها لرومة ثم بقائها المؤقت، يكاد لا يدين بشئ الى المصادر البونيقية المكتوبة، وقد أثبت الآن أن رحلة حانون التي يمتد وصفها الى السواحل الشمالية الغربية لافريقيا مزورة، وأن انشاءها باليونانية، لا يتجاوز القرن الأول. وبقيت الأعمال الفلاحية المنسوبة الى ماقون، فلم يحفظ لنا منها الا مقتبسات اقتبسها المؤلفون اللاتينيون، الا أنه من بين المصادر الوطنية ينبغي أن نذكر ملاحظات يوبا الثاني وقد استغلها بلين القديم في كتابه «التاريخ الطبيعي».

وهكذا فإن أكثر، بل جميع المصادر المكتوبة عن تاريخ المغرب العتيق — الاطوار القرطاجية والرومانية والفلغذالية والبيزنطية، يتمثل في مؤلفات المؤرخين والجغرافيين الكلاسيكيين، أي الذين حرروا كتاباتهم باليونانية أو اللاتينية: وهؤلاء المؤلفون في جملتهم، غرباء عن افريقيا، ولكن كلما كانت افريقيا تنغمس في الرومانية كل ثمة كتاب مواطنون يظهرون، وخاصة منهم آباء الكنيسة. (أ) في الفترة بين ٢٠٠ قبل الميلاد و ١٠٠ بعده، أي الفترة التي تقابل بلوغ قرطاج أوج مجدها، ثم سقوطها وتنظيم المقاطعة الرومانية في افريقيا ابان الجمهورية والامارة، لدينا من المصادر عدد من الكتابات اليونانية واللاتينية المعروفة مثل: بوليبي (٢٠٠ الى ١٢٠ ق.م) وهو مصدرنا الرئيسي، واسطرابون وديودور الصقلي وسلوست (٨٧ الى ٣٥ ق.م) وتيت ليف وابيان وبلين وتاسيت وبلوتارك (القرن الأول الميلادي) وبطليموس (القرن الثاني الميلادي) بقطع النظر عن الكثير من الكتاب الصغار (١٦).

(١٣) من علماء الجغرافيا الكلاسيكيين وغير الكلاسيكيين الذين تعرضوا لافريقيا، انظر المؤلف الأساسي يوسف كامل: المعلمة الحرائطية لافريقيا ومصر، القاهرة وايدة ١٩٢٦ الى ١٩٥١، ١٦ مجلدا ومن المأمول أن يعاد نشر هذا العمل مع جهاز نقدي جديد

٢٠٤٤

(١٤) نشره ملك: جغرافيون يونانيون صغار ياريس ١٨٥٣ ج ، أعاد نشره هيلمارفرسك بقوتبرغ سنة ١٩٢٧، ونشر هذا العمل الهام عدة طبعات منذ القرن السادس عشر ١٥٣٣م ثم ١٥٧٧م.

(١٥) كسماس رحلة زار اثيوبيا وجزيرة سومطرا. ويوجد مؤلفه ضمن «آثار آباء الكنيسة اليونانية» لميني مجلد ٨٨، وهي مجموعة لا بد من الاطلاع عليها فيما يخص القرون الحالية، بجوار آثار آباء الكنيسة اللاتينية لميني نفسه: ونشر مصنف كسماس نشرة حسنة جدا في ثلاثة مجلدات بمنشورات دار سيرف بياريس ١٩٦٨ — ١٩٧٠، كما تشير لأهمية معلوماتنا عن تنصير اثيوبيا الى كتاب «تاريخ الكنيسة» الروفونوس و «آثار آباء الكنيسة اليونانية» لميني الذي يعدنا بترجمة لاتينية.

(١٦) نذكر ارسطو (السياسة) وقيصر (الحرب الأهلية وحرب افريقيا) أوتروب وجستان وأوروز. وفيما يخص تاريخ هنيبل وحده فهناك أكثر من ٣٠ مصدرا مكتوبا.

## جدول تاريخي لأهم المصادر القصصية

المصادر المكتوبة			
التواريخ	الأخبار والحوليات	الجغرافيا الرحلات	مصنفات قضائية دينية
٢٠٦٥			
١٥٨٠			
٨٠٠			هوميروس (ق ٨)
٥٠٠	هيرودوت (٤٨٥ - ٤٢٥) أخبار شعبية (ق ٣) بوليب (١٢٠ - ١٢٠٠)	اسطرابون، رحلة حانون الزعموة	سفر الملوك (قبل ٥٨٦)
٢٠٠			
١٠٠	ديودور		
٠	سلوست (٨٧ - ٣٥)		
٠		بلين القديم	
١٠٠+	طاسيت، بلتارك	بطليموس	القديس سيريان (٢٥٨ - ٢٠٠)
٢٠٠+		رحلة بحر اتر يا (٢٣٠)	
٣٠٠+			القديس اغستان (٣٥٤ - ٤٣٦)
٤٠٠+		كسماس انديكوبلستس (٥٣٥)	
٥٠٠+	بروكوب (٤٩٢ - ٥٦٢)		
٦٢٢+			
٨٠٠+	ابن عبد الحكم (٨٠٣ - ٨٧١ م)	الفراري، الحرارزمي (قبل ٨٣٣ م) اليقولي	الموطأ، المدونة أحكام السوق
٩٠٠+	الكندي	المسعودي (٩٤٧ م) ابن حوقل (٨٧٧ م)	غاثي نعمان (شيعي) ابوالعرب (سني) ابن الصغير (خارجي)
١٠٥٠+	الريقن (١٠٢٨ م)		
		البكري (١٠٦٨ م)	المالكي
١١٠٠+	الاستبصار	الادريسي	ابوزور كوجا
١٢٠٠+	مجهول المؤلف ابن الأثير (١٢٣٤ م)	ياقوت (١٢٢٩ م) ابن سعيد (قبل ١٢٨٦ م)	الخرزمي مناقب حفصية
١٣٠٠+	ابن العذاري النويري	ألميدري (١٢٨٦ م) العمري (١٣٣٦ م) ابن بطوطة التجاني الأطلس الميورقي (١٣٧٦ م) لكرسك المقريري	خطوطات الديارات الاثيوبية
١٤٠٠+	ابن أبي زرع، الذهبي ابن خلدون		
	ابن تغري بردي		



المصادر الوثائقية		
أوراق رسمية	وثائق خاصة	الأحداث التاريخية
		٢٠٦٥ الامبراطورية الوسطى ١٥٨٠ الامبراطورية الحديثة
برديات كهنوتية	برديات يهودية في قبلة	٨٠٠ اختطاط قرطاج، العصر المصري التأخر ٥٠٠
		٢٠٠ البطالسة ١٠٠ الفتح الروماني (١٤٦م) لافريقيا
أخبار حديثة		١٠٠٠+ ترمين افريقيا ٢٠٠+ اوج المدرسة الاسكندرية ٣٠٠+ اكسوم - تنصير التيوبيا (٣٣٣) ٤٠٠+ ٥٠٠+ استرجاع بيزنطة لافريقيا (٥٣٣)
٦٢٢ الهجرة		
برديات افريقية وقبطية برديات عربية باغروديت		٨٠٠+ الفتح العربي الحلقة الاموية (٦٦١ - ٧٤٩) افريقيا الاغلبية (٨٠٠ - ٩١٠) ثورة الزنج (٨٦٨) ٩٠٠+ انتصاب الفاطميين في مصر (٩٦٩) ١٠٥٠
مراسلة فاطمية في افريقية برديات عربية باليوم واشموتين صكوك فاطمية في مصر		
رسائل، مراسلة محم ام جلعي	الجنيزة	١٠٧٦ الملايكون في افريقيا، فتح المرابطين لغانة ١١٠٠+ ١١٥٠+ الموحدون بالمغرب، الايوبيون بمصر ١٢٠٠+ المحفصيون في افريقيا، المرينيون بالمغرب، المماليك بمصر ١٣٠٠+ امبراطورية مالي كنكوموسي (١٣١٢ - ١٣٣٥)
رسائل موحدة	الجنيزة وثائق ايطالية	
وثائق ايطالية		
رسوم وقف	فناوى	
القلعشدي		١٤٠٠+ سقوط مالي، بروسنفاي احتلال سبتة من قبل البرتغاليين (١٤١٥) اكتشاف البرتغاليين لرأس بوجدور (١٤٣٤) ١٤٥٠+
المقرزي		

وكان من المفيد جدا أن يجمع ما بعثر من الكتابات الخاصة في افريقيا الشمالية، ولكن هذا لم يتم الا بالنسبة الى المغرب الأقصى (١٧)، فصار لزاما على الباحث أن يتصفح نظام المجموعات الكلاسيكية الكبرى، تلك المجموعات التي عرض فيها التبحر العلمي الاوربي في القرن التاسع عشر كل ما كان لديه من وسائل النقد ومن العمل الجبار: الخزانة الطبرية، الخزانة الكلاسيكية لوب (نص وترجمة انكليزية)، مجموعة ج. بودي (نص وترجمة فرنسية) مجموعة جامعات فرنسا، المخطوطات الكلاسيكية في خزانة اوكسنيوتزيس. يحسن أن يضاف الى هذه المصادر القصصية مصادر أكثر مباشرة متمثلة في نصوص القانون الروماني، ولو أن هذه النصوص كانت في أصلها من النقوش الكتابية (١٨).

ولم تكن كتابات الحوليات ومؤرخي اليوميات والجغرافيين اليونانيين واللاتينيين ذات قيمة واحدة بالنسبة الى الفترة الفرعية المدروسة كلها. فالبعض يرمي الى اقتباس المعلومات من الكتاب السابقين، بينما يقدم غيرهم معلومات طريفة قيمة، وأحيانا شواهد مباشرة. فهذا بوليب مثلا قد عاش في ظل أسرة سيبون ولعله حضر حصار قرطاج سنة ١٤٦ ق. م. وهذا كتاب سلوست حرب يوغرتا الذي يعتبر «وثيقة ممتازة عن الممالك البربرية» وكتاب قيصر «الحرب الأهلية» هو كتاب صانع للتاريخ.

وتسيطر على هذه الفترة صورة بوليب وآثاره. فقد قيل (١٩) إن بوليب وليد العصر الهلنستي وثقافته. ولد حوالي سنة ٢٠٠ ق. م أي في الوقت الذي التقت فيه رومة، عند انفجار امبراطوريتها، بعالم البحر الأبيض المتوسط وخاصة منه الهلنستي. ثم سجن وعرف النفي بروما وذاق ضروب المראה، وهو «المعلم القاسي» المؤرخ والفيلسوف. ولقد راقته الحياة برعاية آل سيبون بل انه مدين لها بمعرفة الكثير عن تاريخ رومة وقرطاج، ثم عاد الى موطنه اليونان بعد سجن دام ستة عشر عاما، ولكنه ما لبث أن هاجر سائحا في الدنيا، وخلال اقامته في افريقيا يقال إن سيبون ايمليان عرض عليه اسطولا يمكنه من استكشاف الساحل الأطلسي الافريقي، فنحن اذن أمام رجل مقدم مجرب لا يفتر له فضول. ولم يكن بوليب فحسب المصدر الرئيسي لكل ما يتصل بالصراع البونيقي الروماني، بل هو بصفة أعم مشاهد من الطراز الأول لما يجري في زمنه في افريقيا ومصر، ولو كانت الأجزاء الاربعون من كتابه «الذرائعية» باقية بين أيدينا، لكانت معلوماتنا أكثر بكثير مما نعلم الآن، وقد يكون لنا فيها معلومات أدق منها في أي مكان آخر عن افريقيا السوداء نفسها. ان ما تبقى لدينا من أجزائها الستة تتميز تميزا كبيرا عن سائر مصادرها بجودة المعلومات والنظرة الثاقبة.

(ب) وبعد القرن الأول وطيلة القرون الأربعة التي تعمقت فيها جذور التنظيم الامبريالي الى أقصى حد في افريقيا، ثم أهميتها اعتبارها أزمنة مطولة، صارت المصادر الأدبية ضئيلة ووجد فراغ يكاد يكون تاما في القرن الثاني الميلادي، وتميز القرن الثالث والرابع بهيمنة الكتابات المسيحية ولا سيما كتابات سيبريان وأغستان. وهي مصنقات عامة تتجاوز الاطار الافريقي واضحة أهم

(١٧) روجي: المغرب عند المؤلفين القدامى ١٩٢٤.

(١٨) ب. أ. جيرارد: نصوص من القانون الروماني، الطبعة السادسة ١٩٣٧.

(١٩) «التاريخ القديم، كيمر يدج» المجلد الثامن: «روما والبحر المتوسط».

المشاكل الدينية دون أن تساهم في القول التاريخي المباشر، بل هي لها وقع مباشر على الأحداث بما اتصفت به من كتابات جدلية ظرفية.

فعرفتنا للحركة الدونانية انما تعتمد على تهجمات أكبر مناوئها القديس أغستان (٣٥٤ — ٤٣٠)، ولذلك صار من اللازم أن نحتزربشأنها احترازا جديا.

وبالنسبة الى المصادر المكتوبة أيضا، فإن آثار الآباء في الفترة الامبريالية تبدو كأداة رئيسية ولكنها جزئية لمعرفتنا. وفي هذا الشأن أيضا يمكن للباحث أن يرجع الى المجموعات الكبيرة.

— مجموعة برلين باليونانية (النص وحده)

— مجموعة فينا باللاتينية (النص وحده)

ول هذه المعالم من التبحر العلمي الالاماني ما يقابلها في التبحر الفرنسي، وهي مجموعتا ميني:

— آثار الآباء اليونانية (نص وترجمة لاتينية).

— آثار الآباء اللاتينية (نص لاتيني فحسب).

وكان التدخل الفنذالي واعادة الفتح البيزنطي والحضور البيزنطي طيلة أكثر من قرن، شديدة الاشارة للاستلها مات، فتكاثرت الكتابات الموضوعية «الصغيرة» وظهرت المصادر الوثائقية (مراسلات ونصوص تشريعية)، ومن حسن حظنا ان كان لنا مشاهد خصب بارع هوبروكوب (القرن السادس) فكان الى حد بعيد مصدرنا المعتمد، بكتابه «الحرب الفنذالية».

ويمكن العودة الى «المجموعة البيزنطية» في بون والاستعانة «بالقطع التاريخية اليونانية فيما يخص النصوص اليونانية، وتوجد النصوص اللاتينية المتعددة اما في «آثار الآباء اللاتينية» (وآثار القديس فلقيانس لها بعض الأهمية بالنسبة الى معرفة الفترة الفنذالية) واما «المعلمة الجرمانية التاريخية، لمؤلفين قدامى» (٢٠) وهي من معالم التبحر الالاماني، فهي تجمع «التواريخ اليومية الصغيرة» من الفترة البيزنطية: كسيودور وبرسبرير ولا سيا فكتور دي فينا وكوربوس، ويستحق هذان الأخيران أكبر العناية، الأول فيما يخص الفترة الفنذالية والثاني بالنسبة الى الفترة البيزنطية اذ هما يلجان باطن افرقيا ويلقيان بعض الأنوار على افرقيا هذه «العميقة» التي طالما أغفلت (٢١). ويوضح شاردييل في كتابه الدراسي عن افرقيا البيزنطية انه في الامكان استغلال المادة الأثرية ومادة النصوص في آن واحد لتمثيل الواقع التاريخي تمثيلا أتم ما يمكن. لقد استخدم من المصادر المكتوبة لوحة فسحة قدر ما يمكن: فأولا بروكوب وكذلك كوربوس، ولكن أيضا أقاطياس وقاسيودور وجورج القبرصي (٢٢)، ورسائل البابا قريوقار الكبير وثائق قضائية كالأحداث وقانون جوستينيان، النافعة ايا نفع لاستكشاف الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

و يبدو أن الاحتمال ضعيف بامكان اثراء القائمة الميتة لوثائقنا المكتوبة بواسطة اكتشافات

(٢٠) في «معلمة ميسن» جلد ١/٩ — ٢ (١٨٩٢) ١١ (١٨٩٤) و ١٣ (١٨٩٨) يوجد نص فكتور دي فينا في المجلد ٣ — ١ (١٨٧٩)

نشره ص. هولم، ويوجد نص كوربوس في المجلد ٣ — ٢ (١٨٧٩) نشره ج. بارتش.

(٢١) عن افرقيا الفنذالية والبيزنطية لدينا مصنفان عصريان أساسيان يوضحان تفاصيل المصادر الممكن استغلالها: كرمستان كورتوا ١٩٥٥ وش. ديل ١٩٥٩، وفيما يخص الفترة القديمة: التاريخ القديم لافريقيا الشمالية لاستيفن قزال ولأنه تقادم فهو مازال صالحا للمطالعة.

(٢٢) وصف العالم الروماني نشر جلتز.

جديدة، على أنه، بالعكس، من الممكن أن تستغل استغلالاً أحسن وأن تعمق وأن يتم عليها تحقيق دقيق وأن تقابل بالمادة الأثرية والنقشية التي لم تنفذ بعد، وخاصة أن تستخدم بنزاهة وموضوعية (٢٣).

### افريقيا الصحراوية والغربية

ليس لدينا في حقيقة الأمر أي وثيقة يوثق بها عن افريقيا السوداء الغربية. فإذا ما وافقنا موني (٢٤) على أن القدامى — قراطاجيين و يونانيين و رومانيين — لم يتجاوزوا رأس جوبي وخط عرض الجزر الخالدات — وهذا هو الأرجح، فإن الارشادات التي توفرها لنا كتاباتهم انما تخص الجنوب الأقصى المغربي. نعم هي على حدود العالم الأسود ولكنها لم تدخله.

ورحلة حانون مزيفة، ان لم تكن بأكملها ففي معظمها (٢٥) وهي مؤلف خليط بتلاق في اقتباسات من هيرودوت ومن بوليب و بوسيدونيوس وسيلاكس المزعم الذي قد يؤرخ بالقرن الأول، وتأليف هذه المصادر هي أشد جدية، ففي هيرودوت صدى للتجارة الصامتة التي كان القرطاجيون يجرونها مع الجنوب المغربي. وبعدها تابع سيلاكس المزعم (القرن الرابع ق. م) بدوره بأخبار ثمينة عن علاقات القرطاجيين بالليبيين البربر، الا أن بوليب يلوح مرة أخرى، المصدر الأقرب إلى الواقع، اذ أن بقايا نصه التي اقتبسها بلين القديم توفر لنا أولى المسميات المكانية في العصور الحالية التي يمكن تحقيق مواقعها، الا أن في ذلك أيضا تقف ارشاداته عند حد رأس جوبي، وفيما يخص أرخبيل الخالدات ينبغي أن تكمل تقريراته بمذكرات الجوبا الثاني التي جمعها بلين واسطرابون وديودور الصقلي. ولم يقدّر سائر المؤرخين الجغرافيين في القرن الأول ق. م. وب. م. الا بتصفح المؤلفين السابقين، اذا استثنينا بعض التفاصيل الجزئية. وأخيرا في القرن الثاني، كرر بطليموس ما جاء عند كل سابقه، واعتمد خاصة على بوسيدونيوس وماران الصوري، فقيّد في «جغرافيته» أوسع المعلومات عن محيط افريقيا في العصور القديمة (٢٦)، وقد استغلت الخريطة التي أبقاها لنا الجغرافي الاسكندر عن «ليبيا الداخلية» عن ما جمعه الجيش الروماني من معلومات خلال حملاته العقابية من رواء الحدود حتى فزان، مثل حملة بلبوس سنة ١٩ ق. م وحملة فلكوس سنة ٧٠ ب. م ومرتزنوس سنة ٧٦ ب. م. وقد توغل إلى أقصى حد في الصحراء الليبية (٢٧)، و بقيت من العصور الحالية أسماء شعوب ومناطق مثل موريطانيا وليبيا والقوارمنت والجيتول والنوميديون والمهبريد وحتى النيجر الذي تقدم عبره بطليموس، واسترده ليون الافريقي من جديد ثم الاوريون العصريون. هذا ما أثبت به نصوصنا التي أمدتنا علاوة على ذلك، بالتشخيص الذي تصورته به

(٢٣) عن التحريفات الناشئة عن قراءات متحيزة للنصوص، ان النقد الذي قدمه عبد الله العروي سنة ١٩٧٠ على التدوين التاريخي الغربي وجيه بقدر ما هو عجيب الاطلاع.

(٢٤) (ر. موني ١٩٧٠ ص ٨٧ — ١١١).

(٢٥) عين المصدر ص ٩٨، طوكسي ١٨٨٢ ص ١٥ — ٣٧، ج جرمان ١٩٥٧ ص ٢٠٥ — ٢٤٨.

(٢٦) يوسف كامل: معلمة، المصدر المذكور ج ٢ فصل ١ ص ١١٦ وما يليها، ر موني (غرب افريقيا عند بطليموس)، ضمن أعمال المؤتمر الدولي الثاني للعلماء الافريقيين للغرب: بساو ١٩٤٧.

(٢٧) مارين الصوري (أحد مصادر بطليموس)، ذكر ذلك، انظر يوسف كامل ج ١٩٢٦، ص ٧٣.

العصور القديمة عن افريقيا، أكثر مما أمدتنا بمعطيات حقيقية. على أن الاشارات التي تبدو من ذلك، إنما تهم الصحراء الليبية وسواحل الصحراء الغربية، أما افريقيا السوداء، فتبقى مجهولة غامضة على حدود المعرفة.

### العصر الأول الاسلامي (حوالي ٦٢٢م - ١٠٥٠م)

كان الفتح العربي وتشكل الخلافة سببا لتوحيد المجالات السياسية الثقافية التي كانت قبل متفرقة (الامبراطورية الساسانية والامبراطورية البيزنطية) وافساح الأفق الجغرافي للانسان، وتحويل تيارات التبادل، والولوج الى أعماق شعوب لم تعرف من قبل. فلا غرابة إذن أن يكون لنا لأول مرة معلومات أدق فأدق عن العالم الأسود، الشرقي والغربي. ولكن بينما كانت مصر والمغرب الأقصى مندمجين في صلب الامبراطورية ثم الأمة الاسلامية، كان العالم الاسود مجرد جزء من منطقة النفوذ الاسلامي، ولذا كان الخبر عنه جزئيا، متقطعا أحيانا وخرافيا ولكنه مع ذلك خبر ثمين.

وإذا استثنينا المصادر الوثائقية التي استمرت تقاليدها في مصر (برديات قبطية ويونانية في أفروديت، وبرديات عربية في الفيوم وفي أشمونين (٢٨) وأخيرا في القرن العاشر الميلادي بعض النسخ من الوثائق الفاطمية، وهي خاصة بهذا البلد، فإن معظم المصادر القصصية بالمعنى الاوسع أو الغير المباشر كانت متداولة في افريقيا كلها. والأمر واضح بالنسبة الى الكتابات الجغرافية التي ترى في عدة نصوص قانونية. ولذا يبدو من الملائم أن نقوم باحصاء حسب الاغراض، مسجلين مع ذلك التابع الزمني، غير غاضين الطرف عن البنية الجهوية.

### الأخبار التاريخية

(أ) ليس لدينا أي خبر تاريخي قبل القرن التاسع، ولكن الخبر الشفاهي قد تم اعداده، ومركزه بلا منازع مصر، فيما عدا الساحل الشرقي الافريقي المرتبط تجاريا مباشرة مع العراق الجنوبي، ومن جهة أخرى نظرا لصفته اللامركزية بالنسبة الى مصر، فإن المغرب الأقصى ومن باب أولى السودان، حظيا بمكانة ضعيفة في التواريخ الكبرى (٢٩) (الطبري والدينوري والبلاذري في أنساب الاشراف) التي كانت مركزة على المشرق. ويشد عن ذلك تاريخ يكاد يكون مجهولا حتى زمن قريش: تاريخ خليفة بن خياط (٣٠) ولم يكن هذا الكتاب مجرد أقدم كتاب عربي في الحوليات (توفي خليفة سنة ٢٤٠ هـ ولكنه احتفظ بمواد قديمة أغفلها الطبري) وأشاراته حول فتح المغرب خاصة، لها أهمية كبرى. فبينما تركت روايات المغازي المدينة فتح مصر والمغرب جانبا، فإننا نرى منها الأحداث البارزة فقط وبصفة مقتضبة في كتاب فتوح البلدان «للبلاذري». وثمة قاص

(٢٨) أعمال قروهمان هي المعتمدة: برديات عربية في الحزاة المصرية ٥ مجلدات ١٩٣٤ - ١٩٥٩ «مخبرات من البرديات العربية» براغ ١٩٥٥. وقد درس هـ. بل البرديات اليونانية والقبطية عن الرسوم الفاطمية: الشيال: مجموعات الوثائق الفاطمية القاهرة ١٩٥٨.

(٢٩) على أنه من المهم أن نشير الى أن أحد المدونين الاولين للتاريخ العربي، وهو عمر بن شابه، أبقي لنا أقدم شاهد عربي متعلق بالسود، وروى هذا النص الطبري، التاريخ مجلد ٧ ص ٦٠٩ - ٦١٤. وهذا الشاهد هو ثورة السودان في المدينة سنة ١٤٥ هـ ٧٦٢ م. مما يدل على حضور افريقي قوي في ذلك العصر. ولم يشر الى هذا النص ولم تتم ملاحظته حتى الآن.

(٣٠) نشره في التجف ١٩٦٥ العربي مع مقدمة لـ س. علي ٣٤٤ ص.

مصري كرس نفسه من أجلها في مؤلفه الذي كان أهم وثيقة عن القرن التاسع، ان كتاب «فتوح مصر والمغرب» (٣١) لابن عبد الحكم شبيه بالحوليات أو بكتب المغازي، وهو في الواقع مجموع تقاليد قانونية تتصل بالتاريخ (٣٢).

ب) وبعد سكوت قرن (٨٥٠ - ٩٥٠) (٣٣) ظهر مؤلف سياسي لا يبدو أنه استغل من جميع أبعاده: هو كتاب «ولاة مصر وقضاتها للكندي» (ت: ٩٦١) وهو كتاب تراجم لا توارخ يومية ولكنه قد يشابهها ويحتوي لا على معطيات مدققة مباشرة عن مصر فحسب، بل هو بموجب ما كان لهذا البلد من صلات أولى مع المغرب يلوح مضدرا من اثبت المصادر لمعرفة المغرب في القرن الثامن الميلادي (٣٤).

والقرن العاشر الميلادي هو قرن الإسماعلية في الاسلام، الاسلام الافريقي أولا وبالذات وعليه فمن الممكن أن نتصفح في ذلك كتابات الشيعة مثل «سيرة الحاجب جعفر» ولا سيما «افتتاح الدعوة» للقاضي النعمان، وهو مؤلف أساسي لا يذكر الكثير من التواريخ، ولكنه غني بالأخبار عن بداية الحركة الفاطمية (٣٥).

ج) وفي النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي، ظهر الكتاب الشهير «تاريخ الرقيق» (ت: ١٠٢٨) وهو مصدر أساسي، وتعتبر النسخة الأصلية من هذا الكتاب مفقودة، ولكن أهم ما فيه نقله المؤرخون من بعده مثل ابن عذاري. قد عثر أخيرا العالم المغربي المنوني على جزء منه مخصص للعصر القديم الافريقي ونشره الكعبي في تونس عام ١٩٦٨. دون أن نشق بصحة نسبته الى الرقيق (٣٦).

في كل هذه التواريخ نرى المكان المخصص لافريقيا السوداء يضيق بل انه يتطلب أن يقوم المؤرخ بنقد دقيق لها، وبمقارنة مستمرة مع معطياتها، فيما بينها، ومع المعطيات التي تعود لأصول مختلفة أيضا. وليس بمقدور مؤرخ المغرب ومصر بصورة خاصة، أن يقف عند هذا الحد، بل ان حصولها على معرفة معمقة عن الشرق، هو ضرورة مطلقة. ويقتضي ان تكتمل ملازمته لهذه المصادر بملازمة معمقة للتواريخ الشرقية الكلاسيكية.

(٣١) نشره طري سنة ١٩٢٢ وترجمه جزئيا قاتو، وأعيد طبعه في القاهرة. نشره عامر سنة ١٩٦١ وعن التحفظات عند استعماله: (برنشفيك ابن عبد الحكم وفتح افريقيا الشمالية: حوليات معهد الدراسات الشرقية بالجزائر ٦، ١٩٤٢، ٤٧ دراسة نقدية لاذعة لا تنقص في نظرنا مساهمة هذا النص الأساسي بالنسبة الى مصر، والمفيد بالنسبة الى افريقيا والمهم بالنسبة الى العالم الأسود (اتصالات عقبة المحملة مع فزان التي ينكرها برنشفيك في مقال آخر، الاتفاق الشهير المدعوبت مع النوبيين).

(٣٢) لا شيء يستمد من جامع مؤرخ عبيد الله بن صالح الذي اكتشفه ليبي برونسال ونوه به. انظر ارايكا ١٩٥٤ ص ٣٥ - ٤٢ كمصدر جديد لفتح المغرب، ويساير ليبي برونسال ما في «جدول»، المصدر المذكور ص ٣٤ وتحليله للمصادر العربية المتأثر الشامل لا يعني كثيرا بالنقد الدقيق.

(٣٣) باستثناء بعض التواريخ مجهولة المؤلف وهي مهمة: «كلامامة والسياسة» القاهرة ١٩٠٤ المنسوب لابن قتيبة والأخبار المجموعة مدر يد ١٨٦٧.

(٣٤) نشره ر. جاست سنة ١٩١٢ وأعيد طبعه في بيروت سنة ١٩٥٩.

(٣٥) نشره في تونس م. الدشراوي ونشر أيضا في بيروت.

(٣٦) يرفض محمد الطالبي رفضا باتا نسبته الى الرقيق (انظر كرايس تونس مجلد ١٩، ١٩١٧، ص ١٩ وما بعدها، دون أن يأتي بالحجة المقنعة، فالشك باق في شأنه.

## مصادر جغرافية

المصادر الجغرافية هامة ووافرة منذ القرن التاسع الميلادي، فسواء كانت تنتمي الى نوع رسم الخرائط، كصورة الأرض التي أوضحها الخوارزمي، أو الى الجغرافية الادارية، أو الى نوع المسالك والممالك، أو الى مجرد فن الرحلة المروية كقصّة قليلا أو كثيرا، فإن الكتابات الجغرافية العربية تدل على رغبة لادراك المعمورة بأكملها. فلا غرابة اذا أن تكون افريقيا السوداء ممثلة فيها، وأن تكون هذه المصادر هي الأساسية لمعرفة هذا الجزء من افريقيا. وحسب المجموعة المستقرأة من قبل كوبل وماتيفيف (٣٧) التي تنتهي عند القرن الثاني عشر الميلادي، تبين أن من بين ٤٠ مؤلفا ذكرها يوجد ٢١ جغرافيا، نصوصهم هي أكثر النصوص مادة. ولكنه لا يمكن استثمار هذه المصادر استثمارا حقيقيا ما لم تقرأ بعمل نقدي مسبق، فعلى مؤرخ افريقيا السوداء أن يحل الآثار الجغرافية العربية محلها في إطاره الثقافي الخاص. فالى أي حد مثلا يوافق وصف ما الواقع الحقيقي، والى أي حد لا يكون سوى خيال لأغراض ردها الأدب بمختلف مركباته؟ (٣٨) وما هو نصيب التراث الاغريقي والتراث الفارسي والتقاليد العربية الخاصة، وما هو حفظ التصحح كما هو نصيب المشاهدة الحسية. ولكن لا بد، ومن جهة أخرى، أن يجري على هذه النصوص النقد من الداخل، أي بدءا من معرفة معمقة للتاريخ الافريقي، مع التحفظ من الاطلاع على هذا التاريخ من المصادر الجغرافية فقط، وتبقى غير مقبولة وجهة النظر الايديولوجية الضيقة لدى من يرفضون النظر الى العمق في هذه المصادر بسبب كرههم للإسلام — (٣٩) وهو اتجاه في غير محله يفسر افريقيا منكمشة على نفسها — (٤٠).

جملة من الجغرافيين أفردوا نصيبا لافريقيا، من منتصف القرن التاسع الى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي — بل كلهم تقريرا فعلوا ذلك — ولكن هناك قلة فحسب ساهمت بخبر طريف جدي مثل ابن خرداذبه واليعقوبي (ت ٨٩٧) والمسعودي (٩٦٥) وابن حوقل (٩٧٧) والبيروني (٤١). فاليعقوبي سافر الى مصر والمغرب فأبقى لنا منها لوحة خصبة، في «تاريخه» كما في «بلدانه» (٤٢) قد أمدنا بأرشادات عدة عن العالم الأسود: عن أثيوبيا والسودان والنوبة والبجة والزنج. وفي السودان ذكر الزغاوى من كانم، ووصف مسكنهم، ثم هو يصف مملكة غانة العظيمة

(٣٧) كوبل وماتيفيف ١٩٦٠ و ١٩٦٥، انظر أيضا ج. كوك.

(٣٨) أ. ميكال ١٩٦٧ و ١٩٧٧.

(٣٩) انظر في هذا الشأن موقف ج. فروبنيس النقدي الحرج وموقف ج. روش: مساهمة لتاريخ السنغال، دكار ١٩٥٣، الذي يشهر خاصة بالتحريف الايديولوجي الوارد في التواريخ السودانية.

(٤٠) صحيح أن هذه النصوص تنطبق خاصة على الحزام السوداني، وإن الاقتصار على قراءة المصادر العربية وحدها دون الاستعانة بعلم الآثار يمكن بالتالي أن يزيغ الصورة. غير أنه ليس صحيحا أن نقول أن المؤلفين العرب كانت تعوزهم الموضوعية. أما أن نأخذ عليهم افتقار كتاباتهم الى التكامل والنظام فنناه اغفال وجه نظر المؤرخ المحض للأخذ بوجهة نظر مؤرخ الأدب. وفي هذا الصدد، أصدرن. ليفيتسون أحكاما غير قاطعة. كذلك من المفيد الرجوع الى الدراسة التي قدمها أ. هريك الى المؤتمر الدولي الثاني عشر للعلوم التاريخية في فيينا أعمال المؤتمر، الصفحات ٣١١ وما يليها، أنظر أيضا ت. ليفيتشكي «نظرات جديدة على التاريخ الافريقي»، محاضر مؤتمر دار السلام ١٩٧١، و «المصادر العربية الخارجية» لتاريخ افريقيا جنوبي الصحراء روكلو- وارسو- كراكو ١٩٦٩.

(٤١) انظر — مجلة كورييه التي تصدر عن اليونسكو — عدد الشهر السادس ١٩٧٤.

(٤٢) نشره ضمن «الخرائط الجغرافية العربية» ج ٧، دوقجي، كمعظم الجغرافيين العرب ترجمة ج. فيت بعنوان «كتاب البلدان» مفيدة ولكنها غير مدققة.

ويعالج بصدها مشكل الذهب كما يتعرض لمشكل العبيد عن حديثه عن فزان. «ومسالك» (٤٣) ابن حوقل أكثر تفصيلا، فلقد زار المؤلف النوبة، واحتمالا السودان الغربي، وتكن قيمة وصفه فيما يوفره من فكرة عن العلاقات التجارية بين المغرب والسودان، ويمدنا معظم الجغرافيين الآخرين في القرن العاشر الميلادي بمعلومات عن افريقيا السوداء: ابن الفقيه عن غانة وكوكي، والرحالة بزري بن شهر يار عن الساحل الشرقي والزنج، والمهلي الذي حافظ في مؤلفه على مقاطع من كتاب الاسواني. وفي النهاية ان «مروج الذهب» للمسعودي (٩٦٥ م) غنية بالمعلومات عن الزنج والساحل الشرقي. ولفتت هذه النصوص من بعيد نظر الاخصائيين الافريقيين والمستشرقين، أمثال دولافوس وتشرولي (٤٤) وكرامرس (٤٥) وموني (٤٦).

### المصادر القضائية والدينية

ان مؤلفات القانون ومراحل السير في الطبقات، من مدونة «سحنون» حتى مؤلفات الخوارخ هي منجم للمعلومات عن المغرب، وبعضها صالح فيما يخص المنطقة الصحراوية الموصلة الى افريقيا السوداء، وحوليات الأئمة الرسميين بتاهرت لابن الصغير (بداية القرن العاشر الميلادي) (٤٧) تمكننا من القول بوجود روابط تجارية منذ نهاية القرن الثامن الميلادي بين الامارة الاباضية وبين ثاو، كما تمكننا بعد اكمالها بما جمع في المؤلفات الموالية مثل «السير» للوساني، من افساح ذلك الى كل الحدود الصحراوية ولكن هذه المؤلفات في المناقب لا تعرض أخبارها الا تلميحاً، ومن الواجب أن تطالع في اطار اشكالية موضوعة مسبقاً وأن تقارن دائماً بأنماط أخرى من المصادر. وهي لا تسمح في نظرنا ببناءات واستنتاجات جريئة من نوع ما يتقدم به لويكي.

### العصر الاسلامي الثاني (١٠٥٠م - ١٤٥٠م)

تمتاز هذه الفترة الطويلة بتراتها وبنوعية ما تمدنا به من خبر وبتنوعه. على أن المصادر الوثائقية رغم ثنائيتها بالنسبة للكتابات الأدبية ذات أهمية مثل: وثائق الجنيزة، ورسائل مرابطية وموحدية، عقود الوقف، فتاوى، ووثائق ايطالية، أوراق رسمية مودعة في كبريات المجموعات. وينتج المؤرخون أعمالاً من طراز أول، تكتسب قيمتها من مشاهدة الأحداث المعاصرة، وكذلك مما تنقله عن المصادر القديمة المفقودة، ثم انه فيما يخص افريقيا السوداء تبلغ معرفتنا الأوج عند ظهور وثائق افريقية جديدة متمثلة في المخطوطات الاثيوبية.

(٤٣) «كتاب المسالك والممالك» ب. ج. أ. ٢، كوبل وما تيفيف، ٢، ص ٣٣ وما بعدها.

(٤٤) وثائق عربية لتاريخ اثيوبيا ١٩٣١.

(٤٥) جغرافيا: دائرة المعارف الاسلامية، ارتريا موصوفة في مصدر عربي من القرن العاشر، أعمال المؤتمر التاسع عشر للمستشرقين، رومة ١٩٣٨.

(٤٦) الباب الأول من «لوحة» احصاء منهجي للمصادر الجغرافية.

(٤٧) نشرت في أعمال المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين (الجزء الثالث) ١٩٠٨ ودرسها لويكي ١٩٧١، مجلد ١٣ ص ١١٩ وما بعدها.



## المصادر الوثائقية

لها قيمة خاصة بالنسبة الى مصر والمغرب

(أ) لدينا الآن وثائق الجنييزة الخاصة بالقاهرة، والتي تمتد على الفترة المدروسة كلها، على أن معظمها من العهد الفاطمي، وقليلاً منها ينتمي الى مصر المماليك، وهذه الوثائق خليط من الأوراق العائلية ومن المراسلات التجارية فتعكس اهتمامات المجموعة اليهودية بمصر وغيرها من البلدان، كتبت هذه الوثائق باللغة العربية وبحروف عبرية بدون تأريخ، فلزم اتخاذ عديد من الاحتياطات الفنية عند استخدامها، ولكنها على حالها تلك تمثل ذخيرة من المعلومات لا تنضب (٤٨). ويمكن أن يجمع في عين الصنف - صنف الوثائق الخاصة - رسوم رسم الوقف الكثيرة في عصر المماليك المحفوظة بحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة (٤٩) وكذلك بدون شك فتاوى العهد الحفصي.

(ب) وبالعكس فإن الوثائق الاوربية الخاصة بمصر والمغرب والتي تعود الى القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر للميلاد، والموجودة في البندقية وجنوة وبيزا وبرشلونة، تقع في منزلة بين الحقل الخاص وبين الحقل العام. وهي محفوظة في مستودعات الوثائق العامة والخاصة، وهي تتألف من معاهدات وعقود ورسائل تهتم عادة بالعلاقات التجارية، وقد نشر اماري وماس لتري (٥٠) البعض منها فحسب. وهي توفر في مجموعها مادة وثائقية من شأنها أن توسع مجال البحث في حقل التاريخ الاقتصادي والاجتماعي.

(ج) وليس بين أيدينا وثائق دولة بالمعنى الكامل فيما يخص هذه الفترة، بل هي أوراق رسمية مرابطية وموحدة حفظت ونشرت، فألفت أضواء جديدة على المذهبية التي أفرزتها هاتان الحركتان العظيمتان وعلى منظماتهما (٥١). ويقول العروي في هذا الصدد: «بدأنا نشاهد الموحدة من الداخل» ولم يعد من المتعذر أن يكتب تاريخ ديني سياسي لهذا الاسرة» (٥٢) وفيما بعد نجد في مصر موسوعات تاريخية شرعية انتحلت عددا من الوثائق الرسمية، وما تمدنا به من وصف مفصل للبيئات المالية والتنظيمية في مصر أمثاته عامة من المطالعة المسبقة للوثائق العامة. ففي هذا النوع الوثائقي والاختباري في آن واحد يمكن أن نضم «قوانين الدواوين» لمماتي (العصر الأيوبي) و«المنهاج» للمخزومي، وصحيح الأعشمي للقلقشندي (القرن الرابع عشر الميلادي)، وعديد من مؤلفات

(٤٨) إن أعمال كويتين معتمدة: مقال «جنييزة» في دائرة المعارف الاسلامية ١، ٢: جنييزة القاهرة كمصدر للتاريخ الاجتماعي بالبحر الأبيض المتوسط، مجلة الجمعية الشرقية الاميركية ١٩٦٠. ص: د. وقد شرع كويتين في نشر دراسة مهمة جداً عن مصادر الجنييزة، جمعية البحر الأبيض المتوسط: المجموعات اليهودية بالعالم العربي كما تصورها وثائق الجنييزة القاهرة مجلة ١١ أسس اقتصادية بركلاي لوس انجلس ١٩٦٧، ص ١. شاكند: محاولة للمصادر والمراجع لوثائق الجنييزة باريس، لاهاي ١٩٦٤، هـ. رايي ١٩٧٢ ص ٣، ١. يوجد كثير من هذه الوثائق في المتحف البريطاني وفي كمبريدج.

(٤٩) رايي ١٩٧٢ ص ٦ - ٨ و ٢٠٠.

(٥٠) اماري شهادة عربية بالجملة الوثائقية القلونية، فلورنسا ١٨٦٣، ماس لتري: معاهدات صلح وتجارة ووثائق مختلفة عن علاقات النصارى بغرب افريقيا الشمالية في العصر الوسيط باريس ١٨٦٦ ملحق ١٨٧٢.

(٥١) رسائل رسمية مرابطية نشرها ج. مؤنس وأ. م. مكلي، ص ١١ وثلاثون رسالة رسمية موحدة نشرها وترجمها ليفي بروفنسال، الرباط ١٩٤١، (البندقية) وثائق غير منشورة عن التاريخ الموحد ونشر وترجمة فرنسية بقلم ليفي بروفنسال باريس ١٩٢٨.

(٥٢) العروي ١٩٧٠، ص ١٦٢.

المقرئزي ومنها «خططه» العظيمة القدر (القرن الخامس عشر الميلادي) (٥٣). والمقرئزي مصدر ثمين ليس بالنسبة الى تاريخ مصر الاسلامية كله وحسب، بل كذلك فيما يخص النوبة والسودان واثيوبيا (٥٤).

### المصادر القصصية

أ) الأخبار: بعد قرن من الصمت — القرن الثاني عشر الميلادي، حيث لا نجد أكثر من كتاب «الاستبصار» المجهول المؤلف ومصنفات صغيرة — أمدا القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين بعدد من الأخبار الثرية من كل الوجوه، من الكامل لابن الأثير الى كتاب العبر لابن خلدون مروراً بابن عذاري والنويري، وابن أبي ذرع والذهبي. كان هؤلاء المؤلفون شهوداً لزمانهم كما قاموا أيضاً بمجهود قصد التأليف فيما يخص القرون الحاتية. فالنويري هام بالنسبة للمماليك، كما هو هام بالنسبة لفتح المغرب (٥٥). وابن عذاري هام بالنسبة للتاريخ الموحيدي، كما هو كذلك بالنسبة لكل الماضي الافريقي، ابن خلدون، أخيراً، هو الحجة القصوى في مادة تاريخ افريقيا.

ب) الجغرافيا: كانت مصنفات الجغرافيا خصبة طيلة هذه القرون الأربعة وقيمتها تتفاوت في حد ذاتها كما تتفاوت حسب المنطقة الموصوفة. ومن بين مجموعة المؤلفين يتاز جغرافيان بسعة مشاهدتهما وجودتهما: البكري: (١٠٦٨م) في القرن الحادي عشر، والعمرى (١٣٤٢م) في القرن الرابع عشر. وإذا كان عمل شهير كعمل الادريسي على نقاش ومناقشة بالفعل، ففي الامكان أن نحصل على أخبار طريفة من خلال مؤلفات جغرافية أقل شهرة، كمؤلفات ابن سعيد المفيدة جداً فيما يخص السودان (٥٦). وتمثل «المسالك والممالك» (٥٧) للبكري ذروة معرفتنا الجغرافية عن المغرب والسودان والبكري نفسه لم يرق بأسفار الى هذه الجهات، ولكنه استغل استغلالاً ذكياً ملاحظات الوراق — وقد ضاعت اليوم — كما استخدم أخبار التجار والرحالة.

و ينقل الادريسي (١١٥٤م) في كتابه «كتاب روجر» — وهو يصدد الطبع بايطاليا — الكثير عن سابقه، ووصفه مضطرب فيما يخص اثيوبيا، ولكنه أكثر دقة بالنسبة الى افريقيا الغربية، على أننا نجد فيه، هنا وهناك ملاحظات طريفة أحياناً وثمينة.

«وجغرافيا» ابن سعيد الغرناطي (قبل ١٢٨١م) تنقل عن الادريسي في وصفه لاثيوبيا ولكننا نثر فيه على معلومات جديدة. ولكن الأكثر أهمية في وصفه للسودان وقد استخدم فيه كثيراً

(٥٣) رابى ١٩٧٢، ص ١٠ — ٢٠.

(٥٤) مؤلف كتاب الامام يدنا بقائمة الممالك الاسلامية باثيوبيا مستمدة من العمري نشر منه اقتباس في لايدن سنة ١٧٩٠ بعنوان «تاريخ الممالك الاسلامية بالجيشة».

(٥٥) ومازال هذا الجزء مخطوطاً بالكتبة الوطنية بالقاهرة. ونشر الى أن ابن شداد الذي كتب تاريخاً للقيروان قد ضاع اليوم، يعتبر مصدراً من المصادر الرئيسية لابن الاثير والنويري. ونشر حديثاً «كتاب العيون» المجهول المؤلف، نشره بدمشق م. السعيد فيمندا بارشادات مفيدة عن المغرب.

(٥٦) عن قائمة الجغرافيين المستقرة انظر كوبل وما تفيف مضافاً الى ذلك الباب الأول من موني ١٩٦١، وتقييد لويكي ١٩٧١ ومقدمة أ. ميكال لرسالة دكتوراه ١٩٦٧.

(٥٧) نشره وترجمه دوسلان بعنوان «وصف افريقيا الشمالية» باريس ١٩١١.

إِدْرِنَا غَمَزَانَا غَمَزَانَا  
 دَشِيرِي عِيرِنَا غَمَزَانَا  
 كَوْتَمِشِي نَكِي نَاجِ بَادِرِنَا كَسَانَا  
 دِيدُو بِرَانَا دَهْ سَكِرِنَا  
 أَوَانَا غَمَزَانَا دَاتِي نَسْ

كُدُو بِرَانَا دِيدُو بِرَانَا  
 دَهْ سَكِرِنَا دِيدُو بِرَانَا  
 كُدُو بِرَانَا دِيدُو بِرَانَا  
 دِيدُو بِرَانَا دِيدُو بِرَانَا  
 أَوَانَا غَمَزَانَا دَاتِي نَسْ

تَنَا غَمَزَانَا دَاتِي نَسْ  
 دِيدُو بِرَانَا دِيدُو بِرَانَا  
 دِيدُو بِرَانَا دِيدُو بِرَانَا  
 دِيدُو بِرَانَا دِيدُو بِرَانَا  
 أَوَانَا غَمَزَانَا دَاتِي نَسْ

تَنَا غَمَزَانَا دَاتِي نَسْ  
 دِيدُو بِرَانَا دِيدُو بِرَانَا  
 دِيدُو بِرَانَا دِيدُو بِرَانَا  
 دِيدُو بِرَانَا دِيدُو بِرَانَا  
 أَوَانَا غَمَزَانَا دَاتِي نَسْ

إِدْرِنَا غَمَزَانَا دَاتِي نَسْ  
 كَوْتَمِشِي نَكِي نَاجِ بَادِرِنَا كَسَانَا  
 دِيدُو بِرَانَا دِيدُو بِرَانَا  
 دِيدُو بِرَانَا دِيدُو بِرَانَا  
 أَوَانَا غَمَزَانَا دَاتِي نَسْ

كتابات رحالة من القرن الثاني عشر الميلادي هو ابن فاطمة. وأهم مؤلف في القرن الرابع عشر الميلادي عن افريقيا السوداء هو تأليف العمري، «مسالك الأبصار» (٥٨) وهو شهادة ملاحظ قدير، يعتبر مصدرنا الرئيسي لدراسة مملكة مالي في تنظيمها الداخلي كما في علاقاتها مع مصر والبلاد الاسلامية. وهو أيضا أغنى عرض عربي للممالك الاسلامية في الحبشة في القرن الرابع عشر، وعلاوة على أهمية وصفه يضع كتاب العمري قضية ظهور الدولة في العالم الأسود، وقضية دخوله في الاسلام، كما كان البكري قبله بثلاثة قرون، قد عرض قضية تجارة الذهب الكبرى، وبينما أشار هذا الأخير الى متانة الروابط بين المغرب والسودان، يشير الأول الى تحول هذه الروابط نحو مصر. ويجب أن يكمل مؤلف العمري بمؤلف مراقب مشاهد مباشر للواقع السوداني والمغربي، وهو ابن بطوطة.

على أن الجغرافيين الأقل أهمية، ومصنفي الرحلات متعددون، وعلى كل فن الواجب أن يتم الاطلاع عليهم. ونذكر منهم الزهري (القرن ١٢م) وياقوت الدمشقي (القرن ١٤م) والجغرافيا المنعوتة «بالمظفري» وابن جبير وياقوت والبغدادي والعبدري والتجاني والبلوي والحميري.

**ج) مصادر ذات روح دينية وأدبية:** ان المصادر الدينية ترد من آفاق متنوعة، ونذكر منها كتب الطبقات والسير السنية، وسير الخوارج والطرفية وحتى النصرانية (من المجموعة القبطية) ونذكر أيضا مخطوطات الكنائس الاثيوبية وقد نقلت في هوامشها وثائق رسمية، وتبدو هذه الكتابات مفيدة ليس لمعرفة الاحساس الديني والعالم الديني فحسب، بل وكذلك لمعرفة تطور العالم الاجتماعي. فكتاب «الرياض» للمالكي مثلاً أو كتاب المدارك لعياض، ثريان بما يتخللها من ملاحظات اجتماعية. ومصادر الخوارج كما هو معلوم أساسية بالنسبة الى كامل المنطقة الصحراوية في المغرب، أي منطقة الاتصال بالسود. ومن أهم ممثليها الوساني والدارجيني وأبو زكريا وكاتب متأخر كالشماخي. وأخيراً فإن جملة المخطوطات باللغة العربية أو القبطية التي أنتجتها الكنيسة المحلية في مصر الوسيطية تنير العلاقات بين الكنائس والعلاقات بين طبقات القساوسة والدولة (٥٩). وأما المصادر الأدبية بآتم معنى الكلمة، فكثيرة في هذه الفترة، وهي تكاد لا تعني بسوى المغرب ومصر. على أن لرسائل القاضي الفاضل مكانة خاصة في هذا النوع، كذلك الأمر خاصة بالنسبة لموسوعة الصفدي العظمى: الوافي بالوفيات.

وهكذا في هذا العصر الثاني الاسلامي يبدو أن وثائقنا غزيرة، متنوعة وذات نوعية جيدة، وبصورة عامة، خلافا لما كان عليه الأمر في العصر السابق، ففي افريقيا الاسلامية تثير كتاباتنا سير المنظمات وحركة التاريخ العميقة. وهي لا تكتفي بعد بمجرد الرسم للآطار السياسي. وفي افريقيا السوداء فإن القرن الرابع عشر الميلادي يشكل ذروة معرفتنا، حتى تمكنا الوثائق الاوربية والأهلية من التعمق في هذه المعرفة، ومن افساح الميدان لمناطق بقيت الى الآن في حلقة ظلام لا ينقشع.

(٥٨) ترجمه جزئيا قودفروا ديومبي بعنوان «افريقيا ما عدا مصر» باريس ١٩٢٧.

(٥٩) مؤلفات شرقية لآباء الكنيسة. مجموعة أساسية، ومن المؤلفات التي تهمننا نذكر مؤلفات سيفار الاسكندري (القرن الأول م)

وابن مفرج (القرن الحادي عشر م) فيما يخص اثيوبيا، كتاب سير الآباء البطارقة، انظر أيضا ميشال السوري نشره وترجمه شابو، ٣

مجلدات ١٨٩٩ - ١٩١٠.

## النتيجة

يبقى من الخطأ أن يظن أن حالة المصادر المكتوبة في القارة الافريقية قبل القرن الخامس عشر كانت قليلة قلة تبعث على اليأس، ولكن الواقع ان ما توفر منها لافريقيا بحمله أقل مما كان لاوروبا أو آسيا. واذا ما كان قسم كبير من القارة تعوزه تمام المصادر المكتوبة، فان معرفتنا للتاريخ بالنسبة لباقي القارة ممكنة، وهي تعتمد — بالنسبة الى مصر — على مجموعة وثائقية شديدة الغنى. أي ان استغلال هذه النصوص استغلالا دقيقا حكما، اذا انعدمت اكتشافات جديدة غير محتملة، من شأنه أن يزيد امدادنا بالكثير، فمن الضروري اذن أن يشرع في عمل كامل لنقد النصوص، واعادة نشرها والمقارنة بينها وترجمتها، وهذا عمل قد شرع فيه بعض الرواد و ينبغي أن يستمر.

ومن جهة أخرى، اذا ما حررت مصادرنا في اطار ثقافات «عالمية» بورتها خارج افريقيا — ثقافات «كلاسيكية»، «ثقافات اسلامية» — فان لها مزية انها في معظمها مشتركة، وفي الامكان أن تقرأ حسب نظرة افريقية مع التحفظ الحتمي ازاء كل فكرة مسبقة مذهبية، ويصح ذلك خاصة بالنسبة الى المصادر العربية وهي القاعدة الأساسية لمعرفة. وكونها خارجية نسبيا، أو بصفة مطلقة بالنسبة الى موضوعها، فان هذا لا ينقص شيئا من قيمتها إلا فيما توحيه المسافة والبعد.

واذا ما وجب الاعتراف بالفروق الاجتماعية الثقافية، فان هذه المصادر تبرز قيمة بعض التضامن في الاتصال الافريقي، لم يكن علماء الاسلاميات والافريقانيون حتى ذلك ليشعروا به، ولتكون لهم حساسية به.

## المصادر المكتوبة بدءاً من القرن

### الخامس عشر

أ. هربك

على توازي التغيرات العميقة التي حدثت في العالم وبخاصة في إفريقيا في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، نلاحظ تغيرات في طبيعة المواد المكتوبة الصالحة كمصادر لتاريخ إفريقيا ومآثاها وحجمها، وبالمقارنة مع الفترة السابقة يمكن تمييز عدد من الاتجاهات الجديدة في إنتاج هذه المواد، بعضها ينتمي إلى القارة جمعاء، والبعض ينتمي فقط إلى بعض أجزاء إفريقيا في جنوبي الصحراء.

يبدو الآن بالارتباط مع التزايد المستمر للمصادر الروائية من كل نوع (روايات الرحالة، أوصاف، تواريخ يومية الخ) أن ثمة عددا كبيرا من المواد الأولية الجديدة كالمراسلات والتقارير الرسمية، والتقارير الصادرة عن التجار والمبشرين، عقود وسائر الوثائق المحفوظة، لم يرجع إليها قبلا إلا من حين إلى آخر. وتكاثرت هذه المواد المتزايد من شأنه أن يعين المؤرخ إغانة ناجعة، ولكن في الوقت نفسه يكون من العسير أكثر فأكثر، أن يحصل الإنسان على نظرة عامة.

ثم أننا نلاحظ نقصا واضحا في حجم المصادر الروائية العربية فيما يخص إفريقيا جنوبي الصحراء. على أن هذه الفترة بالعكس، هي التي شهدت ازدهار التأليف التاريخي المكتوب بالعربية من قبل الأهالي. وبدءاً من هذه الفترة فحسب، أصبح بمقدورنا أن نستمع إلى أصوات أفارقة أصليين تتحدث عن تاريخها الخاص. والنماذج الأولى وأشهرها من هذا التدوين التاريخي المحلي أتت من المنطقة السودانية ومن الساحل الشرقي الإفريقي، وأما في سائر أقسام إفريقيا المدارية فإن هذا التطور لم يطرأ إلا متأخرا.

وخلال القرنين الأخيرين شرع الأفارقة أيضا في تحرير بلغاتهم الخاصة، مستخدمين الأبجدية

[illegible]

العربية (مثلا بالنسبة الى السواحي والهوسا والفلفلد والكانمو والديسولا والملاغشية) ثم الأبجدية اللاتينية، وتوجد أيضا مواد تاريخية (وغيرها) في الكتابات الأصلية الافريقية المحضة أمثال أبجديات باموم وفاي.

والنزعة الثالثة، وهي تابعة للسابقة، تتمثل في ظهور أدب كتابي بالانكليزية (وبقدر أقل باللغات الاوربية الأخرى) حرره أفارقة، عبيد محرون أو أحفادهم في أميركا، وهم مدركون لماضيهم الافريقي.

وفي النهاية ان المصادر العربية الخارجية تترك محلها تدريجيا لروايات في لغات أوربية مختلفة، ويتكاثر عدد الآثار من هذا النوع تدريجيا، فصارت الكتب التي تشير الى المراجع الكتابية وحدها تعد بالعشرات، في القرنين التاسع عشر والعشرين.

ومن المؤكد أنه رغم هذه التغيرات فثمة استمرار في التدوين التاريخي تم في بعض المناطق من افريقيا، ولاسيما في مصر والمغرب واثيوبيا. وفي هذه البلدان واصل المؤرخون ومؤلفوا التراجم تقليدا ورثوه من الفترة السابقة، وإذا ما لوحظ في مصر — وبكيفية أقل في اثيوبيا — بعض الهبوط الكيفي وحتى الكمي بالنسبة الى هذه المؤلفات فالمغرب ولاسيما المغرب الأقصى، قد استمر في انتاج أدباء أكفاء كانت مساهماتهم في تأريخ بلادهم عظيمة.

ويلوح بتطور الوضع أيضا في المناطق الجغرافية التي تغطيها المصادر المكتوبة، فبينما كانت حدود الساحل السوداني وشريط ضيق من الساحل الشرقي الافريقي، هي نهاية المعرفة الجغرافية وبالتالي التاريخية، قبل القرن السادس عشر، فان العصور الجديدة سوف تضم شيئا فشيئا مناطق جديدة كانت تجهل حتى ذلك الوقت مصادر من هذا النوع. وبالطبع فإن عدد هذه المصادر وقيمتها يختلفان اختلافا كبيرا من جهة الى أخرى ومن قرن الى آخر، وصار تصنيف هذه الوثائق حسب اللغة والطابع والهدف والأصل أشد تشعبا وعسرا.

وبصورة عامة سينمو الانتشار من الساحل الى داخل البلد، ولكن هذه الحركة كانت بطيئة شيئا ما ولم تتسارع بكيفية محسوسة الا منذ نهاية القرن الثامن عشر. وقد وصف البرتغاليون الساحل الافريقي وبما اتصل به مباشرة من البلاد منذ القرن الخامس عشر. وخلال القرون التالية أخذت المصادر المكتوبة، في عدة لغات تدلي بمعلومات أكثر عددا وأشد دقة عن سكان الجهات الساحلية. وتوغل الاوربيون داخل البلاد في عدد قليل من الجهات فقط (في السنغال وقبيا وفي دلتا النيجر والبنين وفي مملكة الكونغو وعلى طول الزمبار حتى امبراطورية مونومتابا) فأضافوا هذه الجهات الى مجال المصادر المكتوبة.

وفي الفترة نفسها صارت بعض الأجزاء من افريقيا معروفة — ولم تكد تكتشف قبل — ومن ذلك الساحل الجنوبي الغربي ومدغشقر.

وكانت المصادر الكتابية العربية تغطي منطقة أفسح، وأصبحت المدرسة التاريخية السودانية كلها حصلت على معلومات عن جهات مجهولة في السابق، تمتد الى بلدان أخرى وبخاصة نحو الجنوب، حتى أصبح من الممكن أن تعتبر في القرن التاسع عشر — كل المنطقة الكائنة بين الصحراء والغابة وفي بعض النقاط حتى الساحل، مشمولة بالمصادر المكتوبة المحلية، ولكن مناطق فسيحة من داخل القارة انتظرت حتى القرن التاسع عشر كي يظهر في شأنها أول التوار يخ المرتقبة.



وعلى الجهات الساحلية، نلاحظ فروقا كبيرة في طبيعة الخبز التاريخي، وبصورة عامة تتوفر في الساحل الاطلسي الوثائق المكتوبة أكثر مما تتوفر في الساحل الشرقي، وما يتوفر من المواد فيما يخص الكنغو القديم وصنغان والساحل بين رأس بلماس ودلتا النيجر أكثر بكثير مما يوجد منها في شأن ليبيريا والكامرون والقابون أو ناميبيا مثلا وتتغير الحال أيضا بحسب الأزمنة، فالساحل الشرقي والبنين أو اثيوبيا تمدنا بمعلومات مكتوبة في القرنين السادس عشر والسابع عشر أكثر منها في الثامن عشر، وهي متوفرة في الصحراء خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر أكثر منها في النصف الثاني.

ونظرا لعدم الانتظار في توزيع المواد بحسب المكان والزمان والطابع، وكذلك بحسب أصلها ولغتها، فإنه لمن المفضل أن ينظر فيها تبعا لمعايير متنوعة عوض التقيد بطريقة واحدة، وهكذا سنقدمها أحيانا حسب الجهات الجغرافية وأحيانا حسب أصلها وطابعها الخاص.

## افريقيا الشمالية واثيوبيا

أ — ان المواد الصالحة لافريقيا الشمالية العربية اللسان تعرضت هي وجهات أخرى من القارة، لتغيرات عميقة بالنسبة الى الفترة السابقة. ولم تؤثر هذه التغيرات كثيرا في اليوميات التاريخية المحلية التي استمرت كما في الماضي تسجل الأحداث الرئيسية حسب الطريقة التقليدية. ولم توجد من بين مؤرخي اليوميات أو أصحاب المنتخبات في هذه الفترة شخصية فذه تشابه شخصية كبار المؤرخين في القرون الوسطى، ولم يرق من جاء بعد ابن خلدون باتباع ما كان قد نصح به من طريقة نقدية للمؤرخ. ولم يظهر التدوين التاريخي العربي العصري الا في القرن العشرين.

وأما التغيرات فهي تمس خاصة ضربين من المصادر: وثائق الخزائن المتجمعة من أصول مختلفة، وكتابات الاوربيين. اذ لم تظهر المواد الأولية بالعربية والتركية بكثرة الا انطلاقا من بداية القرن السادس عشر. وخزائن الوثائق العثمانية تضاهي أغنى الخزائن الاوربية من حيث حجمها ومن حيث قسمتها، ولكنها في تلك الفترة لم يستخدمها مؤرخو هذا الجزء من افريقيا الا قليلا، ولم يستغلوها بكثرة. والى هذه الفترة أيضا ترجع الوثائق الثانوية للبلدان التي كانت تحت الخلافة العثمانية (مصر، طرابلس، تونس، الجزائر) (١)، وأما المغرب الأقصى فهو نسيج وحده، فقد حافظ دائما على استقلاله، وستحوي خزائنه مواد تاريخية ثرية (٢). وأهم الوثائق محفوظات حكومية وإدارية وقضائية، والمواد التي تعالج التجارة والصناعة والحياة الاجتماعية والثقافية أقل عددا على الأقل قبل القرن التاسع عشر. وهذا يرجع جزئيا لانعدام الوثائق الخاصة التي تمدنا بكثرة بالمعلومات الثمينة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في أوربا. وبالنسبة الى بعض البلدان وبعض الفترات أصبح من الممكن سد الثغرة: فاما يمكن وجوده من المواد الخاصة بالمغرب الأقصى في عدد من البلدان الاوربية، قد تم تجميعه ونشره في المؤلف الفخم الذي صنفه هنري دي كستري (٣). على أن

(١) ج. دني ١٩٣٠، ر. منطران ١٩٦٥، ر. لوطرونو ١٩٥٤.

(٢) مكناسي ١٩٥٣، ج. عياش ١٩٦١.

(٣) المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب الأقصى ٢٤ مجلدا. باريس ١٩٠٥ — ١٩٥١.

الحصول على مجموعات مماثلة أو على الأقل على سجلات وثائق تابعة لبلدان إفريقيا الشمالية الأخرى يشكل جزءا من مهمات عاجلة جدا لا بد من إنجازها في المستقبل القريب. وإذا ما تصفحنا المصادر الروائية، نلاحظ انتقاصا مستمرا كما وكيفا في الكتابات التاريخية عن إفريقيا الشمالية، باستثناء المغرب الأقصى وحده، حيث واصلت مدارس المؤرخين اليوميين التقليديين في توفير توارخ مفصلة للاسرتين الشريفتين حتى عهدنا هذا (٤). ويمكننا أن نذكر مثلا المعمول للمختار السوسي المتوفي مؤخرا، والذي كتب في ٢٠ مجلدا، وتاريخ تطوان لداود، وهو يصدد النشر.

ومن بين سلسلة المؤرخين المتصلة لابد أن نذكر بعض أساء أشهر المشاهير فلقد وجدت أسرة السعديين مؤرخا جليلا هو الافراحي (توفي حوالي ١٧٣٨) (٥) فشمّل السنوات ١٥١١ - ١٦٧٠ وحظيت الفترة التالية (١٦٣١ - ١٨١٢) بوصف مفصل من قبل أكبر مؤرخ مغربي منذ القرون الوسطى، الزباني (ت. ١٨٣٣) (٦)، بينما حرر الناصري السلاوي (ت. ١٨٩٧) تاريخا عاملا لبلاده، عالج بزيادة من التفصيل القرن التاسع عشر وجمع بين الطريقة التقليدية والطريقة العصرية مستخدما أيضا وثائق الخزائن. كما ألف كتابا في الجغرافية يدنا بالكثير من المواد على الحياة الاجتماعية والاقتصادية (٧). أضف الى هذه المؤلفات التاريخية المحضة روايات الرحالة، وكانوا في الغالب من الحجاج الذين لم يصفوا المغرب الأقصى فحسب، بل أيضا سائر البلدان العربية حتى جزيرة العرب. وأحسن الكتابات من هذا النوع بلا شك كتب العياشي المتوفي (سنة ١٦٧٩) وأحمد الدرعي من تامكروت على حدود الصحراء (ت. ١٧٣٨) (٨)، ومن النصوص المفيدة نذكر أيضا تقرير التامكروتي، سفير المغرب الى البلاط العثماني بتاريخ ١٥٨٩ - ١٥٩١ (٩) ورحلة ابن عثمان سفير المغرب الى بلاط مدريد.

أما البلدان التي بين المغرب الأقصى ومصر، فلم تكن التوارخ المحلية فيها بعين الغزارة ولا مماثلة في القيمة. ففي الجزائر نجد توارخ مجهولة المؤلف بالعربية والتركية عن أرو وخير الدين بربروس (١٠)، وتاريخ حربي حتى سنة ١٧٧٥ بقلم محمد التلمساني (١١).

ويمكن أن نتبع خطى التاريخ التونسي بفضل سلسلة من الحواشي ابتداء من الزركشي (حتى سنة ١٥٢٥) (١٢) حتى مقديش الصفاقسي (ت. ١٨١٨) (١٣). وكتب محمد غلبون (١٧٣٩) (١٤) تاريخ مدينة طرابلس، وتستحق يوميات الاباضية وتراجهم، كمؤلفات الشماخي

(٤) أ. لبني بروفنسال ١٩٢٢، المختار السوسي المصنوع: ٢٠ مجلدا منشورا، داود تاريخ تطوان.

(٥) نشره وترجمه أ. هوداس، باريس ١٨٨٩.

(٦) نشره وترجمه أ. هوداس، باريس ١٨٨٦.

(٧) نشر بالقاهرة سنة ١٨٩٤ في ٤ مجلدات. عدة ترجمات جزئية الى الفرنسية والاسبانية.

(٨) ترجمتها كلها س. بربورج، باريس ١٨٤٦.

(٩) ترجمه ه. دي كستري، باريس ١٩٢٩.

(١٠) نشره نور الدين، الجزائر ١٩٣٤.

(١١) ترجمها أ. روسو، الجزائر ١٨٤١.

(١٢) ترجمه أ. بانيا، قسنطينة بدون تاريخ.

(١٣) نشره بتونس ١٩٠٣.

(١٤) نشره الطهرسي، بولونيا ١٩٣٦، توجد أيضا يوميات تركية عن طرابلس.

(ت ١٥٢٤) عناية خاصة، اذ هي تحتوي على معلومات ثمينة عن الصحراء والسودان (١٥). والتراجم أو معاجم التراجم العامة أو الخاصة اقتصرت غالبا على شخصيات لامعة (أدباء، قضاة، أمراء، متصوفين، كتاب الخ)، وكثيرا ما ضمت الى مواد التراجم أخبارا تاريخية وأنارت عديد الجوانب من التاريخ الثقافي الاجتماعي. وكانت آثار هذه الصنف غزيرة في كل البلدان العربية وخاصة في المغرب الأقصى، وبعض القصائد الشعرية نفسها في اللهجات المحلية، من الممكن أن تكون أحيانا مصادر تاريخية، مثلا اهاجي الشاعر المصري السجزي (ت ١٧١٩) التي لم يصف فيها أهم أحداث عهده (١٦).

وفيا يخص تاريخ مصر العثمانية يجب الرجوع الى يوميات لم تنشر في معظمها ولم تستغل. فلم تنتج البلاد في هذه الفترة سوى مؤرخين عظمين أحدهما في بداية الهيمنة العثمانية والثاني عند نهايتها: سجل ابن اياس (ت ١٥٢٤) يوما يوما تاريخ زمنه موفرا كثرة من التفاصيل فلما توجد عنا غيره من الكتاب (١٧)، والجبرتي (ت ١٨٢٢) هو مؤرخ الأيام الأخيرة من السيطرة التركية والاحتلال النابليوني وصعود نجم محمد علي، فيضم فترة حاسمة من التاريخ المصري (١٨)، ولو أنه تم نشر الكثير من اليوميات ومن المصنفات التاريخية من كل البلدان العربية، فزال عدد كبير منها مخلوطا موزعا في عدد كبير من الخزائن في بلدانها الأصلية أو خارجها، يترقب من ينشره ويستغله. وازدادت أهمية روايات الرحالة الاوربيين في ذلك العصر، ورغم كون أصحابها لهم رأي مسبق مناوئ للإسلام الا قليلا من الادلاء بتقارير موضوعية حقا، فاننا نجد فيها كمية من التأملات والملاحظات لا توجد فيما عداها وذلك أن الكتاب المحليين كانوا يعتبرون الكثير من مظاهر الحياة عادية غير جدير بالاهتمام. وجهود الاوربيين من رحلة وسفراء وقناصل وتجار وحتى الاسرى (ومهم ميقال سرفانتس) — الذين أبقوا لنا ذكرياتهم وأوصافا تتفاوت تفصيلا لبلدان المغرب التي زاروها: هذا الجمهور من الاوربيين، لا نهاية له وبخاصة بالنسبة الى مصر التي كانت تجلب زوارا عديدين لما كان لها من أهمية تجارية ولقرها من الأرض المقدسة (١٩). وكتاب «وصف مصر» الضخم في ٢٤ مجلدا (باريس ١٨٢١ — ١٨٢٤) الذي حققه أفراد البعثة العلمية المصاحبة لغزوة نابليون بونابرت له أهمية خاصة، فهو مصدر لا ينضب من المعلومات من كل الأنواع عن مصر قبيل العصر الحديث.

ومصادر تاريخ افريقيا الشمالية في القرن التاسع عشر لها من الغزارة ما لها بالنسبة الى أي بلد أوربي، وتراجعت التواريخ المحلية وروايات السياح الى مستوى ثانوي أمام مصادر أكثر موضوعية، مثل خزائن الوثائق وإحصائيات وصحف وسائر الشهود المباشرين، وغيرهم مما يمكن المؤرخين من استعمال الطرق الدراسية الدقيقة المستعملة في تأريخ أوروبا. وثمة منطقتان لغتها هي العربية، وهما موريتانيا والسودان الشرقي، يجب أن تعالج معالجة

(١٥) ت. لوكي ١٩٦١.

(١٦) استغلها الجبرتي.

(١٧) ج. فيات: يوميات مواطن بالقاهرة.

(١٨) عدة طبقات، ترجمة لا يعتمد عليها لشفيق منصور، القاهرة ١٨٨٦ — ١٨٩٦.

(١٩) ج. م. كرى القاهرة ١٩٣٢.

متميزة، إذ لها وضع خاص على حدود العالم العربي، ويغلب على مصادر هذين البلدين التراجم والانساب والشعر أكثر من الحوليات التاريخية الحقيقية، استمر ذلك على الأقل حتى نهاية القرن الثامن عشر. ففيما يخص موريتانيا نشر اسماعيل حامد عدداً من التراجم وكتب الانساب (٢٠)، وأضيف إليها عدد من القصائد الشعرية ومن أدوات الأدب الشعبي، جمعها روني باسي، وحديثاً هـ. ت. نوريس (٢١)، وعمل العالم الموريتاني المختار ولد حمدون عملاً نشيطاً ناجحاً قصد دراسة مواد جديدة، وأول أثر تاريخي حقاً يرجع إلى بداية القرن الحالي الوسيط كان بقلم أحمد الشنقيطي وهو موسوعة تاريخية ثقافية موريتانية عن الماضي والحاضر (٢٢). وتوجد عدة يوميات عملية مخطوطة متفاوتة القيمة في شكل أخبار قصيرة من نيا واللاته وشنقيط (٢٣). وللمصادر العربية الواردة من موريتانيا قيمة وأهمية خاصتان إذ هي في الكثير من الأحيان تشمل موريتانيا بالذات وتتجاوزها أيضاً إلى كل البلدان المجاورة للسودان الغربي. ونظراً لما كان في الماضي من علاقات وثيقة بين موريتانيا والمغرب الأقصى، فإن خزانات هذا البلد الأخير ومحفوفاته ستوفر مواد تاريخية ثمينة عن موريتانيا. ولدينا علاوة على المصادر العربية، روايات الأوربيين، وهي تبتدئ في القرن الخامس عشر بالنسبة للمناطق الساحلية وفي المناطق النهرية في نهاية القرن السابع عشر، وبداية القرن التالي نجد حتى المراسلات الدبلوماسية والتجارية مكتوبة باللغة العربية واللغات الأوربية.

ويبدو أن تدوين التاريخ المحلي في السودان الشرقي بدأ في السنوات الأخيرة من سلطنة فنج فحسب، أي في بداية القرن التاسع عشر حيث سجلت الرواية الشفاهية كتابة في نص سمي تاريخ الفنج ويوجد منه عدة روايات (٢٤).

وتكون الانساب في مختلف المجموعات العربية (٢٥) مصدراً ثميناً وكذلك المعجم الكبير لتراجم العلماء السودانيين، الطبقات الذي ألفه ولد ضيف الله وهو منجم من المعلومات عن الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية في مملكة الفنج (٢٦). وأقدم زائر أجنبي معروف هو الرحالة اليهودي داود روبيني (سنة ١٥٢٣). وحتى القرن التاسع عشر لم يكن يوجد سوى عدد صغير من الآثار القيمة، إلا أننا نجد من بينها روايات ملاحظين متبصرين أمثال جامس بروس (سنة ١٧٧٥) و. و. براون (١٧٩٢ - ١٧٩٨) والتونسي (١٨٠٣) وهذان الأخيران هما أول من زار درفور (٢٧).

وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر زار السياح بلاد السودان أكثر من أي جزء آخر من إفريقيا المدارية، فكانت رواياتهم عديدة ومتفاوتة القيمة كمصادر تاريخية، وحتى سنوات ١٨٣٠ لم يكن يوجد أي مصدر مكتوب عن مناطق وادي النيل العالي (جنوبي ١٢ درجة من

(٢٠) يوميات موريتانيا السنغالية، باريس ١٩١١.

(٢١) ر. باسي ١٩٠٩ - ١٩٤٠، نوريس، ١٩٦٨.

(٢٢) أحمد الشنقيطي: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، القاهرة ١٩١٠ وعدة طبعات جديدة ترجمة فرنسية جزئية، سان لويز ١٩٥٣.

(٢٣) ب. مرتي باريس ١٩٢٧، نريس في ب. ي. ف. ان ١٩٦٢، منتال في بيفان ١٩٦٥ ج ٣ - ٤.

(٢٤) درس هذا النص مكسي شيكة في كتابه «تاريخ ملك السودان» الخرطوم ١٩٤٧.

(٢٥) جمعها هـ. أ. مالك ميخايل في «تاريخ العرب في السودان»، ٢، كمبريدج ١٩٢٢ مع وثائق تاريخية أخرى.

(٢٦) أحسن نشرة مشروحة هي نشرة يوسف فضل الحسن، الخرطوم ١٩٧١.

(٢٧) جامس بروس ١٧٩٠ و. ج. براون ١٨٠٦ عمر التونسي ١٨٤٥.

(العرض)، بينما تغطي القسم الشمالي وثائق الخزائن المصرية (خزائن القاهرة)، وبصورة أقل الوثائق الاوربية. وخزائن وثائق المهديّة التي تشمل نحو ٨٠٠٠ وثيقة عربية، وهي محفوظة الآن في معظمها بالخرطوم تمثل مصدرا ذا قيمة استثنائية فيما يخص العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر.

### اثيوبيا

ولا تقل الحالة شها بما سبق في اثيوبيا فيما يخص المصادر المكتوبة، فللمؤرخ كما في بلدان شمال افريقيا وثائق داخلية وخارجية متنوعة أشد التنوع. وفيما يخص بعض الفترات الحاسمة يكون في وسعه أيضا ان يستعمل مواد من مصادر متناقضة: فالزحف الاسلامي مثلا الذي قام به أحمد قران في النصف الأول من القرن السادس عشر تغطيه من وجهة النظر الاثيوبية «اليومية الملكية» (بلغة القاز) للامبراطور لبني دنجل. ومن الجانب الاسلامي اليومية المفصلة التي حررها سنة ١٥٤٣ كاتب أحمد قران عرب فقيه بقطع النظر عن روايات شهود العيان البرتغاليين (٢٨).

وشرح في تحرير اليوميات الملكية منذ القرن الثالث عشر، ويوجد بالنسبة الى كل مملكة تقريرا في عصر الانحطاط، يومية أو عدة يوميات مفصلة تروي الأحداث الرئيسية في تلك المدة (٢٩). واستمرت هذه التقاليد طيلة القرن التاسع عشر وجزء كبير من القرن العشرين، كما توضح ذلك اليومية الامهرية للامبراطور منليك الثاني (٣٠). وقد يوفر العديد من الآثار الأدبية الاثيوبية من أصناف أخرى مواد تاريخية مفيدة، مثلا تاريخ القديسين والجدالات الدينية والشعر والخرافات وتواريخ الاديرة، وتاريخ الكالا للراهب بهري (١٥٩٣) وهو شاهد عيان لزحف القلا الكالا على اثيوبيا يمثل وثيقة فريدة (٣١).

وبعد ذلك بقرن جمع هيوب لودلف، منشئ الدراسات الاثيوبية في أوربا، ونقلنا عن أخبار اثيوبي مثقف، أحد التواريخ العامة الأولى لهذا البلد (٣٢).

وحيث كانت اثيوبيا البلد الوحيد الذي بقي على المسيحية في افريقية، فإنها بالطبع جلبت اهتمام أوربا إليها أكثر من اهتمامها بالأقسام الأخرى من افريقيا وذلك منذ القرن الخامس عشر. فلا غرابة اذن ان ارتفع عدد الأجانب الذين زاروا البلد ووصفوه، من سياح ومبشرين وديبلوماسيين وجنود وتجار ومغامرين.

ولم يكن يوجد من الأجانب، البرتغاليون والفرنسيون والايطاليون فحسب، بل أيضا من ينتمون

(٢٨) عرب فقيه ١٨٩٧ - ١٩٠١، م. كستنهوز ١٥٤٨، ترجمة انكليزية ١٩٠٢.

(٢٩) انظر بنكهوست ١٩٦٦، بلندل (هـ. و) ١٩٢٣.

(٣٠) كتبها جيري سيلاسي، ترجمت الى الفرنسية، باريس ١٩٣٠ - ١٩٣١.

(٣١) انظر بكشفام ج. وب هنتنغفرد ١٩٥٤، علاوة على تاريخ بحري يحتوي هذا الكتاب على قطع من «تاريخ اثيوبيا العليا» لأليدا (١٦٦٠).

(٣٢) هيوب لودلفوس ١٦٨١ ترجمة انكليزية ١٦٨٢ - ١٦٨٤.

الى العديد من البلدان الأخرى، روسيون وتشيكويون وسويديون وأرمن وجرجانيون (٣٣)، ومن حين الى آخر تكمل الوثائق التركية أو العربية سائر المصادر (٣٤) بشتى الكيفيات.

ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، صارت وثائق الخزائن من كل الدول الاوربية العظمى، ووثائق أديس أبابا وحتى الخرطوم، هي التي توفر أهم المواد التاريخية. وقد أقيم الدليل في التحليل اللامع الذي قدمه سفان روينسون (٣٥) لمعاهدة ويشال (١٨٨٩) على ما في الدراسة اليقظة للوثائق الامهرية الأصلية من أهمية للحصول على التفسير التاريخي الصحيح.

## افريقيا الجنوبية

ازاء سائر أقطار القارة ( ماعدا البلدان العربية اللسان و اثيوبيا التي نظرنا فيها قبله ) فان افريقيا الجنوبية تمدنا فيما يخص الفترة التي ندرسها هنا، بعدد أكبر من المواد المكتوبة المهمة، اما وثائق واما أخبار. على أن انعدام المصادر الافريقية الاصل المحضة قبل القرن التاسع عشر هو نقص لا شك فيه، ولو أن العديد من الأخبار الاوربية قد احتفظ بأجزاء من الروايات الشفاهية بين السكان المحليين.

وأقدم الأخبار التاريخية ما ذكره تجار هولنديون أو برتغاليون غرقوا على الساحل الجنوبي الشرقي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر (٣٦).

وبقيام المستعمرة الهولندية في الكاب (١٦٥٢) ازداد انتاج المواد التاريخية غنى وتنوعاً، من بينها وثائق رسمية حفظت الآن في خزائن افريقيا الجنوبية نفسها وكذلك في لندن وفي لاهاي، وطبع البعض منها أو نشر بوسائل أخرى ولكن معظمها لم يطبع (٣٧)، ووثائق روائية من جهة أخرى، تمثلها كتب حررها البيض، من سياح وتجار وموظفين ومبشرين ومستعمرين — الذين شاهدوا المجتمعات الافريقية مباشرة. ولكن كثيراً ما كان افقي البيض الجغرافي محدوداً اذ هم لم يشعروا فعلاً في التوغل داخل البلاد الا أثناء النصف الثاني من القرن الثامن عشر. فمن الطبيعي اذن أن تذكر الأخبار الأولى جماعة النحوي في الكاب (وقد انقرضوا اليوم). وأول وصف مفصل لهذا الشعب، بعد بعض المحاولات في القرن السابع عشر (٣٨)، هو ما كتبه بيتر كلب (٣٩) (١٧٠٥ — ١٧١٢).

(٣٣) انظر المجموعة العلمية للبيكارى: كتابات غربية عن الامور الاثيوبية، لم تنشر، من القرن ١٦ الى القرن ٢٠، ١٥ مجلداً، رومة ١٩٠٣ — ١٩١٠. واكتشف الكثير من المواد الأخرى بعد بكارى وهي تنتظر النشر والاستغلال.

(٣٤) مثلاً الرحالة التركي الشهير اوليا شلي (ت ١٦٧٩) وكتابه (كتاب رحلات) يشمل في المجلد العاشر وصفاً لمصر واثيوبيا والسودان. وابقى السفير البني الحتمي الكوكباتي (سنة ١٦٤٧) ملخصاً حياً لمهمته لدى الامبراطور قاسيلاداس، ولا يوجد أي تاريخ اثيوبي فيما يخص مدة ملكه. نشره ف. أ. بيسر في مجلدين، برلين ١٨٩٤ و ١٨٩٨.

(٣٥) سفان روينسون: فقرة الحماية في معاهدة ويشال ج. أ. ه. ك. ١٩٦٤ عدد ٢ ومناقشة مع س. جيليو ج. أ. ه. ٢ و ٦، ١٩٦٦ عدد ٢ و ٧، ١٩٦٦ عدد ٣.

(٣٦) انظر ج. م. طيل ١٨٩٨ — ١٩٠٣ وس. ر. بوير.

(٣٧) توجد مقتطفات من مجلات رسمية ووثائق أخرى تتعلق بالسكان المتكلمين لغات سان ونخوي وباتو في د. مودي ١٩٦٠،

انظر أيضاً ج. م. طيل ١٨٩٧ — ١٩٠٥.

(٣٨) شاربس (١٦٦٨)، ويلهم تن راين (١٦٨٦) وج. ج. جريفيروك (١٦٩٥)، الكاب ١٩٣٣.

(٣٩) بيتر كلب ١٧١٩.

وزار العديد من الاوربيين بلاد الكاب في عهد الهولنديين، ولكنهم قلما أبدوا ازاء الافريقين غير الاهتمام العابر، وقلما غامروا متوغلين داخل البلاد. وجمع عدد من تقاريرهم كودي ملسبركن والفاضل نابير. وعملت جمعية فان ريبك في الكاب على نشر عدة مواد لم تعرف معرفة كافية، وذلك منذ سنوات ١٩٢٠ (٤٠) وقد نجد صورة أكثر تفصيلا عن المجتمعات الافريقية في خزائن المبشرين (٤١) أو بناء على تقييدات بعض الملاحظين المجرين منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، أمثال سيرمان ولوفيان وألبرتي وجون باراو وليشتشتاين (٤٢) ومجرد أن نحل جون فيليب محل الشرف فقد أهدى عمله وحياته للدفاع عن حقوق الأفارقة، فيكشف بذلك عن جوانب لا توجد عادة في التقارير الأكثر انسجاما (٤٣).

وعند انتشار التجارة والتبشير والاستعمار في القرن التاسع عشر، صار في متناولنا عدد أكبر وأغنى من المواد عن مجموعات عنصرية أشد بعدا. فنيبيا وإن قد تمت زيارتها زيارات متقطعة حوالي نهاية القرن التاسع عشر (٤٤) إلا أنه لم يشرع في تقديم أوصاف مفصلة لحياة السكان والناما والمهريرو، إلا منذ عام ١٨٣٠، إذ منذ ذلك الوقت فحسب، اهتم المبشرون (٤٥) ورواد الاستكشاف أمثال ج. الاسكندروف. كلتون وج تندال اهتماما نشيطا بهذا البلد (٤٦).

والأمر شبيه بذلك فيما يخص الجهات الواقعة شمالي نهر اورانج، فوضت تقارير التجار الاولين والصيادين بعدد أكثر من المؤلفات المكتوبة التي صنفها الرواد والمبشرون، وقد تطور استعدادهم للملاحظة، بفضل تجربة أكثر اتساعا، ومعرفة أحسن للغات الافريقية، ومن بينهم روبرت معرفات، وأ. كازليس وت. اربوس وأشهرهم بالطبع دافيد ليفنستون (٤٧)، وجمع ج. هـ. تيل (٤٨) الوثائق المختلفة عن بداية تاريخ ليسوتو (وثائق خزائن مراسلات، عقود وأوراق رسمية الخ).

وتسجل ظاهرة ايجابية في هذه الفترة وهي ظهور وثائق تعبر عن رأي الأفارقة كالرسائل التي كتبها مصباح (موشيش) وغيره من الزعماء الأفارقة.

وخلافا للساحل فإن داخل بلاد الناطال وبلاد الزولو لم يشرع الأجانب في معرفتها إلا في

(٤٠) كودي ملسبركن ١٩١٦ - ١٩٣٢، الفاضل نابير ١٩٣١.

(٤١) انظر مثلاً د. ك. ملر ١٩٢٣.

(٤٢) أ. سيرمان ١٧٨٥، ج لوفيان ١٧٩٠، ل. البرتي ١٨١١، جون باراو ١٨٠١ - ١٨٠٣، هـ. ليششتاين ١٨١١.

(٤٣) ج فيليبس ١٨٢٨.

(٤٤) اد. واطس، ١٩٢٦.

(٤٥) المصنف الدراسي مؤلفه هـ. فيدير (افريقيا الجنوبية الغربية في الزمن القديم) اكسفورد ١٩٣٨، حرر بالاستناد أساسا الى تقارير المبشرين الالمان.

(٤٦) سرجامس الكسندر ١٨٣٦، ف كالرتون ١٨٥٣، يومية جوزاف تيندال ١٨٣٩ - ١٨٥٥ الكاب ١٩٥٩.

(٤٧) روبرت موفات ١٩٤٢ - ١٩٤٥.

أ. كازاليس: جماعة البسوتو، باريس ١٨٥٩، ط. انكليزية لندن ١٨٦١، ت. اربوس: خبر رحلة استكشافية باريس ١٨٤٢، ط انكليزية: الكاب ١٨٤٦ د. ليفنستون ١٩٥٧.

(٤٨) ج. م. تيل: ذكريات باسوتولند، ٣ مجلدات الكاب ١٨٨٣ (لم ينشر المجلدان ٤ و ٥ ويوجد مخطوطها بخزانة محفوظات الكاب).

العشرية الأولى من القرن التاسع عشر. فأول الملاحظين أمثال ن. اسحاق أو هـ. ب فن (٤٩) لم يكونوا من الاخصائيين، فكان يعوزهم الدقة كما تعوزهم الموضوعية اذا ما تعلق الأمر بغيرهم من البيض، وأما الزولو فعلى العكس، قد كان لهم من الحظ ما جعل تسجيل الروايات الشفاهية يشرع فيه مبكراً منذ سنوات ١٨٨٠. ولم يتم نشرها الا مؤخراً من قبل أ. ت. بريانت، على أنه لا ينبغي أن يستخدم كتابه الا مع الحيلة والحذر (٥٠).

وهنا كما في سائر أجزاء افريقيا، فان كمية المواد المكتوبة من قبل الاوربيين تضخمت تضخماً كبيراً خلال القرن التاسع عشر، وليس من اللازم أن ينظر بتمعن في أنواعها كافة وفي جملة مؤلفيها. ولكن المهم هو ما قدم من ملاحظات عن ردود فعل الأفارقة الاولين، الذين انخرطوا في سلك التعليم، أو ردود فعل الرؤساء التقليديين وملاحظات قدمت وحفظت ضمن مراسلات وصحف وشكايات و يوميات شخصية وعقود أو، فيما بعد، ضمن أولى المحاولات لكتابة تاريخ شعبهم. فعلاوة على المراسلة الضخمة بين رؤساء أفارقة (ميش وودنقتان وستاويو ومزيليكايزي ولوبنيكيويلا وويطبوي ورؤساء الكريكا الخ) وبين السلطات الاستعمارية، توجد وثائق أخرى أمثال قوانين الاسلاف (فادرليك ويط) لمجموعة ريسهوبوث منذ سنة ١٨٧٤، أو يومية هنريك وبيوي (٥١) وكلهما بلغة افريقيان.

وتوجد عدة عرائض وشكايات من الأفارقة محفوظة بخزانة محفوظات افريقيا الجنوبية أو في لندن، كما توجد دراسات ونسخ تسجيل واحصائيات ضبطت بناء على معلومات افريقية شفاهية. وبفضل ما ظهر من جرائد باللغات المحلية، صار في وسعنا ان نتبع آراء الممثلين القدامى لمجتمع يسير في طريق التطور. ففي الصحيفة الاسبوعية اسيدميجمي (الصادرة بين ١٨٧٠ و ١٨٨٠) نشر أول نقد للسياسات الاوربية وآثارها السلبية على الحياة الافريقية، كتبه أول الوطنيين أمثال طيو سوكا (ت سنة ١٨٧١). أوج. شمراش (ت ١٨٦٠) مع مجموع التقاليد التاريخية عند الكسوزا بقلم و. و. كقوبا (ت ١٨٨٨). ومنذ سنة ١٨٨٤ وجد لسان حال آخر للرأي الافريقي: ابن زيانسوندو (صوت الشعوب السوداء)، وكان رئيس تحريرها لمدة طويلة ت. جباوو (ت ١٩٢١). وقبيل الحرب العالمية الأولى كانت إحدى عشرة صحيفة تصدر باللغات الافريقية، ولكنها لم تكن كلها تدافع عن قضية الافارقة. وكان نيوكي (ت ١٩٢٤) من أعظم شخصيات هذه الفترة. فبعد أن ساهم نشيطاً في حرب الزولوسنة ١٨٧٩، نشر (في الولايات المتحدة) ذكرياته وعددا من الفصول عن الحياة في افريقيا الجنوبية (٥٢). ولم تظهر أولى التواريخ التي كتبها الأفارقة الا في

(٤٩) ن. اسحاق ١٨٣٦ عن. ف. فن. ١٩٥٠.

(٥٠) أ. ت. بريانت ١٩٢٩، انظر أيضاً مصنفه «تاريخ الزولو» وقد نشر أولاً في شكل سلسلة من المقالات سنة ١٩١١ - ١٩١٣ ثم في صورة كتاب بالكاب ١٩٦٤، انظر أيضاً جون برد: حوليات الناطل ١٤٩٥ - ١٨٤٥، مجلدان بيترماريتسبورغ ١٨٨٨.

(٥١) القوانين محفوظة في ريهوبوث وندهورك، نشرت «يومية وبيوي» بالكاب سنة ١٩٢٩.

(٥٢) انظر ل. هـ. طرنز ١٩٥٥.



القرن العشرين (٥٣) مدشنة عصرا جديدا للتدوين التاريخي الافريقي الجنوبي. نعم ان تاريخ هذا الجزء من القارة قد اعتبر طويلا من وجهة نظرة المجموعة البيضاء التي كانت تميل الى معاملة تاريخ الشعوب الافريقية على انه أمر تافه لا قيمة له، والصراع الجاري اليوم في كل ميادين النشاط البشري يتطلب أيضا سلوكا جديدا ازاء المصادر، ويجدر ان ينظر الى كل المواد المكتوبة والشاهدة عليها للكفاح المرن المتصير الذي قاموا به في سبيل حقوقهم، نظرة اعتبار خاص (٥٤).  
والبحث المركز على هذه الشهادات وهذه المواد هو وحده الذي سوف يمكن من كتابه تاريخ حق لافريقيا الجنوبية.

## المصادر الروائية الخارجية

اذا ما كانت الفترة بين القرنين التاسع والخامس عشر تدعى «عصر المصادر العربية» وذلك بسبب سيطرة المواد المكتوبة في هذه اللغة، فان الفترة المدروسة هنا تنطبع بنقصان فجائي في هذا الميدان. وحيث أن أسباب هذا التغير ترتبط بالتطور العام السياسي والثقافي للعالم الاسلامي، فاننا سننظر فيها في محلها في مجلد تابع. ولا يعني ذلك أنه لا وجود لأي مصدر عربي، بل ان عدد المصادر وقيمتها قليلة، الا في حالات استثنائية، ولا سبيل لمقارنته بالفترة السابقة ولا بالمصادر من أصل آخر.

وأثار ليون (أوجان ليون) الافريقي (في الأصل الحسن الوزان الزياتي) ولو أنها كتبت بالايطالية، فانها تنتمي للتقاليد الجغرافية العربية، ثم انه انما شرع في رحلاته عبر السودان الغربي والأوسط في بداية القرن السادس عشر بصفته عربيا مسلما. ولا تخلو هذه الآثار من عيوب جغرافية وتاريخية، ولكنها هي التي أمدت أوربا خلال ما يقرب من ثلاثة قرون بالمعلومات الحق الوحيدة التي كانت فيها عن داخل افريقيا (٥٥).

ومصنفات أحمد بن ماجد عن الملاحه (في بداية القرن السادس عشر)، وهو الربان الذي قاد فاسكو دي جاما من مالندي الى الهند، لها أهمية كبيرة جدا. ومن عديد كتبه عن نظرية الملاحه وتطبيقها، يبقى أهمها هو ذلك الذي يتحدث عن الساحل الشرقي لافريقيا، اذ هو يحتوي علاوة على مادة طوبوغرافية غزيرة وعلى خطط الطرقات البحرية، على آراء قطعية عن البرتغاليين في المحيط الهندي (٥٦).

وفي يومية قلعة عدن التي حررها أبو غرمة (ت ١٥٤٠) (٥٧) نجد عدة تفاصيل طريفة عن

(٥٣) انظر س. ت. بلاتج ١٩١٦ - ١٩٣٠، مولنا ١٩٢٠، سوقا. ج. هـ. بنتو الجنوب شرقي جوهانسبرغ ١٩٣٠ كذلك أما كسوا: الحياة والعادات، جوهانسبرغ ١٩٣٠ ت. ب. سوقا لوفدال ١٩٢٩.

(٥٤) انظر مثلا د. ت. جافو ١٩٢٠ وج. ماهايانا ١٩٢٢.

(٥٥) الطبعة الأولى في رومة ١٥٥٠، وأحسن ترجمة معاصرة هي: جان ليون الافريقي وصف افريقيا ل. أ. إيولارد علق عليه إيولارد و. مونووه. لوط وزموني، مجلدان باريس ١٩٥٦.

(٥٦) شومفسكي: ثلاثة كتب مجهولة للقيادة البحرية لأحمد بن ماجد بقلم أ. بن م. موسكو ١٩٣٧.

(٥٧) أ. لوفجرن: نص عربي من قلعة عدن في القرون الوسطى ٣ مجلدات ليزنغ أيسالا ١٩٣٦ - ١٩٥٠.

أفريقيقا الشرقية وعن الزنج. وتدرس عين المنطقة، يومية أحدث من الأولى هي يومية سليل بن رزيق (ت ١٨٧٣)، عنوانها «تاريخ الأئمة وسيد عمان» وقد أقحم فيها مؤلفاً سابقاً حرره سنة ١٧٢٠ سرحان بن سرحان العماني (٥٨).

ولا يلدنا القرن الثامن عشر بأي مصدر عربي متأخر ذي قيمة عن تاريخ جنوبي الصحراء. ولم تلاحظ بعض النهضة في هذا الميدان إلا في بداية القرن التالي. فيزور التونسي (ت ١٨٥٧) المذكور آنفاً بلاد السودان و يروي قصة اقامته بها في يوميات هي الأولى من نوعها عن هذه المملكة، علاوة على تقريره الجدي عن الدفور (٥٩). وقبل ذلك ببضع عشرات من السنين نقل المغربي عبد السلام الشيباني بعض المعلومات عن تمبكتو وعن منطقة مسينا قبل تسلم السلطة من قبل الدين (٦٠).

وتاريخ امبراطورية سنغاي وسقوطها والتطور اللاحق لوادي النيجر كل ذلك سجل من المؤرخين السودانيين بل أيضاً من قبل المؤرخين المغاربة المذكورين آنفاً. وقد اكتشف أخيراً في الخزانات المغربية عدد من المصادر المجهولة قبلاً، عن العلاقات بين المغرب والسودان، وهي الآن تنتظر من ينشرها ويستغلها من مؤرخي أفريقيا. ولا بد انه يوجد عدد آخر من المواد الثمينة بالعربية أو التركية مشتتة في سائر بلدان أفريقيا الشمالية وفي تركيا لا نعلم عنها حتى الآن إلا القليل. وفي ذلك ما يفتح للمؤرخ آفاقاً مفيدة ويكون من أكثر الأعمال الحاحاً للمستقبل المباشر، أن يتم ضبط مواطن هذه المصادر والتعليق عليها وترجمتها.

والمواد في سائر اللغات الشرقية أقل منها في العربية، ولا يعني ذلك طبعاً انه ليس في الامكان أن نعثر على مواد مجهولة تتفاوت قيمتها مثلاً في الفارسية أو في بعض لغات الهند. و يبقى حتى الآن المصدر الأساسي متمثلاً في الرحالة التركي أوليا شلي الذي زار مصر وبعض مناطق السودان واثيوبيا، ولكن معرفته لمناطق أخرى من أفريقيا كانت معرفة غير مباشرة (٦١). وكذلك الأمر بالنسبة الى مواطنه أمير البحر سيدي علي الذي نسخ عن العربية وترجم أجزاء من مصنف ابن ماجد عن المحيط الهندي، في كتابه «المحيط» مضيفاً اليه بعض الجزئيات لا غير (٦٢). وفي بداية القرن التاسع عشر زار أديب أذربيجاني هوزين العابدين الشرواني بلاد الصومال واثيوبيا والسودان الشرقي والمغرب ووصف أسفاره في كتاب عنوانه «بستان السباحة» (٦٣)، ويبدو أنه كان ثمة اهتمام كبير بأفريقيا وخاصة اثيوبيا من قبل بلدان ما وراء القوقاز ولا سيما الاهالي الأرمن. ففي نهاية القرن السابع عشر شرع قسيسان أرمنيان استقفا كاتور طمبوك وأفاتيكا بقداسريان في رحلة عبر أفريقيا انطلاقاً من اثيوبيا ومروراً بالنوبة والدفور وبحيرة تشاد وبلاد التكرور حتى المغرب

(٥٨) ترجمة ج. ب. بدجر، لندن ١٨٧١.

(٥٩) رحلة الى كوادي. ترجمة الدكتور برون باريس ١٨٥١.

(٦٠) نشر ج. ج. ج. كنسن: خبر عن تمبكتو وهوسا، من الأراضي الداخلية الافريقية، لندن ١٨٢٠ (أعيد طبعه ١٩٦٧).

(٦١) أوليا شلي: سياحت نامه، اسطنبول ١٩٣٨.

(٦٢) م. بنتر ١٨٩٧.

(٦٣) أنظر م. خانتهوف في «كشكول آسيوي» سان بترسبرغ ١٨٥٩، والأجزاء الخاصة بأفريقيا الشرقية بصدد الأعداد لترجمتها من قبل ف. ب. سمرنوف في ليننغراد.

الاقصنى. وأبقى ثانيهما وصفا لرحلتها (٦٤). وفي عام ١٨٢١ اخترق واركا الارمني الاسترخاني الصحراء منطلقا من الشمال، وزار طمبكتو وبلغ ساحل الذهب حيث حرر بالانكليزية وصفا مختصرا مليئا بالمعلومات المفيدة عن رحلته (٦٥). وتوجد مواد أخرى بالارمنية والجيورجانية عن افريقيا بخزانات هذه الجمهوريات السوفياتية ومخطوطات وثائقها (٦٦).

## في اللغات الاوربية

ان ضخامة الأدب الاوربي عن افريقيا المدارية منذ بداية القرن السادس عشر تجعل من المتعذر حتى تعداد أهم الآثار أو المؤلفين. فيكفي لفائدة هذا الفصل، أن يؤخذ هذا الأدب كمصدر لتاريخ افريقيا وأن يدرس طابعه العام. وهذا أفضل من الرجوع الى قائمة لا نهاية لها من الاسماء والعناوين. و يبقى ما طرأ على الحدود الجغرافية من تغيرات معلوما: ففي بداية القرن السادس عشر كان الساحل بأكمله من السنغال الى رأس كادرفوي معروفا من قبل البرتغاليين، ولكنهم، في نهاية القرن نفسه، لم يتوغلوا حقا داخل البلاد إلا في الكنگو القديم وانقولا وعلى امتداد نهر الزمبار. ولم يضاف القرنان التاليان شيئا الى معلومات الاوربيين، فكانت ثمة محاولات من حين الى آخر لاختراق الصحراء، واستتبت اتصالات أوثق على طول السنغال وقبياء، وسافر رحالة من الزمبار الى كلوا متوقفا على بحيرة ملوي. والأخبار عن أهالي السواحل، ولا سيما أهالي افريقيا الغربية قد أصبحت مفصلة متنوعة. ولم يشرع في الرحلات الاستكشافية المنظمة عبر افريقيا الا في نهاية القرن الثامن عشر، وانتهت بتقسيم القارة بين الدول الاستعمارية.

وأما من جهة التمثيل القومي فيمكن أن يقال أن القرن السادس عشر هو أساسا قرن البرتغاليين، والقرن السابع عشر للهولنديين والفرنسيين والانكليز. والقرن الثامن عشر، انكليزي وفرنسي على الخصوص، والقرن التاسع عشر انكليزي الماني فرنسي، وبالطبع فان سائر البلدان الاوربية كان ممثلا خلال هذه القرون المختلفة، مثلا الايطاليون في الكنگو في القرن الثامن عشر وفي السودان الشرقي في القرن التاسع عشر، والدانمركيون على ساحل العبيد وعلى ساحل الذهب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومن بين مؤلفي الرحلات والأوصاف (لكن بصفة خاصة في القرن الأخير)، نجد من ينتمون الى اسبانيا وروسيا وبلجيكا والمجر والسويد والنرويج وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا وسويسرة والولايات المتحدة والبرازيل، ونجد فيهم أحيانا حتى اليوناني والروماني والمالطي. ومن حسن الحظ أن ترجم معظم الكتب في لغات قليل من يعرضها الى لغة أو عدة لغات من أكثر اللغات انتشارا.

(٦٤) ج. خالتيانك، ارمينانسكيف بامياتنيك ١٧ (مذكرة أرمنية من القرن السابع عشر عن جغرافية اثيوبيا وافريقيا الشمالية بصفة عامة) ضمن زملنديا مجلد ١ - ٢ موسكو ١٨٩٩.

(٦٥) انظر فيليب د. كرتين (مدير النشر): ذكرى افريقيا، مديس ١٩٦٧ (ص ١٧٠ - ١٨٩). ولكس «واركي استرخان» انظر أيضا أولدروج (استرخان في طمبكتوسنة ١٨٢١ افر يقانا ٨ ليننغراد ١٩٧١).

(٦٦) بصدد النشر من قبل معهد الدراسات الشرقية بالجمهورية الروسية الاشتراكية السوفياتية بارمينيا، إريوان، مجموعة من الوثائق المتعلقة بالعلاقات الاثيوبية الارمنية من العصور الحالية الى القرن التاسع عشر.

وكي نقوم المواد الاوربية ينبغي أن لا نعتبر جنسية المؤلف فحسب بل، وعلى الخصوص، تغير موقف الاوربيين ازاء الافارقة ومجتمعاتهم بصفة عامة. فقد يكون في الامكان أن نبسط الأمر بقولنا ان الكتاب البرتغاليين كانوا أميل الى النظر الى الشعوب التي يصفونها من زاوية الآراء المسبقة المسيحية، أكثر مما كان عليه الانكليز مثلاً، أو ان الهولنديين كانوا أقدر على الملاحظات الموضوعية من كتاب سائر البلدان. وبالطبع ان هناك فرقاً بين صاحب اليوميات البرتغالي في القرن السادس عشر وقد اتصلت طريقته بالقيم الوسيطة، وبين العالم الفيزيائي الهولندي في نهاية القرن السابع عشر، وهو حصيلته ثقافة مرتكزة أكثر على العقل. وما لدينا من مواد متعددة متنوعة لا يسمح لنا بالتعميم السريع، ولا يمكن أن نصل الى حكم قطعي الا بعد تحليل كل أثر على حدة حسب مزاياه، معتبرين بالطبع، تاريخه وموضوعه. كما ينبغي أن نتجنب الاعتقاد أننا لاحظنا تحسناً مستمراً في موضوعية الأخبار مع تقدم الزمن، واننا كلما اقتربنا من العصر الحاضر. أصبحت ملاحظات الواقع الافرقي ملاحظات علمية، وهذا يؤول الى الاعتقاد مسبقاً أن خبر رحالة من القرن التاسع عشر، له بطبيعة الحال قيمة أكثر من خبر كتب منذ ثلاثمائة سنة. فبرتن وستانلي باعتبارهما ملاحظين، كانا أسيرى فكرة قدمت على أنها علمية موثوقة، وهي فكرة تفوق الجنس الابيض، كما كان المؤلفون البرتغاليون أسرى للتفوق المزعوم الذي كان لعقيدتهم المسيحية، وبصفة عامة ان عصر نخاسة السود لم يكن يلائم المعلومات الموضوعية عن الأفارقة.

ولكن ضرورات النخاسة العملية كانت تتطلب دراسة فطنة لنشاطهم الاقتصادي ونظم حكمهم، بحيث انه توفرت لنا، حتى منذ ذلك العهد سلسلة من المصادر النفيسة جداً. لقد حرر الكتابات عن افريقيا والأفارقة مبشرون وتجار وموظفون وضباط جيش البر أو البحر، وقناصل ومستكشفون ورحالة ومستعمرون وأحياناً مغامرون وأسرى الحرب. ولكل منهم مصلحة خاصة بحيث اختلفت أهدافهم وطرقهم اختلافاً عظيماً، «فالرحلات» كانت انموذجاً لغرض أدبي معين اذ كانت تهتم بعالم مجهول غريب طريف، وكانت ترمي الى ارضاء ما يتطلبه قراؤها بصفة عامة. واستمر هذا التدفق للغرابية والمغامرة تحليه آراء تتفاوت أوهامها وخرافاتها عن الشعوب الافرريقية، أو أوصاف مجاملة لعديد الأخطار التي لاقاها السائح البطل، وبقي الأمر مستمراً حتى القرن التاسع عشر (٦٧). وحاول المبشرون القدامى أو من كان منهم أقرب منا أن يفهموا الديانات الافرريقية، ولكنهم في معظمهم كان يعوزهم التكون وحسن الاستعداد اللازمان لادراكها حقاً، فتقيدوا خاصة بعرض «أخطائنا» و«وحشيتنا» على أنهم بالعكس كانوا في حاجة الى معرفة اللغات المحلية، وهذا كان يمكن أن يكونوا في وضع أحسن من غيرهم لادراك الاطار الاجتماعي، بيد أنهم أبدوا أحياناً اهتماماً بالتاريخ، وأخذوا في جمع الروايات الشفهية المحلية.

وفي القرن التاسع عشر كان جل الادب القصصي يصدر عن المستكشفين، فكانوا يهتمون بحل المشاكل الجغرافية العظمى، حسب هواية العصر، بحث غنمت من مساهمتهم الجغرافيا الطبيعية أكثر من معرفة المجتمع الافرقي، وكان معظمهم يعني بالطرق الصالحة للملاحة أكثر عناية بطرق

البثقافة (٦٨) وكان العديد منهم من الطبيعيين، فأعوزتهم حاسة التاريخ أو هم كانوا يعتقدون خرافة انعدام التاريخ الافريقي، وبالطبع ان لهذه القاعدة شواذ أشهرها شذوذ هينريش بارت. وظهرت بالعكس، منذ القرن الثامن عشر، بعض التواريخ الخاصة بشعوب أو بدول افريقية، كتاريخ الداهامي لارشيبا لدزل (لندن ١٧٩٣) الذي يبدو بعد تمحيصه في صورة كتيب مضاد لمنع النخاسة.

بعد أن عرضنا بعض عيوب المصادر القصصية الأوبية، لننظر الآن في جوانبها الايجابية، فهي توفر لنا قبل كل شيء الاطار الزمني الذي نحن في حاجة أكيدة اليه فيما يخص تاريخ افريقيا، حيث ضبط الزمن المؤرخ به هو نقطة الضعف في التراث المنقول. فالتاريخ الوحيد الذي ينص عليه رحالة أو مؤلف من نوع آخر، كتاريخ علاقاته بشخصية افريقية، قد يكون المنطلق لتاريخ كامل لشعب أو حتى لعدد من الشعوب. ولا يعني ذلك أن كل التواريخ صحيحة حتماً لكونها مسجلة بالكتابة، ففي بعض الأحوال قد أخطأ المؤلفون الاوروبيون أخطاء تتفاوت خطورة عند نقلهم أخباراً مبنية على «يقال»، أو عند محاولتهم أن يحسبوا فترة زمنية بناء على مصادر لا يمكن مراقبتها. على أن الاوربيين بصفة عامة كان لديهم قياس للزمان متقدماً تقنياً.

ان الأدب القصصي كبير الأهمية كمصدر للتاريخ الاقتصادي: فسالك التجارة وأهم الأسواق، والبضائع والأسعار، والفلاحة والصناعة، والمواد الطبيعية، كل ذلك كان في الامكان أن يشاهد وأن يوصف بدون تحيز، وقد تم ذلك فعلاً. فكان الاوروبيون محتاجين في هذا الشأن، لصالحهم الخاص، الى تقييدات أقرب ما تكون الى الموضوعية. نعم ان الموارد الطبيعية أو الامكانيات الاقتصادية في بعض الجهات قد صورت بألوان براقة مضخمة للمبالغة في فضائل المكتشف، ولكن المؤرخ قد تعود على هذا الضرب من المبالغة وهو يحسب له حسابه.

ان أهم ما نجح فيه الاوروبيون هو ملاحظة المظاهر الخارجية في المجتمعات الافريقية وهوما يسمى «بالعرف والعادات»، فتشتمل الوثائق على أوصاف مدققة رائعة للغاية، لحفلات مختلفة وللملابس والتصرفات والخطط والأساليب الحربية وطرق تنفيذها وتقنيات الانتاج الخ. ولو أن هذه الأوصاف تتبع أحياناً بنوع من نوع «وحشي» «بدائي» «أخرق» «تافه» أو ما شابهها من الفاظ الاستهجان التي لا معنى لها سوى أنها حكم تابع لعادات الملاحظ الثقافية. وأما الأمر الأخطر فهو الانعدام التام لتفهم البنية الداخلية للمجتمعات الافريقية، والشبكة المتشعبة للعلاقات الاجتماعية، وتفرع الالتزامات المشتركة، والعلل العميقة لبعض التصرفات. وباختصار ان هؤلاء المؤلفين لم يكن في مقدورهم أن يكتشفوا العلل العميقة لأنواع النشاط الافريقي.

ومع ذلك فان تدوين التاريخ الافريقي قد يكون شبه مستحيل بدون المواد التي توفرها لنا المصادر الروائية الاوربية، وقد يكون لها عيوبها، وقد تغفل عن عدد من التفاصيل، أو قد تعالجها باحتقار وبتحيز، أو قد تفسرها تفسيراً خاطئاً، ولكن لا بد من مجازفات عادية يتضمنها كل عمل للتدوين التاريخي. فلا موجب اذن لرفض هذا المجموع الضخم الكبير الأهمية من الأخبار. بل أنه

من الضروري أن يعاد طبع أكثر ما يمكن من الروايات من هذا النوع، وإن تنشر بشروح وتعليقات لاثقة حتى نتمكن من تقويمها ومن إعادة تفسيرها على ضوء التدوين الجديد للتاريخ الإفريقي.

## المصادر الروائية الداخلية

في الفترة المدروسة هذه، نشاهد ظاهرة جديدة لها عظيم النتائج وهي ظهور أدب تاريخي مكتوب من قبل أفارقة جنوبي الصحراء، وانتشار هذا الأدب.

لم تكن وسيلة التعبير حتى ذلك الوقت لغة إفريقية محلية، بل كانت في البدء اللغة العربية، ودورها في العالم الإسلامي بمثابة دور اللاتينية في أوروبا في القرون الوسطى، أي سبيل الاتصال بين شعوب مثقفة. ثم ظهرت فيما بعد بعض اللغات الأوربية.

و يبدو أن عادة التدوين التاريخي قد بدأت في آن واحد في المنطقة السودانية وعلى الساحل الشرقي الإفريقي، أي بالضبط في الجهتين الكبيرتين التي غطتها حتى ذلك الوقت المصادر العربية الخارجية، والتي أثر فيها الإسلام تأثيراً طويلاً المدى. وأقدم التواريخ الموجودة ترجع إلى بداية القرن السادس عشر، ولكنها تذكر بصيغة الماضي أحداث فترات أقدم. فالأول «تاريخ الفتاش» من تحرير ثلاثة أجيال من أسرة القيطي من جنه، وهو يغطي تاريخ السنغاي والبلدان المجاورة حتى الفتح المغربي سنة ١٥٩١. «وتاريخ السودان» هو أضخم وأغنى بالتفاصيل، ولقد قام بتحريره المؤرخ التمبكتي السعدي، وهو يشمل جزئياً عين الفترة، ولكنه يستمر حتى سنة ١٦٥٥. وكلا المؤلفين من عمل أدباء طرفاء يتسع اهتمامهم إلى ميدان فسيح ولهم دراية معمقة بالأحداث المعاصرة. والأهم هو أننا لأول مرة نستمع إلى صوت أفارقة أصليين، ولأن المؤلفين يتحيزون إلى الإسلام، وينظرون إلى الأمور من وجهة النظر هذه. وفي القرن الثامن عشر يبدأ تاريخ مجهول المؤلف ولكنه مفصل جداً للنبشوات المغاربة في تمبكتو من ١٥٩١ إلى ١٧٥١. وفيه أيضاً مواد مفيدة عن البلدان والشعوب المجاورة (٦٩).

ولدينا ضرب آخر من المصادر في معجم التراجم لأدباء السودان الغربي حرره العالم الشهير أحمد بابا التمبكتي (ت سنة ١٦٢٧) (٧٠)، وإلى عين الجهة من إمبراطورية سنغاي ينتسب «تاريخ ساي» وهو يومية عربية لابن إدور كتبها على ما قيل سنة ١٤١٠، فإن ثبتت صحته سيكون هذا الكتاب أقدم وثيقة موجودة مكتوبة عن إفريقيا الغربية، ولكنه يبدو أنه من الأرجح أن يكون نسخة مؤرخة من رواية شفاهية (٧١).

ومن تمبكتو ومن جنه انتشرت عادة تحرير اليوميات إلى جهات أخرى، ولا سيما نحو الجنوب والغرب في المنطقة الكائنة بين الساحل والغابة المدارية، وأحياناً بتوغل أكثر نحو الجنوب. وشرع

(٦٩) «تاريخ الفتاش» ترجمه وعلق عليه أ. هوداس و م. دولافوس، باريس ١٩١٣ (أعيد طبعه سنة ١٩٦٤، تاريخ السودان «ترجمه وعلق عليه» أ. هوداس باريس ١٩٠٠ (أعيد طبعه سنة ١٩٦٤، «تذكرة النسيان» ترجمه وعلق عليه أ. هوداس باريس ١٨٩٩ (أعيد طبعه سنة ١٩٦٤).

(٧٠) نشر بفاس سنة ١٨٩٩ وبالقاهرة سنة ١٩١٢.

(٧١) انظر فنانس متال بيفان ٢٨، ١٩٦٦، ص ٦٧٥.

الأدباء المسلمون منذ منتصف القرن الثامن عشر أو قبله، في كتابة التواريخ المحلية وانساب القبائل والتراجم المختصرة والرسائل الدينية. وأبرز مثال لذلك «كتاب الغنجة» المكتوب بعد سنة ١٧٥٢. وهوتاريخ مملكة الغنجة ويستند جزئيا الى الروايات الشفاهية (٧٢).

وهناك عدد كبير من اليوميات الأقل أهمية، ومن المؤمل أن يعثر على مصادر مشابهة في أجزاء أخرى من هذه الجهة، تحت نفوذ مجموعات ديولا أو الهوسا أو كليهما. ومعظم هذه الآثار مكتوبة بالعربية. كما حرر عدد من اليوميات بلغات العجمي أي لغات جنوب الصحراء المكتوبة بالحروف العربية (٧٣).

والحالة عينها في الجهات الناطقة بالفلوذية، ولا سيما في الفوطاطورو والفوطاد جالون، ففي غينيا وفي الخزانات بداركار أو بباريس، يوجد عدد من اليوميات المحلية محرر بالعربية أو الفلوذية (أو كليهما) ومعظمها مؤرخ بالقرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ولم تنشر مواد الفوطاد جالون الا مؤخرا، واستغلت في مؤلفات علمية. ولنذكر في هذا الشأن مجموعة جلبرت فيايارد في ايفان (المعهد الفرنسي لافريقيا السوداء) بداركار. على أن الوضع في فوطاطورو أحسن، وقد جعلت «يوميات فوطا السنغالية» لسيري عباس صوح، من القرن الثامن عشر، في متناول الباحث منذ خمسين سنة (٧٤) وأثر آخر قديم وهو معجم تراجم لمحمد البرطاييلي بعنوان «فتح الشكور» (حوالي ١٨٠٥) هو الآن، بصدد الاعداد من قبل جون هويك قصد نشره. وهناك تاريخ معاصر لفوطاطورو كتب سنة ١٩٢١ بقلم الشيخ كمرا موسى الكانكالي، عنوانه «زهور البساتين» وهو لم ينشر بعد (٧٥).

والنيجييريا الشمالية يمكن اعتباره أيضا بلدا لم تظهر فيه التواريخ وسائر المصادر العربية الا في وقت متأخر نسبيا. فترك لنا الإمام ابن فرتوة (نهاية القرن السادس عشر) وصفا مفصلا ممتعا لحياة ماي ادريس وعصره وحروبه (٧٦). وقرىبا منا نجد مختلف القوائم لقواد برنو و يوميات لهذا البلد. ويمثل المحارم مصدرا مهما جدا (٧٧). وهي رسوم امتيازات يمنحها الرؤساء لأسر الأعيان من رجال الدين، وهي تمكن من معرفة الظروف الاقتصادية والاشتراكية.

وفي بلاد الهوسا لا يوجد شيء يذكر من المواد التاريخية السابقة للجهد، ولو أن مستوى التعليم ولا سيما لدى (رؤساء الدين الفلاتيين) كان مرتفعا جاد نسبيا (٧٨) ولكن بعض القصائد بلغة الهوسا أو الكنوري (برنو) تتضمن شروحا للأحداث المعاصرة (٧٩).

(٧٢) انظر في هذا الشأن وعن مواد أخرى افورولكس ١٩٦٣، ث. هودكين ١٩٦٦، ٤٤٢ - ٤٥٩.

(٧٣) أ. ا. شو ١٩٦٨، طيرنوديالو ١٩٦٨.

(٧٤) أ. سوترجه م. دولافوس وه. كاهان، باريس ١٩١٣.

(٧٥) محفوظ بخزانة ايفان (المعهد الفرنسي لافريقيا السوداء) انظر ف. مؤتال ١٩٦٥ ص ٥٤٠.

(٧٦) نشره ه. ر. بلمر، ١٩٣٠، ترجم ضمن «مذكرات سودانية» لاقوس ١٩٢٨ وفي «تاريخ العشرين السنة الاولى لماي ادريس الوما» لاقوس ١٩٢٩.

(٧٧) جمعه ه. ر. بلمر في «مذكرات سودانية» المجلد ٣، لاقوس، ١٩٢٨ وفي كتابه «البربو»، الصحراء، السودان. لندن ١٩٣٦.

انظر أيضا ي. اورفوا «أخبار بورنو» جون جمعية الافريقيين ٢ - ١٩٤١.

(٧٨) م. هسكت ١٩٥٧، ٥٥، ٥٧٨، أ. د. ه. بيفاروم. هسكت ١٩٦٢، ١٠٤ - ١٤٨.

(٧٩) انظر ج. ر. برتسن ١٩٢٦.

وشاهدت بداية القرن التاسع عشر ظهور نهضة حقيقية للأدب العربي في السودان الأوسط والغربي، وعلاوة على المؤلفات باللغة العربية، فكان ثمة عدد متزايد من الكتب تحرر في اللغات المحلية كالهوسا والفللودية والكنوري والمندرا والكوطوكو، إلخ.. بحروف عربية.. وأخصب الكتاب كانوا رؤساء (الجهاد الفلاني) في نيجيريا الشمالية، ولو أن معظم انتاجهم الأدبي يعالج قضايا دينية وإن عددا قليلا منها فحسب يمكن اعتباره توار يخ حقا (٨٠). وكل هذا الانتاج الأدبي سواء بالعربية أو باحدى اللغات المحلية، يعين في الحصول على فكرة أشد تنسيقا عن الحياة الاجتماعية والفكرية في هذه الجهة. ومع أن يوميات مدن الهوسا (كانو، كتسينا، أبوجا، إلخ) لا تراجع الا الى نهاية القرن التاسع عشر، فهي الى حد ما تستند الى وثائق أقدم أو الى روايات شفاهية (٨١). وطراً تطور مماثل جهة الشرق في الباقيمي والكوتوكو والمندرا والوداي. وقد نشرت فيما بعد بعض اليوميات أو قوائم الملوك، ولكن الكثير منها مازال مخطوطا، ومن المؤمل أن يعثر على غيرها ضمن المجموعات الخاصة (٨٢).

وتوجد يومية مسجعة في اللغة الفللودية تصف حياة المصلح العظيم التكروري الحاج عمر (٨٣) ونشاطه — وهو نفسه مؤلف الكتاب الديني «رماع حزب الرحيم» وفيه عدد من التلميحات التاريخية الى ظروف العيش في السودان الغربي (٨٤).

ويمكن للساحل الشرقي الافريقي أن يقارن بالسودان فيما يخص عدد يومياته. فلعدد من المدن يومياتها المكتوبة بالعربية أو السواحلية بحروف عربية تعرض فيها قوائم الملوك وأخبار الحياة السياسية ومن بينها واحدة.. لا غير قديمة حقا، يومية كلوا، وقد تم تحريرها حوالي سنة ١٥٣٠ ولنا منها روايتان مختلفتان، روى احدها دي باروس ونسخت الأخرى في زنجبار سنة ١٨٧٧ (٨٥). وأما معظم اليوميات الأخرى فلم تحرر الا مؤخرا، وبعضها يرجع الى ما وراء النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ويتركز عدد منها على الأحداث قبيل مجيء البرتغاليين. فهي إذن الى حد ما تسجيل لروايات شفاهية، وينبغي أن تعالج وتقوم على هذا الأساس (٨٦) ومازال عدد كبير من

(٨٠) محمد بلو «اتفاق المسور» نشره س. أ. ج. وتينغ، لندن ١٩٥١، ترجمة انكليزية مع شرح قسم الهوسا بقلم أ. ج. ارنت: «ظهور السوكوتو الفلانيين» كانوا ١٩٢٢، عبد الله دان فوديو: تزيين البوقات، ترجمة وتعليق بقلم: ه. هسكت، لندن ١٩٦٣، حاجي سعيد: تاريخ سوكوتو ترجمة س. أ. ج. وتينغ، كانوبدون تاريخ وهناك ايضا ترجمة فرنسية أ. هوداس ضمن «ذخيرة النسيان» باريس ١٨٩٩.

(٨١) يومية كانو: ترجمة ه. ر. بلمر ضمن «مذكرات سودانية ٣»، عن كتسينا انظر المصدر المذكور ص ٧٤، ٩١، عن ابوجا انظر معلم حسن وشيبيو: يومية ابوجا، نقلا عن الهوسا بقلم ب. ل. هيث إبادان ١٩٥٢.

(٨٢) انظر بلمر ١٩٢٨ وعدة مصنفات لـ ج. ب. لوبوف وم. رودنسن ضمن «دراسات كامرونية» ١٩٣٨، ١٩٥١، ١٩٥٥، وبيفان (مجلة المعهد الفرنسي لافريقيا السوداء) ١٩٥٢، ١٩٥٦، م. أ. طوبيانا عن الوداي ضمن «كراريس الدراسات الافريقية» ٢، ١٩٦٠.

(٨٣) م. أ. ريام: حياة الحاج عمر — قصيدة بلغة البولار، ترجمها ه. كاهن باريس ١٩٣٥.

(٨٤) كتاب رماع حزب الرحيم، القاهرة ١٩٢٧، و ي. د. ج. ر. و. يليس طبعة جديدة وترجمة له.

(٨٥) حللها ج. د. س. فرمان جرنيفيل: التاريخ الوسيط لساحل طنجانيك، أكسفورد ١٩٦٢.

(٨٦) عن اليوميات العربية والسواحلية عامة انظر فرمان جرنيفيل ١٩٦٢، أ. ه. ج. برينس ١٩٥٨، ج. ر. ط. ألسن، ١٩٥٩.



المخطوطات ضمن المجموعات الفردية الخاصة، فاكشف منذ سنة ١٩٣٥ أكثر من ٣٠.٠٠٠ صفحة مخطوطة سواحلية (وأىضا عربية). ومن المؤمل بعد التنقيب المدقق على كل الساحل ان توجد مواد من شأنها أن تنير عددا من الجوانب التي مازالت مجهولة من تاريخ الشرقى الافريقى (٨٧). على أن المؤرخين في وسعهم أن يستثمروا اليوميات بل وغيرها من الأصناف الأدبية، كالشعر السواحلي مثلا، ولا سيما قصيدة «الانكشافى» (وقد نظمت خلال العشرية الثانية من القرن التاسع عشر) وهي تصف صعود باتي (٨٨) وانحطاطه.

ولم يظهر الانتاج الأدبى الافريقى باللغات الاوربية الا قرنين بعد الانتاج بالعربية، وكانت النماذج الأولى — كما هو متوقع — صادرة عن سكان الساحل الغربى، حيث كانت الاتصالات مع العالم الخارجى أكثر منها عند غيرهم.

ولو أنه يجدر أن نحفظ أساء جاكوبس كيتان (١٧١٧ — ١٧٤٧) وأ. ويليام أمو (المولود حوالي ١٧٠٣، ت حوالي ١٧٥٣) وفيليب كواك (١٧٤١ — ١٨١٣)، وثلاثتهم من أصل فنطى، كالرواد الاولين للأدب الافريقى باللغات الاوربية، فإن مساهمتهم في تدوين التاريخ الافريقى ضئيلة جدا. وبالعكس ان مؤلفات العبيد المعتقين في النصف الثانى من القرن الثامن، لا نظير لها من حيث القيمة كمصادر تاريخية، ومنها مؤلفات انياتوس سنشو (١٧٢٩ — ١٧٨٠) وأطوية كوقوانو (حوالي ١٧٤٥ - ١٨٠٠) وألودوه أكويانو قسطافوس فاسا (حوالي ١٧٤٥ - ١٧٨٠). وعنى ثلاثتهم أساسا بمنع نخاسة السود، فكانت كتبهم جدالية، ولكنها في آن واحد تمدنا بالكثير من مواد التراجم الذاتية عن وضع الأفارقة في افريقيا كما في أوربا (٨٩). وإلى هذا العهد ترجع وثيقة وحيدة فريدة، يومية انتبرا ديوك، من أهم تجار كالا بار، وكتبت بلغة «بدجن الانكليزية» المحلية وغطت مدة طويلة، وهذه اليومية مع قصرها تلقي أضواء ساطعة على الحياة اليومية في ميناء من أهم موانئ تجارة العبيد السود (٩٠).

وعن مدغشقر لدينا نوع من اليومية سجلها الملك العظيم المرينا، رداما الأول (١٨١٠ - ١٨٢٨) بحروف عربية. وحوالي ١٨٥٠ حرر اثنان من أعيان المرينا وهما راوميانا ورهانيرا كأخبارا بحروف لاتينية تعين على استعادة بناء الصورة الكاملة للحياة اليومية عند المرينا في القرن التاسع عشر (٩١).

وخلال القرن التاسع عشر ساهم عدد من الأفارقة أو الافروأمريكيين في رحلات الاستكشاف، ونشروا تأملاتهم عن الحياة الافريقية تتخللها أحيانا جدالات ذات صبغة عامة.

(٨٧) أهم اكتشاف من هذا النوع في السنوات الأخيرة «كتاب الزنج» الذي يمالج تاريخ بلد الصومال الجنوبي وكينيا الشمالية، انظر شرثي ١٩٥٧.

(٨٨) انظر هريس، ١٩٦٢.

(٨٩) انياتوس سنشو ١٧٨١، اطوبه ١٧٨٧، القصة الممتعة لحياة الودوه اكويانو أو قستافوس. فاسا الافريقى، لندن (١٧٩٨).

(٩٠) داريل فورد ١٩٥٦. اتلف المخطوط الاصلى أثناء الرمي بالقنابل في ايقوسيا أثناء الحرب الأخيرة، ولكن ثمة نصوص تتعلق بالفترة ١٧٨٥ - ١٧٨٧ كانت محفوظة بشكل نسخ.

(٩١) هـ. برتسي ١٩٣٣، مخطوطة راوميانا وراهانريكاء، نشرة الأكاديمية للغة الشاشية ١٩، ١٩٣٧ ص ٤٩ - ٧٦.

فساهم صموئيل كروثر من يوروبا — قد واصل دراساته في سيراليون وفي بريطانيا — في استكشافات النيجر سنة ١٨٤١ و ١٨٥٣. وترك لنا أوصافاً عن هذه الرحلات (٩٢).

وانتقل طوماس ب. فريمان، المولود بانكلترا من أصل هجين، انتقالات كثيرة في أفريقيا الغربية، ووصف شعوب ساحلها وداخل ترابها وصف تعاطف ملهم (٩٣). وسافر أميركيان من أصل أفريقي هما، روبرت كمبل ومرتان ر. دولاني إلى نيجيريا في السنوات ١٩٥٠ للبحث عن منطقة من شأنها أن تليق بمستعمرة محتلة من الأفرو — أميركين (٩٤)، ووصف مواطن من ليبيريا هو بنيامين أندرسن، بكثير من التفاصيل ملاحظات مدققة لاحظها أثناء رحلته في وادي النيجر الأعلى (٩٥). ومن الواجب أن يصنف زعيمان أفريقيان عظيمان هما، ادوارد و. بليدن وجامس أفريقانسن هرطن، في صنف على حدة. فبعض كتب بليدن وبعض مقالاته تمثل في حد ذاتها مصدراً تاريخياً، ويكتسي البعض الآخر صبغة التفسير التاريخي. ولكنها كلها لازمة للبحث عن ظهور الوعي الأفريقي (٩٦) وكذلك الشأن بالنسبة إلى آثار هرطن، مع وجود فرق وهو أنه كان أميل إلى الملاحظات الدقيقة للمجتمعات التي اتصل بها اتصالاً وثيقاً جداً (٩٧).

وتكوّن هاتان الشخصيتان مرحلة انتقال مع مجموعة الأفارقة الذين شرعوا في كتابة تاريخ بلدهم أو شعوبهم. وثمة محاولة أولى تمت، ولكن مع التأكيد على الانتوغرافيا، قام بها الراهب بولات وهو مولد سان لوي، ضمن كتابه «نظرات سنغالية مجملّة» (٩٨) فيلاحظ لديه اهتمام أكبر بتدوين التاريخ، يتسند أساساً على الروايات الشفهية، وذلك في أجزاء القارة الخاضعة للهيمنة البريطانية، ولكن في نهاية القرن التاسع عشر فقط. ونشر ج. س. ريندوف سنة ١٨٩٥ ببال كتابه «تاريخ ساحل الذهب والا سنتي» ويعتبر هذا المؤلف أول مؤرخ عصري من أصل أفريقي. وبدأت به وبصموئيل جونسن — ويعاصر كتابه «تاريخ اليوروبا» كتاب ريندوف، إلا أنه لم ينشر إلا سنة ١٩٢١ — بدأت بهما سلسلة غير منقطعة من مؤرخين أفارقة، هاوين في البداية (ومعظمهم مبشرون) ثم محترفين. وعولجت آراؤهم ومؤلفاتهم في الفصل المخصص لتطور التدوين التاريخي الأفريقي.

وكل هذه المصادر الروائية المكتوبة بالعربية أو بعدة لغات أفريقية وأوربية، هي مجموعة من المواد التاريخية فسيحة ثرية. وهي بالطبع لا تعطي كل أوجه السير التاريخي، ولها طابع جهوي فلا تمدنا أحياناً إلا بصورة جزئية. وما كتب منها من قبل كتاب مسلمين، كثيراً ما تبدي تحيزاً واضحاً يظهر في الكيفية التي يعالجون بها المجتمعات غير المسلمة. وأما غيرهم من مؤلفي المصادر الروائية في اللغات الأوروبية، فكانوا في آن واحد جدليين مكافحين ضد نخاسة السود، أو في سبيل المساواة. وبذلك قد كانوا ينجحون إلى التحيز. ولكن تلك عيوب طبيعية في كل المصادر السردية. وحتى لو أننا

(٩٢) انظر يوميات الأفضل ج. ج. شون وم. كروثر، لندن ١٨٤٢، صموئيل كروثر ١٨٥٥.

(٩٣) طوماس ب. فريمان ١٨٤٤.

(٩٤) روبرت كمبل ١٨٦١، مرتان ر. دولاني ١٨٦١.

(٩٥) بنيمين أندرسن ١٨٧٠.

(٩٦) عن بليدن، انظر هليس ر. لنش ١٩٦٧.

(٩٧) ج. أ. ب هستن ١٨٦٨، رسائل عن الظروف السياسية في ساحل الذهب، لندن ١٨٧٠.

(٩٨) باريس، ١٨٣٣.

كنا شاعرين بذلك، فإن هذه الوثائق تتقدم لنا بمزية حاسمة: هي أصوات أفارقة يصورون لنا المتقلب الثاني من التاريخ، ذلك الذي غمرته أمواج الآراء الأجنبية.

## مصادر خزائن الوثائق الخاصة، والتقارير السرية وغيرها من الشهادات

نعني بمصادر خاصة: أساسا، الوثائق المكتوبة الناتجة عن حاجة التسجيل لمختلف أنواع النشاط البشري التي لم تكن في البداية موجهة للجمهور الكبير، بل لجمع صغير من الأشخاص الذين يهمهم الأمر فقط، فهي تشتمل خاصة على المراسلة الرسمية أو الخاصة، والتقارير السرية، وعروض مختلف المعاملات والسجلات التجارية والإحصائيات والوثائق الخاصة باختلاف أنواعها، والمعاهدات والاتفاقيات، ويوميات السفن الخ. وهذه المواد هي حقا المادة الخام للمؤرخ الباحث، إذ هي تمدّه، خلافا للمصادر الروائية المنشأة لغرض معين، بشهادة موضوعية خالية مبدئيا من كل قصد خفي، موجهة لجمهور فسيح أو للأجيال القادمة. وتوجد هذه المواد أساسا في خزائن الوثائق والخزانات العامة أو الخاصة.

إن الرأي القديم القائل بأن ليس لتاريخ افريقيا ما يكفي من المصادر الخاصة، قد تراجع. فعلاوة على ما يوجد من المجموعات الغنية جدا من الوثائق في الدول المستعمرة السابقة، ومن المواد المهمة جدا في افريقيا نفسها مما انتج في فترات ما قبل الاستعمار والحقبة الاستعمارية، من قبل منشآت خاصة أو تابعة للدول الأوروبية، فإن البحوث الحديثة قد جددت مواقع كمية من المواد الخاصة، أو كشفت عنها: المواد الصادرة عن أفارقة والمكتوبة بالعربية أو بلغات أوروبية. فبينما كان يعتبر في السابق أن الوثائق من هذا النوع شاذة، وإنما لم تكن لتوجد إلا في أماكن متميزة، فلقد اتضح الآن أنه يوجد عدد من المصادر المكتوبة من أصل افريقي في الكثير من أقسام القارة، كما في خزائن الوثائق في أوروبا وآسيا.

فلننظر أولا في المواد المكتوبة بالعربية، ففي الفترة السابقة عن القرن التاسع عشر، لم يكشف بعد نماذج مجزأة من المراسلة المحلية أو الدولية، ولا سيما الصادرة عن افريقيا الغربية.

فهناك رسائل من السلطان العثماني إلى ماي ادريس ببرنو (سنة ١٥٧٨) اكتشفت في المحفوظات التركية، ورسائل ترجع لنهاية القرن السادس عشر أيضا من سلطان المغرب إلى أسكيا من السنغاي والي كنتا من الكبي. وكانت العربية مستعملة كلفة دبلوماسية، ليس في البلاطات المسلمة بالسودان وحسب بل أيضا من قبل الأمراء الغير المسلمين. وأشهر هذه النماذج هم «الأستنهان» الذين استكتبوا كتابا مسلمين بالعربية، لمراسلتهم مع جيرانهم في الشمال ومع الاروبيين على الساحل. ووجد عدد من هذه الرسائل في الحزنة الملكية بكونهاكن. واستعملت العربية لمسك دفاتر القرارات الادارية والقضائية والحسابية الخ. وفي الطرف الآخر من افريقيا، لدينا مثل المعاهدة بين النحاس الفرفسي مورييس وسلطان كلوا سنة ١٧٧٦.

وشهد القرن التاسع عشر انتشارا عظيما للمراسلة العربية على كل القارة. فقد تطلب انشاء دول متمركزة في السودان، نشاط اداري ودبلوماسي ازداد أهمية أكثر فأكثر، واكتشفت مادة خصبة من

هذا النوع خصوصاً في سلطنة سوكوتو والامارات التابعة لها، من كواندوا الى آداماوا. وفي دولة معينة أو دولة لبستاكو وفي امبراطورية برنو. وحافظ كل المسلمين رؤساء الدول كبارا وصغاراً على مراسلة نشيطة فيما بينهم ومع السلطات الاستعمارية المتقدمة. ففي الكثير من خزائن الوثائق ببلدان أفريقيا الغربية (وأحياناً في أوروبا) نجد آلافاً من الوثائق العربية الصادرة عن شخصيات، أمثال الحاج عمر، وأحمد ساكو، ومابا ولات ديور، ومحمد دولامين، وسموري، والبكاثي ورايج، وكثير من سائر الرؤساء الأقل أهمية. وأقامت الادارة الاستعمارية أيضاً مراسلة عربية معهم بسيرايلون وغينيا ونيجيريا وعلى ساحل الذهب.

و يوجد تبادل رسائل بين الباشا العثماني بطرابلس ومشايخ برنو، وبين سلطان دارفور ومصر، وبين تمبكتو والمغرب الأقصى. وكان الوضع مماثلاً في أفريقيا الشرقية. على أنه يبدو أن محفوظات زنجبار ليس غنية بالوثائق التي كانت ترتجي منطقياً من مدينة كان لها ما لها من علاقات تجارية وسياسية، وبالطبع لا بد أنه يوجد في خزانات خاصة عدد من الوثائق المتفاوتة القيمة. وسوف يكون جمع هذه الوثائق وفهرستها عملاً عسيراً، ولكنه لا بد منه في المستقبل القريب.

ولعين الصنف، تنتمي النصوص المكتوبة بحروف فاي وهي كتابة استنبطها حوالي سنة ١٨٣٣ موملودو يلا بريكي، وانتشرت بسرعة بين شعب فاي، بحيث كان الكل تقريباً يعرفون هذه الكتابة في نهاية القرن، ويستعملونها بكيفية اعتيادية في المراسلة الخاصة والرسمية ولمسك دفاتر الحساب، ولتسجيل القوانين العرفية والأمثال والقصص والروايات. وكثير من الشعوب المجاورة مثلاً المندى والطوما (لوما) والكروزي والباسا استعملوا كتابة الفاي في لغاتهم، واستخدموها لعين الأغراض (٩٩).

وفي بداية القرن الخامس عشر، استنبط السلطان نجويا من باموم (كامرون) كتابة خاص للغة الباموم، حوزها أربع مرات خلال حياته، ولكن خلافاً لكتابة الفاي التي عمم استعمالها على معظم الأهالي، فإن كتابة الباموم لم تكشف إلا لجمع صغير في بلاط السلطان، ومع ذلك فإن نجويا قد ألف مجلداً ضخماً في التاريخ، وفي عادات شعبه حرره هذه الكتابة، وهو مجلد جدّ في كتابته طيلة سنين عديدة، وهو يمثل كنزاً حقيقياً من المعلومات الثمينة عن الماضي (١٠٠). وينبغي أن يضاف اليه نصوص بالنسيدي (١٠١) من وادي نهر الصليب (الجنوب الشرقي من نيجيريا) تتمثل في نقوش على معابد وعبارات للتعارف بين أعضاء بعض الجمعيات السرية.

وأما المواد المحررة باللغات الأوروبية، فتمتد من القرن السادس عشر الى عصرنا هذا، وقد كتبت في نحو اثنتي عشرة لغة وهي غزيرة جداً مشتتة في العالم كله ومحفوفة في مئات من البقاع المختلفة في خزائن وثائق أو خزانات أو مجموعات خاصة. ونتج عن ذلك ان استغلالها من قبل المؤرخ كان صعباً نوعاً ما، خاصة اذا لم يوجد دليل أو فهرست. ولذا شرع المجلس الدولي للوثائق بإشراف اليونسكو

(٩٩) انظر د. أ. دلي ١٩٦٧، ١ - ٥١.

(١٠٠) تاريخ الباموم وعاداتهم، حرر بإدارة السلطان نجويا، ترجمة ب. هنري مرتان باريس ١٩٥٢ وحفظ الأصل بقصر السلطان بغمبام.

(١٠١) انظر دايرل ١٩١٠ - ١٩١١ وماك كريكور ١٩٠٩.

وبدعمها الأدبي والمالي في اعداد سلسلة من الأدلة لمصادر التاريخ في افريقيا. وكان الغرض الرئيسي من ذلك ارضاء حاجيات الباحثين العاملين في تاريخ افريقيا وجعل الوصول الى كافة المصادر الموجودة سهل المثال. واذ تركز البحث التاريخي طويلا على عدد قليل من خزائن الوثائق مما يتصل بذكريات الفترة الاستعمارية. فقد كان من المفيد أن يلفت النظر أيضا، الى وجود مجموعة مهمة مشتتة تشتتا كبيرا، من المواد التي لم تستغل بعد. وإذا ما خصصت الأدلة أولا وبالذات لخزائن الوثائق العمومية والخاصة، فهي أيضا تأخذ بعين الاعتبار المواد ذات الأهمية التاريخية المحفوظة في الخزائن والمتاحف. وستشتمل هذه السلسلة على أحد عشر مجلدا، تمدنا بمعلومات عن المصادر الوثائقية المحفوظة في بلدان أوروبا الغربية والولايات المتحدة الدراسة لافريقيا على جنوبي الصحراء وقد تم حتى الآن نشر المجلدات الآتية: المجلد ١ الجمهورية الألمانية الاتحادية، ١٩٧٠، المجلد ٢ اسبانيا ١٩٧١، المجلد ٣ فرنسا ١٩٧١، المجلد ٥ ايطاليا ١٩٧٣، المجلد ٦ ايطاليا ١٩٧٤، المجلد ٨ اسكندنافيا ١٩٧١. وينتظر اصدار المجلدين ٤ (فرنسا ٢) و٧ (فاتيكان) عما قريب وستصدر المجلدات التي تغطي بلجيكا وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة كل على حدة، ولكنها ستستبع نفس طريقة العرض (١٠٢)، وكما قال جوزيف كي زربو في مقدمته للسلسلة: «في المعركة في سبيل استكشاف الماضي الافريقي من جديد، فإن دليل مصادر التاريخ لافريقيا يمثل سلاحا جديدا، تخطيطا وعمليا» (١٠٣).

وعلاوة على هذا المشروع المهم، توجد من قبل أدلة أخرى للمصادر خاصة، أدلة حسب المناطق أو تبعا لشروط خاصة. ومن أكملها الأدلة الثلاثة لتاريخ افريقيا الغربية، وقد نشرت في السنوات ١٨٦٠. وهي تغطي خزائن الوثائق بالبرتغال واطاليا وبلجيكا وهولندا (١٠٤). وأما نشرات وثائق الخزائن، مطولة أو في شكل سجلات، فهي أشد طموحا والى حد ما أكبر جدوى، وحتى الآن فإن المواد الوثائقية البرتغالية وحدها هي التي عرضت في هذا الشكل، فلدينا اليوم، علاوة على أعمال پايفا منصور (نهاية القرن التاسع عشر) (١٠٥) مجموعتان عظيمتان من وثائق المبشرين، مصدرها خزائن الوثائق البرتغالية (وخزائن غيرها)، احدهما من عمل أ. داسلفا ريقو (١٠٦)، والأخرى من عمل أ. برازيو (١٠٧). ومنذ بضع سنوات شرع في مجموعة معلمية أعدها الجهود المتضافرة لخزائن البرتغال وروديسيا، ستشرفها الوثائق البرتغالية الخاصة بالجنوب الشرقي بنصها الأصلي مع ترجمة انكليزية (١٠٨). وتوجد أيضا مطبوعات مختصرة في الزمن وفي مضمونها أو موضوعها، ويتمثل هذا النوع من جهة

(١٠٢) مجلدات الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى سوف تمدنا بقوائم من الوثائق تتعلق بكامل القارة.

(١٠٣) دليل مصادر التاريخ لافريقيا مجلد ١، زوق، سويسرة ١٩٧٠ مقدمة ص ٧.

(١٠٤) ب. كرسن ١٩٦٢، ريدر أ. ف. س ١٩٦٥، قرأ و د. شميرس ١٩٦٥.

(١٠٥) پايفا منصور ١٨٧٧.

(١٠٦) أ. داسلفا ريقو ١٩٤٩ — ١٩٥٨.

(١٠٧) أ. برازيو ١٩٥٢.

(١٠٨) الوثائق التاريخية لافريقيا الشرقية والوسطى لشبونة، سلسبوري منذ ١٩٦٥ ستشمل ٢٠ مجلدا تقريرا.

[illegible]

في «الاوراق البرلمانية الانكليزية» وفي عدة كتب زرقاء أو كتب بيضاء مؤرخة على الخصوص في الفترة الاستعمارية، ومن جهة أخرى هناك منتخبات حديثة لها صبغة علمية أكبر (١٠٩)، من ذلك أعمال كوفليي ول. جادان عن وثائق الفاتكان حول تاريخ الكنفو القديم (١١٠) أو مختارات س. و. نيبوري عن السياسة البريطانية في افريقيا الغربية. ودراسة ج. أ. ميتكالف الوثائقية عن العلاقات بين بريطانيا العظمى وغانا (١١١). وإلى هذا النوع أيضا تنتمي المجموعة الفسيحة من المواد الوثائقية عن السياسة الإيطالية ازاء اثيوبيا والبلاد المجاورة، والتي هي بصدد النشر من قبل «جيليو» (١١٢) وعدد كبير من المنشورات الأخرى من هذا النوع، انطلاقا من خزائن وثائق أوربية، قد يسهل الوصول الى الوثائق الخاصة لهذا الوجه أو ذاك من التاريخ الاستعماري. ونقطة الضعف في هذه المقتطفات فعلا وبدون شك، هي في الطابع الانتقائي، وذلك ان كل مؤلف يتبع في اختيار مواده قواعده الخاصة الذاتية، بينما يحتاج الباحث الذي يدرس مسألة من المسائل، الى كل الارشادات وإلى مراجع كاملة.

ويوجد اليوم في كل الدول الافريقية المستقلة، خزائن وثائق حكومية تحفظ المواد الموروثة عن الادارة الاستعمارية السابقة. وان نشرت في بعض البلدان أدلة أو فهراس، فعظم وثائق افريقيا. ما زالت بصدد التصنيف والوصف (١١٢) فصار اذن من الحتمي الضروري اليوم، ان تنشر سلسلة من الأدلة عن كل الوثائق العامة والخاصة لافريقيا، كالتى هي بصدد النشر بالنسبة الى الوثائق الاوربية.

وخزائن الوثائق الحكومية في افريقيا اذا ما قورنت بوثائق الدول المستعمرة القديمة فان لها حسناتها كما لها مساوئ، وبقطع النظر عن بعض الشواذ فان الوثائق المفصلة لم يبدأ بحفظها في افريقيا الا في السنوات ١٨٨٠. وفيها كثير من النقص وكثير من المواد المفقودة. فينبغي أن تسد هذه الشغرات بواسطة مصادر أخرى، أهمها وثائق المبشرين ورجال الأعمال والوثائق الخاصة، بقطع النظر طبعاً عن خزائن الوثائق بالعواصم الاوربية.

وبالعكس، فان مزايا الوثائق الافريقية على وثائق الدول المستعمرة السابقة عديدة، أولاً: الوثائق الافريقية تحفظ مواد ووثائق لها صلة أشد مباشرة بالحالة المحلية، بينما تشتمل «الوثائق الاستعمارية» خاصة، على وثائق عن سياسة المستعمرة، والخزائن الافريقية تحفظ غالباً وثائق من فترة ما قبل الاستعمار، كتقارير رواد الاستكشاف الاولين والأخبار التي جمعها مختلف التجار والموظفين في جهات داخلية ثانية، ولم تعتبر هذه التقارير جديرة بأن ترسل الى أوروبا، ولكنها ذات أهمية كبرى بالنسبة الى التاريخ المحلي، وتشتمل هذه الخزائن على عدد من الوثائق الصادرة عن أفاقة يفوق عددها الموجود في خزائن أوروبا. وبصفة عامة لئن وجد في افريقيا كثرة من الوثائق هي

(١٠٩) أدلة المواد لتاريخ افريقيا الغربية في خزائن الوثائق الاوربية نشرتها جامعة لندن بطبعة الثلون منذ ١٩٦٢ انظر تعليق ١٠٤.

(١١٠) ج. كوفليي ول. جادان ١٩٥٤.

(١١١) نيبوري ١٩٦٥، ميتكالف ١٩٦٤.

(١١٢) جيليو كارلو: إيطاليا في افريقيا. السلسلة التاريخية مجلد ١.

(١١٣) لدراسة الوضع قبيل الاستقلال انظر فيليب د. كورتن ١٩٦٠، ١٢٩ - ١٤٧.

تكرار لما وجد في أوروبا، فإن الباحث الذي استخدم فقط المصادر الموجودة في الدول المستعمرة القديمة، قد يكون ميالا الى كتابة تاريخ المصالح الاوربية في افريقيا، أكثر من كتابة تاريخ الأفارقة، وبالعكس، فإن استخدام الخرائن الموضوعة في افريقيا وحدها قد لا يعطي صورة كاملة، اذ قد ينقصها عدد من الوثائق أو من التقارير أو هي قد تكون مبتورة.

وأخيرا يجب أن نذكر بعض الوثائق الأخرى المنتمية الى هذا الصنف. أولا الخرائط وسائر المواد الخرائطية. فلأن عدد الخرائط المطبوعة عن افريقيا ازداد سنة بعد سنة منذ القرن السادس عشر، فإن كثيرا منها مازال محفوظا في شكل مخطوطات في عدة خزائن للوثائق، وعدة خزانات في أوروبا، بعضها مزركش وملون أجمل تلوين.

فمن هذه الخرائط نتمكن غالبا من العثور على أسماء المدن التي اندثرت اليوم، أو التي تعرف باسم آخر، بينما تذكر الأسماء القديمة في مصادر أخرى شفاهية أو مكتوبة. مثلا أن بعض شعوب البنسو الشرقيين كان لهم عادات الهجرات انطلاقا من جهة تدعى شنقوايا، ولا تعرف اليوم مدينة بهذا الاسم، ولكننا نجد مرسوما على بعض الخرائط القديمة، كخريطة فان لنشوتن (١٥٩٦) أو خريطة وليام بلاو (١٦٦٢) وغيرهما، حيث تظهر شنقوايا بكتابات مختلفة على أنها مدينة، ثم على أنها جهة قريبة من الساحل. وتفيدنا هذه الخرائط القديمة أيضا بإرشادات عن توزيع المجموعات العرقية، وعن حدود الدول والمقاطعات، وتسمي الانهار بأسماء متباينة، وكذلك الجبال وسائر العناصر الطبوغرافية، وبالجملة توفر لنا مواد خاصة بأسماء البقاع مفيدة جدا وهي بدورها تفيدنا أخبار «تاريخية» نفيسة. وعرض و. ج. ل. رندلس طريقة عملية لاستغلال المواد الخرائطية لأغراض تاريخية بالنسبة الى افريقيا الجنوبية الشرقية في القرن السادس عشر (١١٤) وقد اعترف بصلاحيه هذه المادة، وبين يدي المؤرخ المؤلف الكبير الذي وضعه يوسف كمال «المعلمة الخرائطية الافريقية والمصرية» وبه أيضا عدد من النصوص السردية في روايتها الأصلية وضمن ترجمات، ولكنه يقف عند القرن السادس عشر (١١٥). فمن الواجب إذن أن نوافق على طلب جوزيف كي زربو الرامي الى نشر مجموعة من كل الخرائط القديمة لافريقيا ضمن اطلس مع نصوص للشرح (١١٦). وثمة خطوة في هذا الاتجاه تمت عندما نشرت أخيرا نحو مائة خريطة في لايبزغ ولكن الشروح ناقصة واستمدت الخرائط كلها من مواد مطبوعة (١١٧).

كما يوجد في المصادر المكتوبة مواد أخرى هي المعطيات اللسنية، وإذا خصص فصل متميز من هذا المجلد للنظر في اللسنية كعلم تاريخي مشارك، فأننا نترك جانبا مسائل المنهجية ونقصر نظرنا على الاشارات الى طبيعة المصادر التي يمكن أن يعثر فيها على هذه المعطيات اللسنية، ومنذ عهد الاتصالات الأولى في افريقيا، كان من حسن الذوق أن يضاف الى أخبار الرحالة الاوربيين والى تقاريرهم المتنوعة قوائم تطول أو تقصر من الألفاظ باللغات المحلية، وترجع المعاجم الأولى الى القرن

(١١٤) و. ج. ل. رندلس ١٩٥٨.

(١١٥) القاهرة ١٩٢٦ - ١٩٥١.

(١١٦) انظر التعليق ٢ ص ٣٢.

(١١٧) خرائط افريقيا من القرن الثاني عشر الى القرن الثامن عشر.



الخامس عشر. وحتى القرن التاسع عشر قلما نجد كتابا عن افريقيا. لم يذيل بملحق من هذا النوع مشفع أحيانا بملخص نحوي. وبالرغم من كون الرسم لم يكن دائما منتظما، فليس من الصعب ان يوقف على هوية الألفاظ واللغات. وأهم نشرة من هذا الصنف، المجموعة الكبيرة اللغوية الجامعة لنحو ١٦٠ لغة ونشرها كولي (١١٨). وقيمة هذا العمل لا تقتصر على اللسنية كما أظهر ذلك كرتن وفانسينا وهير (١١٩). وكانت مملكة الكونغو القديمة، محظوظة في هذا المجال: فنشرت كتب تتحدث عن الكونغو منذ القرن السابع عشر مثل كتاب نحو بقلم بروشيو (١٦٥٩) ومعجم بقلم دي كيل (١٦٥٢) (١٢٠) وعلاوة على هذه المصنفات المطبوعة، يوجد غيرها في مختلف الخزائن والوثائق (الفاتكان، المتحف البريطاني بيزنسون الخ) وقيمتها بالنسبة الى المؤرخ أكبر من قيمة قوائم الألفاظ المجردة اذ هي أكمل، وهي تمكن من الدراسة في أزمنة مختلفة، لمجموعة المصطلحات الاجتماعية والثقافية (١٢١).

ان المصادر السردية أو الوثائقية المكتوبة باللغات الافريقية والشرقية أو الاوربية، تمثل مجموعا ضخما من المواد لتأريخ افريقيا، فهما كانت الوثائق غزيرة من كل نوع، كالكتب والتقارير المعروفة، فما هي حسب كل احتمال الا أجزاء من المواد الموجودة، وسواء في افريقيا أو خارجها، لا بد أنه توجد بقاع عديدة لم تستكشف بعد من وجهة نظر المصادر الممكنة لتأريخ افريقيا. وهذه المناطق التي لم تستكشف هي الآن «لطخات بيضاء» على خريطة معارفنا لمصادر تاريخ افريقيا. وبقدر ما تزول بسرعة تكون الصورة التي سنعطيا عن الماضي الافريقي أثري وأغنى.

(١١٨) س. و. كوال ١٩٦٣.

(١١٩) ب. د. كرتن وج. فانسينا ١٩٦٤، ب. ي. ه. هير ١٩٦٥.

(١٢٠) كتاب نحو بروشيو، رومة ١٦٥٩، ج. فان ونغ وس. بندرس: أقدم معجم بنتو، معجم ب. جورج جيلنيس لوفان

١٩٢٨.

(١٢١) استعانة د. أ. أولديروج بكتاب غويروسيوطو لهذا الغرض، وذلك في مقاله القيم «Sistema rodstva Bakongo v XVII»

النشور في: Afrikanskiy etnograficheskiy sbornik III. Moscou, 1959

## المأثور المنقول ومنهجيته

جان فانسينا

ان الحضارات الافريقية في الصحراء الكبرى وجنوبها كانت الى جانب كبير حضارات كلمة، ولو أن الكتابة كانت معروفة في افريقيا الغربية منذ القرن السادس عشر، غير أن معرفة الكتابة كانت وقفا على قلة قليلة من الناس، وكثيرا ما بقي دور الكتابات هامشيا بالنسبة الى مشاغل المجتمع. وقد يكون من الخطأ أن تقصر حضارة الكلمة على نبي «انعدام الكتابة» فقط وإن يحتفظ بما يبديه فطريا المثقفون من احتقار للأميين، ذلك الاحتقار الذي يلمس في الكثير من العبارات كما في المثل الصيني: «ان أبهى الخبر أحسن من أقوى كلمة» ويكون ذلك إنكارا تاما لطابع هذه الحضارات الشفاهية. ويحكم على ذلك ما كان يقوله طالب منتم لسلوك باطني: «ان قوة الكلمة رهبة فهي تقيدنا الواحد بالآخر، وفي افشاء السر هلاكنا» (وذلك باهلاك المجتمع اذ هي تفسد السر المشترك).

### الحضارة الشفاهية

فعلى من أراد استخدام المأثور المنقول، أن يتعمق قبل كل شيء في موقف الحضارات الشفاهية ازاء الخطاب، وهو موقف يخالف تماما موقف الحضارات التي سجلت فيها الكتابة كل الرسائل المهمة. فالمجتمع الشفاهي يعلم الكلام الدارج ولكنه يعلم الخطاب الأساسي، تلك الرسالة التي أورثنا أجدادنا اياها، أي المأثور المنقول. نعم المأثور يحدد بكونه شاهدا سلمه شفاهيا جيل الى جيل. ويكاد يكون «اللفظ» في كل مكان قوة سرية، اذا أن الكلمات تخلق الأشياء، وعلى الأقل ان ذلك هو الموقف السائد في معظم الحضارات الافريقية. ولا شك ان الدوكون قد عبروا عن هذه الاسمية أوضح تعبير، ولكننا نلاحظ دائما في المناسك، ان الاسم هو الشيء وان «القول» هو «الفعل».

وتتضمن صفة الشفاهية موقفا ازاء الواقع وليس ازاء نقصان شيء ما وحسب. فبالنسبة الى مؤرخ العصور الحاضرة وقد غرق في أكوام البلاغات المكتوبة، فصار مرغما على تطوير تقنية تمكنه من القراءة بسرعة ولو أنه لا يبلغ الادراك الكامل الا بفضل تكرار المعطيات عنها في العديد من البلاغات، وهكذا فإن المأثورات قد تدخل عليه الحيرة. فهي تقتضي بالعكس، العودة المستمرة الى المصدر. ويلفت الزايري فوكياو النظر فعلا، الى أنه من السذاجة أن نقرأ نصا شفاهيا مرة أو مرتين وأن نظن أننا فهمناه، بل ينبغي أن نستمع اليه ونبغي أن نحفظه وأن نستبطنه استبطان القصيدة، وإن نسأله كي يكشف عن معانيه المتعددة، وهذا على الأقل اذا ما كان الخطاب هاما. فعلى المؤرخ إذن أن يتعلم كيف يخفف من السرعة، وكيف يتأمل، ليتوغل خلال تمثيل جماعي أجنبي، إذ أن مجموع المأثورات يشكل ذاكرة جماعية لمجتمع يوضح نفسه لنفسه. وقد عبر عدد من العلماء الأفارقة أمثال أهمياتي با أو بوبوهاما عن التفكير تعبيرا بليغا. وعلى المؤرخ أن يبدأ بالاطلاع على طرق التفكير في المجتمع الشفاهي قبل أن يفسر مآثراته.

### طبيعة المأثور المنقول

يحد المأثور المنقول بكونه شهادة ينقلها شفاهيا جيل الى جيل من الأجيال التالية. وصفاته الخاصة هي اللفظية والنقل الذي يختلف عن المصادر المكتوبة. ومن الصعب جدا أن نعرف اللفظية، فالوثيقة المكتوبة هي شيء محسوس، هي مخطوط، وأما الوثيقة الشفاهية فقد تحدد بعدة طرق، إذ أن الشاهد قد يوقف شهادته وقد يصلحها وقد يستأنفها الخ. لذا لا بد من بعض الاعتباطية لتحديد الشهادة كمجموعة من كل التصريحات التي صرح بها شخص فيما يخص سلسلة واحدة من الأحداث الماضية، ما لم يحصل الشاهد على معلومات جديدة فيما بين التصريحات. وذلك أنه في هذه الصورة قد يتغير النقل، وقد نجد أنفسنا أمام رواية جديدة، ومن الناس من يعلم روايات تتعلق بسلسلة أحداث مختلفة بأكملها، ولا سيما الاختصاصيون أمثال القصاصين.

ونحن نعلم حالة شخص يروي روايتين مختلفتين في موضوع تطور تاريخي واحد ويقص الرواة الرونديون رواية أولى تذكر أن أول توتسي، سقط من السماء والتقى بالهوتو على الأرض، وفي آن واحد، رواية ثانية تنص على أن توتسي، هوتو كانا أخوين، فهذه روايتان متميزتان، يرويهما شخص واحد، في موضوع واحد، ولهذا أدخلت عبارة «سلسلة واحدة من الأحداث» في تحديد الشهادة.

وأخيرا الكل يعلم قضية الراوي المحلي الذي يقص قصة ملفقة مؤلفة من مختلف الروايات التي يعرفها.

والمأثور رسالة تنقل من جيل الى الجيل الذي يليه، ليست كل المعطيات الشفاهية مآثرات. فنفرق بين الشهادات الشفاهية والتي تصدر عن شاهد عيان، إذ لها قيمة كبيرة فهي مصدر «مباشر» غير منقول يقل فيه خطر تحريف محتواه، وكل مأثور منقول مقبولا لابد أن يرجع الى شاهد عيان، ومن الواجب أيضا ترك الشائعات التي هي نقل لخبث، إلا أن طابعها الخاص هو أنها تعالج «الأصدقاء» الجارية. ولذا فهي تدعى في يومنا هذا «إذاعة الرصيف»، وبداخلها من التحريف

ما يجعلها لا تصلح الا للتعبير عن رد الفعل الشعبي ازاء حدث معين. وهي عنها قد تولد تراثا اذا ما رددتها الأجيال المتتالية، وأخيرا يبقى المأثور الحق الذي ينقل وثيقة الى الأجيال المقبلة. ويقع منشأ المأثور اما في شهادة العيان أو في الاشاعة أو في خلق جديد انطلاقا من مختلف النصوص الشفاهية الموجودة، بعد عجنها وتنقيحها قصد خلق خبر جديد. ولكن المأثور المعتمد عن شهادة العيان هو وحده الصالح، وقد أدرك مؤرخو الاسلام ذلك ادراكا جيدا، فكونوا طريقة مشعبة للتحقق من الحديث الشريف، هذه الأحاديث التي تعلمها عن النبي مجموعة من أصحابه. ويزداد عدد الأحاديث مع الزمن مما يوجب الغاء ما لم يكن في الامكان اثبات صحة اسناده الواصلة بين العالم الذي سجله كتابة وبين أحد أصحاب النبي. وطور علم التدوين التاريخي الاسلامي بالنسبة الى كل تواتر، معايير الاحتمال والتصديق بشكل يطابق قوانين النقد التاريخي المعاصر. فهل كان في امكان الشاهد الوسيط أن يعلم المأثور؟ وهل كان في وسعه فهمه؟ وهل كان له فائدة في تحريفه؟ وهل أمكنه نقله؟ ومتى وكيف وأين؟.

ومن الملاحظ أن حد المأثور المعطى هنا لا يتضمن قيودا سوى اللفظية والنقل الشفاهي. فهو لا يتضمن فحسب البلاغات التي تريد قصدا أن تقص أحداث الماضي، كاليوميات الشفاهية في مملكة ما، أو شجرات الانساب في مجتمع مجزأ، بل هو يشمل كل النصوص الشفاهية المنقولة عمليا ضمن أدب شفاهي بأكمله. وفي الأدب اشارات ثمينة، بقدر ما تكون شهادات غير مقصودة تتعلق بالماضي، وبقدر ما تكون أيضا مصدرا عظيما لتاريخ الأفكار والقيم والفن الشفاهي. وأخيرا ان جميع المأثورات هي في آن واحد اثر أدبي ينبغي أن ينظر فيه من هذه الزاوية، كما أنه من اللازم أن تدرس الأوساط الاجتماعية التي أنشأته وسلمته الى غيرها، والنظرة الى العالم التي يعبر عنها عن حضارة معينة. لهذا ستعالج الأقسام التالية على الترتيب، النقد الأدبي والنظر في الوسط الاجتماعي، وفي الوسط الحضاري قبل أن تتعرض للمشكل الزماني ولتقوم المأثور تقوينا عاما.

## المأثور، أثر أدبي

ان معظم الأعمال الأدبية هي من المأثورات. وكل المأثورات الواعية هي خطب شفاهية، وكما هو الأمر في كل خطاب، فان الشكل والقوانين الأدبية تؤثر في محتوى الخبر، وهذا الموجب الأول لكي يوضع المأثور في الاطار العام للنظر في البنيات الأدبية، وكما ينبغي من هذه الوجهة. وأول مشكل هو مشكل الخبر نفسه، فهناك أربعة أشكال أساسية حاصلة من التألف العملي بين مبدئين. فأحيانا تحفظ الألفاظ عن ظاهر قلب وأحيانا يبقى الاختيار للفنان، وفي بعض الأحيان يخضع نحو اللسان العادي لسلسلة من القواعد الشكلية الخاصة، وأحيانا أخرى لا وجود لهذا الجهاز الاتفاقي.

## الأشكال الأساسية للموثرات الشفاهية

المحتوى			
جامد	حر (اختيار الكلمات)		
قصيدة	ملحمة	مقعد	الشكل
عبارة	سرد	حر	

ولفظ «قصيدة» ماهو إلا علامة تدل على جميع المعطيات المحفوظة عن ظهر قلب، المخصصة ببنية متميزة، ويشمل الأغاني.

ولفظ «عبارة» تسمية تشمل غالبا الأمثال والأحاجي والأدعية وقوائم الميراث، أي كل ما يحفظ عن ظهر قلب ولكنه ليس خاضعا لقواعد تركيب خاصة، غير قواعد النحو العادي.

وفي كلا الحالتين فالماثورات لا تشمل الخبر بفرده، بل تتضمن أيضا الكلمات التي صلحت لحمله. ففي الامكان اذن نظريا أن يعاد بناء النموذج أصلي، بالفعل كما يمكن ذلك في المصادر المكتوبة. اذ يمكن بناء قياسات تاريخية، على الكلمات وليس على المعنى العام للخبر فقط. وقد تتعذر بالنسبة الى العبارات وبصفة أقل، بالنسبة الى القصائد، إعادة بناء النموذج، اذ ان الاستكالات تكون متعددة جدا، مثلا اذا ما تعرفنا أن شعار «قبيلة» نشأ عن سلسلة اقتباسات من شعارات أخرى دون أن نستمكن من فرز ما كان يتركب منه النص الأصلي المتميز. وفي الحقيقة يبقى واضحا لماذا يكون الاستكمال سهلا في العبارات، اذ لا قاعدة تحدد هذا العمل.

وبالمقابل فان المصادر الجامدة مبدئيا هي أكثر أهمية، اذ هي أدق من ناحية النقل. وعمليا فإن عدد هذه المصادر التي تقوم بنقل المعطيات التاريخية بأمانة عدد قليل. وبالطبع نجد هنا ألفاظا قديمة لا تفسر أحيانا. وقد نعبر على مدلولها في صورة لغات البنتو، ذلك لأن الفرص كبيرة، تلك التي توفرها لغة مجاورة تحتفظ بلفظ، جذره عين جذر اللفظ القديم المدروس. وفيما عدا ذلك نضطر الى الأخذ بشرح الرواية الذي يكون نقل شرحا تقليديا... أو يكون استنبطه، ومن المقلق أكثر من ذلك أن يختلط هذا النوع من النصوص بتلميحات شعرية ويتشابه غامضة وبنكت تتحمل معاني متعددة. فلا يمكن أن يفهم النص المستغلق بدون شرح، بل أكثر من ذلك، في غالب الأحيان، فان صاحبه وحده هو الذي يكون ملما بكل دقائقه. ثم أنه لا ينقل كل شيء من الشرح المفسر للنص بكيفية تفاوت صلاحية، وقد ينقل في آن واحد مع القصيدة نفسها.

وهذه الخاصية منتشرة جدا، ولا سيما بالنسبة للقصائد أو الأغاني المدحية الافريقية الجنوبية (تسوانا، سوتو) والافريقية الشرقية (منطقة ما بين البحيرات) والافريقية الوسطية (لوبا كنفو) أو الافريقية الغربية (ايجو).

ولفظ «ملحمة» تسمية، مدلولها أنه داخل اطار مفروض من القواعد الشكلية كالقوافي، والأنماط التابعة للمقام ولطول المقاطع الخ، يحتفظ الفنان لنفسه باختيار ألفاظه. ولا ينبغي أن يختلط هذا بالقطع الأدبية ذات الاسلوب الحماسي الطويلة المدى، كأخبار سندجاتا ومر يندو

(الزايير) وغيرها كثير. ففي الغرض المقصود هنا يشمل الأثر، علاوة على الخبر، الاطار الشكلي لاغين، على أنه أحيانا توجد في أبيات متميزة على سبيل الحشو أو لتذكير الفنان بالاطار والقالب الشكلي. ومن المحتمل أن بعض هذه الأبيات تعود الى عهد انشاء الملحمة، فهل توجد ملاحم من هذا النوع في افر يقيا؟ اننا نرى الجواب بالايجاب ونظن أن بعض الأغراض الشعرية برودنا على الخصوص، تدخل في هذا الصنف، وكذلك منشدو الأمثال الفنع (كامرون - غليون)، ثم اننا نلاحظ أنه نظرا لكون اختيار الالفاظ باقيا حرا، فليس في الامكان أن يعاد بناء النموذج حقيقي لهذه الملاحم. ولكننا نضيف في الحال، أن متطلبات الشكل تكمن في احتمال أن يرجع قالب «الملحمة» الى أصل وحيد. وتدل على ذلك في الغالب دراسة الروايات المختلفة.

بقيت «الروايات» وهي تشمل غالب الوقت أخبارا تاريخية واعية. ان الحرية المتروكة هنا للفنان تمكنه من عدد من التأليفات، ومن التنقيحات المتعددة، ومن اعادة تنظيم المشاهد ومن التمديد في الأوصاف وتحليل المواضيع الخ.. ويكون اذن من الصعب أن يعاد بناء النموذج. فحرية الفنان كاملة، لكن من وجهة النظر الأدبية فقط: وقد يفرض عليه الوسط الاجتماعي أحيانا أمانة قاسية ازاء المصادر. ورغم العوائق المذكورة فانه في الامكان أن يكشف عن الاصل المهجين للتراث، بجمع كل رواياته بما فيها مما لا يعتبر تاريخيا وباللجوء الى روايات صادرة عن الشعوب المجاورة. وقد نزلت هكذا دون أن نشعر من الأمر التاريخي الى العجيب، ولكننا نتوصل أيضا الى حذف سلسلة من الروايات الشفاهية التي لا يرجع فيها الى شاهد عيان. وهذا نقد أساسي لا بد من تطبيقه.

وكل أدب شفاهي له تقسيمه الخاص الى أغراض أدبية، فالمؤرخ يعني بالتعرف ليس فقط على ما تمثل هذه الأغراض بالنسبة للحضارة المدروسة، بل على الأقل سيجمع عينة ممثلة لكل منها، اذ من المتوقع في الأغراض أن توجد معطيات تاريخية، وما يهتم به بصفة خاصة من المأثورات يكون أقرب للفهم في الاطار العام. ويأتي التصنيف الداخلي بارشادات نفيسة. وسوف يكشف هل ان مروجي هذه النصوص يقيمون حدا، مثلا بين الأخبار التاريخية وغيرها.

وأخيرا ان الأغراض الأدبية خاضعة لمواضع أدبية ينبغي الاطلاع عليها كي يفهم معنى النص الحق، وليس الأمر هنا القواعد الشكلية، بل اختيار الألفاظ والعبارات والسوابق الغير المألوفة ومختلف الجوازات الشعرية. وينبغي أن يلفت النظر بخاصة الى الألفاظ أو العبارات ذات الاصداء المتعددة، ثم ان الالفاظ «المفاتيح» المرتبطة أوثق الارتباط بالبنية الاجتماعية وبتصور العالم وهي عمليا لا تقبل الترجمة، يجب تأويلها من خلال شبكة السياق الادبي الذي تظهر فيه.

وليس في الامكان أن نجتمع كل شئ، فالمؤرخ يضطر الى قبول المتطلبات العملية وسيقتيد بها — مع كامل الوعي بذلك — اذا ما حصل على عينة تعبر عن الأغراض الادبية.

وفيا يخلص المرويات فان قائمة بأصناف المرويات التابعة للجنس المدروس أو لغيره، هي وحدها الكفيلة بالكشف عن التشابه أو العبارات المحبة. بل أيضا عن المشاهد المحجرة مثلا في العلاقات التي يمكن أن توصف «بالخرافات الهجرية» (واندرساغن). وثمة رواية من لوبا على ضفاف بحيرة طنقانيكا تصف كيف تخلص بعض الامراء من آخر باستدعائه الى الجلوس على حصير قد حفر من تحته بئرا غرست فيها أوتاد مدبية، فجلس الضيف ولقي حتفه. ويوجد عين السيناريو في

مناطق البحيرات العظام حتى المحيط، بل أيضا حتى لدى الفلانيين من ليتاكو (فولطا العليا) كما لدى الهوسا (نيجيريا) والموسي في ياطنغا (فولطا العليا). وقيمة هذه الصور الرواسم واضحة. ومن سوء الحظ أنه ليس لدينا أي مرجع في موضوعها، ولو أن هـ. بومان يدنا بارشادات عن سلسلة من الرواسم المتعلقة «بالأصول» (١) ويبدو لنا من الضروري اعداد فهرس عملية للبحث عن هذه الصور المتحجرة. ففهارس الأغراض الشعبية صعبة الاستعمال، غامضة لأنها تعتمد على أوصاف صغيرة اختيرت اعتباطا، بينما يمثل المشهد في المرويات الافريقية وحدة طبيعية في مصنف ما. فإذا وجدنا رومسا من هذا النوع، فليس من الحق أن يرمي بكل الأثر أو حتى بالجزء الذي وجدت فيه هذه اللقطة على أنه غير صالح، بل يجب أن يفسر لماذا استعمل هذا الرسم، والمثال المذكور يوضح فقط أن رئيسا ما تخلص من رئيسا آخر، ولكنه يضيف شرحا اصطناعيا يروق للمستمعين. وسيلاحظ في الغالب أن هذا النوع من الرواسم يدعم تفاسير وشروحا على معطيات قد تكون صالحة.

والنقد الأدبي بمعناه الصحيح لا يهتم بالمعاني اللفظية والمعاني التي يقصدها الأثر فحسب، بل كذلك بالضغط المفروضة على عبارة الخبر بسبب المتطلبات الشكلية والاسلوبية. وهو سيقوم اثر التحريف الجمالي، ان كان موجودا، وهذا ما يحصل غالبا. وفي الواقع حتى رسائل الماضي يجب أن لا تكون شديدة الازعاج. وهنا تكتسي ملاحظة التمثيلات الاجتماعية الخاصة بالمأثور أهمية أساسية. ونحن نقول «تمثيلات» لا «نسخا» اذ في معظم الحالات يلعب العنصر الجمالي دورا. فإذا ما تفوقت العلامات الجمالية، على أمانة النسخ ينتج عن ذلك تحريف جمالي عميق يعكس ذوق الجمهور وفن الأديب التقليدي. وحتى في غير ذلك من الحالات فاننا نجد غالبا اصلاحات للنصوص تصل الى إكساء المأثورات ذات المحتوى التاريخي المدقق، كسوة القوانين الفنية الجاري بها العمل. ففي المرويات مثلا يرتب العقدة الأساسية سلسلة من المشاهد توصل الى القمة، بينما يمثل غيرها اعمادات موازية، ومع ذلك فان غيرها أيضا ما هو الا معابر ينتقل الخبر فيها من درجة الى أخرى. وبصفة عامة يمكن أن نقبل أنه كلما اقترب نص من النموذج المتوقع الرائق للجمهور، كلما ازداد انحرافا. ومن بين سلسلة من الرويات، فان الرواية الصحيحة تتميز بكونها تسير على عكس النموذج، كما أن الرواية التي تناقض الوظيفة الاجتماعية للمأثور، من المحتمل أن تكون أصبح من غيرها. ولا ننسى هنا أنه ليس كل فنان في الكلام جيدين. فمنهم من هوسي و سيكون نصيب روايته دائما الخيبة. ولكن موقف الجمهور وهو في هذا تركيب تمثيلية ليس حدثا فنيا فقط بل هو قبل كل شيء حدث اجتماعي، وهذا ما يفرض علينا أن نعتبر المأثور في وسطه الاجتماعي.

## الاطار الاجتماعي للمأثور

ان كل ما يراه المجتمع مهما لحسن سير منظماته ولتفهم الأوضاع الاجتماعية والوظائف المنوطة بها تفهما حسنا، ولحقوق كل شخص وواجباته، كل ذلك ينقل باتقان. ففي المجتمع الشفاهي يتم ذلك بالرواية، بينما في المجتمع الكاتب لا يترك للرواية سوى الذكريات الأقل أهمية. وهذا ما أوقع طويلا المؤرخين في الخطأ، اذ ظنوا أن الروايات ضرب من حكايات بيرو ومن أناشيد تنوم الأطفال أو الألعاب الصبائية.

لكل مؤسسة اجتماعية ولكل مجموعة اجتماعية أيضا هوية خاصة يتبعها ماض مسجل في التمثيلات الجماعية لتقليد يفسرها ويررها. ولهذا يكون لكل مأثور «سطحه الاجتماعي» حسب تعبيره. مونيو. فلولاً سطحه الاجتماعي لانقطع المأثور عن الانتقال، وأصبح غير ذي وظيفة، فيفقد مبرر وجوده وتهمله المؤسسة التي تشده.

وقد يميل الى اتباع بعض ممن ظنوا أنه في الامكان أن يتكهن بلامح الجمهور من خلال المأثور التاريخي لمجتمع معطى، انطلاقاً من تصنيف الجماعات الى أنماط، أمثال «دول» «مجموعات فوضوية» الخ. فلئن صح أنه يمكن تصنيف سلسلة المجتمعات الاريقة تصنيفاً تقريباً الى أنماط من هذا النوع، فليس من الصعب أن يبرهن أن هذه النموذجية في وسعها أن تتابع الى مالا نهاية، اذ يختلف كل مجتمع عن غيره، عدا أن المعايير المستعملة هي اعتبارية متعددة. فلا وجود لدولتين متطابقتين أو حتى متشابهتين بالتفصيل. وتوجد فروق عظيمة بين الخطوط العظمى لتنظيم مجتمعات مساي (كينيا - تنزانيا) وإمبو (كينيا) وورو (كينيا) وكالا (كينيا - اثيوبيا) ولوأنه في وسعنا أن نصنفها جميعاً كمجتمعات «ذات فئات أعمار» وهي كائنة في جزء واحد من افريقيا. وان أردنا أن نتخذ كمثال مجتمعا منعوتاً «بالفوضوي البسيط» يشتمل على جماهير صغيرة ترتبط بقرايات متعددة، فقد يكون مجتمع الكورو (ساح العاج) مثالا حسناً لذلك. ونتوقع هنا «ملامح» للمأثور لا تحتفظ الا بتوار يخ الانساب والأجيال، ونجد فعلاً تلك التوار يخ. ولكننا نجد أيضاً تاريخاً باطنياً ينقله مجتمع سري. ولئن أخذنا مثال الكونكا الطونكا بزامبيا، فإنا نجد من جديد تاريخ النسب، ولكن في الوقت نفسه نجد تاريخ مراكز المناسك التي يحركها «المضطرون». فما من مجتمع من هذا الصنف لا توجد فيه مؤسسة رئيسية «غير متوقعة». والمثال النهائي للدول، هو مثال مملكة باتيكي (طيو)، حيث لا ترجع التقاليد الملكية الى أكثر من جيلين، بينما يفترض أن تكون للمالك تقاليد قديمة جداً. ثم اننا ونحن نجتمع المأثورات من الرموز السحرية للاسياد. نطلع بعيداً في الزمن أكثر مما نطلع إذا نحن تتبعنا الرموز المتعلقة بالرمز الملكي.

والتعميمات السريعة ليست في محلها. وإنما تعين لاحقاً «ملامح» مجموع المأثورات المعطاة. ومن الواضح أن ما تقوم به المأثورات من وظائف تعمل على تحريفها، ولو أنه ليس في الامكان أن يوضع سجل كامل للوظائف، اذ أن مأثوراً ما في مكانه أن يقوم بعدة وظائف، وأن يلعب دوراً مدققاً أو غامضاً بالنسبة لما يقوم به من وظائف. ولكن السبب الرئيسي هو أن لفظ وظيفة فيه لبس، فيستعمل في غالب الأحيان للتعبير عن كل ما من شأنه أن يقوي المؤسسة التي يتبعها أو أن يحافظ عليها. ونظراً لكون الرابط غير محسوس، فقد يوفر الخيال قائمة الاختيار بينها. على أنه في الامكان أن يميز بعض المأثور وذلك «كالمواثيق الاسطورية» تلك التوار يخ الخاصة بعائلات الملوك



والانساب وقوائم الملوك التي يمكن اعتبارها حقا، كدساتير غير مكتوبة. ويمكن افساح هذا الصنف بأن يضم اليها كل المأثور المتعلق بالأغراض القضائية العامة، كالذي يعمم الحقوق العامة على نطاقات. وهو عادة مأثور رسمي، بمعنى أنه يدعي الصلاحية المطلقة للمجتمع. وأما المأثورات الخاصة المقترنة بجمهور أو مؤسسات تنضوي تحت غيرها، فقد تحفظ حفظا أقل، اذ هي أقل قيمة، ولكنها غالبا أصدق من سواها. على أنه يجدر أن يشار الى أن المأثور الخاص هو رسمي بالنسبة الى الجمهور الذي ينقله، فتاريخ أسرة من الأسر تاريخ خاص بالنسبة لتاريخ الدولة كلها، وما من شأنه أن يتضمن أمورا عن الدولة لا يقبل المراقبة من الدولة بقدر ما يقبله المأثور العام الرسمي. ولكن المأثور الخاص يكون رسميا داخل الأسرة، وفي كل ما يخص الأسرة ينبغي أن يمارس هكذا. فن المفهوم اذن أنه ليس مفيدا أن يستعمل المأثور العائلي أو المحلي لتوضيح نقط من التاريخ السياسي العام. وشهادته من شأنها أن تحرف أقل من غيرها فتمكن من مراقبة التصريحات التي ينص عليها المأثور الرسمي مراقبة ناجعة. وبالعكس فلان الأمريهم «تحت مجموعات» فان عمق نقله والعناية به كثيرا ما يكونان غير مرضيين، كما تدل على ذلك روايات متعددة.

ومن الوظائف الأخرى المتداولة نذكر باختصار الوظائف الدينية والطقسية (كيفية القيام بالشعائر) والوظائف القضائية الخاصة (السوابق)، والوظائف الجمالية والتعليمية والتاريخية، ووظيفة شرح نص سري، وما يسميه علماء الانثروبولوجيا بالوظيفة الاسطورية.

فاذا ما وضعنا الوظائف في جهة والفرص الأدبي في جهة أخرى، أمكننا أن نكون للمؤرخ نموذجية صالحة تجعله قادرا على القيام بتقوم عام للتحريقات المحتملة التي تحملتها مصادره، مع اعطائه ارشادات عن نقلها. واذا ما اقتصرنا على النماذج التي أنتجها هذا التصنيف، فبوسعنا أن نميز الأسماء والالقب والشعارات أو الرموز. والعبارات التقليدية والعبارات التعليمية (الأمثال) وقوائم أسماء المكان وأسماء الأشخاص والانساب الخ. وفي كل ذلك فإن الأمر يتعلق «بعبارات» ينظر اليها من خلال الشكل الاساسي. فالقصائد التاريخية والمدائح والاشعار الدينية أو أشعار المناسبات الابهتالية أو الشخصية (الغنائية أو غيرها) والأغاني من كل الانماط (لتنويم الأطفال، وأغاني الشغل، والصيادين والقذافين، الخ...) كل ذلك «قصائد» من وجهة النظر هذه. و«الملحمة» كشكل أساسي تتمثل في بعض القصائد التي تقابل ما يسمى عادة بهذا الاسم. وأخيرا تشمل «القصة السردية» الأخبار العامة، التاريخية أولا، والأحاديث المحلية والعائلية والملحمة والباحثة عن أسباب الأمراض والجمالية والذكريات الشخصية. ويضاف الى ذلك هنا السوابق القانونية التي قلما تنقل بواسطة الرواية الشفاهية، وشروح النصوص والمذكرات والأحاديث العرضية، وهي أساسا أجوبة مختصرة عن أسئلة كهذه: كيف توصلنا الى زراعة القطن؟ من أين أتى قناع الرقص؟ الخ...

من القائمة السابقة نشاهد في الحال ما يمكن أن يكون العمل المحرف لمؤسسة من المؤسسات على كل هذه النماذج. على أنه يجب أيضا أن يبين أن هذا العمل تم بالفعل أو أن احتمال التحريف فيه قوي جدا. وقد نصل أحيانا الى أن نظهر مأثوراتنا صالحة حقا لكونها لا تخضع للتحريف المتوقع — مثلا، هذا شعب يدعي «أصغر» من آخر، أو أن يومية ملكية تقر بهزيمة، أو تلك العبارة التي من شأنها أن تفسر الجغرافيا الطبيعية والبشرية لبلد ما لم تعد تنطبق على الواقع الحاضر. ففي كل هذه

الحالات يبين التحليل صلاحية الأثر لكونه مقاوم عملية التسوية.

زعم كودي وواط في كتابها الخاص بظاهرة الكتابة، أن المجتمع الشفاهي يقوم دائما وتلقائيا بعملية انضباط ذاتي تمحو من الذاكرة الجماعية — ومن ثم عبارة سهوبنيوي — كل تناقض بين المأثور وبين سطحه الاجتماعي، وتدل الأمثلة السابقة على أن هذا الانضباط ما هو إلا جزئي، ولذا لا يمكن أن نرفض رفضا اجماليا قيمة المأثورات التاريخية بدعوى أنها تخدم بعض الوظائف، ويتبع ذلك أيضا أنه من الواجب أن يُجرى نقد اجتماعي دقيق لكل أثر من المأثورات.

ويزعم هذان المصنفان في عين الكتاب أن ثقافة المجتمع الشفاهي متجانسة، أي أن محتوى المعلومات في مخ كل مراهق هي ذاتها تقريبا. وليس ذلك صحيحا تمام الصحة، فالاختصاصيون الصناع والسياسيون ورجال الدين يعلمون عدة أشياء لا يعلمها معاصروهم من بين جنسهم، ولكل جنس مفكره، فلدى الكوبا (زاير) مثلا، وجدنا ثلاثة أشخاص انطلقوا من نظام واحد من الرموز، فبلغوا ثلاث فلسفات متباينة، ونظن أن الأمر هو ذاته عند الدوكون. وفيما يخص التراث فأننا نلاحظ في عدد كبير من الجماعات وجود تراث باطني سري من نصيب جماعة صغيرة، في نفس الوقت عدا تراثا باطنيا عموميا. فأسرة أشنتي المالكة مثلا كانت تعرف خبرا سريا عن أصلها، بينما لم يكن في متناول الجمهور العظيم إلا الرواية العامة. وفي رواندا كان الاختصاصيون بإيرو وحدهم يعلمون شعائر الملك، ومع ذلك كان من اللازم أن يلتصقوا جميعا لتكون معرفتهم كاملة، إذ لم يكن بين يدي كل جماعة بإيرو إلا جزء منها. وفي معظم الحفلات التذكارية التاريخية في نيجيريا كما في معظم تقاليد الملوك في أفريقيا، توجد أعمال وتقاليد سرية. فهل يعني ذلك أن المأثور السري هو حتما أصح من المأثور الظاهر؟ إن الأمر تابع للسياق، فقد يحرف المأثور السري نفسه لأسباب قاهرة خصوصا وإن الهيئة التي بيدها السرجاعة أساسية في المجتمع. ولنلاحظ هنا أننا بالتجربة لا نعرف إلا القليل من المأثور الباطني، إذ أن النظام القديم الذي تمتد فيه جذوره لم ينقرض تماما. وما نعرفه منه منشؤه المجتمعات التي انقلبت حتى أعماقها. ولا شك أن الكثير من هذا المأثور سيضمحل دون أن يتمكن المؤرخ من جمعه. ولكننا انطلاقا من التنف التي بين أيدينا نستطيع مع ذلك أن نؤكد أن بعض المأثور الأوكبوني من بلاد ياروبا قد حفر إلى حد أنه لم يعد يؤلف خبرا صالحا عن أصول الأوكبوني. بينما يبدو البايرو مثلا أكثر صلاحية، وليس منشأ ذلك طابعه الباطني بل هدف هذه المأثورات، فالأول يبرر سلطانا قويا في يد جماعة صغيرة من الناس، والثاني ما هو إلا حفظ شعائر عملية داخل الذاكرة.

ولكل مأثور سطحه الاجتماعي. فللحصول على المأثور التابع له وللنظر في قيمة نقله، ينبغي للمؤرخ أن يعرف إلى أقصى حد ممكن هذا المجتمع. فعليه أن يفحص مؤسساته كلها للوقوف على المأثور، تماما كما يفحص كل الأغراض الأدبية كي يكشف فيها المعطيات التاريخية. ففي يد الجمهور المسير للمجتمع المأثور الرسمي، وغالبا ما يتم نقله بواسطة إخصائين يستعملون طرقا مقربة للذاكرة (غالبا الغناء) ليتذكروا نصوصا، عليهم حفظها. ويراقبهم أحيانا زملاء لهم عند تلاوتها في مجلس خاص، وعند التباري بين العموم أثناء احتفال عظيم. ولكن الإخصائين ليسوا دائما مقيدين

بالسلطة، وكذلك الشأن بالنسبة لعلماء الأنساب وطيالي الرؤساء أو الملوك وحراس القبور (٢) وكهنة المعتقدات القومية. ويوجد أيضا إخصائون من مستويات أخرى. فعند الكسوزا (افريقيا الجنوبية) وجد نسوة إخصائيات في فن التمثيل للاخبار المسلية تنسومي — وبجوارهن نسوة أخريات يحسن هذا التمثيل أيضا ولكنهن لم يجعلن منه اختصاصا. وهذا الأمر متداول في الحفلات الشعبية، وأحيانا يكون بعض القامئين بالأعمال الدينية من الإخصائين في المآثور المنقول: فحراس مهندوروشونا (روديسيا) مثلا يعرفون تاريخ الارواح التي انتدبوا لحراستها. وأخيرا فان بعضهم من رواة الشعر كالسحرة يجمعون المآثورات من كل المستويات ويمثلون النصوص الاصطلاحية أما مستمعين مناسبين في ظرف معين: عرس، موت، حفل عند الرئيس الخ. وقلما توجد صورة لا اختصاص فيها حتى في مستوى تاريخ الأراضي او الاسرة، فهناك دائما أفراد من مستوى عال اجتماعيا (مثلا الأبشكنا نتاي في البدرندي في مسائل الارض)، او ممن له مواهب أحسن يترك لهم السهر على حفظ المآثور وعلى نقله. وفي النهاية هناك صنف أخير من الناس أحسن علما (ولا نجروا على استعمال لفظ إخصائين) هو صنف الذين يسكنون بجوار المواقع التاريخية الهامة. فهنا الحياة وسط المنظر نفسه الذي شاهد معركة مثلا تكون وسيلة لادخار التراث في الذاكرة.

فتفحص السطوح الاجتماعية، يمكن من الكشف عن المآثور الموجود ومن وضعه في سياقه، ومن إيجاد الإخصائين الذين ينقلونه، ومن النظر في نقله. كما يمكن من العثور على اشارات نفيسة عن تردد التمثيلات نفسها وشكلها. ان التردد معيار صدق النقل، فعند الدوكو (مالي) لا تنقل مناسك المسيحي إلا مرة كل ستين سنة تقريبا. وهذا مما يساعد على النسيان، وقلما شاهد انسان مرتين المسيحي وفهم هويته، المرة الاولى حتى يتمكن من مسامرة الثانية، ولا يتمكن من ذلك الا أشخاص عاشوا ٧٥ سنة على الأقل، ومن المفروض أن محتوى المسيحي وما يلي من تعليم، يتغير تغيرا أشد من أي شكل من أشكال المآثور، ومثال ذلك شكل حفل سنوي في نيجيريا الجنوبية.

ومن جهة أخرى فان تكريرا كبيرا لتمثيلية لا يعنى بالضرورة ان صدق النقل كان كبيرا أيضا. فهذا يتبع المجتمع. فإذا كان المجتمع يتصف بصدق دقيق جدا. فان التكرار يساعد عليه، وذلك الشأن في العبارات السحرية كتلك التي يتفوه بها لدفع السحر مثلا. فبعض العبارات مبهمة (زايين) لطرد المطر تحل في اطار جغرافي عتيق جدا، بحيث لا وجود الا لاي عنصر يذكرك فيها في بلاد مبهمة الحالي. وبالعكس اذا كان المجتمع لا يعير أي أهمية لصدق النقل، فتكرار التمثيل الكبير يفسد النقل بكيفية أسرع من التكرار الصغير. وهذه حال الأغاني الدارجة وبخاصة الروايات الشعبية الأكثر وضوحا، على أنه يمكن، بل يجب أن يراقب كل ذلك بدراسة الروايات المجموعة، ويكون مداها قياسا مباشرا لصدق النقل.

ويسبوا أن التغيرات تقع دائما في اتجاه يقوى الارتباط بين المؤسسة والأثر الذي يتبعها. وهكذا فان كودي وواط لم يكونا مخطئين تماما، فإذا ما وجدت روايات وإذا ما اصطفت على محور معين، فلسوف نستنتج ما كان منها أقل تنسيقا مع الهدف، ومع وظائف المؤسسة الأكثر صلاحية. ثم إنه قد

(٢) على أنه في بعض البلدان يمثل هؤلاء جزءا لا يتجزأ من الفئة المسيرة، مثلا فلما يخص البند — نابا (رئيس الطبول) عند الموسي.

يدل على أن أثرا ما غير صالح، سواء في حال ما اذا فقدت الروايات، وما اذا صار الأثر محجرا من نوع «أتينا كلنا من (س)» وان (س) موافق تماما لحاجيات المجتمع أو في حال تباين الروايات تباينا، كما في الأخبار الشعبية، بحيث نكاد لا نتعرف على ما يتكون منه الأثر وما يميزه على غيره. فيصير من الواضح اذاك أن معظم الروايات هي من صنع يتفاوت جدة، عن أخبار شعبية أخرى. ولكنه في كلتا هاتين الحالتين القصويين يجب التمكن من البرهنة على أن فقدان الروايات يقابل حقا معجلات قوية للمجتمع، كما أن تكاثر الروايات يقابل حقا أغراضا جمالية أو تسليات تحمل كل اعتبار آخر. ويقتضي أن نتمكن من البرهنة، على أن مصادر الحضارة غير الواعية هي التي عملت على تجانس الأثر إلى حد تحجيره في رسم لا تنوع فيه. وهذا هو فعلا تأثير الحضارة الذي يجب النظر فيه الآن بعد قيامنا بالنقد الاجتماعي.

## الاطار الذهني للأثر

نعني بالاطار الذهني التمثيلات الجماعية اللاواعية لحضارة ما والتي تؤثر في كل عباراتها وتكون في آن واحد نظرتها للعالم. ويختلف هذا الاطار الذهني من مجتمع إلى آخر، وعلى مستوى سطحي فإننا نجد بسهولة جزءا من هذا المجموع، ونحن نتفحص محتوى المأثورات بأكملها، بواسطة النقد الأدبي الدراسي، وبمقارنته هذا المجموع بسائر مظاهر الحضارة واسما الرمزية منها. فالأثر، وبخاصة عندما يكون بصورة قصيدة أو قصة، يرتفع إلى المثالية، وهو يخلق صورا مثالية. ويميل كل تاريخ إلى أن يصير نموذجا وبالتالي أسطورة. يا. سواء أكان محتواه «حقا» أم لا. وهكذا نجد أنماطا من السلوكات المثالية وقيما، وليس من الصعب كثيرا أن نكتشف أن في التراث الملكي يصير الأفراد محجورين كما في أشرطة الوستارن؛ فهذا الملك «الساحر» وذاك السلطان «العاذل» وذاك «بطل الحرب»: وفي هذا ما يحرف المعطيات إذ قد تنسب سلسلة من الحروب مثلا إلى ملك محارب بينما تمت معاركها في الواقع على يد غيره، ثم إن كافة الملوك يشتركون في سمات تعكس فكرة الملكية المثالية، وليس من الصعب أيضا أن نجد تحجيرا لشخصيات مختلفة، ولا سيما الزعماء، في مجتمعات أخرى. وذاك مثل «البطل الشقائي» الذي يحول الفوضى إلى نظام اجتماعي والذي نلقاه في كل مكان. وتحجير الفوضى يمثل حينئذ في وصف عالم انقلب بالضبط رأسا على عقب. فعند الإيجالا (نيجيريا) إن بعض المنشئين صيادون والبعض الآخر من سلالة الملوك. فيمثل البعض الأول النموذج الوضع المكتمل، ويمثل الثاني الوضع الوراثة، وقد يفسر (التأمل وجود الأوضاع) وهو يوحي كما لاحظنا أن التحجير الأول يحجب المجموع الجديدة عن السلطة وإن التحجيرين يعكسان وضعين تاريخيين متباينين حقا.

ولكن الشرح المرضي حقا يجب أن يصل إلى استنباط كل نظام القيم والأمثلة المرتبطة بأوضاع وأدوار هي قواعد كل عمل اجتماعي وكل نظام عام. وكان من اللازم أن نتنظر السنوات الأخيرة كي يجد مارك كافي لدى أهل الكنگو (زاير/الجمهورية الشعبية الكنگولية) نظاما متحجرا بسيطا يعتمد أربعة أنظمة مثالية: الساحر والكاهن والرئيس والني، وهي أوضاع تكاملية، والتعرف على أن قيمة عامة هي إيجابية أو سلبية. أمريسين وتذوق الكرم ورفض الحسد على أنه علامة سحر ووظيفة القدر، كل تلك قيم تشاهد مباشرة في تقاليد خليج البنين، كما في البلدان الواقعة بين البحيرات

أيضا. ولكن القيم تكشف واحدة واحدة كنظام منسجم يشمل كل التمثيلات الجماعية: إذ أن القيم والمثاليات لا تصف الا مثلا للسلوك الأفضل، أو أحيانا السلوك الواقعي الصلف، ومن شأنها أن تهدي السلوك الواقعي، وما يرتجى من كل فرد من الأدوار... والأدوار مرتبطة بالأوضاع وهي ترتبط بالمؤسسات والكل يكون المجتمع. وهكذا فنظريا يجب أن «يفكك» المجتمع للوقوف على أنماط عمله وعلى مثله وقيمه. و يقوم المؤرخ بذلك غالبا دون أن يشعر وبكيفية سطحية، وهو يتجنب ما اتضح من الافخاخ ولكنه يعود بسهولة دون أن يعلم، الى المقدمات التي يفرضها النظام بأكمله. ولا يوفق في «قلع» مصادره من وسطها. ونحن نعلم ذلك جيدا إذ قضينا ثمانية عشر عاما في الكشف عن علاقات من هذا النوع، في تحوير المأثورات التي أصلها قبيلة كوبا بالزاير.

ومن التمثيلات الجماعية التي تؤثر أكبر تأثير على المأثورات نذكر خاصة سلسلة من المقولات الأساسية تتقدم على تجربة الحواس وهي مقولات الزمان والمكان والحقيقة التاريخية والسببية. و يوجد غيرها كمثّل تقسيم الطيف الى ألوان، وهي أقل قيمة، وكل شعب يقسم المدة الى وحدات، اما استنادا الى النشاط البشري المرتبط بعلم البيئة، أو الى النشاط الاجتماعي المستقر (الزمان البنيوي) وكلا الشكلين من الزمان استعمل في كل مكان، كالفصل بين اليوم والليل، وتقسم اليوم الى أجزاء تقابل الشغل أو الوجبات الغذائية، وجعل النشاط مرتبط بارتفاع الشمس كما أخذت أصوات بعض الحيوانات لتقسيم ساعات الليل الخ.

ويحدد عادة الشهر (القمرى) بالبيئة وما يتبعها من نشاط، وكذلك الفصول والسنة. وفيما بعد ذلك يصير من اللازم أن يتم العد بواسطة الوحدات البنيوية للزمان، وفيما أقل من ذلك يحدد الاسبوع بالتواتر الاجتماعي، يسردورية الأسواق وهي تقرر كذلك بدورية دينية في الكثير من الحالات. وفيما وراء السنة يكون العد بتلقين ديني، أو بطبقات العمر أو بـمدة الملك أو بالجيل. وفي التاريخ العائلي قد تتسع الولادات وقد يستعمل تقويم بيولوجي، وبصفة مهمة قد يتم الرجوع الى أحداث استثنائية كالمجاعات الكبرى والجوائح الحيوانية أو الأوبئة المشهودة، أو ذوات الذنب أو لاجتياحات الجراد، وبالطبع ان هذا التقويم المبني على الكوارث ليس منتظما في مسيرته، ولأول وهلة قد تبدو قليلة الفائدة بالنسبة الى التأريخ، بينما يلوح أن الأحداث المستقرة تعد بامكانية تحويل التاريخ النسبي الى تاريخ مطلق، اذا ما علم تكرار الأجيال وأصناف العمر ومدد الملك الخ...

والعمق الأقصى للزمان الذي وجدته من جديد الذاكرة الاجتماعية يتبع مباشرة المؤسسة المرتبطة بالمأثور، فلكل منها عمقه الزماني الخاص، ولا يرجع تاريخ العائلة الى بعيد، إذ أن الاسرة لا تعد سوى ثلاثة أجيال، وانه في الغالب لا فائدة كبرى في تذكر الأحداث السابقة، فالمؤسسات التي تشمل أكثر عدد من الناس، لديها الحظ الأوفر لكي تدفعنا الى الغوص في الزمان الى أبعد مدى. ويحقق ذلك فيما يخص القبيلة، والنسب الأقصى وصنف العمر من نوع «ماساي» والملكية. وفي السهوب السودانية فان تقاليد الممالك والامبراطوريات بتكرور وغانة ومالي، التي عالجها المؤلفون العرب والسودانيون تصل حتى الى القرن الحادي عشر. على أن المؤسسات كلها تكون محددة أحيانا، بنفس مفهوم عمق الزمان، كما هو الأمر عند البتيكي (الجمهورية الشعبية الكونغولية). حيث يرجع الكل الى جيل الأب أو جيل الجد. ويدخل الكل في باب الزوج والفرد، فالفرد يقع في زمان «الآباء» والزوج في عهد «الأجداد» بما في ذلك التاريخ الملكي.

و يبين هذا المثال أن فكرة شكل الزمان مهمة جدا. ففي منطقة ما بين البحيرات تعترضنا فكرة الزمان الدورية. ولكن حيث أن الأدوار تتعاقب فإن هذا المفهوم يؤدي الى الحلزونية، وفي منظور آخر للمجتمعات عينا فميز فترات، وعلى الخصوص فترة القوضى والفترة التاريخية. وفي بلدان أخرى كما عند البتيكي، فإن الزمان ليس خطيا، وهويتأرجح بين أجيال متعاقبة، ولا يعني ما لذلك من النتائج في عرض المأثورات.

وأما أن يكون تصور المكان ذا أهمية، فإنه في هذا السياق أقل وضوحا. ولكننا غالبا نميل الى جعل أصل شعب من الشعوب في مكان أو في اتجاه التقويم: اتجاه «مقدس» أو «علماني»، حسب ما يظن من أن الانسان يسير من المقدس الى العلماني أو العكس. وكل شعب يفرض نظاما من اتجاهات جغرافيته. وكثيرا ما كانت الأنهار محورا لاتجاهات الاساسية. فيسجل معظم الشعوب اتجاه قراهم وحقولهم أحيانا (كوكويا في جمهورية الكونغو) في هذا النظام من المحاور، كما يعمل الكثير منهم أيضا على توجيه قبورهم. وتكون النتائج أحيانا غير متوقعة، والفضاء المرتب حسب محور واحد، داخل في جملة التضاريس، يتغير بحسب الوضع النسبي لعناصر هذه التضاريس. فهنا يكون «الحضيض» في الغرب وهناك يكون في الشمال، وهنا يكون «نحو القمة» جهة الشرق وهناك جهة الغرب، فيلاحظ أن الهجرات قد يكون منشؤها اتجاهات مخيرة كما هو الشأن لدى الكوبا (زاير) والكاكورو (تنزانيا). ويدخل هذا الخبر في علم الكونيات أكثر منه في التاريخ، ولكن قد يؤدي الأمر الى أن تشاهد تغيرات في نقط الأصل، نتيجة مفاجآت مما يبرز أمامنا، فالمجتمعات التي تستعمل سير الشمس لتعيين محور الفضاء هي وحدها التي قد توفر ارشادات صحيحة في مادة حركات الهجرة العامة، ولكن من سوء الحظ هذه الشعوب قلة فإعدادا ربما افريقيا الغربية، حيث معظم الشعوب يرجعون الى الشرق لتعيين أصلهم.

وفكرة السبب ضمنية في كل مأثور منقول، وقد تعرض في شكل سبب مباشر متميز بالنسبة لكل ظاهرة. ففي هذه الصورة لكل أمر أصل يقع مباشرة في بداية الأثر، وتذكر السببية أحسن ادراك بالنظر في الأسباب المنسوبة الى الداء. فهي مرتبطة بقوة مباشرة بالسحر وبالأجساد الخ. والرباط مباشر، ويبدو من هذا النمط من السببية أنه يشعر بالتغير أساسا في بعض الميادين المحددة كالحرب وتنازع الملوك الخ، حيث تتدخل المتحجرات. ولنذكر أخيرا أن هذه اللمحة عن فكرة «السبب» هي ملخصة جدا ويجب أن تستكمل بفكرات سببية أكثر تعقيدا ولكنها موازية لها، وهي لا تهم سوى مؤسسات اجتماعية ثانوية.

وأما الحقيقة التاريخية فتبقى مرتبطة جدا بصدق الكلمة المنقولة، وهكذا فقد تكون نتيجة اجماع المسيرين (إيودوما، نيجيريا) أو التأكد من أن المأثور موافق لما قاله الجليل السابق.

وتتألف مقولات المعرفة فيما بينها وترابط مع عبارات ترمز للقيم وتتألف، لانتاج نص يصفه علماء الانثروبولوجيا «بالأسطورة». والمأثورات الأكثر ارتباطا بالبيئة الاسطورية، هي تلك التي تعبر عن بدء الخليفة حيث الجوهر هو علة وجود الشعب. وهكذا فإن كتلة متشعبة من أخبار الكوبا التي تعالج الأصول والهجرات على متن الزوارق الجذعية، وجد لها أخيرا تفسير بفضل ما اكتشف من تصور باطن للهجرة: وعند الكوبا تتم الهجرة في زوارق جذعية من المصب (المقدس) الى (اللا ديني)، وكذلك تفسير عدد من أسماء الهجرات، ومن مشاهد الخلق التي تقدم بألفاظ علم الكونيات. ولم

يكن الأمر هنا واضحا، بينما كان الترابط جليا في كثير من الأجناس الأخرى. وهكذا فإن عددا من علماء الانتولوجيا، ممن ساروا على منوال بيدلمان من سوء الحظ، ومن العلماء البنيويين أو الاجتماعيين الوظائفيين قد آل بهم الأمر، الى انكار أي قيمة لكل المأثورات السردية اذ ربما يكون كله عبارة عن بنيات معرفية للعالم توتر كل فكرة مسبقة، كالمقولات الحتمية. والرأي نفسه يطبق على ما أمامك من نص كما على نص بيدلمان... ومن الواضح أن هؤلاء الانتروبولوجيون تجاوزوا الحدود. ثم إن عددا من تفاسيرهم تبدو افتراضية. ولكن على المؤرخ أن يتذكر أنه ملزم في كل صورة خاصة، ان يدقق بما لديه من موجبات لرفض مأثور أو للشك فيه. وليس في امكانه أن يرفض مأثورا، الا اذا كان احتمال الابداع فيه مدلول رمزي، حصرا، وانه احتمال قوي حقا يمكن اقامة الدليل عليه. ذلك أن المأثور يعكس عموما «أسطورة» بالمعنى الانتروبولوجي لهذا اللفظ وللمعطيات التاريخية. وفي هذه الظروف، فإن كتب التاريخ هي نصوص من علم الاساطير، اذ أن كل نموذج متحجر نابع عن نظام من القيم والأغراض، هو خبر اسطوري، ولكنه في آن واحد شبكة تاريخية يجب فك رموزها.

## التاريخ اليومي

لا تاريخ بلا يوميات والا فأننا لا نميز بين السابق واللاحق. وعندما المأثور المنقول دائما بيوميات نسبية تمثل في قوائم أو في أجيال. وبصفة عامة تمكن هذه اليوميات من وضع كامل مجموع المأثور للجهة المدروسة في اطار الانساب أو قائمة الملوك أو أصناف الأعمال التي تشمل الساحة الجغرافية الواسعة، ولكنها لا تمكن من الربط بين المتواليات النسبية وبين أحداث خارج المنطقة. وتتم أكبر الحركات التاريخية وحتى بعض التطورات المحلية دون أن يشعر بها، أو تبقى مشكوكا فيها، ذلك أن الوحدة المتوفرة للتاريخ اليومي، ضيقة جدا من الناحية الجغرافية. فنسب الاسرة لا يصلح الا لها وللقرية أو القرى التي تسكنها، فيوميات الامبو مثلا مؤسسة على طبقات الأعمار ما لا يشمل لكل منطقة ضيقة يلقي فيها الشبان في آن واحد. ومن اللازم اذن أن يربط في ما بين اليوميات النسبية وان أمكن أن تحول الى يوميات مطلقة، وينبغي قبل ذلك أن يحل مشكل آخر وهو أن يتم التحقق من كون المعطيات المستعملة توافق واقعا لم يحرف من الناحية الزمانية.

هذا ويتضح أكثر فأكثر أن اليوميات المنقولة خاضعة لبعض عوامل التحريف المتصاحبة العاملة على اتجاهات متعاكسة، فبعضها يقلص المدة الحقيقية للماضي وبعضها يمددها. ثم انه يوجد اتجاه الى جعل الأجيال والوراثات وسلسلة أصناف الأعمال منتظمة حتى تصير موافقة للنظم المثالية الحالية للمجتمع. والا توفر المعطيات لنا سوابق من النزاعات من كل نوع. وعملية الانضباط واقعية حقا، وفي بعض الصور الممتازة كما في رواندا تناط عهدة التصرف في المأثور بجمع متشعب من الاختصاصيين، أكدت أقوالهم التنقيبات الأثرية.

لقد أثبت الانتولوجيون أن المجتمعات المتنوعة بالمتقطعة ترمي الى الغاء الأجداد الذين «لا فائدة فيهم»، أي الذين لم يكن لهم أعقاب ومازال فريق منهم يعيش اليوم كفرق متميز. وهذا ما يفسر السبب الذي من أجله يؤول العمق النسبي في كل جماعة من مجتمع معين الى أن يبقى ثابتا. ولا يستعمل الا الأجداد «الصالحون» لتفسير الحاضر. وينشأ عن ذلك أحيانا تصادم قوي في العمق

النسبي. ثم أن الأحداث الديموغرافية قد تقصر فرعا من الأعقاب على عدد قليل جدا بالنسبة الى سائر الفروع المتفرعة عن إخوة أو أخوات مؤسس الفرع الأول، بحيث لا يتمكن هذا من البقاء في الموازنة من جموع كبيرة مجاورة، فيمتصه أحدهم، واذك يعاد تعديل النسب و يعوض مؤسس النوع الصغير بمؤسس الجمع الأكبر. ويختزل النسب، ويعبر غالبا عن وحدة العرق بوضع جد وحيد في بداية النسب، فهو الرجل الأول والبطل المؤسس الخ. وسيكون أب أو أم الجد «الصالح» الأول وهكذا يتم مواراة الفجوة بين الخلق وبين التاريخ الواعي. ومن سوء الحظ فإن عمل هذه الطرق قد أدى في غالب الأحيان الى وضع يتعذر فيه الرجوع بأمان الى أكثر من بضع أجيال سابقة. وقد ظن أن عددا من المجتمعات الافريقية أفلتت من هذا العمل ولا سيما الدول. فلا موجب لكون قائمة تعاقب الملوك مخطئة، أو لكون نسبهم مشكوكا فيه، ماعدا أنها أحيانا زيفت عندما عاوضت أسرة منه أسرة أخرى متبينة نسب الأولى لتبرير نفسها. ولكن عدد الملوك وعدد الأجيال كان في الظاهر صحيحا. وعمل التصادم والتمديد وإعادة التنظيم قد يلحق المعطيات التابعة للأسر المالكة كما يلحق غيرها. ففي قوائم الملوك مثلا قد يحذف أسماء الغاصبين أي الذين اعتبروا غاصبين في الحال أو في أي وقت لاحق لحكمهم. وقد يغفل عن الملوك الذين لم يبروا بكل الطقوس الرسمية التدريجية التي قد تكون طويلة جدا، وقد يعد ملكا واحدا ملك تولى عن العرش ثم استعاد السلطة. وفي كل ذلك ما يقصر السير التاريخي.

ولارجاع الامور الى نصابها حيث تكون الوراثية على خط الابوة وحسب أولوية الولادة كما هو الأمر في المنطقة بين البحيرات، يوجد عدد عجيب من التعاقبات النظامية أبا عن جد، تتجاوز بكثير المعدل وحتى الارقام القياسية التي شوهدت في غيرها من المناطق بالعالم. و ينتج عمل التنظيم هذا نسباً نموذجيا خطيا، يستمر منذ البداية حتى القرن التاسع عشر تقريبا حيث يصير متداخلا متشعبا. والنتيجة أننا نطيل في امتداد الاسرة، ونحن نزيد في عدد الأجيال، حيث يقدم الورثة من الحواشي في مقام الأب والابن، وقد يحدث التمديد أو التقصير ما يوجد من اشتباه بين الترادف، وبين الاسم في الحكم أو اللقب وبين الاسم الشخصي، وخواص أخرى من هذا القبيل. وكما كان الشأن في العهد الاستعماري ولا سيما في جهات الادارة غير المباشرة، فإن الضغط في تمدد الاسر كان قويا، اذ أن الاوربيين يولون احتراما كبيرا للقديم، شأنهم شأن عدد من المجتمعات الافريقية أيضا، فاستخدموا كل ابهام وكل الوسائل التي من شأنها أن تمدد الاسر الحاكمة، واستعملت كل الأسماء الممكنة، وضوعفت عند الإقتضاء دورات أسماء الملوك أو زيد فيها، وشذبت الحواشي كي يستطيل الجذع.

وأخيرا وضمن نطاق الممالك أيضا، فإننا كثيرا ما نجد الهوة واسعة بين البطل المؤسس الذي ينتمي الى عالم الكونيات وبين أول ملك تاريخي «صالح». والنتيجة أنه يجب القيام ببحث مدقق لمعرفة هل ان السبل الموصوفة قامت بعملها أولا في الحالات الخاصة. وفي هذا الشأن وجود مواطن خلل في الخلافة وفي الانساب هي أحسن ضمان للاتصال اذ هي تظهر مقاومة للتسوية الانضباطية. ولم تكن مجتمعات طبقات الاعمار موضوع بحث منظم هكذا، وبعض الحالات تظهر ان عمليات التعديل تتدخل لاصلاح الدورات أو الحد من الخلط بين الترادفات. ولكن ضروب تعاقب



فئات الأعمار لم تدرس بعد، ولا يمكن التعميم الا بالقول بأن الشكل المعروض شبيه بمشكل الأجيال، اذ يتم العد بواسطة الأجيال.

وينتج عن دراسة احصائية مدققة أتت بالمعطيات السابقة، أن معدل الجيل الحاكم يقع عادة فيما بين ٢٦ و ٣٢ سنة. وكانت العينة غالبا على الخط الابوي. ولكن الاسر الحاكمة على الخط الامي لا تتجمع مثلا في الجزء الاسفل من التوزيع الاحصائي، وتكون المعطيات صحيحة أيضا في هذه الصورة. ومعدل مدة الملك يتغير تغيرا كبيرا مع نظام الخلافة حتى أنه لا يمكن أن نتقدم بمعطيات عامة صالحة. وحتى في صور الخلافة المتطابقة توجد انحرافات عظيمة بين مختلف الاسر الحاكمة.

واذا ما تجهزنا بالمعطيات التي عرضناها آنفا، يكون في الامكان أن نحول اليومية النسبية للأجيال بيومة مطلقة، على الأقل اذا لم يكن التفاوت في الأجيال كبيرا بحيث تصبح ممارستها تافهة. فيحسب أولا المعدل بين أول علامة زمنية مطلقة يوفرها تاريخ مكتوب، وبين الحاضر، ويطبق هذا المعدل على الماضي اذا وقع بين ٢٦ و ٣٢ سنة، ولكن المعدلات الوسطية ليست غير ذلك، ويقوى احتمالها مع عدد الأجيال المعتبرة، ولا يمدنا الحساب بتاريخ معقول الا فيما يخص رؤوس المتتاليات، وفي أحسن الحالات مرة في القرن. وثمة خطأ ينشأ عن كل تدقيق أكثر تركيزا، وعلى كل يقتضي أن تسبق هذه التواريخ المطلقة المشتقة هكذا بعلامة تدل على ذلك. فتأريخ ١٦٣٥ (المسوق بهذه العلامة) بالنسبة الى قيام مملكة كوبا يشير الى أن هذه القيمة حسبت انطلاقا من أجيال ومن قوائم الملوك.

وذلك أن هذا العمل ينطبق على قرار مدة الملك المعدلة. وقد شاهدنا لماذا يكون هذا المعدل أقل صلاحية منه بالنسبة الى الأجيال وأحد الأسباب في ذلك، هو أننا اذ طبقنا المعدل على الماضي نفترض أنه لم يقع أي تغير في سن الخلافة، على أنها ربما تغيرت على مر الزمان، وفعلنا انها تغيرت حقا منذ عهد مؤسس الاسرة اذ أن التأسيس تجديد، وقد تكون التعاقبات على العرش قد اقتضت بعض الوقت كي تستقر في غمطها، وينبغي أيضا أن تعتبر التغيرات التي تكون قد طرأت على معدل الحياة، واذا أن مجال الخطأ أكبر، فيكون من المفيد أن يكون لدينا توارخ مطلقة مثبتة بالكتابات أو بوسائل أخرى ترجع بعيدا الى الماضي.

وفي مادة اليوميات النسبية يمكن السعي أيضا للتنسيق بين متتاليات مختلفة متجاورة وذلك عن طريق التزامن، فمعرفة بين ملكين ذكر اسمها تمدنا بتزامن، وهذا مما يمكن من التأليف بين يوميات نسبية متضمنة كما يمكن من صهرها في يومية واحدة. وقام الدليل بالتجربة على أن التزامنات بين أكثر من ثلاثة وحدات منعزلة ليست صالحة، ويبرهن على أن أ - ب - ج - تعايشا في فترة واحدة أو أن أ - ب - ج - تعايشا لانها كليها التقيا مع ب، اذن أ = ب = ج ولا يمكن تجاوز ذلك، وكون التقاءات أ - ب - ج - مع ب، قد تمد على طول مدة الحياة النشطة ل (ب) يرر لماذا أ = ج يمثل الحد النهائي. وأقامت الدراسات التجريبية على يوميات الشرق الاوسط الدليل على هذه النقطة، ولا مانع اذا استعملنا التزامنات بتحفظ من أن نبنى حقولا موحدة كبيرة بما فيه الكفاية، ذات يوميات نسبية مشتركة.

وبالنظر في معطيات الأجيال يمكن الحصول على تاريخ مطلق، فاذا ذكر الماثور كسوف للشمس، واذا كان لدينا عدة توارخ للكسوفات يجب اقامة الدليل على الكسوف الأكثر

احتمالا. ويمكن القيام بعين العمل بالنسبة الى أحداث فلكية أخرى، أو الى أحداث مناخية خارقة للعادة تسببت عنها بعض الكوارث. وهنا يكون اليقين أقل منه في صورة كسوفات الشمس، إذ يوجد مثلا في افريقيا الشرقية عدد من المجاعات أكثر من عدد كسوفات الشمس، وفيما عدا هذه الظاهرة الطبيعية فإن سائر المعطيات من هذا النوع صالحة على الخصوص للقرنين الأخيرين مع أن قليلا من الشعوب احتفظ بذكري كسوفات ترجع الى مدة أقدم بكثير.

### تقوم المأثور المنقول

بعدما أخضعت المصادر الى نقد معمق من الناحية الأدبية والاجتماعية، يكون في الامكان أن تلحق بها درجة من الاحتمال، ولا يمكن أن يكون هذا الحكم كليا ومع ذلك فهو لا يقل واقعية، وفي الامكان أن يزداد بقوة، في الحظوظ التي توفر صحة أثر، اذا أمكنت مواجهة المعطيات التي تحتوي عليها بالمعطيات المستمدة من آثار أخرى مستقلة أو من مصادر أخرى. فاذا ما اتفق مصدران مستقلان تحول الاحتمال الى ما يقرب من اليقين. ويصبح الأمران نبرهن على استقلال المصادر. ومن سوء الحظ لقد وثق كثيرا بنقاوة النقل وانعزال الخبر انعزالا محكما من عرق الى آخر. وفي الواقع فإن قوافل التجار كالأمتنلا بانغولا، وبلا شك كالديولا والهوسا، قد تأتي بنتف من التاريخ تقحم في التاريخ المحلي، اذ هي تجد لها فيه محلا لائقا. وثمة روابط تكونت بين ممثلي جوع مختلفة في بداية العهد الاستعماري فتبادلو أخبارا تهم تقاليدهم. ويلاحظ ذلك بوضوح في الجهات ذات الادارة الغير المباشرة حيث، حض الامتياز العملي الممالك على انشاء تاريخها. أضف الى ذلك أن هذه الوثائق تأثرت بالانماط الأولى التي كتبها الافارقة، ككتاب جونسن عن ملكة أوبو (نيجيريا) أو كتاب كاكوا (أوغندا) بالنسبة الى بوكندا. ونشأ عن ذلك عدوى عامة بين كل التواريخ المكتوبة بعد. أو أنها في بلاد ياروبا، وفي منطقة ما بين البحيرات الناطقة بالانكليزية، مع محاولات للترامن حتى ترغم القائمة الملكية الى بلوغ ما للنماذج من طول. وهذان المثالان يوضحان مدى ما يجب من الحذر قبل أن نصرح بأن المأثورات مستقلة حقا. فيجب التنقيب في خزائن الوثائق والنظر في العلاقات القائمة قبل الاستعمار، وتقدير كل شيء باهتمام قبل أن نصرح بالحكم.

وقد تمدنا المواجهة مع المعطيات المكتوبة أو الأثرية باثبات الاستقلال المنشود، بيد أنه ينبغي هنا أيضا أن يقام الدليل على هذا الاستقلال. فاذا ما خصص الأهالي موطننا مشهودا لأول المحتلين للبلاد بالاستناد الى المأثور، وذلك بموجب ما يشاهد من آثار الاحتلال البشري المخالفة للآثار التي يبقها السكان الذين يعيشون هناك حاليا، فلا يمكن بكيفية آية أن يعزى هذا المواطن للمحتلين الاولين للبلد. وليست المصادر مستقلة اذ ينسب المواطن الى هؤلاء السكان بعمل منطقي مسبق، وهذا مثل من تعظيم الصور، وتفرض هذه الملاحظة تخمينات مفيدة ولا سيما فيما يخص الآثار المدعوة (تلم) ببلاد دوكون (مالي) وكذلك بالنسبة لمناطق سيريكوا (كينيا)، اذا ما اقتصرنا على هذين المثالين المشهورين، على أن أمثلة مواقع كمبي صالح (موريتانيا) وبحيرة كيسال (زايير) الشهيرة توضح ان علم الآثار قد يوفر الدليل الساطع على صحة المأثور المنقول.

وكثيرا ما يعسر التوفيق بين المصدر الشفاهي والمصدر المكتوب، واثبات ذلك اذ يتحدث المصدران عن أمور مختلفة. فالأجنبي الذي يكتب يقتصر عادة على الأحداث الاقتصادية والسياسية

التي لم تدرك بعد ادراكا حسنا في بعض الأحيان. والمصدر الشفاهي الموجه الى الداخل لا يذكر، اذا ما ذكر الاجانب. ولذلك تتكرر المواطن التي لا يلتقي فيها المصدران ولو أنها عاجلا فترة واحدة. وتوجد حالات التوافق، ولا سيما التوافق الزمني، في الأماكن التي أقام فيها الأجانب منذ عهد بعيد، حتى صاروا يهتمون بالسياسة المحلية ويدركونها. ووادي السنغال مثال لذلك منذ القرن السابع عشر.

وفما اذا اختلف مصدران شفاهيان، فالاولوية للأشد احتمالا. ولا معنى للبحث عن حل وسط، كما هو السلوك المتداول بكثرة، واذا ما كان التخالف واضحا بين مصدر شفاهي ومصدر أثري يكون الحل بجانب الأثري، ان كان من المعطيات المباشرة، أي شيئا محسوسا لا نتيجة استقراء، وفي الحالة الأخيرة يكون احتمال المصدر الشفاهي أقوى. والتناقض بين المصدر المكتوب والمصدر الشفاهي يفصل بالضبط كما لو كان الأمر خاصا بمصدرين شفاهيين. ولذا ذكر ان المعطيات الكمية المكتوبة غالبا ما تكون هي الأحسن، وأن معطيات الحفر الشفاهية كثيرا ما تتفوق على المصادر المكتوبة.

ولكن المؤرخ يسعى في النهاية الى اثبات الأمر الأكثر احتمالا. وأخيرا، اذا ما كان لدينا مصدر واحد شفاهي، بينما أنه من المحتمل أن تكون لحقته تحريفات، فن الواجب تأويله بعد أخذ التحريفات بعين الاعتبار، ومن الواجب استغلاله. واذا ما تعذرت اقامة الدليل «عامة» أو «منطقيا» على عمل التحريف، فلا يكون في الامكان تأويل المصدر، تماما كما لو قامت التحريفات بعملها الكامل. وهذا عيب علماء الانتولوجيا الذين ينكرون كل قيمة تاريخية للمأثور. وكثيرا ما يشعر المؤرخ بعدم الرضى بمعطياته المنقولة، وقد يسجل أنه لا يثق حقا بصحتها، ولكن يتحتم عليه أن يستخدمها ما لم تكتشف مصادر أخرى.

## الجمع والنشر

ينتج عن كل ما عرض أنه يتحتم أن يتم ميدانيا جمع كل العناصر التي تخول تطبيق النقد التاريخي على المأثور، وهذا يقتضي معرفة حسنة بالحضارة والمجتمع واللغة أو اللغات المعنية بالأمر، وفي امكان المؤرخ أن يحصل عليها أو أن يضم اليه إخصائين، ولكن حتى في هذه الحالة يكون عليه أن يتعمق في كل المعطيات التي يعرضها عليه عالم الانتولوجيا والالسنى والمترجم، الذين يساعدونه في عمله، وعليه أيضا أن يتخذ سلوكا منظما ازاء المصادر التي يجب جمع كل رواياتها. وهذا كله يفترض مسبقا اقامة ميدانية طويلة، يزداد طولها كلما كان المؤرخ قليل الاستئناس بالحضارة المعنية. ويجب أن نؤكد أن ثمة معرفة فطرية تحصل لمن يدرس تاريخ مجتمعه الخاص، لا تكون كافية، بل لا بد من تأمل اجتماعي ولا بد من اعادة اكتشاف حضارة الباحث الخاصة، وحتى التجربة الالسنية تبين أن المؤرخ المنتسب الى البلد المعني، لا يفهم بسهولة بعض الوثائق كالمذائح، أو هويلقي صعوبة لأن اللهجة المتحدث بها غير لهجته. على أنه ينصح بمراقبة ما نقله الالسنى في لهجته الأم ولو مراقبة جزئية للوثوق من أن النقل يشمل كل العلاقات اللازمة لفهم النص بادخال الجرس الصوتي مثلا.

يتطلب جمع المأثورات اذن وقتا طويلا، وكثيرا من الصبر ومن التأمل، فبعد الفترة الأولى للمحاولة يجب أن ينظم الباحث تصميا لعمله مع الانتباه الى ما لكل حالة من خصائص. وعلى كل، فلا بد من زيارة المواقع المقترنة بالسير التاريخية المدروسة وقد يضطر الباحث أحيانا الى استعمال عينته من المصادر الشعبية، ولكنه لا يمكن استعمال عينة عشوائية. ويجب أن تدرس في منطقة ضيقة، القواعد التي تعين نشأة روايات مختلفة وان يستخرج منها المبادئ التي يجب الاحتفاظ بها لتكوين العينة، ولا يمكن أن تضمن النتيجة عينها بالجمع المكثف العشوائي، ولو أن العمل يسير بسرعة. فعلى الباحث أن يعتني بدراسة النقل. ونحن نجد مخبرين يأخذون معلوماتهم أكثر فأكثر عن مؤلفات نشرت عن تاريخ المنطقة: كتب مدرسية، صحف أو نشرات علمية، ولعلمهم أخذوها عن محاضرات اذاعية أو تلفزيونية، ولا مناص من تأكد هذا الشكل كلما تكاثرت البحوث.

ويلاحظ الآن وجود عدوى أقوى، فقد أخذ المأثور، بعض المخطوطات من عهد قديم جدا أحيانا، وخاصة تقارير بداية الادارة الاستعمارية، على أنها حقيقة «الأجداد» ومن الواجب أن تراقب خزائن الوثائق كما يراقب وجود كتب علمية وكتب مدرسية واذاعات الخ. اذ أنه اذا درس الأمر ميدانيا، يكون في الامكان غالبا أن تصحح هذه المداخلات بالبحث عن روايات أخرى، وبالتوضيح للمخبرين، ان الكتاب أو الاذاعة ليسا حتما على حق في هذه المادة، ولكن اذا ما ترك الميدان فقد فات الأوان.

وينبغي أن تكون للبحث بنية حسب وعي تاريخي واضح. وليس بالامكان جمع «كل المأثورات» واذا ما حاولنا القيام بذلك، فلا نجني سوى كومة مضطربة من المعطيات. ويجب أن نعلم قبل كل شيء ماهية المشاكل التاريخية التي نريد درستها، وأن نبحث عن مصادرها تبعاً لذلك. ولعرض المواضيع، يجب بالطبع أن نتمتع في الحضارة المعنية. ويمكن اذن كما هو الشأن غالبا، أن نقرر متابعة درس التاريخ السياسي. ولكن في الامكان أيضا أن نختار مسائل من التاريخ الاجتماعي أو الاقتصادي أو الديني أو الشقا في أو الفني الخ... وفي كل حالة تكون الطريقة المستعملة في جمع المعطيات متباينة. وأكبر عيب في البحث حاليا، هو انعدام الوعي التاريخي، وانقيادنا بقوة الى ما نجد أمامنا.

وفقدان الصبر عقبة أخرى، يريد المرء أن يقطع بسرعة ميدانا كبيرا، وتكون المصادر المجموعة في هذه الظروف عسيرة التقويم وتبقى متباينة جزئية. وتنعدم الروايات، ولا يكون لدينا كثير من الارشادات عن تغير المصدر وتمثيله ونقله، فالعمل عقيم، وشر الآثار هو ما يخلقه العمل في نفوس الباحثين الآخرين من انطباع يظن بمقتضاه أن هذه «المنطقة» تم درستها. وفي ذلك ما يوقف احتمال بحوث أحسن في المستقبل. ولكن لنذكر أن المأثور المنقول بضيع، ولو أنه من حسن الحظ انما يضيع بسرعة أقل مما يظن عامة، وليست ضرورة العمل بمبرر لعدم اتقانه.

ولقائل أن يقول — وقد قيل ذلك بالفعل — إن ما نعرضه هنا خيالي مثالي مستحيل. ومع هذا فانها الطريقة الوحيدة التي تمكنا من العمل كأحسن ما يمكن مما لدينا من وسائل في فترة من الزمان معينة. وليس هناك طريق أقصر. وان رأى بعضهم أن هذا المجموع من العمل لا يوفر لنا الا حصيلة هزيلة للتاريخ في بعض الأحيان، فهو يغفل عن أننا أثرنا في الوقت نفسه المعلومات العامة في اللغة والأدب والتفكير الجماعي والبنيات الاجتماعية للحضارة المدروسة.

ولا يكون العمل كاملا بلا نشر، اذ هو لا يكون في متناول مجموعة العلماء. فيجب أن نفكر على الأقل في تصنيف المصادر مع مقدمة وتعليقات وفهارس لتكون رصيذا من الوثائق مفتوحا للجميع. وكثيرا ما يقرن هذا العمل بنشر مؤلف مستند جزئيا أو كليا على هذا الرصيد. وما من ناشر ينشر المجموع بأكمله، مع الروايات وتأويل المعطيات. ولا يليق بالتأليف أن يكون مغمورا وسط كتلة من الوثائق الخام. ولكن كل مؤلف سيفسر كيف جمع الماثور، وسيعطي فهرسا مختصرا للمصادر والشواهد من شأنه أن يمكنه القارئ من الحصول على رأي عن قيمة الجمع وعن مساهمة المؤلف على حدة في المؤلف، بعين السبب. والمؤلف الذي يصرح: «بذكر الأثر...» يكون قد قام بتعميم خطير. ويبقى أن نتحدث عن نوع من المطبوعات الاختصاصية، وهونشر النصوص. هنا يطبق نفس الأسلوب المتبع في نشر المخطوطات. ويؤدي هذا عمليا، وفي أكثر الأحيان، الى تعاون بين اختصاصيين مختلفين. لا يجمع الواحد منهم أكثر من صفة واحدة، مؤرخ، لغوي أو عالم أجناس. والواقع أن أفضل مطبوعات النصوص، المتوفرة اليوم، هي كلها تقريرا عبارة عن مؤلف ضخم بقيادة واحدة، يشترك فيها عدد من المساعدين، أحدهم لغوي.

ونشر النصوص عبء جحود وصعب. وهذا ما يفسر سبب قلة ما يحقق منها، بيد أن عددها يزداد بفضل المؤازرة التي يقوم بها اختصاصيون في الآداب اللفظية الافريقية.

## النتيجة

يتابع حاليا جمع التراث المنقول في كل بلدان افريقيا. وتهم مادة المعطيات المجموعة خاصة القرن التاسع عشر، وهي لا تمثل سوى مصدر من المصادر لاعادة البناء التاريخي، وتمثل الوثائق المكتوبة المصدر الآخر الرئيسي لهذه الفترة.

وتعرض سنويا خمسة أو ستة مصنفات دراسات تكاد تكون مبنية كلها على الماثورات. وهي تعالج خاصة التاريخ السياسي والممالك، بصورة غموضجية، بينما نجد من الوجهة الجغرافية نجما أقوى في افريقيا الشرقية والوسطى والاستوائية، حيث الماثور هو الوثيقة الوحيدة غالبا. وقلما ترجع اليوميات الى ما بعد عام ١٧٠٠ وتصبح مشكوكا فيها فيما قبل هذا التاريخ. ولكن معرفة ظاهرة الماثور بكيفية أعمق تساعد على تقويم ما جمع منها من قبل تقوينا أحسن، فن ذلك أن استغلال الماثور الذي رواه كفازي في القرن السابع عشر، لم يعد ممكنا الا بعد دراسة ميدانية أجريت سنة ١٩٧٠.

وعلاوة عن الماثورات الحديثة يوجد رصيذ فسيح من المعطيات الأدبية، كالقصص الملحمية والمعطيات الكونية التي يمكن أن تكون أخبارا تاريخية تتعلق أحيانا بفترات بعيدة جدا. وملحمة سندجاتا مثال من ذلك. فالماثور لا يمكن أن يؤرخ من ذاته، فالذاكرة المحرفة فيما يخص بعض المواقع التاريخية فيما بين البحيرات، احتفظت بذكري تؤرخ بالقرن الأول من التاريخ الميلادي أو حتى بما قبل هذا التاريخ. ولكن الماثور المنقول يصمت عن التأريخ، ولم يحل هذا المشكل سوى علم الآثار. ويلوح أيضا أن ماثورات كفازي تحتوي على راسب تاريخي على قيمة عالية بالنسبة الى ماضي شعوب انغولا. فيوجد فيه مراجع مكثفة عن أسر مالكة تعاقبت، والى أشكال حكم توالى، وبالاختصار هو يعرض باقتضاب عن جهة كوانغو العليا تغيرات اجتماعية سياسية قد ترجع الى عدة قرون، أو حتى ألف عام قبل ١٥٠٠. ولكن هذا المنظور لا يوجد عليه علامات زمانية.

ولنشر الى عقبة أخيرة وذلك ان جمع المأثورات مازال سطحيا على الأغلب وتأويله ما زال متقيدا بالنص الحرفي «ملتصقا» بالحضارة التي نشأ عنها. وتساهم هذه الظاهرة في الابقاء على صورة لافريقيا يكون فيها التاريخ حديثا عن أصول وهجرات، والمعلوم أن لا شيء من ذلك حق. ولكن لا بد أن نلاحظ أن هذه الصورة هي التي يعكسها المأثور الرامي الى اثبات «هوية». على أن التأويل الغير المتعمق والجمع الذي يعوزه النظام تلحقها معظم الانتقادات الموجهة ضد استعمال المأثور المنقول، ولا سيما من بين علماء الانتولوجيا.

وبرهنت التجربة المحسوسة على أن أنفس قيمة للمأثور تتمثل في تفسيره للتغيرات التاريخية داخل حضارة ما. وذلك حق الى حد أنه، كما يشاهد ذلك في كل مكان، ورغم غزارة المصادر المكتوبة للفترة الاستعمارية، يجب اللجوء دائما اما لشاهد عيان واما للمأثور لتكاملها قصد توضيح التطور السكاني. ولكننا نلاحظ أيضا أن المأثورات كثيرا ما تقود الى الخطأ بسهولة في مادة الترتيب الزمني وفي المعطيات الكمية. ثم ان كل تغيير لا واع، كالتحول المرتبط بمذهبية دينية مثلا، ينفلت بسبب بطئه، عن ذاكرة المجتمع. فلا يوجد سوى نتف من التغيرات في النصوص التي لا تتعرض بوضوح للتاريخ، ومع ذلك يكون من الواجب أن يؤتى بتفسير مركب. ومعنى ذلك أن المأثور المنقول ليس دواء لكل داء، ولكنه يتضح في الواقع أنه مصدر من أعلى طراز بالنسبة الى القرون الأخيرة. وفيما قبل ذلك ينحط دوره فيصير علما مساعدا لعلم الآثار. ولم يقد الدليل بعد كما ينبغي على دوره بالنسبة الى المصادر الألسنية الاثنوغرافية، ولو أن هذه النماذج الثلاثة من المصادر المجتمعة من شأنها مبدئيا أن تساهم بقوة في معارفنا عن افريقيا، كما هو شأن علم الآثار.

وقد برهنت المأثورات على قيمتها التي لا عوض لها. وليس الشأن أن تأتي بما يقنع أنه قد يكون مصدرا، فكل مؤرخ يعلم ذلك. والمسألة الآن هي أن نحسن طرقتنا العملية كي تمدنا المصادر بكل ما تشتمل عليه بالقوة، وذلك هو العمل المطلوب منا.

## الفصل الثامن

# المأثور الحي

أ. هباتي با

«أن الكتابة شيء، والمعرفة شيء آخر.  
والكتابة صورة المعرفة وليست المعرفة ذاتها،  
والمعرفة نور كائن في الانسان، هو تراث كل  
ما أمكن الأجداد معرفته وما أبلغونا آياه في صورة نبتة،  
كما أن شجر البابا باب موجود بالقوة في بذرتة». تيرنوبوكار (١).

ان من يتحدث عن المأثور في التاريخ الإفريقي يعني المأثور المنقول، ولا يمكن لأي محاولة أن تلج  
التاريخ الإفريقي وروح الشعوب الإفريقية بكيفية مقبولة، ان لم تركز على هذا التراث من  
المعارف، من كل الرتب، والذي نقل بصبر بواسطة السماع من شيخ الى تلميذة عبر الأجيال. ولم  
يضع بعد هذا التراث، وهو جاثم في ذاكرة الجيل الأخير من حفظته العظام الذين يمكن أن يقال فيهم  
إنهم ذاكرة إفريقيا الحية.

وفي الأقوام المعاصرة، حيث تسمو الكتابة على القول، وحيث يكون الكتاب الحامل الرئيسي  
للتراث الشفائي، لطالما ظن ان الشعوب الحالية من الكتابة كانت شعوبا بدون ثقافة. وهذا الرأي  
الذي لا مبرر له بدأ من حسن الحظ بتفتت منذ الحربين الأخيرتين بفضل الأعمال المعبرة التي قام  
بها بعض كبار الاثنولوجيين من كل القوميات. واليوم بفضل عمل منظمة اليونسكو التجديدي  
الشجاع، ارتفع الحجاب ارتقاعا عن كنوز المعرفة التي نقلها المأثور الشفاهي والتي تنتمي الى التراث  
الثقافي للبشرية جمعاء.

ويمثل المشكل كله لدى بعض الباحثين في معرفة هل يمكن أن نمنح النقل الشفاهي عين الثقة  
التي نمنحها للنقل الكتابي ليكون شاهدا على أمور الماضي. وفي رأينا أن المشكل بهذه الصفة أسوأ  
وضعه، فالشاهد الكتابي والشفاهي، ما هو في النهاية سوى شاهد بشري وقيمته هي قيمة الانسان.

(١) تيرنوبوكار سالف، توفي سنة ١٩٤٠ وقضى كل حياته في بندياكارا (مالي) شيخ الفرقة الإسلامية التجانية قد كان أيضا  
تقليديا في المواد الإفريقية أنظر أ. هباتي با وم. كردار، ١٩٥٧.

أولم تكن الشفاهية أم الكتابي خلال العصور كما هو الأمر في الفرد نفسه؟ ان أول خزان الوثائق أو الخزانات في العالم كانت أدمة الرجال.

ثم ان الكاتب أو العالم، قبل أن يرسم على الورق ما يتصوره من أفكار، يشرع في حوار سري مع نفسه، وقبل أن يحرق الانسان القصة فانه يتذكر الأحداث كما رويت له أو، ان هو عاشها، كما يرويها لنفسه.

ومبدئيا لا شيء يدل على أن الكتابي يحكي الواقع بأمانة أكثر من الشاهد الشفاهي المنقول من جيل الى جيل، وتدل يوميات الحروب العصرية كما يقال على أن كل حزب أو كل قوم «يرى الزوال على عتبة بابه» من خلال موشور أهوائه وعقليته الذاتية أو مصالحه، أو غرض تبريره لوجهة نظره. على أن الوثائق المكتوبة نفسها لم تكن محمية من التدليس والتغييرات، ارادية كانت أولا ارادية من فعل النساخ المتعاقبين، الأمر الذي نشأت عنه، على الخصوص، الجدالات المتعلقة «بالكتابات المقدسة».

وموضوع الخلاف في النهاية، من وراء الشاهد ذاته، هو حقا قيمة الانسان الشاهد ذاته، وقيمة سلسلة الرواية التي يرتبط بها، وصدق الذاكرة الفردية والجماعية، وما يعطي للحقيقية من قيمة في مجتمع معين. وبالاختصار الرابطة بين الانسان والكلمة...

ووظيفة الذاكرة هي أقوى لدى المجتمعات الشفاهية، وفيها تكون العلاقة بين الانسان والكلمة أشد، فحيث لا كتابة، يتقيد الانسان باللفظ وبه يلتزم، فهو كلمته وكلمته تشهد عما هو، وترابط المجتمع نفسه يتركز على قيمة الكلمة وعلى مدى احترامها.

والعكس، كلما ازداد زحف الكتابي نشاهد أنه يحل محل الكلمة فيصير الحجة الوحيدة والمرجع الأوحد، فيصير الامضاء الالتزام الوحيد المعترف به، بينما ينحل تدريجيا ما كان يجمع بين الانسان والكلمة من رابط مقدس لفائدة الشهادات الجامعية المتفق عليها.

وعلاوة على الكلمة الاخلاقية الاساسية فقد كانت في التراث الافريقي — على الأقل ما أعرفه منه المتعلق بمنطقة السهوب جنوبي الصحراء — تكتسي طابعا مقدسا يرتبط بأصلها الالهي وبالقوى الباطنية المودعة فيها، فهي عامل سحري من أعلى طراز وحامل عظيم «هي قوى اثيرية» لم تكن لتارس بدون حذر.

كانت اذن عدة عوامل دينية وسحرية أو اجتماعية تتضافر لحماية صدق النقل الشفاهي وبداء لنا من اللازم أن نقدم فيما يلي دراسة موجزة عن ذلك، كي نضع بكيفية أحسن، المأثور الافريقي المنقول في اطاره وكبي نثيره، ان صح القول، من الداخل.

فاذا ما قيل لعالم افريقي تقليدي حقيقي. «ما المأثور المنقول؟» فانه سيحتار بدون شك، وربما أجاب بعد صمت طويل: «هو المعرفة التامة» ولا يزيد شيئا.

فاذا تحت لفظ «مأثور منقول؟» وما هي الأمور الواقعية التي يجملها، وما هي المعارف التي ينقلها والعلوم التي يلقنها؟ ومن هم نقلته؟ وخلافا لما يظن بعضهم، فان المأثور المنقول الافريقي لا يقتصر على القصص والخرافات، أو حتى على الأخبار الاسطورية أو التاريخية، وليس القصاصون هم الحفظة الأوحدون والنقلة الفر يدون المؤهلون.



فالمأثور المنقول هو مدرسة الحياة الكبرى، يغطي كل وجهها وإياها يعني. وقد يعتبر سديما لمن لا يسبر سره، وقد يحير فيه الفكر الديكارتى، وقد تعود أن يفصل كل شيء الى مقولات مضبوطة معينة. ففيه لا يفتقر الروحي عن المادي.

ومروره من الباطن الى الظاهر، يعرف المأثور المنقول كيف يكون في تناول بني البشر، وكيف يكلمهم بما يفهمون، وكيف ينتشر حسب ملكاتهم وهو في آن واحد دين ومعرفة وعلم بالطبيعة وتدريب على مهنة وتاريخ وسلوى واستراحة، وكل جزئية تفصيلية قد تساعد دائما على الرجوع الى الوحدة الأساسية.

يرتكز المأثور المنقول على المبادأة والتجربة، فهو يلزم الانسان كليا، وهكذا يصح القول بأنه ساعد على خلق انموذج خاص من الانسان وعلى تكوين الروح الافريقية.

و«الشقافة» الافريقية اذ ترتبط بالسلوك اليومي للانسان وللمجموعة، ليست هي مادة مجردة يمكن عزلها عن الحياة، وهي تتضمن نظرة خاصة للعالم، أو بالاحرى حضورا خاصا في العالم، وقد تصور ككل ترتبط فيه كل الأشياء وتعمل فيما بينها الواحد في الآخر.

ويرتكز المأثور المنقول على تصور معين للانسان وملكاته في العالم ووظيفته فيه. ويجب علينا اذن كي نحسن وضعه في اطاره الجملي وقبل أن ندرسه على مختلف ظواهره، ان نعود الى السر ذاته في خلق الانسان، وفي الانشاء الاساسي للكلمة، كما تعلمه وكما تنبعث منه.

## منشأ الكلمة الإلهي

نظرا لأنني لا أستطيع أن أتحدث حديثا صالحا عن تراث لم أعشه أو لم أدرسه شخصيا، ولا سيما المأثورات التابعة لبلاد الغابة. سأتناول أمثلي الأساسية من مأثورات السهوب جنوبي الصحراء (أي ما كان يسمى سابقا البافور، وما تكونت منه مناطق السهوب من افريقيا الغربية الفرنسية قديما).

ان مأثور بامبارا بكومو (٢) يعلم أن الكلمة، كوما، هوقوة أساسية تنبعث من الخالق ذاته مانكالا بارئ الأشياء كلها. وهو إله الخلق. فيقول منشد الآله كومو: «ما قاله مانكالا كان».

واسطورة خلق العالم والانسان التي يلقيها المعلم المدرب بكومو (وهو حداد دائما) للشبان المختونين، تكشف لنا أنه لما حن مانكالا الى مخاطب، خلق الرجل الاول: ما.

وقديما كان سفر التكوين يلقي المختونين في الحادية والعشرين من عمرهم أثناء الخلوة المفروضة عليهم طيلة ثلاثة وستين يوما، ثم كانوا يقضون احدى وعشرين سنة لدراسته والتعمق فيه.

فعلى حدود الغاب المقدس، حيث موطن كومو، يرتل المختون الأول هذا القول:

مانكالا ! مانكالا !

من هو مانكالا ؟

أين مانكالا ؟

فيحييه المنشد:

«مانكالا هو القوة اللانهائية

ليس لأحد أن يضعه في الزمان ولا في المكان  
فهو دومبالي (لا يعرفه أحد)  
دومبالي (لم يخلق ولا نهاية له).  
ثم، بعد التدريب، تبدأ قصة الخلق الأساسي:  
«ما كان أحد، سوى كائن  
وكان هذا الكائن خلاء حيا  
يخضن بالقوة الوجودات المحتملة  
وكان الزمن اللانهائي مأوى هذا الكائن الأحد  
وتسمى الكائن الأحد باسم مانكالا  
وهكذا خلق «فان»  
بيضة عجيبة ذات أقسام تسعة،  
فأولج فيه الحالات الأساسية التسع للوجود».  
«وعند فقس هذه البيضة الأساسية أنجبت عشرين كائنا خرافيا، منها تكون العالم  
بأكمله، وكذلك كامل القوى الموجودة للمعرفة الممكنة.  
«ولكن وأسفاه لم يبدا أحد من المخلوقات العشرين الأولى قابلية ليكون المخاطب  
(كومانيون) الذي رغب فيه مانكالا لنفسه.  
«عندها أخذ جزءا من كل المخلوقات العشرين الموجودة، وخلط الأجزاء ثم نفخ في  
الخليط شرارة من روحه الناري، وخلق كائن جديدا، الإنسان، وأعطاه جزءا من اسمه  
ذاته: ما، فكان هذا الكائن الجديد يحمل، من اسمه ومن الشرارة الالهية التي داخلته،  
جزءا من مانكالا ذاته».

فما، الإنسان، محطة لكل ما وجد، وقابل ممتاز للقوة العليا، ويجمع كل القوى الموجودة ما،  
الإنسان يرث جزءا من طاقة الخلق الالهية، أي هبة الفكر والكلمة.  
وعلم مانكالا مخاطبه، ما، السنن التي تكونت كل عناصر الكون بمقتضاها، واستمرت موجودة.  
وجعله حارسا لعالمه، وكلفه بالعمل على الحفاظ على التآلف العام، ولذا أن يكون الإنسان إنسانا  
عبء ثقيل.  
و بدافع من خالقه نقل «ما» فيما بعد لاعتقابه مجموع المعارف الكاملة، وكانت بداية السلسلة  
الكبرى للرواية التلقينية التي ترى فرقة الكومو (كما في مالي أو ناما أو كوري الخ) انها هي المتابعة  
لها.

وعندما خلق مانكالا مخاطبه، ما، كلمه وأمدّه في الوقت نفسه بملكة الجواب، ودار حوار بين  
مانكالا، خالق كل الاشياء، وما، نتاج تآلف الاشياء كلها.  
ولقد كانت الكلمات وهي تنزل من مانكالا الى الإنسان، إلهية اذ لم تكن قد اتصلت  
بالمادية، وبعد ملامسة الجثمانية أضاعت شيئا من الاهيتها ولكنها صارت حاملة للقداسة، تقدس  
الجسم اذن بالكلمة الالهية، فاشع بدوره هزات مقدسة ستقيم الصلة مع مانكالا.

ان المأثور الافريقي اذن يتصور الكلمة كهبة من الله، فهي في آن واحد إلهية في الاتجاه التنازلي ومقدسة في الوجهة التصاعدية.

## الكلمة في الإنسان كقدرة خلاقة

وجاء في التعليم أن مانكالا وضع في ما الامكانيات الثلاث من القدرة والمشية والمعرفة الموجودة في العناصر العشرين التي منها ركب. ولكن كل هذه القوى التي ورثها تكن فيه كالقوى الصامتة، وتكون في حالة سكون قبل مجيء الكلمة لتحركها، وبفضل حيوية الكلمة الإلهية تشرع هذه القوى في الإهتزاز، فتصير في مرحلة أولى فكرة وفي ثانية صوتا وفي ثالثة كلمة، فالكلمة إذن تعتبر تجسيدا أو إظهارا لهزات القوى.

ولنشرع مع ذلك في هذا المستوى إلى أن لفظي «كلمة» و «استماع» يغطيان أمورا واقعية أفسح مما ننسب إليها عادة. فيقال «ان كلمة مانكالا تُرى وتُسمع وتُشم وتُذاق وتلمس» فهو احساس كامل ومعرفة تندرج فيها الذات كلها.

واذ أن الكلمة اظهار لهزات القوى، وكل ظهور لأي قوة في أي شكل من الأشكال سيعتبر اعتبار كلمتها، ولذا الكل يتكلم في العالم، والكل كلمة أخذت لها جسما وشكلا.

وبالفلسفية ان لفظ «كلمة» (هالا) مشتق من مادة الفعل (هال) ومعناها «أعطي القوة» ومن ذاك المعنى المجازي «التجسيم»، ويروي المأثور الفلاني أن كوينو، الكائن الاعلى، منح القوة كيكالاً أي الانسان الأول بتوجيه الكلام اليه. فيقول السيلا تيتي (أي شيوخ التدريب الفلانيين): «قد أعطى كيكالاً الاله القوة للانسان حين كلمه».

وان كانت الكلمة قوة، فذلك لكونها تخلق رابطة ذهاب واياب (يا ورطا بالفلانية) مولدة للحركة والتناسق، أي للحياة والعمل، وترمز رجلا الحائك الصاعدتان النازلتان الى هذا الذهاب والاياب، وذلك كما سنشاهد فيما بعد عند ذكر الصناعات التقليدية. (فرمزية المنوال ترتكز تماما على الكلمة الخلاقة أثناء عملها).

وكلمة الانسان، على صورة كلمة مانكالا التي هي صداها، تحرك القوى الباطنة وتنشطها وتثيرها كمثّل الانسان الذي ينتصب واقفا، أو يلتفت اذا ما سمع نداء باسمه.

وقد تخلق الكلمة السلم كما قد تحطمه. فهي بمثابة النار، فكلمة واحدة في غير محلها قد تثير حربا كجزئية القش الملتبّة التي قد تسبب في حرب عميم. وفي المثل المالي هذا القول «ما الذي يهيبىء الشيء؟» (أي يرتبه ويعدّه) ذاك هو الكلمة، «وما الذي يفسد الشيء؟ إنها الكلمة، وما الذي يقرّ الشيء في وضعه؟ هي الكلمة».

ومنح المأثور للكلمة، (كوما) وليس فحسب القدرة الخائفة، ولكن أيضا وظيفة مزدوجة للمحافظة وللهدم. ولذا هي أكثر من كل شيء، العامل الأعظم النشط في السحر الافريقي.

## الكلمة عامل منشط للسحر

ينبغي ألا يغيب عن ذهننا أن التراث الافريقي، بصفة عامة، يفترض رؤية دينية للعالم. ويتصور

العالم المرئي ويحس به كعلامة وكتجسيم أو كقشرة بالنسبة لعالم خفي حي متكون من قوى في تحرك دائم. وفي صميم هذه الوحدة الكونية الفسيحة، يبق الكل مرتبطا بالآخر، ومتضامنا، وسيكون سلوك الانسان نحو نفسه كما هو نحو العالم المحيط به (العالم المعدني والنباتي والحيواني والمجتمع البشري) موضوع تنظيم مدقق للطقوس — وقد يكون مختلفا في شكله بحسب العروق أو الجهات.

وكان من المفروض أن يستتبع خرق القوانين المقدسة اضطرابا في توازن القوى تعبر عنه مختلف التشويشات. ولذا كان العمل السحري، أي ممارسة القوى، ترمي عادة الى اصلاح الموازنة المختلفة والى ارجاع التآلف، وقد وضع الانسان كما شاهدنا من قبل، حارسا عليه من قبل الخالق.

وفي أوروبا يتحمل لفظ «السحر» دائما المعنى الرديء، بينما هو في افريقيا يدل فحسب على ممارسة القوى، وهو أمر محايد في حد ذاته، وقد يبدو نافعا أو مضرا بحسب الوجهة التي يوجه بها. وقد قيل: «لا السحر ولا الحظ قبيحان في حد ذاتها، بل ان استعمالهما هو الذي يجعلهما حسنين أو قبيحين».

فالسحر الحسن، سحر المرادين أو «الشيخ العارفين»، يهدف الى تطهير البشر والحيوانات والأشياء، لكي يعاد الى القوى ترتيبها، وفي هذا المجال تكون قوة الكلمة حاسمة.

فكما جاءت كلمة مانكالا الالهية لتحبي القوى الكونية الساكنة القارة في ما، كذلك كلمة الانسان تأتي لإحياء القوى الساكنة في الأشياء وتحريكها واثارتها. ولكن الكلمة كي يكون لها أثرها الكامل تتطلب أن ترتل ترتيبا متوازنا، اذ لابد للحركة من توقيع وإيقاع. ذاك الذهاب والاياب الذي هو جوهر الإيقاع.

وفي الأناسيد الطقسية كما في عبارات التعزيم، الكلمة هي تجسيم لإيقاع الحركة، واذا ما اعتبرت كأنها من شأنها أن تؤثر في العقول فذاك لان تآلفها يخلق الحركات، تلك الحركات التي تولد القوى، تلك القوى العاملة في العقول التي هي ذاتها قدرات على العمل.

ان الكلمة عندما تستمد القدرة الخلاقة العاملة من الأمر المقدس، حسب التقليد الافريقي، تدخل مباشرة، مع الحفاظ على التآلف أو مع قطعه، داخل الانسان وداخل العالم الذي يحيط به. لذا يعتبر معظم المجتمعات الشفاهية التقليدية أن الكذب جذام أخلاقي، ومن ينكث كلمته في افريقيا التقليدية يقتل شخصه المدني والديني والباطني، ويقطع نفسه عن المجتمع، و يكون موته أفضل من بقائه بالنسبة لذاته وبالنسبة لذويه أيضا.

وأشد المنشد من أهل كوموديبى، من كوليكورومالي، ضمن قصيدة له دينية:

«ان الكلمة حق بصفة الهية

فن اللائق أن تكون معها محقا

ان اللسان الذي يفسد الكلمة

ليس دم الذي قد كذب»

و يرمز الدم هنا الى القوة الحيوية الباطنة والتي أخل الكذب تآلفها. يقول المثل: «ان من أفسد كلمته أفسد نفسه»، فإذا ما فكر المرء بشئ وصرح بغيره، يكون قد انفصل عن ذاته، وهكذا تنقطع الوحدة المقدسة، وهي انعكاس للوحدة الكونية، ويخلق التنافر داخل الذات وفيما حولها.

وهكذا نزداد ادراكا للاطار السحري الديني والاجتماعي الذي يحل فيه احترام الكلمة داخل المجتمعات ذات المأثور الشفاهي، ولا سيما عند نقل الكلمات الموروثة عن الأجداد، وعن من هو أكبر منا سنا. وما تتشبت به افريقيا التقليدية أكثر من كل شيء، هو كل ما ورثته من الأجداد. وفي القول (أخذته عن أستاذي) (أخذته عن أبي) «رضعته من ثدي أمي» ما يعبر عن التقيد الديني بالتراث المنقول.

## العلماء التقليديون

ان أعظم الخبازين لهذا المأثور الشفاهي، هم من ندعوهم بـ «التقليديين» فهم ذاكرة افريقيا الحية وأحسن شهودها. فن هم هؤلاء الشيخ؟ فهم يدعون في البامبارا دوما أو سوما أي «العارفين» أو دونيكبا أي «صانعي المعارف»، وفي اللغة الفلاندية هم يدعون سيلاتيقي أو جندو أو تشيرونكي هذه الألفاظ، تشتمل على مفهوم (العارف).

وقد يكونون شيوخا متدربين (أو مدرين) في فرع تقليدي خاص (التدريب على الحدادة أو النسخ أو الصيد البري أو الصيد البحري الخ).

أو قد يكون لهم المام بالمعرفة الكاملة للمأثور في كل مظهره. فن الدوما اذن من هو مطلع على علم الحدادة أو علم الرعي أو الحياكة مثل ما تم من اطلاع عليها من قبل المدارس العظمى التدرجية في السهوب، مثال ذلك ما في مالي، والكومو والناما والدو والدياراوارا والنيابوري الخ. ولكن لا نخدع أنفسنا في ذلك فالمأثور الافريقي لا يقسم الحياة قطعا وقلما يكون العارف «اخصائيا» بل هو في الغالب «ذو معرفة عامة». فالشيخ ذاته مثلا قد يكون له معرفة في علم النباتات (معرفة منافع كل نبات ومضاره) كما في «علم الأراضي» (الخصائص الزراعية أو الطبية التابعة لكل أنواع الأراضي) أو في «علم المياه» والفلك وعلم الكونيات وعلم النفس الخ، ويتعلق الأمر بعلم الحياة مع المعارف التي يكون في امكانها دائما أن تستخدم إستخداما تطبيقيا.

وإذا ما ذكرت علوم «التدريب» أو العلوم «الباطنية» وفي هذه الألفاظ ما قد يحير القارئ العقلاني فالمقصود دائما، بالنسبة الى افريقيا التقليدية، هو علم تطبيقي في أساسه، يمكن من الاتصال اتصالا ملائما بالقوى التي تتعلق بالعالم المرنى والتي تستخدم في صالح الحياة.

والعالم التقليدي، الحافظ لأسرار الخلق الكوني ولعلوم الحياة المجهز عادة بذاكرة عجيبة، كثيرا ما يكون أيضا حافظا لوثائق الأحداث الماضية المنقولة من قبل التراث أو الأحداث المعاصرة. والتاريخ الذي يريد لنفسه أن يكون أساسا افريقيا، لابد أن يركز على الشهادة التي لا بدليل لها ونابعة من الأفارقة الأتقاء. وكما يقول المثل: «لايزين رأس المرء وهو غائب».

وكان الدوما العظام، ممن كانت معرفتهم كاملة، مشهورين مبجلين يستحضرون من بعيد للاستفادة من معرفتهم وحكمتهم.

وكان من لقني أمور الفلانيين، أردو ديمبو، من دوما فلانيا (سيلاتيقي) وقد توفي الآن. أما علي عيسى وهو سيلاتيقي آخر فما زال على قيد الحياة.

ودانفوسيني الذي كان يتردد على منزل أبي زمن طفولتي قد كان دوما يكاد يكون عاما؛ فعلاوة على كونه شيخا عظيما مدربا بالكومو، فقد كان له علم بسائر المعارف (التاريخية والتعليمية أو التي تتعلق بعلوم الطبيعة) في عصره. وكان الجميع يعرفه في البلدان الممتدة بين سيكاسو وباماكو أي بين المملكات القديمة في كيني دوكوني وبيلي دوكونو.

ولطيف أخوه الأصغر، وكان مطلعا على ما كان لأخيه من علم، قد كان أيضا دوما عظيما. وكان له ميزة التأدب بالعربية كما قد قام بالخدمة العسكرية (ضمن القوات الفرنسية) بالتشاد، مما سمح له بجمع الكثير من المعلومات في سهوب التشاد، فبدت شبيهة بما كان قد تلقنه في مالي. وإيوا، من طبقة القصاصين، من أعظم التقليديين بنندي وهو يعيش حاليا في مالي، مثله مثل بنزومانا الموسيقي العظيم الأعمى.

ولنوضح منذ الآن أنه ليس من الحتمي أن يكون القصاص تقليديا («عارفا») ولكنه قد يصير كذلك إذا كانت ملكاته تساعد على ذلك. على أنه لن يمكنه ادراك العرافة بالكومو وقد طرد منها القصاصون (٣) (كروا).

وبصفة عامة فإن التقليديين قد أبعدوا ان لم يطاردوا من قبل السلطة الاستعمارية التي كانت تسعى، بالطبع، الى قلع التقاليد المحلية لتزرع آراءها الخاصة. اذ، كما يقال: «لا يزرع في الحقل المغروس ولا في الأراضي المستريحة». ولذا التجأ المدربون غالبا الى الأدغال وهجروا العواصم المسماة «طوبابودوكو» (٤) «مدن البيض» (أعني المستعمرون).

على أنه مازال في مختلف بلدان السهوب الافريقية المكونة لبافور القديم — وبدون شك في غيره من البلدان — «عارفون» واصلوا نقل المستوى المقدس لن قبلوا أن يحفظوه ويسمعوه، وأظهروا جدارة في تقبل تعليمهم بصبرهم وكتماهم، وهي القواعد الأساسية المفروضة من قبل الآلهة... وفي ظرف عشر سنوات أو خمس عشرة سنة يحتمل انقراض كل أواخر الدوما العظام وكل الشيوخ الاخيرين وارثي مختلف فروع التراث. فان لم نسرع بجمع شهاداتهم وتعليمهم، سيفرق في النسيان معهم كل التراث الثقافي والروحي لشعب، تاركا شبابا بدون جذور.

## صدق النقل

ان التقليديين الدوما كبارا وصغارا، أكثر من سواهم، مقيدون باحترام الحقيقة. والكذب في نظرهم، ليس عيبا أخلاقيا فحسب بل هو تحريم شعائري اذا ما خرقوه حرم عليهم القيام بوظيفتهم. ولم يكن الكاذب ليكون ملقنا أو «صاحب السكين» أو دوما أيضا، فاذا ما ثبت الأمر الخارق للعادة المتمثل في كذب تقليدي دوما، لم يعد أحد يرجع اليه في أي مجال من المجالات، وتضمحل وظيفته في الآن نفسه.

وبصفة عامة ان التقاليد الافريقية تخشى الكذب، وقد قيل: «حذار من لغة تنقطع عن ذاتك، ولئن يقطع العالم عنك، فخير من أن تنقطع أنت عن ذاتك» على أن التحريم الشعائري المتمثل في

(٣) عن «السحرة» انظر ما بعده.

(٤) انظر به طوبا بودوجو.

الكذب يمس خاصة «القائمين بالقداسات» (أي المضحين أو أصحاب السكين) (٥) من كل الدرجات، ابتداء من أب الأسرة وهو القائم بالقداس العائلي إلى الحداد والحائك أو الصانع التقليدي، حيث إن ممارسة الصناعة نشاط مقدس، كما سنرى. ويقع التحريم على كل من أنيطت بهم مسؤولية سحرية دينية، ويقومون بأعمال شعائرية، فهم بمثابة الوسطاء بين عامة الناس والقوى الحافظة، وفي القمة القائم بالقداس للبلد (مثلا الهوكون عند الدوكون) وعرضا، الملك.

وهذا التحريم الشعائري موجود فيما أعلم، في كل التقاليد في السهوب الافريقية. وتحريم الكذب يرجع إلى كون القائم بالقداس إذا ما كذب فهو يفسد الأعمال الشعائرية، ولم تعد تتوفر فيه الشروط المطلوبة من يقوم بالعمل المقدس، والشرط الأساسي هو أن يكون المرء متألّفا في ذاته قبل أن يمارس قوى الحياة. ولنتذكر أن كل النظم السحرية الدينية الافريقية ترمي إلى الحفاظ على توازن القوى أو إلى إعادة هذا التوازن الذي به يتعلق تألف العالم المحيط، المادي والروحي..

والدوما، أكثر من سواهم، مقيدون بهذا الالتزام، إذ بصفتهم شيوخا عرفيين هم حاملوا الكلمة العظام، الكلمة التي هي أهم عامل نشيط في حياة البشر وفي العقول، وهم ورثة الكلمات المقدسة التعزيمية التي نقلها سلسلة الأجداد التي ترجع إلى أولى الهزات المقدسة المنبعثة من ماء الإنسان الأول.

وإن كان التقليدي الدوما هو حامل الكلمة، فسائر الناس هم خازنو المحادثة. وسأذكر مثل صاحب سكين دوكون، من بلاد بنياري (دائرة بنديكارا) وقد عرفته في شباني فاضطر يوما إلى أن يكذب لانقاذ حياة امرأة مطاردة فأخفاها في بيته، وبعد هذا الحادث تخلى تلقائيا عن وظيفته، إذ هو رأى أنه لم تعد تتوفر فيه الشروط الشعائرية لتحملها كما ينبغي.

وفي الأمور الدينية والمقدسة لا يخشى الشيوخ التقليديون العظام معارضة الجمهور، فإن هم أخطأوا يعترفون بخطئهم على رؤوس الملأ ولا يلتمسون أعذارا مدبرة، ولا يلجأون إلى تلمع أو مهرب.

والاعتراف بأغلاطهم المحتملة واجب عليهم، إذ فيه تطهير من الدنس. وإذا كان التقليدي أو العارف محترما هكذا في أفرقياء، فذلك لكونه يحترم نفسه قبل كل شيء، فهو منظم داخليا إذ لا ينبغي له أبدا أن يكذب، وهو إنسان «مستقيم تماما» مالك للقوى التي تسكنه. ومن حوله تترتب الأمور وتحمّد الاضطرابات.

وبقطع النظر عن تحريم الكذب فيعمل العارف على ضبط الكلمة ولا يلقها بلا روية، إذ أن كل كلمة، كما رأينا آنفا، تعتبر اظهارة لهزة القوى الباطنة، وبالعكس فإن القوة الباطنة تنشأ عن استبطان الكلمة.

وندرك بهذه النظرة أحسن إدراك ما تمنحه التربية الافريقية التقليدية لعملية التحكم في النفس، من قيمة. فقلة الكلام دليل على حسن التربية وعلامة الشرف، فالصبي الصغير سرعان ما

(٥) لا تتضمن حتما كل الحفلات الشعائرية التضحية بمجوان، وقد تتمثل «الضحية» في هدية ذرة أولبن أو نتاج طبيعي آخر.

يتعلم كيف يتحكم في التعبير عن مشاعره أو ألمه، وكيف يكيح ما فيه من قوى، على صورة ما الاساسي الذي يحبس في نفسه، القوى الكونية، بصورة خاضعة منظمة.  
فيقال عن العارف المحترم أو عن الانسان المالك لنفسه: (هو «ما» او ندو بالفلائي) أو إنسان كامل.

وينبغي ألا يلتبس الأمر أمامنا بين التقليديين «دوما» الذين يعرفون كيف يعلمون الناس وهم يلعبون ويخاطبون المستمع بما يفهم، وبين الشعراء المتجولين والقصاص والمنشطين العموميين الذين هم عامة من فريق «الدليي» (القصاصي) أو وولوسو «سجناء كوخ» (٦) ان انتظام الحق لا يوجد لدى هؤلاء، وتتعرف لهم التقاليد بحق طمسه أو تجميله ولو بصفة تقر بيبية، ما داموا يسلون جمهورهم أو يثيرون اهتمامه، كما سترى فيما بعد. ويقال «يسمح للقصاص أن يكون ذا لسانين». وبالعكس انه لن يخامر ذهن أي افريقي مكون تكويننا تقليديا أن يشك في صدق أقوال التقليدي «الدوما» ولا سيما اذا كان الأمر بهم نقل المعارف عن سلسلة الأجداد. فيتوجه «الدوما»، قبل أن يتكلم، الى أرواح أجداده محترما أياها طالبا منها أن تساعد كمي لايزل لسانه وكمي لا يعتبره سهو ينسيه بعض الأمور.  
وكان «دانفوسيني»، «الدوما» الأعظم من «بامبارا» وقد عرفته في طفولتي في بوكوفي وكان منشد الكومو، كان يقول قبل الشروع في الحديث أو التعليم:

«أيا روح أستاذي طيبا بلن ساما كي!  
يا أرواح الحدادين الشيوخ وكبار الحائكين،  
الأجداد الأوائل الملقين القادمين من الشرق،  
أيا جيحي، أيها الكبش الكبير الذي كان أول من نفخ في بوق الكومو،  
يامن قدمت على الجلبيا (النيجر)!  
تعالوا جميعا واستمعوا اليي.  
سأشعر، تبعا لأقوالكم،  
وسأقص على مستمعي  
كيف وقعت الأمور  
وكيف مرت منكم الينا في الزمن الحاضر.  
لكي يبقى هذا القول محفوظا بعناية بالغة  
وكي ينقل بأمانة  
الى رجال الغد  
وهم أولادنا  
وأولاد أولادنا.  
فامسكوا (يا أجدادنا) بعنان لسانني!

(٦) وولوسو (حرفيا: المولودون في البيت) أو «سجناء الكوخ» كانوا خدام أو أسر خدام ارتبطوا منذ أجيال بأسرة واحدة. وكانت التقاليد تعترف لهم بحرية كاملة في الحركة والقول، كما تعترف لهم بحقوق مادية جسيمة على مكاسب أسيادهم.





١ • موسيقى من شعب الشكولور،  
يعزف على آلة الاردين. (كايس،  
مالين، أ. و. ٢٩٢).  
٢ • مغن من ال «مغيت» (مجموعة  
التوثيق الفرنسي).



واهدهوا خروج كلماتي،  
كي تتبع وتحترم  
ترتيبها الطبيعي»

ثم كان يضيف:

«أنا دانفوسيني»، من فريق «ساماكي» (الفيل الذكر)، سأقصص كما تعلمت أنا بين  
يدي شاهدي «ماكورو ومانفين» (٧).  
كلهما يعلم مثلي اللحمة (٨) فسيكونان لي حاميين ودعامتين.

وإذا ما أخطأ المنشد أو إذا ما أظهر نقصا، قال شاهده: «يا هذا، تحر كيف تفتح فاك» فيقول:  
«انه لساني الجامح الذي خاتني».

وثمة تقليدي «دوما» لم يولد حدادا ولكنه يعرف العلوم المتعلقة بالحدادة، مثلا يقول، قبل  
الشروع في الخطاب: «اني مدين بهذا لفلان وهو نقله عن فلان الخ...» ويحيي جد الحدادين،  
وكعلامة ولأه يجلس القرضاء واضعا مرفقه الايمن على الأرض رافعا ساعده.  
وقد يذكر «الدوما» أيضا شيخه قائلا: «احيي كل الوسطاء حتى نونفايري» (٩) دون أن  
يلتزم بذكر الأسماء كلها.

ولابد من عودة دائما الى السلسلة التي يمثل «الدوما» نفسه حلقة منها. ففي كل فروع المعرفة  
التقليدية يكون لسلسلة الرواية أهمية كبرى، وبدون رواية منظمة لا يوجد «السحر» بل توجد  
فقط ثثرة أو قصة. ولا اثر اذن للكلمة، ومن المفروض أن تحمل الكلمة التي نقلتها السلسلة، منذ  
النقل الأصلي، قوة تجعلها فعالة جوهرية.

وهذه الفكرة «احترام السلسلة» أو «احترام النقل» هي التي تجعل الافريقي غير المتأقلم ثقافيا  
يميل الى رواية الخبر في الصورة نفسها التي سمعها بها، تعينه في ذلك ذاكرة الاميين المدهشة.  
وإذا ما عورض فهو يكتفي بالاجابة قائلا: «علمنية فلان» ذاكرة دائما مصدره.

وعلاوة على ما للتقليديين الدوما من قيمة أخلاقية خاصة وعلى تعلقهم «بسلسلة الرواية» ان  
هناك ضمنا اضافيا لصدق رواية توفره المراقبة الدائمة من قبل نظرائهم أو من قبل القدماء المحيطين  
بهم، وهم يسهرون بعناية قصوى على صدق ما ينقلونه، ويصححون روايته عند أقل خطأ، كما  
شاهدنا في مثال دانفوسيني.

وأثناء خروجاته الشعائرية الى الأدغال، قد يضيف المنشد للكوموتاملاته الخاصة أو موحياته  
للكلمات التقليدية التي ورثها عن «السلسلة» والتي يتغنى بها لرفاقاه. وتأتي كلماته كحلقات

(٧) ماكورو ومانفين هما زميلاه.

(٨) لكل خبر تقليدي لحمة أو قاعدة قارة لا يمكن أبدا أن تتغير ولكنه في الامكان أن تطرز حولها استطرادات أو تحسينات حسب  
الوحي أو حسب اهتمام المستمعين.

(٩) سلف الحدادين.

جديدة لتشري كلمات سابقة، ولكنه يلفت النظر إليها قائلا: «هذا من زيادتي وهذا من قولي، ولست معصوما، وقد أخطئ، وإذا ما أخطأت فتذكروا أنني مثلكم أتغذى بقبضة من الذرة وبجرة من الماء وبنفخات من الهواء. وليس الإنسان معصوما».

ويحفظ كلماته الجديدة من تبعه من المدرسين ومن الاتباع الجدد بحيث تكون كل أناشيد الكومو معروفة محفوظة في الذكريات.

وتقاس درجة التطور لدى التابع للكومولا بكية الكلمات المحفوظة بل بتطابق حياته مع كلماته. فإذا ما كان لرجل عشر كلمات أو خمس عشرة فحسب، وإذا ما كان يحياها، اذن يكون تابعا صالحا للكومو ضمن الجمعية. وكفي يكون منشدا للكومو، أي شيخا متدربا، ينبغي أن يعلم كامل الكلمات الموروثة وأن يحياها.

والتعليم التقليدي، خاصة اذا تعلق بمعارف مرتبطة بالتدريب، هو مرتبط بالتجربة ومقحم في الحياة. ولذا فان الباحث الاوربي أو الافريقي اذا ما رام أن يقترب من الأحداث الدينية الافريقية، قضى على نفسه أن يبقى على حدود الموضوع أن رفض أن يعيش التدريب التابع له، وأن يتقبل قواعده، وهذا ما يفترض على الأقل أن يعرف اللغة. فن الأمور ما لا يمكن «تفسيره» بل ما يجب أن يجرب وأن يعيشه الباحث.

وأذكر أنه في سنة ١٩٢٨، اذ كنت في مأورية بطونجان، قدم عالم شاب بالانتولوجيا الى البلد لاجراء بحث على ديك الضحية بمناسبة الختان، فوجهه الضابط الفرنسي الى رئيس المقاطعة الاهلي طالبا منه أن يعمل كل ما يمكن كي يحصل العالم الانتولوجي على ما يرضيه ومؤكدا على أن «يقال له شيء».

وجمع رئيس المقاطعة بدوره الأعيان وعرض عليهم الأمر مكررا كلام الضابط فقال كبير الجماعة، وهو صاحب السكين بالمكان، أي أنه المسؤول على حفلات الختان وما يتبعها من تدريب:

«يريد أن نقول له كل شيء؟»

— قال رئيس المقاطعة: نعم.

— قال: «ولكن هل أتى كي يمتحن؟»

— قال: لا، بل أتى ليستخبر».

فآدار كبير الجماعة رأسه قائلا:

«كيف نقول له كل شيء، ان لم يكن أتى بقصد الختان؟»

أنت تعلم، أيها الرئيس، ان الأمر مستحيل. فعليه أن يعيش حياة المختونين كي يتمكن من تعليمه كل شيء.

— قال: اذ نحن مرغمون على ارضاء القوة الحاكمة، عليك أنت أن تجد الحل كي نخرج من هذا المأزق».

— قال: حسنا سنصرفه دون أن يشعر، وذلك اعتمادا على عبارة «الوضع على التبن».

واستنبطت بالفعل هذه الطريقة «لوضع على التبن» المتمثلة في امداد شخص برواية مختلفة اذا تعذر اعلامه بالحقيقة، استنبطت انطلاقاً من الوقت الذي أرسلت فيه السلطة الاستعمارية أعوانها أو ممثليها للقيام ببحوث اثنولوجية، دون أن يعيشوا الظروف المطلوبة. وكما اتنولوجيا فيما بعد صار ضحية لا واعية لذلك... ودون أن نصل الى ذلك، فكما منهم تخيل أنه فهم أمراً بأكمله، بينما هو لم يعيشه. فكان من المتعذر أن يعرفه حقاً.

وعلاوة على التعليم الباطني الذي كان يلقي داخل المدارس التدريسية الكبرى — كالكمومو وغيرها مما ذكر آنفاً — فإن التعليم التقليدي يبدأ في الواقع في كل أسرة حيث يكون الأب أو الأم أو الأفراد الأكبر سناً في آن واحد معلمين ومربين، و يكونون أول خلية تقليدية. فهم الذين يلقون الدروس الأولى في الحياة ليس حسب التجربة ولكن أيضاً بواسطة القصص والروايات والخرافات والأمثال والحكم الخ... والأمثال هي رسائل أورتها الاجداد والأحفاد وعددها لا نهاية له.

وقد حرر بعض المدرسين العالما للأطفال كي تحمل على مر السنين بعض المعارف الباطنة «المرموزة»، ولنذكر مثلاً لعبة البنكولو بمالي المعتمدة على نظام عدّي يتعلق بالسقيا بأرقامها ٢٦٦ أو العلامات المقابلة لصفات الله.

ثم ان التعليم ليس نظامياً بل مقترناً بظروف الحياة، وقد تبدو هذه الحالة فوضوية ولكنها في الواقع عملية حية جداً. فالدرس المستمد بمناسبة حادثة أو تجربة ينقش في أعماق ذاكرة الطفل. وأثناء جولة في الأدغال فإن العثور على قرية غل سيعطي المعلم الشيخ فرصة لتلقين معلومات متنوعة بحسب نوعية مستمعيه. فاما أن يتحدث عن الحيوان ذاته أو عن القوانين العاملة في حياته، أو عن «صنف الكائن» الذي ينتمي اليه، أو أنه يلقي درس أخلاق على الأطفال مبيناً لهم كيف تعتد حياة المجموعة على التضامن ونكران الذات. أو أنه يفسح المجال الى معلومات أرقى، اذا كان يشعر أن مستمعيه في وسعهم ادراكها. وهكذا فإن كل حدث في الحياة وكل حادث صغير يمكن دائماً أن يكون مناسبة لشروح متعددة ولرواية اسطورة أو قصة أو خرافة. وقد تسمح كل ظاهرة يلاحظها الانسان بإمكان الرجوع الى القوى التي انبثقت منها وبالتذكير بأسرار وحدة الحياة التي يحركها كلها السي، القوة المقدسة الأساسية، التي هي نفسها مظهر الإله الخالق.

ففي افريقيا كل شيء «تاريخي» وتاريخ الحياة العظيم يشمل تاريخ الأراضي والمياه (الجغرافياً) وتاريخ النباتات (علم النبات والاقرباذين) وتاريخ أبناء قبل الأرض (المعادن والفلزات) وتاريخ الكواكب (فلك وتنجيم) وتاريخ المياه الخ...

وفي تقاليد السهوب ولا سيما تقاليد بامبارا والفلائين، ان مجموع مظاهر الحياة على الأرض يقسم الى ثلاثة أصناف، أو أن «أصناف الكائنات» تقسم بدورها الى ثلاثة فروع:

— في أسفل السلم الكائنات الغير الحية، المسماة «صما» التي تعتبر لغتها لغة باطنية اذ هي لا تدرك أو لا تسمع من عامة الناس. ويشمل هذا الصنف من الكائنات كلها يقع على سطح الأرض (رمل، ماء الخ..) أو يمكن في أعماقها (معادن، فلزات الخ..).

ومن بين الكائنات الغير الحية الصماء توجد، الغير الحية الجامدة والسائلة والغازية (حرفياً الدخانية).

— وفي الدرجة الوسطى تقوم الكائنات «الحية الساكنة»، وهي كائنات حية لا تتنقل، وذلك صنف النباتات التي قد تمتد أو تنتشر في الفضاء ولكن ساقها لا تتحرك.  
ومن بين الكائنات الحية الساكنة توجد النباتات الزاحفة والمتسلقة والرأسية وهاته الأخيرة هي أرفع الأصناف.

— وفي النهاية «الكائنات الحية المتحركة» وتشمل كل الحيوانات حتى الانسان. وتشتمل الكائنات الحية المتحركة الحيوانات الارضية (منها ذات العظم ومنها ما بدونه) والحيوانات المائية والحيوانات الطائرة.

فيمكن اذن أن يرتبط كل كائن موجود بأحد هذه الأصناف (١٠) ومن بين كل «التوار يخ» فان أعظمها وأكبرها دلالة تاريخ الانسان نفسه ملخص كل «التوار يخ» اذ، حسب الاسطورة، هو مؤلف من جزء من كل ما وجد قبله. فكل ممالك الحياة توجد فيه (معديني، نباتي، حيواني) مقرونة بالقوى العديدة وبالملكات العليا. ويرتكز ما يهمه من التعاليم على أساطير علم الكونيات معينة مكانته ووظيفته في العالم كاشفة عن ماهية علاقته بعالم الأحياء والأموات. وتفسر رمزية جسمه كما يفسر تشعب حياته النفسية، «ان شخصيات الشخص متعددة في الشخص» هكذا تقول مأثورات بامبارا والفلانين.

و يعلم السلوك الذي يجب أن يكون له ازاء الطبيعة وكيفية احترامه لتوازنه وعدم اطلاق القوى التي تنشطه والتي هو مظهرها المرفي. ويكشف له التدريب عن علاقته مع عالم القوى و يقوده شيئا فشيئا الى تمالك النفس، ويبقى الهدف النهائي أن يصير «ما» «وانسانا كاملا» ومخاطبا لمانكالا حارس العالم الحي.

## الصنائع التقليدية

ان الصنائع التقليدية حوامل كبرى للمأثور المنقول  
ففي المجتمع الافريقي التقليدي كثيرا ما يكتسي النشاط البشري طابعا مقدسا أو باطنيا، ولا سيما منها ما يتمثل في التأثير على المادة وفي تحويلها باعتبار كل شيء ككائن حي.  
وكل وظيفة صناعية كانت، ترتبط بمعرفة خفية نقلها جيل عن جيل، وأصلها الوحي الأول. فكان عمل الصنائع مقدسا اذ كان «يحكي» عمل مانكالا ويتم خلقه. فتقول مأثورات بامبارا إن الخلق ليس تاما وان مانكالا عند خلقه لأرضنا أبقى فيها أمور ناقصة كي يأتي ما، مخاطبه، ليستمها أو ليغيرها حتى يقود الطبيعة نحو الكمال، وكان من المفروض أن «يردد» النشاط الصناعي في عمله سر الخلق. وهو «يركز في البؤرة» قوة باطنة لا يمكن الاقتراب منها بدون احترام الظروف الشعائرية الخاصة.

و يصاحب الصناعات التقليدية شغلهم بأناشيد شعائرية أو بكلمات موقعة جوهرية. وتعتبر حركاتهم نفسها كلفة، وذلك ان حركات كل حركة تعيد في رمزية خاضعة بها، سر الخلق الاساسي المرتبط بقدرة الكلمة، كما أشرنا الى ذلك آنفا. فيقال:

«يصنع الحداد الكلمة  
والنساج يحوكها  
والاسكافي يملسها ويطربها».

ولنتخذ مثل النساج وصناعته مقترنة برمزية الكلمة الخلاقة المنتشرة في الزمان وفي المكان.  
فنساج الفريق (مابو، لدى الفلانيين) مستودع لأسرار القطع الثلاث والثلاثين التي تتركب  
منها القاعدة الأساسية للمستوال، والجميع يعلم معناها. فالهيكل مثلاً يكون من ثماني خشبات  
رئيسية: أربع رأسية لا ترمز الى العناصر الاربعة فحسب (التراب والماء والهواء والنار) بل أيضا الى  
الجهات الأساسية الاربع، و٤ خشبات مستعرضة ترمز الى الجهات الاربع الملحقة، ويمثل النساج  
في وسطها الإنسان الاصيلي ماء، في قلب الجهات الثمان في الفضاء. وبحضوره تحصل على تسعة عناصر  
تذكرنا بحالات الوجود الأساسية التسع، وبأصناف الكائنات التسعة، وبفتحات الجسم التسع  
(أبواب قوى الحياة) وبأصناف البشر التسعة عند الفلانيين الخ.. الخ..  
فقبل الشروع في العمل يمس النساج كل قطعة من المنوال متفوها بكلمات أو إبتهالات توافق  
قوى الحياة التي تجسمها.

وحرركات الأرجل ذهابا وإيابا صعودا ونزولا لتحريك الدواسة، تذكر بالايقاع الاصيلي للكلمة  
الخلاقة المرتبطة بثنائية كل شيء وبقانون الدورات، فكأن رجليه تتكلمان قائلتين:

«فونيونكو فونيونكو ثنائية ثنائية  
إذا ما ارتفعت واحدة تنزل الأخرى  
يموت الملك و يتوج الأمير  
ويموت الجد و يولد الحفيد  
خصومات طلاق تمتزج بأصداء حفلة الزواج....»  
و يقول المكوك من جهته:

«أنا سفينة القدر  
أمرين صخور خيوط اللحمه  
التي تمثل الحياة  
من الجانب الايمن الى الجانب الأيسر  
ناشرا أمعائي (الخيوط)  
لأساهم في البناء  
ثم من الجانب الايسر الى الجانب الايمن  
ناشرا أمعائي  
والحياة ذهاب وإياب مستمر  
تضحية مستمرة بالذات»

وقطعة النسيج المتجمعة المطوية على عصي مرتكزة على بطن النساج تمثل الماضي بينما يرمز

مطوى الخيوط المنسوجة الى سر الغد والمصير المجهول. وسيقول النساج دائما: «أيها الغد لا تحتفظ لي بمفاجأة كرهية».

ويمثل شغل النساج في الجملة ثماني حركات من الذهاب والاياب (بالرجلين واليدين والمكوك والتقاطع الايقاعي لخيوط اللحمة) تقابل خشبات الهيكل الثمان وسوق العنكبوت الاسطوانية الثمان تلك التي علمت علمها حد النساج.

وحركات النساج وهو يشغل المتوال هي الخلق أثناء عمله، وكلماته المصاحبة لحركاته هي انشودة الحياة نفسها.

واما الحداد التقليدي، فهو مستودع سر الاستحالات، فهو «سيد النار» من أعلى طراز أصله اسطوري، وفي مأثوري البامبراء، يدعى «ابن الأرض الأول» وترجع معلوماته الى ما الانسان الأول. وقد علمه الخالق مانكالا فيما علمه، أسرار «الحدادة»، ولذا سمي كور الحدادة فان أي باسم فان، البيضة الاصلية التي خرج منها العالم كله وكانت المصهر المقدس الأول.

وترتبط عناصر المصهر برمزية جنسية هي عبارة عن عمل كوني للخلق أو انعكاسه.

فالزقان المستديران اللذان يحركهما مساعد الحداد يشبهان بخصيتي الذكر، وما يمثلان به من الهواء هي مادة الحياة المرسله، من خلال نوع من الجعاب يمثلها القضيب، الى موقد المصهر المتمثل في الرحم حيث تعمل النار المحولة.

فلا يدخل الحداد التقليدي المصهر الا بعد الاستحمام الشعائري كي يتطهر، يهبأ له الحمام بطبيخ بعض الاوراق والقشور والجذور من الاشجار، تختار بحسب اليوم. فالنباتات (كالمعادن والحيوانات) تقسم الى سبعة أصناف تقابل أيام الاسبوع وتقترب بقانون «التقابل القياسي» (١١) ثم يرتدي الحداد زيا خاصا اذ لا يمكنه أن يدخل المصهر وعليه ثياب غير لائقة. وكل صباح، يظهر الحداد المصهر ببخورات خاصة مستمدة من نباتات يعرفها.

واذا ما تمت هذه العمليات، واذا ما اغتسل الحداد من كل ما لاصقه في الخارج يكون في حالة طقوسية و يصير طاهرا شبيها بالحداد الأصلي، واذاك فحسب يكون في امكانه الاقتداء بمانكالا، أن «يخلق» بتغيير العادة وصنعها (واسم الحداد بالفلائية هو بيلوأي، حرفيا، المحول المغير) ويذكر الحداد قبل الشروع في العمل العناصر الاصلية للخلق الاربعة (التراب والماء والهواء والنار) وهي جميعا، يتحتم تمثيلها في المصهر، ففيه دائما حوض ماء والنار في الموقد والهواء يبعث به الزقان ويجوار المصهر كدس صغير من التراب.

ويتفوه الحداد أثناء شغله بكلمات خاصة عند لمسه كل آلة، فعند لمسه للسندان، رمز القابلية النسائية، يقول: «لست مانكالا، بل أنا ممثل مانكالا. فهو الخالق، لا أنا» ثم يأخذ الماء أو بيضة ويهدبها السندان قائلا: «هذا مهرك».

و يأخذ مطرقته الضخمة، رمز القضيب، و يضرب بها ضربات على السندان «ليحسسه» و يتم هكذا الإتصال، و يصير في امكانه أن يشرع في العمل.

(١١) عن قانون التقابل القياسي انظر أ. هباتي با: مظاهر من الحضارة الافريقية الحضرة الافريقي، باريس، ١٩٧٢، ص ١٢٠ وما بعدها.

وعلى المساعد ألا يسأل أي سؤال، وما عليه إلا أن ينتظر وأن ينفخ. وهذا هو الطور «الصامت» في التدريب. وكلما تقدم في المعرفة يكون نفخه حسب إيقاعات تزداد تشعبا، ولكل إيقاع مدلوله، ثم أثناء الطور الشفاهي من التدريب، ينقل المعلم كل معلوماته إلى تلميذه شيئا فشيئا، ويمر به ويسدد خطاه إلى أن يحصل على الأستاذية، فيمكن الحداد الجديد بعد «حفلة تحرر» أن يفارق أستاذه وأن يجعل لنفسه مصهرا خاصا.

وعموما إن الحداد يرسل بأبنائه للتدريب عند حداد آخر. وكما يقول المثل: «ليس أزواج المعلم وأبنائه خيرة تلاميذه».

وهكذا فإن الصانع التقليدي، عندما ينسج على منوال مانكالا «مكررا» بحركاته الخلق الأولى، لا يقوم «بعمل» بالمفهوم الاقتصادي المحض بل بوظيفة مقدسة تدخل فيها قوى الحياة الأساسية وتجعل الصانع ملتزما بكل ذاته. ففي سر مصنعه أو مصهره هو يساهم في السر المتجدد للخلق الأزلي. وينبغي أن تغطي معارف الحداد قطاعا فسيحا من الحياة. هو باطني شهير ومهارته في أسرار النار والحديد تؤهله وحده لعملية الختان، وكما شاهدنا فإن «مالك السكين» في تدريب الكومو هو الحداد دائما. فليس هو مجرد عالم بكل ما له صلة بالمعادن، بل إنه يعرف تمام المعرفة تصنيف النباتات وخصائصها.

وحداد الفرن العالي في آن واحد مستخرج للمعدن وصاهر وهو الأقوى معرفة. فيضيف إلى معارف الحداد الصاهر معرفة تامة بأبناء قلب الأرض (علم المعادن) ومعرفة أسرار الأدغال والنباتات. وهو يعرف العمران النباتي الذي يغطي الأرض إذا ما حوت معدنا معلوما، ويعرف كيف يتحسس مناجم الذهب بمجرد النظر في النباتات والحجارة.

وهو يعلم تعزيمات الأرض وتعزيمات النباتات. وإذا اعتبرت الطبيعة حية تنشطها قوى، فكل عمل لابد أن تصحبه «آداب للسلوك شعائرية» من شأنها أن تحفظ توازنه المقدس وأن تحميه، فكل الأمور مرتبطة بعضها ببعض، ولكل صدى في الكل، وكل عمل يزغزع قوى الحياة وتتبعه سلسلة من النتائج التي يتحمل الإنسان ردود فعلها.

وكانت علاقة الإنسان التقليدي اذن بالعالم علاقة حية من المشاركة لا مجرد علاقة استعمال. ومن المفهوم في هذه النظرة الشاملة للعالم أن مكانة الجاهل ضئيلة.

ففي بلاد باولي القديمة مثلا، كان الذهب الذي تعج به الأرض يعتبر معدنا إلهيا، ولم يكن مادة استغلال متطرفة. فكان يستخدم بخاصة لصنع أدوات الملك أو أدوات الثقافة، وكان يقوم أيضا بدور العملة للتبادل في صورة هدية. وكان في إمكان الكل أن يستخرجه ولكنه لم يكن في وسع أحد أن يحتفظ لنفسه بتر يتجاوز حجما معيناً.

وكل تبر يتجاوز الوزن العادي يسلم إلى الإله ويفخم «الذهب الملكي» ذلك المستودع المقدس الذي لم يكن في وسع الملوك أنفسهم أن يغترفوا منه. وتناقلت هكذا بعض الكنوز الملكية دون أن تتغير حتى الاحتلال الأوربي، فالأرض لله وليس لاحد أن يملكها، بل له منها فقط حق الانتفاع.

ولنعبد إلى الصانع التقليدي، فهو المثال النموذجي لتجسيم معارفه ليس في حركاته وأفعاله فقط بل في حياته كاملة، إذ من واجبه أن يتجنب مجموعة من المحرمات، وأن يقوم بعدة واجبات مقترنة بوظيفته، وذلك قانون حقيقي للسلوك إزاء الطبيعة وإزاء بني جنسه.



فيوجد ما يسمى «طريق الحدادين» في (البامبرا، نوموسيرا أو نومويا) و «طريق الفلاحين» و «طريق النساجين» الخ وفي مستوى الجنسية طريق الفلانيين (لولو فلفلد) وهي قوانين حقيقية أخلاقية واجتماعية وقضائية خاصة بكل مجموعة، نقلت بأمانة واحترمت عن طريق المأثور المنقول. ويمكن القول إن الصناعة أو الوظيفة التقليدية تجسم ذات الانسان وذلك هو كل الفرق بين التربية العصرية والمأثور المنقول.

فكل ما يدرس في المدرسة الغربية مهما كان مفيدا فاننا لا نعيشه دائما بينما تتجسم المعرفة المتوارثة بواسطة الرواية الشفاهية في الكائن بأكمله: وتجسم الآلات وأدوات الصناعة الكلمات المقدسة، فيضطر المتعلم عند اتصاله بالصناعة، وعند كل حركة أن يعيش الكلمة.

ولهذا فان التراث المنقول في مجموعه، لا يتلخص في نقل الأخبار أو بعض المعارف، بل هو يولد ويكون نموذجا خاصا للانسان ويمكن أن يقال، توجد حضارة الحائكين وحضارة الرعاة الخ... اني اقتصرت هنا على التعمق في مثال الحائكين والحدادين، اذ هي نموذجية خاصة، ولكن كل نشاط تقليدي يكون عموما مدرسة عظيمة للتدريب، أو هي سحرية دينية، ومسلك نحو الوحدة التي هي «حسب المدرسين» إنعكاس لها أو عبارة من عباراتها الخاصة.

وللاحتفاظ داخل النسب بالمعلومات السرية والقوى السحرية المتوارثة، فان على كل مجموعة غالبا أن تراقب المحرمات الجنسية القاسية ازاء الاشخاص الخارجة عن المجموعة، وان تتعاطى التزاوج داخلها. وليست علة ذلك اذن فكرة النبذ والتحذر من التعاطي مع الغير، بل هي ارادة الاحتفاظ في المجموعة بالأسرار الشعائرية: ونرى هكذا كيف وصلت هذه الجموع المتخصصة تخصصا ضيقا، والمتصلة بالوظائف المقدسة شيئا فشيئا الى فكرة «الطبقة» كما هي موجودة اليوم في افريقيا السهوب. يقول المثل: «إن الحرب والشريف هما اللذان صنعا الاسير، ولكن الله هو الذي كون الصانع (نياما كالا)».

ان فكرة التفوق أو الذونية بالنسبة الى الطبقات، لا تتركز على أي واقع اجتماعي تقليدي، وقد ظهرت على مر الازمنة في بعض الجهات فحسب، ومن الراجح أن يكون ذلك تابعا لظهور بعض الامبراطوريات، حيث قامت الوظيفة الحربية المتخصصة للاشراف، بمنح هؤلاء ضربا من التفوق. وفي الازمنة العتيقة بدون شك، فان فكرة النبالة لم تكن هي عينها، وكان للسلطة الروحية الأولية تفوق على السلطة الزمنية. وفي تلك الازمنة كان السيلاتيقي (الشيخ العارفون الفلانيون) وليس الأردو (الرؤساء والملوك) هم الذين يسيرون المجموعات الفلانية.

وخلافا لما كتب أو ظن بعضهم، فان الحداد في افريقيا يخشى أكثر مما يحترق هو «أول ابن للارض»، مالك للنار وممارس للقوى السرية. فيخشى على الأخص ماله من سلطة.

وعلى كل فان التقاليد أوجبت على الاشراف أن يحققوا القيام بشؤون الفئات «الطبقية» أو فئات النياما كالا (في البامبرا) (نيانيو وجمعه نياببي بالفلانية) فكان لهذه الفئات ميزة امكانية طلب الخيرات (أو المال) لا كأجر عن عمل، بل كحق لاسبيل للاشراف أن يرفضوه.

وفي تقاليد مندي وجماله في مالي، وان كان يمتد قليلا أو كثيرا على كامل تراب بافور القديم (أي

قديمًا افريقيا الغربية الفرنسية ما عدا مناطق الغابة وشرقي النيجر) فإن الفئات الطبقيّة تشتمل على:

- الحدادين (نومو في لغة بيارا، بايلو بالفلاندية)
  - الحائكين (مابو، بالفلاندية كما في الببارا)
  - عمال الخشب (من خطابين ونجاري الاثاث، ساكي بلغة بامبارا ولا بوبالفلاندية)
  - عمال الجلد (كرانكي بالبامبارا، سكي بالفلاندية)
  - المنشطين العموميين أي القصاصين (ديالي بالبامبارا، ويسمون بالفلاندية بالاسم العام نيايبي، نيماكالا) ويعرفون بالفرنسية باسم فريو (Griots).
- ومع أنه لا وجود للتفوق بالمعنى الكامل، فإن الفئات الأربع للنياما كالا الصنّاع، لهم الاولوية على القصاصين، اذ هي تقابل تدريبات ومعرفة. ففي القمة يوجد الحداد، ثم يليه الحائك اذ صناعتهما أكثر تدرّيبًا. وللحدادين والحائكين أن يتزوجوا على السواء من نساء الفريقين اذا كنّ من الفخارين التقليديين ولهن عين التدريب النسائي.
- وفي تصنيف ماندي يكون الصنّاع نياما كالا مصنفين دائما ثلاثة ثلاثة: فهناك ثلاثة حدادين (نومو في البامبارا وبايلو في الفلاندية).
- احدهم حداد منجم (أو ذو فرن عال) يستخرج المعدن ويصهر الفلز. وكبار العارفين منهم يمكنهم العمل أيضا في المصهر.
- والثاني حداد الحديد الأسود، وهو يعمل في المصهر ولا يستخرج المعدن.
- والثالث حداد المعادن الكريمة، او الصائغ، وهو عامة من أهل البلاط وهذه الصفة يستقر في سقيفة الرؤساء أو النبلاء.
- وهناك ثلاثة نساجين: مابو
- نساج الصوف، وهو اعرفهم، والصور المرسومة على البطانيات دائما رمزية، وترتبط بأسرار الأعداد وعلم الكونيات، ولكل رسم اسم.
  - نساج الكركا، وينسج بطانيات كبيرة والناموسيات أو الكلات من القطن، يمكن أن يبلغ طولها ستة أمتار، وعليها لا نهاية من الصيغ التصويرية. ويشاهد منها ما يشتمل على ١٦٥ عنصرا فنيا (ولكل عنصرا اسم ومدلول، والاسم نفسه رمز يدل على الكثير من المعاني).
  - النساج العادي، ويصنع أشرطة بسيطة بيضاء ولا يتلقى تدريبا كبيرا وقد يستعمل الاشراف النسج العادي، ومن ذلك بعض البامبارا حيث يصنعون قطعاً بيضاء دون أن يكونوا من فريو النساجين، ولكنهم ليسوا عارفين وليس في وسعهم أن ينسجوا الكركا ولا الصوف ولا الناموسيات. ويوجد ثلاثة أنواع من عمال الخشب (ساكي في بامبارا ولا توف في الفلاندية).
  - صانع المهاريس والمدقات والدميات المقدسة. فالمهراس الذي تدق فيه الادوية المقدسة آلة شعائرية ولا يصنع من أي نوع من الأخشاب. وهو، كالمصهر، يرمز الى القوتين الأساسيتين: فالمهراس كالسندان يمثل القطب المؤنث بينما يمثل المدق، كالمطرقة، القطب المذكر.
  - وتصنع الدميات المقدسة بطلب من عارف — دوما «يشحنها» بطاقة مقدسة بقصد استعمال



● (١) عازف على آلة الـ «قاليها»  
الحشبية ذات الاوتار الفولاذية.  
(مجموعة متحف الانسان).

● (٢) فنان (شاعر وقصاص وعازف)  
متجول من شعب الـ «هوتو» يمثل دور  
الموامي (السيد) الذي تدهورت به  
الحال. (مجموعة ب. مانتيه).



معين. وعلاوة على شعائرية «الشحن» يجب أن يتم اختيار الخشب وتفصيله في ظروف خاصة يعلم الحطاب سرها.

وصانع الخشب يقطع هو نفسه ما يحتاج اليه من خشب، فهو أيضا حطاب و يقرن تدريبه بمعرفة أسرار الادغال والنباتات. وحيث ان الاشجار تعتبر حية مكونة من أرواح أخرى حية، فلا تقلع ولا تقطع بدون تحفظات طقوسية خاصة يعلمها الحطاب.

— صانع الأدوات أو أثاث المنزل من خشب.

— صانع الزوارق الجذعية، ويجب عليه أن يكون عارفا أيضا بأسرار الماء.

وفي مالي ان السومونو وقد صاروا صيادي أسماك دون أن يكونوا من جنس البوزو، شرعوا في صنع الزوارق الجذعية بدورهم. وهم اللذين يشاهدون بصدد العمل بين كوليكورو وموبيتي على ضفاف النيجر.

وهناك ثلاثة أصناف من عمال الجلد (كرانكي بالبابيرية وساكي بالفلانية):

— صانعوا الأحذية.

— البرادعيون.

— السراجون.

وعمل الجلد يقابل أيضا تدريبا، فالكرانكي اشتهروا كثيرا بكونهم سحرة. والصيادون وصيادوا الأسماك والفلاحون لا يعتبرون طبقات بل أجناسا، ونشاط من أقدم أنواع النشاط في المجتمع البشري، و «الجنى» (فلاحة) و «الصيد» (ويشمل صيدين: في البر وعلى الماء) يمثلان مدرستين كبيرتين للتدريب، اذ لا تواجه قوى أرض الام المقدسة مواجهة كما يتفق، ولا كذلك قوى الأدغال حيث تعيش الحيوانات.

فالصياد كحداد القرن العالي يعرف عموما كل «تعازم الادغال» و ينبغي له أن يملك بتعمق علم العالم الحيواني.

والمستطبون (بواسطة الأعشاب و «بهوبة الكلمة») قد ينتمون الى أي طبقة أو أي جنس، وهم غالبا من الدوما.

ولكل شعب غالبا ميراث من المواهب الخاصة نقل بالتدريب جيلا بعد جيل. فالدوكون في مالي اشتهروا بمعرفة سر الجذام الذي يعالجه بسرعة كبيرة دون أن يبقى أي أثر، وكذلك سر معالجة السل. وهم علاوة على ذلك يجربون بارعون، يعلمون كيف يرجعون العظام المكسورة الى محلها حتى في حال الكسور الخطيرة جدا.

## المنشطون العموميون أو «القصاصون» (الديلي في البابيرا)

اذا كانت العلوم الباطنية الحقية نصيب «أصحاب السكين» ومنشدي الالهة، فالموسيقى والشعر الغنائي والقصص التي تنشط التسليات الشعبية والتاريخ أحيانا، ترجع كلها الى «القصاصين» وهم نوع من المنشدين المتجولين أو الشعراء الموسيقيين الذين يجوبون البلاد أو يجندون أسرة من الأسر.

وكثيرا ما ظن خطأ أنهم «التقليديون» الوحيدون الممكنون. فمن هم؟  
انهم يقسمون الى ثلاثة أصناف:

— «القصاصون» الموسيقيون الذين يوقعون على الآلات كلها (وحيدة الوتر والقيثارة والكُر والدَف الخ)، هم أحيانا مغنون رائعون يحفظون الموسيقى القديمة وينقلونها وهم في آن واحد ملحنون.  
— «القصاصون المسفراء» والملحنون بالبلاطات وهم يتكفلون بالوساطة بين كبار العائلات اذا كانت بينها خصومات. وهم دائما مرتبطون بأسرة مالكة أو شريفة وأحيانا بشخص واحد.  
— القصاصون النساء، المؤرخون أو الشعراء (أو ثلاثهم معا) وهم بصورة عامة أيضا قصاصون ورجالون غير مرتبطين حتما بأسرة من الأسر.

وتمنحهم التقاليد نظاما خاصا ضمن المجتمع. وخلافا للهurons (الاشراف) كان لهم الحق في الجسارة وفي حرية كبيرة في القول وفي وسعهم أن يبدوا غير متحرجين بل وقحين وقد يمزحون في أمور كبيرة جدية أو كبيرة التقديس دون أن يؤخذوا على ذلك. وليسوا مقيدين بحفظ السر أو باحترام الحق احتراماً مطلقاً. فقد يكذبون بكل جرأة وليس لأحد أن يقسو عليهم «هكذا قال الديلي فليس هذا هو الحقيقة الحق، ولكننا نقبله على هذا الشكل» فهذا المثل يبين الى أي حد تقبل التقاليد دون اغترار تزييفات الديلي وتقول عنهم «ان لهم فها ممزقا».

وفي تراث البافور كله يحجر على الشريف أو الرئيس أن يتعاطي الموسيقى في الاجتماعات العامة، كما هو يلتزم بالتلطف في العبارة أو الكلمة يقول المثل: «لا يليق المذربم المهورون» لذا يؤول الأمر طبعاً بالقصاصين المرتبطين بالاسر الى أن يقوموا بدور الوساطة أو حتى السفارة اذا نجمت مشاكل كبيرة أو صغيرة، وهم «لسان» مولاهم.

واذا كان بينهم وبين أسرة أو شخص ولاء، فهم يكلفون عادة بقضاء الحوائج العادية وخاصة بالقيام بالمساعي الرامية الى عقد زواج، فالشاب الشريف مثلاً لا يخاطب مباشرة امرأة ليبوح لها بحبه، بل يكلف بذلك «قصاصه» الذي يتصل بالبت أو «بقصاصتها» ليصرح لها بمشاعر مولاها وليطري لها مزاياء.

ويعتمد المجتمع الافريقي أساساً على الحوار بين الأفراد، والخطاب بين المجموعات أو الأجناس، فيكون الديلي أي «القصاصون» العمال الناشطين الطبيعيين لهذه المحاورات وإذا سمح لهم أن يكون لهم «لسانان في فهم» فقد ينكثون كلمتهم اذ اقتضى الأمر دون أن يؤخذوا على ذلك، وهذا ما لا يمكن للشريف، اذ لا يسمح له بالرجوع فجأة في كلمته أو في القرار الذي أخذه، بل ان «القصاصين» قد ينسبون لأنفسهم ذنباً لم يقتروه لارجاع المياه الى مجاريها أو لالتماس مخرج للشرفاء. وللحكماء الشيوخ في المجموعة وحدها أن يجلسوا جلسات سرية وأن يتحملوا العبء الثقيل المتمثل في «النظر الى الأمور من الكوة اللاتقة» ولكنه من خصائص «القصاصين» أن ينفذوا ما أقره الحكماء وسطروه. ولقد درّب «القصاصون» على تلقي الأخبار وعلى نشرها، فهم الحملة الكبار للأخبار ولكنهم في الوقت ذاته هم مشيروا القيل والقال.

واسنهم بالامبرا، ديلي، يعني «الدم» فهم بمثابة الدم يحلون في جسم المجتمع، يبرثونه من غلة أو يمرضونه، كما يطفون به الخصومات بكلامهم وبأناشيدهم أو يشعلون اوارها.  
على أننا نصرح منذ الآن، أن تلك هي الخاصيات العامة، ولكن ليس كل القصاصين حتما

وقحين سيثي الخلق، بل بالعكس، انه يوجد من بينهم من يسمون «القصاصين الملوك» ديبلي فاما. لا ينقصون شيئا عن الشرفاء من حيث الشجاعة وحسن الخلق والفضائل والحكمة، وهم لا يتجاوزون أبدا ما يمنحهم العرف من حقوق.

وكان القصاصون عاملا نشيطا عظيمًا للإتصال البشري ولتبادل الثقافة، فكثيرا ما كان لهم ذكاء كبير، وقد قاموا بدور عظيم في المجتمع التقليدي ببافور بفضل نفوذهم على الاشراف والرؤساء. وفي كل المناسبات، حتى اليوم، هم يحمسون أنفة الشريف العصبية ويثيرونها بأناشيدهم، أحيانا للحصول على الجوائز، وأخرى لتشجيع الشريف في ظرف عصيب.

وفي السهرة قبل الحتان مثلا، يشجعون الطفل أو الشاب حتى يعرف بصبره كيف يبدو جديرا بأجداده. فيقول المغني عند الفلانين: «ان أباك (١٢) فلانا في ساحة الوغى ابتلع عصيدة الحديد الحامية» (الخراطيش) دون أن يحرك جفنا، فأرجو لك غدا أن لا تبدي خوفا من سكين الحداد المرفه. وفي حفلة العصا أو سور لدى فلانيني برورو والنيجر، يعاضد القصاصون الشاب بأناشيدهم حتى يبهرهن على شجاعته وصبره عند تلقية ضربات العصا القاسية على صدره، دون أن يرتجف له جفن ولا تفارقة الابتسامة.

وساهم القصاصون في كل معارف التاريخ بجانب مواليم محمسين لهم بذكر أنسابهم وإيادي آبائهم وأجدادهم. وذلك لما في ذكر الاسم من قوة عند الافريقي، فترديد عمود نسبه يحياى الافريقي ويمدح.

وكان نفوذ الديبلي عبر التاريخ طيبا أوردنيا بحسب ما كانت كلماتهم تثير من نخوة الرؤساء وتدفعهم الى تجاوز الحدود أو بحسب ما كانت تذكرهم باحترام واجباتهم التقليدية — كما كان الشأن غالبا.

وكما نرى فان تاريخ الامبراطوريات العظيمة في افريقيا البافور لا ينفصل عن دور الديبلي الذي يستحق وحده دراسة معمقة.

وانما يكمن السر في قوة الديبلي ونفوذهم في المهورون (الشرفاء) في معرفتهم للانساب ولتاريخ أسرهم. حتى أن بعضهم قد جعل من هذه المعرفة له اختصاصا، وهذا الصنف من القصاصين كثيرا ما لا ينتمي الى اسرة بعينها، فهم يجوبون البلاد باحثين عن أخبار تاريخية دائما في اتساع. وذلك يضمن لهم الامتلاك لوسيلة تكاد تكون سحرية لايقاد التحمس لدى الاشراف عند انشادهم لهم انسابهم وشعاراتهم وتاريخهم فيتلقون منهم بصفة آلية جزيل العطايا، فقد يتخلى الشريف عن كل ما يحمل معه وكل ما بيته ليكافئ قصاصا عرف كيف يضرب على وتره الحساس. وأتى ذهب القصاصون فهم آمنون أمنا كبيرا للحصول على قوتهم.

ولا يظن أحد مع ذلك أن الأمر متعلق «بأجر عن عمل»، ففكرة الأجر عن العمل منافية للتصور التقليدي لحق النيامكالا على الطبقات الشريفة (١٣)، فمها كانت ثورة الأشراف وحتى

(١٢) أبوك في اللغة الافريقية قد يعني أيضا عمك أو جدك أو جدك الأعلى هونسب كامل من جهة الأب.

(١٣) شريف ترجمة تقريبية جدا لمهورون، والواقع أن المهورون، هو كل من لا ينتمي الى طبقة النيامكالا ولا الى طبقة الجون (الأسرى) التي نشأت اثر سبي حروب قديمة. ويجب على المهورون أن يحققوا الدفاع عن المجموعة وان يبذلوا حياتهم في سبيلها وان يضمنا شؤون سائر الطبقات.

لدى افقرهم فانه يجب على هؤلاء تقليديا أن يبذلوا العطايا للديلي كما لكل نياما كالا أو وولوزو (١٤) «أسير الكوخ» ولو كان السائل أغنى بكثير من المعطي. وبصفة عامة أن طبقة الديلي هي الأكثر سؤالا، ولكن الديلي مهما كان ربحه فهو دائما فقير إذ هوينفق بدون احتراز معتمدا على الاشراف ليتمكن من العيش.

فينشد القصاصون السائلون: «الا ان يد الشريف لا تبقى مغلولة الى عنقه ببخل، بل هي دائما مستعدة للغوص في جيبه ليتبرع على السائل» وان اتفق أن توقفت الهدية فحذار من أذى «الرجل ذي الفم المخرم» «فلساناه» قد يفسدان الكثير من الامور ومحطان من الصيت.

ومن الوجهة الاقتصادية فان طبقة الديلي، كسائر طبقات النياما كالا و وولوزو كلها يتحملها تماما المجتمع وخاصة طبقات الاشراف، وان ما تم من تغيير تدريجي للأوضاع الاقتصادية وللأخلاق نقص من هذا الوضع إذ حصل أشراف قدامى أو قصاصون قدامى على وظائف ذات رواتب، ولكن هذا التقليد بقي حيا وما يزال الناس يتفقون أموالهم بمناسبة أعياد التعميد أو حفلات الزواج ليدرؤا الهدايا على القصاصين الذين يقدمون لتنشط هذه الحفلات بغنائهم. وقد حاولت بعض الحكومات العصرية القضاء على هذه العادة ولكنها فيما أعلم لم تنجح بعد.

ومبدئيا فعلى الديلي وهو من النياما كالا، أن يتزوج من طبقات النياما كالا. لقد شاهدنا كيف تمكن القصاصون النسابون المتخصصون في معرفة تاريخ العائلات وقد وهبوا غالبا ذاكرة عجيبة، من أن يصبحوا بطبيعة الحال بمثابة المثقفين للمجتمع الافريقي وأحيانا مؤرخين عظاما ولكن لا ننسى أنهم ليسوا وحدهم المختصين بهذه المعارف، فيمكن في الأكثر أن نسمي القصاصين المؤرخين «علماء تقليديين» ولكن مع الاحتراز ان هذا انما هو فرع تاريخي محض من التراث الذي له عدة فروع أخرى.

ولأن يولد الشخص، قصاصا (ديلي) فلا يلزم عنه حتما أن يكون الديلي مؤرخا، بل ذلك يهيؤه لأن يكونه، كما يترتب عليه أن يكون عالما في مادة التقاليد، «عارفا» وبصفة عامة ان طبقة الديلي أبعد الطبقات عن مجالات التدريب التي تقتض وجوب الصمت والسر وامتلاك الكلمة. على أن امكانية صيرورتهم «عارفين» ليست محرمة عليهم ولا على غيرهم. وكما أن التقليدي الدوما (العارف التقليدي) قد يكون في الوقت نفسه عالما جليلا بالانساب ومؤرخا، فان القصاصة ككل فرد من أي صنف اجتماعي، في وسعه أن يصير تقليديا دوما اذا مكنته مواهبه من ذلك، واذا عاش التدريبات التابعة لذلك (ما عدا تدريب الكومو المحرم عليه).

لقد ذكرنا أثناء هذه الدراسة مثالا من قصاصين «عارفين» يعيشان حاليا بما لي: إيوا وبنزومانا وهذا الأخير موسيقي كبير ومؤرخ وتقليدي دوما.

ان «القصاص» التقليدي الدوما في نفس الوقت، يمثل مصدرا للإرشادات موثوقا به تماما. إذ تمنحه صفة «العارف» التي يتصف بها قيمة أخلاقية عالية، وجدارة لامتناعه عن الكذب ويصبح إنسانا آخر. إنه هذا «القصاص الملك» الذي تحدثت عنه أنفا، والذي يستفتي لحكته ولعارفه، وهو وان كان يعرف كيف يسلي لا يبالي في التمتع بحقوقه العرفية.

فاذا ما روى «القصاص» قصة يقال له عموما: «أهي قصة ديبي أم قصة دوما؟» فاذا كان

الاحتمال الأول قيل: «هذا قول دييلي» وهذا يتوقع السامع بعض التجميل للحقيقة قصد ابراز ما كان لأسرة أو أخرى من دور، ولا يفعل التقليدي الدوما ذلك، اذ يهه قبل كل شيء النقل الحقيقي.

فهذا تمييز لا بد منه اذا كنا أمام قصاص مؤرخ، ومن المناسب أن نعرف هل هو اعتيادي أو دوما، على أنه يجب أن نعترف أن أساس الأحداث قلما يغير، ولكنه منطلق القفز الى الوحي الشعري، أو المدح الذي يأتي على الأقل «لتزيينه» ان لم يكن ليحرفه.

ويجب أن نزيل سوء فهم ما زالت رواسته تبدو في بعض المعاجم الفرنسية. فقد عني بالقصاص (دييلي) أن يكون «ساحرا» وهذا لا يطابق أي واقع. فقد يتفق أن يكون قصاص كرتي تبجي «ملقيا الاذى بالسحر» كما قد يتفق ان يكون دوما «عارفا تقليديا» وذلك لا لكونه ولد قصاصا، بل لأنه درب وتحصل على المهارة، الصالحة أو الطالحة، في مدرسة شيخ في الفن.

ويأتي سوء الفهم من ابهام لفظ «كريو» (قصاص) الذي يعني بالفرنسية أحيانا مجموع النيامكالا — والدييلي جزء منها — وفي الأغلب طبقة الدييلي وحدها.

ويصرح المأثور أن النيامكالا كلهم سباء، ويعني ذلك الرجل المضطلع بالمعارف الخفية التي لا يعلمها الا المدربون، أي من بعض الجهات «العالم الباطن».

على أنه يخرج عن هذا المعنى طبقة فريق الدييلي وهم لا يتبعون أي مسلك خاص للتدريبات فالنيامكالا الصناع هم السباء، ومن بين هؤلاء الكرانكي عامل الجلد، يتمتع بشهرة كونه «سباكا» أي ساحر بالمعنى السيئ للفظ، واني قد أظن أن لفظي سباء وسباكا اشتبا على المترجمين الأوربيين الاوليين (لقرهبا في النطق) وان ابهام لفظ «كريو» (القصاص) أكمل بقية الخلط.

فإذا جاء في الاثر أن «كل النيامكالا» هم من السباء «علماء الباطن» فقد فهموا، من ذلك ان النيامكالا هم من «السحرة» ونتج عن ذلك الاستعمال المزدوج للفظ كريو الجماعي أو الخاص: «كل القصاصين سحرة» ومنه جاء سوء الفهم.

ومهما يكن من الأمر، فان قيمة الدييلي لا تكمن في خصائله المحتملة السحرية، بل في براعته في ممارسة الكلمة وهي شكل آخر من السخر.

وقبل أن نفارق «القصاصين» لنشر الى بعض الحالات الاستثنائية التي تجعلهم يلتبسون علينا. فقد نجد بعض النساخين وقد تركوا ممارسة الصناعة التفكيرية، فصاروا عازي في قيثارة. ويسميهم الفلانيون بمبادو (حرفيا «يحملون على الظهر») اذ يتحمل عبأهم دائما الرجل أو المجموعة: وهؤلاء الببادو هم قصاصون دائما، وقد يكونون شعراء ونساخين ومؤرخين.

وقد يستعيز بعض الخطابين أدواتهم بالقيثارة، فيصرون موسيقيين ونساخين طيبين. فبوكارايلو وادريس نكادا وقد كانا في علمي من بين كبار النساخين في قولطا العليا، كانا خطابين وصارا موسيقيين، ولكن ذلك من باب الاستثناء.

وقد يصير أيضا بعض الاشراف، وقد سقطوا، منشطين مسلين عموميين على أنهم ليسوا



موسيقين (١٥) و يطلق عليهم اسم تياورتا (بالجمرا كما في الفلانية) وهم أكثر وقاحة وفجورا من أوقح القصاصين، ولا يحمل أحد أقوالهم على محمل الجد. ويسألون القصاصون الهدايا، فيفر هؤلاء كلما رأوا واحدا منهم.

ولئن كانت الموسيقى، عامة، هي الاختصاص الأعظم للديلي، الا أنه توجد مع ذلك موسيقى شعائرية يعزفها «العارفون» يصلحون بها الحفلات أو الرقصات الطقوسية. وأدوات هذه الموسيقى المقدسة هي أدوات ثقافية حقة تمكن من الاتصال بالقوى الخفية. وسواء أكانت ذات أوتار أو هوائية أو ايقاعية فانها تبقى متصلة بالعناصر: التراب والهواء والماء.

والموسيقى الصالحة «لتعزيم» أرواح النار هي من اختصاص جماعة «آكلي النار» الذين يطلق عليهم اسم كرسى - كولونين أو دونكاصورو.

## كيف يصير المرء تقليديا؟

كما أشرنا فان جميع الناس في افريقيا البافور كان بإمكانهم أن يصيروا تقليديين دوما أي «عارفين» في مادة أو عدة مواد تقليدية. وكانت المعرفة في متناول الكل (مع وجود التدريب في كل مكان بشكل أو بآخر) وكان الحصول عليها تابعا لمواهب كل منهم.

وكان للمعرفة من القيمة ما جعلها تفوق كل شيء وتكسب الشرف. فالعارف، في أي مادة من المواد، كان له أن يجلس في مجلس القدماء المكلفين بإدارة المجموعة، مهما كان صنفه الاجتماعي، هورون (شريف) نيامكالا أو ولزو (أسير الكوخ). والمثل يقول: «ان المعرفة لا تعرف العرق و الباب الأبوي (أي الفريق)، وهي تكسب صاحبها الشرف.

ولم تكن التربية الافريقية نظامية تشابه التدريس الاوربي. وكانت تكتسب على طول الحياة، وكانت الحياة ذاتها هي التربية. فحتى سن الاثني والاربعين في البافور، كان من المفروض أن يكون الانسان في مدرسة الحياة «ولا حق له في الكلمة» في الاجتماعات، الا بصفة استثنائية. فهو من المفروض أن لا يزال «مستمعا» معمقا المعارف التي كان تلقاها انطلاقا من تدريبه في الحادية والعشرين من عمره.

وابتداء من سن ٤٢ من المفروض أنه هضم التعاليم التي تلقاها منذ الصغر وتعمق فيها، وصار له حق الكلمة في المجالس وصار بدوره معلما يعيد الى المجتمع ما كان قد أخذ منه، ولكن ذلك لا يمنعه اذا كان له غرض في ذلك، أن يتابع تعلمه من لدى من هم أكبر منه سنا ملتصا نصائحهم. وكان يجد الشيخ من هو أسن منه أو من هو أعلم منه يسأله رأيا أو تكملة لخبر. ويقال: «ان الاذن كل يوم تسمع ما لم تكن سمعته من قبل» وهكذا كان في الامكان أن تدوم التربية كل الحياة. فبعدما تعلم الشاب النيامكالا الصانع صناعته وبعدما تناول التدريب التابع لها، يكون مستعدا لأن يطير بجناحيه وكثيرا ما كان ينتقل من قرية الى قرية طالبا المزيد من معارفه لدى

(١٥) لنذكر ان الهورون (الاشراف) البيل أو الجمرا لا يعزفون أبدا أي نوع من الموسيقى على الأقل بين العموم ولقد حافظ التياورتا عامة على هذه العادة.

شيخ جدد. فيقول الناس: «من لم يسافر لم ير شيئاً» لذا كان يذهب من معمل الى معمل متجولاً الى أبعد ما يمكن في البلاد. فأهل الجبل كانوا ينزلون الى السهل، وأهل السهل يصعدون الى الجبل، وأهل بلي دو كو الى مندي الخ. الخ.

وللتعريف بنفسه، كان الحداد الشاب يتأبط زقه في سفره، والحطاب شاقوره، أو بليطته، وكان النساج يحمل منواله على ظهره، وعلى كتفه مكوكه أو بكرته، والحذاثي كان يمكس حلق ألوانه الصغيرة.

ولما كان الشاب يصل إلى قرية كبيرة حيث تكون الحرف متجمعة حسب الأحياء كان يوجه الى الحي الذي يضم المحترفين الذين ينتمي الى حرفتهم.

وكان أثناء سفراته وبحوثه، يحصل على مقدار من المعلومات يكبر أو يصغر بحسب براعته وطبيعته ذاكرته، وبصفة خاصة بحسب طبعه. فان كان مهذباً سهل الجانب، سريعاً في مدي المساعدة، كان الشيخ يكشفون له أسراراً كانوا يخفونها عن غيره اذ كما قيل: «ان سر الشيخ لا يقتنى بالمال، ولكن بالسلوك الحسن».

وأما الشباب الهورون فيقضي طفولته في قصر أبيه وفي القرية حيث يحضر كل الاجتماعات ويسمع ما يحكيه كل أحد، ويحفظ كل ما يمكنه أن يحفظه. وفي جلسات المساء في «جمعية السن» كان كل طفل يروي ما سمع من القصص التاريخية والتدريسية — ولكن في هذه الحالة دون أن يدرك كل مغزاه.

ومنذ السابعة من عمره يلحق آلياً بجمعية التدريب في قريته، ويشرع في تلقي التعاليم منها. وهذه التعاليم كما رأينا آنفاً تخص كل أوجه الحياة.

واذا ما روى شيخ قصة تدريسية في جمعية، فهو يشرح رمزيتها بحسب نوعية مستمعيه وملكية فهمهم، فقد يجعل منها مجرد قصة عجيبة للأطفال تتضمن معنى أخلاقياً تربوياً، أو درساً معمقاً عن أسرار الطبيعة البشرية وعلاقتها بالعالم الحقيق. وكل يحفظ أو يدرك بحسب مؤهلاته.

وكذلك الأمر بالنسبة للأخبار التاريخية التي تنشط الاجتماعات، حيث تذكر الأحداث وحركات القدامى أو أبطال البلد بأقصى تفاصيلها. ويسمع الغريب المار بالقرية أخبار البلدان النائية. وهكذا يكون الطفل منغمساً في محيط ثقافي خاص يتشبع منه حسب خصال ذاكرته. ويصبح التاريخ والقصص والروايات والأمثال والمغازي معالم في حياته.

وبصفة عامة فان الهورون الشاب لا يتغرب، اذ هو مهياً للدفاع عن بلده. فيساهم في أشغال أبيه، وقد يكون فلاحاً أو خياطاً أو ممارساً لنشاط من سائر الأنواع المخصصة لطبقة الهورون، وان كان فلانيا تبع نخيم آبائه، وتعلم منذ زمن ميكرو كيف يحرس وحده قطعانه في قلب الأدغال ليلا ونهاراً، ويتلقى التربية الفلانية المقرنة برمزية البقرات.

وبصفة عامة لا يصير الرجل تقليدياً دوماً وهو باق في قريته. فالداوي اذا اراد التعمق في معارفه، يجب عليه أن يسافر ليتعرف على مختلف أنواع النباتات، وأن يتلقى المعلومات من سائر العارفين في هذه المادة.

والانسان الذي يسافر يكتشف ويعيش تدريبات أخرى، ويسجل الفروق أو التشابهات،

و يفسح مجال ادراكه. ومهما يكن فهو يساهم في الاجتماعات و يستمع الى أخبار تاريخية و يتوقف عند ناقل ضليع في التدريب أو في الانساب، و يتفتح على تاريخ البلدان التي يمر بها وعلى عوائدها. ويمكن أن يقال ان من صار تقليديا دوما قد كان كل حياته بجائنا سائلا وأنه لا يفتأ دائما كذلك. وكان الافريقي في السهوب يسافر بكثرة، ونتج عن ذلك تبادل للمعارف وانتقالها. وهكذا قلما كانت الذاكرة التاريخية الجماعية في افريقيا مقتصرة على مكان واحد، بل هي مرتبطة بالسلالات والعروق التي هاجرت عبر القارة.

وكانت قوافل عدّة تشق البلاد على شبكة من الطرقات الخاصة المحمية تقليديا من قبل الالهة والملوك، حيث يأمن المسافر من الغزو والتعدي. ولولا ذلك الأمن لكان عرضة الى غارة من الغارات، أو دون أن يعلم، الى ارتكاب خرق حرمة محمية، ودفع الغالي من جراء ذلك. وعند ما يحل المسافرون ببلد مجهول، يتجهون عند أحد أعيانه كي «ينحوه رأسهم» فيصير هكذا هو الضامن لهم، اذ «من مس الضيف مس المضيف ذاته».

وأما عالم الأنساب الكبير فهو حتما ودائما، رحالة كبير. فان أمكن للقصاص أن يكتفي بمعرفة نسب الأسرة التي تعلق بها، فعالم الأنساب الحق — سواء كان قصاصا أولا — يجب عليه حتما، أن يخترق البلدان ليوسع معلوماته، وليستخبر عن أهم الفروع لعرق معين، ثم يجب عليه أن يرحل الى الخارج ليسترشد عن تاريخ الفروع المهاجرة.

وهكذا فان مولوم كاولو، كان أكبر عالم بالأنساب الفلانية عرفته، كان متمكنا من أنساب كل الفلانيين بالسنگال. واذ منعه كبر سنه من التنقل أرسل ابنه ممدو مولوم، ليتابع بحثه لدى عائلات الفلانيين المهاجرة عبر السودان (مالي) مع الحاج عمر. ففي المدة التي عرفت فيها مولوم كاولو، كان قد جمع وحفظ تاريخ الماضي لنحو الأربعين جيلا.

وكان من عادته أن يحضر في كل حفلات التسمية أو المآتم في الاسر الكبيرة ليسجل ظروف الولادات والوفيات التي كان يضيفها الى القوائم المستودعة في ذاكرته العجيبة. في امكانه أن يقول لكل شخصية فلانية « انت ابن فلان وابوه فلان بن فلان وابوه فلان بن فلان الخ » وقد توفوا في المحل الفلاني و يذكر أسباب وفاتهم وأين دفنوا أو يقول: «أسمي فلان في يوم كذا وساعة كذا، على يد الولي فلان...» بالطبع أن كل هذه المعلومات كانت وما زالت تنقل شفاهيا، وتسجل في ذاكرة عالم الأنساب وحده. وليس في الامكان أن نتصور ما يمكن أن تحتزنه ذاكرة الأمي. فخير يسمعه مرة واحدة ينقش كما لو أنك نقشته في قالب يظهر من جديد من أول كلمة إلى آخر كلمة، اذا ما طلبت منه الذاكرة ذلك.

وتوفي مولود كاولو عن سن ١٠٥ سنة حوالي عام ١٩٦٨ فيما أظن، وأما ابنه ممدو كاولو فعمره اليوم ٥٠ سنة، وهو يعيش في مالي حيث يواصل عمل أبيه، بعين الطرق الشفاهية المحضة اذ هو أيضا أمي.

وهاب كاولو، معاصر لممدو وكاولو، وهو ما زال على قيد الحياة وقد قام من جهته ببحث عن العروق الفلفدية اللسان (فلانيين ونكروا) في التشاد والكامرون وفي جمهورية افريقيا الوسطى وحتى الزاير، ليسترشد عن الانساب والتاريخ فيما يخص العائلات المهاجرة الى هذه البلدان. وليس آن كاولو من الديبلي (القصاصين) بل هم من عرق فلفلدي اللسان مشبه بطبقة نيامكالا

له عين الامتيازات. وهم متملكون منشدون أكثر منهم موسيقيون (ما عدا النسوة اللاتي يغنين مصاحبات غناءهن بالآلات بسيطة جدا) وقد يكونون حاكين ومسلين، و يضمون من بينهم عددا من علماء الانساب.

وعند المركا (عرق مندي) يسمى النسابون «كسيري» باسم عرقهم المرتبط بالمركا. ومن قال «نسابا» قال أيضا «مؤرخا» اذ ان النساب الحسن يعلم التاريخ والاحداث وحركات كل من الشخصيات المذكورة، وعلى الأقل من اشتهر منهم. وهذا العلم هو أساس تاريخ افريقيا نفسه، اذ أنه اذا ما اهتمنا اهتماما كبيرا بالتاريخ، فما ذاك من أجل معرفة الأزمنة بل من أجل الأنساب، كي تتمكن من رسم انتشار أسرة أو فريق أو عرق عبر الزمان والمكان رسما جديدا. ولذا كان كل شخص في افريقيا عالما بعض العلم بالانساب، قادرا أن يعود الى بعيد في نسبة الخاص. ولولا ذلك يكون كأن قد حرم «بطاقة تعريف». ففي مالي قديما، لم يكن لأي شخص أن لا يعلم على الأقل عشرة أو اثني عشر جيلا من أجداده. ومن بين التكرور القدامى الاتين الى المسينا مع الحاج عمر، لم يكن واحد يجهره نسبة في فوتا السنغال (البلد الاصلي) أو يجهر كيف يتصل بالعائلات الباقية هناك. وهم الذين أتاهم مادو مولوم إبن مولوم كاولويسترشدهم في مالي لمواصلة بحث أبيه.

لقد كان النسب في آن واحد شعورا بالهوية ووسيلة بعث المجد العائلي ومرجعا اذا ما ثار جدال. فخصوصية من أجل أرض مشلا قد تفصل بفضل النسب الذي يبين من من الأجداد أحيائها ثم زرعها، ولمن أعطاها وفي أي الظروف الخ...

ويوجد ضمن السكان حتى اليوم، عدد كبير من العارفين في الانساب والتاريخ ليسوا لا من طبقة القصاصين ولا من فريق الكاولو. ويكون هذا بالنسبة لتاريخ افريقيا، مصدرا عظيما من الأخبار مفيدا على الأقل، لمدة أخرى معينة.

وكل شيخ هونساب لفريقه الخاص. وفي الواقع فان القصاصين والكاولو إليه يرجعون وياه يسترشدون لإكمال معلوماتهم.

وبصفة عامة، كل شيخ في افريقيا هودوما «عارف» في مادة أو أخرى تاريخية أو تقليدية. وليس للقصاصين والكاولو وحدهم خاصية معرفة الأنساب، بل لهم وحدهم خاصية «الإنشاد» يتقدمون بها لدى الاشراف، ليحصلوا على ثواب.

## تأثير الإسلام

ان خصائص الذاكرة الافريقية وطرق نقلها الشفاهي لم يغيرها دخول الاسلام الذي عم جانبا وافرا من بلدان السهوب، أي بافور القديم. فحيثما انتشر الاسلام لم يطمس التراث الافريقي على تفكيره الخاص، بل أنه تلازم هو مع النقل الافريقي، كلما كان هذا النقل غير مخالف لمبادئه الأساسية. وذلك كان الشأن في غالب الاحيان. وكان التوافق بينها وثيقا الى حد أنه صار أحيانا من الصعب أن يميز الانسان بين أحد التراثين وبين الآخر.

فلما أدخلت أسرة كنتة الكبيرة العربية البربرية البلاد في دين الاسلام قبل القرن الحادي عشر بكثير، ومنذ أن تعلم الأهالي اللغة العربية، شرعوا في استخدام تراث الجذود لنقل الاسلام وشرحه. فشوهدت هكذا مدارس عظمى اسلامية شفهية محضة، تعلم الاسلام باللغات المحلية، ما عدا القرآن والنصوص المستعملة في أداء الصلاة.

وأذكر من بين العديد منها، مدرسة جلكوجي الشفهية (المدعوة كايي) ومدرسة براني، ومدرسة أمادو فندية في الفارماكي (دائرة نيافنكي في مالي) ومدرسة محمد عبد الله سعادو، في دلي (دائرة نارة في مالي) ومدرسة الشيخ عثمان دان فوايو، في نيجيريا والنيجر، حيث يلحق كل التعليم بالفلاندية. وقرىبا منا نذكر زاوية تيرنوبوكار سالف في بنديا كارا ومدرسة الشيخ صالح الوالي الكبير الدوكوني، الذي مازال على قيد الحياة.

ولتصور قابلية الذاكرة الافريقية، فلنذكر أن معظم الأطفال عند خروجهم من المدارس القرآنية، كان في وسعهم أن يتلوا القرآن كاملا عن ظاهر قلب، يرتلونه بالعربية ترتيلا مناسبا، دون أن يفهموا معناه.

وفي كل المدارس لم تهجر المبادئ الاساسية للتراث الافريقي، بل بالعكس انها استعملت وشرحت على ضوء الوحي القرآني. واشتهر بتطبيق معمق لهذه الطريقة التعليمية تيرنوبوكار، وقد كان في آن واحد تقليديا في المادة الافريقية وفي الاسلاميات.

فبقطع النظر عن الرؤية المقدسة المشتركة للعالم، وعن التصور المشترك للانسان وللأسرة، فانا نجد في كلا التراثين عين الاهتمام دائما بذكر المصادر (بالعربية اسناد)، وبدعم تغيير أقوال الشيخ. وعين الاحترام لسلسلة الاستاذ التعليمية، وعين النظام للطرق التدريسية (الطرق الصوفية بالجمع، طريقة بالمفرد وتنتهي سلسلتها الى الرسول نفسه) مما يمكن من تعميق معطيات العقيدة بالتجربة الشخصية.

وانضاف الى أصناف «العارفين» التقليديين المشهورة أصناف الفقهاء (المثقفين بالعربية أوفي الفقه الاسلامي) وكبار مشائخ الصوفية، بينما احتفظ ببنيات المجتمع (طبقات وصناعات تقليدية) حتى الاوساط الأكثر تمكنا في الاسلام فقد بقيت حاملة لتعليماتها الخاصة. وصارت معرفة المواد الاسلامية مصدرا جديدا للشرف. فألفا علي المتوفي سنة ١٩٥٨ وأصله من الكاولو، كان أكبر مرجع اسلامي بدائرة بنديا كارا ككل أفراد عائلته من قبله، وكابنه من بعده (١٦).

## تاريخ جني

لكي أصور تصويرا عمليا كيف تعيش الاخبار التاريخية أو غيرها وكيف تبقى بأمانة مدققة في الذاكرة الجماعية لمجتمع ذي تراث منقول، سأقص كيف أتيج لي أن أجمع العناصر التي مكنتني من

(١٦) بصفة عامة حيث ان الاسلام أتى من الشمال ومن الشرق فقد أثر على الخصوص في بلاد السهوب بينما أتت النصرانية من البحر فآثرت تأثيرا أكبر في مناطق الغابات من الساحل ولا يمكنني أن أتحدث عن التقاء التقاليد النصرانية اذ ليس لي علم بالموضوع.

تحرير تاريخ «الامبراطورية الفلانية بالمسينا في القرن الثامن عشر» (١٧) بالاعتماد فحسب على المأثور المنقول.

وحيث أنني أنتسب لأسرة التجاني، الذي كان يرأس مقاطعة، وجدت نفسي منذ الصغر في أحسن الظروف لأسمع وأحفظ. فبيت أبي ببنديا كارا، كان دائما عامرا بالناس، وكانت تقام فيه اجتماعات كبيرة، ليلا ونهارا حيث كان كل واحد يروي فيها المواد المختلفة من المأثور.

واذا كانت أسرتي داخلية في أعماق أحداث العصر، فكثيرا ما كانت الرويات تهم التاريخ، فيروي أحدهم جزءا معروفا من معركة أو من حدث مشهور. وكنت دائما أحضر هذه الاجتماعات، فلم أفلت منها كلمة، وكانت ذاكرتي بمثابة الشمع الصقيل، تسجل كل شيء.

فهناك، منذ صغري، عرف كوكل القصص الكبير وكان نسبة ومؤرخا فلفلدي اللسان، وكنت اتبعه في كل مكان، وتعلمت منه الكثير من القصص والأخبار التي كنت فخورا بروايتها فيما بعد لأقرا في الصغار في «جمعية السن» حتى أنهم لقبوني «أمكول» أي «كوكل الصغين».

وقد حدث بي ظروف خارجة عن إرادتي، باتباع أسرتي، إلى أن أزور الكثير من البلدان، حيث كان في وسعي أن أتصل بكبار التقليديين. فحين أرغم أبي مثلا على الإقامة الجبرية في بوكوفي، حيث تبعا كوكل، تعرفت على الدوما الكبير البحري دانفوسيني، ثم على أخيه الصغير لطيف.

وفيا بعد، في باماكوكما في كاتي، أعيدت سلطة أبي أو كادت وكان التقليديون يردون من كل البلدان ليجتمعوا عنده، علما منهم أنهم سيلتقون «بعارفين» آخرين، يمكنهم بجوارهم أن يراقبوا معارفهم الخاصة أو أن يتوسعوا فيها، إذ أن المرء يجد دائما من هو أعلم منه.

وهناك، شرعت في معرفة الكثير من الأمور الخاصة بتاريخ الامبراطورية الفلانية بالمسينا وذلك في رواية مسيننكا (أي من كان أصلهم من المسينا من أتباع أسرة الشيخ أمادو) كما في الرواية التكرورية، لمساوثيم، وحتى عروق أخرى (بامبرا، مراكا، سراكلي سنغاي الخ) ممن ساهوا في الأحداث أو حضروها.

وقد انطلقت هكذا من قاعدة شخصية، مهينة أحسن تهيئة فشرعت بعد ذلك في جمع الأخبار بكيفية منتظمة. وتمثلت طريقتي أولا في تسجيل كل الأخبار، غير مكترث بصحتها أو بما قد يداخلها من المبالغة. ثم اني عارضت أخبار المسينينكي بأخبار التكرور وغيرها من الأجناس المعنية.

ففي كل منطقة يمكن أن نجد أجناسا تمكننا رواياتها من مراقبة تصريحات أهم المعنيين بها.

وكان عملا طويل النفس. وتطلب مني جني هذه الارشادات خمس عشرة سنة وتقلات قادنتني من فوطاجالون (السنغال) إلى كانو (نيجيريا) كي أستعيد كل رحلات الشيخ أمادو، والشيخ عمر، وكل الطريق التي قطعها.

فسجلت بهذه الطريقة ما لا يقل عن أخبار ألف مخبر، ولم أحتفظ في النهاية إلا بما توافق من هذه التصريحات أي ما كان مطابقا في الآن نفسه لروايات مسينينكي والتكرورا وغيرها من الأجناس التي يجمعها الأمر، فأوردت ذكر المصادر في كتابي.

وأمكنني أن ألاحظ في الجملة، أن مخبري الالف قد راعوا حقيقة الأحداث. فلحمة الخبر كانت

هي هي في كل مصدر وانما تسببت الفروق المتعلقة ببعض الجزئيات الصغيرة، اما عن قيمة ذاكرة المخبر أو عن ذلاقة لسانه الخاصة. فبحسب انتهاء الناقل الى عرق أو آخر، قد يكون ميالا الى الخط من بعض الهزائم أو الى السعي في تبريرها. ولكنه لم يكن ليغير المعطيات الأساسية. وقد يستسلم القصاص بتأثير الموسيقى المصاحبة له الى الحماس يهزه، ولكن العناصر تبقى هي نفسها كذل الأماكن والمعارك والانتصارات والهزائم والتلاقات وما تبودل من أقوال، وما تفوه به أهم الشخصيات الخ....

وبرهنت لي هذه التجربة أن المأثور المنقول له القيمة الكاملة من الوجهة العلمية. فليس في الامكان فقط، كما فعلت، ان يقارن بين روايات من مختلف الأجناس لمراقبتها، بل ان المجتمع عينه يقوم بمراقبة ذاتية مستمرة. ولن يسمح راو لنفسه أن يغير الأحداث، اذ يكون بجواره دائما أصحاب أو من هم أسن منه، يشيرون في الحال الى كل خطأ و يلقون في وجهه سبة الكذب الخطيرة. وذكر لي الاستاذ منتي، أنني رويت في تاريخ الامبراطورية الفلانية بالمسينا، أخبارا جمعها أبوه قبل ذلك بخمسين سنة، فلم يتغير منها حرف واحد. وفي ذلك ما يعطي فكرة عن أمانة الاحتفاظ بالمعطيات في المأثور المنقول.

## خاصيات الذاكرة الإفريقية

لقد لوحظ أن من بين كل شعوب الدنيا، ان الذين لا يكتبون هم الذين لهم أقوى ذاكرة. وقد ذكرتُ مثال النسابين الذين في وسعهم أن يحتفظوا بعدد من العناصر، ويمكن أن نذكر كذلك مثال التجار الاميين (وأعرف منهم الكثير) ممن يارسون أعمالا تقدر أحيانا بعشرات الملايين مقرضين المال للعديد من الأشخاص أثناء تنقلاتهم ويحفظون في أدمغتهم أدق الحسابات عن حركات البضائع والمال، دون أي مذكرة مكتوبة ودون أقل غلط. وتسجل المعطاة التي يجب الاحتفاظ بها في ذاكرة التقليدي دفعة واحدة كما لو كانت على شمع بكر، وتبقى في متناوله بأكملها (١٨).

واحدى خاصيات الذاكرة الافريقية، هي أنها تسترجع الحدث أو الخبر المسجل بأكمله كالشرط الذي ينتشر من بدايته الى نهايته، وترجع ذلك بصيغة الحاضر. وليس الأمر تذكرا، بل هو تحويل حدث منصرم الى الحاضر حدث ساهم فيه الكل. الراوي ومستمعه.

وهنا يمكن كل فن القصاص. ولا يكون القصاص قصاصا اذ لم يقدر على رواية الخبر كما وقع فعلا، بحيث يصير المستمعون كالقصاص نفسه شهودا أحياء نشيطين من جديد. وكل افريقي نسبيا قصاص. فاذا وصل غريب الى قرية فهو يسلم فيقول: «أنا غريكم» فيقال له: «مدنا بأخبار»

(١٨) يمكن أن تقرب هذه الظاهرة من كون الملكات الحساسة عند الانسان هي أقوى كلما كان مضطرا الى استخدامها بقوة، وتتضاءل في الحياة المعاصرة. فالصياد التقليدي الافريقي مثلا في وسعه أن يسمع بعض الأصوات على بعد عدة كيلومترات وأن يعرف هويتها. ونظرة حاد للغاية، وبعضهم «يمس» الماء، شأن كشافي الينابيع بدون عصا. وللطوارق في الصحراء حاسة التوجه تشبه المعجزة الخ... بينما يغمر الانسان المعاصر من كل جانب بالاصوات والأخبار فتتضاءل ملكاته شيئا فشيئا... ومن الثابت طيبا أن ساكن المدن تنقص حاسة سمعه شيئا فشيئا.

فيقص اذن حكايته، منذ انطلاقة من موطنه وما شاهد وما سمع وجرى الخ. وذلك بحيث يشهد مستمعه رحلته ويعيشونها معه. ولذا تستعمل دائما صيغة الرواية في الحاضر. وبصورة عامة فان الذاكرة الافريقية تسجل المشهد كله: المهاد والاشخاص وكلامهم وحتى زهم في أدق جزئياته. ففي أخبار الحرب عند التكرور يعرف أي يوبومطرز كان يلبسه البطل الأعظم عمر لصمبا دوندو في معركة من المعارك ومن كان سائسه وماذا جرى له، وما كان اسم حصانه وما جرى له الخ... وكل هذه الجزئيات تحيي القصة وتجعل المشهد حيا. لذا لا يستطيع التقليدي أن «يلخص» او هو لا يقدر على ذلك الا بصعوبة، فاذا ما طلب منها أن يلخص مشهدا، فذاك يعني عنده أنه يبتره، وليس له تقليديا الحق في ذلك، فلكل جزئية قيمة في حقيقة اللوحة.

فاما أن يقص الحدث بأكمله واما أن لا يقصه، واذا ما طلب منه ذلك يقول: «ان لم يكن لديك الوقت الكافي لتسمعي فسأقصه عليك يوما آخر». وكذلك فهو لا يخشى أبدا التكرار، ولا يمل أحد من الاستماع اليه وهو يروي قصته، بعين الألفاظ، كما قد يكون حكاها عدة مرات، وكل مرة ينتشر الشريط بأكمله من جديد، والحدث هو هناك، وقد استعيد ويصير الماضي حالا والحياة لا تلخص. وعند الاقتضاء قد تقتضب القصة للأطفال بتداخل بعض الفصول، ولكنها في هذه الصورة لا تبقى حقيقية. واذا ما كان الأمر موجها للكهول، فاما أن يروي الحدث بكامله واما أن لا يروي. وهذه الخاصية للذاكرة الافريقية التقليدية المترنة بسياق الاثر المروي، هي في حد ذاتها ضمان للصحة والصدق.

وأما ذاكرة التقليديين، ولا سيما التقليديين الدوما أو «العارفين» التي تجمع بين مجالات فسيحة من المعرفة التقليدية، فهي تمثل خزانة حقا لم «تصنف» فيها الوثائق ولكنها مجردة تماما. وبالنسبة للعقل العصري، فان هذا فوضى، ولكن بالنسبة للتقليديين اذا ما كانت هناك فوضى فهي على شاكله ذرات الماء الممتزجة في البحر لتكون «كلا حيا»، وفي هذا البحر هي تنتقل بسهولة تنقل السمكة في الماء.

والجذاذات اللامادية للمأثور المنقول هي المغازي والأمثال والقصص والخرافات والاساطير الخ... وهي تمثل مجمل ما سيشرح، أو مدخلا لخبر تربوي قديم أو مرتجل. ففيا يخص القصص مثلا ولا سيما القصص التدريجية، هناك لحمة لا تتغير أبدا، لكن القصص في وسعه أن يضيف اليها تحسينات وشروحا أو تعاليم ملائمة لفهم المستمعين. وكذلك الشأن بالنسبة الى الأساطير، وهي خلاصات للمعارف في شكل تألفي يمكن المدرب دائما أن يشرحها أو يعمقها لتلائمته. ويجب أن نكون يقظين لمحتوى الأساطير وأن لا نبوبها بسرعة فقد تغطي حقائق من مراتب مختلفة جدا بل أحيانا قد تدرك في عدة مستويات في آن واحد.

واذا ما عاد بعضها الى معارف باطنية و «ستر» المعرفة مع نقلها عبر العصور، فان البعض الآخر قد يكون له صلة بأحداث واقعية. ولندكر مثل الطيانابا، الحية الاسطورية الفلانية، وتروي خرافتها ومغامراتها وهجرتها خلال السهوب الافريقية منذ المحيط الأطلسي. وحدا حب الاطلاع بالمهندس بليم الذي كلف حوالي ١٩٢١ ببناء سد سنصندنغ ان يتبع اثر الاشارات الجغرافية الموجودة في



الاسطورة التي علمها اياه حمادي جنكودو «العريف الكبير الفلاني». ووقع له عجب كبير حين اكتشف هكذا، اثر المجري القديم لنهر النيجر.

## الخلاصة

ان العصر الحاضر بالنسبة لافريقيا عصر الشعب والتحرك، تراكم فيه عوالم وعقليات وأزمات متباينة، يتداخل بعضها في بعض، متأثرة أحيانا بعضها ببعض لا يفهم أحدها الآخر دائما. فيتجاوز فيه القرن العشرون مع القرون الوسطى، ويسير الغرب المشرق، والديكارتية تلك الطريقة الخاصة «لتعقل» العالم تحاذي «الاحيائية» وذلك الوجه الخاص لعيشه وتجربته بكل ذاته.

ان الموجهين الشبان المعاصرين يسيرون الادارة بعقليات وأنظمة قانونية أو مذاهب موروثة مباشرة، من أنماط أجنبية، شعوبا وحقائق تنتمي الى قوانين أخرى وعقليات أخرى. مثلا في معظم أراضي افريقيا الغربية الفرنسية كان القانون القضائي المقرر عقب الاستقلال من قبل أهل القانون الشبان عندنا، وهم حديثو العهد بالجامعات الفرنسية، نسخة مجردة لقانون نابليون. وتبع ذلك أن الأهالي، وقد كانت تتحكم فيهم حتى ذلك الوقت عادات مقدسة ورثوها عن الأجداد وضمنت تكتل المجتمع، صاروا لا يفهمون لماذا يحكم عليهم باسم «عادة» ليست عاداتهم لا يعرفونها ولا تلائم واقع البلاد العميق. ان مأساة ما سأسميه «افريقيا القلعة» هي انها كثيرا تسيرها أقلية مثقفة لم تعد تفهمها، حسب مبادئ لا توافقها.

فبالنسبة للطبقة المثقفة الجديدة في افريقيا، وقد كونتهم النظم الجامعية الاوربية، وفي كثير من الأحيان فان التقاليد عندهم ماتت، أو انها مجرد «خرافات شيوخ»، على أنه يجدر أن نقول إن جزءا هاما من الشباب المثقف يشعر أكثر فأكثر، منذ بعض الوقت، بالحاجة الملحة لتولية وجوههم نحو المأثور المنقول عن الأجداد، وابرار قيمه الأساسية لاكتشاف جذوره الخاصة وسر هويته العميقة. وبالعكس ففي «افريقيا الأصل» التي تعيش غالبا بعيدا عن المدن الكبيرة التي — وكأنها جزر من أوربا — مازال التراث حيا ويمكن العثور حتى الآن — كما أشرت الى ذلك آنفا — على عدد كبير من ممثليه أو من حفظته، ولكن الى متى سيدوم ذلك؟

ومشكل المشاكل في افريقيا التقليدية هو بالفعل مشكل الانقطاع في النقل. وأول قطع تم في المستعمرات الفرنسية القديمة، مع حرب ١٩١٤، اذ جند معظم الشبان للقتال في فرنسا ولم يعد منهم الكثير. فقد فارق الشبان البلاد في فترة كان من الواجب أن يخضعوا فيها الى التدريبات الكبرى، وأن يعمقوا معارفهم بأشرف من هم أكبر منهم سنا.

وساعد أيضا على هذا العمل الايقاد الاجباري لابناء الأعيان الى «مدارس البيض» بقصد قطع الصلة بينهم وبين التراث. وكان الهم الأعظم للسلطة الاستعمارية — وهذا متروك — ان تقتلع بقدر ما يمكن التراث الاهلي لتغرس في مكانه تصوراتها الذاتية. وكانت المدارس العلمانية أو الدينية هي الآلات الأساسية لهذا العمل التمهيدي.

وما تلقاه شبانا من تربية عصرية منذ نهاية الحرب الأخيرة، أكمل هذا العمل وخلق ظاهرة حقيقية من الانسلاخ الثقافي.

ففر التدرّيب من العواصم والتجأ الى الأدغال حيث صار «الشيخ» يجدون من حولهم الأقل فالأقل من «الأذان المطيعة» التي ينقلون اليها تعليمهم، من جراء الجاذبية الكبيرة، من قبل المدن والحاجات الجديدة، فهذا التعليم لا يمكن أن يمنع الا بحسب العبارة الشائعة، «من فم عطر الى أذن مطيعة نظيفة» (أي حسنة التقبل).

ونجد أنفسنا الآن في كل ما يخص المأثور المنقول أمام آخر جيل من كبار المستودعين، لذلك لابد أن يقوى مجهود الجمع في السنوات العشر أو الخمس عشرة المقبلة، والا سيضيع آخر المعالم العظيمة الحية من الثقافة الافريقية، ومعها ستضيع الكنوز التي لا تعوض من تعليم خاص، مادي ونفساني وروحاني في الآن نفسه، معتمد على الشعور بوحدة الحياة، تعليم يفرق مصدره في ظلمات الزمان.

وعلى الباحث أن يتسلح بالصبر للقيام بعمل الجمع هذا، كما ينبغي عليه ذكر واجب أن يكون له «قلب يامة وجلد تمساح ومعدة نعامة». قلب يامة لكيلا يغتاظ أو ينفعل ولو قيل له ما يكره من الامور، واذا ما رفض سؤاله فلا فائدة في الالحاح، بل عليه أن يستقر على فرع آخر. فالخصومة هنا لها آثار في مكان آخر، بينما اذا ما انصرف بهدوء فقد يتأسف عليه وكثيرا ما يطلب من جديد. وجلد تمساح كي يتمكن من الرقاد في أي مكان وعلى أي فراش بدون كلفة. وأخيرا معدة نعامة كي يتمكن من أكل كل شيء دون أن يحصل له سوء أو يتقرّز.

ولكن الشرط الأهم هو أن يعلم كيف يتخلى عن الحكم على كل شيء حسب معايير الذاتية، ومن يشأ أن يكتشف عالما جديدا لا بد أن يعلم كيف ينسى عالمه الخاص، والا فما هو الا ناقل عالمه معه ولا يكون في موقف «المستمع».

وافريقيا الشيوخ العارفين، تحذر الباحث الشاب، على لسان تيرنو بوكار، حكيم بندياكاوا بقولها:

«ان أردت أن تعرف من أنا  
وان أردت أن أعلمك ما أعلم  
توقف مؤقتا عن أن تكون ما أنت  
وتناس ما أنت به عليهم».

# علم الآثار الافريقي وتقنياته بما في ذلك أساليب تحديد تاريخ الآثار

زكي اسكندر

إذا ما اكتشف عالم الآثار حادثاً عارضاً فهو يبدأ عارضا فهو يبدأ عامة ببحثه في المستوى الاثري المحض، فيسجل الطبقة التي وجدت فيها العينة، ويحل رموز النص المحتمل المصاحب له، ويصف شكلها و يقدر أبعادها الخ... ثم تدرس هذه المعطيات في مستوى علم الطبقات وفقه اللغة والنمذجة، وتنتج عن ذلك معلومات أثرية مهمة فيما يخص القدم والاصول الخ... على أنه في غالب الأحيان يتعذر عليه أن يحصل على معطيات تبوح بالجواب على سؤالاته، أو تساعد على اثبات الاستنتاجات المرجوة. ولذا لزم الالتجاء الى اختصاصات أخرى كي يكمل بحثه العلمي، ومن المفروض أن يمده هذا البحث بالمعلومات المطلوبة عن مادة الشيء وأصله وتقنية صنعه وعمره وما أعد له في الاستعمال. ويجدر مع ذلك أن نشير الى أن هذه البحوث لا تتجاوز زاوية جديدة يزمع عالم الآثار أن يدرس من وجهتها مشكلا من المشاكل الخاصة، وينبغي أن تكون المعطيات العلمية كلا مع الاعتبارات الاسلوبية واللغوية والتابعة للطبقات (١).

وقد تأتي التقنيات العلمية أيضا بمساعدة علم الآثار في دراسة الطبقات الجيولوجية التحتية، باستثناء الحفريات، وفي حفظ المعالم والانتقاض المكتشفة.

وللتقنيات العلمية المستخدمة في علم الآثار ميزة العالمية. فهي تنطبق على افرقيا تماما كما تنطبق على أوروبا وآسيا أو أميركا مع اللجوء احيانا الى طريق نوعية متميزة. وهذا موضوع واسع جدا، ولذا سنعالج النقاط التالية في جلتها دون أن ندخل في كثرة من التفاصيل التجريبية.

- التقنيات التحليلية المستعملة في القياسات الاثرية.
- اهداف البحث والتحليل في القياسات الاثرية.
- تقنيات تعيين التواريخ.
- التقنيات المستعملة في البحث الاثري.
- تقنيات الاحتفاظ.

## التقنيات التحليلية في القياسات الأثرية

ان تقنيات التحليل قد انتشرت حتى أصبح من العسير أحيانا أن نختار التقنية اللائقة بالنسبة الى عينة معطاة للحصول على الارشادات المطلوبة. وستراعي الفقرات الموالية جميع أوجه المشكل.

### إختيار طريقة التحليل

ان العينات الاثرية ثمينه من وجهين، وذلك أن عدد العينات المتوفرة عادة قليل جدا بحيث تكاد لا تكفي لحاجيات تحليل كامل، وقد يتعذر تعويضها اذا ما استعملت بأكملها، ومن جهة أخرى ينبغي الاحتفاظ بالعينة على الأقل لتكون مرجعا أو لصالح العروض المقبلة. لذا سيقام بالتحاليل القياسية الاثرية بكل عناية حتى نحصل منها على أهم الارشادات. ويمكن تلخيص المعايير التي تفرض الاختيار لتقنية أو أخرى فيما يلي (٢).

### أهمية مجموعة العينات المتوفرة

اذا كانت مجموعة العينات المتوفرة كبيرة، يحسن القيام بتحليل كيمائي في وسط مائي لتعيين النسبة لأهم مركباتها، وقد يستعمل التحليل الذري لاثبات نسبة المعادن القلوية، كالصوديوم والبوتاسيوم والليثيوم. واذا كانت العناصر أو المركبات لا موزونة (آثار) يكون من الافضل استعمال التحاليل بطريقة التفلور أو المتعلقة بجيود أشعة اكس ولو أن نتائجها تشتمل على خطأ بين (١٠ و ٢٠ ٪).

واذا ما كانت كمية العينات ضئيلة، واذا كان من اللازم أن تحلل عدة عناصر، يكون من اللائق أن يلجأ الى الاستضاء الطيفي او الى حيود أشعة اكس. واذا تعذر على الاثري ان يوفر عينة مهما كانت صغيرة، فتعالج المادة المزعم تحليلها بواسطة التحليل الطيفي او التفلور في صورة ما اذا مكن حجمها وشكلها من استخدام هذا التحليل.

### نوعية المواد المحللة

ان تنوع الانقراض الاثرية كبيرا جدا، فبعضها كالفذاثيات والمراهم والراتنجيات والزيوت والشموع الخ... مواد عضوية في جلها أو في القليل منها وغيرها — كالفلزات والادهان والحرف والزجاج والجبس الخ.... ليس عضوية.

أما المواد العضوية فتعرض عامة على معالجة النار، والتصبن والتحلل والأشعة تحت الحمراء والتحليل الحراري والكروماتوغرافية.

كما تعرض على التحليل العياري في وسط مائي، والي التحليل الطيفي والي التفلور والحيود لاشعة اكس، او كذلك التنشيط بواسطة الكهرباء المحايدة، حسب النموذج الارشاد المطلوب.

### انموذج الارشاد المطلوب

كفي نربح الوقت ونختصر التكاليف يجري التحليل طبقا لبرنامج مثبت يضعه عالم الآثار للحصول على الجواب على اسئلة معينة. فالبرونز والنحاس القديمان متشابهان في المظهر، وانما يميزهما القصدير، فيعالج بصورة عامة جزء من العينة بواسطة محلول الحامض النتري المركز، ويحل في الماء المقطر ما ينتج منه من راسب الحامض الميتاستانيك المائل الى البياض، وهذه التجربة البسيطة في تناول كل عالم اثري. وكذلك كانت معادن الرصاص تستعمل قديما في مصر لاعطاء الحرف مظهر الزجاج، فيكفي الرصاص اذن لتعيين، تاريخ صنع الشيء المزجج بالتقريب.

### عرض النتائج

ان الاثريين المدعويين لدراسة نتائج البحوث العلمية ولاستعمالها في شروحاتهم وفي استنتاجاتهم ليسوا، هم انفسهم من أهل العلم الا في قليل من الأحوال. فيجدر اذن ان تعرض عليهم النتائج في شكل يسهل عليهم فهمه، فتقدير عنصر من عينة وزنها ١٠٠ غرام بواسطة كسور الغرام يليق ان يعرض بعض لكل النتائج طبقا لفكرة سهلة الادراك من الجميع، فكرة النسبة المئوية. ويكون لهذا التعويض مزية تسهيل مقارنة النتائج بين عدة مختبرات.

### طريق الفحص والتحليل

سنشير فيما يلي، في اطار هذه الاعتبارات، الى أهم الطرق المستعملة للتحليل في القياسات الاثرية.

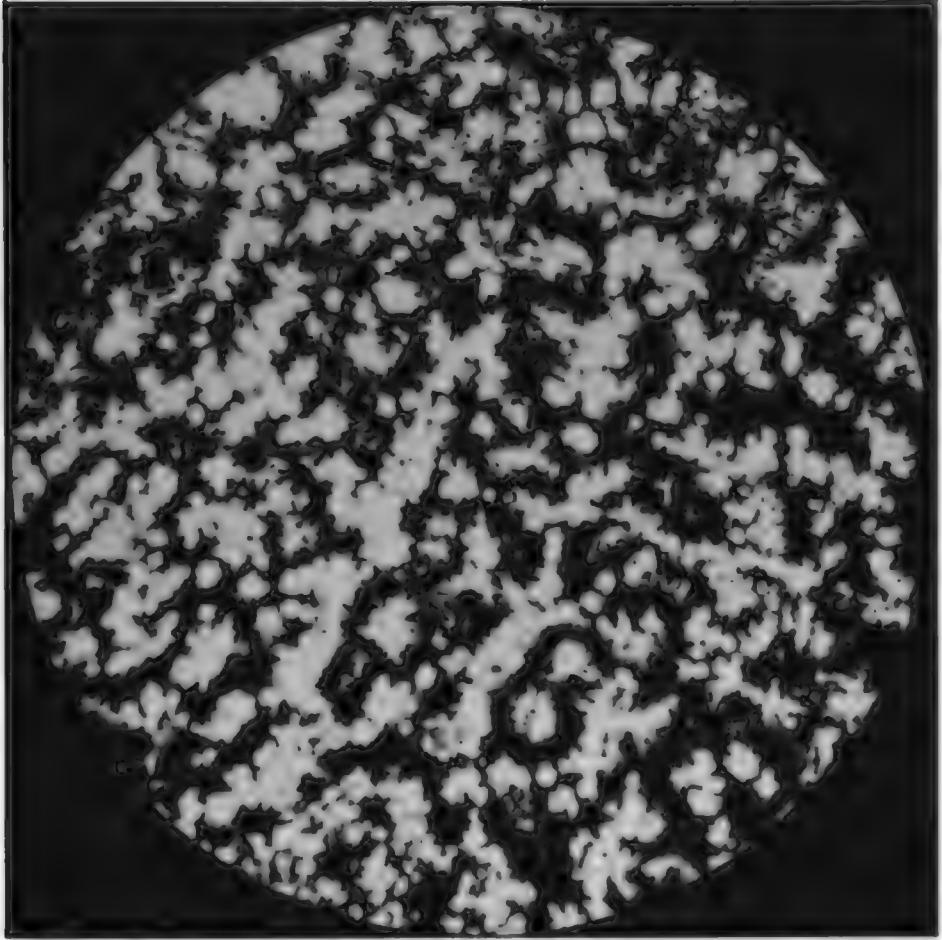
#### الفحص المجهرى

ان الفحص بواسطة عدسة مكبرة بسيطة (تضخيم ١٠ أو ٢٠) كثيرا ما يكون مفيدا للحصول على انطباع أول من حادث عارض أو من عينة قديمة. ومن المفضل استعمال مكبرة مزدوجة العينية ذات تضخيم مقداره ٧ مرات أو ١٠ أو ٢٠ مرة وذات مجال فسيح بين العدسة والمستوى البؤري. ويستطيع هذا الجهاز سبر تجاوىف عميقة لا يمكن للمكبرة الاعتيادية أن تدخله.

ويتم الحصول على معطيات أدق بواسطة مجهر مركب يشتمل على عدسة ذات تضخيم ١٠٠ أو ٢٠٠ أو ٤٠٠ أو ١٢٥٠ متغمس في الزيت. ويمكن استعمال الفحص المجهرى للغايات التالية:

— تعيين الهوية: في معظم الحالات يكون من الممكن أن تعين هوية عينة معطاة (في حالتها الخالصة أو في حالة تركيبها من عناصر متباينة، وذلك بدرس تركيب الجسم بالمجهر أو بدرس الخواص البلورية لمركباته.

— التحليل الكيفي: ان التقنيات العصرية تمكن من الترسيب والحل ومن مشاهدة التطور الغازي



- (١) صورة شمسية مكبرة  
(ميكروفوتوغرافية) لقطاع في مرصاة  
نحاسية من سفينة الملك خوفو (مركب  
الشمس) في الجيزة.
- (٢) صورة أمامية بالأشعة لصدر  
مومياء الملكة نيجيميت من الأسرة  
الفرعونية الحادية والعشرين. (متحف  
القاهرة).



وغير ذلك من الأساليب الممكن تطبيقها على قطعة صغيرة من العينة (٣). مثلاً اذا ما بللت قطعة العينة الموضوعة على صفيحة من زجاج قد ينتج عن ذلك تحليلها اولاً. فاذا ما أضيفت الى المحلول المحتمل قطرة من نترات الفضة، واذا ما ظهر راسب مائل الى البياض غير محلول في الحامض النتري يمكن أن نستنتج وجود كهرب موجب من الكلورور.

التحليل الكمي: وتكتسب الطرق المجهرية كل اهميتها في التحاليل الكمية بمركبات متباينة مشعبة من الصعب ان تعالج بالطرق الكيماوية الاعتادية (٤) فهي تمكن من تعيين عدد مختلف المركبات وحجمها. واذا ما علمت كثافة كل منها، امكن تحويل نسبة مئوية في الحجم الى نسبة مئوية في الوزن (٥).

### التصوير الاشعاعي

يبقى التصوير الاشعاعي كبير الفائدة في فحص الآثار الفنية، فيمكن من اكتشاف وجود اجسام خارجية داخل مومياء مغطاة بعصابتها، او وجود نقوش مزينة تحت طبقات البلسمات الخ.... وهذه الارشادات تساعد على تعيين التقنية التي يجب استعمالها لتجريد المومياء من العصبات، وهي مفيدة للحفاظ على الاحداث العارضة المعدنية وتستخدم اثناء الدراسات العلمية والاثريّة. وفي متحف القاهرة كشف التصوير الاشعاعي للمومياء الملكية عن كون البعض منها حتى التي ازيلت عصابتها، يحتوي على مصوغات أخفته عن عيون الباحثين طبقات سميكة من الراتينج (٦) (الشكل ١).

### تحديد الوزن النوعي

في العصور الخالية كان الذهب يحتوي عامة على الفضة أو النحاس، والأشياء الذهبية لها من النفاسة مالا يسمح في غالب الأحيان لاي قطعة مهما كانت ضئيلة ان تستهلك في التحلي. ولذا فكرر كالاي أن يلجأ في ذلك الى تحديد وزنها النوعي، ولا يداخل هذا الأسلوب أي خطر للافساد وهو يمكن من الكشف عن معدل الذهب الخالص المستعمل في الاحداث العارضة الذهبية (٧). والطريقة سهلة جداً تعتمد مبدأ أرخيدس. فاذا كان وزن الشيء في الهواء الطلق (و) غراماً وفي الماء (س) غراماً كان وزنه

$$\frac{و}{و-س}$$

واذا كان وزن الذهب النوعي (١٩ر٣) يساوي تقريباً ضعف الوزن النوعي للفضة (١٠ر٥)

(٣) ج. و. ايفنغ، ١٩٥٤، ص ٤١١.

(٤) أ. م. شامو. س. و. باسن، ١٩٣٨، ص ٤٣١.

(٥) أ. م. كلتوف، أ. ب. صندل، أ. ج. ميان وس. بركنستين ١٩٦٩.

(٦) ج. وهلرن. ج. أ. هريس وس. برنس. يولييه (تموز) ١٩٧١، ص ١٨.

(٧) أ. ر. كالاي، ١٩٤٩، ص ٧٣ - ٨٢.

أو للنحاس (٨٩) صار من اليسير الكشف عن وجود عناصر ضعيفة من النحاس والفضة. وإذا ما فرض غياب البلاتين ومعرفة مركب المزيج (فضة أو نحاس) واستحالة التقلص أثناء عملية المزج، فالمتوقع أن مجال الخطأ في حساب معدل الذهب الخالص لا يتجاوز ١٪.

### التحليل الكيماوي المعياري في وسط مائي

هذه التقنية لازمة في علم الآثار لدراسة المادة التي يتكون منها حادث عارض كما هي لازمة لاختيار أحسن طريقة للحفاظ. فهي تستعمل للتحليل الكيفي والكمي للملاحظات والجصوص وبقايا الحوادث العارضة المعدنية المتآكلة وبقايا الطعام وأدوات التجميل وبقايا البلاسم وغيرها من المواد المشابهة لها الخ...

ولا محل لوصف التقنيات المستعملة للتحاليل المشابهة في هذا الفصل، وهي مألوفة عند كل الكيماويين البارعين في الآثار، وتوجد معروضة مفصلة في كتب الكيماء التحليلية، ككتب كلثوف ومن معه من مؤلفيها (٨) بالنسبة إلى المواد العضوية. وأعمال أسكندر (٩) و سطرورس (١٠) بالنسبة للمواد العضوية والغير العضوية وثمة أدوات من حديد اكتشفت في نياي (غينيا)، مؤرخة فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر، عرضت على التحليل الكيماوي فكشف أنه يوجد فيها النحاس والفسفور والنيكل والتغنستين والتيتان والمولبدان، وهي من المحتمل أن تكون أدراناً موجودة في المعادن المستعملة (١١).

### القياسات الطيفية

استعملت هذه التقنية في تحليل البقايا القديمة كالبرونزيات والحرف والملاط والاصباغ الخ... هناك عدة عوامل في هذه التقنية متميزة بالنسبة لسائر الطرق الخاصة لتحاليل هذه البقايا. إن لها حساسية مرضية، ثم أنها تمكن من تقدير نسب عالية (حتى ٢٠٪) من معظم العناصر. ثم إنه في الامكان أن تكشف كل العناصر الموجودة في العينة بتسجيل الحزوز الطيفية على صفيحة تصويرية خلال بث واحد. وينتج عن ذلك وثيقة يمكن الرجوع إليها فيما بعد. وهناك نموذج آخر من القياسات الطيفية يتمثل في «اللازمليروب مقياس طيفي» (١٢). إن التحليل الطيفي لكل البرونزيات النيجرية الطبيعية في إني، قد أظهر أن هذه الأدوات ليست من البرونز بل هي من الليط (١٣).

(٨) أ.م. كلثوف: أ.ب. صندل، أ. ج. ميان، س. بركنستين، ١٩٦٩.

(٩) ن. فيج وأ. أسكندر ١٩٧١، ص ١١١ - ١١٥.

ز. أسكندر، ص ٥٩ - ٧١: «ديرفون في الطبيعة» مجلد ٣، نشر باتلي، القاهرة، جعيات الآثار القبطية ١٩٦١؛

ز. أسكندروا. و. شابين، ١٩٦٤، ص ١٩٦ - ٢٠٨.

أ. زكي وز. أسكندر، ١٩٤٢، ص ٢٩٥ - ٣١٣.

(١٠) ف. هـ. سطرورس وأودنال، ١٩٧٢، ص ١ - ١٦.

(١١) أ. موزو وأ. نوزيك، ١٩٧٤، ص ١ - ٩٦.

(١٢) أ. ت. هال، ١٩٧٠، ص ١٣٥ - ١٤١.

(١٣) ف. ويلت، ١٩٦٤، ص ٨١ - ٨٣.



## التحليل بواسطة الامتصاص الذري

تليق هذه الطريقة تماما بعينات من المادة الغير العضوية (فلزات، اسمنتات، خلائط زجاج، خزفيات، املاح الخ....) ولها في القياسات الاثرية المزايا الآتية: يمكن بلوغ درجة مرتفعة من الدقة (نحو ١% من الخطأ) باستعمال عينات بوزن ٥ الى ١٠ مليغرامات فيمكن ان تعين على النموذج واحد عناصر كبرى وصغرى او مجرد آثار، وفي النهاية فان هذه التقنية متداولة الاستعمال وبواسطتها تكون المقارنات يسيرة بين نتائج مختلف المختبرات، ويكون من اليسر ايضا ان تراقب الاسباب المحتملة للاخطاء التجريبية (١٤).

### تفلور أشعة اكس

ان تنشيط عينة بواسطة أشعة أكس هي طريقة للحل مفيدة جدا. ومبدؤها: ان قذف ذرة بواسطة اشعة مرتفعة التردد يمكن من قلع كهيرب من مدارها الداخلي ويسد الفراغ المكون بواسطة كهيرب من مدارها الخارجي. والتغير في الطاقة بين المستويين الأعلى والسفلى منشأة اشعة ثانية او تفلورات مميزة للعناصر المكونة للعينة (١٥) وحيث ان قوة خرق اشعة اكس محدودة، فان هذه التقنية ليست صالحة الا لسطح الاشياء، فلا تطبق إذن الا لتحليل البقايا الغير العضوية، كالزجاج والخزف الصيني والخزف المزجج والابسيديان ومعظم الاحجار ولكن الاشياء المعدنية القديمة قد تضررت من اتلاف الزمان، ويسعى المعدن الحث الذي تشتمل عليه الى الظهور على السطح. ولذا فان تحليلا لسطح هذه الأشياء قد يمدنا بنتائج مخالفة جدا للتي يكشفها لنا تحليل الشيء في كليته (١٦).

### التحليل بتنشيط الكهيربات المحايدة

تتمثل هذه التقنية في الاستشعاع بواسطة الكهيربات المحايدة، البطيئة (او الحرارية) لمجموعة من العينات، ومن منتجات كيمائية معيارية موضوعة في مفاعل نووي ذري. ويكون لبعض النظائر المشعة الناتجة وجود يمكنها من بث أشعة غاما. وحيث ان كل نظير مشع يبعث أشعة غاما طول موجتها خاص مميز لكل منها، فان تحليل هذا الطول للموجة يمكن من التعرف على هوية العناصر المكونة للعينة، ومن تعيين تمركز هذه العناصر، كبيرة كانت أم مجرد بقايا. وقوة خرق الكهيربات المحايدة وخرق اشعة غاما اكبر من قوة خرق اشعة اكس، فهي تمكن اذن بالنسبة لعينة معطاة، من الاغارة على عمق اهم، وينتج ان ظهور النحاس على السطح يمكن تجاهله في الفلزات (١٧).

واثناء هذه التحاليل، واذا كانت العينة المدروسة ستعود الى المتحف، يصبح من اللازم ان

(١٤) أ. ورتز، ١٩٧٠، ص ١٧٩ - ١٨٥.

(١٥) أ. م. كلتوف، ا. ب. صندل، أ. ج. ميان، وس. بركنستين، ١٩٦٩.

(١٦) أ. ت. هال، ١٩٧٠، ص ١٣٥ - ١٤١.

(١٧) أ. ت. هال، ١٩٧٠، ص ١٣٥ - ١٤١.

نسعى الى تخفيض الاشعاعية المتبقية الى مستوى غير ضار في فترة من الزمن معقولة. مثلا نظير الفضة المشع له بقية عيش قدرها ٢٢٥ يوما، فاشعاع قوي لشيء فضي يجبر ارجاعه الى المتحف الاصلي قبل مئات السنين (١٨).

وفي هذه الحالة يقتضي ان تتخذ الفضة من عينة معطاة بواسطة الفك بقرص صغير من الصوان الحرش. ويتعرض هذا الصوان لتشعيع داخل المفاعل، ويبحث التحليل عن الفضة والذهب والنحاس والاثمد والزرنيخ المعهودة. وطبقت هذه التقنية في اطار الاثار الأفرقية لدراسة لآلء الزجاج المنشطة مرتين بواسطة الكهرياء المحايدة فقيم بالقذف الاول في مدة قصيرة ثم بحث في الحين عن النظائر المشعة ذات الدورة القصيرة في اللآلء، وكان القذف الثاني قويا متواصلا ودام ثمانى ساعات وحفظت اللآلء بضع أيام عرضت للبحث عن النظائر المشعة ذات الدورة المتوسطة، ثم خزنت اللآلء من جديد واجريت عليها تجارب قصد الحصول على نظائر مشعة طويلة الدورة (١٩) ونشر سايرمينيرس دراسة عن تطبيقات عديدة لهذه التقنية في علم الآثار (٢٠).

## أهداف التحليل في القياسات الأثرية

اهم اهداف البحث العلمي والتحليل في القياسات الاثرية هي التالية:

### التعرف المدقق على هوية الأشياء

لا بد ان يجري التعرف على البقايا الاثرية بكل دقة، ولا بد ان يكون في وسع الاثري ان يصفها بدقة في المنشورات الاثرية وفي أدلة المتاحف.

والتعرف بالضبط على هوية مادة الاحداث العارضة لا يقل أهمية، اذ ان مرمى المشاهدات التابعة للمواد المدروسة يتبع عامة طبيعتها الحق. ومن سوء الحظ الأخطاء لا تغيب عن الوثائق الاثرية السابقة، فخلقت الكثير من البلبلة، واشتبه النحاس احيانا بالبرونز على الرغم من ان اكتشاف البرونز واستعماله يتضمنان ظهور ثورة ثقافية معينة. واشتبه البرونز بدوره بالليط، وفي ذلك ما يجعل التقدير في قدم الشيء مخطئا، فأولى المنتجات من الليط تعود تقريبا الى منتصف القرن الاول قبل الميلاد، بينما عرف البرونز واستخدم حوالي عشرين قرنا قبل ذلك (٢١).

واذا كان معظم الاخطاء في معرفة هوية الأشياء تعود الى تقديرات بصرية مختلة، يكون من الجدير ان نشير الى أننا اذا اردنا تجنب كل خطر في التقدير المخطئ، يجب أن نجري عملية التعرف للبقايا الاثرية بواسطة التحاليل الكيماوية او التحاليل على حيود اشعة اكس.

(١٨) نفس المرجع.

(١٩) س. س. دافيزون، ١٩٧٣، ص ٧٣ - ٧٤.

(٢٠) ا. ف. سايروب. ميريس، ١٩٧١، ص ١١٥ - ١٥٠.

(٢١) أ. ر. كالاي، ١٩٤٨، صفحة ١ - ٨.

## نقل الفاظ قديمة مجهولة

وقد يتفق أن يمكن التعرف المدقق الى ترجمة أسماء مجهولة، في سقارة بمصر اكتشف في مقبرة الملك حورع حا (الاسرة الاولى، حوالي ٣١٠٠ ق. م) وعاءان من الخزف وعلى كل منهما كتابة هيروغليفية تقابل كلمة «سيريت» المجهولة المعنى. وأدى التحليل الكيماوي الى ان هذين الوعاءين كانا يحويان الجبن، فاستنتج ان لفظ سيريت يعني الجبن (٢٢).

مثال ثان: وجدت على بعض التماثيل الصغيرة كتابة هيروغليفية تكون لفظ «بخين» وتعرف في بعض الحالات ان الحجارة كانت من النضيد، وان الكلمات كانت في نصوص تتعلق بوادي الحمامات (٢٣)، فاستنتج ان «بخين» من الراجح أن يكون حجر النضيد بوادي الحمامات.

## الكشف عن أصل الانقراض الأثرية

ان وجود عدد من العينات من مادة اصلها اجنبي، في موقع اثري معين يبدو كإشارة واضحة الى استيراد هذه المادة عن الطرق الصناعية او التجارية. وإذا ما امكن ضبط المصادر فسرعان ما يتم تصوير السبل التي اتبعتها؛ فحين نعلم مثلا ان الابسيديان لا توجد في مصر، ومع ذلك فهي كانت مستعملة في عصر ما قبل الاسرات (قبل ٣١٠٠ ق. م) فحصدت ابسيديان بعض القطع التي تعود الى هذا العصر وقورنت مع مثيلها مما كانت تنتجه البلدان المجاورة. فكانت خصائصها قريبة جدا من خصائص ابسيديان الحبشة. وهكذا من الواضح انها استوردت عن هذه المنطقة، وان ثمة علاقات تجارية كانت موجودة من عهد بعيد بين البلدين (٢٤).

والتعرف على بقايا الخزف بواسطة التنشيط بالكهرباء المحايدة، أو بفلورة اشعة اكس، يمكن من دراسة المسالك التجارية المحلية والدولية (٢٥). وان شوائب في شكل بقايا في معدن النحاس او في الاحداث العارضة من هذا المعدن قد تساعد على ربط الحادث بالمعدن الذي استعمل في صناعته (٢٦).

ويساعدنا اكتشاف النيكل في حادث من الحديد القديم من التعرف هل ان هذا الحديد من رجم من الرجوم ام هو قد صنع تصنيعا، اذ ان حديد الرجوم يشمل دائما من ٤ الى ٢٠٪ من النيكل. واستعمل المؤلف اشعاعا طيفيا ليفحص خنجرتوت عنخ آمون الشهير، فوجد ان حديد الشفرة يشتمل على نسبة مئوية من النيكل كبيرة، فكان الحديد المستعمل اذن مستمدا من رجم.

## البحث عن الإستعمال السابق للأشياء المفحوصة

قد يكون من الصعب أحيانا أن نعرف لم أعدت هذه الاداة أو تلك، وقد يلوح التحليل

(٢٢) أ. زكي وز. اسكندر، ١٩٤٢، ص ٢٩٥ - ٣١٣.

(٢٣) أ. لوكا، ص ٤١٦، ٤١٩ - ٤٢٠.

(٢٤) أ. لوكا، ١٩٦٢، ص ٤١٦ وص ٤١٩ - ٤٢٠.

(٢٥) أ. بيرلمان وف. البارو، ١٩٦٩، ص ٢١ - ٥٢.

(٢٦) ب. ر. فليدس، وج. ملستد، ا. هنركسن ور. رامات، ١٩٧١، ص ١٣١ - ١٤٣.

الكيمائي مساعدا قويا في هذا المجال. فاكتشف مثلا سنة ١٩٥٦ في الفيوم بمصر في قبر نفرتيتاح (تقريبا سنة ١٨٠٠ ق م) جرة كبيرة من الالباتر فيها نحو ٢٥ كغ من مادة غريبة، فأوضح التحليل الكيمائي انه مركب يشتمل خاصة على اجزاء مساوية تقريبا، ٤٨٢٥٪ من القالان (كبريتيت الرصاص الطبيعي) و٥١٦٪ من الراتينج. وحيث ان هذا التركيب لم يوقف على مثله من قبل، فقد كثرت التخمينات فيما يخص وجودها في القبر ولكن تفحص الاشارات الطبية الموجودة في بردي ايسبرس، مكن من الوقوف تحت رقم ٤٠٢ على «دواء جديد من شأنه أن يحو اللطخات البيضاء الظاهرة في العينين، كحل أسود (قالان)، وخطوة (راتينج) أنعم سحقها ليذرا في العينين». ان هذا النص المتضمن التركيب الكيمائي للمادة المكتشفة في الجرة، كشف أن نفرتيتاح كانت تتألم من بياض باحد عينيها، وقد يكون بكلها. ولذا قدمت لها كمية كافية من هذا الدواء لمعالجتها والعمل على شفائها (٢٧).

### البحث عن الطرق القديمة للصناعة

ان البحث المثلوغرافي للادوات المعدنية يمكن من الوقوف من جديد على أشغال القدماء وصناعاتهم الكيمائية. وتعطينا الامثال التالية نظرة عن ذلك:

#### صناعة الازرق المصري

عرضت نماذج من هذا الصبغ الازرق على الفحوص الكيمائية والمجهريه وعلى تشتت اشعة اكس، بل تم الوصول الى ما يسمى «فريت» أي اعادة الصنع تجريبيا لخليط (٢٨) ازرق مشابه. فكتشفت كل هذه الدراسات انه يحصل على هذا الصبغ الازرق في العهود الحالية بتسخين الى درجة ٨٤٠ درجة مئوية خليط من مسحوق الرمل أو المرو ومن الكلس والمالاكيت وصبة من الملح الاعتيادي أو من ملح الصودا (٢٩).

#### فحص الادوات المعدنية بالمجهر

ان الفحص المثلوغرافي للادوات المعدنية يمكن من توضيح هل هي صبت صبا او طرقت او دخلت في صنعها التقنيتان، وظهر الفحص لمرساة من نحاس تابعة لسفينة كيبوس وقد اكتشفت سنة ١٩٥٤ وراء الهرم الكبير بالجيزة، سنيئات ضمن المعدن (الشكل ٢)، فقد صنع المعدن اذن بالطريق (٣٠).

#### فحص بقايا التحنيط

أظهر فحص بقايا التحنيط المكتشفة في سقارة والاقصر والمطرية (مصر) أنها كانت تشتمل على نسبة صغيرة من صوابين الحوامض الدهنية الجامدة، وهذا نتيجة تصبين الشحوم الجسمية بتأثير الصودا

(٢٧) ن. فرج وأ. اسكندر، ١٩٧١، ص ١١١ - ١١٥.

(٢٨) تمبر قدّم يشر إلى خليط من الرمل والصودا يستخدم في صناعة الزجاج والخزف.

(٢٩) أ. لوكا، ١٩٦٢، ص ٤١٩ - ٤٢٠.

(٣٠) أ. اسكندر، ١٩٦٠، ص ٢٩ - ٦١، القسم الاول.



- (١) كتلة تزجيج، وقد ظهر منها  
السطح الاعلى المستوى، والجواف  
الجانبية، وجزء من البوتقة لا يزال  
لاصقا بالحافة الجانبية اليمنى.
- (٢) قاعدة لاحد الاعمدة المنحوتة من  
الحجر الرملي في معبد بوهن (النوبة).  
ويلاحظ ما طرأ عليها من تزهر في  
الطبقة السطحية.



أثناء تهيئة المومياء، فاستنتج من ذلك ان هذه المواد كانت تسد مؤقتا تجاوىف الجسم قبل تحنيطه في كتلة من الناطرون (٣١) على فراش التحنيط (٣٢).

### بوتقات التزجيج (أو إذابة دقيق المعادن)

ان البحوث التي اجريت بوادي النطرون على انقراض معمل زجاج، تظهر ان الزجاج صنع في مصر في العصر الروماني، ويمكن تمييز مرحلتين، فخلال الأولى كان يحصل على التزجيج في بوتقة خاصة، تسمى بوتقة التزجيج (٣٣)، وذلك بحمل خليط من الرمل الخالص (المرو) ومن ثاني فحمات الكلسيوم، والناطرون او الرماد النباتي، وكلها الى درجة من الحرارة تحت ١١٠٠ درجة مئوية، وكان صلصال البوتقة غنيا بالرمل وبالتبن المدقوق قطعاً صغيرة. وكان هذا الصلصال في الفرن يمكن من انضاج فخار نفيذ جداً — وتلك خصلة كان الزجاج يتطلبها في العصور الحالية — اذ كانت تمكنه من تحرير قالب التزجيج (الشكل ٣) بكسر البوتقة، التي كانت اذن لا تستعمل الا مرة واحدة. وفي المرحلة الثانية يحصل الزجاجون على زجاج من نوع حسن يختلف الالوان، وكانت التزجيجات الاولى تدق حتى تعطي مسحوقاً متجانساً، وتجزأ الى صبات صغيرة، ويضاف الى كل منها بعض المقادير من الاكاسيد الملونة ومن المكثفات او المزيلات للاصباغ، ويجري الطبخ حتى يتم الصهر قصد الحصول على نوع الزجاج المطلوب (٣٤).

### إختيارات الأصالة

طيلة سنين عديدة كان اثبات تابعا لمعايير تاريخية جمالية فقط، ومؤخرا سمح التقدم العظيم في ميدان البحث العلمي، بالحكم مع ثقة أكبر على صدق واصالة اداة معطاة. واثبت التقنيات هي:

### الفحص بواسطة الاشعة ما فوق البنفسجية

هذا الاسلوب صالح على الخصوص في تقوم ادوات العلاج والرخام. وينشر مختلف انواع الرخام اشعاعات مختلفة تحت الاشعة ما فوق البنفسجية اذ يسقط سطح قطع الرخام القديمة لونا متميزا بعيدا جداعن لون الكلسيات من عين النوع ولكنها أجد. وكذلك الأمر بالنسبة لقطع العلاج اذ حتى التفتيحات او الاصلاحات التي اصلحت بها هذه الادوات من العلاج او الرخام، وحتى الرسوم وقد صارت غيز ملاحظة في الضوء الطبيعي، فهي تصوير ملحوظة تحت الاشعة ما فوق البنفسجية. وكذلك فان اشعة اكس والأشعة ما تحت الحمراء مفيدة جدا لكشف الغش (٣٥).

(٣١) الناطرون: فحمات الصود يوم التبلور

(٣٢) ز. اسكندر، وا. و. شاهين ١٩٦٤، ص ١٩٧ — ٢٠٨.

(٣٣) التزجيج الاولى او اذابة دقيق المدن قصد ازالة العناصر المتبقية (تطبيق الترجمة).

(٣٤) س. أ. صالح، ا. و. جورج، وف. م. حلمي، ١٩٧٢، ص ١٤٣ — ١٧٠.

(٣٥) ا. ر. كالاي، ١٩٤٨، ص ٨ — ١.

## فحص التأكل السطحي

ان المعادن القديمة عامة تتآكل شيئاً فشيئاً، ومع الزمن يولد هذا التأكل قشرة متجانسة. وفي صورة الادوات المعدنية المغشوشة فان طلاء سطحيًا يمر على وجهها يعتبر من شأنه ان يمنحها طابعاً قديماً. وعامة هو «يلتصق» التصاقاً رديئاً وتزيله المحلات كالماء والكحول والاسيتون او البيريدين، ثم ان هذه الاضافة الاصطناعية لا تشمل في غالب الأحيان الا على طبقة واحدة ويمكن تمييزها بسهولة عن القشرة الطبيعية التي تنشطر عموماً على أدوات النحاس والبرونز الى شريط اول باطن أحمر من اكسيد النحاس، وإلى شريط ثان خارجي اخضر وهو من فحمت النحاس او كبريتاته او كلوراته. ومن العسير ان يستعمل هذا المحلل بحيث يغتربه كيمائي متحف أثري نبيه.

## تحليل مادة الشيء

ان تحليل حبة الحزف الصيني المصري العتيق، لتوضح كثيراً من مزايا هذه التقنية. فبينما كانت حبة الصيني القديم الأصيل في مصر مركبة من الكوارتز المزجج فان التقليدات العصرية لها تتكون عامة من الصلصال والطفل الأبيض أو من الحزف الصيني فتعرفها اذن سريع ثابت. مثال آخر: كانت تقنيات العدانة في العصور الحالية تعوزها طرق الفحص الملائمة، فكانت المعادن القديمة تشمل على بعض الشوائب — زرينخ — نيكل — منغنيز الخ... فيكفي اذن أن تتخذ عينة منفصلة من الحادث المصطنع المشكوك فيه، وان تعرض على فلورة أشعة اكس أو على تنشيط الكهربيات المحايدة، وإذا لم توجد هذه الشوائب في صورة بقايا فذاك ما يرجح الكشف عن الغش.

## تعرف الاصباغ والملونات في التصوير الملون

ان التقنيات الكيماوية المجهرية تمكن من التعرف ببعض الدقة على الاصباغ المستعملة في لوحة من اللوحات. فإذا ما كان الصبغ من بين الملونات الحديثة مؤخرًا، فيكون سن اللوحة موضوع نقاش، مثلاً ان فحص يونغ لصورة جانبية منسوبة الى رسام من القرن الخامس عشر الميلادي، قد اظهر ان الصبغ الازرق المستعمل فيه مستمد من اللازوردي الاصطناعي الذي لم يكتشف ولم يستخدم كصبغ الا منذ القرن التاسع عشر، واما الصبغ الابيض فستمد من اكسيد التيتان وكان عالم التصوير يجمله قبل ١٩٢٠م. وهكذا كانت هذه الصورة مزيفة (٣٦).

## فحص الزنجرة والصفالة السطحية

ان معظم الحجارة على مر الزمن تكتسي زنجرة سطحية: هي طلاء الصحراء. وهذه الظاهرة ناشئة عن البروز التدريجي لاملاح الحديد والمنغنيز التي تتأكسد على السطح مكونة ضرباً من القشرة أو البشرة تتحد مع الحجارة فتختلط مع السطح. ومن الصعب ازلتها بالغسل بواسطة محلل او بالحك. وفي ذلك ما ييسر التمييز بين سطح قديم حقاً وسطح آخر نقش مؤخرًا ولوانه كسي بقشرة اصطناعية.

وعلاوة على هذه القشرة الطبيعية، فإن آثار النقش والصقل القديمة تمدنا بوسيلة أخرى للحكم على الاصابة. فهذه البقايا مازالت تلوح من تحت القشرة السطحية للحجارة او المعدن في شكل خطوط غير منتظمة التقاطع. فلم يكن للشعوب في العصور الخالية محكات للنقش ولا مبادر دقيقة ولا قاش خاص للصقل، وتميز هذه الخطوط بسهولة عن الخطوط المتوازية المنتظمة التي هي علامات الصقل الحديث.

### تجربة اللمعان الحراري للخزف

ان الخزف كالارض التي دفن فيها يحتوي على نسبة مئوية ضئيلة جدا من العناصر المشعة. فتتشر هذه العناصر اشعة تتجمع كهاربا على مر آلاف السنين في مادة الخزف. فاذا ما خضع الخزف الى ما فوق ٥٠٠ درجة من الحرارة، ينبعث من الكهارب المتجمعة لمعان حراري يختلف بحسب عمر الخزف. وهكذا يساعد اللمعان الحراري محافظي المتاحف على الحكم بروية على اصابة خزف معين. وقد تؤخذ العينة اللازمة بواسطة حفر منعزل فيسخن المسحوق الناشئ عن ذلك، في الظلمة، الى ما يزيد على ٥٠٠ درجة مئوية. فاذا ما لوحظ لمعان حراري، فذاك دليل على قدم الخزف، واذا كان العكس فهو مزيف (٣٧).

## تقنيات تعيين التواريخ

تسمح عدة تقنيات علمية بالقيام بتعيين تواريخ الاشياء القديمة وهذه أهمها:

### تعيين التاريخ التقريبي بالتحليل القياسي الأثري

ان تحليل عينات من مجموعة واحدة (املاط، زجاج، صيني، معادن، اصباغ) الا انها ترجع الى عصور مختلفة، يمدنا بنتائج يمكن استخدامها كاشارة، فتوحي تقريبا بعمر عينات أخرى مازال مجهولا. ولنا في الأمثلة التالية ما يؤكد ذلك.

### تعيين التاريخ بواسطة جواهر الزجاج في افريقيا الغربية

ان جواهر أكوري المتلونة التي تبدو زرقاء اذا سقط عليها ضوء منعكس، وخضراء اذا كان الضوء مباشرا، قد عرضت على التحليل بواسطة فلورة اشعة اكس. ولقد امكن هذا التحليل من تصنيفها الى مجموعتين أ و ب، فعينات المجموعة (أ) افقر في الرصاص (٠.٥٪) وفي الزرنيخ (٠.٥٪) من عينات المجموعة (ب) حيث تكون النسبة المئوية من الرصاص تقارب ٢٧٪ ونسبة الزرنيخ ٢٪ والفرق النسبي في المنغنيز أصغر (مجموعة أ: ٣.٠+١٪، مجموعة ب: تقريبا ٥.٥٪) ومن العناصر الأخرى المكتشفة الحديد والكوبالت والزنك والروبيديوم والترونيتوم والقصدير والاثمد والباريوم، ولم يسجل اي فرق ملحوظ، وتوجد جواهر المجموعة (أ) في افريقيا الغربية بمواطن جزرية



قديمة نسبيا (٤٣٠ الى ١٢٩٠ ب.م) بينما لا توجد جواهر المجموعة ب الا في أطار اجد. فاذا ما اكتشفت هذه الجواهر في قبر او في طبقة معينة فهي توحى بعمرها، بدقة يتفاوت مقدارها (٣٨) بالزيادة أو النقصان.

### تعيين تواريخ الرسوم الصخرية بتحليل املاطها شبه الزلالية

يمكن تقدير سن الرسوم باحصاء عدد الحوامض الامينية التي تشتمل عليها املاطها شبه الزلالية بواسطة التحليل بالماء. ولقد سمحت هذه الطريقة بتعيين عمر ١٣٣ لوحة من الرسوم الصخرية في افريقيا الجنوبية الغربية مع مجال للخطأ يقرب ٢٠% («السيدة البيضاء» ببرندبرغ ترجع فيما يبدو الى ما بين ١٢٠٠ و ١٨٠٠ سنة، ولوحات ليمويوتقع بين ١٠٠ و ٨٠٠ سنة، وعينات دراكنبرغ تمتد فيما بين ٦٠ و ٨٠٠ سنة. وينحط عدد الاحماض الامينية المتماثلة مع عمر الصورة من ١٠ (في المخثرات من ٥ الى ١٠ سنوات من العمر) الى سنة واحدة (وفي المواد القديمة من ١٢ الى ١٨ قرنا) (٣٩).

### تحديد التواريخ بتحليل الاملاط

ان تحليل مختلف الاملاط في مصر يظهر ان ملاط الجبرلم يظهر فيها قبل بطليموس الاول (٣٢٣ — ٢٨٥ ق. م) (٤٠) فكل مبنى من (احجار او اجر) كَوْن بواسطة هذا الملاط انما يرجع الى ما بعد ٣٢٣ ق. م.

### تعيين التواريخ بالفحم المشع

المبدأ:

اذا لاقت الاشعة الكونية ذرات الهواء في الطبقات العليا من الجو حطمتها الى اجزاء صغيرة من بينها الكهريပ် المحايء، وتقذف الكهريء الكونية للذرة التي يكون جوها أكثر غنى، الاوت ذا كتلة ١٤، فتحولها الى فحم وزنه الذري ١٤. وهذا الفحم ١٤ الجديد التكوين مشع، فيمتزج باكسيجان الهواء ليكون (CO<sub>2</sub>) ١٤ ويمتزج مع ثاني اكسيد الفحم الاعتيادي الذي يشتمل على ذرات فحم كتلتها ١٢ (٩٩%) و ١٣ (١%) فيدخل هذا الفحم ١٤ في النباتات مع عناصر الفحم الاعتيادية CO<sub>2</sub> 12 و CO<sub>2</sub> 13 وتكون أنسجتها حسب عملية التركيب الضوئي. وحيث ان الحيوانات تتغذى بالنباتات فان العالم الحيواني والنباتي بأكملها يكونان مشعان اشعاعا خفيفا لوجود نسبة ضئيلة من الفحم ١٤ (تقريبا ذرة واحدة من فحم ١٤ لكل مليون مليون من ذرات الفحم الاعتيادي) ويدخل ثاني اكسيد الفحم أيضا في تركيب المحيطات في شكل فحما فيكون من المحتمل أيضا أن

(٣٨) دافيسون س. م، جياك ر. د، كلارك ج. د، ١٩٧١، ص ٦٤٥ — ٦٤٩.

(٣٩) دنجر أ. ١٩٧١، ص ٨٠ — ٨٤.

(٤٠) لوكا أ. ١٩٦٢، ص ٤١٦ و ٤١٩ — ٤٢٠.

يكون ماء البحر مشعا اشعاعا خفيفا، وكذلك الشأن بالنسبة الى كل المحاريات والرواسب التي يشتمل عليها (٤١).

وعند الموت فان المادة العضوية القديمة من المحتمل أن تكون قد اشتملت على عين الاشعاعية التي تشتمل عليها المادة العضوية الحية حاليا. ولكن بعد الموت يكون العزل، أي انه ينقطع كل نقل او كل مبادلة مع الفحم الاشعاعي، فيأخذ الفحم ١٤ في الانحطاط او قل، حسب عبارة الاستاذ تبي، «أنت ساعة الفحم الاشعاعي أن تشرع في العمل» (٤٢) فإذا ما قيست الاشعاعية ونظر بينها في عينة قديمة وفي عينة شاهدة ومعاصرة، يكون في الامكان بمراعاة طول عمر الفحم ١٤ (٤٣) ان يحسب عمر العينة القديمة، بجل المعادلة المتعلقة بالانحطاط الاشعاعية.

### المواد الملائمة لتحديد التواريخ بواسطة الاشعاع

تطبق هذه التقنية على المواد العضوية (خشب، فحم، عظم، جلد، انسجة، نباتات، اغذية، فخار الخ...) ولكن قبل كل شيء تطبق على النباتات السنوية كالقصب، والحبوب والعشب او الكتان. فاذا ما جمعت العينات ينبغي الا تجري عليها اي معالجة كيميائية، بل يجب ان تعزل في قوارير من زجاج او اكريليك من نايلون كي يتجنب اتصالها بالمحتمل بمواد عضوية اخرى. ويتم العمل على خمس مراحل وهي، تطهير العينة، واحراقها، وتطهير غازات ثاني اكسيد الفحم الناتجة، ثم عد الجزيئات المنتشرة.

### النتائج والاحتمالات

قد مكنت دراسة مقارنة على عينات شواهد وعلى تحديدات للتواريخ بواسطة الفحم الاشعاعي (٤٤) من التحقق من دقة هذه الطريقة. وحيث ان اقدم طريقة تاريخية واشهرها طريقة التأريخ المصرية، فقد تقرر على المستوى الدولي ان يقاس الفحم المشع في سلسلة طويلة من العينات المصرية، مدققة التأريخ، والتي تنتمي الى فترة تمتد من الاسرة الأولى الى الاسرة الثلاثين (تقريباً من ٣١٠٠ الى ٣٤١/٣٧٨ ق. م) واخذت عدة مختبرات تواريخها باعتبار أن دورات النشاط الاشعاعي للفحم تقابل لـ ٥٥٦٨ سنة او بصفة ادى ٥٧٣٠ ± ٤٠ سنة، فظهرت النتائج ان التاريخ المعتمد على دورة تساوي ٥٧٣٠ سنة يقابل تسجيل الأحداث التاريخية حتى عهد سنوسرت (حوالي ١٨٠٠) ولكن تاريخ العينات السابقة أثار عدة جدالات، على أن تطبيق طريقة ستوفيني سواس للاصلاح على العينات السابقة لـ ١٨٠٠ سنة، قد يمكن من الحصول على نتائج توافقت التاريخ الاثري بتقريب ٥٠ او ١٠٠ سنة (٤٥) وعلى سبيل المثال قام مختبر البحث في المتحف البريطاني

(٤١) م. ج. ايتكن، ١٩٦١، ص ١٨١ و ١٨٢.

(٤٢) و. ف. بيتي، ١٩٧٠، ص ١ - ١٠.

(٤٣) طول العمر او دورة الفحم ١٤ (أي مدة تبديد نصف الجسم المشع) يقدر بقدر ٥٥٦٨ سنة او بصفة ادى ٥٧٣٠ ± ٤٠ سنة.

(٤٤) ر. برجر، ١٩٧٠، ص ٢٣ - ٣٦. و. س. ادورس، ١٩٧٠، ص ١١ - ١٩. د. ن. ميخائيل وأ. ك. رالف، ١٩٧٠، ص ١٠٩ - ١٢٠. أ. ل. رالف و. ه. ن. ميخائيل و. م. ج. هن، ١٩٧٣، ص ١ - ٢٠.

(٤٥) ر. برجر، ١٩٧٠، ص ٢٣ - ٣٦. ه. ن. ميخائيل وأ. ك. رالف، ١٩٧٠، ص ١٠٩ - ١٢٠. أ. ل. رالف و. ه. ن. ميخائيل و. م. ج. هن، ١٩٧٣، ص ١ - ٢٠. م. ستوفيني و. ه. أ. سواس، ١٩٦٦، ص ٥٣٤ - ٥٤٠.

بتحديد تاريخ قصبات مصطبة القاع، من الاسرة الأولى، بسقارة. فكان التاريخ الناتج عن طريقة الفحم ١٤ هو  $2450 \pm 65$  بعد الاصلاح، وهو ما يطابق التسجيل التاريخ ٢٩٠٠ ق. م (٤٦). ويظن الآن ان انتقاص الحقل المغنطيسي الارضي (٤٧) وتغيرات قوة الريح الشمسية التي تميل الاشعة الكونية، هي الأسباب الرئيسية للانحرافات التي نلاحظها (٤٨). ومن جهة اخرى فان مدة دورة الفحم المشع ليست مثبتة اثباتا قويا. ونحن بصدد البحث عن اسباب اخرى، ويعمل العديد من المختبرات في هذا الاتجاه. واذا ما علمنا الجواب فيكون في الامكان ان نصل الى تعيين تواريخ بقايا العصر العتيق فيما قبل ١٨٠٠ ق. م. وحتى ذلك اليوم يجب ان تخضع التقديرات الاصطلاحية للبقايا العضوية بواسطة الفحم المشع الى التصويب المشار اليه.

### تحديد التواريخ بواسطة البوتاسيوم - أرغون

ان تحديد التواريخ بواسطة الفحم ١٤ حتى ٧٠ ٠٠٠ سنة تقريبا يحدث فراغا في تاريخ التطور البيولوجي والجيولوجي حتى ما يقرب من ١٠ ملايين من السنين، الا انه صار من الممكن ان نطبق بعض الطرق الجيولوجية الاشعاعية، امثال نسبة تحول الاورانيوم ٢٣٥ الى رصاص ٢٠٧ اي ٧١٠ ملايين من السنين، او تحول الروبيديوم ٨٧ الى سترنسيوم ٨٧، اي ١٣ ٩٠٠ مليون من السنين. ويمكن سد هذا الفراغ الى حد ما بتحديد التواريخ بواسطة البوتاسيوم - أرغون (٤٩). والواقع ان هذه الطريقة مستعملة في الغالب لتواريخ العصور الجيولوجية القديمة، فتستخدم عناصر مهمة من مادة لحمتها دقيقة نسبيا (الا أنها لا تقل عن ١٠٠ ميكرون) لا تشمل الا على القليل من الارغون الجوي. وفي الامكان ان تستعمل لعصور جديدة نسبيا، مما يسمح بمراقبة النتائج الحاصلة بواسطة الفحم ١٤ (٥٠).

### المبدأ الاساسي

ان البوتاسيوم كما تجده في الطبيعة يشتمل على ٩٣ر٢٪ من البوتاسيوم ٣٩ و ٦ر٨٪ من البوتاسيوم ٤١ و ١١٨ر٠٪ من البوتاسيوم ٤٠. وكانت نسبة البوتاسيوم ٤٠ وقت تكوين الارض تقارب ٢ر٢٪ ولكن، في قسم كبير منه، تجزأ لكبي يحدث مشتقين اثنين الكلسيوم ٤٠ والارغون ٤٠. ودورة البوتاسيوم ٤٠ الكبيرة جدا (١٣٣٠ مليوناً من السنين تمكنه من البقاء بنسبة ضئيلة جدا، تقرب من ١١٨ر٠٪).

ومن بين ١٠٠ ذرة من بوتاسيوم ٤٠ تتبدد، تتحول ٨٩ الى كلسيوم ٤٠ بزوال الاشعة بيتا وتصير ارغون ٤٠ اثر امساكها لجزيئات بيتا. والارغون جسم غازي محبوس في حبة المعدن (٥١).

(٤٦) و. س. ادوردس، ١٩٧٠، ص ١١ - ١٨.

(٤٧) ف. بوشا، ١٩٧٠، ص ٤٧ - ٥٥.

(٤٨) س. ز. لوين، ١٩٦٨، ص ٤١ - ٥٠.

(٤٩) م. ج. ايتكون، ١٩٦١.

(٥٠) وجنترو. ج. لبلت، ١٩٦٣، ص ٧٢ - ٨٤.

(٥١) نفس المرجع والصفحات، أ. ا. ملتن، ١٩٦٥، ص ٤٦ - ٦٩.

ويتم تحديد التواريخ بواسطة البوتاسيوم-أرغون للأسباب الآتية:

- أ — ان البوتاسيوم الموجود في القشرة الأرضية يمثل ٢٨٪ من وزنها أي انه من العناصر الغزيرة جدا، ثم انه يكاد يكون موجودا في كل الأجسام المركبة.
- ب — ان طول عمر البوتاسيوم يمكن من تكوين الارغون ٤٠ في بعض المعادن أثناء الفترات المهمة من الوجهة الجيولوجية. وبحساب تركيز الارغون ٤٠ وكمية البوتاسيوم الموجود في المعدن، يكون في الامكان تعيين عمر هذا المعدن بواسطة معادلة تابعة لتبديد الاشعاعية (٥٢).

### مشاكل يجب حلها عند تعيين التواريخ بواسطة البوتاسيوم — أرغون

استعملت حديثا طريقة لتعيين التواريخ بالفحم المشع لحساب الثابتة من المرتبة الاولى في الوضع، قصد مرازمة الحامض الاسبرتي في العظام القديمة. فاذا ما تمت معايرة تفاعل المازمة في موقع ما، يصير من الممكن ان يستعمل هذا التفاعل لتعيين تواريخ لعظام اخرى من عين النجم. وتوافق الاعمار المحسوبة هكذا الاعمار التي تم الحصول عليها بواسطة الفحم المشع. وتبرهن هذه النتائج على أن تفاعل المازمة هواله زمنية مهمة لتعيين تواريخ العظام القديمة جدا او الصغيرة جدا، والتي لا يمكن معالجتها بالفحم المشع.

وكمثال على تطبيق هذه التقنية في تعيين تواريخ الحجرات البشرية ثمة تجربة تمت على عظم بشري وهي قطعة من إنسان روديسيا من الهضبة المكسرة «بروكن هل» في زامبيا، وعندما حللت اعطيت موقتا عمرا ١١٠٠٠ سنة (٥٣). وتعيين التواريخ بالبوتاسيوم — أرغون لعصور البليوسين والبليستوسين من شأنه ان يسمح باقرار تأريخ مطلق، يقدر اصول الانسان وعمر المتحجرات التي يتفق وجودها في عدة نقط من الارض، واصل «التكتيت» وعددا اخر من المشاكل الجيولوجية.

ان تعيين التواريخ بالبوتاسيوم — أرغون اعان في الالدفاي على تعيين عمر الطبقات البازلتية وطبقات الفليس التي كانت تغطيها، بأمل تدقيق العمر الحق لبقايا الزنجيتروب المكتشفة في قعر الطبقة الاولى من الفليس، في «الطبقة ١» واستنتج كرتيس وايفرندن ان بازلتيات الالدفاي هذه تؤرخ على الأقل باربعة ملايين من السنين على أنها ليست صالحة لتعيين التاريخ بكيفية مدققة من جراء تغييرات كيمائية تلوح في الجزء الضيق من كل البازلتيات المؤرخة بالالدفاي باستثناء ما يمكن ربطه بالصناعة السابقة «للحصى المشدبة». وهذا رأي كنتزوليولت عن مختلف النتائج الحاصلة «وحيث لا وجود لتناقضات أخرى بين تعيينات التواريخ الخاصة بالبازلتيات وبالفليس الذي يغطيها، فليس من غير الممكن ان يكون عمر الزنجيتروب نحو المليونين من السنين (٥٤).

### التعيين الأثري المغنطيسي للتواريخ

كي نعطي فكرة مبسطة عن هذه التقنية يجب ان نطرق النقط الآتية:

(٥٢) و. جنتزوه. ج. لبلت، ١٩٦٣، ٧٢ — ٨٤.

(٥٣) ج. ل. بودا ور. أ. شروود، وزبروتس ور. بروجو، ١٩٧٤، ص ١٢١.

(٥٤) انظر تعليق ا.

## المغناطيسية القديمة

ان المقصود دراسة المغناطيسية المتبقية في الانقراض الاثرية وتستند هذه الدراسة الى كون الحقل المغناطيسي الارضي يتغير دائما اتجاهها وقوة، وتفيد المشاهدات الممتدة خلال خمسين السنة الأخيرة، ان الحقل المغناطيسي ينتقل نحو الغرب بقدر ٠.٢ درجة طول سنويا (٥٥).

واجريت بحوث على المغناطيسية القديمة تعتمد على المغناطيسية المتبقية في الطين المشوي الاثري وفي الصخور، فظهرت انه بالنسبة الى قوتها الحالية الرموز اليها بواحد، فان قوة الارض المغناطيسية بلغت حوالي ٤٠٠ الى ١٠٠ ق. م قيمة قصوى قدرها ٥١٦ ومرت بقيمة دنيا حوالي سنة ٤٠٠٠ ق. م قدرها ٠.٦ (٥٦) وتسمى هذه الآثار او التغيرات في الاتجاه والشدة (تغيرات قرنية). ولها طبيعة جهوية، وتشمل القاعدة لتعيين التواريخ المغناطيسية، اذ ان تغيرات الحقل المغناطيسي الارضي تبقى اثرا في الحرف على شكل مغناطيس حراري متبق.

## تطبيق المغناطيس الحراري المتبق لتعيين التواريخ الأثرية

لتعيين تاريخ طين مشوي بقي في عملة منذ شت، بواسطة المغناطيس، يجدر أولا اثبات احتمال الحقل المغناطيسي الارضي بقياسات تجري في الجهة التي اختيرت، لتطبيق الطريقة على بنيات اثرية عمرها معروف. وترسم النتائج على منحني يمثل التغيرات الطويلة المدى في هذه الجهة طيلة فترة ممتدة. واذا ما عرف اتجاه الحقل المغناطيسي المسجل في طين مشوي مجهول العمر في هذه الجهة نفسها، يصير من اليسر تعيين تاريخه بالمقارنة مع منحني التغيرات الطويلة المدى.

والبق العينات المعدة للتأريخ المغناطيسي، عينات الطين المشوي المستمدة من أفران او مواقع بقيت في محلها حتى يومنا هذا. ولعدم وجود آلة قياس المغناطيس القابلة للحمل والتي من شأنها ان تسهل على العين حساب اتجاه الحقل المغناطيسي الارضي، تحمل العينات الى مختبر تكون فيه هذه الآلة. ومن الاساسي ان يمثل على العينة اتجاهها الاصلي كي يكون هذا الاتجاه مرجعا بالنسبة الى اتجاه المغناطيس المتبق.

وفي التطبيق، تتمثل العملية في طلي العينة بمص باريس، مع التحفظ من كون السطح العلوي للقلاب افقيا ويشير الى اتجاه الشمال الجغرافي قبل قلع العينة. وهكذا يمكن في آن واحد من تعيين زاوية الحدود المغناطيسية (ح) وزاوية الميل القديمة (م) (٥٧) وكبي نحتز من الشوائب يجدر بنا ان نتزود على الأقل بنحوس من العينات المستمدة من بقاع مختلفة البنية الاثرية، مع مراعاة شيء من التناظر (٥٨).

وسجلت نتائج مغناطيسية اثرية فيما يتعلق بالانحراف والميل في انكلترا وفرنسا واليابان

(٥٥) م. ن. ايتكن، ١٩٦١ ر. م. كوك، ١٩٦٣، ص ٥٩ - ٧١.

(٥٦) ف. بوشا، ١٩٧٠، ص ٤٧ - ٥٥؛ ف. بوشا، ١٩٧١، ص ٥٧ - ١١٧.

(٥٧) م. ج. ايتكن، ١٩٧٠، ص ٧٧ - ٨٨.

(٥٨) ر. م. كوك، ١٩٦٣، ص ٥٩ - ٧١.

وايسلندا وروسيا. ولم يقم، فيما اعلم، بمحاولة لتطبيق هذه الطريقة على إفريقيا. فالمرجوان يقام بذلك عما قريب خصوصا وانها تقدمت كثيرا في السنوات الأخيرة.

## تعيين التواريخ بالاضاءة الحرارية

الاضاءة الحرارية هي بث للضوء ينتج عند تسخين مادة معطاة تسخيناً قويا، وهي تختلف تماما عن التأجج (الحاصل نتيجة الوصول بالجسم الجامد الى الحمرة) وتنتج عن تحرير الطاقة المتجمعة في شكل كهيربات محايدة محبوسة في المادة المسخنة.

### اصلها

كل خزف أو صيني يشمل نسباً ضعيفة من المركبات المشعة (بعض الأجزاء من مليون من الاورانيوم والطوريوم وبعض الاجزاء من المائة من البوتاسيوم) ثم ان الارض المجاورة لموضع اكتشاف الخزفيات قد تشتمل على الاوساخ، وقد تكون الاشعة الكونية تخللها اشعة قذفت بها المادة البلورية كما مرو في الخزف. وينتج عن تأينها كهيربات قد تحبس في البنية البلورية، و«افخاخ الكهيربات» هذه في وضع غير مستقر، فتزول اذا ما سخنت عينة الخزف محررة مازاد من الطاقة في شكل ضوئيات، وقوة الضوء أي الاضاءة الحرارية تتبع طردا عمر الخزف، وهي تتبع أيضا الطبيعة الخاصة لمولدات الاضاءة الحرارية الموجودة في الخزف وفي الجوار المباشر للموضع الذي اكتشف فيه (٥٩)، ويمكن قياس عناصر الاورانيوم والبوتاسيوم بالاشعة التي تقبلتها كل سنة. ويعين العمر مبدئيا بواسطة المعادلة التالية (٦٠):

$$\frac{\text{شدة الأشعة المتجمعة}}{\text{شدة الاشعة السنوية}} = \text{العمر}$$

### دقة النتيجة والاحتمالات

ان النتائج في عصرنا صحيحة الى  $\pm 10\%$  فهي اذن من مرتبة ادنى بعض الشيء مما يوفره تعيين التواريخ بالفحم المشع، يعزى السبب في ذلك الى عدد من الترددات المتعلقة بالظروف التي دفن فيها الشيء المدروس، وإلى درجة رطوبة الأرض المجاورة التي تتبعها شدة النظائر المشعة في قطعة الخزف. ومن المؤمل ان تذلل البحوث المقبلة هذه الصعوبات، الا ان عدة اسباب عملية تجعلنا نعتقد ان تحسين النتائج لن يتجاوز اكثر من  $\pm 5\%$  (٦١).

وعلى كل ورغم قلة الضبط هذه، فان هذه التقنية تتقدم على تقنية تعيين التواريخ بالفحم المشع، لان الخزف موجود في المواطن الاثرية اكثر من المواد العضوية، ثم ان الحدث الذي يجدر

(٥٩) م.ج. ايشكن، الجمعية الملكية، لندن، مجلد أ، ٢٦٩، عدد ١١٩٣، ١٩٧٠، ص ٧٧-٨٨؛ أ.ت. هل، ١٩٧٠، ص ١٣٥-١٤١.

(٦٠) م.ج. ايشكن، ١٩٧٠، ص ٧٧-٨٨.

(٦١) نفس المرجع.

تعيين تاريخه هوشي الحرف، بينما يرمي تعيين التاريخ بالفحم المشع لعينة من الخشب او الفحم الى تقدير زمن قطع الشجرة، لا تاريخ استعمالها فيما بعد.

وفي مصر، سيكون لهذه التقنية مجالات فيسحة لاستغلالها، وحتى الآن فان نباتات العصر الحجري الحديث، وعصر ما قبل الاسرات كان تعيين تواريخها في اكثر الأحيان حسب انموذج الحرف الذي تميز به طبقا لنظام تاريخ اللقطات المتعاقبة الذي ابتكره فلندرس — بترى (٦٢)، فبفضل الاضاءة الحرارية سيكون في الامكان ان يعين العمر الحق لهذه النباتات.

## التقنيات المستعملة في التنقيب الأثري

ان الغرض الاساسي من استعمال التقنيات العلمية في استكشاف الارض هو البحث عن ارشاد عن المواقع الاثرية المدفونة لتحضير الحفريات او تعويضها. والامر هو ان نربح اكثر ما يمكن من الوقت ومن الجهد ومن التكاليف.

والبحث الاثري المعتمد على الطرق العلمية يستخدم التقنيات التالية:

### التصوير الجوي

ويستعمل على الخصوص للتعرف على بنية معطاة حسب رسمها الهندسي، وله استعمالان رئيسيان: وهو يمكن من النظر من على اي من مشهد اوضح للنقط التي تلوح فيها البقايا او التباير البارزة كأنها تجتمع كي تكون رسما أكثر إيماء (٦٣) وتسمح دراسة الصور الجوية بتحديد المناطق التي يكون من اللائق ان تستكشف للحصول على فكرة عامة من البنية الاثرية. واستعملت هذه الطريقة في مصر، بالاقصر لدراسة معابد الكرنك في مساحة ١٥٠ هكتار تقريبا.

وثمة استعمال آخر يمكن من الكشف عن وجود بقايا أثرية تغطيها الاراضي المزروعة بواسطة العلامات النباتية، ان هذه الآثار بصمات حقيقية تنتج عن تغيير الرطوبة في التربة، فالنبات على جدار من حجارة مغمورة يتميز قليلا بواسطة خط أكثر وضوحا ويكون أغنى، ويبدو أشد دكنة عندما يكون فوق حفير مردوم، ويمكن الشكل الهندسي لهذه الآثار من التعرف على الانقراض المدفونة ومن الشروع في استكشافها (٦٤).

### تحليل التربة

نستطيع بصورة عامة تعيين الانقراض القديمة للمدن المسكونة والمقابر، بتحليل التربة، فاذا كان فوسفات الكلسيوم هو المكون الرئيسي للهيكل العظمي ولتختلف ما يتبقى مما يتركه الانسان، فستكون نسبتها المثوية بالطبع مرتفعة على الأراضي التي سكنها الانسان في الماضي او في التي كانت له

(٦٢) و.م. ف. بترى، ١٩٠١.

(٦٣) ر. أ. لينينغتن، ١٩٧٠، ص ٨٩ — ١٠٨.

(٦٤) ج. م. ايتكن، ١٩٦١.

مقابر، لذا تحدد هذه القطاعات الاثرية بواسطة التحليل لعينات من التربة مأخوذة على مسافات منتظمة قصد استنتاج نسبة الفوسفات.

## تحليل غبار الطلع

ان تلقيح النباتات الزهرية يتم عامة بفعل الطيور والحشرات أو الريح. والأزهار التي لقحتها الريح تنتج كميات كبيرة من حبات غبار الطلع يسقط معظمها على الارض دون ان يساهم في عملية التلقيح. وتحلل هذه الحبات بصفة عامة، ولكنها ان وقعت على تربة ملائمة، كالوحل أو الترب، فقد تتحجر، ويكون اذن من اليسر ان تفحص بالمجهر. وقد يكون للتعرف على مختلف نماذج غبار الطلع الموجودة في عينة ولتعدادها اهمية في علم الآثار من جراء ما يوفر من وسائل الاسترشاد، عن المحيط الذي كانت فيه بقايا بشرية واحداث عارضة، ويمكن معرفة هذا المحيط بدورها من توضيح نمط العيش الذي كان يسود في تلك الفترة.

على ان تحليل غبار الطلع لا يصلح كتقنية لتعيين التواريخ، الا اذا امكن ربط عينات غبار الطلع بتاريخ، يعتمد على طريقة مباشرة لتعيين التاريخ كطريقة الفحم المشع. ولزيادة التفاصيل عن هذه التقنية انظر فاكري وافرسن (٦٥) ودمبلاي (٦٦).

## دراسة المقاومة الكهربائية

هي أول تقنية لفيزياء الارض تم تطبيقها على الآثار وهي تتمثل في ارسال توتر كهربائي في الارض، وقياس مقاومة التيار الكهربائي، وهذه المقاومة تتبع طبيعة التربة وكمية الماء التي احتفظت بها مساهما ونسبة املاحها المحولة. فللصخور الصلدة المتراصة كالكراانيت والديوريت مقاومة مرتفعة جدا بالنسبة الى مقاومة التربة الصلصالية. وتطبق دراسة المقاومة الكهربائية خاصة على البحث عن بنيات حجرية مغمورة تحت ارض ذات أحوال، او بنيات حفرت في الصخر وردمت (٦٧).

ويتمثل الجهاز المستعمل عادة لذلك في ادخال اربعة مسابر معدنية في الارض، وامرار تيار كهربائي بين المسارين الخارجيين، وقياس المقاومة بين الاثنين الباقين، وقيمة المقاومة الناتجة هي معدل تقريري بالنسبة للمادة الكائنة تحت المسارين الداخليين، على عمق يساوي تقريبا مرة ونصف المرة من البعد بينهما، مادامت هذه المادة في الجملة متجانسة (٦٨).

وفي العادة، تتمثل معظم تطبيقات دراسة المقاومة في رسم خطوط قياس مع الاحتفاظ بنظام الوصل وبنفس المسافات بغية تحديد التغيرات التي تطرأ على قيم المقاومة. وكثيرا تضم هذه الخطوط لكي تكون معا شبكة مستطيلة من القيم، ويتبين موضع البنى المدفونة من الأجزاء، التي تنتج قيا غير عادية.

(٦٥) ك. فاجري و ج افرسن، ١٩٥٠.

(٦٦) ج. و. دمبلاي، ١٩٦٣، ص ١٣٩ - ١٤٩.

(٦٧) م. ج. ايتكن، ١٩٦١.

(٦٨) ليننتن، ١٩٧٠، ص ٨٩ - ١٠٨.



وقد حل محل هذا الأسلوب جزئياً أسلوب التنقيب المغنطيسي، وذلك بسبب ما يشوبه من عيوب يذكر منها بطء الفحص، ولأن النتائج تتأثر في المدى البعيد بالظواهر المناخية، بالإضافة الى أن تفسير النتائج الى الصعوبة في كل الحالات إلا أبسطها (٦٩).

## الفحص المغنطيسي

وهو التقنية الأكثر انتشاراً في البحث عن الآثار، وتتضمن قياس شدة الحقل المغنطيسي الأرضي، في نقاط كائنة فوق السطح الحالي للموقع المراد سبره. وقد تدل التغيرات في هذه القياسات على وجود بيئات أثرية، فتمكن هذه التقنية من الكشف عن بقايا حديد مردومة، وعن منشآت من الطين المشوي، وعن الأفران مثلاً، أو عن آبار حفرت في الصخر وتم ردمها، أو عن بنيات من الحجارة مغمورة في تربة صلصالية.

وتسبب الأدوات الحديدية المدفونة تغيرات مهمة جداً، وفيما عدا الحديد فإن التغيرات ضئيلة. ولا تكون تقنية الدراسة المغنطيسية صالحة أذن، إن لم تكن آلة الاستكشاف حساسة بالنسبة للتغيرات الصغيرة جداً، ثم إنه ينبغي أن تكون سريعة سهلة المراس (٧٠). وقد نجح مختبر البحوث الأثرية في جامعة أكسفورد، في ضبط مقياس للمغناطيس يستخدم البروتونات، تتوفر فيه كل هذه الشروط (٧١). وهو يتركب من قسمين: قارورة الاستكشاف والآلة المسجلة. وتحمل قارورة الاستكشاف على ثلاث أرجل من خشب، وينقلها عامل المختبر من نقطة الى أخرى على المساحة المراد درسها، ويراقب عامل ثان إشارات المسجلة ويرسم بواسطة القياسات مستويًا يؤول تعبيره الى الإشارة الى موقع العناصر الأثرية، والخطوط العريضة لها داخل الأرض (٧٢).

وهناك أصناف أخرى من مقاييس المغناطيس قد دقق صنعها ولا سيما «المقياس الفرقى ذو البروتونات» (٧٣) والمقياس ذو الجيزيوم، والمقياس بالضخ للرنين الإلكتروني (٧٤) ولكل مزاياه، ولكن انفعها في غالب الحالات هو المقياس الفرقى ذو البروتونات. وللطريقة المغنطيسية كثير من المزايا بالنسبة الى المقاومة، فهي أبسط وأسرع، وتفسير نتائجها أيسر (٧٥).

## سبر الأهرام المصرية بواسطة الأشعة الكونية

إن الأشعة الكونية هي تيار من جزيئات ذات شحنة كهربائية تسمى (ميزون مو) أو (موون) تبلغ هذه الأشعة الأرض بشدة متساوية من كل نقاط السماء. فيدخل كل متر مربع، نحو ١٠ ٠٠٠

(٦٩) لينغتن، ١٩٧٠، ص ٨٩-١٠٨.

(٧٠) م. ج. ايتكن، ١٩٦٣، ص ٥٥٥-٥٦٨.

(٧١) م. ج. ايتكن، ١٩٦٦.

(٧٢) نفس المرجع.

(٧٣) أ. ت. هل، ١٩٦٥، ص ١١٢.

(٧٤) باسكولان، ١٩٧٠، ص ١٠٩-١١٩.

(٧٥) ر. أ. لينغتن، ١٩٧٠، ص ٨٩-١٠٨.

مليون في الثانية، مهما كان اتجاهها. وللأشعة الكونية قوة نفوذ كبيرة جداً، أكبر بكثير من قوة أشعة أكس، وتكاد تكون سرعتها مساوية لسرعة الضوء.

و يستند سر الأهرام بواسطة هذه الأشعة الى كون المون تفقد من طاقتها عند اختراق المادة. ان ضياع الطاقة (او امتصاص المون) يتناسب مع كثافة المادة التي تخترقها ومع سمكها، ولشدة او كمية الأشعة الكونية التي تنفذ تقدر بجهاز معروف باسم «غرفة الشرارت» يوضع في حجرة تحت الارض داخل الهرم. والمون التي اخترقت الفراغ (او غرفة او ممراً مجهولاً) تخفض سرعتها تخفيضاً اقل، اذا ما مرت خلال صخرة صماء، فتكون الأشعة الكونية التي اخترقت الفراغ أشد وتظهر ذلك غرفة الشرارات. وبواسطة غرفتين للشرارات موجهتين اتجاهها أفقياً على بعد ٣٠ سنتيمراً تقريباً الواحدة عن الأخرى في الاتجاه الرأسى، يمكن ان تستكشف كل حجرة خفية بل ان يتعرف على موقعها بتقريب بعض الامتار، فتوجه الحفريات في ذلك الاتجاه كي يتم الوصول الى الفراغ او الحجرة التي اشارت اليها الأشعة.

وبداً السرب بالهرم الثاني، هرم الملك خفرع، من الاسرة الرابعة (٢٦٠٠ سنة ق. م) وحللت الارشادات بواسطة الحاسب ونشرت النتائج يوم ٢٠ أبريل — (نيسان) ١٩٦٩ فكشف عن امرين مهمين: ان حجرة الميث الملك لا تقع بالتدقيق وسط قاعدة الهرم، بل تقع بضعة امتار نحو الشمال. ووافق هذا الاكتشاف النتائج التي تم الحصول عليها بواسطة الدراسة المغنطيسية، وهويدل اذن على صلاحية هذه التقنية لسر الأهرام. ثم ان الثلث الاعلى من الهرم لا يشتمل على غرف او معابر مجهولة.

واعيدت التجربة بواسطة جهاز آخر ركب لاستكشاف الهرم كله. ودل التحليل للنتائج ان الهرم لا يشتمل على أي تجويف مجهول وبذلك تأكدت التكهنات الاثرية.

## تقنيات الحفاظ

ليس الغرض من هذا العرض ان نصف الطرق التقنية المستعملة للحفاظ على الاحداث العارضة المؤلفة من مختلف العناصر كالحزف والصيني والزجاج والخشب والجلد والبردي والأنسجة والفلزات الخ. وان هذا التنوع يخرج عن نطاق هذا الفصل، وقد عولج الموضوع في عدة كتب تقنية (٧٦) وفي عدة دوريات، من بينها دراسات في الحفاظ وهي صحيفة المعهد الدولي للحفاظ على الأعمال التاريخية والفنية في لندن.

على أن أهم المشاكل التابعة للحفاظ في أفريقيا هي التي تتعلق بهشاشة الأشياء الكبرى، والعطب العظيم للمعالم الحجرية.

## هشاشة مختلف المواد الكبيرة

بسبب الحرارة والجفاف الشديدين، في كثير من البلدان الافريقية، صارت الاحداث العارضة المصنوعة من مواد عضوية (رق، بردي، جلد، خشب، عاج، الخ...) عرضة للكسر السريع، مما

دعى الى معالجتها بكل عناية حتى لا تهدد بالتفتت، ويقتضي اولا حفظها في محل مغلق رطب وان تلف في انسجة ندية، او ان تعالج بالبخار في وعاء خاص حتى تتمكن من استرجاع بعض او كل مرونتها. فيصير في الامكان اذن ان تنشر او تبسط دون أن يخشى عليها من الكسر. واذا ما رجعت لها مرونتها يجب ان تحفظ هذه الأحداث او ان تعرض في متاحف مجهزة بالهواء المكيف، او في مستودعات طقسها  $17 \pm 2$  درجة مئوية ورطوبتها النسبية من ٦٠ الى ٦٥% حتى لا تصير من جديد سهلة الكسر باتصالها بظروف مناخية اشد قساوة.

## الفساد الملحوظ للمعالم الحجرية

ويجدر ان ينظر عن قرب في هذا الشكل الهام:

### أهم اسباب العطب

ان اهم هذه العوامل هي عطب المباني الحجرية بافريقيا:

— تجول الاملاح: عن طريق الماء او الرطوبة تنتقل الاملاح القابلة للتحلل من التربة المالحة الى حجر المعالم الاثرية وذلك بتأثير عامل ظاهرة التسرب، وتمر هذه الاملاح في المناخ الجاف من داخل الحجارة الى سطحها الخارجي في صورة محلولات مائية، وقد تتبلور على السطح نفسه وتسبب في تفكيكه، او تتبلور تحت السطح وتعمل على فرقهته. وتتضخم هذه العمليات في قاعدة الجدران او الاعمدة حيث تتصل الحجارة بالتربة المالحة كما يشاهد ذلك على بعض الأعمدة في معبد بوهان بالسودان (الشكل ٤).

— العوامل الجوية: تتحمل الحجارة في افريقيا قساوة التغيرات المتطرفة في الطقس وفي الرطوبة، فتؤول بها الى فصل العناصر السطحية في معظم الاحجار .

وفي عدة مناطق، ولا سيما في الجهات الساحلية، يتصافر عاملا العطب، فيتسبب عنها افساد كبير للمعالم، كما يلاحظ ذلك بسهولة في ليبيا في المعابد الرومانية في لبدة (لبتيس باكنا) وفي صبراتة.

### معالجة السطوح — عدم نجاعتها

وقعت عدة تجارب مؤخرا لتقوية سطوح الأحجار بمعالجتها بمولد حافظة عضوية أو برمليات (سيليكات) لاعضوية. وبدت كل هذه العلاجات ليس فحسب غير نافعة، بل مضرة حيث تزيد في سرعة العطب وفي كسر الاحجار ونبه على خيبة هذه المساعي في الملتقى الدولي للحفاظ على المعالم الحجرية. واعترف ان مشكل تقوية الحجارة لم يحل بعد، وانه يجدر الاشتغال به بكل سرعة.

### الجهود الدولية لحل المشكل

ان الصعوبات الملازمة لهذا المشكل وخطورتها قد دعت سنة ١٩٦٧ منظمتي الايكوم والايكوموس والمركز الدولي للحفاظ لتكوين هيئة مؤلفة من عشرة اخصائيين في المحافظة على الحجر لدرس القضية، فتمت بعض الدراسات وقدمت عدة تقارير واستمر نشاط هذه اللجنة الى سنة

١٩٧٥ لتقترح سلسلة من التجارب المعيارية التي تمكن من تقدير درجة عطب الحجارة وما يحتمل من نجاعة في علاجات الوقاية.

### أمل جديد

لقد أعد الاستاذ لوين اسلوبا جديدا لحماية سطوح الرخام والكلس (٧٧) يتمثل في معالجة الاجزاء الفاسدة بمحلول قوي التركيز من هيدرواكسيد الباريوم (نحو ٢٠٪) يشتمل على كمية من الاوربا (نحو ١٠٪) والجليسول (نحو ١٥٪) فن الناحية الكيماوية ترتكز الطريقة على التعويض في الحجارة المعطوبة عن ايونات الكلسيوم بايونات الباريوم. وبعد المعالجة تبين ان الحجارة تبدي صلابة واضحة ومقاومة افضل لعوامل العطب، اذ يلتصق بالحجارة فحمات الباريوم الجديد التكوين دون ان يكون كساء سطوحيا، له خواص مغايرة لخواص الباطن، ويرجى من هذه الطريقة الانتفتت السطوح المعالجة وأن تعمل على حماية الطبقات التحتية من تعديلات التغيرات الطقسية.

استخدم هذا العلاج في شهريوليو (تموز) ١٩٧٣ لتقوية التمثال الكلسي لابي الهول في الجيزة الآخذة في التآكل. وتبدو النتيجة حتى الآن مرضية، ولكن علينا ان نراقب هذه الرقبة طيلة عشر سنين على الاقل، قبل ان نقرر نهائيا ان هذه التقنية قيئة بحماية الاحجار والصخور الكلسية والمحافظة عليها.

### التدابير العلاجية للوقاية

فهما كانت الثقة التي نولها لتقنية لوين فان مشكل الحفاظ على المعالم الحجرية بالمعالجة الكيماوية لم يحل بعد، على ان هناك بعض التدابير الميكانيكية يوصي بها لحماية هذه المعالم من عوامل التخريب، ومن هذه التدابير:

— لا ينبغي استخدام اي مادة وقائية من شأنها ان تسد مسام الحجارة لمعالجة سطوح المعالم الاثرية الموجودة في الهواء الطلق والمعرضة مباشرة لأشعة الشمس فقد تتقشر الطبقة الخارجية من السطح بسبب ذلك.

— ينبغي القيام بانتظام بعملية ازالة الملح من التربة التي بنيت عليها المعالم الاثرية ويجب ان يجلي الماء المستعمل لهذه الغاية بواسطة مصارف لائقة.

— يجب ان تعزل المعالم الحجرية بقدر الامكان عن الأراضي المالحة لايقاف تنقل الاملاح القابلة للتحلل من الأرض الى الحجر. ويمكن الحصول على هذا العزل بازلاق ورقة من الرصاص او باقراغ طبقة سميكة من القار تحت التمثال او الجدار أو العمود التي تقصد حمايتها.

— اذا اشتمل المبنى الاثري على املاح قابلة للتحلل، وقد تتسبب في العفن او تكون فطريات يجدر ان تزال هذه الاملاح بالغسل بالماء وان تظلى الاجزاء المصابة بصلصال رملي حتى تتخلص الحجارة منها تماما وتكاد.

— اذا ما كان حجم المعلم متوسطا يكون من الممكن نقله الى متحف او الى ملجأ لوقاية جوانبه من تأثيرات العمل المناخي المضرة. وحل اخر يتمثل في حفظه في محله الاصلي بتغطيته ببناء اخر.

— واذا ما اتلف السقف، فيجب اعادة بنائه لحماية الرسوم الجدارية والتصاوير الناتئة، وبذلك يحد شيئا ما من الاضرار الناشئة عن التغيرات الكبيرة للحرارة والرطوبة.

## توصيات فيما يخص التجديدات

ان معاملة الأحداث العارضة والمعلم الاثرية بكيفية غير مناسبة، قد يتبعها عدد من الاضرار، بل حتى الخراب الكلي لبعض هذه الآثار، ولعله ينبغي التذكير ببعض القواعد المهمة الموصى بها اثناء المؤتمرات الدولية.

(أ) ينبغي باي حال الا تغسل القشرة التي تغطي المعالم القديمة، وان لا تزال بقصد الكشف عن لون الحجر الاصلي، ويقتصر في تنظيف الواجهات على ازالة الغبار بحيث تبقى القشرة كاملة، وهذا هو الطابع الاهم للمعلم.

(ب) عند تجديد المعالم القديمة ينبغي الا يعاد البناء الا بالنسبة الى الاجزاء المتداعية الآيلة للسقوط، ويعاد البناء في مكانه الاصلي. وينبغي ان نتجنب التعويضات والاضافات الا ما دعت اليه الحاجة لتدعيم الاجزاء المنهارة او لوقاية الواجهات القديمة من تغيرات الطقس.

(ج) في جميع حالات اعادة البناء، يجب ان يوضع الملاط بين الاحجار حتى يتوزع وزنها توزيعا متساويا والا يتسبب عنها تبديل في الشكل ولا شقوق.

(د) يجب أن يكون الملاط المستعمل، بصفة عامة، في تجديد الجدران مطابقا للملاط الاصلي، الا فيما اذا كان هذا الاخير من الجبس. ولا يوصي باستعمال الاسمنت في المنشآت المبنية بالصخور الرسوبية، كالكلس أو الصوان.

(هـ) ان أحسن ملاط بالنسبة لجميع أعمال اعادة البناء، هو ملاط الجير بلا ملح، فهو مرن، مسامي وبذلك لا يمنع تنقلا صغيرا للحجارة بموجب تغيرات الحرارة، ولا يخشى معه حدوث توترات أو شقوق.

(و) وأما الطرق التي تمكن من تمييز واجهات الاحجار المضافة فدونك ما يستحق الذكر منها:

— يمكن الزينة الجديدة ان تختلف قليلا عن مستوى العمل الاصلي.

— ليس محظورا ان تستعمل مواد مختلفة، لكنه يجب التقيد بابعاد القطع الاصلية.

— يمكن ان تستعمل ايضا عين المادة ولكن في هذه الصورة يمكن ان يختلف الشكل والابعاد بالنسبة الى العناصر الاصلية.

— ان صفوف الاحجار وكل المفاصل يمكن صفها على البناء الاصلي ولكن القطع الجديدة يمكن صنعها من مجموعة من الحجارة ذات احجام مختلفة.

— يمكن وضع علامات للتعريف بتاريخ اعادة البناء تنقش على كل الاحجار الجديدة.

— يمكن ان تختلف واجهة الاحجار الجديدة تماما عن واجهة الاحجار القديمة. ويكفي لذلك ان تعالج بالة ذات حد، او ان تنقش في عمقها بمكشط حتى يكون لها بعض الشكل الهندسي ومن الافضل ان يكون من خطوط متوازية ومن قواطع.

## الفصل العاشر

### القسم الأول

# اللغات والتاريخ الافريقي

باتية ديانى

آدا كوي دمنكا! ووني (فلفلدية)  
لمي أي دكال دمب (وولوف)  
ان الكلمة هي التي تشكل الماضي.

ان الزنجبي الافريقي يربط التاريخ باللسان، وتلك نظرة مشتركة بين البنتو واليوروبا الماندانك. ولكن ليس هذا هو الطريف فالعربي واليوناني قبل توسيديد يتفقان على القول، مع الفلافي، «ان الخبر هو المحل الذي يوجد فيه الماضي» (هنكي كوي دارل اوراتي) وما يميز الرابطة بين التاريخ واللسان، في التراث الزنجبي الافريقي يرجع الى ما احتفظ به عموما هذا التراث، من تصور لهاتين الظاهرتين.

فهو يطابق بسهولة بين اللغة والتفكير، والتاريخ لديه ليس علما بل هو المعرفة وفن الحياة. ان التاريخ يهدف الى معرفة الماضي، واللسانيات هي علم اللسان والكلام. والخبر والعمل التاريخي من محتويات التفكير ومن أشكاله. وأما اللغة فهي محل التفكير وهي الحاملة له. ولللسانيات وللتاريخ بالطبع مجال خاص بكل منهما، ولكل موضوعه الخاص وطرقه. ولا يمنع ذلك من تداخلهما على الأقل باعتبارين اثنين:

أولا: ان اللغة كنظام وكآلة للابلاغ هي ظاهرة تاريخية، ولها تاريخها الذاتي. ثم هي كحامل للفكرة وبالتالي كحامل للماضي ولعرفته، هي المحل والمصدر المفضل للوثيقة التاريخية، وبالمعنى الواسع الذي نعطيه هنا لللسانيات فانها تشمل حقلا لبحوث تمد التاريخ على الأقل بانموذجين من المعطيات، خبر لساني محض من جهة، ووثيقة يمكن أن تسمى فوق اللسانية من جهة أخرى. وهي

تمكن بفضل معطيات التفكير وعناصر التصور المستعملة في اللغة وفي النصوص الشفاهية والكتابية، من مطالعة تاريخ البشر وحضارتهم.  
واذا وضعت المشكلة هكذا، يبدو لنا، بكيفية أحسن، ما بين المؤرخ والعالم باللسانيات العاملين في إفريقيا من مجال مشترك.

## العلوم اللسانية والتاريخ

من شأن جميع العلوم التي يكون اللسان والتفكير موضوعا لها ان تساهم في البحث التاريخي، على أن عددا منها أكثر ارتباطا مباشرة بالتاريخ. وهذا من التقاليد المستقرة، ولو أنها عند التأمل تبدو محل نقاش. فموجب التعود ترجع دراسة القرابة بين اللغات دفعة واحدة الى نقطة التقاء بين اللسانيات والتاريخ، وذلك بكيفية أسهل من ارجاع تحليل تطور المادة المستمدة من النصوص المكتوبة أو الشفاهية، ومن مفردات لهجة من اللهجات. هذا على أن كلا البحثين يتعلق بالأحداث اللسانية أو الفكرية وبالتالي بالتاريخ.

وأوحى تدوين التاريخ الاوربي هنا بالفصل بين العلم التاريخي الحق وبين التاريخ الأدبي أو تاريخ الأفكار. ولا يبرر هذا التمييز إلا في بعض السياقات.

ان البكنغو من حضارة البنتو، والايو من البنين والسوسو ذوو الثقافة السودانية، لم يبقوا لنا الا القليل أو لا شيء، من النصوص التي تتوفر فيها الشروط النظامية لعلم تاريخي عصري. وبالعكس انهم انتجوا كمصادر للخبر أدبا شفاهيا غزيرا تميز أغراضه تميزا كبيرا أو صغيرا، وفتحوا كذلك آثارا قد نهم اليوم بادراجها مع القصص والروايات والأخبار واليوميات الخاصة باللاحم التاريخية، والخرافات والأساطير والأعمال الفلسفية أو التابعة لنشأة الكون، والتأملات التقنية والدينية أو المقدسة، فيخلطون فيها بين الواقع الذي عاشوه وبين الخيال، بين الحدث الذي يمكن تعيين تاريخه وبين الأسطورة الخيالية المحضة. وتمر إعادة البناء لتاريخ البكنغو والايو أو السوسو بالتحليل النقدي لهذه الآداب وهذا المأثور المنقول. ولا يمكن أن نغفل عن خطبهم وتقنياتهم ومعارفهم، وعن حل ألغاز لغاتهم وعن تصوراتهم وما استعملوا من تعبير مما هو باق يكشف عن تاريخ كل منهم. والعلوم والطرق التي نرجع اليها هنا على أنه من شأنها أن تنير الطريق للمؤرخ الإفريقي، ليست إذن نتيجة استقراء مستوف. وهذا ليس عيبا في مستوى الموضوع. وإذا ما حدد الاختصاصي في اللغة لنفسه حدودا معقولة، فهو يوفر لنفسه وسائل أحسن للتعلم في قطاعات مدققة. ويبقى هكذا لغيره من الباحثين، كمؤرخي الأفكار وخصائيي العلوم والاقتصاد أو الآداب، مهمة الامام بهذه القطاعات مع اعتبار ما لبحوثهم من بعد لساني.

## العلم التصنيفي وتاريخ الشعوب الافريقية

ان تصنيف اللغات فيه ما يكشف عن القرابة بين الشعوب التي تتكلم بها وعن تاريخها، وهناك عدة نماذج من التصنيف:

### التصنيف التوليدي

وهو يثبت القرابة رابطة التسلسل داخل أسرة لسانية من الاسرات، وهو يساعد ولوجزئيا، على اعادة الوحدة التاريخية للشعوب والثقافات التي تستعمل لغات من أصل واحد.

### التصنيف النموذجي

وهو يجمع بين لغات بينها تشابهات او توافقات واضحة في مستوى البنيات والنظم. فلغات من أصل واحد أو من أصول مختلفة تماما، قد تستعمل عين الأنماط من التكوين المعجمي، الاسمي والفعل والضمير، مع كونها من ناحية التوليد والتاريخ أو الجغرافيا بعيدة جدا الواحدة عن الأخرى.

فيوجد مثلا في الولوجولوف والانكليزية ميل الى استعمال عين الصيغة الاسمية والفعلية.

لجاي بي = العمل	لجاي = عمل
The work = العمل	To work = عمل

ومع ذلك فان هاتين اللغتين من ناحية التوليد، ومن ناحية الجغرافيا بعيدتان جدا رغم ما ذكر من التوافقات النموذجية. ويتفق أحيانا أن تكون اللغات من أسرة واحدة ومن نماذج متباينة. وتقام القرابة بينهما على أساس الألفاظ المعجمية المشتركة، ولأن هذه اللغات قد تطورت حسب اسس بنيوية متفرقة، وقد يظهر أحيانا حدث الألفاظ المستعارة (من الخارج) أو التخليات عن الألفاظ المستعملة حتى في المستوى المعجمي. وما أعد من تصنيفات تابعة للغات الافريقية لم يجمع مثلا بعض العناصر من الاسرة المعروفة بالتشادية أو الاسرة المسماة السنغالية الغينية. على أن النظم الصوتية والظواهرية والبنية النحوية تفرض على النظر أن يتم التجميع النموذجي لأكبر عدد منها على الأقل.

### التصنيف الجغرافي

يعبر هذا التصنيف عن ميل طبيعي الى المقارنة بين لغات توجد مع بعضها، وضمها الواحدة الى الأخرى، ويتم هذا غالبا نتيجة لخبر غير كاف.

وما اقترح من تصانيف كي تطبق في افريقيا هي في غالب الأحيان من النوع الجغرافي في القطاعات الأساسية. فهي تغفل من جراء ذلك ظاهرة الهجرة وتشابك الشعوب، ويحيل كمواضع دولافوض ود. وسترومان وج. غرينبرغ أساسا الى مسميات وتجمعات اتوبولوجية وجغرافية. فرتبوا اللغات الى «الغربية الأطلسية» و«النيجرية، الكونغولية»، و«السنغالية الغينية» و«النيجرية التشادية» الخ.

ويتضمن التصنيف الدقيق للغات الافريقية استعمال طرق تبين أن ما عرض من الأشكال والمفردات والبنيات اللسانية كمناصر للمقارنة ليست تمثيلية فقط بل هي كذلك خاصة بالتراث الاصلي للغات المقارن بينها. ولا يكون الشبه اذن نتيجة للاستعارة أو للاتصالات القديمة أو الحديثة.



فن المعلوم أن العربية واللغات السامية، كما أن الفرنسية والبرتغالية والافريقندرية أو الانكليزية، قد أودعت بفعل التاريخ منذ عدة قرون أو حتى بضع الآلاف من السنين عددا كبيرا من المفردات في كثرة من اللغات الافريقية، فبعض اللهجات الكسواحلية، وهي من لغة البنتو، تشتمل على أكثر من ٦٠٪ من المفردات العربية. وما هي الا خطوة كي يتم الاستنتاج، بموجب العاطفة الدينية أو بنتيجة لعدم التحلي بالتحفظ العلمي، بأن الكسواحلية تنتمي الى المجموعة السامية العربية، وقد اجتاز بعضهم أحيانا هذه الخطوة.

وقد تكون الصيغ المشتركة في البداية بين عدة لغات قد تعرضت على مر الزمن الى تغيرات صوتية أو صرفية أو بنيوية. وهذا التطور خاضع لبعض القوانين، وهي ظاهرة معروفة يمكن تحليلها. فقد تتغير معاني الصيغ أو مدلولات المفردات المتخذة للمقارنة في حدود حقل دلالي يحاط به بسهولة أو بصعوبة. مثاله: ان البوولوف في شكله المصري يعرف حذف المصوتة الحتامية اذ كانت بعد حرف مضعف مثل «بوب» أو «فط» عوض «بوتا» و «فطا» كما ينطق بها حتى الآن أهل كامبيا والليبو. وصيغة (ندس) في المصرية القديمة صارت في الفلفدية المصرية (ندو) وبالوولوف، (نيت) و يقول البونتو «موتومتو» والموسا «موتو» والمندنج «ميكسي» أو «موكسو» وعند الفون «كبيتو» والينا «أكبيتو» الخ واللفظ المصري «كيميت» كان يعني محروق، أسود، ويؤدي اليوم معنى الرماد والحروق الخ.

### اعادة البناء التاريخي للغة من اللغات

وهي تقنية لاعادة الإكتشاف المعجمي والتراث البنيوي المشترك، آخذة بعين الاعتبار أحداث التغيير هذه.

وهذه العملية تمكن من اعادة تاريخ لغة أو أسرة لسانية، وتساعد على اثبات اللغة الأم الأولى، وعلى تعيين الفترات الفاصلة بين مختلف الفروع، وهذا المعنى هي مساعد ممتاز للعلم التصنيفي بالذات. وتوجد عدة معايير وعدة تقنيات لاعادة بناء لغة من اللغات وأستنباط معطياتها الاصلية من جديد.

وتلعب الأواصر الصوتية دورا أساسيا في اعادة بناء اللغة الأم، أو لاثبات قرابة من القرابات، فإذا ما علم مثلا أن الياء قد تصير في رواية ثانية ف أو أن أو قد يصير أ وهكذا اذا اعتبرنا أن فا تساوي با وأن لو تساوي ل أمكننا أن نعيد الصوتية والصيغ الاصلية.

### اعادة البناء الصوتي

هي خطوة في اعادة بناء الرصيد المعجمي والمفردات الاصلية. وليست النبرات هي وحدها التي تتغير، فالصرف والبنيات تتطور أيضا، فوظيفة الفاعل في اللاتينية يدل عليه باعراب خاص يسمى رفعا، وفي اللغات ذات الاصل اللاتيني أو المتأثرة باللاتينية الفاعلية تعرف بمحل الفاعل في الجملة

هوموفيديت = فيديت هومو = رأى الرجل

وعند وضع أصول اللغات مثل البانتو والتشادي ونحوهما تقع الاحالة دائما الى المفردات والرصيد المعجمي المشترك، وهكذا يمكن أن تقام «نسب مئوية» للكلمات المشتركة بانشاء

لوحات من «العد المعجمي». ويلجأ تصنيف ج. غرينبرغ (١) الى هذه التقنية في غالب الأحيان. كما يستعمل هذه الطريقة د. ساير في دراسته لمجموع غربي المحيط الاطلسي (٢) و يقرر هكذا أن السيرير والبوكار المحشودين في جمع واحد يشتركون في ٣٧٪ من الكلمات. والباكاكوبا والتني في ٧٩٪ والتني والسيرير في ٥٪ فحسب، والتشري والسافين في ٥٪. والحالة أن هذه اللهجات تجتمع كلها في أسرة واحدة ولكن لا يكتفي الاشتراك في المفردات المعجمية، التي قد تكون بكثرة من الدخيل، لنفي العلاقة التاريخية أو لإثباتها. فيلجأ الى الشبه في السمات النموذجية أو الى تطابق البنيات (المقارنة بين نظام الضمائر والنظام الفعلي أو الاسمي الخ).

ويمكن العنصر النموذجي مضافا الى معطيات التحليل المعجمي أو المعطيات الصوتية، من الحصول على نتائج قطعية بقدرما يعتبر التاريخ والتأثيرات. وترمي إعادة البناء أيضا الى تعيين التاريخ الذي فيه توزع هذا الميراث المشترك ضمن اللغة الاصلية، ثم استخدم من قبل لغات متقاربة أخذه في طريق التميز. وإعادة البناء تهتم كذلك بتسخير طبيعة اللغة القديمة التي منها نشأت مختلف اللغات التي يمكن ربطها بأصل لغوي واحد.

### إعادة البناء وتعيين التاريخ

يمكننا من ضبط عمر المواد المعجمية والبنوية المجموعة أثناء دراسة اللغات، حتى يتيسر بالمقارنة تدقيق المستوى الذي تقع فيه القرابة اللسانية تدقيقا كبيرا أو صغيرا. وعليه فهنا يداننا بإشارات مدققة عن تاريخ تفرقة الشعوب الذين انتموا الى عالم ثقافي ولساني واحد. وهما يلقيان ضوءاً مدهشا على تاريخ العروق وتواريخ الحضارات المتعددة القوميات والمتعددة العروق.

وفي إطار البحث المتعلق بفترة حديثة، وفيما يخص اللغات المكتوبة، فإن المجهود أيسر نسبيا. وقلة الوثائق عما وراء الالف الرابعة قبل الميلاد تجعل العمل أصعب بصفة عامة. على أن المقصود في هذه المرحلة أن يوضح تاريخ فترات حاسمة من التحول اللساني. وعمليات تحول المعجم أو البنيات التي نعتبرها في هذا المستوى هي كما سنرى، بطيئة جدا ولكن يصعب وضع الاصبغ عليها، ولمعالجة هذا النقص في الخبر يلجأ الى أساليب لها نجاعة تكثر أو تقل.

### التاريخ المبني على تطور المفردات والصيغ

وهو من احداث التقنيات في هذا الموضوع، ولقد جرى العمل به في الحقل الافريقي. ويرتكز مبدأ هذه الطريقة على تأريخ التطور المعجمي في لغة ما، بالرجوع الى حركة تغيير معجمها، المعجم الثقافي (المفاهيم الفلسفية والتقنية الخ) والمعجم الأساسي (أسماء أعضاء الجسم، العد من واحد الى خمسة، مفردات تدل على أحداث طبيعية الخ) وتهدف هذه التقنية الى الأخبار عن عمر المفردات والاشكال المعجمية ومرآحلتها وحالة تطورها.

(١) ج. غرينبرغ، ١٩٦٣.

(٢) د. ساير، ١٩٧٣.

وتطور المعجم الأساسي نسبيا بطي في المجتمعات القديمة، فيما عدا حالات التحول العنيفة التابعة لأحداث حاسمة.

ففي إفريقيا السوداء على الخصوص مكنت أعمال دولافوس من تصور حركة هذا التطور بالرجوع الى احصاء الكلمات التي أثبتتها الكتابة منذ القرن الحادي عشر الميلادي. وهذا هو معجم اللغات السودانية الذي جمعه النصوص العربية. وقد بقيت هذه الألفاظ تقريرا بدون تغير بعد ما يقرب من ألف سنة من التاريخ. على أن أنصار هذه الطريقة يتجاوزون هذا الحد قائلين: ان تطور المعجم الأساسي ليس بطيئا فقط، بل انه قار في كل اللغات. وهذا رأى م. سوادش الذي حاول أن يطبق هذه النظرية على اللغات الأفريقية. وتبدو المحاولات المجربة في بعض الحالات الدقيقة قطعية حاسمة. ويقدر التاريخ المبني على تطور المفردات أن حركة تحول بين  $2 \pm 81$  و  $8 \pm 100$  % لمدة قدرها ١٠٠٠ سنة. وأمدتنا هذه الطريقة، على هذا الأساس، بنتائج ملخصة في المعادلة الشهيرة:

$$D = \frac{\text{لوغ } M}{\text{لوغ } H}$$

حيث D يمثل المدة، وM النسبة المئوية للألفاظ المشتركة بين اللغات المقارنة وH نسبة الاحتفاظ.

فهل في الامكان ما أحرزناه من نتائج، أن نعتبر هذه التقنية قياسا زمنيا لاثقا، أي ضربا من «الساعات» التاريخية؟ لقد كانت النتائج أقل من المأمول، وذلك لسبب بسيط: ففي سياق من التداخل اللساني ومن تراكم المعاجم، مما لا نعلم الا القليل عن غايته، حيث تعوزنا الوثائق المدققة المكتوبة أو غيرها، ليس من اليسير في الحالة الراهنة للبحوث أن تصنف الأحداث، وان يميز مثلا بين التغير العادي والتحول الناتج عن الدخيل، هذا حتى في المعجم الاساسي. على امكانية علم تصنيفي يستخدم كل هذه التقنيات، وقد يدنا بفتح العلاقة العرقية واللسانية.

## تصنيفات لسانية وقرابات عرقية ثقافية

بالرغم عن الأعمال الجليلة التي أجريت، فان مشكل القرابة اللسانية والعرقية مازال بعيدا عن الحل في إفريقيا، وفي الكثير من القطاعات تتغلب الحُدس بهذه الرابطة، على الحجة العلمية الثابتة. ان فكرة المجموعة البنوية والاعتقاد بأنها تجمع معظم السكان في إفريقيا الوسطى والجنوبية، قد نشأ في القرن التاسع عشر مع اعمال و. بليك. فكان هذا يثبت في مؤلف شهر نشره سنة ١٨٦٢، القرابة بين اللغات ومختلف صورها اللهجية في منطقة فسيحة جدا تسكنها عروق عدة تستخدم لغات تقتضي الفهم فيما بينها فهما قليلا أو كثيرا، قرابة اللغة والثقافة قد تكون واضحة من أول وهلة بالنسبة الى عروق تعيش جنبا لجنب وهذه حال الشعوب المعروفة بالبنوية. وتقوم أحيانا مشاكل من جراء المسافة في المكان أو في الزمان والفلاينيون يقدمون مثلا يوضح

هذا. فهم يشكلون، من حوض السنغال الى حوض النيل، مجموعات كثيرا ما تكون منعزلة في قلب عروق متجاورة أحيانا ولكنها مختلفة عن بعضها كثيرا. ويتكلم دوالا الكامرون لغة البانتو، ويمكن عمليا أن يعتبر الدوالا كنسخة مغايرة من البانتو وهي لهجة مثل اللنكالا، وكما هو الشأن بالنسبة للغتين مبانداكا وكينشاسا. وهذا رغم الابتعاد والانعزال النسبي للمجموعتين اللتين تتكلمان هاتين اللغتين. وتقدم اللغة المصرية الفرعونية التي كان يتكلم بها قبل خمسة آلاف سنة، تشابها واضحا مع الهوسا والولوف والسنغالي (٣).

وهنا أوضاع التراكب. فازالت كبار اللغات الموحدة تستعمل لأسباب مختلفة (سياسية واقتصادية وثقافية الخ) كحوامل لإدماج العروق المتباينة. وتلغي من جراء الضغط الاجتماعي والوزن التاريخي لهجات وثقافات لم يبق منها غالبا الا بعض البقايا. فملايين من الأشخاص من أصول مختلفة أو قل عشرات الملايين تتكلم اللينكالا والهوسا والكيسواحلي واليوروبا والتوى والايو والبيراجولا والفلفلدي والعربية والولوف. وكحوامل للابلاغ تجاوزت هذه اللغات اطارها العرقي والجغرافي الاصلي، فصارت لغات حضارة مشتركة بين شعوب كانت في البداية متباينة جدا.

ففي السنغال تكون الفلانية والسيرير معظم الاغلبية من الأشخاص الذين عمتهم الولوفية، وفي الأصل لغة الولوف هي لغة عرق ليو الذي يوجد منه بقايا على الحدود السنغالية الموريتانية. والآن ليس الليبوالا أقلية ضعيفة محصورة في شبه جزيرة الرأس الأخضر. ومع هذا فان ثقافة الولوف ولغتهم تطمس تحت أعيننا، بفضل تكاثر المدن بالسنغال، لغات ولهجات عديدة: سيرير وليو وفلفلدي ودبولاً ونوون الخ. وهذه اللهجات لشعوب مختلفة، ومع ذلك لعبت في فترة تزيد عن عدة قرون، دورا مهما في تاريخ المنطقة.

وهذا التطور عام في الكيسواحلي يتكلمه عدة عشرات من الملايين من ذوي اللسان البنتو، وقد نشأ عن لهجة من الزنجارية كانت مستعملة في البداية في بعض القرى. ثم انتشر بسهولة بمناطق تستعمل لغة متجانسة نسبيا، من أصل البانتو اليوم، مع اللنكالا، أهم أداة مخاطب في افريقيا الوسطى والجنوبية. في البلدان الآتية: الزاير والجمهورية الشعبية الكونغولية والامبراطورية الافريقية الوسطى \* و (أوغندا وطانزانيا والكينيا وزامبيا والملاوي وافريقيا الجنوبية، والسودان، وأثيوبيا الخ). خسون أوستون مليوناً من البشر يتكلمون لغة من هاتين اللغتين أو لهجة قريبة منها.

وكثيرا ما كان التفكير الافريقي التقليدي واعيا، لا بهذا التراكب فحسب، بل أيضا بما قد يكون للظاهرة اللسانية من دور في توضيح التاريخ. ونجد في التقاليد عددا من النوادر تتحدث عن القرابة بين اللغات أو عن أصل تفرقها الاسطوري

(٣) عن هذه المسألة من المفيد الرجوع الى أعمال الانسة هيركر، والى فصول الاستاذ غرينبرغ واوبنكا والى تلخيص ملتي القاهرة. (الجزء الثاني)

\* سابقا: اما الآن فهي جمهورية افريقيا الوسطى (تعلق مراجع الترجمة العربية. محمد الفاسي)

من قريب أو من بعيد، وهي في الغالب ملاحظات صحيحة، وهذا الشأن بالنسبة لما قام به الفلانيون والسيرير من مقارنات مؤكدين بصفة تكاد تكون تنبعت من إحساس باطني، ما بينهم من قرابة عرقية ولسانية، والمندانك البنتو والاكاب والفلانيين وهم يتقدمون كأشخاص لهم عين اللغة يشعرون أحيانا، بصفتهم جماعة أو بطنا، انهم يكونون أسرة عظيمة مشتركة.

وفي أكثر الأحيان، فإن القرابة الثابتة لم تنشأ الا بموجب الحاجة الى الاندماج أو الى التعايش مع تاريخ مجموعة «(من المفروض)» أنها ستظهر بكيفية أو أخرى في عالم عرقية معينة. وكبي تكون الاسطورة التقليدية منسقة، يصبح من اللازم أن توجد روابط حقيقية أو اسطورية بين المجموعات التي تعم اليوم موطننا مشتركا.

على أن المعرفة التقليدية للمجتمعات الافريقية في مادة اللسانيات لا تمدنا باشارات مدققة من شأنها أن توحى بوجود علم قديم أو تأمل نظامي حول هذه القرابات. ونحلافا لما يلاحظ في مواطن أخرى، كما في علم الاشتقاق مثلا، وتحليل اللغة نفسه، أو كذلك كما هو الشأن في الظواهر المعجمية. فإن المتضلع في الكلمة والفصاحة من البيل الفلانيين أو البانتو والولوف كثيرا ما يعني عن قصد بأصل الكلمات. وكثيرا ما يكون عالما به. فيلذ المؤرخ الكبير مثلا أن يسجل الكلمات المستعارة أو أن يحلل لفظا للكشف عن أصله. فيقول التقليدي بالكبير أن برجل مشتق من باروجل. وهو يشرح في آن واحد ما طرأ على مركبات اللفظ من تقلص في الشكل والسياق ومعاني هذا اللفظ. ويوجد في مقال أ. طل (٤) بعض الأمثلة من عمل علماء الاشتقاق التقليديين بالموسي ولدي الكرمنتشي. وقد ظهر العلم التصنيفي في مادة اللسانيات بصورة خاصة مع دراسات س. كول وو. بليك والبحث العلمي الأوربي وهو الذي استنبط هذا العلم في القرن التاسع عشر مع اعمال علماء مقارنة الهندية الاوربية، وأصبح الباحثون في مادة اللسانيات الافريقية من تلامذته.

وكان و. هـ. بليك (٥) من أوائل المجتهدين في اثبات ما بين لغات البانتو من قرابة. وله فضل سبق في هذا المجال على مؤلفين من أمثال ماينوف أو هـ. جونستون. على أن مساهمة دولافوس (٦) فيما يخص لغات افريقيا الغربية مساهمة مشهورة. وكذلك الشأن بالنسبة لمساهمة س. ل. لبيسوس (٧) و. ا. ن. تكرر (٨) وج. و. مري (٩) فيما يخص اللغة النيلية وباسي فيما يخص البربرية. وكانت دراسة اللغات المصرية القديمة الاساسية للبحث في اللغة الزنجية الافريقية، وكذلك دراسة اللغات السامية والهندية الاوربية في افريقيا الشمالية، بل حتى اللغات البونيقية واليونانية اللاتينية. قد أتت كلها بنتائج وافرة.

(٤) انظر «التراث الشفاهي» المركز الجهوي لتوثيق التقاليد الشفاهية، نيامي، ١٩٧٢.

(٥) و. هـ. ج. بليك، ١٩٦٢ - ١٩٦٩.

(٦) م. دولافوس: عن أ. ميلي وكوهان - ل. همبركر، اللغات الزنجية الافريقية الخ. ولندكر أيضا من بين من اقترحوا تصنيفات: ا. و. و. ١٩٢٥.

(٧) ش. ل. لبيسوس، ١٨٨٨.

(٨) ا. ن. تكرر، ١٩٤٠.

(٩) ج. و. مري، جلد ٤٤.

وكما يشير الى ذلك ج. هـ. غرينبرغ (١٠) مؤلف كتاب تصنيف اللغات الافريقية، وهو أحدث التصنيفات وأكثرها عرضة للنقاش الآن، ان الاعمال العصرية التي تهم مجموع القارة والتي لفتت الانتباه أكثر من غيرها، هي أعمال دركسل (١١) وماينوف (١٢). ولم تكن هذه الأعمال هي الاولى ولا الوحيدة. ومنذ عام ١٩٥٦ \* عرض كوال (١٣) وكذلك ميچود (١٤) سنة ١٩١٤ \* طرقا وأنماطا للتصنيفات. ويمدنا بومان ووسترمان (١٥) سنة ١٩٤٠ بنظام طريف في عين الموضوع.

على أن هذه الأعمال بقيت محل نقاش ونوقشت فعلا من عدة وجوه، اولاً لأن اللسانيات الافريقية لم تنج من المذهبية العرقية المركزية، وفي هذا المستوى فان الانتقادات الحديثة ج. هـ. غرينبرغ نفسه، تتفق تماماً مع النقد الذي صرح به منذ عشرين سنة الشيخ أتناديوب في «القوميات الزنجية والثقافات» والذي رده ت. أوبنكا مجدداً المعطيات في كلمته في مهرجان لاجوس ١٩٧٧.

والوجه الثاني علمي محض، يتفق عليه علماء اللسانيات في شبه اجماع، يتلخص في أن مساعي التصنيف سابقة لأوانها، وأن التحفظات والاحترازمات المنهجية اللازمة لم يتم اتخاذها، ولم تجمع بعد المادة المحللة حق تحليلها والمهياة للمقارنة التوليدية أو حتى التوذجية.

### عدم كفاية الأعمال

ان تعدد اللغات الافريقية وحده تعترضه عقبات، ولم ينته احصاؤها الى نتائج مدققة جداً، على أن عدد اللهجات المصنفة كلفات في القارة يقدر تقريبا بين ١٣٠٠ و ١٥٠٠.

وتتلخص أحيانا الدراسات الخاصة بهذه اللهجات في جمع نحو العشرين كلمة مكتوبة بقليل أو كثير من التحريف وانعدام تحليل معمق للبنية والمعجم وإمكانية التفاهم بين مختلف هذه اللهجات، أمر عادي بالنسبة الى الاغلبية الساحقة من اللهجات الافريقية. وبذلك سرعان ما تسقط التصنيفات التي تجري محاولات القيام بها دوريا. وكم من لهجة صنف تحت عنوان «لغة» ولم تكن الا نسخة مختلفة من عين اللهجة.

وبناء على بعض شهادات مبهمة تستند اليها استنتاجات مصنفين أو مخبرين قليلي التجربة والعلم، صنف بسرعة روايات مختلفة ليس فحسب، كلغات متباينة ولكن كعناصر لاسر مختلفة. كما لو زعم أن البامبرا لغة تخالف المنديكوني كازامنس، أو أن البيروبا في البنين يخالف البيروبا

(١٠) ج. هـ. غرينبرغ، انظر ١٩٥٧ خصوصا التحليل النقدي المنشور في «النيلية الحامية والسامية الحامية في افريقيا»، ١٩٥٨. وكذلك لغات افريقيا، لاهاي ١٩٦٣.

(١١) انظر ج. هـ. غرينبرغ.

(١٢) س. ماينوف، ١٩٠٤، ١٩٠٦، ١٩١٢، ١٩٣٢.

(١٣) س. و. كوال، ١٨٥٤.

(١٤) ف. و. ميچود، ١٩١١.

(١٥) هـ. بومان، ود. وسترمان، ١٩٦٢.

\* في النسخة المطبوعة ١٨٥٤ (تعليق مراجع الترجمة العربية محمد الفاسي).

\*\* في النسخة المطبوعة ١٩١١ (تعليق مراجع الترجمة العربية محمد الفاسي).

في الإيف. والامر مع ذلك يتعلق في الحاليين بروايات مختلفة لأصل واحد. وفي مثل هذا، اشتهر ماينهوف بصدد لغات الكردفان بأخطائه الجسيمة.

نعم انه قد تم أخيرا بعض التقدم، ولكنه لم يتوفر بعد سياق ملائم لعمل تأليني دقيق. وكذلك ليس في الامكان أن تصنف لغات مازالت هويتها غير معروفة بدقة ولم تحلل تحليلا مضبوطا، وتوضح الأمثلة المحسوسة التالية مدى الجدالات ومجموعة الشكوك.

يتعلق المثالان الاولان باللهاجات الكائنة على الحدود الجغرافية الحالية للأسرة الهندية الاوربية السامية من جهة وللأسرة النرجية الافريقية من جهة أخرى، ويتعلق المثال الثالث بمجموعة «الاطلسي الغربي» أو كذلك «السنغالي الغيني».

فن أعمال ماينهوف ١٩١٢ (١٦) وم. دولافوس ١٩٢٤ (١٧) وش. ميك ١٩٣١ (١٨) وج. لوكا ١٩٣٦ (١٩) وم. كوهان ١٩٤٧ (٢٠) الى أعمال غرينبرغ المؤرخة بسنة ١٩٤٨ أو أ. تكرر وأ. بريان سنة ١٩٦٦ (٢١) والى دراسات النقدية الحديثة التي قدمها ث. اوبنغا (٢٢)، لا يوجد اتفاق تام لا في المعطيات ولا في المنهج ولا في مركبات المجموعات أو الانتماء وطبيعة العلاقات بين اللهجات؛ فالجغرافيا على الخصوص والاتصال يجمعان حقا بكيفية لاشك فيها بين اللغات الممتدة من النيل الى حوض التشاد. وإن التعايش طيلة آلاف السنين بين الزنجية الافريقية والسامية ترك فيها رصيذا مشتركا كبيرا من الدخيل من كليهما. وتمنع هذه التبادلات من امكانية التمييز بين المعطيات الاصلية والمكتسبة من الخارج. ومشكل من المشاكل يتمثل في معرفة الى أي حد تكون المفردات الخاصة بالمصرية القديمة وياهوسا والقبطية والبيغريمية والسرا واللغات التشادية والتي توجد في البربرية أو في اللغات السامية كالعربية والامهرية شاهدا على قرابة أو على تأثيرات بسيطة.

إن معطيات المصرية القديمة ترجع الى ٤٠٠٠ سنة، ومعطيات السامية الى ٢٥٠٠ سنة. وأما التشادية والبربرية والكوشيتية التي درست في نفس الاطار لا تمدنا بارشادات دسمة الا انطلاقا من القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد.

ونشر م. كوهان سنة ١٩٤٧ كتابه «محاولة مقارنة حول المعجم الشامي السامي وصوتياته» ويفرب فيه بين المصرية والبربرية والسامية والكوشيتية واليهوسا التي يذكرها من حين لآخر. وانتقد ليسلو (٢٣) وهنتز (٢٤) استنتاجات كوهان حتى في مستوى المنهجية. وبناء على أن مبدأ الحقل «الحامي السامي» نفسه محل جدال أوحى غرينبرغ بعنصر خامس متميز هو،

(١٦) س. ماينهوف، ١٩١٢.

(١٧) م. دولافوس، ١٩٢٤.

(١٨) ش. ميك، ١٩٣١.

(١٩) ج. لوكا، ١٩٣٢.

(٢٠) م. كوهان ١٩٤٧، ج. غرينبرغ «الحامية السامية» س. ج. أ، ٦-٤٧-٣٦-١٩٤٨.

(٢١) أ. تكرر، وأ. بريان، ١٩٦٦.

(٢٢) ث. اوبنغا، ١٩٧٧.

(٢٣) و. ليسلو، ١٩٤٩.

(٢٤) ف. هنتز، ١٩٥١.

التشادي. وسمي المجموع باسم «الحامي» أو «الأفريقي الآسيوي». وأثارت هذه الاستنتاجات الجدل منذ نشرها. فعارض بولوتسكي (٢٥) امكانية وجود الفروع الخمسة في الحالة الراهنة. بدون أن يقنع الى اقتراح يستند بالخصوص على الناحية الجغرافية ورد في «لغات العالم» ويكفي أن نتصفح تصانيف ج. غرينبرغ وتكروبريان المتباينة والمنقحة دائما من قبل أصحابها أنفسهم لكي نقف على مدى الصفة الموفقة لهذه الاستنتاجات.

وثمة أشغال حديثة للواقع التشادي تضع تحسبا حدوده أبعد بكثير من ضفاف البحيرة. وعمق نيومن وما (٢٦) سنة ١٩٦٦ وإلى سفيتيا (٢٧) سنة ١٩٦٧ معرفة التشادية القديمة. ودقت أعمال ي. ب. كابريل (٢٨) محي انتشار هذه اللغة في التشاد نفسه. ويمكن بالاستناد الى ملاحظات نظامية، أن يوحي برابطة توليدية بين مجموعة لغة سرا ومجموعة لغة التشادي، وعدد من اللغات المصنفة ضمن «الاطلسي الغربي» (سيرير وبولار، وولوف، وسافين) (٢٩) الخ. وهذه المساهمات وحدها تعيد النظر في مجموع الجهد الذي بذل قصد الترتيب، كما يلاحظ ذلك س. ت. هودج في مقال نفيس (٣٠).

وإن المشكل الأعظم المتعلق بطبيعة الروابط بين لغات الحد الزنجي الأفريقي والهندي الأوري لم يحل بعد وأهمية الأعمال التي تدمج العالم الثقافي الأفريقي في السامي مازالت محل اشكال. وذلك ان مشكل الهوية نفسه، ومشكل مركبات الزنجي الأفريقي مازالا قائمين، وأكد ذلك الملتقى الذي نظمته اليونسكو في القاهرة سنة ١٩٧٤ حول «عمران مصر القديم». فذكر س. سونرون، بالمناسبة ولتوضيح هذه الشكوك، أن «المصرية مثلا لا يمكن أن تعزل عن سياقها الأفريقي وإن السامية لا تعرف بولادتها».

والكوشيتية تصور مثالا آخر يوضح الشك القائم الآن حول البحث والتصنيفات. فيعرض اليوم ج. ه. غرينبرغ وتكروبريان والسوفياتي دلوكوبلسكي ثلاثة تصنيفات مختلفة، ان لم تكن متباينة لهذا المركب من اللغات المسماة بالكوشيتية (صومالية، كلا، سيدامو، مبوكوالخ) و يتركب تصنيف دلوكوبلسكي حول اعادة بناء صوتي انطلاقا من أمثلة محدودة، فيقارن على الخصوص بين الشفويات (ب. ب. ف) والاسنانيات (ت، د) في اللغات التي يحللها ويصنفها الى نحو العشر من تحت المجموعات، بينما يتعرف زملاؤه على ٣ أو ٥.

وهمل ج. غرينبرغ المعطيات الصوتية والشكلية الصرفية والنحوية ويعتني خاصة بالمقارنة المعجمية، ولكن الدخيل له دور كبير في هذا المستوى. ويعيب تكروبريان على ج. غرينبرغ منهجه، ويضعان تصنيفا يعتمد على مقارنة نظام الضمائر والبنية الفعلية. وهما نفسهما يعتقدان ان

(٢٥) ه. بولوتسكي، ١٩٦٤.

(٢٦) ب. نيومن «التشادي المقارن» مجلة لسانيات افريقيا الغربية ٥، ٢، ١٨، ٢٥.

(٢٧) اللي سفيتيا: «تاريخ الصوامت التشادية» انظر س. هودج، المصدر المذكور.

(٢٨) ي. ب. كابريل، ١٩٧٢.

(٢٩) انظر ب. دياي، ١٩٧٦.

(٣٠) س. ت. هودج، ١٩٦٨.



بعض اللهجات «مبهمة» وبجمعان بينها هنا، مع تأكيدهما على ما يكتسبه مجهودهما من صبغة المحاولة البسيطة. كما أننا نلاحظ أن قيمة الاستنتاجات المقدمة ما هي إلا في طابعها المؤقت. ونجد عين المشاكل فيما يخص اللغات التي حددت جغرافيا بغربي المحيط الأطلسي. فهي تمتد على الساحل من جنوبي موريتانيا إلى السيرااليوني. ويصنفها كوال سنة ١٨٥٤ في كتابه «تعدد اللغات الافريقية» تحت عنوان «الغربي الأطلسي» ويعرفها على أساس ما فيها من تغيرات السوابق أو الإمالة الصوتية في الحرف الأول أو الأخير. وهذا وصف نموذجي للبانو. ولا يكفي لتحديد مجموعة من المجموعات. على أن كوال سيعتبر جملة هذه اللغات على أنها «غير مصنفة».

ويصرح م. دولافوس سنة ١٩٢٤ (٣١) ود. وسترمان سنة ١٩٢٨ أن هذه مجموعة توليدية. وسنة ١٩٦٣ اغرق ج. غرينبرغ (٣٢) في هذا الاتجاه، فهو يعتبر هذه اللغات كمجموعة متطرفة غربي الاسرة النيجرية الكونغولية.

وفي سنة ١٩٦٣ نفسها رغم ما سجله ولسن (٣٣) ود. دلي (٣٤) من عناصر نموذجية للتشابه داخل هذه المجموعة، فهما ينكران كل امكانية لأن يجعل منها جمعا لسانيا متقاربا متجانسا، ففي تفاصيل الصرف والنحو والمعجم، كما يقول ولسن، أن «الأطلسي الغربي» أو المجموعة «السنغالية الغينية» بعيد كل البعد عن الوحدة، وفعلان الأعمال الحديثة التي نشرها د. ساير (٣٥) سنة ١٩٧٤ تدل على أنه لا يوجد أكثر من ٥ إلى ١٠٪ من المعجم المشترك بين الأغلبية الساحقة من هذه اللغات التي يبدو أن الجغرافيا هي الوحيدة التي توحد بينها. فعملية الهجرة قد مزجت هنا كما في المنطقة النيلية التشادية شعبا من أصول مختلفة، وربما أن في التقريب بينها عند انعدام الارشادات المدققة التي تنير التاريخ والمؤرخ تسرعا في الحكم.

وعلى هذا المستوى بالذات تكون الحدود الحالية لللسانيات كآلة للبحث التاريخي متسعة فسيحة. ويتعرض الباحث هنا، العقبة المزدوجة التي ذكرناها آنفا، فلم يصل البحث الى نتيجة، لأنه لا يزال جزئيا وبصدد التكون، ثم أن نتائجه مؤقتة فهي غالبا غير قابلة للاستغلال اذ تفسدها نظرات ومذهبيات محرفة.

### الايدولوجيا المحرفة

ان التاريخ هو موطن الايدولوجيا بالذات. والأعمال الاولى عن ماضي افريقيا واللغات الافريقية وافقت فترة الزحف الاستعماري الاوربي. فتأثرت تأثرا قويا بالنظرات التفوقية السائدة اذاك. والتفكير العرقي الخاص يعبر عن اهتمام قطري بالحكم على قيم الحضارات بمقارنتها مع ذاته،

(٣١) م. دولافوس «الجمع السنغالي الغيني» ضمن «لغات العالم» نشر ميل وكوهان. باريس.

(٣٢) ج. غرينبرغ، ١٩٦٣.

(٣٣) و. ولسن، ١٩٦٦.

(٣٤) د. دلي، ١٩٦٥.

(٣٥) د. ساير، ١٩٧٤.

وذلك ما يؤدي الى الاستحواذ على آيات الحضارة العليا، كي يبرر الانسان نفسه كفكرة وقوة مسيطرتين على العالم.

ونظريات التفوق الهندي - الاوربي والآري أو الابيض باعتبار أهلها ممدنين تشهد على تطرفات مازال حتى اليوم يتردد صداها العميق في عدد من المؤلفات التاريخية واللسانية حول افريقيا (٣٦).

وهكذا طالما وضعت مصر بين قوسين بالنسبة الى سائر القارة، وأحيانا قد ينقص من قدمها لصالح وادي الرافدين أو غيره من المراكز الهندية - الاوربية أو السامية المفروضة بالاعتماد على تخمينات خاطيرة. وقد بحث أحيانا عن ملقنين خياليين لفن البنين، وركبت نظرية «الحامية» تركيبا اصطناعيا لشرح كل ظاهرة ثقافية ايجابية في افريقيا السوداء وتفسيرها بتأثير خارجي (٣٧).

على أن ج. غرينبرغ عند سعيه في وضع منهاجية دقيقة علمية، وقد كانت مساهمته طريفة هامة على الرغم مما احتوت عليه من أمور قابلة للنقاش، فانه أحيانا، كان لسان حال هذا الأثر السلبي من المذهبية العرقية.

و يدلي سليجمان وماينهوف، وكذلك بعدهما مضافون قيمون أمثال دولافوس و بومان وسترومان أو ملر، بحجج ذات ضعف مذهل من الوجهة العلمية، وذلك انهم يستندون الى أحكام مسبقة من نوع الرأي الذي يصرح به ماينهوف بالعبارة التالية: «خلال التاريخ تكرر حدث باستمرار، أعني ان الشعوب الحامية قد اخضعت الشعوب ذات البشرة السوداء وساسوهم كأسايد لهم».

ان مثل هذه الملاحظة تبرر ما يجدر أن يتخذ من الاحتراز عند استعمال ما توفره اليوم الأعمال اللسانية من مادة للمؤرخ أو للأخصائيين في العلوم الانسانية عامة.

يقول ج. غرينبرغ: «ان الاستعمال المبهم للفظ حامي كمنقولة لسانية واستعماله في تصنيف الأعراق لتعيين نموذج يعتبر أساسا شبه قوقازي، قد أدبا الى نظرية عرقية ترى أن معظم الأهالي المتأصلين في افريقيا السوداء هم نتيجة خلط بين الحاميين والسود».

وهكذا فان تسمية «شعوب اللغة النيلية الشاميتية» ترجع الى مؤلف س. ج. سليجمان «اعراق افريقيا». «هذه الشعوب تعتبر عرقيا من أنصاف الحاميين» ويمثل البانتوصفا آخر من السود المنتسبين الى الحامية. ويضيف غرينبرغ شارحا: «وذلك على أساس تخمينات ماينهوف، وهي تخمينات لم يدل قط بأي حجة في شأنها، اذ لا وجود لحجة على أن البانتوكما يقول سليجمان، لغة مختلطة، وعلى أن الانسان البانتو، ان صح القول، تناسل من أب حامي وأم سوداء».

(٣٦) انظر بعده ج. هـ. غرينبرغ في هذه النقطة.

(٣٧) ان العبارات (الحامية) (الحاميتية) (الشاميتية) (الشاميتية) قد استعملت كثيرا في العالم الغربي خلال قرون ضمن المعجم العلمي والمعجم اليومي، وهي تتضمن قراءات محرفة وموجهة مأخوذة عن التوراة. ولقد ظهرت اسطورة لعنة الاعقاب السود من نسل شام نتيجة هذه القراءات. ولئن كان حقا انه في القرن التاسع عشر، وتأثير علماء اللسانيات والانتولوجيين، أخذت هذه العبارة معنى بدأ أقل سلبية، وفي جميع الحالات أصبحت مستقلة عن أي دلالة دينية، فانما مازالت تستخدم كتمييز لبعض السود المعتبرين كفضة أعلى من غيرهم. ولهذا الأسباب فان الجمعية العلمية الدولية، تشجع الدراسات النقدية المتصلة بالاستعمالات التاريخية لهذا المعجم الذي يجب عدم استخدامه الا بحفظ شديد.

ويستنتج ج. غرينبرغ أن هذه الايديولوجيا في الواقع تفقد تماما حتى اليوم وضع علم لساني من شأنه أن يثير العلاقات الحق بين اللغات والحضارات في إفريقيا.

إن الهجرة في الاتجاه شرق - غرب أو شمال - جنوب للشعوب الافريقية، قد شوشت المظهر العرقي والتسبي واللساني في القارة. ويشير الى ذلك أسماء الأشخاص والأماكن والاحداث اللسانية المحضة المتعلقة بالمعجم الأساسي ذاته. ويظهر ذلك في عدة دراسات، وتشهد اللغات في السنغال كالولوف والديولا والفلفلدي والسيرير بأوجه شبه مع لغات البانتو في إفريقيا الجنوبية وفي طانزانيا والكامرون والزاير أعمق منها مع لغات أسرة ماندانك التي اقحمت الجغرافيا داخلها. ومعجم المصرية القديمة وبنيتها ومبادئ كتابتها عنها، كما سنرى فيما بعد، أقرب الى واقع لغات الولوف والهوسا أو التراث الخططي الداهومي، منها الى البنات اللسانية السامية أو الهندية الاوربية التي تضم اليها بدون احتراز.

فقد ربطت المصرية القديمة والهوسا ولغات الرعاة الرواندية والحبشية والفلانية والنوبية بلغات سامية أو هندية أوربية على أسس واضحة الضعف، أو انطلاقا من منهجية واختيار المعايير الأقل اقناعا.

والفلاينيون تهجنوا، تماما كالبالوبا والسوسو والسنغاي إذ أن عددا من الشعوب السوداء في موطنهم القديم أو الحديث كان لهم اتصالات بالسكان البيض، على أن هذه الفرضية للتهجين قد أعيد فيها النظر اليوم بناء على مكتشفات حديثة عن عملية تحول التلون.

ولا تبدي الفلفلدية من حيث صوتياتها ومعجمها وبنيتها شيئا مع أي لغة معروفة أقوى منه مع السيرير. حتى أنال شععين اللذين يتكلمان هاتين اللغتين يوحيان نفسها بقرابتهما لا اللسانية فحسب بل أيضا العرقية، وهذا لم يمنع بجائين أمثال ف. ملر وجفريس وماينوف ودولافوس وسترمان من السعي في اثبات اصل أبيض الفلاينين؛ بتصریحهم أن الفلفلدية هي حامية قديمة (٣٨) بل يصل تايلر الى حد أن كتب: «أن الفلانية بما لها من ثروة في المفردات ومن رنة في الالقاء ومن لطف كبير في العبارات، لا يمكن أن نتمشي الى الاسرة السوداء السودانية». وهذه الملاحظات جميعها تبين الى أي مدى تعمست الفوضى بين مقولات متباينة كاللغة ونوع العيش و«العرق»، بقطع النظر عن مفهوم الجنسية المستعمل، حسب الظروف للحالة الى مفهوم من المفاهيم السابقة أو الى غيره.

وكما لاحظ ج. غرينبرغ أن ما أقر من علاقة بسيطة بين الماشية والغزو واللغة الحامية قد اتضح خطأه على كامل القارة الافريقية، فيقول: «انه لمن السخرية في السودان الغربي أن يشاهد المزارعون ذوو اللغة الحامية تحت سلطة الرعاة الفلاينين الذين يتكلمون لغة سودانية غربية (نيجرية كنغولية)، وقد تكون سخرية أخرى، اذا ما اتبعنا القوالب المثبتة، أن نلاحظ قدم سلطان الماندانك أو الولوف ودوامه في هذه الاسرة اللسانية السودانية، على شعوب تم ضمها بسرعة الى «الحامية» أمثال الفلاينين المنوعتين الحامين القدماء أو أمثال «البربر».

وحتى اليوم لا يوفر أي تصنيف موضوع على المستوى القاري أو الاقليمي ضمانات علمية لا خدش فيها، وقد ساهمت العرقية مساهمة قوية في افساد تحليل المواد.

وفي الكثير من الحالات نبقى في التخمينات وإصدار قرارات مبدئية وفي اللحظات الحاطفة. وهناك عدد من الشروط لدراسة اللغات الافريقية في إطار العلم المدقق تنير لنا تاريخ شعوب القارة وحضارتها. أولا يجدر أن تحرر هذه الدراسة من وساوس الحكم المتجه كليا الى الخارج انطلاقا من السامية أو الهندية - الاوربية، أي بناء على الماضي التاريخي للانسان الاوربي. ومن جهة أخرى يجب الاحالة على المادة اللسانية القديمة لاثبات القرابة بين اللغات الافريقية، لا الاحالة على المعطيات الجغرافية الحالية أو على التأثيرات القديمة أو المتأخرة، أو على المخططات الشارحة المختارة مسبقا، أو على الأشكال اللسانية الهامشية، بالنسبة الى الأحداث السائدة في الانظمة اللغوية.

## العلوم المساعدة

### التحليل الراجع للتأثيرات الاجنبية

ويسمى «طوبولوجيا» (٣٩) في الاصطلاح الانكليزي وهو يعود الى علم غرضه دراسة أصل الآثار الثقافية وطرق نشرها (الأفكار والتقنيات الخ) وقد دشّن بجاثون ألمان هذه الطريقة معارضين بها دراسة الأدوار الثقافية التي وضعها فروبنوس، ووسترمان - بومان الخ. وكثيرا ما لفت النظر الى هذا المستوى، نشر تقنيات المزارعين وثقافتهم، وطرق الرعاة، واستنباط تقنيات الحديد وسائر المعادن ونشرها، واستخدام الحصان، وأقرار التصورات التابعة للكون ومجمع الالهة أو للأشكال الفنية. على أن الطوبولوجيا قد جاوزت مجاها أحيانا، وعلى الخصوص انها أدخلت الكثير من الأخطاء في العلم التصنيفي. وذلك ان عددا من المؤلفين قليلي التحفظ قد ظنوا انه في الامكان أن تستنتج قرابة لسانية بناء على ملاحظة بسيطة لآثار ثقافية، والحال أن هذه الآثار كثيرا ما تعود الى ظاهرة الاستعارة أو الاتصال أو التقارب.

### علم الإعلام

هو علم أسماء: أسماء المكان (أسماء المواقع) وأسماء الأشخاص (الأعلام) أو أسماء أماكن الماء (أسماء المياه الخ). وعلم الإعلام مقترن اقترانا وثيقا بمجمع اللغات. فالجماعات العرقية المتجانسة نسبيا في فترة معينة، والمجموعة العرقية اللسانية الأكثر تنافرا ولكنها تتكلم بلهجة مشتركة، تكون أسماؤها خاصة بالاحالات على واقعات لغاتها. يطلقون على العالم الأرضي والجغرافي الذي كان لهم أولايال موطنها، أسماء يركبونها على هذا الاطار. وعلى هذا فباستكشاف أسماء الأشخاص، نتعرف في الوقت نفسه على العناصر العرقية التي تكون مجموعة ما. فالسرير هم عامة (جون وجووف

وسيين (الخ) والفلانين (سو، وجالو وباكوا، الخ) الماندانك (كيثا وتوري وجارى الخ) وللبربر والبانوأسر من الأسماء خاصة بهما.

ولعلم الأعلام دور كبير في دراسة تاريخ العروق والجماعات السياسية أو الثقافية. وتدل دراسة الأسماء المستعملة لدى التكرور (٤٠) في السنغال اننا أمام جماعة عرقية لسانية متباينة جدا. ان هذه المجموعة المتكلمة بالفلفلدية، المتأصلة بالسنغال، على طول النهر، على حدود المالي وموريتانيا، متجانسة تجانسا كبيرا في المستوى الثقافي، وعن هذا نتج احساس «قومي» قوي جدا، وفي الواقع هذه المجموعة تكون انطلاقا من عناصر فلانية تغلبت لغتهم ومن الماندانك والسيرير واللبولوف والبربر.

ويمثل علم أسماء المكان وعلم أسماء المياه، أيضا علمين أساسيين لدراسة هجرات الشعوب. ويمكن رسم خرائط مدققة انطلاقا من أسماء القرى المندثرة أو الباقية حتى الآن تمكن من تتبع طريق الماندانك حيث تحمل القرى أسماء مركبة انطلاقا من الدوكو. ومن الممكن أيضا أن ترسم بالطريقة نفسها خريطة مسميات الأماكن للمواطن القديمة أو الحالية عند الفلانين الذين يستعملون لمنشأهم اسم ساري، وكذلك بالنسبة للولوف الذين يستعملون لفظ كر، وللعرب والبربر: دار والهوسا الخ.

### الانثروبولوجيا الدلالية

وهي تكون طريقة جديدة لادراك الامور، وتسعى الى الكشف عن ثقافة الانسان عن طريق لسانه، وتستند الى تحليل جملي لمجموعة المعطيات التي تمدنا بها لغة عرق من الاعراق، أو جماعة لا متجانسة والتي تستعمل لغة مشتركة، كي تظهر للعيان في آن واحد، ثقافتها وتفكيرها وتاريخها. وتتجاوز الطريقة مجرد جمع المأثور والأدب المكتوب أو المنقول، انها تتضمن اللجوء الى اعادة بناء كامل للافكار التي تحملها اللغة والتي لا ترجع حتما الى أثر معين، أو الى خطاب منظم. ويجري البحث في هذا الشأن في مستوى تحت المستوى اللساني وفي مستوى فوق المستوى اللساني. وهي تفك الرموز انطلاقا من المفردات، ومن تقسيم الفكرة، ومن وسائل التعقيد ومن ايجاد بنية اللغة، تفك رموز مختلف نماذج المعرفة التي تتبلور فيها النظرة الى العالم والتاريخ الخاص بالمجموعة التي تستخدم اللغة المعطاة. وهذه اللغة العرقية تصل الى الكشف عن نظم هي: التصور الميتافيزيقي، الأخلاق، علم الكائن، الجمالية، المنطق، الدين، التقنيات الخ.

وهكذا فان الأدب المكتوب أو المنقول عن ماضي الهوسا بما فيه من الوثائق الدينية والأمثال والأعمال القضائية والطبية والعدانية والتربوية، يخبرنا في الآن نفسه عن تطور محتوى فكرة الهوسا وكذلك عن تاريخها وثقافتها.

وفي الحضارات التي تغلب فيها الرواية الشفاهية، حيث تكون نصوص المراجع قليلة، لا وجود عمليا للتفسير التطوري المعتمد على مقارنة النصوص من فترات مختلفة. وتصير اذن اللسانيات وسيلة لاعادة اكتشاف التراث الفكري، وسلما لتسلك الزمن.

والثقافات ذات العبارة الشفاهية التي تكتشفها الانثروبولوجيا الدلالية، تمدنا بآثار يجب جمعها وقرارها وتمدنا بمؤلفين وباختصاصهم. وقد أبقت كل ثقافة أفريقية شفاهية أو مكتوبة، كما لدى الـوولوف، حكميها مثل ندامال كساس، وعالمها في السياسة مثل ساباسي، وكوكو بورما، وصاحب الكلمة والفصاحة فيها، وصاحب الملحمة أو القصة كابن مبنك (٤١) وأبقت كذلك مبتكري التقنيات في الأقرباذين أو الطب أو الفلاحة أو الفلك (٤٢).  
وتصبح هذه الآثار ومؤلفوها مصادر جلية للتحليل الحركي التطوري للثقافة في مجتمع على مختلف أشكاله.

ويمكن حل رموز الكائن البنتو، بل يمكن تفسيره وتنظيمه بالاحالة إلى الألفاظ البنتو عن الكائن في العالم، انطلاقاً من عمل التكوين والتصور الذي يعطي، من خلال المفردات والتصوص البنتو، شكل التصورات التي تكون للبنتو عن هذه الظواهر.  
وإذا كانت اللغة محل تبلور كل الوسائل الذهنية أو المادية التي صنعتها الأجيال المتعاقبة، استطعنا القول إن التجربة التاريخية لشعب، مسجلة في طبقات متتالية من نسيج اللغة نفسه.

### حامل الوثيقة والفكرة التاريخية

تم الاتفاق عامة اليوم على ما للمأثور من دور في التاريخ الأفريقي، بل أن «الرواة» التقليديين يلتبس حضورهم إلى المؤتمرات، ويقترح بعضهم أن يخصص لهم مناصب جامعية أو حتى يكلفوا بالبحث وبتدريس التاريخ.

نعم إن أولوية القول على المكتوب قد بقيت في الجملة ضمن الثقافات التقليدية التي يغلب فيها الريف في أفريقيا كما في غيرها من البلدان.

والشفاهية كوسيلة لاعداد المنتجات الفكرية وضيطةا لها تقنياتها. وإذا كان المجال، بالنسبة لأشكال الفكرة المكتوبة أو المنقولة، مشتركاً على مدى كبير، فالطرق ووسائل تصورها ونقلها ليست دائماً هي ذاتها (٤٣).

ونلاحظ ببساطة أن الفكرة المكتوبة، والأدب بالمفهوم الاشتقاقي، إذا ما تثبتا، فإنها يميلان إلى التحجر بكيفية أيسر في شكل دائم. وفي ذلك القطيعة مع المأثور المنقول الذي يوفر مجالاً أكبر للاستنباط وللأسطورة. وفي مستوى اللغة تزداد امكانيات استعمال اللهجات، من جراء التطور غير المراقب. فاللغة التي يغلب عليها التعبير الشفاهي تبقى أكثر شعبية، حساسة للتحريفات الصوتية التي يفرضها عليها التطبيق في مستوى البنية والأصوات المستعملة، بل حتى في مستوى الأشكال المكتسبة. واللغة الأدبية بالعكس، يداخلها العمل في اتجاه التوحيد، وهي تكتسي من جهة أخرى، بعداً مرثياً أوسع وتدمج كعناصر معبرة للمعطيات البيانية التي تمنحها نوعية خاصة: ضبط الاملاء بقطع

(٤١) كلهم شخصيات تاريخية مشهورة في التفكير الـوولوف.

(٤٢) آثار جونستون عن الـبوروا، وطلميس عن البنتو، وكريل عن الدوكون، وطران عن الطب الأفريقي وكثري عن العدانة الخ. كلها تمثل مع الآثار الدراسية الأدبية المثبتة مساهمات مهمة للأنثروبولوجيا الدلالية.

(٤٣) انظر ب. دياني، المصدر المذكور أعلاه.

النظر عن أصواته، ووضع علامات الوقف الخ. أما اللغة الشفاهية على العكس فانها تستمر في الرجوع الى العنصر الصوتي. وهي تبرز بالايقاع والأوزان والاسجاع أو التنافرات ما للخطاب من بيان. وأهمية دورة الذاكرة في معاوضة أنعدام الحامل الكتابي، يعدل أيضا طابع الشفاهية في أشكائها التعبيرية، بل هو يفرض نفسه بما للتحفيظ من تقنيات، ومن علم متخصص للاحتفاظ بالنصوص. وتصير هكذا الوثيقة المكتوبة والمأثور المنقول ظاهرتين متكاملتين، وذلك بتضافر ما لكليهما من مزايا ومن خصائص (٤٤).

ثم أن النصوص الشفاهية اذا ما سجلت صارت بدورها من الآداب (٤٥).

### المأثور المكتوب - الكتابات الافريقية

ان ابتكار الكتابة يستجيب الى حاجيات لم يعلم دائما كيف توضح حسب الظروف والطابع والأصل. والكتابة كوسيلة للتجارة والادارة تعني طبعاً المدنيات الحضرية. ولكن دوافع الانطلاق قد تتغير كثيراً، وفي افريقيا سواء في العهد الفرعوني أو في عهد ملوك الداهاوي أو المنسا الماندانك، كان استعمال الكتابة يستجيب أساساً الى حاجيات لا مادية.

ان الكتابة المصرية وكتابة النقوش الداهية ورسوم الباميرا أو الدوكون، كان لها في البداية وفي اطار ظروفها الخاصة وظيفتان: تجسيم الفكرة، ويتم بذلك تحقيق عمل له مرمي ديني أو مقدس. فللكتابة المصرية التي استنبطها حسب الاسطورة الاله توت بقيت محصورة خاصة في المعابد بين يدي الكهنة، وكانت تختم الأسرار. وهي تستعمل كوسيلة عمل، لفكرة لوحظت كمادة يمكن تجسيمها في شكل كلمة أو خط.

وثاني وظيفة كبيرة جعلت للكتابة في الحضارات الافريقية توافق الحاجة الى التخليد التاريخي. فالكتابة المصرية ككتابة قصور أبوماي هي تمجيد الملوك وشعوب اهتموا ببقاء ذكرى مآثرهم الى من هم بعدهم. وكان الباميرا أو الدوكون حني يخطون على جدران بندياكارا علاماتهم الرمزية، يرمون الى عين الهدف.

فبين لوح الملك كليلي، ساطور الحفل الحاملة للرسالة، وبين لوح نمر يوجد الكثير من أوجه الشبه، الروح واحدة وكذلك المبادئ وتقنيات الكتابة (٤٦).

تعزى الكتابة المصرية للاله توت، وهو أيضاً مبتكر السحر والعلوم على غرار الاله ذي رأس ابن آوى عند الدوكون، وهو أيضاً حافظ الكلمة والمعرفة وقول الفعال.

والقليل من الاختصاصيين الذين انكبوا على نظم الكتابات ذات الأصل الافريقي، ولو أن عملهم هذا كان في غاية الدقة، لم يعيروا جميعاً أي اهتمام للعلاقة التي تبدو واضحة وسهلة الابانة تقنيا بين الهيروغليفات وأشهر الكتابات في افريقيا السوداء.

(٤٤) انظر بدياني، المصدر المذكور أعلاه.

(٤٥) انظر عديد المنشورات في هذا المستوى: أعمال هيباري باوأ. ابراهيم سومونوتوا وا. دمبيا وك. موين ف. ولا كروا ود. كريول وك. ديتزلان ونريس ول. كستلود. ت. نيان وم. ديابات وج. مبتي الخ، وقد نشروا في هذا الشأن مصنفات دراسية، ضمن مجموعات اكسفورد، وجليار وكاليمار في مركز نيامي الخ.

(٤٦) م. جليلي، ١٩٧٤.

وبقي الهيروغليف المصري أساسا على شكل تصويري في وظيفته الأصلية كوسيلة للمعابد. وهو كنظيره الداهومي يرجع حسب الامكان الى الصورة. فهي كتابة واقعية بصورة ارادية، مهما تجسيم الكائنات والأشياء والآراء. ويتم ذلك بأشد الطرق حسية وأكثرها مادية، كما لو كان ذلك لارجاع بعض صفاتها الطبيعية أو للاحتفاظ بها.

وليس من باب الصدفة أن يكون تحريف الكتابة التصويرية الى الكتابة بالخط اللين الذي يغير العناصر المثلة ويجردها، مسموحا به خارج المعابد فقط. فالخط الكهنوتي (الهيراطيقي) المستعمل في الأكثر خارج الوسط الكهنوتي، خلافا لما يوحي به الاشتقاق اليوناني لللفظ، والخط الشعبي (الديموطيقي) وقد ازداد بساطة في رسم هذه العناصر، كلاهما خط غير مقدس، انتفاعي. وكما يلاحظ حقا م. كوهين فإن الهيروغليفية تتضمن في فكر الكاهن المصري «قوة ايماء سحرية» وهذا يفسر حسب قوله، «انه كان يحترز من تصوير الكائنات النحسة أو أن صورها كانت تشوه» ونحن هنا نحاه تصور للذات تتصل جذوره بالتراث الزنجي الافريقي وتسبح في أعماقه. فلم يصل هذا التراث خلال الآف السنين، بالهنود — الاوربيين وخاصة باليونانيين، الى نزع القداسة عن الفكرة وعن حواملها الشفاهية أو الخطية، وتلك نظرة البامبرا واليوروبا والنصبيدي أو كهنة دوكون، ازاء النظم المرسومة التي يستخدمونها في معابدهم أو في جلسات طقوسهم.

ووحدة الرسوم المتكررة في افريقيا، لا تكمن فحسب في المسبقات الايديولوجية التي تمنح لنظمها وظائفها وطبيعتها، بل هي أيضا في التقنية الوحيدة للنقل.

وفي تاريخ الكتابة الافريقية يبدو الرجوع المستمر الى تقنيات ثلاث لتثبيت الفكرة بالرسم: الالتجاء الى نسخ صورة الكائن أو الشيء بواسطة علامات تصويرية، الالتجاء الى الرمز لتسهيل واقع بواسطة علامات الرمز وهي اشارت لا علاقة مباشرة لها من الشبه الطبيعي مع المفهوم الذي ترمز اليه، وأخيرا استعمال الحاكي لتمثيل ذوات الأصوات المتماثلة كلها، أي كل الظواهر الواقعية التي يشير اليها صوت واحد أو مجموعة واحدة من الأصوات. وهذا مبدأ الخط التصويري.

هذا وان المقارنة بين لوح نرمر وساطور كليلي أو دكادونو لشديدة الایحاء، فهي تنقل الخطاب حسب المبادئ ذاتها.

وعلى لوح نرمر صورة ملك يقبض على عدوه المنهزم من شعره، ويصرعه، بينما يلوذ باقي الجيش المنهزم بالفرار بين رجلي الفرعون العملاق، والرسوم المصورة واضحة ناطقة. وأما باقي الاشارات فعلامات رمزية، يميز من بينها شكل بيضوي «تا» يرمز الى الأرض، ومن أعلى مجموعة من الرموز واطار مربع لطابع اسم الفرعون حورس. سمكة وطانر يمثلان اسم الفرعون، وهما صورتان لرسوم الأصوات.

وساطور كيزو تمثل الملك الداهمي في شكل جاموس، كما يمثل الفرعون في شكل باز. ويكشر الجاموس عن أسنانه مما يفيد انه ينشر الرعب بين أعدائه. وفي هذه الصورة ايماء رمزي، وفي حالات أخرى يكون أكثر دلالة.

وساطور الملك داكودو أو دوكودونو وهو أقدم يرجع الى عام (١٦٢٥م — ١٦٥٠م) ووصفها لو هريسي وهي تبين بوضوح مبدأ «الهيروغليف» الداهومي. وهذا مضمون النص تقريرا، النقوش على شفرة الساطور: هناك رمز به رسم يمثل صوانا «دا» ومن أسفله صورة الارض «كو» بها ثقب في



وسطها «دونون». فهذه رموز تصورية استعملت كرموز للأصوات. فإذا ما جمعنا بينها كما بالنسبة لاسم الفرعون على لوح نمر، فانتا نقرأ اسم الملك الداومي داكودونو. و يلتقي الخط الداومي مع الهيروغليف الفرعوني مبدأ ومعنى، وهو يكشف عن التقنيات الثلاث التي يحيل إليها الخط المصري أي الصورة الرسمية، الرمز، وعلامة رسم الأصوات (٤٧).

وقد ذكر العالم السوفييتي ديميتري أ. الدروج في مقال تاليفي جليل على اثرش. انتاديوب بان نظام الهيروغليفيات بقي قائما حتى عهد متأخر في إفريقيا السوداء.

و يصرح كافاسي دى مولوكولو في كتابه «الوصف التاريخي للممالك الثلاث في الكونغو والماتمبا والانكولا» المنشور سنة ١٦٨٧ ان استعمال الكتابة الهيروغليفية مازال قائما في هذه المناطق.

واكتشفت سنة ١٨٩٦ كتابة هيروغليفية منقوشة على صخور التيتي في الموزمبيق، على نهر الزمبار ونشر نصها اذالك. و يلاحظ ش. انتاديوب أيضا استعمالا متأخرا لخط ذي رسوم في الباول، حيث أمكن العثور في عصر قريب على نقوش هيروغليفية على أشجار باو باب عميقة جدا واستعمل القاي في ليبيريا مدة طويلة خطأ ذا رسوم على شرائط من اللحاء. والخط الميروي في الحدود الجنوبية لمصر القديمة امتداد للخط الفرعوني ومنه كان يقتبس، الا أن يكون هو الذي أثاره أو أن يكون قد اشترك معه في أصل واحد.

على أنه يبدو أن نظم الخطوط الرمزية قد كانت على الأرض الزنحية الافريقية الغربية أشد مقاومة من الهيروغليفيات. وعمليا فان معظم الشعوب الزنحية الافريقية تعرف استعمال الكتابة الرمزية، إما عن طريق التقنيات الكهنوتية، أو بناء على ما يقوم به رجال الدين من أعمال أو عن نقاشي لأثار فنية الخ.

وخط الرمل عند الكورمانتشي له تقنية فنية راقية (وهو المسمى عندهم كامبييوالو)، يرسم الرمال والرموز على الرمل ويعبرها، ثم يتقدم بضرب من «الوصفة» تتمثل في رموز منقوشة بالموسى على قطعة من الدباء. وتشير هذه العلامات المجردة الى الهياكل والمذابح التي يجب المثل فيه قصد تقديم القرابين، وإلى نوع الدابة التي يجب ذبحها وإلى عدد القرابين الخ. وهذه «كتابة رمزية».

والتكهن بواسطة علامات «فا» غزير الثروة: وذلك أن الكاهن يقوم بعمليات شعوذة ماسكا بعدد من جوز النخيل بيد ناقلا اياها من يد الى أخرى ثماني مرات. ويسجل كل مرة على طبق مرشوش بالغبار أو على الأرض، عدد الجوزات الباقية في يده اليسرى. وتكون جداول (عددتها الممكن ٢٥٦) منها ستة عشر أساسية، هي الـ «دو» التي تمثل القدر فيها «خيوط» الالهة أو كلامها، ويتحكم فيها «الفا». فكل انسان مطالب بعبادة الدو الذي ينتمي اليه ولكنه في آن واحد، عليه أن يأخذ بعين الاعتبار ما لأقاربه وأجداده وبلاده من «دو» الخ. والتأليفات متعددة جدا. وتعدد «الدو» يتألف في ضرب من الاستراتيجية الأسطورية، وهي أيضا تقنية خطاطية. ويستعمل التكهن «بالفا» على طول ساحل البنين.

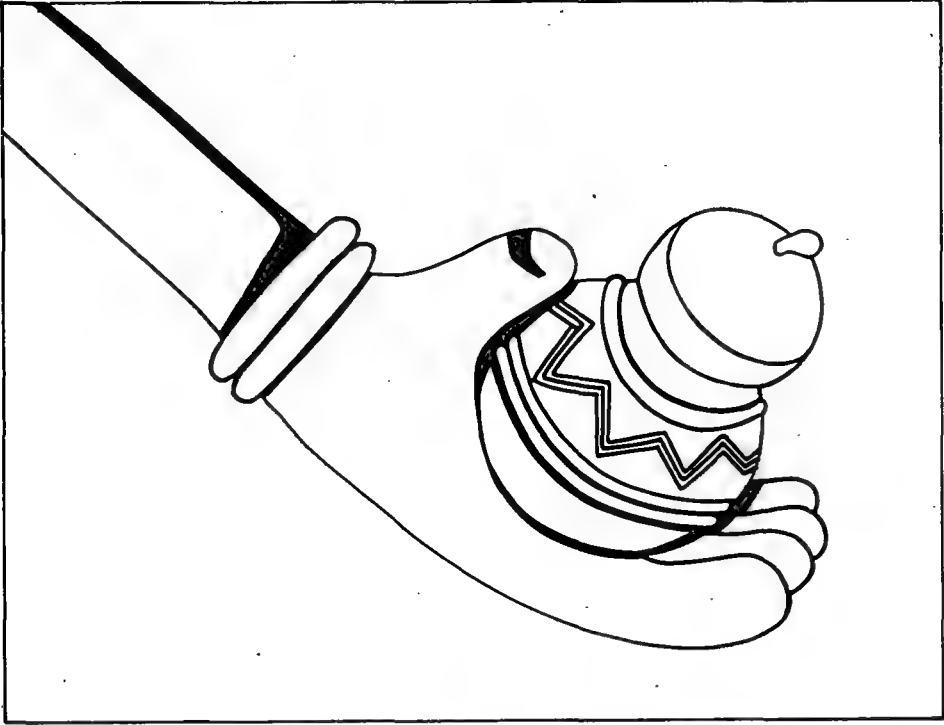
وكان ما جمع من نظم الرسوم الرمزية (٤٨) غزيرا خاصة في بلاد السهوب، وقد بقيت تقليدية

(٤٧) انظر الفصل الرابع.

(٤٨) انظر نينكوران بواه: «بحوث عن الصنجات لوزن الذهب عند الاكان» رسالة دكتوراه دولة نوقشت سنة ١٩٧٢.



● لوحة الملك الشعبان (مصورة من  
متحف اللوفر بباريس).



- (١) رسم يمثل يقطينة، وهي رمز القوة  
(تصوير نوبيا).
- (٢) رسم مهدى الى داكونودو  
(تصوير نوبيا).
- (٣ و ٤) شيل ينشر الرعب (تصوير  
نوبيا).



كتابة تصويرية نسيبيدية



داير يل: رجل يجري، ذراع ممدودة



ماكفر يغور (ص ٢١٢)، رسول



داير يل: رمز يحوي سماً في داخله



تلبوت: محلية  
ماكفر يغور (ص ٢١٢) ثعبان؛



داير يل: ثعبان طويل جداً؛ أوروك



ايكوت، ثعبان بالافيك و«شاو» بالأور يانجا



تالبوت: شمس ساطعة؛ أوتين  
شمس بالافيك و«رواوتج» بالأور يانجا



تالبوت: هلال؛ سي = قر  
بالأو يانجا

كتابة تصويرية مصرية  
(حوالي ١٠٠٠ سنة قبل الحاضر)



رجل يجري، ذراع ممدودة؛  
اينو = رسول



بطن حيوان ثديي؛ كت = بطن، جسم



سحلية؛ اتشا = عديد؛ غنى



دودة أو ثعبان (كفؤو)؛  
دودة (دفت)



شمس ساطعة؛ وبن: يظهر



هلال؛ اعك = قر

١. مفردات من الكتابة التصويرية المصرية والنسيبيدية (مأخوذة من كتاب «أفريقيا في العصور القديمة». والهامش السفلي ٣٤ في الصورة يحيل الى: ج. ك. ماكفر يغور ١٩٠٩؛ أ. دير يل ١٩١١؛ تالبوت ١٩٢٣).
٢. لوحة نارمر (مأخوذة من: شيخ أناديوب، ١٩٥٥).



فائي (١٨٤٩)	١١	→	HHHH	⊙	⊙	≡	≡
(١٩٦٢)	١١	↑	HHHH	6	⊙	≡	≡
ميندى	٧	→	٧	٧	٧	→	٧
لوما	~	→	8	!!	HH	~	⊙
كيبلي	HH	J	↖	↖	44	↖	///
باشا	ΛM	Λ<	Λε	Λf	Λm	ΛO	ΛE
باموم (١٩٠٦)	NE	⊕ ket	✕ ket	8	»	-	-
(١٩١٦)	١١	2	٧	٧	٧	-	V
أوباري أوكامبي	A♡	A♣	A3	AS	A3	Aχ	A∞
دجوكا	٧	B		8	χ		٧
ماندينجو	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧
ولوف	///	///	///	///	///	///	///
فولا (ديتا)	٧=	٧=	٧4	٧X	٧+	٧X	٧4
فولا (با)	٧	٧e		٧	٧		٧
(بوق)	A	-	8< keu	٧	→	→	→

• عينات من أنواع متعددة من  
الكتابات الافريقية القديمة (مأخوذة  
من: د. دالي، ١٩٧٠، ص ١١٠  
- (١١١).

1. ተ ገ ከ ከ ስ ሄ ወ ወ ቱ ስ ህ ሄ ሄ ስ ሄ  
 ቱ ወ ስ ሀ ወ ሄ ሄ \*
2. ስ ህ ዩ ሄ ሄ ስ ሄ ስ ስ ስ ህ ዩ ሄ  
 ስ ስ ስ ስ ስ \*
3. ስ ህ ዩ ሄ ስ ስ ስ ሄ ሄ ስ ስ ስ ስ ስ  
 ስ ስ \*
4. ስ ስ ስ ህ ሄ ሄ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ  
 ህ ስ ስ \*
5. ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ  
 ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ \*
6. ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ  
 ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ \*
7. ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ  
 ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ ስ \*

ስ ስ ስ









• الصفحة الأولى من القرآن (سورة  
 الفاتحة) مكتوبة بلغة الـ «فاي»  
 (مأخوذة من كتاب «أفريقيا في  
 العصور القديمة» لمؤلفه ت. أوجنغا،  
 نشر الحضور الافريقي - بالقرنسية).

ᠠ ᠡ ᠢ ᠣ ᠤ ᠥ	a é ē i ō ō ū	ᠠ ᠡ ᠢ ᠣ ᠤ ᠥ ᠦ	ga gé gē gi gō gō gū	ᠠ ᠡ ᠢ ᠣ ᠤ ᠥ ᠦ	la lé lē li lō lō lū	ᠠ ᠡ ᠢ ᠣ ᠤ ᠥ ᠦ	ra ré rē ri rō rō rū	ᠠ ᠡ ᠢ ᠣ ᠤ ᠥ ᠦ	wa wé wē wi wō wō wū
ᠪᠠ ᠪᠡ ᠪᠢ ᠪᠣ ᠪᠤ ᠪᠥ ᠪᠦ	ba bé bē bi bō bō bū	ᠪᠠ ᠪᠡ ᠪᠢ ᠪᠣ ᠪᠤ ᠪᠥ ᠪᠦ	ha hé hē hi hō hō hū	ᠠ ᠡ ᠢ ᠣ ᠤ ᠥ ᠦ	ma mé mē mi mō mō mū	ᠠ ᠡ ᠢ ᠣ ᠤ ᠥ ᠦ	sa sé sē si sō sō sū	ᠠ ᠡ ᠢ ᠣ ᠤ ᠥ ᠦ	ya yé yē yi yō yō yū
ᠳᠠ ᠳᠡ ᠳᠢ ᠳᠣ ᠳᠤ ᠳᠥ ᠳᠦ	da dé dē di dō dō dū	ᠳᠠ ᠳᠡ ᠳᠢ ᠳᠣ ᠳᠤ ᠳᠥ ᠳᠦ	ja jé jē ji jō jō jū	ᠠ ᠡ ᠢ ᠣ ᠤ ᠥ ᠦ	na né nē ni nō nō nū	ᠠ ᠡ ᠢ ᠣ ᠤ ᠥ ᠦ	ta té tē ti tō tō tū	ᠠ ᠡ ᠢ ᠣ ᠤ ᠥ ᠦ	za zé zē zi zō zō zū
ᠶᠠ ᠶᠡ ᠶᠢ ᠶᠣ ᠶᠤ ᠶᠥ ᠶᠦ	fa fé fē fi fō fō fū	ᠶᠠ ᠶᠡ ᠶᠢ ᠶᠣ ᠶᠤ ᠶᠥ ᠶᠦ	ka ké kē ki kō kō kū	ᠠ ᠡ ᠢ ᠣ ᠤ ᠥ ᠦ	pa pé pē pi pō pō pū	ᠠ ᠡ ᠢ ᠣ ᠤ ᠥ ᠦ	va vé vē vi vō vō vū		

• رموز (عناصر) من كتابة الـ «فاي» (مأخوذة من كتاب «أفريقيا في العصور القديمة» مؤلفه ت. أوجنفا، نشر مؤسسة الحضور الإفريقي — باللغة الفرنسية).

cha ché chē chī chō chō chū	△ + ⌘ ⌘ ◇ □ ⌘ ⌘	kpa kpé kpē kpl kpō kpō kpū	𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲	nda ndé ndē ndī ndō ndō ndū	𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲	nya nyé nyē nyī nyō nyō nyū	zha zhé zhē zhī zhō zhō zhū
dha dhé dhē dhī dhō dhō dhū	𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲	lba lbé lbē lbi lbō lbō lbū	𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲	nga ugé ngē ngī ngō ngō ngū	𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲	sha shé shē shī shō shō shū	متنوعات
B T X 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲	gba gbé gbē gbi gbō gbō gbū	𐌲 11 𐌲 • 𐌲 𐌲 𐌲	lda ldé ldē ldī ldō ldō ldū	nja njé njē njī njō njō njū	𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲	tha thé thē thī thō thō thū	الترقيم والعلامات الأخرى
hna hne hni hno hnū	𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲	mba mbé mbē mbī mbō mbō mbū	𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲	nkpa nkpe nkpe nkpl nkpo nkpo nkpu	𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲 𐌲	wha whé whē whī whō whō whū	شرطة فاصلة علامة استفهام نقطة علامة تعجب علامة تشديد علامة خفض صوت أنقى علامة استمرار الوصف



















العلامة المسجلة في ١٩٠٧ (غورنغ)	العلامة المسجلة في ١٩٠٠ (كلايوت)	معناها	الكلمة بلغة «موم»
		حبة الكولا	Pé بي
		ملك	Fom فوم
		بيت	Ntab نتاب
		عجل	Nyad نياد

• نظام الكتابة «موم» (عن كتاب «أفريقيا في العصور القديمة» بقلم ث. أوجنفا، نشر «الحضرة الافريقي» بالفرنسية).

الى أعلى: نظام الكتابة التصويرية (بالصور)

جانبا: نظام الرموز المقابلة للافكار، وفي المستطيل الاسفل نظام المقاطع الصوتية.

	-	التاس ،	بوين أو بورين
	-	الموطن ،	نغوا ونغومي
	-	اليوم ،	نديا
	-	الأرض ،	نسي
	-	الغذاء ،	يو
	-	نغن ،	پو
	-	و ،	في
	-	يعمل/يصنع ،	غبيت
	-	أنا ،	مى
	-	يعطى ،	فا
	-	يبدى اعجابه ،	پوام أو موبوم

	-	المقطع «با» من «إيبا» ومعناها: إثنان
	-	المقطع «بين» من «بين»: نوع من الرقص
	-	المقطع «بي» من «بييت»: يخن
	-	أو من «بي»: يمسك
	-	المقطع «تشا» من «تششا»: شمكة

ونسبيا ضعيفة الانتساب الى الاسلام. وليس ذاك من باب الصدفة وقد عرّف الاخصائيون ببعضها، ومن أول هؤلاء م. نيجود..

وقدم م. كريول وج. ديتزلان الكتابة الرمزية للدوكون، ونحن ندين لها كذلك بتحليل نظام بامبرا وتقديم مركّب جيد لكتابات المنطقة:

واكتشف الاوربيون في نهاية القرن الماضي الخط الرمزي النصيدي المستعمل عند الايوي جنوبي نيجيريا وهو يتركز على مبادئ النقل التي انتشرت انتشارا قويا على ساحل غينيا بأكملها. والكتابات الصوتية (٤٩) التي تعمم بانتظام استعمال صور الأصوات سواء البسيطة أو المركبة بعلامات منتظمة، تظهر في نظرا، بافريقيا، كثمرة لتطور متأخر. وكانت الهيروغليفات في مصر القديمة كما هي في الداهومي، تمثل العديد من الأصوات بواسطة الرموز. ولكن النظم الصوتية المحضة التي أساسها الكلمة، والمقطع أو الصوت البسيط - النقل الالفبائي - تشير الى مرحلة جديدة (٥٠).

ولعل الكتابة البربرية المستعملة عند «طوارق» الصحراء والمعروفة باسم تيفيناغ قد انتشرت بتأثير البونيقية بالاتصال مع قرطاج.

وتكوّن نظام الكتابة النوبية في القرن العاشر عن طريق الاتصال بالخطاطة القبطية، التي نشأت هي بدورها بتأثير اليونانية. والخط الاثيوبي في تيكرينيا وفي الأمهارا مشتق من الخط السبتي بجنوب الجزيرة العربية.

أما الكتابات المقطعية والالفبائية الافريقية الغربية المنتشرة انتشارا كبيرا منذ نهاية القرن الثامن عشر على السواحل الغينية وفي البلاد السودانية، فلعلها نشأت عن تطور داخلي، أو قد تكون اكتست صفتها النهائية، بتأثير قريب أو بعيد من دخيل أوربي أو عربي (٥١).

والكتابة الفاي التي أظهرها لأوربا سنة ١٨٣٤ ايريك باطس الاميركي وكويل سنة ١٨٤٩، قد انتشر على أرض لوحظت فيها خطوط من النظام الهيروغليفي. ووصف مومولو مساكو قنصل ليسيريا في انكلترا في القرن التاسع عشر، مبادئ النظام الهيروغليفي المستعمل في منطقته وفي عصره (٥٢).

وللدلالة على الانتصار على العدو، يروي مومولوان الفاي يصورون على اللحاء الذي يقوم مقام البردي عندهم، خيال رجل يجري ويده فوق رأسه. وتضاف نقطة بجانب صورة المتشرد للدلالة على عدد كبير من الناس الفارين، وعلى جيش ولى الأدبار، ويوجد هنا من جديد حتى علامة الجمع بوضع نقطة عوضا عن عدة خطوط كانت مستعملة في وادي النيل العتيق، وهي من معطيات الكتابة الفرعونية.

(٤٩) يعرض د. دلي استقراء مهما لها في «اللغات والتاريخ في إفريقيا» لندن ١٩٧٠.

(٥٠) أ. هار، ١٩٥٩.

(٥١) تجمع الخطاطات السودانية بين الصور الواقعية والعلامات ذات المعاني الرمزية (انظر رسال كريول وج. ديتزلان) فبالجمع بين هذه العلامات، ينقل الخطاب ويثبت ويصير في الامكان حل رموزه من قبل متعلم الكتابة المدرك لما يحويه من معارف.

(٥٢) انظر المقال التالي المهم بقلم د. الدورج في «رسالة اليونسكو» مارس ١٩٦٦ بعنوان: «خطوط مجهولة في إفريقيا السوداء».

ولعل الفاي حولوا نظامهم القديم في اتجاه النقل الصوتي، ولنا اليوم أنماط مشابهة من كتابة الفاي لدى عدد من الشعوب الأفريقية الغربية: مالنكى، مندى، بساء، كرزي، كيبلي، طوما الخ. وحتى الولوف والسيرير فإنها تجهز أخيرا بكتابة مستوحاة من هذه المبادئ.

وخلافنا لما يعتقد عادة، فإن فكرة الكتابة بقيت مستمرة في التاريخ وفي التفكير الأفريقي، من لوح نمرالى ساطور كليلى. وتشهد بذلك كثرة الأعمال وتعدد الخطوط.

والكتابات الأفريقية بعد الفرعونية، قد اتبعت لعدة أسباب، مجرى تطور اعتيادي، وتلاءم هذا المجرى مع الظروف ومع متطلبات التاريخ لمجتمع واقتصاد زيفين أحرزا الكفاية الذاتية، ولم يدفع هذا الأخير بضغط الحاجة إلى أن يدعم، مع الأيام المكاسب المادية أو الذهنية المهددة باستمرار. هذه البيئة السهلة وهذا التوازن السيريين الموارد والديموغرافيا في معظم الحضارات الأفريقية ولاحداث ثقافتهم، قد جعلت ولدة طويلة من الزمن، امكانية الحل والعقد الشكليين في المدى الواسع، غير محتفظة الا بالأمر الأساسي: المبادئ. فعل مستوى التوازن الباطن لم يكن الخطر كبيرا جدا، وتجاه الخارج، وتجاه تراكم التقدم قد كان هذا الضعف مضرا.

### الخلاصة

لابد من اللسانيات لانشاء علم تاريخي افريقي، وسيكون لها دور كبير يعادل ما قدم من جهد هام في المجال الذي هو مجالها، وحتى الآن كانت مساهمتها نسبيا مساهمة ضعيفة وأحيانا قليلة الفائدة في المستوى العلمي. ومازالت الأعمال جارية، وازدادت الطرق دقة وتوسع حقل البحوث كثيرا. ومن المتوقع في هذا السياق ان يتمكن تحليل اللغات الأفريقية في القريب العاجل، من المساهمة في توضيح نقط مهمة من تاريخ القارة..

القسم الثاني

## النظريات

### المتعلقة بـ «العروق»

### وتاريخ أفريقيا

ج. كي زربو

ان مفهوم العرق من أصعب المفاهيم حصرا من الناحية العلمية، فإذا ما أقررنا كمعظم العلماء، بعد داروين أن أصل الجنس البشري واحد (١)، فإن نظرية «العرق» لا يمكن علميا أن تنتشر الا في اطار التطورية.

وذلك ان تكون العرق ينخرط ضمن العملية العامة للتطور المتنوع. وكما يلاحظ ج. رفي فان ذلك يقتضي شرطين: أولا الانعزال الجنسي، وهو غالبا نسي، وينشئ شيئا فشيئا منظرا وراثيا ومورفولوجيا. فتكون العرق إذن مبني على ذخيرة نطفية مختلفة، أنشأها اما الانحراف الوراثي، إذ أن الصدفة في نقل عناصر الوراثة قد تجعل تكرار النقل في فصيلة ما، أشد منه في أخرى اذا لم يكن بالعكس، أي ان المتباين هو الذي ينتشر انتشارا فسيحا، واما الاصطفاء الطبيعي. ويستتبع هذا تنوع تلاؤمي يعمل بفضله جماعة على المحافظة على الجهاز الوراثي الذي يلائم أكثر ملاءمة بينه وبين محيط محدد. وفي افريقيا قد يكون للوجهين دور. وذلك أن الانحراف الوراثي الذي يعبر عن نفسه الى أقصى حد في الجموع الصغيرة، قد عمل في العرقيات الضيقة الخاضعة الى عمل اجتماعي تقسمي بمناسبة الخصومات في الارث أو في شأن الأراضي بسبب المساحات الفسيحة البكر المتوفرة. ومن المحتمل أن هذا العمل قد أثر خاصة في التراث التناسلي لدى العرقيات المتزوجة مع بعضها أو التي تقطن الغابات. وأما الاصطفاء الطبيعي فكان من شأنه أن يقوم بدور مساعدة البيئات المتنافرة، كبيئة الصحراء والغابة الكثيفة والهضاب العليا والسواحل التي يوجد بها المنغروف.

(١) عن نظريات تعدد المراكز ومختلف مظاهرها، انظر أعمال، ج. وابندنرايش وكوون ومناقضات روبرتس.

وبصورة عامة من الوجهة البيولوجية، فإن أهل «عرق» من الأعراق يشتركون في بعض العوامل الوراثية التي يستعاض عنها في مجموعة «عرقية» أخرى بعوامل مباينة لها، ويتعايش النطان من النطقات عند الهجناء.

وكما كان متوقعا، فإن التعرف على العروق تم في البداية انطلاقا من معايير ظاهرة، ثم اعتبر شيئا فشيئا مظاهر واقعية أعمق. على أن الخواص الخارجية والظواهر الباطنة ليست منفصلة انفصالا مطلقا.

فإذا ما كانت بعض النطقات تتحكم في الأجهزة الوراثية المنظمة للون البشرة فهذا اللون مرتبط أيضا بالمحيط، ولوحظ ترابط إيجابي بين القامة وأقوى حرارة في أحرّ شهر، وترابط سلبي بين القامة والرطوبة. وكذلك فإن الانف الضيق يعمل على اسخان الهواء بكيفية أحسن في مناخ أبرد، ويندي الهواء الجاف المستشقق. وهكذا تزداد الإشارة الانفية عند الأهالي جنوبي الصحراء، من البيداء إلى الغابة مروراً بالسهب ومع أن عدد الغدد المفرزة للعرق عند الزنج هو نفسه عند البيض، فإن الزنج يعرقون أكثر، مما يبقو جسمهم وجلدهم في درجة من الحرارة أقل. فهناك عدة مراحل في البحث العلمي عن العروق.

## التمهيد الشكلي

يعرف إيكستدت، مثلاً، العروق على أنها «مجموعات حيوانية. طبيعية تنتمي أشكالها إلى جنس البشرات، يبيدي أفرادها عين التناسق النموذجي في الطباع العادية والموروثة في المستوى الشكلي وفي المستوى السلوكي».

فسجلت مجموعة من الملاحظات والقياسات، من لون البشرة وشكل الشعر أو الجهاز الشعري، إلى الخواص القياسية أو غير القياسية إلى التقوس الخلفي الفخذي والكؤيسات والشقوق المرسومة على الأضراس. فتجمع من كل هذا مجموعة مهمة من الملاحظات والقياسات. ووقع الاهتمام خاصة بالإشارة الدماغية لعلاقتها بالجزء من الرأس الذي يحمي الدماغ. وهكذا وضع دكسن الأنواع المختلفة حسب نماذج ثلاثة تبعا لثلاث إشارات مركبة، مع بعضها بكيفية مختلفة: الإشارة الدماغية الأفقية، والإشارة الدماغية الرأسية والإشارة الانفية.

ولكن من بين التأليفات السبع والعشرين الممكنة، قد احتفظ بشمانية فحسب (أكثرها ترددا) على أنها تمثل نماذج أساسية. واعتبرت الثمانية عشر الباقية \* على أنها أخلطة. ولكن الخواص الشكلية ما هي إلا انعكاس منحرف قليلا أو كثيرا من الرصيد التوليدي. وقليلا ما يتم بصفة كاملة تجمعها في نموذج مثالي، وذلك أنها تفاصيل وجزئيات واضحة على حدود الإنسان والبيئة، فهي لذلك ذاته فطرية أقل منها مكتسبة.

وهذه من أكبر نقائص النظرة الشكلية والنمذجية حيث ينتهي الاستثناء إلى أن يكون له من الأهمية أكثر مما للقاعدة. على أنه من اللازم ألا نتهاون بخصوصيات المدارس حول أساليب القياسات

(كيف ومتى الخ) مما يمنع المقارنات المفيدة. فأحصائيات البعد المتعدد التغير، ومعاملات وجوه الشبه العرقية، وأحصائيات «المقاس» و«الشكل» والمسافة المعممة لنها لا نوبيس، كل ذلك مما يرجع الى المعالجة الرتيبة. وهكذا فان الاعراق كيانات بيولوجية واقعية من الواجب فحصها ككل، وليس قطعة قطعة.

## النظرة الديموغرافية أو السكانية

ستؤكد هذه الطريقة من البداية على واقع المجموعات (رصيد توليدي أو «جينوم») وهي أكثر استقرارا من البنية التوليدية الظرفية لأفراد. فأييز العرق أكثر من الخواص التي تلاحظ فيه، هو تردد هذه الخواص. وحيث تركت الطريقة الشكلية عمليا (٢) كان من الممكن أن تعرض العناصر المصلية أو التوليدية على قواعد تصنيف أكثر موضوعية. وفي نظر لندمان، العرق «هو مجموعة من الكائنات البشرية يظهر بعضها مع البعض الآخر (فيما عدا قليلا من الاستثناءات) في كثير من التشابه في الخلقة النموذجية، وكذلك غالبا في الطباع الخلقية، مما هو الشأن مع أفراد مجموعات أخرى». و يبسط الكساييف أيضا تصورا ديموغرافيا للاعراق مع مسميات جغرافية محضة (أوربيون، شماليون، أفارقة جنوبيون الخ) وألح سويدكي وبويد على النظامية التوليدية: توزيع المجموعات الدموية أ. ب. أ. وتآلفات عامل الزمرة، نطفة الافراز اللعابي الخ.

و يتعاطى عالم النموذجية الدموية أيضا التشريح، لكن في مستوى الجزئية، فهو يتعاطى الشكلية المجهرية واصفا الخلايا البشرية التي تميزت ببنيتها المانعة وجهازها الحميري، وتكون المادة الأكثر عملية في هذا الشأن متكونة من النسيج الدموي. وهذه المؤشرات الدموية تقفز بنا قفزة كيفية تاريخية في التعرف العلمي على الجموع البشرية، ومزاياها على المعايير الشكلية حاسمة. فأولا تكاد تكون دائما وحيدة القياس أي أن وجودها تابع لنطفة واحدة، أما الإشارة الدماغية مثلا، فهي نتيجة مركب من العوامل التي يعسر استكشافها (٣).

ومن جهة أخرى بينا نترجم المعايير الشكلية بأرقام تستخدم للتصنيف على حدود اعتباطية أو غامضة، مثلا بين الاصلع النموذجي والمستطيل الرأس النموذجي، فان المثيرات الدموية تخضع هي الى قانون الكل أولا شيء. اما ان نكون (أ) أولا (أ)، زمرة ايجابية أو زمرة سلبية الخ. ثم ان العوامل الدموية تكاد تغفل تماما عن ضغط البيئة. فالنموذج الدموي يحدد نهائيا منذ تكوين البيض. ولذا لا تخضع المؤشرات الدموية للاحاساسات الباطنية النموذجية الشكلية. فالفرد يعرف هنا بمجموعة من العوامل التوليدية ومجموع السكان بسلسلة من الترددات النطفية. وتعوض دقة هذه العوامل الكبيرة ما لها من طابع جزئي بالنسبة لكتلة النطف في مجموع نطفية (جينوم). وهكذا تم وضع أطلس «للاعراق» التقليدية.

على أنه يظهر ثلاثة أنواع من العوامل الدموية. ويوجد البعض منها مثل نظام أ. ب. أ. في

(٢) انظر ورسنكي، ١٩٦٥.

(٣) انظر ج. روفيه.

كل الأعراق التقليدية بدون استثناء. فقد كانت بدون شك موجودة قبل المرور الى جنس الإنسان. وأما البعض الآخر كعوامل نظام الزمرة فوجود دائما لكن مع بعض التفوق العرقي، فصبغية (ر) توجد خاصة لدى البيض والصبغية رو (RH). المسماة «الصبغية الأفريقية» تتردد ترددا كبيرا خاصة عند السود جنوبي الصحراء. وما لا شك فيه أن ثمة أنماطا ترجع الى الوقت الذي شرعت فيه البشرية في الانتشار في مخبات بيئية مختلفة. ويظهر نوع آخر من النظم توزيعا عرقيا أوضح. مثلا عوامل ستر وهنشا والتي تكاد لا تظهر الا في نطاق السود. وعامل كل الموجود خاصة عن البيض ولو ان هذه العلامات ليست دائما خاصة تماما، فانها وصفت بعبارة «المؤشرات العرقية» وأخيرا ان بعض العوامل محددة تحديدا جغرافيا كبيرا مثلا الحضاب (ج) عند أهالي النجد الفلوطاني.

ورغم كون العوامل الدموية عديمة القيمة التلاؤمية، فهي لا تنجو تماما من عمل الوسط المعدي أو الطفيلي الذي قد يحث غرزا بين العوامل الدموية التي لها قيمة انتقائية، فينتج عن ذلك مثلا وجود حضاب مميز كحضاب S المقترن بوجود خلايا منجلية الشكل من بين الكريات الحمر. ولقد اكتشفت في دم السود في افريقيا وآسيا، وهي خطيرة بالنسبة لواقع الدم فحسب، والحضاب هـ. ب. س. (H b s) هو عنصر موادة لحضور (البلسموديوم الفلسياروم) المتسبب في حمى المستنقعات. ان دراسة نماذج الدم في مساحات فسيحة تمكن من رسم منحنيات متماثلة النطف، تجسم للعيان التوزيع الجلي للعوامل الدموية. وتشارك هذه الدراسة مع حساب الابعاد التوليدية فتعطينا فكرة عن الكيفية التي تقع بها مجموعات السكان احدها بالنسبة للأخرى، أن يمكن اتجاه التدفق التوليدي من تشخيص العملية السابقة لتطورها.

ولكن الطريقة النموذجية الدموية والاسكانية رغم نتائجها الاستثنائية، تعترضها عقبات، أولا لأن الثوابت التي تعتمد عليها مدعوة الى التضاعف بكثرة، فتؤدي هكذا الى نتائج غريبة حتى يراها بعضهم شاذة.

فالشجرة النسالية للسكان التي أقامها ل. ل. كفلي - سفرزا تختلف عن الشجرة القياسية الانسية. فعلى هذه يقع «البكمي» (الاقزام) والسان في افريقيا على فرع واحد قياسي إنسي مع سود غينيا الجديدة واستراليا، بينما على الأولي يقترب «البكمي» (الاقزام) والسان من الفرنسيين والانكليز اقترابا أكبر، ويقترب سود استراليا أكثر من اليابانيين والصينيين (٤). وبعبارة أخرى الصفات القياسية الانسية، تتأثر بالمناخ أكثر مما تتأثر به النطف، الى حد أن التوافقات الشكلية تتبع البيئات المتشابهة أكثر مما تتبع الوراثة المتشابهة. وبينت أعمال ر. س. لونتين على أساس بحوث العلماء النموذجية الدموية، انه بالنسبة الى العالم كله، أكثر من ٨٥% من قابلية التغير تقع داخل القوميات، و٧% فقط تفصل القوميات المنتمية لعرق تقليدي واحد، و٧% تفصل الاعراق التقليدية. وبصورة عامة فإن الافراد من عين المجموعة العرقية، يختلفون فيما بينهم أكثر من اختلاف «الاعراق» فيما بينها. ولذا يتخذ عدد أكثر فأكثر من العلماء موقفا قطعيا يتمثل في انكار وجود أي عرق فحسب ج.

(٤) ذكره ج. ربي، المصدر قبله ص ٣٨٥. وكذلك من جراء التهجين في الولايات المتحدة ان نسبة الخلط الابيض عند سود اميركا باعتبار بعض الصفات الفصيلة (فصيلة FY من نظام دفي، غلظت RO الخ) قد تكون ٢٥ الى ٣٠% واستنتج بعض العلماء أن هذه مجموعة سرعان ما لقبوها «عرق أمر يكي شمالي ملون».

رقي، في بداية البشرية كانت جموع صغيرة من الأفراد موزعة في مناطق بيئية متنوعة متباينة خاضعة لضغوط انتقائية قوية جدا، وكانت الوسائل التقنية ضئيلة، فكان من الممكن أن تتميز إلى حد أنها أدت إلى نسخ مختلفة، منها الإنسان القائم، وإنسان نياندرتال، والإنسان للعائل في بدايته. فجموع الوجه مثلا، وهو المعرض أكثر من غيره للأوساط المتميزة، يتطور تطورا متباينا، فازدادت ثروة البشرة في الملونات القاتمة في المنطقة المدارية الخ. ولكن هذا الميل إلى التميز، وقد أوقف بسرعة، بقي في مستوى بسيط.

ويتلاءم الإنسان في كل مكان من حيث الظروف الثقافية (في الملابس والمساكن والمأكل الخ) ولكن لا يتلاءم شكليا مع بيئته. فالإنسان المولود في البلاد المدارية ذات المناخ الحار تطور سريعا كإنسان الجنوب وكالإنسان الباروحتي الإنسان القائم، «في العهد الجليدي الثاني فقط وبفضل المراقبة الناجعة للنار، اتخذ الإنسان القائم مسكنه في المناخات الباردة، وتحول الجنس البشري من النموذجية المتعددة إلى النموذجية الوحيدة، وبدأت عملية نزح العرقية هذه بلا رجعة. وينبغي أن تعتبر البشرية جمعاء اليوم، كمجتمع واحد لنطف متداخلة في ما بينها (٥).

وفي عام ١٩٥٢ نشر ليفنجستون مقالة الشهيرة «في عدم وجود الأعراق البشرية» فامام الشعب العظيم للمسألة وكذلك أمام ضعف المعايير المحتفظ بها لوصف الأعراق، يوصي ليفنجستون بالتخلي عن نظام العالم لبني في التصنيف، ويوحى باستعمال «شجرة النسب» في المناطق الغير المنعزلة فإن تردد بعض الصفات أو بعض الفصائل يتطور تدريجيا في اتجاهات متنوعة، وتكون الفروق بين مجموعتين من السكان مناسبة لبعدهما الطبيعي، طبقا لضرب من الانخفاض الجغرافي (ممال)، وإذا ما قورن كل وصف يميز بعوامل الانتقاء والملاءمة التي تكون قد ساعدت عليه، تسجل ترددات ترتبط أكثر فيما يبدو بعوامل تقنية وثقافية وغيرها، ولا تنطبق البتة على خريطة «الأعراق» (٦). وبحسب المعيار المختار (لون البشرة والاشارة الدماغية، والاشارة الانفية، والطباع النظفية الخ) نحصل كل مرة على خرائط متباينة. ولذا يستنتج عدد من العلماء ان «كل نظرية للأعراق غير كافية هي أسطورة».

«ان التقدمات الأخيرة في الورايات البشرية أصبحت اليوم في وضع جعل كل البيولوجيين يرفضون وجود أعراق في الجنس البشري» (٧) ومن الوجهة البيولوجية ان لون البشرة عنصر تافه بالنسبة إلى جملة النطف (الجينوم). ويرى بنتلاي كلاص أن لا وجود لأكثر من ستة أزواج من النطفيات يخالف بها العرق الأبيض العرق الأسود. وكثيرا ما يختلف البيض فيما بينهم وكذلك السود فيما بينهم بعدد كبير من النطفيات ولذا صرحت اليونسكو، بعد أن جمعت ندوة من الاخصائيين الدوليين أن «العرق ظاهرة بيولوجية أقل مما هو أسطورة اجتماعية» (٨) وفي ذلك من الصحة ما جعل الياباني في افريقيا الجنوبية «أبيض شرقيا» والصيني يعتبر «ملونا».

(٥) مايو، رواج. رقي، المصدر المذكور ص ١١٥.

(٦) انظر متناجو «مفهوم العرق».

(٧) ج. روفي، المصدر المذكور ص ١١٦.

(٨) أربعة تصريحات حول المشكلة العرقية، اليونسكو، باريس، ١٩٦٩.



وفي نظر هيرنو، الجنس البشري يشابه شبكة من الأراضي الوراثية، وفي «الجينومات» الجماعة التي تكون سكانا يتشابهون كثيرا أو قليلا، ويعبر عن بعدهم الكيفي بتقدير كمي (علم قوانين للتصنيف العددية) وحدود هذه الأراضي انطلاقا من الانخفاض المالي تتأرجح مع كل التغيرات التي تبقى صداها في الظواهر (الطبائع الوراثية) والمعطيات المصلية (الأمثلة الخلقية) للمجموعات. وطبقا لما كان لداروين من حدس عبقرى يكون في الجملة عملا يتحرك، يتبع، ان صح القول، حركية المواقع، وتكون الشعوب، هجناء تم تهجنهم أو هم بصدد التهجن. ويحل كل لقاء بين شعوب في الواقع كهجرة فصيلية، ويعمل هذا التدفق النطفي على إعادة النظر في الرصيد البيولوجي لدى الفريقين المتقابلين.

ولكن وان كانت هذه النظرة أكثر علمية، وان كانت هذه الأراضي الوراثية الماثجة تعترف بها المجموعات المعنية، فهل سيلغى من جراء ذلك الشعور بالنموذج «العرقى»، اذ هو يحتفظ بأساس مادي مرئي ملموس في شكل الظواهر الوراثية.

ومنذ أن أكد واضعو النظرية النازية، ابتداء من هتلر، ومن بعدهم من المفكرين المزعومين، أن بين الآري «بروميشيوس الجنس البشري» وبين الاسود «الذي هو حسب أصله نصف قرد» يوجد انسان البحر الابيض المتوسط المعتبر واسطة، ولم تمت الاسطورة العرقية. واستمر علماء المورفولوجيا المتعددون على تأجيج هذه النار الفظيعة ببعض الأغصان الميتة (٩) وكان ليني يقسم الجنس البشري الى ستة أعراق: الاميركي والاوربي والافريقي والآسيوي والمتوحش والشاذ، وبلا شك ان العنصرين يملون في أحد الصنفين الآخرين.

ولنحتفظ من كل هذه النظريات، قضايا وفرضيات، بطابع الحركية للظواهر «العرقية» من كون هذه الحركية بطيئة كثيفة تعمل على عدة سجلات، فلون البشرة ولوقيس بواسطة المستضوي الطيفي الكهربائي - وكذلك شكل الأنف، ليسا سوى ظاهرة تافهة أوتكاد. وفي هذه الحركية يجب الاحتفاظ بمركبتين محركتين متداخلتين، التراث الوراثي ويمكن أن يعتبر مصرفا عظيما للمعطيات البيولوجية حال عملها، والبيئة بالمعنى الاعم اذ هي تبتدىء في الوسط الجيني.

وما يطرأ من التغيرات من جراء العمل المشترك لهذين العاملين الاساسيين، يتم اما في شكل غير مراقب من الانتقاء وهجرة النطفة (تهجين)، واما في شكل خطير من الانحراف النطفي أو التحول. وبالاختصار هذا هو كل تاريخ مجموعة سكنية تفسر ملمحها «العرقى» الحالي، بما في ذلك، عن وساطة التثيلات الجماعية والأديان والانماط الغذائية واللباسية وغيرها.

وفي هذا السياق ماذا يمكن أن يقال في الوضع العرقى بالقارة الافريقية؟ يصير التحليل التاريخي صعبا في هذا المجال من جراء صعوبة الاحتفاظ بالمتحجرات البشرية بموجب الرطوبة

(٩) يذكر ج. ر. في معجما فرنسيا للطب والبيولوجيا يرقى سنة ١٩٧٢ مفهوم الاعراق التي توجد منها ثلاثة جموع أساسية (البيض والسود والصفير) تعتمد على معايير تشكيلة وتشريحية الخ. وكذلك نفسانية.

في بداية القرن كتب سينوبوس في مؤلفه «تاريخ الحضارة» ان الرجال المعمرين للأرض يختلفون أيضا في اللسان والدكاء والاحاسيس. وتمكن هذه الفروق من تقسيم سكان الارض الى جموع عدة تسمى «اعراقا».

وحوضه الارض، على أنه يمكن أن يقال، خلافا للنظريات الاوربية المفسرة لعمران افريقيا بواسطة هجرات قادمة من آسيا (١٠)، ان سكان هذه القارة في معظمهم من الأهالي. وأما لون بشرة أقدم سكان القارة في خطوط العرض المدارية، فان الكثير من المؤلفين يعتقدون أنه كان اذكن (براس ١٩٦٤) اذ إن اللون الأسود نفسه هو مواعمة احتواء ضد الاشعاعات الضارة ولا سببا أشعة ما وراء البنفسجي. وأما لون البشرة الفاتحة وكذلك لون العينين لدى شعوب الشمال، فقد يكونان طابعين ثانويين ولدهما التحول أو الضغط الانتقائي (كول ١٩٦٥).

واليوم، ودون أن نتمكن من رسم حدّ خطي بين المجموعات «العرقية»، فانه يمكن أن نقف على مجموعتين كبيرتين منها من جهتي الصحراء. في الشمال المجموعة العربية البربرية ويغذيها تراث وراثي من «البحر الابيض المتوسط» (ليبيون، ساميون، فينيقيون، آشوريون، يونان، رومان، أتراك الخ) وفي الجنوب مجموعة زنجية. ولنلاحظ أن التذبذبات المناخية التي عمت أحيانا الصحراء، قد أنشأت الكثير من الامتزاجات خلال آلاف السنين.

وانطلاقا من بعض العشرات من المؤشرات الدموية، عرض ناي ماساطوشي وأ. ر. روي كودوري على الدرس، الفروق الوراثية داخل المجموعة الواحدة وبين المجموعات وذلك في المجموعتين القوقازية الشكل والمنغولية الشكل (١١). وحددا معاملات الارتباط ليضبطوا الفترة التقريبية التي انفصلت فيها المجموعتان وتكونتا كل واحدة على حدة. وقد استقلت المجموعة الزنجية الشكل منذ ١٢٠.٠٠٠ سنة، بينما تخصص القوقازيون والمنغوليون منذ ٥٥.٠٠٠ سنة فقط. وحسب ج. روي أن هذا «المخطط» يتفق مع معظم المعطيات من النموذجية الدموية الأساسية (١٢).

ومنذ ذاك طرأت امتزاجات عدة على القارة، وقد وقع السعي في تشخيص المسافات البيولوجية للمجموعات السكنية بفضل التقنية الرياضية للمركبات الرئيسية. حاول ذلك أ. جاكوار على سبع وعشرين مجموعة سكنية متوزعة من جهة البحر الابيض المتوسط الى جنوبي الصحراء. موصوفة بخمسة نظم دموية تمثل ثمانية عشر عاملا (١٣)، فحصل على ثلاثة جموع رئيسية توزع على أربع تراكيمات، اجدها في الشمال وهم القوقازيون المركبون من أوريين، والرقيبات، والعرب السعوديين وطوارق كل - كمر.

ويشتمل التراكيم الجنوبي على جموع السود في أغادس. والتراكيمان الوسطيان يشتملان على الفلانيين المنعوتين بورورو وطوارق الغير الناسيلي والأثيوبيون الخ، ولكن أيضا الحرافين وقد اعتبروا تقليديا من السود. وقد يكون اذن من الخطأ أن يظن أن هذا التقسيم تأكيد للقسمه الى أعراق تقليدية اذ يقطع النظر عما قيل أعلاه، فان ملامح التقسيم تنتج عن كمية المعلومات المحفوظ بها، فاذا كانت هذه المعلومات قليلة، تمكنت جميع النقاط من التجمع.

وفيا يخص الانسان في جنوبي الصحراء، فانه ينبغي أن نسجل أن تسميته الاصلية عند لتي

(١٠) ان النظرية الحامية (سوليبان وغيره) الناشئة جزئيا عن جهل بعض الأحداث وجزئيا من ارادة تبرير النظام الاستعماري، أشد الاشكال العنصرية لهذه التركيبات التي تدعي العلمانية.

(١١) ناي ماساطوشي وأ. ر. روي كودوري ١٩٧٤، ٢٦، ٤٢١.

(١٢) ج. روي، المصدر المذكور، ص ٣٩٩.

(١٣) جاكوار، ١٩٧٤، ص ١١ - ١٢٤.

كانت «الانسان الافرى» (الافريقى) ثم وقع الكلام عن الزنج، ثم السود، وأحيانا عن لفظ أوسع بمعنى «زنج الشكل» ليضم كل من يشابه السود على حدود القارة أو في قارات أخرى. واليوم، رغم بعض الأصوات المعارضة، فإن معظم العلماء يقرون بالوحدة الوراثة الأساسية لشعوب جنوبي الصحراء. فحسب بويد، مؤلف فكرة التصنيف التوليدي للعروق الانسانية، لا يوجد الا مجموعة زنجية الشكل تشمل كل القسم من القارة الكائن جنوبي الصحراء، وتشمل أيضا أثيوبيا، وهو يختلف اختلافا محسوسا عن سائر الجموع.

وأثبتت أعمال ج. هيرنوهذه النظرة بوضوح عجيب ودون أن ينكر التغيرات المحلية الظاهرة، بين هيرنوبالتحليل لتقدر ٥٠٥٠ مسافة بين ١٠١ مجموعة من السكان، وحدة الشكل لسكان المدى العظيم الواقع جنوبي الصحراء الذي يشمل «السودانيين» كما يشمل «البنتو» وأهل الشواطئ والسواحليين، و«الخوازان» والأقزام وأهل النيل والفلايين وغيرهم من «أشباه الاثيوبيين». وبالعكس انه يبين البون الشاسع من الناحية الوراثة بين «السود الآسيويين» والسود الافريقين. ولقد أوضحت التصنيفات أكثر فأكثر الوحدة الأساسية لللغات الافريقية حتى في اللسانيات التي لا علاقة لها بالجدث «العريق»، ولكنها جثدت نفسها ضد النظريات العنصرية لاستنباط سلسلة لغوية تعكس الطبقية «العرقية» المزعومة التي يحتل فيها «الزنج الحق» الدرجة السفلى من السلم. والتغيرات الجسدية تفسر علميا بأسباب التغيرات التي ذكرت أعلاه، وخاصة البيوطوبات (المدى الجغرافي) التي تثير أحيانا التراكمات السكانية المتنوعة (وادي النيل)، وأحيانا الجماعات المتوحدة من الشعوب المظهرة قليلا أو كثيرا لخصائص لا نموذجية (جبال، غابات، مروج، الخ). وفي النهاية أن التاريخ يفسر بعض الشواذات الأخرى بواسطة الغزوات أو الهجرات، ولا سيما في المناطق الحدودية. فالتأثير البيولوجي للشبه في الجزيرة العربية على القرن الافريقى يشعر به على شعوب هذه الجهة: الصومال والقالا والاثيوبيين، ولكن أيضا بدون شك يشعر به التوبو والفلايين والتوكولور والسنگفاي والموسا الخ... واتفق أن شاهدنا من المراكا (فولطا العليا) من له ملامح «المامي» المتميزة جدا.

وخلاصة القول، ان التنوع العجيب في الطباق الوراثة الافريقية، يشير الى تطور طويل المدى في هذه القارة. وما لدينا من بقايا متحجرة مما قبل التاريخ يبين انتشارا واسعا جدا لنموذج جنوبي الصحراء، من افريقيا الجنوبية حتى شمال الصحراء، وكان لمنطقة السودان دور مفترق الطرق بالنسبة الى هذا التفشي.

نعم ان تاريخ افريقيا ليس تاريخ «أعرق» ولكنه قد أسرف كثيرا في استعمال الاسطورة العلمية المزعومة القائلة بتفوق بعض «الاعراق» لتبرير نوع من التاريخ. وحتى اليوم ان الهجين مازال يعتبر أبيض في البرازيل وأسود في الولايات المتحدة. وعلم الانتروبولوجيا، وقد برهن أن لا علاقة بين العرق وبين درجة الذكاء، يلاحظ بالعكس أن هذا الترابط موجود أحيانا بين العرق والطبقة الاجتماعية.

ومن الأمور الواضحة منذ ظهور الانسان على هذا الكوكب أن الثقافة كان لها عبر التاريخ قصب السبق على البيولوجيا. فتي يفرض هذا المبدأ نفسه على الأذهان؟

## معجم المصطلحات

عنقلاط: (أو مدغوش) نسخة من الجينة.	البيولوجية فهو يشير مشاكل اجتماعية.
انتقاء: توليد مفرق للطرازات العرقية من جيل لآخر.	انحراف وراثي: اضطراب التراث الوراثي في مجموع بشري عديد
هجرة جينية: انتقال الأفراد المولدين لمجموعتهم السكنية	منعزل، من جراء حادث تسبب في انحطاط التردد أو في
الاصيلة، الى مجموعة متبناة (تهجين). والتهجين الذي يعتبره	اضمحلال نسبة جينية.
العنصر يربط انحطاطا للعرق الاعلى، هو بالعكس هنا اثره	تغيير إحيائي: ظهور تغير موصوف وراثي من جراء التبدل في
للمجتمع البشري للجينات، ومع كونه ايجابي من الوجهة	جينة أو عدة جينات.

تعليق: أجريت هذه الدراسات في اطار الاعداد لمشروع التاريخ العام لافريقيا بطلب من اليونسكو:

- ج. هيرنو: تقرير عن مفهوم العرق، باريس، ١٩٧٤.
- ج. ب. ريثمين شروح عن تاريخ العرق وال عمران البشري في افريقيا، نيويورك، ١٩٧٤.
- أ. ستروغال، مشاكل الدراسة للاعراق البشرية، براغ، ١٩٧٦.

## الهجرات والاختلافات السلوكية واللغوية

د. أولدروج

اعتقد المؤرخون طويلا أن الشعوب الافريقية لم تحدث تاريخا مستقلا في اطار متطور متميز. فكل ما كان يمثل مكسبا ثقافيا كان يبدو واردا اليهم من الخارج، أتت به موجات من الهجرات من آسيا. وانتشرت هذه النظريات في عدد عديد من المؤلفات الاوربية في القرن التاسع عشر. وتقعدت وتبلورت في شكل مذهب لعلماء من الألمان (من علماء خصائص الشعوب أو اللسانيين) في العشرينات الاولى من القرن التاسع عشر. وكانت المانيا في ذلك العصر مركزا رئيسيا للدراسات الافريقية.

وبعد اقتسام القارة الافريقية من قبل السلطات الامبريالية، وجد في انكلترا وفرنسا والمانيا عدد كبير من المؤلفات عن عادات الشعوب المستعمرة، ولكنه في المانيا على الخصوص جرى الانتباه الى أهمية الدراسة العلمية للغات الافريقية. ف منذ ١٩٠٧ انشئ في هيمبورغ، المعهد الاستعماري المعد لان يكون فيما بعد مركزا عظيمًا أعدت فيه أجل الأعمال النظرية للمدرسة الالمانية عن الدراسات الافريقية. وفي هذا الشأن كانت المانيا متقدمة جدا عن سائر البلدان الاستعمارية، فسنة ١٩١٦ فقط شرع في تدريس اللغات الافريقية في انكلترا، بمدرسة الدراسات الشرقية، بينما كانت مدرسة اللغات الحية الشرقية في فرنسا في ذلك العهد لا تخصص اي جزء من منهاجها لهذه المسألة. ويجب ان ننتظر إلى سنة ١٩٤٧ لتنشأ مدرسة للدراسات الشرقية في لندن وهي مدرسة اللغات الشرقية والافريقية. وبعد ذلك بقليل، شرع أيضا في فرنسا في تدريس اللغات الافريقية تدريسا منتظما.

## نظريات المدرسة الألمانية والاكتشافات الحديثة

وهكذا، حتى قبيل الحرب العالمية الأولى، كانت لألمانيا الزعامة في تدريس التاريخ والانتوغرافيا واللغات الأفريقية، وكانت آراء علماء الألمان تظهر خلال المؤلفات المنشورة بانكلترا أو فرنسا أو بلجيكا. لذا كان علماء الانتوغرافيا في أوروبا الغربية يؤكدون في بداية القرن العشرين، أن الشعوب الأفريقية لا تاريخ لها. وبناء على ذلك استنبت علماء اللسانيات النظرية الحامية القائلة بأن تطور الحضارة في إفريقيا إنما تم بتأثير الحامين الواردين من آسيا ونلاحظ هنا أثر آراء هيجل الذي كان يقسم العالم إلى «شعوب تاريخية» وإلى «شعوب لا تاريخية»، وكان الأولون هم محركو الرقي البشري، بينما كانت سلبية الآخرين تجعلهم في موقع هامشي بالنسبة للتطور الفكري العالمي. فحسب هيجل، فإننا لا نستطيع أن نكتشف أي تطور تاريخي واقع في إفريقيا الحق، وفي رأيه أن الشريط الشمالي من القارة قد يلحق بالمصير الأوروبي. وقرطاج كمستعمرة فينيقية، ما هي إلا زائدة ملحقه بآسيا، بينما تصبح مصر غربية عن الفكر الإفريقي.

وقد اصطبغت معظم البحوث العلمية الخاصة في إفريقيا خلال القرن التاسع عشر بآراء هيجل، والامر واضح في أول محاولة لرسم لوحة عن التاريخ الإفريقي بقلم هـ. شورتس. فيشبه هذا المؤلف تاريخ الأعراق الأوروبية بالنشاط الذي يتسم به يوم مشرق مضيء، بينما قد يشبه تاريخ إفريقيا سباتا عميقا لا يكشف بعده شيء عند اليقظة.

وهكذا في نظرهيجل، نور الفكر قد أشع من آسيا حيث يرى أن التاريخ قد بدأ منها، وكان العلماء الأوروبيون يعتقدون أن لا شك في كون آسيا، مهد البشرية، قد كانت منبع الشعوب التي زحفت على أوروبا وإفريقيا. ولذا كان يبدو من الواضح للعالم بالانتوغرافيا الانكليزي ستوان جماعة السان وهم من أقدم المجموعات البشرية في إفريقيا قد جاؤا من آسيا على فرقتين متميزتين: جماعة سان الرسامين، وجماعة سان النقاشين، فسلكوا مسلكين مختلفين لعبور البحر الأحمر بضيق باب المندب، وبعد أن قطعوا الغابات الاستوائية، التقوا من جديد على حدود إفريقيا الجنوبية. وأننا لنجد في مؤلفات ف. ستولمان الجغرافي والرحالة الألماني صورة مدققة عن موجات الهجرات وعن مختلف المراحل التي مر بها عمران القارة الأفريقية بالسكان. ويعرض المؤلف في كتابه النظريات التي قدمتها المدرسة الألمانية للتوجيه التاريخي الثقافي. فعند مفصل القرنين التاسع عشر والعشرين، قامت حلة عنيفة ضد المذهب التطوري الذي يكون الأساس النظري لأعمال ر. تايلور ول. هـ. مورغان ولبوك الخ. فكان علماء المدرسة التوجيهية التاريخية الثقافية يرفضون قبول فكرة التطور المنتظم الشامل لجملة البشرية. بل اتخذوا موقفا مقابلا لهذه النظرية، وصرحوا بوجود دوائر متميزة للحضارة، يمكن التعرف عليها بواسطة معايير ملائمة تتعلق خاصة بالثقافات المادية.

وفي نظر هؤلاء المؤلفين فإن بث المكاسب الثقافية قد يتم خاصة عن طريق الهجرات. وكان العالم الألماني ليوفرو بينيوس هو أول من صرح بهذا الرأي، ثم جاء دور أنكرمان الذي يصف انتشار دوائر الحضارة عبر إفريقيا. ولكننا إنما نجد عرضا مفصلا لهذا العمل في كتب ستولمان. ففي رأيه أن شعوب الأقزام يكمن وسان — هي المكونة للعمران السكاني الأهلي الأقدم في إفريقيا، وتكاد هذه

الجموع لا تملك اي عنصر ثقافي. ثم اقبل الزنوج ذوو البشرة الدكناء والشعر الجعد، آتين موجات مهاجرين من اعماق الجنوب الشرقي الاسيوي. وانتشر هؤلاء الزنوج خلال السهوب السودانية، وتوغلوا في الغابة الاستوائية مدخلين معهم فلاحه بسيطة وغرس الموز والقلقاس، واستعمال الآلات الخشبية والقوس والسهم والبيوت المدورة او المربعة. وكانت هذه الشعوب تتكلم لغات متقطعة. ثم تبعهم اول الحاميين من اصل آسيوي أيضا لكن من مناطق تقع شمالي المهدي الاصلي للزنوج وكان هؤلاء الفلاحين الجدد يتكلمون لغات. ولعلمهم علموا الاهالي الفلاحه بالمسحاة وزراعة الذرة وغيرها من الحبوب وتربية الماشية الصغيرة ذات القرون الخ. وقد يكون تهجين الحاميين الاولين بالزنوج ولد شعوب البانتو. ثم جاءت زحافات الحاميين ذوي البشرة المفتوحة وقد تمت إما عن طريق برزخ السويس، وإما عن طريق مضيق باب المندب. وقد تكون هذه الشعوب هي اجداد الفلانيين والماساي والباري والكلال والصومال والخوي. وقد يكونون ادخلوا عناصر جديدة ثقافية مثل المواشي الكبيرة ذات القرون، والرمح ومختلف الاستعمالات الجلد، والترس الخ. ويجعل ستولمان البلاد الاصل للحاميين ذوي البشرة المفتوحة في سهوب آسيا الغربية، وفي نظره تكون موجه الهجرة التالية اتت بالساميين الذين يكونون قد اسسوا الحضارة في مصر القديمة، وأتوا بزراعة الحبوب وباستخدام المحراث وباستعمال البرونز. ثم اتى دور الهكسوس واليهود القادمين الى مصر ودور الحبشات والمهري النازحين الى هضاب اثيوبيا. وآخر من قدم مصر العرب في القرن السابع. وعند دخول هذه الشعوب القارة ادخلوا اليها عناصر جديدة من الحضارة لم تكن البتة معروفة عند اهالي البلاد السابقين. وظهر كتاب ستولمان سنة ١٩١٠ في همبورغ، قبيل الحرب العالمية الاولى، ولكن آراءه فيما يخص البناء التدرجي للحضارة الافريقية بفضل اعراق اجنبية قد كررها وطورها فيما بعد علماء اتنوغرافيا آخرون: سبانوس ولوشان في المانيا، وسليغمان في انكلترا وهونيا في النمسا الخ.

وطبقا لنظريات المدرسة التاريخية الثقافية، فاننا نشاهد في اللسانيات ظهور جملة من النظريات توصف بأنها المذهب الحامي. فيرى س. ماينوف، وهوباثها، ان اجداد السان كانوا أقدم شعب أهلي في افريقيا. فكانوا يمثلون عرقا متميزا تماما، ويتكلمون لغات ذات تنغم خاص. وأما الزنوج فكانوا يعتبرون من اهالي المنطقة المدارية والسودانية، وكانوا يتكلمون لغات متقطعة ذات اصوات وجذور وحيدة المقطع ثم تظهر الشعوب من العرق الحامي الواردة من جزيرة العرب الى السودان مروراً بافريقيا الشمالية، وهي تتكلم لغات اعرابية وتتعاطى تربية المواشي، وهم في نظره ثقافيا من درجة اعلى من الزنوج، على ان جزءا من الزحف الحامي امتد على سهوب افريقيا الشرقية واختلط بالاهالي في تهجين أدى الى الشعوب الناطقة بالبانتو. وبصورة عامة يمكن اختصار هذا التطور التصاعدي في صورة شريط ذي اربع لقطات، في البداية اللغات ذات تنغم خاص، ثم اللغات المتقطعة البسيطة جدا التي يتكلم بها الزنوج السودانيون.

وعند الاختلاط باللغات الحامية ظهرت اللغات البانتو الملتصقة وهي لغة الإشراف. واخيرا اتت لغات الفاتحين الحاميين لغات ذات اعراب وهي من مستوى عال جدا. وقد انتصر عدد كبير من العلماء للنظرية الحامية التي فرضت نفسها انطلاقا من المانيا مروراً باوروبا الغربية جمعاء وبما وراءها.

على ان هذه النظرية انهارت فيما بين الحربين العالميتين، واكتشاف الانسان الجنوبي القديم سنة

١٩٢٤ بمقاطعة الكاب كان باعثا على وجوب إعادة النظر فيها، وتبع ذلك اكتشافات أخرى، وهي مستمرة دائما في شمال افريقيا وفي جنوبها ولكن بصفة خاصة في الشرق، في طانزانيا وكينيا واثيوبيا. فتثبت كل هذه الوثائق بصفة قطعية لاشك فيها ان تطور الانسان وكل التماذج العرقية وقع داخل هذه القارة نفسها منذ الاصول. واكتسحت بذلك ذاته نظرية الموجات الهجرية الواردة من الخارج. وكما يصرح بذلك حقا العالم الباليونتولوجي الشهير س. أرمبرج، ان افريقيا هي القارة الوحيدة التي يوجد فيها، في خط تطور غير منقطع، كل مراحل التطور البشري. فالانسان القديم الجنوبي وانسان جاوة والنياندرتالي والانسان العاقل تتعاقب فيها مع الوسائل الملائمة، منذ العصور الخالية حتى العصر الحجري الجديد. وهكذا تتأكد فكرة داروين الذي كان يضع اصل الانسان الاول في افريقيا. ثم ان هذه الاكتشافات قد اتت بالحجة الملموسة على أنه من المشين أن ننكر لافريقيا تطورا ثقافيا داخليا. وفي هذا الشأن فان الرسوم والنقوش الصخرية في الاطلس وفي افريقيا الجنوبية وفي الصحراء، تقدم لنا عن ذلك شهادة ساطعة لما أهمية قصوى.

واما قدم البقايا الاثرية فلا شك فيه منذ ان شغقت اليوم التاريخية النسبية المرتبطة بصناعة الاشياء وموقعها داخل الطبقات، بتأريخ مطلق يرتكز على طرق توقيتية علمية كطريقة الفحم ١٤ والبوتاسيوم - أرغون. فتغير بذلك جدول التطور الثقافي للشعوب الافريقية وقلب ظهرها على عقب. وقد لوحظ مثلا في خطوط العرض الصحراوية والساحلية، ان العصر الحجري الحديث يرجع الى فترة اقدم من التي كانت تظن، وهذا مما قبل جدول التطور الافريقي بالنسبة الى عالم البحر الابيض، وبالحصوص الشرق الاوسط.

وما اكتشف من البقايا في تاسيلي ناجر كما في تادراوت اكاكوس على حدود الجزائر وليبيا قاطع حاسم: ففحص المواقف وشظايا الحرف فيها يدل على ان الفخار كان مستعملا منذ ٨٠٠٠ عام، وفي اكاكوس يحمل هيكل لشخص من نوع الزنجي الشكل وقع الكشف عنه، آثار ثياب من جلد، ولما درست هذه المواد، اعتبرت من تاريخ يرجع الى ٩٠٠٠ عام، وكذلك ان البقايا التي عثر عليها في الهكار والتي وقع تحليلها بثلاثة مختبرات مختلفة، كشفت كلها عن سن مشابهة. وينتج عن ذلك ان العصر الحجري الحديث في تاسيلي ناجر وفي اللاندي يبدو أنه أقدم من مثيلة في المغرب ومعاصرا لنظيره في اوربا الجنوبية وفي برقة (شرقي ليبيا).

واعجب من ذلك ما استنتج من فحص القطع العضوية المجموعة في النوبة السفلى في حقول العصر الحجري الجديد. ويقدر انه في سنة ١٣٠٠٠ ق. م. تقريرا وفي هذه الجهة، كانت تحني مواسم الجيوب البرية وكانت تهباً للطعام. فالتحليل بالفحم المشع للبقايا المتحجرة في بلدة بلانا، اعطى تاريخ  $12050 \pm 280$ . وعين التجربة وعلى انقراض طوشكي كشفت عن تاريخ  $12550 \pm 490$  مما يدل على أن زراعة النباتات في وادي النيل كانت جارية اربعة آلاف سنة قبل العمل بها في الشرق الأوسط.

وحسب تقليد مستقر، كان كل عرض عن تاريخ افريقيا يبدأ دائما في مصر. واليوم، كل شيء يدل على وجوب إعادة النظر في هذا التقليد.

وقد سمى عالم المصريات الاميركي بريستد جملة البلدان المكونة من مصر وفلسطين وما بين الرافدين باسم «الهلال الخصيب». وذلك ان هذه المنطقة شبه هلالا عظيما ازدهرت في صلبه ومن



اجله الحضارة الفرعونية وحضارات المدن الدول في سومر وأكاد. والواقع ان هذا العمل لم يشرع فيه الا حوالي ٥٠٠٠ او ٦٠٠٠ قبل الميلاد.

هذا بينما قبل ذلك بكثير كانت الظروف المناخية من وادي الهندوس الى المحيط الاطلسي ملائمة لانتشار تربية الماشية وللزراعة البدائية، اي كل مامن شأنه ان يكون مجتمعاً تشاهد فيه اولى خطوط الطبقات والدولة.

وهكذا فان «الهلال الخصيب» لا يمثل سوى النهاية والشاهد لمجال فسيح مفعم بالحياة، اخذ الناس يستأنسون فيه بالحبوب البرية وشرعوا في جعلها اهلية في آن واحد مع الدواب الضخمة، من البقر الى الماعز. ويشهد على هذا التطور العظيم ما تعبر عنه الرسوم والنقوش الصخرية بالصحراء، وما يمدنا به الفهم المشع وتحليل غبار الطلع المتحجر من ارشادات النخ. ومن الممكن ان تصلح بعض الخطوط التوقيتية بفضل التدقيقات الواردة فيما بعد، ولكن الصورة المقدمة حتى الآن فيما يخص العمران في العالم القديم، قد تجاوزتها الأحداث على الإطلاق، وعوضا عنه فلا بد ان يعترف لافريقيا بدورها كقطب لانتشار الناس والتقنيات في أقدم العصور من التاريخ البشري (اول عصر الحجارة القديم). وفيما بعد قد لوحظت تيارات للهجرات المعاكسة اي رحلات العودة الى القارة الافريقية.

## مشاكل انتروبولوجية ولسانية

تمدنا الاشارات الأنتروبولوجية بصورة عامة بعلاقات اثبت واشد استقرارا من أحداث اللغة التي تخضع لتغيرات سريعة أحيانا في ظرف بضعة أجيال، مثلا اذا هاجر شعب الى وسط لساني جديد، أو كذلك في حالة الغزو اذا ما كان الفاتحون يتكلمون لهجة تخالف لهجة الالهالي.

ومثل الاستيطان الزنجي في اميركا الشمالية له دلالة في هذا الشأن: حين حل هذا المجتمع البشري بمناخ وفي وسط جغرافي يخالفان ما كان سائدا في قارته الاصلية، فقد احتفظ عمليا بنموذجه الانتروبولوجي (الاصلي كاملا) بينما هو فيما يخص اللغة او الحضارة لا يختلف في شيء عن السكان البيض في الولايات المتحدة ولا تبقى عناصر الثقافة الافريقية القديمة الا في المجالات الثقافية والروحية: الموسيقى والرقص والمعتقدات. ويجدر ان نشير الى وضع مقابل لهذا هو وضع مجموعة قليلة العدد جدا نعي السيدى احفاد الافارقة الذين نقلوا من الساحل الشرقي الافريقي الى الهند منذ بضعة قرون. فقد كانوا في بداية القرن التاسع عشر يتكلمون لغتهم الاصلية، ولكنهم اليوم يتكلمون لغات الشعوب الهندية المحيطة بهم، الكوجاراتي، الاردو النخ. ولم يحتفظوا من آثار تعكس نسبتهم الافريقية الا بملاحمهم الطبيعية.

في كلتا الحالتين اذن، فإن الافارقة الذين فارقوا موطنهم قد غيروا لغتهم في فترة قصيرة من الوقت، احيانا في ظرف جيل او جيلين.

ويجدر ايضا ان نذكر اللغات التي يتكلمها اهالي افريقيا الشمالية. فبعد الفتح العربي لبلاد المغرب، وخاصة بعد اندماج «القبائل» العربية في القرن الحادي عشر، صارت شعوب افريقيا الشمالية كلها ثقافيا، عربا من حيث اللغة ومن حيث الحضارة، ولم تبقى اللهجات القديمة الا في بعض الجهات من المغرب الاقصى وبلاد القبائل بالجزائر، وفي جبل نفوسة وفي الواحات. وحسب



- ١ • امرأة هاراتينية من ابدليس في الجزائر (تصوير أ. أ. نود).
- ٢ • رجل من شمال أفريقيا المغرب. (تصوير هوا — كوي، ريشيه).
- ٣ • امرأة جزائرية وطفلها (تصوير أ. أ. أ.، جيهانت).

علماء الانثروبولوجيا فإن الملامح الاساسية التي كانت للانموذج القديم الطبيعي مازالت باقية. فالعناصر الانثروبولوجية اذن، في جلتها، ما لم تؤثر البيئة الحيوية على الجسم، أكثر استقرارا من المعطيات التي تمدنا بها اللغة والحضارة. وما لدينا اليوم من الاحداث، يمكننا من التصريح بان توزيع النماذج العرقية المعاصرة في القارة الافريقية، يعيد في اهم الامور، الخريطة القديمة للجموع الكبيرة الانثروبولوجية الموصوفة احيانا في عجالة بـ «الاعراق». فمختلف النماذج من «عرق» البحر الابيض المتوسط، كانت ممثلة في افريقيا الشمالية منذ عهد بعيد جدا، وفي الشرق كانت تسكن شعوب من الانموذج الاثيوبي الشكل وهذا ما تؤيده اكتشافات علماء الانثروبولوجيا في الكينيا. وأما القطاع الجنوبي من القارة فكانت تشغله جموع سان.

وكانت الغابة المدارية والاستوائية تمتد قديما على مساحة افسح بكثير، ومن المحتمل ان يكون هناك تغيير جمع طريف، هو جمع الاقزام، وسماتهم مدينة بالكثير للرطوبة الكبيرة والى انعدام يكاد يكون تاما للاضاءة في الغابة. و «العرق» الزنجي من الانموذج المعروف بالسوداني والكنغولي قد يكون قد تميز في خطوط العرض المدارية ولا سيما في افريقيا الغربية. وفي هذا الموضوع ليس لدينا عدد كبير من المتحجرات الممتحنة المؤرخة كما ينبغي، وذلك بدون شك من جراء التحلل الكيماوي التابع لحموضة التربات. ومع ذلك فبعد انسان اسلار، اكتشفت في الصحراء وفي نيجيريا الجنوبية هياكل عظمية من انموذج زنجي الشكل، تعود الى فترات مختلفة وأحيانا قديمة جدا. وهي فيما يبدو، تشير الى أن هذه المنطقة بؤرة أصلية لهذا الانموذج البشري.

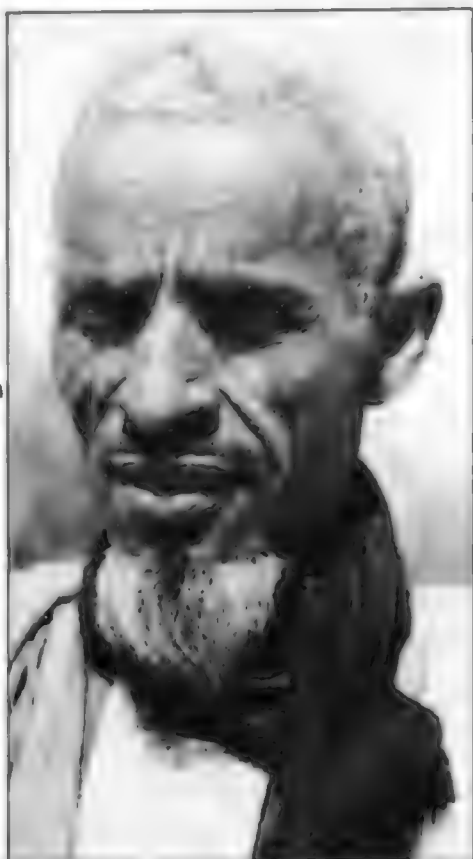
وشارت جدالات قوية حول مشكل الاستيطان الاصلي بالصحراء، ولكن دراسة الفن الجداري لا تبقى اي شك في هذا الموضوع. ان الاستيطان البشري الاسود كان سائدا في هذا القطاع، وهو لا يمنعنا ان نجد منذ عهد بعيد في هذه الجهات نماذج بشرية أخرى، هي مجموعات ملامح وجهها افريقية متوسطة (نسبة البحر الابيض المتوسط). وفي مصر، في الوثائق وعلى معالم الامبراطورية القديمة، يشار الى الليبيين تامهو ذوي البشرة المفتوحة والعيون الزرق، ولكن تذكر ايضا شعوب تنو ذات بشرة أقم. وفي المصادر اليونانية ايضا نجد إحالات خاصة باثيوبيين ذوي بشرة مفتوحة، ولكن كذلك احواله اخرى خاصة باثيوبيين جنوبيين لهم بشرة امكن، فيبدو حينئذ ان السكان الاصليين في ليبيا كانوا خليطا. ويصرح كاتب لا تيني مثلا: «شبه البعض من الليبيين الاثيوبيين والبعض الآخرهم من أهل جزيرة إقريطش (١)».

ويبدو ان التركيب العرقي لعمران وادي النيل كان متشعبا، ان شعوب هذه الجهة فروا من جفاف الصحراء فانزروا الى رطوبة الوادي. واختلطت مجموعات «اثيوبية» وافارقة متوسطيون بالسود من الانموذج السوداني. ولابد ان امتزاجات من هذا القبيل قد تمت للاسباب ذاتها في الاحواض النهرية — البحرية الملاصقة لصحراء السنغال الادنى والنيجر الأوسط والتشاد.

وان صح ما اشير اليه اعلاه من كون الملامح انثروبولوجية تتمتع بثبات عجيب احيانا الى حد عدة آلاف من السنين، فليس من المنوع ان نستكمل في ما قبل التاريخ بعض الصفات الرئيسية للشبكة العرقية الحالية، وعلى كل ان عملية تكوين «الاعراق» هي حاصلة تفاعل بين عوامل



٢



٣

● (١) رجل من سكان القولتا (تصوير أ.أ.، أ.أ.، نود).

● (٢) امرأة من شعب الـ «ساراكولية»، موريتانيا، منطقة النهر، جماعة صونينكية. (تصوير ب. نانتيه).

● (٣) رئيس عشيرة رخل من الركيزي في موريتانيا (تصوير ب. نانتيه).

متعددة تخصص شيئا فشيئا الملامح الموروثة، ولكنها أيضا تنقل بالوراثة الملامح المتميزة. وكانت هاته الملامح تخصص اساسا بموجب ظاهرة الملاءمة للوسط المحيط: أثر الشمس، الحرارة، الغشاء النباتي، درجة الرطوبة الخ. وحسب قاعدة عامة، تضعفها بالطبع استثناءات كثيرة، في نظر علماء الانتروبولوجيا فان افريقي الغابة اقصر قامة وواضح اللون، بينما يكون إنسان السهوب والساحل طويل القامة اذ كن اللون. ولكن لا ينبغي ان ينظر الى الامور بطريقة جزئية، اذ ان كل العوامل اتت بفعلها في آن واحد، فهكذا انتقال للمجموعات الحاملة لتراثات وراثية متباينة يكشف في الحال عن مصدرين ممكنين للتحويلات: اولا تغير البيئة الحيوية ثم التقاء مجموعات مختلفة تساعد على امكان تهجنات متنوعة. فاذا ما لوحظ شبه بدني عجيب بين اعراق بعيدة جدا الواحد عن الآخر في المدى، كما بين الدينكا في الصعيد المصري والولوف في السنغال وهم يتشابهون في دكنة البشرة وطول القامة فيبدو ان وجودهم على خط عرض واحد يوفر امكانية مرضية للتفسير. ولكن يجب ان لا نغفل عن تضافر العوامل المستخدمة من حركة التاريخ نفسها (٢).

وفي هذا السياق ان المثل المثير للكثير من الجدل، مثل الاقزام والسان، يجدر ان ينظر فيه بالتفصيل.

وفي القديم كان يظن ان هناك تطابقا عرقيا بين الاقزام في افريقيا واقزام آسيا الجنوبية. ويبدو ان وجهة النظر هذه قد تركت اليوم. فكل يرجح الظن بان ذلك نتيجة مواعمة قديمة جدا بين النموذج بدني مع الوسط المحيط، وان هذا العمل قد جرى في فترة طويلة من الانعزال، واليوم نجد الاقزام في غابات الكامرون وفي الكابون وفي المناطق في افريقيا الوسطى، بالزاير ورواندا. ولكنه يظهر من المتحقق ان مجال انتشار الاقزام في القديم كان اكثر امتداد. وفي المأثور المنقول لدى بعض الشعوب من افريقيا الغربية، يروى ان مجموعات من الاقزام كانت تسكن الغابة قبل مجيء الشعوب ذوي القامات الطويلة. نعم ان بعض الخرافات في اوربا الغربية ايضا تذكر اقزاما حدادين استقروا على الجبال. ولكن المأثور المنقول الافريقي لا يبدو وليدا للمخيلة الشعبية فقط، فهو ينطبق من بعض المصادر التاريخية التي تكشف عن وجود الاقزام في مناطق لا وجود لهم فيها اليوم.

وفي مصر، في كتابة تعود الى الاسرة السادسة من الامبراطورية القديمة على جدران قبر هرهوف (٣) في اسوان نشاهد نقل من رسالة الفرعون بيبي الثاني يشكر فيها الملك الشاب الأمير الذي أهده اقزما اسمه دنك، ويوجد هذا اللفظ في اللغات الحالية في اثيوبيا، بالامهرية ومختلف لهجاتها، كما في التكرينيا والكلا والكيابا بالصيغ الثلاثة: دنك، دانك، دنكي، دنكو، دينكا، (٤) وتذكر رسالة الفرعون ان قبل ذلك بقرن، في عهد الأسرة الخامسة، اتي بقرم مشابه للفرعون ايزيسي، وفي هذا السياق، لنذكر ان رحالة انكليزيا اثبت وجود اقزام دوكو في اثيوبيا الجنوبية. ويمكن ان نستنتج وجودا قديما للاقزام في المناطق التي يجلها اليوم السودان واثيوبيا.

(٢) انظر ج هيرنو، ١٩٧٠، مجلدا، ص ٥٣ و ٥٥.

(٣) ان النقل الحرفي لهذا الاسم: هير- هويف، (هرزق، ١٩٣٨، ص ٩٠).

(٤) و. ليسلو، ١٩٦٣، ص ٥٧.



● (١) امرأة من عشيرة الـ «بورورو»  
من شعب الفلاني، تاهوراء النيجر  
(تصوير ب. ناتيه).

● (٢) طفلة طارقة، أغاديس، النيجر  
(تصوير ب. ناتيه).

● (٣) امرأة من جرما سنغاي، بالاييراء  
النجر (تصوير ب. ناتيه).



وشيئا فشيئا حل أقوام أثوا حديثا محل اقزام الغابة الاستوائية والمدارية، وهم شعوب تتركب من اشخاص طويلي القامة يتكلمون لغات بانتو. وكما يروي النسونك اليانجا، في الدورة الملحمية للمنكو عن استيطان وادي الزاير، فإن الاقزام الاهابي تراجعوا شيئا فشيئا الى المناطق النائية في غابات الا توري والاويلي. ولشعوب بانتو آخرين قصص اصلها متشابه. ويمكن ان نستنتج ان ما بقي من مجموعات الاقزام اليوم هي كجذيرات تشهد على استيطان قديم أوسع بكثير في غابات افريقيا الاستوائية والمدارية.

والسان يمثلون جمعا آخر طريفا في القارة الافريقية، لهم قامة قصيرة ولون نحاسي واصفر وشعر محبب «كحلب الأبرار» وما زالت كتب الانتروبولوجيا تحشرهم مع الخوي خوي في «العرق» الخويسان. وبدون شك ان هذامذا خارجيا للتصنيف اللساني الذي يجمع بين السنة السان والخوي خوي في مجموعة واحدة، خاصتها المشتركة هي وجود مصوتات ممطقة ذات تنغم خاص لها قيمة صوتية. ولفظ «خويسان» الذي اقترحه ج. شابرا وتبناه عدد من المصنفات، وارد في الاصل من لفظين خوي وسان: «خوي بمعنى «انسان» وسان حيث المادة سا معناها «كدس، جنى الثمار، قلع الجذور، قبض على حيوانات» اي انه وصف لجمع من الناس بكيفية عيشهم «ينمط انتاجهم». وفي الواقع ان الصفات المشتركة بين الخوي خوي والسان قليلة جدا: نذكر منها اللون المفتوح واللغات ذات تنغم خاص. ولكن هذه الصفة الاخيرة ليست خاصة، اذ هي توجد في اللغات البانتو في الجنوب الشرقي كالزولو والكسوزا والسوطوالخ.

على انه توجد فروق عديدة بين المجموعتين: اذ يتميز الخوي خوي بقامة اطول وبوضع الشعر والعلامات الجمجمية (٥) وضخامة الاردادف لدى النسوة، بينما يختص السان بوجود ظفرة على عيونهم، ثم ان لغات الخوي خوي تختلف عن لغات السان من حيث المعجم ومن حيث النظام النحوي. وبين أ. ج. وستفال «الاخصائي الكبير في هذه المادة ان الضمائر عند خوي وهي تمثل أقدم قسم وثابته في الخطاب، لها صيغ واضحة وضوحا كبيرا، اذ يوجد فيها جنسان والمفرد والمثنى والجمع مع صيغ الضمنية والحصريين لا يوجد شيء من ذلك في لغات السان (٦). وليس الامر هنا يتعلق بمجموعة واحدة لسانية. واما من حيث الثقافات فهما يختلفان من كل وجه، كما سجل ذلك منذ القرن السابع عشر الرحالون الاولون ومن بينهم بيتر كلب. فكان الخوي يعيشون في القرى ويتعاطون صناعة المعادن ويشغلون بتربية الماشية. بينما كان السان رحالة يعيشون على الصيد وجني الثمار. وهكذا فان عملي الانتروبولوجيا واللسانيات يعارضان في تجميع هذين الشعبين في كتلة واحدة. وكل منها ايضا كان له تطور تاريخي متميز. فالسان بدون شك، يكتون بقايا الاستيطان الاصيل في الجنوب الاقصى من افريقيا. واليوم لقد دفعوا الى المناطق الصحراوية المنفرة في نميبيا والكلاهاراي، وتوجد منهم كذلك جموع منعزلة في انكولا، ولكنهم في القديم كانوا ينتشرون خلال السهوب الجنوبية والشرقية حتى حدود الكينيا، كما تشهد بذلك اساء الأماكن واسماء المياه، اذ ان

(٥) انظر الكيساف: في التصنيف الانتروبولوجي لأهابي افريقيا «ضمن المشاكل الأساسية — للدراسات الافريقية».

(٦) انظر أ. و. ج. وستفال: ١٩٦٢، ص ٣٠ — ٤٨.

• الأصل المترجم عنه وكما في المطبوع خوي خوي.

• ليس في المطبوع وستفال: انظر الكسابدي.



● (١) قزم من الـ «توا»، رواندا  
(تصوير ب. نانتيه).

● (٢) جماعة من الـ «سان» (تصوير  
ف. بالسان، مجموعة متحف الانسان،  
باريس).

● (٣) قزم من الكونغو (تصوير كونغو  
— بريس، دانداي، مجموعة متحف  
الانسان).





مسميات الانهار المحلية والجبال مقتبسة من لغات السان. وكذلك المصوتات ذات التنغم الخاص قد اقتسبتها عدة لغات بانتو. ثم ان الرسوم الجدارية على الهضاب العليا في افريقيا الجنوبية تمثل احيانا معارك بين السان ذوي القامة القصيرة واللون المفتوح، وبين محاربين سود ذوي قامة طويلة يمكن تعيين انتمائهم العرقي حسب شكل التروس التي يستعملونها.

والهذراي، وهم جمع عرقي صغير يعيش قريب بحيرة اياسي (طانزانيا) يمكن اعتبارهم شهودا على الانتشار القديم لاستيطان السان عبر افريقيا، ومع ان لغتهم لم تدرس درسا عميقا فانه من الغالب على الظن، انها قريبة من لغة السان. وتأيداً لنظرية قائلة بانتشار السان انتشارا قديما على اماكن افسح، نذكر الحجارات المستديرة المثقوبة الوسط التي توجد أيضا في افريقيا الشرقية. ويسمى السان هذه الحجارات كوى وكانت تستعمل لأثقال العصي المستخدمة لقلع الجذور الصالحة للاكل. ولكن نشر هذه التقنية عن السان، لم يرق عليه الدليل. فعند الكالا مثلا في اثيوبيا الجنوبية وبالحرار، يستعمل الدوندار وهو وتد مثقل بحجارة لحفر الأرض، ويستعمل الجهاز نفسه لا ثقال المدق المستخدم لسحق التبغ.

وعلى كل، فانه من اللازم الان نقصر الاستطيان الاقدم في افريقيا الجنوبية على الاقزام في الغابات وعلى السان في السهوب. فقد تكون مجموعات اخرى وجدت معهم. وهكذا فقد اكتشف مثلا في انكولا مجموعة الكواي وهي قريبة جدا من السان من حيث اللغة ومن حيث نوع العيش. وفي بداية القرن العشرين درس أيضا فيدار المجموعة العلمية الاوطان ورغم قاتمهم القصيرة وعيشهم من جني الثمار ومن الصيد، فإنهم يتميزون عن السان بلون بشرتهم الشديدة السوداء وبشفاهم الثخنة، وهم يسمون بالنوخوا أي «الرجال السود» خلافا للخوى الموصوفين «بالرجال الحمر» ونظامهم الطريفي في العدي يتميز عن النظام العشري المستعمل لدى الخوي خوي. ومثل هذه المجموعات، وهي بدون شك مازالت باقية في مناطق أخرى، تلقي ضوءا ثميناً على تاريخ الاستيطان الاصلي المتشعب في الغابات والسهوب في افريقيا الوسطى والجنوبية، ويظهر هذا التشعب في لغات البانتو في المستوى المعجمي والصوتي، مثلا عندما يدل وجود الاصوات ذات التنغم الخاص على اتصالات قديمة جدا بين الاعراق. ويتبع ذلك فروق بين لغات البانتو وقد يصل الامراحيانا كما هي حال مجموعة دزنيك في الشمال الغربي من منطقة البنتو، الى فروق في بنية جذور الكلمات. ومن دون شك فان هذا الخلاف ناشئ عن اسس لسانية سابقة، ويشكل الاقزام والسان اليوم جموعا ضئيلة عدديا بالنسبة الى مجموعة «الدزنيك» السائدة، بل وحتى بالنسبة الى العرق الافريقي الوسيط في افريقيا الشمالية.

وفي يومنا هذا لا تنطبق الخريطة اللسانية في القارة مع توزيع النماذج «العرقية» ولعل هذا الانطباق كان موجودا في البداية، ولكن منذ عهد بعيد. وقد تطورت الديموغرافيا والهجرات والتهجينات، وزال الانطباق بين التطور اللساني والعمل التكويني للنماذج «العرقية» ونعني بالعبارة الاخيرة، ارث المؤشرات الوراثية وملاءمتها التدريجية للوسط، واختلاف الخريطةين «العرقية» واللسانية واضح بالنسبة لشعوب السودان، منطقة التجمع لنموذجين مختلفين من الاسر اللسانية.

وينتمي شمال افريقيا، بما فيه موريتانيا واثيوبيا، الى حقل فسيح من اللغات السامية الشاميتية. ويظهر ان هذه التسمية غير صحيحة، اذ هي تتضمن وجود مجموعتين: السامية من جهة



• امرأة من الزولو (تصويراً. روبيار، مجموعة متحف الانسان).

والشاميتية من جهة أخرى، وفي القرن التاسع عشر قد سميت بالفعل سامية، لغات هذه المجموعة التي كانت مستعملة في الشرق الاوسط، وسميت شاميتية لغات افريقية. ولكن م. كوهان، عالم الساميات الفرنسي، لا حظ انه لا موجب ولا حجة تبرر هذا التقسيم الى مجموعتين، وتصنف اليوم بصفة عامة، لغات هذه الأسرة الى خمس مجموعات: السامية والكوشية والبربرية (٧) والمصرية القديمة (٨) والمجموعة التشادية اللسانية. فيتكلم لغات هذه العائلة اللسانية الكبيرة عدد كبير من الاعراق (ساميين وسود). وفي اقصى جنوب القارة الافريقية فان لغات السان مع ما يضاف اليها من لغات كوادي في بانكولا وهذزابي في طانزانيا، تنتمي فيما يبدو الى مجموعة متميزة، صفاتها المشتركة هي وجود الاصوات ذات التنغم الخاص والمطقة والبنيات المقطعة.

وقد يكون من الاضمن ان تسمى هذه المجموعة باللغات الافريقية القديمة كما يتحدث عن اللغات الاسيوية القديمة في الحدود الشمالية الشرقية من القارة الاسيوية. ولا يمكن حصر لغات الخوي خوي في هذه المجموعة لاختلاف نظامها النحوي. فالخوي خوي شعب من الرعاة قد هاجر بدون شك من الشمال الشرقي من القارة نحو الجنوب، حيث احاطت به جوع السان الالهية. وقد اقتبس البعض من هؤلاء، كاهالي جبال أوتاني وحتى النارون بالمنطقة الوسطى، لغة الخوي خوي، وهناك ما يؤيد فرضية التطريف المشار اليه اعلاه لانتشار الخوي خوي ابتداء من مناطق الصعيد المصري مروراً بالسهب الشرقية، وهواننا نجد في طانزانيا قرب بحيرة اياسي جمعا من السنداوي تبدو لغتهم منتسبة الى لغة الخوي خوي على ان تاريخ هؤلاء الخوي خوي من اغمض النقط في التطور العرقي في افريقيا. فحسب أ. وستفال ان الاصوات المطقة ذات التنغم الخاص في لغات الخوي خوي قد تكون مقتبسة من لغات السان وهذا رأي مفيد ولكن لا حجة تؤيده.

ومن المحتمل ان تكون سهوب افريقيا الشرقية اقدم منطقة استوطنت في القارة. ويحتلها اليوم سود يتكلمون لغات البانتو. ولكن، كما تدل على ذلك الشعوب الشواهد السنداوي والهدزابي، وجد قبلهم السان والخوي خوي، وهناك شعوب اخرى من المنطقة ذاتها يتكلمون الكوشية، وغيرهم له لغات تابعة لجموع مختلفة كالاراكو وقد سبق هذه اللغات كلها زحف اللغات البانتو التي ظهر البعض منها في فترة متأخرة نسبيا.

وبين اللغات السامية الشاميتية في الشمال، واللغات الافريقية القديمة في الجنوب، يقع مجال فسيح هو مجال اللغات التي سماها العالم اللساني دولافوس «اللغات الزنجية الافريقية»، و يصفها، س. ماينوف ود. وسترمان بكونها لغات سودانية بانتو، بينما يحشرها ج. غرينبرغ في الاسر الكنفو-كردوفانية والنيلية الصحراوية.

وتعرفت منذ عام ١٦٦٣ على هذه اللغات واقترحت تسميتها بالزنجية، وفي الاطار العام قد تميز اسراو جماعات لسانية، عرضا بحسب نتائج البحث.

والتعبير «اللغات الزنجية الافريقية» المقترح من م. دولافوس غير موفق، فالجزء الاول من العبارة فيما يبدو يمزج بين مفهوم العرق واللغة، على ان الزنوج في اميركا الشمالية والجنوبية كما في

(٧) يلحق بعض المؤرخين اللغة البربرية بالمجموعة السامية.

(٨) حسب بعض علماء المصريات الافارقة، المصرية القديمة تنتمي الى اللغات «الزنجية الافريقية» (انظر فصل ١، من المجلد ٢).

أفريقيا نفسها يتكلمون لغات متباينة تماما. والجزء الثاني من العبارة أيضا ليس في محله، إذ كل اللغات المستعملة من الشعوب القاطنة في أفريقيا بما في ذلك الأفريقان، هي لغات أفريقية. على أن تصنيف هذه اللغات إلى مجموعتين — السودانية والبانطو — هو أيضا مخطئ منذ أن بينت دراسات د. وسترمان القرابة المعجمية والبنوية بين لغات أفريقيا الغربية واللغات البانتو. وقد مهدت هذه الدراسات لإعادة النظر الشاملة في تصنيف اللغات الأفريقية، الذي التزمته خطأ المدرسة اللسانية الألمانية، ويعتمد تصنيف ج. غرينبرغ على الطريقة المدعوة «المقارنة الجمالية» فمع اعتبارها للعناصر الأساسية في النظام النحوي فهي تعتمد أيضا على المعجم. لقد ميز غرينبرغ سنة ١٩٥٤، عند تطبيق هذه الطريقة ست عشرة أسرة لسانية في أفريقيا، ثم جعلها اثني عشرة فحسب، ثم اختصر هذا العدد إلى أربع سنة ١٩٦٣، وأن هذا التخفيض السريع في عدد العائلات اللسانية ليبرهن على أن الطريقة لم تركز تركيزا لائقا، وأنه افراط في الإسراع قصد الحصول على تصنيف مهما كان الأمر.

ومن الأسر الأربع المحتفظ بها، فإن المجموعة الأفريقية الآسيوية ما هي إلا الأسرة السامية الشاميتية. وأما الأسرة المسماة باللغات الممطقة ذات التنغم الخاص ثم المسماة الكويزان، فتجمع لغات شعوب سان والحوي خوي. وكما صرحنا بذلك أعلاه، فإن هذا الإدماج خاطئ. وعلاوة على الأسرة النيجرية الكونغولية التي يضيف إليها غرينبرغ لغات كردوفان، أنه يميز مجموعة رابعة تكونها اللغات النيلية الصحراوية. وحتى الآن فإن بنية المجموعة الأخيرة لم تدرس إلا قليلا. وسنة ١٩٧٢ طبق ادغار كريكرسن طريقة غرينبرغ على هذه اللغات، فإدى ذلك إلى نتيجة، هي أن كل اللغات في هاتين الأسرتين يمكن إرجاعها إلى أسرة واحدة يقترح لها اسم الكونغولية الصحراوية. وتلتقي هذه النظرة بما كنت قد اقترحت من جمع هذه اللغات تحت عنوان مجموعة الزنج. وأما المجموعة المميزة بالنسبات المختلفة وبالفئات الاسمية، فقد يتعارض مع اللغات السامية الشاميتية أو الأثرية التي تقع معاييرها الخاصة في النبرة وفي الجنس النحوي. على أنه ليس من المتعذر أن تكشف الدراسات المقبلة عن خصوصية لغة من اللغات، أو مجموعة من اللغات داخل أسرة الزنج أو الكونغولية الصحراوية. ولكنها من الآن تبدي من الترابط والاتساق ما يوجد في الأسرة الهندية الأوروبية مثلا.

وداخل هذه الأسرة الكبيرة الزنجية، فإن لغات البانتوبلا شك، تبدي وجها كثير التجانس اقرته أعمال و. هـ. ل. بليك وش. ماينوف وم. كشري. ومن بين المجموعة التي كشف عنها د. وسترمان ضم المجموعة اللسانية السودانية، فإن أوضحها هوية هي مجموعة المندي. وعلى شرقي هذه المجموعة الأخيرة. وعلى غربيها لغات سماها وسترمان اللغات غور أو الأطلسية. ويعوزها ما للماندي من تجانس، حتى أن علماء اللسانيات الإنكليز حددوا فيها جمعا متميزا هو جمع للغات الميل. وفعلا فإن هذه المنطقة الكائنة في أقصى الغرب من القارة، قد أوت إليها أمواج من الشعوب الصغيرة أو التقت بها ثم ازاحها القادمون الجدد. فاحتفظت لغاتهم ببعض خاصيات اللغة البانتو، وأوضح الأمثلة لغة بلوم. وأتت مصنفاً مانسي الإخصائي في هذه اللغات، على الفرضية السابقة القائلة بوحدة لغات الغور، وقوضتها.

وإن ما يوجد في هذه اللغات من الأصناف الاسمية المكونة بطريقة متنوعة، بواسطة السوابق

واللواحق، بل حتى الحشوة، ليعكس التشعب العرقي في هذه المناطق التي كانت تمثل ملجأ لعدة جموعا بشرية تسمى «زنجية قديمة»، وتمتد على مناطق الجبال عبر السودان بأكمله من السنغال الى كردوفان... وقد اعتبروا أقدم الاهالي المستوطنين في السودان، على ان ذلك يبدو غير محتمل تبعا للتنوع اللساني واختلاف النماذج البدنية في هذه الفسيقساء من الجموع التي أتت هذه المناطق المنفرة، وتكدست فيها. وتشير التواريخ السودانية الى البعض من هذه الاحداث، مما يدل اذن على ان هذا العمل ليس عملا عتيقا. ان التقسيم اللساني في افريقيا اذن، لابد ان يعزى كل شيء الى اسباب تاريخية دفعت موجات الهجرة الى الامام.

ومن بين لغات السودان الشرقي التي هي من أقل ما درس من اللغات، نذكر اللغات النيلية القديمة؛ وتمثل جمعا متميزا كثيرا وضربا من الاسرة المندجة وراثيا، لعلها تكونت اثناء فترة طويلة من العزلة.

وتكشف المصنفات الجليلية التي قدمها عالما اللسانيات الانكليزيان م. أ. بريان وأ. ن. تركس، تشعبا قويا في السودان الشرقي، في المستويين العرقي واللساني. وقد استعملا طريقة تبدو موفقة، متخذين كمعايير بعض العناصر اللسانية المميزة للمقابلة بين لغات ت/ك ون/ك. ومن بين المجموعات اللسانية كلها في هذه الاسرة العظمى الكونغولية الصحراوية، تبدي اللغات البنتوقابة وراثية ملحوظة، الى حد جعل هذا الامر يثير حديثا جديدا.

وعلاوة على اللسانيين، فان المؤرخين وعلماء الآثار حاولوا ان يوضحوا «كيف تكون البانتو» ولكن فرضياتهم متباينة. فيقول بعضهم ان هجرة البانتو انطلقت من الشمال من جهة الكامرون أو من حوض التشاد، فسأيرت الغابة في الشمال، ودارت معها شرقا مارة بافريقيا الشرقية، ثم انتشرت في افريقيا الجنوبية. ويرى غيرهم امثال ه. ه. جونستن ان البانتو قدموا مباشرة من جهة وسط افريقيا عبر الغابة الزايرية. واخيرا فان بعض العلماء طبقا لنظرية العالم باللسانيات م. كشري، التي تجعل النواة اللسانية النموذجية الاولى للبانتو تقع في أعلى الزاير لدى اللوباو وبيمبا، يجعلون الموطن الاصلي للبانتو في هذا القطاع. بل قبل اكثر من ذلك، وعرضت الشعوب الناطقة بالبانتو كوحدة بيولوجية وثقافية. على ان بعض علماء الآثار يربطون بين انتشار الحديد في جنوبي القارة وبين هجرة البانتو الذين وردوا عليه مجهزين بتقنيات رفيعة. ولكن البرتغاليين، عندما وصلوا في آخر القرن الخامس عشر الى جزيرة فرناندو بو، وجدوا فيها اهالي يتكلمون البوي وهي لغة بانتو ولكنهم يجهلون استعمال الحديد. وهذا الخطأ المتمثل في الخلط بين اللغة وبين غط العيش او الانتاج، قد وقع فيه من قبل علماء الانتوغرافيا الذين جمعوا في مفهوم الشاميستي وحدة العرق واللغة والحضارة. وفي التطور التاريخي يجدر الا نعمل، مهما كان الامر، على ايجاد نماذج خالصة. فالشعوب البانتو تختلف كثيرا من الوجهة الانتروبولوجية من حيث اللون والقامة والقياسات البدنية الخ. وبانتو الغابات لهم اوصاف بدنية مخالفة لاوصاف بانتو السهوب وكذلك فان نموذج النشاط الاقتصادي والتنظيم الاجتماعي متنوع جدا، والبعض يتبعون النظام الابوي والبعض الآخر يتبع النظام الاموي. وفي موضع ما تستعمل الاقنعة وتوجد الجمعيات السرية وفيما عداها لا جود لذلك، والعامل المشترك الوحيد هو البنية اللسانية المعتمدة على اصناف الاسماء، ولكل اشارات هذه الاصناف في كل مكان عبارة صوتية متشابهة ترتكز على نظام موحد للافعال.



- (١) امرأة من الفلانيين (صورة من محفوظات ما وراء البحار).
- (٢) امرأة من الفلانيين، قرب غارووا — بولاي (تصوير هوا — كوي).
- (٣) فتاة من الفلانيين، مالي (تصوير أ. أ. أ. نود).



وبالعكس في سهوب السودان، يبدو ان الشعوب الناطقة بلغات ذات اصناف اسمية، يلعب فيها ارتفاع الصوت دورا مهما، قد ساكن بعضها بعضا مدة طويلة. وكلما ازدادت الصحراء جفافا انزوت هذه الشعوب متنقلة الى مناطق أشد رطوبة: الجبال في الشمال ووادي النيل شرقا والبحيرة الكبرى في تشاد القديم جنوبا، وعاموض هذه الجماعات من الصيادين الرعاة الشعوب الاهلية الذين توغلوا نحو الجنوب داخل الغابة أو دائرين بها من جهة الشرق. ودون أن تكون هذه الهجرات مقترنة ببداية انتشار الحديد فانها كانت تجري لصالح القادمين الجدد، وقد كانت لهم براعة في صناعة المعادن. واتفق ان حددت المناجم وعمل النحاس القديم بالمنطقة ذاتها التي اليها أشارم. كثرى كبؤرة المجال البانتوحيث تشتمل اللغات اللوبا والجبيا على أكبر نسبة من الكلمات المنتمة للمعجم «المشتركة بين كافة اللغات البانتو».

وكان من شأن ازدهار صناعة النحاس هذه، ان دفعت بانتشار لاحق للحضارة وكلما ابتعدنا من البؤرة المشار اليها، انتقص صفاء النموذج اللساني البانتو، اذ كلما تم ذلك اختلط الناطقون بالبانتو اختلاطا اكبر بالشعوب المستعملة للغات الأخرى.

وهذا المثال الدقيق يدلنا على أنه لا يجب الخلط بين مفاهيم اللغة والنموذج الانثروبولوجي والحضارة، بل انه حسب تشعب القارة ببطء بهذه الموجات البشرية المتنوعة فان نوع الانتاج كثيرا ما كان يصلح كوسيلة أساسا للتوسع اللغوي، بل ولتغلب ذاك الوجه البيولوجي او غيره.

## الفصل الثاني عشر

### القسم الأول

## تصنيف لغات افريقيا

ج. هـ. غرينبرغ

ان عدد الطرق التي يمكن أن تصنف بها اللغات، كغيرها من سائر الأشياء، لا نهاية له. على أنه ينبغي أن نضع على حدة طريقة خاصة، تسمى طريقة التصنيف الوراثي، لها صفات فريدة مهمة، مما يجعلنا إذا استعملنا لفظ «التصنيف» بدون تدقيق فيما يخص اللغات، انما نلمح الى هذا النموذج من التصنيف. وعليه فان هذه الطريقة هي التي سوف تكون دعامة التصنيف المفصل المعروض في الأقسام الأخيرة من هذا الفصل.

## طبيعة تصنيف اللغات وأهدافه

يلوح التصنيف الوراثي في شكل سلسلة من وحدات مرتبة، لها من التنظيم المنطقي ما للتصنيف البيولوجي الذي يقسم الى أنواع وأجناس وأسرى الخ. حيث يكون كل مستوى من السلسلة مشمولا ضمن عناصر المستويات العليا. وفي الامكان أيضا أن يعرض في صورة شجرة نسب. فاذا ما كان للغات جد مباشر مشترك على شجرة النسب، فذاك يعني أن الشأن هو نهايات ميزها التطور مما كان في القديم لهجات من لغة واحدة. ويمكن أن نوضح هذا التصنيف بواسطة مثال مشهور جدا مثال الهندية - الاوربية. واذا لم يثبت بعد أن الهندية - الاوربية كانت تنتمي الى جمع أوسع فستكون هي مستوانا الاعلى.

تقسم الاسرة الهندية الاوربية الى عدة فروع من بينها الجرمانية والسلتية والسلافية والهندية الايرانية، وهذا يؤول الى القول بأن المجموعة اللسانية الاصلية الهندية الاوربية قد تفرعت الى عدد من



اللهجات الجرمانية، السلتية الخ. والجرمانية، بدورها، تنقسم الى ثلاث لهجات، الغوطية والجرمانية الغربية والسكندنافية.

أما الغوطية فانقرضت، ولكننا نعرفها من خلال وثائق قديمة. بينما انقسمت الجرمانية الغربية الى انكليزية فرزية، والمانية سفلى متأخرة والمانية عليا قديمة، ويكوّن كل من هذه الأخيرة مجموعة من اللهجات المحلية، يكون البعض منها قاعدة لغات موحدة الانماط مثلاً: الالمانية (لهجة المانية عليا) النيرلندية (لهجة المانية سفلى) والانكليزية (لهجة انكليزية فرزية).

وقيمة هذه التصنيفات المبنية على هذه المبادئ أنها أولاً تعكس التاريخ الواقع للتميزات العرقية في ميدان اللغة. ثم انها تكون الاساس اللازم لتطبيق ما للسانيات المقارنة من أساليب، ذلك الاساس الذي يمكن من اعادة بناء الجزء الكبير من التاريخ اللساني بمختلف المجموعات. وأخيراً ان معرفة التاريخ اللساني توفر عناصر لا بد منها للاستنتاجات المتعلقة بتاريخ الثقافة الغير اللسانية للمجموعات المعنية.

## تاريخ تصنيف لغات افريقيا

من الواضح أنه لولا مجموعة كافية من المعطيات التجريبية عن اللغات في افريقيا لما أمكن السعي في تصنيف كامل هذه اللغات. ففي بداية القرن التاسع عشر فقط أمكن الحصول على عدد كاف من المعطيات للقيام بأول محاولة للتصنيف. على أنه، قبل ذلك تمت بعض الملاحظات حول التصنيف تبعاً لجملة من الأحداث يمكن ضبطها في بداية القرن السابع عشر، تلك الفترة التي ظهرت فيها كتب النحوا الأولى والمعاجم للغات افريقيا (١). فلاحظ مثلاً لويس موريانو في بداية القرن السابع عشر أن لغة المرينا «شبيهة بالملايية» ما يدل بصفة شبه قطعية على ان السكان الاولين قدموا من «مواني مالكا» (٢).

وحوالي الفترة نفسها، سجل بعض الباحثين البرتغاليين، الشبه الموجود بين لغات الموزمبيق على الساحل الشرقي لافريقيا ولغات انغولا والكنغو في الغرب، مما فتح المجال الى تصور للغات البانتو المنتشرة على معظم الثلث الجنوبي من القارة. ويمكن أيضاً أن نذكر وصف الكيز والامهرية من قبل جوب لودلفوس، في القرن السابع عشر، فابان هذا الوصف قرابة بين اللغات الاثيوبية والعبرية والآرامية والعربية.

ولم يشاهد القرن الثامن عشر سوى اضافات زهيدة الى معرفتنا باللغات الافريقية، ولكن، حوالي نهاية هذه الفترة، نلاحظ أن الفكرة الأساسية للتصنيف الوراثي أخذت تبدو في شكل فرضيات متميزة حول وجود بعض الأسر اللغوية. وكانت هذه الفرضيات هي التي كانت في القرن التاسع عشر الأساس لتطور اللسانيات كعلم تاريخي مقارن.

(١) لزيادة الارشادات عن تاريخ اللسانيات الافريقية أنظر س. م. دوك ود. ت. كول ١٩٦٦، ص ١٢٩، ود. ت. كول ص ١ - ٢٩، ١٩٧١. توجد أحياناً بعض الالفاظ من لغات افريقية في مؤلفات القرون الوسطى، أنظر في هذا الشأن م. دولافوس، ١٩١٢ - ١٩١٤، ص ٢٨١ - ٢٨٨ وس. ماينوف ١٩١٩ - ١٩٢٠، ص ١٤٧ - ١٥٢.

(٢) رحلة استكشافية الى جزيرة سان لوران سنة ١٦١٣ - ١٦١٤، مخطوط برتغالي نشرت ترجمته الفرنسية عند أ. ج. كرانديبي ١٩٠٣ - ١٩٢٠، ص ٢٢.

ان كتب تاريخ اللسانيات تذكر عادة تصريحاً لويليام جونسن سنة ١٧٨٦ كحدث حاسم في هذا التطور، وكانت الآراء منتشرة في الجو كما يدل على ذلك، قبل ذلك بخمس سنوات، اذ أن مرسدن صرح بصورة واضحة على الأقل، بفرضية مشابهة في شأن اللغات الماليزية - البولينيزية، بينما كان جيارمائي يقوم بعين العمل بالنسبة الى اللغات الفنية الاوغرية.

وتبع هذا التطور هوية حقيقية لجمع مواد المقارنة في عدد كبير من اللغات. وأول مصنف من هذا النوع كتاب «معجم مقارني للغات العالم كله» لسنة ١٧٨٧ وقد شجعت عليه الامبراطورة الروسية كاترينا العظمى، وكان يشمل معطيات عن ثلاثين لغة افريقية، في طبعته المنقحة سنة ١٧٩٠ - ١٧٩١.

وفي بداية القرن التاسع عشر لوحظ تسارع واضح الى انتاج كتب النحو والمعاجم في اللغات الافريقية، كما شوهد نشر قوائم مقارنة من الكلمات من عدد كبير من اللغات الافريقية، كقوائم كلهام (١٨٢٨) نوريس (١٨٤١) وكلاكرك (١٨٤٨) (٣) وأهم هذه القوائم، من بعيد، من حيث محتواها ومن حيث الطابع المنهجي لتنظيمها ولرموزها الصوتية، الكتاب الدراسي «تعدد اللغات الافريقية» ووضعه س. و. كوال (٤) في فريتاون (سيراليوني).

ان تجمع هذه المعطيات في الجزء الأول من القرن التاسع عشر واكب المحاولات الأولى لتصنيف المجموع، كمحاولة بالبي ومحاولة بريشارد في الطبقات المتوالية لكتاب «بحث عن التاريخ الطبيعي للبشرية» (٥).

ورغم بعض الفروق في الجزئيات، قد برزت استنتاجات تم تقبلها عامة أثناء النصف الاول من القرن التاسع عشر وتحمل بعضها بنجاح مخنة التجارب الموالية، وكان للبعض الآخر على الأقل مزية اشارة المسائل التي عمل المصنفون المتأخرون على حلها. ويمكن تلخيص النتائج المتجمعة سنة ١٨٦٠ فيما يلي:

— ان لفظ «سامي» الذي أدخله شلورسن سنة ١٧٨١ كان له تقريباً معناه الحالي (٦) وقد ثبت وجود فرع اثيوبي لهذه الاسرة يشمل الكيز (الاثيوبي الكلاسيكي) واللغات العصرية كالامهرية والتغرينا

— قد لوحظ منذ ذلك العهد تشابه وقاربة بين بعض اللغات الأخرى وبين السامية. وكانت هذه اللغات، المصرية القديمة والبربرية واللغات الكوشيتية، وكان يتكلم بهذه الأخيرة خاصة في اثيوبيا وفي بلاد الصومال. وأتحم بعض المصنفين الهوسا في افريقيا الغربية في هذا الصنف، وسميت هذه اللغات أحياناً باسم «السامية الفرعية» ولفظ الشامييتية استعمله رينان سنة ١٨٥٥ (٧).

(٣) هـ. كلهم، ١٨٢٨، أ. نوريس، ١٨٤١، ج. كلاكرك، ١٨٤٨، ص ١٠٤.

(٤) س. و. كوال، ١٩٦٣.

(٥) أ. بالي، نقح. أ. هريس الطبعة الأخيرة من بريشارد وزاد فيها، ج. س. بريشارد ١٨٥٥.

(٦) أ. فون شلورسن القسم ٨، ١٧٨١، ص ١٦١.

(٧) أ. رينان، ١٨٥٥، ص ١٨٩.

— يعزى الى ليختنشتاين فضل التمييز الواضح ، لأول مرة، بين لغات افريقيا الجنوبية، لغات خوي وسان من جهة، ولغات بانتو من جهة أخرى (٨).

وقد تم التعرف بوضوح، منذ تلك الفترة، على هذه المجموعة الأخيرة، من اللغات الوثيقة القرابة. وسموها أيضا أسرة الكافر أو أسرة اللغات الافريقية الجنوبية. ولفظ بانتو وهو مشتق في عدد كبير من هذه اللغات من أصل معناه الرجال، قد عرضه و. هـ. أ. بليك الذي وضع سنة ١٨٥١ أسس الدراسة المقارنة للغات البانتو، وهذا اللفظ مستعمل منذ ذلك الوقت وحتى اليوم من قبل كل الناس.

— بقيت مجموعة كبيرة من اللغات تشمل معظم اللغات المستعملة في السودان الغربي والشرقي، ولم يكن في الامكان أن تصنف ضمن المجموعة المذكورة أعلاه. كالمجموعة التي لم تكن سامية ولا شاميكية ولا سانا ولا بانثو. وكانت عموما تسمى لغات «زنجية» وفيها يتمثل أكبر مشكل للمصنفين، فاعترف نوريس في تنقيحه لكتاب بر يشارد سنة ١٨٥٥ انها «فلتت من التصنيف» وأن «السود اعتبروا حتى ذلك مكوّنين لعرق، لأسباب فيزيولوجية أكثر منها لغوية»؟ (٩).

ورغم كون التصنيفات العامة للغات الافريقية حتى وقت قريب قد فصلت لغات البانتو تماما عن اللغات المسماة «زنجية»، فإن بعض الملاحظين سجلوا أن بعض اللغات المعتبرة «زنجية» أو الأكثر منها، ولا سيما في افريقيا الغربية، تظهر قرابته مع مجموعة البانتو. ويبدو أن أول من لاحظ ذلك القس و. أ. فيدال في مقدمته لنحويرونبا لصاموئيل غروثر (١٠) وأعطى بليك لللفظ «بانتو» حدا عاما مفسحا تطبيقه على معظم افريقيا الغربية حتى الدرجة الثالثة عشرة من خطوط العرض الشمالية، من السنغال الى النيل الاعلى (١١). وأعيد القول بهذه الفكرة الاساسية بعد ذلك بكثير، في شكل منقح، من قبل وسترمان، وبكيفية أوضح من قبل غرينبرغ في التصنيف الذي صار اليوم أمرا عاديا.

— لوحظ منذ القرن السابع عشر — كما أشرنا الى ذلك — ارتباط المرينا باللغة الماليزية البولينيزية وبذلك انعدمت قرابته باللغات الافريقية وأدّعى الى ذلك الجميع.

امتازت عشرية ١٨٦٠ بالتصنيفين التامين اللذين نشرا خلالها واللذين سادا هذا المجال حتى حوالي ١٩١٠. وأولهما تصنيف لپسيوس وظهر في طبعين احدهما سنة ١٨٦٣ والاخرى سنة ١٨٨٠ (١٢) وثانيهما تصنيف فريدريك مولر وعرض أيضا في طبعين سنة ١٨٦٧ وسنة ١٨٨٤ (١٣) وكان كتاب مولر أساسا للدراسة المهمة التي قام بها ر. ن. كوست والتي ساهمت في نشر أعماله في البلدان الناطقة بالانكليزية. ودراسة كوست مصدر نفيس جدا فيما يخص جيبيلوغرافيا اللسانيات الافريقية حتى تلك الفترة.

(٨) هـ. ليختنشتاين، ١٨١١ — ١٨١٢.

(٩) ج. م. بر يشارد. المصنف المذكور، مجلد ١، ص ٤٢٧.

(١٠) و. أ. فيدال، عند غروثر، ١٨٥٢.

(١١) و. هـ. أ. بليك، ١٩٦٢ — ١٩٦٩، مجلد ١ ص ٨.

(١٢) لپسيوس ط. ٢، ١٨٦٣، ١٨٨٠.

(١٣) ف. ملر، ١٨٦٧، ١٨٧٦ — ١٨٨٤ عن اللغات الافريقية أنظر مجلد ١، ٢ (١٨٧٧) ومجلد ٣، ١ (١٨٨٤).

وأخرج لبسيوس ومولر في تصنيفها المرينا كلفة غير افرريقية، وفيما عدا ذلك فان أهم مشكل شغل بالها هو مشكل اللغات «الزنجية» ووضعها بالنسبة الى البانتو، اذ ثبت أن هذه هي المجموعة الوحيدة الفسيحة من اللغات التي تنطق بها الشعوب السود. وكان للاعتبارات العرقية دور مهم في هذين التصنيفين لكن بأساليب مختلفة.

اتخذ لبسيوس قاعدة لتصنيفه معيار فئات الاسماء. وهي فكرة مستمدة من عمل سابق لبليك (١٨٥١) (١٤)، فقد تأثر هذا الأخير بما كان يعتبره فرقا أساسيا بين لغات البانتو التي كان لها نظم مشعبة من أصناف الاسماء، لا دور للجنس فيها، وبين اللغات السامية والشامية التي يوجد فيها تمييز بين الجنسين يعتمد على العضو الجنسي كמידأ لتصنيف الأسماء. وبناء على هذا المعيار صنف بليك الخوي خوي ضمن اللغات الشاميتية اذ يوجد فيه تمييز الجنس، ولو أن معظم الخواص الأخرى تقربه من لغات سان.

وانطلق لبسيوس من الفكرة العامة عند بليك واعتبر من بين اللغات التي ينطق بها الأهالي السود، ان البانتو، بموجب تصنيفه للأسماء غير المعتمد على الجنس، هي اللغة الأصلية بينما تهجن سائر اللغات بتأثير اللغات الشامية. وهو يصنف اللغات الى أربع مجموعات (١) البانتو (٢) الزنجية المختلط (٣) الشاميتي (٤) السامي على أنه يوجد قسمان أساسيان: أ — لغات البانتو، والزنجية المختلطة (لغات ذات أصناف اسمية).

ب — اللغات السامية والشاميتية (لغات ذات جنس). وفي النهاية لابد أنه من الممكن أن يبين أن هذه الأخيرة لها قرابة بالهندية الاوربية التي هي بدورها لها تمييز يعتمد على الجنس. وفعلًا فإنه يضم الهندية — الاوربية والسامية والشاميتية في أسرة واحدة يسميها «النوحية» لها ثلاثة فروع تقابل أبناء نوح الثلاثة: سام وشام ويافت. وهو يصرح بوضوح أن اللغات ذات الجنس هي العليا. «على أنه يبدو مما لا شك فيه، أن الفروع الثلاثة الكبيرة من اللغات ذات الجنس، لم تكن فحسب في الماضي مستودع السير التاريخي للحضارة البشرية وأعضائها، بل أيضا انه عليها هي، وخصوصا على فرعها الأحدث، الألفبتي، يتركز أمل العالم المقبل» (١٥).

والقرابة الفكرية بين «النظريات الشاميتية» واضحة، من بليك الى نظريات ماينوف المتأخرة مرورًا بنظريات لبسيوس.

وفي كتاب مولر الشامل المنشور سنة ١٨٨٤ صنفت لغات العالم المعروفة حسب الفرضية القائلة بوجود علاقة أساسية بين اللغة وبين النموذج البدني للناطقين بها. وأقسامه الرئيسية، «لغات الشعوب ذات الشعر الصلب» و«لغات الشعوب ذات الشعر الجعد» الخ، وتؤدي هذه الفرضية مثلا الى تصنيف الخوي خوي لا مع الشاميتية كما فعل لبسيوس، ولكن مع البابو ضمن لغات العروق ذات الشعر الصوفي، ومعظم اللغات «الزنجية» وزعت الى اللغات الزنجية الافريقية والبانتو. وفرضه في هذه النقطة معاكس تماما لفرضية لبسيوس، اذ هو يعتبر أن بعض اللغات الزنجية الافريقية تمثل النموذج الأصلي وأن البانتو مشتق منها ويعتبر أن بعض اللغات المستعملة لدى الأهالي السود تنتمي

(١٤) و. هـ. أ. بليك، ١٨٥١.

(١٥) لبسيوس، ١٨٨٠، ص ٩٠.

الى مجموعة متقدمة عليها ثقافيا تقديما كبيرا وهي المجموعة المسماة نوبا فوله، و يقارن الناطقون بهذه اللغات بدنيا بأهالي البحر الأبيض المتوسط وبالدرافيديين وهم مصنّفون من بين الشعوب ذوي الشعر المجعد. وفي نشر آراء مولر من قبل كوست يجعلها في متناول قراء اللغة الانكليزية صنف لغات افريقيا الى ست مجموعات، ١ - السامية ٢ - الشاميتية ٣ - النوبا فوله ٤ - الزنجية ٥ - البانتو ٦ - الخويسان.

وبقيت مسائل التصنيف معلقة مدة من الزمن، وتمركز الاهتمام على العمل العلمي العظيم المتمثل في وصف اللغات الافريقية. وفتح مصنّف وسترمان عن اللغات السودانية (١٩١١) وكتاب ماينهوف عن اللغات الشاميتية (١٩١٢) الباب الى الفترة العصرية (١٦)

وأول هذين المصنّفين، ويسندون فكرته الأساسية مستوحاة من ماينهوف، قد أدخل لفظ «السوداني» وكان يشمل تقريبا كل اللغات في افريقيا الغير التابعة للمجموعة السامية والشاميتية (بالمعنى الفسيح الذي أعطاه اياها ماينهوف) والسان. وهو يعني بذلك أساسا كل اللغات التي كانت في ما قبل تسمى «لغات زنجية». واختار وسترمان من بين هذه المجموعة الفسيحة ثمانية لغات (ولا يقدم أبدا قائمة كاملة) خمس منها من السودان الغربي وثلاث من السودان الشرقي، وحاول أن يوجد القرابة بينها بواسطة سلسلة من الاشتقاقات ومن الصيغ القديمة بعد أن ركبها من جديد.

وقام ماينهوف، وقد اشتهر من قبل بمصنّفه الاساسي عن الدراسة المقارنة للبانتو، بمحاولة في كتابه عن اللغات الحامية، ليفسح حدود الاسرة الحامية الى ما وراء ما كان مسلما به عادة، فأفحم فيها لغات كالفلفلدية والماساي والخوي خوي (متبعا في هذا لسيوس) مستندا أساسا الى معيار الجنس. و يبرز هذا الكتاب بوضوح اعتقاده بتفوق العرق «الحامي» (١٧).

ويبرز اذن من عملي ماينهوف وسترمان، اذا جمعناهما تقسيم الى خمس مجموعات (السامي والحامي والسوداني والبانتو والسان) ونشرت هذه الاستنتاجات في البلدان الناطقة بالانكليزية، نشرتها اليس ويزنر وصارت القاعدة في كتب الانثروبولوجيا واللسانيات (١٨).

وقد وقع الرد على هذا التصنيف منذ الفترة التي ساد فيها (حوالي ١٩١٠ - ١٩٥٠) ولو أن النقد لم يبرز في الكتب المعهودة فقد أتى الأهم منه من وسترمان نفسه، في دراسته الجليلية سنة ١٩٢٧ عن اللغات السودانية الغربية (١٩)، ففي هذا المؤلف يقصر تصويره السابق عن اللغات السودانية على لغات غربي افريقيا، وصار يميز بواسطة وثائق معجمية ونحوية مفصلة، بين عدد من المجموعات الفرعية المتخصصة ضمن السودانية الغربية (مثلا الاطلسي الغربي وكوا وجور). وأشار وهذا أشد أهمية - الى أوجه شبه جزئية من حيث المعجم ومن حيث البنية النحوية بين السودانية الغربية والبانتو، ولكنه لم يقل بالقرابة بينها بكيفية صريحة: فكان السر هنري جونسون في كتابه الواسع عن

(١٦) د. وسترمان ١٩١١، س. ماينهوف ١٩١٢.

(١٧) صارت الفرضية الحامية قاعدة متقدمة للتفسير الثقافي والتاريخي. أنظر عن هذه المسألة إ. ر. صندر، ١٩٦٩، ص ٥٢١ -

٥٣٢.

(١٨) أ. ورتز ١٩١٥، و ١٩٣٠.

(١٩) د. وسترمان، ١٩٢٧.

البانتو ونصف البانتو هو الذي رأى أن كثيرا من اللغات في افريقيا الغربية لها قرابة بالبانتو (٢٠) وهي التي كان يشير اليها بتعبيره «نصف بانتو». على أنه استمر على الأخذ بالمعيار النموذجي للأصناف الاسمية، بحيث اذا كانت لغتان وثيقتي القرابة وكان لواحدة فقط أصناف اسمية، فهي التي تعتبر نصف بانتو بينما الأخرى ليست كذلك.

ويجدر أن نشير باختصار الى تصنيفات أخرى في الفترة ١٩١٠ - ١٩٥٠ لم يشتهر من بينها سوى تصنيف دولافوس. وأحد هذه التصنيفات اقترحه أ. دريكسل، فحاول أن يظهر علاقة بين أسر اللغات في افريقيا والثقافات، وكانت هذه العلاقة موضوعة كمبدأ مسلم به من قبل دارسي الثقافة الالمان. وخلافا للباحثين الالمان في هذه الفترة، جعل الباحث الفرنسي دولافوس الإخصائي في الدراسات الافريقية «الحامية» محدودة في البربرية (٢١) والمصرية وللكوشيتية واعتبرت سائر اللغات الأخرى الغير السامية أو الخويسانية كأسرة كبيرة زنجية افريقية (٢٢) فعلاوة على الفروع الستة عشر المتبقية من غير البانتو، وقد حدد كثيرا منها بناء على معايير جغرافية أكثر منها لسانية، يبدو أن دولافوس اعتبر أنه يجب أن يكون البانتو ضمن اللغات الزنجية الافريقية، وما زالت بعض المصطلحات التي استخدمها دولافوس مستعملة بين علماء الدراسات الافريقية الناطقين بالفرنسية. ويجب أيضا أن نذكر الآتية مبركر التي انطلقت من فكرة الوحدة اللسانية الافريقية، لكن بصورة أفسح، فاشتذت نظرية المصدر المصري كتفسير لهذه الوحدة بل، بقطع النظر عن التضارب، نظرية الاشتقاق البعيد انطلاقا من لغات درافيدية هندية (٢٣).

وسنة ١٩٤٩ - ١٩٥٠ حدد صاحب هذا الفصل، في سلسلة من المقالات المنشورة في المجلة الجنوبية الغربية للاتروبولوجيا، تصنيفا كان جديدا من عدة وجوه وتم التسليم به نهائيا بصفة عامة (٢٤). وكان هذا التصنيف يخالف التصنيف السابقة في عدة نقاط. فكان وراثيا تماما بالمعنى المحدد في مقدمة هذا الفصل، فيعتبر أوجه الشبه المتعددة بين مجموعات اللغات أوجها قطعية، فهني تتعلق في آن واحد بالصوت وبالمعنى، سواء كان الشأن درس الجذور (للمعجم) أو المركبات النحوية.

فكانت التشابهات المتعلقة بالصوت فقط، كوجود النبرات مثلا أو المتعلقة بالمعنى فقط، كوجود الجنس النحوي دون مطابقة في الأشكال الصوتية للخواتم، غير مقنعة.

(٢٠) ه. ه. جونستون، ١٩١٩ - ١٩٢٢.

(٢١) أضيف هذا التعليق بطلب من عضو من اللجنة: ان هذا التصنيف ليس فحسب معاكسا لآراء الباحثين الالمان، ولكنه معاكس فعلا للحقيقة العلمية المحضة. لقد اكتشف علماء اللسانيات بافريقيا الشمالية اللسانية التي دفعت المدرسة الاستعمارية الفرنسية لعلماء البربرية، الى تصنيف اللغة البربرية ضمن اللغات السامية الشاميية، والواقع أن البربرية لغة سامية بل هي من أقدم اللغات السامية، ولها علاقات وثيقة جدا مع الأكادية والعبرية. فليست إذن حامية سامية ولا أفروآسيوية كما سبق أن قيل في هذا الفصل. أنظر خاصة بالعربية م. القاسي: البربرية شقيقة العربية، مجلة مجمع القاهرة ١٩٧١.

(٢٢) م. دولافوس، ١٩٢٣ ص ٤٦٣ - ٥٦٠.

(٢٣) ل. مبرجر، ١٩٤١.

(٢٤) عن النسخة الحديثة من تصنيف كرينبرك أنطرج. ه. كرينبرك. وتوجد بيبليوغرافيا للمؤلفات التي ناقشت هذا الموضوع لدى د. ونسن: تصنيف غرينبرغ للغات الافريقية دراسات عن اللغة الافريقية، مجلد ٧، ١٩٦٦، ١٦٠ - ١٧٠ ولوجهة نظر أخرى، أنظر الفصل ١١ للأستاذ الأدروج.

وكانت هذه الصفات النموذجية كما شاهدنا تلعب دورا مهما في التصنيفات السابقة. فوجود الجنسين مثلا، المذكر والمؤنث لم يكن وحده يعتبر حجة قرابة، إذ أن هذا التمييز للجنس قد يظهر، ويظهر فعلا بكيفية مستقلة في أجزاء مختلفة من الدنيا. وبالعكس فإن وجود حرف ك كعلامة للتأنيث في كل الفروع الإفروآسيوية (حامية - سامية) إشارة إيجابية للقرابة. كما أن انعدام التمييز للجنس بفقدان النوع ليس في حد ذاته حجة سلبية.

وبصفة عامة، فإن هذه المبادئ من المسلم بها في المجالات التي استقرت فيها الأساليب المقارنة، مثلا في الهندية - الأوربية، الفارسية والآرامية والحشية على الخصوص لا تميز بين الجنسين، بينما نجد تمييزا لذلك في معظم اللغات الأخرى من هذه الأسرة.

ثم إن التصنيفات القديمة، كتصنيف ليسوس، لم تستند ولم تدل بأي حجة مادية لجمعها في تصنيف واحد. وسترمان في كتابه عن السودانية أعطى الاشتقاقات إلا أنه اقتصر على ثماني لغات من بين مئات منها، والمصنف الوحيد الذي أتى بالحجة مفصلة قبل سنة ١٩٥٠، وهو كتاب لوترمان عن السودانية الغربية، ولم يعين إلا بجزء من إفريقيا..

وفي تصنيف صاحب هذا الفصل قدمت اشتقاقات وخصائص نحوية مشتركة الميزة بالنسبة لكل المجموعات المهمة، بناء على دراسة استقصائية للأدب.

وأهم المقترحات المادية، وقد أثار بعضها جدالات عنيفة هي الآتية:

- تتقبل قرابة البانتو مع السودانية الغربية حسب معطيات وسترمان، فيصير البانتو لا قرعا متميزا من هذه الأسرة الفسيحة، بل مجموعة فرعية مما سماه وسترمان المجموعة الفرعية بينوي - كنغو (نصيف البانتو) من فرع السودانية الغربية. ثم إن عددا كبيرا من اللغات المستعملة جهة الشرق (فرع اداماوا الشرقي) ينتمي إلى هذه الأسرة التي صار لها اسم جديد النيجر - كونغو.

- من بين امتدادات الحامية التي اقترحها ماينوف بقيت واحدة فحسب هي الهوسا. ثم إن الهوسا ما هي إلا عنصر من فرع أفصح (التشادي) من الحامية السامية، والسامية مقحمة فيها إلا أنها ما هي إلا فرع في رتبة سائر الفروع. فتصير الحامية إفروآسيوية للفروع غير السامية من أسرة أفصح تسمى اليوم إفروآسيوية، ويبتدأ بها تشمل خمسة فروع: (٢٥) ١ - البربرية ٢ - المصرية القديمة ٣ - السامية ٤ - الكوشيتية ٥ - التشادية.

- واللغات «الزنجية» التي لم تدخل ضمن المجموعة نيجر - كنغو قد صنف في مجموعة أخرى كبيرة سميت النيلي - الصحراوي.

- كان الحوي خوي مصنفًا كلفة سان، وينتمي إلى المجموعة الوسطى من الحويسان في إفريقيا الجنوبية.

والنتيجة العامة هي أن لغات إفريقيا ما عدا (المرينا) صنف إلى أربع أسر رئيسية توصف في الأقسام التالية، وخصص كل قسم بالتفصيل لكل أسرة من هذه الأسر (٢٦) وسيدكر العرض

(٢٥) ج. لوكا، ١٩٣٨، ص ٢٨٦ - ٢٩٩، ج. ركوهان، ١٩٤٧.

(٢٦) توجد قوائم من اللغات أكثر تفصيلا مما هو ممكن في مثل هذا الفصل في غرينبرغ، المصدر المذكور، وفي مجلدات السلسلة، كتاب الجيب لللغات الأفريقية نشرها المعهد الدولي الإفريقي في لندن، وفي فوكالين (س. ف. وق. م): فهرس لغات الدنيا، واشنطن، ديوان التربية، مكتب البحث، ماي، ١٩٧٣، ٦ أجزاء.

الآتي، عند الحاجة، المقترحات الحديثة التي تعدل محور أو توسع مجال التصنيف الاصلي، وكذلك الانتقادات الموجهة له في المحتوى.

## اللغات الافروآسيوية (٢٧)

هذه اللغات المدعوة أيضا حامية سامية تمتد على كامل افريقيا الشمالية وتقريبا على كامل القرن الشرقي الافريقي (اثيوبيا، الصومال) وبعض اللغات من فرعها الكوشيتي نحو الجنوب حتى طانزانيا، ثم ان الفرع السامي يشمل لغات تغطي اليوم أو غطت في الماضي كل الشرق الاوسط تقريبا.

وتعتبر الافروآسيوية عامة مشتملة على خمسة فروع متساوية التمييز تقريبا: البربرية (٢٨) المصرية القديمة، السامية، الكوشيتية والتشادية. على أن فليمنج تقدم مؤخرا بما مفاده، أن من بين اللغات المصنفة حتى الآن ضمن الكوشيتية الغربية مجموعة تضم الكافا وعدة لغات من الجنوب الغربي في اثيوبيا تكون في الواقع فرعاً سادساً، اقترح لها اسمي: الاوموتي وآري ياناً (٢٩).

ويعرض الفرع البربري من الافروآسيوية من التفريقات الداخلية أقل مما تعرض سائر فروع هذه الاسرة ماعدا المصرية، وأهم تقسيم له يبدو بين لغات مختلف المجموعات الطوارق في الصحراء وبين البربرية الحق المتكلم بها في افريقيا الشمالية وفي موريتانيا. ومن المحتمل ان لغة الغوانش التي انقرضت من الجزر الخالدات، كانت تنتسب الى البربرية. ثم انه يجدر أن نذكر ما يوجد من نقوش بالليبية القديمة لم تفهم تمام الفهم، ولعلها تكون شكلاً سابقاً للبربرية.

ويشهد على فرع ثان من الافروآسيوية، وهو فرع المصرية في أقدم فترة له، نقوش بالهيريوغليفية وبرديات كهنوتية (هيرايطيقية)، وأخيراً، وثائق بكتابة شعبية (ديموطيقية). وتسجل كل هذه الكتابات نفس اللغة المتكلم بها، وفي العهد المسيحي تواصل التكلم بهذه اللغة، فانتجت أدباً جليلاً كتب بألفبائية مقتبسة من الألفبائية اليونانية. وفي هذا الشكل المتأخر المدعوبالقبطية، وجدت عدة لهجات أدبية، منها البحيرية وهي مازالت باقية كلغة دينية طقسية في الكنيسة القبطية. وبعد فتح العرب لمصر، تقلص ظل اللغة المصرية شيئاً فشيئاً. ومن المحتمل أنها انقرضت كلغة تخاطب في القرن السابع عشر الميلادي.

وأما الفرع السامي من الافروآسيوية ففيه من الفروق الداخلية أكثر مما في البربرية أو العصرية. ومن المسلم به عامة أن أهم تقسيم لها هو وجود سامية شرقية وسامية غربية. ولا يمثل الاولي سوى الأكادية المكتوبة بالخط المسماري. وقد انقرضت منذ عهد بعيد، وكان لها لهجتان جهويتان أساسيتان، هما البابلية في الجنوب والآشورية في الشمال. وتقسم السامية الغربية بدورها

(٢٧) ذكر الباحثون الافارقة في لقاء القاهرة عن «عمران مصر القديمة» ان الأستاذ غرينبرغ كان أغفل في تصنيفه معطاة رئيسية: وضع القواعد الصوتية. وكان موقف الأستاذ استفان فودور وقدم هؤلاء الباحثون الافارقة حججاً تدل على القرابة اللسانية الروائية بين المصرية القديمة واللغات الافريقية المعاصرة.

(٢٨) انظر تمليق رقم ٢١.

(٢٩) هـ. س. فليمنج ١٩٦٩، ص ٢٧-٢٨.



الى سامية الشمال الغربي وسامية الجنوب الغربي. وتشمل الاولى الكنعانية (عبرية، موابية، فينيقية ومن المحتمل اوغاريتية) والآرامية. ولم يبق من هذه اللغات سوى العربية وقد تم احيائها خلال القرن الفاتت كلفة لاسرائيل وبعض اللهجات الآرامية. وتمثل الأشكال المعاصرة من الآرامية أحفاد الآرامية الغربية، بالجلل المقابل لجلل لبنان في سوريا. والآرامية الشرقية في العراق الشمالي. ولسامية الجنوب الشرقي أيضا فرعان، فرع الشمال وفرع الجنوب، ويشمل الأول معظم اللهجات المعروفة في الجزيرة العربية، واللهجات العصرية السائدة في منطقة فسيحة تشمل شمال افريقيا والشرق الاوسط وبعض اجزاء السودان وهي اللغة العربية الحق. وفرع الجنوب يشمل عربية الجنوب من جهة ولغات اثيوبيا السامية من جهة أخرى، وعرفت العربية الجنوبية في أشكالها القديمة من خلال نقوش كتابية متوية وسباية وكتابية وفي أشكالها العصرية المهرية والشهرية، في جنوب الجزيرة، والسوقطرية، لغة جزيرة سوقطرا في المحيط الهندي.

وتقسم اللغات السامية الاثيوبية الى مجموعة شمالية (تغرينيا، تيكرى، وكازوالا اثيوبية الكلاسيكية) ومجموعة جنوبية (أهمرية وكوارج وأركبًا وكافات وحرارية).

وأما المجموعة الرابعة من اللغات الافروآسيوية أي الكوشيتية فتشمل عددا كبيرا من اللغات تتوزع الى خمسة فروع قوية التميز: الشمالي والأوسط والشرقي والجنوبي والغربي. والكوشيتية الشمالية تشمل أساسا لغة واحدة، البجة، والوسطى تسمى أحيانا لغات أغاو. ومن المحتمل أنها في الماضي كان يتكلم بها على مساحة متصلة، ولكن الناطقين بها القدامى قد استعملوا بنسبة قوية اللغات السامية الاثيوبية وكان الفالاش أي اليهود الاثيوبيون في القديم يتكلمون بلغة أغاو. وتشمل اللغات الكوشيتية الوسطى على مجموعة شمالية (بيلين، خيرقنت) وعلى الآويا في الجنوب. وتشتمل الكوشيتية الشرقية على اللغتين الكوشيتين اللتين يتكلم بها أكبر عدد من الناطقين وهما الصومالية والكلا. وتتوزعان على المجموعات الآتية: ١ - أفارساهو، ٢ - الصومالية اليسو الرنديل، البوني، ٣ - الكلا، كنسوجيدولي، اريري، وزري، تساماي، جلابا، موكوكودو، ٤ - سيدامو، ألأبا، دراسا، هاديا، كمباطا، برججي، ويمكن بدون شك أن يعتبر المجموعة الأخيرة أي «سيدامو - برججي» فرعا معاكسا للمجموعات الثلاث الأخرى. وتستعمل الكوشيتية الجنوبية في طانزانيا وتشتمل على البرنجي والكزوا والالاوا والنكومفيا (أسو) والساني والمبوجو، وهذه المجموعة الجنوبية أقرب لسانيا الى المجموعة الشرقية منها الى سائر المجموعات، ومن الممكن جدا أنه ينبغي أن تعتبر مجرد مجموعة فرعية. وقد تأثرت لغة كوشيتية جنوبية، المبوجو، تأثرا قويا بالبانطو، من حيث النحو ومن حيث المعجم، فيعتبرها بعض الباحثين لغة مختلطة.

وتختلف اللغات الكوشيتية الغربية اختلافا كبيرا عن سائر اللغات المعتمدة تقليديا كوشيتية. وعلى الأقل يجب تقسيم الكوشيتية الى مجموعتين، الغربية وغيرها. وكما ذكرنا أعلاه فان فيلمنج اقترح أن تعتبر الكوشيتية الغربية فرع سادس متميز عن الافروآسيوية، ويمكن تقسيم اللغات الكوشيتية الغربية الى مجموعتين: الآري - بنا (وقد استعمل في الأدب القديم لفظ باكو عوضا عن آري) وغيرها. ويمكن تفريع هذه الأخيرة بدورها كما يلي: ١ - ملجي، ناو، مشيكو؛ ٢ - جنجيرو؛ ٣ - كفا، موشا، شيناشا، ماو الجنوبي؛ ٤ - جيسميرا؛ ٥ - المجموعة أوميتو

«سيداموغري» و يضم الشارا والمالي والبسكيتو، والمركب و يلامو والزياس والكويرا — جيديشو.

وأخر فرع من الافروآسيوية يجب اعتباره هو الفرع التشادي، ويتضمن الهوسا، أكثر اللغات انتشارا في افريقيا الغربية، ومن المحتمل على الأقل وجود مائة لغة أخرى يستعملها ناطقون بها، عددهم أقل بكثير. وقسمت اللغات التشادية عند غرينبرغ (١٩٦٣) الى تسعة مجموعات فرعية:

— (أ) الهوسا الغونندرا، (ب) بيد نغيزم، (ج) ١ مجموعة ورجوا (البنشي الشمالي) ٢ مجموعة بروا (البنشي الجنوبي)، (د) ١ — مجموعة بلوا ٢ — مجموعة انكاس ٣ — مجموعة الرون، ٢ — مجموعة كوتوكو، ٣ — بشامرجي، ٤ — (أ) مجموعة مسغوي (ب) مجموعة مكتام، ٥ — جدر، ٦ — مندرا كامركو، ٧ — مسكو، ٨ — مجموعة ماسا بانا، ٩ — التشادي الشرقي (أ) مجموعة سمرائي (ب) مجموعة كابرلي (ج) مجموعة سوكورو (د) مدجل (هـ) توبوري (و) مجموعة موي.

وأوحى نيومن وما، أن من بين الاسرات الفرعية أعلاه عددي ٣ و ٦ متقاربان جدا، الواحدة من الأخرى، وكذلك الرقمان ١ و ٩. وهما يقترحان للأولين اسم بيومندارا وللآخرين اسم نجد — ساحل (٣٠) وهما لا يقترحان أي تبديل فيما يخص سائر المجموعات الفرعية.

## النيجر الكردوفاني

تشمل هذه الاسرة فرعين مختلفي القيمة من حيث عدد الناطقين بها ومن حيث انتشارهما الجغرافي، فالفرع الأول، النيجر — كنغويمتد على جزء كبير من افريقيا جنوبي الصحراء، يشمل تقريبا كل افريقيا الغربية، وعدة جهات من السودان الاوسط والشرقي، ويميزه ألبانتو، معظم افريقيا الوسطى والشرقية والجنوبية، والفرع الثاني من النيجر الكرد وفاني وهو الكردوفانية بالذات، محصور في منطقة محددة من جهة الكردوفان الكائنة بالسودان.

والتقسيم الاساسي في مجموعة النيجر — كنغو هو التقسيم بين لغات مندي وغيرها. فيتميز المندي من جهة بانعدام عدد من الوحدات المعجمية الموجودة في سائر لغات النيجر — كنغو، ومن جهة أخرى بانعدام كل أثر موثوق به من تصنيف الاسماء الموجود عامة في الكردوفانية وفي سائر لغات النيجر — كنغو. وبالمطالع يوجد عدد كبير من هذه اللغات قد أضاع هذا النظام اضاءة فردية. واقترح موكارفسكي بموجب هذا التخالف من قبل لغة مندي، ان تعتبر الاسرة الكبيرة الثانية من اللغات الزنحية، فرعا من النيلية الصحراوية، الا أن الحخير الشهير بلغات مندي ويليام أ. ولمرس لا يقبل هذا الاقتراح (٣١).

ومن المسلم به بالاجماع اليوم، هو أن التقسيم الداخلي للمندي الى مندي — طان ومندي — فو الذي اقترحه دولافوص (٣٢) والمعتمد على اللفظ الدال على رقم العشرة هو تقسيم لا قيمة له. وتصنف لغات مندي كما يلي:

(٣٠) ب. نيومن ور. ما، ١٩٦٤، ص ٢١٨ — ٢٥١.

(٣١) هـ. غ. موكارفسكي، ١٩٦٦، ص ٦٧٩ — ٦٨٨.

(٣٢) م. دولافوص، ١٩٠١.

— مجموعة الشمال الغربي: ١ — المجموعة الفرعية الشمالية وتشمل الياالونكا الفرعية والسونينكي والكوالا نومو، اللكبي والوادي كونو والخصنكي والمانتكا بيمرا — ديولا؛ ٢ — المجموعة الفرعية الجنوبية الغربية: مندي — بندي، لوكولوما، كبالتي.

مجموعة الجنوب الشرقية: ١ — المجموعة الفرعية الجنوبية، مانو، دان، تورا، مواء، نواء، كان، كورو؛ ٢ — المجموعة الفرعية الشرقية: سامو، بيسا، بوسا؛ ولغة واحدة، السيا (بوفنك) لا تجد لها محلا في هذا الجدول. وهي مندي بوضوح، ولكن يمكن اعتبارها فرعا أولا متميزا من هذه المجموعة، بحيث أنها قد تمثل وراثيا إحدى مجموعتين ثانيتهما المندي بالمعنى الدقيق.

وتصنف سائر لغات النيجر — كونغو عند غرينبرغ (١٩٦٣) في خمسة فروع: ١ — الغربي الاطلسي؛ ٢ — كور؛ ٣ — الكوا؛ ٤ — البيئي كنغو؛ ٥ — آداماوا الشرقي. إلا أن المجموعات ٢ و ٣ و ٤ متقاربة بصورة خاصة وتكون نوعا من نواة ليس الحد داخلها واضحا فيما بين البيئي — كنغو والكوا (٣٣).

وقد أدخل وسترمان تسمية لغات أطلسية غربية سنة ١٩٢٨ فهي تغطي تقريبا عن اللغات التي تغطيها السنغالية — الغينية عند دولافوس والباحثين الفرنسيين من بعده. وتكون هذه اللغات مجموعتين محددين واضحتين، مجموعة شمالية ومجموعة جنوبية. وذلك مع ما يوجد من تنوع داخلي بين المجموعة الشمالية مما دفع دالبي الى أن يقترح التخلي عن مفهوم الأطلسي الغربي واعتبار المجموعة الجنوبية كفرع مستقل متكون من المجموعة الاطلسية الجنوبية الغربية عند غرينبرغ ما عدا الليمبا. ويقترح اسم ميل (٣٤) لهذه المجموعة، ومع ذلك فإن دافيد ساير في دراسة قريبة العهد، مدعمة بحجج تسلسل زمني صوتي، يؤكد من جديد الوحدة الأساسية للغرب الاطلسي كما تم تصويره تقليديا، ويدخل الليمبا ضمن فرعه الجنوبي (٣٥). وأهم تجديد يتقدم به هو اعتبار البجا كولغة لجزء بسجاكو، كفرع منفصل، له عين الرتبة التي للفرع الشمالي والفرع الجنوبي. وهذا يوافق مللدي من شعور بمباينة هذه اللغة لغيرها، ويجدر أن نذكر أن الفلفلية (فولا أو فوليا) التي اعتبرها ماينيهف كلغة شاميكية وكانت محل عديد من الجدالات، صارت اليوم في رأي الجميع، ضمن الغرب الاطلسي، وتصنيف هذا الأخير كما يلي:

الفرع الشمالي: ١ — (أ) فولا، سيرير، (ب) وولوف؛ ٢ — مجموعة نون؛ ٣ — ديولا، منجك، بلنتي؛ ٤ — (أ) تندا، بساري، بديك كونياجي؛ (ب) بيافادا، باجادي؛ (ج) كيانا — بنوم — (د) نالو.

الفرع الجنوبي: ١ — سوا (كوننتي)؛ ٢ — (أ) تمي، باكا؛ (ب) شربرو — كرم، كيسي؛ (ج) كولا؛ ٣ — ليمبا.

بسجاكو: ويشمل الكور داخل النيجر — كنغو مجموعة أخرى منها. ويسمى أيضا، خاصة في

(٣٣) عن هذا الموضوع انظر ج. هـ. غرينبرغ، ١٩٦٣، ص ٢١٥ — ٢١٧.

(٣٤) د. دلي، ١٩٦٥، ص ١ — ١٧.

(٣٥) أنظر هـ. ساير، ص ١١٣ — ١٤٠ في المجموعة المنشورة بأشرف سيك، المصدر المذكور، إلا أن ساير احتريز بعض الاحترازا عن النتائج المذكورة في النص.

الأدب الفرنسي، فلطاني. وأحدث الآراء عن التصنيف داخل مجموعة كورهي آراء بندز - سامويل ونحن نتبع خطوطها العريضة.

ويجدر أن نلاحظ معظم اللغات التي اعتبرت ضمن الغور تنتمي الى مجموعة فرعية فسيحة جدا سماها بندز - سامويل بالكور الأوسط (٣٦) وهويقابل الموسي كرنشي في البحوث السابقة. ويمكن تقسيم الكور الأوسط الى ثلاثة مجموعات فرعية: ١ - المور كورما؛ ٢ - مجموعة كروسي؛ ٣ - التمري. أما سائر المجموعات الفرعية للكور فهي: ١ - بركو (باريتا)؛ ٢ - اللوبيري؛ ٣ - بومو؛ ٤ - كولنكو؛ ٥ - كرما طيوراما؛ ٦ - وين؛ ٧ - مجموعة سنوفو؛ ٨ - سيمي؛ ٩ - دوكون. وحتى ولو سلم بوجود مجموعة كوا متميزة عن البينوي - كنغو المذكور أعلاه، فانه يوجد مجموعتان فرعيتان، الكرو في أقصى الغرب، والايجو في أقصى الشرق، وقد يثار الشك في انتمائهما لمجموعة كوا. وفيما عدا هذا الاحتراز فان أهم المجموعات الفرعية للكوا هي الآتية: معددة بقدر الاستطاعة من الغرب الى الشرق: ١ - لغات كرو؛ ٢ - الكوا الغربي ويشمل الاو - فووا لا كان - كنك (ومعنى اليوم أحيانا فولطا - كاموي) والكا - ادنكي واللغات المتبقية في الطوغو؛ ٣ - اليوروبا، الايكالا؛ ٤ - مجموعة النوب؛ ٥ - مجموعة الايدو؛ ٦ - مجموعة ايدوما؛ ٧ - ايبو؛ ٨ - ايجو.

أما البينوي - كنغوفهو أساسا مجموعة النيجر - كنغوالتي كانت تسمى بينوي كروس، أو نصف بانتو من قبل وسترمان بإضافة البانتو لقسمه «الشبيه بالبانتو»، وهناك أربعة أقسام أساسية في البينوي - كونغو: ١ - لغات النجد؛ ٢ - الشبيه بالجوكو؛ ٣ - وادي كروس وأهم لغة فيه هي مجموعة إفيك إيبيبو؛ - الشبيه بالبانتو ويشمل البانتو والتيف وعددا كبيرا من لغات أصغر في جهة بينوي الاوسط.

وعدد من لغات نيجيريا التي كانت تعتبر سابقا نصف بانتو بالمعنى الأعم، صارت اليوم تعتبر عامة بانتو، ومن الممكن أن نذكر في هذا القليل مجموعتي إكوي وجراو. والتقسيم الأساسي للبانتو نفسه قد يكون بين اللغات المذكورة أعلاه والبانتو بالمعنى التقليدي.

وفي هذا المعنى الأخير يبدو مقسما الى مجموعة شرقية ومجموعة غربية. ولزيادة التدقيق في القسمة تستعمل عامة قسمة كشرى الى مناطق معينة بالحروف، تتغير بطرق مختلفة حسب عدة اختصاصين (٣٧).

وكان تصنيف مجموعة البانتو في جلته كمجموعة فرعية من البينوي - كنغو الذي هو نفسه فرع من الاسرة العظمى النيجر - كنغو، أحد الأوجه التي داخلها النقاش الأكبر في تصنيف غرينبرغ. فتبنى كشرى على الخصوص النظرية القائلة بأن البانتو مستقل وراثيا وان عديد وجوه الشبه الموجودة بين البانتو وسائر لغات النيجر - كنغوهي نتيجة لتأثيرات البانتو على مجموعة من اللغات متباينة أساسا. وهو يستنتج من هذه الفرضية أن نقطة الأصل للبانتو هي «نواة» الشبابا الجنوبي، بينما يجعلها

(٣٦) أنني أتبع هنا، من أجل تفاصيل المجموعة الفرعية، ج. ت، بندر سامويل النيجر - كونغو، كور، ص ١٤١ - ١٤٨ في سيوك، المرجع قبله.

(٣٧) عن هذا التصنيف انظر م. كشرى، ١٩٤٨.

غر ينبرغ في الوادي الاوسط من البنيوي في نيجيريا، اذ هناك تستعمل اللغة الأوثق تناسباً مع المجموعة الفرعية الشبيهة بالبانتو في بينوي — كنفو (٣٨).

وأخر مجموعة تنتمي للنيجر — كنفو هي فرع آدماءا الشرقي، فمجموعة آدماءا يشمل عددا كبيرا من المجموعات اللسانية الصغيرة نسبياً، ومن بينها نذكر كمثالين التشمبا والمبوم. والفرع «الشرقي» يشمل عددا من اللغات ذات الاهمية الكبرى كالفيا، في الجمهورية الافريقية الوسطى، والزندي (٣٩).

على العكس الاسرة الواسعة نيجر — كنفو، التي نظرنا فيها قبلاً، فان الآخر من النيجر — كردوفاني، أعني اللغات الكردوفانية لا يشتمل على أي لغة ذات قيمة كبيرة، وهو يتقاسم هضاب الكردوفان مع لغات متنوعة. من الأسرة النيلية الصحراوية. ويمكن تقسيم هذا الفرع الى جوع فرعية خمسة متميزة كثيراً، ابعدها مجموعة التومتوم: ١ - كوالب؛ ٢ - تكالي؛ ٣ - طالودي؛ ٤ - كانلا؛ ٥ - تومتوم (و يسمى أيضاً كوغلى — كرونكو) (٤٠).

## الأسرة النيلية الصحراوية

الاسرة الأخرى الكبرى من اللغات الزنجية الافريقية، هي النيلية الصحراوية، ويتكلم بها بصفة عامة في شمال لغات نيجر — كنفو وشرقيتها، وهي سائدة في وادي النيل الاعلى وفي الجهات الشرقية من الصحراء ومن السودان. ولكن لها مركز متقدم غربي في السنغالي في وادي النيجر السفلي. وتشمل فرعاً متسعاً جداً، الشاري — نيل، وهو يحوي معظم لغات الاسرة وفروعها، ونحن نسير من الغرب الى الشرق كلما أمكن ذلك. فان فروع الاسرة النيلية — الصحراوية هي التالية:

- ١ — السنغالي؛ ٢ — الصحراوي؛ أ — كانوري — كانمو، ب — تيدا — دازا، ج — زغاوا — برتي؛
- ٣ — مابان؛ ٤ — فرويان؛ ٥ — شاري نيل (ولز زيادة التفاصيل انظر الأقسام وال فقرات بعده)؛
- ٦ — كومان (كوما، غنزا، أدك، غولي، كوموز، وماو).

ولغات الشاري — نيل تشمل مجموعتين رئيسيتين، السوداني الشرقي والسوداني الاوسط، كما تشمل لغتين منعزلتين، البرتا والكوناما.

والسوداني الشرقي، هو المجموعة الأكثر أهمية من بين اللغات النيلية الصحراوية، وتحتوي على عشرة مجموعات فرعية هي: ١ — النوبي: أ — نوبي النيل، ب — نوبي كردوفان، ج — ميدوب، د — بركا؛ ٢ — مجموعات مورلي ديدينغا؛ ٣ — باريا؛ ٤ — انكسانا (طابي)؛ ٥ — نيبا أفيتي؛ ٦ — تمين طويس — أوم — دنب؛ ٧ — مجموعة مراريت؛ ٨ — داکو (مجموعة داجو)؛ ٩ — نيلي مقسم الى: أ — نيلي غربي، بوروم، مجموعة لودينكا نويرة، ب — نيلي شرقي: (١) — مجموعة

(٣٨) عن النقاش حول البانتو انظر م. كشي، ١٩٦٢، ص ٢٧٣ — ٢٨٢، ر. ليفي، ١٩٦٦، ص ٣٦١ — ٣٧٦ وج. ه. غرينبرغ، ١٩٧٢ — ص ١٨٩ — ٢١٦.

(٣٩) توجد قائمة مفصلة للغات آدماءا الشرقية لدى غرينبرغ، ١٩٦٦، ص ٩.

(٤٠) توجد ارشادات أكثر تفصيلاً عن اللغات الكردوفانية عند غرينبرغ، ١٩٦٦، ص ١٤٩.

باري (٢) — كراموجونج، تيسو، تور كانا) ماسيا؛ ج — نيلي جنوبي، ناندي، سوك، تاتوجا. ١٠ — نيانغيا، توسو (ايك).

وتصنيف مجموعتين النيلي الفرعيتين، الشرقية والجنوبية، آثار جدالات حادة، فحين ضم ماينهوف الماساي الى اللغات الشاميتية، كان على ما يظهر ينوي ادخال لغات أخرى من هاتين المجموعتين، رغم شبهها مع اللغات المصنفة هنا. ضمن المجموعة النيلية الغربية، كالشكوك واللوو والدينكا.

وان هو فرق بين لغتين متشابهتين مثل الشوك والماساي مثلاً، فذاك أساساً لأن الماساي له ميزة الجنس. وحاول وسترمان حلاً وسطاً بتسميته بالنيلية الشاميتية للغات النيلية الشرقية والجنوبية، معتمداً بدون شك، على فرضية انها لغات مختلطة. وخصص لفظ النيلي للنيلي الغربي. وتبنى توكر في البداية رأياً مشابهاً، ثم انه قرب أكثر هذه اللغات من النيلي مسمياً اياها ملحقات النيلي (٤١). وتوجد آراء أخرى حديثة متباينة: عنها رأي هو هنبركر الذي يقارن الماساي بالسامي، ورأي هنتغفرد الذي يبدو أنه حاول احياء فكرة ماينهوف القديمة القائلة ان هذه اللغات شاميتية (٤٢). والمجموعة الثانية من الشاري — نيل، هي السوداني الاوسط. ويقسم الى ست مجموعات فرعية: ١ — البنكو — باكرمي؛ ٢ — الكرايش؛ ٣ — مورو — مادي؛ ٤ — مانكيتو؛ ٥ — مانكيتو يني؛ ٦ — لنسو.

## أسرة خويسان

لكل اللغات الخويسان، مصوتات ذات نغم خاص، ومعظم الذين يتكلمون بها ينتمون الى نموج سان المتميز جسمانياً.

وتستعمل معظم اللغات الخويسان في افريقيا الجنوبية، الا أنه توجد مجموعتان صغيرتان من السكان منقطعين بعيداً جداً نحو الشمال في طانزانيا، هما الهاتسا والصنداوي وتختلف لغاتها كثيراً فيما بينها، كما تختلف مع لغات مجموعة افريقيا الجنوبية، وتقسم الاسرة الى ثلاثة فروع: ١ — الهاتسا؛ ٢ — الصنداوي؛ ٣ — خويسان افريقيا الجنوبية. ويقسم هذا الأخير ذاته الى ثلاثة فروع: ١ — الفرع الشمالي ويشمل لغات سان الشمالية وبعض آون والكنغ؛ ٢ — خويسان الوسط وبه مجموعتان: أ — الكيشوار؛ ب — نارون، خوي خوي؛ ٣ — سان الجنوب، وهو الذي يظهر أكبر تفرقة داخلية، ويشمل عدداً كبيراً من لغات سان المتميزة (٤٣).

وكما شاهدنا في قسم من هذا الفصل خاص بتاريخ التصنيف فإن عدداً من علماء اللسانيات، بليك ولبسيوس وفيما بعد ماينهوف، قد فصلوا الخوي خوي عن سان، وجعلوا هذه اللغة ضمن

(٤١) انظر أ. ن. توكر، و. م. أ. بريان، ١٩٦٦.

(٤٢) انظر عن ذلك ج. و. ب. هنتغفرد، ١٩٥٦، ص ٢٠٠-٢٢٢، ج. هو هنبركر، ص ٢٨١-٢٨٧ و. ج. ه. غرينبرغ،

١٩٥٧، ص ٣٦٤-٣٧٧.

(٤٣) انظر الرأي الماكس للأستاذ أولدرج، الفصل الحادي عشر.

الشاميتية، ويدعم حالياً أ. و. ج. وستفال (٤٤) شكلاً متقحاً من هذه النظرية، وهو يقسم المجموعة الموصوفة هنا باسم خويسان إلى أسرتين مستقلتين، أحدهما الصنداوي وخوي خوي ويشمل الصنداوي ولغات خويسان الوسطى. ولكل هذه اللغات ما عدى الكيشوار تميز للجنسين، ولا يتقدم وستفال بأي رأي فيما يخص القرابة الممكنة مع الشاميتية — السامية. ومجموعة وستفال الثانية، الهندزاسان، يشمل الهاتسا ولغات سان الشمالية والجنوبية. ولكنه يعتبر أن القرابة بين الهاتسا ولغات سان غير ثابتة كامل الثبات.

ولغة مرينا التي فرضت نفسها بالنسبة إلى اللغات من أصل إفريقي المتداولة في بعض الجهات من الجزيرة الكبرى، ليست ضمن التصنيف أعلاه، فلم تناقش قط نسبتها إلى الأسرة الجزرية الجنوبية (ماليزية بولينيزية) وأقرب قريب لها داخل الأسرة في الراجح هو المانيان بورنيو (٤٥). وهناك لغة أخرى لم تذكر في هذا التصنيف: الميروتية (٤٦) وهي لغة ميتة كتبت بالكتابة ذات شكلين شكل هيروغليفي وشكل عادي لين وقد انقرضت هذه اللغة منذ القرن الرابع للميلاد تقريباً وليست معروفة إلا من اكتشافات أثرية تمت في منطقة تمتد تقريباً من أسوان في مصر الجنوبية إلى الخرطوم في السودان. ورغم كوننا نجعل قيمة الحروف المستعملة الصوتية، فليس لنا، بسبب انعدام النقوش المزدوجة اللغات، إلا معرفة محدودة غير ثابتة بالمفردات والنحو، وأقدم نظرية كانت، أن هذه اللغة من النوبية (غريفث) ورفضت فرضية حامية (ماينهوف، زهلارن) بمقال جليل لهنتز. وأعيد عرض الفرضية النوبية مؤخرًا في شكل أوسع، قدمها تاجر الذي يذكر أنها تنتمي إلى الفرع الثانوي السوداني الشرقي من النيل — الصحراوي، وهو يشمل النوبية (٤٧) حسب تصنيف غرينبرغ.

وفي النهاية ينبغي أن نذكر اللغات الأوروبية والهندية المستوردة حديثاً ويتكلم بها، في بعض الحالات سكان مولودون في إفريقيا. فالانكلزية، علاوة على كونها يتكلم بها في إفريقيا الجنوبية وفي زيمبابوي، هي لغات أحفاد السود الأميركيين الذين أسسوا ليبيريا، وهي مستعملة أيضاً في صورة مزيج (كريو) فريطاون (سيراليوني). والافريقان، قريب من النيرلندية، وهو مستعمل في إفريقيا الجنوبية. ويوجد في إفريقيا الشمالية عدد كبير من السكان يعرفون الفرنسية والإسبانية والإيطالية، ويوجد شكل مزيج من البرتغالية وهي اللغة الأولى لوضع الآف من الأشخاص في غينيا وفي جهات أخرى. وأخيراً عدة لغات ذات أصل هندي مستعملة في إفريقيا الشرقية، وهي تشمل اللغات الآرية والدرافيدية، وأهمها الكجراتي.

(٤٤) أ. و. ج. وستفال، ١٩٧٧، ص ١٥٨ — ١٧٣.

(٤٥) الإشارات التي تستند إليها هذه الفرضية مقدمة عند د. س. داهل، ١٩٥١.

(٤٦) نذكر أن في جانني (كانون الثاني) وفيغري (شباط) ١٩٧٥، أقيمت ندوة مهمة التأمّت في القاهرة للإشراف على مجلة البحوث عن حل: الغاز الميروتية، (انظر المجلد الثاني).

(٤٧) عن هذه المسألة انظر. هينتنسي، ١٩٥٥، ص ٣٥٥ — ٣٧٢ وترجر (ب. ج.)، كوش مجلد ١٢، ص ١٨٨ — ١٩٤.

## مختلف مراحل التصنيف التي اقترحها صاحب المقال

### ١- (١٩٤٩ م - ١٩٥٠ م)

- ١- النيجر- كنغو
- ٢- السنغاي
- ٣- السوداني الأوسط
- ٤- الصحراوي الأوسط
- ٥- السوداني الشرقي
- ٦- الافروآسيوي (حامي سامي)
- ٧- «كلك»
- ٨- «مابان»
- ٩- «ميمي ناشتكال»
- ١٠- «فور»
- ١١- تماني
- ١٢- كردوفاني
- ١٣- «كومان»
- ١٤- «برتا»
- ١٥- «كوناما»
- ١٦- نيانغيا

### ٢- (١٩٥٤ م)

- ١- النيجر- كنغو
- ٢- السنغاي
- ٣- سوداني أعظم (١٥ سوداني شرقي) (٣ سوداني أوسط) (١٤ برتا) (١٥ كوناما)
- ٤- صحراوي أوسط
- ٥- افروآسيوي
- ٦- «كلك»
- ٧- مابان (٨ مابان) (٩ ميمي ناشتكال)
- ٨- «فور»
- ٩- تماني
- ١٠- كردوفاني
- ١١- «كومان»
- ١٢- «نيانغيا»



### ٣- (١٩٦٣ م)

- ١- نيجري - كردوفاني (٢١ نيجر - كنفو. ٢١٠ كردوفاني)
- ٢- أفرو آسيوي
- ٣- خويسان (انظر ٢٦ كلك)
- ٤- نيلي صحراوي (٢٢ سنغاي، ٢٤ صحراوي (انظر صحراوي أوسط) ٢٧ مابان، ٢٨ فور، ٢١١ كومان بإداخال، شاري - نيل، ٢٣ سوداني أعظم، ٢٩ تماني، ٢١٢ نيانغيا.

### - احالات

- ١- المجلة الجنوبية للانثروبولوجيا ١٩٤٩ - ١٩٥٠.
- ٢- المجلة الجنوبية للانثروبولوجيا ١٩٥٤.
- ٣- لغات افريقيا ١٩٦٣.

## القسم الثاني

# خريطة لغوية لأفريقيا

دافيد دالبي

مع أن كشافة السكان في إفريقيا أقل منها في العالم في مجموعه (١)، فإنها تحوي تشعباً لغوياً أكبر منه في سائر القارات (٢). ولذا لا يوجد حتى اليوم تصميم مفصل لخريطة لغوية في القارة الإفريقية، في الوقت الذي يحتاج فيه إليها المؤرخون وكثير غيرهم، احتياجاً كبيراً، والخريطة السلالية الديموغرافية لإفريقيا التي أعدها الاتحاد السوفياتي هي بلا شك مما يقترح من هذه الخريطة أكثر اقتراباً حتى اليوم (٣ مكرر). ولأنه يعوزها الوضوح، فكثيراً ما تكون فيها الفروق اللغوية والسلالية غامضة، وتشغلها معطيات ديموغرافية أو «لغوية سلبية». هذا وإن كل الاسماء الإفريقية نقلت بالحروف السيريلية. وأما سائر الخرائط القارة فهي تشير إلى المجموعات السلالية أكثر من تعرضها للمجموعات اللغوية، وهي عموماً مبسطة كثيراً لدرجة أنها أقل من أن يكون لها قيمة علمية (٤).

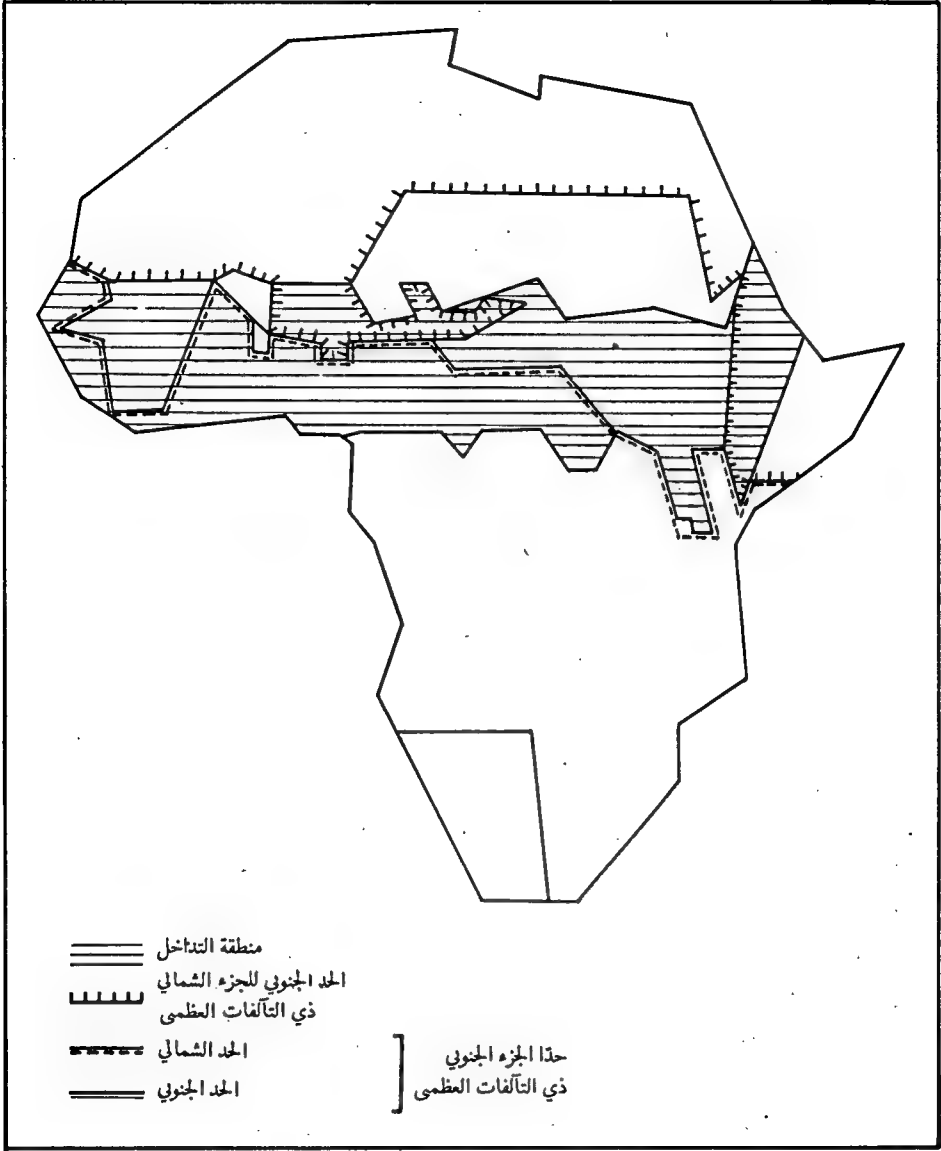
ومن الواضح أنه لا مناص من بعض التطرف في التبسط اذا ما حاولنا أن نعطي صورة عامة لتوزيع اللغات على القارة الافريقية وعلاقتها الواحدة بالنسبة الى الأخرى، فلكي تكون خريطة

(١) تحتل افريقيا نحو ٢٠% من المساحة الارضية الكاملة، ومع هذا فإنها تمثل اقل بقليل من ١٠% من العمران البشري في العالم - بأكمله.

(٢) ان غينيا الجديدة (وهي لا تزيد على جزء من اربعين من مساحة افريقيا كاملة) بها درجة من التشعب اللغوي يساوي او قد يفوق تشعب القارة الافريقية، ولكن لا يوجد في العالم منطقة تقسمت فيها اللغات تقسما بالنسبة للمسافات الجغرافية، في المنطقة من افريقيا جنوبي الصحراء.

(٢) مكر: Narodni Afriki، موسكو، ١٩٦٠، أنظر أيضًا Karta Norodor Afriki، موسكو، ١٩٧٤.

(٣) مثلاً «الخرطة القبلية لافريقيا (د. ج. ب. مروك ١٩٥٩)» او «خرطة القبائل والقويات في افريقيا المعاصرة» بـ روا لويس وايغون فوي، نشرها التامس في بداية السبعينيات.



● رسم توضيحي للخريطة اللغوية لأفريقيا

صحيحة صحة مطلقة، ينبغي أن يمثل عليها كل واحد من سكان القارة الأفريقية بنقطة منيرة منعزلة. وقد تنتقل هذه النقطة تنقل الشخص نفسه، وإذا ما أضاعنا فينبغي أن تتمكن من المرور بنحو النوني لون مختلف حسب اللغة التي يتحدث بها ذلك الشخص المعني في ذلك الوقت المحدد بالذات.

وإذا يستحيل ماديا أن توضع خريطة من هذا النوع، فمن اللازم أن نكتفي بوثيقة، أن لم تكن بلغت الكمال، نأمل أن تكون فيها من التفاصيل والصحة ما يفوق ما كان بين يدينا حتى الآن.

فمنذ عشر سنوات يعمل على وضع خريطة أفريقية لغوية خاصة (بالمقابلة للخريطة السلافية). والهدف من هذا الفصل أن تؤكد على ملامح هذا العمل التي تتعلق بتاريخ أفريقيا (٤).

ولأن الدراسة المقارنة للغات الأفريقية كانت تبدو في الخارج تقنية، فإنها كثيرا ما قيم بها بكيفية ساذجة جدا. وقد غلب إلى أن نسلّم بأن الخريطة اللغوية المشعبة الحالية، نشأت عن خريطة لغوية قديمة أبسط بكثير، وأن العلاقات اللغوية قد تعبر عن نفسها في شكل «أشجار أنساب» متفرعة حسب طبقية تنازلية («الأسر» ما تحت الأسر «الفروع») وأن الفكرة التي تقول: أن مئات ومئات من اللغات المعاصرة في أفريقيا قد ترتفع، على نظام تصاعدي منظم، إلى بعض «اللغات الأمهات» هذه الفكرة قد حلت بالاختصاصيين في اللسانيات المقارنة إلى النظر في العلاقات الممكنة بين اللغات الأفريقية حتى البعيدة بعضها عن بعض، قبل أن يشتوا ما بينها من علاقات مباشرة على أساس صحيح. وادى ذلك باللغويين إلى الاعتناء أساسا بالسير التاريخية للتباين في اللغات ذات الأصل المشترك افتراضا، وإلى الإيعاز اهتماما بسير التجمع بين لغات لا قرابة بينها، أو العودة إلى الجمع بين لغات لها قرابة الواحدة من الأخرى. وازدادت نتائج هذه النظرة السيئة تعكرا بسبب أن التصنيفات التاريخية المزعومة التي وصلوا إليها بهذا الأسلوب، جعلت أيضا أطارات للمرجع، (لا بالنسبة إلى اللغات فقط بل حتى بالنسبة إلى الأهالي في أفريقيا). ونتيجة لذلك أثرت بدون موجب في تفكير المؤرخين في أفريقيا.

ومجدد اذن قبل كل شيء أن يخلص ما للخريطة اللسانية الأفريقية من تشعب، وذلك باختصارها إلى أبسط مركباتها (اعني المجموع اللسانية التي توجد بينها صلات وثيقة وعلاقات جماعية، والتي تكون لها وحدة خارجية ووحدة داخلية (٥) (وحدات مركبة)، أو لغات متميزة لا يمكنها أن تدخل في أية واحدة من هذه المجموعات = (وحدات بسيطة). وهذا العمل يكشف عن خاصية من خواص مهمة للخريطة اللسانية قد حجبتها التصنيفات السابقة، وهي أنه من بين ما يقرب من ١٢٠ وحدة بسيطة ومركبة في كل أفريقيا، انحصرت مائة منها تماما في منطقة واحدة

(٤) خريطة لغوية لأفريقيا والجزر المجاورة لها، شرع في وضعها من قبل (مكتب الدراسات الشرقية والأفريقية والمعهد الدولي الأفريقي). وتهدف هذه الخريطة إلى إبراز التوزيع الحالي للغات «الأم» أو «الأولية» وعلاقاتها اللسانية، بمقياس ١: ٥٠٠٠٠٠٠. وعلى هذه الخريطة مثلت أيضا جهات أكثر تشعبا لغويا بمقياس ١: ٢٠٠٠٠٠٠، و١٢٥٠٠٠٠٠. ويعمل المعهد الأفريقي الدولي حاليا (١٩٧٧) على طبع نشرة مؤقتة تتضمن قائمة نظامية للغات الأفريقية (تمهيدا لنشرة نهائية ستطبع فيما بعد من قبل لونغكان).

(٥) لأن قامت علاقة بين اللغات (أ). و (ب) و (ج) يمكن أن تعتبر ذات «وحدة داخلية» على أن هذا التجميع لا معنى له إذا لم يكن لهذه اللغات «وحدة خارجية» أي إذا كانت العلاقة بين أ و ب، وبين أ و ج، وبين ج و ب في كل هذه الحالات أوثق منها بين كل من هذه اللغات الثلاث وبين أي لغة ليست من مجموعتها.

تمتد عبر أفريقيا كلها، من ساحل السنغال غربا حتى مرتفعات إثيوبيا وأفريقيا الشرقية، شرقا (٦) فإذا ما اعتبرت اللغات المختلفة (٧)، ان ثلثي المجموع تقريبا بالنسبة للقارة الأفريقية يتكلم بها داخل المنطقة التي تمتد تقريبا على ٥٦٠٠ كيلومتر طولاً، ولكن ليس لها أكثر من متوسط ١٠٠٠ كيلومتر عرضاً.

وتمتد هذه المنطقة على طول القفر الصحراوي، ونظراً لموقعها الجغرافي ولتشعبها اللساني يمكننا للتسهيل ان نسميها «منطقة التفرع تحت الصحراء». ويمكن تحديد نهاياتها حسب الجغرافيا الطبيعية واللسانية، فإنها بالجملة تجاور شمالاً المغازات الصحراوية وشرقاً الخواصر الجبلية وجنوباً حافة الغابة، وتنتهي غرباً إلى الساحل الأطلسي وجهات التقسيم الأقصى؛ ومن الوجهة الجغرافية الطبيعية، تقع على طول المحيط «للمنطقة التفرع» في الشمال الشرقي، في الوسط وفي غربي هذه المنطقة وفي أقصى الجنوب من قرن أفريقيا الشرقية، وفي كتلة تشمل معظم أفريقيا الغربية. ومن حيث العلاقات البنيوية والمعجمية العامة، فإن أشد الجهات تقسماً تقع في الأرجح داخل قرن أفريقيا الشرقية وحول طرفها حيث تستعمل لغات تمثل «الاسر» الأربع التي يفترضها غرينبرغ في دائرة لا يتجاوز قطرها أربعين كيلومتراً.

ففي هذه الصورة كما في مثل جبال الطوكو ونجد جوس وهضاب الكامرون وجبال نوبا والأراضي العليا في غربي إثيوبيا، يظهر انه يوجد ارتباط بين بلاد الجبل وظاهرة التقسيم اللساني الشديد (٨). ويجدر أيضاً ان يلاحظ، ان العلاقات الداخلية بين بعض الوحدات المركبة المتمثلة في لغات داخلية في منطقة التقسيم كلغات خارجة عنها أيضاً، هي اقل وضوحاً أكثر فأكثر في نقطة التداخل بمنطقة التقسيم (٩).

وقد حجب ما لمنطقة التقسيم من قيمة لسانية وتاريخية تراكم شبكة من «الاسر» و«شبه الاسر» اللسانية التي افترضها علماء اللسانيات الاوروبيون والاميركان. ومن هذه الاسرائيتين من اهمها، بما لها من قيمة واضحة ومن فائدة، تفوقان الاسرتين الكبيرتين الاخيرتين في تصنيف غرينبرغ بل عدة «اسرة فرعية» رتبته ضمنها تقليدياً. واذ ان كلمة «اسرة» تتضمن ترتيب بنوة ذات طابع بشري او بيولوجي لا تليق بظاهرة اللغة،

(٦) من بين الباقية يوجد لا اقل من تسع وحدات تشمل لغات يتكلم بها على حافات منطقة التفرع (كما يستثنى حسب بعض الوحدات الغير البنتوية من جنوبي أفريقيا ومدغشقر).

(٧) في صورة العديد من مجموعات أشكال اللغات المتقاربة كثيراً او قليلاً لا يمكن أن تثبت سوى تميزات اعتبارية بين «اللغات» و«لهجات اللغات» فإذا ما اعتبرنا جوع أشكال الكلام المفهومة قليلاً أو كثيراً كلغات «متميزة يكون المجموع في أفريقيا نحو ١٢٥٠ لغة وإذا ما اعتبر كل الاشكال كلغة قائمة بذاتها أتى تلح هكذا لمن تكلمها، وأتى اتخذت لنفسها اسماً متميزاً، يقترب المجموع اذن من ٢٥٥٠ لغة.

لوطبقت هذه الطريقة الأخيرة على اوروبا واعتبرت السويديّة والنرويجية والدانمركية لغات متميزة، ولكن اذا ما اتبعت الطريقة الاولى لزم عددها لغة واحدة. وكى نحصل على فكرة فيما يخص تقدير عدد اللغات المتكلم بها في أفريقيا، نقترح ان نتخذ معدل التقريرين تقريبا ١٦٥٠ لغة لأفريقيا، منها ١١٠٠ تقريبا (حسبت بالطريقة نفسها) يتكلم بها في منطقة التفرع.

(٨) نشير الى نقطة مقارنة مهمة هي أنه توجد «منطقة تقسيم» مماثلة بالنسبة للغات الهنود في اميركا الشمالية. وهذه المنطقة الجبلية في معظمها لها نحو ٣٠٠ كيلومتر من الطول و٣٠٠ كم عرضاً. وتمتد على موازاة ساحل المحيط الهادي، من جنوبي الأسكا حتى الحدود المكسيكية، وتشمل على منطقة تقسيم أقصى في شمال كاليفورنيا (حيث ان مثلثات ست اسر كبيرة من ثمان فرضت للغات الهنود في اميركا الشمالية تقع في دائرة شعاعها نحو ١٦٠ كم).

(٩) اعني لغات سامية «كوشيتية» شرقاً وبناتو (بادخال اللغات الشبيهة بالبنتوية).

يمكن ان يفكر في تعويضها بعبارة «ناحية التآلفات الكبرى» «للدلالة دلالة صحيحة على كل من هاتين الاسرتين، خصوصا وانها تحتل نواحي متلاصقة تلاصقا قويا او ضعيفا في القارة الافريقية. واول هذه النواحي أي الناحية الشمالية ذات التآلفات الكبرى» تعرف عادة باسم «الهامية السامية» وسميت حديثا «الأفروآسوية» (غرينبرغ) او «الاريترية» (طكر). والثانية أو «الناحية الجنوبية للتآلفات الكبرى» سميت حديثا «النيجرية الكنفولية» و«الكنفولية - الكردوفانية» (غرينبرغ) او «الزنجية» مردوك (١٠). ولم يحدث اي جدل حول الصلاحية العامة لهاتين الناحيتين ذاتي التآلفات الكبرى التي ظهرتا لعلماء اللسانيات الاوربيين منذ القرن السابع عشر (١١) وبدون شك ايضا للملاحظين الافارقة منذ عهد اقدم بكثير. ويعتبر من الاهمية النسبية لهاتين الناحيتين أنها تشمل على أكثر من ٨٠% من اللغات المتكلم بها في افريقيا، وتشمل الناحية الجنوبية بمفردها ما يقرب من ٦٦% من مختلف اللغات بالقارة. وحسب التصنيف التقليدي المستعمل في الخريطة اللسانية الموجودة حالية، فان لغات الناحية الشمالية تتوزع في الجملة الى سبع عشرة وحدة بسيطة ومركبة (اثنتي عشرة منها توجد تماما في منطقة التقسيم) وتتوزع لغات الناحية الجنوبية الى ثمان وخمسين وحدة بسيطة ومركبة (سبع وخمسون منها توجد تماما في منطقة التقسيم) (١٢).

وهناك سبب حاسم لكي لا توضع مستويات متوسطة في العلاقات الموجودة بين المناطق الاساسية ذات التآلفات الكبرى على مستوى القارة والوحدات البسيطة او المركبة، على المستوى النسبي المحلي. وذلك انه، لموجب مازلنا نجهله، هذه المستويات الوسطية في العلاقات اللسانية ليس لها ما يفرضها بوضوح، وتحديد لها اصعب بكثير من تحديد المستويات الاساسية والمباشرة. فوحدة الاسرة «الاطلسية الغربية» أو «كوا» أو «كور» أو «بينوي - كونكو» الداخلة في اطار الاسرة الجنوبية ذات التآلفات الكبرى أو وحدة «الاسرة» الكوشيتية أو «التشادية» في اطار الاسرة الجنوبية ذات التآلفات الكبرى، لم يتم بعد التدليل عليها بصفة قطعية. ولو أنه لوحظ منذ بعض سنين، ما للتصانيف التقليدية الاوربية والاميركية للغات الافريقية (١٣) من ضعف في هذه النقطة المهمة، فان المستويات الوسطية للتصنيف، مازالت تحتل مكانة ذات قيمة في المصنفات المخصصة. ومن بعض النواحي، انه في الامكان ان يقارن هذا الابقاء على التقسيمات الاعتبارية المفروضة على

(١٠) ان اسرة «الكنفولية الكردوفانية» غرينبرغ تشمل الاسرة التي يسميها «النيجرية - الكنفولية» مع مجموعة صغيرة من اللغات ذات قيمات لما قرابة اقل مع الاسرة الكردوفانية وعبارة «زنجي» توضع لتصنيف اقدم اعاد استماله مردوك سنة ١٩٥٩.

(١١) انظر دراسة غرينبرغ في هذا المجلد (ص ٣ من النص المرقن) ويشير فيها غرينبرغ أيضا الى ان العلاقة بين اللغاشية والماليزية قد لوحظت بالطريقة نفسها منذ القرن السابع عشر الميلادي.

(١٢) داخل الناحية الجنوبية للتآلفات الكبرى فان الوحدة المركبة الوحيدة الواقعة (في معظمها) خارج منطقة التقسيم هي وحدة البانتو. على ان هذه الوحدة المركبة تشتمل بمفردها تقريبا على عدد من اللغات (نحو ٥٠٠) يساوي مجموع العدد في الوحدات السبع والخمسين الاخرى في هذه الناحية ذات التآلفات الكبرى.

(١٣) انظر دافيد دالي: [تأملات حول تصنيف اللغات الافريقية، مع احالة خاصة الى عمل سيكوند وإلهم كوال وملكم غورثي] دراسات اللسانيات الافريقية ١، ١٩٧٠ [ص ١٤٧ - ١٧١ (خاصة ١٥٧ - ١٦١).

• كل ما بين المقتعين لا يوجد في النص المطبوع (تطبيق المراجع محمد القاسي).

الخريطة اللسانية في إفريقيا، بتاريخ التقسيمات الاستعمارية الاعتبارية المفروضة على الخريطة السياسية للقارة الأفريقية.

وان كان غرينبيرغ قد أدى خدمات جليلة لعلماء اللسانيات الإفارقة بلفت نظرهم إلى الاستعمال الاعتباري للفظ «هامي» للدلالة على نوع مستوى متوسط للتصنيف الموجود (١٤). فعليه من سوء الحظ مسؤولية الحفاظ الاعتباري على عدد كبير آخر من هذه المستويات وقد أثير سابقا عدد من الشكوك على عدة من هذه المستويات (١٥) ولكن الأستاذ ستيرت قد نشر أخيرا تكديبا أوضح لتصنيف مجموعة «بينوي كنغو» وهي أكبر «أسرة فرعية» افترضها غرينبيرغ.

وان من أهم النتائج لهذه الأعمال كلها (الحديثة) على لغات «بينوي كنغو» هو إثارة الشك حول صلاحية البينوي — كنغو كوحدة وراثية، ولقد بدئ بتقبل رأي غرينبيرغ دون مناقشة حين زعم أن عدة تجديدات صودق عليها بصفة عامة، قد يكون لها قيمة الحجة. والواقع أنه لم يذكر منها سوى واحدة. اللفظ الذي يدل على «الطفل»، بينما يشير ولسون إلى أنه إذا ما اعتبرت المقابلات العادية المقبولة، قد نشاهد أن هذه الخاصية لا تنحصر في لغات بينوي — كونغو، فلا تكون إذن حجة قطعية، وزد على ذلك أنه، في كل الجزء الأول من كتاب «قائمة الالفاظ المقارنة» (١٦) لبينوي — كونغولا يوجد مثال واحد في مقام الحجة القاطعة. وحين يجزنا ستيرت بشكوكه منذ عهد بعيد حول الوحدة الخارجية لبينوي — كونغو، لا يسعنا إلا أن نتساءل عن السبب الذي من أجله أحجم أخصائيو اللسانيات المقارنة عن ترك نظام تصنيفهم. ومن سوء الحظ أن كل الموعظة العملية المستمدة من البينوي — كونغوضاعت، وعوض أن يتخلى ستيرت عن هذا المستوى وعن غيره من المستويات التي لم تثبت في تصنيفه المتوسطي — بفضل مواصلة تخطيط غرينبيرغ ضاماً «بينوي كونغو» إلى «كوا» و«كور» (وهذان تصوران اعتباطيان أيضاً) ليكون تقسماً آخر، اعتبارياً هو بدونه، النيجر — كونغو «ويسمى الآن فولتا — كنغو» (١٧). ويلزمنا بدون شك أن ننتظر نتائج أعمال لسانية مقارنة أخرى لنرى «الفولتا — كونغو» لستيرت تسع أكثر، كي تضم كل «النيجر — كونغو» أو الناحية الشمالية ذات التآلفات الكبرى وهو المستوى الأساسي الوحيد للوحدة الخارجية والداخلية الواضح المعالم المتفق عليه.

ومما يجب على المؤرخين أن يلاحظوه، أن «التقبل الفسيح» للتصنيف المعياري لغرينبيرغ يرتكز إلى حد بعيد، فيما يخص النيجر — كونغو، على تقبله هو ذاته — «مجموعات وسترمان» أو «الأسر الفرعية» للغات إفريقية الغربية. وكما أشرنا إلى ذلك من قبل، فإن وسترمان لم يثبت وحدة

(١٤) انظر مقال غرينبيرغ في هذا المجلد.

(١٥) انظر دالي، المصدر قبله، ص ١٦٠.

(١٦) ج. م. ستيرت، ١٩٧٦، ص ٦.

(١٧) من السخرية أن نلاحظ أن «الأسرة الفرعية» الوسطية الوحيدة الواضحة التي لا يداخلها شك لأسرة نيجر — كونغو غرينبيرغ، هي المادني. ووضوح هذه القسمة يشهد على أن هذه هي من «أسرها الفرعية» التخمينية الوحيدة التي لم يشك في انتماها الأساسي إلى أسرة «النيجر — كنغو».

«مجموعاته» الخارجية (١٨) بينما تدل وحدتها الداخلية الواضحة فحسب، على أن اللغات التي تكونها تنتمي إلى الناحية الشمالية ذات التآلفات الكبرى.

وإذا صح أنه ليس للمؤرخين أن يتقبلوا بدون احتراز التصنيفات الموحدة للغات الأفريقية، فيجب أن نلح بكل قوة على ما للخريطة اللسانية في أفريقيا من أهمية كمصدر للخبر عما قبل التاريخ لهذه القارة. وما زال الأمر يحتاج للقيام بأعمال عديدة للتعلم في هذا الموضوع، ونحن ننتظر الجيل الجديد من مؤرخي اللغات الذين يكونون أيضاً يتكلمون اللغات الأفريقية، فيكون في متناولهم أن يدعموا الأعمال التمهيدية التي لا يستغنى عنها للمقارنة الدقيقة المفصلة للغات المجاورة الوثيقة القرابة. ومنذ ذلك يمكن حينئذ الرجوع إلى التعبير التخطيطي الأوسع لجملة الخريطة اللغوية في أفريقيا. وعلى تشعبها اللغوي الذي يفوق تشعب سائر القارات. فإن أفريقيا حقاً بارزة لكون ثلثي لغاتها يرتبطان بناحية واحدة ذات تآلفات كبرى، ولكون هذين الثلثين المتنوعي التركيب، ينحصران في حدود منطقة التقسيم في جنوب الصحراء. وأفريقيا التي يتكلم فيها بالبانتو هي الناحية الوحيدة من القارة التي كانت موضوع نقاشات مهمة حول التعبير فيما قبل التاريخ للمعطيات اللسانية.

ومفتاح هذا التعبير في السلم القاري، يكون من شأنه أن يجعلنا نتفهم تفهماً أحسن العلاقات اللسانية داخل منطقة التقسيم. ومع ذلك لا يمكن أن ينقص من قيمة ضخامة العمل الذي يجب القيام به.



## الجغرافيا التاريخية: المظاهر الطبيعية

د. دايارا

من الصعب، دون شك، أن يفصل التاريخ الأفريقي عن الجغرافيا التي كانت له إطارا وحاملا. ولكنه من العيب أن يعتمد على اعتبارات حتمية لأدراك العلاقات التي تكونت بين المجتمعات الأفريقية وبيئتها الخاصة، بما لهذه العلاقات من التشعب. وفي الحقيقة أن كل مجموعة قد تفاعلت بطريقة ازاء الوسط الذي واجهها. فما تم من محاولات موفقة قليلا أو كثيرا، لتنظيم المدى يشهد، هنا وهناك، بدرجة تنظيم البشر، وبما لتقنياتهم من النجاعة لاستغلال الموارد المحلية. على أنه من المهم بالنسبة الى أفريقيا المتحركة، أن ينظر في بعض الخصائص الجغرافية التي من شأنها أن توضح الأحداث العظيمة التي انتصبت كعلامات على طول المنظور الجغرافي التاريخي للقارة. وفي هذا الشأن، أن خواص التشكل التكويني العام الأفريقي، وما يوحى به من منطق مناخي عجيب، وأخيرا ما للاوساط الطبيعية المكونة للقارة من طرافة، كل ذلك جوانب موروثة قد أعاققت النشاط البشري، أو قد يسرته، لكن دون أن تتحكم أبدا وحتميا في تطوره. وفي الخلاصة ليس الأمر سهلا فيما يخص العلاقات في الصميم بين الطبيعية الأفريقية وبين الرجال الذين يشغلونها ويستغلونها ويصلحونها ويغيرونها، حسب ما لهم من نظام سياسي، وما لديهم من وسائل التقنية، وما لهم من مصالح اقتصادية.

### خصائص التشكل التكويني في القارة الأفريقية

أنه من المسلم به عموما، أن أفريقيا تنتمي الى قارة قديمة جدا كانت تشمل، قبل تصدعها نتيجة انهدام بطيء، على أميركا وآسيا الجنوبية وأستراليا. من المحتمل أن تكون هذه القارة، هي غندوانا



وهي مظهر الجهود الاولى لانشقاق القشرة الارضية التي أثارت سلاسل ضخمة من الجبال، اتجاهاها العام من الجنوب الى الغرب، ومن الشمال الى الشرق، وانجرفت هذه التعاريج بشدة من جراء تعربها الطويل، فردت الى اشباه سهول يشاهد أوسع أمثلتها في افريقيا.

### طرافة افريقيا الجيولوجية

ان طرافة افريقيا، يشهد بها أولا هذا الامتداد الحارق للقاعدة الكبرى الاولى الذي يغطي معظم مساحتها. وتبدو هذه القاعدة على ثلث القارة وأحيانا تغطيها قشرة، تختلف سمكا من الرواسب والمواد البركانية، وهذه القاعدة تشتمل على صخور متبلورة (غرانيتات) أو متحولة (شيست، مرو، غنيس) شديدة الصلابة. ففيا عدا النظام الالهي في المغرب، والتعاريج الهوسينية في الكاب، وفي جنوب جبال الاطلس، فان المجموع الافريقي والملاغشي يشكل مصطبة عتيقة قارة متكونة من ترس لم يتحمل تعاريج ذات قيمة منذ العهد الكبري القديم. وعلى القاعدة وقد حتا انجرفا طويل ترسبت مع تقصف في الطبقات، تشكيلات رسوبية في صورة غشاوات تحت الافقية متنوعة الأعمار منذ بداية الدهر الجيولوجي الأول، حتى الدهر الرابع. وهذه السلاسل الرسوبية مركبة من مواد خشنة في الغالب حثية (ترابية - رملية)، وهي أقرب الى الطبيعة القارية منها الطبيعية البحرية، اذ أن الزحوف البحرية لم تغط القاعدة الا في فترات مؤقتة وبكيفية جزئية. في افريقية الغربية يكون حث الدهر الأول هالة داخل مابرز من الساحة القبل كبرية. وفي افريقيا الجنوبية فان التراكمات العظيمة القارية من العصر البرمي الترياسي تكون سلسلة كارو التي يبلغ سمك سلاسلها الحثية أحيانا ٧٠٠٠ متر. وشمالا القارة ولا سيما في الصحراء الشرقية وفي النوبة، فإن الحث الجواسي والطباشيري «قاري متداخل».

ولكن في الدهر الثاني تراكمت السلاسل البحرية من الجوراسي الى العصر الفجري في المناطق الساحلية وفي الأحواض الداخلية وإنها تشاهد في خلجان السنغال وموريتانيا والبنين والكابون وانكولا وفي حوض التشاد، وفي السهول الساحلية في افريقيا الشرقية من الصومال الى الموزمبيق. ومنذ العصر الفجري تراكمت الرواسب النهرية والهوائية في الأحواض الكبيرة الداخلية في افريقيا. وكل هذه السلاسل من الأغطية، التي تتركز على القاعدة الصلبة، لم تؤثر فيها تعاريج بل تغيرات في الشكل كبيرة منقوصة الشكل جدا، توالى منذ الدهر الأولى حتى فترة حديثة. فكانت هزات في شكل رصيف وانهارات بعيدة المدى، وذلك ما يفسر بنيت التتواتر والأحواض المميزة لافريقيا. وفي الدهر الثالث عندما بلغ التكون الالهي للجبال أشده، أثارت حركات رأسية أقوى حدة، تقصفت كبيرة في افريقيا الشرقية. وتصور هذه الكسور خنادق طويلة تقع تحت خطوط الزوال، تحيطها انهدامات، «أودية الرقت». وقد يصحبها أحيانا انصبابات بركانية مولدة لتضاريس أقسى، مثل الكيلمنندجارو وعلى رأسه كتلة الجليد والبالغ من الارتفاع ٦٠٠٠ متر. وفي الغرب كانت الانفصامات الطف، ولكن الانفصام الواقع في قعر خليج غينيا، أظهر نشاطا بركانيا قويا يشهد عليه بقوة جبل الكرون (٤٠٧٠ م).

## تأثيرات مناخية قديمة

تأثرت القارة الافريقية بأطوار طويلة من الانجراف تابعة لحركات تشقق القشرة الارضية، التي يبدو أنها كانت ببطئ طيلة العصور الجيولوجية. فأطوار الاستقرار تبعها عودة للانجراف أدت الى تشكيل مساحات فسيحة ممهدة. وفي سير تطور أشكال التضاريس فإن أهم عامل هو عامل التغيرات المناخية، وأبرزها تغيرات الدهر الرابع. فتداول المناخات الرطبة والمناخات نصف الجافة، يظهر بأطوار لتغير الصخور والانجراف الخطي أو الطيني، و ينتج عن ذلك ردم للمناطق المنخفضة وابرار للصخور الصلبة المكونة غالبا لتضاريس منزلة تطفو أحيانا فجأة فوق المساحات المنبسطة. وهذه «الجبال الجزرية» الموحدة منتشرة انتشارا كبيرا في الجهات الكائنة جنوبي الصحراء. ويتبع التغيرات المناخية في الدهر الرابع وتغيرات مستوى البحر، تنقيحات مهمة للتشكل المدرج للمقابل الافريقي الناشئ عن تعاقب دورات التعرية والتجميع خلال الفترات السابقة. فالمناخات القديمة مسؤولة عن وجود الصحراء، حيث توجد بقايا حجرية متعددة، ومتحجرات حيوانات من نموذج استوائي تدل قديما على ظهور مناخ رطب مساعد لنشوء الانسان. ولكن امتداد المناطق المناخية الحالية، خلال الدهر الرابع، نحو الشمال أو نحو الجنوب، يتبع الزيادة أو النقص في الأمطار. فالنظم المطرية مثلا نتج عنها الزيادة العظيمة في نسبة المساحة الكاملة من القارة المساعدة على حياة البشر. وبالعكس فإن الفترات الجافة ساعدت على امتداد المساحات الصحراوية من وراء حدودها الحالية، وجعلت من الصحراء هوة مناخية بين عالم البحر المتوسط والعالم المداري الاستوائي. ولكن هذه الصحراء التي تغطي ما يقرب من ثلث القارة، وتمتد على نحو خمس عشرة درجة من العرض، لم تكن قط حاجزا فاصلا بين شمال افريقيا وجنوبها؛ فهي يسكنها الرحل وقد شقتها مسالك القوافل منذ قرون طويلة، وإن هي لم تمنع العلاقات بين افريقيا السوداء وبين البحر الابيض المتوسط منذ القرون الخالية حتى الفترة المعاصرة، فإنها مع ذلك كانت كالمصفاة، حددت اختراق تأثيرات البحر الابيض المتوسط، ولا سيما في مجالات الفلاحة والبناء المعماري والصناعة التقليدية. فكان لأكبر صحراء في الدنيا دور رئيسي في التقسيم الجغرافي لجزء كبير من افريقيا.

## ضخامة القارة الافريقية

إن قوة الصفات الطبيعية في افريقيا ووضوحها، يميزان هذه القارة عن سائر القارات. وضخامتها وثقل آفاقها كانا نتيجة لتاريخ جيولوجي طويل. ويمكن أن ننظر الى الخريطة كي نلاحظ أن المجموعة الافريقية بما لها من مساحة ثلاثين مليوناً من الكيلومترات المربعة، تمتد قطعة واحدة على ما يقرب من ٧٢ درجة في العرض منذ رأس ابن سكا (٣٧ — ٢١ شمالية، قرب بنزرت) حتى رأس الأبر (٣٤ — ٥١ جنوبية). فنحو ٨٠٠٠ كم تفصل بين هاتين الهاتين النهائيين للقارة، بينما يوجد ٧٥٠٠ كم طولاً بين الرأس الأخضر ورأس غردافوي. وتظهر القارية العظمى شمال خط الاستواء، إذ أن القطعة الشمالية تمتد على ثلثي افريقيا التي تتقلص في النصف الجنوبي، ويؤكد طابع الكثافة لهذه القارة أن لا وجود لفجوات شاطئية عميقة، خلافا لاوربا ولا ميركا الوسطى مثلاً. ثم إن الجزر تمثل جزءاً ضئيلاً من المجموعة الافريقية التي بدأ شكلها المنقوش واضحاً بقوة بسبب بساطة المحيط وضعف تطور السطح القاري. وإن انخفاضاً

للمستوى البحري يؤثر قليلا في شكل افريقيا، اذ أن منحني العمق البحري ١٠٠٠ متر يعر عادة قرب الشاطئ، وتتأكد ضخامة القارة بثقل التضاريس التي تمثلها في الغالب هضاب تعلو نهاياتها لتكون مرتفعات شاطئية تخرقها بصعوبة الأجهزة النهرية، ورغم قلة السلاسل الجبلية المعرجة فإن افريقيا تتميز بارتفاع معدل ملحوظ قدره ٦٦٠ متر من جراء الجهود التشيقية التي أكدتها بقوة في دهر البليوسين تكسيرات وعمليات رفع للسطح القاعدي، على أن بساطة التضاريس الظاهرة تغطي تفرقات جهوية محسوسة. وهكذا يتميز المغرب المنتسب للعالم الاوربي بسلاسل جباله وتضاريسه المقسمة. ويمتد فيه بين مجموعتين كبيرتين: سلاسل التل والريف في الشمال وسلاسل الاطلس في الجنوب، وتنتج هذه السلاسل كأشرطة ممتدة من الغرب الى الشرق، بين البحر الابيض المتوسط والصحراء.

وثمة أسرة أخرى من التضاريس تمثلها منطقة فسيحة تشمل افريقيا الشمالية الشرقية وافريقيا الغربية وحوض الكونغو. فهناك تسود السهول والأحواض والهضاب المنخفضة التي تحيط بها مرتفعات جبلية. وأهم الأحواض في قلب القارة المتجمعة في هذه المنطقة هي أحواض النيجر والتشاد والكونغو وبحر الغزال.

وأخيرا ان افريقيا الشرقية والجنوبية تمثلان مجال الأراضي المرتفعة حيث تحل المرتفعات التي تفوق ١٥٠٠ متر مكانا فسيحا. ويحيط بالهضاب العليا في الجنوب مرتفع هامشي. ذلك المنحدر العظيم الذي يشرف على الشاطئ بجدار صخري قد يبلغ ارتفاعه ٣٠٠٠ متر ولكن طرافة افريقيا الشرقية تكمن في قوة التضاريس الناتجة عن الحركات البنيوية للقشرة في الدهر الثالث. فاهتزت مصطفية القاعدة بشدة وقطعتا انقصاصات عميقة وكسور. كما أثرت فيها بركانيات قوية. فالمجموعة الجبلية في الحبشة، المكونة من هضبة يعلوها أكثر من ٢٠٠٠ متر من اللابة البركانية، تبلغ أقصى ارتفاعها على أكثر من ٤٠٠٠ متر وتمتد حفرا نهديا على طول ٤٠٠٠ كم من البحر الأحمر الى الموزمبيق. هذه الأودية التي لعبت دورا عجيبا في جولان الانسان وفي نشوئه فيها سلسلة من البحيرات كبهيرة النياسا والطنكنيكا والكيفو وعيدي أمين (سابقا ادوارد) وموبوطو (سابقا البرت) وفكتوريا ورودلف. وعلاوة على ذلك فهي تحف بها جبال بركانية ضخمة أشهرها جبال كينيا والكيليمندجارو.

### العزلة الجغرافية

ان ضخامة افريقيا وثقل تضاريسها نتج عنها نتيجة عظمى هي عزلتها حتى فترة قريبة. ففما عدا افريقيا الشمالية المتوجهة نحو عالم البحر الابيض المتوسط، فإن باقي القارة بقيت طيلة قرون على هامش تيارات التبادل العظمى، نعم، ان هذه العزلة لم تكن قط مطلقة ولكن كان لها وزن كاف على مصير عدد من المجتمعات التي تطورت داخل تقسيم جغرافي وقد انفصلت افريقيا عن العالم القديم من جراء انفصال القارات، ولكن بقي لها نقطة اتصال بآسيا: برزخ السويس الذي كان الممر المتميز لأكبر الهجرات فيما قبل التاريخ.

وتسبح الشواطئ الافريقية في أكثر امتدادها في كتلتين محيطيتين، اختلف استعمالهما قبل

العصر الحديث. فلم يسلك المحيط الاطلسي قبل القرن الخامس عشر الميلادي حيث بدأت الرحلات البحرية العظمى انطلاقاً من أوروبا. وقبل ذلك فإن تقنيات الملاحة الشراعية لم تكن لتتمكن البحارة العرب مثلاً، من الشروع في سفرات تتجاوز الشواطئ الصحراوية، إذ أن المراكب الشراعية لم يكن في وسعها أن تعود في معارضة عصف الرياح الصايبات الموجهة باستمرار نحو الجنوب. وخلافاً للمحيط الاطلسي فإن المحيط الهندي منذ عهد بعيد، ساعد على التواصل بين افريقيا الشرقية وآسيا الجنوبية. فكان المراكب الشراعية العربية والهندية من القيام برحلات نحو القارة الافريقية، والعودة الى قواعد انطلاقها بفضل النظام التناوبي للرياح الموسمية على المحيط الهادي. ولئن قامت علاقات مكثفة بين افريقيا الشرقية وعالم المحيط الهندي، فإن هذه العلاقات اقتصرت على الساحل، إذ كان الهدف عند الشعوب البحرية الآسيوية ممارسة التجارة وليس استعمار الأراضي الداخلية. وبالجملـة فإن آثار الحضارات البحرية للقارات الأخرى لم تدخل الى أعماق افريقيا السوداء التي بقي معظمها معزول عن العالم القديم.

ومن التقليدي أن تذكر صفة الشواطئ الافريقية الغر المضيافة لتبرير عزلة القارة، فقلة الفجوات على الشواطئ، تحرم الساحل من الملاحة، فهو غالباً منخفض رملي، والشواطئ الصخرية وهي قليلة في افريقيا الغربية، تظهر بكيفية أبرز في المغرب وفي مصر وعلى طول البحر الأحمر، وفي الطرف الجنوبي من افريقيا الجنوبية. وفي افريقيا الغربية تمتد شواطئ الأودية البحرية، من السنغال الجنوبي الى غينيا، وعلى سواحل الكامرون والكابون، وهي مصبات فيسيحة ناتجة عن انغمار أودية نهرية قديمة، ولكن معظمها كثر الأوحال. وتحمل بعض الشواطئ المنخفضة التي زحف عليها المد والجزر موائل المنغروف ولا سيما في منطقة «أودية الجنوب» حتى السيراليوني، وفي دلتا النيجر وعلى طول الساحل الكابوني. وفي مواطن أخرى تكون أشربة ساحلية حاشية للقارة، عازلة أحياناً بمحيرات شاطئية كبحيرات خليج غينيا. وأخيراً تمتد شعب المرجان قريبا من الشواطئ الافريقية في البحر الأحمر في قناة الموزمبيق وعلى الساحل الشرقي في مدغشقر. ويعزى ما للساحل الافريقي من صفة غير مضيافة، في جانب كبير الى «الموج العالي» أي الى تدفق الأمواج في صورة لفائف قوية تجعل من العسير الوصول الى بعض الجهات الساحلية من القارة. على أن ما جعل للشواطئ الافريقية من مناوعة تتضمن بعض المبالغة، إذ أن شواطئ البحر الابيض المتوسط سمحت لافريقيا الشمالية بالمساهمة طيلة القرون في المبادلات مع الخارج. ونذكر أيضاً انعدام الموانئ الطبيعية لتبرير عزلة افريقيا السوداء حتى عهد قريب. و يكفي أن تستعرض المواقع المساعدة على النشاط البحري كي تلاحظ ثروة السواحل الافريقية، في هذا المجال، على الواجهة الاطلسية كما على واجهة المحيط الهندي. على أن العقبات المذكورة، لم تكن قط متعذرة الاقتحام إذ أن التأثيرات الاثيوبية وفيما بعد التأثيرات الاوربية قد طبعت الشعوب الافريقية بقوة بحيث أن عزلتهم لم تكن الانسبية. وقد تفسر العوامل البشرية بلا شك قلة اهتمام سكان السواحل الافريقية بالرحلات البحرية الكبيرة.

## منطقة افريقيا المناخية

ان الاطار المعروف على الحياة في افريقيا يتبع أساسا الاحداث المناخية وتناظر القارة وامتدادها العظيم من جهتي خط الاستواء وكثافتها وتجانس تضاريسها النسبي، وتضافر آثارها لتتبع المناخ منطقية لا مثيل لها في الدنيا. فتقدم افريقيا طرافة عجيبة بتعاقب الأشرطة المناخية مرتبة على توازي خط الاستواء. وفي نصفي الكرة الأرضية، تتدرج النظم المطرية الافريقية نحو خطوط العرض العالية. لأن افريقيا أقسح القارات فيما بين المنطقتين المداريتين فهي أكثر مناطق الأرض تجانسا في الحرارة. ويتبع هذه الحرارة اما جفاف يزداد كلما وقع الاقتراب من المنطقة المدارية، واما رطوبة تزداد عادة باتجاه خطوط العرض المنخفضة.

## عوامل كونية

في هذه القارة الواقعة أساسا بين المدارين، فإن الفروق المناخية تتبع الأمطار أكثر مما تتبع الحرارة التي هي مرتفعة في كل الفصول في معظم الجهات. ومهما يكن من أمر، فإن النظم المطرية والحرارية مرتبطة قبل كل شيء بعوامل كونية، أي بخط العرض وبحركة الشمس الظاهرة، فالشمس تمر مرتين في السنة بسمت الرأس فيما بين المدارين، ومرة واحدة في مدار السرطان يوم ٢١ جوان (حزيران) تاريخ الانقلاب الصيفي، ومرة واحدة في مدار الجدي يوم ٢١ ديسمبر (كانون الأول) تاريخ الانقلاب الشتوي في النصف الشمالي من الكرة الأرضية. ويشاهد مرورها بسمت الرأس مرتين في السنة بخط الاستواء عند الاعتدالين الربيعي ٢١ مارس (آذار) والخريفي ٢١ سبتمبر (أيلول) والشمس في حركتها الظاهرة لا تنزل قط كثيرا تحت الافق. ولذا تكون الحرارة مرتفعة كل السنة في المنطقة المنحصرة بين المدارين. وفي الجهات القريبة من خط الاستواء حيث يتأرجح الموقع الظاهر للشمس حول سمت الرأس، يلاحظ انعدام الفصل الحار إذ أن التغيرات الفصلية للحرارة ضعيفة. فالفروق السنوية فيها نحو ٣ الى ٤ درجات. ولكن كلما تقدمنا نحو المدارين شمالا وجنوبا. تصير المعطيات الحرارية أكثر تعاكسا. ففي الصحراء مثلا سجلت فروق قوية من نحو ١٥ درجة بين الحرارة المعتدلة في شهر جانفي (كانون الثاني) ويوليه (تموز). وينتمي الطرفان، الشمالي والجنوبي من افريقيا للمنطقتين المعتدلتين. ففيها تتعكس النظم الحرارية، إذ أن الفروق القوية السنوية تنتج عن التقابل بين الاشتية الباردة والصيفيات الحارة، ثم أن الانحرافات اليومية قد تكون في هذه المجالات الوسطية مرتفعة ارتفاعها في منطقة ما بين المدارين. وبصورة عامة إن العوامل الكونية تعين في افريقيا نموذجين كبيرين من النظم الحرارية: في خطوط العرض الاستوائية، نظم منتظمة، وفي جهة المدارين نظم تتعكس أكثر فأكثر.

## الآلية الغيشية

ان التغيرات الموسمية للمناخ الافريقي تفسر بوجود مراكز عمل كبيرة في الجو، تحرك كتلات من الهواء من النماذج المدارية أو الاستوائية البحرية أو البرية. وتسود المحيط الاطلسي باستمرار اعصارات معاكسة مدارية أو مراكز ضغط عليا، أحدها في النصف الشمالي من الكرة الأرضية (اعصار معاكس في الاسور) والثاني في النصف الجنوبي (اعصار معاكس بسانت هيلين).

وتوجد خليتان أخريان من الاعصارات المعاكسة، احدها في الصحراء والثانية في الكالاهاري. وهذه الاعصارات القارية طابع موسمي. فليس لها دور معتبرا في الشتاء الشمالي أو الجنوبي. وفي الصيف، يضعفان ويدفعان الى طرفي القارة. وتشمل مراكز العمل في النهاية منطقة للضغوط الخفيفة، متمركزة على خط الاستواء الحراري، ومتأرجحة من ٥ درجات من خط العرض الجنوبي في جانفي (كانون الثاني) الى ١١ درجة من خط العرض الشمالي في يولييه (تموز). تثير الاعصارات المعاكسة في اتجاه الضغوط المنحطة الاستوائية رياحا ملاصقة للأرض، هي الصايبات التي تكتسح مجال ما بين المدارين. فن اعصار الأمور المعاكس تنطلق رياح باردة قارة، في الصايبات الاطلسية، واتجاهها الشمالي الشرقي، ولا تؤثر الا في حاشية ضيقة من الساحل الصحراوي حتى الرأس الأخضر. واعصار المرتفعات بالصحراء تصدر عنه رياح شمالية شرقية، والصايبات القارية، جافة وباردة نسبيا ولكنها تسخن كلما انتشرت نحو الجنوب. اما هارطمان تلك الريح الشديدة الحرارة ذات الاتجاه الشرقي اللافحة المجففة، فانها تستقر بانتظام كبير على كل افريقيا الساحلية من التشاد الى السنغال، وتبعها دوامات متصاعدة رافعة للرمال أو الغبار مولدة ضبابات جافة. وفي النصف الجنوبي من الأرض تظهر أيضا في الشتاء الجنوبي رياح جافة حارة نسبيا تصل بعض القطاعات من الحوض الكنكولي. ولكن، خاصة في هذا الفصل الذي يقابل الصيف الشمالي، تجذب الضغوط المنحطة القارية المتمركزة جنوبي الصحراء الصايبات البحرية الناشئة عن اعصار سانت هيلين المعاكس، والمنحرفة نحو الشمال الشرقي بعد عبورها لخط الاستواء. تلك هي الريح الموسمية الغينية التي تغوص تحت الهارطمان، دافعة اياها نحو الشمال ونحو المرتفعات. والتقاء هاته الكتل الهوائية ذات الاتجاه والحرارة والرطوبة المتباينة، يمثل منطقة التجمع بين المدارين أو واجهة ما بين المدارين التي تعين الفصول المطيرة.

وفي الصيف الشمالي، من ماي (أيار) الى سبتمبر (ايلول)، تنتقل واجهة ما بين المدارين ممتدة من الغرب الى الشرق فيما بين الدرجة العاشرة والدرجة العشرين من خط العرض الشمالي، وتحمل الصايبات الآتية من الجنوب اذالك كتلات رطبة من الهواء نحو خليج غينيا فتبعث فصل الأمطار. وفي الشتاء، تتكون منطقة التجمع في خليج غينيا ثم تصل القارة عن طريق الساحل الكامروني وتقطع النصف الجنوبي من القارة لتعبر قناة الموزمبيق والشمال الغربي من مدغشقر. في شمالي خط الاستواء تسود الرياح الشمالية الشديدة الجفاف في افريقيا الغربية. وفي جنوبيه، تتجمع الصايبات القارية الجنوبية مع كتلات هواء الصايبات البحرية الواردة من شمال المحيط الهندي فتبعث الأمطار.

وقد تتغير الآلية العامة للمناخ بعوامل جغرافية كالتيارات البحرية والتضاريس واتجاه الشواطئ. فالتيارات الباردة المنتظمة على الواجهة الاطلسية لافريقيا، متناظرة من جهتي خط الاستواء. وفي الشمال فإن تيار الخالدات الذي أثارتته الرياح الناشئة عن الاعصار المعاكس في الاسور، يساير الشواطئ من جبل طارق الى دكار. فيكون فيها انعطافات في درجة الحرارة وضبابا. وحوالي الدرجة الخامسة عشرة في خط العرض، يتحول تيار الخالدات نحو الغرب. أما نظيره في نصف الكرة الجنوبي، فهو تيار بنكيلا الذي تثيره الرياح الناشئة عن اعصار سانت هيلين. وتبعه درجات منخفضة من الحرارة وضباب كثيف على طول الشواطئ الجنوبية الغربية



الافريقيقية، قبل تحولها الى الغرب في مستوى رأس فريو. وهكذا تفسر الصحاري الساحلية في موريتانيا في ناميب. وبين التيارات الباردة على الواجهة الاطلسية، يتسرب التيار المعاكس الاستوائي في غينيا والذي ينقل من الغرب الى الشرق كتلات من الماء الحار رافعا نسبة الرطوبة، وعدم استقرار الجو، موفرا بهذا امكانيات الامطار على الساحل من كونكري الى ليبرفيل.

ويظهر تنقل التيارات البحرية على واجهة المحيط الهندي بكيفية مخالفة. ان المياه الاستوائية التي تدفعها نحو القارة رياح الجنوب الشرقي الناشئة عن الاعصار القائم شرقي مدغشقر، تكون تيار الموزمبيق الحار الموجه نحو الجنوب الممتد بواسطة تيار الابري، فيجلب الرطوبة على الشاطئ الجنوبي الشرقي من افريقيا. وعلى شمال خط الاستواء، تنعكس التيارات البحرية مع تغير في اتجاه الرياح. ففي الصيف يساير الساحل الصومالي تيار حار متجه نحو الشمال الشرقي، وفي الشتاء يغمر السواحل ذاتها تيار بارد متقدم من جزيرة العرب نحو خط الاستواء.

ورغم تشابه التضاريس النسبي، فان لها أثرا على المناخ، اذ تعاكس بوضوح المرتفعات الساحلية، وهي حواجز حقيقية على طريق كتل الهواء الرطب، مع الأحواض الوسطية والهضاب الداخلية وحفر الانهدام الواقعة كلها تحت تأثير الجفاف المختلف الشدة.

ووضعية الساحل بالنسبة الى الرياح المطيرة عامل من عوامل التفرقة المناخية. فالقطاعات المعروضة مباشرة على الرياح الموسمية الجنوبية الغربية، ولا سيما اذا كانت جبلية، تتلقى أمطارا غزيرة في افريقيا الغربية (نحوه أمتار في غينيا). وفي افريقيا الجنوبية وفي مدغشقر تتقبل الشواطئ العمودية على وجهة الصايبات البحرية، أمطارا غزيرة. وبالعكس فان قطاعات الساحل الموازية لاتجاه الرياح، والحالية من التضاريس الملحوظة كما في الداهامي والصومال تستفيد من غيث أقل.

وفي افريقيا تحدد الدورات المناخية الموسمية أساسا، من قبل المعطيات الإمطارية. فالأمطار تقل حجما تدريجيا من خط الاستواء الى المدارين، حيث يسجل قفرا الصحراء والكلاهاري أقل من ٢٥٠ مم من الأمطار في السنة. ويتبع هذا التدهور في مجموعات الأمطار تغير في تداول الأمطار الموسمية متعاكسة أكثر فأكثر نحو الشمال. ففي الجهات القريبة من خط الاستواء المعروضة بذلك على تأثير مستمر للضغوط الخفيفة، تظهر الأمطار على طول السنة مع تباين محسوس عند المنقلبين. وفيما وراء ذلك، نحو الشمال ونحو الجنوب، تنحصر الأمطار في فترة واحدة تقابل الصيف في كل من نصفي الأرض. وثمة فصل ندي يقابل فيها فصلا جافا يزداد امتدادا نحو المدارين. ولكن طرفي القارة، المغرب ومقاطعة الكاب، يبديان خاصية ملحوظة تتمثل في أمطار الفصل البارد، وتلك المناطق أمطار متوسطة غير منتظمة في المدى.

## المناطق المناخية

ان تغيرات النظم الغيشية، من حيث مجموعات السنية ومن حيث توزيعها حسب الفصول أيضا، تفرض تقسيم افريقيا الى مناطق مناخية كبيرة.

## المناخات الاستوائية

وهي تميز المناطق الوسطى التي تشهد، من جهتي خط الاستواء، مرورين في اعتدالي الواجهة

الواقعة بين المدارين التي تربط بها التهاطلات المطرية القوية، فمن الكامرون الجنوبي الى حوض الكونغو، ينزل المطر بغزارة طول السنة، والهواء مشبع ببخار الماء في كل الفصول، و يفوق مجموع التهاطلات في السنة عادة المترين. وفي هذا الجو الندي، يكون لدرجات الحرارة تغيرات شهرية ضئيلة، اذ هي تتأرجح حول معدل سنوي قدره ٢٥ درجة مئوية.

وجهة الشرق، في المناطق الاستوائية المتأثرة مناخيا بالمحيط الهندي، توجد عين التداولات المطرية، ولكن المجموعات السنوية أقل من ١٥٠ متر. وللحرارة تغيرات سنوية أكبر منها على الواجهة الاطلسية في المنطقة الاستوائية. والفروق اليومية على الخصوص هي أقوى في الجهات المنتمية مناخيا للمحيط الهندي.

### المناخات المدارية

وهي تقابل المساحة الفسيحة التي تحمل تنقلات الواجهة بين المدارين، في شمالي المنطقة الاستوائية وجنوبيها. فالشمال الغربي الافريقي الممتد بين الدرجة الرابعة من العرض ومدار السرطان، يشتمل على مناخات متنوعة، من المجال ذي المرور بين الاعتدالين في الجنوب، الى المجال الذي لا يشمل الا مرورا واحدا لانقلاب الشمس في الشمال.

وعلى ساحل خليج غينيا يسود مناخ تحت الاستوائي يدعى الغيني ويتميز بنظام مطري بدون فصل جاف، لكن مع غزارة ملحوظة عند مروري الشمس في سمت الرأس، والأثر الجلي المتمثل في الهضاب الساحلية يتسبب في تكثيف رطوبة قوية تحملها الرياح الموسمية الجنوبية الغربية. لهذا تتقبل الحاشية الساحلية الممتدة من جمهورية غينيا الى ليبيريا أكثر من مترين من الأمطار سنويا.

والمجال السوداني الواقع جهة الشمال، يبدي عدة ملامح من مناخ منطقة ما بين المدارين، يميز نوع ندي ونوع جاف منذر بالصحراء، وكلما صعدنا مع خطوط العرض قل التمييز بين مروري جهة ما بين المدارين، وهكذا من الأمطار الاستوائية المتهاطلة الى جفاف مدار السرطان نلاحظ الفروق الطفيفة التالية:

— منطقة فرعية أولى تتميز بمجموعات سنوية من الأمطار بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ مم فيها أكثر من ستة أشهر مطيرة: وتزداد الفروق الحرارية بالنسبة الى المنطقة الاستوائية.

— المنطقة الفرعية الوسطى وتسجل جفافا أصبح أوضح، اذ أن الأمطار التي لا تنزل الا مدة ثلاثة الى ستة أشهر تتراوح بين ٦٠٠ و ١٥٠٠ مم، وتزداد الفروق الحرارية زيادة محسوسة.

— المنطقة الفرعية الشمالية وتسمى في افريقيا، الساحل الغربي، ولها أقل من ٦٠٠ مم من الأمطار السنوية التي تنزل في أقل من ثلاثة أشهر، ويقل انتظام الأمطار ويزداد انحراف الحرارة.

ويميز عن التوزيع العرضي لأنواع المناخات المدارية جنوبي خط الاستواء. ولكنه يوجد أنواع أشد وضوحا من جراء طابع عدم التكتل في افريقيا الجنوبية، ونظرا لأهمية التضاريس المرتفعة التي تشرف على السهول الساحلية التي يغمرها المحيط الهندي: ويتسبب تجمع الهواء البحري الاستوائي الشمالي الغربي مع الهواء البحري المداري الشرقي، تهاطلات غزيرة على سواحل الموزمبيق، وعلى الواجهة الشرقية من مدغشقر، والساحل الاطلسي على العكس هو جاف بسبب وجود التيار البارد في بنكلا المحدث لقفز غنيم.

## المناخات الصحراوية

وهي تميز المناطق الكائنة على جهتي المدارين، وفيما يهبط التهاطل عن ٢٥٠ مم ويسبب اختلالاً كبيراً. وتتقبل الصحراء وهي أكبر قفر حار في العالم، أقل من ١٠٠ مم من الماء سنوياً. ولكننا نلاحظ فيها فروقا بسبب تأرجحات الأعصار المعاكس الصحراوي الذي ينتقل على البحر الأبيض المتوسط وقت الانقلابين، ثم ينزل فيها نحو خطوط العرض المنخفضة. ففي وضعه الأول يسهل دخول الرياح الموسمية، وفي وضعه الثاني يسمح بزحف الرياح القطبية. ويمكن هذه التأرجحات من التمييز بين الصحراء الشمالية ذات الأمطار من جنس أمطار البحر الأبيض المتوسط في فصل الجفاف، وبين الصحراء الوسطى، عملياً عديمة الأمطار والصحراء الجنوبية، ذات الأمطار المدارية في الفصل الحار.

وفي مدار الجدي تصيب تأثيرات المحيط الجنوبية الغربية صحراء كالاهاري بكيفية أيسر من أصابتها الصحراء، إذ أن تضاييق القارة يخفف من تأثير الحلية الأعصارية المعاكسة على المناخ، لذا تشاهد رطوبة أوفر وفروق حرارية أقل حدة.

## مناخات البحر الأبيض المتوسط

في المغرب والطرف الجنوبي من إفريقيا، تكتسب طرافتها من تقسيم السنة إلى فصل شتوي بارد مطين وإلى فترة صيفية حارة جداً جافة. وبجبال البحر الأبيض المتوسط هذا الخاضع لنظام الرياح في المنطقة المعتدلة، يتميز في الشتاء بمرور أعصارات محيطية محملة بالرطوبة. وهو يشهد أحياناً زحف الهواء القطبي متسبباً في برد قاس يتبعه جليد وتساقط الثلج، ولا سيما على السلاسل الجبلية بالمغرب. وأما حرارة الصيف وجفافه، فنشأتان عن تأثير الرياح الواردة من الصحاري المجاورة، أي الصحراء في نصف الأرض الشمالي، والكالاهاري في النصف الجنوبي.

## الأوساط البيولوجية المناخية الإفريقية

في إفريقيا أكثر مما في غيرها، تنظمت الحياة البشرية في أطارات طبيعية تبدو قبل كل شيء أوساطاً بيولوجية مناخية. والحق أن المناخ والتضاريس تمزج تأثيراتها لتعين المجموعات الجبوية العظمى المتميزة بمجهازها المائي وخصائص تربتها ومناظرها النباتية.

## جريان المياه القارية

ينعكس تنوع المناخات في الجهاز المائي. ولكن في إفريقيا فإن جريان المياه نحو المحيطات أقل أهمية بكثير مما توحي به التهاطلات. إن أكثر من نصف المساحة في هذه القارة مركب من جهات جافة أو محبوسة المياه. وهذا وإن الأجهزة النهرية تعترضها عقبات في سيرها، وذلك إن ملامحها الجانبية تتشكون من قطاعات ذات ميل ضعيف تتصل بعنف بمنحدرات سريعة ومساقط أو شلالات. لذا تخضع كمية كبيرة من المياه التي تحملها، إلى رشح مستمر وبالأخص إلى تبخر قوي ناتج عن الركود في الأحواض أو في الحنادق أو في منخفضات الساحة القاعدية.

## تنظيم الشبكة المائية

مساحات كبيرة من القارة تقل فيها الأمطار أو تنعدم، فهي خالية من مجاري المياه المستمرة. ولكن إفريقيا الجافة وإفريقيا البحر الأبيض المتوسط، تشهدان أحيانا أمطارا قوية تتولد عنها طبقات من المياه الجارية قد تتجمع في أودية ثم تنضب هذه الأودية في النهاية من جراء التبخر ورشح المياه. وفي الجهات المكتفية الري، في المناخ المداري أو الاستوائي، تكون الأنهار الكبار وأهم روافدها شبكة منظمة تجمع جزءا من مياه الأحواض، وتعمل على إفراغها في ظروف كثيرا ما تكون صعبة. وذلك أن الأحواض التي يتكون فيها معظم الأنهار الإفريقية تظهر عتبات محيطية غير ملائمة لتصرف المياه نحو البحر تصرفا لا ثقا.

فإفراغ المياه القارية يتم من خلال نتوءات ساحلية بواسطة مضائق قليلة العرض عميقة تنم عن انقطاعات حرارية عديدة في المجرى السفلي من بعض الأنهار الكبيرة. فالكونغو يبدي ٣٢ منحدرًا سريعًا بين صهر ييج ستانلي والمصب. والزامبيز يقفز قفزة ذات ١١٠ أمتار بشلالات فكورييا، قبل أن يسندرج في مضيق كريبيا وأن يعبر عدة شلالات بزلتية. وهي أسفل الخرطوم، يقطع النيل ستة منحدرات سريعة تدعى شلالات قبل أن يصل إلى البحر الأبيض المتوسط. وسائر الأنهار الكبيرة كالنيجر والسنگال والأورنج واللمبوبو تظهر جانبا في شكل المدرج ولا سيما في جزء مجراها السفلي. ومن السهل إذن أن نفهم صعوبات الملاحة على الأنهار الإفريقية التي تبدو مسالك ضعيفة للمواصلات. ومع ذلك فلقد مكنت في الماضي من اتصالات مثمرة بين شعوب مختلفة من القارة.

وبين هذه الأنهار العظيمة وروافدها تشاهد شبكة غامضة من الجداول والبرك والمستنقعات غير منظمة لا وجود فيها لجرىان مستمر نحو الخارج، فهي تارة تمتدات من الماء الراكد، وتارة مصبات لما فاض من الأنهار المجاورة، وطورا بالعكس رافدة تساعد على المحافظة على تدفق هذه الأنهار، وقد تكونت هذه الروافد في العصور الجيولوجية في أحواض الخسف حيث تجمعت في أعماقها، في شكل بحيرات، المياه القارية المحملة بالطيني. ومن الممكن أن يتم الإفراغ إثر حركات تشققية في المصطبة القاعية. وهكذا فإن سيل المياه الداخلية الضخمة تم بواسطة مخارج سايرت خنادق الانخساف أو الانقصاصات. وبدون شك أن ظاهرات الحصر التابعة لكسور طرأت على المصطبة وللتطور الشكلي، قد ساهمت في تنظيم الشبكات المائية. ولكن هذا الحيس مازال يلوح في أحواض التشاد والاكوفانكو التي تحتلها بحيرات قليلة العمق ومستنقعات ذات أبعاد مدهشة مما تأتي به الفصول من المياه الجارية. ولأحواض خسف أخرى بعض المخارج نحو المحيط، ولكنها مع ذلك لها ميل مشابه إلى الحبس، وهكذا تكونت مستنقعات ماسينا أو «الدلتا الداخلي للنيجر» ومستنقعات بحر الغزال في السودان وحوض الزاير.

## السرعات العادية للأنهار الإفريقية

في كل ناحية من إفريقيا، فإن نظام الأمطار يتحكم في سرعة الجهاز المائي. أي أن التغيرات الموسمية لحمل الأنهار، تتبع نظام الأمطار السنوي. أما مجاري المياه في الجهات الاستوائية، فلها سرعة منتظمة بمياه غزيرة تسيل كل السنة. على أنها تظهر في مستوى عال من المياه في فترتين توافقان الأمطار الاعتدالية.

وفي المنطقة المدارية فترة من المد توافق فصل الأمطار أي في النقلب الصيفي، تتلوها فترة جزر قوي في الفصل الجاف. لذا كان نظام الأنهار كثير التضاد. ثم انها تنقضي مدة بين ارتفاع المياه وبين نزول الأمطار من جراء سير المياه ببطء على مساحات قليلة الانحدار عموماً.

وفي الجهات القريبة من الجافة، تجري «الوديان» بتقطع عند نزول الأمطار القليلة العنيفة، التي تسبب فيضانات فجائية، الا أنها قصيرة المدة، اذ أن المياه تضيع عند أسفل الوادي. وفي منطقة البحر الأبيض المتوسط، فإن عنف الشآبيب، ووجود التضاريس الجبلية، تجعل لمجري الماء طابعاً تدفقياً، سرعتها قليلة الانتظام، مما يؤدي الى فيضانات في المنطقة المناخية تتمثل في وديان سيلها متقطع.

والأنهار الكبيرة ذات الشبكات الممتدة على عدة مناطق مناخية، لا تدخل تحت الصور البسيطة المذكورة أعلاه، فيميزها نظام عام متشعب متغير تغيرات موسمية في حملها، تبدل من أعالي النهر الى أسفله.

### مجري المياه الكبيرة في افريقيا

إن بعض الأنهار الكبيرة، وهي من أهم الأنهار في العالم، تكون أحواضاً فسيحة، يقع معظمها في منطقة ما بين المدارين. ويرتب نظام جريها بظروف تغذية أحواضها بالأمطار النازلة من الأعالي. ويلوح نهر الكونغو مثلاً نموذجياً لمجري الماء الاستوائية التي يتميز نظامها بمستويي مد أقصى اعتداليين، والواقع ان شبكته تنتشر على ما يقرب من أربعة ملايين من الكيلومترات المربعة بين ١٢ درجة من خط العرض الجنوبي و ٩ درجات من خط العرض الشمالي. وهكذا بواسطة الكاساي واللوابا، يخترق جهات جنوبية فيها أقصى الامطار الانقلابية. وأهم روافده في النصف الشمالي من الأرض تغذية بالعكس أمطار الانقلاب الشمالي، بينما يمتد جزء كبير من مجراه على جهات لها فترتان توافقان قيمة قصوى من الأمطار الاعتدالية، وتضافر التضخمين المحتلفين يولد في كينشاسا نظاماً مائياً ذا مدين عظيمين في مارس (آذار) وفي يولييه (تموز). فالكونغو نهر غزير منتظم حمله المتوسط السنوي ٣٠٠٠٠ م<sup>٣</sup>/ثانية، ولا يفوقه في ذلك سوى الأمازون.

والنيل يأخذ مصدره في رواندا والبورندي، بفرعه الأصلي الكبيراً ويتقبل المياه الاستوائية المفترشة في مستنقعات بحر الغزال، وبعد اختراقه لبحيرة فكتوريا تقويه الروافد المدارية الواردة من الجبال الاثيوبية. وهكذا فإن النيل الأزرق ونهر الاتبرا ولهما نظام ذو مد انقلابي، يمكنان النهر من اختراق منطقة صحراوية فسيحة، قبل أن يدرك البحر الأبيض المتوسط. ورغم طوله الذي ليس له مشيل في افريقيا (٦٧٠٠ كم) فإن النيل قليل القوة، لأن حمله السنوي المتوسط لا يصل ٣٠٠٠ م<sup>٣</sup>/ثانية. ولكنه منذ العصور الحالية كان من أنفع الأنهار على البسيطة.

ونهر النيجر يمتد حوضه من ٥ درجات الى ١٦ درجة من خط العرض الشمالي، وله نظام أكثر تشعباً. وهو يرسم انعطافاً فسيحاً بشكل طريف، وذلك انه بعد أن يترك منبعه على حاشية المحيط الاطلسي الجبلية، يتجه نحو الصحراء، ثم يتوجه نحو خليج غينيا حيث ينصب في دلتا فسيح. فجراه الأعلى ومجره السفلي يخترقان جهات جنوبية ذات مناخ مداري رطب، وقطاعه الأوسط يتأخر في «دلتا داخلي» ذي مناخ ساحلي، ويتقوس بعناء في الجهة تحت الصحراوية في تمبكتوق قبل أن

يتقبل تغذيات تزداد غزارة نحو الأسفل. ويحدث فصل الأمطار فيضانيين معا، أحدهما في المجرى العلوي والآخر في المجرى السفلي، ولكن الأول الذي يظهر حتى النيجر ينخفض تدريجيا من جراء التبخر والرشح في المنطقة المدارية الجافة. ويشاهد الفيضان الثاني منذ شمال الداهامي، ولا يزال شديد السيطرة عند مجراه السفلي بسبب الأمطار المحلية ذات القيمة القصوى الانقلابية، ويتقوى النيجر في مجراه السفلي بنهر البينوي، أهم روافده.

## التربات الافريقية

ان التوزيع الجغرافي للتربة يتبع منطقة هي نسخة من منطقة المناخات. ومختلف التشكيلات الترابية ينتج أساسا عن عمل الماء والحرارة على الصخور الموجودة في محلها. ففي الحقل المداري فان الأمطار الفاترة الغزيرة المحملة بالحامض تغسل الصخور وتحل المعادن القاعدية وتدفعها الى الأعماق. وفي خطوط العرض المنخفضة الرطبة جدا حتى ١٠ درجات في الشمال وفي جنوب خط الاستواء، فان التحليل الكيماوي للصخور يؤول الى تشكيل التربة المحتوية على الحديد، وهي عموما صلصالات محمرة سهلة التفتت، لها عدة أمتار من السمك، وهي ناتجة عن تغير الصخرة الأم الى عناصر غروانية تشتمل على الصلصال الصيني (الكاولان) والهيماتيت ونسبة من رمل الصوان تقرب من ٣٠٪ من المجموع. ويحسي الغطاء الغابي التربة من الرشح، وهكذا فان التربات الحديدية لا تحوي الا القليل من المواد العضوية ومن الدبال.

وفي الجهات السودانية ذات الفصل الجاف الواضح، تتكون تربات حديدية مدارية أقل عمقا من السابقة غنية بأكسيد الحديد، وهي رملية في السطح صلصالية في الأعماق. وهذه التربات قليلة الاستقرار، وهي حساسة للانجراف بالماء وبالرياح. وتدهور بنيتها بسرعة كبيرة على السطح في غياب الغطاء النباتي. وكثيرا ما تكون هذه التربات متكثفة أو مصفحة في افريقيا الغربية، حيث يتناوب الغسل في فصل الأمطار مع التجفيف القوي في فصل الجفاف، ولا سيما اذا ما صاحب هذا التجفيف لفح الحرور، وفي بعض الجهات الواقعة شمالي الحاشية الساحلية في خليج غينيا، تمتد مساحات عتيقة انجرافية عارية ذات تربات مصفحة أو مدرعة تسمى «بوي». وهذه التشكيلات الترابية تتميز بتجمع قوي لأكسيد الحديد والالومين، يتبعه تصلب على عمق ضعيف، بيد أن عددا من هذه «البوي» القديمة يرجع الى الدهر الثالث. وعريت مساحاتها الزراعية المحدودة نتيجة انجراف السطوح العلوية الكاسية. ولوحظت تربات مشابهة في مدغشقر على «الطمبوكونسا» على الشمال الغربي من طاناناريف. ومن جهة الشمال في نصف الأرض الشمالي، تكونت في مناخ ذي فصول متعكسة، وتحت غشاء من الأعشاب، تربات سمراء مركبة لها قيمة زراعية كبيرة. ورغم حساسية هذه التربات للعذوب، فقد مكنت من تطوير حضارات فلاحية مصاحبة للامبراطوريات السودانية في فترة ما قبل الاستعمار.

وجنوبي خط الاستواء، في بلدان الزمبار، تكونت تحت غشاء الغابة الجافة تربات غسلت غسلا خفيفا، تشبه التشكيلات الرمادية.

وفي الشمال وفي الجنوب، في الجهات شبه الجافة المجاورة للصحراء ولكلا هاري، توجد تربات سمراء سهوبية تقابل رمالا دغصية مثبتة قليلا أو كثيرا، أو تشكيلات صلصالية رملية في

المنخفضات، هذه التربة خفيفة قابلة للتفتت تكون مزروعات حسنة، إلا أن أحياءها يستدعي أن تبقى هذه الأراضي بوراً لمدة طويلة لا تنبت إلا الأعشاب. وفي المناطق الجافة حيث يسود الانجراف الميكانيكي، فإن التغيرات القوية للحرارة تساعد على فرقة الصخور، وهي من جهة أخرى متأثرة بعمل الرياح العنيف وبعمل الأمطار القليلة التي تتسبب في جريان طبقات من الرديم. فيميز في هذه المناطق رمال جدداء تكون الكثبان، وركامات الحصى، أو العروق الرملية الممتدة على مساحات فسيحة، وقشور صلصالية في السهول. وفيما عدا الواحات فإن الصحاري خالية من التربة الصالحة للزراعة.

وفي أوساط البحر الأبيض المتوسط فإن عمل الماء وتأثير الفصول المتعكسة يظهران في تغير كيميائي أقل للصخور بالنسبة إلى ظاهرة التحليل الملاحظ في المنطقة المدارية الندية. وتذكر التربة بالتربة المدارية الجافة وتشتمل على ملامح حراء ورمادية أو كستنائية، وهي تربة في عمومها غنية بالاملاح، وبعضها كالترربة السهبية الغنية بالكلس تنبت بالأوساط المعتدلة. والبعض المكون من قشور كلسية أو من الجبس يميز لمناطق البحر الأبيض المتوسط.

### المجالات البيولوجية — الجغرافية

إن عوامل المناخ والتربة تفسر تنوع الظروف الوسطية التي تتكون فيه المناظر الطبيعية النباتية.

#### الغابات الكثيفة الندية

إن أضخم مجموعة من بين المناظر الطبيعية النباتية يوجد في وسط القارة بين ٥ درجات من خط العرض الشمالي و٥ درجات من خط العرض الجنوبي من جهتي خط الاستواء، والنبات المميز هنا هو الغابة الندية الكثيفة المرتفعة. تتوزع على عدة طبقات متتالية، بينما تقوى المتسلقات والنباتات المعاشية في الظل في الناشئة على تراكم طبقات الأوراق الدائمة الخضرة. على أننا نميز فيها ألواناً وأنواعاً، سواء أكان الأمر يتعلق بأدغال المستنقعات على أرض الوحل (١)، أو بوطوط أو في الفرجات التي تعلن عن المرور إلى أشكال مميزة لمناخات أشد جفافاً. وأصناف الغابة الندية كثيرة التنوع والتداخل، مما يجعل استغلالها صعباً. والحرارة والرطوبة المستقرتان إضافة إلى مساعدتهما لغزارة النباتات تساعدان على انتشار الجراثيم والديدان والحشرات. وهذا وسط مناوئ عالٍ للإنسان، ورغم صمته فهو يستوعب عدداً متنوعاً من الحيوانات، كإفراص الماء وكالفيلة وخنائير الأنهار والتمور. ولكن الطيور والزواحف واللبونات الشجرية وحدها تستطيع أن تنتقل فيها كما تشاء، وأن تتكاثر رغم عوامل الامانة كوفرة الطفيليات. وخارج المنطقة الاستوائية، قد توجد الغابة الكبيرة الندية على المرتفعات المعرضة طويلاً إلى الرياح المحملة بالرطوبة، كمقلب الماء الشرقي من الهضاب العالية المالقاشية.

(١) البوليوطوط: تربة وحلية تتركب أساساً من صلصال على عمق يضع ستيمترات.

## السهوب والغابات الوضاء

ان منطقة الغابة المظلمة، تحف بها غابة جافة تنفض أوراقها تتميز بها المناطق التي تتجمع فيها الأمطار في الفصل المنقلي. وتلوح هذه الغابة في الأغلب كتشكيلة مفتوحة، لا يغطي فيها مجموع الأشجار إلا تغطية ناقصة نبات الحراج من الشجيرات والأعشاب. وأفسد الانسان هذا المجموع فحلت محله مناظر عشبية تتميز بها المناطق ذات فصل جاف أوضح. فالسهوب المدارية تتغلب مثلاً كلما ابتعدنا عن خطوط العرض الصغيرة. وتظهر هذه التشكيلة النباتية في المناطق ذات الفصول المتباينة، تظهر فروقا تابعة لأنواع المناخات المدارية الكثيرة الرطوبة أو قليلتها.

وعلى حافة الغابة وفي السهوب القريبة منها مازالت أشجار ضخمة، ولكنها أقل من الشجيرات، ويكتسب بساط العشب أهمية كبيرة. والغابة — الرواق تسابير مجاري الماء في شكل سيوريزداد عرضها أو يقل. والغابة — المربد، تجعل المساحات المشجرة بجوار مساحات سافرة تلاحظ فيها نباتات حبوب عالية. والسهوب العشبية الحالية تقريبا من الأشجار، ناتجة دون شك عن قلع الغابات من قبل الانسان، وعن تدريع التربات. وعن مسافة أبعد عن الغابة الكثيفة، يحل شيئا فشيئا محل السهوب الشجرية المركبة من بساط مستمر من الحشائش العالية، سهوب شجرية تبدو فيها التربة عارية من بين الغشاء العشبي، وفي مختلف أنواع السهوب تجد الحيوانات آكلة العشب الظروف المناسبة لعيشها. ففيها يكون الصيد مثمرا، وفيها يمكن تربية المواشي الضخمة. وفي وسع الانسان أن يشتغل بالفلاحة في هذه المناظر النباتية التي يسهل استصلاحها.

## مناظر الفيافي السهوية

يطبع السهوب المناطق ذات الفصل الجاف الطويل بطابعه، وهي تتركب من آجام من النجيليات ومن الشجيرات الشائكة ولا سيما الاقاصيا. وتوجد هذه التشكيلة المفتوحة، في الجهات الشمالية من افريقيا الغربية والشرقية.

كما توجد أيضا متقطعة في افريقيا الجنوبية وفي الكلاهري وفي الجنوب الغربي من مدغشقر. وتوجد النباتات تحت الصحراوية في فياف تحف تدريجيا في الجهات التي تتقبل أقل من ٢٠٠ مم من الأمطار.

## التشكلات النباتية حول البحر الأبيض المتوسط

تشمل أطراف القارة الافريقية فيافي مدغلة أو ذات نجيليات في الجهات الأكثر جفافا، وفي الجهات الأكثر رطوبة، وخاصة على سلاسل الجبال في المغرب، حيث تظهر غابات جافة مكونة من البلوط الأخضر ومن بلوط الفلين ومن الصنوبر. وهي تشكيلات نباتية ذات أوراق ثابتة تنبت تحت الحراج المدغلة.



## الخلاصة

تلوح افريقيا كقارة عتيقة احتلتها من عهد بعيد بشرة بعثت فيها منذ القديم حضرات باهرة. وتبدي الجغرافيا الافريقية بمعالمها المعمارية وبأوساطها الطبيعية صفات قوية مستمدة من تراث ماض جيلولوجي سحيق. لذا كان الفضاء الافريقي أشد كثافة وأكثر قارية من أي فضاء آخر في كوكبنا. وبقيت جهات فسيحة في قلب القارة على بعد يفوق ١٥٠٠ كم من البحر، مدة طويلة على هامش تيارات المرور الكبرى الواردة من الساحل. وقوى هذا التقسيم الجغرافي ما كان في المناطق المدارية من تغيرات مناخية في الدهر الثالث والدهر الرابع. فطيلة آلاف السنين، كانت الصحراء الندية من أقدم مراكز الاستيطان في العالم وتدخلت الحقبات المجدة، فيما بعد، في تكوين الفيض الواسع، مثل الصحراء والكالاهاري. فتضايقت التبادلات بين مختلف الحضارات في القارة الافريقية، ولكنها لم تنقطع. ويبدو المناخ حينئذ عاملا أساسيا لادراك الماضي الافريقي، ثم ان النظام الامطاري والأوساط البيولوجية المناخية كلها، تؤثر تأثيرا حقيقيا في حياة البشر اليوم. واستفادت المجتمعات الافريقية من التكامل بين المناطق المناخية لتربط فيما بينها أقدم تيارات التبادل وأقواها. وأخيرا فان تاريخ افريقيا تأثر تأثيرا قويا بالثروات المنجمية التي كانت من أقوى عوامل جذب الشعوب الغازية للقارة الافريقية. فذهب النوبة والكوش تم استغلاله من سلاسل مصر العتيقة، وفيما بعد كان ذهب افريقيا المدارية وخاصة ذهب المنطقة السودانية وزمبابوي مصدر ازدهار لمجتمعات افريقيا الشمالية والشرق الأدنى، وعماد الامبراطوريات الافريقية العظمى في جنوبي الصحراء. وكان الحديد موضع تبادلات قديمة بين المناطق الغابية والمدرية في افريقيا. وكان للملاحة الواقعة على حاشية الصحراء دور مهم في العلاقات بين الدول السوداء في السودان وبين البلاد العربية البربرية في افريقيا الشمالية. وفي عهد قريب منا استغلت الثروات المنجمية الافريقية لفائدة السلطات الاستعمارية. وحتى اليوم مازالت هذه الثروات تصدر في معظمها في شكل مواد أولية خام.

## الجغرافيا التاريخية: الجوانب الاقتصادية

آكن مابوكونجي

يرى جلبيرت «أن الهدف الحقيقي للجغرافيا التاريخية، هو إعادة بناء الجغرافيا الجهوية للماضي» (١) وفي مجلد كهذا كان من اللازم أن يؤدي مثل هذا التحديد الى عرض الجغرافيا الجهوية فيما قبل التاريخ الافريقي مع التأكيد على جوانبها الاقتصادية. ومن الواضح أن مشروعاً كهذا يتضمن اختياراً تاماً للظروف الطبيعية والبشرية في ماضٍ سحيق، ولا بد من أن يمتد الى عدد من سائر الفصول في هذا المجلد... وهكذا سيرمي هذا الفصل خاصة الى ابراز الموارد الطبيعية الأساسية كما اكتشفت وكما استعملت في افريقيا فيما قبل التاريخ، واذ نكشف عن الأنواع المتعددة للثروات الطبيعية في القارة كما وصلت الى علمنا اليوم، فإن هذه النظرة سوف ترمي الى التأكيد على ما اعتبر منها ثورة في الماضي البعيد، والمواضيع التي اكتشف فيها، والطريقة التي استعمل بها، وإلى أي حد ساعد على مراقبة الانسان لأقسام متسعة من القارة، أو بالعكس الى أي حد عمل على ابطاء هذه المراقبة.

### المعادن وتطور التكنولوجيا البشرية

لعل المعادن هي الأكثر دلالة من الموارد التي تمكن الانسان من مراقبة محيطه. فالمعادن هي المادة المفتاح في العالم. وسارتكوينها ببطء شديد، فقد يمتد على ملايين السنين، وبالقياس الى حلول الانسان على الارض مما قد يعود الى ثلاثة ملايين من السنين، فإن السلم الزمني الجيولوجي طويل جداً، فهو يمتد على أكثر من خمسة آلاف مليون سنة.

ان مناطق فسيحة من افريقيا تتركز على كتل صخرية من أقدم الكتل على كوكبنا. والصخور المتبلورة القديمة، وتعتبر مصطبة القارة الصخرية تغطي على الأقل ثلث مساحتها. وهي تشمل خاصة الغرانيتات مع صخور تحملت تغيرات شديدة كالشيسيت والغنيس؛ وبعضها تعدن تعدنا قويا. فمن اهم التشكيلات، يجدر أن نشير الى المنطقة النحاسية في الشاها (بالزاير) وهي تمتد على أكثر من ٣٠٠ كم وتحتوي على أفسح مناجم النحاس في العالم بل أيضا على أغنى مناجم الراديوم والكوبالت. وفي الترانسفال (في افريقيا الجنوبية) يفيض المركب الناري ببوشفلد، ومساحته ٦٠٠٠ كم<sup>٢</sup>. وكربت دايك الذي يخترق الترانسفال على طول ٥٠٠ كيلومتر حتى روديسيا، يفيض كل ذلك أيضا بالمعادن، كالبلاتين والكروم والأميانت. ومنطقة الألماس الافريقية لا مثيل لها في بقية الدنيا، وتبلغ تجمعها الأقوى في افريقيا الجنوبية، على أنه توجد مناجم أخرى في طانزانيا وأنكولا والزاير. ولافريقيا الجنوبية وغانة والزاير مناجم من الذهب، ويوجد القصدير في الزاير وفي نيجيريا، ولندكر أيضا مناجم هامة من معدن الحديد في افريقيا الغربية، كمناجم ليبيريا وغينيا وسيراليوني.

وقد تحملت المصطبة الافريقية القديمة عدة كسور بركانية ترجع الى ما قبل العصر الكبري. فتسببت هذه الكسور في ترسبات غرانيتية حاملة للذهب والقصدير، وفي تشابكات الصخور القاعدية وما وراء القاعدية، كما انتجت صخورا بركانية أو اندفاعية الكثير منها أكثر حداثة، لم تكتف بالتفتت لتكوّن ترربات غنية خصبة، بل انتجت أيضا معادن وصخورا كبا زالت السج في الكينيا، لها قيمة حقيقة في تاريخ القارة.

وعلى ما بقي من المصطبة، أي على ثلثيها تقريبا، توجد صخور رسوبية قديمة تعود الى ما قبل العهد الطباشيري، وتبعاً لسنها فإن هذه الصخور تحتوي أيضا على عدة رواسب معدنية. فعلى طول الحاشية الشمالية للقارة مثلا، في منطقة تمتد من المغرب الاقصى الى تونس مروراً بالجزائر، يوجد حزام الفوسفات الكبير، مقترنا بمناجم الحديد الغنية جدا.

وتوجد أيضا مناجم هامة من معدن الحديد من أصل رسوبي في جهة كارو في أفريقيا الجنوبية وفي الدامارا في غمبيا. وعلى النقيض فإن الفحم يكاد يكون منعدما في القارة الا في بعض الحالات الشاذة في البلاد العليا من افريقيا الجنوبية وفي حقن ونكي في روديسيا، وكأن في الأمر تعويضا لهذا النقص، فإن الصخور الرسوبية الحديثة بما بعد العهد الطباشيري، تشمل في الصحراء وعلى ساحل افريقيا الغربية طبقات فسيحة من النفط ومن الغاز الطبيعي. وساهمت هذه الثروة المعدنية مساهمة كبيرة في دعم التنظيم البشري واستغلاله في فترة طويلة من التاريخ.

فلنلاحظ مثلا أن مراقبة تجارة الذهب بين غرب افريقيا وشمالها عبر الصحراء، كانت في العصر الوسيط من الأسباب الرئيسية التي بعثت على انشاء امبراطوريات وممالك في السودان الغربي وساعدت على سقوطها. فلا شك أن تجارة الذهب ومناجم الحديد قد جلبت العرب نحو افريقيا الشرقية في الألف سنة الأخيرة.

ومن جهة أخرى ان الاوربيين بعدما سحرتهم الثروات المعدنية في أميركا اللاتينية، تجمعوا في افريقيا باعتبارها خزانا استعماري للمعادن الختام وذلك قصد تغذية تنمية صناعاتهم.

على أنه في عصر ما قبل التاريخ، فإن المعادن التي تمثل أهمية رئيسية في تقدم التكنولوجيا عند الإنسان، كانت في مستوى أضعف، وكان توزعها أغمض. وأهمها كانت تلك المعادن الحجرية ذات البنية المتجانسة الشديدة الصلابة التي توفر إمكانات حسنة جدا للتفكك (٢). ومن أهم معادن هذا الصنف، الصخور النارية المزججة التي توجد في المناطق البركانية من إفريقيا الشرقية، وخاصة بحوار وادي رفث الكريكوري. وكان هذا النوع أساسا لصناعة العصر الحجري القديم القفصي في الكينيا حيث وفر شفرات طويلة وعدة آلات من الحجارة الصغيرة.

وهناك مادة أخرى حسنة الصفات، هي الأشكال السيليسية كالحث الصواني والصخور ذات التركيب الدقيق، المتصلبة كالسلكرات والشبست والفليسات، ففي الزمبابوي استخدمت صناعة العصر الحجري الأوسط بمباطا كمية كبيرة من الكالسيدوم، بينما استعمل صوان العصر الفجري وسيليسية على الهضاب التونسية وفي مصر، ومن المحتمل أنها مستوردان. والحث الصواني أكثر انتشارا في إفريقيا، ولا سيما في شكل حصباء في مجاري المياه. وهو الأساس في الصناعات الآشولية في العهد الحجري القديم. وفي بعض البقاع كما في المجرى الأوسط من نهر الأورنج في إفريقيا الجنوبية، استعمل الشبست المتصلب تقرينا لعين الأغراض التي استعمل فيها الحث الصواني.

والخصائص الحجرية للصخور الحائرة ذات التركيب الدقيق المعروفة باسم «الحجارات الخضراء»، وللصخور النارية العميقة أو الوسطى كالبازالت والاوليريت والديوريت — وهي كلها توفر مادة صالحة لصنع البلطات والقاطعات — لها مع ذلك أقل أهمية. وهي تستعمل أيضا لصنع الأسلحة كحجارات الرمي وشوكات السهام. ومن بين الصخور النارية الكثيرة الاستهلاك، لعل البازالت هو الأكثر استعمالا في صنع الأواني الحجرية، ولأنه عمليا استخدمت لهذا الغرض كل أنواع الصخور الموجودة. ومن سائر الصخور النارية استعمل محليا وبكيفية مكثفة الغرانيتات والدولوريت والديوريت. وأما الصخور الأقل صلابة كاللكسيات، فلم تكن مجهولة، بل إن في مصر استعملت صخورا ناعمة كحجر الطلق والمرمر المرقط. هذا وإن الصلصال مثل في إفريقيا بأجمعها الأساس في صناعة الفخار، وكانت منتشرة جدا متنوعة أكبر التنوع وهي ترجع إلى العصر الحجري الأوسط.

وأهمية المعادن في رقي التكنولوجيا البشرية في أزمنة ما قبل التاريخ قد تجاوزت صنع الأدوات والأسلحة والأواني. بل هي توجد أيضا في بناء المنازل حيث يحل الجبس محل الوحل البسيط. والعمارات العامة ذات الأهمية والمعالم كالأهرام المصرية، كل ذلك اقتضى كميات عظيمة من الصخور الغرانيتية الصلبة أو الحث الصواني. وقد أمدتنا المعادن أيضا بأصباغ الرسوم الصخرية، وقد حفظ البعض منها بكيفية عجيبة حتى اليوم في الصحراء وفي إفريقيا الجنوبية. وكانوا يحصلون على هذه الأصباغ بتهريس عدة أنواع من الصخور، كالهيماتيت والمنغنيز والصلصال الصيني، ويخلط الدقيق الحاصل ببعض العناصر الدهنية أو الصمغية.

ولكن الحديد بلا شك، هو الذي سيصير المعدن الحاسم فيما حصلت عليه إفريقيا من رقي في آخر عصور ما قبل التاريخ. فلو أن التكنولوجيا العصرية، بما لها من آلية متشعبة وما يتبعها من

استثمارات اقتصادية، تفرض استغلال مناجم غنية نسبيا بالمعدن وبصورة عامة متجمعة نجما كبيرا، فإن الوضع فيما قبل التاريخ كان أقل تحديدا وتقييدا. والقشرة ذات الصبغة الحديدية تفتش على مناطق فسيحة من السهوب العشبية في إفريقيا. وهي تغطي عدة أصناف من الصخور على الهضاب السهوية العتيقة. وإن لبعض الأصناف من الثروة ما يكون الأساس للأنواع النشطة الأولى لعدانة الحديد في القارة، وما إن اكتشفت تقنياتها حتى انتشرت بسرعة من طرفها الى طرفها الآخر، وهذا ما يعاكس وضع النحاس والقصدير المحددين في المكان في توزيعهما، حتى أنها لم يتمكن من منح إفريقيا ثقافة برونزية كبيرة الانتشار، فيما عدا بعض المجموعات فيما قبل التاريخ المستعملة للنحاس، كسكان النجد الشمالي الشرقي في إثيوبيا وجموع لوبا في الشاها. على أنه من الواجب أن نذكر بوجود عصر للنحاس في موريتانيا، قبل الميلاد بخمسة قرون.

## الموارد النباتية ونمو الاستيطان

إن الموارد النباتية هي التي تعتمد عليها القارة الإفريقية للقيام بحاجيات استيطان لم ينفك يزداد كثافة. فكما ذكرنا آنفا فإن إفريقيا قبل كل شيء قارة مروج، تغطي أعشاب معمرة متنوعة أكثر من ٥٠٪ من مساحتها الكاملة، وتغطي الصحراء نحو ٣٠٪، ثم تغطي الغابة أقل من ٢٠٪. وفي مستوى الاستيطان البشري، فإن تنوع هذه المجالات كان له دور من حيث أنها أمدت الصيد بما يقتات به، ووفرت الثمار والجذور المأكولة، كما منحت من المواد ما مكن من صنع الآلات والملابس والمأوى، وقدمت أخيرا نباتات قابلة للزراعة، في إمكانها أن تتأقلم وأن تتحول الى مزروعات فلاحية.

ومنطقة المروج هي أساسا مستودع الصيد الإفريقي بأنواعه المختلفة، من الظباء والغزلان والزرافات والحمر الوحشية والأسود والجواميس والحيارم والفيلة والكركدانات وأفراس البحر، بقطع النظر عن الصيد الصغير. فلا غرابة إذن كما لاحظ كلارك، أن وجدنا بعضا من أقدم مواقع الاحتلال البشري على طول مجاري المياه أو الأنهار وعلى ضفاف البحيرات أو على شاطئ البحر، في مشهد هو اليوم المرج والسهب المشجر، والساحل النصف الصحراوي أو الصحراء (٣).

والغابة عموما خالية من السكان، على أنه مع مرور الزمن ازداد عدد السكان وتطورت التقنيات مما دفع الإنسان الى أن يحل في كل أنماط المناطق، من سواحل المحيط حتى الهضاب الجبلية العالية، ومنذ ما صار اليوم صحراء جافة حتى أعماق الغابة الكثيفة.

ومع ذلك فإنه يجدر أنه نذكر أن مناطق النباتات اليوم لا توافق حتما ما كان يسود من وضع في عصور ما قبل التاريخ. فعدة دورات من التغيرات المناخية العظمى أثرت في الصحراء التي كانت في الدهر الرابع القديم أكثر رطوبة، وعرفت نباتات شجريا من نوع نبات السهوب، ترعى فيها حيوانات، كالشور والخنزير الوحشي (خنزير أبو قرن) والغلي وفرس الماء. ومن المعتقد، بحسب عامل التقابل، أن الغابة الاستوائية قد مرت في الوقت نفسه، بفترات أشد جفافا.

وفي الوقت الذي كان فيه الانسان يستفيد من الموارد الحيوانية التي كانت مناطق النباتات المختلفة توفرها له، فانه كان يستغل عين هذه المناطق للحصول على الثمار وعلى الجذور المأكولة. وفي هذا الشأن كانت الغابات - الممرات، على طول مجاري المياه في مناطق المروج، تمكن الانسان في العصر الاشيلي من استغلال الثمار والحبوب والجوز في الغابات والسهوب. وحسب كلارك فان عددا كبيرا من الثمار البرية ومن الجوز ومن نباتات السهوب التي كانت في شمالي زامبيا في متناول الناشييكوفيين من العصر الحجري الحديث كثمار المويو والموسوكو - ما زالت حتى اليوم تحمي بانتظام وتستهلك من قبل الشعوب المتكلمة بالبانتو (٤). وعندما تكاثرت السكان تم احتلال كل أشكال المناطق، وأن مجموعة المنتجات الاستهلاكية المتوفرة للانسان قد اتسعت اتساعا كبيرا. ويظن مثلا أن ما تحيط به بعض المجموعات التي تعيش بالجني في وادي النيل من أهمية كبرى لأشكال من الحبوب، قد سبق زراعة هذه الحبوب المقصودة، وأدى الى عصر انتشار الفلاحة الذي كان له الأثر الحاسم في احتلال الانسان لافريقيا.

وبقطع النظر عن الصيد وجني الثمار، فان الموارد النباتية كان لها أهمية أساسية فيما يخص التجهيز بالآلات والملبس والسكن، ففي أقصى الجنوب من بحيرة طنجانيكا قرب شلالات كالمبو احتفظت الآت من الخشب احتفاظا كبيرا بشكلها ومادتها وهي نوع من بعض الأدوات القصيرة المحددة من طرف أو من الطرفين، وأعمدة مقلدة بالميل، كانت بلا شك تستعمل كمعزقات، وهي كلها ترجع الى العصر الحجري القديم. ولأنه قل ان تحفظ مثل هذه الأدوات في مواضع أخرى، فانه يبدو أنها كانت مستعملة استعمالا عاديا. في الغابة الاستوائية يعكس التجمع الصناعي اللومي من العصر الحجري الأول بواسطة آلاته ذات الوجهين النووية الشكل، ما كان من أهمية كبرى لتقنية الخشب. وكذلك في السهب العشبي في زامبيا وفي الملوي، فان ما يوجد من عدة نماذج من المجرفات الثقيلة من بين الأدوات الحجرية التي تعود للعهد الناشييكوفي من العصر الحجري القديم المتأخر، يوحي باستخدام متداول للخشب ومشتقاته في صنع كل أنواع السياجات والأوتاد والافخاخ المستعملة للصيد.

وفي الجهات الكثيفة الأشجار مثلا، حيث الصيد الفني قليل، فلا يمد بالجلود الصالحة للكساء، تقدم الأشجار لحاءها، ومن المحتمل أن استعملت البلطات الحادة ذات النصب، كالتى وجدت بجوار صخور مويللا بشمال زامبيا، لقلع اللحاء ولتهيئة لصنع الثياب والأواني والحبال. ومنذ العصر الحجري الوسيط على وجه التحديد بدئ في استعمال الانتاج النباتي لبناء الملاجئ التي حلت محل المساكن داخل الكهوف. مثل ذلك أن بعض الأغصان والقش والتبن المضفور استعمل لبناء شاطرة الرياح من العصر الحجري الأوسط، والتي عثر على أنقاضها في شلالات، كويشوسبرينغ، وهي ترجع الى الألف الثالثة قبل الميلاد. وفي العصر الحجري الحديث، ولا سيما في المناطق التي اكتشفت فيها الزراعة، تكاثرت الملاجئ المبنية بالمواد النباتية، أو أحيانا بخلط الوحل بالنباتات، وقد انتشرت انتشارا كبيرا. وسجلت بلا شك أول أثر ثقافي للانسان في المشهد الطبيعي.

ولكن لئن كان وجود هذه المنازل المتواضعة علامة على بداية الاحتلال الفعلي لسطح الارض من

قبل الانسان، وعلى قابليته لاختيار نباتات جديدة يؤهلها من بين مجموعة الأنواع الوحشية المحيطة به، فانه في هذا كرس تفوقه نهائيا.

وبقيت الظروف التي مكنت الانسان من خلق أنواع جديدة قابلة للزراعة انطلاقا من الأنواع الوحشية محل جدال بين العلماء، وليست مساهمة افريقيا في هذا الحدث العظيم وما يحيط به من ألغاز، بأقل حظ في هذا الجدل. وفيما نعلم حتى اليوم، فانه من المسلم به عموما أن هذه المساهمة أقل خطرا من مساهمة آسيا، وشرع في بحوث حديثة بعد أن حرر العالم النباتي الروسي، فافيلوف كتابه الضخم في الموضوع، حيث يرفض أن يسلم أنه لم يكن يوجد في افريقيا مركزا لهذا الاختيار سوى مركز الأراضي المرتفعة الاثيوبية، وبدأت هذه البحوث تقدم منظورا أحسن توجهها نحو المساهمة الداخلية لأفريقيا في تطور الزراعات الفلاحية (٥). وفي هذا الشأن لا يختلف اثنان، في أن السهب كان له أهمية محسوسة أكثر من الغابة. ففي السهب، بين الألف الرابعة والألف الثانية قبل الميلاد. تم اختيار عدد كبير من الأنواع الأهلية الصالحة للزراعة. وكون عدد كبير من هذه النباتات الصالحة للزراعة «مركب الفلاحة ذات البذور» وقد تميزت ببذر الحبة قبل زراعتها (٦).

وفي مقابل ذلك فان بعض التأقلمات التي أجريت في الغابة، تنتمي الى مركب الزراعات التي تقتضي مسبقا تحضير النباتات والفلسلات والجذامير الدرنات. وأهم تأقلم في هذه المنطقة تأقلم الأنيسام (ديوسكوريا - سب) الذي يزرع منه اليوم عدة أنواع، ومن النباتات المستأنسة في نفس هذه المنطقة: نخل الزيت (الايس - غينينسيس).

ورغم الزراعات القليلة المؤقلمة، فان اكتشاف الفلاحة تضمن علاقة جديدة خصبة بين الانسان وبيئته. فهي تدل خاصة على قابلية للتجديدات، وذلك كشر النباتات القابلة للزراعة الواردة من آفاق أخرى. وافريقيا مدينة لآسيا وأميركا الجنوبية بعدد كبير من المزروعات الجديدة. وفي اطار الموارد النباتية الطبيعية، فإن الأخذ بالاختيار لعدد محدود من النباتات الأهلية أو الأجنبية يدل على أن الانسان كان في وسعه أن يستخرج قوته من وسطه الطبيعي، بل انه أيضا كان منذ ذلك الوقت على طريق التغييرات البيئية العظمى.

وما كان لازما من استصلاح الارض لاحتلال مزروعات جديدة فيها، ومن ابادة بعض النباتات الأخرى التي قد تتقاسم معها العناصر المغذية في التربة، كل ذلك آل في كل افريقيا الى تغييرات جذرية لطابع النباتات.

ولعل النار هي العنصر الأقوى الذي اتجه اليه الانسان لهذا الغرض: ويشهد على استعمال الانسان الافريقي للنار شواهد تدل على أن الانسان كان يستخدم النار استخداما متدولا في افريقيا منذ ٦٠٠٠٠ سنة. على أنه في البداية يبدو أنه استعملها لحماية نفسه ولصنع الآلات، ولعله استعملها للصيد باحراق الاعشاب قصد اخراج الصيد منها. وعند اكتشافه للزراعة قد كان من الطبيعي أن يستخدم النار للتخلص من النباتات المضرة. واثروا الكفاح بواسطة النار ضد النباتات الطبيعية في صالح الزراعة تأثيرا متنوعا في الأعشاب وفي الأشجار. ففي السهب وفي الفصل

(٥) أ.أ. فافيلوف، ١٩٣٥.

(٦) رولند برتريس، ص ١٩٥ - ٢١٠، انظر في الموضوع الفصل ٢٧ من هذا المؤلف.

الجاف يحرق العشب حتى مستوى التربة، ولكن الجذور المحتفية في الأرض تمنع من إبادة هذا العشب. وبالعكس فإن الأشجار ما لم يحميها لحاء كثيف قد تموت فعلا، أن هي تبقى مشوهة الشكل منكشة.

ودخول النار في الوسط الطبيعي قد أدى حينئذ الى تحول عظيم للمشهد تسبب فيه الانسان على مر العصور. وحيث ان تكرار النيران يقتل الأنواع القابلة للعطب في الغابة الكثيفة، فان ظروفنا جديدة تخلق مساعدة على امتداد تدريجي للمروج. ففي افريقيا الغربية كان لهذا الوضع من الحركية ما خلق منطقة مهمة من «السهب المشتق» تمتد من الجنوب حتى ست درجات من العرض الشمالي (٦ مكرر) وفي السهب الحقيقي يلاحظ أن طابع النباتات يتغير بتأثير النارين الناشبتين في السنة، وبحسب الخواص الدنيا للمشهد، فيمر من المروج في السهل الى سهب ذي أشجار في التربات الأكثر صخرية. وفي الواقع فان هذا الاحتفاظ بالحريجات المتبقية على التربات الصخرية، يؤدي الى الاعتقاد بأن النباتات الرئيسية في معظم المروج الحالية من الراجح أن تكون هي الغابات (٧).

ومهما يكن من الأمر، فان المروج الافريقية وفرت للانسان في القديم موارد عظيمة. فلم تكن فحسب قابلة للاستصلاح بسهولة، بل كانت أيضا سهلة الاختراق. وكانت سهولة التنقل العامل الحاسم في العمران. فافريقيا قارة ممتازة بالنسبة الى كبير الهجرات البشرية، وقد استعيد وصف البعض منها بفضل الشواهد الأثرية والاثنولوجية واللسانية والتاريخية. وكان لهذه التحركات السكنية أهمية في سرعة انتشار الأفكار الجديدة وبث الآلات والتقنيات بالخصوص. وكان لهذا الاشعاع من السرعة أحيانا، ما جعل البحوث الرامية الى التعرف على مناطق أصلية لتجديد ما، تصطدم بعقبات كأداة.

وحركية الانسان كانت دائما عاملا حيويا في تنظيم المجموعات السكنية الى وحدات سياسية، فكان للسهب اذن دور حسن ساعد في افريقيا على توفير الظروف التمهيدية لنشأة الدول. وحين حصلت هذه الدول على وسائل القمع، كان من الطبيعي أن تفرض هيمنتها على مجموعات أخرى لها نظام أو تجهيز عسكري أضعف مما لديها. وبعد محق مقاومة هذه الجموع لم يبق لها سوى أن تندمج في الغالب أو أن تلتجئ إلى خلوات صعبة المنال أو صعبة المعاش. وبكلمة مختصرة فان ظهور الدول في مناطق السهب تبعه تشتت للجموع الأكثر ضعفا، والأقل تنظيما في أوساط منفرة كالمناطق الجبلية الوعرة أو الصحاري أو الغابات الكثيفة.

شاهدنا أن الموارد النباتية في القارة لعبت دورا قويا في التطور التاريخي للانسان في افريقيا، فهي وفرت له ذخائر غزيرة من الثمار والدرنات، كما مكنته من خلق مزروعات تعهدها وحماها فأمدته بوسائل للقوت جديدة غنية. فحتى عام ١٦٥٠م حسب كارل صوندرس، لم يفق القارة سوى آسيا في الاستيطان. وكان مالها من مئة مليون نسمة يمثل ٢٠٪ من المجموع العالمي (٨). ومن أهم عوامل

(٦ مكرر) و. ب. مرجن، و. ج. س. بوغ، ١٩٦٩، ص ٢١٠.

(٧) س. د. اير، ١٩٦٣.

(٨) أ. م. كارل صوندرس، ١٩٦٤.



التنمية الاستيطانية ما وفرت الوحدات الاجتماعية السياسية الأحسن تنظيمًا من زيادة في استتباب الأمن.

وحيث أن انتشارها الأقوى كان في مناطق السهوب، فانه من اليسر أن ندرك، لماذا كانت في ذلك العهد هي المناطق ذات النسبة العليا من الاستيطان الأقوى في القارة، وستأخذ هذه النسبة في التغير شيئًا فشيئًا، خاصة في إفريقيا الغربية، منذ القرن السادس عشر الميلادي، مع تجارة العبيد ثم مع الاستعمار الأجنبي.

## الموارد الحيوانية والتنوع الثقافي

إن توزيع الموارد الحيوانية مرتبط بأوثق الارتباط بتوزيع المواد النباتية. وفي كل الأزمنة اعتبرت إفريقيا قارة متميزة الغنى في اللبونات. والواقع أنه يعتقد أن اللبونات الإفريقية، بقطع النظر عن الحفاش، تشمل ثمانيا وثلاثين من الأسر.

وتطور توزيع هذه الحيوانات بحسب العصور وبحسب الأمكنة. وتدل الآثار المتحجرة على أن جميع المناطق كانت عامرة في وقت من الأوقات بأعظم الأنواع الوحشية. وفي منطقة البحر الأبيض المتوسط في إفريقيا الشمالية، كانت توجد بعض الحيوانات كالأسد والفيل، ومن المعتقد أن الكثير منها قد طارده فترات الجفاف القوي في العهد البليستوسيني. وتحمل ما بقي منها أثناء آلاف السنين الأخيرة انقاصات ثقيلة مما كانت تتطلبه مثلًا حاجيات الملاعب الرومانية. وقرىبا منا في أواسط القرن التاسع عشر اكتشفت الجيوش الفرنسية بقيادة الدوق دومال، أينما مرت في الجزائر بين الصخور الوعرة في مقاطعة قسطينة وحتى سهول مقاطعة وهران، أعدادا ضخمة من الحيوانات الوحشية ومن جملتها الأسود.

وتحتفظ الصحراء نفسها حتى الآن بسلسلة عجيبة من نماذج الحيوانات الوحشية: غزلان «موزكا» وفاما واضاكس وأوريكس ذات القرون على شكل الخنجر الخ. ونحن نعلم أنه في العصور البعيدة الكثيرة الرطوبة، كانت هذه الموارد أكثر أهمية بكثير، فكان من بينها حيوانات كالفيل والكركدن وفرس الماء والزرافة والجاموس العملاق الذي انقرض اليوم وغزلان كبرى.

على أن السهوب الإفريقية تشكل المأوى الحقيقي لمعظم الصيد الضخم الإفريقي (٩) ففي المناطق الواقعة في غربي إفريقيا وشرقيها ووسطها وجنوبها، توجد الحيوانات الضارية كالأسد والفهد والقط الثري الإفريقي والضبع. وهنا توجد الحيرم والطواي والغزال والخنزير أبوقرنين والغزال الأغبر وحمار الوحش والزرافة والنعامة. وهنا الموطن الطبيعي للفيل والجاموس والكركدن الأسود وفلند دربي وعلند الكاب ورأسي الأرجل وكب سنغ وكب القصب. وعلى مر العصور تغيرت أهمية الموطن الذي احتلته كل من هذه الأنواع. وقد لحق هذه الحيوانات كثير من الأضرار من قبل الإنسان. وفي الكفاح القوي في سبيل البقاء قد اضطرب بعض الأجناس إلى ترك محلها لغيرها كلما تغيرت الظروف البيئية. وهكذا فإن انعدام الكركدن الأبيض بين الزامبيز والنيل الأبيض

الأعلى، قد يعزى الى ما وفرته تغيّرات المناخ والنبات خلال العصر البليستوسيني في صالح الكركدن الأسود الأكثر عدوانية.

ورغم كون الصيد الوحشي في معظمه يتردد على الغابة المدارية الافريقية، فإن هذه المنطقة في جملتها منحت القليل في مستوى الموارد الحيوانية، ومن أهم سكان الغابة يجب أن نذكر البوسايغ أي خنزير الدغل والخنزير الوحشي العملاق والبونكو، وكبار القردة كالشبنزي والغوريلا وكذلك الأوكابي. وفي هذا أيضا فإن التغيرات الحادثة في البيئة أثرت في امتدادات المواطن السابقة. وما لوحظ من فراغات في تعمير البونكوناشي عن قراض ما سيكون يوما الغابة الكثيفة الممتدة على افريقيا الاستوائية بأكملها.

ولقد أدت غزارة الموارد الحيوانية خدمات جليلة للإنسان خلال المدة الطويلة من حياته التي كان فيها صيادا قبل كل شيء. وكانت تبدو هذه الذخائر غير نافذة، حتى أن بعض المجموعات الافريقية بقيت حتى اليوم في هذا المستوى من النمو. وهناك صنف آخر من الموارد الحيوانية: الأسماك، فهي أيضا قد تم اقتناصها منذ العصر الحجري الأوسط، فجاري المياه وأيضاً بحيرات الماء العذب — رودلف وناكورو وعيدي أمين (سابقا ادوارد) في افريقيا الشرقية والوسطى وفي التشاد في افريقيا الغربية — جذبت أولى المجموعات البشرية بفضل الموارد السمكية (١٠). ومن بين الأنهار كان بالطبع للنيل قيمة فريدة، فوجدت على ضفافه أنقاض مجموعات مجاورة كانت تستخدم الحماطيف وصنارات العظم، وكانت أيضا تصطاد فرس الماء والتمساح وتستهلكها، وما زال حتى اليوم من طرف افريقيا الى طرفها الآخر يستعمل فلك بسيط مغفور في جذع شجرة قصد الصيد في المياه الداخلية. وقد تتجراً قليل من مجموعات الصيادين على صنع أفلاك ذات أهمية للمخاطرة بها للصيد على الساحل البحري. وفي كل مكان وحتى عصر قريب، فإن التطور التقني الغير اللائق، قد منع الناس من استغلال الموارد الغنية على المناطق الجافة في القارة.

والشروة الرائعة للحيوانات البرية وتنوعها، وفرا ذخيرة عظيمة مليئة من الحيوانات الأهلية على أن تدجين الحيوانات في افريقيا اقتصر عملياً على الحمار والقط والدجاج الحشيشي (١١). وأحد أسباب هذا العمل المتواضع هو أن افريقيا في العصر الحجري الحديث قد برزت عليها الأساليب السابقة الأكثر نجاعة والمجربة في الجنوب الغربي من آسيا. وأذاك تعلمت القارة حياة الرعي. فالرعاة الأولون في العصر الحجري الحديث ظهروا، حسب كلارك، في الصحراء خلال الألف الخامسة قبل الميلاد وربما قبل ذلك فكانوا يسوقون قطعانا من الدواب ذات القرنين الطويلين أو القصيرين، ومن الماعز والخرفان. واستمروا على ذلك حتى طاردهم جفاف الصحراء المتزايد.

على أن صناعة الرعي لم تنتشر بكيفية منتظمة في كل الأوساط في القارة. فان كان معظم المجموعات قد نجح في مراقبة عدد من القطعان الصغيرة، فان قلة فقط تمكنت من تدجين القطعان الكبرى. ومن هؤلاء طوارق الصحراء الفلانيون في السهب الافريقي الغربي، والماساي في مروج

(١٠) أنظر بوتون، في هذه النقطة أنظر الفصل ٢٠.

(١١) ج. دسمند كلارك، ١٩٧٠، المصدر المذكور ص ٢٠٤.

إفريقيا الشرقية، وقد بقوا مرتبطين ارتباطا وثيقا بحياة الرعاة، وتركوا كل محاولة للجمع بين هذا النمط من العيش وبين غط الفلاحة.

وتتبع هذه المجموعات بلا فتور قطعانها في طلب الماء والكلأ، فعاشت حتى اليوم حياة البدو الرحل في أدق شكل لها. على أن بعض مجموعات البوتى في إفريقيا الشرقية وفقت في مشاركة تربية الماشية مع العمل الزراعي، لصالح الواحد منها بتأثير الآخر. ولعله مما منع ازدهار الرعي في إفريقيا، تكاثر أجناس حيوانية أخرى كان لها أثر متميز السلبي على غو الموارد بالقارة.

وفي هذا المجال، لابد من ذكر ذبابة النعاس (تسي، تسي)، وهي ذبابة ضخمة كثيرة التحرك، وهي العامل الرئيسي وليس الوحيد في داء المثقبيات، وهو مرض يسبب للإنسان مرض النعاس، وهو يعني الموت بالنسبة للحيوانات. وتوجد اليوم هذه الذبابة في منطقة تخترق إفريقيا بين الدرجة ١٤ من العرض الشمالي إلى الدرجة ١٤ من العرض الجنوبي. ولا يشذ عن ذلك سوى الأراضي المرتفعة التي تتجاوز ١٠٠٠ متر وهي نسبيا باردة، وسوى مناطق الأعشاب القصيرة، حيث يكون الفصل الجاف شديد الحرارة والجفاف، فلا تتمكن ذبابة النعاس من التكاثر فيها.

وجدت ذبابة النعاس في إفريقيا منذ أقدم العصور، واذ وجدت آثار متحجرة من هذا الحشرة في أميركا الشمالية في طبقات إليوسين فإنه يبدو أنها كانت أكثر انتشارا في ما قبل التاريخ (١٢)، وقد يكون انقراضها من بعض الجهات الإفريقية أو الخارجة عن إفريقيا ناتجا عن التضاريس والتغيرات المناخية والحواجز الطبيعية والعهد الجليدي. ومن الثابت في إفريقيا ذاتها أن التداولات المناخية في عصر البليستوسين، قد كان لها كبير الأثر على توزيع مختلف أجناس ذباب النعاس، بل وحتى على نسبة ضررها.

والمناطق التي عاثت فيها هذه الذبابة فسادا، قد كونت حاجزا كبيرا الفاعلية ضد انتشار تربية المواشي. ومن المحتمل أن الرعاة قد فهموا بسرعة أن قطعانهم كانت مهددة بأخطار جسيمة عند مرورها بالمناطق التي أفسدها.

لذا فإن نزول القطعان نحو الجنوب انطلاقا من إفريقيا الشمالية، كان تابعا لوجود ممرات خالية من الذباب، كما هو الشأن القطعان التي كانت تنشؤها مجموعات زراعية منظمة لها كثافة كافية. ومثال مفيد على ذلك، مثال هجرة الرعاة المربين للحيوانات منذ ما يقرب من تسعة قرون، من صهرين مع شعوب أخرى لانشاء مجتمع التتسي وهوتو في روندا وبرندي الحاليين.

ولا شك أن تاريخ إفريقيا كان من المتوقع أن يكون مخالفا كثيرا لما هو عليه، لو لم تعرف القارة ذبابة النعاس. إذ أن هذه الحشرة كانت تمنع المجموعات الزراعية المنظمة من استخدام الدواب الضخمة، فلم يلجأ قط إلى هذه الحيوانات كدواب للجر والنقل. ولم تتوفر قط أيضا للأفارقة فرصة اكتشاف العجلة الكبيرة الأهمية. وفي هذه الحالة فإن ما مكن الدواب الضخمة عند بعض الشعوب من حرية الحركة، لابد أنه شجعهم على التعدي على الشعوب المستقرة (١٣).

(١٢) ت. د. أ. ككرال، ١٩٠٧، ١٩٠٩، ١٩١٩، ص ٣٠١ - ٣١١.

(١٣) أنظر في هذا الصدد دور الحيلة (الفرسان) في تكوين الدول، ولا سيما في شمال وسط إفريقيا.

ومن العوامل الحيوانية السلبية نجد بعوضة حمى المستنقعات والجراد. فمن عديد أنواع البعوض التي في امكانها أن تنقل عدة أصناف من طفيليات حمى المستنقعات، يوجد ما يجلبه الدم البشري أكثر من غيره. فمن البعوض الذي يبعث أكثر من غيره في افريقيا، بعوضة الملاريا جامبيا التي تجرد غذاءها على الحيوانات أيضا، فيكون من الصعب القضاء عليها اذ هي تتمكن من البقاء حتى ولو منعت مؤقتا من الهجوم على الانسان. ويتكاثر البعوض على المياه الراكدة، ويتوالد بجوار المستنقعات والجداول. ويتكاثر خاصة عند ازدياد الأمطار. وتساعد درجات الحرارة المرتفعة على نمو دعاميصها وعلى دورة الطفيليات الدموية في البعوضة البالغة. وبالعكس ان الطقوس الباردة في المرتفعات العالية تحفض من حدتها. فالملاريا المستوطنة تميل نحو الانقراض في ارتفاع يفوق ١٠٠٠ متر، ولو أن نقلها يستقر على أكثر من هذا الارتفاع.

ولا يعلم منذ متى صارت هذه البعوضة جزءا من المحيط البشري في افريقيا. ونسبة خلايا جلجي الكبيرة الموجودة عند الكثير من الأهالي الافريقيين، قد يشير الى علاقة وثيقة طويلة المدى بين هذه الخلايا وبين تطور الاستيطان الافريقي. وبدون شك، فإن هذه الخاصية ناتجة عن أثر عدة قرون من الانتقاء الذي ساعد هؤلاء السكان على البقاء في ظروف وباء كبير الاستيطان من الملاريا. وبقدر ما كانت هذه البعوضة تهدد حفظ البقاء لهذه المجموعات البشرية غير المكيفة تهديدا خطيرا، فهي أيضا قد لعبت دورا مهما في تاريخ القارة. ومن الأكيد أنها بالفعل، حتى القرن العشرين، أيأست الاروبيين في محاولاتهم الاقامة في المناخ الحار الرطب في افريقيا الغربية، وحفظت هذه المنطقة من المشاكل الشائكة القائمة بين الأعراق، تلك المشاكل التي اضطرب منها تاريخ الأراضي المرتفعة في افريقيا الشمالية والشرقية والوسطى أو الجنوبية، وقد كانت ضحية للاستعمار الاستيطاني.

والجراد من المصائب التقليدية في افريقيا. وهي حشرات ضخمة تعيش عادة منعزلة أو جماعات صغيرة. وهي توجد في مناطق التحول النباتي، على حافة الصحراء أو على حدود السهب العشبي والغابة، ويوجد في افريقيا على جنوبي الصحراء، الجراد الأحمر والجراد الرحال الافريقي وجراد الصحراء، وتحتاج ثلاثتها الى نوعين من المواطن: تربة عارية لوضع بيضها، ومشهد مخضر لتغذى منه. فاذا ما ضاقت تربة تغذيتها أكثر مما يلزم لسبب من الأسباب، فهي تتجمع فرقا كبيرة لتهاجم مناطق قريبة أو بعيدة. ويوجد في الماضي أمثلة من هذا النوع من الزحف، تنص عليه التوراة كاحدى الكلوم التي رمى بها موسى مصر. ومنذ القرن التاسع عشر صارت التقارير عنها أكثر غزارة. فنحن نعلم مثلا أن افريقيا الوسطى قاست من هذه الزحافات المتكررة بين سنة ١٨٤٧ و ١٨٥٤ و ١٨٩٢ و ١٩١٠، وقرىبا منا بين ١٩٣٠ و ١٩٤٤. وفي نظر الأهالي المزارعين المستقرين، ان الأضرار الناجمة عن تهاطل سيول الجراد، ولا سيما اذا وقعت في فصل الحصاد بالذات، فانها تعني المرور العنيف من الخصب والثروة الى المجاعة. وفي الماضي اذا وافقت الظروف المناخية السلبية — كالجفاف مثلا — وقوع هذه الهجومات، فهي تساعد على انبعاث الانقلابات السياسية والاجتماعية.

## الثروات المائية والحركة البشرية

يجدر أن لا ننقص من قيمة الثروات المائية في تطور التاريخ الإفريقي، فإن وجدنا في قطاعات مختلفة من القارة أرقاما تسجل أقوى التهاطلات في العالم، فإن أرقاما أخرى تشير إلى بعضها الأكثر ضعفا. وامتدادات الصحراء والكلاهاري العظيمة شاهد لا يقبل الطعن، على ما في قطاعات فسيحة من إفريقيا من الجفاف القاسي. وحتى خارج الصحاري، فإن منطقة السهوب الفسيحة لا تستقبل الا تهاتلات كافية تماما، وفي هذه المناطق فإن الحياة البشرية تابعة في جانب كبير للتأرجحات الاتفاقية للرياح المحملة بالأمطار. ولو كان في الامكان أن يلجأ إلى موارد أخرى للماء، كالجداول والبحيرات وحقول الماء الجوفي، لكان الأمر أقل خطورة.

ولكن في مناطق متسعة من القارة، ولا سيما في الجهات الحارة نسبيا من الأراضي المنخفضة، فإن الأودية النهرية التي تعيش فيها الحشرات الضارة، غير صالحة بموجب ذلك للاستقرارات البشرية. ثم ان نظام الأنهار يتبع من قريب نظام الأمطار، وهكذا تكون مساعدتها قليلة، في فترات التهاطلات غير الكافية مثلا، إذا ما استطال فصل الجفاف، وإذا ما كان مجرى الأنهار ذاته ناضبا. وفيما عدا وادي النيل، فإن التكنولوجيا التقليدية لم يكن لديها أي وسيلة لحزن الماء استعدادا للأيام التي لا مطر فيها. والتقنية الناقصة في التقدم تعني أيضا، أنه لم يكن في الامكان الوصول إلى ما تحت الأرض من مياه على عمق يتجاوز عمقا معيناً حتى في مناطق الأحواض الارتوازية. حيث خزنت البنيات الجيولوجية كميات ضخمة من الماء. وعلى جانب كبير فإن القارة تبطنها قاعدة من الصخور، لا يوجد فيها الا القليل من امكانيات الحزن لطبقات مائية غزيرة. ولا يمكن للمستوطنين البشر الا أن ينتظروا التهاطلات السنوية.

ولذا فإن قلة الماء الناتجة عن الجفاف كانت دائما من خواص الحياة الإفريقية. والتاريخ المناخي لعصر البليوسين، يدل على أن عدة قطاعات من القارة تبعت على الأرجح، نظاما دوريا طويل المدى من تهاتلات تزداد أو تقل قوة. ومهما يكن من أمر، ان الجفاف يمثل ضغطا من النطاق المكاني على الجموع البشرية، وهو يضطرها إلى رد الفعل، ويعبر عن هذه التفاعلات في الأكثر بالبحث عن مناطق أكثر أمطارا للاستقرار فيها نهائيا، أو بصفة مؤقتة.

وقد تكون هذه الهجرات مسالة، ولكنها غالبا وبحسب تنظيمها وبحسب الكيفية التي وجهت بها، قد تميل إلى التعدي. ويبرز تاريخ العديد من الجماعات الإفريقية حركاتها الهجرية من قطاع إلى آخر، أو ذلك زحف جمع مهاجري أخصع لسلطانها المجتمعات ونظمها.

وحيثما وجد الماء بكيفية كافية، سواء في ذلك ماء المطر أو الماء الجوفي، وحيثما تمكنت الفلاحة من التطور والنمو، انتشر استيطان منظم حسب سير تدريجي للتطور الاجتماعي، على الطريق الطويلة الوعرة، قصد السيطرة على الطبيعة، ونضجت المحاصيل غنية متنوعة، وفرضت سرعة نضجها بسرعة الحياة الاجتماعية. وصار لفصل الحصاد أهمية حاسمة، ووضعت أعمال طقوسية تقديس حدثا مجهول التفسير، حتى أنه نسب إلى بعض القوى المحسنة. ويتبع الصعود في السلم الاجتماعي لهؤلاء السكان المنظمين عددا من سائر العوامل، أحدها — على الأقل — غزارة الموارد الغذائية التي تمكن

من تقسيم العمل ضمن المجموعة، وتساعد على ظهور جموع مخصصة في نشاطاتها. وليست هذه الامكانية تابعة فقط لمخزونات الماء، بل كذلك لخصب الأراضي.

## ثروات التربة والتطور الاجتماعي للمجموعات

ان الخواص الجيولوجية لقطاعات فسيحة في افريقيا عينت الى حد بعيد طبيعة التربة. ونظرا لتنوع الصخور في القاعدة كانت صفات التربة التي تكونت من عناصر متشابهة، هي ذاتها متنوعة جدا. ولكن خصبها في الغالب ضعيف، نعم ان تلك الصخور تبدي عادة ذخيرة ملائمة من معظم العناصر المعدنية اللازمة لتغذية النباتات، ولكن تنوعها يؤدي الى تغيرات مهمة في شعاع جغرافي صغير. وما تكون من التربة على الصخور الرسوبية، يرمي الى الاحتفاظ بتجانس أكبر على مساحات كبرى، على أنه لا صلة له بالمساحات الممتدة التي لها خصب التشنوزيوم في أراضي القمح في اكرانيا، أو مروج أميركا الشمالية.

ان التفاعل بين خواص التربة والعوامل المناخية، بدا حاسما تماما بالنسبة الى خصب التربة وقدرتها على الوفاء بمحاجيات عمران كثيف لمدة طويلة. وفي المناطق الندية فإن الخصب الموهوم الذي يظهر من نبت النباتات الغضة، يحق طبيعة التربة الهزيلة. واذا ما استصلحت الارض بقلع النباتات الطبيعية تنفتت المواد العضوية للتربة بسرعة بعمل الجراثيم القوي، تنشط درجات عادة مرتفعة. وفي وقت قصير ينحط الخصب، ويتضاءل انتاج المحاصيل، ويضطر البشر الى البحث عن موطن آخر.

وعلى النقيض في المناطق الناقصة الرطوبة، يكون خصب الأرض أحسن، الا أن تغيرات رطوبة الأرض الدورية تساعد على تكوين قشور من معدن الحديد الوعني غير صالحة للزراعة. وينتج عن هذه القشور تشتت التربة المتوسطة الخصب، فتكون امكانياتها لتغذية استيطان بشري كثيف محدودة جدا. وتلك هي طبيعة التربة التي نجدها في افريقيا الغربية شمالي الغابة الغضة، وعلى هضاب افريقيا الوسطى على حافات حوض الزاير. كما توجد هذه المساحات أو القشور الملموسة من بين الأراضي نصف الجافة المستقبل لتأطلات معتدلة، الا أنها أكثر تشتتا، وينتج عن ذلك أن التربة السمرات والرملية في هذه الجهة، هي أكثر خصبا، واذا ما كانت السنة مطيرة بقدر كاف، فهي تنتج محاصيل لاثقة. وفي الشمال فإن تربة الصحراء سطحية وملاعها ضعيفة وتعوزها المواد العضوية.

ومن الصفات الملحوظة في جغرافية افريقيا قلة امتداد التربة الخصبة تماما، وشدة تشتتها. وتشمل هذه التربة الصلصالات العميقة المشتقة من البازلت ومن سائر صخور العصر البليوستوسيني، أو صخور فترات أكثر حداثة، ويعر عليها خاصة، في بعض أجزاء افريقيا الشرقية. وفي الغابة الكثيفة يكون لهذه التربة في المرتفعات لون الشوكولاتة وفي البقاع المنخفضة لون الحمرة. وهناك تربة مثيلة لها في الخصب هي التربة الغنية المشتقة من عين الانموذج من الصخور، والموجودة في السهول المعرضة لفيضان الأنهار كالنيل.

وساعدت المحاصيل الغزيرة في هذين النموذجين من التربات، على نمو استيطان بشري كبير كثيف. فإذا ما أدى هذا التجمع — كما في وادي النيل الى درجة عليا من التنظيم الاجتماعي ومن رقابة المحيط — مثل ما كان في العصور الحجرية الحديثة وقبل عهد السلالات — فتكون الظروف متوفرة لتسارع الرقي. ويتضمن ذلك تطور الحضارة في المدينة، والتمييز بين الطبقات، كما يتضمن صناعة مهذبة وفنا معماريا معلمييا. وفي النهاية استعمال الكتابة. وكان هذا، أكثر فأكثر مآل العلاقات المنتظمة مع وادي الرافدين، بل كذلك مآل الامكانيات التي وفرتها الاستيطان الكثيف المتكون من جموع اجتماعية متنوعة لتحقيق ازدهار الفلاحة التي بلغت في ذلك العصر السحيق درجة مذهلة.

ووجدت ظروف مماثلة لذلك فيما بعد في عدة أماكن من إفريقيا، وذلك كمثال منعطف النيجر عند انشاء امبراطورية غانة في بداية العصر «الوسيطة». ومع أن مناطق أخرى تظهر تربات خصبة نسيبا، فإن امتدادات كبيرة، ولا سيما على سهول الأراضي المرتفعة حيث عاث فيها غسل منذ ملايين السنين، ليس فيها سوى تربات سهلة الفلاحة تعوزها السماد الملائم للنباتات، فبقيت حتى في عصرنا هذا ذات قيمة ضعيفة من الوجهة الفلاحية. ففي هذه الجهات لم يتمكن الانسان من البقاء الا بالمرور من زراعة الى أخرى منذ العصر الحجري الحديث. وهذا الصنف من الاقتصاد فيه تدمير ثابت للتربة، ولهذا كان حائلا دون تكوين مجموعات سكانية كثيفة، قليلا أو كثيرا. وهذا الوضع الاستيطاني المتفوق على مساحات فسيحة من القارة، وآثار هذا التوزيع على التطور الاجتماعي، لا بد من اعتباره عامل نحس في تاريخ إفريقيا. وكل يعلم أن خصب منطقة من المناطق يتبع في آن واحد خواصها الذاتية ونجاعة استغلال تربتها. ومن الحقيقي أيضا أنه في جهات أخرى من العالم، قد مرت مجتمعات بلغت اليوم مستوى عاليا من التطور الاجتماعي، مرت بأطوار تبع فيها اقتصادها أيضا، زراعات طارئة. فبالنسبة الى إفريقيا اذن فإن الاستغلال اللائق للتربة يكتسي أهمية رئيسية في التطور الاجتماعي، وإن كان هذا الاستغلال محدودا في الماضي، فهو يدل اليوم على الطريق التي ينبغي سلوكها للشروع بمجد في دورة الرقي الخامس.

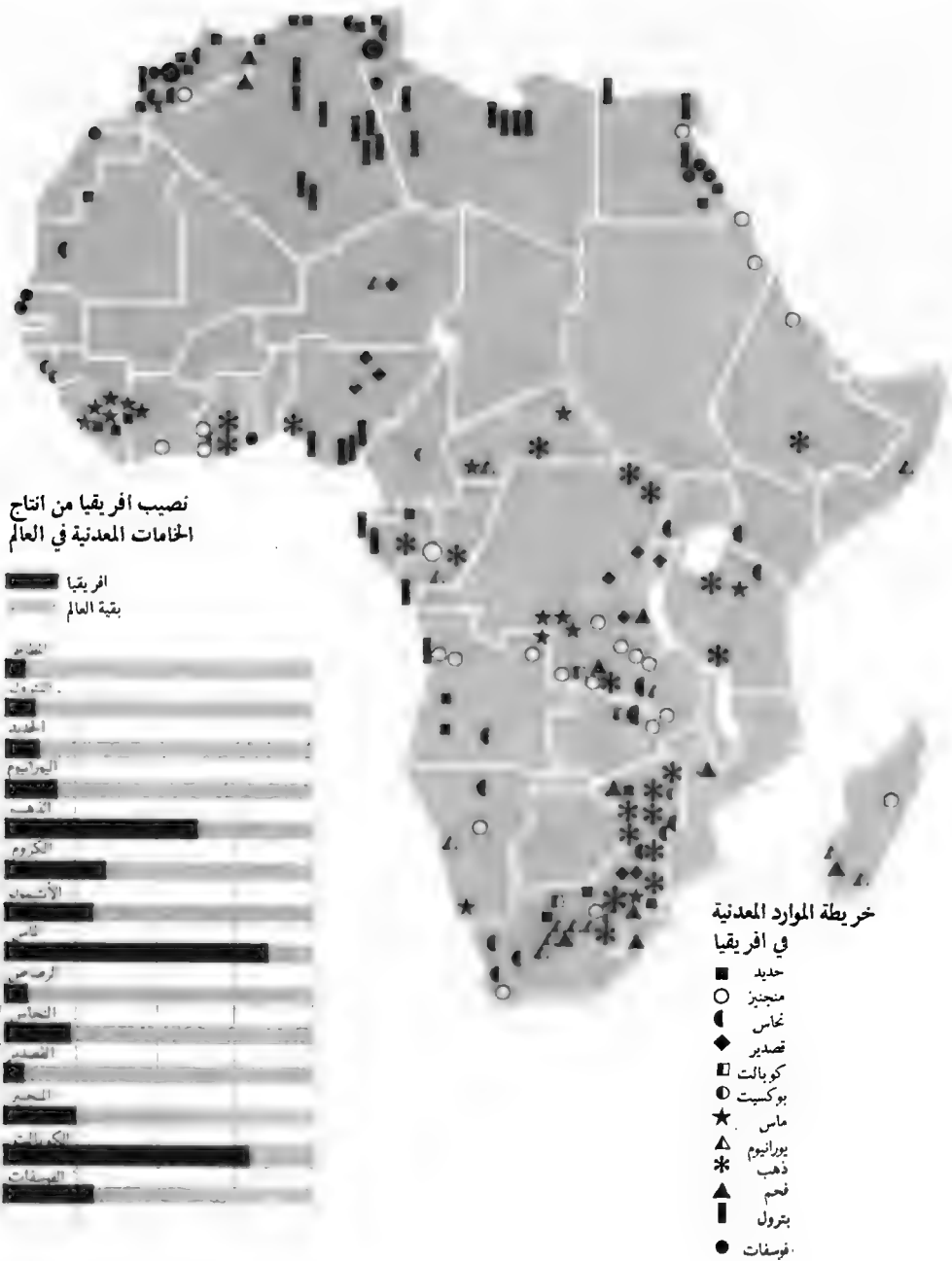
## الخلاصة

إن الجغرافيا التاريخية الإفريقية، وبخاصة منها ما له علاقة بالمظاهر الاقتصادية، تمدنا بصورة قارة كانت الطبيعة معها في غاية اللطف. وعلى الأقل في المستوى السطحي، فإن هذا الطابع الظاهر للحلم الطبيعي التي توضحه الغزارة الواهية للغاية المدارية، كون ضربا من الفخ لشعوب هذه القارة. وهذه المجموعات البشرية وقد توقفت عند سهولات للعيش كبيرة، مرت بجوار ظروف ممزقة للتطور الاجتماعي. ولا شك أن بعض الرجال أو بعض المجموعات من الناس ظهرت هنا أو هناك وحاولت أن تستقطب أتباعها وأن تسير بهم الى الامام. ولكن عنفهم بقي أثرا على ورق. وبما لا شك فيه وبصفة مبدئية، فإن التدخل الأجنبي، خلال مغامرة النخاسة الطويلة القاسية، قد طبع تطور القارة العام بميسم الشؤم. ولكن لئن كان هذا التدخل حادثا، ألم يكن ذلك ليذكر بعنف ما يمكن

أن يجابهه من مخاطر كل أخطار جمع بشري يتأخر عن أن يدعوا دون تلكؤ دائما الى انشاء منظمات اجتماعية أشد تماسكا، وأقوى امتدادا، وأكثر تشعبا، وأقوى مواجهة للتحديات المحتملة؟. ولن يأتينا تاريخ افريقيا بشيء، ان لم يبرز هذا الأمر ابرازا واضحا. وتكشف لنا الجغرافيا المعاصرة لافريقيا عن قارة حازت منذ ما قبل التاريخ على ثروات طبيعية غزيرة — على أن الماضي الاستعماري الحديث قد أعان على انشاء وضع مكن من استغلال هذه الثروات على نطاق واسع في شكل مواد خام، صدرت لصالح مجتمعات أخرى.

ثم ان الاقتصاد العصري، الذي يملك كفاءة تقنية عالية، لا يسمح باستغلال هذه الثروات، الا اذا انتظمت الشعوب الافريقية في مجموعات عظيمة مندمجة لتكون قواعد كافية للنمو الحقيقي. وتاريخ عشرية من سنوات الاستقلال لبقى انطبعا غائما، ويبدو أن حتمية بناء مجموعات كهذه تقابل مجموعات مشابهة، تتكون أكثر فأكثر على أرضنا، مازالت حتى الآن، بعيدة جدا عن الادراك... وان كان لهذه اللوحة من الجغرافيا التاريخية والاقتصادية للقارة الافريقية، أن تؤتي أكلها، فلتذكر أن الطبيعة لا تعين مصير شعب ولا مساره، وهي لا ترغم على أمر ما، وفي أحسن الأحوال هي تؤثر وتغري. والشعوب كالأفراد كانت دائما وستبقى بناءة لمصيرها الذاتي.





● الموارد المعدنية في أفريقيا — خريطة مأخوذة من كتاب «أفريقيا» (بالفرنسية) — مجموعة دار «هاتيه» للنشر، ١٩٧٦.

## مناهج تداخل العلوم المعتمدة في هذا الكتاب

بقلم ج. كي. زيربو

### منهج تداخل العلوم

إن اعتماد منهج تداخل العلوم في ميدان البحث التاريخي يعتبر موضوعا موافقا لذوق العصر. إلا أن تطبيقه أصبح عسيرا سواء لتباين الطرق المنهجية التي تختص بها العلوم المعنية بالأمر، أو لأثر العادات الخصوصية التي انغلق فيها الباحثون، غير أنهم على نوع من السيادة الترايبية العلمية. وقد كان لذلك أثر على عرض نتائج البحث الذي ما انفك يميز في حياة شعب من الشعوب، الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها وذلك من خلال قطاعات مفصولة عن بعضها، فإن بدا لباحث أن ينفج منهج تداخل العلوم، فإن ذلك غالبا ما يتخذ أسلوب الاستيعاب والشمول. إن التاريخ يحتل في حرب التصدر والهيمنة هذه، مرتبة غير واضحة: فهو طبعاً ضروري لجميع العلوم، إلا أنه لما قصر عن الاشتغال على مصطلح خاص شبه سري كثيراً ما يتحصن به الاختصاصيون في العلوم الأخرى، فإنه يبدو وكأنه ملتقى الطرق، ولهذا يخشى عليه أن يفقد شرعيته بسبب وجوده في كل مكان.

فالتاريخ باعتباره مادة رئيسية، كان يعتمد تقليدياً على عنصر أساسي، وهو الوثيقة المكتوبة. إلا أن تاريخ القارة الأفريقية ولا سيما ما وجد منها جنوب الصحراء، يتميز بقلّة نسبية من حيث المصادر المدونة خاصة قبل القرن السادس عشر الميلادي. والأمر أسوأ بالنسبة لما قبل القرن

السابع الميلادي. واعتبارا لذلك فان المثل الافريقي يقول: «توضع الجدة عندما تفقد الأم» (١) فوجب عند فقد المصادر المدونة، أن يستجمع تاريخ القارة الافريقية كل المصادر المتوفرة من أجل استعادة أسس الماضي. ويمكن أن يتحول النقص الى عنصر إيجابي، وذلك بالتخلص من الأثر السلبي للنص المكتوب، الذي يتسبب أحيانا في تهاون ضمني بالمصادر الأخرى. ومن جهة أخرى، لقد عانى البحث في التاريخ وفي العلوم الانسانية بافر يقيا متاعب كثيرة من داءين متناقضين: أولهما التحريف التاريخي الذي يؤدي الى اعتبار مجرى الأحداث في النظام الاجتماعي كأنه سبحة تشكل حباتها الأحداث المسجلة في التأريخ. ولذلك أصبح الشغل الشاغل هو إعادة عناصر التوقيت التي تساعد على توضيح تطور الشعوب، مع اهمال كل ما تبقى (الاقتصاد والبنيات الاجتماعية والثقافات).

ومن هنا نشأ ذلك التأريخ التسلسلي الذي يعتمد الانساب والأحداث والذي جاء هز يلا لأنه متجرد من كل لحة تربطه بالحياة. و يوجد انحراف أسوأ، يبدو أنه نشأ جزئيا عن الحكم المسبق بالبدائية على الواقع الافريقي، وقد أطلقت نظرية التطور السطحية. فهو يحلل بنيات خارجة عن الزمن، مهتما بالعمق التاريخي الذي لا يمكن دونه أن يكون لتلك البنيات معنى موضوعي أو شعوري.

وكذلك الشأن بالنسبة لبعض الباحثين المعجبين بكمال العلوم التي ينتسبون اليها. ومنهم اللغويون الذين يرفضون كل ما هو من قبيل التداخل الثقافي، وعلماء الأجناس الوظائفيون الذين ينكرون كل بعد تاريخي. ولكن هذه الأسوار المنيعة بين المواد العلمية أخذت لحسن الحظ تنهار تدريجيا. وفي هذا المجال يقول ج. دسمند كلارك (لقد ثبت أن علماء الآثار واللغويين وعلماء الانسان الثقافي وعلماء الأجناس، يواجهون في أغلب الأحيان نفس المشاكل، وأن أحسن طريقة لحلها تكون في العمل ضمن مجموعة العلوم المتداخلة. وهذا عامل من أكثر العوامل تشجيعا على الدراسات الافريقية اليوم وحشا عليها.. (٢).

ان شبه التاريخ المطبوع بالاعجاب بالترتيب التاريخي فحسب، وبسرار التحليل البنيوي السكوني والشكلي المحض، يضمحل شيئا فشيئا، مثلما تشهد بذلك المدارس التي تدرج التطور الزمني والتفاعل في منهج تحليلها، وذلك بادماج الظاهرة الثقافية والظاهرة اللغوية معا، مثلما فعل كلامي و غريول وهويس، أو بالتخلي عن طريقة الاجتماعيين الجامدة مثلما فعل بلندية، واعتماد طريقة دينامية تتخذ الحركة والمقابلة وسيلتين للتحليل. أليس التناقض جزءا لا يتجزأ من الواقع؟ فالمؤكد هو أنه ليس من مصلحة أي علم كان أن يعالج وحده العالم الافريقي الذي هو على غاية من الكشافة والتعقد. فكأننا نبغي حل المشكلة بضرية حاسمة. وذلك شأن الباحثين الذين يظنون بأنه يمكن العثور في عنصر واحد، على التفسير الأساسي الخاص بهذا أو ذاك من المجتمعات الافريقية، مشلا باعتماد التحليل البنيوي للرقابة، أو نظام التصورات والمعتقدات والأساطير والرموز التي تعتبر

(١) قد يبدو أن الرضاع عملية قائمة على رد فعل. الا أن النظام الافريقي للأدوية كان يشتمل على وسائل لتنشيطه.

(٢) جاك دسمند كلارك: ما قبل تاريخ افريقيا: إمكانيات التعاون بين علماء الآثار وعلماء الأجناس وعلماء اللغة، صدر بمجلة اللغة والتاريخ بافريقيا - قرنك كاس، ١٩٧٠.

متميزة باستقلال ذاتي أو بمنطق خاص، فتكون مستقلة مثلاً عن علاقات الانتاج (٣). وفيما يخص القرابة، فإن تحليلها مرتبط في افريقيا بنظم أقل «صفاء»، وأكثر تعقيداً مما هي عليه باستراليا مثلاً. وتلك بنيات يعتبر لبني سترأوس أنها خاضعة لعناصر أخرى (اقتصادية وسياسية)، تختلف عن القانون الوحيد الخاص بقواعد القرابة.

إن التاريخ الافريقي أقل العلوم احتمالاً للحصار المضروب عليه، ويصدق ذلك حتى على وضع يعتبر فعلاً من خصائص التاريخ، وهو الترتيب الزمني، ففي كثير من الأحيان لا يمكن أن نثبت بالدليل القاطع حل مشكل من مشاكل الترتيب الزمني، إلا بالاعتماد على أربعة مصادر مختلفة: الوثائق المكتوبة، وعلم الآثار، واللسانيات، والتقاليد السماعية. فالمؤرخ الذي يلتفت إلى الماضي يشبه سائق السيارة الذي توفرت له، لتقدير المسافات، آلات متعددة: عداد سيارته، وساعته، والعلامات الكيلومترية، وربما أيضاً أقوال أحد من أهالي المنطقة. إن هذا التأثير الضروري يعتبر فعلاً عنصراً إيجابياً يضمن استعادة صورة الماضي في وضوحها وكما لها، في حين أن مصدراً واحداً قاصر عن استعادتها مكتملة. إن وصف كومبي في كتاب المسالك للبكري يمكن أن يظل ناقصاً لو لم يستخرج الأثر يون الأطلال ولم يفسروها تفسيراً أبلغ مما قاله عنها البكري. ولنصف هنا أيضاً أن التقاليد السماعية لم تكن مفقودة، بل كانت السبب في اكتشاف موقع كومبي صالح، وفي هذه الأحوال، هل يمكن لنا أن نقول بالمصادر الجيدة أو بالمصادر الرديئة، عندما نصفها حسب سلم تمايزي تحتل فيه الوثائق المكتوبة القمة وتنزل التقاليد السماعية المنزلة الدنيا؟ ذلك ما يمكن تصوره. إن قيمة مصدر من المصادر لا تشكل واقعا في حد ذاتها، فهي مرتبطة بالموضوع الخاص المستهدف بالبحث. ففي كل حالة يوجد ضمن مجموعة الروايات المتوفرة لدينا، مصدر محوري ومرجع أساسي يمكن أن يختلف بحسب الموضوع. إن الوثائق المكتوبة لا تعتبر المصدر المثالي بالنسبة لما قبل تاريخ افريقيا، أو بالنسبة للمجتمعات (القرمية) لأن تلك الوثائق مفقودة. إن مجموعة الأدلة التاريخية تخضع، حسب الأزمنة وحسب المناطق الأفريقية، لهذا المصدر المحوري أو لذلك، وتؤدي المصادر الأخرى وظيفة تكميلية أو ثانوية. فالمصدر الأساسي قد لا يكون واحداً إذا تعلق الأمر مثلاً بجماعة مجهولة من قبائل الجيتول، أو بملكة يوغرطا أو الكيردي بشمال الكرون أو قبائل الأشني في بلاد غانا أو قبائل الكابني بشمال الطوكو، أو امبراطورية كاووالتي سجل أحداثها تاريخ الفلانيين فلا يمكن استعمال نفس المصدر من مصادر التاريخ ولا يمكن أن يعتبر أي مصدر أساسياً إلا بعد الانتهاء من التحقيق، لأن المصدر هو الذي يكتف النتيجة، ولكن النتيجة هي التي تبرز المصدر. فإن كان ذلك صحيحاً، يمكن حينئذ أن نقول دون خطأ، بأن منهج تداخل العلوم، في مستوى المادة التاريخية الأفريقية، ليس من باب الترف، بل يعتبر مقدمة من مقدمات المنهج الأساسية. ولذلك لا يوجد بديل لمنهج تداخل العلوم.

## تكامل المصادر

ان مصادر التاريخ الافريقي — لا شك في ذلك — متكاملة الى حد أن كل واحد منها عندما يقتصر عليه، يظهر مشوهاً ويعكس صورة باهتة لا يمكن توضيحها الا اذا اعتمد على مصادر أخرى. ان علم الآثار لا يعدو في حد ذاته أن يكون وصفاً جافاً، ومعاينة قد تبعث على الأسف، خاصة اذا اعتمد على أسلوب مرتجل، انطلاقاً من بعض العينات، ويمكن أن يتباطأ الاكتشاف تباطؤاً مزعجاً اذا ما اضطر الباحث لانتظار حفريات أخرى لتأييد أو تفنيد الافتراضات المقدمة. على أن علم الآثار يمكن أن يقدم خدمات جليلة للعلوم الأخرى التي تعامله بالمثل اذا ما وضع في اطار الحياة المتعددة الأشكال التي يريد الكشف عنها. ان تفسير ما يعثر عليه من اكتشافات يوجد في غالب الأحيان خارج ميدان علم الآثار نفسه. ففي الزمبابوي مثلاً نجد في مناجم الذهب، والدفاع عنها الاعتقادات الدينية، نجد التفسير الصحيح لأغلب البنيات التحتية والبنيات الفوقية. وفي مكان آخر لا يمكن تفسير محتوى القبور ووضعية الموتى في أضرحتهم الا بالاعتماد على معتقدات الناس وتصوراتهم للأخرة. وعلى العكس، اذا كشفت الحفريات بشمال غانا عن تصميم معماري مشابه للتصميمات المعمارية الموجودة بالسودان الساحلي، فذلك يعني أن علم الآثار يضع أو يحل مشكلاً مهماً من مشاكل التأثير الثقافي.

وكذلك الأمر بالنسبة للفن الافريقي الذي يجب أن يسلط عليه ضوء التاريخ ليسلط عليه ضوءه بدوره. فالفن ولا سيما فن ما قبل التاريخ خاضع لعناصر متعددة، انطلاقاً من الجيولوجيا، الى الديانات، والأساطير، وخلق الكون، مروراً بالبنيات الاجتماعية — السياسية وبتمسك الملوك بالسلطة. وفي هذه الأحوال فان الجمال يخضع خضوعاً مباشراً للأخلاق ويخدمها في نفس الوقت. أما الفن، فهو مكان تحفظ فيه تحف الانثروبولوجيا الثقافية، وحتى الطبيعة، نظراً لما يتوفر فيه من الطقوس والتشريطات وتسريحات الشعر، والملابس والمتناظر.

لكن فهم الفن نفسه كوسيلة تقنية ملهمة، لا يمكن أن يتحقق خارج التاريخ. فيمكن مثلاً أن نفسر الأسلوبية بالاعتماد على التنظيم الاجتماعي. ففي بلاد بينان يتولى الفنانون أنفسهم (إيكبي مابتوا) النقش على الحشب والعاج، ويعمل آخرون على الفخار والبرونز. ومن الواضح أن استعمال مادة دون أخرى يفسر على العموم صفات الأواني من العاج أو البرونز. ولا يمكن أن يفسر الرسم الداخلي والصور الخارجية لأواني الفخار طيلة ما قبل التاريخ الا باعتبار كونها قد اخترعت انطلاقاً من سلات التبن المفنول، وما عسانا أن نقول في شأن الأتعة التي استوحاها الأفارقة عند صنعها من خيالهم الفياض، مثال ذلك أتعة بوبو، لاسيما الثلاثة الرئيسية منها: كيلي (القناع العتيق) وكيبي (رأسه رأس الطائر الملك الحزين)، وتيبيلي الذي له ججمة الجاموس. إنها تعبر عن شخصيات حقيقية معروفة بالقرية، فهي من شواهد التاريخ، بل تساهم مساهمة فعالة في صنعه (٤).

(٤) (ان قناع هتاف الغيب الأكبر أو «روح الاله» هو الكوجي الذي يحميه كاهن أكبر يسمى كونولا، ويلعب هذا القناع دوراً هاماً في النظام السياسي لتلك المجتمعات. انه امتداد عملي لعبادة الأجداد، ويقوم بوظيفته ليلاً في السرية الكاملة. ففي حلقات البورو، يؤتى بالقناع الأكبر مسبقاً الى الغابة المقدسة، يغطيه غطاء أبيض. ويقوم الكونولا بدور الرئيس والكاهن، فينطق بالحقيقة التي يوحى بها الأجداد. ويعتبر الكوجي أيضاً مشرعاً لأن قراراته تعلن على الملأ في القرية ولها قوة القانون). أنظر: م. هويس، في: «دراسات غينية» ١٩٥١، ج. ف، ك. و. هارلي ١٩٥٠.

وما عسانا أن نقول في شأن «الكوري» التي أشار ابن بطوطة الى وجودها منذ سنة ١٣٥٢م ببلاط بلاد مالي، وكانت الغاية الأولى منها نقدية، الا أنها كانت تستعمل للزينة عندما ترتب في صفوف ترتيبيات فنيا. ولقد كانت لها قيمة خاصة في الالتزامات الاجتماعية والاحتفالات الدينية. فالفن منغمس هنا في نظام معقد يزوده بالمعلومات التي تبث فيه الحياة. ان الشروع في وضع تاريخ بعض المجتمعات الافريقية دون فهم المغزي من «الكوري» والأقنعة يعني أننا ندخل قاعة وثائق ونحن نجعل كل شيء عنها، وبذلك يكون فهمنا لحركة التطور ناقصا.

ويمكن أن نقول نفس الشيء بالنسبة للتقاليد السماعية (٥) التي وقع الاعتناء بها اعتناء كبيرا في غير هذا المقال. فالتقاليد السماعية، هي التاريخ الحي، الذي ترويه الذاكرة الجماعية مع كل ما يطرأ على ذلك من اتفاق ومن سداجة، وكل ما فيه من طرافة وعذوبة. يوجد في التقاليد ما يوجد في لسان ايزوب من خير ومن شر. ولا شك أن التقاليد السماعية قد لا تهتم بالعناصر الاقتصادية والبنائية. ولكنها تصلح في حالها تلك لاكتشاف مصادر أخرى أكثر تعبيراً من المخطوطات والمواقع الأثرية. ويستحسن أن يشرع الباحثون قبل القيام بعملية حفريات في استقراء التقاليد المحلية، لأنها تساعد أيضا على تصحيح الأخطاء في التأويل الناتجة عن نظرة خارجية مجتة. هي تسمح فضلا عن ذلك بحصر عدد الفرضيات، وتحدد نطاق الاختيارات (٥). فان تعددت الروايات يعتمد مصدر آخر يسمح بحسم المشكلة، وذلك مثلا بمراجعة خريطة المناطق التي وقعت فيها الحادثة المتناقلة بالرواية. ان الطبول التي لها صلة وثيقة بالتقاليد، تعتبر من أمهات الكتب الحية، فبعض الطبول تقوم بدور البشير والنذير، والبعض الآخر يبلغ الأخبار والبعض الآخر يؤدي صراخات الحرب التي تبث الحماس، ومنها ما يقوم مقام المؤرخين الذين يروون مراحل الحياة الجماعية. ان لغتها هي قبل كل شيء رسالة تحمل في طياتها التاريخ. وبخصوص هذا الموضوع، أمكن التمييز بين علم موسيقى الأجناس الداخلي أو الفني وعلم موسيقى الأجناس الخارجي، أي المتصل بالنسيج الاجتماعي والثقافي (٦).

وكثيرا ما تستغنى بالملاحم أو الوقائع الكبرى جماعات منظمة لهذا الغرض وبشكل خاص في افريقيا، وذلك في أداء يشترك فيه الجميع مشاركة حية، ان الموسيقى لا تسمع أبدا سماعا سلبيا لأن الجماعة كلها تؤثر فيها. فهي حفلة جماعية يدعون فيها الثلاثي المتكون من الغناء والرقص والموسيقى الى التأويل التركيبي، اعتمادا على اللسانيات، والتاريخ، وعلم النبات، وعلم النفس

(٥) تستعمل في هذا الكتاب أيضا عبارة الشفاهي لترجمة (ORALE) وهي ترجمة صحيحة ولم أغيرها بمراجعتي لهذا الجزء وأرى أن التعبير سماعية أحسن (تعلق المراجع محمد القاسي).

(٥) لا بد أن ننزل التقاليد منزلتها. فلقد حدد بعض الباحثين في ٧ جداول اعتمادا على لوحة منهجية مفيدة للحكايات والسبع المعطيات الداخلية للحكاية (لا سيما الدلالية والبلاغية منها) ومعطيات الخارجية التي يرتبط بعضها بالسياق الثقافي والحضاري. أما البعض الآخر فهو يوجد خارج هذا السياق. انظر: الآداب السماعية العربية والبربرية، النشرة الرابعة للاتصالات ١٩٧٠، مركز الدراسات المغربية، متحف الانسان بباريس.

(٦) ان الباحث الذي يسلك هذا المنهج، يستطيع أن يصل الى ميادين عديدة أكثر اختصاصا: من ذلك علاقات الموسيقى باللغة، والرموز الاجتماعية والفلسفة التي لها صلة بالموسيقى، وعلاوة الايقاعات بمظاهر المس الجنوني، وعلاقات الموسيقى بالهبط الاقتصادي والمناخي والعلاقات بين أنواع الموسيقى من مختلف الأجناس: انظر: سيمها أروم رئيس كونستانت، في كتاب «دليل البحوث - أفريقيا السوداء»، د. مارتين وت. يانوبولوس. الناشر: آرمان كولان، باريس، ١٩٧٣.

الاجتماعي، وعلم النفس العام، (والفيزيولوجيا) والتحليل النفسي، والدين الخ. ودون أن نعقد الآمال العريضة على علم الموسيقى التاريخية، فإن الدراسة المقارنة لآلات الموسيقى ومادتها باعتماد قياسات رياضية يعالجها التحليل الاحصائي، تستطيع أن تفيدنا بنتائج مقنعة فيما يتعلق بنشر الثقافة وتطورها. إن عالم النغم الافريقي يتقلص أمام غزو موسيقى كثيرا ما تكون أقل منه ثراء، وتروجها نظم اقتصادية أكثر منه غنى. فهل سيصبح طبل الطام الذي صنع التاريخ في حذ ذاته موضوعا من مواضيع التاريخ؟

أما اللسانيات، فانها قد أصبحت رفيقا جديدا أميناً وثريا يلازم التاريخ، لأن التقاليد محفوظة في الأجناس وفي المتحف الحي للغات التي يجب أن نحصل عليها لنستخرج منها «اللب المغذي». فكل لغة ابتداء فكري، وهي كذلك ظاهرة اجتماعية. ان مفرداتها تعكس مثلاً وجوها من الواقع قد صهرها تاريخ كل شعب. وبالمقابل فإن اللغة والكلمة، يدرجان في عقليات الشعوب وحواضرها نظاماً من التصورات والمعايير التي تهذب سلوكها. ويعسر أن نعبر تعبيراً متشابهاً عن بعض تلك التصورات بلغة لها صلة بسياق اجمالي مغاير، ومن الأمثلة على ذلك فكرة (سانا كوبا) في لغة الماندي، وفكرة (راكيري) في لغة الموري، فيمكن ترجمتها بـ «قربة فكاهاية». وهو معنى له دور تاريخي على غاية من الأهمية في المنطقة السودانية الساحلية. وذلك أيضاً شأن كلمة (دياتيكي) بالماندي التي لا تعبر فقط عن مجرد معنى (المؤجر للسكن). أما كلمة (تنكصوبا) فانها تعبر حرفياً فقط عن معنى «رئيس الأرض». ان المؤرخ محتاج دوماً الى النقد اللغوي وإلى مساعدة مصادر أخرى. وهكذا فإن الترتيب التاريخي والبحث عن أصل الآثار الدائرية الشكل ببلاد لوي ناشان عن توافق أدلة تتنافى وتتآزر: فهي تدحض الفرضية التي تعود بها إلى أصل برتغالي والتي تعتمد نصاً لباروس وهذا يخالفه تخطيط الطريق الذي له دخل في الموضوع، كما يخالفه معانية غلاف التلبس الذي لا تسمح لنا حدائته بأن تعود به إلى تاريخ قديم، ويمكن ان نعتد تسمية (ويي وبيرفور) لتلك الآثار (كول ناوو) أي (مرابط بقر الأجانب). ويمكن التعرف على هوية هؤلاء الأجانب في شخص قبائل (كولانكو) اذ أخذنا بعين الاعتبار أسلوب آنية الفخار الموجودة بالآثار، كما لنا أن نقومها باعتبار الترتيب التاريخي الذي فصله بتقاليد هجرة شعوب المنطقة. وهنا نلمس الدور الأساسي الذي تلعبه اللسانيات في محاولة تأويل حدث تاريخي معين (٧).

ولا يجوز — لكي لا نقع في خطأ فاحش — أن نخلط بين الظاهرة اللغوية وهي ظاهرة ثقافية، وبين الظاهرة القبلية، أو المظهر البيولوجي الخاص بالجنس البشري. يبدو أن لغة فرسان داكوميا الذين غزوا وادي الفولطا في القرن الرابع عشر الميلادي قد انقرضت وحلت محلها لغة النساء كوساسي اللواتي تزوجوهن في عين المكان وأصبحن أمهات أبنائهم — وهذه عدوى لغوية قد وقعت كما يحدث أحيانا على حساب من كانت بيدهم مقاليد الحكم السياسي. أما تاريخ الأجناس المقصور على الحاضر المحط الذي يعتمد الوظيفيون، فانه ليس تاريخياً بآتم معنى الكلمة ولا يمكن له أن يلعب دوراً إيجابياً في هذا التفاعل بين المصادر، حيث لا يشكل كل واحد منها عنصراً ستاتيكيًا بل عنصراً متحولاً يحمله مجرى النظام التاريخي. ان تاريخ الأجناس الوظيفي، كثيرا ما يتهاون

بالشفافات المادية وبتملك الحركة العامة للمنتجات التي يعتبرها لوروا كورهان أساس الحضارات. أوليس العدد الزوجي في التجارة عبر الصحراء (ملح مقابل ذهب السودان)، الذي عوض بعد عدة قرون بالعدد الزوجي (السجناء مقابل النادق)، أهم الأسس التي شيدت عليها ممالك الغرب الأفريقي وامبراطورياته؟

وفي هذه الأحوال يشكل علم الاجتماع الدينامي مجالا أساسيا يحسن أن يطبق فيه حكم النقد التاريخي الأفريقي. ان الأمر لا يتعلق بأن ننقل في المكان أو في الزمان أدوات تحليل لنسيج اجتماعي سياسي معين، بدون دراسة، الى نسيج آخر، لأنه يخشى أن نعدد المشاكل أكثر مما نحل منها. ففي ما يتعلق بضبط المعدلات لدوام عهد الملك، لا يمكن لنا بالنسبة لفجر التاريخ أن نتصور دون حذر، مدة وسطى تُستنتج من فترة معاصرة معروفة لأن الاستقرار أو عدم الاستقرار السياسي والشفافي غير متشابهين بالضرورة. ولا يمكن في نفس الحالة المتعلقة بالوراثة الجانبية (أخ عن أخ) المستحبة في مملكة موسي من ياتنكا أن نفيدها بمعدلات تشابه معدلات مملكة واجادوجو حيث أن الوراثة المستحسنة تجري مباشرة (ابن عن اب). ان المدة الوسطى لعهد الملك في واجادوجو تدوم أكثر ويكون فيها عدد الأجيال أوفر. ويضاف الى ذلك إمكانية الأخذ بالاعتبار العناصر الدينية في الموضوع. ويكون معدل مدة عهد الملك أكثر طولاً اذا اعتبرنا سلالات ملوك كان (كان ماسا) الذين كانوا ينتخبون من بين الرجال الراشدين والأصغر سناً، وهذا يعني انه لا يمكن تحديد الخط الأفقي الزمني بمعزل عن معرفة علم الاجتماع السياسي الخاص بقطر معين. ان مفهوم الاستقرار ليس نموذجاً جاهزاً يطبق دون تحويل على جميع الفترات وجميع الاقطار. فمن الممكن أن يكون الاستقرار ظاهراً وأن يقدر بشمن اجتماعي ثقيل جداً. ففي أثيوبيا وكذلك واجادوجو، كان يضمن استقراراً نسبياً بالقضاء على المرشحين الخائبين والوراثة الجانبيين أو نفهم، مما يتسبب في دفع ثمن باهظ من الضحايا البشرية التي يجب على التاريخ أن ينظر اليها بأنها من عوامل عدم الاستقرار حتى يوفر تفسيراً مفيداً لتطور تلك الاقطار.

ويمكن أن نعول أيضاً على العلوم الطبيعية والدقيقة من أجل الإحاطة بصورة الماضي الأفريقي أو تدقيقها، وذلك بالعقل الالكتروني لمعالجة معطيات مرقمة، وبالطرق التقنية، والفيزيائية والكيميائية والبيوكيميائية لوضع التواريخ، وتحليل المعادن، والنباتات والمواد الغذائية، والماشية والدواب، وبعلم الأوبئة والكوارث المادية المتصلة بالمناخ الطبيعي. وليس غريباً أن يعنى عناية كبرى في التقاليد الأفريقية بالمجاعات التي يؤرخ بها، مثلها في ذلك مثل الحروب. ولا شك أن دور العنف بافر يقياً كان يشابه، في تطور القارة، دوره في تاريخ قارات أخرى. الا أن المستوى التكنولوجي الضعيف قد قلل من حدة وقعه المطلق، وان كان وقعه النسبي قد تضخم، إذ أن تقدم شعب على آخر بعض الشيء في هذا الميدان كان يكتسي معنى كبيراً. ألم يكن اختلاف الأسلحة حاسماً في بسط هيمنة الأشوريين على مصر، وملوك غانا الأولين وتشاكا الزولو؟ من واجب علم الإحصاء أن يقدم مساهمة مهمة مدعومة بالأرقام، ومن دونها تأتي وجوه الواقع مشوهة حتى في مستوى الكيف، لأننا نستطيع أن نقول، انطلاقاً من مستوى معين، بحصول وثبة كيفية فيما يتعلق بطبيعة الظواهر، اذ لا يمكن أن تتشابه طبيعة بنيتين لشعبين أولهما يشمل ١٠ ٠٠٠ نسمة والآخر ١٠ ٠٠٠ ٠٠٠. ان الخطأ التاريخي عندما نتحدث عن الغزوات، والأسلحة الأفريقية في القرن



الرابع عشر الميلادي، يمكن في تصور تلك التحركات حسب منظار القرن العشرين. لذلك فان المرجع الاحصائي يساعد، ولو باعتبار تقديراته التقريبية، على وضع الأشياء في نطاق سلم من الحجم الطبيعي يكون أقرب الى مجرى الحوادث الواقعي.

لا يستطيع علم الحرب الافريقي أن يساهم مساهمة مفيدة في تاريخ افريقيا اذا لم يربط بالدين الذي له به صلة وثيقة، لأن فن الحرب كان جزئيا مجابهة سحرية. فيكفي أن ننظر الى لباس البوري ندياي الحربي الموشى بالحرور لنقتنع بهذا الأمر. ولقد استمرت هذه التقاليد جارية حتى عند الجنود الافريقين من صنف المشاة أثناء الحربين العالميتين.

أما الانثروبولوجيا الطبيعية، فيمكن من جهتها أن تسهم في وضع تاريخ صحيح. ان الأساطير العنصرية، من أمثال النظرية الحامية المعتمدة على مظاهر واهية، قد غفلت هذا الميدان من البحث. ولا يمكن أن يظهر فعلا إلا بالاعتماد على منهج تداخل العلوم الذي تشترك فيه أدلة متنوعة تقود الى الحقيقة. فيمكن للرسوم الجدارية فيما قبل التاريخ أن تثير طريقتنا الى بعض الاكتشافات، شريطة ألا يخلط بين نمط المعيشة مثلما يظهر على سطح صخرة، وبين الجنس، لكن لا ننسى أن تشويه الهيكل العظمي، وتطويل الجمجمة اللذين كانا جارين عند المانكييتو، متصلان بنمط المعيشة والثقافة. فإذا استطاع التحليل المصلي ان يساعد على رفع الالتباسات، فانه من جهة أخرى قد أفادنا أن الفئات الدموية قابلة للتكيف مع البيئة وذلك ما يبينه أثر العامل البيولوجي الحاسم على الجنس البشري الذي لا يمكن إدراكه على حقيقته — مثله في ذلك مثل جميع الأشياء المتصلة بالتاريخ — الا بعد وضعه في مكانه بين الطبيعة والثقافة، مروراً بعلم الأحياء. وقد كان للطبيعة الافريقية وقع شديد على التاريخ ولهذا وجب — دون أن تقع في حتمية ميكانيكية — ألا ننسى الأحوال الجغرافية أبداً (٨).

فلا يمكن أن ندرك خاصية الثقافات وتطور ما قبل التاريخ بافريقيا الوسطى الا بالتفكير في وجود الغاب الكثيف الذي يذكّرنا بأثر المكان في الزمان (٩). فكيف يمكن لنا أن نتحدث عن سكان نهر النيل الأولين دون أن نعتمد على شكاله الأرض (الجيومورفولوجيا) وعلم المناخ الأحاثي (بليوكليماتولوجيا) (١٠).

## وكيف ذلك؟

وهكذا فان تداخلات العلوم وتفاعلاتها التي يحتاج اليها من يؤرخ لافريقيا، كثيرة. لكن كيف يمكن أن نعد لهذه المعركة التي تشارك فيها علوم متباينة تريد كلها أن تكشف عن وجه افريقيا القديمة.

(٨) «الطبيعة تجود والانسان يقرر» ذلك ما كتبه فيدال دي لا بلاش أو كما يقترح ب. تيلاردي شردان الذي يقول «أليس التاريخ عندما ينظر اليه من على أكثر فصول التاريخ الطبيعي حداثة».

(٩) انظر: هـ. لوفير ١٩٧٤. وهو كتاب رصين يعالج فيه المؤلف نظرية موحدة للمكان. (الفيزيائي والعقل والاجتماعي).

(١٠) إن إعادة أساس الحمية التي توفر بعض المعطيات عن الديمغرافيا وعن مدة الاستيطان بموقع من المواقع، يمكن أن تستخرج من اختبارات كيميائية تجري على الكلسيوم، والفوسفات، واللحاح والبروتينات. ويسمى علماء اللقاح لتكوين مصروف للقاحات الافريقية.

يمكن لنا أن نتصور نوعاً من التعاون البسيط المقتصر على ضبط بعض الأهداف المشتركة، تاركين لكل واحد السير حسب مشكلية علمه الخاص، أملاً في الالتقاء عند خط الوصول لمقارنة النتائج. ويبدو أن هذه الاستراتيجية غير مرضية لأنها لا تقتضي على جميع العراقل الخاصة بكل علم، بدون أن نستفيد من فضائل كل منها، وكان من الممكن أن نستفيد فائدة كبرى من تعاونها الوثيق في الأساليب. وعلينا أن نفضل على تداخل العلوم التصاقاً، تداخلها تطعياً للطرق والعلوم. ويجب أن نتخذ قراراً مشتركاً يضع استراتيجية عامة للبحث ومراحله التكتيكية. وينبغي بعد الاتفاق على التساؤلات الأساسية في تعقدها الأصلي، أن نوزعها على فئات، بحسب ما يلزم من تدخل هذا العلم أو ذاك. ويجب أن توضح بعض الأمور أو أن تجمع بعض الآراء، في آجال تحدّد ويطلب من الدوائر المعنية بالبحث، فتكون أنواع من الندوات التي تطرح المشاكل في صور جديدة حسب ما يقتضيه تقدم الطريقة المشتركة. وتوضع عند الاقتضاء برامج طارئة وتضاعف الجهود عندما تظهر عقد أو عراقل في المسيرة. إن هذا التعاون الدائم، أو هذا البحث عن التعاون يستوجب مديراً يدير مجموع العمل أو البرنامج. ولكن يمكن أن يعيّن مسبقاً رؤساء مختلفون لمختلف فترات البحث، باعتبار أن حالة ما تستدعي رئاسة لغوي، وأن حالة أخرى تستدعي رئاسة اجتماعي الخ. فمثل هذه الاستراتيجية المتداخلة الاختصاصات كفيلة بأن تثرى ثراء كبيراً طريقة كل علم وبأن تجعل أثره محموداً على الموضوع المشترك من البحث. فهي تجنبنا من أن نتيه في المزالق، وتفتح مجالات ثرية وتوفر طرقاً موجزة سريعة. إن مثل هذا البحث الجماعي الذي يدعو المؤرخين والاختصاصيين في علم الإنسان، وفي الفن، وعلماء النبات، إلى النزول إلى المواقع مع الأثرين، يظهر في مظهر شبكة صيد ضخمة تزيد مادة الواقع التاريخي اتساعاً وعمقاً. وذلك يفرض أن تتكيف مع هذا النوع من العمل بنيت معاهد الدراسة الأفريقية التي يوجد منها عدد كبير. كما يفرض ذلك أن تسود بين الباحثين أنفسهم روح جديدة.

فأهو عندئذ هدف هذا المسعى؟ هو أن يستعيد الأفارقة ماضيهم ويشعروا به، وهذا الماضي لن يكون صورة عن الحياة الغابرة، بل يجب أن نستعيد مشاهدته بطريقة الإسقاط، كما كان الأمر في كهف أفلاطون.

والملاحظ أن الحياة أساساً اندماج وتماسك وتلاحم بين قوى مختلفة حول مشروع مشترك. فالموت يفيد التلاشي، والانقضاء. والحياة الفردية أو الجماعية ليست وحيدة الخط، ولا وحيدة البعد. فهي نسيج كثيف وتماسك. ويحدث أن يعتمد أحد الكتاب الرواية التاريخية (في ظروف أسهل طبعاً) وأن يبلغ الهدف من هذا المشروع الذي قل أن حققه المؤرخون، ونعني بذلك إحياء الماضي. ويمكن لأساتذة في التاريخ والاقتصاد، وعلم الاجتماع الخ... أن يجدوا مادة للدرس مشتركة في تلك اللوحات الحية مثل رواية أعتاب الغضب لستاينباك والمصير الإنساني للمارو أو تشاكا، ل. ث. موفولو.

يجب إذن أن نتحاشى الوقوع في أدب الرواية، وأن نهدف إلى استعادة الماضي بهذا النوع من الكشافة، لأن الحياة الواقعية أكثر إثارة من الرواية. إن الواقع يتجاوز بكثير الخيال، لأن كل حركة تاريخية تستوحي في نفس الوقت من كل مظاهر الواقع الاجتماعي. والاستعادة التاريخية التي لا تأخذ بعين الاعتبار كل هذه الجوانب، تكون في الواقع استعادة نافية للتاريخ، بل تكون على الأقل

تاريخنا آخر، فهي عندئذ نظرة متحيزة لأنها جزئية. ويمكن فعلا أن نركز على نقطة دقيقة من اللوحة التاريخية لنصنع منها مظهرا ضخما، ولكن شريطة أن لا ننسى أنه جزء من اللوحة التي لا يمكن دونها أن يدرك إدراكا كاملا. وتنطبق هذه الملاحظة أكثر على مجموع اللوحة. ان الأحداث التاريخية الكبرى، مثل التوسع السندي بالغرب الافريقي، ناتجة عن لقاء، وعن توافق بين القوى: أي التكنولوجيا، والجهاز المادي، والتجارة، ومزايا اللغة، وأهمية التنظيم السياسي، وحساس الشعور الديني. إن السعي، حسب العادة، الى تفضيل السبب الرئيسي تفضيلا مجحفا قبل محاولة فهم جميع الأسباب الأخرى في فيضها الحيوي، هو كمن يبني صرحا بخياله، عوضا عن السعي الى استعادة الماضي عقليا. ان هذا الادراك الشامل للتاريخ المتعدد المصادر أكثر وجوبا بالنسبة لمجتمعات فيها الحياة أكثر اندماجاً. وأقل انفصالاً مما عليه في الأقطار التي أدى فيها الانشقاق الى طبقات متنافرة. ولعله قد وقع التسرع بالنسبة لافريقيا، في تمييز المجتمعات التي لها دول، عن المجتمعات التي خلت منها وذلك بتحديد النوع الثاني باعتبار المعايير الخاصة بتجربة إفريقيا الجماعية (١١). وربما نسي البعض أن انعدام الطرقات المسلوكة، والادارة البيروقراطية، واختيار المسؤولين عن قصد للمركزية في البلدان الافريقية، بل حتى في امبراطورية مالي، كل ذلك، كان من نتائجه أن الحياة الحقيقية لمعظم السكان كانت تجري خارج نطاق (الدولة)، أي في القرى المتمتعة منذ القديم باستقلالها، اذ لم تكن مرتبطة بالحكم المركزي لا بعلاقة اقطاعية متمثلة في التبعية له، ولا بواقع محسوس متمثل في الطرق المعبدة والسكك الحديدية، ولا بوجود أوراق الضرائب والقرارات الصادرة عن الوزارات أو الولايات. واذا تجاهلنا هذا، فاننا نكون قد ألزمتنا أنفسنا أن ننظر الى تاريخ افريقيا نظرة سطحية، على أساس أنه حلقات من الملوك والأمراء الذين لا نعرف أحيانا من مآثرهم سوى حادثة أو اثنتين، في عهد قد يدوم ١٥ أو ٢٠ سنة، فلا يكون منا بعد ذلك الا ان نعدها حلقات من حياة الشعوب. ان حياة الشعوب الافريقية في أغلبيتها العظمى كانت حياة المجتمعات المتكاملة أو المستقلة بأمورها، فإما من شيء الا ويعالج داخلها، ابتداء بصنع الأدوات، الى العوائد الزراعية، مروراً بطقوس الحب والموت. ومن هذه الناحية، فإن المجتمع الإفريقي المعتقد للحياة ليس أقل تكاملاً من المجتمع المعتقد للإسلام، فهذا المجتمع لم يكن لاثكيا لعدة اعتبارات: فلو اعتبرناه لاثكيا لحذفنا جزءا مهما من الواقع. وبصفة عامة فإن المركزية موجودة أيضا في تلك الأقطار. ولكنها ليست مركزية الدولة العصرية (١٢)، التي تكاد تكون هي الثمن أو هي الدواء للتقسيم الجنوبي للعمل الاجتماعي، وكثيرا ما كانت مثلاً عند السنوفو (بورو) واللو (ديورو) والديولا تلعب دورا مركزيا بتنظيم حوله الحياة الجماعية كلها. ولذلك شيدت فيدراليات حقيقية في القرى حول معبد أو ديانة مشتركة مثلها هو الشأن في بلاد سامو (فولطا العليا) وفي بلاد ايبو.

والملاحظ أن الأقطار الافريقية التي ظلت فيها القوى المنتجة في مستوى منخفض، تتميز على العكس بنشاط ثقافي يكاد يكون خارقا. فكل لباس تحفة وإن كان الخضوع للطبيعة يكاد يكون

(١١) انظر في هذا الصدد ماكي ج، ج، ١٩٦١. ان المؤلف يستعمل بالتناوب التحليل الاقتصادي والاجتماعي والسياسي سعيا الى تحديد «مثال» يطبق على مجتمع السوكا.

(١٢) وأكبر دليل على ذلك القصة التي رواها ابن بطوطة عن شعب البوري الذي حاول امبراطور مالي عبثا أن يدبجه، ثم انتهى به الأمر الى الاعتراف باستقلاله الثقافي.

كليسا. ان أثر الفن واضح في كل آلة وكل أداة. فحتى التشريطات الجسمية العميقة أو السطحية، تدخل على خاصية عرقية أو تعبر عن غاية جمالية. وهذا شأن نقود الحديد (الكينزي) المستعملة عند قبائل لوما (طوما) والكيسي والكونيانكي، والمندي والكورينكو في سيراليوني وليبيريا. إن الكنزي كانت بلا شك تؤدي وظائف كثيرة: النقود، وحماية المساكن والحقول، وإيواء أرواح الموتى والأجداد. ولا يمكن دون خطأ أن نحصرها في بعد واحد من أبعادها. ان هذه المجتمعات الكاملة تستوجب تاريخا شاملا يكون على قدرها. فيكون تداخل العلوم أحسن طريقة للتعبير عنه. وذلك ما يدل عليه مؤلف د. طايست المتخصص في علم الانسان (الانتروبولوجي)، وج. فاج المؤرخ، حول قبائل كونكومبا، والمنهج التركيبي الذي اعتمده جاك بيرك لدراسة التاريخ الاجتماعي لقرية مصرية (١٣)، وفي هذه الأحوال فإن المنهج الشامل يفرض طريقة تأخذ بعين الاعتبار كل العوامل الخارجية وكذلك العناصر الداخلية وهي تفرض أن تتجاوز الحدود الأفريقية لتستوعب الشخصية الأفريقية الاسهامات الآسيوية والأوربية والأندونوسية والأمريكية. فلا يمكن أن يكون ذلك في شكل توزيع سطحية لأنه وأن وجد تدخل خارجي، فإن القوى العاملة في الداخل تستوعبه وذلك ما يستفاد من حكمة الفلاسفة المدرسين: (ان كل ما يؤخذ يؤخذ بقدر سعة الظروف وشكله). وهكذا تأقلم الرز الآسيوي في المكان الذي كان يوجد به الأوريزا (ORYZA) الأفريقي الأهلي وذلك شأن البانتوي حيث كان يوجد الإينيام (IGNAME). ان الثقافة الأفريقية تبدو كأنها تشكيلية بدیعة من العوامل. الا انه لا يمكن أن نلخصها في مجموع تلك العوامل العددي لأن تلك العوامل لا تضاف ولا ترتب ترتيب السلع بمتجر. فالثقافة الإفريقية هي كل ما يستوعب العناصر المكونة ويعولها. ان المثل الأعلى بالنسبة للتاريخ الأفريقي ينحصر في الاعتماد على جميع تلك العناصر ليعبر عن الثقافة نفسها في تطورها الدينامي. وذلك يعني في النهاية أن منهج تداخل العلوم يدعو الى وضع مشروع يشمل جميع العلوم.

## الاطار الزمني للمراحل المطرية والجمودية بأفريقيا

القسم الأول

رشدي سعيد

ان هدفنا هو أن نقدم عرضا عاما عن بعض التغيرات الفيزيائية التي حدثت بالقارة الإفريقية في البليستوسين والهولوسين من العصر القديم أو من العصر الحديث. فلقد طرأت في تلك الحقبة التي تقارب مليوني سنة تحولات كبرى على المناخات والبيئات الأرضية. وأخضعت سلسلة من الحوادث المناخية الرئيسية التي وقعت أربع مرات في ذلك العصر، خطوط العرض الشمالية لتمدد طبقات جمودية وتقلصها (نجمدات جونز ومندل وريس وورم بيجال الألب). وتشكلت أودية وسطوح نهريّة، كما تشكلت السواحل الحالية وطرأت على الحيوانات والنباتات تغيرات هامة. وتفرعت أشكال ما قبل الإنسان انطلاقا من جذع المقدمات وذلك في مطلع الهولوسين. وعثر على أقدم الأدوات المشخصة في حدود البليستوسين الأعلى. ويبدو أن تطور الثقافة، ابتداء من ظهور الإنسان كحيوان ثديي يستعمل الأدوات، قد تأثر إلى حد بعيد بالعوامل البيئية التي اختصت بها المراحل المتوالية من البليستوسين.

ان الرأي القائل بأن الجموديات كانت في عصور متعددة من البليستوسين أكثر امتدادا مما هي عليه الآن، قد أصبح بأوروبا، مفهوما مقروءا، وسرعان ما اتضح أن تلك الفترات من تدهور حالة المناخ في أوروبا لم تكن ذات طابع محلي. ولقد دلت الأبحاث المنجزة في القارة الإفريقية مثلا، ان هذه القارة خضعت أثناء الهولوسين لتحولات مناخية كبرى. ونحن، وان كنا لم نستطع بعد أن نضبط بطريقة قطعية صلتها بالأحداث التي طرأت بأوروبا وغيرها، فانها مربوطة بها إلى حد بعيد وذلك بصفة لا تزال تستوجب الاستكشاف.

ولقد تحسنت في العقد الأخير من السنين تحسنا مهما امكانيات وضع ترتيب تاريخي

للسينزويك الحديث والبليستوسين، وفقرت التنقيبات في أعماق البحار معلومات مفيدة جدا تم حوادث رسوبية متمادية نوعا ما تذكر بأحداث القسم الأخير من تاريخ الأرض. ولقد ساهمت الدراسات المتعددة الجوانب والمفصلة لعينات ترابية حصل عليها ضمن هذه البرامج، وكذلك التقدم الحاصل في علم الجغرافية الفيزيائية وخاصة الدراسات الجغرافية المغناطيسية، وتحسن تقنيات قياس قوة الأشعة، كل ذلك ساهم مساهمة كبرى في وضع تاريخ دقيق بعض الشيء لتلك الحقبة. والطريق مازال طويلا في هذا الميدان لأنه لم يتيسر إقرار صلة نهائية بين أحداث مختلف العهود. إلا أن الترتيب الزمني لأحداث أقسام تاريخ الأرض، يعتبر من أحسن ما تم إثباته، حتى وإن اختلف الاختصاصيون في شأن تحديد البليستوسين نظرا للالتباس الكبير الناشئ عن تصنيف الأنواع الطباقية، من البليوسين والبليستوسين، وذلك باعتبار القطعة المدروسة اعتمادا على الأعماق البحرية. ونشير فيما يلي إلى التصنيف الذي سيعتمد في هذا الفصل. إن الترتيب الزمني الجغرافي المغناطيسي الخاص بالـ ٥٠٠٠٠٠ سنة الأخيرة يبين أن الحقل المغناطيسي الأرضي قد كان بالتناوب «عاديا» و«مقلوبا». ولقد وقع انقطاع في تلك العصور المختلفة نتيجة «أحداث» طفيفة تميزت بالقلب. والعصور المعنية هي، تنقلا من أحدثها إلى أقدمها: برونس (— ٠٦٩ مليون سنة) ماتوياما (— ٠٦٩ — ٢٤٣ مليون سنة) كوس (— ٢٤٣ — ٣٣٢ مليون سنة) وجليبار (— ٣٣٢ — ٠٤ مليون سنة). ولقد اختص الفاصل المغناطيسي لجليبار وكوس بتدهور كبير في المناخ، ويمكن ملاحظته في مناطق عديدة من الكرة الأرضية (انظر في هذا الشأن هايس وآل ١٩٦٩). وتوافق هذه الفترة الباردة بداية تجمد نيباسكا والشاهد على ذلك خليج المكسيك، وكذلك ظهور رواسب جمودية بالمحيط الأطلسي الشمالي وظهور الحيوانات البرية في الفيلافرنشي المتوسط. إن هذا الحدث يدل على بداية البليستوسين، اعتمادا على بعض المؤلفين الذين يعتبرون أن بداية تدهور المناخ هي الحد الفاصل بين البليستوسين والبليوسين. إلا أن اعتماد هذا الحد يتنافى توصية مؤتمر الجمعية الدولية لبحوث الدهر الرابع المنعقد في ١٩٥٥، لأنه يفيد أن المجموعات الحيوانية الخاصة بالمقطع الكلاسيكي كاستيلار كواتر، خارجة عن البليستوسين. ولعله من الأفضل أن نضع الحد — في ١٨٥ مليون سنة، ذلك ما يوافق أساس الكلابري والحدث المغناطيسي للأولدواي أي من عصر ماتوياما. ولقد دلت أبحاث حديثة على أن تلك الحقبة كانت حقبة تميل إلى الدفء ولم تكن حقبة تبرّد. فتكون التجمّعات الكبرى الأولى من البليستوسين بخطوط العرض المعتدلة قد وقعت حوالي ٥٠٠٠٠٠ - خلال فاصل برونس - ماتوياما. وهذا التجمد يوافق تجمد جونز الألي. وعلى هذا الأساس يمكن أن يقسم البليستوسين إجمالا إلى قسمين، يكون أحدثها الحقبة الجمودية و يكون أقدمها بليستوسينيا ما قبل التجمد. ويرجع تجمد ريس الألي إلى ما بين ١٢٠٠٠٠ - و ١٣٠٠٠٠ - ويتدئ تجمد وورم في ٨٠٠٠٠ -. ويمكن أن نعتبر أن هذا التجمد الأخير من أحسن ما ضبط تاريخه ودرسه. ولقد دام حتى الهولوسين الذي حدد بحوالي ١٠٠٠٠ -.

إننا نسعى في هذا الفصل، كما أشرنا إلى ذلك سلفا، إلى استعراض أهم التغيرات التي طرأت على القارة الإفريقية تأثرا بالتحوّلات المناخية في البليستوسين. إن القارة الإفريقية تشمل بيئات عديدة متميزة قد تأثرت كل واحدة منها حسب طريقة معينة ودرجات مختلفة بالتغيرات الجغرافية المناخية الكبرى في البليستوسين. ولذا سنفحص هذه التحوّلات باعتماد أطار المناطق المناخية

الأساسية الحالية من القارة الإفريقية التي يمكن تصنيفها الى نوعين: المناطق الاستوائية وفوق الاستوائية والمناطق المدارية، وفوق المدارية.

## المناطق الاستوائية وفوق الاستوائية

تشمل المنطقة الاستوائية حالياً حوض الكونغو بغربي افريقيا الذي يختص برياح قليلة التحول، وباختلافات فصلية طفيفة في مستوى الحرارة والرطوبة الجوية، وبالأعاصير أو الزوايع الرعدية المطرده. وتغطي هذه المنطقة حالياً غابات ذات طابع خاص. أما المنطقة فوق الاستوائية فهي تشمل أكبر جزء من وسط افريقيا وهي تختص بوجود كتل هوائية من النوع الاستوائي في الصيف وبكتل هوائية من النوع المداري في الشتاء. وفصل الشتاء غير ممطر، مع زيادة طفيفة في البرد على فصل الصيف. ويشمل الجزء الأكبر من هذه المنطقة جهات تنشأ من رطوبتها الوفيرة نباتات السبب المداري الا أنه يوجد بالحواشي الجنوبية والشمالية حالياً نباتات السهب المدارية.

ان تقلبات الأمطار بتلك المناطق مدة البليستوسين تسمح بأن نقسم ذلك العصر الى سلسلة من الممطار يات والممطار يات البينية. وتعرف الممطار يات باسماء الكاكيري والكاماسي والكنجري والكنبلي التي تعتبر نظريات التجمدات الأربعة الكبرى بنصف كرة الأرض الشمالي. الا أن هذه الصلة تحتاج الى برهان. ولقد اختص الهولوسين بفوق ممطارين، يسميان الماكالي والناكوري.

تتميز الممطار يات بتكدس أكبر للرواسب البحرية وبارتفاع في الخطوط الساحلية التي بقيت في أحواض متعددة مسدودة بسبب توسيع البحيرات الموجودة. وتتميز الممطار يات البينية بتزايد نشاط الرياح. ففي هذه الأثناء تنقلت الرمال الريحية، أو توزعت الى أقصى الجنوب من الحد الشمالي الحالي من التلال المنقلة، وصاحب ذلك تغيرات عميقة طرأت على النباتات. وتمتاز قم بركانية عديدة في تلك المناطق بجموديات توجد بمرتفعات هي دون الحد الحالي للثلوج الدائمة، مما يدل على وجود مناخ أكثر بردا في بعض الأوقات في الماضي. وستقدم في الفقرات التالية أمثلة عن هذه التغيرات التي طرأت بافريقيا الاستوائية وما فوق الاستوائية.

## الأحواض البحرية بافريقيا الشرقية

تعتبر افريقيا الشرقية، لا سيما في أحواضها البحرية، منطقة نموذجية للمناطق المطارية وبين المطارية المقترحة لوصف تطور افريقيا فوق الاستوائية. توجد بحيرات افريقيا الشرقية في مجموع أغوار الأنهدام الافريقية، وليس للبحريات التي تملأ أعماق القسم الشرقي مخارج باستثناء بحيرة فكتوريا وتوجد في مناخات أكثر جفافاً. وخلافاً لذلك فان بحيرات القسم الغربي مملوءة الى حد الفيضان.

و يبدو وبديها من أول وهلة أن دلائل ارتفاع المستويات البحرية في منطقة معرضة للزلازل — كما هو الشأن بافريقيا الشرقية — توحى بفرضيات، ولكن لا تسمح باستخلاص النتائج. ينبغي أن نتصور في تلك المنطقة التي هي على غاية من الاضطراب امكانية تنقلات في بنية الأديم، وتغيرات في مستويات فيضان البحيرات، وانقلاباً في الاحواض البحرية. ولهذا السبب تحلّى العلماء عن

فكرة مطاريات البليستوسين القديم أو المتوسط، (نظرة كوك ١٩٥٨، وفلنت ١٩٥٩، وزونز ١٩٥٠). ولقد أدت الدراسات الحالية للأحواض البحرية بأفريقيا الشرقية إلى الحد من استعمال هذه العلامة المناخية الطبقة بالمطار الكبلي. الذي يحوي في بعض الأماكن رواسب لم ينظر عليها التواء في بنية الأديم.

وتفيد شواهد جيولوجية عديدة بصفة قطعية أن الحدود الرئيسية للغابات ذات الامطار قد تحولت كثيرا في الماضي. ولقد شكلت الغابات الكبرى الواقعة غربا، في الأحواض الجارفة للمياه، عاملا مهما في تكيف حياة الإنسان طيلة الحقبة التي توفرت لنا عنها شواهد أثرية. ان الموقع المشهور والمعروف بفتح أولدواي والواقع بشمال طانزانيا يشتمل بأسفله على حيوانات فقيرة قد صينت صيانة كاملة، وتدل قطعا على انها منذ البليستوسين القديم. وتفيد الصلات المناخية وجود حقبة من الأمطار على غاية من الأهمية (الكاغيري أو الأولدواي الاول). ويوجد فوق ذلك تشكيلان يدل كل واحد منها على فاصل زمني أكثر جفافا قد تبعه مطار هام نسبيا. كما توجد بذلك الموقع الخاص، قطعة طبعية تحتوي على أكمل سلسلة تطورية من الآلات ذات الوجهين ابتداء من الأشكال البدائية المغرقة في القدم، إلى أهم الانواع المتخصصة من هذه الآلة من العصر الحجري القديم الاسفل، مثلما هو معروف عنها بأوروبا وآسيا الغربية.

تتكون الشواهد على المطار الكبلي خاصة من الشواطئ المرفوعة ورواسب الاحفورات البحرية في ثلاث بحيرات كانت سابقا متجاورة، وتقع في الشمال الغربي من نايروبي (نكورو، المنتيتا، ناييفاشا). ولنايفاشا مستوى من الشاطئ المرفوع سبق بقليل العصر الحجري القديم الأعلى، وهذا يعني أنه كان للبحيرة عمق أقصى قدره ٢٠٠ متر، ومن المحتمل أنها كانت تنصب من خلال خط عال مجاور. ان المساحة الضعيفة لحوض البحيرة المنحدر. وكذلك عمق البحيرات الحالي الذي لا يتجاوز ١٠ أمتار يسمحان بأن نعتبر ذلك التوسع القديم للبحيرة دليلا على وجود مناخات أكثر رطوبة في الماضي.

لقد اكتشف لايكسي في ملجأ يقع تحت صخرة ويشرف على بحيرتي نكورو والمنتيتا الحاليتين موقعا بكهف كمبلي طبقاته واضحة ويحوي صناعة حقيقية منظمة للشفرات. ولقد وصف الترسيب الواقع بالطابع الأسفل بأنه متكون من الحصى الملساء البحرية المفروشة على السطح الصخري للملجأ وذلك على ارتفاع يقارب ٢٠٠ متر تحت المستوى الحالي للبحيرة. أما الترسبات التي تحوي الأدوات فانها توجد كامنة فوق الحصاد وتتكون من ترسب هش فيه «رماد وغبار، وعظام وسبج». وتعتبر الحيوانات المزوجة به قطعا من النوع العصري. ويرى لايكسي أن ترسبات الأدوات تعود إلى آخر حقبة تختص بمطار غزيرة (يسميه الكبلي، نسبة إلى الموقع المعنى بالامر) وهو أول مطاري يتبع مباشرة مطار المستويات الأخيرة من الأولدواي التي كانت لها أدوات (أشولية) وحيوانات انقرضت ولها مميزات خاصة.

تعتبر دراسة نلسن الكلاسيكية (١٩٣١ - ١٩٤٠) المتعلقة بأحواض إفريقيا الجنوبية البحرية من أحسن الوثائق عن تنقلات مستوياتها في الماضي. ان هذا المؤلف يصف خطوط شواطئ بحيرة تانا المرفوعة (مستوى المساحة يقدر بـ ١٨٣٠ متر). وهي منبع النيل الأزرق. ويسجل خمسة خطوط شاطئية رئيسية تبلغ حتى + ١٢٥ متر وجود مستوى أقل وضوحا يبلغ + ١٤٨ متر. ويبين نلسن أيضا



أن أربعة بحيرات من وادي الريف (زقاي، أباتا، لنكانا، وشالا) كانت متصلة ببعضها وكانت تصب لمدة ما في نهر أواش.

ان المعطيات الجيولوجية المناخية المتعلقة ببحيرة فكتوريا تبين ان البحيرة كانت منخفضة وقد حبست مياهها لحقبة أجلاها غير محدود سبقت — ١٤٥٠٠ وهو عصر سادت فيه نباتات السهب العشبية. ولقد أخذت البحيرة في الصعود حوالي — ١٢٠٠٠ وهو عصر أخذت فيه نباتات غابية تظهر أولا حول التخوم فوق الاستوائية من البحيرة. ولكن من الممكن أن يكون مستواها قد نزل الى ١٢ مترا تحت المستوى الحالي وذلك في حقبة قصيرة تدو حول — ١٠٠٠٠. وكانت بحيرة فكتوريا مملوءة تماما بين — ٩٥٠٠ و — ٦٥٠٠. وكانت تحيط بها غابة دائمة الخضرة. ولقد تأثر مستوى بحيرة فكتوريا جزئيا بشق مخرجها الا أن مستوياتها السابقة وكذلك القطعة البليولوجية كانت بالتأكيد مستقلة عن هذا العامل.

قام بوتز وآل، (١٩٧٢) بدراسة مفصلة تخص الأحواض البحرية لافريقيا الشرقية ووفرا تواريخ باعتماد الراديو كربون الخاص برواسب الشواطئ القديمة. ان وقائع الدهر الرابع الحديث وتواريخه المتعلقة ببحيرات رودلف، ونكورو، ونايفاشا ومكادي متوافقة الى حد كبير وتعتبر بحيرة رودولف التي تبلغ مساحتها حاليا ٧٥٠٠ كلم مربع أكبر بحيرة حابسة للمياه بافريقيا. انها موجودة بمنطقة غورية ويزودها بالمياه أساسا نهر أومو الذي ينبع بالاراضي العالية بغربي أثيوبيا. وتبين دراسات بوتز أن الساحل، والمجاري الدلتائية النهرية المتصلة بتلك البحيرة كانت على مستوى يفوق تقريبا بستين مترا المستوى الحالي وذلك في حقبة تعود الى ما حول — ١٣٠٠٠٠ سنة، كما كان يفوقه ب ٦٠ الى ٧٠ مترا في حوالي — ١٣٠٠٠ سنة. وأصبحت البحيرة أصغر حجما مما هي عليه الآن بين تلك الحقبة و — ٩٥٠٠، كما أصبح المناخ أكثر جفافا. ولقد ارتفع مستوى البحيرة من جديد ابتداء من هذا التاريخ الأخير وتأرجح مستواه بين ٦٠ و ٨٠ مترا فوق المستوى الحالي الى حدود — ٧٥٠٠ — وهو تاريخ ابتدأت تضيق فيه بحيرة رودولف. وظهرت بعد ذلك مستويات أكثر ارتفاعا حوالي — ٦٠٠٠ وابتداء من — ٣٠٠٠، استقرت البحيرة على ابعادها الحالية. ان الشواهد التي توفرها البحيرات الأخرى بافريقيا الشرقية والتي درسها يوتز وآل تشير إلى تاريخ مماثل بالنسبة للدهر الرابع الحديث.

### حوضا التشاد والسد

يستحق حوض بحيرة التشاد عناية خاصة باعتبار وجوده بالطرف الجنوبي من الصحراء وبطرف المساحة الكبرى للبحر الداخلي الذي ملأ كامل الحوض في البليستوسين. ان بحيرة التشاد الحالية هي أثر لذلك البحر الداخلي (انظر مونود ١٩٦٣، وبوتز ١٩٦٤) وتأتي مياهها من سباسب افريقيا الوسطى. وتقع مساحة البحيرة الحالية على ارتفاع يبلغ ٢٨٠ مترا وتتراوح تلك المساحة بين ١٠٠٠٠ و ٢٥٠٠٠ كلم مربع.

اما معدل عمقها فهو يتراوح بين ٣ و ٧ أمتار و يبلغ في الحالة القصوى ١١ مترا. يفصل البحيرة عن منخفض بوبيلي والجوراب خط قاسم للمياه غير مرتفع، يشقه وادي بحر الغزال الناشف. إن أسفل خط من الخطوط الشاطئية لبحيرة التشاد الحالية، وهو يتراوح بين ٤ و ٦ أمتار، يسمح للمياه

بأن تفيض في منخفض بوديلي الذي يبعد عن البحيرة ٥٠٠ كلم. أما في مستواه الأعلى الذي يبلغ ٣٢٢ متر فقد كَوْن سلف التاشد البليستوسيني خطوطا شاطئية تظهر بوضوح على بعد ٤٠ أو ٥٠ مترا، وتعادل مساحتها ٤٠٠٠٠٠ متر مربع. وتوجد أيضا آثار متقطعة تدل على خطوط شاطئية متوسطة. ولقد بين كروف وبولان (١٩٦٣) أن المياه التي تفقدها البحيرة تبخرها يعوضها تعويضا كبيرا منسوب المياه الواردة من اللكون والشاري القادمين من الجنوب. ويعتبر المؤلفان أن تبخر البحيرة في البليستوسين كان يفوق ذلك بست مرات الى حد أنها كانت تستوعب سنويا كمية من المياه تعادل ثلث منسوب الكونغو السنوي.

ولقد قال بوتزر (١٩٦٤م) عن صواب بأن بحر التاشد السابق يمثل نتيجة لذلك أبلغ شاهد على وجود رطوبة كثيرة بالخطوط العريضة المدارية الرطبة جدا، الا أنه لم يمكن مع الأسف إثبات الترابط بين الخطوط الشاطئية مختلف أجزاء الحوض. ان طبقة أراضي البليستوسين التي يبلغ سمكها ٦٠٠ متر والموجودة تحت بعض أجزاء الحوض تدل على تعقد هذا الحوض الداخلي وطول تاريخه. أما فيما يتعلق بنيجيريا — فيري كروف وبولان أن المناخ قد جف وصاحبه تشكيلات تلالية هامة بالسهل الذي كانت تحتله البحيرة سابقا وذلك بعد حقبة كان فيها مستوى البحيرة في البليستوسين القديم يفوق بـ ٥٢ مترا مستواها الحالي. ولقد أعقبت تشكّل شبكة جديدة من الأنهار في تاريخ لاحق حقبة رطبة أخرى تميزت بارتفاع مستوى البحيرة لا يقل عن ١٢ مترا في الهولوسين. فيمكن أن نؤكد أن حركتين إيجابيتين. بالبحيرة حللتا تحليلًا سيئا، قد وقعتا قبل — ٢١٠٠٠، وتبعهما فصل طويل من النشف ومن النشاط الريحي حتى قبيل — ١٢٠٠٠، وهي فترة أخذت البحيرة تمتد فيها من جديد وبلغت البحيرة في حوالي — ١٠٠٠٠، مستوى أقصى صاحبه فياضانات متناوبة. ودامت هذه الحقبة من المياه العالية حتى قبيل — ٤٠٠٠. ويبدو أن تاريخ هذا البحر الداخلي بالبليستوسين القديم والهولوسين يكاد يوافق عندئذ وحتى في التفاصيل تاريخ أحواض إفريقيا الشرقية.

ان كاتب هذا المقال يعتبر أن بحيرة سد بالسودان الجنوبي تمثل بحرا داخليا كبيرا، ومن المحتمل أن يكون تاريخها يماثل تاريخ حوض بحيرة التاشد. فالسد بحيرة ميتة يحتمل أنها شملت منطقة سد وحوض النيل الأعلى وامتدت الى ما وراء النيل الأبيض وإلى أجزاء من النيل الأزرق وبحر الغزال. ولقد نشأت فكرة وجود هذه البحيرة القديمة عند المهندسين المختصين في الري والعاملين بمصر (وهم لومبرديني، وكمرستان، وول كوكس. وكان لوسن (١٩٢٧) واضعها. ولقد تعجبوا جميعا من انبساط سهول السودان الأوسط والجنوبي ولاحظوا أن كل ارتفاع صغير في مستوى النيل يؤدي الى الفيضان على مساحات واسعة. ويعتبر بول أن بحيرة سد قد كانت تحتل مساحة قدرها ٢٣٠.٠٠٠ كلم<sup>٢</sup> (المنطقة التي يحدها منحنى الـ ٤٠٠ متر، وهي ارتفاع شعبة). ويغطي تلك المنطقة تشكّل (أم روبة) الذي وضعت له خريطة حديثا والذي يتكون من سلسلة طويلة من الرواسب النهرية، والدلتائية والبحيرية. وتتجاوز قته العليا ٥٠٠ م وهذا يعتبر أعلى بكثير من أسفل نقطة السيلاان عند قمة سبلوكة بشمال الخرطوم (٤٣٤م). ومن المحتمل أنه كان الحد الشمالي للبحيرة. ان تلك القمة توجد، كما أشار الى ذلك سعيد (م. س.) على الخطوط الرئيسية من التصدعات التي تحاذي جنوب الجبل النوبي الذي يعتبر مركزا لنشاط زلزالي كبير، ولا يمكن اعتبار هذا الارتفاع، سواء لهذا السبب أو لأسباب أخرى لها صلة بشق فج سبلوكة إثر اجتفاف سابق، لا يمكن اعتباره ممثلا لعلو القمة

عندما كانت البحيرة مملوءة. و يدخل في الحساب تعقد آخر ينشأ مدة الفيضانات عن رد فعل سد مياه النيل الأزرق التي تصب في النيل الأبيض. ورغم أن تاريخ بحيرة سد، غير معروف بصفة مفصلة إلا أن في امتداده ثابت، يشهد به بوضوح الشاطئ الذي يبعد ٣٨٢ م والذي يحيط بمناطق شاسعة من النيل الأبيض. ومثلها مثل حوض التشاد، اذ يبدو أنها كانت واسعة جدًا بين ١٢٠٠٠ و ٨٠٠٠. وقد كان لها في الشمال عرض ٥٠ كلم (ويليم، ١٩٦٦). وضافت البحيرة بعد ذلك وفي حوالي ٦٠٠٠ انخفض الامطار السنوي الى ما يقرب من ٦٠٠ مم، غير بعيد من الخرطوم، وانخفض مستوى النيل الأبيض الى ٥٠ سم أو متر واحد، تحت المستوى المتوسط الحالي للمياه العالية.

### الظواهر الجمودية

ان تجمد افريقيا القديم مربوط ربطا وثيقا بالجموديات الحالية، التي ترتبط بدورها أساسا بتوزيع المرتفعات الكبرى. فباستثناء جبال الأطلس، توجد القمم ذات الجموديات بافريقيا الشرقية، على بعض الدرجات من خط الاستواء. وتتراوح المرتفعات من حوالي ٣٩٠٠ م الى ٦١٠٠ م، ولقد لخص فنت (١٩٤٧ - ١٩٥٩) المعطيات المفيدة الخاصة بتلك المناطق الجمودية ويشير الى أن تساقط الثلوج التي تزود تلك الجموديات قد يكون ناشئا عن رطوبة جبلية ناتجة عن كتل الهواء البحرية المتنقلة نحو الشرق والآتية من المحيط الأطلسي الجنوبي أو المتنقلة حسب درجة أدنى، من المحيط الهندي الى الغرب.

يبلغ ارتفاع جبل كينيا (خط العرض ١٠° جنوبا، خط الطول ٣٧° ١٨ شرقا) ٥١٥٨ م ويضبط حد الثلوج الحالية بـ ٥١٠٠ م. ومن الثابت أن حد الثلوج الدائمة في البليستوسين قد نزل الى حد أسفل يقدر بـ ٩٠٠ م (فلنت، ١٩٥٩). ويبلغ جبل الكلمنجارو، بطنجنيقا (خط العرض ٣° ٥ جنوبا، خط الطول ٢٧° ٢٢ شرقا) ارتفاعا قدره ٥٨٩٧ م. ويبدو أنه يوجد حاليا بالتدقيق دون الحد المناخي للثلوج الدائمة. فلقد كان الحد الأدنى في البليستوسين يتجاوز ١٣٠٠ م (فلنت ١٩٥٩). ويبلغ ارتفاع جبل الكن بأوغندا (خط العرض ١° ٨ شمالا، و ٣٣° ٤ شرقا) ٤٣١٥ م، ويوجد حاليا دون الحد المناخي للثلوج الدائمة بكثير. وكانت له جموديات في البليستوسين. ويبلغ ارتفاع جبل رونزوري (خط العرض ٢° ٤ شمالا، و ٢٩° ٥ شرقا) ٥١١٩ م كما يبلغ حد الثلوج الدائمة ٤٧٥٠ م على السفح الغربي بالزاير و ٤٥٧٥ م على السفح الشرقي (أوغندا). وكانت جموديات البليستوسين تنزل الى ٢٩٠٠ م على السفح الغربي والى حد ٢٠٠٠ م تقريبا على السفح الشرقي.

ان الأراضي المرتفعة بأثيوبيا لا تحتوي على جموديات ولكن يبدو أن جبال سميان (خط العرض ١٣° ١٤ شمالا، وخط الطول ٢٨° ٢٥ شرقا) كانت تحتوي على جموديات في البليستوسين فلقد اثبت نلسن (١٩٤٠) وجود تجمدين على بعض قمم هذا الجبل (ارتفاعه ٤٥٠٠ م تقريبا) مع اعتبار الحدود المناخية للثلوج الدائمة البالغة ٣٦٠٠ م الى ٤١٠٠ م و ٤٢٠٠ م. ان الانسحاب الجمودي المصاحب للبليستوسين الحديث يوافق حدا من الثلوج الدائمة يقدر بـ ٤٤٠٠ م. ويصف نلسن (١٩٤٠) كذلك تجمدا بالبليستوسين الحديث بجبل كاكا (خط العرض ٧° ٥ شمالا، وخط الطول

٣٩٢٤ شرقاً) يبلغ حد ثلوجه الدائمة ٣٧٠٠ م. ان القمم البركانية الأخرى باثيوبيا التي توجد حالياً دون حد الثلوج الدائمة بكثير توفر أيضاً شواهد على التجمدات، من ذلك جبل كونه (خط العرض ١١ر٤٣ شمالاً، خط الطول ٣٨ر١٧ شرقاً) وجبل أمباريت (خط العرض ١٠ر٥٣ شمالاً، وخط الطول ٣٨ر٥٠ شرقاً) وجبل شلاي (خط العرض ٧ر٥٠ شمالاً، وخط الطول ٣٩ر١٠ شرقاً).

وتوجد شواهد قاطعة على التجمد الذي وقع على الأقل مرتين بالمناطق الجنوبية وفوق الجنوبية من إفريقيا، وعلى مناخ أشد بردا طيلة الحقبة الموافقة لتجمد (وورم). ولقد اكتشفت في أثيوبيا، فضلاً عن العلامات ذات الأصل الجمودي الملحوظة في بعض قمم هذه المنطقة، آثار عن انزلاق التربة وعن تغيرات الأديم ناشئة عن الجليد (على ارتفاع ٤٢٠٠ م/٤٣٠٠ م) ويرى بودل (١٩٥٨) ان الحد الأسفل لظواهر انزلاق التربة بلغ ٢٧٠٠ م في حقبة وورم. ولوحظت أيضاً رسوبات جمودية نهريّة في مناطق مختلفة من إفريقيا الجنوبية. ولقد درس دي هنزلي ١٩٦٣ رسوبات جبل رونزوري وتبين أنها موازية للسطوح الغمبية لنهر سملكي. ان هذا النهر الذي يصل بمجرتي ادوارد وألبرت عند حدود الكونغو وأوغندا، يمر بمجارتكثفها الحصاة، والحصباء، والرمل والتربة الحمراء ذات الطمسي، مع الرسوبات الخفيفة. ويبين دي هنزلي أن السطوح السنغوثينية — اللومبينية معاصرة للرسوبات الجمودية النهريّة لجبل رونزوري.

## المنطقة المدارية والمنطقة فوق المدارية

تختص المنطقة المدارية الحالية بنظام من الرياح الشرقية الغالبة وتحولات فصلية حرارية محسوسة. ويختص القسم الغربي من هذه المنطقة التي توجد على الساحل الأطلسي، برياح صابية قارة، وبطقس يميل الى البرودة نسبياً، وبرطوبة فضائية مرتفعة وبانعدام المطر تقريباً. أما الباقي من هذه المنطقة فانه يشمل الصحاري الكبرى بالشمال وبالجنوب من القارة. ان هذه المناطق جافة وحارة يصحبها تحول نهاري هام في الحرارة وارتفاع أقصى مطلق في تلك الحرارة.

وتشمل المنطقة فوق المدارية الأطراف الشمالية والجنوبية من القارة وتختص بكتل هوائية من النوع المداري في الصيف وبكتل هوائية من النوع المعتدل في الشتاء، وتتبدل الحرارة والأمطار الفصليان تبدلاً كبيراً. أما المناطق التي لها مناخ البحر المتوسط فهي تمتاز بطقس صاف وهادئ في الصيف وبشتاء ممطر.

## الصحراء

يمكن أن نعد الصحراء أكبر العناصر أهمية في هذه المنطقة. فهي تمتد على ما يفوق ٥٥٠٠ كلم من البحر الأحمر الى المحيط الأطلسي ولها عرض متوسط من الشمال الى الجنوب يفوق ١٧٠٠ كلم. فهي تشمل ما يقرب من ربع المساحة الكاملة من القارة الإفريقية. فالإمطار الموزع توزيعاً متفاوتاً على مجموع تلك المنطقة، يفوق في بعض الأماكن ١٠٠ م سنوياً، أما المعدل فهو دون ذلك بكثير فلا

يوجد استنتاجا من ذلك انهاردائمة المياه، باستثناء النيل الذي تأتي مياهه من منابع موجودة في أماكن خارجة تماما عن الصحراء. وليس لكميات الماء العارضة او الدائمة الناشئة عن السيلان السطحي أية أهمية بالنسبة لحياة الإنسان في العصر الحديث باستثناء الينابيع والآبار التي تزودها المياه الجوفية. تتكون الصحراء من قاعدة صباء من الصخور الماقبكية التي تغطي رواسب من عهد الباليوزويك الى عهد السينوزويك، وظلت ثابتة طيلة جزء كبير من عهد الفانيروزويك. ان النشاط الذي تسبب في تغيير العالم والالتواء لم يحدث الا في جبال الاطلس، وخليج قابس بتونس وعلى هضاب البحر الأحمر، شرقي نهر النيل. ويمكن ملاحظة نشاط مشابه ببرقة وتحت الأرض بالمنطقة الساحلية من شمال افريقيا. ان هذه الحركات الالتوائية تنتسب الى النظام الابي، وقد تشكلت منها الجبال بعهد السينوزويك الحديث والدهر الرابع. أما جبال البحر الأحمر، فانها على العكس مرتبطة بالحركات التي طرأت على بنية الأرض وامتداد الوقت الافريقي الكبير.

تعتبر منطقة جبل الأطلس أوسع المناطق تضرر يسا. وهي تمتاز بمطار غزيرة. وتوجد تضاريس قليلة الأهمية ببرقة وبجبال المقار والتبستي من الصحراء الوسطى. ويشكل الجبلان الأخيران منطقتين ذاتي طوبوغرافية جبلية متصلان ببعضهما عن طريق سرج طومو المنخفض. وللمنطقة ارتفاع متوسط يبلغ ٢٠٠٠ م مع وجود قمم تبلغ ٣٠٠٠ م وتتكون اغلب القمم من صخور بركانية تشكلت طيلة حقبة متواصلة من النشاط البركاني الذي يعود الى ما قبل البليستوسين.

وتوجد مناطق أقل اتساعا متكونة من الصخور البركانية بجبال العاير، بالجنوب الغربي من المقار، ومنها الأوجيات الذي يرتفع ارتفاعا شاهقا في منتصف الطريق بين التبستي والنيل، وجبل العاطر الخ. ويعتبر حاليا أثر هذه الجبال على المناخ ضعيفا، الا أنه توجد علامات جيولوجية عديدة تدل على أن الصحراء كانت أقل جفافا طيلة حلقات عديدة من البليستوسين.

أن اكبر عامل من عوامل الاجتراف بالصحراء حاليا وفي جميع حقبات الجفاف هو الاجتراف الريحي الذي يعتبر المسؤول عن تكوين سهل هذه الصحراء. ان الرمال الخشنة التي تنقلها الرياح تتراكم حسب مساحات تدعي عرق أورق. أما المواد الناعمة، فتنتقل الى الأعلى بالفضاء حيث تظل معلقة تعليقاً جزئياً متواصلاً. وتسمى المساحة الصخرية المعراة الناشئة عن هذا الاجتراف حمادة. وتمثل هذه المساحات أحواضا وهادا تتراوح بين الأحواض الضيقة والوهاد الضخمة التي يبلغ عمقها في بعض الاماكن ١٣٤ م تحت مستوى البحر (مثال ذلك وهدة قطارة). وقد فسحت هذه الوهاد، في مواسم المطر، المجال لنشوء الطمي، وظهرت بها عيون من الماء ونشاط ترسبي بحيري عندما هبطت الى مستوى المياه الجوفية. وتوجد الوهاد الكبرى أساسا على حافة الانحدارات، وقل أن تحيط بها تلك الانحدارات من جميع جوانبها. ومن المؤكد أنها تكونت بعامل اجتراف ريحي لانها تشكل أحواضا داخلية لا مسيل لها.

ان الآراء تختلف في شأن تاريخ الصحراء الجيولوجي. ويعتقد بعض المؤلفين أنها كانت صحراء طيلة حقبة الفانيروزويك كلها وأن الحقبات الرطبة تمثل تقلبات غير عادية في تاريخ جفاف متواصل. ويعتقد آخرون أن التصحر (أي التحول الى صحراء) ظاهرة حديثة توافق النظام الحالي لتوزيع كتل الهواء.

وهناك علامات ثابتة تدل على وجود مناخات أكثر رطوبة سابقا في الصحراء، ومن بينها نظام

توزيع النباتات، وخصائص الرواسب التي لا يمكن تفسيرها إلا بافتراض وجود مناخ قديم أكثر رطوبة. أن بعض الحيوانات الأهلية بإفريقيا تعيش دوماً في الصحراء، وما كانت لتهاجر إليها لولا تيجاد مناطق تتوفر فيها النباتات والأحواض من الماء. ولقد اكتشفت أنواع من تماسيح إفريقيا الوسطى بحفر مائية داخل أغوار عميقة من جبلي الهقار والتبستي. وعثر على «المدفش» الإفريقي (وهو حوت) بالشمال وحتى بواحة بسكرة بالجنوب الجزائري. أن خصائص نظام تصريف مياه الصحراء تدل على أن الأمطار كانت غزيرة، إذ يمتد، غربي الهقار، سهل مترامي الأطراف يقف دون المحيط الأطلسي ببعض المئات من الكيلومترات، وينحدر إليه، ويتبع منحدرًا ابتداءً من وهدة الجوف. وهنا تشكل في الماضي حوض التبخر لمجموعة من الأنهار. أن خطوط تصريف المياه المتجهة نحو الجنوب، ابتداءً من منحدرات الأطلس الجنوبية. ومنها منحدر وادي الساورا الذي تتبع العلماء مجراه على مسافة تزيد على ٥٠٠ كلم، هي على غاية من الإفادة في هذا الشأن. وذلك يعني أن الوادي كانت تجري به في الماضي مياه كثيرة قادرة على حمل الرمال الريحية التي تسد حالياً مجراه الأوسط.

وتمتد بعض الأودية، ابتداءً من هضاب البحر الأحمر، على ٣٠٠ كلم وتخترق مساحات تبلغ حوالي ٥٠٠٠٠ كلم. وتحتضن أحدهما، وهو وادي جهاريت الذي يمر بسهل كم أمبو، بشمال أسوان ضفاف ضيقة من الطمي ذي الحب الناعم يزيد سمكه على ١٠٠ م. ومن المؤكد أن مرسبه نهر كبير لا تنضب مياهه.

لقد استعرض مونود (١٩٦٣ م) الدراسات الهامة الخاصة بالتقسيمات المناخية الطبعية، فأشار إلى بحوث إيمان وشيفايون ومركا (١٩٥٩ م) الخاصة بمحوض الساورا الكلاسيكي الذي اقترحت في شأنه التقسيمات التالية، تنقلا من أقدمها إلى أحدثها:

— الممطار الفيلافرنشي (= عائدي): رمل، حصباء ومشبكات لونها وردي أحمر نازلة فوق صخور أكثر قدما.

— ما بعد الفيلافرنشي الجاف: حطام انهياالات، وغرين رملي الخ، تعلوه تربة متطورة سمراء وحمراء. ولقد عثر بموقع في الجزائر على حصص مهيأة هجينة الصنع.

— الممطار الأول المازيري (Q/a) مشبكات ورمال.

— ما بعد المازيري الجاف: ترسبات من الطين الرملي، ورمال ريحية وانهياالات.

— الممطار الثاني التاوريرتي أو الأوغرتي الأولى (Q/b) مشبكات وزراعة على الحصص المهيأة المتطورة جدا من العهد الأشولي المتوسط.

— ما بعد التاوريرتي الجاف: اجتراف.

— الممطار الثالث (أو الأوغرتي الثاني): حصص ذات ألوان متنوعة ورمال أو تربة متطورة حمراء وسمراء.

— ما بعد التاوريرتي الجاف: اجتراف.

— الممطار الرابع السائري (Q1) رمال رمادية وخضراء. ومواد حتاتية، وتربة ذات أحفورات سوداء — عاطري.

— الممطار ما بعد السائري: غلاف من الصلصال الرملي، عنصر حجري جديد.

— مرحلة رطبة غيرية (Q2d): عصر حجري جديد.

ويرى أرمبورغ (١٩٦٢) ان الممطارات الاربعة الأساسية وهي المازيري والأوغرتي الاول والأوغرتي الثاني والساوري شمال الصحراء قد توافق ممطارات افريقيا الشرقية وهي الكاغيري (أولدواي الاول) والكاماسي والكنجيري والكبلي. وقد يوافق الغيري في الشمال الغربي من افريقيا المراحل الرطبة لما بعد الكبلي.

## النيل

اعتنى الاختصاصيون منذ القديم بالنيل وخصصت لمتخلف جوانبه مؤلفات كثيرة. ولقد درس وندورف (١٩٦٨م) وبوتزروهانسن (١٩٦٨م) وهنزلين (١٩٦٨م) وشيلد (م س) وكيكناك (١٩٦٨م) وسعيد (تحت الطبع) دراسات مكثفة لما قبل تاريخ هذا النهر وتطوره الجيولوجي. وتمثل الملحوظات التالية نتيجة عمل قديمه سعيد واعتمد فيه على فن رسم الخرائط وركز فيه بعين المكان على الترسيبات النهرية والرواسب المشتركة. وعلى فحص عدد كبير من التنقيبات العميقة أو السطحية التي أجريت بحثاً عن الماء والبترو. ويمكن أن نعتبر أن النيل قد مر بخمس حلقات منذ أن شق مجراه في الميوسين الأعلى. ولقد اختصت كل حلقة بوجود نهر كان يأخذ أكبر قسط من زاده المائي من منابع خارج مصر. ويبدو أن النهر قد نقص أو كف نهائياً عن الجريان في مصر وذلك جواباً لآخر الحلقات الأربع الأولى (والحلقة الأخيرة تجري الآن). ولقد صاحبت هذه الحلقات الانحسار تغيرات فيزيائية ومناخية، ومائية هامة. ويبدو أن البحر قد تقدم، مدة الانحسار الأول، في الأرض مكوناً خليجاً يشمل الوادي المحفور حتى جنوب أسوان. واستقر مدة الانحسار الثاني الذي ابتدأ بالبليستوسين الجاف، وتواصل مدة تفوق ١١٠٠٠٠٠ سنة، مناخ على غاية من الجفاف بمصر التي تحولت إلى صحراء قاحلة. وكان النشاط الريحي في ذلك العهد هاماً، وأخذت الوهاد الصحراوية الكبرى تتشكل، وضاع الغطاء النباتي الذي كان يكسو مصر مدة البليستوسين. وتوجد شواهد على مرحلة ممطرة قصيرة نسبياً وقعت في بداية هذه الحقبة. ولقد نشأت في هذا الممطار أنهار متكونة من سيول قصيرة المدة، تتزود تماماً في مصر. ان الانهار الخمسة التي احتلت وادي النيل منذ أن حفر مجراه في الميوسين تدعى.. ايونيل (Tmu) بالونيل (Tplu)، بروتونيل (Q1)، برينيل (Q2)، نيونيل (Q3).

ويمكن أن نلخص في اللوحة التالية، التحولات المناخية التي سجلت بمصر، تنقلاً من أقدمها إلى أحدثها.

## ممطار بليستوسين

(Tplu) يقدر ب (٣٣٢ إلى ١٨٥) مليون سنة.

وتتكون رواسب البليونيل أساساً من رواسب متفتتة ذات حب دقيق في المجاري الضيقة، ومن الطين، وذلك في باطن الوادي وعلى امتداد الأودية. وكانت منابع البليونيل موجودة في مصروفي افريقيا الاستوائية وما فوق الاستوائية. والملاحظ وجود غطاء نباتي واسع، وحدوث انحلال

كيميائي قوي، وسيلان ضعيف. ومن المحتمل أن الأمطار كانت تتوزع بها توزيعاً منتظماً على كامل السنة.

**الطور الجاف جداً من البليستوسين الحديث**  
(فواصل Tplu/Q1) يقدر بـ (١٨٥٠ إلى ٠.٧٠) مليون سنة.

ولقد أصبحت فيه مصر صحراء معرضة لنشاط زلزالي في وادي النيل حيث بلغ مفعول الرياح أشده. وقطع هذا الطور ممطار قصير (أرمنت) تكونت فيه مجار من الحصر متناوبة أحياناً من مجار من الرمل، حباته مرصوفة أو من المارن الممزوج بقالب أصفر وأحمر، وتعلوها ثغرة مؤسمنة. ولم يعثر على أية أداة بهذه الترسبات.

### مطار أدفن

و يقدر بـ (٧٠٠٠٠٠ إلى ٦٠٠٠٠٠)

ففيه عادت الأحوال المناخية الخاصة بالبليونيل. أما البروتونيل فانه يختص بمنايع مائية تشابه مناي النيل السابق اذ دخلت مصر وحفرت مجراه حسب ممر مواز لمجرى النيل العصري وموقعه بشمال هذا الأخير. توجد به رواسب في شكل مجار من حصي الصوان وحتات الصوان الممزوج بقالب من الملح الأحمر الآجري. ولقد أتت تلك الرواسب من أرض تفتتت تفتتاً عميقاً، وغسلت تغسلاً. ان الرواسب الموجودة بالصحرَاء المشابهة لمشبكات الاودية تظهر على شكل قنوات مقلوبة وقد عثر في هذه الرواسب على أدوات مصنوعة حسب التقاليد الشالية.

### مطار البرينيل الجاف

(Q2) يقدر بـ (٦٠٠٠٠٠ إلى ١٢٥٠٠٠) مليون سنة

فيه ظهر نهر جديد دخل مصر، وزودته مياه آتية من الأراضي العالية بأثيوبيا. ان التركيب المعدني لرواسب البرينيل يدل على وجود معدن الأوجيب (وهو من خصائص رواسب النيل العصري، الآتية من مرتفعات أثيوبيا)، كما يدل على وجود كمية وافرة من معدن الأبيدوت الذي يميز هذه الرواسب عن رواسب النيونيل الموالي والنيل العصري. يوجد كذلك ممطار صغير خلال الأطوار الاولى من هذا الفاصل الزمني.

### مطار العباسية

(Q3) (١٢٥٠٠٠ إلى ٨٠٠٠٠)

وفيه كف البرينيل عن السيلان بمصر لأن مناي النهر قد انقطعت بعد نهوض جبل التوبة. ويتميز هذا المطار بمحصى متعددة الاصل آتية من هضاب البحر الأحمر الذي تفتت سطحه تفتتاً عميقاً الا أنه لم يغسل الا تغسلاً قليلاً. ويحتوي الحصى على أدوات وافرة من العهد الأشولي الحديث.



**طور العباسية/مخدمة الجاف**

(يقدر بـ ٨٠٠٠٠ الى ٢٤٠٠٠).

و يتميز بالاجتراف.

**ما فوق ممطار مخدمة**

(٤٠٠٠٠ الى ٢٧٠٠٠).

فيه اجتراف طبقى وأدوات تقليدية سونغونية لومبية تظهر بمنحدرات عديدة من المجرى المجروف من البرينيل. وتوجد في كل مكان من الصحراء أدوات تقليدية موسيرية وتليها فيما بعد أدوات عاطرية.

**طور النيونيل الجاف (Q 3)**

من ٢٧٠٠٠ الى يومنا هذا)

وفيه دخل مصر نهر هو النيونيل، له منابع ونظام يشابه ما يوجد بالنيل المصري. ولقد مرّ النيونيل بطورين انحسارين نتج عنها ما فوق المطارين الأقصىين: وهما ما فوق ممطار دير الفساخوري (١٠٠٠٠ الى ١٢٠٠٠) وما فوق ممطار دشنة (١٠٠٠٠ الى ٩٢٠٠) والعصر الحجري الجديد (٧٠٠٠ الى ٦٠٠٠).

ويمكن أن نؤكد أن رواسب وادي النيل لا تختلف كثيرا عن الرواسب التي عثر عليها بالصحراء ومن الممكن أن نعلم وأن نبين أن ممطار أرمنت بمصر قد يوافق ممطار الفيلافرنشي بالشمال الغربي من الصحراء، وأن أدفن يوافق المازيري، وأن العباسية يوافق الأوغرتي، والمخدمة يوافق الساوري ودير الفاخوري، والدشنة والعصر الحجري الجديد يوافقان الغربي.

وينبغي أن نلاحظ في الختام أن المطارات الافريقية قد تكون ناشئة عن تحولات مناخية عالمية، توافق نظريا التجمدات بأوروبا وأمريكا الشمالية. وإذا كان من العسير إقامة الدليل على هذا الأمر، يمكن بصفة عامة افتراض وجود ارتباط بين الأوغرتي (بالشمال الغربي من إفريقيا) والعباسية (بالشمال الشرقي من إفريقيا) والكنكري (أولدواي ٤) بأفريقيا الشرقية، وبين التجمد الالبي لر يس. ومن الضروري أن تجري دراسات تكميلية، لا سيما في ميادين القياس الجيولوجي المغناطيسي والاشعاعي قبل استخلاص استنتاجات مضبوطة.

# الاطار الزمني للمراحل المطرية والجمودية بأفريقيا

القسم الثاني

هـ. فور

لقد طرأ على تاريخ معمرتنا في ملايين السنوات الأخيرة تعاقب مطرد من تحولات مناخية عميقة وأهم ظاهرة من ذلك، وقد عرفت منذ أكثر من قرن، وهي تقدم وتأخر الجموديات بصفة خارقة للعادة في خطوط الطول العليا وفي المرتفعات (شكل ١). وقد تجلّى ذلك في برد شديد كان له أثر عميق على البيئة وعلى حياة البشر. وكان من المظاهر المشهودة للتحولات المناخية في الدهر الرابع بأفريقيا أن توسعت المساحات البحرية بالمناطق الجافة، وتقدمت مساحات شاسعة من الهضاب الرملية نحو المناطق التي لها الآن مناخ أكثر رطوبة.

ولقد أحرز العلماء منذ عشر سنوات تقدما ملحوظا في ضبط تواريخ تلك الأحداث بالنسبة للثلاثين ألف سنة الأخيرة، وذلك بعد استعمالهم استعمالا منهجيا للقياسات الراديوتاريخية بالكربون ١٤. ان الترتيب التاريخي للتقلبات المغناطية، المعتمد على قياسات راديومترية بحسب طريقة أرغن بوطاسيوم أو/ك يسمح بايجاد علاقة ارتباط من بعيد مع المناطق الأخرى التي استعملت فيها تلك الطرق، لا سيما، فيما يتعلق بميدان المحيطات.

فقبل ان تستعمل طرق الارتباط تلك، كانت طبقة الدهر الرابع الأرضية تعتمد على تعاقب الأحداث المناخية الذي اعتبر اطارا تاريخيا. ان علاقة الارتباط بين منطقة وأخرى كانت تقع بالاستناد الى موازاة الفترات الزمنية المتعاقبة بالمناخات المتشابهة. وعلى هذا الأساس اقترح اعتبارا وجود توافق بين الحقبات الجمودية الاوربية والاطوار المطارية الافريقية.

ولقد كان لهذه النظرة اعتراضات قدمها مؤلفون عديدون (انظر تريكار، ١٩٥٦، وبالوت ١٩٥٢ الخ).

ان الجواب على هذه المسألة المتعلقة بالارتباط قد كان أكثر تعقدا في الواقع ولم يدرك الا بفضل

المعرفة الدقيقة لآليات المناخ الشاملة من جهة، وللترتيب التاريخي المناخي في بعض الآلاف من السنوات الأخيرة من جهة أخرى.

### الطبقة الأرضية المغناطية والترتيب التاريخي الراديومري

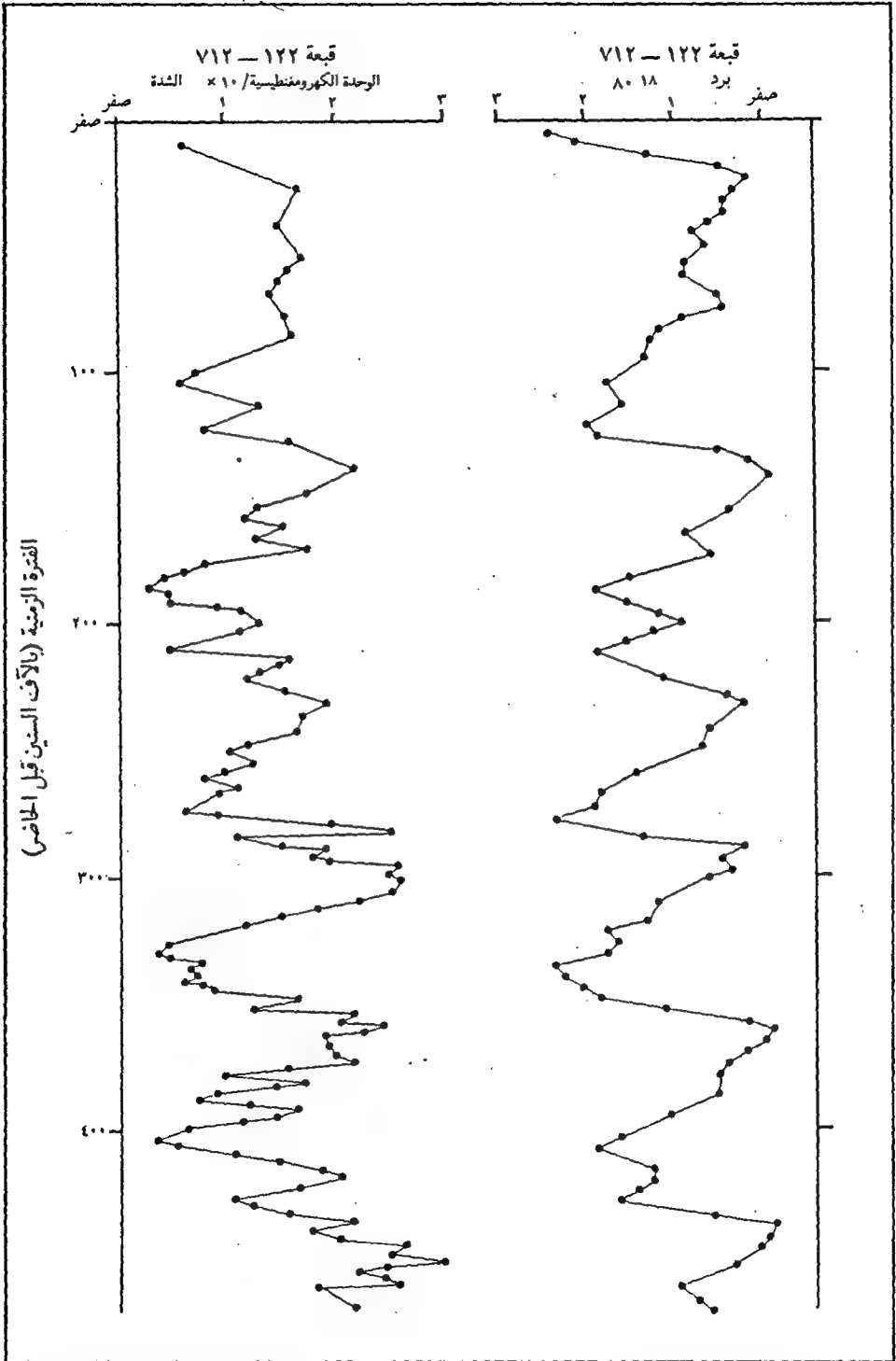
يجب أن نسجل، فضلا عن الملاحظات التي أبدتها رشدي سعيد قبله، ان التباسا مطردا قد وقع بين الوحدات الطبقة الأرضية الحجرية، والطبقة الأرضية الأحيائية والطبقة الأرضية التاريخية، حتى أن انعدام الدقة في التعريفات قد تسبب في وضع قائمة من المصطلحات لا تفيد أحيانا في ميدان التاريخ الذي أخذ يميل الى الدقة. ويظهر من جهة أخرى أن بعض عناصر الحقل المغناطيسي، كالانحناء أو الشدة متصلة اتصالا وثيقا بعناصر مناخية (شكل ٢ وشكل ٣ حسب وولان وآل ١٩٧٤).

## تجمدات الدهر الرابع، والترتيب التاريخي

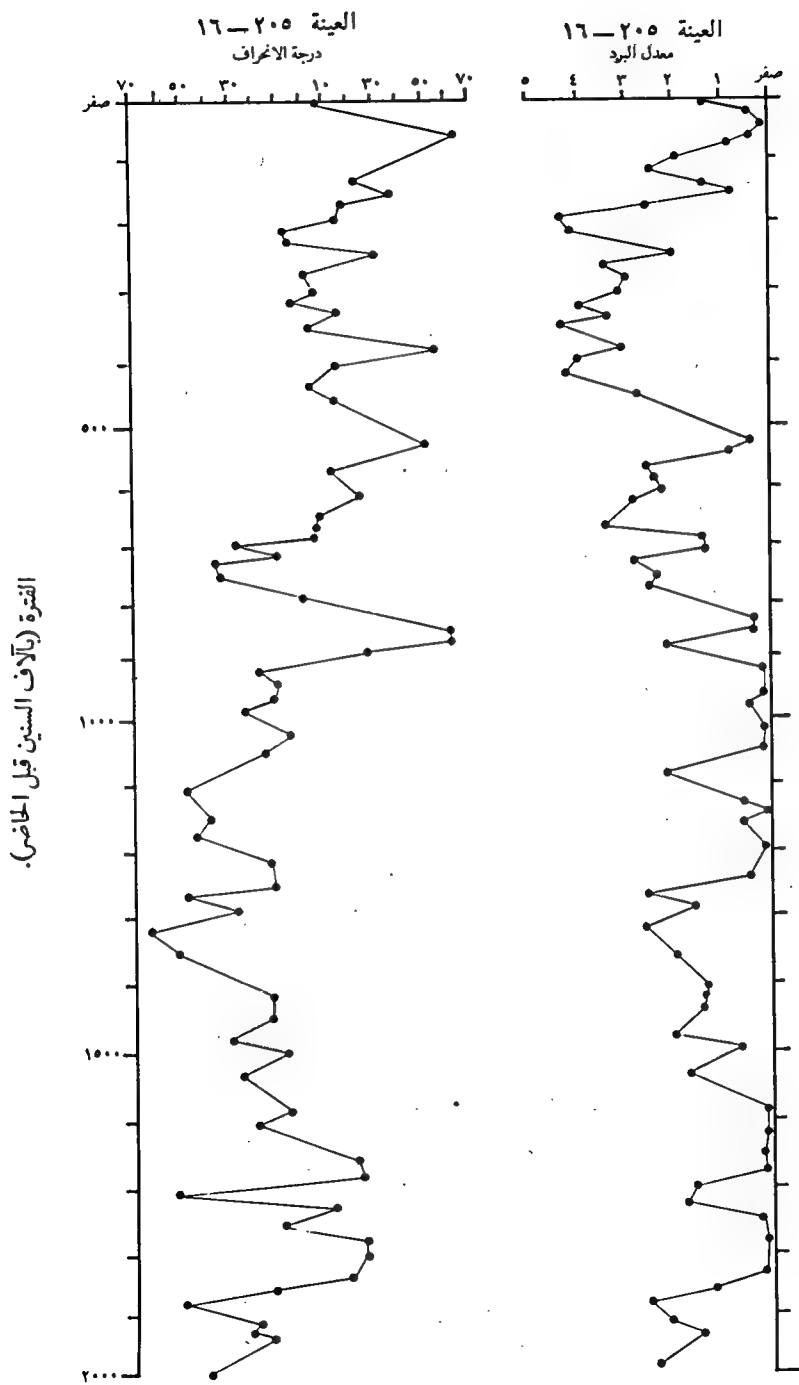
يبدو أنه سجل في العهد الرابع ما لا يقل عن اثنتي عشرة موجة هامة من البرد وذلك في الترسبات المتراكمة باستمرار في عمق البحار، ولم يعرف منها سوى ثمانية في الترسبات القارية بأوروبا الشمالية، وترتبط السطوح النهرية والترسبات الجمودية التابعة للمنطقة الألبية بأربعة (أو ستة) تجمدات كلاسيكية، وهي: غونز، مندل، ريس، وورم (وكذلك دونووبيين)، وكل تجمد من تلك التجمدات قد يشتمل على مراحل.

ان ما تتميز به الشواهد القارية من تقطع يجعل من العسير أن يمكن من الخيالي، وضع علاقات ارتباط بين الحقبات الجمودية بالمناطق البعيدة عندما لا تكون مضبوطة ضبطا دقيقا بالنسبة الى سلم تاريخي مغناطيسي او راديومري. والملاحظ فعلا ان الترتيب التاريخي للتجمدات الألبية لم يضبط ضبطا دقيقا من حيث الزمن. ولقد أطلقت مصطلحات غونز، مندل، ريس، وورم، بغير فيما يتعلق بمناطق متنوعة باعتبار تشكيلات غير مترامنة. وعلى هذا الأساس ينسب الترتيب التاريخي للصخور البركانية المقحمة في سطوح نهر الراين والمسماة «(مندل ١ و ٢)»، عمرا قدره ٠.٣ الى ٠.٢٦ مليون سنة. وينسب للسطوح المسماة «(غونز ١ و ٢)» عمرا يقدر بـ ٠.٤٢٠ الى ٠.٣٤ مليون سنة. الا أن نفس المصطلح «(غونز)» يطبق أحيانا على الحقبة الباردة التي تسبق الكرومري والتي قد يكون عمرها ٠.٩ الى ١.٣ مليون سنة. مما يوافق الحقبة الباردة السابقة لحدث جارميو في العينات الترابية تحت البحار. وفي اطار هذا التأويل الأخير، وجب أن يشمل (دونو)، وهي حقبة باردة سابقة، حدث جلسا وان يكون معادلا للابوروني.

واعتبارا لهذا المثال ندرك الخطر الناشئ عن أن نعم من منطقة الى أخرى، ترتيبا زمنيا مرتكزا على تعاقب مناخي قاري: فيقدر ما تتأخر في الزمن اعتبارا لعدد الاحداث الباردة، واعتبارا



● شكل ١ - منحنيات تبين التشابهات الموجودة بين العلاقات النظائرية للاوكسيجين (أو التغيرات في الحرارة) وشدة الحقل المغناطيسي الأرضي في قبة تحت البحر، وذلك بالنسبة لفترة الـ ٥٠٠٠٠ سنة الأخيرة. اعتماداً على وولن وار يكسون وولن (١٩٧٤)



● شكل ٢ - منحنيات تبين التشابهات بين درجات الحرارة كما تدل عليها الحيوانات الصغيرة والانحناء المغناطيسي، وذلك بالنسبة للمليوني سنة الاخيرة. اعتماداً على «وولين وآخرين» (١٩٧٤).

للمصطلحات التي أطلقت عليها اعتباراً، تتسبب الاختلافات في عدم توضيح علاقات الارتباط القائم بين الشواهد الدالة على التجمدات الألبية، وموجات البرد المتتابة المقاسة بالعينات الترابية في المحيطات.

فلا بد من تسجيل كامل ومتواصل للظواهر المناخية من جهة، وللعلامات الطبقيّة الأرضية المغناطيسية والراديو مترية من جهة أخرى، لكي نضع، ولو تقريباً، سلماً طبقياً أرضياً ونساعد على الوصول إلى مقارنة مفيدة بين منطقتين.

إن القلب المغناطيسي ماتياما — برونس (٠.٦٩ مليون سنة) قد حدد في الطبقة الكرومرية بفضل البليينولوجيا، كما حدد حدث جلسا (١.٧٩ مليون سنة) بالابوروني. (فان منفرنس ١٩٧١).

## التعدي البحري في الدهر الرابع والترتيب التاريخي

يتسبب كل تجمد في تقهقر جمودي لمستوى البحار يقدر تقريباً بمائة متر. إن التعديّات البحرية الناشئة من ذوبان الثلوج، تسمح إذن في المناطق الساحلية، بالربط بين الترتيب التاريخي الطبقي الأرضي المناخي وبين الترتيب التاريخي الخاص بالدورات البحرية.

أما في المناطق التي تكون فيها التشكلات البحرية مرجانية (وذلك في برباد وبرمودا وغينيا الجديدة والبحر الأحمر) فقد سمح ضبط التواريخ بطرق عدم اتزان الأورانيوم، المطبقة على أرغونيت المرجان بضبط عمر التعديّات التابعة لما بين التجمدات (٢٠٠٠٠٠ و ١٢٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد تقريباً). ونلاحظ (مع اعتبار فارق الخطأ الفيزيائي الناشئ عن مختلف الطرق الراديوية تاريخية) أن تلك المستويات البحرية العالية توافق بالتدقيق المراحل الحرارية الأكثر علواً وتدل عليها الحيوانات البحرية الصغيرة واللحاحات، كما تدل عليها نظائر الأكسجين.

## آلية المناخ الشاملة

إن المناخ ليس وسيلة لاقامة علاقة ارتباط تاريخي. وذلك أن تعقد العوامل القائمة في وقت معين (أو في فترة تدوم بعض القرون أو بعض الألوف من السنين) تمنع من أن نستعمل المعطيات غير المؤرخة تاريخياً مضبوطاً كمعيار طبقي أرضي أو تاريخي.

إن العوامل التي تؤدي إلى هذه الملاحظات على نوعين:

— أولاً : أن معرفة التطور المناخي العام على مستوى بعض عشرات السنين (أو بعض القرون استناداً إلى معطيات تاريخية) تبين تعقد المسألة في مستوى الكرة الأرضية. ولذلك وجب معرفة جميع العوامل، ومن بينها «الشمس» كعامل ثابت، وحركة المحيطات، ووضع الجبهات القطبية، والأمطار (ليس معدلاً فحسب بل كذلك تفاوت نسبها).

— ثانياً: إن معرفة تحولات بعض العوامل المناخية منذ ٢٥٠٠٠ سنة تقريباً (آخر البليستوسين والهولوسين) اعتماداً على القياسات الراديومترية، تدل من جهة على سرعة تغيرات هامة توفرت لنا عنها وثائق مفيدة، ومن جهة أخرى على تعقد علاقات الارتباط على مستوى الكرة الأرضية. وبذلك يلعب سلم الأزمنة المعتبر دوراً هاماً.

إن «النظام المناخي»، كما عرفه المجمع القومي للعلوم بواشنطن (١٩٧٥) يتألف من الخصائص والعمليات المسؤولة عن المناخ وتحولاته، كالخصائص الحرارية: (حرارة الهواء، والماء، والمثلج، والتربة). والخصائص الحركية: (الرياح، والتيارات البحرية، وتنقلات الثلجات)، والخصائص المائية: (رطوبة الهواء، السحب، الماء المطلق أو الجوفي، المثلج الخ). والخصائص السكونية: (الضغط، وكثافة الفضاء والمحيطات، وملوحة الماء الخ)... ثم الحدود الهندسية والعوامل الثابتة التابعة للنظام المناخي. وتترابط جميع متحولات النظام بالعمليات الطبيعية التي تطرأ عليها، مثل نزول الأمطار، التبخر، الإشعاع، التنقل، ارتفاع الهواء الساخن، اضطراب الجو.

وتشمل المقومات الفيزيائية للنظام المناخي: الفضاء، المحيط المائي والمحيط البارد، وقشرة الأرض، والمحيط الحيوي. أما العمليات الفيزيائية المسؤولة عن المناخ فانه يمكن التعبير عنها كمياً باعتبار المعادلات الدينامية للحركة، ومعادلة الطاقة الحرارية الدينامية ومعادلة التواصل للكتلة والماء.

إن التحولات المناخية ستكون أكثر تعقداً بقدر ما يوجد من تفاعلات كثيرة بين عناصر النظام المناخي، ولهذا فإن أسباب التغيرات المناخية عديدة ومتنوعة لا سيما إذا اعتبرنا سلم الزمن المعتمد، وآليات التفاعل (المفعول الرجعي). ويعتبر دور المحيطات مهماً في التحولات المناخية من خلال عمليات مقابلة الهواء للماء، والمتحركة في تبادل الحرارة والرطوبة والطاقة.

إن هذه الاعتبارات المبدئية تبين أن مرحلة الطبقة الأرضية المناخية في الدهر الرابع كانت من باب المقاربة الضرورية، ولكنها تفسح المجال تدريجياً للبحث عن الآليات الخاصة بحالة معينة جداً على سلاسل مختلفة من الزمن. ولهذا السبب سندرس عدة أمثلة من النتائج الحديثة التي تهم الحاضر ثم الهولوسين، والبليستوسين، والبليو — بليستوسين.

## المناخ الحالية والحديثة بإفريقيا

إن النسق السنوي لتناوب فصل جاف وفصل رطب بإفريقيا في المنطقة المابين الاستوائية مربوط بتنقل منطقة التقارب المابين الاستوائية.

إن «السيت»، كما خصه حديثاً ج. مالي (١٩٧٣) ول. دوريز يمثل مكان المجابهة بين الرياح «الموسمية» (وهو هواء رطب أصله المناطق الاستوائية أو الصايبات البحرية من نصف كرة الأرض الجنوبية) وبين «(الحرمتان)» (هواء صحراوي). إن «السيت» الموجهة تقريباً غرباً — شرقاً تنتقل من الجنوب إلى الشمال مدة الربيع والشهرين الأولين من الصيف، ثم من الشمال إلى الجنوب. إن هذا التأرجح الفصلي يقع بين الدرجة الرابعة (٤) شمالاً والدرجتين (٢٠ — ٢٣) شمالاً. إن مساحة انقطاع التواصل ترتفع ببطء بين الهواء الرطب والهواء الجاف من الشمال إلى الجنوب. ولا

تشكل الطبقة الرطبة من الرياح الموسمية في الصيف الا كتلة باردة ضيقة جدا في الشمال فلا تأتي الا بأمطار ضعيفة، اذ يجب أن يبلغ الهواء الرطب من السمك ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ متر حتى تسقط أمطار غزيرة. وتلك أحوال لا تتحقق الا على ٢٠٠ أو ٣٠٠ كلم جنوبا من خط «السيث» (انظر ل. دوريز. ١٩٧٤)، وتطرأ على موقع السيث تحولات مهمة جدا لا على سلم الفصل بل على السلم النهاري، باعتبار حقل الضغط بافريقيا والمحيط الاطلسي. وكما بين ذلك ب. بودي لا بورد (١٩٧٠) فان الدفع الآتي من المحيط الاطلسي الجنوبي مربوط بنشاط الجبهة القطبية الجنوبية يمثل المحرك الأساسي الذي يدفع بمنطقة التقارب نحو الشمال. ويعتبر تقلص «السيث» نحو الجنوب ناشئا في نفس الوقت عن ضعف الإعصار العاكس جنوب المحيط الأطلسي (في سبتمبر) ولتأثير نصف كرة الارض الشمالي. إن هبوب الهواء الشمالي الجاف بعد أن يمر بالصحراء، لا يتسبب الا في بعض الامطار على الجبال الصحراوية. وبالعكس يأتي الهواء الجنوبي بعد مساره البحري، بالرطوبة. ان الازمة المناخية الحالية بمنطقة الساحل تعود حينئذ الى أن «السيث» قد تركز في ٣ الى ٤ (درجات) الى الجنوب أكثر من وضعه المعتدل. وكانت الصحراء قد تقلصت مدة العشرية الرطبة (١٩٥٠ - ١٩٥٩): فوافقت الرطوبة، كما بين ذلك مالي (١٩٧٣) انخفاض الحرارة القصوى على الهوامش الجنوبية.

ولذلك فان قوة الجبهات القطبية وتوسعها نحو خط الاستواء يتعاظمان بقدر ما يكون الهواء القطبي أكثر برودة. وذلك ما دعا مالي (١٩٧٣) الى التمييز آيتين: آلية الحقبات الجمودية وآلية الفترة الحالية. ففي الأول طرأ على المساحة المتجمدة القارية من نفس كرة الارض الغربي توسع كبير، ولم يطرأ الا شيء قليل على المساحة المتجمدة القارية الجنوبية، فكان للجبهة القطبية الشمالية اثر غالب وكانت تدفع بالموسمية في الصيف بعيدا نحو الجنوب. وعندئذ وقع التجفيف الذي صاحبه الزحف الجمودي، وضعف أثر المركز القطبي في التسخن الهولوسيني، وذلك منذ ٥٠٠٠ - ٤٠٠٠ سنة ق. م. ان تقلص الجبهة القطبية (ج. ق) الشمالية قد ساعد، مدة الصيف الشمالي، على توسع الموسمية نحو الشمال من خط الاستواء بينما كانت الجبهة القطبية الجنوبية تدفع بشدة الإعصارات المعاكسة الماتحت الاستوائية نحو خط الاستواء. واستطاعت الجبهة القطبية مدة الشتاء الشمالي ان تضاعف أثرها في الصحراء وأن تتسبب في أمطارها. ان هذه الامطار الشتائية والصيفية تفسر المناخ الرطب الذي ساد الصحراء الجنوبية، كما تفسر تقلص الصحراء مدة النصف الاول من الهولوسين. ان تقلص الجموديات القارية منذ ٥٠٠٠ سنة قد قلل من قوة الجبهة القطبية كما أن تقلص منطقة القطب الشمالي منذ ٥٠٠٠ سنة قد أضعف قوة الجبهة القطبية الشمالية، وتناقصت في نفس الوقت قوة تأثير القطب الجنوبي. ولذا يفسر التجفيف التدريجي بالصحراء التناقص المزدوج الطارئ على دفع الموسمية وعلى تأثير هواء القطب الشمالي على الصحراء. ان هذه الآليات المناخية كفيلا بان تساعد على ادراك التغيرات المناخية بافريقيا مدة الدهر الرابع.



## الترتيب التاريخي والمناخات منذ ٢٥٠٠٠ سنة

تعطينا الـ ٢٥٠٠٠ سنة الأخيرة من الدهر الرابع (آخر البليستوسين والهولوسين) مثالا حديثا ومعتمدا على معلومات ثابتة، عن توسع جودي كبير جدا وعن تقلصه الى حد الحقبة المابين جودية الحالية. ولقد طرأ في نفس الحقبة على المناطق ما بين المدارين جفاف شديد، تبعته مرحلة رطبة ثم تجف جديد. ان الامر يتعلق هنا بالاضطراب المناخي الوحيد الذي يمكن دراسته على سلم يقدر ببضعة قرون أو بضع الألوف من السنين، والذي يسمح بالمقارنة بين عناصر النظام المناخي وتقلباته في مناطق عديدة على جميع خطوط الطول من الكرة الأرضية. ونضيف في شأن تلك الحقبة ان العلامات التي وفرتها اللقاحات، والمشطورات والحيوانات المشابهة للأنواع الحالية تسمح بأن نضبط كميا مدى التحولات الطارئة على المحيط الجغرافي. أما معدل مستوى البحار فقد أصبح معروفا، بل يوفر فضلا عن ذلك، وفي كل لحظة، فكرة عن الحجم العام للمثلجات وعن العلاقات النظرية للأكسيجين في أهم المستودعات (المحيطات، المثلجات) انظر موزير (١٩٧٥م).

أما فيما يخص إفريقيا الصحراوية، ومنذ أن تم إنجاز الدراسات الاجالية الاولى المعتمد على التواريخ بالكربون ١٤ (بوتزر، ١٩٦١، مونود ١٩٦٣م، فور ١٩٦٧، ١٩٦٩) تعتبر الأعمال الأكثر حداثة التي يجب الإعتماد عليها من أجل الوقوف على ترتيب تاريخي مفصل للتقلبات المناخية، هي أعمال م. سرفنت، ببلاد التشاد والنيجر، وف. غاس ببلاد العفر، وبإفريقيا الشرقية. وأعمال الفرق من العلماء: فان زندرن باكر، ولفنغستون، ورشاردن، وويليامز، وفيكنس الخ. وفي الامكان مقارنة نتائج دراسات اجالية عديدة خصصت للمناطق من خطوط الطول العليا القريبة من القطب، ومنها دراسات فلتشكو ودرامنيس الخ. ويعرف ميدان المحيط الأطلسي في مجمله من خلال اعمال فرق كليما ب (١) ومكانتاير. أما فيما يتعلق بنصف الكرة الأرضية الجنوبي فيعمل على ما نشره فان درهامن وويليامز، وبولو، وآل.

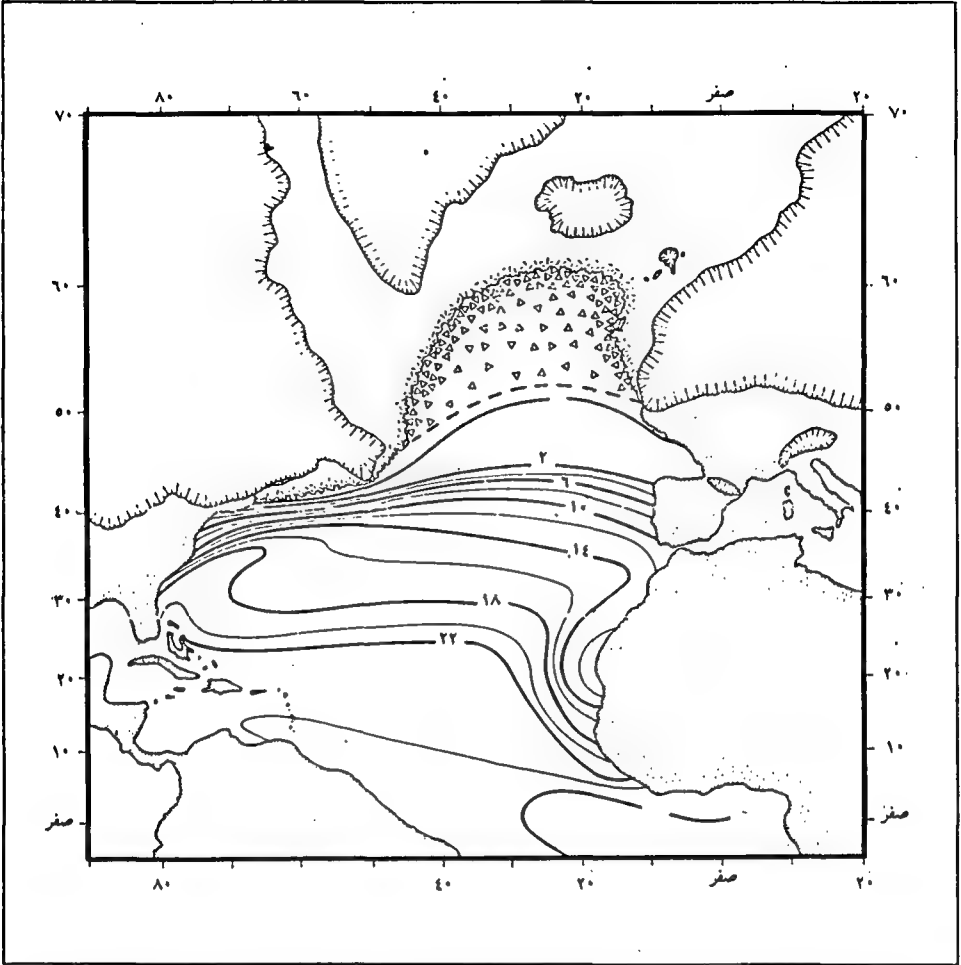
ان السعي الى وضع تاريخ تطور المناخ بإفريقيا في اطاره منذ ٢٥٠٠٠ سنة يجعلنا نميز مراحل زمانية عديدة:

## ٢٥٠٠٠ - ١٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد

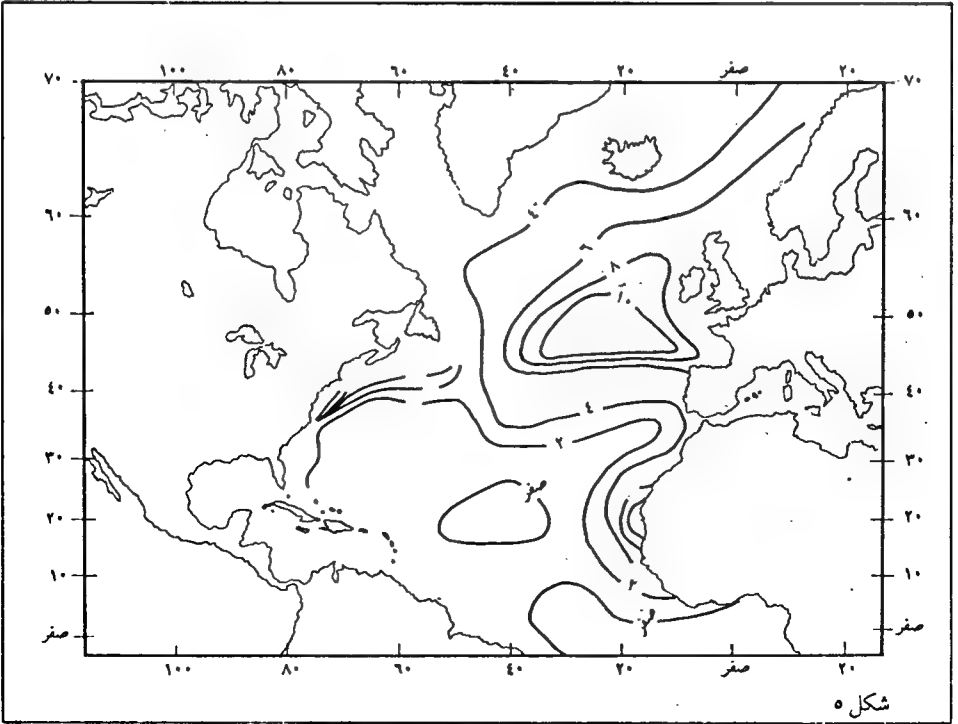
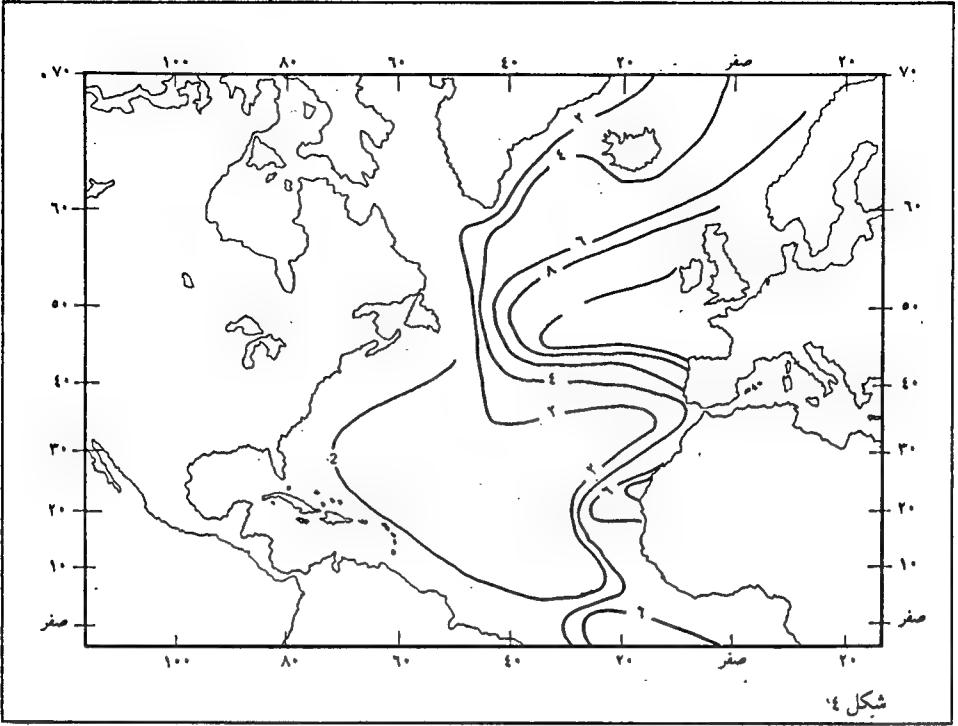
### خطوط الطول العليا القريبة من القطب

توافق الحقبة الزمنية بين ٢٥٠٠٠ و ١٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد، نهاية التوسع الأقصى للقبعات الحمودية التي كانت ممتدة على النصف الشمالي من الكرة الأرضية. ان هذا التوسع من تجمد وورم (فيسكونس = فايشلين = فلداي) قد غطى بالمثلجات مساحة تمثل ٩٠ أو ٩٥ في المائة من المساحة التي احتلت مدة كل التجمدات السابقة في الدهر الرابع (فلنت، ١٩٧١)، ولهذا فان الأمر يتعلق هنا بنموذج يمثل تمثيلا صحيحا تجمدا معينا. يبدو أن البيرامافروسييت (أي تغطية الأرض

(١) كليما ب (التاويل الواسع المناخي، والتخریط والتوقع) من العشرة الدولية لاستكشاف المحيطات.



● شكل ٣ - خريطة خطوط الحرارة المتساوية للمياه السطحية في شهر فبراير في المحيط الأطلسي ١٨٠٠٠ قبل الحاضر. وخطوط الحرارة المتساوية المرسومة بالشرط الصغيرة تفسيرية، بينما تبين الحدود المشرشرة الكتلة الجليدية القارية الكبرى، وتبين الحدود المبينة بالحبيبات الجليد الساحلي المستديم. وقد رسم خط الساحل الجليدي على أساس مستوى سطح البحر يقل بمقدار ٨٥ مترا على المستوى الحالي. (استنادا الى ماكنتاير وآخرين، ١٩٧٥).



● خريطة تبين اختلافات حرارة المياه السطحية بين الزمن الحالي وبين سنة ١٧٠٠٠ قبل الحاضر. (استناداً إلى ماكتاير، ١٩٧٤، كليماب)، شكل ٤: فصل الشتاء، وشكل ٥: فصل الصيف.

بالجليد بصورة دائمة طوال السنة) كان أكثر اتساعا مما كان عليه مدة التجمدات الأخرى (فلتشكو ١٩٧٣، ١٩٧٥م). ومن المحتمل أن امتداد التجلد الدائم مربوط خارج القارت، بجليد يجري متطور جدا امتد على المحيطات الشمالية وساهم في الحد من التبخر عند تقابل الهواء والبحر.

### المحيطات

ساهم انخفاض معدل مستوى المحيطات من ٥٠ الى ١٠٠ م٢ فضلا عن تقلص المساحة الطلقة الناتجة عن جليد البحر، في تقليص مساحة تلك المحيطات بحوالي عشرة في المائة فبرزت خارج الماء، في نهاية الحقبة المعنية، أغلبية المسطحات القارية. ولقد استطاع الباحثون من فريق كليما ب (مكأنتاير وآل ١٩٧٤، ١٩٧٥، وهيس، في كليما ب ١٩٧٤ الخ...) وضع خرائط عن حرارة المياه السطحية بالمحيط الأطلسي بالنسبة للحقبة الموافقة للتجمد الأقصى (١٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد) (الشكل ٣). ان تلك الخريطة، عندما تقارن بالخرائط الحالية (وهي خرائط ما بين جمودي) تبرز معدلا عاما من فروق حرارية لا يزيد على ٢٠° بين التجمد الأقصى والتجمد الحالي. الا أن توزيع الفروق الحرارية يبين حدا أقصى بالنسبة لخطوط الطول المتوسطة (٦° الى ١٠° من الفرق) كما يبين فروقا أضعف بكثير (أقل من ٣°) بالنسبة لخطوط الطول ما بين المدارين (الشكلان ٤ و٥). ومثال ذلك أن الحرارة السطحية بالنسبة للنقطة ٥٠° شمالا - ٣٠° غربا كانت في الشتاء أقل من ٧٣° الى ١٢٧° في ١٨٠٠٠ (أو ١٧٠٠٠) سنة قبل الميلاد، مما هي عليه اليوم، أما في الصيف، فان الفرق ينخفض الى ١٢° إلى ٦٦° (كليما ب، ١٩٧٤).

ان انتقال المياه القطبية من نصفي كرة الأرض كانت العامل الغالب بهذه المرحلة الجمودية، ففي شمال المحيط الأطلسي نزلت المياه القطبية حتى خط الموازية ٤٢° شمالا (ابتداء من وضع قريب من الوضع الحالي أي نحو ٦٠° شمالا) متسببة في انخفاض سريع في الحرارة جنوب خط ٤٢° شمالا، كان المحور المحتمل للرياح الغربية في العصر الجمودي. أما في جنوب هذا الحد، فان النموذج ظل قريبا من النموذج الحالي، وان كنا نلاحظ أن خطوط التحارر، الموجهة نحو سواحل افريقيا، تتسبب، خاصة في الصيف، في مياه باردة نسبيا ناشئة عن يتابع متفجرة قوية (جاردرنر، هايس، ١٩٧٥).

تنتقل الجبهات القطبية ومحور الرياح الغربية نحو خط الاستواء بأكثر من ٢٠٠٠ كلم بالمحيط الأطلسي الغربي وبـ ٦٠٠ كلم في نصف الكرة الأرضية الجنوبي بالنسبة لنفس المحيط (في المحيط الهادي، لم تنتقل الجبهات القطبية الا قليلا في الحقبة الجمودية) وهكذا ندرك انخفاض تسرب الموسمية الى الصحراء (انظر ص ٧ - ٨، مالي، ١٩٧٣) وحالة الجفاف بالمنطقة الساحلية في نهاية الحقبة الجمودية.

### افريقيا

ان التطور المناخي العام لـ ٢٥٠٠٠ سنة الأخيرة بمناطق الصحراء الجنوبية وبالساحل تكشف عن اتجاه مماثل ابتداء من سواحل المحيط الأطلسي الى سواحل البحر الأحمر. وان هذه الحقيقة الزمنية

تشمل نهاية طور رطب من البليستوسين الأعلى (الذي دام تقريبا ٣٠٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد) وبداية طور جاف ينتهي حوالي ١٢٠٠٠ قبل الميلاد.

ان دراسة الرواسب البحرية بمحوض التشاد قد دلت على أن العلاقة بين الأمطار والتبخر (م/ت) كانت كافية لاستمرار بحيرات واسعة جدا منذ ٤٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد الى حوالي ٢٠٠٠٠ سنة (م. سرفنت ١٩٧٣). الا أن الجفاف يمتد بعد ذلك وطيلة الثمانية آلاف سنة الموالية، ويتجاوز بمقدار ٤٠٠ كلم الحدود الحالية نحو الجنوب.

ان هذا التحول من حادثة بحيرية الى حقبة جافة جدا ملحوظ أيضا في رواسب بحيرات بلاد العفر حيث استطاع ف. جاس أن يبين وجود حلقات بحيرية ثلاث وقعت في البليستوسين الأعلى ولقد تدهورت البيئة البحرية بين ٢٠٠٠٠ و ١٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وتحتل النباتات النجيلية أعماق بحيرة آبس الناشفة (جاس، ١٩٧٥م).

ويلاحظ سرفنت (١٩٧٣م) وف. جاس (١٩٧٥م) عند تحليلها المؤلفات الحديثة، تطورا مماثلا طرا على البحيرات الشرقية الإفريقية، وذلك على ارتفاعات وخطوط عرض متفاوتة، وتدل على ذلك أعمال ريتشاردسن وكندل وبترز وليفنجستون بالنسبة لبحيرات رودولف، نكورو نايقاشا، مكدي، البرت الخ. والشكل ٧ يلخص هذه المقارنة و يبين تطورا متماثلا تقريبا لحوالي اثنتي عشرة بحيرة افريقية.

## ١٨٠٠٠ — ١٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد

### خطوط العرض العالية

توافق هذه الحقبة في المناطق ذات خطوط العرض العالية النهاية الجمودية القصوى وتوقف التجمد. إن القبعات الجمودية التي كانت تغطي شرقي أمريكا الشمالية واسكندنافيا والتي بلغت أقصى امتدادها بين ٢٢٠٠٠ و ١٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد، أخذت تذوب بسرعة بعد ذلك التاريخ ولم يبلغ غشاء جبال الكورديير في الشمال الأمريكي أقصاه الا حوالي ١٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد، ثم اختفى في حوالي ١٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وهكذا فان توقف التجمد بدأ في حوالي ١٤٠٠٠ سنة ق.م. أما في نصف كرة الأرض الجنوبي، فيبدو ان القبة الجمودية القارية في القطب المتجمد الجنوبي لم تتبدل الا قليلا في الناحية الشرقية بينما نقصت كثيرا في الناحية الغربية منه، وتوجد قاعدته تحت مستوى البحر. (المجمع القومي للعلوم، واشنطن ١٩٧٥م).

### المحيطات

من المؤكد ان المساحات الشاسعة التي كانت تغطيها الثلجات البحرية قد زالت عندما ارتفع مستوى البحر ارتفاعا سريعا نتيجة توقف التجمد. ولقد بلغ ذلك الارتفاع معدل ١٥ م في كل قرن وذلك بين ١٥٠٠٠ و ١٢٠٠٠ سنة ق. م. وفي التاريخ الثاني، من المحتمل أن ذلك الارتفاع تجاوز النصف بل الثلثين. وتحولت في نفس الوقت مياه المحيط الأطلسي القطبية الى خطوط عرض شمالية.

## افريقيا

تعتبر حقبة الجفاف الكبرى الفاصلة بين ١٨٠٠٠ و ١٢٠٠٠ سنة ق. م من الظواهر التي تمتد على أكبر قسم من افريقيا والتي لنا عنها أحسن المعلومات، وذلك ما تعبر عنه بوضوح رسوم تطور المستويات البحرية بالنيجر والتشاد (سرفنت، ١٩٧٣) وبلاد العفر (جاس ١٩٧٥) والسودان (ويليمز ١٩٧٥) وفيكنس (١٩٧٥) انظر الرسم ١٢) ولقد مكن اندثار النباتات الرياح من أن تقدم التلال الرملية بقدر ٤٠٠ الى ٨٠٠ كلم نحو خط الإستواء وعلى الهضاب الداخلية المرتفعة. ومن المؤكد ان الصحراء المتوسعة قد كانت طويلة آلاف من السنوات حازجا في وجه الإنسان عاقه أكثر مما تعوقه الصحراء الحالية. ويبدو ان هذا التجفف قد كان على غاية من الانتشار، وهناك ما يدل على أن جفافا نسبيا بلغ أغلب المناطق الواقعة بين المدارين بافريقيا (دي بلوى، فان زندرن باكر... ) في كتاب ويليمز (١٩٧٥)، وآسيا وخاصة الهند (سنغ، ١٩٧٣ م) ولقد استعرض ويليمز (١٩٧٥ م) حديثا المؤلفات المتعلقة بذلك الطور وبين امتداده الإستثنائي وتزامنه التقريبي.

### حوض البحر الأبيض المتوسط

خلافًا للتاريخ المناخي السائد خلال التجمد الأخير (منذ حوالي مائة ألف من السنين) والذي يبدو معقدا فيما يتعلق بحوض البحر الأبيض المتوسط (انظر ص ٤١٢) تشهد النتائج البليولوجية (يوناني، ١٩٦٦ م). والنتائج البيدولوجية (رودنبرغ، ١٩٧٠ م) بان المناخ كان جافا وباردا في النهاية الجمودية القصوى. واحتل سهب جاف جدا منطقة البحر الأبيض المتوسط بين ١٦٠٠٠ و ١٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد وكثرت الغشاعات الكلسية بالأرض.

### نصف الكرة الجنوبي

ان مستويات الحرارة باستراليا التي تشهد بها اللقحات قد هبطت بانتظام في حدود ١٨٠٠٠ أو ١٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، بينما كان الجفاف يحل بالمكان وكانت الهضاب تمتد على المسطحة القارية البارزة (بولر، وآل، ١٩٧٥ م) وكان التجمد يحتل طزمانيا والجبال المكسوة بالثلوج، وجفت بحيرات استراليا الجنوبية في حوالي ١٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ان الدفء الذي يدل عليه صعود خط الأشجار في المرتفعات (تمبرلين) ابتداء في حوالي ١٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد ولم يبدأ امتلاء البحيرات الشمالية باستراليا من جديد الا بعد ١١٠٠٠ سنة قبل الميلاد (بولر، وآل ١٩٧٥). ولقد بين فان درهامن ١٩٧٤ م وويليمز (١٩٧٥ م) الخصائص المتشابهة التي تتميز بها مناخات نصف الكرة الأرضية مدة التجمد الأقصى الأخير منذ حوالي ١٨٠٠٠ سنة. وباستثناء الجنوب الغربي من الولايات المتحدة، استمر جفاف عام مدة آلاف عديدة من السنين بمجموع مناطق المعمورة ذات الخط العرضي الأسفل.

## ١٢٠٠٠ سنة — إلى ٠ سنة قبل الميلاد

### خطوط العرض العليا

تختص هذه الحقبة بانتهاء التجمد وعودة دفء ملحوظ، فارتفعت الحرارة الى أقصى درجة فيما بين ٧٥٠٠ و ٤٥٠٠ سنة قبل الميلاد. (الدرجة المناخية القصوى التي لا تزال تدعى «الحقبة الأطلسية»). وسرعان ما ذابت القبة الجمدية للكورديليز، وضمحلّت في حوالى ١٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد كما اضمحلّت قبة اسكندينايا بعد ذلك بقليل (٩٠٠٠ سنة قبل الميلاد). وسجلت تقلبات واضحة وسريعة مع فاصل زمني يقدر ب ٢٥٠٠ سنة (من ذلك تبرّد درياس (DRYAS) الحديث بين ١٠٨٠٠ و ١٠١٠٠ سنة قبل الميلاد).

وسادت في أوروبا الشمالية أحوال تشابه أحوال الحاضر فيما يتعلق بالتلج الذي أصابها في حوالى ٨٠٠٠ سنة وأصاب أمريكا الشمالية نحو ٧٠٠٠ سنة (المجمع القومي للعلوم ١٩٧٥ م) وفي تلك الحقبة أيضا تقلصت القبة الجمدية للمحيط المتجمد الجنوبي.

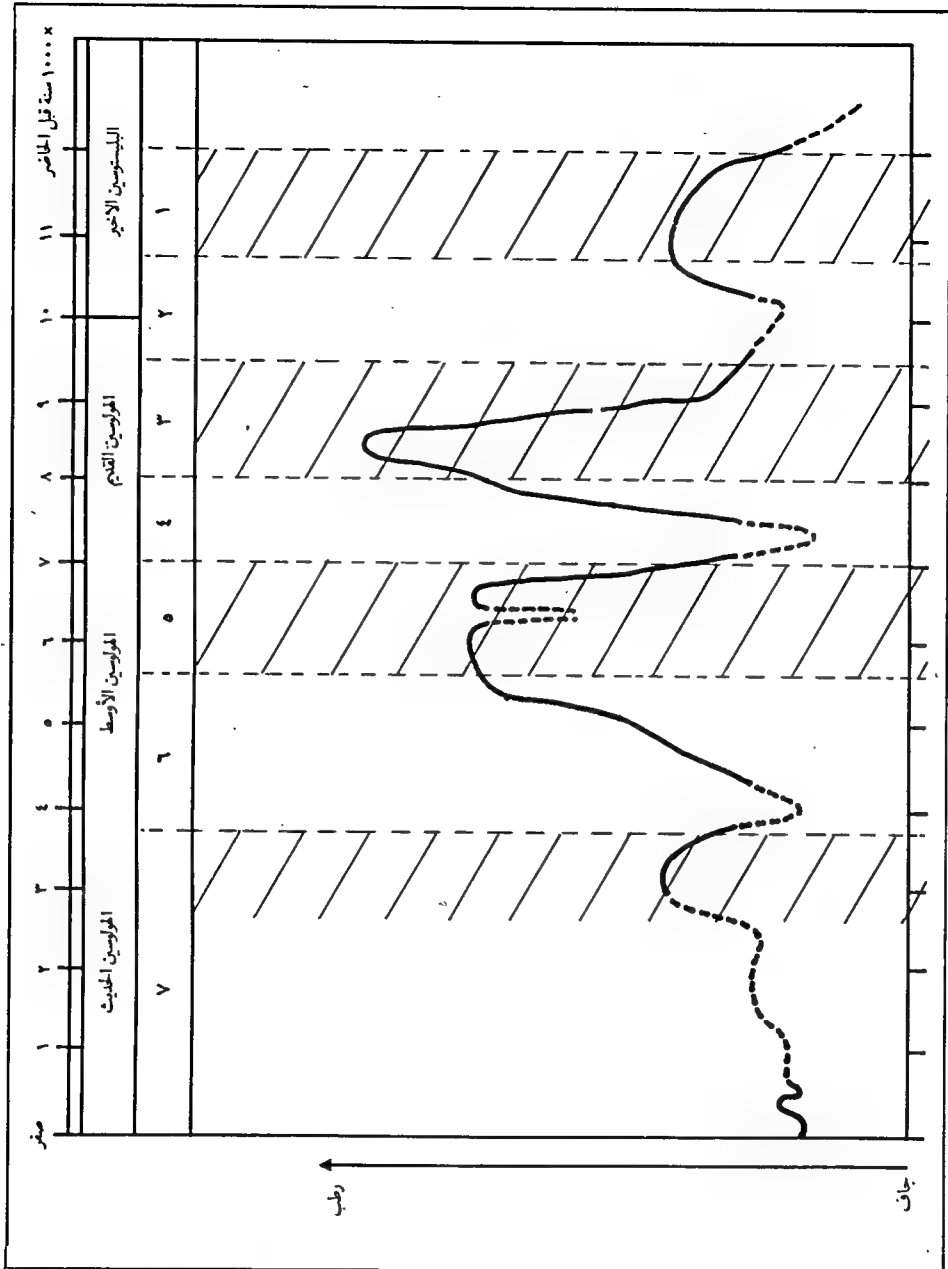
### المحيطات

ان صعيد مستوى البحر الذي يسجل معدل ذوبان جميع جوديات العالم، كان لا يزال سريعا جدا بين ١٢٠٠٠ و ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد (أكثر من متر واحد في القرن معدلا، يصاحبه تباطؤ كبير أو انسحاب حوالى ١١٠٠٠ قبل الميلاد). ويبدو أن المحيطات بلغت مستوى يقرب كثيرا من المستوى الحالي ابتداء من ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد، كما يبدو أنه ظل متأرجحا حول ذلك المستوى منذ ذلك العهد، مع الامتداد بقدر لا يتجاوز بعض الأمتار. وتتطابق مع هذا الاتجاه العام تقلبات يشهد بها منحني الصعود الذي يؤكد وجود تحولات مناخية هامة (مورنر ١٩٧٣).

ان مناطق الترسيب البحري التي درسها وولن وأريكسن دراسة كافية، تسمح أيضا بأن نتتبع التبدلات في توزيع الفورامينيفر وخاصة تغير النسبة المئوية للغلوبوروتاليا / ترونكاتولينويد التي لها التفاف مياسر، ان قم المنحنى الموافقة لها قد توافقت حسب مورنر (١٩٧٣) قم التبدلات المناخية التي سجلتها العلاقات النظائرية لجموديات غروثلاند والسلام البليينولوجية وتقلبات المستوى البحري. وهنا نبلغ حدود الدقة التي تسمح بها طريقة التاريخ الاشعاعي، فلا بد عندئذ من تحشيات خطية بين التواريخ مع اعتبار تحولات مقدار الترسيب. يضاف الى ذلك أن التفاوت في السلم الزمني للكربون ١٤ بالنسبة لسلم الزمن يفرض ادخال تصويبات تجعل من العسير وجود صلات بين الظواهر التي تقاس حدودها باعتبار قرن كامل.

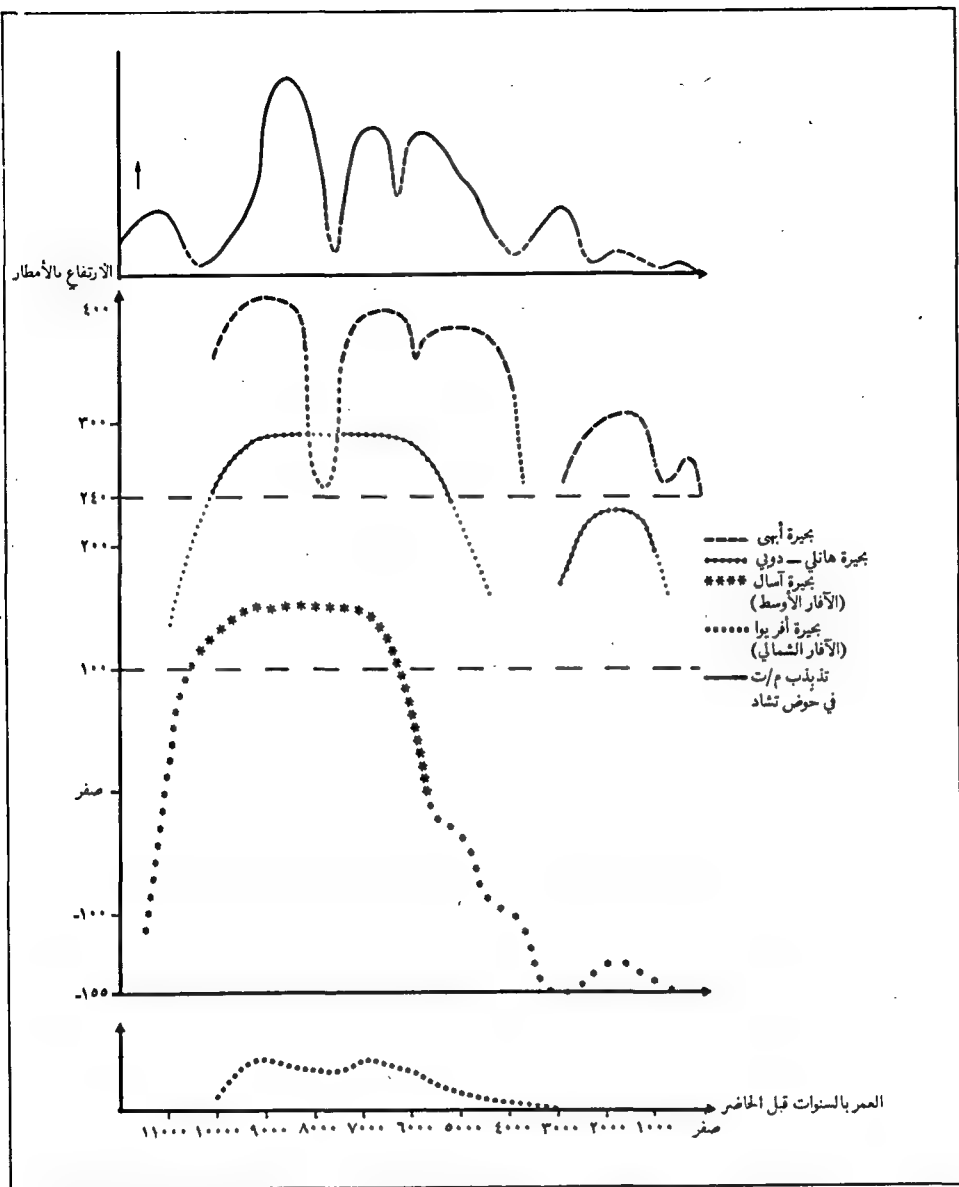
### إفريقيا

لقد شهدت المناطق الصحراوية الإفريقية بعد الجفاف الشديد خلال سنوات ١٦٠٠٠ الى ١٤٠٠٠، وابتداء من ١٢٠٠٠ قبل الميلاد، توسعا خارقا للعادة في البحيرات انطلاقا من سواحل المحيط الأطلسي الى سواحل البحر الأحمر. وتسمح كل المناطق المنهارة بأن نلاحظ في الواقع روايب بحيرية متشكلة في أكثر الأحيان من المشطورات.



● شكل ٦ - التطور النسبي للعلاقة بين معدل المطر/البخر منذ ١٢٠٠٠ سنة في حوض تشاد، بين خطي عرض ١٣ و ١٨ شمالاً. وقد تم تحديد هذا التطور بعد دراسة مقارنة للتغيرات في مناسيب عدد من البحيرات التي تستمد مياهها بصفة رئيسية من الطبقات الجوفية، والسيلان، أو الأنهار. (استناداً إلى سرفانت، ١٩٧٣، ص ص ٤٠ - ٥٢).





● شكل ٧ - تذبذب مستويات البحيرات في أحواض الافار (العفر). ويحتوي نفس الرسم على المنحنيات الخاصة ببحيرات إيهي، وهانلي - دوبي، وأسبال التي ترجع الى العصر الحجري القديم وتقع في إقليم الافار الاوسط. أما المنحني الخاص ببحيرة أفريرا فهو مستقل. والمقارنة مع المنحني م/ت في حوض تشاد. (استنادا الى ف. غاس، ١٩٧٥).

وفما يتعلق بالنيجر والتشاد استطاع م. سرفنت أن يستنتج وجود منحني متواصل يمثل العلاقة م/ت (الشكل ٦) وذلك باعتماد دراسة نماذج مختلفة من البحيرات و باعتبار طرق تزويدها بالماء وأحوالها المائية الجيولوجية والجيومورفولوجية. ان ذلك المنحني المناخي يدل على التبدلات الكبرى التي يبدو أنها تحدث باطراد: من ذلك توسع البحيرات توسعا كبيرا في حوالي ٨٥٠٠ قبل الميلاد وتقلصها في حوالي ٤٠٠٠ قبل الميلاد ووقوع تقلبات طفيفة بعد ٣٠٠٠ قبل الميلاد وتحدث هذه التحولات الأساسية في مختلف بحيرات العفر (جاس، ١٩٧٥) (الشكل ٧)، مع اعتبار بعض الاستثناءات الناتجة عن طرق تزويدها بالمياه. ونلاحظ تشابها واضحا بين منحني التشاد ومنحني رطوبة المنطقة البرية السييرية.

ان دراسة البحيرات الافريقية الأخرى تبين اتجاهها تطوريا عاما، متشابه، ويرى ليفنغستون وفان زندرن باكر وجود توافق وثيق بين التطور المناخي بالشرق الافريقي وتطوره بأوروبا. ويبدو أن توسع البحيرات الصحراوية الى حدود ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد مرتبط بامطار موزعة توزيعا أحسن طيلة السنة وبضبابية شديدة للتقليل من التبخر. ويعتقد م. سرفنت (١٩٧٣) ان الحركة المناخية كانت مختلفة عما هي عليه اليوم. ان وجود مستويات عديدة من مشطورات مناطق «باردة» يجعله يفترض تسربات محتملة من الهواء القطبي الى الصحراء ويبدو ان النظام المناخي الحاضر لم يستقر الا بعد ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

### نصف كرة الأرض الجنوبي

يحدد بولر وآل (١٩٧٥) اضمحلال الجموديات وتزايد الأمطار في حوالي ٨٠٠٠ سنة ق. م (جبل ويلهلم). وفي نفس الوقت طرأت تقلبات طفيفة وذلك بشمال استراليا وغينيا الجديدة. ولقد كانت حرارة الطقس الوسطى ما بين ٨٠٠٠ و ٥٠٠٠ سنة ق. م. تفوق بدرجة أو درجتين الحرارة الحالية، ويعتبر الحد الأقصى المناخي (حسب قياس الحرارة) حدا ذا قيمة عالمية. وخضعت غابات المناطق الممطرة والحارة (الغابات الممطرة) لأحوال تطور مواتية جدا (منذ الجمودي السابق قبل ٦٠٠٠ سنة) بين ٧٠٠٠ و ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وكذلك الشأن بجنوب استراليا، اذ أن البحيرات الناشفة في ١٥٠٠٠ قبل الميلاد أخذت تمتلئ في ١١٠٠٠ قبل الميلاد وعرفت مستويات عالية من ٨٠٠٠ الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

ويبدو أن الدفاء وتزايد الرطوبة المعروفة برطوبة خطوط العرض القريبة من الإستواء ظاهرة عامة برزت مدة النصف الأول من ١٢٠٠٠ سنة الأخيرة، وهي حالة يتميز بها ما بين الجمودي الحالي.

### خلاصة تخصص التاريخ المناخي

#### ٢٥٠٠٠ سنة الأخيرة

تعطينا هذه الحقبة صورة عن التطور المناخي إثر التوسع الجمودي الأقصى (في نهاية حقبة

جمودية) وخلال زوال التجمد الذي أدى الى المابين جودي الحالي. ويشهد هذا النموذج من نصف دورة في زوال التجمد بجفاف عام دام ٥٠٠٠ سنة بافريقيا. ويميز انتهاء التجمد الذي تبعته مرحلة رطبة لها نفس المدة، متقلبة، عادة تدريجيا الى حالة الجفاف.

ويمكن ان نفسر هذه التقلبات المناخية في مستوى الـ ٢٠٠٠٠ سنة باعتبار تنقل الجبهات القطبية وأثرها على الجبهة ما بين المدارين (فيت: FIT)، وباعتبار النوعين من الحركات: أي السريعة والبطيئة.

ومن الممكن أن يكون هذا النموذج معبرا عن أحوال أخرى مشابهة ومن نفس السلم في الدهر الرابع، أي الأحوال التي كانت لها نفس المدة ونفس السعة. إلا أنه لا يوجد ما يسمح بتعميم ذلك على مجموع حقبة جمودية مدتها ١٠٠٠٠ سنة، كما لا يمكن أن نعممه بالآخرى على مجموع التجمدات الحاصلة في الدهر الرابع والتي دامت ملايين عديدة من السنوات. واعتبارا لما سبق، سندرس الآن تاريخ حقبة جمودية في مجموعها.

## التاريخ والمناخات منذ ١٣٠٠٠ سنة

ان الـ ١٣٠٠٠ سنة الأخيرة (أو البليستوسين الأعلى) تسمح بدراسة نموذج مناخي تطبيقي في مستوى زمني يتعلق بحقبة جمودية — بين جمودية كاملة. إن تاريخ تلك الحقبة يتجاوز تجاوزا كثيرا امكانيات التاريخ باشعاع الكربون التي مكنت من اثبات التتابع الدقيق نسبيا (بقياس القرن أو الالف سنة بالتقريب) للـ ٢٥٠٠٠ سنة الأخيرة، إلا أن هذا الفاصل الزمني الموافق لما بين الجمودي الكبير الأخير (الايبي السابق للحالي)، وللتجمد الكبير الأخير (وورم = فسكنسي = فايشلسين = فلداي) أصبح معروفا نسبيا اعتمادا على ضبط زمني من درجة ١٠٪ أو ٢٠٪ فيما يتعلق بجزئه الأكثر قدما.

ان تعميم سرعات الترسيب المعروفة، وتطبيق مناهج عدم توازن الاورانيوم والبوتاسيوم — آرغن الى الحد الأقصى من إمكانياتة يوفران لنا في المحيطات وفي الأحواض الترسيبية، معطيات تاريخية اضافية. ان الادمج الخطي بين نقطتين مؤرختين من سلسلة متواصلة، تسمح بوضع تاريخ تقريبي، إلا أنه لا يمكن تدقيق علاقات الترابط البعيدة تدقيقا كافيا اذا اعتبرنا الأحداث في مستوى زمن يكون دون بعض آلاف السنين. فيمكن أساسا ان نحدد أحسن تحديد الاتجاهات العامة التي تهم حقبة متوسطة (١٠٠٠٠ سنة) والتي يمكن مقارنتها بالنسبة الى منطقة وأخرى.

## مقارنة بين المناطق

### خطوط العرض العليا

ان نباتات البين جودي تبين أن الحرارة بأوراسيا وأمريكا تقريبا حرارة الحقبة الأطلسية (بين ٧٠٠٠ و ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد) وذلك طيلة أطوار هذا البين جودي الأكثر حرارة (بين ١٢٥٠٠ و ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد) وهذا يعني أنها كانت مختلفة قليلا عن الحرارة الحالية. وقد حدث هذان

البين جموديان فجأة بعد برد كبير (آخر طور بارد جدا لريس: ١٣٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد وآخر طور بارد جدا لوورم: ٢٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد).

### المحيطات

يسجل تفاوت مستوى المحيطات تسجيلا حسنا الحدين الجموديين الأقصىين، باعتبار انخفاضات هامة في الحرارة (- ١١٠ م ± ٢٠ بالنسبة للحد الأقصى الثاني في حوالي ٢٠٠٠٠ الى ١٨٠٠٠ سنة) وتشابه المستويات العليا المسجلة التي وقعت خلال البين جموديين الايمي والحالي (بنسبة ٥٪ بالتقريب) وقد تكون ارتفاعات مستوى البحر مدة بين الطورين (٤٥٠٠٠ و ٣٠٠٠٠) بلغت ما بين ٦٠ و ٨٠٪ من الارتفاع الأقصى (انشيري موريتانيا مثلا)، مما يؤكد ذوبان كتلة جمودية مساوية مدة ما بين الطورين.

### افريقيا

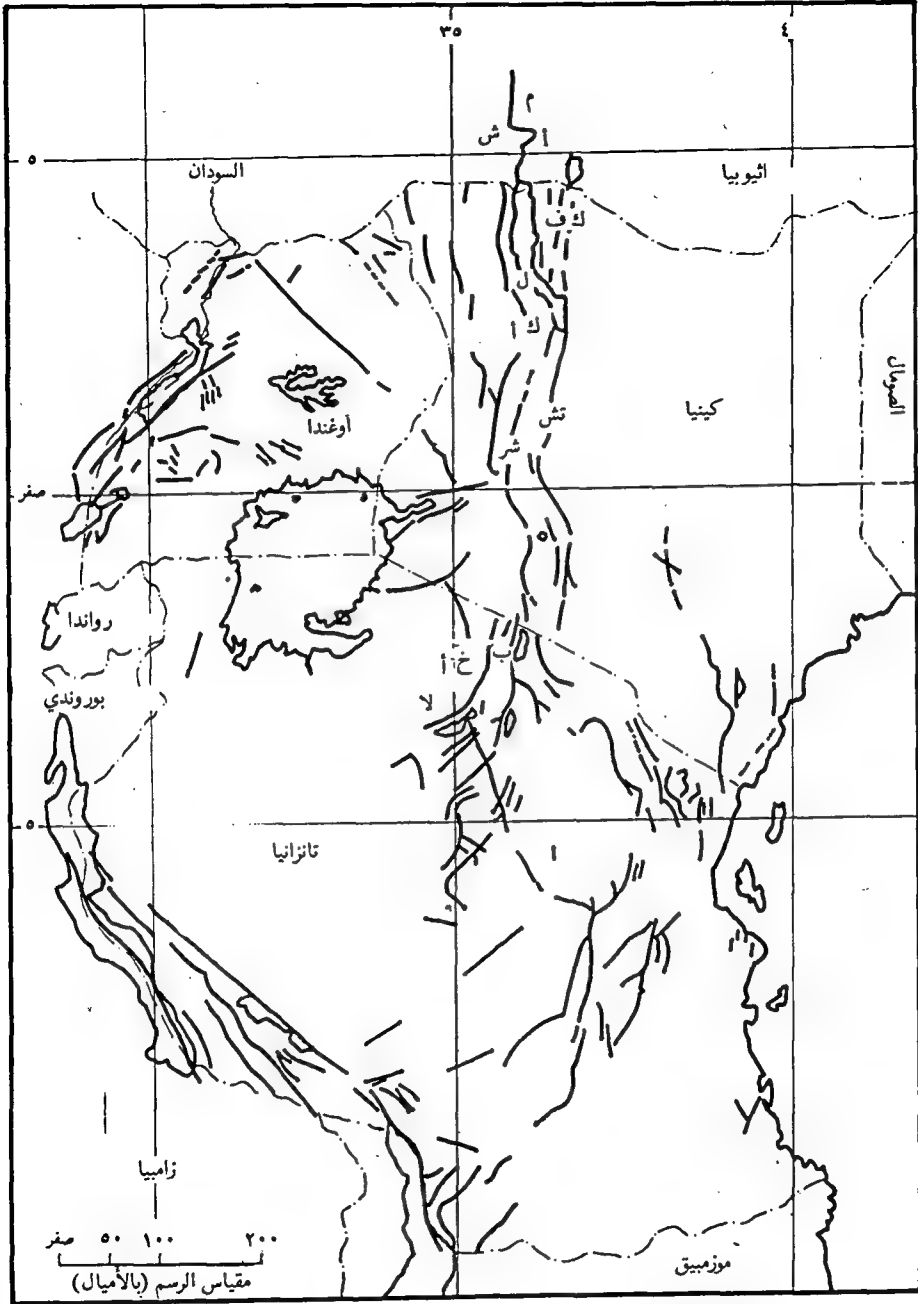
من المحتمل أن يكون أثر الظواهر الجمودية، على غرار ما يجري في المحيطات، أقل وقعا في خطوط العرض القريبة من خط الاستواء. ان اختلافات الحرارة من طور جمودي الى طورين جمودي وبالغة ٥° الى ١٠° في خطوط العرض الوسطى، يمكن أن تتراوح بين ٢° الى ٣° في خط الاستواء. أما الظاهرة التي يمكن تسجيلها بسهولة في افريقيا، فهي توزيع الامطار وكمياتها. ان المناطق الافريقية التي توفر لها تاريخ قياسي اشعاعي مضبوط ضبطا محكما بالنسبة لـ ١٣٠٠٠٠ سنة الأخيرة، عددها قليل. الا أن سبر بحيرة أبيي (ABHE) قد مكن ف. غاس (١٩٧٥م) من أن يبرز ثلاثة أطوار بحيرية بالبليستوسين الأعلى قبل وقوع التجفف من ٢٠٠٠٠ سنة الى ١٤٠٠٠ سنة. وأليك هذه الحقبات البحرية المعتبرة: حقبة ٣٠٠٠٠ سنة الى ٢٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد (المناخ رطب استوائي معتدل)، يفصلها عن توسع بحيري آخر وقع منذ حوالي ٤٠٠٠٠ الى ٣٠٠٠٠ قبل الميلاد تقلص هام وقع منذ حوالي ٣٠٠٠٠ سنة. ولذلك قد يعود تاريخ أقدم طور بحيري الى ٥٠٠٠٠ أو ٦٠٠٠٠ سنة (أوربا ٦٠ — ٨٠٠٠٠ سنة) و يوافق، حقبة أكثر برودة تدل عليها المشطورات النباتية.

لقد وفرت لنا دراسة اللقاحات بالوادي الاعلى من آواش في بلاد العفر علامة أخرى عن تحول مناخي تاريخه غير مضبوط يعود الى البليستوسين، حيث استدل ر. بونفي (١٩٧٣م، ١٩٧٤) على وجود مناخ أكثر رطوبة من المناخ الحالي، ومن المحتمل أن يكون أبرد منه، وهو خاص بالسهب الواقعة في المرتفعات.

### حوض البحر الابيض المتوسط

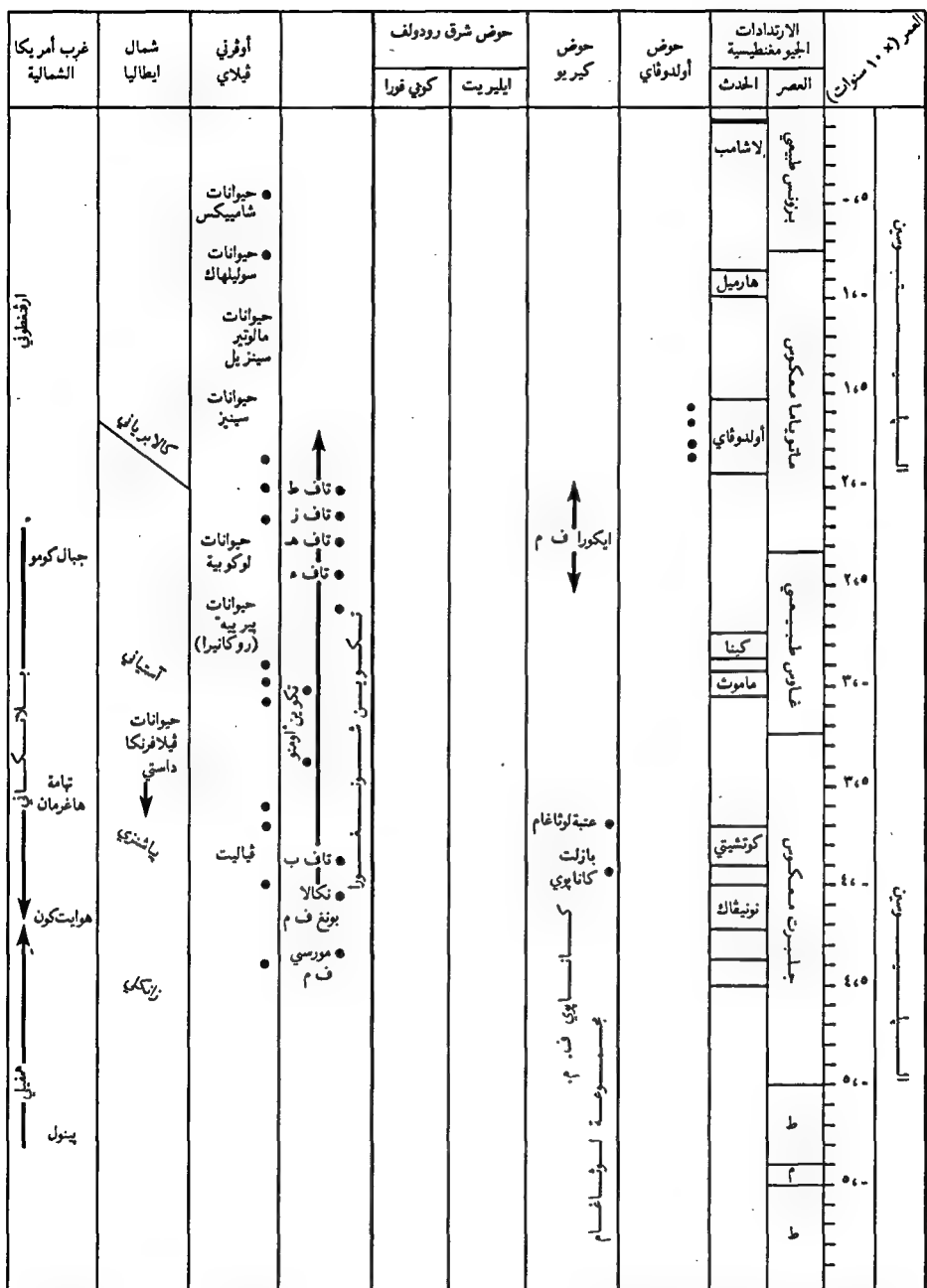
ان حوض البحر الأبيض المتوسط الكائن بين المنطقتين الجغرافيتين المدرستين سابقا يشكل ميدانا مناخيا هاما و يبدو تطوره معقدا. ولا يمكن أن نعتبر بصفة خاصة أن التجمدات قد مكنت بكل بساطة استقرار مناخ رطب به.

فلقد توصل فاران (١٩٧٧) بعد تحليل الدراسات البلنلجية والميكرو بليونولوجية والنظائرية التي جرت بالشرق من البحر الأبيض المتوسط، واليونان، واسرائيل (قام بهذه الدراسات ايميلاني،



● شكل ٨ - خريطة المواضع الأحفورية من عصر البليو-بليستوسين في شرق أفريقيا.

المفتاح: م = مورسي، أ = أوسنو، ش = شونجورا، أي = إيليرت، ك ف = كوفي فوراء ل = إوٹاغام، ك/أ = كانابوي وإيكوباء شر = شرمون، تش = تشيسوانجا، ك = كانام، ب = بنينج، خ أ = خانق أولدوفاي، لا = لايتويل - سهل سرينغيتي. والخريطة مأخوذة في جانبها الأكبر من الخريطة الجيولوجية المرسومة بمقياس ١:٤٠٠٠٠٠٠ لشرق أفريقيا (كينيا). (استنادا إلى ف. كلارك هويا، ١٩٧٢).



١٩٥٥ وفرنو- كرازيني، وهرمن - روزنبرغ، و١٩٦٩، ويمسترا ١٩٦٩ وفان درهامن، ١٩٧١، ورويسنيول، ١٩٦٩، وأيسان، ١٩٦٨، وايسار وبيكار، ١٩٦٩) الى النتيجة التي تفيد أن انخفاض الحرارة مدة التجمد الأخير قد يكون بمعدل ٤° بالنسبة للقضاء وبمعدل ٥° الى ١٠° بالنسبة للبحر. ولقد كان الجفاف أكبر باليونان طيلة الحقبة الجليدية بينا جرى عكس ذلك على سواحل اسرائيل. وعلى النقيض من هذا، فإن دراسة البقايا الصغيرة من الثدييات (القواضم) (انظر تشرنوف، ١٩٦٩ بكتاب فاران، ١٩٧١) قد تفيد تطور أحوال جوية رطبة تطورا تدريجيا نحو أحوال جوية جافة مدة الـ ٨٠٠٠٠ سنة الأخيرة. ولقد انخفض مستوى بحيرة لسان باسرائيل في حوالي ٢٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد بمقدار ١٩٠ في ظرف ١٠٠٠ سنة بسبب انتشاف (متربط مع حركة بنوية أدمية بالرفت في البحر الأحمر). ولقد سبق أن رأينا (ص ٤٠٣) أن انتهاء التوسع الأقصى من برد وورم يوافق أحوالا جوية باردة وجافة في مجموع البحر الأبيض المتوسط.

ان تعقد الحالة الجغرافية المناخية بحوض البحر الأبيض المتوسط مازال يستوجب كما هو الشأن بافريقيا، دراسات مفصلة ستفيد في ضبط تطور المناخ باعتبار طور وورم.

### خلاصة تتعلق بالتاريخ والمناخات منذ ١٣٠٠٠ سنة

توفر الحقبة الجليدية الاخيرة نموذجا عن دور مناخي كامل يقاس بحوالي مائة الف من السنوات (بين جمودي - جمودي - بين جمودي) مع اعتبار تقلباته البين طورية والطورية التي دامت تقريبا ١٠٠٠٠ سنة. ولقد تميزت هذه الفترة بافريقيا بتوسعات بحيرية (مدتها تقارب الاولى)، تفصلها أطوار من التجفاف.

ان التدقيق التاريخي لا يسمح نظرا الى معارفنا الحالية، بربط الصلة ربطا مؤكدا بين الاطوار الباردة أو الدافئة مع الأطوار الرطبة أو الجافة بافريقيا. ونحن نأمل ان نجيب على هذه المسألة في المستقبل، الاعمال الجارية المعتمدة على مقاطع واستبارات تدل على تتابع متواصل في الأحداث.

### التاريخ والمناخات منذ ٣٥٠٠٠٠٠ سنة

ان الاتجاه البطيء نحو البرد الذي يميز الدهر الرابع، ابتدأ منذ ٥٥ مليون سنة تقريبا (انخفاض المناخ في الدهر الحديث) (المجمع القومي للعلوم ١٩٧٥). ان القبة الجليدية بالقطب الجنوبي التي تشكلت منذ حوالي ٢٥ مليون سنة، قد ازدادت كثيرا منذ حوالي عشرة ملايين سنة ثم حوالي ٥، أو ٤ ملايين سنة، اذا كادت تبلغ عندئذ حجمها الحالي. وظهرت قبة القطب الشمالي المبسوطة على القارات المحاورة للمحيط الاطلسي الشمالي منذ حوالي ٣ ملايين سنة. وابتدأ البرد الاكبر الأول الطاريء على جميع المحيطات منذ حوالي ١٨ مليون سنة (انظر بندي في كتاب بيشوب، ميلر ١٩٧٢) وذلك قبيل قاعدة الطبقة البحرية «كالابري» عند حدوث جيلسا (١٧٩ مليون سنة).

لقد زدوتنا مناطق عديدة من افريقيا (تشاد، افريقيا الشرقية الخ) بحيوانات فقيرة وافرة، فاعتبرت انها ترجع الى عهد الفيلافرنشي (بين ٣٣ و ١٧، أو مليون سنة). ولكن بعض المجموعات من الثدييات تدعو الى الاعتقاد بوجود أحوال من الرطوبة تفوق الرطوبة التي تختص بها البيئة الحالية للطبقات المعدنية. ولذلك فلقد اعتبرت دليلا على أنها ترجع الى عهد «الممطارات» بافريقيا.

ان الطبقات الأكثر تفصيلا، المعتمدة على تاريخ (أ/ك) وجيولوجي مغناطيسي، هي ترسبات الاغوار (رفت) بالشرق الافريقي. ففي هذا النوع من الملء الرسوبي يكون ابراز أثر المناخ أعسر مما هو على بنية الأرض أو في البراكين أو في التغيرات الطبوغرافية مما حدا بالمؤلفين الى أن يتركوا حاليا اعتماد تسلسل مناخي مفصل. وعلى النقيض من ذلك فان التاريخ الطبقي يعتبر أمرا ثابتا ويعتبر مرجعا من المراجع العالمية.

ان التسلسلات الرسوبية المؤرخة، الموجودة بمختلف الطبقات الفقيرة أو البشرية بافريقيا

الشرقية (الشكلان ٨ و ٩) هي:

— اومو (بأثيوبيا): يختص بتشكيل طبقي هوشكل شغورة البالغ سمكه تقريبا ١٠٠٠ م وتتراوح مدته ما بين ٣٢ الى ٨ مليون سنة (اعتمادا على هنزلين، وبروان، وهول ١٩٧١م، وكوبنس، ١٩٧٢م وبيشوب، وميلر، ١٩٧٢م، وهول، ١٩٧٢م، وبروان ١٩٧٢م، ١٩٧٥م).

ان دراسة اللقاحات لتشكيل شغورة قد أبرزت تحولا مناخيا هاما استحال الى الجفاف وذلك منذ مليوني سنة، ونموسباب عشبية من النجيليات (بونفي ١٩٧٣م، ١٩٧٤م). وتؤكد دراسة الحيوانات هذا التحول. ويمكن أن تقترح موازاته بحقبة برد عالمي طرأ على المحيطات (١٨ مليون سنة).

— أولدواي (طانزانيا): ان تسلسل التشكلات الكلاسيكية وتأريخها هو كما يلي

— مجاري ندوتو ٠.٣٢ مليون سنة

٠.٤

٠.٦

— مجاري ماسين

٠.٨

مجري ٤

١.١٥

مجري ٣

(الكنكري القديم)

١.٧

مجري ٢

٢.١

مجري ١

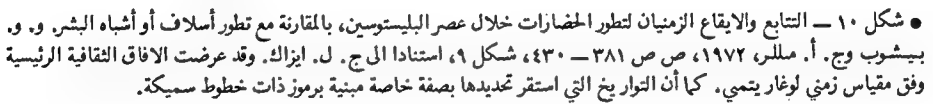
(الكاماسي القديم)

(بالاعتماد على ليكي وكوك، وبيشوب ١٩٧٦م، وهول، ١٩٧٢م، وهاي، ١٩٧٥م)

— شوقي رودولف (كينيا): ان الطبقة المخصصة في الشكل ١٠ والتي وضعها بروك واسحاق (١٩٧٤) هم ٣٢٥ مترا من الترسبات التي تمتد على الزمن المتراوح بين ٣٥ الى ١٥ مليون سنة (اعتمادا على بوون، وبروك، واسحاق، وفندرا، ١٩٧٤م).

— هدر. في العفر الأوسط (اثيوبيا): ان التشكلات البشرية ذات الأحفورات الوافرة الموجودة في هدر. في العفر الأوسط، التي درستها المجموعة (المكونة من البعثة الدولية من أجل البحث بالعض) تعود الى حوالي ٣ ملايين سنة حسب يوهنسن والطبيب ومجموعتها (١٩٧٤، ١٩٧٥).







ان الاعمال الجارية حاليا بتلك المناطق من الشرق الإفريقي ستسمح في بضع سنوات باقتراح تطور مناخية جديد يعتمد على الرسوبية وعلى علم البيئة النباتي والحيواني ويأخذ بعين الاعتبار تداخل العوامل البنيوية والبركانية. ولقد درست دراسات مكثفة مناطق أخرى من إفريقيا مثل سوارا (أيمان وجماعته، ١٩٥٩م، أيمان ١٩٧٥م) ووادي النيل (وندورف، ١٩٦٨م، بوتزر وهنسن، ١٩٦٨م، وهنزلين، ١٩٦٨م، وفيغنيك، ١٩٦٨م، وسعيد (تحت الطبع) والتشاد (كوبنس، ١٩٦٥م وسرفنت، ١٩٧٣م)، وإفريقيا الشمالية. ان التحولات المناخية المقترحة تعتمد على تسلسل الترسيبات والتحفرات النهرية، أو على تعاقب الحيوانات الثديية، ولا يمكن الآن، لا سيما عند فقدان تأريخ بالقياس الاشعاعي، أو المغناطيسي الطبقي، أن نربط هذه التحولات بالتقلبات الجمودية الأوربية.

## الخلاصة

ان تزايد الانخفاضات الحرارية بالمعمورة، المرتبط بتغيرات المناخ عبر الزمن من مميزات السينوزويك الأعلى منذ ٥ ملايين سنة. ولقد تسبب على مستوى خطوط العرض القطبية في تغيرات حرارية هامة، كانت أساسا للحقبات الجمودية والحقبات بين الجمودية. ان التقلبات الحرارية تضعف نسبيا في مستوى خطوط العرض بين المدارين. الا أن التقلبات الطقسية التي يشوشها تعزيز أو ضعف الجبهات القطبية، تسبب في تغيرات هامة في توزيع الأمطار وكمياتها التي تساهم في تبديل محيط مختلف المناطق المناخية تبديلا عميقا. ان هذه التغيرات المناخية عندما تحول دوريا الوسط الجغرافي والنباتي، وهو اطار حياة الحيوان وتطور البشر، تنظم تاريخ تطور إفريقيا بطريقة أكثر خفاء من طريقة الجموديات بأوروبا.

ان ما يجدر الاحتفاظ به من هذه اللوحة السريعة عن حالة معارفنا المتعلقة بالتاريخ والتغيرات المناخية بإفريقيا، هو ضرورة متابعة رصد الأحداث الملحوظة والمقيسة قبل أن نحمد معارفنا المتناثرة في قالب نظرية متحجرة. ولا بد من جهة أن نعتبر أهمية السلم الزمني المتصل بمختلف المظاهر من تغيرات المناخ. فيجب أن ننتبه الى وضع كل مشاهدة وكل ظاهرة في سلم الزمن الذي تنسب ان اليه. وذلك ما يشهد به الشكل ١٤، المأخوذ من مؤلف الجمع القومي للعلوم (١٩٧٥م)، حيث ذكرت أمثلة خمسة من التغيرات المناخية باعتبار سلام من الزمن تتراوح بين القرن ومليون سنة.

## ظهور الانسان المشاكل العامة

القسم الأول

بقلم: ل. بالوت  
واي. كوبنس

### المعطيات الاحاثية

الإنسان حيوان ثديي، وبعبارة أدق حيوان ثديي مشيمي (١). وهو من فصيلة المقدمات (Primates).

#### المعايير الاحاثية (Paléontologiques)

تختلف المقدمات التي ينتسب إليها الإنسان عن الثدييات الأخرى المشيمية بنمو المخ المبكر، وتحسن الرؤية المجسدة للأشكال، وصغر الوجه، والاستعاضة عن الخالب بأظفار مبسطة، ومقابلة الإبهام للأصابع الأخرى. ان المقدمات تنقسم الى ما قبل القردة والى القردة. وينتسب الإنسان الى القسم الثاني الذي يتميز بتزايد القامة، وانتقال عجاجر العينين الى القسم الأمامي من الوجه، مما كان له أثر في تحسن الرؤية واستقلال الفراغين الصدغيين.

ولقد حدث فجأة انقلاب في أشكال تلك القردة، وذلك في الأوليغوسين الأعلى منذ حوالي ٣٠٠٠٠٠٠ سنة، مما يجعلنا نفترض أن تميز فصيلة البشريات يمكن أن يعود الى ذلك العهد. ان كتابة تاريخ هذه البشريات يستوجب ان نبحث في تلك الأحفورات التي تتجه ميولها التطورية نحو الصفات المميزة للجنس البشري الذي نحن منه، ومن ذلك خاصية الرجلين وما ينبجّر عنها من تغيرات في القدم، والرجل، والحوض، واتجاه الدماغ، ونسبة العمود الفقري وغوا الجمجمة وصغر الوجه، واستدارة قوس الأسنان وصغر الأنياب، وتعمق الحنك الخ.

(١) تمثل الثدييات أكثر ما تطور من أقسام الفقريات الخمس، وتعتبر الثدييات المشيمية أكثر الثدييات تطوراً إذ لها عضواً جديداً، وهو المشيمة الصالحة لتنفس الجنين وتغذيته.

ان قرد بروبليو (Propiophithèque) الذي عاش في الاوليغوسين الأعلى يتميز الى حد ما ببعض تلك الصفات، مما نشأ عنه حماس سابق لأوانه عند بعض المؤلفين الذين يعتبرونه من جنسنا.

أما الصفات الملحوظة عند قردة راما (Ramapithèque)، فتبدو أكثر دلالة، اذ يظهر ان المخ قد بلغ عندها ٤٠٠ سنتمتر مكعب واصبح الوجه أصغر، واستدار قوس الأسنان، ونبتت بشكل عمودي الشانبا والأنياب التي أصبحت أصغر أيضا. وبما أن مقدا بشريا آخر، وهو قرد أوريو (Oreopithèque) الذي عثر على هيكله كاملا، بما أنه يتصف بنفس الصفات الخفية وبجوض يناسب من يمشي أحيانا على رجلين، لذلك يمكن لنا أن نفترض أن الهيكل الواقع أسفل المخ عند قرد راما الذي لم يعثر عليه بعد، قد يشمل هو أيضا على كل هذه الصفات الأولى المناسبة لاستقامة الجسم.

اما الصفات التطورية الخاصة بقردة أسترالو (قردة الجنوب Australopithèque) فانها لا تدع مجالا للشك، فهي تمشي دوما على رجلين، ولما قدم انسان، ويد عصرية جدا ومخ متزايد الحجم، وأنياب صغيرة ووجه مصغر، فلا بد اذن من ان نعتبرها من البشريات. يتميز جنس الإنسان الذي يأتي في نهاية السلسلة، عن قردة أسترالو، بتزايد القامة، وتحسن في الوقوف مستقيما، وتزايد في حجم المخ الذي كان يبلغ بالنسبة لأقدم الأنواع ٨٠٠ سنتمتر مكعب، كما يتميز بتحول في الأسنان يتمثل في نمو الاسنان الامامية بالنسبة للأسنان الجانبية وذلك إثر تغير نظامه الغذائي النباتي الى نظامه الغذائي القارتي (ياكل كل ما يجده).

ومن هنا ونرى أن طريقة عمل الباحث الإحاثي (Paléontologist) تستوجب دراسة تشريحية مقارنة ودينامية على السواء. واعتبارا أن التطور ينطلق دائما من البسيط الى المعقد، ومن العام الى الخاص، وجب عليه أن يعثر على أحفورات صالحة للمقارنة وتكون، مع اعتبار العمر الجيولوجي، على درجة من الاختلاف عن الإنسان الذي يبحث عن أسلافه.

ان أقدم المقدمات هي مخلوقات ما قبل القرد (Prosimiens) التي تمثلها اليوم الليموريات الملاغشية، والترسيات الفيليبينية والاندونيسية، والغالاغوس الصغير في إفريقيا المدارية وقد انقسمت القردة منذ الايوسين (٢) الى مجموعتين كبيرتين: الفنتاسيات (٣) أو قردة العالم الجديد، المستعرضة الأنوف والتي لها ٣٦ سنا، وسفليات المنخرين، أو قردة العالم القديم الرقيقة الأنوف والتي لها ٣٢ سنا.

وستنقسم سفليات المنخرين الى عدد من الأسروهي الذيلات، والبنجديات، والبشريات والشقوق، وقردة الجبال وقردة سيفا والقردة العملاقة الخ.

(٢) اننا نذكر ان الزمن الجيولوجي ينقسم الى عهود: الأول، والثاني، والثالث، والرابع. ولقد ظهرت المقدمات البشرية في آخر العصر العهد الثاني، وذلك منذ ٧٠ مليون سنة وأخذت تتطور منذ العصرين الثالث والرابع. وينقسم العهد الثالث الى خمسة طبقات وهي، ابتداء من اقدمها الى أحدثها، البليوسين، والايوسين والأوليغوسين والميوسين والبليوسين. أما العهد الرابع فانه لا يشمل الا طبقتين: البليستوسين والهولوسين.

(٣) يوجد في آخر هذا الفصل معجم يفسر معاني مختلف المصطلحات العلمية المستعملة.



- (١) اعادة بناء بيشة الفيوم كما كانت منذ ٤٠ ٠٠٠ ٠٠٠ سنة. رسوم برتونشيبي — غايار باشراف ايف كوبان؛ معرض أصل الانسان، متحف الانسان (سبتمبر/أيلول ١٩٧٦ — أبريل/نيسان ١٩٧٨)، (تصوير: ايف كوبان)، مجموعة متحف الانسان.
- (٢) طبقات عصري الايوسين والاوليفوسين في الفيوم، مصر. مجموعة متحف الانسان (تصوير الوين سايمونز).

## ما بين ٢٠ و ٤٠ مليون سنة

ليس من السهل أن ندرك ما عسى أن يكون قد وقع بالايوسين والأوليغوسين، أي بين ٢٠ و ٤٠ مليون سنة، لأن المناقذ المفتوحة على هذا الماضي قليلة.

الا أن الموقع الرائع الموجود بالفيوم، على بعد بعض الكيلومترات من القاهرة، قد زود مختلف البعثات التي أتت لاستقاء المعلومات منه، بأنواع مذهشة من المقدمات البشرية وهي: شبه القرد، والقرد الذبابي ذو الذيل الأوليغوسين، وقرد ما قبل البليستوسين، وقرد الريح، وقرد مصر.

ان شبه القرد والقرد الذبابي ذا الذيل يختصان بثلاثة أضراس أمامية أي ٣٦ سنا مثل ما بعد القرديات ومثل قردة العالم الجديد، أي الفتطاسيات. ويوجد جنس ثالث، له مرفولوجية مشابهة، وهو القرد البري - المائي الذي يوجد في بورما.

وهناك خصائص كثيرة وأخرى تجعل هذه المقدمات البشرية شبيهة بسفليات المنخرين التي تختص بـ ٣٢ سنا. ويتعلق الأمر هنا بأسلاف سفليات المنخرين.

ان أول نظرة الى الوراء تبرز لنا كيف أصبح السبيل ممهدا لظهور ما قبل البشر، ويستدل عليه بمرحلة سفليات المنخرين ذات الـ ٣٦ سنا وبثلاثة أشخاص، وهي شبه القرد، والقرد البري - المائي والقرد الذبابي.

ويختص قرد الأوليغوسين، وقرد ما قبل البليستوسين، وقرد الريح وقرد مصر، بضرسين أماميين. فينتعلق الأمر بسفليات المناخر ذاتها التي لها ٣٢ سنا. ان قرد أوليغوسين، وهو مقدم بشري صغير ذو ٣٠ سنتمترات علوا يختص بأضراس من النوع البدائي، ويدل على أنه من طبقة القرد الذبالي. فهو أقدم مقام بشري معروف له ٣٢ سنا. أما قرد الريح فانه يختص بأنياب كبيرة وأضراس لها حديبات مستقلة. ويحتمل أن يكون سلفا للجيونيات أو الشقوق (Gibbons). وتوجد قرابة بينة وبين قردة (البليوبيتيك)، من الميوسين بأوربا، وقردة البحيرات (اللمنوبيتيك). من الميوسين بالكينيا والأوغندا.

ويختص قرد مصر أيضا بأنياب كبيرة وأضراس أمامية متغايرة الشكل (٤) إنه سلف قردة الدريوبيتيك التي عثر عليها بالعالم القديم، ويحتمل أن يكون سلفا للشمينزي. ويختص قرد ما قبل البليستوسين بأنياب أضعف وبضرس أول سفلى له حدية ونصف. ويعتبر أنه فاتحة لتشابه أشكال الضرسين الأسفلين، اللذين تختص بها البشريات. فهل يعني ذلك أنه سلف المجموعة، أم أنه بكل تواضع للسلف المشترك للقردة الكبرى والإنسان أم أنه أصبح بنجديا؟.

ومهما كانت درجة القرابة، فان أهمية تلك الفترة بالشمال الشرقي من إفريقيا، منذ ٣٠ مليون سنة تبين وجود تنوع كبير في المقدمات الصغيرة التي أذنت بالمقدمات الحالية كلها، أي القردة الذبالية، والبنجديات، والهيلوباتيديات، والبشريات. وذلك يعني أن جميع الاتجاهات الأساسية قد تحققت.

(٤) الأضراس الأمامية والأضراس لما تيجان تفصلها شقوق في شكل حداث صغيرة تدعى المذاق أو الحديبات، ويتشابه الضرس الأول الأسفل عند القردة الكبرى (البنجديات) الناب وله مذاق، ويشبه ذلك السن عند البشريات فخرسا أماميا ثانيا وله مذاق فينتعلق الأمر في الحالة الأولى باختلاف أشكال الأضراس، وفي الثانية بتشابه الأشكال.

## ما بين ١٠ و ٢٠ مليون سنة

حصلت أنواع أخرى في التقدم.

اكتشف ل. س. ب. لايكي بالكينيا والأغندا، بقايا مقدم بشري صغير وهو القرد الكيني الإفريقي فصنفه في فصيلة البشريات. ويرجع هذا المقدم البشري الى عهد ٢٠٠٠٠٠٠٠ سنة، وقوس أسنانه مستدير، وأسنانه الخدية (٥) العليا متباعدة، وتواء فكه ضعيف (٦) وثناياه وأنيابه نابضة عموديا، وتيجان أضراسه الامامية واطنة. ولقد رأى فيه كثير من المؤلفين سمات القردة الكبرى. ولقد وجد ل. س. ب. لايكي بالكينيا أيضا، في فورترنان، ما يعتبره نوعا آخر من نفس الجنس، وهو قرد الكينيا فكري، وقد أرجعه في هذه المرة الى تاريخ ١٤٠٠٠٠٠٠ سنة. ونجد مؤلفين آخرين ينسبون هذا المقدم الى البنجديات اعتمادا على سمات أخرى، أو لتأويلهم بطريقة مختلفة الخصائص الموصوفة. وكان ل. س. ب. لايكي قد أتى لصالح مرشحه الجديد، بمجيج قاطعة لأنه اعتمد حججا ثقافية. ولقد قدم في المؤتمر الافريقي بداركار سنة ١٩٦٧، أحجارا من البازالت كانت حوافها الطبيعية تشمل على آثار تدل على استعمالها. وصرح سنة ١٩٧١ بأديس أبابا أن معظم العظام الحيوانية المكتشفة والمتعلقة بقرد الكينيا فكري كانت مهشمة تشبها مصطنعا. فن العجيب جدا تصور ذلك المقدم الصغير الافريقي وهو يختار أحجارا حادة أو قاطعة لتحضير طعامه. وعلى أية حال، فهذا ليس بمستحيل نظريا.

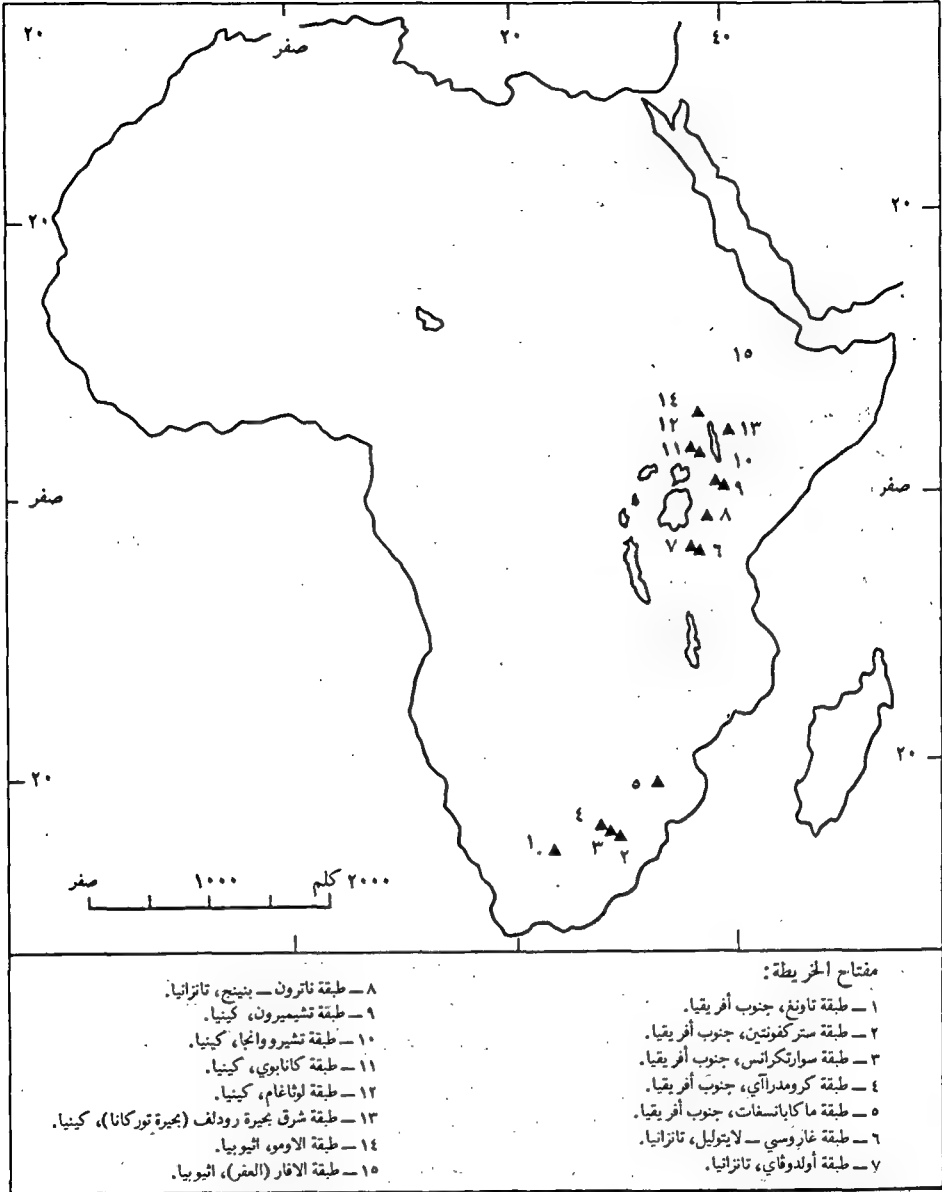
ولقد عثر في ١٩٣٤، بالتشكلات نصف البليوسينية بشمال الهند والباكستان، على مقدم آخر وهو قرد راما البنجابي. ويرجع عهده أيضا الى ٨ أو ١٤ مليون سنة. ولقد درسه سيمونز دي يال من جديد وربطه ببقايا تنسب الى قرد راما. فهو مقدم صغير ين بين ١٨ و ٣٦ كلغ. ان وجهه القصير، وفكه الكشيف ذا الفرع المتصاعد العمودي، واستقامة أنيابه وثناياه الصغيرة وتأخر بروز أضراسه، ومشابهة أضراسه الامامية السفلى لأضراس البشر، قد جعلت كثيرا من المؤلفين، وليس كلهم، يقرون أن قرد راما البنجابي من البشريات. بل ذهب سيمونز الى ربط هذا الأحفور الهندي بالقرد الكيني من افريقيات الشرقية وبعض الاكتشافات المعزولة في الصين وأوربا ليؤلف من مجموعها قاعدة بشرية ميوسينية تشمل العالم القديم كله. وهو لم يكن مخطئا لأن الابحاث الواقعة في الثلاث سنوات الأخيرة، دلت على وجود قرد راما هذا بتركيا (اتيكايا) وبالمجر (م. كرتزوا) فضلا عما وفرته الوثائق الباكستانية الجديدة (بعثة. بليم) من معلومات جديدة عن هذا المقدم.

وعثر في الصين والهند على مقدم ضخم وهو القرد العملاق وهو يدعى القرد العملاق الأسود بالصين، والقرد العملاق بيلاسيورانسيس بالهند التي يقدر فيها عهده ببعض الملايين من السنوات. ان ثناياه صغيرة، وأنياه ليست كبيرة الا أنها ليست بشرية. ولضرسه الأمامي الأول السفلي مذلقان، وأسنانه الخدية كبيرة وقوية وتدل على اهتلاك كبير، ووجهه قصير، وفكه قوي ذو فرع متصاعد عال وعمودي، الا أن جميع المؤلفين رفضوا تماما ترشيحه ليكون أصلا للإنسان، وكشفت

(٥) تسمى الاسنان خدية أو أسنان الحد ويعني بها الأضراس الامامية والأضراس.

(٦) الفك الناق أو الفك البارز الى الأمام (Prognathisme) يعبر عن إسقاط الوجه كله أو جزء منه مما يوجد تحت الانف، الى الامام.





• خريطة المعطيات الاحاثية (الخاصة بعلم المتحجرات).



- ٢
- (١) خواتق أولدوفاي، تانزانيا: حفريات لويس وماري ليكي (تصوير أ. كوبان)، مجموعة متحف الانسان.
  - (٢) جمجمة انسان الجنوب الافريقي البدائي (أسترالوبيثيكوس أفريكانوس). من اليمين الى اليسار: منظر جانبي لجمجمة صغير (تاونغ، بوتسوانا) ومنظر جانبي لجمجمة بالغ (ستيركفونتين، الترنسفال)، مجموعة متحف الانسان (تصوير أ. كوبان).

أبحاث باليونان بأشرف ل. دي بونيس على مقدم له ١٠٠٠٠٠٠٠ سنة وهو قرد أورانو المقدوني الذي يحتمل أن يكون جد القرد العملاق.

وأخيرا فنذ ١٢٠٠٠٠٠ سنة مضت كان يتأرجح بين أغصان الشجر في غابات توسكانا، وربما أيضا بغابات الكينيا، مقدم آخر وهو قرد أوريو (Oréopithèque). ان مكتشفه هو جرفي الا أن واصفه هو الإحاثي الممتاز السويسري يوهانيس هرزير الذي قام بحفريات في غروسيو، بتوسكانا فعثر على هيكل عظمي يكاد يكون كاملا من قرد أوريو البجلي الذي له وجه قصير، وعظام انفه بارزة بالنسبة لجانبية وجهه، وثناياه صغيرة، وكذلك أنيابه، وضرسه الامامي الاول السفلي له مذلقان، وحوضه حوض ذي الرجلين، الا أن اعضاءه الخلفية طويلة جدا. ويبدو أن قرد أوريو من البشريات الصغيرة، وهو على كل حال مقدم يتنقل في الأشجار (٧)، ومتكيف لنوع من العيش في الغابة.

لقد عرفنا قرد كينيا الافريقي، وقرد الكينيا فكري، وقرد راما، وقرد راما البنجابي، والقرد العملاق الاسود، والقرد العملاق بيلاسبورنيسيس، وقرد أوريو ببلي، ولكن الأهم من كل هذا ليس أن نعلم الآن من هو سلف الاخر منها. ولقد مثلنا هنا بسلاسل عديدة. لكنه يبدو لنا ان هذه الأجناس الأربعة التي ترجع الى الميوسين، تبرز صورة مقدم كان يعيش بالغابة و يأتي على ما يظهر لأول مرة يتغذى جزئيا بمناطق مكشوفة، حول البحيرات وعلى ضفاف الأنهار. ومن الواضح أن طرقا في العيش جديدة ستظهر اثر ذلك الخروج من الغابة وسيظهر معها في نفس الوقت صغر الاسنان الخلفية وصغر الوجه، وميل الضرس الامامي الاول، الذي لم يبق الناب يعرقله، الى مضاعفة مذلقة الاول. وذلك يدل على بداية غزو السباب ومعهما التميز برجلين اثنتين (٨).

## ما بين ١٠ ملايين ومليون واحد من السنوات

في البليوسين والبليستوسين، بين عشرة ملايين ومليون سنة، نواجه مجموعة متعددة الأشكال ومحصورة في المكان وهي تؤلف القردة الجنوبية. ولا بد من نبذة تاريخية عن اكتشافها لتتمكن في نفس الوقت من تحديدها في المكان.

### تاريخها

ففي ١٩٢٤م قام الأستاذ ر. دارت (R. Dart) بوصف وتعميد أول قرد من القردة الجنوبية وكان يتعلق الامر بمجموعة قرد شاب عمره ٥ أو ٦ سنوات، اكتشف بجنوب افريقيا، في شق كهف بمنطقة بشوانالاند يسمى تونغ. وتبع هذا الاكتشاف اكتشافات أخرى ابتداء من ١٩٣٦م قام بها الأستاذ ر. بروم وج. روبنسون ثم الأستاذ ر. دارت، وب. توبياس في أربعة كهوف من الترنسفال، وستركفتاين، وشفا رتكرنس، وكومدراي قرب يوهانسبورغ ومكبنسغات قرب بوتغيتسرس.

(٧) ان التنقل الشجري هو نوع من التنقل بواسطة الشجر وذلك بالانتقال من فرع شجرة الى آخر مع التعلق بها بواسطة الأجزاء الأواخر.

(٨) ان التنقل على الرجلين هو نوع من التنقل براء، ويعتمد على الوقوف على الأجزاء الخلفية.

واكتشف في ١٩٣٩م، الأستاذ الألماني ل. كوهل لارسن (Kohl Larsen) مكان يدعى غروزى او (لالتولليل) بالشمال الشرقى من بحيرة اياسى في طانزانيا، اكتشف فكا لقرد جنوبي، وبذلك توسعت الى افريقيا الشرقية مساحة توزع هذه البشريات. ولقد عادت الى العمل بهذا الموطن مارى لايكى فحالفها النجاح اذ أنها أبرزت الى الوجود مجموعة مهمة جدا من البشريات الأحفورية التي يمكن نسبتها بلا شك الى القردة الجنوبية.

وتبع ذلك أعمال مشهورة قام بها أعضاء أسرة لايكى بفتح أولدواي، بطانزانيا، وهي أعمال وفرت سنة ١٩٥٥م، ما يقرب من ٧٠ قطعة تنسب الى البشريات، ومنها ما كان قطعاً ممتازة. واكتشف سنة ١٩٦٤م ر. لايكى وج. اسحاق موطناً ثالثاً للمواقع الطانزانية عندما عثرا على فك قرد جنوبي قرب بحيرة ناترون، ثم تحولت الاكتشافات نحو الشمال.

في سنة ١٩٦٧م، عادت بعثة عالمية الى استكشاف مواطن احاثية تقع بالقرب من الضفة الغربية من الوادى السفلى من الأوموباثيوبيا. وكانت تتركب من ثلاثة فرق: الفريق الاول فرنسي بأشراف الاساتذة ك. أرمبورك واي. كوبنس، والثاني أمريكي بأشراف الاستاذ ف. كلارك هوول والثالث كيني بأشراف الدكتور ل. س. ب. لايكى وابنه ريتشاد. ان تلك المواطن التي اكتشفها في مطع العصر مسافرون فرنسيون، كانت قد استغلها منذ ١٩٣٢م - ١٩٣٣م بعثة من المتحف القومي للتاريخ الطبيعي بباريس بأشراف ك. أرمبورك. ولقد كان من حظ تلك البعثة الجديدة ان اكتشفت ابتداء من الشهر الاول، أول فك لقرد جنوبي بتلك المواطن. وتبع ذلك الاكتشاف، اكتشافات أخرى، وتوصلت البعثتان الفرنسية والامريكية، في ٩ زيارات إلى تحقيق نتائج باهرة، أي ما يقرب من ٤٠٠ بقية من البقايا البشرية.

وترك الفريق الكيني أومو منذ ١٩٦٨م ليستكشف بأشراف ر. لايكى، الشواطئ الشرقية من بحيرة تركانا بالكينيا. واستطاع ذلك الفريق أن يجمع إثر ١٠ زيارات أكثر من ١٠٠ قطعة من البشريات، منها ما هو مهم جداً.

وكانت بعثة أمريكية من هارفارد بأشراف ب. بترسن تستغل في نفس الوقت، بالشواطئ الجنوبية الغربية من نفس البحيرة ثلاثة مواطن صغيرة، سيوفران منها بقايا بشرية.

واكتشفت بعثة انكليزية من بدفورد كولاج بلندن بقايا جيولوجية احاثية بخمسة مواقع. وفي سنة ١٩٧٣م اكتشفت بعثة عالمية بأشراف موريس طيب وايف كوبنس، ودنلد س. يوهنسن في هدر بمنطقة العفر بأثيوبيا، وذلك في أربع زيارات، أكثر من ٣٠٠ قطعة جيولوجية احاثية حفظت حفظاً خارقاً للعادة، وتنسب الى شكل أو شكلين من البشريات. ولقد عثرت بعثة ثانية بالعفر، متفرعة عن الأولى، على جمجمة تنسب الى الإنسان القرد.

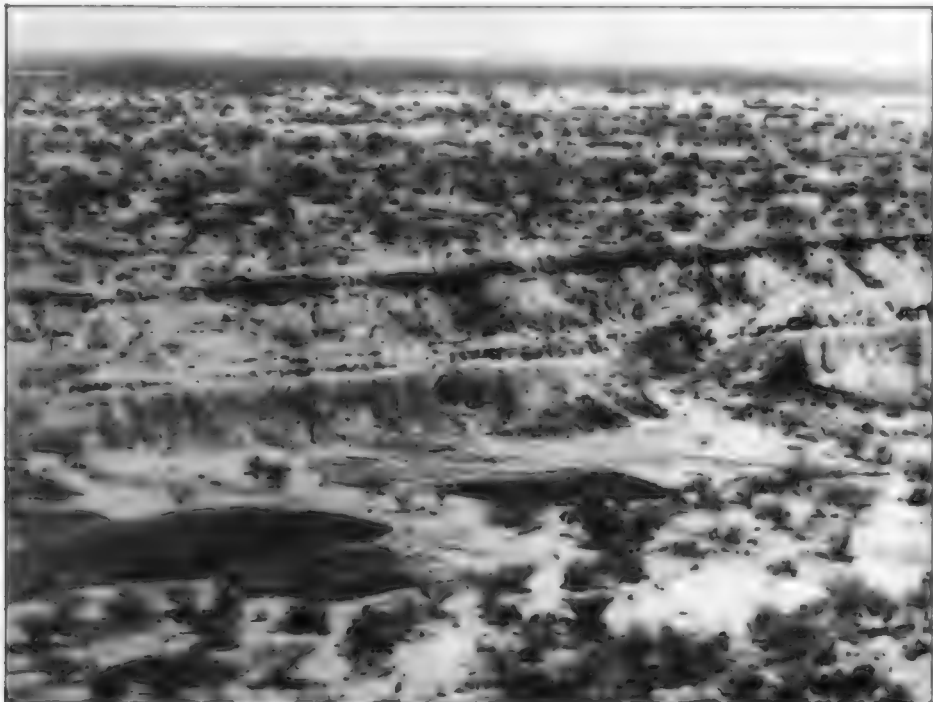
وفي النهاية، اكتشف جان شافايون، بعد ٩ سنوات من الحفريات المتأنية، وذلك سنتي ١٩٧٥م و١٩٧٦م بملكا - كنتوري، ثلاث قطع هامة لها صلة بالصناعات الأولدواية والاشولية. ان هذه المجموعة من الاكتشافات قد حددت مساحة توزع القردة الجنوبية في المناطق الشرقية والجنوبية من افريقيا.



● (١) خوانق أولدوفاي، تاتزانيا (حفريات لويس وماري ليكي). (تصويراً. كوبان)، مجموعة متحف الانسان.



● (٢) طبقة الأوموفي اثيوبيا، (تصويراً. كوبان) مجموعة متحف الانسان.



٢

● ٢) طبقة الأومو في أثيوبيا، (تصويراً. كوبان)، مجموعة متحف الانسان.

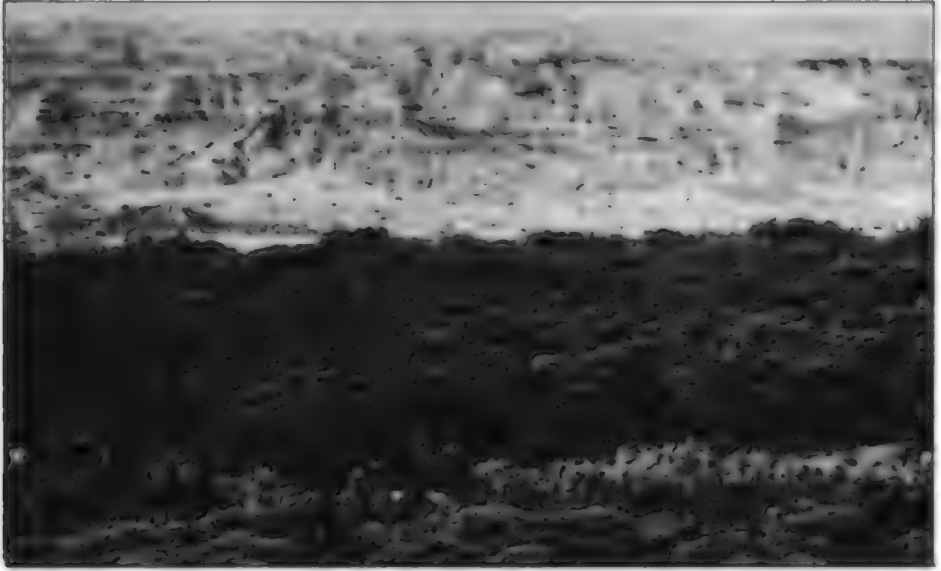


٣

● ٣ و ٤) جمجمتان ل انسان الجنوب البدائي في بوزي. (أوسترالوبيثيكوس بوزي)، طبقة الأومو في اثيوبيا — بعثة ايف كوبان ١٩٧٦. (تصوير ج. أوستر)، مجموعة متحف الانسان.



٤



- (١) طبقة الأتار (المقر)، اثيوبيا. بعثة م. الطيب، وأ. كوبان ود. ك. جوهانسون (تصوير م. الطيب)، مجموعة متحف الإنسان.
- (٢) جمجمة انسان أقالو الكرومانيوني، الجزائر. مجموعة متحف الانسان (معهد الاحاث والآلياتولوجيا) البشرية)، (تصوير ج. أوست).

## ضبط التاريخ

ان أقدم هذه المواطن، موطن نكورورا بحوض بحيرة بارنكو، بالكينيا، اذ أنه يبلغ ٩ الى ١٢ مليون سنة. ولم يوفر الا ضرسا أعلى لبشري غير محدد. الا أن الحفارين يأملون كثيرا فيما ستأتي به استغلالات هذا الموقع في المستقبل. ولقد كان تاج ذلك الضرس منخفضا مثل تيجان أسنان قرد راما. ان بنية مذالقه تشابه بنية قرودة الجنوب. ولعل الامر يتعلق بقرد سيفان. ولقد وفر أيضا موطن آخر من حوض بحيرة بارنكو وهو لوكينو الذي يعود تاريخه الى حوالي ٦ أو ٦٥٠٠٠٠٠ سنة، وفر ضرسا وهو هذه المرة آخر ضرس سفلي يشابه كثيرا أضراس قرودة الجنوب.

وفي لوثاغام، بالجنوب الغربي من بحيرة تركانا، بكينيا، اكتشف ب. بترسين، قطعة من فك فيه سن يذكر شكله بقرد الجنوب. ان الحيوانات الفقيرة المربوطة به تفيد أن تلك الفترة الزمنية ترجع الى البليوسين، اي الى ٥ أو ٦٠٠٠٠٠٠ سنة. ويوجد موقعان بالكينيا، أحدهما بحوض بحيرة بارنكو، وهو سمررون والآخر بحوض بحيرة تركانا، وهو كنبا اللذان يقدران بـ ٤٠٠٠٠٠٠ سنة، واللذان وفرا صدغا، ونقا (عظم العضد) بشريين.

ان مواطن لا توليل بطانزانيا قد أرخ على الأقل بـ ٣٥٠٠٠٠٠ سنة، وتشابه بشرىات الاحفورية مشابهة غربية البشرية المجموعة بهدر في العفر من أثيوبيا، والتي تنسب الى ما بين ٢٨٠٠٠٠٠ و ٣٢٠٠٠٠٠ سنة.

وتتكون مواطن الاومو من مجموع ترسيبي يتجاوز ١٠٠٠ متر بالقوة، ويشمل سلسلة متوالية من الرمال الاحفورية، ومن الطين ورواسب بركانية تسمح بتاريخها تاريخا مطلقا. فلقد أمكن تأريخ المقطوعة بأكثر من ٤٠٠٠٠٠٠ سنة في القاعدة، وبأقل من ١٠٠٠٠٠٠ سنة في القمة.

أما باقي البشريةات فانها توجد ابتداء من ٣٢٠٠٠٠٠ حتى القمة، اي بطريقة متواصلة على مدى ٢٠٠٠٠٠٠ سنة أو أكثر.

ان مواطن الشرق من بحيرة تركانا التي توفر البشريةات تتراوح بين ٣٠٠٠٠٠٠ و ١٠٠٠٠٠٠٠ سنة. ولقد قدرت حديثا أقدم الكهوف الخاصة بقرودة الجنوب، أي مكينسغات وستركفتاين بـ ٢٥٠٠٠٠٠ سنة الى ما يتجاوز ٣٠٠٠٠٠٠ سنة. الا أن هذا التاريخ ما انفك محل نزاع كبير. وتوفر فجاج أولدواي في طانزانيا بقايا بشرىات أرخت صناعاتها على طول المائة متر من قاعدة الرواسب بـ ١٨٠٠٠٠٠ سنة.

ويمكن أن يكون كهفان آخران خاصان بقرودة الجنوب بجنوب افريقيا، وهما سفرتكرنس وكرمدراري معاصرين لطبقات قديمة بأولدواي، أو سابقة لها بقليل (٢٠٠٠٠٠٠ الى ٢٥٠٠٠٠٠ سنة)

وفي النهاية وفر شاسونجا الموجود بحوض بحيرة بارنكو بالكينيا، وموقع بحيرة ناترون بطانزانيا وحتى ثغرة تورينغ بجنوب افريقيا، القرودة الجنوبية الاصغر سنا، لانها لا تكاد تتجاوز المليون سنة. ويبدو ان القرودة الجنوبية قد ظهرت منذ حوالي ٦ أو ٧ ملايين سنة ثم انقرضت في حوالي المليون سنة.

فما وفرت تلك المواطن « كثيرا من البشريةات، وبعضها ينسب الى هذا العصر. أحدهم قرد الجنوب القوي أو ما قبل الانسان (Paranthrope) او الإنسان الزنجي (Zinjanthrope).



أما الآخر فيسمى قرد الجنوب الرشيق، أو قرد الجنوب بالمعنى الدقيق، أو إنسان البليستاتروب (Plesianthrope) أو ما قبل القرد الجنوبي (Paraustralopithecus). أما الثالث فلقد سمي الإنسان الماهر أو قرد الجنوب الماهر. ودعي الأخير الإنسان المستقيم (Homo erectus) أو الإنسان البعيد (Telanthropus) أو الإنسان الكبير (Méganthropus).

(أ) القرد الجنوبي القوي: هذا القرد معروف بجنوب إفريقيا في كهوف لها ٢ الى ٢٥ مليون سنة، وبوادي أوموباثيوبيا وبشرق بحيرة تركانا بالكينيا، وبنفس السن بأولدواي منذ حوالي ١٨٠٠٠٠٠ سنة وشيسوونجا منذ ١١٠٠٠٠٠ سنة، وهو يسمى القوي لأنه فعلا أقوى وأكبر من الآخرين. ان مرفولوجيته تدل على جهاز ماضع قوي اذ له اضراس واضراس أمامية ضخمة. فنتج عن ذلك فك قوي، وعضلات ماضغة متينة، وله قوس وجني (٩) قوي، وعرف سهمي (١٠) مدهش بالنسبة للعضلات الصدغية. ان حاجبه منخفض ووجه عال ومنبسط وأسنانه الخلفية صغيرة مما ييسر حركات المضغ الجانبية. وللفك شعبة صاعدة عالية جدًا، وذلك من شأنه ان يزيد في حركات مضغ العضلات الماضغة والجناحية. ان جسم قرد الجنوب هذا أصلب من أجسام الانواع الاخرى. ويقدر وزنه بـ ٣٥ الى ٦٥ كلغ بالنسبة الى طول ١٥٥ (متر). ان رجليه لم تكونا كاملتين، إذ لعظمي الفخذين رأسان صغيران وعنقان طويلان وسعة الجمجمة مقدرة بـ ٥٣٠ سنتيمتر مكعب في سوار تكرونس وأولدواي أيضا. ونلاحظ في هذا الصدد تطورا طرأ على الخنخ، مما يدل على بلوغه درجة أكبر في ضبط الحركات (حركتا اليد، والمشي مثلا).

(ب) ينتسب قرد الجنوب الرشيق الى مكبنسغات وستر كفتناين بجنوب إفريقيا. ويعتقد أنه عثر عليه في أوموباثيوبيا، في غروسي أو في لا توليل بطانزانيا، وبالعفر بأثيوبيا، ولوثاغام بالكينيا، وله متر واحد أو ١٢٥ من المتر، طولاً، و١٨ الى ٣١ كلغ وزناً، فوجهه أكثر اسقاطاً من وجه القرد الجنوبي القوي، وقوساه فوق المحجرين (١١)، ناميان نموا معتدلاً، ومتصلان بجين نام نسبياً. أما الشنايا المعلقة فلقد أثبتت عمودياً. أما الانياب، وهي صغيرة، فتشبه الشنايا، وأسنانه الوجنية متباعدة مما جعل قوس أسنانه على شكل قطع مكافئ. ان أسنانه الوجنية كبيرة ومذالقتها مستديرة، ميناؤها كثيف، واهتلاكها قد بلغ النهاية.

ان هذا القرد الجنوبي، وان كان قارتياً (يأكل كل شيء) أكثر من السابق، الا أن غذاءه الأساسي متكون من النبات. ان كثافة الفك وكثافة الميناء، والاهتلاك المتناهي، وقصر الوجه، وكبر حجم الأضراس الامامية والاضراس، كل ذلك يدل على وجود جهاز ماضع قوي. ولقد حدث تأخر في بروز الاسنان، وهذا التأخر، مضافاً الى كثافة الميناء، يدلان على تكيفه مع حياة ومراقة طويلتين. ان سعة القحف في الداخل تتراوح بين ٤٢٨ و ٤٨٥ سنتيمتر مكعب، أي بمعدل ٤٤٤ سنتيمتر مكعب بالشكل الإفريقي الجنوبي. وتشير العظام الطويلة، لا سيما النقا وعظم الكتف، الى ما

(٩) القوس الوجني هو جسر يربط الصدغ بالوجه.

(١٠) العرف السهمي هو غمغظمي، له في أعلى الدماغ، حد يشبه زينة الخنزة.

(١١) القوسان فوق المحجرين هما الحاشيتان العظميتان العلويتان من المحجرين (المحجر الذي يحتوي العين).



- ٢
- (١) منطقة حفائر أولدوفاي (تصوير ج. شافايون)، مجموعة متحف الانسان.
  - (٢) انسان الجنوب البدائي القوي (الى اليمين) والرشيقي (الى اليسار). (تصوير ج. روبنسون)، مجموعة متحف الانسان.



١٠ و ٢) الانسان الماهر. (تصوير متحف كينيا الوطني).

درج عليه أسلافه من التنقل على الأشجار. ومع هذا، فإن القرد الجنوبي الرشيقي يعد من ذوي الرجلين الدائمتين.

(ج) وصف الانسان الماهر في أولدواي (طانزانيا) سنة ١٩٦٤، ويبدو أنه عثر عليه في أمو باثيوبيا، وبشرق بحيرة تركانا وكنبوى بالكينيا. ولأسنانه الوجنية احجام دون أسنان القرد الجنوبي الرشيقي من جنوب افريقيا. وتتميز أسنانه بنسب مختلفة: فهي أكثر استطالة وأكثر ضيقاً. ولقد قدرت سعة داخل القحف ابتداء من العظام الجدارية بـ ٦٨٠ سنتيمتر مربع، وبلغت حجمه من شرق تركانا ما يقرب من ٨٠٠ سنتيمتر مكعب. فيبدو أن الامر يتعلق بكائن يقترب أكثر من قرد الجنوب باعتبار ميل أسنانه ونمجه الى التطور. الا أن هيكله ما وراء الجمجمي (١٢) يقربه من قرد الجنوب الرشيقي. ان ترقوته تشير الى العادة القديمة في التنقل على الأشجار، وقد تحدثنا عنها لما ذكرنا هذا الأخير. وتقدر قامته بين ١٢٢٠ و ١٤٠٠ من المتر.

(د) الانسان المستقيم: ان الحفريات قد تمخضت في النهاية عن اكتشاف الإنسان المستقيم، أي عن بشريات أكثر تطوراً من كل ما سبق ذكره، وذلك في سوار تكرنس بجنوب افريقيا. ويعود تاريخه الى ٢٥٠٠٠٠٠ سنة، وفي أولدواي بطانزانيا يؤرخ بـ ١٥٠٠٠٠٠ سنة، وبشرق بحيرة تركانا، يؤرخ بـ ١٥٠٠٠٠٠ سنة، ويملكا كنتوري، وبودو، وأموباثيوبيا بين ٥٠٠٠٠٠ و ١٥٠٠٠٠٠ سنة.

وكان بروم وروبنسن قد قاما منذ ١٩٤٩، في سوار تكرنس، بفرز بعض العظام ونسبها الى شكل أكثر بشرية يسمى التيلانثروب كابنيسيس (*Telanthropus Capensis*)، ولقد رأى روبنسن سنة ١٩٥٧، أن ينسب ذلك الشكل الى الإنسان القرد والى الإنسان المستقيم.

وفي ١٩٦٩، فحص رون كلارك، وكلاارك هول. وبرابن نماذج سوار تكرنس وتبين لهم أن حجمه قرد الجنوب القوي ٨٤٧ (SK)، يمكن وصلها تماماً بفك التيلانثروب فنتج عن هذا الجمع صورة مفيدة تؤكد تخمينات روبنسن، اذا لاحظ تحت الجبين المنحني المتصاعد، وجود انتفاخ (١٣) فوق محجري ناقي، بعكس ما لاحظته من ضمور جبين القرد الجنوبي القوي. ولهذه الجمجمة جيوب (١٤) جبهية كبيرة وانقباض بعد محجري (١٥) كما له عظام أنفية ناتئة، وقوس سني قصير، مما يدل على فك صغير ذي فرع صاعد منخفض. ان الأسنان وبنية الهيكل الوجهي تقربه من الإنسان وخاصة من الإنسان المستقيم.

وفي الأولدواي يختص الإنسان ١٣ بعدد من الأسنان يقل بنسبة ٢٠٪ عن أسنان الإنسان الماهر وبفك أصغر منه. ويختص الإنسان ١٦ بقوس فوق محجري بارز. ويعتبره لايبكي وطوبياس أحياناً انساناً مستقيماً. فان كان لهُذين الأحفورين وضع غير واضح، فذلك ليس شأن الإنسان ٩ الذي له قبعة دماغية تنتسب لا منازع في ذلك الى الإنسان المستقيم. وتتصل اكتشافات عديدة بشرق بحيرة تركانا بهذا النوع المدرج من جنس الانسان. ولنذكر

(١٢) يعني بالهيكل العظمي ما وراء الدماغ، مجموع تلك الهياكل دون الجمجمة.

(١٣) عندما يعمل الحاشية العليا من المحجرتو عظمى واق، يسمى هذا النمو (توروس) واقية أو انتفاخ زائد، أو فوق محجري.

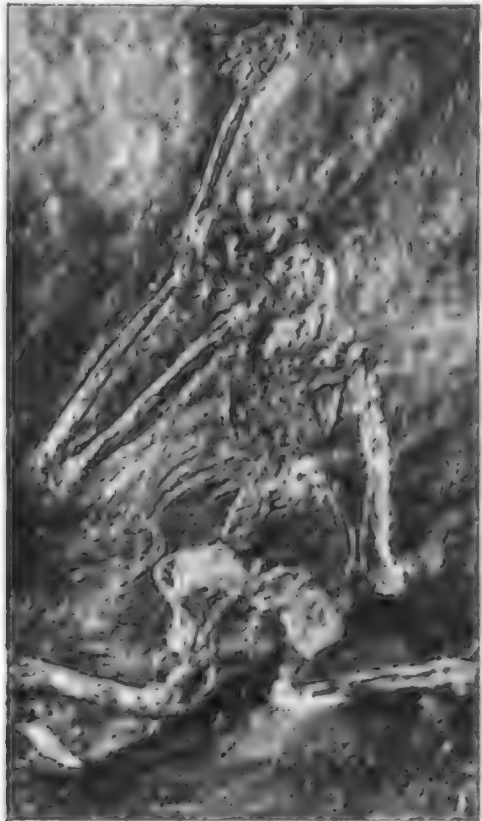
(١٤) الجيوب هي تجاويف.

(١٥) تنقبض الجمجمة جانبياً، وراء المحاجر، وهذا ما يسمى الانقباض المحجري.



٢

- ١ • طبقات سيواليكس في شمال باكستان. بعثة د. بليج، مجموعة متحف الانسان (تصوير ه. توماس).
- ٢ • اعادة بناء جمجمة الانسان البدائي راما بيشيكوس، مجموعة متحف الانسان (تصوير ج. أوستر).
- ٣ • هيكل عظمي للانسان البدائي أور يوبيشيكوس بامبولي، عمره ١٢٠٠٠٠٠ سنة، عُثِرَ عليه في موقع غروسيتو (مقاطعة توسكانيا بإيطاليا) يوهانس هورنسلر في ١٩٥٨ (تصوير ج. أوستر)، مجموعة متحف الانسان.



٣



٢



٣

- ١ • إعادة تشكيل بيئة الانسان المستقيم في تشوكوتين (أو انسان الصين البدائي - سينانشروب)، بالصين (٤٠٠٠٠ سنة. (تصويراً. كوبان)، مجموعة متحف الانسان، معرض «أصل الانسان»، نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٧٦ - أبريل/نيسان ١٩٧٨. رسم برتونتشيبي - غايار، باشراف أ. كوبان).
- ٢ • انسان تشوكوتين المستقيم (إعادة تشكيل). صورة جانبية وأخرى أمامية. (تصوير ج. أوست)، مجموعة متحف الانسان.

خاصة الثلاث ججمات التي عثر عليها حديثا، وهي تنتمي الى عهود مختلفة، وتقدم أحسن مثال عن نمو الميول التطورية ضمن هذا النوع.

ولنذكر هنا أنه تم حديثا ضبط تاريخ أقدم إنسان قرد جاوى، وهو جمجمة طفل مودجوكرتو الذي ضبط بـ ١٩٠٠٠٠٠٠ سنة. لكن هل يتعلق الأمر بإنسان مستقيم؟

إن المقارنات التي أجريت بكامبريج بين قطع أصلية من جاوا وطانزانيا من طرف طوبياس وفون كونكسوالد أدت الى استخلاص ما يلي، وهو التماثل المورفولوجي بين الإنسان الماهر القديم وبين الإنسان الكبير الحجري الجاوي، وربما بينه وبين نصف الإنسان من الصين، وكذلك التماثل بين الإنسان الماهر الحديث (الإنسان ١٣) وبين الإنسان القرد ٤، وسنجيران ب والتيلاتروبوس كابنيسيس.

## الصناعات

لقد حدث أن هذه البقايا كانت لأول مرة في تاريخ المقدمات البشرية، مربوطة بأدوات مصنوعة.

اكتشفت البعثة الفرنسية بمواطن أومو، سنة ١٩٦٩م، بعض الأدوات الحجرية والعظمية تزيد على أكثر من مليوني سنة. وفي السنة الموالية عثرت البعثة الكينية بشرق بحيرة تركانا في موقع بركاني يعود الى ٢٠٠٠٠٠٠ سنة، عثرت على صناعة من الحجر والعظام تشابه أدوات أومو.

وأخيرا كان دور البعثتين الأمريكية والفرنسية اللتين عثرتا على ١٢ مستوى جيولوجيا أرخت بمليون سنة. اننا نستطيع أن نقول أن هذه الاكتشافات الواقعة بمحوض البلوبليسوسين من بحيرة تركانا، قد أضافت الى عمر الأدوات الأولى المنحوتة أكثر من مليونين ونصف المليون سنة، بل ٣ ملايين سنة مما زاد مليون سنة في عمر أقدم الصناعات المعروفة الى الآن.

إن هذه الصناعة الأولى في التاريخ تتكون من كمية من الشظايا، التي قرعت اصطناعيا واستعملت قواطعها، ومن حصاة هُتِي أحد حديها أو قاطعها بطرق عدة، ومن عظام أو أسنان هيئت واستعملت مباشرة عندما تسمح بذلك أشكالها (أنياب فرس البحر أو أنياب الخنزير مثلا).

يمكن ترتيب هذه الأدوات حسب عدد من الأنواع. ولقد صنع من هذا النوع عدد معين من النماذج. وهذا يعني أن شكلها كان موضوع بحث، وأنها اكتساب ناتج عن خبرة يرثها جيل عن جيل، مما يفترض وجود حياة اجتماعية معينة، وهذا يعني أنه رغم مرور ٢٥٠٠٠٠٠ سنة فأننا لم نصل الى معرفة أصل الأداة، لكن من المحتمل أننا نقرب من حدود ادراكها. وهي تلتبس وراء تلك الحدود، مع الأشياء الطبيعية.

وفي مكينسغات بجنوب أفريقيا تم اكتشاف صناعة متكونة من العظام، ومن القرون والأسنان فسميت لهذا السبب صناعات عظمية سنية قرنية ويمكن أن تكون قديمة جدا اذا صححت المحاولات الحديثة في وضع توافق بين الكهوف الافريقية الجنوبية والمواطن الكبرى بشرقي افريقيا. وعلى كل حال نستطيع أن نلاحظ نفس الشيء فيما يتعلق بمحوض بحيرة تركانا التي تصنع فيها مختلف الأدوات جملة، وذلك يدل على أنه قد كان لها تاريخ عريق.

وكشف هـ. روش حديثا في هدر صناعة من الحصاة المهيأة، تقترب من حصاة أولدواي في مستوى لا يستغرب إذا أُرِخ بـ ٢٥٠٠٠٠٠ سنة.

وهكذا فإن الأدوات ظلت متوفرة وملحوظة في كل مكان، ابتداء من الطبقات الأكثر قدما بأولدواي (١٨٠٠٠٠٠ سنة). ان الحصار المهيأة المتوفرة بصفة خاصة استوجبت تسمية هذه الصناعة بـ «ثقافة الحصاة» أو الولدوائية. ولقد لاحظ الدكتور لايكبي، وهو بحفر أقدم مستوى بأولدواي، تراكما كبيرا من حصاة البزلت. وكلما تقدم الحفر، أدرك أن تلك الحصاة لم تكن مبعثرة بل كانت على عكس ذلك مرتبة حسب أكداش لها رسم الدائرة. ويحتمل أن يكون كل تكداش متكونا من حجارة لتتركز عمود، فلو تصورنا دائرة من الأوتاد ومن أقواس العقد وجلودا وسعفا مبسطة لدعانا هذا الأمر الى تصور آثار بناء، فنكون أمام بنية سكنية تعود الى نحو مليوني سنة.

واكتشف ج. شفيان، بملكا كنتوري بنية مشابهة تقريبا قرب أديس أبابا، بالمستوى الأولدواي بأقدم موقع (١٥٠٠٠٠٠ سنة). فلقد وقع على حين غرة، في الوسط بالضبط من محل الإقامة الذي تبعشرت فيه الأدوات، وقع على مساحة دائرية قطرها ٢٥٠ مترا، خالية من أية أداة بها، و يبلغ علوها ٣٠ سنتيمرا بالنسبة لما تبقى من الأرض التي يحيط بها ميزاب طوله متران. وكانت بعض أكداش من الحجارة توحى هنا أيضا بوجود أوتاد.

يقال إن القرد الجنوبي القوي يحتمل أن يكون ذكر القرد الجنوبي الرشيق. ويرى بعضها أن الإنسان الماهر كان قردا جنوبيا رشيقا، أصغر سنا من النوع الجنوبي الإفريقي وأكثر منه تطورا. ويقول البعض الآخر أن الإنسان المستقيم من سوار تكرنس قابل لأن يتدرج في الحدود السفلى من تبدلات القرد الجنوبي القوي من نفس الموطن، ويقال أن الجاوي كان قردا جنوبيا. وأن بعض القردة الجنوبية (أولدواي، سوار تكرنس) كانت أيضا من نوع الإنسان القرد. ونخرج من هذا الالتباس الظاهري بما يلي:

ظهر الجنس الإنساني، وظهرت الاداة المصنوعة من بين مجموعة القردة الجنوبية، المستوطنة أولا بافريقيا الشرقية وبافريقيا الجنوبية، (في شكل القرد الجنوبي أو في شكل أكثر منه تطورا والمتوسعة بعد ذلك الى آسيا جنوب الهيمالايا. وسرعان ما أصبحت الاداة عنوانا على صانعها. فلقد أبدعت بسرعة أنواع عديدة من الأدوات لغايات مضبوطة. وأصبحت صناعتها تلقن وظهرت بعد ذلك بنيات سكنية. وعلى هذا الأساس يمكن لنا أن نتحدث عن الأصل الإفريقي للإنسان.

## الخاتمة

وهكذا يبدو أن الإنسان ظهر في نهاية التاريخ طويل جدا، في شكل مقدم بشري أخذ يحسن الاداة التي كان قد استعملها منذ أمد طويل. ان الأدوات المصنوعة والمساكن تدل على كائن مفكر، مدبر، يتعلم ويعلم، ويشيد المجتمع الأول ويضع له ثقافته الاولى.

ولقد اقترح حديثا تاريخ يزيد على مليوني سنة لبعض البقايا الأحفورية البشرية من جاوا. وقدرت أحيانا الحصاة المهيأة من جنوب فرنسا بعمر يعادل ذلك. الا أن حالة معارفنا الراهنة باعتبار عددها وأهمية مستكشفتها القديمة جدا، جعلت إفريقيا هي التي تنتصر في هذه المباراة.



ولنختتم قائلين بأن كل شيء وقع كما لو نشأت، منذ ٦ الى ٧ مليون سنة، بالربعية الجنوبية الشرقية من القارة الإفريقية، مجموعة من البشريات تسمى قردة الجنوب: فلقد برز منذ مليونين ونصف أو ثلاثة ملايين سنة، برز من تلك المجموعة المتعددة الأشكال، كائن هو قردة الجنوب نفسه الذي كان انسانا، قادرا على نحت الحجر والعظم، وعلى بناء الأكواخ وعلى العيش في مجتمعات صغيرة، تمثل في جميع تظاهراتها الأصل الأصيل للإنسانية الصاعدة.

### المليون الأخير من السنوات

لقد شهد المليون الأخير من السنوات نشأة الإنسان العارف، وتكاثره بشكل يبعث على القلق في القرون الأخيرة إذ في ١١٥ سنة ارتفع عدد الافراد من مليار الى مليارين ثم ارتفع في ٣٥ سنة من مليارين الى ثلاثة مليارات ثم ارتفع في ١٥ سنة من ٣ مليارات الى ٤ مليارات، ولا يزال التكاثر مستمرا....

# ظهور الانسان المشاكل العامة

القسم الثاني

بقلم: ل. بالوت

## المعطيات الأثرية

ان دراسة مشكل (ظهور الانسان) في افريقيا تستوجب من الباحث في ما قبل التاريخ منهجاً يختلف كثيراً عن منهج الأحاث. ان ظهور الإنسان بالنسبة لهذا الأخير هو هذا التطور التدريجي في المخ الذي سمح للإنسان بالتصور والإنجاز، وذلك بوضع تقنيات تزداد تعقداً وصنع أدوات (و يؤخذ هذا المصطلح في معناه الواسع) بلغت من التنوع والفعالية حداً جعله عبر العصور يضاعف تأثيره على البيئة الطبيعية، حتى وصل الى الاخلال بالتوازن البيولوجي لصالحه. ان التطور الأحاثي الذي يفضي الى الإنسان لا يسمح بتحديد عتبة ظهور الإنسان. ان الحجارة المنحوتة تبين أنه تجاوز تلك العتبة. ولقد سبق أن عبر عن ذلك ب. تيلاردي شاردان تعبيراً مأثوراً «لقد ظهر الانسان دون ضوضاء... وسار سيرا لا يكاد يحس به، حتى اذا ما دلت عليه الادوات الحجرية الثابتة التي هي خير شاهد على وجوده، عندئذ فقط أخذنا نتفطن له... ولكنه كان حينئذ قد ملأ العالم القديم».

ان موقف الباحث في ما قبل التاريخ له ما يبرره لأن الحلقة المفقودة ليست الشكل الاوسط بين قرد الجنوب والإنسان القرد وبين النياندرتالي والإنسان العارف. بل هي الشكل الأوسط بين الحجارة والعظام المنحوتة وبين تلك الأحفورات. ان صناعات ما قبل التاريخ المنسوبة بيقين مطلق للإنسان العارف، ابتداء من العصر الحجري الأعلى، بالإعتماد على برهان لا نزاع فيه، والى انسان نياندرتال بالعصر الحجري الوسيط، لا يمكن نسبتها الى الإنسان القرد والى قردة الجنوب الا افتراضاً. ويغلب على الظن أنها الفرضية الوحيدة التي يمكن التعبير عنها علمياً. الا أن الصناعة التي تصاحب إنسان الصين مخالفة للتي عثر عليها عند الإنسان القرد، وهذه بدورها تختلف عن التي عثر

عليها عند الإنسان القرد بجاء، وإنسان الأطلس بالجزائر، وبإفريقيا الشرقية. أما فيما يتعلق بقردة الجنوب فهي تمثل مجموعة غير متجانسة ولا نعرف بالضبط إلى أي نوع منها يمكن أن ينسب العصر العظمي الإنساني القرني (Ostéodontokératique)، وكذلك ثقافة الحصى.

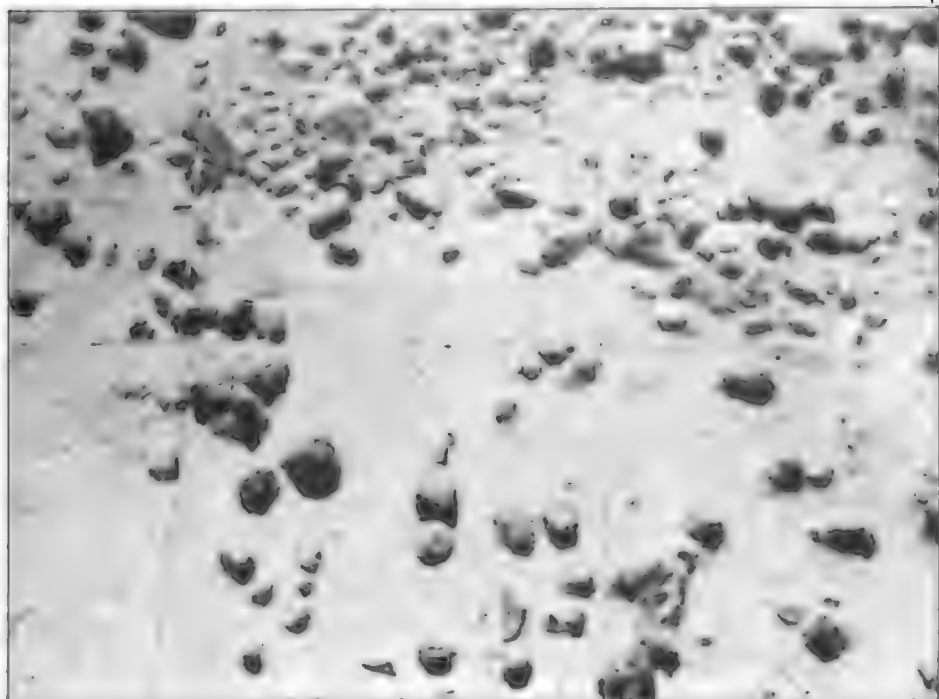
فإذا وجدت «عتبة» لظهور الإنسان بالنسبة للاحتياطي، أو «حد مخي» ضبط سعته الاستاذ فالوا (Vallois) بـ ٨٠٠ سنتمتر مكعب، فانه يوجد بالنسبة للمؤرخ «عتبة تقنية» ما كاد الإنسان يتخطاها حتى انفتح طريق التقديم امامه الى يومنا هذا. ان تحديد تلك العتبة يستوجب حل مشكلين: كيف ومتى وقع ذلك؟ فالمشكل الاول يستدعي أن نترك جميع الأسباب الطبيعية، لكي نعرف من خلال الأداة، بأن اليد التي استعملتها هي يد الإنسان. أما الثاني فهو يستوجب توفر الاطرار الزمانية التي تسمح بأن نؤرخ تاريخا تقريبا مقبولا للشواهد المتأخرة جدا من الصناعة الإنسانية.

ان إفريقيا، الى يومنا هذا، هي القارة الوحيدة التي اعطت الجواب المقنع لهاتين المشكلتين واعتبارا أن نظرية الأصل الواحد أصبحت مقبولة عالميا، تعتبر إفريقيا اليوم مهد الإنسانية. ان هذا «المهد المتنقل» كما عبر عنه القس بروي (Breuil)، والذي طالما رأيناه ينتقل من قمم بير الى سهول الفرات، قد استقر الآن بإفريقيا الشرقية، ويكون ذلك الاستقرار قد وقع منذ ٣٠٠٠٠٠ سنة على الأقل. والحقيقة أن سفر العهد القديم (سفر التكوين) حدد موقع الجنة في الدنيا، وهي عدن، بمكان طبيعي فيه جنات ونباتات وأشجار، وخلق الله آدم ليتعاطى الفلاحة وتربية المواشي، أي ليعيش عيشة «العصر الحجري الجديد» في منطقة ما لبث أن أخذ يبرز فيها عصر حجري قديم. ان جميع التواريخ المستخرجة من الكتاب المقدس تؤرخ الخلق ابتداء من ٦٤٨٤ و ٣٦١٦ سنة قبل عصرنا. والغالب على الظن أن الشرق الأدنى كان من أقدم، ان لم يكن أقدم مكان للعصر الحجري الجديد وليس هناك من مبرر اليوم للقول بأنه كان مهد الإنسانية.

لقد ظهر الإنسان دون ضوضاء، ثم دلت بعد أمد طويل الحجارة التي نحتها على وجوده. ان النوع الإنساني «لم يزعزع شيئا مما في الطبيعة عند ظهوره... فأيناه يبرز كنوع متميز مثلما يبرز تماما أي نوع آخر» (تيلار). وعلى هذا الأساس تصبح مسؤولية الباحث في ما قبل التاريخ عظمى عندما يأتي، وهو يعرف أقدم آثار الصناعات الإنسانية التي يمكن الإطلاع عليها، ببرهان كان علم الاحاث عاجزا عن تقديمه. «يدرك أصل الإنسان بفضل الأداة التي استعملها. ذلك هدف علم ما قبل التاريخ الأسمى».

ان الباحث في ما قبل التاريخ بإفريقيا مدعو الى الاجابة مسبقا على ثلاثة أسئلة:

- هل تعتبر الاداة على وجه اليقين معيارا دالا على ظهور الإنسان السوي؟.
  - هل تمكننا الاداة من ادراك بدايات ظهور الإنسان السوي؟.
  - هل تدرك الأداة الإنسانية ادراكا واضحا، عندما يعثر عليها في حالة جيدة من المحافظة؟.
- ان معطيات هذا المشكل إفريقية في جملها. لقد كان القس بروي في آخر حياته، وقد اعتبر بسلوك بعض الحيوانات، يسر الى أنه يتساءل هل الأداة تدل حقا على تجاوز عتبة البشر السوي ولماذا لا نختار الفن كمعيار؟ فذلك يفيد التمييز بين انسان «عارف» حقا، وهوراسم



- (١) تفاصيل التربة الاولدوفائية (تشتمل على حصى متعدد الجوانب وعظمة سميكة لفرس نهر)، (تصوير ج. شافيون)، مجموعة متحف الانسان.
- تفاصيل التربة الاولدوفائية (تصوير ج. شافيون)، مجموعة متحف الانسان.

لسكو (Lascaux) سلفنا المباشر، وبين مجموعة أخرى من الكائنات المدبرة التي يمثلها الإنسان (الصانع) السابق للاول في الظهور.

وكما قالت السيدة تيري (Tetry) بعبارة دقيقة، فإن استعمال أدوات مستقلة عن أعضاء الكائن الحي، وهي «أدوات طبيعية» هذا الاستعمال ليس من خصائص الإنسان ولا حتى من خصائص المقدمات البشرية. وأكبر دليل على ذلك، الزنبر المسلح والتملة الخياطة (في الحشرات) وشرشور جالاباجوس، وزميج الماء، وكاسر العظام، والمزرة، والسمنة الشادية (في الطيور)، وقضاعة البحر، والقندس وحيوانات أخرى. إن الشمبزي، في رتب المقدمات، يعتبر أقرب الحيوانات إلى الإنسان. فهو يستعمل في حياته اليومية أدوات وأسلحة للدفاع عن نفسه ضد الحيوانات النهابة مثل الحيات. إن الخوف والدفاع عن النفس يدفعانه إلى التقاط عصي وأشجارها (١). إن هذا السلوك الملحوظ لدى الحيوانات، وهي حبيسة في الحدائق، قد استكملت دراسته بين ١٩٦٤م و١٩٦٨م بملاحظة سلوك الحيوانات في الغابات المخصصة لها في طانزانيا. إن الشمبزي الذي يعيش في جماعات تتكون من ٣٠ فرداً أو أكثر يعرف كيف يمسك بعض الأغصان الصغيرة لاستخراج الأرضيات، ويستعمل العصي لتشمم الأعشاش للوصول إلى العسل، ويستعمل الأوراق ليأخذ الماء الموجود بثقب الأشجار، ويثبت المقابض بالعصي لبلوغ الموز.

أما الحجارة، فيستعملها لتشمم الثمار، أو لإبعاد الحيوانات المخاضة عن طريق الرمي من فوق ومن تحت عضده، مثلها مثل العصا. وهو يتفاهم مع غيره باستعمال اشارات صوتية. ويمكن لنا أيضاً أن نستشهد بملاحظات أجريت على قردة الغوريلا في رواندا (٢).

ولتصبح الاداة معياراً للدلالة على ظهور الإنسان السوي، فلا يكفي استعمال شيء خارج عن «الأدوات الطبيعية» للكائن الحي، ولذا فلا بد من حصول التحويل المقصود، ولا بد من «التهيئة» لتلك الاداة، وذلك ما سيساعدنا على إعطاء جواب إيجابي على السؤال الثالث المطروح، والامتناع عن هذا الجواب بالنسبة للسؤال الثاني.

إن الاداة لا تسمح لنا بأن ندرك بدايات البشرية أولاً لأنه لم يبق محفوظاً إلى عهدنا إلا عظام أحفورية وأحجار. ودون أن ندعو إلى مقارنة اثنوغرافية غير معقولة، فإننا نذكر بأن جماعة إنسانية تستطيع أن تستمد مجموع أدواتها من العالم النباتي وحده. ويمثل لهذا بقبيلة المونكوي من جزر اندامان. فإن كانت الشجرة، بالسباسب المشجرة في الهضاب الإفريقية، قد وفرت للبشر الأولين الأدوات الأولى، فهذا امر لا يمكن إقامة الدليل عليه، وإن كان أمراً محتملاً. وحتى فيما يتعلق بالعظام الأحفورية، والأسنان، فلقد نسب ر. دارت إلى القردة الجنوبية من توانسفال، صناعة أساسها العظام، والأسنان والقرون وسماها الصناعة العظمية الإنسانية القرنية، وهي صناعة ظلت قائمة طويلاً، وسنعود إلى ذلك فيما بعد. ولقد ميزر. فان ريت لوف في «ثقافة الحصاة» بين «المشقوق» و«المنظم» منها. فالأولى، وهي حصاة مشقوقة فقط قد كانت على العموم موضع شك فإن كان من المؤكد أن الحصاة التي التقطتها اليد الإنسانية وألقها لم تحتفظ بأي أثر ملحوظ من ذلك

(١) انظر: الانتروبولوجيا المعاصرة، يونيو ١٩٦٧

(٢) الجمعية الجغرافية الوطنية، واشنطن، أكتوبر، ١٩٧١.

الاستعمال، فحتى الحصى المهشمة يمكن أن تكون لعبة من لعب الطبيعة: ان النهار في أسفل مسقطها، وارتداد الأمواج ينقشان الحصى نقشا لا يختلف عما هشمه الإنسان منها. ان صناعة (الكافوتين) لم تصمد أمام هذه الحجة.

ان نص تيلاردي شردان الذي ذكرت جزءا منه في أول هذا العرض يحتوي على اخطاء جسيمة وبه نقص كبير. (لقد ظهر الإنسان دون ضوضاء... وسارسيرا لا يكاد يحس به، حتى اذا ما دلت عليه الأدوات الحجرية الثابتة التي هي خير شاهد على وجوده، عندئذ فقط أخذنا نتفطن له.... ولكن كان حينئذ قد ملأ العالم القديم، من رأس الرجاء الصالح الى بكين. وقد كان — على وجه اليقين — يتكلم ويعيش على شكل مجموعات. وكان يوقد النار، وعلى أية حال، أليس ذلك ما كنا ننتظر بالفعل؟ فكلما انبثق شكل حي جديد أمام أعيننا من أعماق التاريخ، نراه قد برز شكلا سويا وأصبح آفا مؤلفة...) ويبدو أن الإنسان الناطق لم يظهر الا في زمن الإنسان القرد. ان نسبة النار الى القرد الجنوبي البروميتي، كانت نسبة تأويلية خاطئة اذا لم تتوفر لدينا علامة ثابتة على ذلك قبل الإنسان القرد. ولم يكن ذلك بافريقيا، وبالعكس فان «الأدوات الحجرية الثابتة» من الأولدواي لا تدل يقينا على البداية اذ ان تنوع أشكالها، وعددها، وانتظام نحتها تجعل منها على العكس علامة على النهاية. ان الباحثين في ما قبل التاريخ بافريقيا هم الذين طالبوا بهذا المليون من السنوات الذي زودهم بها حديثا أومو وكوي فورا، وهذا أمر لا يرضينا!

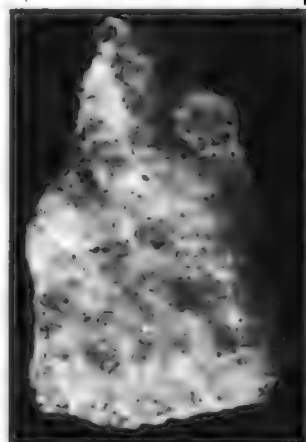
ولهذا وجب علينا أن نقتصر على حل المشكلة الثالث وهو استدعي أن نوضح أغراض الإنسان «الأدوات» البسيطة جدا والأقل تهديبا. ان افريقيا هي القارة الوحيدة الكفيلة، بما لها من ثروة وثائقية، بأن تسمح بذلك البحث الذي يشمل ميدانين: العظم والحجر.

أ — الصناعة العظمية السنية القرنية: لقد كانت الفرضية التي عبر عنها ر. درات سنة ١٩٤٩م موضوع تقييم من طرف دونالد ل. ولبرغ سنة ١٩٧٠م (ك. أ. فبراير ١٩٧٠). ولقد سبق للقس بروي أن اقترح بعد دراسة العظام المكتشفة لانسان الصين، من شوكتيان، بأن «عصر العظم» ربما سبق «عصر الحجر»، فن المحتمل وجود عصر «ما قبل الحجري» سابق للعصر الحجري القديم. ولم تعرف صناعة حجرية متصلة بملاجيء قردة الجنوب قبل ١٩٥٥م (جنوب افريقيا) و١٩٥٩ - ١٩٦٠م (أولدواي طانزانيا) و١٩٦٩م (أومو، أثيوبيا) و١٩٧١م (بحيرة رودولف، الكينيا). الا أن درات قد قام مدافعا عن صناعة عظمية، أساسها العظام والأسنان والقرون، يسميها الصناعة «العظمية السنية القرنية» ولم يتوفر لنا مع الأسف ترتيب تاريخي دقيق، سواء كان نسبيا أو مطلقا، عن قردة الجنوب بافريقيا الجنوبية، التي كانت من هذه الناحية أقل حظا من أثيوبيا والكينيا وطانزانيا. وإذا اقتصرنا على مشکل الصناعة فإن. ر. دارت الذي ظل من ١٩٤٩م الى ١٩٦٠م يدافع عن وجوده، قد اعتمد في حكمه على فحصه لكسور دماغية للقراذح (بابوان) ولقردة الجنوب. ولقد فضل فيما يبدو أن يختار بين العظام المتراكمة في ما كابنسغات (٣٣٦ قنا، ٥٦ عظما فخزيا مثلا) والفقرات النخية (الأطلس والفائق) التي تمثل ٥٦% من الفقرات مع ججمعات البقرات. وقد رأى بأن العظام المتراكمة الخاصة بقردة الجنوب، هي أكس من الفضلات ومن



● (١) حصاة من أقدم الحفريات  
المشكّلة في العالم (حفريات ج.  
شافاين).

● (٢) حصاة من أولى الحفريات  
المشكّلة في العالم (حفريات ج.  
شافاين).



بقايا طعام تركه صياد نهاب، مكثته تحرريده، نظرا لقدرته على الوقوف، من أن يستعمل الأسلحة والأدوات. وفي هذا الميدان استطاع (دارت) بعد فحصه لخمسین جمجمة للقرايح و٦ لقردة جنوبية أن يؤكد وجود رضوض في ٨٠٪ منها، وقد تسببت فيها أسلحة يدوية. وكانت الضربات تصيب غالبا الوجه، ويمكن للضرر أن يكون مضاعفا، مما يدل على سلاح ذي رأسين. ويوجد في ماكا بنسغات عدد من عظام النقا، لذوات الحافر عليها آثار اهتلاك حدث قبل التأحفر، بينما كانت العظام الطويلة الأخرى سليمة. وذلك ما دفع دارت الى استنتاج ما يلي: (ان الاداة التي يختص بها قرد الجنوب هي هراوة من عظم، وعلى الأخص من نقا حيوان ذي حافر). ولقد استعمل الصياد أيضا فكوكا. ان التكسير باللي (كسر لولي) في النقا والعظام المستدقة يفيد هنا أيضا تدخل اليد كما اقترح ذلك بروي وتيلاردي شردان في شوكتين موطن إنسان الصين. ان ذلك القرن الأيمن المتأحفر من الغزالة الرشيق، المغروز بعظم فخذي لطبي كبير، حيث تصلب بفعل الكلسيت، يعبر عن فعل انساني، سواء أكان أداة أثبتت على تلك الحال أم أداة لكسر عظم الفخذ. وكذلك شأن عقب جمجمة ضبع قد غرز بها عقب ظبي، بين القبة والقوس الوجني.

وهكذا فقد سبق أن وجدت مرحلة «عظمية سنية قرنية» ما قبل المرحلة الحجرية تلاها العصر الحجري، الذي واصلته «ثقافة الحصاة» ثم صناعات الأسلحة ذات الوجهين: وكان ذلك بداية (لنشاط ثقافي قائم على استعمال الأدوات).

ان مثل هذه الفرضية قد تسببت في مناقشات عنيفة تتعلق بموضوع «الصيد أو المصيد» ويرى بعضهم أن جميع العظام، حتى عظام قردة الجنوب ليست الا شواهد على مآدب الحيوانات اللامعة. ويرى فيها آخرون أنها تراكمات موجودة بملاجيء الضبع، الا أن هذا يتنافى مع عوائد ذلك الحيوان آكل الجيف، أو أنها من أعمال الشياهم (بورك ايبك). والحال تشهد بأنها من الـ ٧١٥٩ قطعة عظمية المجموعة في ماكا بنسغات، لم يقضم منها سوى ٢٠٠ قطعة. يضاف الى ذلك ان الضباع تعيش وسط عظام ضبعية. ولقد بين موطن يرجع الى عهد ريس وورم أنه يوجد ١١٠ ضبعا بين ١٣٠ حيوان، بينما لا يوجد منها في ماكا بنسغات الا ١٧ من ٤٣٣ حيوان. ويوجد في الركام الخاص بقردة الجنوب ٤٧ سنا منفردة للضباع، من ٧٢٩. ويوجد بموطن ريس. وورم ١٠٠٠ على ١١٠٠.

ولقد تغلبت شيئا فشيئا النزعة المناصرة للصناعة العظمية السنية القرنية، من دون أن تحكم مسبقا على نوع القرد الجنوبي الذي قد يعتبر أنه كان الصياد. ان وجود صناعة حجرية معها (ستر كفنيتاين ١٩٥٥) جاء ليؤيد ذلك، ولقد أثبت بالبرهان الصناعة العظمية بأولدواي التي نشرها أحسن نشرم. لا يكي (٣). فهي لا تقبل النزاع وقد مهدت السبيل للصناعة المنسوبة للإنسان القرد بافريقيا وآسيا (شوكتيان) وأوروبا (ترالبا وأمبرونا مثلا).

و يوجد على طول ازمنا ما قبل التاريخ عرق من الصناعة العظمية كان موازيا لعرق الصناعة الحجرية. ان تحليله يعتبر أدق، الا أن ذلك لا يمنع وجوده. وهذه الصناعة ليست في أي مكان آخر أقدم مما هي في افريقيا، وان كان البرهان على وجود مرحلة «قبل المرحلة الحجرية» لم يحصل.



**ب - الصناعة الحجرية:** منذ أن تركت فرضية «الصوانيات»، تمثل الحصاة المهيأة التي سميت مدة طويلة «ثقافة الحصاة»، أقدم صناعة حجرية معروفة لدينا، ونحن نعلم كيف أن ج. ويلاند، الذي كان مدير المصلحة الجيولوجية بأوغندا، قد لاحظ سنة ١٩١٩م بذلك الجزء من إفريقيا الشرقية وجود حصاة منحوتة تشابه تلك التي اكتشفت بأستراليا قبل ١٩١٤م. ولقد وضع سنة ١٩٢٠م مصطلح «ثقافة الحصاة» و«كفوين» (نسبة إلى نهر كفو). وميز سنة ١٩٣٤م مراحل تطويرية عددها أربع. وهو الذي أشار على ل. لاكي سنة ١٩٣٦م بأن يضع مصطلح أولدواي لوصف ثقافة الحجارة المتطورة الموجودة بفتح أولدواي (طانزانيا). وحاول فان ريت لوو سنة ١٩٥٢م أن يضع تصنيفاً تقنياً ومرفولوجياً أولاً لثقافة الحصاة. ولقد أتى من آسيا مرة أخرى، على لسان ه. موفيس، تعريف أشكال تعتبر أساسية: الساطون والساطور الأداة، والفأس اليدوي (١٩٤٤م). ويقتنع بذلك تدريجياً المؤرخون لما قبل التاريخ بإفريقيا، ولا سيما باوربا: الجزائر (ك. آرمبورك)، المغرب (ب. بيبرسن)، الصحراء (ه. هوغو، ه. إيمان، ج. هيفايون) كتنكا (مرتلمان) الخ... ولقد اقترحت تصنيفات مرفولوجية، معتمدة على تقنيات النحت (ل. رمندو، ب. بيبرسن). و يبرز من هذا ملاحظتان:

١ - أن «ثقافة الحصاة» تعتبر معقدة جداً لأن أشكالها متنوعة جداً، وقارة ومنظمة. فهي لا تمثل بداية الصناعات الحجرية.

٢ - أن «ثقافة الحصاة» تشمل بالقوة كل الإمكانيات التطورية التي ستوفر الصناعات الكلاسيكية بالعصر الحجري الأسفل بإفريقيا، أي صناعة الأسلحة ذات الوجهين، والقدومات، ولن نحفظ إلا بالنقط الأولى.

واعتباراً إلى ذلك التعقيد الخاص بثقافة الحصاة وبانتشارها، أصبح الباحثون في ما قبل التاريخ بإفريقيا يتطلعون إلى وضع ترتيب تاريخي أطول من الذي لم يقبل إلا بصعوبة، والذي أعطى سنة ١٠٠٠٠٠ سنة للدهر الرابع. ولقد أصبح تاريخ الأولدواي بطريقة البوطاسيوم أرغن (١٨٥٠٠٠ سنة) إلى ١١٠٠٠٠٠ سنة لهذا «الباد ١» مؤكداً بتاريخ موطن بحيرة تركانا أي بما قدره ٢٦٠٠٠٠ سنة. إلا أن هذه الصناعة الأخيرة، وإن كانت تشمل حصاة مهيأة، فهي لا تنتسب في جملها إلى «ثقافة الحصاة». لأنها صناعة شظايا، ففي سنة ١٩٧٢م جمعت بأوموشظايا، يغلب على الظن أنها برهان ضعيف ونحن نتساءل أن لم يسبق نهية الحصاة لتكون أداة، استعمال الشظايا المقطوعة من صخرة معنية من المادة الخام. إلا أننا نصل هنا إلى حدود إمكانية النسبة إلى سبب غير طبيعي: فإن كانت آثار النحت غير واضحة (عقب - بصلة)، وإن جاز أن نؤكد على «صقل الإستعمال» فأننا سنعود إلى مشكل «الصوانيات» القديم.

ولذلك فإن الموجود الذي لا يفسر بغير تدخل الإنسان هو الذي يلفت النظر. لكن أين سينتهي بنا التساؤل؟ إن الحد الأكثر جرأة في هذا الصدد قد بلغه ل. لاكي الذي ينسب إلى قرد الكينيا

«نشاط القرع بالعظم» لأنه استعمل قطعة من طفق قرعة الإستعمال وسحقه كما استعمل عظاما طويلا يمثل كسرا عميقا (٤).

وهنا تتلاقى مشاكل الصناعتين العظمية والحجرية في أصلهما. فلقد استحال الإتيان بأي برهان تكنولوجي أو مرفولوجي اذ لم يمكن ملاحظة أي أثر (كلاسيكي) من نشاط إنساني. والبرهان الإيجابي الوحيد هو ذلك الموجود الذي لا يفسر، والمتكون من شظايا بالقرب من بقايا قرد الكينيا. الا أن نفي دور الطبيعة لا ينفي الاستعمال من قبل كائن شبيه بالإنسان وسابق لظهوره. وما ذكرناه سابقا في شأن سلوك الشمبزي حاليا يؤيد هذا الاتجاه.

فان كانت أدوات العظم والحجر تشهد على أن عملية عقلية بشرية حدثت منذ أكثر من مليونين ونصف من السنوات، فذلك لا يعتبر في نظر مؤرخ ما قبل تاريخ افر يقيا، نقطة البداية للعمليات العقلية.

## معجم المصطلحات

**انسان التثاد (Tchdanthrope) :** من البشريات الأحفورية. يقع من حيث التركيب البدني بين مرحلتي قرد الجنوب والانسان - القرد.

**الإنسان العارف (Homo sapiens) :** تسمية أطلقها س. لبني (١٩٥٣)، وهي مخصصة للأشكال الحديثة أو للانسان الجديد، للدلالة على الإنسان الذي توصل بفضل ذكائه الى حالة من التكيف مع الوسط تسمح له بأن يفكر ويتأمل بكل حرية.

**الإنسان الماهر (Homo habilis) :** تسمية أطلقها لاكي، وتوبياس، ونابيني، للدلالة على الأحفورات التي تقع درجة تطورها التشريحي بين قرد الجنوب، والإنسان - القرد.

**انفاسي :** نسبة الى أنفة بلاد المغرب. وهو التعدى البحري الثالث الذي حدث في الدهر الرابع بالمغرب.

**أوجيت :** سيليكات الكالسيوم والمغنيسيوم والحديد الطبيعي. وهذا المعدن يدخل في تركيب الزلت.

**أورينياسبي :** نسبة الى أورينياك (جارون العليا بفرنسا). قامت فيه صناعة فيما قبل التاريخ في العصر الحجري القديم الأعلى. ان هذا الاسم الذي (اطلقه ه. بروي) وأ. كارتيلهاك في ١٩٠٦)، يدل على الصناعات المحددة تاريخيا بين الموستيري والبريغوردي، ويتميز بأسنة قصيرة من خشب الزنة (حيوان) وحكاكات ثخينة، ونصال عليها زخرفة خطية مستوية ذات قشور، كما يتميز ببعض المناقش. وفيه ظهرت الآثار الفنية الأولى، وهي عبارة عن تماثيل صغيرة حيوانية، وعلامات منقوشة نقشا سريعا على كتل من الأحجار الكلسية. ويرجع الى حوالي ٣٠٠٠٠ سنة.

**أوغري ١ :** المطار الصحراوي الثاني، و يعادل الكاماسي.

**أوغري ٢ :** المطار الصحراوي الثالث، و يعادل الكنفري.

**أولدواي :** نسبة الى فج أولدواي في طانزانيا الشمالية. و يوجد به مركب من الأدوات الحجرية القديمة (حصى مهيئ) اكتشفه (كاتو ينكل عام ١٩١١). وقد ميز (لايكي) في هذا المركب ١١ مستوى تبسدى بالأولدواي ١ الموافق للشولي القديم، وتنتهي بالأولدواي ١١ الموافق للأشولي ٦، مع أدوات لوفالواسية.

**آبفيلي :** مظهر من النشاط الصناعي قام بتعريفه (ه. بروي Breuil) في أبفيل الواقعة بوادي الصوم بفرنسا. ويتميز بأدوات حجرية ذات وجهين، ومنحوتة تحتا عميقا بواسطة قارع صلب (من حجر). وهذا المظهر الذي عرف في أوروبا يوافق مطلع العصر الحجري القديم الأسفل.

**أشولي :** نسبة الى سان أشول، الواقعة بوادي الصوم بفرنسا. وهو المظهر الثقافي الرئيسي في العصر الحجري القديم الأسفل. وقد دام من تجمّد (مندل) الى نهاية العصر الجمودي البيني (ريس - ووم). والأداة النموذجية المستعملة هي آلة ذات وجهين، أكثر انتظاما من التي استعملت في الأبفيلي، وهي منحوتة بقارع غض (خشب أو عظم).

**أمازونيت :** نوع أخضر من الميكرولين.

**أميري :** دورة قارية مغربية معاصرة للمندل الأوربي.

**انسان (Homo) :** اسم جنس مخصص في تصنيف الحيوانات للانسان الأحفوري. والإنسان الحالي.

**انسان الأطلس (Atlantrope) :** أحفور من مجموعة الإنسان القديم، قام بتعريفه س. آرمبورغ في منجم يقع في تيرينفين (الجزائر). وتعزي البقايا الى نهاية البليستوسين الأسفل.

**انسان التل (Mélantrope) :** تسمية نوعية أطلقها بروم، وروبنس على قطعتين من فك أسفل عثر عليها في ١٩٤٩ في منجم سوار نكرنس (جنوب افريقيا)، وشكلها شبيه بشكل الفك الأسفل للإنسان القديم.

**انسان الصن (Sinantrope) :** من اللاتينية سينانيس وتعني: صيني، ومن اليونانية أنثروبوس، وتعني انسان). يقصد به أحفور تمثل فيه في نفس الوقت خصائص قريبة من الإنسان الحالي تجعله ينتمي الى الجنس البشري، وخصائص أخرى مخالفة للأولى يتميز بها نوع آخر. ان منجم شوكتويان (في الجنوب الغربي من بكين) قد استغله بين عامي ١٩٢١ و ١٩٣٩ الدكتور بيبي وم. بلاك، والأب تيللاردي شاردان، وف. فيندنرايخ. وهو ينتمي الى نوع الإنسان المستقيم.

تكتيت: زجاج طبيعي غني بالسيليس والألمين، ومن المحتمل أن أصله من الكون.

توف (Tuf): صخر بركاني مسامي خفيف وغض طري.

ثقافة الحصى: يقصد بها صناعة الحصى المثقف، وهي أقدم صناعة حجرية معروفة، وتتألف بصورة أساسية على حصى أحدث فيها حد قاطع بالنزح مرة أو عدة مرات.

جاديت (Jadéite): ألومينو سيليكات طبيعي الصوديوم، مع شئ قليل من الكلسيوم والمغنيزيوم والحديد.

دوليريت: صخر من فصيلة الكابرو، معادنه يمكن رؤيتها بالعين.

دهنج (ملاشيت) (Malachite): كرسونات النحاس الأساسي الطبيعي، لونه أحمر.

دياباز: صخر من فصيلة الكابرو (صخر عجب) والديوريت لونه أخضر في الغالب.

ديوريت: صخر متبلر.

ذالوجهين (بيفاس): آلة من حجر منحوتة على الوجهين، شكلها شكل لوزة. وكانت تسمى (الفأس) ثم (اللكة) ويبدو أنها كانت تستعمل للقطع، وأحيانا للكشط. وهذه الآلة تتميز العصر الحجري القديم الأسفل.

ريس: نسبة إلى جدول ماء في بافاريا. ويقدر به التجمد ما قبل الأخير الألي في الدهر الرابع، وقد وقع في ٢٠٠٠٠٠-١٢٠٠٠٠ سنة.

ساوري: نسبة إلى الساورة (واد في الصحراء الجزائرية). ويقصد به المطار الصحراوي الرابع، ويعادل الكيلي.

سيج (Obsidienne): صخر بركاني زجاجي مرصوص يشبه الزجاج الضارب إلى السواد.

مستيلباي: نسبة إلى ستيل باي (مقاطعة الرأس). قامت فيه صناعة حجرية غنية بالقطع الرقية الشكل ذات تثقيفات على الوجهين شبيه بأوراق الرند في السولوترى الفرنسي وهو معاصر للكيلي.

سربنتين: سيليكات المغنيزيوم الموهمة.

أوليكيوسين: الحقبة الثانية من الدهر الثالث، تتراوح من ٤٥ مليون سنة إلى ٢٥ مليون سنة.

إيبيروموروسي (Ibéromaurusien) مظهر ثقافي من أواخر العصر الحجري القديم، ومن بعد العصر الحجري القديم بالمغرب، ويتميز هذا العهد بكثرة الأدوات الحجرية الصغيرة. وقد دام من الألفية العاشرة إلى الخامسة ق.م.

إبيدوت: سيليكات الألومنيوم والكلسيوم والحديد الموه الطبيعية.

إبيوسين: الحقبة الأولى من الدهر الثالث، منذ ٦٥ إلى ٤٥ مليون سنة.

بازلت: صخر بركاني.

باليزويك: كلمة مرادفة للدهر الأول.

بشريات (Homínidès) فصيلة حيوانية من المقدمات العليا، يمثلها البشر الأحفوريون (Fossiles) والبشر الحاليون.

بليستوسين: (من اليونانية بليستوسن، وتعني كثير، وكينوس، وتعني حديث) ويقصد به الانقسام الجيولوجي الفرعي للدهر الرابع، ويشمل مظهره والجزء الأكبر منه. إن هذا المصطلح الذي وضعه ش. ليال عام ١٩٣٩ يوافق أوقات التجمدات الكبرى في الدهر الرابع، ويسبق الحقبة الهولوسينية التي تبتدىء منذ ١٠٠٠٠ سنة قبل عهدنا.

بليوسين: حقبة نهائية من الدهر الثالث. ابتداء في ٥٠٠ ملايين وانتهى في ١٨ مليون سنة.

بنجديات (Pongidès): فصيلة من القرود الشبيهة بالإنسان، وغودجها هو الأورانغوتان، وتشمل أيضا الغوريلا والجيون والشمبزي.

تشتيولي: اصطلاح وضع على اساس مركب حجري عثر عليه في تشيتولو (كاساي). ويدل على مظهر صناعي من العصر الحجري القديم اللاحق ويتميز باستمرار وجود أدوات ضخمة، ولكن أحجامها أصغر مما كانت عليه في اللومبي، وبتعدد أسنة السهم المثقف على الوجهين.

تانسيفتي: نسبة إلى غربي تانسيفتي (القسم الغربي من المغرب) ويقصد به الدورة البقارية المغربية الموافقة للقسم الأول من ريس.

جديد وليتوس وتعني حجر). يقصد به العصر الحجري المتميز بانتاج القوت (زراعة، رعي). وهذه الكلمة من وضع ج. لوبوك عام ١٨٦٥م.

عصر حجري قديم (بالبوليتيك): (من اليونانية باليوس، ومعناها قديم، وليتوس، ومعناها حجر). يقصد به العصر الحجري، بدون انتاج للقوت. وهذه الكلمة من وضع ج. لوبوك عام ١٨٦٥م.

عصر حجري وسيط: (الكلمة الأجنبية ميزوليتيك أصلها ميزو، وتعني: في وسط، وليتيك، وتعني: حجارة). استعملت هذه الكلمة مدة طويلة لتدل على مجموع المظاهر الثقافية الواقعة بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الجديد. وتنسب اليوم على الأرجح لمرحلة لاحقة للعصر الحجري القديم.

عقيق أحمر (كوزالين): كلسيدونية حمراء.

كالينه (Galène): سلفور الرصاص الطبيعي.

كمبلي (Gamblien): هو المصطاد الإفريقي الرابع، وقد وصف وصفا علميا بالنسبة لما حول بحيرات ناكورو، ونايفاشا، والماتيتا (الكنيا). وهو معاصر للعصر الجمودي الوري، ولكن لا يستعمل اليوم.

غونز (Günz): نسبة الى نهر بألمانيا، ويقصد به أقدم تمجد ألبى في الدهر الرابع.

فنتسلي المنخرين (Platyrhinien) قرد العالم الجديد، له ٣٦ سناء، وله وتيرة أنفية ضخمة.

فورسميث: نسبة الى بلدة تقع في ولاية أورانج (جنوب إفريقيا). قامت فيها صناعة حجرية تشتمل على مكاشط وأسته ذات وجه واحد تستعمل للتسوية، وآلات ذات وجهين، وقدميات صغرية. وهي توافق العصر الحجري القديم الوسيط بأوروبا.

فيلافرنشي: نسبة الى فيلافرنكا دانتشي (تيفينون). ويقصد به التشكل الرسوبي الموافق للفترة الانتقالية بين الدهرين الثالث والرابع.

قابسي: نسبة الى كابسا (الاسم اللاتيني لقابس في تونس الجنوبية) قامت فيه صناعة من العصر الحجري القديم الإفريقي. تولى تعريفه ج. دي مورغان. احتجعت فيه أدوات من النوع السائد في العصر الحجري القديم الأعلى، الى جانب العديد من الأدوات الحجرية الصغيرة، وآلات الثقب الصغيرة الشخينة،

سفليات المنخرين (Catarhiniens): قردة العالم القديم، لها ٣٢ سناء، ولها وتيرة أنفية رقيقة.

سنغوي: موقع ينسب الى خليج سنغو (في بحيرة فكتوريا بأوغندا). وهو مركب للصناعات الحجرية اكتشفه وايلاند عام ١٩٢٠، يتميز بأدوات جمعت بين آلات مصنوعة من شظايا بطريفة لوفالوا، وبين معاول ضخمة، وذوات الوجهين، وقطع مزينة بالأوراق. وقد ازدهر بين الكاماسي والكبلي.

سينوزويك: مرادف للدهر الثالث والدهر الرابع. يتبدى مع الايوسين منذ ٦٥ مليون سنة، ويشتمل بعد ذلك على الأليغوسين (٤٠ مليون سنة)، والميوسين (٢٥ مليون سنة) والبليوسين (١١ مليون سنة) والبليستوسين، والحلبة الحديثة.

شولي (Chelléen): نسبة الى شول. يقصد به المظهر الصناعي في العصر الحجري القديم الأسفل وصُف ج. دي مورتي. وهو التسمية القديمة للابيلي.

صناعة عظمية سنية قرنية (Ostéodontokératique): من صناعات ما قبل التاريخ وهي قائمة على العظم. (من اليونانية أوستيون)، وعلى الأسنان (من اليونانية أودوس، أودنتوس)، وعلى القرن (من اليونانية كيراس، كيراتوس)، اكتشفت في ماكينغات (جنوب إفريقيا) من طرف ر. أ. دارت.

صولوتري: نسبة الى صولوترا (منطقة الصون واللواز بفرنسا). قامت فيها صناعة فيا قبل التاريخ في العصر الحجري القديم الأعلى، ويتميز بصفائح رقيقة جدا من الصوان (سيليكس). ان المظهر الخارجني للأدوات المنحيزة له سببه الصنع بتقنيات حائلة متوازية على وجهي القطعة.

عاطري: نسبة الى بحر العاطر بالجزائر الشرقية. يتميز بالصناعة في العصر الحجري القديم بشمال إفريقيا، بين الموستيري والقابسي. ويشتمل على أسته الرماح ومجرفات ذوات ساق، وعلى بعض الأسته التي لها شكل أوراق. وقد تواصل العاطري خلال قسم كبير من (وورم)، ومن المرجح أن قسا منه معاصر للعصر الحجري القديم الأعلى بأوروبا.

عصر النحاس والحجر (Enéolithique): أصل التسمية الأجنبية من اللاتينية اينوس، ومعناه البرونز. ومن اليونانية ليتوس، ومعناه الحجر. كلمة مرادفة للعصر المعدني الحجري (Chaleolithique). وهي حقبة فيا قبل التاريخ بدأ الإنسان يستعمل فيها النحاس.

عصر حجري جديد (نيوليتيك): (من اليونانية نيوس، وتعني

(أكلة كل شيء)، من الميوسين ومن المحتمل أن يكون جد البشرات. ويرجع الى عهد ١٢ أو ١٤ مليون سنة. اكتشف في روابي سيواليك (شمال الهند)، وتوجد منه نماذج أخرى معروفة في الصين وتركيا وفورتارنان بافر يبقيا اما في أوربا، فهو معروف في فرنسا وألمانيا واليونان والنمسا واسبانيا والمجر.

قرصاني: آلة من حجر شكلها شكل القرص، مستعملة في أواخر الأشولي، ومنحوتة على الوجهين.

كاغيري (Kaguérien): نسبة الى نهر كاغيرا (طانزانيا). ويقصد به المطار الإفريقي الأول، وقد وصفه ا. ج. و بلاند عام ١٩٣٤م. وهو معاصر لتجمد كوتز في جبال الألب. ولكنه لا يستعمل اليوم.

كافون: نسبة الى نهر كافو (اوغندا) ويقصد به مظهر صناعي في مطلع العصر الحجري القديم الأسفل بافر يبقيا الشرقية، ويتميز بحصى مستطع منحوت تحت خفياء وغير مصقول. ومن العلماء من ينازع في أصله البشري.

كالابري: نسبة الى كالابري. أقدم طبقة في العصر الرابع البحري، قام بتعريفه م. جينو عام ١٩١٠م.

كاماسي (Kamasien): نسبة الى كاماسا (كينيا). ويقصد به المطار الإفريقي الثاني، والتسمية العادية له هي الكاماسي الأول، وهو معاصر لتجمد مندل الاوربي، ولكنه لا يستعمل اليوم.

كانجير (Kanjerien): نسبة الى كانجير (كينيا) ويقصد به المطار الإفريقي الثالث، وقد وصفه ل. س. ب. لايكي، والتسمية العادية هي الكاماسي الثاني. ويقابل في جبال الألب العصر الجومدي لر يس، ولكنه لا يستعمل اليوم.

كلاكتوني: نسبة الى كلاكتون — أون — سي (بريطانيا العظمى). قامت فيه صناعة فيما قبل تاريخ من العصر الحجري القديم الأسفل. وصفها هـ. بروي في ١٩٣٢م، وهي تتميز بشظايا من الصوان لها سطح أملس وغريض يستعمل للضرب. ويدو أن الكلاكتوني معاصر للأشولي.

كلسيت: كربونات الكلسيوم المتبلرة. ويوجد منه في الطباشير، والرخام الأبيض والمرمر الكلسي.

كلسيدونية (Calcedonie): نوع ليني من السيليس يتألف من رمل الصوان وحجر الأوبال.

لازورد (Lapis-Pazuli): صخر أزرق لازوردي يستعمل في

ولعملها كانت تستعمل لتقطع من قواقع بيض النعام المستخدمة لصنع العقود. ويرجع الى حوالي ١١٠٠٠ سنة.

ما قبل السلطاني (Présoltanien): حقبة قارية مغربية توافق نهاية ريس. وهي سابقة للسلطاني (نسبة الى دار السلطان).

ما قبل الكبري (Précambrien): يقصد به أقدم تشكيل جيولوجي. دام منذ تشكل الكرة الأرضية (و يقدر بـ ٤ مليارات سنة) الى الدهر الأول (— ٥٠٠ مليون سنة).

قدم: آلة ضخمة مصنوعة من شظية لها حاذق قاطع يتكون من تلاقى سطحي الشظية. وهذه الآلة يتميز الأشولي الإفريقي، ولكن عثر عليه أيضا في صناعات العصر الحجري القديم والوسيط في بعض المناجم من جنوب فرنسا، وفي اسبانيا.

قرد البليستوسين: يقصد به قرد الجنوب الرشيقي. اكتشف في ترانسفال عام ١٩٣٦، في قاعدة البليستوسين.

قرد الجنوب (أوسترواليتال): (أصل التسمية، من الكلمة اللاتينية أوستراليس، أي الجنوبي. ومن الكلمة اليونانية بيتاكوس، أي القرد). اسم جنس أطلقه (دارت) عام ١٩٢٤م على عدد من الأحفورات في جنوب افريقيا، لها خصائص القرد، وصفات قريبة من صفات البشر. ومنذ ذلك العهد وقعت اكتشافات أخرى في افريقيا الشرقية والجنوبية.

قرد انسان (Pithécantrophe): يقصد به أحفور له خصائص قريبة نوعا ما من الإنسان الحالي، تضعه في جنس الإنسان، وخصائص أخرى يتميز بها نوع آخر. وقد اكتشف أول قرد — انسان من طرف ا. دو بوا، في جاوة عام ١٨٨٩م وينتمي الى نوع الإنسان المستقيم.

قرد ذبال (Cercopitèque): أصل الكلمة الأجنبية، من اليونانية (كركوس) ومعناها: ذيل. و (بيتاكوس) ومعناها: قرد. وهو قرد افريقي ذو ذيل طويل.

قرد شبه الإنسان (بارنثروب): صنف من قرد الجنوب القوي، عثر عليه في عام ١٩٤٨م في البليو — بليستوسين في كروم راسي (ترانسفال). ويقال له أيضا: القرد — الإنسان الزنجي، (زنجنثروب)، وشبه قرد الجنوب (باروسترا لوبيتيك). ان هذا الصنف البائد له خصائص قردية كثيرة، ولكن، له سمات تجعله أقرب الى الإنسان منه الى القرد الشبيه بالإنسان، وخاصة في ما يتعلق بانتظام أسنانه.

قرد راما: قرد راما فيكيري: ينتمي الى المقدمات القارة

**معارفي:** نسبة إلى المعارف (المغرب) ويقصد به التعدي البحري على الشاطئ الأطلسي من المغرب في الدهر الرابع.

**هندل:** نسبة إلى هنريق في بافاريا. يطلق على التجمد الثاني الألبى في الدهر الرابع. ويبدو أنه يتراوح بين ٣٠٠٠٠٠ و٤٠٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

**موسستيري:** نسبة إلى موتبي (دورونيا). قامت فيه صناعة فيا قبل التاريخ في العصر الحجري الوسيط، وانتشرت في القسم الثاني من البين جودي الأخير. وصفها أ. لارتيت في ١٨٦٥م، وتتميز بكثرة الأستنة والمكاشط المصنوعة بتسوية الشظايا على وجه واحد منها.

**مولوي:** نسبة إلى وادي الملوية بالمغرب. وهي كلمة استعملها بيرسون وتطلق على الفيلافرنشي الوسيط بالمغرب.

**ميكوك:** من مواقع ما قبل التاريخ، شمالي الإيزي بفرنسا (Eyzies) على بعد ٢٥ كلم في الشمال الغربي من سارلا، اكتشفت بهذا الموقع الصناعة الميكوكية (وهي شكل متطور جدا من الأشولي ومعاصرة لتجمد وورم).

**ميسوسين:** (من البيوتانية ميون، وتعني: أقل وكيونوس، وتعني: حديث)، أي أنه أقل اشتمالا على الأشكال الحديثة من النظام الموالى له. وهو حقبة من الدهر الثالث الواقعة بين ٢٥ و ١٠ ملايين سنة قبل الميلاد.

**نضيد (شيست):** صخر رسوبي سيليكو - ألوميني، موريق ينقل بسهولة إلى صفحات.

**نياندرتالي:** نسبة إلى واد صغير من حوض دوسيل (ألمانيا)، حيث اكتشف الدكتور فوهلروت عام ١٨٥٦م، أول ممثل لمجموعة خاصة من جنس الإنسان، كان يعيش بأوروبا الغربية، في البليستوسين الأعلى، ثم انقرض فجأة من غير أن يترك خلفا له.

**هاروفي:** التعدي البحري الرابع في الدهر الرابع على الشاطئ الأطلسي للمغرب.

**هولوسين:** أحدث حقبة في الدهر الرابع. بدأ منذ ١٠٠٠٠ سنة.

**هيماتيت:** أكسيد الحديد الطبيعي.

**وعنة (Latérite):** من (لاتير، أي الآجر)، وهي تربة حمراء فاقع لونها، أو حمراء داكن لونها، غنية جدا بأكسيد الحديد والالومين، وتتشكل في المناخ الحار نتيجة للتدوير.

**الفينفساء (موزاييك)،** ويسمى مسحوق «أوترمير: Autremer».

**لكمة القبضضة:** آلة من حجر على شكل لوزة، منحوتة على الوجهين، وربما كانت تستعمل للحفر والسلخ وهي التسمية القديمة لذي الوجهين (بيقاس).

**لومي:** نسبة إلى لومبا في كاساي (زايير). ويقصد به المظهر الصناعي من العصر الحجري القديم النهائي المتميز بالجمع بين أدوات ضخمة من حجر منحوت (مناول - مقصات) وبين قطع ورقية الشكل مسواة بدقة على الوجهين. ويرجع إلى حوالي ٧٠٠٠ سنة قبل عصرنا.

**لوفالوا (تقني):** نسبة إلى لوفالوا - بيري، (مرتفعات السين بفرنسا). ويقصد بهذه الكلمة طريقة في تقصيب الحجارة تسمح، بعد إعداد البقايا الحجرية بالحصول على شظايا كبرى لها شكل معين.

**لوفالواسي:** مظهر صناعي تول وصفه ه. بروي في ١٩٣١، ويتميز بوجود شظايا غير مسواة عادة أو مسواة قليلا، ومستخرجة من بقايا حجرية من نوع لوفالو. ولا يعتبر اليوم مظهرا حقيقيا.

**ليديانيت:** شيست متصلب.

**مازييري:** المطار الصحراوي الأول، و يعادل الكاغيري.

**ماغوسسي:** نسبة إلى ماغوسا (أوغندا). قامت فيه صناعة حجرية اكتشفها ويلاند في ١٩٢٦م، وتقع بين الكبلي والمالكالي، وقد جمعت بين أدوات ذات مظهر موسستيري، كالبقايا الحجرية والأقراص والأستنة، وبين قطع ورقية الشكل مسواة على الوجهين، وأحجار صغيرة هندسية الشكل.

**ماكالي:** نسبة إلى ماكالا (كينيا). ويقصد به المرحلة الرطبة من الدهر الرابع بالقسم الجنوبي من إفريقيا، وهي مرحلة معاصرة لما بعد العصر الجمودي الأول في أوروبا لا يستعمل اليوم.

**ماكوري:** طور تاريخي رطب عرف بواسطة الترسبات الموجودة فوق سطح أدنى من سطح بحيرة ناكورو (كينيا) ١٠٢ م. وقد اكتشفت في هذه الطبقات صناعات مرتبطة من حيث المظهر بالعصر الحجر الجديد الذي قد يرجع عهده إلى حوالي ٣٠٠٠ سنة.

**مرو (Quartzite):** صخر صلب يتألف أساسا من الصوان.

**وورم:** نسبة الى بحيرة والى جدول ماء في بافاريا. ويقصد به أحدث التجمدات الألبية في الدهر الرابع. وهذا التجمد بدأ منذ ٧٥٠٠٠ سنة وانتهى قبل الميلاد بموالي ١٠٠٠٠ سنة.

**يشب (Jaspe):** كلسيدونية غير صافية ملونة على شكل أشرطة أو بقع، وغالبا ما يكون اللون أحمر.

**ولطوني:**نسبة الى موقع ولطون (الرأس الغربي). يتميز بصناعة حجرية مؤرخة بموالي ١٥٠٠٠ سنة، تشتمل على محكات على شكل سفود، وأحجار صغيرة على شكل قطع من دائرة، وعلى شكل مربع منحرف، وكذلك على مثاقب وقطع ذات حواف مسننة. و يعتبر مظهرها متأخرا امتد إلى أن بدأ الإنسان يستعمل الحديد.



## البشرىات الأءفورية الأفرفقة

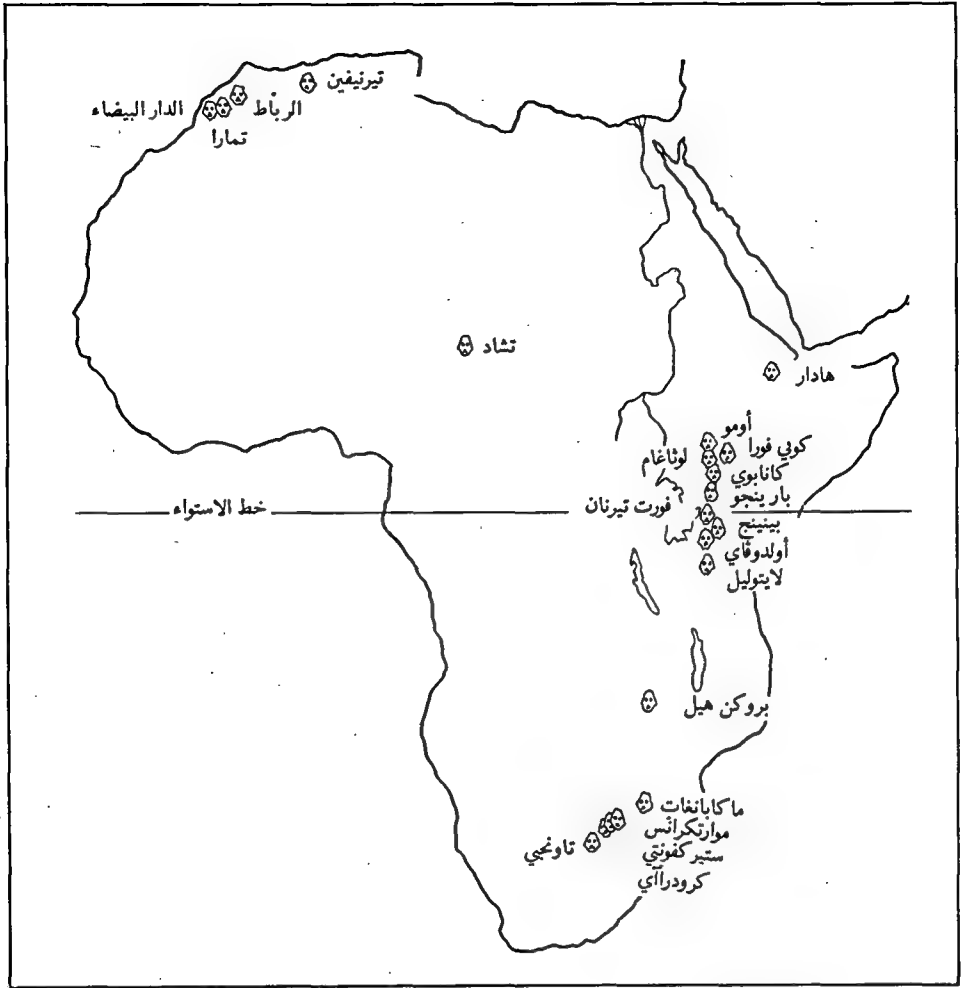
بقلم: ر. لافكف

### أفرفقا مهد الإنسانفة

كان شارل داروفا أول عالم أءى نظرفة عصفرفة تتعلق بتطور الإنسان وأصله، وكان أول من أءفر أن أفرفقفا مهده الأصلف. ولقد بفنت الأءاءاث الفف أءرفف خلال القرن المنصرم كم كان على صواب، لأن كئفرا من المظاهرف الخاصة بعمله الرائف قد تأكءف، ولذلك لا فمكن أن نءصور الأءطور مجرد فرضفة نظرفة.

ان الشواهد على تطور الإنسان بأفرفقفا مازالت غير مكءمة، الا أننا نرى أن عءءا كبفرا من الأحفورات قد تمء ءراسفها وتم تأو فلها فف القرن الأففر، اء فوءء أسباب راءءة فففء أن أفرفقا هف القارة الفف ظهر بها البشر لأول مرة، ففء اكءسبوا المءشف على الرءلفن والإسقامة العموءفة اللءفن فمئلان عنصرفن قاطعفن لتمام فكففه. وفءربنا أن نءء مءف، وبأفة طرفة أسءطاع الإنسان فءقفف ذلك الفكفف. لقد كان الأءطور طوفا. على أن مراءل عءفءة من تطور الإنسان لا فسءنف الى أفة ءءة من النماءء الأحفورفة، لان المءافظة على فكك الأحفورات مرءبطة فعلا بأءوال خاصة للفاءة.

ان الأحفورفة فءءاء الى أءوال ءفولوجفة فكون ففها الترءب سرفعا وفسمء التركفب الكفمفاف للءربة، وكذلك مفاه الفصففة بءعوفض العناصر العصفوفة بالعناصر المءنفة. إن الأحفورات المءشكلة على هءه الطرفة فظل مءقففة فف الأعماق فء الرواسب المءراكمة ولا فمكن للإنسان العصفرف أن فكءشفها اءا لم فءءءل الطففة ببعض الوقائع مءل الإءراف، أو الأءركات الفف فءءف فف بنة الأرض. وأمئال هءه المواطن ناءرة ومبشرة. فان كءب لنا أن فكءشف كل سنة مواطن ءءفءة فسفمءنف ءءة كبرف من أفرفقا امءناعا باءا من فوفر شواهد أحفورفة على ظهور الإنسان.



• عدد من أهم مواقع ظهور الكائنات البشرية.

وهمنا أن نذكر الأسباب التي جعلت بعض أجزاء إفريقيا ثرية جدا فيما يتعلق بشواهد ما قبل التاريخ. وأولها تنوع السكن بإفريقيا فالقارة شاسعة من جهتي خط الاستواء وتمتد حتى المناطق المعتدلة شمالا وجنوبا. وهذه الحال تتسبب في تنوع المناخات. أضف الى ذلك الأراضي العالية في المنطقة الاستوائية تدخل بعدا آخر. ويرتفع هذا الحجاز الداخلي من الحاشية الساحلية و يتمثل في الانحدار بل في جبال وقم يحتفظ البعض منها بالثلوج الدائمة رغم حرارة المناخ وجفافه.

وتتوافر بالمرتفعات بيئات مختلفة تزداد برودة مع الارتفاع. ولقد كانت تلك العوامل دائما موجودة بإفريقيا. فإذا حدث أن وقعت تغيرات مناخية فعلا، فالذي لا شك فيه أن إفريقيا وفرت دائما للإنسان مسكنا لائقا، وكلما أصبحت منطقة خاصة شديدة الحرارة أو البرد، أمكن دائما التحول تحولا جهويا نحو محيط ملائم أكثر.

لقد أبدى بعضهم فرضية تفيد وجود علاقة ارتباط بين الحقبات الجيودينية بنصف الأرض الشمالي، وبين الحقبات الرطبة بإفريقيا، باعتبار أننا نلاحظ فعلا أن التحولات الهامة الطارئة على مستوى البحيرات، توافق التحولات الطارئة على نسبة نزول المطر. ولقد درست هذه القضية بتوسع في السنوات الأخيرة. فإذا استطاع تقدم جهودي أن يؤثر عموما على الأحوال الجوية فذلك لا يقوم دليلا قاطعا على وجود علاقة ارتباط (١). إلا أن تراكم الرواسب بأحواض بحيرات إفريقيا مدة البليستوسين يؤكد الفكرة التي تفيد أن الأمطار كانت أغزر في تلك الحقبة.

إن حجم الترسيب كان كبيرا جدا، لقد كانت بحيرات عديدة من البليستوسين الإفريقي صغيرة وقليلة العمق، ويحتمل أنها كانت فصلية يطرأ على مستواها اضطراب سنوي، يعكس طبيعة المناخ المداري نفسه، مع نزول الأمطار قوية في بعض الأشهر فحسب. لقد كانت تلك البحيرات أحواضا مشالية تتجمع فيها الرواسب التي تنزل سنويا على شواطئها وحول مصبات الأنهار، وتطفو على حافاتها عند ارتفاع المياه. وكثيرا ما تدفن الحيوانات الميتة قرب شواطئ البحيرة بالرمال أو الأوحال المتجمعة مدة الفيضان. إن هذه الطريقة قد دامت ملايين السنوات، وعثر على آثار حيوانية بمستويات مختلفة، في مجموعات ترسيبية يتجاوز سمكها الكامل ٥٠٠ متر.

وجفت أحواض وتكونت أخرى إثر ردم البحيرات وتحولات نظام الأمطار، ولا شك أن عملية التآحفر (Fossilisation) كانت طويلة، لأن البليستوسين يغطي أكثر من ثلاثة ملايين سنة فانطمرت مدة تلك الفترة كلها، بقايا الحيوانات في ترسبات صالحة للمحافظة عليها.

إن العثور على تلك الآثار يعتبر طبعا مشكلا هاما بالنسبة للإحاثيين، غير أن بعض العناصر قد ذلت العقبات، في إفريقيا ولا سيما بإفريقيا الشرقية. فلقد حدث بإفريقيا الشرقية طيلة البليستوسين، وخاصة في نهايته، تحركات بنوية مرتبطة بكسر أصاب القشرة الأرضية يسمى الرفع (وادي الرفع)، فتسببت هذه التحركات في صدوع جيولوجية، بأماكن عديدة ونتج عنها نهوض كتل من الرواسب. وأبرز الإحتراف الموالي طبقات كانت قد تشكلت بها الأحفورات. وقد تركز البحث عن الأحفورات عادة بالأحواض القديمة حيث تكسرت التشكلات الرسوبية، وظهرت في شكل أراض جافة تسود فيها الوهاد.

على أنه توجد امكانيات أخرى، كما يشهد بذلك العدد الكبير من البقايا البشرية بجنوب إفريقيا. لقد تجمعت تلك الأحفورات بكهوف كلسية حيث طمرت العظام المتراكمة عند امتلاء الكهوف وسقوط سقفها. ولقد نقلت العظام الى الكهف، بفعل عوامل كثيرة منها، حسب الاحتمال، الحيوانات آكلة الجيف او النهاية مثل الفهود والضباع. وتوجد بعض العلامات على احتلال تلك الكهوف من طرف البشر، وبالتالي يمكن أن تعزى اليهم بقايا العظام التي وجدت متحجرة. فالمشكل الخاص بهذا النوع من المواقع هو انعدام معيار عملي في علم طبقات الأرض، فيعسر ضبط العمر النسبي للأحفورات المكتشفة.

ولم تتحقق الشروط الضرورية لتأحضر الآثار الحيوانية في مناطق كثيرة بإفريقيا في البليستوسين. واعتبارا لذلك، فإن انعدام الآثار لا يعني أن الإنسان لم يكن موجودا في تلك المناطق، إذ أن أبحاثا جديدة كفيلة بأن تكشف مواقع جديدة.

ان الأدوات الحجرية أكثر وفرة من الأحفورات العظمية. فهي تظل محفوظة في غالب الأحيان، حتى وإن لم تطمر في الحين تحت الرواسب. ولقد جمع الأثريون عددا كبيرا من المعطيات عن التكنولوجيا البدائية التي تساهم كثيرا في معارفنا عن ظهور الإنسان.

ان الإنسان، وبالأحرى الجنس الإنساني، يعتبر بلا شك الحيوان الوحيد القادر على صنع أدوات من حجر. إلا أن آراء الاختصاصيين تختلف، في هذا الميدان وغيره من ميادين البحث المتعلقة بمستقبل الإنسان.

فدراسة أصل الإنسان تعتمد اعتمادا كبيرا على منهج تداخل العلوم بحيث لا يقتصر على دراسة العظام المتأحجرة والمعالم الأثرية، بل تشارك في ذلك مشاركة فعالة كل من الجيولوجيا والبلشيكولوجيا، وعلم الإحاثة، والجغرافيا الطبيعية، والجغرافيا الكيميائية. لقد أصبح علم الآثار ذا أهمية كبيرة عندما شرعت البشريات في استعمال الأدوات. ان دراسة المقدمات الحية بما في ذلك الإنسان، كثيرا ما كانت مفيدة لندرك أحسن إدراك ما قبل تاريخ معمرتنا.

ان أحفورات فصيلة الإنسان، أي البشريات، تظهر متميزة ومنفصلة عن القرود الكبرى الحالية، أي «البنجديات»، منذ ما يزيد على ١٤ مليون سنة. ان أقدم الشواهد في هذا المجال غير مكتملة ويوجد في معارفنا عن تطور الإنسان نقص يتعلق بالفترة المتراوحة من ١٤ مليون سنة الى ما يتجاوز قليلا ٣ ملايين سنة. فيبدو أن التميز قد وقع في تلك الفترة لأننا نعرف أشكالا عديدة من البشريات الأحفورية ابتداء من ٥٠٠٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

وكثيرا ما كانت الشواهد الأحفورية المتعلقة بالمجموعات الأخرى غير الإنسانية، معروفة أحسن معرفة إذ توفرت لنا عنها أدوات أكثر اكتمالا. وتعتبر تلك الآثار مهمة وتسمح بالسعي الى إعادة تشكيل البيئة البدائية الخاصة بالبشريات في المراحل الأولى من تطورها. ولنا معطيات عن حقبات زمنية عديدة مهمة، طرأت فيها على أجناس حيوانية عديدة، تغيرات سريعة جدا كانت جوابا على ضغوط البيئة.

ولقد تبين أيضا أن الإنسان قد مر بمراحل متنوعة قبل أن يصبح ذا رجلين، وذا فكر متطور جدا كما هي الحال اليوم. ولقد عاشت في بعض الفترات، أنواع عديدة من البشر وكان كل نوع يتكيف تكييفًا خاصا. فالتغيرات الطارئة انطلاقا من الشكل القردي للبشريات في الميوسين تمثل نوعا من

التلخص أو التلكلف تستوجب منا توضىءها. وبالرءم من أن المعطىات المتوفرة لدنا لا تزال ناقصة، فانا نعرف بعض التفاصيل عن ذلك التطور المعقد. وسندرسه انطلاقا من الأحفورات الءدثة جدا لنصل الى أكثرها قدما.

## الإنسان الءالى والإنسان العارف

ان التعرف الكلاسىكى للإنسان، لا ىرضى كل الرضى فهو يعرف بـ (الكائن الإنسانى والجنس الإنسانى، والكهل الذكر، والفرد من الجنس الذكر). ومن مشاكل هذا التعرف أن الإنسان العصرى ىعتبر فىما ىبدو النوع المعروف الأكثر تنوعا، نظرا لكثرة الإءتلافات الءسىمة أو السلوكىة بن سكان العالم، وهى تنوعات ىجب أخذها بعن الإءبار. ومهما كانت الإءتلافات الظاهرة فان الإنسان ىشكل الיום نوعا واحدا وىشارك الناس فى نفس الأصل وفى نفس التاريخ طيلة تطورهم الاول. وىءمل أن النوع قد أظهر فى بعض الالفىات الأخيرة تنوعات سطءة، وىرجى أن تساهم هذه الفكرة فى طمأنة الإنسان على وحدة ذاتىة وعاىته، وأن ءجعل الناس أكثر اقءناعا بوحدتهم الطبعىة والمصبرىة.

ان الانسان الءالى الذى ىنءمى انءاء كلىا إلى الإنسان العارف (Homo sapiens) ىستطىع أن ىعش فى مساكن متنوعة جدا. ولقد ىسر ذلك بفضل نمو التقنىات. ان الءاة بالمدن المكظة بالسكان، تقابل ءاة البدو الرجل رعاة الءمال بالصءراء، وهما تقابلان بدورها ءاة الصىادين الذين ىعشون فى أعماق الغابة الكشفة بافرىقىا الغربىة. وىستطىع الإنسان أن ىعش فترات طويلة تحت البحر، فى الغواصات، وأن ىعش فى مدار فللكى على متن أقمار فضائىة. وفى كل هذه الأحوال ىكون التلكلف بالإءءاء على التكنولوجيا. فالإنسان الءالى مزود بمء كبرى ومعقد، وىبدن متءرءن من أداء وظفءها القدىة فى المشى، وأصبءا متفرءن تماما لمعالجة الأمور، كما أنه أصبح قادرا على الوقوف مستقما على رءلىه. ان هذه الشروط الفزىولوجىة الأساسية قد توفرت للإنسان عبر العصور. وبذلك توفرت لنا الآثار الدالة على نشاطه. ولهذا ءعتبر درجة تطور المنء، والقدرة على معالجة الأمور بالىدین، والمشى على الرءلین، من أحسن ما ىمكن الرجوع الىه لضبط تاریخ النوع البشرى عبر الزمان.

ءشهد اءءشافات هامة بافرىقىا على ظهور الإنسان العارف البدائى منذ أكثر من ١٠٠٠٠٠ سنة. وكل شىء ىشیر الى أن وجود النوع البشرى بافرىقىا لا ىقل قدما عما هو علیه بغيرها من القارات. وبفضل اءءات ءدثة، تم ءءد اقدم أثر عثر علیه فى افرىقىا، وىرجع الى أكثر من ٢٠٠٠٠٠ سنة.

وفى ١٩٢١م اءءشفء ءءمة وبعض البقاىا العظمىة فى بروكن هیل ببلاد زامبىا، ولما كان هذا القطر ىسمى سابقا رودىسا الشمالىة عرف هذا النموء باسم انسان رودىسا أو الإنسان العارف الرودىسى. والتارىء المقءرء لها ٣٥٠٠٠ سنة قبل المىلاد. ولأشك ان هذا النموء ىنءمى الى نوعنا البشرى، وىبدو أن عمره الواقعى اقدم من التاريخ المقءرء، وان ظلّ مشكلة قائمة. فهو

يشابه مشابهة قريبة نموذج نياندرتال بأوروبا ويعتبر فعلا مثالا إفريقيا من ذلك النوع، ولقد عثر على آثار أخرى أكثر قدما تدل على وجود الإنسان العارف بإفريقيا الشرقية.

في ١٩٣٢م عثر الدكتور ل. س. ب. لايسكي بموقع كنجيرا، في غرب الكينيا، على قطع من دماغين. ولقد كانت تلك الأحفورات مرتبطة بحيوانات من آخر البليستوسين الأوسط، مما يفيد عمرا يقارب ٢٠٠٠٠٠ سنة. ولم يقع إلى الآن ضبط تاريخ الموقع وذلك مايؤسف له، إذ يبدو أن الدماغين وقطعة من عظم الفخذ هي نماذج من الإنسان العارف، ويمكن أن تمثل أقدم الشواهد عن النوع المعروف حاليا بإفريقيا.

وفي ١٩٦٧م عثر على قطع من شخصين بموقع في وادي أومو بالجنوب الغربي من أثيوبيا وهي تشكون من قطع دماغية ومن أجزاء الهيكل ما وراء الدماغ ومن قبة دماغ آخر. ولقد أتت تلك الأحفورات من طبقات أقترح لها تاريخ يعود تقريبا إلى ما قبل ١٠٠٠٠٠ سنة. ويحتمل أن يكون وادي أومو قد عرف بأحفوراته الأكثر قدما. إلا أنه يوجد عدد كبير من الرواسب الحديثة التي تسمح بتوفير معلومات ثرية عن الإنسان العارف الأول بإفريقيا. ويضاف إلى ذلك، أن بعضهم أشار في نفس المنطقة إلى مواقع وفرت الفخار العتيق، وذلك من شأنه أن يقدم أيضا حقائق عن استعمال الفخار في أقدم العصور.

وهكذا يبدو من المعقول أن نفترض بأن النوع البشري انتشر انتشارا واسعا بإفريقيا وغيرها من مناطق المعمورة، وإن كان الإنسان العارف البدائي ممثلا تمثيلا ضعيفا من خلال الأحفورات.

## ما قبل الإنسان العارف

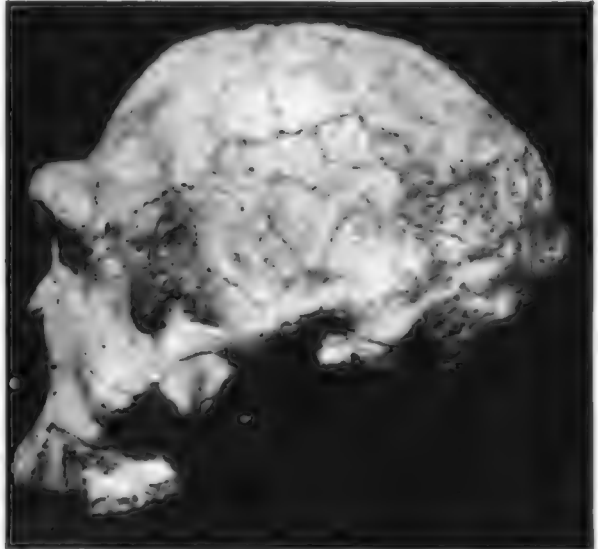
يميل بعضهم دائما إلى ربط الأنواع الأحفورية بالأنواع العصرية، على أن الأمر يستوجب أن يدرك ذلك في نطاق علاقات عامة جدا. ونحن نقترح هنا أن نعتبر أصل الإنسان العارف حسب سلالة يمكن أن تعود إلى ملايين عديدة من السنوات. فقد وجدت احتمالا في عهود مختلفة نماذج عديدة تتميز مرفولوجيا ضمن السلالة مما يجعل التركيب الوراثي للإنسان المعاصر، يعكس جزئيا تلك الوراثة المركبة.

إن تحديد الأنواع الأحفورية صعبة، وكثيرا ما تحدث التباسات ناتجة عن الرغبة في وضع عنوان جديد على كل نموذج مكتشف. والعادة تفرض تصنيف النماذج المتشابهة في نفس النوع. فالاختلافات الطفيفة يعتمد عليها للتمييز داخل النوع الواحد. أما الاختلافات الكبرى، فإنها تصلح لتعريف الجنس. إن الأنواع الحيوانية الحية لا يعسر تصنيفها، ولقد وضع لها العالم الكبير لينى نظاما ممتازا لتصنيفها. فالمشكل الذي يعترض الإحاثيين يتلخص في اعتبار تطور نوع خاص زمنيا مع اعتبار ما طرأ عليه من التحولات السريعة. وفي هذه الأحوال، تستعمل عبارة (النوع المرفولوجي) لوصف الأحفورات التي لها خصائص طبيعية متشابهة. وينبغي أن نضيف أن الخلاف في شأن أصل الإنسان يرجع غالبا إلى آراء مختلفة فيما يخص استعمال المصطلحات الخاصة بالموضوع.

لقد سمحت أحفورات الملايين الثلاثة الأخيرة من السنوات بأن يعرف على الأقل جنسان وأنواع عديدة من البشريات، وذلك من شأنه أن يساعد على أن نفهم أحسن أصل النوع البشري.



● (١) جمجمة الانسان الماهر، منظر  
جانبي، كوي فوراء، كينيا (تصوير  
متحف كينيا الوطني).  
● (٢) جمجمة الانسان المنتصب، منظر  
جانبي، كوي فوراء، (تصوير متحف  
كينيا الوطني)



وما انفك الناس يعتبرون اليوم أن التطور قد وقع حسب نسق موحد. إلا أنه يبدو أن السكان المحليين من نوع معين، كانت لهم ردود فعل مختلفة لعوامل الانتقاء. ولعله من الممكن أن توجد أشكال «بدائية» معاصرة لأشكال متقدمة أو «تقدمية»، وأن تحديد الخصائص (البدائية) عند نوع ثابت الوجود على عهد طويل أقل صعوبة مما لو كانت العينة ضيقة، لأنه يمكن تحديد الاتجاهات والتكيفات التي تساعد في تفسير عملية البقاء وذلك بالإعتماد على تغيرات متدرجة.

إن الباقي من الأحفورات الإنسانية بافريقيا يكشف لدى التحليل عن مجموعتين أساسيتين ونحن نقترح أن نعتبرهما سلالتين تطورتين، يمثل الأولى منها جنس الإنسان الذي لا يزال باقيا إلى يومنا هذا، أما الأخرى التي يمثلها جنس قرد الجنوب فإنها فيما يبدو قد اضمحلت منذ مليون سنة.

ومن الممكن أيضا أن ننظر إلى الأشكال البدائية التي عثر عليها في الترسبات، حيث لا توجد الأشكال المتطورة، وإن كانت موجودة في طبقات أكثر قدما. فهناك ما يدعو إلى اعتبار هذا الأمر نوعا من التقهقر. على أنه من المحتمل أن استمرار أحد الأنواع المتطورة غير ثابت لدينا لا شيء سوى لأنه كان يعيش في مناطق لم تساعد على تأخفه.

إن الضرورة في هذا الفصل، تدعونا إلى أن نقترح اعتبار البشريات السابقة للإنسان العارف حسب سلالتين. وليس من السهل وصف الشكل السلفي المشترك للفرعين، لأن الشواهد الأحفورية مجزأة. فلقد عثر على أقدم البشريات الإفريقية في فورتزان بالكينيا، حيث وجدت قطع عديدة من الشدق الأعلى، وقطعة من فك، وبعض الأسنان، ولقد ضبط تاريخ الموقع بـ ١٤ مليون سنة. إن أحفورات تبين أن تميز البشريات عن البنجديات قد تحقق في ذلك العهد. وهكذا صغر الناب، وتلك ميزة تختص بها البشريات، وتواصل صغره انطلاقا من خصائص قردية مميزة.

إن الشواهد الأحفورية الموفرة بين ١٤ و ٣٥ مليون سنة ناقصة جدا. ولدينا أربعة نماذج فقط يمكن أن تربط بتلك الفترة. وهي كلها من الكينيا وتتكون من قطعة من فك معطوب كثيرا وأصلها من كانام، وجدها الدكتور ل. س. ب. لايبكي سنة ١٩٣٢م، ومن قطعة من فك مع تاج سني من لوثاغام، ودرس بفردة من نكورورا. ولقد أثبت النماذج الثلاثة الأولى من ترسبات أرخت بـ ٤ إلى ٥ ملايين سنة، ويعتبر أن الضرس المنفرد أصله من ترسبات تاريخها ٩ ملايين سنة، ولا يعتبر أي نموذج منها مفيدا لأنها مجزأة، ولقد نسبت قطعة لوثاغام إلى قرد الجنوب إلا أن حالة معارفنا الحالية تجعل من هذا الأمر موضوع جدال بين الأنثروبولوجيين.

ولقد أصبحت المعطيات عن تطور البشريات بافريقيا أوفر فيما يتعلق ببداية البليستوسين أي حوالي ٤.٠٠٠.٠٠٠ سنة، حتى ظهور الإنسان العارف. وأجريت سنة ١٩٧٣م أبحاث في موطنين جديدين وفرا عددا كبيرا من الأحفورات المستخرجة من طبقات أرخت بـ ٣ إلى ٤ ملايين سنة. ويعتبر موقعا لا توليل (Léotil) في طانزانيا، وهدر بأثيوبيا على غاية من الأهمية بالنسبة لظهور الإنسان العارف، مما يبرر الوقوف عندهما قليلا.

توجد لا توليل على بعد ٥٠ كلم تقريبا من فج أولدواي المشهور على منحدرات جبال لاماكروت التي تشرف على الطرف الغربي من بحيرة اياسي ويعود تاريخ هذا الموقع إلى ٣٥ ملايين سنة تقريبا، وهو تاريخ على غاية من القيمة باعتبار أنه اقترح أن تنسب نماذج مكتشفة بلا توليل إلى النوع الإنساني، ويتعلق الأمر بأشداق، وأسنان وقطعة من عضد.



اما مواطن هدر، الموجودة بمنخفض العفرباثيوبيا، فهي معاصرة لما سبق أو أحدث منها قليلا. فلقد اكتشفت أجهزة ثرية منذ ١٩٧٣م منها أمثلة مفيدة من هيكل الدماغ وما وراء الدماغ ويمكن تمييز ثلاثة نماذج يحتل إن تنسب الى الإنسان الماهر والى القرد الرشيق والقرد الجنوبي القوي. وهكذا نلاحظ ان هذه الفترة الاولى تكاد تكون خالية من كل ما يشير الى أصول الإنسان أو القرد الجنوبي. وخلافا لذلك، تعتبر الفترة بين ٣ ملايين ومليون سنة ثرية نسبيا فيما يتعلق بالشواهد الأفرورية.

ان العينة المهمة نسبيا المتكونة من النماذج المتوفرة لدينا والمكتشفة في مواقع تؤرخ بـ ٣ ملايين سنة أو أقل تبين أنه كان يوجد مجموعتان متميزتان من البشرىات البدائية التي كانت تقيم أحيانا بنفس المنطقة. ان ذلك الشكلين: شكل الإنسان، وشكل القرد الجنوبي، من المحتمل أنها كانا يعيشان في أماكن مختلفة، وإن حدث لمواطنها أن تتداخل، فإن التنافس على الغذاء لم يكن فيما يبدو قويا حتى يقضي أحد الشكلين على الآخر. وما زلنا في حاجة الى معلومات كثيرة عن كيفية كل نوع من البشرىات، أما حاليا فإن تعايش الجنسين طيلة مدة تتجاوز ١٥ مليون سنة، يعتبر أمرا ثابتا، كما ثبت بأن كل واحد منها له طابعه الخاص.

فهل كان القرد الجنوبي سلف الإنسان؟ ان هذا السؤال غالبا جوابا ايجابيا. الا أن المعطيات الجديدة المتوفرة، تجعلنا نتيقن أن الأمر لم يكن كذلك. يميل بعض الاختصاصيين، وفهم المؤلف، الى أنه كان للشكلين سلف مشترك يختلف عن كل واحد منها. ولا بد، لاثبات هذه الفرضية، أن ندرس الجنسين باعتبار (تكييفها الخاص) وأن ننظر الى معدل التحول اذا وجد، في كل مجموعة. وسعيا وراء ذلك، ينبغي أن نحدد بوضوح الخصائص التي يتميز بها كل منها، والتي تبين أنها قارة عبر الزمن.

ولنلاحظ أخيرا أن بعض الباحثين يجمعون كل هذه الأحفورات في جنس واحد يتميز بتحول كبير بين وراثي، وازدواج شكلي جنسي بارز.

## الجنس الإنساني (ما قبل العارف)

### الإنسان المستقيم

ان شكل ما قبل العارف، المشهور بالإنسان، هو ما نسب الى نوع مرفولوجي منتشر انتشارا واسعا وكثير التنوع وهو الإنسان المستقيم. فلقد عرف هذا النوع أولا بالشرق الأقصى وبالصين، وحديشا، وجد نفس الشكل بافريقيا الشمالية وافريقيا الشرقية وربما في جنوب افريقيا ولم يضبط تأريخ النماذج الأسبوية ضبطا مطلقا. الا أن تاريخا ينطبق على بعضها أصبح معروفا وهو يوحى بأن الإنسان المستقيم ظهر بمواقع يقدر قدمها بـ ٥٠ الى ٥٠٠ مليون سنة. أما تاريخ مواقع افريقيا الشمالية وجنوب افريقيا المرتبطة بالإنسان المستقيم فيعتمد أيضا على قواعد تؤرخ «بالبليستوسين الوسيط».

ان البقايا بافريقيا الشرقية أصلها من مواقع تحققت فيها تأريخات فيزيائية كيميائية. ويؤرخ النموذج الأكثر قدما المنسوب الى الإنسان المستقيم بما قدره ١٦٠ مليون سنة. ان هذا التاريخ المتأخر



● (٣) جمجمة انسان الغابات البدائي  
الجنوبي (أسترالوبيثيكوس بويزي)،  
منظر جانبي، خانق أولدوفاي، تانزانيا  
(تصوير متحف كينيا الوطني).  
● (٤) فك انسان الغابات البدائي  
الجنوبي (أسترالوبيثيكوس بويزي)،  
منظر أمامي، كوني فورا، كينيا  
(تصوير متحف كينيا الوطني).



جدا قد يشهد بأصل إفرىقى للإنسان المستقم. وىوجد من البأحثىن من هو مستعد لقبول الفكرة التى تفىد بأن كل الشواهد عن هؤلاء البشر، والمكتشفة أأرج إفرىقىا، أصلها سكان هأجروا من إفرىقىا فى بدأىة البلىستوسىن. إلا أنه ؤوجد بعض التوارىخ الجدىة الأكثر أقدا بأناس مستقىمن كانوا عىشون فى إفرىقىا.

اننا نقتقر إلى أء الآن إلى أأهزة وأفرة أقسم بدراسات شاملة وتركىبىة. ولكن المعطىات كافىة لآبن ان ذاك النوع كان منتشرا انتشارا كىبرا بأفرىقىا وانه كان موأودا أىضا بأسىا وأوربا. ان ما بقى من الأعضاء يشهد بالوقوف المستقم، والتكفى للمشى، والتخصص برآلین تشأهان رآلى الإنسان المعاصر. أما درآة الذكاء، فهى قابلة للآقذر أجالا وذلك بآقذر آجم أجمعة، وآآلف تلك السعة من ٧٥٠ سنآمر مكعب إلى ١٠٠٠ سنآمر مكعب بالنسبة للإنسان المستقم، بىما ىآاوز معدل الإنسان العارف ١٤٠٠ سنآمر مكعب.

و ىستدل على تكنولوأىتهما بمشاهدة آثارهما. فالإنسان المستقم كان ىصنع و ىستعمل أدوات آجرىة وكان عىش من الصىد وآع الثمار فى السباب بأفرىقىا. وىآمع الإآآصاصىون على ربط السلاح ذى الوآهن المىز للصناعة الأشولىة بالإنسان المستقم. ان هذا النوع من الأأهزة الآجرىة المسمزة متوفرة فى موأع ؤوجد بأفرىقىا وأوربا، وبصفة أقل بأسىا، ولىس من المؤكد أن ىكون الإنسان المستقم هو المرحلة النأىة من التطور الذى آل به إلى الإنسان العارف، و ىستآسن أن نآل القضية معلقة فى انتظار معلوماأ أضافىة فىما ىآص هذا النوع.

وقبل أن نترك الإنسان المستقم سندرس بسرعة خصائصه. تظهر الممىزات الأكثر آآصاصا به فى الدماغ: قوسا الآآآبن كشىفان ونأآان والآآبن منآفض، والآذال متشكل وىمكن ان آمىز أسنانه، لكن من الممكن أن تكون لأنواع مآآلفة من سلالة الإنسان مرفولوأىة أسنانىة مشأبة جدا. ومرفولوأىة الفك أقل آمىزا بما عىآقد عامة. ومن الممكن أن ىكون نوع مآآلف ضمن الجنس نفسه من بعض النأآج المزعومة من الإنسان المستقم التى لىس لنا من شواهد عىها سوى بعض الفكوك والأسنان.

## الآنس الإنسانى (ما قبل العارف)

### الإنسان الماهر

ان البقاىا التى ننسب إلى سلالة الإنسان، التى عآبر أقدم من الإنسان المستقم تقتصر أأالآ. على إفرىقىا الشرىة فآسب. وىمكن أن نعتبر أن من أقدم الأشكال، أشكال لا ؤولىل وهدر التى نآظر أن ندرس دراسة عمىقة. ومن المآمل أن تكون تلك الأحقورات أشكالآ سلفىة لأنواع أأء منها. ان تلك الأنواع المتوسطة، على فرض أن هذا هو الواقع، ىمكن أن آسمى الإنسان الماهر و ىعتمد تعرىف هذا النوع على نماآج اكتشف فى أولدواى، وأآىرا فى كوى فورآ على الشاطى الشرقى من بآىرة تركانا.

ومن خصائص الإنسان الماهر الأساسىة تطور دماغه تطورا كىبرا نسبىا (السعة الدماغىة ىمكن أن آآاوز ٧٥٠ سنآمر مكعب) وعظام دماغه رقىة نسبىا، وقبة دماغه متطورة إلى آء ما وانآاب ما

بعد محجري صغير. أما الشنايا فهي عريضة جدا والأنياب وما قبل الأنياب مصفرة، وتظهر بالفك مخدة اسطوانية خارجية. وتقترب عناصر هيكل ما وراء الدماغ مرفولوجيا من عناصر الإنسان العصري.

ان الأمثلة الأكثر اكتمالا عن الإنسان الماهر آتية من كوبي فورا حيث اكتشفت أدمغة عديدة وفكوك وعظام طويلة. ويسمى الدماغ الذي أحسن المحافظة عليه ك.ن.م.أ ر ١٤٧٠ (الشكل ٢).

## جنس قرد الجنوب

مازلنا بعيدين عن حل مشكل تحديد أنواع محتملة من جنس قرد الجنوب. الا أني اعتقد ان لدينا عناصر ثابتة كافية في تشكّل كوبي فورا للتمييز بين نوعين، فأوضحهما هو قرد الجنوب الخشب، وهو شديد الاختصاص، وله فكان قويان جدا، وأضراس أمامية، وأضراس كبيرة مقارنة بالشنايا والأنياب، وسعة دماغية دون ٥٥٠ سنتيمتر مكعب. ويظهر الازدواج الشكلي الجنسي من خلال أوصاف خارجية للدماغ مثل العرف السهمي والقفوي النامي عند الذكر (الشكل ٤). وان ما نعرفه من هيكل ما وراء الدماغ يعتبر أيضا مميزا، وذلك فيما يتعلق بعظم الفخذ والنقا والكعب.

وقد انتشر هذا النوع في مساحة واسعة جدا وهو معروف في مواقع أخرى وهي: شسونغا بيننج وأولدواي، بالجزء الجنوبي من الرفت فالي بالشرق الافريقي. وليس من المحقق رغم ذلك أن يكون القرد الجنوبي الخشب نوعا حقيقيا، ويمكن أن نعهده مظهرا جهويا من الشكل الجنوبي الافريقي وهو القرد الجنوبي القوي. فلا يعيننا في حل تلك المشاكل الا إكتشافات جديدة، تبدو دائما في مستوى تنظيم دقيق جدا في علم احاث الفقريات. ولذلك يبدو من المستحسن حاليا أن نقر وجود نوعين قوين متقاربين لكنهما متمايزان جغرافيا.

ان الشواهد على وجود شكل رشيق، من القرد الجنوبي بافريقيا الشرقية، أقل إقناعا. الا أننا لو أدجننا جميع النماذج المكتشفة في نوع واحد، لبدا التحول عندئذ على غابة من الأهمية. ان أحسن مثال على شكل رشيق بافريقيا الشرقية قد يتجسم في النموذج ك.وم.ار. ١٨١٣ (KWM ER 1813) في كوبي فورا (الشكل ٥). ويمكن أن نربط بين فكوك عديدة وقطع من هيكل ما وراء الدماغ مع اعتبار الصعوبة الناتجة عن تصنيف الفكوك. ولم يقترح الى الآن أي وصف لتلك الأشكال الرشقة بافريقيا الشرقية لكنه يمكن أن نسجل خفة الفكوك وما معها من أضراس أمامية وأضراس صغيرة، وسعة دماغية تقدر بـ ٦٠٠ سنتيمتر مكعب، وعرف سهمي صغير أو مفقود. ويبدو هيكل ما وراء الدماغ مشابها هيكل القرد الجنوبي الخشب، وذلك على مستوى أصغر وأقل قوة. ومن خصائص هذين النوعين المشاشة القوية من عظم الفخذ: فالعنق طويل، مكبوس من الامام الى الوراء، والرأس صغير وكروي، وتوجد خصائص أخرى تستوجب الوصف الا أن معارفنا ناقصة فيما يتعلق بالتحول الداخلي لتلك الأنواع، والعينات قاصرة الآن لنستدل بها.

الا أني أعتقد أن هذا النوع الأخير قريب من القرد الجنوبي الافريقي الرشيق الموجود بجنوب افريقيا، ويمكن أن يكون مظهرا من مظاهره في المناطق الشمالية. اننا نعرف العظم الحرقص من



- (٥) جمجمة انسان الجنوب البدائي  
الافريقي، منظر جانبي، كوبي فوراً .  
(تصوير متحف كينيا الوطني).
- (٦) فك انسان الجنوب البدائي  
الافريقي، منظر أمامي، كوبي فوراً  
(تصوير متحف كينيا الوطني).



القرد الجنوبي الإفريقي ومن القرد الجنوبي القوي بجنوب إفريقيا. ولقد برزت اختلافات صغيرة بينهما ولا يمكن أن ننسب أية بقية من ذلك الجزء من الهيكل الى القرد الجنوبي بإفريقيا الشرقية، وعلى العكس من ذلك يوجد نموذجان معاصران يمكن نسبتها الى الإنسان، وهما يشهدان باختلافات ملحوظة بين الجنسين. ان تلك الاختلافات أهم من الاختلافات التي يمكن توقعها لدى نوع واحد حتى وان كانت مساحة انتشاره شاسعة.

## الأدوات والمسكن

ان أكبر عدد من الأدوات والمواقع أصله من بحيرة تركانا بالكينيا، ومن ملكا كنتوري بأثيوبيا ومن فج أولدواي في طانزانيا التي جرت بها حفريات كثيرة منذ ثلاثين سنة. ويمكن أن نتتبع تدرجها ابتداء من الحصاة المهيأة الصغيرة جدا الى الفؤوس ذات الوجهين الأكثر اتقاناً فيمكن أيضاً وانطلاقاً من تلك المواقع أن نستخلص بعض الاستدلالات على النظام الاجتماعي (أهمية الجماعة) وعوائد الصيد. ففي أولدواي كشف في بلدة عن بقايا بنية حجرية ولعلها قاعدة كوخ، أرخت حسب احتمال مرجح بـ ١٨ مليون سنة. ولقد اكتشفت بملكا كنتوري عن مسطحة مرتفعة ومستديرة. ان الأصل الحقيقي للملكات التقنية الخاصة بالبشرىات صعبة الضبط وليس في وسعنا الا أن نقترح في أحسن الاحوال كيف كان ظهورها في البليستوسين، ولعل ذلك يكون مرتبطاً بالقدرة على التكيف الذي يعتبر من صميم ما يتميز به الجنس الإنساني.

في البليستوسين القديم أي منذ حوالي ١٨٦ مليون سنة ظهرت فؤوس ذات وجهين خشنة ويمكن أن نتتبع في أولدواي وكذلك بمواقع أخرى من الشرق الإفريقي حركة التطور من الحصاة المهيأة الى الفأس ذي الوجهين، وكانت الصناعات الأكثر قدماً المكتشفة بأوروبا في فترة حديثة هي صناعات الفؤوس ذات الوجهين. ويددولي أن المعطيات قد توحى بوقوع هجرة مجموعات إنسانية ذات فؤوس من إفريقيا نحو أوروبا وآسيا في بداية البليستوسين، وحتى قبل ذلك. ان تطور الصناعات الحجرية الموالي يعتبر معقداً جداً، ولنا عنه شواهد وافرة بالعالم كله، ويمكن أن نفترض وإن كان الدليل يعوزنا — بأن ظهور الصناعات ما بعد الأشولية مرتبط بظهور الإنسان العارف. ان ربط الصناعات الحجرية ببقايا إنسانية قديمة يعتبر نادراً، اذ لم توفر لنا مواقع عديدة من البليستوسين الوسيط، والحديث الانموذجاً أو اثنين، على أنه قد توجد استثناءات ملحوظة.

يبدو واضحاً أننا تقدمنا كثيراً جداً في السنوات الأخيرة في البحث عن الشواهد الاحفورية. ولا ريب أن الأبحاث الجارية ستأتي بالزبد. فلقد توفرت لدينا الآن دلالات متنوعة جداً عن بشرىات البليو — بليستوسين بإفريقيا، ولقد أول ذلك كنتيجة للتمييز الذي وقع خلال البليوسين، ثم اعقبته تجارب تطويرية مختلفة الى بداية البليستوسين. ان التقاء يوجد بين ثلاثة أنواع على الأقل بإفريقيا الشرقية يمكن اثباته، وذلك سواء بالإعتماد على أجهزة دماغية أو ما وراء دماغية، علماً بأن كل دراسة تحليلية يجب أن تأخذ بعين الاعتبار جميع النماذج المكتشفة.

## الجدول (أ) قائمة بقايا الإنسان المستقيم المعروفة بأفريقيا

المنطقة	القطر	الموقع	تفصيل التماذج
الشمال الغربي	الجزائر	ترتيفين	٣ فكوك وقطعة من دماغ
الشمال الغربي	المغرب	سيدي عبد الرحمان	قطعتان من فك
الشمال الغربي	المغرب	الرباط	قطعة من فك ودماغ
الشمال الغربي	المغرب	تمارة	فك
الشرق	طانزانيا	أولدواي	دماغ، بعض بقايا عظام
الجنوب	جنوب أفريقيا	سوارتكرنس	مؤخر الدماغ، فك محتمل
			دماغ ناقص وبعض القطع من فك.

## مصطلح

لقد قرر المؤتمر الثامن لكل إفريقيا المنعقد في نيروبي (كينيا) في شهر سبتمبر-أيلول (١٩٧٧)، الإحتفاظ بالإصطلاحات التالية باللغة الانكليزية فيما يخص بالمنطقة الإفريقية الواقعة في جنوب الصحراء، وهذه الإصطلاحات لم تترجم الى الفرنسية وانما ترجمت الى العربية: العصر الحجري الوسيط، العصر الحجري القديم، العصر الحجري المتأخر.

● فترات ما قبل التاريخ وصناعاتها في أفريقيا، جدول توافقي من اعداد هـ.ج. هونغ.

	المغرب	شرق أفريقيا	غرب الصحراء الكبرى	جنوب الصحراء الكبرى	الصناعات	المقابلات المستعملة لدى علماء الآثار الانجليز	أوروپا
١١٠٠٠ ق.م	راري		حالي	حالي	عصر المعادن		حالي
١٠٠٠٠ ق.م		ما كالي مطير	جويري	تصخر	حجري حديث	العصر الحجري المتأخر	بعد الجليدي
١٠٠٠٠ ق.م	سلطاني	جاف بعد غامبي غامبي مطير	سلطاني	عودة المطر	فوق الحجري القديم	الوسيطة الثاني	فورم
		جاف بعد كانغيري		جفاف	أثريي	العصر الحجري الأوسط	بين ريس — فورم
	تنسيفتي	كانغيري مطير	أوغارتي	البحيرات الكبرى الأخيرة	موسيري	الوسيطة الأول	ريس
	آميري	جاف بعد كاماسي		جفاف			بين ميندل — ريس
		كاماسي		الصحراء ذات البحيرات الكبرى	الحجري القديم الأدنى — فترة الأدوات ذات الوجهين	العصر الحجري القديم	ميندل
	سالي	جاف بعد كاغيري	تاويرتي				بين غونتر — ميندل
		كاغيري			الحجري القديم الأدنى — الفترة العتيقة ذات ثقافة الحصى المشكل	(العصر الحجري المبكر)	غونتر
١٠٠٠٠ ق.م	مولويي		مولويي				بين دوناو — غونتر
							دوناو



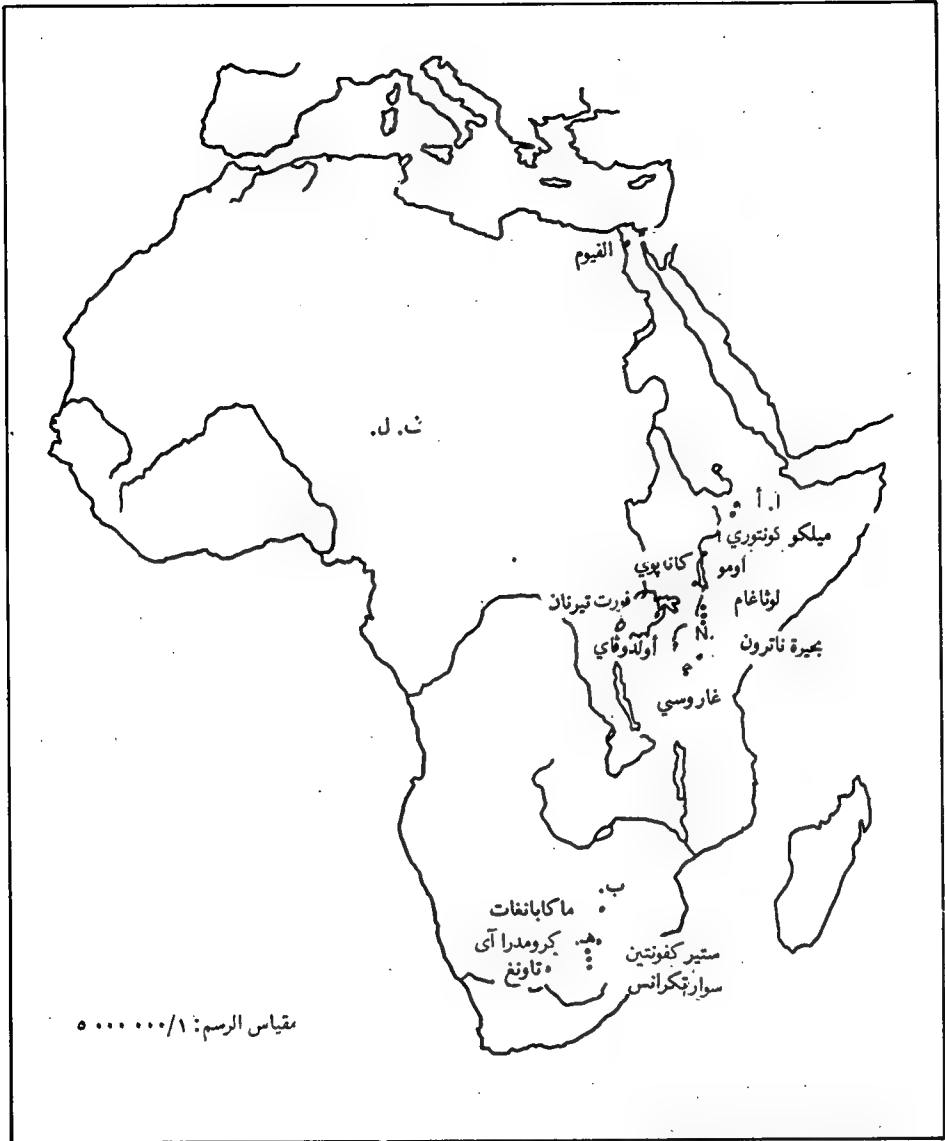
## أفريقيا الشرقية قبل التاريخ

بقلم: ج. أ. غ. سوتن

### البحث فيما قبل التاريخ

#### مقدمات منهجية

في الجزء الشرقي من افريقيا ظهر الانسان كحيوان ذي استقامة عمودية، يصنع الأدوات وذلك حوالي ثلاثة ملايين سنة تقريبا. ولهذا السبب، فإن التاريخ في ذلك الجزء من العالم دام أكثر مما دام في أي جزء آخر، وامتد فيه خصوصا العصر الحجري أكثر مما امتد في القارات الأخرى وفي الأجزاء الأخرى من افريقيا. ويمكن أن نضبط نقطة انطلاقه حين شرع البشر في صنع أدوات حجرية تعرف بأشكالها وأنواعها المصممة تصميا، وبصفة منتظمة. إن هذا الجمع للمؤهلات البدنية والذهنية في صنع الأدوات (وبعبارة أخرى تجلوا الانسان للحالة البيولوجية) والارتباط أكثر فأكثر بتلك المؤهلات والنشاط الخارج عن الوضع البيولوجي، ونعني به النشاط الثقافي، تميز الانسان عن الحيوانات الأخرى. وتعرف الإنسانية. إن تطور الانسان نحو وضع حيوان قادر على الجلوس، والوقوف، والتنقل بواسطة الرجلين، خلافا للقرود والثدييات الرباعية الأرجل أو الرباعية الأيدي، قد ييسر استعمال الأدوات وصنعها، وذلك بتخليص الأيدي التي أصبحت مستعدة للقبض، والحمل، والامساك، والمعالجة باليد. ولقد كانت تلك التطورات، فضلا عن ذلك، ضرورية للمحافظة على حياة الانسان، وسلوكه في العالم، لاسيما فيما يتعلق بالحصول على الغذاء وتهيئته. وكان على كل جيل جديد أن يكتسب المؤهلات والمعارف الثقافية التي جمعها سلفه. ومن المحتمل أن تظل الأدوات الأولى التي صنعها الانسان مجهولة لأنها كانت على غابة من البدائية لا تختلف عن بعضها الا قليلا جدا مما يجعل من العسير التعرف عليها. ويحتمل أيضا أن تكون مواد



• ماقبل التاريخ في أفريقيا الشرقية (١٩٧٤)

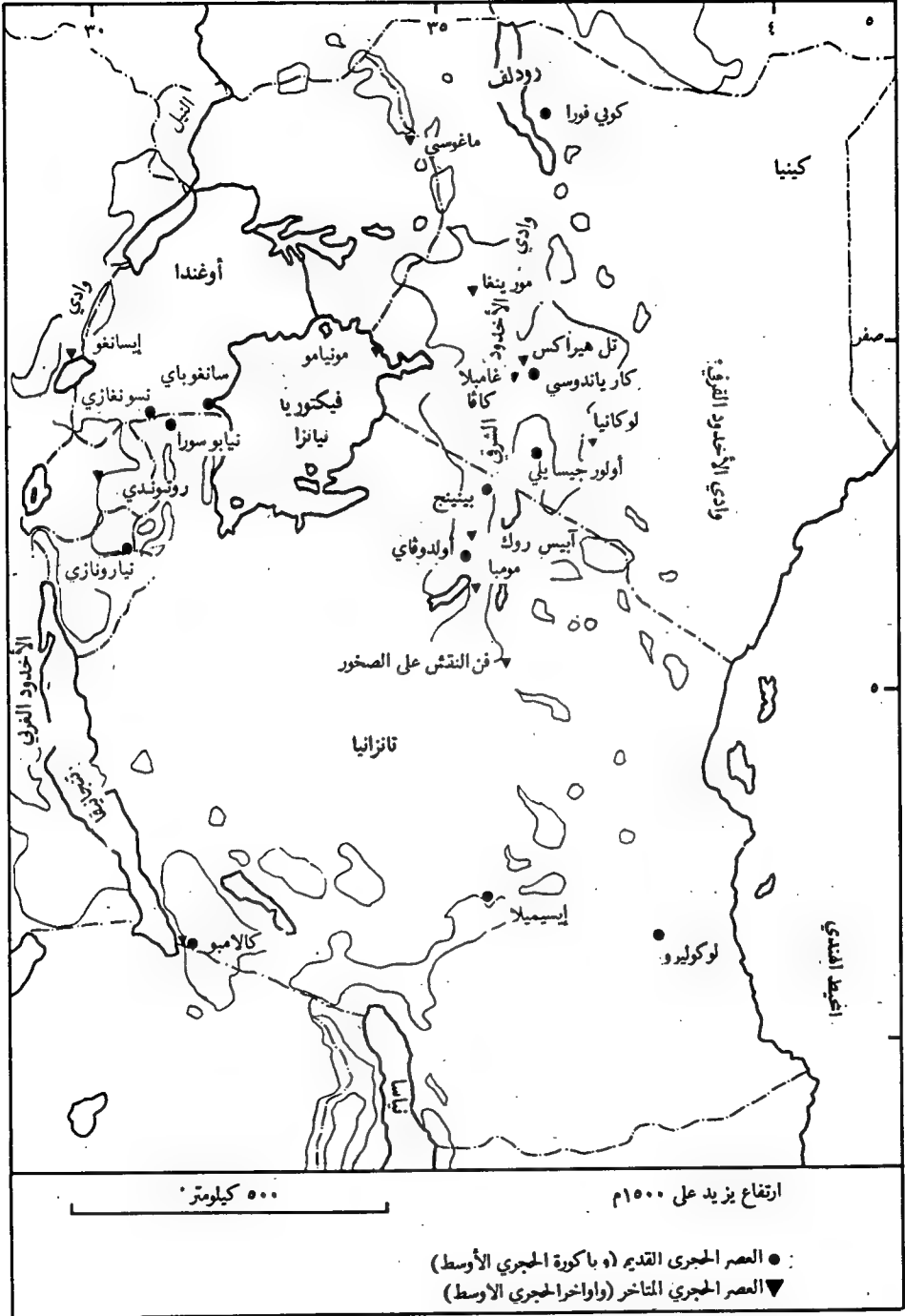
أخرى — تفسخت من دون أن تترك أثرا، لا سيما الخشب، والجلد، والعظم — قد استعملت وصنعت في فترة لا تقل تقدما عن العصر الحجري على الأقل. إلا أن التقدم في استعمال المواد الأخرى كان محدودا طالما لم يسيطر الإنسان على التقنية الأساسية التي تمكنه من أن يصنع بصفة منتظمة حدا قاطعا، وأداة ناجعة، لقرع حجرة معينة وتهشيمها تهشما دقيقا بواسطة حجرة أخرى أو بشيء آخر صلب ومناسب.

وهكذا فإن صنع الأدوات، وظهور الإنسانية، قد ابتداء قبل التاريخ الذي لنا عنه حاليا بعض الشواهد الثابتة الدالة على تلك التطورات الهامة. وتتكون تلك الشواهد من الأدوات الحجرية الأولى المعروفة. وعلى هذا الأساس يجب أن نحدد بداية ما تواضعنا على تسميته بالعصر الحجري.

ولقد ابتداء هذا العصر الحجري منذ حوالي ٣ ملايين سنة ودام إلى حقبة حديثة جدا من التاريخ الإنساني الذي حل فيه المعدن محل الحجر فأصبح مفتاح التكنولوجيا ومادة أساسية لصنع الأدوات وانتاج الحدود القاطعة. إن هذا الانتقال من صناعة الحجر إلى صناعة المعدن، قد حدث في عصور تختلف اختلافات طفيفة بمجموع أقطار العالم. فلقد صنع النحاس في آسيا الغربية منذ حوالي ستة أو تسعة آلاف سنة. أما في إفريقيا الشرقية، فلقد صنع الحديد، وهو المعدن الأول والوحيد الذي استعمل بطريقة منتظمة منذ ما يقرب من ألفي سنة.

ولنا أن نتساءل إن كانت التسمية بالعصر الحجري تسمية ترضينا من حيث التاريخ، لأنها تغطي الآلاف ٩٩٩ من الحقبة التي عاش فيها الإنسان بإفريقيا الشرقية. وهي تؤكد فضلا عن ذلك على الجانب التكنولوجي من تطور الإنسانية، وذلك على حساب جوانب اقتصادية أو ثقافية أعم منها. ويمكن لنا أن نعتز على أنها تاريخيا طويلة جدا وأنها ثقافيا ضيقة جدا. إلا أنه يمكن أن نرد على هذه الاعتراضات، فتظل عبارة «العصر الحجري» مفيدة لفظا ومفهوما، إن أحطنا بها ببعض التحفظات لذلك، ونظرا إلى أن تلك الحقبة الطويلة جدا من الماضي لا تعرف إلا بالاعتماد على شواهد الآثار علما بأنها ناقصة نقصانا كبيرا إذ لم يبق منها شيء سوى الحجارة، دون أية تقاليد سماعية أو وثائق مدونة، لذلك اضطر المؤرخون إلى الاصطلاح على لفظ أو عدة ألفاظ لتسميتها ودراستها ووصفها.

ومن جهة أخرى نلاحظ أن العصر الحجري لم يكن فترة قارة من التاريخ إذ أن التطور التكنولوجي الحاصل في العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث، يظهر بوضوح من خلال التغيرات والتنوعات الطارئة على مختلف الأدوات، ومن خلال تزايد نجاعة الأداة الحجرية وتقنيات صنعها. وعلى هذا الأساس يبدو من الممكن ومن الضروري أن نقسم العصر الحجري إلى فترات متعددة وأن نقرعه إلى فروع تكيلية تاريخية وجغرافية. إن المجموعات من الأدوات الحجرية (عندما تختار اختيارا حسنا وتقدم تقدما مناسباً) يستهونا منظرها في حد ذاته، إلا أنها لا تفيدنا إلا قليلا إن لم تنظم ولم تدرك باعتبار الترتيب التاريخي ومرحلة التطور. وتخلو من المعنى أيضا العبارتان مثل «عاش في العصر الحجري» أو «إنسان العصر الحجري» المركبتان. على المفهوم الخاطئ الذي يرى أن الإنسان ونوع حياته قد ظلا قارين طيلة تلك الفترة، لأن أدوات أهالي العصر الحجري كانت تختلف بحسب الزمان وبحسب المكان، ولأن أولئك الأهالي قد تطوروا من حيث الثقافة ومن حيث الطبائع. فلقد شهد العصر الحجري تغيرات وتحولات طرأت على جسم الإنسان ودماغه وعلى



● أفريقيا الشرقية: المواقع الرئيسية  
للعصر الحجري (١٩٧٤).

الاقتصاد والنظام الاجتماعي والثقافة عموماً، وهذا يتماشى مع التطورات التكنولوجية التي تشهد بها شواهد الآثار. وينبغي أيضاً أن نلاحظ هنا بأن الفترة طيلة كل فترات العصر الحجري، وإن كان بطيئاً جداً بالمقارنة مع المعايير العصرية، فإنه كان أبطأ بكثير في الفترات التي سبقتها: فكلما اقتربنا من الفترة الحالية، كانت التغيرات أكثر سرعة. ولقد كانت هذه الفترة الحديثة مرحلة تخصص وتنوع جهويين لها أهمية كبرى. فنتج عن هذا أن ظهرت فجأة في منطقة، خصائص بقيت مدة طويلة تنمو في منطقة أخرى، وذلك في صورتها الكاملة (إثر الهجرات والاتصالات الثقافية) مما يوهم بحدوث ثورة في تلك المنطقة الثانية. ولذلك قد يعادل جيلان في آخر العصر الحجري، نصف مليون سنة من الحقبة الأولى إذا نظرنا إلى ذلك من حيث معايير النمو.

وعلى هذا الأساس فلا تقتصر الدراسة التاريخية للعصر الحجري على الحجارة والأدوات اذ يكون من حظ عالم الآثار العثور على مستكشفات أخرى توجد غالباً بمواقع سكنية يعود تاريخها إلى العهد الغابر من العصر الحجري حيث بقيت شواهد مباشرة مطبخية أو غذائية، في شكل فحوم خشبية تشهد على منازل، أو في شكل قطع من العظم الحيواني. إن هذه البقايا العضوية قليلة جداً بافر يقياً فيما يتعلق بالفترات الأولى، باستثناء بعض المواقع التي أبت فيها بعض الأحوال المعدنية المواتية إلى استحجار العظام قبل أن تتفسخ. إن عالم الآثار مدعوجوباً، حتى وإن كان لا يستطيع، إلى الاعتماد على الحجارة، وإلى أن يطبق استنتاجه وتأويلاته على ميادين أوسع منها.

فلا تهملنا في أول الأمر، الأدوات الخاصة المكتشفة، والمدرسة بمعزل عن بعضها، بل يهملنا تلاؤم الأدوات مع مختلف أنواع الأشياء التي يمكن العثور عليها في موقع، سواء كان سكناً للمجموعة، أو غمياً مؤقتاً للصيادين، أو «عزفاً» لصنع الأدوات.

إن الشظايا الجاهزة من «تقطيع الحجر» وبقاياه أكثر انتشاراً من الأدوات الجاهزة، ولذلك وجبت دراستها في نفس الوقت الذي تدرس فيه الأدوات الجاهزة لأنها تدل على تقنيات صنعها وعلى مستوى المهارة التي وصل إليها الإنسان. يضاف إلى ذلك أن تلك البقايا لا تعتبر من السقط، لأن عدداً من تلك الشظايا، لا سيما ما وجد منها في المراحل البدائية من العصر الحجري كان لها حد قاطع، فإذا كان حجمها وشكلها مناسبين للاستعمال، فإنها تكون تكملة للأدوات الجاهزة التي هي أثقل منها. وعلى هذا الأساس تعتبر جزءاً مهماً من الأدوات. إن الاقتصاد على جمع ودرس الأدوات الجاهزة المعروفة مثل ذي الوجهين والقدومات، يجعلنا نقدم لوحة ناقصة ومشوهة جداً، عن تكنولوجيا بشر/ما قبل التاريخ وعن نشاطهم، في الفترات الحديثة من العصر الحجري، لما عوضت الأدوات الثقيلة من نوع ذات الوجهين، بأدوات أصغر وأجود وأدق منها، كثيراً ما كانت تثبت بقبضة خشبية أو بمقبض عظمي، وكانت تلك الأدوات الحجرية تصنع حسب تهيئة ماهرة للبقايا الحجرية وتسوية جيدة للنصال والشظايا المفصلة. ولذلك ينبغي أن تتوفر لدينا مجموعة كاملة على قدر الامكان من القطع المنجزة، وبقايا تقطيع الحجر، حتى نتمكن من تحليلها وتقديم الاستنتاجات المفيدة عنها.

إن ملاءمة الأدوات مع ما تنوع من القواطع والحدود الصالحة للقطع والقرص، والسلم والقشر، والشق والحزب، والضرب، والشق، والتفتيش، تساعد (حتى ولو أخذنا بعين الاعتبار بعض الاحترازاات التي لا مناص منها، المتعلقة بالوظيفة التي خصصت لها) على تصور وجود أدوات أخرى

صنعت من مواد سريعة العطب أصلها حيواني أو نباتي، مما كانت تلك المجموعة البشرية تستعمله والمثال على ذلك أن الجلود الحيوانية، عندما تخلص من دهنها وتُجفف وتُدغ، يمكن تقطيعها لتصنع منها حبال من جلد وأحزمة، ولقد استوجبت عمليات القنص، والقتل، والصلخ أدوات وأسلحة حجرية وخشبية، وكان من الممكن استعمال السيور مع الأدوات الحجرية لربط وحزم القذائف المستعملة للصيد أو لتثبيت نصل حجري أو حد على زرع خشبي أو سهم، بواسطة راتنج نباتي. إن دراسة البقايا الحجرية من نهاية العصر الحجري دراسة ذكية تستعيد لنا، فضلا عن تلك الأسلحة، أدوات مركبة عادية، متكونة من شظايا صغيرة وحدود صنعت صنعا جيدا، وأثبتت أو ألصقت بدقة بقبضات أو مقابض من العظم أو الخشب. وذلك ممكن ولولم يتوفر لدينا شاهد واحد مباشر على العناصر الخشبية والعظمية وحتى قبل ذلك التاريخ، لما كانت أدوات الخشب والحجر الأكثر بدائية غير متراكبة، فإنها كانت على كل حال مترابطة. فلقد كان من الممكن مثلا قطع رمح خشبي ليكون له الطول المرغوب بواسطة سكين حجري، وإن كان لا بد أن ينجره وأن يسويه مكشط، وهو أداة نجر. ومن الممكن استعمال حزام جلدي أو ليفي نباتي لكي يتيسر قبض ذلك الرمح أو رميه. إن تهيئة حد الرمح، يستوجب من جهة أخرى استعمال أدوات حجرية قاطعة، مما يفرض بعد ذلك تصلبيه بالنار كما تشهد على ذلك بعض النماذج التي عثر عليها. إن الصاق حد حجري بحربة الصابا متقنا، وذلك في أحدث فترة من العصر الحجري، كان ناتجا عن عمل جيد من القضم والحز بواسطة أدوات دقيقة.

تلك بعض الأمثلة التي يمكن الحصول عليها اثر دراسة ذكية فيها تحليل للأدوات الحجرية حتى نخلص تلك الأدوات من الجمود، ونبحث فيها الحياة. ومن الممكن ان تأتي بتخرجات فيما يتعلق باستعمالات الخشب والجلود المهيأة لنصل الى دراسة مسألة الحيايم وحواجز الريح. وهنا فإننا نخرج، مثلما هو الشأن بالنسبة للأدوات والأسلحة التي تحدثنا عنها، من وجهة نظر: تكنولوجية ضيقة لنقتصرح تأويل اقتصاديا وثقافيا أشمل عن الشواهد والآثار، ولنستعيد حياة مختلف مجموعات الصيادين القاطنين من مختلف الفترات من العصر الحجري. وينبغي أن نلاحظ هنا أن جل الأدوات في جميع فترات العصر الحجري، بما في ذلك الأدوات الحجرية، لم تكن أسلحة. فإن كان الصيد دائما مهما وأساسيا لتوفير البروتينات (باستثناء الاماكن التي يكثر فيها السمك، شريطة أن تتوفر الوسائل لصيده) فإن جمع النباتات أيضا، وبالأحرى جني العروق النشوية والعسقيات، كان أساس النظام الغذائي. إن هذا النشاط وكذلك النشاط المتصل بالأشغال المنزلية، وبخدمة الخشب، يساعدان على توضيح وظيفة أغلبية الأدوات.

إن صعوبة نقل الماء كانت بدون شك قد حدثت في اختيار مواقع الخيمات اذ يجب أن يكون الخيم الفصلي الذي يختاره الفريق العائلي قريبا من مجرى ماء أو من بحيرة، وأن تتوفر له فضل عن ذلك نباتات كثيرة وأنواع من الطعام الذي يجلب الصيد.

ولقد حاولنا أن نبين بأن دراسة العصر الحجري دراسة تكنولوجية معتمدة على العقل النير والخيال، تساعد في رسم صورة واضحة للوضع الاقتصادي والثقافي. الا أنه يجب أن نقر أن الشواهد، حتى فيما يتعلق بالجزء الأكثر حداثة من عصر ما قبل تاريخ إفريقيا الشرقية، هي شواهد قليلة جدا، وأن مجهوداتنا في التأويل الموسع هي مجهودات، لا مناص من ذلك، نظرية. فمن الضروري

أن نقاوم التخمينات والنظريات الواهية. إلا أنه لا فائدة، بعد الاتفاق على هذا، من أن نهمّل الآثار المتوفرة لدينا، وينبغي أن ننظر إليها نظرة إيجابية، فيها ذكاء وخيال، حتى نضبط الأحداث والمفاهيم التي يمكن أن نستخرجها منها. وهكذا تشجّد العزائم الجديدة والبحوث للعثور على وثائق أخرى. ولذلك فإننا سنسعى في ما يلي من هذا الفصل إلى ضبط بعض الوسائل التي تسمح بالحصول على عدد وافر من المعلومات وبالوصول إلى استنتاجات أكثر أهمية.

ولقد ذكرنا سابقاً أنه وجدت مصادفة عظام حيوانية مستحجرة في بعض المواقع القديمة، واكتشفت عظام غير مستحجرة في مواقع حديثة، لا سيما في ملاجئ كانت تحت الصخور. وفي ذلك شاهد مباشر على الحيوانات التي كانت تصطاد وتؤكل. إن دراسة العظام دراسة ثابتة بغية العثور على آثار الأدوات، والكسور، أو حتى على الطريقة التي طرحت بها تلك العظام على الأرض، يمكن أن تفيدنا عن طرق فصل اللحم عن الحيوان واستهلاكه، إلا أن الشواهد المباشرة من هذا القبيل لا تقدم لنا إلا لوحة ناقصة. ومثال ذلك أنه يمكن أن تصطاد ثدييات صغيرة، وزواحف، وطيور وحشرات، إلا أنه لا يبقى لها أثر سواء لأن عظامها أو أجزاءها الصلبة كانت هشة فلا تدوم، أو لأن الصياد قد استهلك تلك المصيدات الصغيرة بعين المكان دون نقلها إلى الخيم. فالعسل، والثمار والعنبيات، والجوز وحتى بيض الطيور، لا تترك من الأثر إلا القليل أو لا تترك أثراً واضحاً لأنها تستهلك في الطبيعة من دون حاجة إلى أدوات حجرية لجمعها أو لتهيئتها. فنحن لا نكتشف في الواقع إلا نادراً جداً بقايا ما قبل التاريخ من الطعام النباتي. لكن نظام الصيادين القاطنين الغذائي كان بدون شك متوازناً، فلا بد من أخذ هذا الأمر بعين الاعتبار عند استعادته تاريخياً، بالاعتماد على دراسة ذكية تشمل الآثار والبيئة المحلية مع اعتبار جميع مواردها الغذائية.

إن شواهد الآثار، في بعض المناطق (طانزانيا الوسطى)، والمتعلقة بنوع حياة الصيادين القاطنين في العهد الغابر من العصر الحجري، تكتمل اكتمالاً رائعاً بالاعتماد على فن النقش على الصخر. فبقطع النظر عن كل اعتبار يتعلق بالمهارة الفنية، وبالنضج والذوق الفني اللذين تشهد بها تلك الرسوم، فهي تزودنا بمعلومات مضبوطة عن الصيد المشخص وعن طرق الصيد بالرمح أو بالسهم، وعن بعض الأنواع، من الفخاخ. ويبدو أن التقنيات الأخرى المستعملة للحصول على القوت غير مملثة في هذه الرسوم، ومن ذلك قلع الغسقيات وجني العسل. وهذا من شأنه أن ينير عقولنا ويوسع رؤيتنا إلى الحياة في ما قبل التاريخ، لا سيما وأن بعض أنواع النشاط المشار إليها في الرسوم قابلاً لأن تقارن بالعوائد الحالية أو المعاصرة عند شعوب إفريقيا الشرقية.

إن شهادة الفن تستوجب مقارنتها بالعناد التقني الذي له هدف اقتصادي وثقافي. فكلما توضحت لنا هذه اللوحة، أمكن لنا أن نشرع في وضع أسئلة متعلقة بطرق الصيد، ونصب الفخاخ والجني، وعدد فريق الصيادين أو المجموعة البشرية، وترباتها ونظامها الاجتماعي الضروري لبقائها على قيد الحياة. إن الجواب على هذه الأسئلة لا يدعو إلى الثقة الكاملة. ولقد تحقق رغم ذلك بعض التقدم الثابت باعتماد الشهادة الأساسية المأخوذة من مختلف المواقع الأثرية. وهذا يعني أن الأمر يستوجب أن تجمع تلك البراهين باستعمال أدق الطرق، وأكثرها تنظيماً، وأكثرها جودة إن أمكن ذلك.

إن المناجم التي اكتشفت فيها الصناعة الحجرية ليست نادرة بإفريقيا الشرقية. فلقد أصبحت معروفة في مطلع القرن العشرين وذلك إثر العمل الرائد الذي قام به الدكتور لويس لاكيي بالكينيا

في العشرينات من هذا القرن، فكشف عن عدد متزايد من المواقع من جميع حقب ما قبل التاريخ، وذلك بآفر يقيا الشرقية. وظل عدد آخر منها لم يكتشف بل كشفت عنها الاجترافات أو تغيرات أخرى طرأت على أرضها. أما الأدوات أو شظايا النحت فقد جرت الى الوهاد ومجاري الأنهار أو الملاجىء تحت الصخور. وأبرزتها على سطح الارض الحراثة وحوافر المواشي، أو أشغال البناء. ان تلك المواقع وتلك الاشياء قد اكتشفها أثر يون محترفون وكثيرا ما اكتشفها أيضا هواة، وفلاحون، وطلبة الخ، وهي تستحق التعريف بها كما تستحق تنبيه السلطات المعنية اليها. فجميع الأدوات وغيرها من الأجهزة الاثرية المكتشفة تستوجب أن تودع بالمتاحف حيث يمكن دراستها ومقارنتها بمجموعات محلية أخرى. فالعادة التي كان يقتضاها يأخذ الأثر يون الاجانب مكتشفاتهم الى بلدهم الاصيلي لم تكن سائدة فيما يتعلق خاصة بآفر يقيا الشرقية، ولقد زالت لحسن الحظ الآن، الا أن بعض المجموعات من آفر يقيا الشرقية مازالت محفوظة في متاحف أوربية. وقد حفظ الجزء الأكبر وهو آمن الأجزاء، من الأجهزة الأثرية لآفر يقيا الشرقية بالمتاحف الوطنية.

ان المجموعة السطحية لا تفيدنا في حد ذاتها بكثير لأن الأدوات وبقايا النحت قد نقلت خارج موقعها الأصلي. يضاف الى ذلك أن جمعها يخضع عادة لمبدأ الانتقاء. الا أننا نعتبر أن مجموعة سطحية صغيرة تستطيع في حد ذاتها أن تزودنا بتوضيحات لأن نوع الأدوات أو طريقة صنعها يرشدان الى الفترة التي تعود اليها الأدوات والى الروابط القائمة مع مواقع أخرى معروفة وذلك من شأنه أن يساعد على اظهار الفائدة من استكشاف أكثر تفصيلا ومن حفريات حقيقية.

ان تلك الحفريات تستوجب أن يتبأ لها وأن يشرف عليها أثر يون لهم دراية متعلقة بالموقع المعني بالأمر. الا أن أولئك الأثر يين، مرتبطون كما أشرنا الى ذلك، بالمعلومات المحلية التي يوفرها لهم الهواة أو الطلبة الذين يمكن لهم علاوة على ذلك أن يساهموا في الحفريات وأن يتدربوا في نفس الوقت على المهنة. ان الطرق التطبيقية، التي تعتمد أحدث التقنيات في الحفر وفي دراسة الآثار، سواء في مكانها الأصلي، أو بعد أن تسجل وتنقل، هي الوحيدة التي تسمح لعالم الآثار، أن يجمع في موقع ما أقصى ما يمكن من المعلومات، وأن يرسم لوحة إن لم تكن مستنفدة فانها قد تشمل أكثر ما يمكن من أنواع النشاط التي جرت بذلك الموقع. ولقد ساهمت أشغال حفرية مثالية وقعت في مواقع تنتسب الى العصر الحجري القديم بآفر يقيا الشرقية، وذلك في السنوات الأخيرة، في توجيه أسلوب البحث في مناطق أخرى من العالم، وذلك فيما يتعلق بالمنهجية، والتحليل، والتأويل.

إن عالم الآثار المتعهد بالحفريات، لا يهتم باكتشاف نماذج فردية بقدر ما يهتم بالبحث عن أهم المعلومات الممكنة عن نوع حياة مجموعة قديمة، وبالتعرف على أكبر جزء ممكن من «المجموع الثقافي» ودراسته دراسة مستفيضة، وجميع كل المعلومات المتوفرة عن البيئة. وذلك يستوجب اعتماد طرق في الحفر دقيقة وبطيئة. اذ يجب جمع كل الأشياء كما يجب الإشارة الى كل خصائص الأرض التي يقع فيها السكن، بما في ذلك التغيرات الطارئة على السطح، وتحولات لون الأرض التي يمكن أن تكون شاهدة على النار أو على نشاط آخر. والعادة تستدعي غربلة الرواسب، عندما يحتمل أو يمكن أن توجد أشياء صغيرة مثل شظايا الحجر، وقطع العظام، وحتى الحبوب النباتية، ان تلك الغربة عادة مطردة في الملاجىء الكائنة تحت الصخور والحديثة حيث تكون الرواسب هشة ورمادية. ان العرف يعتبر الاجهزة الموجودة في ملجأ تحت صخرة، أو في موقع كثير الهواء، أجهزة لا تدل على اقامة واحدة



بل على اقامات متعددة متتالية، قد تركت كل واحدة منها بقايا فوق بقايا الاقامة السابقة. وتستدعي كل اقامة دراسة مفصلة ولذلك وجب على الأثري القائم بالحفريات أن يعنى عناية خاصة بالطبقات الارضية، لان اختلاط الاشياء الآتية من اقامات مختلفة، قد يشوه التأويل تشوها مؤسفا. وإذا كان الأثري الحافر مسؤولا عن التعرف على الموقع، وعلى التسجيل والدراسة الاساسية المتعلقة بكل الاكتشافات، فهو يحتاج الى مساعدة اختصاصيين آخرين. ويمكن لتلك المساعدة أن تقدم في مرحلة لاحقة في المختبر، مثلا للتعرف على عظام حيوانية. وإذا توصل القائم بالحفريات بفضل الظروف المواتية لحفظ المواد، الى استخراج بقايا نباتية مثلا، وجوب متفحمة، وجوز أو قطع خشبية، وجب عليه أن يعالجها معالجة خاصة بعين المكان وأن يرسلها الى اختصاصي في علم النبات. ان التعرف على تلك العينات ودراستها يوفران مزيدا من المعلومات عن النظام الغذائي واقتصاد المجموعة لأن ما تزودنا به عن تلك البيئة يعتبر مهما أيضا. فان كتب للقاحات قديمة أن تظل محفوظة، يمكن أن يأتيها فحص تلك العينات فحصا بليولوجيا بفائدة وأن يزودنا بتوضيحات عن نوع النباتات وما طرأ عليها من تغيرات. ويمكن أن نستفيد في هذا الصدد من العينات الارضية المشتمة على أجسام صغيرة أو على صدقات، لأنها تستطيع أن توضح نوع النبات السائد، وبالتالي تدل على المناخ الطارئ. ان الجيولوجيا والجيومورفولوجيا، وبنية التربة مفيدة أيضا لهذه المحاولات الرامية الى استعادة بناء البيئة القديمة والموارد التي كانت تستثمرها مجموعة ما قبل التاريخ. ومن الواضح أن أكبر جزء من هذا البحث حول البيئة يتطلب، ليكون عميقا ومفيدا، الاستفادة من وجود مختلف الاختصاصيين في الموقع بالذات، ولولادة قصيرة من الوقت، لأن العينات المجموعة والمرسلة الى المختبرات لا تكفي وحدها كدليل، اذ يجب أن تحتار بدقة وأن تراقب في عين المكان. فرما طرأت تغيرات كبرى على الطبيعة بين الفترة المدروسة والفترة الحالية، تبعا للتغيرات المناخية، والحركات الجيولوجية، وفي أكثر الاحيان تبعا للنشاط الانساني، لا سيما الفلاحة، واستصلاح الارض في العصور الحديثة. ان دراسة الماضي تخضع دائما لدراسة ذكية للحاضر ولكل العلامات الاثرية وغيرها التي يشملها ذلك الحاضر.

ومن الدراسات الاخرى ما له أيضا صلة ببحثنا، فهي وإن لم تأت بشاهد مباشر على ما قبل التاريخ، فانها تزودنا بايضاحات غير مباشرة ثمينة جدا. ونقصد بهذه الدراسات البحث الانثروبولوجي حول بعض مجتمعات الصيادين القاطنين الموجودين بالعالم، لا سيما ما يوجد منها بإفريقيا، فلقد سبقت الإشارة تصريحاً أو تلميحاً الى بعض الاعتبارات المتعلقة بعادات الصيادين المعاصرين مثل قبيلة هذرة في طانزانيا الشمالية وقبيلة سان من منطقة كالاهاري اللتين أهتم بهما الباحثون في السنوات الأخيرة لجمع معلومات أوفر عن ثقافتها وأنواع حياتها القديمة. ان الملاحظات المستنتجة من هذرة وسان توفر لمحات عديدة ومفيدة عن امكانيات العيش، والتنظيم وضغوط نمط العيش المرتكز على الصيد وجني الثمار، وتوحي بعدد من النقاط التي كان من الممكن أن لا ينتبه اليها الأثريون، فمن الخطأ الجسيم أن نعتبر تلك المجموعات كصور مطابقة تماما لمجتمعات العصر الحجري أو من بقاياها.

من الصحيح أن بعض تلك الفرق المعاصرة من الصيادين القاطنين، لا سيما قبيلة سان بجنوب إفريقيا، يعتبرون أحفادا لسكان العصر الحجري المتأخر، وذلك من شأنه أن يوضح بعض مشاكل

الماضي. ومثال ذلك أنه كثيرا ما عثر الباحثون في اطار العصر الحجري المتأخر على حجرة فيها ثقب مستدير. ان عادة قبيلة سان الحالية، التي تؤكدوا فيها بيدو، رسوم جدارية بمجنوب افريقيا، تبين أن تلك الحجارة المشقوبة كانت تستعمل أحيانا لترشيح العصي الحادة الصالحة لاستخراج العروق التي تؤكل. الا أن هذا التوافق الخصوصي من هذا النوع قليل. ولقد حدثت هذه التغيرات في مجتمع قبيلة بوشيمان\* وذلك لأسباب مختلفة منها الاتصال المباشر أو البعيد بشعوب تستعمل الحديد وتعيش في اقتصاد قائم على انتاج القوت. و يوجد عدد قليل من البوشيمان\* الذين ظلوا يخدمون الحجر على نطاق واسع لأنه يمكن الحصول على الحديد مبادلة أو من البقايا، مما نتج عنه تغيرات تكنولوجية أو ثقافية حتمية. ولقد اختلط أحفاد آخرون للصيادين القاطنين اختلاطا عميقا بسكان منتجين للقوت. اما البعض الآخر فانهم لم يصبحوا بعد بلديين بصورة نهائية. فلما عادوا الى هذا النمط من الحياة منذ عهد قريب، ظلوا يعيشون من مبادلة منتجات الغابة مع جيرانهم الفلاحين والرعاة. أن هذا الاحتياج المتبادل ملحوظ لدى عدد من الجماعات المعروفة باسم «دوروبو» الذين مازالوا يعيشون في المرتفعات من الكينيا و طانزانيا. واذا كان هذا النوع من الاحتراز يبدو ضروريا لكيلا يقع الباحث في الخطأ، بالحاق الصيادين القاطنين المعاصرين لنا، بسكان ما قبل التاريخ المتأخر، فان هذا الاحتراز يصبح أكثر ضرورة ان اعتبرنا الفترات المتأخرة جدا. الا أن هذا لم يمنع توافر توضيحات مفيدة عن المواد الغذائية بالمنطقة وعن التنظيم الضروري لاستثمارها.

يوجد مصدر آخر مفيد من المعلومات. وهو دراسة الحياة الاجتماعية للمقدمات البشرية، لاسما أقرب أجداد الانسان الحاليين، أي الشمبزي والغوريلا، وكذلك القوادح (Babouins). فالقوادح هي بيولوجيا أقل مماثلة للانسان، الا أنها مهمة بصفة خاصة من جهة السلوك، وذلك بغية دراسة المجتمع الانساني، لأنها تعيش، أكثر من المقدمات الاخرى، جماعات على الأرض، ويسهل نسبيا ملاحظتها ودراستها. فالانسان، كما جاء في مكان آخر من هذا الكتاب، ليس من سلالة تلك القردة، ولا نريد أن نقول هنا بأنه لم توجد في ما قبل التاريخ أية جماعة، ولو أنها قديمة جدا، هي أقرب الى تلك القردة من الانسان العصري، فلو أردنا أن ندرك السلوك الاساسي للمقدمات البشرية والتقاليد التي ورثها الانسان عن أسلافه من الحيوانات السابقة له، وحاولنا أن نفهم كيف كان هؤلاء السلف المباشرون للانسان يقومون بأود العيش بالاعتماد أساسا على النباتات، علما بأنه لم يكن من عاداتهم صنع الادوات، بل هم عاجزون عن ذلك، اذن لاستفدنا فائدة كبرى من تلك الدراسات، التي يجري العديد منها بافريقيا الشرقية.

لقد سبق لنا أن أشرنا الى أن مدة ما قبل التاريخ كانت مديدة، وأن السكان في أواخر تلك الحقبة حققوا تقدما كبيرا، وأنهم كانوا يختلفون كثيرا عن أسلافهم من فجر ما قبل التاريخ، يضاف الى ذلك أن سكان افريقيا الشرقية من العصر الحجري المتأخر — وقد بقيت منهم نماذج الى عهد قريب — كانوا بلا منازع افرقيين. وكان لبعضهم قرابة مع البوشيمان\*، وقد اندمج آخرون في سكان عصريين من زنوج العصر الحديدي. وبالمقابل، فان سكان العصر الحجري القديم، لاسما في فترته المتأخرة جدا، ممثلون تمثيلا حسنا بافريقيا الشرقية ولم يعرفوا، لمدة طويلة، الا بذلك الجزء من

\* في الجزء المطبوع لا ذكر للبوشيمان وانما ورد فيه «سان» — تعليق المراجع محمد القاسمي.

\*\* هذا اللفظ عرض في المطبوع للفظ «سان» كما تقدمت الإشارة اليه — تعليق المراجع محمد القاسمي.

العالم، لأنهم أيضا أسلاف البشرية في مجموعها. ان هؤلاء الصانعين للأدوات البدائية جدا، والذين اكتشفت عظامهم في أعماق الطبقات من الأولدواي، بشمال طانزانيا ومنطقة بحيرة تركانا بشمال الكينيا وبجنوب أثيوبيا، يصنفون عادة ضمن جنس الانسان العارف، الا أنهم كانوا من حيث البنية والدماغ يختلفون عن الانسان العصري. وهكذا أصبح تاريخ افريقيا الشرقية القديم تاريخ الانسانية القديم، وهذا العنصر يضي عليها دلالة كونية. فافريقيا الشرقية، نظرا الى كونها تحتوي على معلومات لا تقدر بثمن عن الانسان البدائي، وعن ثقافته، وعن مناخ المقدمات البشرية، قد أصبحت بكل جدارة المركز العالمي للبحث عن الحياة، والبيئة، وأصل الانسان.

## الترتيب التاريخي والتصنيف

بينما نجد أن العصر الحجري، في أغلب المناطق من آسيا، وأوروبا وافريقيا الشمالية يقسم اصطلاحا الى العصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الجديد، فقد ترك أغلب الاختصاصيين هذا النظام فيما يتعلق بالمناطق الافريقية الواقعة جنوب الصحراء. فالعصر الحجري صموما ينظر اليه ويدرس بحسب ثلاث حقبة هي: (العصر المبكر، والوسيط والمتأخر). وهي حقبة تسميز بحسب تحولات مهمة تعرف من خلال التكنولوجيا (مع كل ما للتكنولوجيا من انعكاسات ثقافية واقتصادية). ان هذه النظم من التصنيف لا تشكل طريقتين للتعبير عن نفس الشيء، لأن معيار التصنيف يختلف اختلافا كبيرا في مستوى التصور والترتيب التاريخي. (انظر الجدول الآتي، وما يتعلق به من الحواشي).

ان الحقب الافريقية الثلاث تؤرخ تقريبا كما يلي:

- العصر الحجري المبكر (أو العصر الحجري القديم): ابتداء من عهد أدوات الحجر الأكثر بدائية (لنفترض، منذ ٣ ملايين سنة الى ١٠٠٠٠٠ سنة).
- العصر الحجري الوسيط: تقريبا منذ ١٠٠٠٠٠ سنة الى ١٥٠٠٠ سنة.
- العصر الحجري المتأخر: من ١٥٠٠٠ سنة الى بداية عصر الحديد (وهو محدد بما يقرب من ٢٠٠٠ سنة في أغلب المناطق).

ويجب علينا أن نؤكد في نفس الوقت أن تلك التواريخ تقريبية وأنها بصفة عامة محل نزاع، فلقد اقترحت الى الآن تواريخ أكثر تأخرا لا سيما فيما يتعلق بفترة الانتقال من العصر الحجري المبكر الى العصر الحجري الوسيط. ان هذه النظرة المحافظة تعود نوعا ما الى قلة المواقع والصناعات الحجرية المعروفة، والموصوفة والمؤرخة بطريقة مرضية. ويضاف الى ذلك أن الانتقال الأول من العصر الحجري المبكر الى العصر الحجري الوسيط، وقع في فترة توجد عمليا في حدود امكانيات ضبط التواريخ بالراديو كربون. وبالرغم من أنه حدث أن حددت تواريخ بين ٥٠٠٠ الى ٦٠٠٠ سنة، وأنها معتمدة من قبل الباحثين أحيانا، الا أن تلك التواريخ تعتبر هي الحد الأدنى، لا تواريخ مضبوطة بدقة. وفي الواقع يوجد شك كبير لا يتعلق بأوائل العصر الحجري الوسيط فحسب بل أيضا بالجزء الأخير من العصر الحجري المبكر كله. وتجرب حاليا تقنيات جديدة مشروحة في مكان آخر من هذا الجزء. ولقد ساهمت طريقة البوتاسيوم-أرغون خاصة، في تحديد اطار تاريخي تقريبي

بالنسبة لحقبة من التاريخ تتجاوز نصف مليون سنة. فمن الضروري فعلا أن نعول كثيرا ودائما على التاريخ النسبي المستنتج من علم طبقات الأرض الأثرية والجيولوجية ومن علم النماذج البشرية. ان التواريخ المقترحة هنا لحقب ما قبل التاريخ هي اذن أقدم من التي تقدم عادة، الا أنها ليست قطعية بقدر ما يريد ذلك حاليا بعض الاختصاصيين. فحتى مدرسة «المراجعة» فهي أقل قطعاً في هذا مما قد يتبادر الى الذهن، لأن القضايا التي تطرحها تم في الواقع التعريفات أكثر مما تم ضبط التواريخ.

وفضلاً عن ان تاريخ هذه الحقب غير مدقق — ان لم يكن محل نزاع — فمن المهم ألا نعتبرها حقبة ثابتة لا تجري داخلها تغيرات ولا تحولات. فلا يجوز أيضاً أن نتصور أن التغيرات من حقبة الى أخرى قد وقعت ختماً بصفة مفاجئة. لقد طرأت تطورات سواء ضمن كل حقبة أو عند الانتقال من واحدة الى أخرى. يضاف الى ذلك أن الانتقالات الواقعة بين التكنولوجيات من العصر الحجري المبكر ومن العصر الحجري الوسيط، وكذلك بين العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري المتأخر تعتبر انتقالات معقدة. ولكي يؤخذ هذا الأمر بعين الاعتبار، يتحدث بعض المؤلفين عن حقب فاصلة هي (بين بين). الا أن الاتجاه الحديث ينحصر في التخلي عن فكرة هذه الحقب «الفاصلة» كحقب «رسمية» للجدول التاريخي للعصر الحجري. ولأنه كان وصف «الفصل الثاني» بين العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري المتأخر وصفاً ليس على أية حال مرضياً. أما «الفصل الأول» الذي يشمل الصناعات المعروفة باسم (فورسميثي) و«سفنون»، فانه حالياً يعتبر أحياناً مرحلة نهائية من العصر الحجري القديم، الا أننا نفضل أن ندججه في عصر حجري متوسط أكثر امتداداً. وهذا ما يفسر لماذا كان تاريخ بداية هذا العصر الحجري المتوسط أكثر قدماً في دراستنا هذه.

ان التخلي عن هذه «الفواصل» هو قضية ملائمة لا أكثر، ولا يدل على تبسيط للنظريات المتعلقة بالتطور التكنولوجي والثقافي والاقتصادي للإنسان في عهد ما قبل التاريخ. وقد أصبح من الشايت أن الامر يختلف عن ذلك تماماً. والملاحظة الأولى هي أن تكنولوجيات مختلفة كانت تستعمل في نفس الوقت حتى داخل مناطق ضيقة في مختلف عهود العصر الحجري. ويمكن تفسير هذه الاختلافات في بعض الاحوال بالاعتماد على البيئة، اذ يمكن لتكنولوجية أن تلائم الحياة في منطقة مشجرة أو في منطقة على شاطئ البحر، ويمكن لتكنولوجية معاصرة مختلفة ان تلائم مناطق أكثر جفافاً أو أكثر غراء. ولذلك يمكن للموارد الغذائية وطرق استثمارها ان تفرض تكييفاً ثقافياً وتكنولوجياً مختلفاً (١).

ان التفسير الصحيح قد لا يكون أحياناً بسيطاً. فلقد يحدث أن تظهر أنشطة احدى المجموعات (مثلاً صيد الحيوانات الكبرى والصغرى، ونصب الفخاخ، وقلع العروق والعسقيات، وخدمة الخشب والجلد الخ.) ويكون بعض تلك الأنشطة فصلية، قد تظهر في مظاهر على غاية من التنوع، فتتوفر فيها أدوات مختلفة من نفس العهد، وذلك بجهة معينة. ويمكن من ناحية أخرى أن تظهر اختلافات تدل على تباعد ثقافي وعلى تخصصات اقتصادية أكثر عمقا، وهي في تصورنا ناتجة عن الاختلاف في العرق أو في المجموعة، أو قد تكون ناتجة عن وجود أنواع من البشر في العصر الحجري

(١) انظر خاصة، فيما يلي، العرض المخصص للعصر الحجري الوسيط.

المبكر. ان هذا موضوع اختلاف، الا أن أحدث الاكتشافات بإفريقيا الشرقية بينت أن ما كان يعتبر الى الآن مرحلتين متميزتين من العصر الحجري القديم والتمثلتين في الصناعات ذات الحصى الملساء المهيأة (أو ما يدعى الأولدواني) التي تحولت الى صناعة الادوات ذات الوجهين (وتدعى بالأشولي) انما يغطي في حقيقة الأمر حقبة طويلة دامت على أقل تقدير نصف مليون سنة. ومن الصعب أن نعتد «النظرية القائلة بنوعية النشاط» لابرار جوانب هذه الملاحظة، وبميل بعض الاختصاصيين الى تأويله كدليل على وجود نمطين من التقاليد الثقافية متميزين، لنوعين من السكان منفصلين تماما، يعيشان جنبا الى جنب ويستثمران موارد غذائية مختلفة.

وفضلا عن هذا يمكن لنا أن نلاحظ أنواعا من التغطية في التقسيم الاعباطي بين العصر الحجري المبكر، والعصر الحجري الوسيط والعصر الحجري المتأخر. فمن الممكن أن نجد بعض الأدوات من العصر الحجري المبكر أو تقنيات بدائية في محيط هو أساسا من العصر الحجري الوسيط. ان تمازج خصائص محددة وأخرى محافظة قد يكون علامة على تغير متدرج. الا أن فترة الانتقال قد لا يحس بها أحيانا، وقد يحدث في بعض المواقع التي لها مقطوعة طبقية أرضية واضحة أن تظهر بها فجأة تكنولوجيا جديدة وذلك في شكل مكتمل، من غير أن يكون هناك أثر يدل على تطور محلي. وهذا يوحي بانتشار التكنولوجيا من منطقة الى أخرى ويمكن أن يكون ناتجا عن تحرك السكان. ولقد كانت التغيرات المناخية، مع ما لها من أثر على البيئة، من حوافز التكيف الثقافي والتقدم التكنولوجي. الا أنه على عالم الآثار أن يحتز في هذا الميدان من التأويلات الحتمية البسيطة.

ان هذا التقسيم الفرعي الاعباطي جدا للعصر الحجري هو حينئذ نظام مرجعي مفيد في الحالة الراهنة لمعارفنا. ولكن يجب أن نجعله مرنا بحيث نتمكن من تغييره باستمرار. وربما ذات يوم سوف لا يفيد هذا النظام. ولئن كان هذا اليوم لم يصل بعد، فان فائدة ذلك النظام معرضة للخطر اذا طبق تطبيقا شكليا جدا أو بدقة متناهية في أغراض لم يوضع من أجلها.

سنقدم في الجدول بيانات أكثر تفصيلا توضح الطريقة التي يمكن أن تحد فيها مختلف «الثقافات» من العصر الحجري، ومختلف الصناعات الحجرية التي عرفها الأثريون بإفريقيا الشرقية وفق التقسيم الى ثلاث حقب. ولقد عرضنا هذا الجدول ليكون دليلا لمعارفنا الحالية وللدراسات الأساسية. ولا ندعي بأنه يحتوي على التأويل «الصحيح» ولا التأويل الذي سيعمر طويلا بعد نتائج البحوث المستقبلية، أو بعد إعادة النظر في البحوث التي أنجزت. يجب أن يعتبر بكل بساطة دليلا ودليلا مرنا. ان بعض «الثقافات» المذكورة فيه (وغيرها من التي لم تذكر قصدا) ربما درست على حدة بالاعتماد على بحث أو أوصاف غير مكتملة، ومركزة على استكشاف ووصف موقع واحد وصفا كاملا وهذا من شأنه أن يشكك في وجودها كوحدة ثقافية، وتوجد ثقافات أخرى لها امتداد جغرافي أو تاريخي شاسع. ويقدر بعضهم أن الأشولي من العصر الحجري القديم يغطي أكثر من مليون سنة بإفريقيا الشرقية ولا يمتد في كامل القارة فحسب، بل يمتد في جزء كبير من أوراسيا الجنوبية والغربية، ولقد امتد السنغوي (Sangoen)، في أول مرحلة من العصر الحجري الوسيط من بعض أجزاء إفريقيا الشرقية والجنوبية الى أقصى الغرب من القارة. ومن الصناعات الأكثر حداثة والمثلة بإفريقيا الشرقية نذكر الستيلباي (Stillbayeis) والولطوني (Waltonien).

اللذين وصفا لأول مرة وسميا في مقاطعة رأس الرجاء الصالح (بجنوب افريقيا). وبفضل الاختصاصيون اطلاق أساء جديدة ومتميزة على مختلف الأنواع بافريقيا الشرقية إلا أننا فضلنا أن يكون عرضنا هذا مبسطا، مع الإشارة إلى بعض الصعوبات البديهية والى بعض المراجعات المحتملة. ويمكن للقراء الراغبين في ذلك أن يتتبعوا التطورات الجديدة والمجالات وذلك بالشروع في قراءة المؤلفات التي توجد منها قائمة في مراجعنا ولهم الخيار في استعمال مصطلحات أكثر تفننا.

ان هذا المقال وهذا الجدول مع حواشيها غير مخصصين للمصطلحات، لأن المصطلحات لا تعني شيئا في حد ذاتها. ولذلك فإن الذي سيحاول حفظ هذا الرسم عن ظهر قلب، سيسئ الى نفسه ويمكن أن يعرف العصر الحجري كحقبة «لما قبل التاريخ» فحسب وأن يناقش وأن يدرس بطريقة مفيدة بالاعتماد على مصطلحات ورموز وضعها الأثريون. إن كل محاولة جدية للاحاطة بتلك الحقبة. وبالمؤلفات المرتبطة بها، سواء عندما ينظر اليها في مجموعها أو عندما تحلل تفصيلا، تستوجب استيعاب المصطلحات المستعملة عند مختلف المؤلفين، وإن كانت مضطربة وباطلة في بعض الأحيان. ان هذا الفصل يشكل مدخلا الى كل ما ألف حول تاريخ افريقيا الشرقية في العصر الحجري، من أجل الاحاطة به.

### الحواشي المتعلقة بالجدول

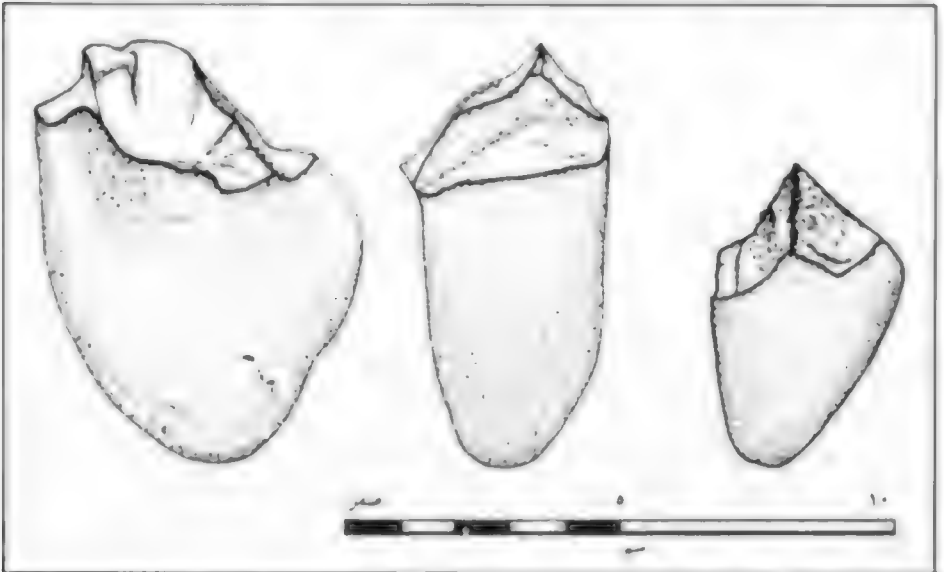
ان العمودين على الشمال يقدمان توافقات أجمالية مع الحقب الجيولوجية وتاريخ العصر الحجري الأول، المنطبق على منطقة الابيض المتوسط، أما شمال افريقيا، وأوراسيا، فانها لم يذكر الا بصفتها مرجعين لها ارتباط خاص بفصول أخرى في هذا الجزء وبنصوص أخرى (تشمل مؤلفات قديمة خاصة بعلم الآثار المتعلق بافريقيا الشرقية). فهذان العمودان غير ضروريين لفهم ما جاء في هذا الفصل.

ان المصطلحات «الأسفل» و «الوسيط» و «الأعلى» تدل على العصور القديمة علما بأن «الأسفل» هو أقدمها وهي مطابقة للتقاليد الجيولوجية العادية المركزة على المقطوعات من طبقات الارض وتقدم هذه الجداول حسب ترتيب منطقي من الأسفل الى الأعلى في أغلب المؤلفات الجيولوجية وفي عديد من المؤلفات الاثرية. ويعرض هذا الجدول حسب الترتيب من الاعلى الى الاسفل طبقا للجدول التاريخي.

ان لفظ «الحجري القديم» ليس هو اللفظ الذي يعادل العصر الحجري المبكر الافريقي «فالحجري القديم» يفيد، مثلما استعمل ولا يزال يستعمل بأوروبا «عصر الحجارة بدون انتاج القوت». وهو يقابل «الحجري الجديد» أي (عصر الحجر الجديد) الذي يفيد «عصر الحجر مع انتاج القوت»، وهنا يعني الفلاحة والرعي السابقين لاستعمال المعادن. ويوجد تأويل مخالف شيئا ما «للحجري الجديد»، وهو مستعمل أحيانا ويفضل أصحاب هذا التأويل معايير ثقافية مادية متقدمة، لا سيما الحرف أو الحجارة المهذبة، عوضا عن انتاج القوت، وهناك تمييز في بعض الانحاء من العالم لحقبة انتقالية (أو درجة ثقافية حسب بعض المؤلفين) تدعى «الحجري الوسيط». اننا لا نعتبرها هنا الا لنسجل انه لا صلة لها بالعصر الحجري الوسيط الافريقي، خلافا لخطأ شائع جدا في الدراسات العامة المتعلقة بتاريخ افريقيا.

## ما قبل التاريخ في أفريقيا الشرقية

السنوات (بالتقريب) قبل الميلاد	التقسيمات	السمات التكنولوجية التشخيصية المميزة	الصناعات الحجرية الرئيسية	النظائر التقريرية في مناطق البحر المتوسط وأوراسيا	الحقب الجولوجية (توافرات، تقريرية)
٣ ملايين	العصر الحجري المرحلة الأولى	حصوات مشكّلة ومشظاة	أودوفاني (صناعات الحصوات المشكّلة)	الحجري القديم الأدنى	البليستوسين الأدنى
١ مليون	العصر الحجري المبكر المرحلة الثانية	أدوات ذات وجهين (ذات وجهين، فأسية، الخ.)	أشولي (صناعات الأدوات ذات الوجهين)		البليستوسين الأوسط
١٠٠٠٠٠ ٤٠٠٠٠	العصر الحجري المرحلة الأولى المرحلة الثانية	أدوات مشظاة مصنوعة من نويات مجهرة استخدام المقابض: أدوات أصفر حجا وأفضل تثقيفا	سانغوي فورسميثي لو بيجي ستيلباي ماغوسي	الحجري القديم الأوسط	البليستوسين الأعلى
١٥٠٠٠	العصر الحجري المتأخر	نصال وأدوات حجرية صغيرة مثقفة أدوات مركبة	تشيولي الكابسي في كينيا ثقافات «الأوعية الحجرية» العصر الحجري المتأخر النهائي	الحجري القديم الأعلى - فوق الحجري القديم أو الحجري الأوسط - الحجري الحديث (في بعض مناطق معينة)	الهولوسين
بعد الميلاد	عصر الحديد				



- ١ • خناق أولدوقاي، تاترانيا الشمالية: يمثل الخناق فجاً عمقه أكثر من ١٠٠ متر في السهل، ويكشف عن طبقات متعاقبة متراكبة (أهمها الطبقات البحرية السفلى). ويبلغ عمر الطبقات السفلى حوالي مليوني سنة، وهي تحتوي على آثار لبعض أفراد الإنسان الأول (وبعض المحلوقات البشرية) وعن عدد من أدواتهم (من النوع الأولدقائي) وبقايا من أغلبيتهم. وفي مستوى أعلى، تم العثور على أدوات ثنائية الأوجه وأشياء أخرى من نوع الحياة الأشولية ( المرحلة الثانية من العصر الحجري الأول) (تصوير ج. أ. غ. ساتون).
- ٢ • العصر الحجري المبكر، المرحلة الأولى: أدوات أولدوقائية نمطية (حصوات مشكّلة).

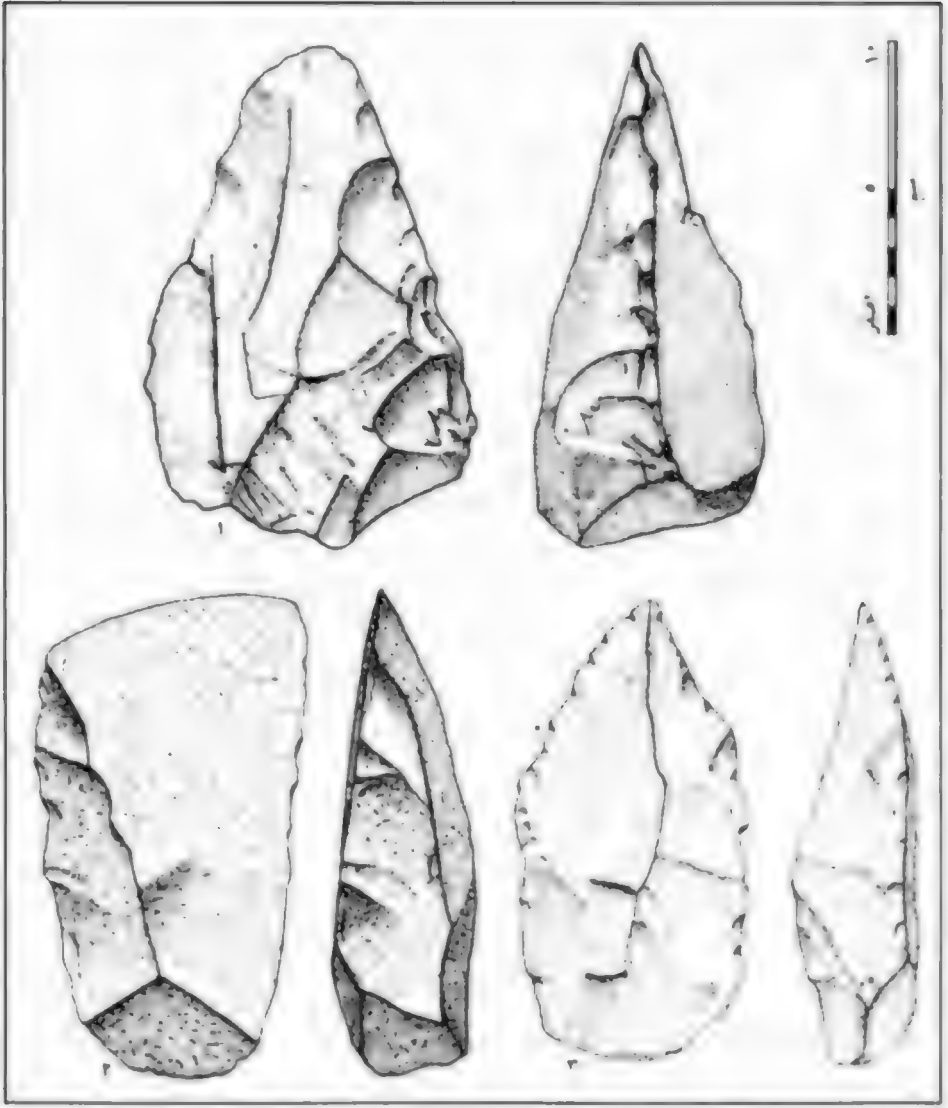


اننا لا نجد تقريرا في مجموع المناطق الافريقية الواقعة جنوب خط الاستواء ما يعادل العصر الحجري الجديد الخاص بالاقسام الاخرى من العالم، لأن انتاج القوت لم ينتشر قبل ابتداء عصر الحديد (٢). الا أنه توجد بالأراضي العالية من الكينيا وشمال طانزانيا، شواهد تدل على انتاج القوت (الرعي، وعلى الأقل شيء من الفلاحة أيضا) بالعصر الحجري المتأخر النهائي، وذلك منذ اثنين أو ثلاثة آلاف سنة. إن تلك الشقافة وما لها من الحرف وأقداح حجرية تدعى «العصر الحجري الجديد» من طرف بعض المؤلفين.

## العصر الحجري القديم

### المرحلة الاولى

يعود تاريخ الادوات القديمة جدا التي صنعها الانسان والتي نعرفها، الى حقبة تتراوح بين مليونين ان لم تكن ثلاثة ملايين سنة، وبين مليون سنة على الأقل. ولقد وقع اكتشافها على شواطئ بحيرات قديمة ومستنقعات قرب الريف فالى بطنانزانيا الشمالية، والكينيا وأثيوبيا. ولعل أقدم الادوات المنحوتة تتكون من تلك الشظايا الصغيرة جدا من الصوان، المفصلة والمستعملة، والتي وجدت في مواقع عديدة من بحيرة تركانا ومن وادي أومو بأثيوبيا. ويعتبر استعمالها مشكلا من المشاكل ومن تلك الأدوات ما هو موجود بكثرة ومعروف معرفة حسنة، وهي الحصاة الملساء المهيأة، والمعاصرة للشظايا أو المولية لها بقليل. فهي حصاة من حجم قبضة اليد، وكتل صغيرة من الحجر، أخذت منها بعض الشظايا (بواسطة حجرة أخرى) لانتاج أدوات قاطعة، خشنة لكنها صالحة للاستعمال. وبينما نجد أن الاشغال الصعبة ومنها ما يتعلق بقطع جلد حيوان، أو بكسر أو تهشيم مادة نباتية صلبة تستوجب عادة استعمال الاداة الاساسية التي تقبض باليد، فقد كان من الممكن أن يستعمل عدد كبير من الشظايا (وتوصف عادة، لكن عن خطأ، بأنها نفايات)، وهذه الشظايا أكثر رهاقة وبالتالي أكثر قطعاً، وأن يستفاد منها في أشغال أخف من غيرها وأكثر دقة، كإعداد حيوان مقتول للأكل، وصنع أسلحة خشبية، أو القيام بأشغال منزلية في المخيم. وفي الواقع فإن الدراسة المعمقة لهذه الصناعات المدعوة «بالساطورة أو صناعة الحصاة» المهيأة، لا سيما دراسة الدكتور ماري لاكي فيا يتعلق بفتح أولدواي حيث عثر عليها بالمستويات السفلى، أو مثلاً فعل ج. شيفايون في ملكا كنتوري بأثيوبيا، تشهد بوجود نوع كبير في النماذج، وبمهارة تكنولوجية هي أكبر مما كان يتصور من قبل. ان عبارة «حصاة مهيأة» عبارة متقضية بعض الشيء، كما أن عبارة «حضارة الحصاة المهيأة» التي كثيرا ما تستعمل فيما يخص هذه المرحلة من العصر الحجري المبكر، هي عبارة غير صحيحة لأن الحجارة المختارة لصنع السواطير، والشظايا وأدوات أخرى، لم تكن دائما هي الحصاة، يضاف الى ذلك أن العظم، وكذلك الخشب كانا أيضا مستعملين. وان أغلب الأثرين يفضلون تسمية تلك المرحلة الأولدوايية، نسبة الى أولدواي، بطنانزانيا الشمالية. وهذا لا يعني



● العصر الحجري المبكر، المرحلة  
 الثانية: أدوات أشولية فطية (مناظر  
 أمامية وجانبية). ١. منقارة؛ ٢. أداة  
 شق؛ ٣. فأس يلوية ذات وجهين.

طبعاً أنها صنعت لأول مرة بأولدوواي (٣). وكان يظن أن صانع تلك الحصاة المهيأة، لا يصيدون ولا يقتلون إلا الحيوانات الصغيرة مثل الطيور، والضباب والسلاحف والهيركسات، لثمة ما يجمعون من ثمار ونباتات وحشرات، وقد أصبح من الثابت أنهم كانوا يقتلون حيوانات كبيرة إذ أنه يوجد بين العظام المستحجرة المكتشفة مع الأدوات، أو قرب المخيمات، عظام فيلة أو ظباء كبيرة. ويمكن أن تكون بعض هذه الحيوانات قد ماتت ميتة طبيعية، أو أنها جرحت عرضاً أو قتلها أسود أو غيرها من اللواحم. ولكن من المحتمل أن البعض الآخر قبض عليه، في ذلك العهد القديم بواسطة الفخاخ، أو دفعها إلى المستنقعات جماعات من الصيادين الذين يفتكون بها بنصأهم أو بدبابيس أو بقذائف حجرية.

وكان الصيادون يستهلكون جزءاً من اللحم بعين المكان الذي قتل به الحيوان، أما الباقي فكثيراً ما كان ينقل إلى الخيم ليقسم على ما تبقى من الجماعة، بما في ذلك النساء والأطفال، لأن ما يتبقى من ذلك الحيوان كثيراً ما يشمل عظام حيوانات مختلفة مخلوطة بأدوات متنوعة كانت تستعمل للقطع، والكشط، والهرس، فهي تشكل شواهد مهمة عما قد يكون محل سكن في هذه المرحلة القديمة جداً من الإنسانية. إن دراسة مواقع الآثار، تفيد فضلاً عن ذلك أن حواجز ضد الرياح كانت قائمة. وقد رأى البعض في دائرة حجرية بأولدوواي أساساً قديماً لكوخ أو ملجأ خشبي، ومن المحتمل أنه كان مغطى بالجلود. ولقد استعملت لنفس الغرض مسطحة اصطناعية في ملكا كنتوري.

لقد أبرزت إلى الوجود مناجم من الحصاة المهيأة ابتداء من جنوب إفريقيا إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط فضلاً عن المواقع العديدة الموجودة بشواطئ البحيرات التي تمتد من أولدوواي إلى بحيرة تراكانا، والتي توجد فيها أقدم المواقع السكنية المعروفة. ولعلها تعود إلى عهد متطور أكثر من أقدم مرحلة بإفريقيا الشرقية. ومن المحتمل — ولكن لا على سبيل اليقين — أن تلك الصناعة قد انبثقت أصلاً من إفريقيا الوسطى، أو الشرقية وانتشرت في كامل القارة واعتباراً لتاريخ تلك الأدوات، فضلاً عن تمازجها العرضي بإفريقيا الشرقية مع العظام الإنسانية، يمكن أن تنسب إلى أكثر البشر بدائية أو إنسان الجنوب، أو بالأحرى إلى الإنسان الماهر، كما يدعوا بعضهم إلى ذلك اليوم (٤).

## العصر الحجري القديم

### المرحلة الثانية

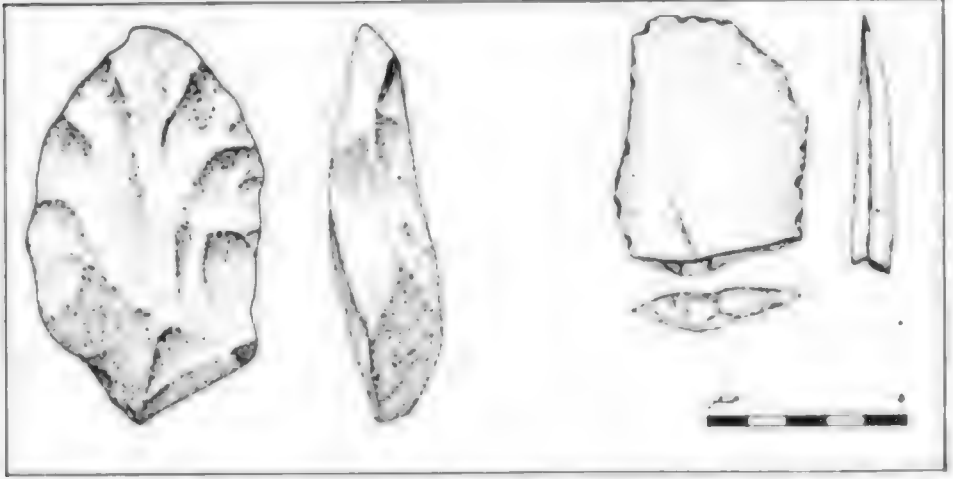
إن الأشولي أو «حضارة ذي الوجهين» منتشرة أيضاً بإفريقيا انتشاراً الأولدوواي، وتوجد به مواقع أكثر ولعل ذلك يعود إلى وجود سكان أكثر عدداً، كما يعود إلى صناعة عدد متزايد من الأدوات

(٣) — إن الرسم الاملائي «أولدوواي» (Oldowayen) مشتق من الصيغة الألمانية لكلمة أولدوواي (Oldoway) المكتوبة هكذا على الخواط الأولى. واسم المكان من أصل ماسايي، والصحيح أن يكتب «أولدباي».

(٤) انظر الفصل ١٧ من هذا المجلد.



● إيسيميل، مرتفعات طانزانيا الجنوبية. ١ - منظر على أرض الحور المتحات يحتف عن الطبقات التي تتعرض فيها الأدوات  
الاشولية للتحلات؛ ٢ - مجموعة من الادوات ثنائية الواجه، من فؤوس وأدوات أخرى أشولية (في الوسط، مكشط ملاط لبيان  
المقياس النسبي للحجم).



- (١) المصري الحجري الاوسط والادوات الانتقالية: الى اليمين نموذج لسن مدبب يمكن تركيبه على مقبض، أو ربما كراس لرمح.
- (٢) أولورجيسايلي، الوادي الاخندودي في كينيا. حفريات جارية في موقع كان مسكونا في الزمن الاشولي. (تصوير ج. أ.غ. ساتون).

ذات الأبعاد الكبيرة، التي يسهل التعرف عليها. وخلافاً للأولدوواني، يمتد الأشولي خارج إفريقيا أي في آسيا الغربية والجنوبية وكذلك أوروبا الجنوبية والغربية.

إن بدايته بإفريقيا تعود إلى أكثر من مليون سنة.. ولقد دامت منه التقاليد التكنولوجية طيلة مليون سنة إلى عهود حديثة نسبياً لا تتجاوز مائة ألف سنة. ولقد سجل هذا المليون من السنوات تغيرات مناخية ملحوظة على المستوى العالمي (٥). وهناك احتمال قليل في أن تكون جميع المناطق التي وجدت بها أدوات أشولية مسكونة بصورة مستمرة، مع الملاحظة من جهة أخرى، أن الصناعات الأشولية كانت بالشرق من الهند قليلة أو مفقودة، ويبدو أن الهند قد احتفظت بتكنولوجيا حجرية متميزة تنسب إلى نوع (الحصاة المهيأة) المتطورة. وهذا من شأنه أن يعتبر حداً ثقافياً بين الشرق والغرب. إن هذه الصناعة الأشولية التي كان فيها ذو الوجهين أكثر الأدوات تداولاً، تستوجب أن تربط بوجود الإنسان المستقيم، وهو شكل بشري وسط بين إنسان الجنوب والإنسان العصري. إلا أن تطور الإنسان المستقيم، نحو نماذج الإنسان العارف الأولى، كان قد أخذ يتحقق في حوالي نهاية الفترة الأشولية.

لقد كانت إفريقيا إحدى المناطق التي جرى فيها تطور الإنسان المستقيم، كما جرى بها التطور الثقافي الذي تدل عليه التقنيات الأشولية لصنع الأدوات، وطرق من العيش كانت مجدية أكثر مما يمكن أن نتصور. ولقد ظلت تقاليد ثقافية أكثر قدماً (ولعلها من النوع الطبيعي البدائي) ظلت قائمة لمدة معلومة جنباً إلى جنب مع التقاليد الجديدة. إن أحسن دليل على ذلك يظهر من المستويات المتتابعة من السواحل القديمة البحرية بأولدوواي حيث صنعت واستعملت معاً أدوات متمايزة أولدووانية وأشولية طيلة مدة تقدر بعدد من مئات آلاف السنوات، وذلك منذ مليون سنة تقريباً. إن الأشولي يشمل فضلاً عن ذلك مراحل وتحولات متعددة، إلا أنه لا يؤخذ بعين الاعتبار في دراسة عامة، إلا التقسيم الأساسي بين الأشولي القديم، وهو أشد خشونة وأكثر بساطة والأشولي المتطور الذي يشمل أحسن ذوات الوجهين وأحسن القدومات. وتزدان المعارض في متاحف إفريقيا الشرقية بمختارات من تلك الأدوات، وتعتبر الأدوات الآتية من إسميلا (من الأراضي العالية بـطانزانيا) من أجل الأدوات بالعالم. ومن الواضح أن «الأشولي المتطور» كان قد أخذ يتطور في مكان ما انطلاقاً من «الأشولي القديم». وعلى كل حال ظلت بعد ذلك التقنيات الحديثة والتقاليد القديمة قائمة جنباً إلى جنب لمدة معينة.

لم تكن إفريقيا الشرقية، في العهد الأشولي، إلا منطقة من مناطق العالم القديمة العديدة التي سكنها الإنسان. فهي تشمل مواقع وفرت دراساتاً أدق المعلومات عن تكنولوجيا الإنسان المستقيم والإنسان العارف البدائي وعن اقتصادهما. فزيلد على مواقع أولدوواي وسلاسل طبقاتها التي لا مثيل لها، وزيادة على مواقع أخرى بنفس المنطقة، توجد مواقع ألوغيسايلي Olorgesailie وكريندوسي بالرفرت بالكينيا ومطارج أخرى بشرق بحيرة تركانا، ونسونغيزي والمواقع المجاورة بمحود بـطانزانيا وأوغندا، وإسميلا ولوكولرو بـطانزانيا الجنوبية، وملكا كنتوري Melka Konturé بأثيوبيا حيث اكتشفت أطوار عديدة من الأشولي.

ان التسميتين «ذو الوجهين» و «القدم» المطلقتين على النوعين المميزين أحسن تمييز للأدوات الاشولية، هما بطبيعة الحال من مصطلحات علماء الآثار المتفق عليها. ان ذا الوجهين لم يكن فأساً، بل كان على الأرجح أداة للاستعمال العام، وكان طرفها الحاد وقاطعاً الطويلان يمكن استعمالها للتفتيش والسلخ، فضلاً عن وظائفه الأخرى، ويصلح القدم لسلخ الحيوانات باعتبار طرفها القاطع. ان الفرق بين تكنولوجيات الأولدوواي والأشولي، هو في أغلب الأحيان كمي، ان مجموعة الأدوات، مثل الأدوات الفردية قد أصبحت الآن أكثر تميزاً. يضاف الى ذلك أن التقنيات الاشولية تسمح بصنع أدوات أكبر حجماً، لها قواطع أكثر طولاً، وحدود مشحودة لكي تستعمل سكاكين. ولتلك التقنيات تقطيع أكثر دقة، وأكثر اعتدالاً وانتظاماً بالوجهين، ويكون هذا التقطيع أحياناً بقارع من حجر كما في الأولدوواي، ولكن يكون في أكثر الأحيان بقارع خشبي أسطواني أو بعظم حيواني طويل.

ان السكان طيلة العصر الحجري المبكر، كانوا يشكلون فرقا من الصيادين القاطنين، وكانوا يتحولون في كل فصل الى السهاسب والمناطق القليلة الشجرتة لما يطرأ على الموارد الحيوانية والنباتية من تغيرات. ومن المحتمل أنهم كانوا يتفرون في بعض الفترات من السنة ويجمعون في آخر الفصل الجاف في فرق عددها أكبر، وذلك قرب بحيرة أو منطقة أخرى خصبة. ولقد رأى بعضهم ان التجمعات الضخمة من الأدوات الاشولية ذات الصنع الجيد، بمواقع مثل ايسميلا وأولورغسيلي قد تدل على اقامة مخيمات سنوية.

ولقد اكتشفت الشواهد الأولى عن النار في إفريقيا الشرقية بمواقع أثرية أبرزت صناعات من الاشولي المتطور، وتؤرخ المؤلفات الموجودة ذلك الاكتشاف بخمسين ألف سنة تقريباً. وهذا التاريخ لا يخلو من الاحتراز، اذ توجد آثار لا نزاع فيها تدل على النار والطهي تركها الانسان المستقيم بآسيا الشرقية وباوربا وذلك منذ نصف مليون سنة. ويبدو من المحتمل جداً، وان لم توجد حجة، أن النار قد عرفت وأن الطعام المطبوخ كثيراً ما استهلك طيلة جزء كبير من الاشولي بإفريقيا.

## العصر الحجري الوسيط

ان سكان العصر الحجري الوسيط ينتمون الى نوع الانسان العارف، وربما كانوا في أول الأمر، ينتمون الى أنواع متفرعة عن الانسان العارف، ومختلفة قليلاً عن الانسان المعاصر. إن الانسان العصري (الانسان العارف) لم يكن قد ظهر فحسب في آخر العصر الحجري الوسيط بل ان الخصائص البدنية المميزة للأجناس الموجودة، قد ظهرت وتطورت بإفريقيا وفي غيرها من القارات. لقد سجل العصر الحجري الوسيط، من حيث وجهة النظر التكنولوجية، تقدماً مهماً. وهكذا تركت التقنية الأساسية لصنع أدوات الحجر والمتمثلة في نزع شظايا من صخرة حتى يقارب شكلاً نموذجياً له حدود قاطعة صالحة للاستعمال، فاستعاض عنها بتقنية أكثر تعقيداً، تستوجب تهيئة النواة بنزع الشظايا نزاعاً دقيقاً حتى يكون له الشكل والحجم المطلوبان للذات يسمنحان باستخلاص الأداة الكاملة الصنع. ولقد استعملت موازاة لذلك تقنية تعتمد على فصل شظايا عادية تهذب بعد ذلك ليصبح لها الشكل معلوم، تنتج عن ذلك صنع أدوات أقل حجماً، لها أشكال أكثر اكتمالاً، وتكون

عادة أرقه من أدوات العصر الحجري المبكر، وأكثر نفعا منها. ولقد سمح ذلك بتجديدات في الحقبة الثانية من العصر الحجري الوسيط كانت لها نتائج هامة، منها صنع أدوات حجرية منحوتة ذات مقابض من خشب ومن مواد أخرى. ان الحدود الورقية الشكل، التي تخصصت بها الصناعات الستيلبائية، والتي تهذب بضغط دقيق جدا، كانت تثبت وتلصق في نواة ذات مقبض خشبي لتكون رمحا. وحدث أن ركبت بنفس الطريقة أدوات كثيرة ذات استعمال منزلي، مما استوجب تحضير الاصماغ والرتنجات وكذلك نجر الخشب وتقويه وحزه وهي أشغال يسرتها بلا شك المعالجة بالنار. ان هذه التطورات التكنولوجية بالعصر الحجري الوسيط كانت مرتبطة بالتطورات الاقتصادية، وعلى الأقل بالتحويلات المتعلقة بالتكيف مع البيئة وهنا يبرز سؤالان مترابطان، أولهما متعلق بالتغيرات المناخية (٦). ان تفاصيلها وضبط تاريخها، وكذلك مطابقتها للشواهد الأثرية ما تزال غير معروفة. ونكون متعسفين اذا فسرنا بعضها بالاعتماد على البعض الآخر. يضاف الى ذلك أن هذه التغيرات المناخية من الجفاف الى الرطوبة والعكس بالعكس، وهي تطرا على توسع الغاب أو تقلصه، وعلى عدد البحيرات والانهار ومساحتها، مما له أثر على توزيع ووفرة مختلف الموارد الغذائية، هذه التغيرات المناخية لم تكن شيئا جديدا. فن الضروري عندئذ أن نتساءل لِمَ لَمْ تتسبب التغيرات المناخية الأكثر تقدما في قفزة تكنولوجية واقتصادية؟ لا يمكن، نظرا الى وضع البحوث الحالية أن نعطي جوابا مرضيا على هذا السؤال، وان كان من الممكن أن نتصور أن الضغط السكاني قد فرض وسائل أكثر نجاعة وأكثر تنوعا لاستغلال موارد المحيط. ومهما كانت الأسباب فذلك ما وقع فعلا بالعصر الحجري الوسيط.

أما السؤال الثاني فهو يتعلق بالتخصص الجهوي الذي سمح للانسان باحتلال مناطق جديدة. ان الانسان العارف كان يستعمل عبر العالم. مرونته في التكيف تكيفا فطريا والتوسع في المكان. ولقد ظهر بافريقيا تقسيم ثقافي واضح بين سكان المناطق العشبية أو البساسب المشجرة قليلا وبين السكان الذين يسكنون مناطق أكثر رطوبة ذات غابات أكثر كثافة. فتكونت عند الاولين تقاليد صيد الحيوانات الكبرى بالرمح. (وذلك لا يعني ترك جني الثمار)، بينما تعلق الآخرون بجني النبات والثمار، وصيد السمك، والقنص في الساحل بواسطة رماح، وباستعمال فخاخ.

ان ذلك التخصص لم يكن في المرحلة الأولى من العصر الحجري الوسيط مطلقا مثلما يدعي بعضهم ذلك. فلقد عثر على أدوات تعرف باسم «فورسميثي» بالاراضي العالية من الكينيا، وكذلك في حواشي الغابات. وهذه الأدوات شبيهة بصناعات كندار (Gonder) وكربا. وملكا كنتوري ويعتبر «الفورسميثي» في كثير من الحالات، من الاشولي المتطور. فالأدوات الاساسية متشابهة لكن عادة من حجم أصغر وتجتمع فيها تقنيات صنع جديدة. وتحالف تلك الصناعات «السنغونية» وهي أكثر انتشارا. وقد عثر على أحسن النماذج منها حول بحيرة فكتوريا، وبالرفرت فالي الغربي بأوغندا الجنوبية، وفي روندا وطانزانيا الغربية. وتشمل تلك الصناعات خليطا من الأدوات الأشولية ومن التقنيات الجديدة. الا أن خصائصها الكبرى تختلف عن خصائص مظاهر



الفورسميثي. ان مجموعات «السنغون» توحى أولا بخشونة صنعها، ويحتمل أن يكون ذلك علامة على نشاط تكنولوجي أكثر تنوعاً، لا على تقهقر ثقافي. ويحتمل فعلاً أن تكون كثير من تلك الأدوات ذات المظهر الخشن أدوات استعملت لصنع أدوات أخرى، خاصة من خشب، بينما كانت المعاول الكبيرة نستعمل لاستخراج العروق التي تعتبر جزءاً من الحمية الخاصة بالمناطق المشجرة.

ان الشكل المتطور الذي برز فيه أولاً «السنغون» بإفريقيا الشرقية يوحي بأن أصله وتطوره، انطلاقاً من الأشولي، يستوجبان نسبتها إلى مكان آخر، إما في الوسط أو الغرب من القارة. ويمكن أن يكون انتشاره بالأجزاء الغربية من إفريقيا الشرقية قد وقع في فترة رطبة توسعت فيها حدود الغابة الاستوائية. ومن المحتمل أن مواقع المخيمات كان قائمة في مناطق مشجرة، على طول الشواطئ المشجرة، لا بالغابات الكبرى الكثيفة. ولنلاحظ أن توزع مواقع «السنغون» المدروسة بمحوض الزاير يفيد أن دخول الغابة الاستوائية لم يزد إلا بقدر قليل عما حصل في الأشولي. ولكن أصحاب الصناعات «اللويمية» (التي تعتبر تطويراً وتجويداً للصناعات السنغوية) — وقد اشتهرت برماحها البديعة الصنع، وذات السنان الحجري — كان أصحاب هذه الصناعات في المرحلة الثانية من العصر الحجري الوسيط يعيشون في وسط الغابات.

يوجد النموذج اللويمي أيضاً حول بحيرة فكتوريا وبمناطق أخرى غربية من إفريقيا الشرقية وكذلك بمحوض الزاير، وبينه وبين النموذج الستيلباي اختلاف من حيث الأسطة الورقية الشكل، وهو يوجد بالأراضي العالية العشبية التي تحق بالرفق فالي، بالكينيا وأثيوبيا، قرب بحيرة طانا (ملجأ كركورة) أو دير داوه (كهف الشهم). وتغلب في مناطق أخرى، لاسيما في الجنوب الشرقي من طانزانيا نماذج مختلفة من صناعات العصر الحجري الوسيط. وهي أقل اختصاصاً، أو بالأحرى إلى أن يأتي ما ينافي ذلك. وللبعض منها شيء من التقليب للعالم مع «السنغون — اللويمي». ويحتمل أن تكون وجدت تقاليد جهوية عديدة قد نتجت عن التكيف مع بيئات محلية، فحافظت، لما استقرت استقراراً نهائياً، على عدد من خصائصها المميزة، يسبب التقاليد الثقافية وبسبب الضغوط البيئية أو الاقتصادية. ويمكن أن تكون تلك العوامل الثقافية الجهوية مسؤولة عن التحول الذي يظهر واضحاً بإفريقيا الشرقية، بعد تبني التجديدات التكنولوجية من العصر الحجري الوسيط.

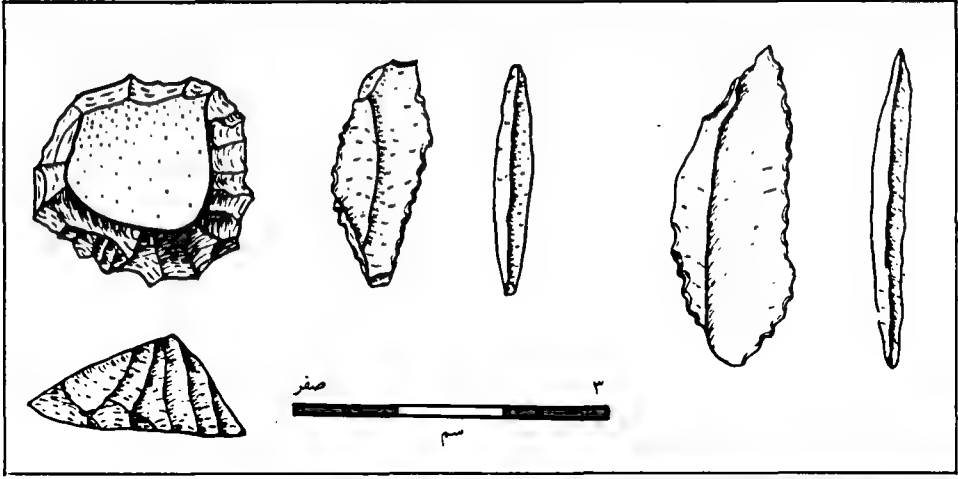
## العصر الحجري المتأخر

ان حدوث هذه التقنيات الأكثر تعقداً بغية صنع الأدوات الحجرية، يعود إلى عشر أو عشرين ألف سنة. وخلافاً للعصر الحجري الوسيط الذي كان التركيز فيه على صنع شظايا انطلاقاً من بقايا حجرية، أصبح التركيز في العصر الحجري المتأخر خاصة على الصفائح المفصولة وذلك باستخلاص مباشر أو غير مباشر لقطع ذات حواف متوازية طويلة رقيقة. وكان من الممكن بعد ذلك تثقيب تلك الصفائح بحسب الأشكال المرغوبة والاستعمالات المتنوعة جداً. وعلى العموم كانت القطع المثقبة صغيرة جداً. انها «حجيرات» كان طولها أحياناً دون سنتيمتر واحد ويطلق الاثريون على الشكل المشترك اسم «قطعة الدائرة» التي لها قاطع مستقيم وحافة معكوفة. ولم يصنع ليقبض باليد وليستعمل كأداة فردية، بل ليدمج ويثبت بمقايض من الخشب أو العظم. ولقد أصبح وضع

المقايض طريقة محكمة وجارية. وكانت حجارات صغيرة جدا مثبتة معا، بعد ذلك في شق مقبض تحشي لتكون «أداة مركبة» مثل السكين أو المنشار. أما في المناطق التي بها صخور تصلح لصنع صفائح، لا سيما صخور الصوان، وأحسن منها الزجاج البركاني الداكن (السبح) الذي يوجد بأماكن قرب الرفت فالى بطنانزانيا الشمالية، وبالكينيا، فقد كان من الممكن صنع قطع جميلة، وصفائح حوافها معكوفة، ومثاقب، ومحافر ومكاشط وأنواع أخرى خاصة. أما في المناطق الأخرى فهي لا تحوي إلا حجر الصوان أو حجارة دون ذلك قيمة، لا يصلحان لتقطيع الحجر. ولئن أمكن صنع أدوات مفيدة اعتمادا على تلك المواد، فقد كانت تظهر لأول وهلة في مظهر الآلات الغير المنتظمة والخشنة. ولقد كان الأثريون يعثرون أحيانا على آلاف من الشظايا في موقع سكني من العصر الحجري المتأخر، إلا أنهم كانوا لا يستطيعون أن يصنفوا الا اثنتين أو ثلاثا بالمائة منها حسب أشكال معروفة من الأدوات.

إن هذه التجهيزات التكنولوجية كانت تسمح بالتعرف على عدد من التجديدات الثقافية أو الاقتصادية أو استخلاصها منها. ويحتمل أن يكون القوس والسهم قد استعملوا في ذلك العهد للصيد. فكانت تثبت بحجارة أو اثنتان بعضا من خشب لصنع الأبنية، وكانت أخرى توضع في مكان أسفل من ذلك لصنع الحراب. ومن المحتمل أن تعود إلى ذلك العهد تهيئة السم الخاص بتلك الأسماك ذات الهياكل الحجرية. وتوحي عادات السكان الصيادين القاطنين الحالية أو الحديثة التي احتفظت ببعض تقاليد العصر الحجري المتأخر، باستعمال الشباك في المناطق المشجرة. وكثيرا ما كان يستعمل العظم إذ أن اكتشاف المثاقب الحجرية والثقابات العظمية يدل على خياطة الجلود لصنع ملابس ومخابئ. ولقد صنعت لآلئ من الحبوب والعظم، وقشور بيض النعام، وحتى من الحجارة ويحتمل أنها خيطت بتلك الملابس أو استعملت كعقود. إن الرحي التي ظهرت في بعض المجموعات من العصر الحجري المتأخر، كانت تستعمل فيما تستعمل لطحن المفرة (Ocre)، الحمراء. ولكن يبدو أيضا أنه كان لها استعمال اقتصادي أهم وذلك لطحن أطعمة نباتية.

كانت بعض النجيمات قائمة، في العصر الحجري المتأخر، في الهواء الطلق، قرب أنهار أو بحيرات، مما يستوجب أن نتصور وجود واقيات من الرياح أو أكواخ متكونة من أعمدة، ومن عشب، ويحتمل أنها كانت مغطاة بجلود. ومن العادات المشتركة أيضا في ذلك العهد الإقامة في الملاجئ تحت الصخور (تسمى أحيانا خطأ «الكهوف») توجد تلك الملاجئ الطبيعية تحت صخور شاطئية على طول بعض الأودية أو تحت صخور كبرى من الغرانيت وفي كل مكان يمكن العثور فيه على ما يحمي من المطر والرياح والعاصفة. وكانت بعض تلك الملاجئ تحت الصخور في مواقع ممتازة، على مرتفعات تسمح بمراقبة مساحات شاسعة من السهول وما فيها من حيوانات الصيد فكان يحدث لفريق من الصيادين أن يستريح بها ليلا، ولأسرة أو مجموعة من الأسر أن تستقر بها لسبب من الأسباب. وكانت بعض الملاجئ الممتازة تستعمل عاما بعد عام أو بالتناوب مدة مئات وحتى آلاف السنوات طيلة العصر الحجري المتأخر. وذلك ما يفسر الطبقات المتتالية من الحطام المتكون أساسا من رماد الطبخ، وعظام الحيوانات المستهلكة، والأدوات الحجرية وبقايا النحت. وفي منطقة من الوسط - الشمالي بطنانزانيا كان الجدار الصخري لتلك الملاجئ كلها، كما



- (١) العصر الحجري المتأخر: نصل  
مظهر (الى اليمين)؛ ونصل هلاي (في  
الوسط)؛ ومكشط (الى اليسار)،  
مصنوعة كلها من الاوبسيديان، في  
الوادي الاخمدودي في كينيا.
- (٢) آبيس روك (ناسيرا) في تانزانيا  
الشمالية. تحت الظل الواضح في  
الصورة الى اليمين كشفت الحفريات  
عن مستقرات بشرية متعاقبة من العصر  
الحجري الحديث (تصوير ج. أ. غ.  
ساتون).



لاحظنا ذلك سابقا، مزينا برسوم حيوانية، ومشاهد عن الصيد ورسوم أخرى. ولئن كان من المتعذر أن تربط تلك الرسوم الخاصة بطبقة معينة من مقطوعة من العصر الحجري المتأخر، مما يوجد بتلك الملاحيء فإن للعلاقة العامة بينها تبدو واضحة للغاية. ويبدو أن أغلب جزء من الفن الذي بقي، يعود إلى الالفيات الحديثة، في حوالي نهاية العصر الحجري المتأخر الذي يتجاوز جزء منه فترة انتشار مجتمعات العصر الحديدي. إن أصل فن الصيادين هذا وما يوافقه من معتقدات وعلم الكونيات يعود رغم ذلك إلى تاريخ قديم جدا.

إن احتمال وجود رصيد قديم من التقاليد، مضت عليه آلاف من السنين منذ مطلع العصر الحجري المتأخر، بل ربما منذ العصر الحجري الوسيط، قد يكون فيه دليل على وجوه الشبه بين فن الصيادين بطانزانيا وفي جنوب أفريقيا. وكذلك، الصناعات الحجرية بالمنطقتين، وإن كانت غير متماثلة تماما، إلا أنها تشترك في بعض الوجوه العامة (غالبا ما تدعى «ولطونية»). ولقد تبين في جنوب أفريقيا أن بعض المجموعات الحديثة من الفن الجداري وصناعات حجرية ولطونية كانت من صنع قبيلة البوشيمان<sup>٥</sup>، الذين تعيش فرق منهم عيشة الصيادين القاطنين ببعض المناطق. إن خصائصهم البدنية «سان» ولغاتهم «خوازان» أو اللغات ذات تنغم خاص (à click) تعتبر كلها متميزة. ولا توجد فعلا بأفريقيا الشرقية سوى منطقة صغيرة تستعمل فيها اللغات «ذات تنغم خاص». وهي بالذات منطقة الفن الجداري في الوسط - الشمالي من طانزانيا. إن أولئك السكان الناطقين بلغة «خوازان»، يحتفظون بتقاليد عريقة تنتسب إلى الصيادين القاطنين (٧)، وإن كانت لهم خصائص بدنية تدل على أصل «ساني» محتمل.

لا يمكن أن نفسر تفسيراً مقنعا تلك القرابة بهجرة حديثة نسبيا قامت بها قبيلة «سان» من جنوب أفريقيا. ويبدو أنه وقع في وقت ما هجرة متواصلة قام بها أولئك الصيادون القاطنون من شمال طانزانيا إلى رأس الرجاء الصالح، ثم انقطعت طيلة الالفيات الثلاث الأخيرة نتيجة لانتشار سكان لها لغات وثقافة واقتصاد مختلف عنهم، ولهم غط من العيش يقوم على الرعي والفلاحة. إن أصول هذا التبادل الثقافي في سباسب أفريقيا الشرقية والجنوبية، تنتسب بوضوح للعصر الحجري المتأخر، بل إلى مرحلة «الستيلباي» من العصر الحجري المتوسط. إن المسألة المتعلقة بهذه الأقدمية ستظل معلقة إلى أن تعرف وتدمج في المناطق المتوسطة هذه المرحلة من العصر الحجري المتوسط وصلتها بالعصر الحجري المتأخر التي تمثلها الصناعات المعروفة خطأ بالصناعات «الماغوسية». ويمكن لنا أن نلاحظ أن «الماغوسي» في أثيوبيا يأتي في مواقع عديدة مباشرة بعد الستيلباي، وهو متميز عن هذا الأخير بتنوعه الكبير.

إن هذا القول بوجود تقاليد عريقة خاصة بثقافات السباسب في العصر الحجري المتأخر، قد يفسر بعض التنوعات الجهوية الملحوظة في النصف العام من «الولطوني». وكان الأثريون، في الماضي ميلون، إلى أن يدمجوا فيه كل الصناعات التي فيها عنصر حجري صغير مطبوع، سواء بأفريقيا الشرقية أو بأفريقيا الجنوبية. ومن الممكن ألا يكون لبعض تلك الصناعات، في الأقسام الشمالية جدا من

٥ في النص المطبوع «سان» عوض بوشيمان. تعليق المراجع محمد القاسمي.

(٧) أنظر الفصل الحادي عشر من هذا المجلد.

إفريقيا الشرقية، إلا علاقات ضعيفة جداً، كما يمكن ألا يكون لها صلة بالسكان البوشميين\* بالجنوب. وفضلاً عن ذلك قد يكون من المنتظر العثور، في الأجزاء الغربية من إفريقيا الشرقية، على تقاليد متميزة، تقيم الروابط مع حوض نهر الزاير الذي ازدهرت فيه صناعات «التشيتولي» المتفرعة المقتسبة عن صناعات الغابات والمناطق المشجرة من العصر الحجري الوسيط («سغون — لو بمبي».) إلا أن تلك الروابط ليست واضحة، باستثناء رواندا.

ومع ذلك، توجد منطقة تختلف عن غيرها من المناطق، وهي منطقة الأراضي العالية وأراضي الرفت فالي بالكينيا. فمن المحقق أننا نجد بها في العصر الحجري المتأخر صناعات لها خصائص «ولطونية» وكذلك صناعات أخرى تغلب فيها أدوات صنعت على صفائح، عوضاً عن الحجارة الصغيرة. إن تلك الصناعات التي تدعى «قابسية الكينيا»، تستعمل السيج المحلي. وهي تؤرخ بـ ١٠ ٠٠٠ إلى ٥ ٠٠٠ سنة قبل الميلاد. إن أحسن مجموعة هي التي عثر عليها الدكتور لاكيي بكباز كيف قرب نكوروفي العشريينات من هذا القرن. وقد دامت هذه الصناعات المتفرعة أو المقتسبة إلى أقصى نهاية العصر الحجري ولهذا «القابسي الكيني» ارتباط بتقاليد أكثر قدماً كانت منتشرة في جزء كبير من إفريقيا بالشمال الشرقي، في منطقة البحر الأبيض المتوسط. إلا أن مقارنة الصناعة الحجرية ليست هي الأمر المهم الوحيد. فالأهم من ذلك أن نلاحظ أن «القابسي الكيني» والذين صنعوه يمثلون انتشار الحضارة السوداء نحو الجنوب الشرقي، تلك الحضارة المرتكزة على استثمار الموارد المائية. وقد امتد الانتشار إلى إفريقيا مثل الوشاح، بجنوب الصحراء، وفي أعلى وادي النيل باتجاه إفريقيا الشرقية.

وقد وقع ذلك الانتشار في رتبة مؤقتة، صعد فيها مستوى البحيرات والأنهار القوية وبلغت تلك الحضارة غلّاها نحو الألفية السابعة قبل الميلاد. وكان أولئك السكان الساحليون بصطادون الأسماك والحيوانات المائية مستعملين الرماح والمخاطافات العظمية المخصصة المصنوعة بأدوات حجرية. ويمكن العثور عليها في منطقة بحيرة أدوارد بالرفت فالي الغربي، وبحيرة رودلف وعلى الضفاف القديمة لبحيرة نكورو. إن صناعة السلات والفخار كانت معروفة. وكان الفخار يمثل أقدم الاختراعات لِحُمَي الحُزف بالعالم. كل ذلك يبين نمط عيش قارة كان السكن الرئيسي فيها على شواطئ الماء.

## العصر الحجري الجديد

إن انعدام الأدلة الأثرية جعلتنا نرى منذ سنوات قليلة أن تربية الماشية وعلى الأخص الفلاحة، كانت قليلة التطور بإفريقيا الشرقية قبل الألفية الأولى، باستثناء المواقع المحاذية لوادي النيل، والتي تنسب إلى العصر الحجري الجديد للخرطوم. ولا يزال من المجازفة بالرأي القول بأن مجموعات الصيادين الذين استقروا جزئياً ابتداء من الألفيتين السابعة والسادسة حول البحيرات الكبرى والأنهار كانوا هم السبب في نشوء الرعي وربما الفلاحة أيضاً، وذلك تحت ضغط المحيط

(سرعة انقلاب منطقة الصحراء إلى أرض قاحلة ابتداء من الألفية الثالثة)، وبفضل ما لديها من تكنولوجيا متقدمة (كانوا يستعملون الفخار). ويمكن على أية حال أن نعتبر أنهم تأثروا بتقنيات إنتاج الأغذية الجماعي (تربية الحيوانات الأليفة والنباتات) التي انتشرت بالمنطقة كلها ابتداء من الألفية الثالثة وسمحت بمواجهة أثر التغير المناخي على الموارد الطبيعية.

إن أكثر المواقع شهرة بتلك الفترة، هو موقع الشهبان بالسودان، الموجود على سطح مرتفع قديم، يبعد قليلاً إلى الشمال من ملتقى النيل الأزرق والنيل الأبيض، فلقد عثر أ. ج. أركيل، فضلاً عن الصناعة الحجرية ذات الحجيرات الهندسية، على مخطافات (مثقوبة القاعدة) وضنارات صدفية تشهد بتعاطي الصيد البحري، وقافات (Herminettes) من الريوليت، ومناقر، وفؤوس صغيرة مصقولة من العظم، وفخار منقح حسب خطوط متماوجة ومنقطة. ومن الآثار العظمية، توجد آثار الأنواع من الوحوش، أكثرها أسماك، ولكن يوجد بينها ما عر قليل جداً من الضأن. و يعود تاريخ موقع الشهبان إلى النصف الثاني من الألفية الرابعة. أما في موقع كادابرو القريب منه من حيث المكان ومن حيث الآثار المادية، فإن تسعة أعشار من البقايا العظمية هي بقايا أنواع أليفة لا سيما البقرات.

ولقد عثر في أثيوبيا، بأغردات (إريتريا) على آثار أربع قرى للأقامة النصف الدائمة. إن الأدوات، وإن كانت مقصورة على الزراعات السطحية، يوجد بينها فؤوس، وهراوات من الحجر المقصول وأوان وأساور من حجر، وفخار ذو زخرفة ناتئة، وشاريات محزوزة، وآلء، ولبريات (Laberts)، ومنجدات (Pendentifs). على أن وجود طاحونات وهراسات، وتمثال صغير من حجر يرمز لبقرة ويشابه التمثالات التي يشيدها فريق من (وهم سكان مركزهم النوبة وغربها)، كل ذلك لا يكفي كدليل على وجود اقتصاد في ميدان الزراعة والرعي. كل ما في الأمر أنه يوحي بذلك، ولقد عثر على آثار صناعة للأحجار الصغيرة الهندسية الشكل وعلى أوان من فخار وكذلك على حبوب الذرة الألفية (Eleusine coracana). وذلك يملجاً كودبرا (الألفية الثالثة)، قرب أكسوم. ولم يعثر في أي مكان من أثيوبيا على آثار قديمة لزراعة القمح (Era grostis tef) الذي ظل من الحبوب الأساسية المغذية جداً لجناس كثيرة بشمال أثيوبيا، ولا على آثار موز الحيشة (Ensete edule) الموجود بكثرة بالجنوب كما لم يعثر على القمح ولا على الشعير.

وإذا كانت الأدلة على وجود الفلاحة في الكينيا ما تزال مفقودة، فإن وجود الرعي مؤكد على طول الريف فالي، حتى طانزانيا، وبالمرتفعات العليا أيضاً. وهذه الأدلة متمثلة في مقابر (نجور، ريفر، كاف، قرب ناكورو، كرنكت كاف، قرب مولو، وهي مقابر تحرق فيها الموتى، تكون كورو كراتر، طانزانيا الشمالية، قبر تحت عذوة صناعية (Cairn)، وفيها الهيكل العظمي في وضع انطواء) رمعها أدوات «أثرية» يوجد ضمنها دائماً الطاحونات والمهارس، كما أن هذه الأدلة متمثلة في مساحات سكنية (كريسن آيلند، قرب بحيرة نايفاشا، نارسورا جنوب الكينيا) إن ٩٥% من الحيوانات المجموعة في نارسورا، حيوانات أليفة وهي تنوع كما يلي: ٥٧% من الماعز والضأن مقابل ٣٩% من البقرات. إن دراسة العظام قد بينت من جهة أخرى أن أغلبية الماشية كانت تقتل مسنة وأن الماعز والضأن كانا يقتلان وهما أكثر صغراً. ونستنتج من هذا أن الماشية كانت تربي لحليبها

(أو لدمها كما تفعل قبيلة مسئيس الحالية) أكثر منه للحمة. وهنا أيضا لا يعتبر وجود الطاحونات والمهارس الا دليلا غير مباشر على نوع من الفلاحة. ان دخول الرعي والفلاحة، المترابطين غالبا في الاقتصاد المزدوج، كثيرا ما اعتبر بالنسبة لافريقيا الشرقية على أنه ناشئ عن تأثيرين، أحدهما أتى مما أصبح الآن جنوب الصحراء، الى المنطقة السودانية، والآخر أتى من مصر الى النوبة (الخرطوم). ولقد بلغ العصر الحجري الجديد المرتفعات العالية الأثيوبية ثم انتشر نحو الجنوب اعتمادا على تحركات صغيرة يقوم بها السكان المتكلمون باللغة الكوشيتية. الا أن الانتقال الى اقتصاد إنتاجي، قد وقع، كما يقع كثيرا، بطريقة متدرجة، ولقد أتى علم الآثار بالدليل الذي يشهد بأن الطبقة السفلى قد لعبت دورا هاما في المستوى الشقافي والتكنولوجي على السواء. ولقد دام صيد الحيوانات وصيد السمك ولم تطرأ قطعة مع الفلاحة المادية الخاصة بالجماعات الصغيرة من صيادي السمك المستقرين جزئيا قبل الألفية الثالثة، والصيادين القاطنين الذين لم يكونوا يعرفون صناعة الفخار (القابسي الكيني والمنتيتي). فان كان لا يوجد الى الآن براهين على تطور الفلاحة تطورا كبيرا، فاننا نعلم أنه سبق أن وجدت وأن تربية الضأن، والماعز ثم البقرينات، قد تطورت تطورا سريعا ابتداء من الألفية الثالثة وخاصة الألفية الثانية. وعندما ازدهر العصر الحديدي من المحتمل أن يكون أولئك السكان قد تجاوزوا مرحلة ما قبل المرحلة الفلاحية.

### تقاليد صيادي السمك بإفريقيا الوسطى والشرقية

كان طقس إفريقيا، منذ ثمانى أو عشرة آلاف سنة رطبا جدا. ولهذا كانت البحيرات مترامية الأطراف وأكثر عددا. وكانت المستنقعات أكثر اتساعا والانهار قوية جدا وطويلة للغاية وبحاري المياه الفصلية أكثر انتظاما. وفي هذه الأحوال كان نموذج من العيش خاص جدا ومرتبطة ارتباطا وثيقا بالماء، والصفاف ومواردها الغذائية، التي تستدعي تقنيات متقدمة في الصيد البحري، وصنع المراكب، قد استقر بجميع نواحي القارة، من الساحل الاطلسي الى حوض النيل، فامتد على مساحة واسعة، تنحصر بين صحراء متقلصة جدا، وغابة استوائية متسعة جدا، ويشهد على تلك «الحضارة المائية»، كما نسميها، مواقع أثرية عديدة بالأراضي العالية من الصحراء والحاشية الجنوبية من الفيافي، انطلاقا من النيجر الأعلى الى أودية الانهار (رفقالي) بإفريقيا الشرقية وخط الاستواء. فلقد عثر عليها، بالرفرت الغربي في ايشنغو على الشاطئ الكونغولي من بحيرة عيدي أمين (ادوارد سابقا)، ونجد بالرفرت الشرقي مواقع مشابهة على حافة خطوط الشواطئ المستحجرة الأكثر علوا من بحيرتي تركانا وناكورو. أما الاول فيقع في قعر الانهار، وأما الثاني، الذي يقع أكثر جنوبا، فهو في الجزء الجبلي من الرفرت فالي. ان أكثر المواقع أهمية، والذي لا يبعد عن المكان الذي تتسع فيه بحيرة تاكورو، قد سمي كميلز كاف، وهو في الواقع ملجأ تحت صخرة اكتشفه حوالي ١٩٢٠م الدكتور ل. س. ب. لايبكي. ولقد وجد في أعماق الطبقات آثارا من «العصر الحجري المتأخر» الذي ينتسب الى «القابسي الكيني». ان وجود خزف متميز وصناعة عظمية خاصة، وتاريخ هذه الطبقة

الحديث (حوالي ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد) تسمح لنا بأن نعتبر «القابسي الكيني» شكلا محليا من التقاليد الكبرى التي يختص بها صيادو السمك الافريقيون.

ان ما وجد في المحميات القديمة والمنازل الساحلية من حسكات الاسماك وصدفات الرخويات، وعظام الشدييات والزواحف المائية (الجرذ، وسلحفاة القصب وحتى فرس الماء والتمساح) يوحي بملومات اقتصادية مهمة. الا أن ذلك لا يعني أن الحيوانات البرية، لم تكن تصاد هي أيضا. ويحتمل جدا أن تكون النباتات التي تغذيها المياه الجارية والمستنقعات قد زرعت بانتظام واستهلكت. وكانت تقنيات اقتناء الاغذية وتحضيرها تتميز ببعض الخصائص المتقدمة جدا، ومن ذلك رؤوس المخطافات المنحوتة في العظم (بواسطة أدوات حجرية) وأواني الخزف. وكانت المخطافات مثبتة بطرف رمح خشبي له روابط ليفية، وكانت تصلح لقتل السمك وحيوانات مائية أخرى، من الفلوكات أو من الضفءة. ولقد كان صنع الفخار جيلا، وكثيرا ما كان مزخرفا بحسكات سمكية، أو هدفات، أو رسوم تدعى «الخط المتعرج»، «والخط المتعرج المجهز». ورغم ان تحولات قد طرأت على تقاليد «الخط المتعرج» «والخط المتعرج المجهز»، فانه على غاية من الخصوصية، مما يمنع أن يخلط، في تلك المناطق الشاسعة، مع نماذج حديثة من الفخار. ويمكن أن تكون السلات التي كانت تستعمل لنقل الاسماك بعد صيدها، قد أوحى ببعض الرسوم المنققة، وكذلك بأشكال تلك الأواني الخزفية التي اتسعت فتحتها كثيرا.

ان تطور هذه الحضارة بالمواقع الموجودة على الضفاف البحرية الشرقية الافريقية، وعلى طول النيل وبالصحراء، يمكن أن يؤرخ بين - ٨٠٠٠ سنة و - ٥٠٠٠ سنة. ولقد بلغت أوجها وازدهارها في الالفية السابعة. ويبدو أن المخطافات الأولى قد نحتت قبل ذلك بقليل، بينما لا يعود اكتشاف الفخار الى أبعد من ٦٠٠٠ سنة. ان تلك الاواني ليست أقدم أواني افريقيا فحسب، لكنها تعتبر اول الفخار المصنوع بالعالم. ومن المستبعد أن يكون ذلك الاختراع قد حدث بالمصادفة فقط في مكان ما بتلك المنطقة من افريقيا الوسطى.

ولا يوجد ما يوحي بأن أولئك السكان الساحليين قد تعاطوا، منذ سبع الى عشرة آلاف سنة، الفلاحة سواء بافريقيا الشرقية أو بأماكن أخرى من موطنهم الشاسع. لكن مدى انتشارهم، والسرعة التي وقع بها، مع اعتبار التعقد التكنولوجي لهذا النوع الجديد من الحياة، تؤكد ازدهار، تلك الحضارة وإشعاعها الثقافيين طيلة تلك الفترة ذات الرطوبة القصوى. إن اعتبارها مجرد نوع من الثقافات المعتمدة على الصيد والجمع، المنتسبة الى «العصر الحجري المتأخر» معناه تجاهل خصائصها ومنجزاتها. فمن الممكن أن أولئك السكان لم يعيشوا في قرى مستقرة بآتم معنى الكلمة، الا أنها استطاعت، بفضل مواد غذائية تضمها البحيرات الكبرى والانهار، وتكنولوجيا قادرة على استغلال تلك البيئة استغلالا مفيدا، أن تنشئ. عمراننا بشريا أكثر أهمية وأكثر استقرار مما أقامه السكان السابقون. ان السكان لم يزدادوا فحسب بفضل تلك العناصر، بل سمحت هذه العناصر فضلا عن ذلك بخلق مناخ فكري واجتماعي جديد تشهد عليه الصناعات التقليدية المعقدة، الضرورية لصنع الزوارق والمخطافات والسلات والاوعية، كما أن أسلوب العيش المتطور الداعي الى استعمالها، يشهد على ذلك.

ان الدور الذي لعبته صناعة الخزف هو على غاية من الاهمية. ويبدو أنها تجاوزت ما أقره عموما



المؤرخون، وحتى بعض الآخرين. فأواني الخزف المكونة من مادة هشة، لها أهمية قليلة في المجتمعات المتحركة، التي تعوزها القواعد الثابتة، وبالتالي فإن أهميتها قليلة بالنسبة لجميع الصيادين بإفريقيا. إلا أن الخزف يحوي بالنسبة للمجتمعات المنظمة، معنى له شحنة حضارية تعبر عن طرق جديدة لتيسير إعداد الطعام وطبخه.

إن شكل أولئك السبكان الساحليين من إفريقيا الغربية والشرقية قد تطور. إلا أن بقايا الهياكل العظمية المكتشفة تفيد أن الأصل كان أساساً زنجياً (٨). ويبدو أن انتشار ونجاح المجتمعات التي تستغل الموارد المائية، منذ تسع أو عشرة آلاف سنة، قد أقر نهائياً تفوق نوع زنجي بجميع الرقعة السودانية إلى النيل الأوسط والنيل الأعلى والقسم الشمالي من إفريقيا الشرقية. ومن المحتمل أن هذا التفوق كان يتماشى مع التوسع الجغرافي، وتشتت وتنوع الأسرة الكبرى (أو الفصيلة) اللغوية التي يسميها غرينبرغ بالأسرة النيلية الصحراوية. وهي اليوم موزعة على طول المنطقة التي تبتدىء من أعلى النيجر وتنتهي بطنزانيا الوسطى. إن ذلك التوزيع يوحي بالنسبة لتلك الفصيلة المنتشرة جداً بأقدمية لها آلاف عديدة من السنوات. وهو قدم يفوق كثيراً قدم الأسر اللغوية الأخرى (مثل أسرة النيجر - كونسكو، وعدة فروع من الأسرة الإفريقية الآسيوية) التي تسربت إلى تلك المنطقة من أفريقيا الوسطى. فمن المناطق التي بقي بها النيل - الصحراوي، بما في ذلك فرع الشرق، وهو «الشاري - نيل» نذكر المناطق التي تكثرت فيها البحيرات والبرك والأنهار، أي المناطق التي استطاعت فيها حياة الصيادين المربوطة ربطاً وثيقاً باللغة النيلية الصحراوية كما نتصورها، أن تدوم كثيراً، حتى بعد أن طرأت عليها تحولات.

إن هذا العرض عن الحضارة الكبرى المزدهرة بالمحيطات المائية، وعن اللغات النيلية الصحراوية، قد ساقنا قليلاً إلى أبعد مما كان يتطلبه هذا الفصل من هذا المجلد. إلا أنه جانب مهم جداً، لم يعن به إلى الآن في تاريخ السكان الإفريقيين. وهو من الجوانب التي تركت آثاراً لا نزاع فيها في السكان التابعين، وفي ثقافتهم واقتصادهم، وذلك على مستوى عظيم من هذه القارة بما في ذلك إفريقيا الشرقية.

على أنه ابتداء من ٥٠٠٠ سنة تقريبا قبل الميلاد، حدث جفاف عام في المناخ، فنزل مستوى البحيرات نتيجة ذلك، وطرأ ركود على اقتصاد استغلال الموارد المائية. ولقد دام ذلك الاقتصاد قليلاً رغم ذلك بالرقت فالي بالكينيا. وحلّ بتلك المنطقة في الألفية الثانية أو الأولى قبل الميلاد، سكان جدد من أثيوبيا، وماشية، وربما بعض العادات الفلاحية.

(٨) الملاحظة المطردة والمتعلقة بالأصل الكوكازي لسكان «الكبي القابسي» تعتمد على تأويل باطل الأعمال لا يكي في كمبلز كاف وغيره.

## أفريقيا الجنوبية قبل التاريخ

بقلم: ج. دسموند كلارك

### البشرىات الأولى

كان داروين وهكسلي يعتبران أن المناطق المدارية، وربما القارة الإفريقية كانت مسكن الإنسان الأصلي، لأننا نجد فيها الشمينزي والغوريلا، وهما أقرب الأقارب اليه بين المقدمات البشرية. ان تلك البنجديات، وكذلك الجد المشترك للقردة الشبيهة بالإنسان وللإنسان هي من الشجزيات. أن خصائصها المرفولوجية تبين أن تطورها كان قد جرى اثناء حقبة طويلة جدا من التكيف مع الغابات المدارية، وذلك بالاراضي المنخفضة والجبال المتوسطة الارتفاع. أما الإنسان، فانه لم يتطور في الغابة بل في السباسب، ولقد عثر بأفريقيا الشرقية والجنوبية، على البشرىات الاحفورية القديمة جدا، وذلك في المروج النصف الجافة والغابات القليلة الأشجار ذات الاوراق الناقصة ويحتمل أن يكون أجدادهم قد واجهوا مشاكل خاصة للبقاء على قيد الحياة وقد توفرت لهم موارد تفوق كثيرا بتنوعها الموارد التي توفرت للقردة الشبيهة بالإنسان.

لم يحصل الى الآن اتفاق حول العهد الذي تميزت فيه فصيلة البنجديات عن أسرة البشرىات. ان الإعتماد على تأويل الشواهد الاحاثية، يفيد أن ذلك التميز قد حصل في السينوزييك القديم أثناء الميوسين الاسفل، وذلك منذ ٢٥ مليون سنة وعلى النقيض من ذلك فان الأعمال الجارية بالاعتماد على البيوكيمياء المقارنة للمقدمات البشرية (الصبغيات، بروتينات المصل، واليحمور، هيموغلوبين) والفروق في المناعة بين الإنسان والقردة الشبيهة بالإنسان وقردة العالم القديم) تبين أن التميز لم يكن سابقا لعشرة ملايين من السنوات، وحتى لاربع منها. وكان يظن أن العلامات الملحوظة على الأحفورات نفسها قد يكون أكثر اقادة. ولكن ذلك لم يتحقق بتاتا مع

الاسف. فاذا أعتبرنا أن الترتيب التاريخي الطويل صحيح، فإن الحقبة الأساسية التي كانت البشريات قد تميزت فيها تميزا محسوسا عن سلالة القردة الشبيهة بالإنسان، من الميوسين الحديث والبلبيوسين القديم (من - ١٢ مليون سنة الى - ٥ ملايين سنة) لم توفر لنا إلى حد الآن إلا أحفورات قليلة عن البشريات بافريقيا. فلم تتوفر لنا الا في آخر البلبيوسين مواد متفرقة، ويمكن أن نعتبر أن البشريات الاحفورية في تلك الفترة أمر لا يشك فيه.

أن قررنا فكريا، الأحفوري من الميوسن الحديث، أكتشف في فورتان بمحوض بحيرة فكتوريا و يعود تاريخه الى ١٢ - ١٤ مليون سنة. فلا نعرف منه مع الأسف إلا أطرافا من الوجه والأسنان، ولكن خصائص تلك الأطراف تدعوا الى تصنيفه ضمن البشريات غير أن التيقن من أن باقي جسمه ونظام تنقله لا يختلفان أساسا عما هما عند البشريات، يستوجب وجود آثار أقل تقطعا ولا سيما عظام قاعدة الجمجمة. ولذلك وجب مع الاسف أن نعلق حكما مؤقتا قبل القول بأن هذا النموذج قد تميز تميزا كافيا بصفته من البشريات: وكان قررنا راما يعيش في الغابات الشبيهة بالسرداب وفي مجاري المياه والسباسب وذلك في وقت كانت فيه الغابات الدائمة التي لم يبق لها أثر الا بمجنوب المنحدر الكبير من جنوب افريقيا، أوسع مما هي عليه اليوم. ولما كان وجود قررنا راما ثابتا بافريقيا الشرقية وبالشمال الغربي من الهند، فهو إذن محتمل الوجود بالسباسب من افريقيا الجنوبية.

ان الإشارات الاولى التي تدل دلالة قطعية على وجود البشريات تعود الى خمسة ملايين سنة، وهو عهد كانت فيه قردة الجنوب، أو (البشر القردة) موجودة بالقسم الشرقي من الوادي الكبير من الرفت. ان أولئك البشر القردة كانوا يقيمون بسباسب افريقيا سواء الجنوبية أو الشرقية ويعتقد أن أقدم أحفورات افريقيا الجنوبية ترجع الى آخر البلبيوسين أو البليستوسين القديم، أي - ٣٥٠ الى - ٣ ملايين سنة.

لقد عرف أكبر جزء من الحقبة الجيولوجية للبلبيوسين مناخا قارا نسبيا قد يسهل تطور وتوسع انواع متكيفة بيولوجيا في السباسب. ولقد قضى على ذلك الاستقرار النسبي انخفاض الحرارة العام، والانقلابات البنوية والظواهر البركانية، وذلك على طول الوادي الكبير من الرفت خاصة، وطرات في ذلك العهد تغيرات عظيمة أحيانا على نظام تصريف المياه الخاص بعدد من الأحواض النهرية والبحيرية وذلك أثر التواء بنوي بالقشرة الأرضية. ووافقت الحرارة المنخفضة التي تدل على بداية البليستوسين نقصا في نزول كميات الامطار وتخففا، مما جعل أدغال كرو تتوسع كثيرا بافريقيا الجنوبية على حساب المروج والغابات.

ان هذه التغيرات الهامة بالمناخ وبالمحيط قد فرضت على البشريات تعديلات مهمة وتنوعا في الشكل مصاحبا دعت اليها ردود فعل بغية التكيف مع الضغوط الجديدة بتلك البيئة (١) فن الشابت أن جد البشريات (سواء أكان ذا أربع أرجل أو رجلين) لما فارق الغابة في ذلك العهد نحو

(١) تعتبر لنغافينغ، بافريقيا الجنوبية، غربي مقاطعة راس الرجاء، الجهة الوحيدة المهمة التي وفرت أحفورات من ذلك العهد. فالموقع ليس بعيدا عن الشاطئ، والمحيط هو محيط أرضي ومصب نهر. وتوجد به حيوانات ثديية افريقية وافرة أشكالا عتيقة، يقدر تاريخها بـ ٣ الى ٥ مليون سنة. فان لم يثر بها على أثر بشري، فانه توجد بها أحفورات مقدمات بشرية ويحتمل أن تكشف أعمال آتية في لنغافينغ عن آثار بشرية يمكن مقارنتها بالآثار الموجودة بافريقيا الشرقية من نفس العهد.



● ١ توزيع مواقع فورسميث (الدوائر المفرغة) والمواقع السانجوية (الدوائر المصمتة) في أفريقيا الجنوبية (شكل ٢١ في كتاب «ما قبل التاريخ في أفريقيا» (بالإنجليزية) مؤلفه ج. د. كلارك، ١٩٧٠، دار نشر تيمس وهندسون، لندن).

● ٢ مواقع الإنسان في عصر البليستوسين الأعلى (الدوائر المصمتة) وبعض مواقع الإنسان الأحفوري في عصر ما بعد البليستوسين (الدوائر المفرغة) في أفريقيا الجنوبية (شكل ٢٥ في الكتاب المذكور في تعليق الصورة رقم ١ أعلاه).



السباسب، وذلك في فترة من البلوسين، وربما قبل ذلك، كان قد خضع لتطور وراثي سريع نسبيا يسمح بتكيفه مع ظروف بيئية جديدة. ولذلك يمكن لنا بالنسبة للبليستوسين الأسفل أن نضبط ثلاثة أشكال متميزة من البشرات بافريقيا الجنوبية، يحتمل أنها كانت من نفس النوع، وكانت متكاثرة فيما بينها.

أن أول أحفور عن الإنسان القرد، وهو طفل، وقد استخرج سنة ١٩٢٤م من ثغرة مسدودة بالكلس بكهف، وذلك في تنغ، شمال مقاطعة رأس الرجاء الصالح بجنوب افريقيا. وفي ١٩٣٦م عثر على أول انسان راشد، في الترسبات القديمة بأحد الكهوف، ولكن هذا الإكتشاف وقع في هذه المرة بولاية ترانسفال، بمنطقة كروغزدر. ولقد عثر منذ ذلك الحين على بشر قردة عديدين وعلى بشريات أخرى بالإعتماد على أعمال جماعية مكثفة، قد أجريت في مستوى الرواسب التي جمعها المياه بمحوض الرفت بافريقيا الشرقية وبالكهوف العميقة من النجد الكلسي بجنوب افريقيا التي كانت فيها الاحوال تساعد على المحافظة على الأحفورات من ذلك العهد.

وباستثناء تلك المناطق، فإن الاحفور الآخر الوحيد الذي نسب إلى الإنسان القرد، أصله من كوروتورو بمحوض بحيرة التشاد. إلا أن هذا النموذج يعتبر أكثر حداثة. ولهذا فإن كان عدد كبير من الأحفورات الإنسانية القردية معروفا، فإن أماكنها الأصلية محدودة. وقد عثر على الاغلب منها في كهوف جنوب افريقيا، وفي مناجم الرفت فالي، لأن الأحوال المناسبة للمحافظة على الأحفورات العظمية قل أن تتوفر. إن حوض التربة، والإجتراف، وعوامل أخرى قد منعت المحافظة عليها في مناطق كثيرة بافريقيا، مثلا بالغابات الكثيفة بافريقيا الغربية. إلا أن ذلك لا يمنع من أن نعتقد أن أنواعا عديدة من البشرات المتميزة كانت منتشرة منذ مليونين أو ثلاثة ملايين سنة، بالسباسب المدارية. أما في إفريقيا الشرقية، فإن تاريخ الأحفورات يزداد دقة بالإعتماد على الطرق الراديومترية وعلى تاريخ التعاكسات الاحاتية المغناطية. ولم تؤرخ أحفورات جنوب افريقيا الى الآن الا بحساب التاريخ النسبي استنادا الى مقارنات أحاتية وجيومورفولوجية. إن آخر الدراسات المعتمدة على الخنزريات والفيلة والضباع، توحي بأن أقدم الأحفورات بترنسفال تؤرخ على الأقل بمليونين ونصف مليون من السنوات. إن ثغرات الكهوف التي وفرت هذه الأحفورات، وكذلك مقالع الجص في ماكابان والمنجم النموذجي في ستر كفونيابين، تشمل بعض الأنواع الثديية الموجودة بالمجموعات الحيوانية بافريقيا الشرقية. فهي توفر خصائص مرفولوجية تشابه خصائص أحفورات الحدود البليو-بليستوسين.

إن أقدم البشر القردة بجنوب افريقيا كانوا في أكثرهم من ذوي مرفولوجية ممشوقة (الإنسان القرد الإفريقي). إن معدل قامتهم ١،٤٠ من المتر، وكانوا عمودي الإستقامة، وكانت أعضاؤهم السفلى ملائمة للمشي على الرجلين تماما، وكانت أعضاؤهم العليا متخصصة لاستعمال الأدوات. وكان الرأس متمركزا في قمة العمود الفقري القائم على حزام حوضي له شكل إنساني تماما. وتقرب السعة الجمجمية عندهم من سعة جمجمة الغوريلا (٤٥٠ الى ٥٥٠ سنتم مكعب) أكثر مما تقرب من سعة جمجمة الإنسان العصري، وإن كان هيكل ما وراء الجمجمة والاسنان يوحي بشكل إنساني تماما. إلا أن الوجه كان قديا، والقسم الأسفل أدق (Prognathe)، والوجنتين بارزتين،



ويعملو الوقبين انتفاخ كبير وتدل نقاط الارتباط بين عضلات العنق وعضلات المضغ على ان هذه العضلات الأخيرة كانت قوية جدا.

وفي المناجم الأكثر حداثة بكهوف سوارنكرنس وكرومداري (ومن المحتمل جدا في تنغ، كما يظن اليوم) فإن النوع الغالب هو أكثر قوة (الإنسان القرد القوي). ان الامر يتعلق بافراد أثقل بكثير، يزنون ٦٨ كلغم. ويختص الذكور الكبار بعرفين عظميين، أحدهما بقمة الجمجمة والآخر بقاعدتها، ويسمحان بالربط بين العضلات القوية للعنق والعضلات الماضغة. وكان يعتقد على العموم أن كل الأشكال الأكثر قدما كانت ممشوقة (الإنسان القرد الإفريقي) وأن أحدثها كانت قوية (الإنسان القرد القوي). إلا أن دراسات أنثروبومترية حديثة تبين أن الفارق ليس واضحا بقدر ما كنا نعتقد. ومن المعلوم اليوم أن النماذج القوية المشوقة قد تكون متعاصرة. وذلك هو الشأن بأحد مناجم جنوب إفريقيا على الأقل (مأكابن). وكذلك الشأن بالنسبة للبليستوسين الأسفل بأفريقيا الشرقية. إن الأحفورات المجموعة بتلك المنطقة تفيد أن الاختلاف الطارئ على السلالتين انطلاقا من سلف مشترك مشوق، كان قد وقع منذ ٥ ملايين سنة.

واكتشفت حديثا، أي سنة ١٩٧٢م بالشمال الشرقي من بحيرة تركاننا، جمجمة أحفورية (سعتها: ما يقرب من ٨١٠ سنتم ٣)، وعظام طويلة وقطع جمجمة أخرى وما وراء جمجمة تورخ - ٣٠ الى - ٢٦ مليون سنة. ولتلك الآثار صلات عديدة بالإنسان وتشهد بخصائص (لا سيما بالوجه والاسنان) تربطها بالإنسان القرد. واكتشفت بمناجم أخرى من إفريقيا الشرقية، لا سيما بفج أولدوواي (طانزانيا) أحفورات أخرى تنسب إليها، لها سعة جمجمة كبرى، وتصنف سواء كقرد جنوبي متطور أو كإنسان قديم (أي الإنسان الماهر). ويمكن أن نورخها بين - ٢ و - ١٧٥٠ مليون سنة (٢) ويحتمل أن يكون وجد شكل قديم من الإنسان في نفس العهد بأفريقيا الجنوبية. فلم يبق إلا أن نكتشف أحفوراته الخاصة به. ويصبح هذا الاحتمال ممكنا إثر الإكتشاف الذي وقع بهدر سنة ١٩٧٥م، بالجنوب الاثيوبي من الرفت فالي، المعروف بثلاث عفر، فعثر على أحفورات بشريات يعود تاريخها إلى ٣ ملايين سنة. ويقترح الدكتور د. يهنسن أنه يمكن أن ينسب الافراد الاثنا عشر إلى ثلاثة ضروب متميزة أولا بشري رشيق يمثله هيكل عظمي حفظ حفظا جيدا، وثانيا شكل قوي يشابه الإنسان القرد القوي وثالثها شكل ضبط بفكه الأسفل وفكه الأعلى، وهو أقرب إلى الإنسان العارف. فان تأكد هذا، فهو يعني أن سلالة الإنسان، قد تميزت عن الإنسان القرد منذ ٣ ملايين سنة.

## نمط عيش البشريات الأولى

بالرغم من أن عددا من الأحفورات البشرية للإنسان القرد قد اكتشفت بكهوف جنوب

(٢) يعتبر الآن ان القطعة الوجهية والحلك الموجودين بشونغ، بحوض بحيرة برنكو تعود الى أكثر من ٣ ملايين سنة. ونظرا الى أن تلك القطع لها بعض خصائص تقترب من خصائص الإنسان (وهو نوع غير عدد)، يمكن أن تكون غير بعيدة عن العهد الذي بدأت فيه سلالة الانسان تميز عن الإنسان القرد.

إفريقيقا، فن المستبعد، بل من المستحيل، أن تعتبر المواقع التي وجدت بها هي مواطن إقامتها. لقد مضى زمان كان يعتقد فيه أن الكهوف العميقة الكلسية بترنسفال كانت مساكن للبشرىات، وأن العظام التي تحوها كانت بقايا حيوانات جلبتها البشرىات لتصنع منها أسلحة أو وسائل أخرى. لكنه يمكن أن يكون نتاج تلك «الصناعة العظمية الإنسانية القرنية» بقايا طعام قد تركها بعض أكلة اللحوم. فلقد بينت دراسة دقيقة للبقايا الحيوانية بمنجم سوار تكرنس أن تراكم أحفورات الإنسان القرد وثدييات أخرى بالكهوف يمكن أن تكون ناشئة عن أسباب مختلفة أوضحها في هذا الصدد ما كانت تنهت آكلات اللحوم الكبيرة، ولعلها الفهود أو النور. لكل الاتفاق في شأن هذه النقطة لم يتحقق (انظر الفصل ١٧، القسم الثاني).

ونظرا الى أن كل مادة معرضة سريعا للتلف، الا اذا توفرت ظروف استثنائية، فلم تحفظ الا أدوات الإنسان الاولى التي صنعت من حجر. والحقيقة أنه لم تكتشف اية أداة حجرية لها هذا الوصف، بشغرات الكهوف التي وجدت بها أحفورات أقدم البشرىات بمنجوب إفريقيقا (ماكبن، ستر كفتاين) وان عرفت أدوات حجرية في مناجم ثلاثة للبشرىات بإفريقيقا الشرقية قدر تاريخها بمليونين ونصف من السنوات قبل الميلاد أو أكثر. ولقد كانت مواقع الإقامة بإفريقيقا الشرقية قريبة من بحيرة أو من مجرى يصب في بحيرة. وهي تعرف بما يتجمع فيها من العظام والأدوات الحجرية. ان تعدد الأنواع، وعدد الحيوانات التي تشهد بها العظام المهشمة تشيها كليا الموجودة بتلك المناجم، تجعلنا نتيقن أننا إزاء آثار نشاط جماعي (الصيد/أكل الجيف) قامت به البشرىات التي كانت تستعمل الأدوات الحجرية لتقطع من بين ما تقطع اللحم والعظام والنباتات التي كانت تمثل القسط الأوفر من غذائها. ان تنوع تلك الآثار وحالة حفظها يجعلنا نفكر في أن تلك المخيمات قد احتلت مرات عديدة لا إثر وقفة عبور. الا أننا نعرف أيضا «مواقع للذبح» عثر فيها على بقايا حيوان واحد كبير الحجم اشتركت مجموعة في تقطيعه. ان المساحة المحدودة على العموم، والتي وجدت البقايا المتروكة بالمخيمات توحى بأن المجموعة كانت قليلة العدد ولا تشمل أكثر من أسرتين او ثلاثا. أما دور القتالين الهابن الذي كثيرا ما ينسب الى البشرىات الاولى، ففيه خلاف، إذ من المحتمل جدًا أنهم، في سعيهم للحصول على غذائهم من اللحم، لم يكونوا أكثر عدوانية من الحيوانات أكلة اللحوم الاخرى. ولا شك أنهم كانوا أقل منها عدوانية، لأنهم لم يكونوا مربوطين باللحم فقط، بل كانوا يستعملون أيضا الموارد النباتية. لكن من الواضح أن تنظيم الصيد هو الذي دفع البشرىات الى ابتداء نظام اجتماعي اقتصادي أكثر هيكلية. وذلك ما فعلوه اعتمادا على مهارتهم في صنع أدوات لها أهداف محددة. ففي إفريقيا الشرقية تبين آثار مخيماتهم التي يجلبون إليها بانتظام نتاج الصيد والجني. أن البشرىات من البليوسين الأخير والبليستوسين الأسفل. كانوا حسب يدو منظمين حسب فرق إجتماعية يخضع تركيبها لتغيرات كثيرة. ان توزيع الطعام، وكذلك المدة التي يخضع فيها الصغار لأهلهم من أجل تغذيتهم وتكوينهم (مثل الطفل حاليا) كانت تضمن وحدة تلك الفرق ويحتمل أن يكون الصيد واستهلاك اللحوم قد جعل البشرىات الأولين يصنعون الحجر لإنتاج شظايا حادة، لأن الصيد كان يستوجب تنظيما وتوصلا ناجعين بين المشاركين، وذلك من شأنه أن يقود في النهاية الى تطور الكلام. فلقد وقع في ذلك العهد تقريبا تقسيم الأشغال بين الرجال والنساء، فكان الأولون يصطادون وكانت النساء تهتم بالجني وبرعاية الأطفال.



فان كانت كهوف ترنسفال لم تصلح مسكنا للبشرىات بل كانت مستودعات لغذاء أكلة الاحوم - وربما كانت البشرىات نفسها من ضحاياها - يحتمل ان الناس القردة قد كانوا عاشوا بالقرب من تلك الأماكن، لأنه عثر بالثغور الأكثر حداثة من مجموع كهوف ستركفنتاين (سوار تكرنس، ستركفنتاين، اكستشين سايت، وكرمداري) التي يمكن أن تؤرخ بـ ١٥ مليون سنة، على أدوات حجرية بدائية، ممزوجة بالاحفورات. لقد صنعت تلك الادوات من صخور توجد بالاماكن المجاورة القريبة من الكهف. وهي حصاة من الصوان، والمرو، والدياباز، ولعلها مجلوبة من نخيم مجاور.

ان أكثر بقايا البشرىات الموجودة بالثغرات الحديثة من سوار تكرنس وكرمداري تنتسب إلى الإنسان القرد القوي. والرأي السائد انه كان صانع تلك الادوات. وينطبق نفس الشيء على ستركفنتاين (اكستشين سايت). الا أنه اكتشفت بترسب سوار تكرنس قطع عظمية من جمجمة ومن بعض العظام من وراء الجمجمة تنتسب للإنسان العارف، ولا شك أن الأمر يمكن أن يستدعي نسبة تلك الادوات اليه. وذلك لا يمنع ان الناس القردة كانوا قادرين على صنعها. فلقد بينت تجربة طريفة أجريت حديثا ببرستل أن قردا اورنغ - اوتنغ صغيرا كان قادرا على إنتاج شظايا يحصل بها على القوت بعدما لقن الطريقة وبعد أن أدرك ما يمكن أن تستعمل له. ونظرا إلى أننا نجد في افريقيا الشرقية والجنوبية أحفورات لأناس قردة وللإنسان في نفس الأماكن وأنهم كانوا يعيشون في مناطق بيئية متشابهة، بل متماثلة، فيحتمل أيضا أن يكون الإنسان القرد القوي قد اكتسب المهارة الكافية لصنع أدوات بسيطة تشابه الادوات التي تنسب إلى أقدم الصناعات المعروفة، أي الأولدوواي، وإن كنا نشك ان كانت له الملكة الذهنية لصنعها لأن صنع الادوات كانت بحسب أشكالها القديمة المنسوبة للإنسان (الماهر وغيره) تعود الى مليونين ونصف مليون من السنين.

## الادوات الحجرية الأولى: الصناعات الأولدووائية

رغم أن أدوات الإنسان الاولى التي بلغشنا كانت من حجر، فلا ننس أن أدوات أخرى خشبية وقرنية، وعظمية، وجلدية الخ، كانت أيضا مستعملة. ويحتمل أن حقبة استعمال الادوات التي لم تتغير فيها الا قليلا أشكال الأشياء المناسبة لها، كانت قد سبقت الصنع المقصود مع العزم على إنتاج عدد صغير من أنواع الأدوات المعينة بالإعتماد على مواد، قد لا تصلح للاستعمال ان لم تحور. ان شكلها كان قابلا، بعد التقطيع أو أي تحويل آخر، ان يتحسن بالتسوية. فلقد كانت أدوات الحجر من البداية تشهد على قدرة البشرىات على نحت المواد وعلى استيعاب قواعد تقنياتها.

لقد سميت أقدم الصناعات الحجرية المعروفة في العالم كله بالصناعات الاولدووائية نسبة الى فتح أولدوواي بيطانزانيا. ويعود تاريخ أقدم نماذج افريقيا الشرقية إلى ٢٥ مليون سنة (٣). ومن

(٣) أرخت أدوات التنف (ك. ب. س) بكوي فوراً ب ٢٦ مليون سنة حسب طريقة ك/از (البوتاسيوم/ارغن) لضبط البتاريخ. الا أن نتائج حديثة، وكذلك التوافقات الحيوانية مع تشكل شنجورة في أومو، وتشكل كوي فوراً ببحيرة تركانا توحى بأنه بولغ في قدمها وأنه يصح أن تؤرخ بـ ١٨ مليون سنة.

الممكن أن تكون بعض الاكتشافات الموجودة بالحصباء النهرية القديمة (حصباء فال أو الزمين) أو على الشواطئ الصخرية الجافة بسواحل إفريقيا الجنوبية، تنسب أيضا إلى ذلك العهد نفسه. ولما كانت تلك الأدوات لم يعثر عليها ضمن طبقة أرضية متصلة بعناصر تسمح بتأريخها، فلا يمكن لنا أن نطلق حكما في شأن قدمها، إذ يمكن ألا تكون قديمة جدا. وكان من المنتظر أن يشتمل رقت المولوي، مثلها هو الشأن في الوادي الكبير لرفت إفريقيا الشرقية، على أدوات من ذلك العهد، وعلى عدد متساو من أحفورات البشريات. لقد وفر الطرف الجنوبي من المولي فعلا مجموعة من الآثار الحيوانية التي يعود تاريخها إلى البليو-بليستوسين، وهنا يشكل الصلة الوحيدة المهمة بين آثار الشرق والجنوب من إفريقيا. إلا أن تلك المنطقة، لم يسكنها الإنسان وذلك لأسباب غير معروفة بعد، إلا مؤخرا. ولا نجد بها إلا آثار قليلة عن المقدمات البشرية، وذلك بالرواسب من تلك الأحواض العميقة بالغور الجنوبي.

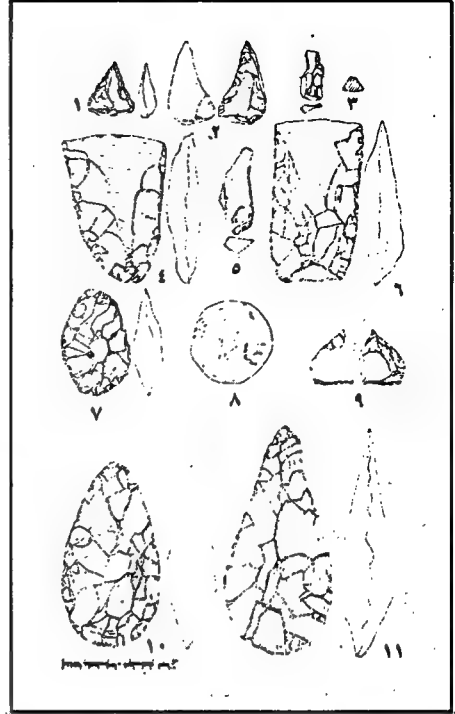
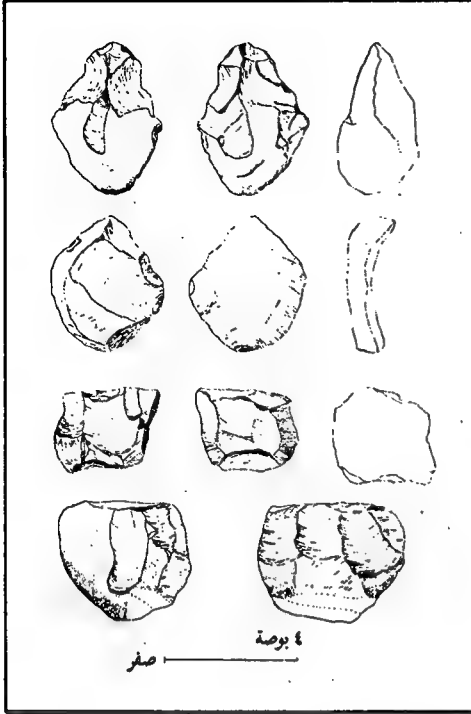
إن الأدوات التي عثر عليها في المناجم الحديثة للإنسان - القرد (سوارتكرنس، ستر كفتناين «اكستشين وكرمادري»)، قرب كرو غردرب توفر أنواعا مختلفة. فنها سواطير صنعت بنزع شظايا من وجه أو وجهين من حصاة أو كتلة صغيرة للحصول على حافة قاطعة غير منتظمة. ومنها صفحات عليها آثار قرع تدل على الصنع بالطرق العنيف، ومنها أدوات قاعدتها منبسطة وحافتها معكوفة منحنية لها حافة حادة مكشطة ومنحوتة في جزء من دائرتها، ومنها شظية للتقطيع والتجزئة، ومنها بقايا حجرية قطعت منها تلك الشظايا قصدا. إن الشظايا والبقايا المنحوتة قليلة بصورة عامة في ستر كفتناين اكستشين وسوارتكرنس، وتلك حجة أخرى للافتراض بأنها لم تكونا موطن إقامة. إلا أنه على قدر ما يتقدم الحفر الشامل للثغرات بالموقعين و يبرز مجموعات أكثر اكتمالا، من المنتظر أن نعلم أكثر مما نعلم عن أدوات البشريات الأولى.

إن أدوات جنوب إفريقيا تمتاز، بالمقارنة مع صناعات مناجم إفريقيا الشرقية بخصائص قريبة إلى صناعات الأولد وواي الحديث أكثر من صناعات القديم منها. ولذا فهي تنتمي إلى الأولد وواي المتطور. إن الأولد وواي المتطور الأكثر قدما بإفريقيا الشرقية يعود إلى ١٥ مليون سنة ومن الشابت اليوم، باعتبار الحيوان الأحفوري، أن مناجم الإنسان القرد الحديث بجنوب إفريقيا ترجع إلى نفس العهد (٤). ولذلك توجد سلالتان متميزتان جدا من البشريات. أولهما سلالة الإنسان القرد القوي وثانيتهما تناسب النماذج الأولى من السلالة الحقيقية للإنسان.

## المركب الأشولي

برزت في ذلك العهد تقريبا صناعة ثانية تدعى الصناعة الأشولية، تختص بأدوات قاطعة كبيرة تعرف باسم ذوات الوجهين والقدومات. إن تلك الصناعة تتميز عن صناعة أولد وواي بكبر حجم الأشياء التي صنعت من شظايا كبيرة يستدعي قطعها من كتل أو من فخر القوة والمهارة، وعلى

(٤) لقد أعلن الدكتور س. ك. براين حديثا أن أقدم ثغرة تحوي بقايا الإنسان القرد والإنسان، يمكن أن تقسم حسب مستويين. المستوى ١، وهو أقدمها، وقد عثر فيه على الإنسان القرد القوي والإنسان العارف وعلى أداة واحدة من الحجر لا شك فيها. أما المستوى ٢، وهو أكثر حداثة، فهو يحوي الإنسان العارف وصناعة حجرية تشتمل: قدومين أشولين ويعود تاريخ هذا المستوى ٢ إلى ٥٠٠٠٠ سنة (س. ك. براين - رسالة شخصية).

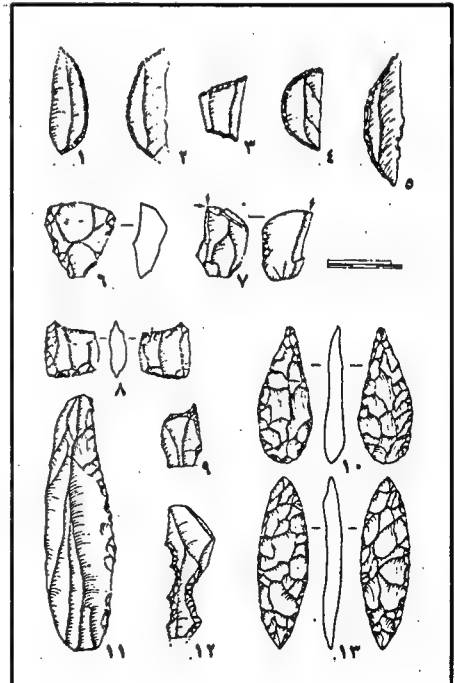


١ • الاشولي الادنى، ستير كفونتين: أدوات ثنائية الوجه، مشقطة مكعبة الشكل ونويات (شكل ٨٣ في كتاب «ما قبل التاريخ في الترنسفال» مؤلفه ر. ماسون، بالانجليزية ١٩٦٢، مطبعة جامعة ويتواترسراند، جوهانسبرغ).

٢ • أدوات من الاشولي الاعلى، مساقط كالامبو. الادوات الكبيرة من الكوارتزيت والصغيرة من السيليكس الاسود:

١ - مكشط محذب، ٢ - مكشط مقعر، ٣ - مكشط مبسن، ٤ - فأس ذات أشواك متناثرة الاتجاه، ٥ - سكين مشقطة ذات حواف مثقفة، ٦ - فأس ذات أشواك متوازية، ٧ - أداة بيضاوية ذات حدين، ٨ - أداة كروية، ٩ - غرزن، ١٠ - أداة بيضاوية ذات حدين وشكل مستطيل، ١١ - أدوات بيضاوية مسحوبة ذات حدين. قبل الزمن الحاضر بأكثر من ١٩٠٠٠٠ سنة.

٣ • أدوات من مواقع هوو يسونسبورت: ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥: قطاعات من دائرة ذات حافة مشطوفة، ٦ - نواة ليقالوا، ٧ - ازميل، ٨ - أداة قشر، ٩ - مشقاب، ١٠ و ١٣ - مخارز أو ابر ذات وجهين، ١١ - مكشط، ١٢ - مكشط ثنائي. والعينات ٢ و ٣ و ٥ من هوو يسونسبورت، أما العينات الاخرى جميعا فهي من مغارة النفق الشكل ٨٤ من كتاب «أركيولوجيا العصر الحجري في أفريقيا الجنوبية» بالانجليزية «تأليف س. ج. سامبسون، ١٩٧٤، المطبعة الأكاديمية، نيو يورك».



العكس من هذا، فإن الأدوات الأولدووائية يمكن أن نضعها في كف اليد، وأن نضعها بين الإبهام والأصابع في الأعمال الدقيقة. لقد اعتبر الأولدووائي المتطور والأشولي صناعتين متعاصرتين تكتشفان أحيانا في شكل أولدووائي محض أو أشولي محض، وأحيانا متمازجين حسب نسب متغيرة في نفس الموقع. ولقد أولت تلك التقاليد التكنولوجية تأويلات متنوعة. ويقال إنها من صنع البشرات المنتسبة إلى أنواع مختلفة أو أنها نتاج نشاط متنوع يستدعي أدوات مختلفة تناسب سلوكا متميزا (انظر الفصل ١٩). إن تلك التقاليد مازالت قائمة وهي موجودة في مركبات عديدة إلى حوالي ٢٠٠ ٠٠ سنة أي بعد مدة طويلة من انقراض الإنسان القرد القوي الذي كان سببه الصراع مع الإنسان ونحن نفضل أن نفسر ذلك النوعين من الأدوات المتميزة باختلافات ناشئة من نشاط أو من طريقة استثمار للموارد، أو باختيارات مركزة على ميول شخصية علما بأن الأهالي من البشرات كانوا يصنعون تلك الأدوات بحسب الظروف. إن بروز الأشولي بصورة مفاجئة نسبيا يبين إذن أن موارد جديدة أصبحت تستغل، أو أن طرقا محسنة قد أدت لاستعمال الطرق التي كان الإنسان يستعمل فيها أدوات من النوع الأولدووائي.

إن المجموعات الأولى بجنوب إفريقيا المنتسبة إلى الأشولي والتي يمكن أن تكون معاصرة للإنسان العارف والإنسان القرد القوي بسوار تكرنس، أصلها من منجمين متجاورين موجودين حيث يلتقي نهر «فال» برافدة كليب، قرب فرينجنج وهي موجودة بحصاء لسطح يرتفع بعشرة أمتار فوق النهر الحالي. وكثيرا ما تكون الأدوات ملساء، أي عولة وليست في إطارها الأصلي، وتوجد بتلك الأماكن مجموعة من تلك الأدوات المتكونة من ذوات وجهين حادة أنجزت بنزع عدد من شظايا كبيرة وقدموات وصفحات وحصاة مهياة، ومكاشط مصنوعة من بقايا حجرية، وعدد من الأدوات المركبة على شظايا مسواة بعض الشيء، ومن بقايا حجرية وفضلات النحت. وكلها تدل على استعمال تقنية القارع الصلب. ولهذا فهي توافق الإبفيلي الأوربي. ويبدو أن وجود شكلين يشابهان ذوات الوجهين بمنجم ستر كفتناين اكتشفتين سائت، يفيد أن ذلك المنجم ليس بعيدا جدا من حيث الزمن عن مناجم كليب (ثري ريفرز و كلييلادريف) ويظهر أنه عثر على مجموعات أخرى تبدو قديمة وذلك بأماكن مختلفة من إفريقيا الجنوبية، مثلا بالسطوح النهرية القديمة بستانلنوغ، بمقاطعة رأس الرجاء، أو بجوار لفنستون بزامبيا، ولكنها غير كاملة ولم تؤرخ تاريخيا مضبوطا.

وفي ما بين مليون سنة، و٧٠٠٠٠ سنة حل محل سلالة الإنسان البدائي (الذي يمثله جمجمة ١٤٧٠ بكوي فوراً، بشرق بحيرة تركانا، وأحفورات الإنسان الماهر بفج أولدوواي، بحوض أمو ومناجم أخرى). حل محلها نوع أقوى له سعة جمجمة أكبر ويعرف باسم الإنسان المستقيم، وفي نفس ذلك التاريخ، وربما قبله بقليل، كانت المجموعات البشرية قد انتشرت بسرعة نحو إفريقيا الشمالية، وخارج إفريقيا، نحو أوروبا وآسيا. ولذلك نجد أحفورات وبقايا ثقافية للإنسان المستقيم بمناطق عديدة من العالم القديم بعيدة جدا عن بعضها. لقد أصبحت أحفورات الإنسان المستقيم بإفريقيا معروفة بفضل ما توفر من آثار في القسم الأعلى من باد ٢ من ختن أولدوواي (وبه شكل له مخ متطور) وكذلك بفضل مكتشفات ملكا كنتوري بأثيوبيا ومناجم الساحل والداخل من إفريقيا الشمالية الغربية. وبالمغرب العربي، حيث تتصل بصناعات الأشولي القديم ويحتمل أن الإنسان المستقيم، كان بإفريقيا الجنوبية، صانع تلك الآثار الأشولية، إلا أنه لم يعثر على أحفور واحد.

ونستوعب في ملاحظة تكاثر المناجم الدالة على زيادة عامة في عدد المجموعات البشرية وكميتها وذلك بأفريقيا الجنوبية والأماكن الباقية من القارة إثر بروز الأشولي الحديث أو المتطور. ومن الممكن أن تكون ندرة المناجم المنتسبة إلى أزمنة أبعد، عائدة جزئياً إلى الندرة النسبية في الرواسب المحفوظة المؤرخة لذلك العهد، ولكن هذا ليس هو السبب الرئيسي الدال على الزيادة الواضحة في عدد المناجم الأشولية الحديثة ولا على توسعها الجغرافي الكبير. وذلك ورغم أننا نعرف مناجم عديدة (منها منجم ٣٨٩ بمجنوب أفريقيا بأطلس ما قبل تاريخ أفريقيا. وقد وفرت أغلب الشبكات النهرية المستكشفة مجموعات متواصلة من ذوات الوجهين وقدمات خاصة) ولم نجر الحفريات إلا في القليل منها، وقل أن وجد البعض منها في أماكنها الأصلية (٥) ولوبقيت في أماكنها لاحتفظت الأدوات بأوضاعها، ولبقيت كثير من الآثار السكنية بعد أن فارق الموقع ساكنوه.

إن المناجم المحفورة توحى بتنوع مواطن السكن وبعض جوانب سلوك الإنسان الأشولي، ولم يؤرخ أي واحد من تلك المواقع تاريخاً دقيقاً لأنها كلها تتجاوز المدى الذي يصل إليه الراديو كربون ولأن الصخور أو الرواسب التي لها بها صلة لا تخضع لطريقة البوتاسيوم-أرغن ولا للترتيب التاريخي المعتمد على التماكسات الأحائية المغناطية. ويعتبر منجم كلمبو فولز أكثر المناجم شمالاً، بمحدود زامبيا ووطنانزانيا (إفريقيا الوسطى) حيث ساعدت أحوال استثنائية على المحافظة على الخشب بمستويات متعددة من مواطن الإقامة. ويمكن ضبط تاريخ ذلك الخشب. ولقد توفر لنا بالنسبة لعينة من إحدى تلك المناجم وبالاعتماد على طريقة مرازمة الحوامض الأمينية، تاريخ سابق لـ ١٩٠٠٠٠ (ج بيدا، رسالة شخصية). إن ذلك التاريخ يوافق تاريخ اسميلة، بوسط طانزانيا، حيث أرخت مجموعة أشولية طبقية بـ ٢٦٠٠٠٠ سنة، بالاعتماد على طريقة الثريوم - أورنيوم. ويحتمل ألا تتجاوز أية واحدة من تلك الصناعات - ٧٠٠٠٠٠ سنة، وهو عهد انتهت فيه الحقبة الكبرى من المغناطيسية المعاكسة وهي حقبة ماتوياما. ولا يمكن أن تكون تلك الصناعات قد وجدت بعد - ١٢٥٠٠٠ سنة، وهو بداية الحقبة الأخيرة ما بين جودية (أيمية) التي ظهرت فيها صناعات أكثر تطوراً. فهي تنتسب أساساً إلى عهد يسمى البليستوسين الوسيط.

وكان الباقي من مواطن السكن بشلالات كالمبو موجوداً على كتيبان من الرمل المحاذي للنهر، ومن المحتمل أن يكون بداخل الغابة الاستوائية التي كانت تغطي الضفتين في ذلك العهد. إن دراسة اللقاحات تبين أن الحرارة كانت في بداية الأشولي أكثر ارتفاعاً، وكمية الأمطار أقل من كميات اليوم بقليل. إلا أن الانتقال نحو جفاف أكبر لا يكفي أن يغير ولو قليلاً عالم النبات الذي كان يتكون مثل اليوم من غابة للرعي ومن أودية قليلة العمق ومعشبة، وتطفو عليها المياه من حين لآخر (دمبوس). وتوجد بالمنحدرات الأكثر علواً غابة برا كستيجيا. إلا أن دراسة اللقاحات أو آثار النباتات الكبيرة الحجم، تدل في حوالي نهاية الفترة الأشولية على انخفاض الحرارة وبعض الزيادة في كميات الأمطار التي مكنت بعض الأنواع النباتية الموجودة حالياً فيما يقرب من ٣٠٠ م علواً، أن تنزل إلى مستوى الحوض المحلي من كالمبو. ومن المعتقد أن كل مستوى من مستويات السكن لم يكن

(٥) نجد مثلاً بالقسم الغربي من وادي الفال وبعدد من روافده، كثيراً من الأدوات الأشولية. إلا أنه إن كان البعض من تلك المجموعات يشهد بتغيرات تكنولوجية مهمة، فإن الاجتراف قد نقلها وأصبحت في حالة متغيرة.

مسكونا الا في فصل أو فصلين. ثم أصبحت التربة مغطاة بترسبات الرمال النهرية والطين والوحل، فأقيمت فوقها فيما بعد منشآت مماثلة. وقد اكتشف فيها عدد كبير من ذوات الوجهين والقذومات والأدوات المصنوعة من شظايا تمسوة، والمكاشط الحجرية، وعدد قليل من المعاول والصفاحات والأدوات الكروية الشكل.

وتتصل بتلك الصناعات الحجرية أدوات خشبية مختلفة من بينها حربة، وعصى للحفر، وعصي قصيرة وحادة (تصلح أيضا على ما يبدو للحفر) وأداة رقيقة لها شكل الصفيحة، وقطع من قشور الأشجار قد تكون استعملت أطباقا. ويوجد ببعض تلك المستويات الطبقة آثار عديدة عن إستعمال النار، كجذوع أشجار محرقة، وفحم خشبي، ورماد وأكداش بيضوية الشكل لها شكل الحوض، وعشب محروق ومهشم، وكذلك نباتات ليفية يحتمل أنها كانت استعملت فراشا للدواب. ونجد أيضا عددا كبيرا من الحبوب والثمار المحرقة تنتسب الى أجناس وأنواع من النباتات المستهلكة التي تنمو حاليا بمحوض كالمبو. ومن المعتقد ان تلك الاقامات الاشولية كانت غيمات تقام في الفصل الجاف، نظرا لكون تلك النباتات تبلغ نضجها في ذلك الفصل (سبتمبر/أكتوبر).

ولم يعثر على اثر واحد للحيوانات في كالمبوفولز. أما في موانكاندا قرب كارونكا بالطرف الشمالي الغربي من بحيرة ملوي، فيوجد منجم آخر من البليستوسين الوسيط. قطع فيه فيل، في مكان غير بعيد عن مجرى ماء، يتجه نحو الشرق حتى البحيرة. ويبدو أن فرقا ثلاثا على الأقل شاركت في عمليات القطع اذ وجدت ثلاث مجموعات من العظام المنفصلة، كل واحد منها مرتبط بالأدوات الحجرية المستعملة بعين المكان قبل أن تترك. ان أغلب تلك الادوات متكونة من شظايا لم تهذب الا قليلا، ومن مكاشط صغيرة وبعض الحصاة المهيأة. ان الامر يتعلق هنا بالاولدوواي المتطور الذي ظهرت به أدوات الأولدوواي البدائي. وقد وفرت حفريات في أو بر منسدر يف قرب بلومفوهف أدلة مهمة عن مهارة الإنسان الأشولي الصياد، وكذلك عن تقنياته في تقطيع اللحم وتصريف بقايا العظام التي تتراكم حسب أكداش متعددة، على طول مجرى الماء، وتمتزج بذوات الوجهين التي عثر عليها في نفس المستوى الطبقي.

وتتصل الادوات الأشولية أحيانا بنتوءات المواد المختلطة بالانهيالات وشظايا الصنع، وتفيدنا تلك المواقع (مثل موقع كويلو كويجي، بروديسيا) \* بمعلومات قليلة عن المحيط، ويبدو أنها كانت مسكونة بانتظام، وذلك شأن وندر بومبورت قرب بر يتوريا، بترنسفال حيث توجد بقايا تشكل طبقة كثيفة لها ٣ أمتار ويبدو أنها متصلة بأحد نقاط مرور حيوانات الصيد بجبال مكاليسبارك بين الميدلفالد والهايفالد.

ومهما يكن من أمر، فقد كان الإنسان يقيم مدة الأشولي، دائما قرب عين ماء مثل «الدامبويات» حيث تتجمع حيوانات الصيد، وحيث الماء متوفر. ويوجد ذلك النوع من المواقع في كبوي (بروكن هيل)، قرب كُيجي المشهورة التي اكتشفت بها جمجمة وبقايا أخرى من الإنسان الروديسي. ولقد عثر على مجموعة صغيرة من الادوات الكبيرة القاطعة التي لها صلة بأشكال كروية وبعدهد من الادوات الصغيرة المتكونة من المرو. ويوجد بروديسيا \* وفي لوشار، على مسافة متساوية

من خط تقسيم مياه الزميرز ولمبوبو، منجم آخر في أحد الادمبويات لم يحفر بعد ووفر ذوات وجهين وقدومات عديدة. ويعتبر المكان المعروف بكرتيليا مثلاً آخر وذلك بشمال ولاية اورانج الحرة بجنوب افريقيا. وخلافاً للمنجمين الأولين، وفرت كرتيليا آثاراً عديدة من الحيوانات: يتعقد أن بعضها متصل بصناعة تشمل بعض الوجهين والقدومات وكذلك عدداً من الصفحات والحصاة المهيأة وأدوات صغيرة. ويمكن أن تكون الحيوانات لا سيما الخيلارم (Bubales) العملاقة قد دفعت إلى وحل الدمبو وقتلت به. ويحق لنا أن نعتقد أن الهايفيلد كان في ذلك العهد كثير المطر تكسوه أعشاب قصيرة، وغيضات مخفية وغابات عروية مثلها هو الشأن اليوم. وفي الأدغال السهوية (كرو)، شمال مقاطعتي رأس الرجاء وبستوانا، أقام الأهالي الأشوليون حول أحواض بحيرية قليلة العمق كانت كثيرة بتلك المنطقة. أما دورنلاخت قرب كمبرلي فتعد من ذلك النوع من مواطن الإقامة التي يوجد بها سلسلة كاملة من الأدوات المقواة والمختومة في قشرة كلسية، وذلك حسب ما يبدو في أطوارها الأصلي. ولقد احتل الموقع عدة مرات لمدة طويلة وإن كانت الحيوانات مفقودة فيه.

في اللندز فنتاين قرب هاييفيلد، بالقسم الغربي من مقاطعة رأس الرجاء حول المستنقعات والأحواض الموجودة بين كيثان الرمال القارة، كان الإنسان الأشولي قد وجد مناخاً مناسباً لصيد الثدييات الكبيرة. وتعتبر تلك الحيوانات من حيوانات البليستوسين الوسيط. وهي تختص بصفات الحيوانات التاريخية برأس الرجاء كالفيلة، والكراكة والزرافات، وأفراس البحر، والظباء الكبيرة والصغيرة، والخيل والخنزير الوحشية. وهنا أيضاً يحتمل أن تكون الحيوانات قد قتلت بعد أن طردت حتى المستنقعات، ولا يستبعد أن تكون عيون الماء قد سممت. ولقد وفر ذلك المنجم القشرة الجمجمية لبشري قريب من بشري كبوي في بروكن هيل، وهوبدون منازع أكثر تطوراً من الإنسان المستقيم ولا يوجد هنا ما يمنع من أن نعتبر أن المحيط قد تغير هنا وبغري رأس الرجاء تغيراً محسوساً يختلف عن المحيط الموجود اليوم.

ولقد عاش البشري الأشولي على الساحل أيضاً كما يدل على ذلك المنجم الهام المكتشف في الجنوب، بالساحل الضيق، وذلك برأس هنك كليب في فولسن باي حيث توجد كيثان رمل صلبة تغطي الشاطئ بما قدرة ١٨ متراً. ولا توجد به حيوانات لكن المنجم وقرعداً كبيراً من ذوات الوجهين الجميلة وعدداً أقل من القدومات، وكذلك مكاشط عديدة مصنوعة على شكل شظايا، ومكاشط نووية الشكل وأدوات صغيرة. لكن يهنا أن نلاحظ أن الإنسان، في ذلك العهد، سواء على الشواطئ الأطلسية من المغرب أو بالبحر المتوسط، كان لا يأكل الثدييات البحرية ولا الأسماك، بل كان لا يأكل الثدييات الأرضية.

كان الإنسان الأشولي يقيم أيضاً بجوار عيون الماء مثل أمنزي، بمنطقة أمطار الشتاء جنوب الإنحدار الكبير قرب فورث أليزيث. ولقد وضعت عيون كثيرة عندما كانت تجري، سلسلة من الرمال الطبقيّة، وتشكلت طبقات من الحث في الأوقات الميتة التي كانت تنمو فيها الاقصاب ونباتات أخرى. كان الإنسان الأشولي يتردد على تلك العيون ويخيم بالأماكن التي ترك بها أدواته والتي داسها الفيلة وحيوانات أخرى جلبتها هي نفسها نفس المياه. ولقد ابرزت إلى الوجود بعض

المركبات المبعثرة، ويبدو حسب آثار الخشب والنباتات واللحاحات ان الأعشاب بذلك العهد لا تختلف الا قليلا عن الأعشاب الموجودة اليوم برأس مكشيا.

اما بافريقيا الجنوبية فلقد أقام الإنسان الأشولي أحيانا بكهوف سنشير الى اثنين منها. أولهما كهف المواقد الذي يوجد في ماكان بالوشفالد بترنسفال الشمالي، ويحوي تسعة أمتار من الرواسب، وله مستويات إقامة أشولية ومواقد للنار. ان تحليل الرواسب يبين ان كميات الأمطار كانت اذاك أكثر مما هي عليه اليوم، وتعد حيواناته عامة من البليستوسين الوسيط وتنتسب الى حيوانات بوشفالد الحالي. ولقد وفر هذا المنجم أيضا قطعة من فك إنساني، وهو فك شخص شاب يمكن أن تكون له علاقة بالاحفورات الشبه الناندرتلية أو الشبه الروديسية (٦). والأثاث شبيه بأثاث كلمبوفولز، وهنغفكليب ومناجم أخرى حيث اكتشفت أدوات كبيرة قاطعة مغلولة بادوات عديدة لها حجم صغير. أما الكهف الثاني، فهو كهف منتكوجنوب مقاطعة رأس الرجاء، وهو قريب من عين ويجري ماء قارين، وتحيط به أعشاب الجبل. وهو يحوي أيضا عددا من الطبقات المتلاصقة من عهد أشولي حديث، إلا أنه للأسف لم يعثر فيه على بقايا حيوانية.

ان تلك المناجم المختلفة توفر أمثلة حسنة من مختلف أنواع السكن وعن تنوع الادوات الأشولية بالبليستوسين الوسيط. ويشترك جميع السكان في بعض الخصائص فهم يعيشون في أراض مكشوفة، كالغابات الخفيفة (كلمبوفولز، كبوي، بروكن هيل) والمروج والحدائق الطبيعية (لوشار وكرنيليا) وأشجار الأدغال (منتكو، وأمينزي) وهي كلها موجودة قرب الماء حيث توفر الأشجار الظلال والثمار الناضجة وحيث يتجمع الصيد كلما تقدم الفصل الجاف؛ وتقع كلها باماكن يوجد بها اليوم عدد من التجمعات العشبية (وتدعى بالمناطق الايكوتونية). وإذا كان الإطار العام قد ظل قارا لم يتغير عن حاله في الماضي، مثلما تدل على ذلك الآثار الحالية، فيمكن أن نستنتج بأن تلك التجمعات العشبية استغلت باماكن غير بعيدة عن مواطن السكن. ففي الأماكن التي حفظت فيها الحيوانات، توجد المناجم التي توجد بها آثار الصيد الكبير كالفيلة، وأفراس البحر، والزرافات والبقرات الكبيرة والخيول، ولكننا نجد أيضا بقايا من بقرات صغيرة، ومن الخنزيريات الخ.

وقد استعملت مجموعة كاملة من المواد الأولية في صنع أدوات الحجر اعتمادا على الموارد المحلية. وهكذا يكون لنا دليل على أن الإنسان الأشولي اكتسب مهارة وقدرة على التكيف لا نظير لها لنحت صخور عديدة بالاعتماد على القوارع الصلبة والهشة ولانتاج أدوات جيدة. وكان يحسن الاختيار بين تقنيات متعددة، فيختار أنسبها للمواد المستعملة. وكلما كانت الحصاة الكبيرة من الصوان أو المرو تشكل المادة الأولى، كانت ذوات الوجهين تحت مباشرة من الحصاة. ولكن اذا دعا الأمر إلى استعمال كتل أكبر من تلك، كان الإنسان الأشولي يستعين بطريق ذكية (٧) وذلك بتهيئة وقطع نواة كبيرة ليتحصل على شظايا كبرى يصنع منها ذوات الوجهين والقيدومات.

(٦) انظر ص. ٥٢٩.

(٧) مثلا: شبيه لوفالوا، وما قبل لوفالوا، تاشنيط وكيموا. انظر م. ن. ب. ريزيون (M.N. Brezillon)،

تسمية الأشياء من الحجارة المنحوتة - تحليل في ما قبل التاريخ، ملحق ٤، باريس، ص ٢٩-١٦-١٠١-١٠٢.



ومن المحتمل أن يكون الأشولي الحديث بإفريقيا الجنوبية قد غطى حقبة تماثل تقريبا حقبة الأشولي الحديث بإفريقيا الشرقية، أي ما يوافق تقريبا ٧٠٠٠٠٠ سنة إلى ٢٠٠٠٠٠ سنة. على أنه لا توجد إلى الآن طريقة دقيقة بعض الشيء تسمح بقياس الفروق في الأعمار بين الصناعات الأشولية المتنوعة. فعندما تتوفر لنا تلك الدقة ونكون قد أجرينا عددا أكبر من الحفريات بمواقع تخضع لعلم طبعية الأرض، يمكن اذاك أن نعرف كميا الاتجاهات العامة لتقنية الأدوات وما يوجد من قرابة بين مختلف التنوعات المعروفة ضمن المركب الأشولي، وكذلك الجانب الاحاثي البيئي لموقع معين في العهد الذي كان فيه مسكونا.

ان الصناعات الأشولية كما تبين من هذا التلخيص القصير خاضعة لبعض التماذج النوعية التي توجد بمجموع العالم الأشولي. فتوجد أدوات لا تتكون الا من ذوات الوجهين ومن القدومات، وأخرى تشمل حصاة مهياة وأدوات أصغر حجما، مثلها هو الشأن في الاولودواي المتطور، وتوجد أخرى يظهر فيها المزج بين هذين النوعين من التقاليد، وأخيرا، توجد أخرى أغلبها نقارات ومكاشط نووية الشكل وأدوات أخرى «ثقيلة». وهكذا فقد كان هناك توزيع كبير من حيث الصناعات، والسكن والموارد، ولكن توجد خصائص عامة مشتركة بالنسبة لمجموع الأشولي. ويستفاد من ذلك أن طرق العيش لا تختلف في جميع المناطق التي تستعمل فيها ذوات الوجهين. ويعتبر المظهر العام لسلوك البشرات خلال البليستوسين الوسيط هو سلوك جماعات الصيادين القاطنين الذي لهم نفس أسلوب العيش، والذين يميلون الى التواصل بعضهم ببعض تواصل متفاوتا. فلقد كانوا يشكلون تجمعات هي أكبر مما كانت في الماضي، وأصبحوا يترددون بانتظام على بعض الأماكن المعينة حسب الفصول. وكانت البنية الاجتماعية مرنة جدا مما سمح بتنقل الأشخاص والأفكار. الا أن مناطق هامة من إفريقيا، ومنها الغابات، ظلت ظاهريا خالية، وبفيد انتشار مجموع السكان، ان كل جماعة كانت معزولة عن جيرانها عزلة تكاد تكون كاملة.

### الأشولي الأخير أو «الفورسميثي»

نعلم منذ أمد طويل أن بعض الصناعات قد وجدت على النجد الداخلي. فهي تختص بذوات الوجهين التي لها حجم صغير عادة، والتقنة الصنع، كما تختص بمجموعة كبيرة من الأدوات المنحوتة على الشظايا، ومكاشط نووية الشكل. أما القدومات فهي قليلة نسبيا، ويبدو أن تلك الصناعات تعود الى عهد أكثر حداثة من الأشولي المذكور أعلاه. فان كان الأمر كذلك، فن المحتمل أنها تمثل مرحلة «نهائية» من تقاليد ذوات الوجهين. لكن أغلب الأدوات جمعت على سطح الأرض ويمكن أنها كانت مخلوطة بعناصر أكثر حداثة. وكانت المادة الخام المستعملة عادة هي الليديانيت (النضيد المتصلب) الموجودة بكثرة في بعض المناطق. أما في مناطق أخرى، فالمادة المستعملة أكثر هي الكوارتزيت (الصوان).

لم توفر الحفريات الا قليلا من السلاسل، والقليل منها فقط يمكن أن يعتبر ممثلا لتلك الأدوات. ولقد أتت احدى السلاسل من حوض قديم، قرب روثدام، غربي كمبرلي. وكانت الصناعة بها مندرجة في خمسة أمتار من الرواسب على رأسها قشرة كبيرة من الكلس السهي، وتمثل تلك الرواسب تراكما متدرجا من الترسبات الحقيقية وناتجا عن سيلان الماء. ان ذوات الوجهين التي لها أحيانا أحجام

صغيرة تتميز بصنع رديء. وأغلب الأدوات متكونة من مكاشط صغيرة ومن أدوات صغيرة أخرى مهذبة، قد صنعت كلها من الليديانيت. وتبرز بوضوح في هذا المجموع طريقة تهيئة النواة التي تدعى «تقنية النواة الصحية الشكل» والتي تسمح بالحصول على شظايا صغيرة. وخلافا لذلك، لم يعثر على أثر لتقنية «لوفالوا» التي تعطي شظية أكبر حجما كلما هيئت النواة. ويحوي منجمان آخران بعين المكان (على الفال، قرب وندسور— تان ومنطقة سد فرورد على الاورانج) صناعة مماثلة، لكن مع وجود التقنيتين، وهما: تقطيع لوفالوا، والنواة الصحية الشكل. ويبدو أن التقاليد، وربما عناصر أخرى كالزمن، ستساعد على تفسير هذا التنوع في شكل الشظايا والنواة.

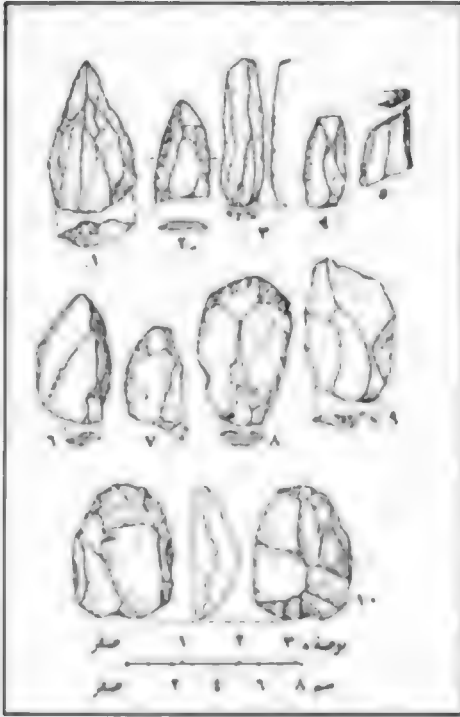
لقد أطلق على تلك الصناعات اسم «فورسميثي». نسبة الى المكان الموجود بولاية أورانج الحرة، حيث عثر لأول مرة بالسطح على عدد كبير من ذوات الوجهين اللوزية الشكل المتميزة. الا أننا لا نعلم الى الآن أكانت تلك الصناعات تمثل وحدة كافية التميز من الأشولي لتستحق تسمية خاصة بها أم لا. فهي توجد غالبا بالمروج والادغال في كارو، وفي جبال جنوب إفريقيا وناميبيا. ان العلامة الوحيدة عن عمرها المحتمل قد وفرها التاريخ بالثريوم / أورانيوم على كربونات روثدام. وهويشير الى تاريخ  $115000 \pm 10000$  سنة قبل الميلاد. ونحن نجهل متى عوضت الصناعات «الفورسميثية» بمركب جديد أو تقاليد تكنولوجية جديدة تهتم بالأدوات المنحوتة على الشظايا وعلى الصفائح التي تدل على بداية «العصر الحجري الوشيط». ويبدو أن هذا التحول قد وقع بين ١٠٠٠٠٠ و ٨٠٠٠٠ سنة.

أما في المناطق التي تكثرت فيها كميات الامطار وتكشف فيها الأعشاب بإفريقيا الوسطى فلم يحل «الفورسميثي» محل الأشولي الحديث، بل حلت محله صناعات توجد فيها نسبة كبيرة من الأدوات الثقيلة، مثل النقارات وذوات الوجهين، والحصاة المهيأة والمكاشط القلبية الشكل. ولقد سبق أن ظهرت تلك الأنواع بالصناعات الاشولية. ولكن باستثناء نوع غير معروف في السابق، فإنها لم تتميز في ذلك العهد عن أنواع الأدوات الأخرى. على أن تلك الأجهزة ستصبح غالبية فيما بعد بالمناطق التي تكثرت فيها كميات الامطار وترتفع فيها الحرارة، حيث نجدها مغلوبة بمجموعة كاملة من الأدوات الخفيفة المنحوتة على الشظايا والقطع الحجرية. وهي توجد بزامبيا، وروديسيا (٥) و ببعض المناطق الشرقية من إفريقيا الجنوبية (لا سيما بسهل الموزمبيق) وبالمناطق الساحلية بالناطال، حيث تنتسب الى ما يدعى بالمركب السنغوني. ان المجموعات السنغونية ليست في جلها مؤرخة اعتمادا على الطريقة الطبقة ولا نعلم بدقة ان كان السنغون معاصرا للأشولي النهائي (فورسميثي) بالسباسب العشية أو أنه أحدث منه.

وفي شلالات كالمبو، ضبط تاريخ مظهر السنغون المحلي (صناعة شيئا) بـ ٤٦٠٠٠ الى ٣٨٠٠٠ سنة قبل الحاضر (٥) بالإعتماد على ١٢ نتيجة وفرتها طريقة الراديو كربون، وفي أنجولا الشمالية الشرقية أرخت مرحلة مشابهة بـ ٣٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ويشابه السنغون المحلي (صناعة

(٥) ح. = قبل الحاضر. والحاضر هو ١٩٥٠م. أي السنة التي استعمل فيه الكربون ١٤ لأول مرة.

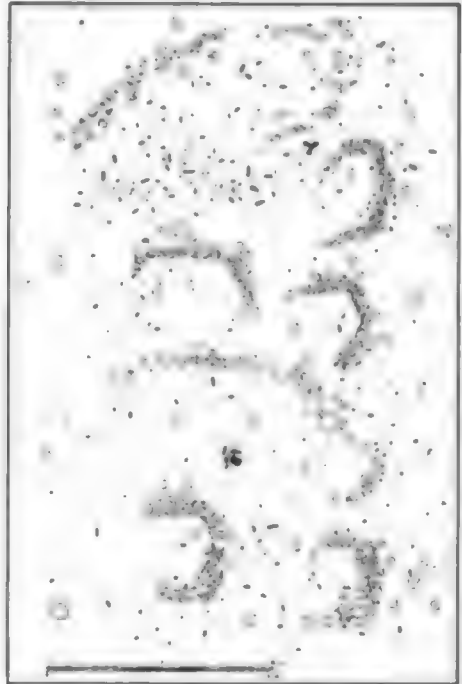
(٥) في مطبع زيمبابوي — تعليق المراجع محمد الفاسي.



● (١) أدوات مشكّلة من العصر الحجري الأوسط، من كهف ويتكرانس (شكل ١١ من كتاب ج. د. كلارك، ١٩٧١ بالانجليزية «الاختلافات في السلوك البشري في أفريقيا الجنوبية خلال عصر البلايستوسين المتأخر»، في «أمريكا أنثروبولوجيست، المجلد ٧٣). وجميع هذه الأدوات من السيلكس الاسود ما عدا رقم ٦ فهي من الشيست. ١ و٢ غرازان وحيد الوجه، ٣ - نصل مستعمل، ٤ و٦ و٧ مكاشط بسيطة، ٥ ازميل على قاطع، ٨ محك، ٩ أداة ليفالوا مثقطة، ١٠ نواة ليفالوا.

● (٢) أدوات من اللومبي الاوسط، مساقط كالامبو، السد ١، الموقع ب ١ - ١٩٥٦. وجميع هذه الادوات مصنوعة من السيلكس ماعدا الاداة ٤ - ازميل ذو زاوية زوجية مصنوع من قشرة سيليكية. ٧ - قاطع (كوارتزيت)، ١ - مكشط مقعر بسيط، ٢ - محط مسنن متراقد الاوجه وذ خطم، ٣ - شوكة وحيدة الوجه، ٥ - فأس نووية الشكل، ٦ - محك نووي الشكل، ٨ - شوكة رعية الشكل.

● (٣) توزيع النصال وشظايا النصال المستعملة، بالنسبة الى هياكل من كسل الدوليريت، على الاق الاول في اورانجيا (الشكل ٥٨ من كتاب «أركيولوجيا العصر الحجري في أفريقيا الجنوبية»، ص ١٦٦، ١٩٧٤ - بالانجليزية «لؤلؤه س. ج. سامسون، المطبعة الأكاديمية، نيويورك).



كوييلو-بروديسيا) صناعات كانت تسمى «ما قبل السيلبياني» غير أنه يمكن أن يكون أقدم منها (٨) ومما يزيد في صعوبة إيجاد علاقة الترابط بين هذه الصناعات من نوع «سنگون» أنه يجب علينا اعتبار العناصر البيئية وغيرها لأنه أن كان السكن والتقاليد أو الإعتبارات الخاصة قد سرت استعمال تلك الادوات الثقيلة، فمن المحتمل أنها لعبت مبعرا دورا هاما وأن ذلك الدور قد دام دوام الأسباب التي سرت استعمالها. ويوجد بلا شك ترابط بين تلك الادوات من جهة وكثرة كميات الأمطار التي تنشيء مناطق عشبية من جهة أخرى. ولابد أن نعتبر أن تلك العناصر الثقيلة ناشئة عن معطيات بيئية أكثر مما تمثل فترة ما أو مرحلة ثقافية ضمن تطور الادوات الحجرية. ونظرا الى أننا نستطيع في نفس الوقت أن نبين أن تلك العناصر «السنگونية» متصلة بتنظيم من الأعشاب الأكثر كشافا، يمكن أن ننتظر بروزها أولا، بتلك المناطق، في نفس العهد الذي يوافق الفترات النهائية من الأشولي (فورسميثي) بالسباسب العشبية، وإن تكون معدومة بمواطن السكن الأكثر انفتاحا حيث كان الإهتمام، كما رأينا بأنواع أخرى من الادوات.

لقد اكتشفت صناعات من نوع «سنگون» في زامبيا، وملاوي وروديسيا ٥، وموزمبيق وأنجولا وكذلك بالشمال وبالجنوب الشرقي من جنوب افريقيا. ولذلك يمكن لنا أن نجد في الفورسميثي والسنگون بداية تخصص جهوي للادوات، يعكس طرق تكيف مختلفة باعتبار استعمالها بالمروج أو بالغابات الحفيفة والغابات الكثيفة.

## العصر الحجري الوسيط

إن ضرورة اعتبار الادوات الحجرية للإنسان في ما قبل التاريخ وذلك كل ما بقي منه — شاهدا على صانعيها، وعلى حاجاتهم العاجلة، لا دليلا على سكان يختلفون بالضرورة جنسا وعرقا، هذه الضرورة تفرض نفسها لا سيما عند اعتبار مختلف العناصر المكونة للمجموعات الجهوية المعاصرة، في ما يسمى مدة طويلة «العصر الحجري الوسيط». ولقد اعتمد أساسا لضبط تاريخ مجموعة من الادوات من العصر الحجري الوسيط على بعض الخصائص التقنية والنوعية وعلى كونها موجودة طبقيًا. «العصر الحجري المبكر» و «العصر الحجري المتأخر». إن هذه المصطلحات التطورية، والزمنية الطبقية أصبحت لا تفيد اليوم شيئا كثيرا. ولقد ظلت سيئة التعريف مثلما كانت عند ظهورها. ويضاف الى ذلك أن ضبط التاريخ بالراديو كربون يظهر أن المراحل التكنولوجية التي تعتمد عليها تلك المفاهيم هي ظرفية أكثر منها واقعية، ولأن التقنيات وأنواع الادوات التي انبثقت عنها، تتجاوز أمثال هذه الحدود الأفقية المصطنعة. ونظرا لكون المؤرخ يشتغل على أشياء حجرية، فإنه يميل الى عدم اعتبار تلك الأشياء جزءا باقيا من مجموعة عظيمة من

(٨) إن مناجم الكهوف الطبقية، كمنجم بومنكوي وبمباطا وموقع شغوما الموجود في الهواء الطلق الذي اعتمد عليه، لتسمي تلك الصناعة حديثا «صناعة شغوما»، هي التي تقدم أحسن فكرة بروديسيا عن محتوى تلك المجموعات فيما قبل السيلبياني. وبالرغم من أننا لا نعتمد على أي تاريخ مضبوط، يبدو أن صناعة شغوما تعود إلى تاريخ هو أقدم من ٢٠٠٠ قبل الحاضر، ولذلك تعتبر صناعة كويلا أقدم منها.  
(٥) في المطبوع زيبابوي — تعليق المراجع محمد القاسمي.

الأدوات والمواد التي لم تحفظ، والتي لو كتب لها أن تدرس لقلبت بالتأكيد كل تصوراتنا لتكنولوجيا ما قبل التاريخ. إن التكنولوجيا تتبدل في كل مكان يشعر فيه بالحاجة إليها، وذلك جوابا على ضغوط جديده، وعلى امكانيات الإنتقاء أو التكيف الخاصة بالجماعة. فينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار هذان العاملان عندما تدرس الصناعات الحجرية التي تشهد على السلوك الثقافي طيلة البليستوسين الحديث والهولوسين.

ولقد أخذ مستوى البحر ينخفض، في وقت ما بين ١٠٠٠٠ و ٨٠٠٠٠ وذلك بالنسبة للمستوى المرفوع بقدر + ٥ الى ١٢ مترا والذي تمثله تمثيلا حسنا بقايا الشواطئ المعلقة في عدد من الجهات من الساحل الجنوبي من القارة (٩). ولقد شرع الإنسان، بعد ذلك بقليل، في الإقامة بأماكن مواتية له على الشواطئ التي برزت فيما بعد، وكانت بعض الأماكن كهوفا، وكانت التكنولوجيا في ذلك العهد، رغم الخصائص المحلية، متشابهة عموما بالبحر الأبيض المتوسط وإفريقيا الجنوبية.

في بداية العصر الجليدي الأخير بنصف الكرة الأرضية الشمالي، طرأ بالمناطق المدارية انخفاض الحرارة (حوالي ٦ الى ٨ درجات) والرطوبة الجوية، وإن كانت نسب التبخر قد ضمنت توفير مياه سطحية منتظمة، لعلها أكثر مما هي عليه اليوم. وفي نفس الوقت أدى المناخ نصف الجاف الذي كان يحوض الزاير بالمنطقة الاستوائية الى تقليص الغابة المكتسحة، أو عوضها بأعشاب أو غابات خفيفة وفرت للإنسان وللصيد مسكنا مواتيا جدا. وشرع هؤلاء وأولئك في تعمير ذلك القطر الذي كان إلى ذلك العهد يكاد يكون خاليا. وكذلك كانت صحراء ناميب، امدة البليستوسين الحديث، وهي الآن قفر، مسكونة من طرف جماعات من الصيادين الذين تركوا أدواتهم بأماكن تخييمهم.

إن المقطوعة الطبقة لكل منطقة واسعة، كانت تبرز طيلة العصر الحجري الوسيط انتظام التقدم التكنولوجي ابتداء من المنتجات الأقل تهديا الى ما كان أكثر تطورا، كما تبرز النقصان المتدرج لنحت الأدوات. إلا أن تطور المنطقة الثقافي لا يشابه بالضرورة تطور المنطقة الاخرى وإن كنا نعثر على ميول وخصائص مشتركة. ويحتمل أن تكون عوامل عديدة، بيئية، وتكنولوجية، واجتماعية قد تسببت في التحولات الجهوية الخاصة بصناعات البليستوسين الاعلى. وكانت طرق عيش مختلفة تستوجب أدوات مختلفة أو تفرض على الأدوات استعمالا مختلفا. ورغم أن تجديدات تكنولوجيا قد أدت في مستوى القارة دورا معيننا وذلك بأن عينت العهد الذي برز فيه هذا الجزء الجديد ظاهريا، أوذاك، فيبدو من المحتمل أن طبيعة الموارد والطرق التقليدية في استثمارها كانت هي العوامل الحاسمة الداعية الى قبول ذلك التحسن الى تاريخ استعماله.

وفي ذلك العهد كانت التقنيات الأساسية تعتمد طريقة لوفالوا وطريقة النواة الصحنية الشكل المستعملتين لصنع شظايا ولقطع صفائح بقرعها أولا ومباشرة بآلة وسطى تهذب لتصبح حدودا ومكاشط، وسكاكين، ومقصات، ومثاقب الخ. ويمكن في إفريقيا الجنوبية، أن تصنف الصناعات الجهوية حسب تقنياتها في ثلاث وحدات تعتبر في جلها ان لم يكن كليا، وحدات تاريخية. ولهذا

(٩) يعتقد أن آخر مستوى من المياه العالية يناسب التمدي البحري الطارئ على عصر ما بين الجليدي الأخير (الأيبي) بمحوض البحر الأبيض المتوسط، حيث يكون مستوى البحر متشابها على العموم أي بين ٦ و ٨ أمتار.

السبب قد يكون من الأسهل أن نعتبرها أصنافاً أو مراحل، لا أطواراً، لأن الاطوار تفترض وجود علاقات تاريخية.

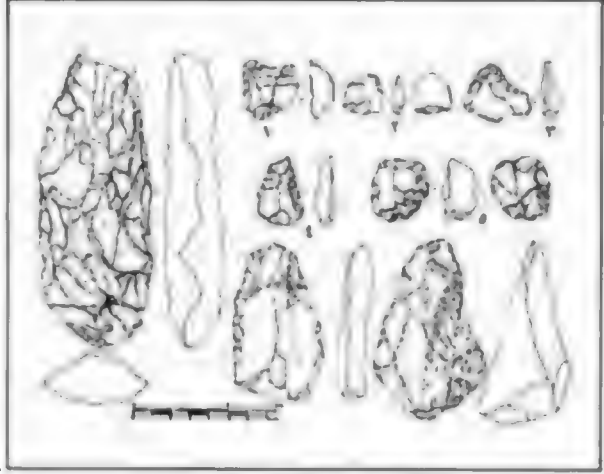
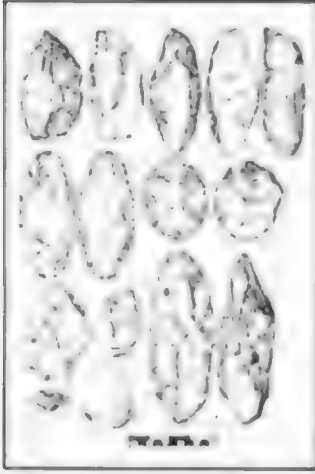
ان أول تلك الأصناف أو المراحل (الصف ١) تختص بشظايا كبيرة هيئت بحسب طريقة لوفالوا والصفائح الطويلة المقطوعة بالقرع المباشر. ونحن لا نعرف منها سوى بعض التركيبات المتفرقة (١٠). ان الظواهر المتطورة جداً، تبرز، بالنسبة لبعض المناجم التي لها مقطوعة طبقية، في الطبقات العليا، وأقدمها هي المجموعات الحجرية من الصف الأول (مثلاً بكهف المواد وبشلالات كالسيو). الا أنه لا وجود كما يبدو لتوافق تاريخي بين مختلف المناطق. في كلاسيك يعتقد أن «العصر الحجري الوسيط» الاول يؤرخ بحوالي ٣٩٠٠٠ سنة الى ٣٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر. اما السلاسل الأخرى، فلم يكشف عنها في ظروف يمكن ضبط تاريخها.

توجد صناعات أخرى تنتسب الى بداية البليستوسين الأعلى وتعود الى أكثر من ٤٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر، ولا تدخل ضمن الصف الاول ولها مجموعة من الخصائص المختلفة. وذلك شان صناعة من الشظايا، والنوى، والمكاشط القليلة الشكل والصفائح والسندان وأدوات التشم من الدوليريت، وأصلها من المستوى الاول من طبقة الحث في فلويسباد بولاية أورانج الحرة. ان تلك الادوات ليست على العموم نموذجية ويمكن أنها لا تمثل المجموعة الكاملة من الأجهزة المصنوعة في ذلك العهد وبذلك الموقع، ولكن من الممكن أيضاً أن نلحق بها صفيحة وحيدة، طويلة ومهذبة ولقد وفر نفس المستوى الاول ما يشبه مقبض سلاح رمي معكوف، من الخشب كما وفر قطعة من جمجمة انسانية. ان أفق فلوريسباد ذلك يعود الى أبعد من ٤٨٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وتوجد صناعة أخرى تختلف عن صناعة الصف الأول، وان كان من المحتمل أنها معاصرة لها، وهي صناعة شافوما بروديسيا التي قيل عنها سابقاً إنها تعود الى أبعد من ٤٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر. فهي تختص بنقارات وبعض ذوات الوجهين القليلة وبمناظر خفيفة هامة تشمل مما تشمل حدوداً ومكاشط وصفائح عليها علامات الإستعمال. لقد نحتت تلك الادوات من مواد خام متنوعة كالكلسدوان، والاولبالين، والمرو، والصوان الخ. وفي زامبيا تشابه صناعة توين ريفر (المؤرخة بـ ٢٢٨٠٠ ± ١٠٠٠ سنة قبل الحاضر) صناعة شافوما وان كان التأريخ، على فرض أنه صحيح، يبرزان طريقة تعتمد على التكنولوجيا قد فقدت اليوم كثيراً من قيمتها كعامل من عوامل الترابط بين الصناعات من مناطق مختلفة.

تنتسب سلاسل عديدة أصلها من كهوف ومناجم سطحية الى الصف الثاني من الصناعات (الصف ٢) (١١). ان التاريخ يضعها عموماً بين ٤٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر الا أنها

(١٠) ذلك شان بيتزبركين الاسفل من المستوى ٤ بكهف المواد في ماكابن. و«العصر الحجري الوسيط الاول الذي يعلو مباشرة الشاطئ» بـ ٨ الى ٨ أمتار بحسب نهر كلاسيك، وموقع في الهواء الطلق بمنطقة أورانج ريفر سيم (النذر كلوف) وموقع آخر بترنسفال الأوسط (كودوسرند) وتختص فضلاً عن ذلك صناعة ناكاساسا في كالمبوفوز بأشكال متشابهة وان كانت تحتوي أيضاً على بعض الأدوات ذات وجهين ثقيلة من النوع الذي يتوقع وجوده بصناعات الغابات الحفية في براسيتيجا.

(١١) من الامثلة عن صناعات الصف الثاني: الطبقة ٥ من كهف المواد. طبقة ١ من كهف مقولو في ترنسفال، العصر الحجري الوسيط الثاني لنهر كلاسيك، وأدوات موسل باي وكهف سكلدركات جنوب مقاطعة رأس الرجاء، وأخيراً الصناعة السيلبائية بكهف مومبوا وفي زامبيا.

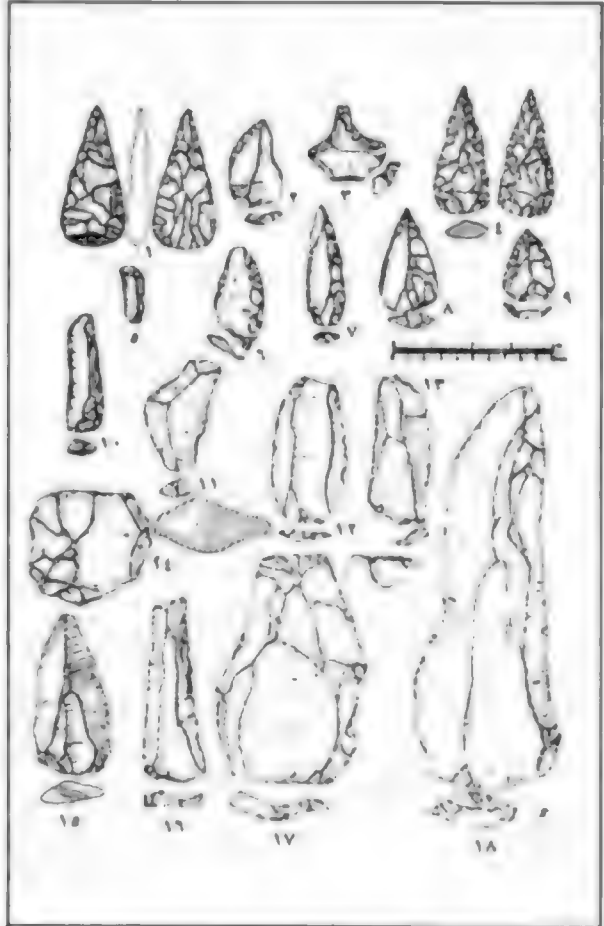


● (١) الحضارة السانتونية في روديسيا، وهي مشابهة لحضارة الزامبيري (القسم الاعلى).  
١٧٠٣ منسقاران، ٨٣٠٣ فاسان نووينا الشكل،  
نواة قرصية، ٦٥٠ - شغلانيا مشققة، ٧٠ -  
أداة كروية (اللوحة رقم ١٢ في كتاب  
«ثقافات العصر الحجري في روديسيا  
الشمالية» بالانجليزية، تأليف ج. د.  
كلارك، ١٩٥٠، جمعية جنوب افريقيا  
الاثريّة، الكاب).

● (٢) صناعات العصر الحجري الاوسط،  
توين ريفرز (زامبيا).

١ - مكشط ذو زوايا، ٢ - شظية  
مستعملة من نواة قرصية صغيرة، ٣ -  
مكشط مترافد الاوجه، ٤ - مكشط ذو  
سن ناقص، ٥ - مكشط صغير، ٨ - أداة  
ذات وجهين. وجميع هذه الادوات مصنوعة  
من الكوارتز ماغدا الاداة رقم ٣ فهي من  
السييلكس الاسود والاداة رقم ٨ من  
الدولوميريت. ما بين عامي ٣٢٠٠٠  
و ٢٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر (الشكل ٣٤ في  
كتاب «ما قبل التاريخ في افريقيا» -  
بالانجليزية، تأليف ج. د. كلارك،  
١٩٧٠، دار نشر تيمس وهدمسون، لندن).

● (٣) صناعات بيترسبرغ، وبامباتا، مغارة  
البيوت (كهف المدافئ)، الترسفال، ومغارة  
بامباتا، روديسيا. أدوات نظيفة مما تتميز به  
بلدان الأدغال الشائكة والبوشفيلد (الشكل  
٣٥ في كتاب ج. د. كلارك، ١٩٧٠).



٢

٣

ترجع أحيانا إلى أبعد من ذلك، كما في الساحل الجنوبي مثلا، وتختص تلك الصناعات باستعمال متنوع لتقنية النواة الصحنية الشكل ولتقنية لوفالوا، ولا سيما فيما يتعلق بقطع شظايا مستطيلة الشكل وبصنع صفائح عديدة. إن الصفائح والشظايا المستطيلة المنحوتة غالبا من المرو والليديانيت، كثيرة مناطق أمطار الشتاء، جنوب الانحدار الكبير الجنوبي الغربي الأفريقي، وبمناطق هايفيلد بولاية أورانج الحرة والترنسفال. إن التهذيبات اللاحقة بأدوات الصنف ٢، ليست كثيرة. فهي تقتصر عموما على الحواشي، وكثيرا ما تكون مسننة. ونجد خاصة في الغابات الخفيفة المدارية التي كان استعمال المرو بها منتشرا، شظايا أكثر قصرا نحتت مكاشط وحسب أشكال مختلفة أخرى مع بعض التهذيبات المحدودة. ويتكون جزء من الأدوات — وهي قليلة ولكنها مفيدة — من أدوات ثقيلة يمكن أنها انتجت حسب ما يعتقد، لاستعمال أعم للخشب ومنتجاته.

إن الصنف الثالث للصناعات (صنف ٣) (١٢) يؤرخ بما بين ٣٥٠٠٠ و ١٥٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وهي تختص بعدد أكبر بكثير من الأدوات المهذبة تهذبا واسعا. إن تهذيب المكاشط والمحكات يكاد يكون غالبا، وليس من النادر أن نجد أشكالا مخنوقة. ويمكن أن تهذب الحدود المورقة الشكل سواء على كامل الوجه الواحد أو على الوجهين. وتنفرد المناقب والمهاشم بخصائص. وبصفة عامة كانت الأدوات أقل حجما، وتظهر عليها، بفعل التهذيب، جودة لم تكن موجودة في الأصناف السابقة.

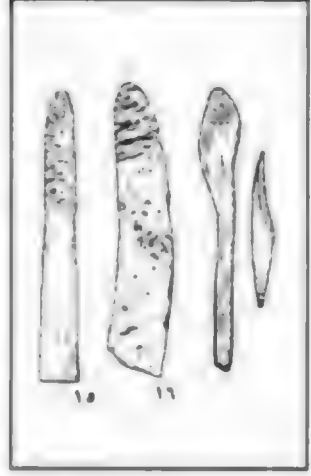
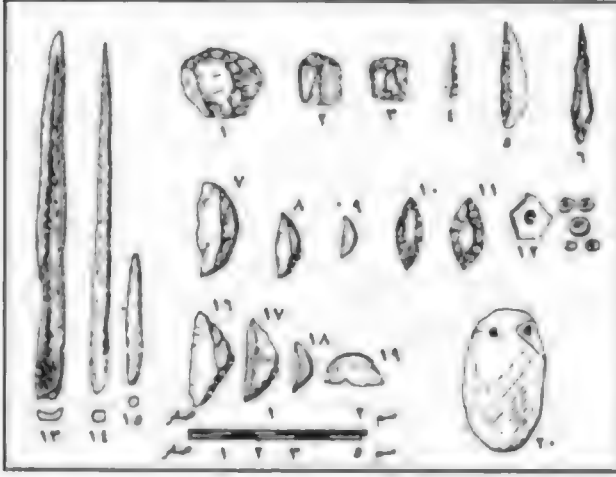
وزيادة على الأصناف الثلاثة التي وصفناها، يوجد صنف رابع (صنف ٤) وهو يختلف عنها ببعض الفروق الواضحة. إنه يشكل المركب المعروف بـ «المغوسي» أو «الفاصل الثاني». فهو يجمع بين الشكل المتطور والمصغر غالبا من تقنية النواة الصحنية الشكل أو لوفالوا، وبين صنع حدود رقيقة ذات حواف متوازية، ومقطوعة بصفحة من عظم، وقرن، وخشب صلب. أما المواد الأولية المستعملة، فهي الصخور اللابلورية. وأما الأسنة المورقة أو المثلثة، والمكاشط والمحكات المصنوعة منها بطريقة النواة الصحنية الشكل أو طريقة لوفالوا، فقد سويت بكل عناية، وأحيانا بواسطة الضغط وفضلا عن هذه الأدوات التقليدية من العصر الحجري الوسيط، توجد أدوات أخرى مصنوعة على صفائح أو على قطع من صفائح غالبا ما تكون صغيرة، قد عكفت إحدى حواشها أو أنها استعملت أو هذبت حسب طرق متنوعة. وتوجد أنواع أخرى من المناقيش لا سيما شكل مسيب أو صفاحي. يبدو أن هذا النوع من الأدوات خاص ببعض أقسام الجزء الأسفل من القارة أي بروديسيا \* وزامبيا، والشرق من ولاية أورانج الحرة وبنجوب مقاطعة رأس الرجاء وبيعض أجزاء ناميبيا مثلا. إلا أنه معدوم ظاهريا من أكبر جزء من القسم الأوسط من النجد الداخلي الذي وفرت فيه الليديانيت أهم مادة خام. فإن كان لهذا التوزيع أساس يبق، علينا أن نضبط الصفات المشتركة بين المناطق التي اكتشفت بها تلك الصناعات من الصنف الرابع.

لقد اعتبر أن تلك الصناعات المتطورة تمثل مزجا بين تقنيات «النواة المهيأة» بالعصر الحجري الوسيط وتقنية قطع الصفائح حسبما بالحجري القديم الأعلى، «فهي لا تتجاوز بتاتا ١٥٠٠٠ إلى

(١٢) ومن الأمثلة على ذلك: صناعة بيترزيركين الأعلى بكهف المواقد وكهف مقولوا وكهف بردر في ناطال، والقسم الأعلى من «الستيلباي» لكهف بير بمقاطعة رأس الرجاء، وصناعة بمباطا بكهف خامي في روديسيا.

(٥) في الجزء المطبوع زيبابوي — تعليق المراجع محمد القاسي.

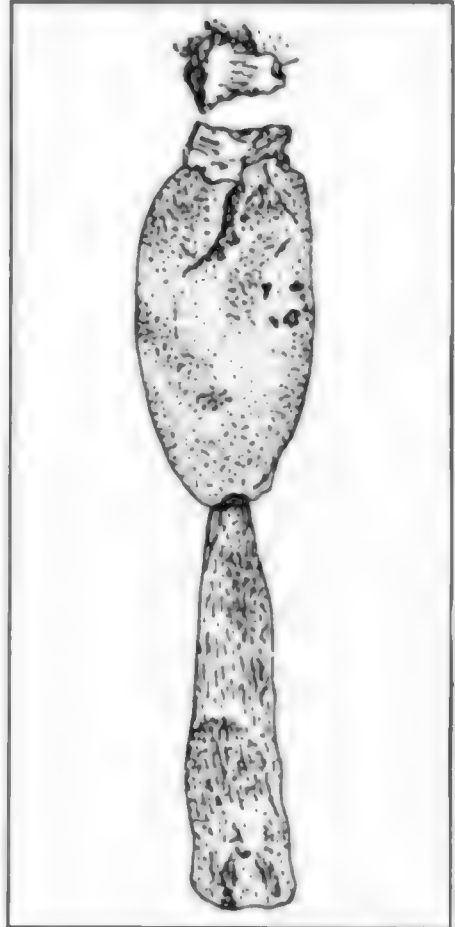




● (١) أدوات الصناعات الويلطونية (١ الى ١٢)، في مقاطعة الكاب في جنوب أفريقيا (حسباً ذكره م. س. بيركيت، ١٩٢٨): ١ - ٣ محكات قسيمة، وه أدوات حجرية صغيرة ذات حواف مشطوفة، ٦ - غران، ٩ الى ٩ قطاعات من دائرة، ١١ و ١٠ «أهلة مزدوجة»، ١٢ - لآلء في قشور من بيض النعام. والعتينات ١٢ و ١٣ من المسجأ تحت الصخر في ويلطون، أما القطع الأخرى فمن سهل الكاب. من السيلكس والحجر الكلسي. أدوات صناعات ماتوبان (ويلطونية روديسيا)، (١٣ الى ٢٠) من كهف أمادزيبا، ماتوبوس هيلز، روديسيا (وفقاً لما ذكره س. ك. كوك وك. ر. روبنسون، ١٩٥٤): ١٣ - غراز عظمي مبسط المقبض، ١٤ - شوكة من العظم ذات كعب مشطوف، ١٥ - عنصر اسطواني، ١٦ - ١٩: قطاعات من دائرة وأهلة سميكة من الكوارتز، ٢٠ - دلالية من الاردوز (الشكل ٥٦ في كتاب «ما قبل التاريخ في أفريقيا» بالإنجليزية، تأليف ج. د. كلارك، ١٩٧٠ دارنشرتمس وهنسون، لندن).

● (٢) أدوات من الخشب، من موقع البلايستوسين في أفريقيا الجنوبية. ١٥ مقبض أداة دفع (الى اليسار) من المستوى ١ من طبقة الخث في فلوريسباد مينرال سبرينغ، عمرها ٤٨.٠٠٠ سنة قبل الحاضر تقريباً. تمكن مقارنتها بقبضة أداة دفع استرالية، حيث حفرت مواضع غائرة لمنع اليد من الانزلاق، ١٦ - هراوة وأداة مزدوجة الشوكة، طبقة الاستقرار الاشولية في كالامبوفولز (مقاطع كالامبو) (زامبيا)، عمرها ١٩٠.٠٠٠ سنة قبل الحاضر. (اللوحان ١٥ و ١٦ في كتاب ج. د. كلارك، ١٩٧٠).

● (٣) مدق من شظية على شكل هلال، من السيلكس الاسود، مشتب بالصمغ على يد من قرن الحزيت. عثر عليه في مغارة في بليتينبيرغ باي، شرق مقاطعة الكاب (حسباً أورده ج. د. كلارك، ١٩٥٩).



٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وعلى هذا الأساس يمحصر عدد من التواريخ في هذه الفترة. ولقد تم الحصول حديثاً، على تواريخ سابقة لتلك بكثير (١٣) فيما يتعلق بصناعات الصنف ٤ التي سميت بالمغوسية أو «هويسنزبورت» في جنوب إفريقيا (نسبة إلى منجم عثريه على أدوات مميزة بالقرب من كراهنتاون). فباستثناء كهف منتاكو، بمقاطعة رأس الرجاء، وصناعة التشانكولان بروديسيا، لم تتوفر لنا مع الأسف أي معلومات دقيقة عن محتوى تلك الاكتشافات بحيث لا نعلم ان كانت تلك المجموعات موحدة أو توجد بها أكثر من صناعة واحدة.

وإذا سلمنا الآن ان تلك المجموعات موحدة، فان تلك التواريخ البعيدة تدل على ان تكنولوجيا متطورة من الصفائح قد تعايشت في إفريقيا الجنوبية مع تكنولوجيا تقليدية تعتمد الشظايا المهيأة بالعصر الحجري الوسيط. والوضع لا يختلف بتاتا عما هو عليه بإفريقيا الشمالية حيث يختلف في المستوى المحلي مركبان صناعيان متعاصران وهما ثقافة دابا وثقافة العاطري. وعلى العموم، فسرتطور صناعات الحجر وتتابعها في الماضي بحركات السكان المتميزين من حيث التكوين الوراثي. الا أن فرضية الهجرة هذه لا تعتمد على حجج أخرى. ان الطريقة التي تبنت بها السكان الصيادون القاطفون الصناعات، والطريقة التي انتشرت بها بينهم تعود كثيرا إلى الإمكانات والتفوق مما توفر لهم، بالمقارنة مع الأجهزة التقليدية، ولا سيما عندما كان استعمالها ييسر استثمار موارد جديدة، ان الهجرة مسافات طويلة تبدو ضئيلة بالنسبة للصيادين القاطفين وهم خاصة السكان الفلاحين، الا إذا كانت تفترض احتلال مناطق «فارغة» مثل العالم الجديد أو حوض الزاير أو المناطق الغابية من إفريقيا الغربية في آخر البليستوسين الوسيط. ان الاختراع المستقل من طرف سكان يعيشون في شبه عزلة ولهم موارد وطرق استثمار متشابهة، يشكل تفسيراً أكثر احتمالاً للتغيرات الطارئة على الأدوات. ان التفسير كامن في وجود الجوافر أكثر مما هو كامن في هجرات واسعة للأجناس البشرية.

ولتوضيح ما نقول يجب أن ندرس دراسة سريعة الشواهد الاحفورية بإفريقيا الجنوبية بعد نهاية الأشولي الذي ترتبط به جمجمة صلدنها. ولما كانت جمجمة كابوي، في بروكن هيل تنتسب نسباً قريباً لجمجمة صلدنها، يحتمل أنها ليستا متباعدتين زمنياً. ان العدد القليل من الأدوات والاشكال الكروية الخفيفة الآتية من كابوي والتي تبدو أنها متصلة ببقايا بشريات، لا تشكل في حد ذاتها صنفاً على انفراد، بل يمكن أن توضع في كل تاريخ بين الأشولي الحديث وبداية «العصر الحجري الوسيط». ولقد اكتشفت بذلك المنجم مستويات سكنية طبقية تنسب إلى العهد، أي أنه اذا صح ان تفترض بان الجمجمة التي تكاد تكون كاملة والبقايا الأخرى تمثل أسرة بشريات تؤرخ بالسنگون المحلي أو الأشولي النهائي، فانه يستحيل ان نأتي بدليل عليها ما دمن لم نطبق على الاحفور نفسه تاريخاً أكثر دقة. ومع هذا فان التشابهات بين أحفورات صلدنها وكابوي (بروكن هيل) وبين

(١٣) لقد أرخت صناعات الصنف ٤ بكهف منتاكو بـ ٢٣٢٠٠ إلى ٤٨٨٥٠ سنة وتدور التواريخ في كلايسيس، جنوب مقاطعة رأس الرجاء حول ٣٦٠٠٠ سنة قبل الحاضر ويكون التاريخ — ٥٠٠٠٠ سنة بكهف روزكوب بمقاطعة أورانج الحرة وهو — ٦٣٠٠ سنة بالنسبة للآبي — بيترسبورغ بكهف بورر. أما التشانكولان وهو صناعة من الصنف الرابع بزيمبابوي فإنه يقع بين

٢١٧٠٠ ± ٧٨٠ و ٢٥٦٥٠ ± ١٨٠٠ ق. م.

• في الجزء المطبوع بزيمبابوي تعليق المراجع محمد القاسي.

القطعة المجممية (هـ ١٢) من باد ٤ من فج أولدواي وشبهتها في نجاراسي بالرفت من بحيرة ايااسي بافريقيا الشرقية، قد تفيد بأن تلك الأشكال «الشبيهة بالروديسية» والأشكال الأخرى المنسوبة الى الانسان العارف قد حلت محل الانسان المستقيم في آخر البليستوسين الوسيط (مثل انسان نياندرتال، باوروآسيا)، وانها كانا في بداية البليستوسين الأعلى منتشرين كثيرين بالمناطق المدارية من افريقيا جنوب الصحراء (١٤).

وقد يعتقد بأن التغيرات المناخية بافريقيا قد طرأت، بالاعتماد على دراسة اللقاحات والمنتجات وغيرها، في نفس الوقت الذي وقعت فيه التغيرات المصاحبة بأوروآسيا للتجمد الأخير ان تشتت الشمل، وانعزال السكان البشريين انعزالا يكاد يكون كاملا قد سببا تغيرات وتطورا في اتجاهات مختلفة، بينما كانت البشريات تتكيف تكيفا صحيحا في المستوى التكويني والثقافي مع البيئات المختلفة التي استطاعت أن تحتلها.

ومهما كانت الأسباب — ولنذكر من بينها اكتساب الكلام، وتطور البنية الاجتماعية والتكنولوجيا المتقدمة وغير ذلك — مهما كانت تلك الأسباب التي جعلت الانسان العصري (الانسان العارف) يتميز تميزا واضحا عن البشريات الأخرى، فمن المؤكد أنها هي الأساس في التفاعلات التكوينية التي ترتبت على احلال جنس جديد بصورة سريعة نسبيا، محل أشباه النياندرتالين، وأشباه الروديسين، وغيرهم من الأجناس التي لم توفق في تكيفها؛ ويبدو أن الانسان العصري (وتمثله جاجم التشكل في كيبش) بالحوض الأسفل من أومو وبحوض بحيرة فكتوريا في كنجرا كان موجودا بافريقيا الشرقية منذ ما يقرب من ٢٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وفي افريقيا الجنوبية تنتسب جمجمة فلوريسباد التي تعود الى أكثر من ٤٨٠٠٠ سنة، الى شكل قديم، وقوي قريب من الإنسان العصري. ان عددا من الأحفورات الأثرخات، والمؤرخة تاريخا دون ذلك دقة، والتي يعود جلها الى ما بين — ٣٥٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠ في وسكوت؛ وكهف بؤرد، وتونيلاتس، وسكلدرخات (كهف بير)، وميموا وغيرها تمثل سكانا كانوا متميزين في المستوى الجهوي وأصبحوا عصريين وكانوا نواة لاحد الأنواع الثقافية بالعصر الحجري الوسيط.

وفي آواخر البليستوسين، منذ حوالي ١٠٠٠٠ سنة، كان سكان متناسبون تكوينا لكنهم مختلفون جهويا، وهم الاسلاف البعيدون لبعض الشعوب الحالية، قد تميزوا عن غيرهم ومن ذلك سلالات البوشيمان<sup>٥</sup>، كبارا وصغارا، بافريقيا الجنوبية وبافريقيا الوسطى الشرقي، و«أشبه زوج افريقيا» الاستوائية والغربية، والجانبية «النيلية» بافريقيا الشرقية. ان الاحفورات التي عثر عليها مبشرة، وهي تقتصر عامة على نموذج واحد. وقل أن توجد دلالات دقيقة عن مدى التغيرات المنتظرة ضمن نفس السكان. الا أننا لا نشك ان «الأجناس» الافريقية الأهلية تعود إلى تاريخ عتيق جدا بالمقارنة، ويمكن أن نعتبر أنها تطورت طيلة البليستوسين الأعلى وفي بداية الهولوسين على اثر حقبة طويلة من التكيف والانتقاء بأهم المناطق الحيوية الجغرافية.

(١٤) يدل تاريخ جديد بالترازم لخفرتي بشريات على فترة عنه من ١٠٠٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠٠ قبل الحاضر (ج. بادا: نقلا عنه شخصيا).

(٥) في المطبوع «سان» عوض «بوشيمان» تعليق المراجع محمد القاسي.

وكما بينا سابقا فإن الصفائح المصنوعة بالقرع غير المباشر، وكذلك مختلف الأدوات الصغيرة المنحوتة على الصفائح ذات الحواشي المعكوفة المكتشفة مع أدوات الصنف ٤ (هويستزبورت) كانت تعتبر في الماضي دليلا على تحركات السكان. و يعتقد أن هذه الأدوات أدخلتها جماعات مهاجرة من «أناس عصريين». فينبغي أن نتنتظر نتيجة دراسة نهائية للمواقع المحفورة لنصل الى حكم حاسم في هذه القضية، اذ كتب لتلك «الفرضية الجنسية» أن تثبت فيما بعد، ولتلك الأدوات أن تعكس استعمال تقنيات جديدة شاعت بفعل الحوافز وقبلت لأنها تسمح باستثمار النجم للموارد المحلية، أو لأنها تحتاج عوامل مختلفة تماما. ومهما كان السبب، فلا شك أن تسرب تكنولوجيا الصفائح ترتبط بتطور الأدوات المترابكة التي تتناسق فيها قطعتان أو ثلاث لتنشأ منها أداة أكثر اتقاناً وأكثر نجاعة. ومن المحتمل أن يكون اثبات الحجر أو مواد أخرى بمقايض بلوغ نجاعة أكبر، قد ابتدأ منذ حقبة الصنف ٢. ان آثار الترقيق على قفا الحدود في موصل باي أو نزع الكعب بتهديات معكوسة قد تدل على تعديلات متصلة بإثبات المقبض. ان أبسط طريقة في إفريقيا، لتركيب سكين حجري أو حد للرمي قد تكون باستعمال أشكال مختلفة من الماستيك (الرتنج، الصمغ، وحليب النبات الخ) مع رباطات ليفية ووترية.

لقد صاحب ظهور الإنسان المعاصر في ما قبل التاريخ، سلسلة كاملة من الاختراعات في مستوى التطبيقات والخصائص الثقافية. فالترسبات المترابكة وبالكهوف والملاجئ تحت الصخور، وكذلك في بعض المواقع بالهواء الطلق، تبين أن المنشآت الفضلية قد أصبحت قاعدة عامة. ويبدو أننا أمام مجموعات أكثر نظاماً وإن ظلت متفتحة، ومعرضة في تشكيلها لتحولات مطردة. ان تعدد الأدوات والسعي لتوحيد أشكالها، والاطراد المتزايد لبناء الاضرحة المقصودة، ووضع الأشياء والأطعمة قرب الميت حتى يتمكن من مواجهة الآخرة، والاستعمال الأكثر انتظاماً للأصباغ للتزيين، وربما للطبوقس أيضاً، وحتى تذوق الموسيقى المشهود بشمال إفريقيا، كل ذلك يدل على الصفات التكوينية الواضحة التي يتميز بها الإنسان العارف. و يفسر أحد الجوانب من التخصص الأكبر في صنع الأدوات على المستوى الجهوي، بالميسول الجهوية نحو أنواع من الصيد، ونحو الاستهلاك بكثرة لبعض الأغذية النباتية التي يتطلب تحضيرها الرحي والمهراس. وتظهر أدوات الهرس لأول مرة مع الصنف ٤ و٣، لا سيما بعد ٢٥٠٠٠ بقليل. وتصبح مجموعة من الأدوات الثقيلة، أدوات أكثر خفة من الشمال والشمال الشرقي من زامبيا، وهي تعكس اطار استثمار يوفر موارد مشابهة جداً للموارد الزاير وأنجولا.

تبدو لنا بسيطة للغاية الفكرة التقليدية التي كانت لنا عن «العصر الحجري الوسيط» باعتباره مشتملا على اختلافات جهوية متميزة (ستباي، بيتوزبورغ، موصل باي، هويس بورت، الخ) وكلها متعاصرة تقريبا، وتدل عليها بعض الاحفورات الرئيسية. ان صناعات العصر الحجري الوسيط تستحق أن تعتبر نتائج تكيف منتظم مع مناطق أو جهات احيائية جغرافية متميزة، وقد فرضت فيها حاجات ونشاطات المجموعات الانسانية اختيار المواد الأولية المستعملة لصنع الأدوات. ومن أجل اثبات الأهمية النسبية في عين المجموعة، لمختلف المواد (الحشب، الحجر، العظم، القرن الخ)، يستحسن أن نقارن المعطيات الاحاثية البيئية بمعطيات التحليلات من نوع «تحليل ربط

الموقع» (١٥). ان مجموعة من الادوات الحجرية العادية لا تعني وجوبا «الرداءة» كما ان مجموعة من الادوات الحجرية «الظريفة» لا تدل على التفوق. ان الادوات الحجرية توفر لنا في حد ذاتها قسطا أدنى من المعلومات عن سلوك الذين صنعوها، ان الأهم هو إقامة علاقة ارتباط بين هذه الأشياء وبين جميع المنتجات الأخرى الناشئة من النشاط الإنساني والمحفوظة لتقوم شاهدا على مرحلة من مراحل احتلال المكان. ان بنية مواقع العصر الحجري الوسيط قد ظلت أقل تعريفا من بنية الأشولي والعصور السابقة. ان كهف المواقد يعطينا دليلا على وجود موائد للنار، ويدلنا كهف مونشاكو، على توزيع الادوات حول المواقد في كل أفق. وقد عثر في موقع أورانجيا ١ على أسس حجرية لحواجز ريح عديدة، وتمسكنا من العثور على منطقة واسعة محمية كان يقوم فيها نشاط بزايكوكات ٢٧ بمنطقة أورنج ريفر سكيم.

ووجدت عظام مكدسة بعد مرات عديدة وموقفة من الصيد وذلك في كالبنك في ترنسفال. ويبدو أخيرا أنه شرع في استخراج الهمايت لانتاج الأصباغ منذ ٢٨٠٠٠ سنة تقريبا وذلك حسبما يستفاد من الإكتشافات بكهف الأسود، في سوازيلاند، وجدت سندات راسخة في الأرض لقطع الحجارة في أفاق ١ في كلمبوفولز. فهي تعود ٢٧٠٠٠ سنة قبل الحاضر. ولقد اكتشفت بنفس الموقع دائرات حجرية يحتمل أنها حددت المواقد، بينما اكتشفت آثار مبعثرة لحجم مؤقت من صناعة بمباطا، وذلك بنهر ناطا في بوتسوانا. ان بقايا الحيوانات الدالة على مخلفات غذائية تبين أن الحيوانات الكبيرة كانت تشكل العنصر الأساسي للتموين. ان البعض منها، أي الجواميس، والثور والحيارم والحمر الوحشية والخنزيرات تعتبر من الأنواع التي يكثر جلبها الى أماكن للسكن. وبصفة عامة يبدو أنه يوجد بموقع العصر الحجري الوسيط تنوع أكبر في الفصائل الحيوانية مما عثر عليه بالأشولي. ولكن اذا كان اكتساب أسلحة صيد جيدة قد سمح بتنظيم حملات غامرة، فان حيوانات الصيد متنوعة جدا. ولم يصبح الصيد انتقائيا الا عند حلول العصر الحجري المتأخر.

وختاماً، لم يسبق من الممكن أن نعتبر صناعات العصر الحجري الوسيط دليلا على تقدم بسيط وخطي نحو تكنولوجية أكثر جودة وأكثر تطوراً. انها على العكس، تكشف، اذا كانت التواريخ صحيحة، عن عدد من التقنيات المختلفة التي لها قاعدة اقتصادية أساسا. وتتأثر تلك التقنيات بعضها ببعض حسب درجات مختلفة، ويمكن لها أن تتطور تبعاً للحاجات المادية. أن الأنواع المختلفة المعروفة قد تعبر عن ميول جهوية تتعلق بالموارد واستخراج المواد، وان كانت جل تلك الأنواع تستلزم تعريفاً أكثر تدقيقاً. ان بعض المواقع الطبقية (مثل كهف المواقد) تبرز مقطوعة متقدمة تماماً، بينما يدل التعاقب الطبقي في مواقع أخرى (كلاسيك ريفر على الساحل الجنوبي من جنوب إفريقيا، وكهف. زمبيباطا، بروديسيا) (٥) على التقاليد المستمرة بغربي فرنسا، ويمكن أن تتعاقب

(١٥) ان «تحليل ربط الموقع» هو طريقة دعت إليها فيثا فنزي وهيكر (١٩٧٠) لاقراء الموجود بالقوة من الموارد في منطقة استثمرت انطلاقاً من موقع ما قبل التاريخ. وذلك يتطلب تعريف حدود الموطن، وإلى أي مدى يختلف السكن والمجال الحيوي عما هما عليه اليوم (انظر فيثا فنزي، وا. س. هيكر ١٩٧٠) في اقتصاد ما قبل التاريخ بجبل الكرمل بفلسطين. تحليل ربط الموقع، وقائع جمعية ما قبل التاريخ، ٣٦، ١ - ٣٧.

٥ في المطبوع زيمبابوي عوض روديسيا - تعليق المراجع محمد القاسبي.

الاصناف دون تواصل ظاهر. ان تعويض صنف بآخر قد يعود الى أسباب اقتصادية وقد يعكس تغيرات بيئية أي أنه يدل على ميول غذائية جديدة. فالشواهد النادرة المتوفرة لدينا، تؤيد هذه الفرضية. الا أننا نفتقد التحليلات المفصلة للحيوانات والمعطيات اللقاحية لكي يثبت إن كانت تلك الأنواع البديلة قد طرأت في نفس الوقت بمناطق شاسعة احيائية جغرافية، أو أنها لا تعكس الا تطوراً مؤقتاً للمواد الغذائية الخاصة بهذا المنزل السكني أو ذاك.

ولما كان العصر الحجري الجديد بمجنوب إفريقيا معاصراً تقريباً للعصر الحجري القديم الأعلى الأوربي، فإن مراحل البداية تبدو، وإن كانت غير معروفة جداً، أكثر معاصرة على العموم للموسستيري أو الجبرودي (ما قبل الأورينياس) في الشرق الأوسط.

## العصر الحجري المتأخر

ان الصورة الكلاسيكية عن العصر الحجري المتأخر بإفريقيا الجنوبية، تنحصر في الصناعات المتكونة أساساً من الحجارة الصغيرة المسماة عموماً «ولطونية»، نسبة الى الكهف الموجود بالغرب من مقاطعة رأس الرجاء الصالح حيث اكتشفت هذه الصناعات المتميزة، ووصفت لأول مرة مثلاً كان شأن صناعة المكاشط المسماة سميثفيلد، بالمنطقة الغنية بالليدانيت في هايفيلد. واكتشفت ببعض المواقع من جنوب القارة صناعات أطلق عليها اسم ما قبل ولطونية، وظهرت منذ ما يزيد على ٢٠٠٠٠ سنة وتدل على تغير جذري في تكنولوجيا الأدوات الحجرية. وقام مقام النواة المهيأة من العصر الحجري الوسيط، نواة ليس لها شكل معين وتقطع منها شظايا غير منتظمة. ان الأدوات الوحيدة التي حافظت على طابع خاص تبدو أنها من أنواع مختلفة من المكاشط الكبرى، والمحكات المنحوتة على شظية أو على أدوات حادة وكذلك أشكال عديدة من المحكات هي أصغر ومعدبة. وتوجد منها نماذج في مناجم تقع في الساحل الجنوبي (١٦) من ولاية أورانج الحرة (١٧)، وفي ترنسفال (١٨)، وناميبيا (١٩) حيث هذه الآثار لها علاقة بذبح ثلاثة فيلة.

ان الصناعة المعادلة في روديسيا (\*) هي صناعة البوموبكني التي تؤرخ بين ٩٤٠٠ ± و ١٢٢٠٠ سنة قبل الحاضر. ولها علاقة ارتباط بمواقد كبرى ذات رماد أبيض، وبيع بعض الحدود الاولى من العظم المكتشفة بذلك العهد. ولعل الأمر يستوجب أن نربط بها أيضاً مستوى من كهف ليوبارد هيل في زامبيا بـ ٢١٠٠٠ الى ٢٣٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وهناك مكتشفات أخرى لم تؤرخ

(١٦) كهف خليج نلسون، ضبط تاريخه بـ ١٨٠٠٠ الى ١٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر، ماتيس و يفر الذي يعود الى ١٠٥٠٠/١٢٢٥٠ قبل الحاضر، ثم أوكهورست. أما في كهف خليج نلسون فتوجد صناعة تشمل صناعة المحكات الحادة وتعود الى تاريخ يتراوح بين ١٢٠٠٠ و ٩٠٠٠ سنة قبل الحاضر. ان أغلب الأدوات مصنوعة من شظايا كبيرة. ولا توجد أشكال مصنوعة من حجارة صغيرة وتوجد صناعة قبل ولطونية في مناجم أخرى من منطقة الجبال الجنوبية، مثلاً في مكنوتوم حيث تؤرخ بـ ١٠٥٠٠ ± ١٩٠٠ قبل الحاضر.

(١٧) «سميثفيلد أ»، به مثلاً صناعة الفترة ١، من زيكوكات ١٣.

(١٨) أوتكومست، أرخت بـ ٧٦٨٠ قبل الحاضر.

(١٩) وندهوك (Windhock) تعود الى ١٠٠٠٠ ± سنة قبل الحاضر.

(٥) في الطوبع زيمبابوي — تعليق المراجع محمد القاسي.

في بوندولاند (كهف أومكزنا) بوادي الزمير الوسيط، في زامبيا (لوكاندا) بمناطق أخرى و يبدو من هذا التوزيع أن تغيرا تكنولوجيا عميقا قد عم بين  $\pm 20000$  و  $9000$  سنة. ولقد ظلت أسبابه غير واضحة، إلا أن مؤلف هذا الفصل يفترض أنها قد تكون نتيجة تغيرات البيئة الطارئة بذلك العهد والتي قام الدليل على وقوعها في عدد من المواقع بأفريقيا الجنوبية (خليج نلسون زمبيبا الخ). وقد تكون نتيجة تطور انتشار أدوات وتقنيات أكثر نجاعة تتعلق خاصة بطرق جديدة في الصيد.

ان تلك الصناعات التي قبل «الويلطونية» متصلة باستثمار ذوات الحوافر الكبرى: الحيامر، السنو، الظباء الزرقاء، والكوغا. ويبدو أن تلك الصناعات قد ناسبت، في خليج نلسون، تغيرا بيئيا طرأ بعد  $12000$  سنة قبل الحاضر. لما عوضت حيوانات المروج أنواع من الغابة العروية. يضاف إلى ذلك أن ظهور عدد كبير من الحيوانات البحرية ضمن بقايا الحيوانات، يدل على أن ارتفاع مستوى البحر، مدة المراحل الأخيرة من البليستوسين، كان قد يسر الاستثمار المباشر للحيوانات البحرية انطلاقا من ذلك الكهف.

و يبدو اليوم ان الصناعات ذات الصفائح المحتوية على نسبة عالية من أشكال الحجارة الصغيرة ذات الحافة المعكوفة كانت قد ظهرت بجنوب أفريقيا الوسطى في فترة سابقة بكثير لما كان يعتقد. وتمثل إحدى تلك الصناعات الأكثر قدما، المرحلة القديمة من الصناعة النشيكوفية (نشيكوفو) في زامبيا حيث يوفر أقدم تاريخ  $16715 \pm 95$  سنة قبل الحاضر. وظهرت صناعة ولطونية في روديسيا (٥) في حوالي  $12000$  قبل الحاضر (كهف تشانكولا) وبعد ذلك بقليل بجنوب أفريقيا (تقريبا  $8000$  إلى  $5000$  قبل الحاضر وتوازي هذه الأمثلة من جنوب أفريقيا الوسطى صناعات حجرية صغيرة محضة لها صفائح ذات ظهور أصلها من مناجم أفريقيا الشرقية. من ذلك صناعات أوكلندا (كهف منيا، وجزيرة بوما  $14480 \pm 130$  قبل الحاضر) والكينيا، ومن رفث نكورو/نيفاشا (برولا ونجد درفت،  $13300 \pm 220$  ق. ح) ومن طانزانيا الوسطى (ملجأ تحت صخرة في كيسيزي،  $18190 \pm 300$  ق. ح ويمثل التشيتولي بحوض الزاير صناعة قريية منها لكنها مختلفة جهويا ( $12970 \pm 250$  قبل الحاضر).

ان الثقالييد الحجرية الصغيرة تناسب تطور أشكال من الادوات المتعددة التركيب وتزايد نجاعتها. ويعتبر القوس والسهم أهمها، ونحن نجهل متى ظهر هذان السلاحان، بأفريقيا لأول مرة. ولعل ذلك كان قد حصل بالمرحلة الأخيرة من البليستوسين، ومن الأدوات التي لا تقل أهمية عن القطع والأشكال الأخرى من الادوات ذات الحافة المعكوفة الحجرية المستعملة عمادا للسهم نذكر مختلف أشكال الحدود العظمية وأسلحة الرمي التي يحتمل أنها كانت حدود سهام. ان البعض منها يعود بدون شك إلى  $12000$  سنة.

ويمكن التعرف على مقطوعات تطويرية في تلك الصناعات الحجرية وذلك بأماكن عديدة من أفريقيا الجنوبية. إلا أنه يحتمل ان النواة شبه الصحن قد بقيت في مناطق أخرى، مثلما هو الشأن بالشمال الغربي من زامبيا، حتى الألفية الثانية قبل الميلاد، ويبدو أن العناصر الحجرية الصغيرة

الولطونية قد انقرضت في أماكن أخرى (بولاية أورانج مثلا) فعوضتها صناعات يغلب فيها المحك (سميثفلد ب).

ان المواقع المعروفة من العصر الحجري المتأخر تفوق عدد المواقع المعروفة من العصر الحجري الوسيط. ويحق لنا بأن نعتقد أن بداية الهولوسين كانت حقبة تزايد ديمغرافي. ومن ذلك العهد أيضا (١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر) احتلت الكهوف والملاجئ تحت الصخرية أكثر فأكثر. ولقد استثمرت الموارد المحلية استثمارا أكثف مما كان. وتبين بقايا الحيوانات المكتشفة بمواقع السكن الأهمية المتزايدة للصيد وقص حيوانات معينة. ويحتمل أن يكون هذا النوع من الإستثمار لا يختلف عن نوع الإستثمار عند أفراد قبيلة سان الحاليين في كالا هاري والصيادين القاطنين من أهل المنطقة المدارية الجافة.

ان تنقلات إحدى الجماعات، وموطنها مرتبطة بدون شك بالموارد الفصلية من الماء والأعشاب والحيوانات. ولذا يمكن أن نتصور إذا كانت تقع اتصالات منتظمة بين مجموعات متجاورة. ان أولئك الذين كانوا يعيشون قرب عين ماء صافية أو قرب البحر كانوا يستثمرون أيضا الموارد المحلية من الأسماك، والأصداف والتدييات المائية، وكان آخرون يصطادون خاصة القطعان الكبيرة من الظبي، ويصطاد آخرون الحيوانات الصغيرة، وإن أشكال الادوات الأكثر رواجاً متكونة، في المنطقة الجبلية الجنوبية بمقاطعة رأس الرجاء الصالح، من محكات صغيرة لها أنواع مختلفة، أما البقايا الغذائية فهي غالبا للتدييات الصغيرة، المصطادة بالفخ. ومن جهة أخرى، كشفت الصناعات في روديسيا (\*) وزامبيا وغيرها، وفي المروج والغابات الخفيفة عن قطع عديدة حجرية صغيرة وعن صفائح ذات حافة معكوفة لها صلة ببقايا التدييات الكبيرة. ان تلك الادوات الحجرية الصغيرة تفيد أن الاسلحة الأساسية قد كانت القوس والسهم، وكانت الحجارة الصغيرة مثبتة بمقابض، مفردة أو زوجا لتشكل حدودا عريضة قاطعة تشبه حدود مصر في عهد الأسرة المالكة، وتشابه بعض سهام قبيلة سان بالعهد التاريخي والتي وصلت إلينا. ولقد كان امتداد مواطن مجموعات الصيادين يخضع لعوامل بيئية مختلفة. ولقد تبين بالغرب من مقاطعة رأس الرجاء (دى هنغن) ان مجموعات ما قبل التاريخ من السكان كانت تقضي الشتاء على الساحل، وتعيش خاصة من منتجات البحر، وتقضي الصيف بالجبل على بعد ١٤٠ كلم في الداخل حيث كانوا يأكلون نباتات مختلفة والميركس والسلفاوات وحيوانات أخرى صغيرة.

احتل الصيادون القاطنون من العصر الحجري المتأخر بالجهات المواتية جدا من إفريقيا الجنوبية، بعضا من المناطق التي تعد من أغنى المناطق في العالم من حيث الموارد الغذائية الحيوانية والنباتية. ولما كانت موارد الصيد، مثلما هو الشأن هنا، غالبا لا تنفذ فقد وجد الصيادون متسعا من الوقت لتعاطي أنواع من النشاط الفكري مثلما تشهد مثلا بذلك الآثار البديعة من فن الرسم الجداري بمجال دركنز بوك وروديسيا (\*) وناميبيا. والصحيح أن عددا من تلك الأعمال الفنية لا يتجاوز بتاتا ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ سنة وان كانت توفر شهادة لا نظير لها عن طريقة عيش أولئك الصيادين القاطنين من قبل التاريخ. وقد دامت في حالات كثيرة، حتى عند السان في كالا هاري



الوسيط ومن الواضح أن ذلك الفن يعود أيضا إلى عهد بعيد جدا. أما اللوحات الأكثر قدما والمكتشفة إلى الآن بإفريقيا الجنوبية فقد اكتشفت في ملجأ تحت صخرة في أبولو ٢ بالجنوب الغربي الإفريقي (ناميبيا حيث تظهر على جدران صخرية وذلك في مستوى أرتخ بـ ٢٨٠٠٠ سنة قبل الحاضر).

إن سكان العصر الحجري المتأخر، العائشين من الصيد والقطف، مدة القرون الأولى بعد الميلاد، ما لبث أن حل محلهم في أكبر جزء من إفريقيا الجنوبية فلاحون كانوا يعرفون صناعة المعادن. ويحتمل كثيرا أن يكون أولئك السكان هم الرواد الأوائل للمهاجرين الناطقين بلغة بانتو الذين هاجروا من موطن يوجد بالشمال الغربي (تشاد وكمرون) للإقامة بالجزء الجنوبي من القارة. وعلى هذا الأساس لا توجد بإفريقيا الجنوبية، آثار الثقافة الحجرية الجديدة وذلك يعني انعدام فلاحين يصنعون الفخار، ووجود سكان يعرفون أدوات حجرية لا سيما الفؤوس المهدبة والمصقولة. إلا أنه ينبغي أن نعدل هذا الحكم، فنقول بأنه، رغم فقدان أثر الفلاحة قبل ظهور السكان من عصر الحديد فلا شك أن بعض المجموعات من العصر الحجري المتأخر بإفريقيا الجنوبية الغربية كانت تملك أغناما ثم أبقارا وذلك حوالي القرن الأول قبل الميلاد وحتى قبل ذلك ويمكن أن نشبه البعض منهم بقبائل خواي خواي التاريخيين أي برعاة رحل لا يتعاطون الفلاحة لكن كانوا يصنعون نوعا معينا من الفخار. إلا أنه لم يوجد أي أثر من سكن الرعاة، بحيث يجب علينا أن نعود إلى المراجع التاريخية للتعرف على تلك المجموعات عندما يتعذر علينا أن نعول على علم الآثار. ولنا أن نتساءل أيضا من أين أتت مواشيهم؟ إن المعطيات اللغوية تبين حسب بعض المؤلفين أنها أتت من شعوب تتكلم لغات السودان الشرقي والأوسط، بينما يميل آخرون إلى مهاجرين من مطلع عصر الحديد. ومهما كان المأثري، فهناك احتمال ضعيف في أن تكون بداية تلك المرحلة الرعوية سابقة بـ ٣٠٠ سنة للميلاد، علما بأنها انتهت في القرن الثامن عشر.

وهكذا فإن نتائج أبحاث ما قبل التاريخ الجارية بإفريقيا الجنوبية تبين الدور الهام الذي لعبته أراضي السجود العالي الداخلي في تطور الإنسان صانع الأدوات. إن الذكاء والنجاعة المتزايدة اللذين اعتمدهما سكان من البشريات المتعاقبة لتسليح أنماط السلوك، وتكوين رصيد ثقافي مكانهم من استثمار موارد النظم البيئية التي عاشوا بها، استثمارا كثيفا، يسمح بأن نفس الاختلافات الجنسية والثقافية التي تتميز بها الشعوب الأهلية بإفريقيا الجنوبية الحالية (سان وخواي خواي وبرغداما، أو فطجمبا، وتوا، وبانتو) مع الاستفادة بقدوم وتواصل صفات سلوكية بارزة، تواصل كبير بحيث ظلت قائمة إلى عهدنا هذا.

## ما قبل تاريخ افريقيا الوسطى

### القسم الأول

بقلم: زوجي دي بايل دي هرمنس

يمتد حوض الزاير (الكونغو سابقا) جغرافيا من خليج غينيا غربا الى منطقة البحيرات الكبرى شرقا، تقريبا على خط التوازي العاشر جنوبا من أنجولا وشابا (كتنجا سابقا) وعلى الخط الفاصل بين مياه الأحواض الهيدروغرافية من تشاد والزاير شمالا (١).

فهو يمثل حاليا المنطقة الاستوائية أساسا و يعتبر كساؤه الشجري المتكون من الغابة الكبرى، أكثر الأكسسية كثافة بافريقيا، فمن المعلوم فعلا أن تلك المنطقة الغابية قد امتدت، في فترات رطبة جدا معينة، نحو الشمال أكثر مما هي عليه الآن ولقد تقلصت مدة الآلاف من السنين ولم تظل قائمة الا على شكل أشرطة غابية يزداد أو يقل عرضها على طول الأنهار والجداول. وإذا كنا نؤكد على هذا الكساء الشجري فلأنه كان عاملا أساسيا في نمو وتطور حضارات ما قبل التاريخ بتلك المنطقة. وهذه الحضارات وخاصة ما أعقب منها الاشولي تبدو من خلال الأبحاث والمعارف المتوفرة حاليا كأنها قد تطورت بعين المكان، وتأثرت بالغابة البدائية وبدون أن يحصل الاتصال بينها وبين السكان العائشين بالمناطق ذات النباتات القليلة الكثافة. أما في الشمال فان هجرات العصر الحجري الحديث المتجهة من الشرق الى الغرب قد جانبت الغابة ولم تدخلها كأنها تمثل عقبة وعالما لا يدخله السكان المعتادون العيش بمناطق السباسب والمساحات الكبرى المكشوفة. فلا شيء في صناعات العصر الحجري القديم ولا شيء في العصر الحجري الحديث، ولا شيء في فن الرسم

(١) نقصد بافريقيا الوسطى البلدان الآتية: الزاير، امبراطورية وسط افريقيا، جمهورية الكونغو الشعبية، الجابون، الكامرون، وبعض الأجزاء من أنجولا، ورواندا، وبوروندي.



الجداري الذي لم يكن على أية حال معروفا بمحوض الزايز، ولا شيء من كل ذلك يسمح بأن نؤكد على حدوث اتصالات مع السكان القاطنين بالفيافي التي لم تتحول بعد الصحراء الكبرى الجافة المعروفة اليوم. وإن حدث أن وقعت اتصالات، ينبغي أن نتجه نحو الشرق والجنوب من افريقيا، كما ينبغي أن نبحث بها عن ابتداء هجرة مجموعات بشرية سكنت في الغابة الاستوائية الكبرى غربا.

أما فيما يتعلق بالمناخ، فإن الدهر الرابع بتلك المنطقة قد يكون قريبا من مناخ افريقيا الشرقية مع تغيرات محلية راجعة الى علو المناطق الجبلية الشاهق، ويوجد حسب ج. مرتلمنس (١٩٥٢) أربع حقبات ممطارية ومرحلتان رطبتان (٢):

الناكوري	— الرطب الثاني
الماكالي	— الرطب الأول
الكبلي	— الممطار الرابع
الكننجري	— الممطار الثالث
الكاماسي	— الممطار الثاني
الكاغيري	— الممطار الأول

ويتعلق عمران منطقة من المناطق الى حد ما بحسب هذا التعاقب بين حقبات جافة نسبيا وأخرى رطبة جدا وذلك عن طريق ما يطرأ من تغير على ما نسميه اليوم «البيئة».

إن التوغل العسير في اعماق الغابة قد جعل العديد من المؤرخين لما قبل التاريخ، يقولون بأن عدد سكان تلك المنطقة كان قليلا من العصر الحجري الأسفل الى العصر الحجري الجديد. ونحن لا نوافق على هذا الرأي وينبغي أن نقضي على الأسطورة المتعلقة بصعوبة العمران بتلك المنطقة. وإذا كان مجموع الأدوات الحجرية بتلك المنطقة كلها قليلا الى حد ما، فلأن الباحثين قد ترددوا في القيام بسحوث طويلة المدى في أحوال عسيرة. واعتبارا للنتائج التي حصلت عليها بعثات عديدة بأنجولا وبامبراطورية وسط افريقيا والزايز، واعتبارا للكميات الهائلة من الحجارة المنحوتة المحصل عليها، يجب أن نعترف أن عمران ما قبل التاريخ الذي حصل في ما يسمى «الغابة الكبرى» كان هاما بقدر ما كان هاما بالمناطق الاخرى من افريقيا.

يجب أن نضيف في النهاية أن الآثار النباتية بالمنطقة الاستوائية الرطبة، لم تبق محفوظة بسبب حموضة الارض، ولذلك انعدمت الاحفورات الانسانية، وبقايا الحيوانات والأدوات العظمية، الا بعض الاستثناءات النادرة، علما بأنها متعلقة بالحقبات الحديثة جدا، بل والتاريخية.

(٢) الناكوري: مرحلة رطبة تعرف بالترسبات الشاطئية دون ١٠٢ مترا من بحيرة نكورو بالكينيا.

الماكالي: مرحلة رطبة تعرف بالشواطئ البحرية من ١١٤ مترا و ١٠٢ مترا من بحيرة نكورو.

الكبلي: الممطار الرابع الذي يعرف بما حول بحيرات نكورو، وتيفاشا وخاصة المنتيت (غمبلز كيف) في الكينيا.

الكننجري: الممطار الثالث الذي عرفه ل. س. ب لاكي بحسب راسب أحفوري اكتشف بكنجر على خليج كفرنندو.

الكاماسي: الممطار الثاني الذي ينسب اسمه الى ترسبات المشطورات التي درسها جريجوري بكسيا بالرفت فالي بالكينيا.

الكاغيري: الممطار الأول، سمي بهذا الاسم بسبب نظام سطح كاغيرا أو أوغندا، اكتشفه أ. ج. و. ويلاند عام ١٩٣٤.

## لمحة تاريخية عن البحوث

لقد ظل ما قبل تاريخ المنطقة الغابية الاستوائية من حوض الكونغو مجهولا بسبب كسائه الشجري العظيم وتشكلاته اللاتيرية الكبرى التي اندمجت بها بقايا الصناعات التابعة لحضارات عديدة في ما قبل التاريخ.

ان الشروع في مغرفة ما قبل تاريخ تلك المنطقة قد استوجب انتظار تقدم الأشغال العامة الكبرى (وضع خط سكة الحديد، الطرقات، الجسور وقنوات التطهير) والبحوث المنجمية حتى «يتوفر للجيولوجيين ومؤرخي ما قبل التاريخ رسوم جيولوجية تكشف عن الأدوات الحجرية».

وفي الزاير يبدو أن الاكتشافات القليلة الأولى لأدوات ما قبل التاريخ كانت اكتشافات الرائد كل. زبونسكي التي وقعت أثناء بناء سكة الحديد. ولقد درسها سنة ١٨٩٩م كس. سترايتر الذي حاول أن يستخلص بعض المعلومات المؤقتة، رغم افتقاره لدراسة طبقات الأرض، ثم تطورت البحوث بين ١٩٢٧م الى ١٩٣٨م ونشرت أعمال هامة، لا سيما أعمال ج. كولت، ف. كابو، ا. بولوينار، م. بكارت، ج. مرتلمنس، والقس أنسيودي فابو، والقس ه. بروي. وهناك أعمال أخرى أحدث من تلك، قام بها ه. فان مورسل، وف. فان نوثن، ود. كاهين الذي ما تزال أبحاثه جارية.

وفيما يتعلق بالكونغو برازافيل، وهي منطقة غابية أساسا، تعتبر الاعمال المنشورة أقل عددا. وينبغي أن نذكر أبحاث ودراسات ج. بابت، ر. ل دواز، ج. دور، ه. كيلى، ج. لومبار، وب. لوروا. وتتصل أعمالهم خاصة بالاكتشافات التي وقعت على طول سكة الحديد من بوانت نوار الى برازافيل. ان ما قبل تاريخ الجابون معروف من خلال أعمال كي دي بوشان، وب. فرين، ب. بلنكوف وإ. بومري. وهنا أيضا تعتبر المعلومات محدودة ولم توضع رسوم طبقية أرضية بصفة دقيقة.

ان أول الأعمال التي وقعت بامبراطورية وسط إفريقيا هي أعمال الاستاذ لاكروا، الذي اكتشف سنة ١٩٣٠م، أدوات لما قبل التاريخ في طمي الأنهار من مرتفع موكا. ولقد نشرت تلك الاكتشافات سنة ١٩٣٣م من طرف القس ه. بروي، وأشار في نفس السنة فليكس ايبوي في دراسة اثنوغرافية، الى بعض الادوات الحجرية المكتشفة إثر أعمال مختلفة. وانطلاقا من ١٩٦٦م/١٩٦٨م أجرى ر. دي بايل دى هرمنس بحثا منهجية في البلاد. ولقد سمحت المنشورات التي تلت ذلك بالوقوف على فكرة واضحة عن صناعات ما قبل التاريخ وجدت بمنطقة لم يكن يعرف عنها شيء.

ان ما قبل تاريخ الكرون لم يكن معروفا حتى السنوات الاخيرة واستدعى ذلك انتظار أعمال ن. دفيد، ون. هرفيو، وأ. مارلياك، لاعطاء لمحة عامة عن منطقة افريقية أخرى تنتظر الاستكشاف. أما فيما يخص أنجولا، فلقد اهتم بها ج. ينمرت وه. بروي، وج. د. كلارك الذين قاموا بأعمال تتعلق بالمناجم الغنية بالطمي المستكشفة في ورشات الألماس.

## أسس الترتيب التاريخي

سنعتمد في هذه الفقرة على أعمال الترتيب التاريخي الخاصة بالدهر الرابع لحوض الزاير التي وضعها ج. مرتلمس (١٩٥٥م - ١٩٥٧م) والتي تعتبر بحسب المعلومات الحالية مقبولة جدا.

### المطار الكاجيري

يبدو أنه أهم مطار من المطارات الاربعة التي تابعت. فهو حقة من الحفر الداخلي المكثف الطارئ على الأودية ومن تشكل مسطحات عتيقة جدا من الحصة التي تحوي أقدم صناعات الزاير. ان هذه الصناعات التي تكاد تكون في مجموعها من الحصة المهيأة، تصنف ضمن ما قبل الأشولي الأسفل (كفوان، ج. مرتلمس). ولقد أعقب جفاف كبير المطار الكاجيري وكسا المسطحات العتيقة وعنة (Latérite) كثيفة نعثر بها على ما قبل أشولي أكثر تطورا. لكنه غير مرتب ترتيبا تاريخيا صحيحا نظرا لانعدام رسم طبقة الأرضية.

### المطار الكاماسي

يوجد هذا المطار بالطابق النهائي من البليستوسين الاسفل ويشمل كل البليستوسين الوسيط. وهو ينقسم في الواقع الى مرحلتين تفصلها مرحلة أكثر جفافا. وتتصل هذه الحقبة، في حوض كنساي مسطحات من ٣٠ مترا و ٢٢ - ٢٤ مترا. وكذلك تتصل بها في شابا (كتنجا) وفي غرب امبراطورية وسط افريقيا على ما يبدو حصباء المسطحات وأعماق الأودية المسماة طالويك (Thalweg)، والمجري الاحفورية لجداول الماء، ولقد حدث في ذلك الوقت بنطاق ذات تضرير أرضي قليل النتوء، ردم كامل في بعض مجاري الانهار وحفر نهر جديد، و يوجد بتلك الطبقات العميقة من تلك المجري الاحفورية أدوات ما قبل أشولية أكثر تطورا من الأدوات التي توجد بمسطحات الكاجيري القديمة. ولقد حدث أن برزت به بعض ذوات الوجهين، إلا أن رتبته التاريخية ليست مضبوطة كل الضبط.

ان نهاية المرحلة القصوى من الكاماسي شهدت الاشولي الاسفل يعقب الصناعات ذات الحصة المهيأة. وما زال ذلك الاشولي الاسفل يشتمل على حصة عديدة منحوتة ونلاحظ فيه بروز أدوات جديدة: ذوات الوجهين، والقذومات بصورة خاصة. فهذه الأخيرة التي كانت قليلة جدا في الأول، سرعان ما اتخذت مكانة مهمة بين أدوات تلك الحضارة.

وأعقبت الجزء الأول الاقصى من الكاماسي، مرحلة معتدلة الجفاف، ونشهد فيها تشكل وعنات (تربة حمراء) جديدة، و ردم متحدرات، ورواسب من غرين الانهار، ولقد حدث أشولي متوسط في تلك الحقبة، وهو يتكون عادة من شظايا يحصل عليها عادة بالقطع الجانبي الذي يوصف «بتقنية فكتور يا الغربية ١» (٣).

(٣) اسم يطلق على تقنيتين من القطع «لوقالوا» المشهورتين خاصة في الصناعات المجموعة قرب شلالات الزمبارز بفكتور يا (شلالات فكتور يا).

وشهد الكاماسي الأقصى الثاني (٤)، وهو أقل بروزا من الأول، وضع رواسب جديدة من الحصباء، وتشكل مسطحات علوها ١٥ مترا في كساي، وتنتهي الحلقة ببداية فترة جافة تشهد تشكل تفتية قطع جديدة وهي فكتوريا الغربية ٢، وتطور أداة أخرى هي المنقر الذي سيحتل بالمنطقة الغابية مكانة هامة بمجموع الصناعات التابعة للأشولي.

وتعتبر حقبة ما بعد الكاماسية الجافة أهم ما عرف بتلك المنطقة، ان الفيا في تمتد نحو الجنوب وتمتد صحراء كالا هاري نحو الشمال ويرى بعض المؤلفين أن الغابة الاستوائية قد انقرضت فعلا ولم تظل قائمة الا في مناطق صغيرة غابية. وتراكت رمال حمراء صحراوية بكثافة كبيرة أحيانا، فانقرض الأشولي، بل يبدو أنه أخذ يتحول بعين المكان الى صناعة بخديدة تدعى سنغون (Sangoen) وذلك بافريقيا الاستوائية والمناطق الغابية خاصة.

ان الأدوات تتحول والقودومات تقل وتنقرض نهائيا، وتصبح الفؤوس اليدوية أكثر وأضخم، وتتوافر المناقر جدا وتظهر بين الأدوات أدوات جديدة: من ذلك قطع ذات وجهين ممدودة لها أحجام كبيرة. ويبدو أن تلك الأدوات ملائمة للحياة الغابية. الا أن ذلك يتنافى مع المحيط الذي تطور فيه السنغون اذا قبلنا الفرضية القائلة بأن الغابة الاستوائية قد زالت بفترة جفاف ما قبل الكاماسي الذي حدث به. ويجب أن نقرأ أن السنغون هو الآن إحدى الصناعات الافريقية التي لا نعرف عنها الا القليل.

### المطار الكبلي

شهد المطار الكبلي عودة تشكل الغابة الاستوائية بينا أخذت الأنهار تحفر الاودية وتضع طمي المسطحات المنخفضة، وهو طمي يتكون من الرمال الرميحة المتراكمة إثر الجفاف الأخير. وقد تطور السنغون بالزايير الغربي وبكساي نحو صناعة جديدة أقل ضخامة، وهي اللو بمبي، الذي يعتبر صناعة تنتسب الى الحضارة الغابية. وشهدت المناطق الجنوبية الشرقية الصناعات المقاربة لصناعات جنوب افريقيا والكينيا، وهي صناعات شظايا وحدود تشبه في مظهرها الصناعات المستيرية وتعرف بعبارة «العصر الحجري الوسيط». ولم تحدد، سواء ضمن طبقيتها الأرضية التي كثيرا ما تكون معدومة، أو ضمن الأنواع المعروفة.

### الماكالي والنكوري، مرحلتان رطبتان بعد الكبلي

تعتبر هاتان المرحلتان أقل بروزا من المطارات السابقة وتندرج بينهما مرحلة قصيرة جافة. والنكوري غير معروف معرفة واضحة جدا بحوض الزايير. وقد حفرت الأنهار في الماكالي قليلا مجراها ثم حدث ردم جديد. وفي عين المكان تطور اللو بمبي وأصبحت الأدوات صغيرة أكثر فأكثر بينا أصبحت القواطع، وحدود الأسهم وافرة جدا بالتشيتولي، وهي حضارة الصيادين. وتطورت بالزايير الشرقي، وفي شابا وفي أنجولا مظاهر عدة تضمنها العصر الحجري المتأخر، هي مجموعة تستوجب النظر

(٤) يعتبر بعض المؤلفين هذا الكاماسي الأقصى الثاني «الكنجري» وذلك ما يشكل ٤ حثبات رطبة عوضا عن ثلاث، أحدهما ذات مرحلتين متميزتين.

فيها من جديد لأن صناعات عديدة مختلفة ومتناثرة قد أدرجت فيها حتى أصبح من العسير ضبط موضعها بدقة في الترتيب التاريخي.

ولقد اكتسحت الصناعات الحجرية الجديدة مدة الحقبة الرطبة النكورية وبعدها، والتي منها التشيتولي، اكتسحت افريقيا الاستوائية حيث يبدو أنها دامت بها أكثر مما دامت في مناطق أخرى، ولم تدخل حضارة النحاس والحديد الا في عهد متأخر جدا بتلك المنطقة ذات المنافذ الصعبة، وذلك واقع يبين مرة أخرى تطور حضارات ما قبل التاريخ بعين المكان.

## صناعات ما قبل التاريخ بحوض الزاير

### صناعات ما قبل الأشولي

هناك صناعات في ما قبل التاريخ قديمة جدا ومتكونة من حصاة مهشمة وهي معروفة حق المعرفة بحوض الزاير بأجمعه. فهي مخفية عادة تحت الوعناات القديمة مثلما هو الشأن بحوض كفيلا العليا بالزاير وفي امبراطورية وسط افريقيا، وذلك في شكل التكوينات الوعنية من مرتفع سالوبصنغا العليا، حيث توجد أيضا بالطامي العميق من المجاري الاحفورية التابعة لجداول وأنهار تلك المنطقة. وهي مندمجة بأنحولا في طمي عميق ذي عناصر ثقيلة في عدة جداول.

ان هذه الحضارات القديمة في ما قبل التاريخ المعروفة «بحضارة الحصاة المهيأة» و«بثقافة الحصاة» و«بالعصر الحجري المبكر» تحمل أسماء مختلفة بحسب الأماكن ومؤرخي ما قبل التاريخ الذين أشاروا اليها لأول مرة. وهي تندرج كلها في حركة تطويرية بطيئة لتقنيات النحت الذي دام ما يقرب من مليوني سنة.

### الكافوي

ان الموقع الذي أخذ منه اسمه يوجد بوادي كافوي في الأوكاندا. وقد اكتشفه أ. ج. وايلند سنة ١٩١٩م. ان صناعته متكونة من حصاة الأنهار انتزعت منها ثلاث شظايا في ثلاثة اتجاهات رئيسية وقل أن تكون في اتجاه واحد، فيتكون منها هكذا قاطع خشن. وينقسم الكافوي حاليا الى أربعة مستويات: الكافوي البائد، والكافوي القديم، والكافوي الحديث، والكافوي المتطور. ان هذه المراحل الأربع معروفة في نسونكيزي بجنوب الأوغندا بالمسطحات على علو ٨٢ الى ٦١ مترا. ويقترب الكافوي المتطور جدا أو يشبه أحيانا الأولدواي. ويعتبر بعض مؤرخي ما قبل التاريخ أن المستويات القديمة من الكافوي ليست أدلة على أن تلك الأدوات انسانية، بل أن الحصاة المهترسة التي توجد بها ناتجة عن كسور طبيعية.

### الأولدواي

ان الموقع الذي أخذ منه اسمه هو أولدواي بطنانزانيا بسهل سرجنتي، كان اكتشفه كات



و ينكل سنة ١٩١١م وأصبح مشهورا ابتداء من ١٩٢٦م إثر أعمال واكتشافات ل. س. ب. لايكبي.

ان فـج أولدوواي يشق بعمق ترسبات بحيرة من البليستوسين المتوسط والأعلى، وقد وقع فيه تعريف أحد عشر مستوى «شلتو أشولي» فوق ما قبل الأشولي الذي يشكل الأولدوواي.

ان الأولدوواي صناعة متكونة من حصاة الأنهار إلا أنها في العادة أقل انبساطا من حصاة الكافوي. ان نحتها يعتبر أكثر تطورا، وحدها منعرج يُحصَلُ عليه بالنزع المتعاقب الذي أدى في آخر مرحلة من هذه الصناعة، الى إبراز حد يؤذن بمحضارات ذوات الوجهين. فالأولدوواي معروف في شأبا بالغرب من امبراطورية وسط افريقيا، (مناجم الطمي في صنغا العليا). و يبدو أنه موجود بالشمال الشرقي من أنجولا. الا أنه رغم اكتشاف بعض الحصى المهيأة بالكرون، والجابون، وبالكونغو برازيل، فلم يحدد مكانه بالضبط بتلك الأقطار الاخيرة الجافة المحاذية لخليج غينيا.

## الأشولي

الأشولي حضارة ممثلة أحسن تمثيل بحوض الزاير وتوجد منه ثروة خارقة للعادة ببعض المناجم الطمي أو بالمسطحات. ان تقسيمات الاشولي الى أربع أو خمس مراحل — وذلك حسب المؤلفين — تناسب خاصة تقنيات نحت الادوات واتمامها. فهي نوعية أكثر مما هي طبقية أرضية، وتتكون المناجم الأشولية في جلها من طمي مجاري المياه القديمة، وهذا الطمي مترسب في شكل مسطحات، وفي شكل حصباء أو رمال تلمعة أو في مجار أحفورية من الانهار الصغيرة التي تحولت مجارها، ان الصناعات غير موجودة بعين المكان. فلقد نقلت، وتركزت بعامل السيلان واثكلت من جراء الزحل، وعلى هذا الأساس فان دراسة الأشولي في هذه المناجم تركزت... على علم الأنواع لا على طبقات الأرض، مثلها هو الشأن بأولدوواي حيث تتميز الترسبات البحرية المشتملة على الصناعات، بقوة تقدر بمائة متر.

وتختص الصناعة الأشولية بأدوات متنوعة جدا وأكثر تعقيدا مما هو موجود بمحضارات ما قبل الأشولي. وما انفكت الحصاة المهيأة موجودة به الا أنها أصبحت تقل كلما تطورت الصناعة من دون أن تنقرض نهائيا. ولقد تبوأ أدوات جديدة أهمية كبيرة: أي ذو الوجهين أولا، وهو أداة كما يدل عليه اسمها منحوتة على الوجهين من حصاة أو من شظية. ان شكلها ملوّز، وحدها متفاوت بُروزا وقاعدتها كثيرا ما تكون مستديرة، ومقطعها كثيرا ما يكون عدسيا وأحجامها متنوعة جدا. وتوجد آلة أخرى مهمة وهي القيدوم الذي يختص بمحّة مقابل للقاعدة ومنحوت من شظية، و يضاف الى الأداتين منافر، وهي ليست وافرة في الأشولي الأسفل والوسيط ولكنها متوافرة في الأشولي الأخير الى هذه الأدوات الأربع تضاف شظايا عديدة متنوعة هذبت لتكون مكاشط، ومحكات وأدوات أخرى أقل تهذيبا، مثل قطع الحز.

ان تفرع الاشولي المرتكز على علم الانواع وعلى تقنيات القطع ينقسم الى خمس مراحل:

## الأشولي ١

(الأبفيلي أو السيلي القديم حسب بعض المؤلفين).

ان الأدوات تتكون من شظايا كبيرة، حصلت من تهشيم قطع صخرية على سندان ثابتة. وتستعمل تلك الشظايا الكلاكتونية خاما وكثيرا ما تستحيل الى ذوات وجهين والى قدومات، وهي أدوات ثقيلة وخشنة وحروفها الجانبية متعرجة جدا. ولم ينقرض نحت الحصى المهيأة لكنه تطور لأن بعض ذوات الوجهين ذات «القاعدة المتحفظة» يتمثل فيها التكامل وغاية ما وصل اليه نحت الحصى في ما قبل الأشولي.

تمثل هذه المرحلة في شابا مناجم كاموا، ولونيا، اللتان اكتشفها ف. كيو، وهي ممثلة أيضا في أنجولا الشمالية حيث توجد منها آثار بحوض لومبي. وتنسب أيضا بعض المناجم بغرب امبراطورية وسط افريقيا الى هذه المرحلة وكثيرا ما تكون أدوات الأشولي ١ التي عثر عليها في طمي المسطحات أو الأودية الاحفورية للأنهار، تكون ملساء نتيجة للنقل النهري، وذلك بالخصوص شأن مناجم اللوبو والبنكي بامبراطورية وسط افريقيا.

## الأشولي ٢

(الأبفيلي الحديث أو الأشولي الأسفل).

انه صناعة قريبة جدا من الصناعة السابقة التي يمكن العثور عليها أيضا في حصباء الأنهار بأنجولا وشابا. الا أن أدواتها كانت أقل تكررا وان كانت أجود من حيث النحت الثانوي، من أدوات الأشولي ١، ولقد أصبحت حدود ذوات الوجهين والقدومات أكثر استقامة، على ما يبدو، إثر نحت جديد بنقارة طرية من الخشب أو العظم.

## الأشولي ٣

(الأشولي الوسيط).

توجد هذه المرحلة على السطح فوق حصباء اللوينا، وكاموا حيث يكون الأشولي مندرجا بالطمي النهري. وقد شهد ثورة حقيقية طرأت على تقنيات القطع: وهي تنحصر في تهيئة النواة للحصول على شظايا كبيرة. ان هذه التقنية المعروفة جيدا بافريقيا الجنوبية تسمى «فكتور يا الغرب ١» فهي تدل على ظهور تقنية بروطولفلوية. إن تهيئة النواة تؤدي الى سطح للنقر له وجهه. وتقتطع الشظية جانبيا ثم تهذب باتقان للحصول على ذي وجهين، أو قدوم أو مكشط. و يكون النحت بنقارة يدوية طرية، فتصنع أدوات منتظمة جدا ومتكافئة وتصبح الحدود الجانبية مستقيمة جدا. وتصنع القدومات حسب تهذيب متعاقب بحافتي الجانبين حتى يصبح لها شكل المعين.

## الأشولي ٤

(الأشولي الأعلى):

في هذه المرحلة تحتفظ تقنيات القطع أساسا بنفس النموذج، لكنها تتحسن (تقنية فكتور يا الغرب ٢) إذ ان الامر يتعلق باقتطاع نواة أكثر استدارة ولها مسطح ذو وجه، تقطع منه شظايا كبيرة لها شكل بصلصة تقع على قاعدة ضيقة وليست واسعة كما كان الامر في تقنية فكتور يا الغرب ١. وهذه الشظايا تصلح لصنع الادوات، وذوات الوجهين والمكاشط والقذومات التي تهذب كلها تهذيبا دقيقا. ان مقطع القذومات يكون منحرفا أو عدسيا، و يوجد هذا الأشولي الأعلى في كاموا بطمبي يعود الى عهد الكاماسي ٢، كما يوجد بكساي وذلك بمسطحات علوها ١٥ مترا.

## الأشولي ٥

(الأشولي المتطور والنهائي):

شهد الأشولي النهائي بداية تنوع ثقافي من خلال التغيرات الجهوية المتكيفة مع المحيط المناخي والنباتي. والأشولي مرتبط باقامة الناس على مسطحات متوسطة ومنخفضة ومجففة وقد أضيفت الى التقنيات المعروفة تقنية قطع لوفالوا. أما باقي الادوات فانها لم تتبدل أبدا بالنسبة لأدوات المراحل السابقة. الا فيما يخص الجودة، والاتمام وظهور ذوات الوجهين وقذومات لها أحجام كبيرة جدا، ومنها ما يتجاوز ٣٠ سنتمرا طولا. وقد تطورت ضمن الأشولي أداة وهي النقار المتين الحشن، تطورا كبيرا ولها مقطع مثلث أو شبه منحرف. ان تكييفها لأداء عمل على الخشب باستعمال قطع كبيرة ذات وجهين ومطولة، يؤذن مسبقا بالسنگون المعقد ونجد أيضا كرات حجرية حسنة الصنع وتشابه «البولاس». ولقد توفرت منها مجموعة هامة استخرجت من منجم نهر مانكالا بالغرب من امبراطورية وسط افريقيا. و يوجد هذا الأشولي الاخير في منطقة شابا، بكوا وبنواحي كلينا بالزايير، وهو موجود أيضا بأنجولا، وأربما قرب برزافيل وفي امبراطورية وسط افريقيا، حيث تمثله مناجم نهر نكورري في صنغا العليا.

ان الناس الذين شيدوا هذه الحضارة غير معروفين مع الأسف بحوض الزاير كله، بسبب تهمض الارض الذي لا يسمح بالمحافظة على البقايا العضوية.

## السنگون

ان الموقع الذي أعطى اسمه لهذه الحضارة هو سَنغوباي الواقع على الشاطئ الغربي من بحيرة فكتور يا بطنانزانيا. وكان قد اكتشفه ا. ج وايلند سنة ١٩٢٠م.

ان السَنغون صناعة متفرعة مباشرة عن الأساس المحلي للأشولي بدون اعتبار دخول عناصر آتية من الخارج. فهو يؤرخ بآخر المطار الكاخجري ويمتد طيلة فترة انتقالية بين هذا المطار والجفاف الكبير الذي تلاه. انها صناعة مبهولة نسبيا ولها مظاهر عملية عديدة يبدو أنها استمرت تتطور تطورا داخلها وتكيفت مع البيئة الغاية وعلى الأقل مع محيط مشجر نسبيا، باعتبار حلول بداية الحقبة



- (١) أثر تاريخي من الاحجار الضخمة  
في منطقة بووار في أفريقيا الوسطى  
(وسط أفريقيا). (كليشيه ر دي بايل  
دي هرمانس)  
— الاشولي الاعلى، وسط أفريقيا، نهر  
نغوري، سانغا العليا.
- (٢) بلطة
- (٣) أداة مزدوجة الوجه (ذات  
وجهين) (تصوير متحف التاريخ  
الطبيعي).



الجافة. ولقد تميزت في هذه الحضارة خمس مراحل: ما قبل السنغون، والسنغون الاسفل، والسنغون الأوسط، والسنغون الأعلى، والسنغون النهائي.

ان الادوات الحجرية السنغونية الوحيدة التي وصلت الينا قد خضعت لبتحويلات عميقة بالنسبة للاشولي النهائي الذي سبقها، فلقد كانت ذوات الوجهين في أول تطورها استمرارا للتقاليد الاشولية ثم أصبحت تدريجيا أخشن وأعرض وأقصر، وبرزت في نفس الوقت ذوات الوجهين، القريبة من النقارات ولها طرفان حادان، وعكسا لذلك اضمحلت القدومات بسرعة، وكان للقليل الباقي منها أحجام صغيرة. وكانت حافاتها الجانبية، المنحوتة حسب قطع شظايا كبيرة، متعجرة جدا. وتوجد أيضا حصاة مهيأة، دون أن تكون وافرة. وتنبؤا النقارات التي ظهرت في آخر الاشولي منزلة هامة ضمن الأدوات فهي تبدو مناسبة لأداء العمل على الحشب نظرا لأحجامها الكبيرة ذات المقطع المثلث، أو المعين أو شبه المنحرف، ولترابطها مع مكاشط عديدة. ان أهم مظهر يلفت النظر يتجسم في ظهور القطع ذات الوجهين، الطويلة والضيقة، المنحوتة قرعا والتي لها جودة كبرى. وتمثل تلك القطع أحيانا ما يقرب من ربع أدوات السنغون. ولقد صنف حسب أنواع مختلفة من الأدوات: النقارات، والمناجر، والمقصات، والمفراصات، والخناجر التي تترابط لتوفر غالبا أدوات متعددة: النقارات القاصة، والنقارات الناجرة، والنقارات المفرصة، والنقارات الخنجرية، وتبلغ بعض تلك القطع أحجاما كبرى وتتجاوز ٢٥ سنتمترا طولا. ان هذه الادوات التي تبدل من حيث أنواعها أخذت تصغر حجما، طيلة تطور السنغون، بينما بلغ نحتها جودة راقية.

ان السنغون موجود بكثرة بمحوض الزايبي وهو معروف بالزايير في سهل كينشاسا، وشابا العليا حيث يختلف عن سنغون المناطق الغربية، وذلك بانعدام الخناجر والحدود المتروكة. الا أنه توجد في تلك الصناعة بولامات (Bolas) عديدة، وهي صفاحات ذات وجوه أو كرات أتقن صنعها توتيدا، وكذلك شظايا عديدة جدا ومستعملة، ولقد عثر على السنغون في طمي نهر لومبي بكنندا، ولوندا بالشمال الشرقي من أنجولا، حيث يوجد مخلوطا في الغالب بصناعات أقدم منه أو أحدث منه، نظرا لموقعه بمصباء منقولة عن موضعها وهو يوجد أيضا في الكونغو برازافيل على الشاطئ الأيمن من ستيلي بول، وبالجابون، حيث عثر عليه أخيرا، وهو معروف في امبراطورية وسط افريقيا، في مناجم ذات ثروة خارقة للعادة بالوسط الشرقي من البلاد، حيث وفر الطمي في مشاغل المأس التابعة لنزاكو في أمبلو، وتيري، وتياغا، وكونو، وفر ذلك الطمي آلافا من الأدوات حفوظ عليها محافظة جيدة وهي مصنفة في السنغون الوسيط أو الأعلى.

ان السنغون لم يتميز تميزا كبيرا في الكرون، وذلك يطرح مشكل توسعه الى غربي افريقيا. فلقد أشار بعض المؤلفين الى وجوده بالسغال، ان الأمر يتعلق في الواقع بصناعات لها قطع ذات وجهين، متشابهة أو قريبة جدا من السنغون، الا أن موقعها غير مضبوط في ترتيب ما قبل التاريخ. وليس من المستبعد أن تكون مجموعات بشرية قد تحولت نحو الغرب ونحو منطقة الغابة الكبرى، الا أنه لا يوجد الآن ما يسمح باثبات أثرهم.

ان السنغون يتطور مثلما فعل الاشولي، بعين المكان، دون اتصالات كبيرة مع عالم أجنبي عن محيطه الغابي. ثم أتت من بعده صناعة تسمى «اللومية» في ظروف غير واضحة الى هذا اليوم وهذه الصناعة هي التي نتعرض لها الآن.

## اللويمبي

ان اللويمبي (٥) حسب التصنيف المقترح بالمؤتمر الافريقي سنة ١٩٥٥ م — هو صناعة من «العصر الحجري الوسيط» الا أنه ينبغي أن نحتاط عند استعمال مصطلح «العصر الحجري الوسيط» إذ أدرجت به مجموعة من الادوات المتباينة التي لم يتضح موضعها وضوحا حسنا. وقد تطور اللويمبي عندما عادت الاحول الامطارية الى مستواها العادي وذلك في بداية المطمار الرابع المسمى «كمبلي». وبلغ الأوج في الجزء الثاني من تلك الحقبة الرطبة جدا. وتبلغ مدته ٢٥٠٠ سنة أن أخذنا بعين الاعتبار التواريخ بحسب الزمن المطلق. وكما فعل الأشولي النهائي في تطوره بعين المكان، فقد تبدله السنغون أيضا وتحسن واكتسب تقنيات جديدة في النحت التي ستبلغ أوجها في اللويمبي من دون أن تكون لها صلات مع عناصر أجنبية عن الغابة الكبرى التي ظلت تلعب دور الحماية. واحتفظت الصناعة في أول اللويمبي ببعض ذوات الوجهين التي انقرضت بسرعة وكانت القدومات مفقودة. أما فيما يتعلق بالقطع، فتظل تقنية لوفالو سائدة، للحصول على الحدود والشظايا، ويعتمد التهديب فيه على القرع. وتبقى تقنية لوفالو مستعملة للحصول على الشظايا، الا ان تقنية أكثر تقدما منها، وهي القطع بحسب الكيماص أصبحت مستعملة للحصول على حدود حسنة الصنع ستساعد على صنع قطع طويلة، ضيقة ومهذبة تهذبا حسنا. ان الدراسات الأخيرة المتعلقة باللويمبي ساعدت على تقسيمه الى خمس مراحل:

### اللويمبي ١

فهو محصور في الحوض الغربي كله من الزاير الذي يعتبر فيه كأنه شكل من أشكال تطوره المحلي من السنغون. لقد انقرضت العناصر الاشولية انقراضا تاما وأصبح النحت والتهديب يعتمدان على القرع. وظلت أدوات السنغون موجودة لكنها تطورت وصغرت من حيث أحجامها المطلقة ولا تتجاوز النقارات والنقارات الناجرة، والنقارات المستوية ١٥ ستمتراء، وظهرت مفارص، ومقصات وأدوات قاطعة ومنشارات نحتت من الحدود. لقد ظلت قاعدة الأدوات متكونة من شظايا خشنة ومنها صنعت هذه القطع الجميلة. وفي نهاية اللويمبي ١ أخذت تظهر الحدود والخناجر وحروف السهام الحقيقية.

### اللويمبي ٢

لقد عرفت ج. كوليت هذه المرحلة في بوانت كلينا ولكنها معروفة أيضا في ستنلي بول. ان المقصات المورقة الشكل من اللويمبي ١ تطورت واستحالت الى ساطور وعوّضت الأشكال المعروفة في السنغون بمقصات ذات حافة مستقيمة، وبنوع جديد من المقذات ذات القواطع المائلة. وتشتمل الأسلحة على خناجر طولها ١٥ الى ٣٥ ستمتراء وعلى حدود مورقة الشكل، منحوتة نحتا متقنا ورقيقا جدا.

(٥) لويمبي: موقع يحمل اسم مكان فيما قبل التاريخ في لويمبي بكساي، وهو مصطلح وضعه القس. ه. بروي.

### اللومبي ٣

عرف من خلال مناجم سطحية في مستنقعات بول، و ببعض المناجم بأنجولا. ولقد بلغت تقنية النحت في هذه المرحلة أوجها بفضل التهذيب بحسب الضغط. ان الشظايا الحاصلة من القطع بتقنية لوفالوا المتطوون غالبا ما يكون شكلها ثلاثيا أو مستطيلا أو بيضويا. ولقد ظهرت آلات ذات ساق معلاقية، وغت وأصبحت متوفرة ووجدت بهذه المرحلة أدوات من اللومبي القديم، لكن أحجامها كانت أصغر، ومنها النقارات، والمقصات، وذوات الوجهين الصغيرة، وبعض المكاشط، والبزاقات، ومقدات ذات قواطع مستقيمة أو مائلة ونصال حافتها معكوفة. وتبلغ الخناجر أحيانا أحجاما كبيرة، الى حد ٤٦ سنتمرا، أما الحدود فهي مسننة فتكون منها أسلحة فتاة جدا. ان الحدث الهام هو ظهور حدود السهام من أنواع مختلفة، موزقة الشكل، أو ذات شكل المعين أو ذات ساق معلاقية أو دونها ولها حافات مسننة أحيانا وهي على غاية من الجودة.

ولقد أرخت أنجولا مرحلة متأخرة من اللومبي بحسب طريقة الكربون ١٤، أرخت بـ ١٤٥٠٣ ± ٥٦٠ سنة، أي ١٢٥٥٠ قبل الميلاد. وبالمقارنة مع ما نعرفه بأوربا، فهذه المرحلة تقع في العصر الحجري القديم الأعلى.

### اللومبي ٤

لا يعلم منه الكثير ويكون متميزا بقطعه اللوفالواسي اللاحق.

### اللومبي التشيتولي

يبدو ان هذه المرحلة الأخيرة قد وجدت، باعتبار علم طبقات الارض، في الفترة الجافة التي ينتهي فيها، بإفريقيا الوسطى والشرقية، البليستوسين، وذلك ما قبل الماكالي الأول الرطب، ان المناجم المعروفة موجودة على طمي مرمول، أو بقاعدة الطبقة الرطبة التي تغطيها، وذلك غالبا بجزر الانهار. ان تقنية القطع لم تتبدل بالنسبة الى مراحل اللومبي الأخرى فهي دائما تقنية اللوفالواسي اللاحق. أما التهذيب فانه أضاف الى القرع والى الضغط تقنية جديدة التهذيب الشديد الذي يتميز به الميزوليتي وتشمل الأدوات دابسا على مقصات، ومقارص وذوات الوجهين، ولكن انقرضت المكاشط والنصال ذات الظهر، ويضاف الى المقدات «مقد صغير» ذو تهذيب شديد بالحافات، ويمكن اعتباره في بعض الحالات سلاحا ذا قاطع مستعرض. أما حدود السهام فهي تعتبر أكثر تنوعا: أن اشكالها موزقة أو معينة أو مجتحة، وقل أن تكون مسننة أو ذات ساق معلاقية.

وفي أنجولا أرخت صناعة صنفت في اللومبي التشيتولي بـ ١١١٨٩ ± ٤٩٠ سنة.

ان اللومبي لم يعرف بعد في إمبراطورية وسط إفريقيا وفي الكرون. ولكن عثر عليه في الكونغو برازافيل وبالجابون، الا أنه لم يعرف معرفة دقيقة بسبب وضع المناجم في مناطق وعرة.

### الحضارات ما قبل التاريخ الغير الغابية

بينما نجد اللومبي قد عم المنطقة الغابية بالغرب من حوض الزاير، تشهد مناطق شابا وشرقي

أنجولا نمو حضارات ذات خصائص غير غابية وهي: البروطوستلبائي، والسلبائي والمغوسي. ولقد اتسعت تلك الحضارات اتساعا كبيرا بافريقيا الشرقية والجنوبية.

### البروطوستلبائي

ان الموقع الذي سمي به هوستيل باي، وهو منجم ساحلي من مقاطعة الرجاء الصالح. ان البروطوستلبائي هو صناعة تختص بحدود لها وجه واحد، وبمحكات، وحجارة محزوزة، وحجارة قذف، وذوات وجهين قليلة صغيرة الحجم، وحدود أشكالها المورقة منتصفة وذات مقاطع كثيفة، ومهذبة تهذيبا خشنا، كما تختص ببعض المناقشات القليلة. وتحصل هذه الادوات بهذيب شديد التحدر.

### السلبائي

ان الادوات بالسلبائي لم تبدل الا قليلا من حيث الأساس، بالنسبة للمرحلة السابقة لكن نلاحظ فيها حنكة كبيرة في تقنيات القطع اللوفالواسية اللاحقة. وأهم ما يستحق التسجيل هو التهذيب بالضغط، المستعمل خاصة لصنع الأسلحة والحدود الشبيهة بالمستيرية ذات الوجه الواحد أو ذات الوجهين والتي كثيرا ما تحتفظ بكعب مسطح. و يوجد ضمن الأدوات في آخر مرحلة معروفة بالكينيا، نصيلات ذات ظهور، ومنقاشات وقطع من دائرة.

ان البروطوستلبائي متوفر جدا في شابا، الا أن السلبائي قليل بها. وتنتسب البقايا الانسانية الأكثر قدما المكتشفة بالزايير الى السلبائي، وهي تتكون من ضربين كشفا مع بعض صوانات منحوتة وحلذ ذي وجهين، وكان وجدها القس أنسيودي فافو، في ثغرات تجمعت فيها العظام في كاكوتوي.

### المجوسي

ان الموقع الذي جاء منه اسم هذه الصناعة هو مجوسي بالأوغندا، واكتشف هذا الموقع وايلند سنة ١٩٢٦م. والمجوسي ثقافة وجدت بها أهم قطع السلبائي، فهي تتكون من أدوات حجرية صغيرة، منها نصيلات ذات حافات معكوفة، وقطع من دائرة ومثلثات، ومحكات ظفرية الشكل، ومنقاشات صغيرة وجوب نظم لها رأس النعامة تكتمل بها هذه الصناعة. و يبدو أن المجوسي قد وجد في كنتجا الا أنه لم يعثر منه على موقع معين على وجه اليقين.

### صناعة الميزوليتي: التشيتولي

تسببت في آخر البليستوسين حقبتيان جافتان نسبيا في تقلص الكساء الغابي، لا سيما في المرتفعات، ولقد أقام أهل التشيتولي (٦) بتلك الاراضي المعراة من النبات، الموجودة قرب عيون الماء، والتي كثيرا ما تكون بقم التلال المائدية أو المرتفعات. وتوجد مناجم هذا النوع على نجد

(٦) التشيتولي: مصطلح وضع اعتمادا على أدوات حجرية جمعت من تشيتول في كساي.



بتسكي في ستانلي بول، بسهل كنشاسا وبالشمال الشرقي من أنجولا. إن أدواته تختلف باختلاف المناجم، وتشتمل على نسبة كبيرة جدا من الأدوات الغاية ذات الأحجام المصغرة، فوجد فيها أدوات جديدة أو أدوات قل أن عرفت في الصناعات السابقة: وهي تتكون من منجرات ونصال ذات حد مهذب، وسكاكين ذات ظهور، وخاصة من عناصر حجرية صغيرة وهندسية لها شكل شبه المنحرف، والمثلثات وأرباع البرتقال، والقواطع الصغيرة، وتتميز حدود السهام بتنوع كبير في النماذج والأشكال، فهي مورقة الشكل ومعينية وبيضوية ومثلثة ومجنحة وذات ساق معلاقية، ومسننة وذات قاطع مستعرض. وتكاد تكون كلها منحوتة بحسب تهذيب ضغطي، ولذلك أتت على غاية من الجودة. ويمكن أن يعد التشيتولي من ثقافات ما قبل العصر الحجري الجديد الذي ليس له خزف ولا فؤوس مهذبة إذا أخذنا بعين الاعتبار اسلحته التي تقتصر على حد السهم. فهو يعبر في عهد متأخر، عن الثقافات الغابية الإفريقية، التي وجدت قبل تطور العصر الحجري الجديد بالزاير الغربي، ويبدو أنه دخيل.

### العصر الحجري الجديد

إن حضارات ما قبل التاريخ الموجودة بحوض الزاير كله، في مفهومه العام والتي سبق أن تحدثنا عنها في الفصول السابقة، تؤلف، ابتداء مما قبل الاشولي الى التشيتولي، المراحل المتتابعة من مركب ثقافي عظيم نما في وسط غابي وتطور بعين المكان، كما قلنا ذلك سابقا، دون أن يتأثر بمساهمات محسوسة دخيلة على تلك الغابة الكبرى.

إن مظاهر العصر الحجري الجديد — وهنا لا بد من أن نبادر الى القول بأنه توجد منه عدة مظاهر مختلفة فيما بينها، وقد تطورت في المطار الاخير القصير المدى وهو الناكوري وكان المناخ في ذلك العهد يشابه تقريبا المناخ الذي نعرفه اليوم. فكان الكساء الغابي أكثر كثافة اذ لم يطرأ عليه عمل الإنسان الهدام. وكانت أنواع النباتات لا تختلف مما يوجد منها اليوم.

ولقد زحف تدريجيا أناس لهم حضارة حجرية جديدة تسمى حضارة «الكونغو الغربي»، زحفوا على منطقة ذات غابة مدارية كثيفة جدا. وكانوا قادمين من الشمال، بعد أن قطعوا النهر في حوالي منحدرات الماء السريعة في ايسنكيلا. وكان أولئك القوم يحملون معهم تقنيات جديدة ما لبثت ان امتزجت نوعا ما بالتقنيات التي ظلت موجودة بعين المكان. ويتميز هذا العصر الحجري الجديد باستعمال يكاد يكون مقصورا على صخور عسيرة النحت وهي النضيد، والمرو والجاديت التي توفر شظايا رديئة المنظر، فتسبب في صنع أدوات رديئة. إن تلك الأدوات تنوع بحسب المواقع فهي تشكون من نقارات خشنة الصنع، ومن مقصات، وحصاة مهيأة ذات حجم صغير جدا، وأحجار مشقوبة أشكالها وأوزانها ومواردها مختلفة جدا، ومن عدد كبير من الفؤوس على الخصوص، وهذه الفؤوس كانت تنحت أولا ثم تصقل جزئيا ثم تنقر وتصل صقلا جيدا. ويوجد بالزاير عدد من المصاقل المعروفة التي استعملت بدون شك لصقل الفؤوس. ولم تكن حدود السهام مفقودة، إلا أن صنعها كان غالبا رديئا جدا، لأنه كثيرا ما كانت تنحت من شظايا المرو. وتشتمل هذه الصناعة في بعض المواقع، في إشنكو، على أدوات عظمية وخاصة المخطافات ذات الصف الواحد أو الصفيين من

التشوكات ويضاف الى هذه الأدوات الحجرية والعظمية خزف وافر منمنق أحسن تنميق ومزين يوجد ببعض المناجم.

وتقع مناجم العصر الحجري الجديد في كوانكو الغربي، وهي ممتزجة بمناجم التشتيتولي، كما تقع على ضفتي نهر الزاير بين البول، وكونكو ديا فينكا، وفي أماكن عديدة بالكونغو برازافيل. ويوجد في منطقة أوئيلي، شمالي الزاير، مظهر يشتمل على عدد كبير من الفؤوس من الهيماتيت، صقلت صقلا جيدا. ان مظاهر العصر الحجري الجديد، كما سبق ان بينا، موجود بالكمرون والجابون وامبراطورية وسط افريقية. ان منجم باطاليمو في لوباى وفرصناة من الجاديت امتزجت فيها فؤوس منحوتة بخزف جميل جدا. ويستفاد من التاريخ بطريقة الحرارة المضيئة انها ترجع الى  $380 \pm 220$  سنة للميلاد ويمكن أن يبدو هذا التاريخ غير عادي لأول وهلة. الا أن الفحص، ومالنا من معارف حاليا، يفيدان بأن العصر الحجري الجديد قد دام بمنطقة الغابة الكبرى أكثر مما دام بالمناطق الأخرى وامتد الى حقبة تاريخية. ويبدو أن دخول المعادن الى تلك المنطقة كان متأخرا ويؤرخ بعض المؤلفين دخول الحديد بالقرن التاسع الميلادي تقريبا.

## آثار النصب الحجرية

نمت الحضارات المكاليتية (النصب الحجرية) الكبرى حسب أشكال متنوعة بافريقيا كلها، ولا سيما بافريقيا الشمالية وبالصحراء. ولقد جهل حوض الزاير تلك الحضارات، باستثناء الشمال الغربي من امبراطورية وسط افريقيا، ولا يوجد أي أثر ميكاليتي بأنجولا، والزاير والجابون وجمهوريات الكونغو الشعبية، باستثناء بعض الحجارة المنصوبة بالكمرون.

أما في امبراطورية وسط افريقيا فتوجد نصب حجرية عظيمة بمنطقة بوآر وهي تحتل رقعة أرضية طولها ١٣٠ كلم وعرضها ٣٠ كلم على طول الخط الفاصل بين مياه حوضي الزاير وتشاد. ويبدو أنها غير معروفة في الكامرون، ولا في المناطق الأخرى من امبراطورية وسط افريقيا. ولذلك كانت تلك الحضارة مقصورة جغرافيا على الشمال الغربي من البلاد.

تظهر تلك النصب في شكل جثوات مختلفة الاحجام، يعلوها عدد من الحجارة المنصوبة تتراوح بين وحدات الى عشرات، ويتجاوز علوها بالنسبة الى الأرض أحيانا ثلاثة أمتار. ان الحفريات التي وقعت في العديد من تلك النصب قد كشفت عن بنيتها الداخلية ولم توفر الا عناصر جيولوجية قليلة: مرو منحوت وخزف وبعض الادوات المعدنية، وذلك بالطبقات العليا. لكن الفحم الخشبي المجموع سمح بأن تضبط توارخ على طريقة ك ١٤ (٧). ان النتائج المتوفرة تفيد توارخ مهمة جدا. فلقد قدرت الطبقات العميقة من النصب بـ:  $7440 \pm 170$  سنة قبل الحاضر أي  $5490 \pm$  قبل الميلاد، و  $6700 \pm 140$  سنة، أي  $4750 \pm$  قبل الميلاد. وقد ردت الطبقات الثانية بـ  $1920 \pm$  سنة قبل الحاضر، أي  $30$  سنة بعد الميلاد، و  $2400 \pm 110$  سنة قبل الحاضر، أي  $450$  بعد الميلاد ان هاتين المجموعتين من التوارخ توفران لنا بالنسبة الى أكثرهما قدما، تاريخ تشييد النصب. أما التوارخ الحديثة منها فهي تفيد تاريخ إعادة استعمالها، وهو استعمال تؤكد الأدوات



● وعاء من العصر الحجري الحديث ذو  
قاع مسطح (وسط أفريقيا، باتاويو،  
لوبيايي)، (تصوير مختبر ما قبل  
التاريخ، متحف التاريخ الطبيعي).

المعدنية المجموعة بالطبقات العليا. ان البحوث الحالية لا تسمح بأن تنسب نصب بوآر على سبيل اليقين الى العصر الحجري الجديد. لكن يمكن أن نقول أن الحضارة التي شيدتها كانت معاصرة له تقريبا.

### الفن الجداري

ان حوض الزاير، بحكم وجوده بين منطقتي الفن الجداري الكبيرتين (الصحراء وجنوب افريقيا) يحتوي أيضا على فن جداري، الا أنه ليس له ما كنا نتوقعه من الثراء باعتبار موقعه. ولقد ترقى في التشاد وفي ايندي وبركو، فن جداري ويعتبر جزءا من المجموعات الصحراوية الكبرى. ويوجد بالكرون موقع من الرسوم على بلاطات أفقية مهذبة أكلها الأجتراف وذلك بشمال البلاد في بيدزار. وهذه الرسوم هندسية أساسا فهي دوائر وحلقات، وتظهر منعزلة أو مجتمعة.

وتوجد رسوم بأنجولا بمنطقة كالوكا وهي تظهر على بلاطات أفقية ولها مواضع هندسية مثلما هو الشأن بالكرون. ولقد وجدت رسوم تبدو أكثر حداثة بنفس المنطقة كما توجد مواقع غديدة من فترات مختلفة بالزاير. ويبدو أن شأبا أثرى منطقة من حيث الفن الجداري، وتدخل في نفس مجموعة روديسيا الشمالية \* وأنجولا الشرقية، وتختص هذه المجموعة بفن تخطيطي، لا طبيعي كما هو الشأن بجنوب افريقيا. ولقد نشر القس هنري بروي سنة ١٩٥٢م الرسوم المحزوزة والمخططة لكهف (كيانطابو (٨)). ونشر ج. مرتلمنس دراسة تركيبيه عن الرسوم الجدارية في شأبا (٩) مؤكدا على صعوبة ضبط تاريخ مختلف الأساليب نظرا لانعدام الوثائق الأثرية. ولقد اكتشفت بلاطات منقوشة بالزاير الأسفل ودام الفن الجداري على عهد حديث جدا في تلك المنطقة. ويبدو أن مجموعات من رسوم جبل كوندو، في أويلي متصلة بطقوس الماء والنار، ويوجد الفن الجداري المعروف بامبراطورية وسط افريقيا بشمال البلاد وشرقيها: ففي الشمال توفر ملاجئ تولو وجبل ملا رسوما عولجت بالمغرة الحمراء والسوداء والبيضاء: هي تبرز أشخاصا وعلامات مختلفة، ولكن الرسوم الحيوانية فيها مفقودة. أما في الشرق، فتوفر مناجم لنكو ومبتوقرب باكوما فنا منقوشا على بلاطات أفقية من الوعنة، ويبدو أنه حديث نسبيا. وكان قد صنعه قوم عرفوا بالحديد نظرا لوجود سكاكين كثيرة للزشق وحدود نصال مرسومة بها.

ولا يوجد أي شبه بين الفن الجداري بالزاير ونفس الفن بالصحراء. فلا بد أن نتجه الى جنوب افريقيا وافريقيا الشرقية للبحث عن محور تسرب. ان هذا الفن قريب مما هو معروف ببلاد البانتو: فهو حينئذ حديث، بل تاريخي، الا أنه مهم فيا يتعلق بدراسة الهجرات وتنقلات السكان بحقبة مجهولة جدا من ما قبل التاريخ، وحتى من تاريخ افريقيا المدارية.

(٨) القس هـ. بروي، ١٩٥٢ ص ١-٣٢، ١٤ لوحة.

(٩) مرتلمنس ج. ١٩٥٢، ص ٣٥-٥٥، ٩ لوحات.

ه في المطبوع زامبيا عوض روديسيا الشمالية. (تعليق المراجع محمد القاسي).

## الخاتمة

نستنتج مما عرضناه عن ما قبل تاريخ حوض الزاير أن صناعات ما قبل التاريخ إلى حد الأشولي الأعلى، لم تكن متميزة إلا قليلاً بالنسبة لما هو معروف بالمناطق الأخرى من إفريقيا جنوب خط الاستواء. فالمركب السنغوني هو نقطة الانطلاق للتنوع الواسع الجهوي بين الثقافات ذات المظاهر الغابية والتي لها خاصية ملحوظة، وهي العزلة التي تكاد تكون تامة والتي عاش فيها أهالي تلك المنطقة إلى أن وصل قوم ينتمون إلى العصر الحجري الجديد، أتوا من الشمال فراراً على ما يبدو من المناطق الصحراوية التي أخذت تستحيل إلى أرض قاحلة.

إن الغابة الاستوائية الكبرى قد لعبت دور الحاجز الطبيعي الذي قلل من الصلات بين الشمال والجنوب من خط الاستواء. ولقد دامت الحضارات الحجرية الجديدة فيها أكثر من أي مكان آخر، في منطقة كانت فيها هذه الحضارات منعزلة وعجمية، بينما كانت مناطق أخرى قد دخلت منذ أمد طويل في التاريخ باستعمال المعادن والحديد.

# ما قبل تاريخ أفريقيا الوسطى

## القسم الثاني

فرنسيس فان نوتن

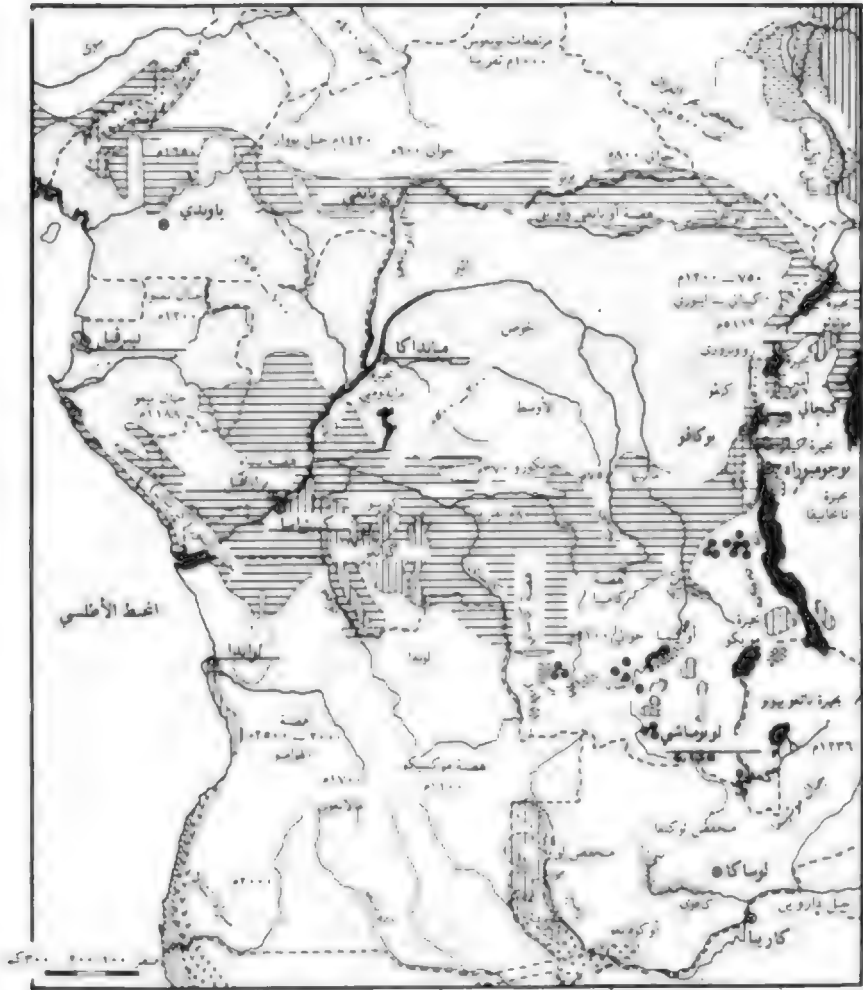
بالاشتراك مع

ب. دي ماري، ج. ميرسن، ك. ميوبا، أ. روش

ان افر يقيا الوسطى المعنية بالأمر في هذا الفصل، تشمل الزاير وبعض الأقطار المجاورة، ومنها جمهورية الكونغو، والجابون، وريوموني، وإمبراطورية وسط إفريقيا ورواندا، وبروندي وأنجولا. ولقد جذبت هذه المنطقة من القارة منذ القرن التاسع عشر الأثريين، الا أن الأبحاث بها ظلت مبعثرة.

ان الباحثين الأولين الذين اهتموا بإفريقيا الوسطى أرادوا قبل كل شيء أن يعثروا على حقبات تشابه الحقبات الموصوفة بأوربا. فلقد حاول ستاينيه وضع دراسة أولى مجملة سنة ١٨٩٩م، لكن الفضل يعود الى ج. كوليت في القيام بحفريات ابتداء من ١٩٢٥م (بكرت ١٩٣٨م). ومع هذا نستطيع أن نقول أن البحث العلمي لم يتوسع توسعا حقيقيا الا بعد الحرب العالمية الثانية. ومن ذلك الحين وقعت دراسات منظمة كان قد قام بها ج. د. كلارك في زامبيا وأنجولا، و. دي بايل دي هرمنس بإمبراطورية وسط إفريقيا، وج. ننكي في رواندا وبرندي، وج. مرتلمنس وج. دي هنزلين، وه. فان مورسل بالزاير، وجمعية ما قبل التاريخ الجابونية بالجابون.

أما في الزاير، فقد تقدمت الأبحاث منذ تكوين معهد المتاحف القومية سنة ١٩٧٠م ولكن معارفنا ستظل متفاوتة، وإذا كان كوليت قد قام بعمل رائد عندما أنجز أول دراسة تاريخية طبقية أرضية، فلم يقتد به أحد إلا نادرا، ولذا فلا تعتمد معارفنا في كثير من أجزاء المساحة



- |  |                                |
|--|--------------------------------|
| غابات كثيفة مطيرة دائمة الخضرة   | سافانا استوائية واستبس         |
| مناطق تتداخل فيها الغابات والسافانا: غابات كثيفة نصف نفضية، وغابات ثانوية، وسافانا غينية | سافانا المناطق الجبلية الشرقية |
| مناطق تداخل غابات متباينة الأشجار وسافانا سودانية — زامبيز أو مشجرة أو معشبة             | إشبس شبه صحراوي                |
| غابات جبلية وتكونيات عشبية بدئية   | صحراء                          |
| غابات كثيفة جافة   | مانغروف                        |
| • موهولو: مساحات من الغابات الكثيفة<br>الجلابة تتخلل غابات زائير المتباينة الأشجار       | مستنقعات وأراض سبخة            |

• الشكل ١ خريطة أفريقيا الوسطى مع بيان الأقاليم النباتية.

المعنية الا على مجموعات سطحية. على أنه ينبغي أن ندرك أن علم الآثار يعانى صعوبات كثيرة بافريقيا الوسطى اذ توجد بعض المناطق التي لا تخضع بيسر للحفريات نظرا الى قشرات وعنية كثيفة مثلها هو الشأن بالشمال، ونظرا الى أن التقنيات بالغابة نفسها صعبة.

ان العمل يزداد صعوبة من جراء عوامل أخرى، لأن الأحوال المناخية وحوضه الأرض بصفة عامة لم تسمح بالمحافظة على البقايا العظمية، وذلك ما يفسر انعدامها في غالب المواقع المدروسة، باستثناء اشنكو خاصة وماتوبي حيث سهل الوسط الكلسي المحافظة على الأدوات.

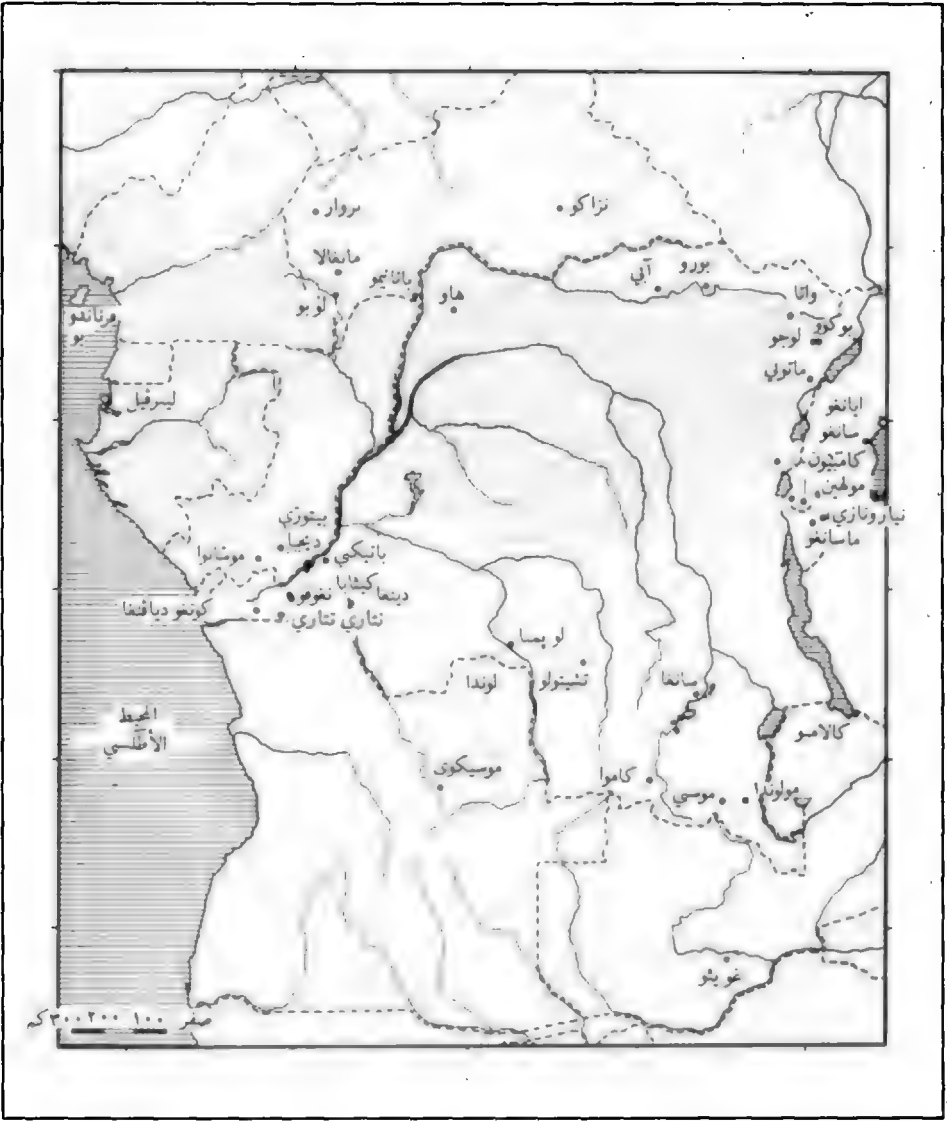
ولقد رجعت مدونة الأسماء بدون انقطاع، وكثيرا ما كانت التقسيمات الفرعية محل نزاع. ولعله يستحيل، من حيث الترتيب الزمني وحتى من حيث النماذج البشرية، تحديد العصور الحجرية المتعاقبة القديمة، والوسطى، والحديثة، وما يتخللها من حقب فاصلة، وهكذا فبعد عدة محاولات في التصنيف الدقيق، لا بد من العودة الى اعتبار تلك المقولات الكبرى نسبة جدا ومؤقتة.

ان دراسة المواقع الجديدة المحفورة والمؤرخة تاريخيا نظاميا تشهد بوجهة النظر هذه لنذكر مثلا العصر الحجري الحديث: في سنة ١٩٥٩م، كان ج لاكلارك حدد بداية العصر بحوالي ٧٥٠٠ قبل الحاضر، وفي سنة ١٩٧١م حدد تاريخ كهف منياما بالأوغندا بـ ١٥ ٠٠٠ قبل الحاضر (حسب فان نوتن، ١٩٧١م)، وبعد ست سنوات قدر تاريخ صناعة الحجارة الصغيرة في ماتوبي بـ ٤٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر تقريبا. وهكذا فان التناقضات واضحة بين التصنيف القديم والاستكشافات القريبة العهد.

ففي الحين الذي شرع فيه الأثريون في الاهتمام خاصة بطرق عيش إنسان ما قبل التاريخ، وذلك بدراسة محيطه، في محاولة فهم علاقاته بوسطه، اقصر ما قبل التاريخ بافريقيا الوسطى طويلا على دراسة النماذج البشرية والترتيب الزمني. ولذا ظلت مكانة الانسان ضئيلة في هذه المدونة. وعوضا عن أن نضع الفهرست الكامل للمواقع التي لا تشمل هنا الا بعض الاكتشافات بالسطح، فاننا سنعني هنا بالحفريات القليلة الشاملة التي وفرت عناصر لتحديد التواريخ وهي ايشنكو وكومب، وبستوري، وكموا، وماتوبي وكلمبو، حتى وإن استدعى ذلك دعم المعطيات المبعثرة بمعلومات اضافية وفرتها دراسة أماكن أخرى.

اننا نعتقد اعتقادا راسخا أنه يستحيل دراسة مناطق ثقافية كبيرة معينة. ف ينبغي ان نكتفي بملاحظة وجود الانسان في وقت معين، دون أن نستطيع الجواب على السؤال: هل نشأ الانسان بعين المكان أو أنه أتى من مكان آخر؟ لاشك انه تكيف من أول وهلة مع أوساط معينة جدا لها مناخها، ونباتها وحيوانها الخاص بها. ولقد استغل الصياد الجاني البدائي تلك الأوساط ليبقى على قيد الحياة، وعندما اختار المادة التي صنع منها أدواته، أخذت حركاته تتحدد. ومن الواضح أن الانسان استجاب بطرق مختلفة تبدي أحيانا خصائص مشتركة كما تبدي في نفس الحين تكيفا جهويا، وحتى محليا، لا يمكن تفسيره بمجرد قدرة الأحوال البيئية المتبدلة، على أنه من السابق لأوانه أن نتحدث عن مناطق ثقافية متميزة.





الشكل ٢: خريطة أفريقيا الوسطى.  
مبيناً عليها أسماء المواقع الواردة في النص.

## الاطار الجغرافي

ان خصائص مرفولوجية المنطقة الشاسعة المدعوة «افريقيا الوسطى» ناتجة عن سلسلة من الحركات التي ابتدأت في أول الدهر الثالث، ويحتمل أنها لما تنته بعد.

يحيط بالحوض المركزي الذي لا يزيد ارتفاعه على ٥٠٠ متر أنجاد وتضاريس ساحلية أو جبال تكونت على الطبقات الجيولوجية التي تغطي قاعدة ما قبل الكامبرية الكرسالية، التي تظهر بارزة في السطح، وهي وعرة ولا سيما في كيفو، حيث ارتفعت أحيانا الى ما فوق ٣٠٠٠ متر، وشقها الانجراف شقا بالغاء، وتعلو القاعدة تضاريس أرضية عالية جدا وذلك شأن الانجاد البزلتية (٣٠٠ م) من الضفة الجنوبية الشرقية من بحيرة كيفو وأداموا (٢٥٠٠ م) والجهزة البركانية بمنطقة فيرنكا (٤٥٠٠ م) وغورست روتزوري (٥١١٩ م) ونجد الهومبو (٢٦٠٠ م) ولقد تسببت الحركات البنيوية التي طرأت على المناطق العالية في تشكل أخفوضات تشمل الحندق الموجود بجنوب افريقيا الوسطى و«هاوية بنوي».

تتميز افريقيا الوسطى بنزول أمطار وافرة باستثناء المنطقة الساحلية بجنوب انجولا وبحوض كوبنسكو - زمبين وتنزل الأمطار باطراد، كامل السنة بالحوض وتمثل نسبة تفوق ١٧٠٠ مم سنويا. وتبلغ على سواحل الجابون وريوموني، والكامرون ٤٠٠٠ مم. أما في المناطق الاخرى التي لها فصل جاف (٣ الى ٧ أشهر) فيبلغ نزول الأمطار ٨٠٠ الى ١٢٠٠ مم.

ان الغابة الكثيفة الرطبة بافريقيا الوسطى والتي تنمو في نظام مطري مرتفع، بين ٥ درجات شمالا، و ٤ درجات جنوبا، تغطي حوض الزاير، ومعظم جمهورية الكونغو، والجابون وريوموني، وجنوب الكامرون. وتتحول تلك الغابة شرقا، بعد تشكيلات انتقالية، الى غابات كثيفة جبلية تمتد بين درجتين شمالا و ٨ درجات جنوبا وتغطي القمم والصفوح الممطرة جدا من شرقي الزاير ورواندا وبروندي. وتتفرع عن الغابة الكثيفة في الأماكن التي تستغل فيها غابات جديدة وغابات ثانوية.

وتحف بالغابة الاستوائية غابات كثيفة نصفها مضمحل، وكثيرا ما تكون متدهورة، وتستطيع أن تتحمل فصلا جافا يدوم شهرين الى ثلاثة أشهر. وهي تشكل في الشمال حاشية غير فسيحة من حيث خطوط العرض التي تبتدئ من الكامرون إلى بحيرة فكتوريا، مروراً بجنوب امبراطورية وسط افريقيا وما بين بومو - أو بيلي، وتشكل في الجنوب، مع السباسب التي صنعها عمل الانسان، تشكل زخرفا نباتيا يكسو جزءا من جمهورية الكونغو، والزاير الأسفل، والمناطق السفلى من كوانكو وكساي سنكورو، ولوماني.

وتكسو الغابات الخفيفة والسباسب السودانية الزمبابوية المنظمة حسب قوس مستدير يحيط بالغابات الغينية الكثيفة، مناطق يدوم فيها فصل الجفاف ما يقرب من ٧ أشهر وذلك في وسط الكامرون و امبراطورية وسط افريقيا، والسودان الجنوبي، وشرقي رواندا وبروندي وشابا بالزاير وزامبيا وانجولا.

وتوجد منخفضات مستنقعية على طول الأنهار لاسيا على مجرى النيل الأبيض بجنوب السودان، وبحوض ومنخفض أومبا بالزاير وبحوض الزمبير بأنجولا وزامبيا.

## تطور المحيط

لقد أصبحت إعادة محيط الإنسان في ما قبل التاريخ عنصرا هاما من الأبحاث الأثرية. وجرت بافر يقيا الشرقية الدراسات الأولى في هذا الصدد. ولاحظ بجاثون مختلفون مثل أ. ج. وايلند (١٩٢٩م، ١٩٣٤م) وب. أ. كنت (١٩٤٢م) وأ. نلسون (١٩٤٠م، ١٩٤٩م) حدوث تعاقب في الدهر الرابع بين الحقب الرطبة (المطارات) والحقب الجافة (ما بين المطارات).

وكانت المطارات تعتبر معاصرة لجموديات نصف الكرة الشمالي وسميت من أقدمها إلى أحدثها: الكاغيري، والكاماسي، والكبلي. ثم عثرفيا بعد على مرحلتين رطبتين من أول الهولوسين وهما: الماكالي والناكوري، ولقد حاول أ. س. ب. لاكي (١٩٤٩م) وج. د. كلارك (١٩٦٢م، ١٩٦٣م) وغيرهما إطلاقا الاسمين توسعا على أجزاء أخرى من إفريقيا. وقد اكتسبا مفهومهما طبقيا نحسوسا بافر يقيا الشرقية. وردا على ذلك أبدى مؤلفون مثل ت. ب. أبرين (١٩٣٩م) وه. ب. س. كوك (١٩٥٨م) ور. ف. فلنست (١٩٥٩م)، وف. إ. زونر (١٩٥٩م) وو. و. بشوب (١٩٦٥م) تحفظات تتعلق بتعميم تلك النظرية: لأن الأبحاث التي جرت بافر يقيا الوسطى بينت تأخرات هامة تتعلق بالمراحل المطرة بالمنطقتين.

وكان ج. دي بلوي (١٩٦٣م) أول من اعترف بوجود حقبة نصف جافة بافر يقيا الوسطى وذلك بالبليستوسين الأعلى، وهي معاصرة على الأقل في أكبر جزء منها، للتجمد الورمي بأوروبا. ولقد وقع على آثار تلك المرحلة الجافة بشابا مؤلفون مختلفون (الكسندر، ١٩٦٥، مايرسن ١٩٧٥م). ولقد وجد ج. دي بلوي (١٩٦٣م) تغيرات أكثر رطوبة نحو ٦٠٠٠ قبل الحاضر وذلك بالزايير الأسفل، وموس في شابا (الكسندر، رسالة شخصية) وفي موسندة بالكونغو (دلبريس ١٩٧٤، ٤٧)، أن الدراسات الجارية في كاموا بينت أن ذلك التغير قد كان مسبقا بتغير رطب بين ١٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر و٨٠٠٠ سنة قبل الحاضر، وفصلها تغير آخر في حوالي ٦٠٠٠ سنة قبل الحاضر تسبب فيه اجتفاف قصير المدى مرتبط بعودة الجفاف. وقد عاصر التغير الرطب الواقع بين ١٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر و٨٠٠٠ سنة قبل الحاضر، توسع بحيرات إفريقيا الشرقية الذي أثبتته ك. ن. وبوتزر (١٩٧٢م). وتدل دراسات دي بلوي (١٩٦٣م، ١٩٦٥م/١٩٦٨م، ١٩٦٩م) بالزايير الأسفل، ودراسات ج. مايرسن (١٩٧٥م) في كاموا على أن أكثر الحقبات جفافا تميزت باشتداد العمليات المرفولوجية التكوينية. وهكذا تعرت الهضاب في منطقة كنشاسا، مدة الليوبولفيلي عراء شديدا ونتج عنه ترسب كبير بالسهول. وقد شهدت تلك الحقبة بالكموا، تطورا كبيرا جدا طرأ على السفوح في شكل تقلص حوافي الأدوية وكل ذلك يؤيد رأي ه. رودنبورك (١٩٧٠م) في شأن التناوب بين فترات مرفودينامية توافق الحقبات الجافة والفترات القارة المتميزة بالرطوبة.

لقد تأثر تطور البيئة بافر يقيا الوسطى تأثيرا بالغا بالأحوال المناخية في الألفيات الخمسين الأخيرة وأن الدراسات المتعلقة بالتشكلات النباتية الحالية وتوازنها مع المناخ، وكذلك التحاليل الباليينولوجية الخاصة بمختلف المواقع قد مكنت من إعادة الكساء النباتي القديم والأحوال المناخية التي صنعتها.

في المناطق الجبلية بالشرق خصوصا، يمكن أن نلاحظ أحسن ملاحظة تغيرات المناخ الناشئة عن تنقل طوابق النبات. ان رسوم لقاحات الخثات (Tourbières) الواقعة على المرتفعات تبين تعاقبا بين نباتات المناطق الباردة، ونباتات المناطق الحارة والرطبة، ثم نباتات المناطق الجافة. وذلك شأن موقع كلمبوفولز الموجود على ارتفاع ١٢٠٠ متر بزامبيا. ولقد اكتشف به ج. د. كلارك وأ. م. فان زندرن باكر، (١٩٦٤م) فترة سنجابية نخلية طويلة بين ٥٥٠٠٠ سنة قبل الحاضر و ١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر، مع وجود تغيرين رطبين في حوالي ٤٣٠٠٠ قبل الحاضر و ٢٨٠٠٠ قبل الحاضر، كما وجد بداية فترة رطبة هي أكبر، حوالي ١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر. ولقد انخفضت الحرارة مدة الحقبات الجافة انخفاضا محسوسا وذلك بالمناطق المرتفعة المحيطة بالغرابن (Graben)، وذلك ما كان أشار إليه ج. أ. كوتزي، وأ. م. فان زندرن باكر (١٩٧٠م) بجبل كينيا حيث أثبتنا «تجمد جبل كينيا» بين ٢٦٠٠٠ سنة قبل الحاضر و ١٤٠٠٠ سنة قبل الحاضر.

ولقد درس ج. د. كلارك وأ. م. فان زندرن باكر (١٩٦٢م) تطور الكساء النباتي بمنطقة لوندا حيث تحتل غابة خفيفة وجافة ذات أشجار برشستاجيا بين ٤٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر و ١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر. ثم قامت مقامها غابة أكثر انغلاقا مدة الفترة الرطبة من ١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر إلى ٥٠٠٠ سنة قبل الحاضر. ويبدو، اعتمادا على الدراسة الباليولوجية لموقع الكوا التي أجراها، أ. روش (١٩٧٥م) والمكملة للدراسة الجيومورفولوجية لـ ج. ميرسن (١٩٧٥م) أن حقبة جافة حدثت ابتداء من الأشوي النهائي إلى ١٥٠٠٠ سنة قبل الحاضر. وهكذا شاهدنا تطورا متدرجا للسبب السهبي نحو الغابة الخفيفة التي استحوطت إلى غابة أكثر كثافة مع امتداد ممرات غابية ناشئة عن ترطب المناخ ابتداء من ١٢٠٠٠ قبل الحاضر.

ويبدو، حسب م. ستريل (١٩٦٣م) أن الغابات الخفيفة السنجابية النخلية، والسباسب ذات الأكاسيا قد شهدت توسعا كبيرا بين ٥٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر، و ٢٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر، ان ذلك التوسع الذي وقع ابتداء من المنطقة الشرقية من الزمبين كان من أثره أن دفع بالغابة الكثيفة نحو الحوض. ويرى ب. دوفينسو (١٩٥٨م) أنه يمكن اعتبار منطقة شابا ملتقى طرق تعكس فيه النباتات تأثيرات مختلفة غينية كنغولية، زيمبزية و افريقية شرقية.

واعتمادا على نظرية ملنسكفيتش القائلة بتحريك خط الاستواء الحراري، يرى أ. شميست (١٩٧١م) أن تحولا طارئا على خط الاستواء قدره ٨ درجات نحو الجنوب مدة فترة حارة ورطبة واقعة بين ١٢٠٠٠ سنة و ٥٥٠٠٠ سنة قبل الحاضر، كان من أثره ان تطورت الغابة الكثيفة تطورا مهما واتسعت حتى الزاير كله وحتى جزء من أنجولا، كما يشهد بذلك وجود بقايا من غابة كثيفة جافة ضمن الغابات الخفيفة الحالية. ولقد كانت الغابات أكثر اتساعا نحو الشمال وكانت تغطي أغلب جزء من الكرون، وامبراطورية وسط افريقيا.

ومدة تلك الحقبة الرطبة، ظلت غابات خفيفة وسباسب قائمة بالمناطق التي كانت مواتية لها وذلك بالأنجاد والأراضي الفقيرة. ويحتمل أن تكون أنجاد الزاير الجنوبي وأنجولا لم تعرف أبدا نباتا مغلقا بأتم معنى الكلمة، ولذلك ابتدأت الغابة الخفيفة من تلك المناطق وأخذت تتسع عندما جف المناخ بعد ٥٠٠٠ سنة قبل الحاضر. الا أن أ. شميست (١٩٧١م) يعتقد أن ذلك غائدا أساسا إلى العامل البشري الذي تسبب في الألفية الأخيرة في تقلص الغابة الكثيفة.

وفي الختام، فلقد عرفت افريقيا من ٥٠٠٠٠ قبل الحاضر الى ١٠٠٠٠ قبل الحاضر فترة طويلة سنجابية نخلية معاصرة للتجمد الوريدي، بينما كانت الفترة الرطبة التي ابتدأت في حوالي ١٢٠٠ قبل الحاضر توافق التغيرات المناخية الدالة على بداية الهولوسين، ففي تلك الحقبة الطويلة الجافة التي تخللتها على وجه الاحتمال فترة رطبة في حوالي ٢٨٠٠٠ قبل الحاضر. كانت العمليات المورفودينامية هامة، وشهدت الغابة الحقيقية توسعا كبيرا. ولقد امتدت الغابة الكثيفة في الحقبة الرطبة من أول الهولوسين على أغلب جزء من افريقيا الوسطى وكان تقلصها الحالي عائدا الى أثر الانسان بها.

## الاستيطان بافريقيا الوسطى

نظرا الى انعدام عظام بشرية، فلقد ثبت بوجه عام أن الدلائل الاولى على حضور الانسان تتكون من الحصى المهشمة المسماة «الحصى المهيأة»، وهي تشابه الحجارة الأولدو واثية نسبة الى موقع أولدواي بطنانزانيا. ولقد اكتشفت أشياء مماثلة في أماكن كثيرة بافريقيا الوسطى وذلك بالزايير، بحوض كساي، وبشبابا، والكمرون، والجابون والكونغو وامبراطورية وسط افريقيا وبالشمال الشرقي من أنجولا، حيث عثر عليها بالطمي. الا أنه ليس من السهل ان نعرف ما اذا كان الانسان أو الطبيعة هو السبب في تهشيم تلك الحصى. وانه لمن الخطأ الشائع أن نعتبر من الأدوات كل الحصى التي فيها أمارات نحت مقصودة والحقيقية أن معظمها انما هي نواة اقتطعت منها الشظايا. ولقد استعملت تلك الشظايا كما هي، لتكون أدوات صالحة لكل عمل، أو هذبت واستعملت كمكاشط ومخكات.

ولم يعثر الى يومنا هذا على مسكن يعود تاريخه الى ذلك العصر. وتعوزنا أيضا النماذج الخشبية والعظمية التي كان أكثرها من الأدوات. ويمكن أن نتصور أن الحصى المهيأة كانت من عمل القرد الجنوبي أو الانسان الماهر. الذي كان، حسب مشاهدات جرت خارج افريقيا، يعيش عيشة آكل الجيف. الا أن الحياة الاجتماعية أخذت تنتظم ابتداء من ذلك الوقت. وتعود أوائل تلك الحقبة من التاريخ الانساني الى ما يتجاوز ٢٠٠٠٠٠٠ سنة، ودامت حتى حوالي ٥٠٠٠٠٠ سنة.

اننا لم نحصل على حجة قاطعة على وجود الانسان بافريقيا الوسطى الا عند حصولنا على الأدوات الاشولية. ولم يعرف المستوى الأكثر قدما منه، أي الاشولي الاسفل، الا في منطقة لوند (كلارك ١٩٦٨م). أما الاشولي الأعلى، الذي كثيرا ما يوجد بالأوساط الجافة، فلقد عثر عليه في أماكن عديدة تحيط بالحوض الاوسط. ولقد وصفه ج. د. كلارك بأنجولا وج. نينكان في رواندا وبروندي، كما وصفه دي بايل دي هرمنس في امبراطورية وسط افريقيا، ويعتبر كلمبو، في زامبيا، وكموا، في الزايير أحسن المواقع المرجعية منه.

ويتميز الاشولي بذوات الوجهين وقدومات كانت محل محاولات تصنيف مرفولوجية عديدة (انظر كاهن، مارتين، ١٩٧٢م). ولقد رأى فيه بعض المؤلفين تحولا من مستوى عتيق الى مستوى أكثر تطورا، وأثبتوا تعاوبا أشوليا من ١ الى ٥. الا أن هذه الفروق في النماذج البشرية ليس لها أحيانا مدلول زمني كبير، إن ذا الوجهين، كما يدل عليه اسمه، هو أداة نحت على جهتين انطلاقا من

النبات	تطور البيئة	منطقة شايبا		المنطقة الغربية				قبل الحاضر
		منطقة ما بين البحيرات	بحيرة تنجانيقا	منطقة لوتندا	ديبا ييتيري موشاندا	غومبي	سمل كينشاسا	
ماتويبي	كاموموسي	كالامبو	المصر الحجري الأوسط	تشيتري أمل تشيتري تشيتري لو يبي - تشيتري أو تشيتري لو يبي لو يبي لو يبي - تشيتري	حجرسي حديث تشيتري أمل تشيتري أوسط	ندولي ؟ ندولي جوكوسي	تشيتري متأخر تشيتري تشيتري تشيتري لو يبي أوسط متطور لو يبي أوسط	١٠٠٠ ٢٠٠٠ ٣٠٠٠ ٤٠٠٠ ٥٠٠٠ ٦٠٠٠ ٧٠٠٠ ٨٠٠٠ ٩٠٠٠ ١٠٠٠٠ ١١٠٠٠ ١٢٠٠٠ ١٣٠٠٠ ١٤٠٠٠ ١٥٠٠٠ ١٦٠٠٠ ١٧٠٠٠ ١٨٠٠٠ ١٩٠٠٠ ٢٠٠٠٠ ٢١٠٠٠ ٢٢٠٠٠ ٢٣٠٠٠ ٢٤٠٠٠ ٢٥٠٠٠ ٢٦٠٠٠ ٢٧٠٠٠ ٢٨٠٠٠ ٢٩٠٠٠ ٣٠٠٠٠ ٣١٠٠٠ ٣٢٠٠٠ ٣٣٠٠٠ ٣٤٠٠٠ ٣٥٠٠٠ ٣٦٠٠٠ ٣٧٠٠٠ ٣٨٠٠٠ ٣٩٠٠٠ ٤٠٠٠٠ ٤١٠٠٠ ٤٢٠٠٠ ٤٣٠٠٠ ٤٤٠٠٠ ٤٥٠٠٠ ٤٦٠٠٠ ٤٧٠٠٠ ٤٨٠٠٠ ٤٩٠٠٠ ٥٠٠٠٠ ٥١٠٠٠ ٥٢٠٠٠ ٥٣٠٠٠ ٥٤٠٠٠ ٥٥٠٠٠ ٥٦٠٠٠ ٥٧٠٠٠ ٥٨٠٠٠ ٥٩٠٠٠ ٦٠٠٠٠
امتداد الغابات الكثيفة	تطور في اتجاه المناخ الحالي	نمذبة خيرات الرطوية ؟ استثاق التحات والانهيار : تزايد الانخفاض ؟ تقلب مستويات الرطوبة. مستحولات مستقرة، تشكيل التربة العتيقة القليلة السمك : انتشار البحيرات	انتقالية	لو يبي - تشيتري أو تشيتري لو يبي لو يبي لو يبي - تشيتري	لو يبي أمل لو يبي تشيتري	لو يبي أمل لو يبي تشيتري	لو يبي أمل لو يبي تشيتري	لو يبي أمل لو يبي تشيتري
مساحات مستخلصة وصحاري من الضبابات غير الكثيفة والجافة ومن السقانا ذات أشجار السبط والسطانا الاستيه	تطور في اتجاه المناخ الحالي	فترة جافة إلى شبه قاحلة : انخفاض درجة الحرارة في المناطق الجبلية : محاسن وانحسار شجيد حل المحدرات : تآكل حل التلال : تراجع حواف الوديان وحدودها : نهيرات متقطعة.	انتقالية	لو يبي - تشيتري أو تشيتري لو يبي لو يبي لو يبي - تشيتري	لو يبي أمل لو يبي تشيتري	لو يبي أمل لو يبي تشيتري	لو يبي أمل لو يبي تشيتري	لو يبي أمل لو يبي تشيتري
الأنهار	تطور في اتجاه المناخ الحالي	فترة جافة إلى شبه قاحلة. تطور الوديان بالصحراء الانجرافي : نهيرات مشقطة بغطاء الجريان السطحي للمياه (السيان)	انتقالية	لو يبي - تشيتري أو تشيتري لو يبي لو يبي لو يبي - تشيتري	لو يبي أمل لو يبي تشيتري	لو يبي أمل لو يبي تشيتري	لو يبي أمل لو يبي تشيتري	لو يبي أمل لو يبي تشيتري

• المراجع السابق بالمرتب لأشهر في  
• تمديد التواريخ بالكرتون ١٤

• جدول بأسماء الصناعات حسب  
أورده مختلف المؤلفين، وبالتواريخ  
المحددة بالكرتون ١٤ والمعروفة حاليا،  
بتطور البيئة والنباتات.

حصاة أو من شظية كبيرة فهو يتميز بمحد يزداد أو يقل تنوعاً، وله قاعدة تكاد تكون دائماً مستديرة. ويصاحب ذا الوجهين أداة متميزة جداً، وهي القدم الذي ينتهي بقاطع، ونجد مع هاتين الأداتين أدوات أقل تميزاً مثل ثلاثي السطوح، والنقارات، والسكاكين، وكرويات الأشكال، وأدوات صغيرة مختلفة. وإذا كانت الاكتشافات الاشولية متوفرة، فإن المواقع التي تعتبر فيها تلك الصناعة مستقرة بها أثرياً، أو ممثلة بها تمثيلاً منتظماً، قليلة جداً. فالمكان الوحيد الذي عثر فيه على الأشولي في طبقة أرضية يتبع بشاطئ نهر كموأ في شابا (كاهن، ١٩٧٥م). إن هذا الموقع الفسيح يمتد على عدة هكتارات. ولقد ترك فيه الصيادون الجانود الذين سكنوه، أدواتهم، وكذلك بقايا صنع تلك الأدوات، ويمكن لنا أن نعتبر أننا أمام نوع من المشغل - المسكن. ونظراً إلى تناسق هذه الصناعة التي لم تتطور كثيراً، يحق لنا أن نستنتج بأن الأمر يتعلق بإقامات فصلية متتابعة. والمادة مجلوبة من مكان يبعد ١٥ كيلومتر عن الموقع الذي عثر فيه على قطع ضخمة من النواة، مطروحة على الأرض. فلقد كانت الشظايا تنقل إلى الموقع الذي يجري فيه القطع والإتمام، ويشابه الأشولي المتطور أو الأخير في كموأ الصناعات التي توجد بالصحراء وبجنوب إفريقيا، فبسط تاريخه ٦٠٠٠ سنة قبل الحاضر يستوجب أن نعتبرها كنهاية، لأن التاريخ الحقيقي يكون حسب رأينا أقدم من ذلك. إن الاعتماد على اكتشافات جرت بمناطق أخرى بإفريقيا يجعلنا نطمئن إلى القول بأن تلك الصناعة منسوبة إلى الإنسان المستقيم. لقد كان ذلك الإنسان يومياً في حاجة إلى الصيد والجنى لكي يعيش. ونفترض أن الحياة الاجتماعية ما انفكت تتطور وأن الإنسان قد اكتسب السيطرة على النار.

## التطور التكنولوجي والتكيف

يمكن أن ندين بعد الأشولي، عدة مناطق تعطي صناعاتها، رغم اختلافها، شعوراً بنوع من الوحدة، فلنتصور بصفة عامة قسماً غربياً وقسماً شرقياً يمكن له في حد ذاته أن ينقسم إلى قسمين، وإن كان انعدام المعطيات بالنسبة للشمال والجنوب من المنطقة المعنية تجعل من هذه التقسيمات تقسيمات احتمالية. ففي القسم الغربي الذي يمتد من أنجولا إلى الجابون تعتبر المنطقة التي درست أحسن دراسة هي المنطقة التي تشمل الزاير الأسفل، وكنشاسا، ومنطقة لونداء، وكوانكو، وكساي، أي الجنوب الغربي من حوض الزاير. أما القسم الشرقي فهو يشمل منطقة ما بين البحيرات ومنطقة شابا، وبحيرة طنجانيقا.

ففي القسم الغربي، يبدو أنه عثر على سلسلة من الصناعات التي وصفت بأنها تتابع بشري تاريخي: فهناك السنغون، متبوعاً باللو بمبي المتبوع بالتشيتولي. إن السنغون يمثل الانتقال من الأشولي إلى اللو بمبي، ويقع في الحقبة الأولى الفاصلة. أما اللو بمبي فهو يؤلف العصر الحجري الوسيط، في حين أن اللو بمبي - التشيتولي يؤلف الحقبة الثانية الفاصلة. فيكون مآله نهائياً إلى التشيتولي الذي هو معاصر للعصر الحجري الحديث بإفريقيا الشرقية والجنوبية. ولما كانت كل هذه الصناعات امتداداً للتقنية الاشولية، فإنها تخصص بنحت الوجهين، وتكون فيها تقنية لوفالو نادرة. أما القسم الشرقي من إفريقيا فإنه يكشف عن خليط كبير من الصناعات. وهي تشابه

صناعات القسم الغربي، إلا أن نحت الوجهين ليس وافرا. وخلافا لذلك فإن تقنيات القطع المعروفة بالموسستيرية، ولوفالوا متطورة بها جدا، والنصال والشظايا النصالية بها عديدة. ولقد طرأت ابتداء من حقبة الانتقال الثانية، تغيرات عميقة جدا وانقطعت التقاليد نهائيا لتحل محلها صناعات الحجارة الصغيرة التي لم يكن لها حسبا يبدو صلة بالصناعات السابقة، ان خصائص هذه الصناعات من نوع السنغون واللومبي المتوفرة بتلك المناطق تسمح بأن نميز فيها منطقتين مختلفتين: احدهما تغطي القسم الشمالي، أي المنطقة الموجودة بين البحيرات، وتختص بأدوات ذات وجهين، ورقية ونصالية الشكل، وبخناجر. أما الأخرى التي تغطي الجنوب، أي منطقة شابا، وشواطيء بحيرة طنجانيقا، فهي تختص بانعدام «الحدود»، وبوجود أدوات ذات وجهين من نوع المقص أو المفرس، ولعله من المستغرب عدم وجودها في المنطقة الواقعة بين البحيرات، وهذا دليل على خطأ من رأي في هذه الآثار الباقية، صناعات خاصة بالغابة وصناعات خاصة بالسبب، إذ أنه لم يكن حسبا يبدو، منطقة أكثر تشجرا من أخرى في تلك الفترة، لأن المناخ قد كان أكثر جفافا من اليوم ولأن الغابة لم تمتد الا في آخر تلك المدة. ويشهد موقع مسكو على خاصية صناعات تلك المنطقة التي تمثلها مجموعة من الحدود ذات الوجهين، ومعها عناصر خشنة مثل النقارات. ولقد مثّل بها عنصر لوفالوا تمثيلا كبيرا (كاهن، هيسيرتس، فان نوتن ١٩٧٢م)، وقد اكتشف مقطوعة من الصناعات الحجرية تبدأ من السنغون وتنتهي «بالعصر الحجري الحديث»، الا أنها لم تدرس دراسة مفصلة (ننكان ١٩٥٨م).

ولندرس الآن المنطقة الغربية عن كيب. ان صناعاتها تمثل مجموعة العناصر التي وجدناها بالمناطق الشرقية، وذلك ما يجعلها تكتسي تنوعا كبيرا من حيث النماذج، وهذا يتفق مع التصور العام «للسنغون» و «(اللومبي)»، فنجد فيها نقارات خشنة قد كانت موجودة بالآشولي ودامت حتى التشيتولي. ان هذه الأداة التي تعتبر أحفور السنغون الرئيسي، خالية في الواقع من المفهوم الزمني، الا أننا نجد أدوات تنتسب اليه وهي مصقولة، ومنها حدود نصال جميلة ورقية الشكل وخناجر طويلة. ثم ظهرت بعد ذلك حدود سهام تدل على أن الانسان قد اكتشف استعمال النئوس. ويبدو أن الانسان العارف كان مسؤولا على تلك التكييفات، وان لم يعثر الى الآن على بقاياها. ولقد اكتشف كوليت في قبة كومي أول تعاقب من الصناعات بافريقيا الوسطى. فلقد أبرز أربع صناعات: الكاليني والدجوكوسي والندولي والنيوبولدي، ومعها آثار من عصر الحديد. ولم يأخذ المؤتمر الافريقي الاول لما قبل التاريخ، المنعقد بباري سنة ١٩٤٧م بعين الاعتبار أسماء الصناعات التي عرّفها ج. كوليت، وأقر مصطلحي سنغون واللومبي اللذين لا يعتمدان على أي قاعدة أثرية قوية. ولقد دخلت المصطلحات الجديدة الى علم الآثار واستعملت دون روية لا بافريقيا الوسطى، فحسب بل خارج حدودها. لقد أعاد د. كاهن سنة ١٩٧٣م و١٩٧٤م (كاهن، ١٩٧٦م) حفرة كومي، وهو الموقع الوحيد المعروف الذي يمكن أن يستخرج منه ترتيب تاريخي، وذلك لضبط تاريخ المقطوعة التي اكتشفها ج. كوليت. ان المقطوعة، باستثناء بعض القطعات التي تعود الى الآشولي، تبدأ في الكاليني الذي يتميز بنقارات خشنة منحوتة على حصة أو شظية، ومكاشط ضخمة، وأدوات مستنة خشنة ومناجر أحجامها كبيرة. ونجد أيضا ذوات الوجهين النصالية الشكل، ومكاشط متقاربة وأدوات ذات وجهين أو وجه واحد، ضيقة لها



حافات متوازية نوعا ما. يضاف الى هذه المجموعة أسلحة أخرى لها قواطع مستعرضة مركبة على شظايا (قواطع ص فميرة) ونواة مستديرة من نوع «الموستيري». وتشمل القطع شظايا لها شكل لوفالوا وبعض النصال الرديئة، إن أغلب العناصر تذكرنا بالسنگون، وتذكرنا الأدوات الرقيقة باللومبي وحتى التشيتولي. ويتميز المستوى الموالي، أي الدجوكوسي، بحدود سهام ذات ساق معلقة أو ورقية الشكل كثيرا ما صقلت بالضغط. ويشابه القطع قطع الكاليني. ويذكرنا الدجوكوسي باللومبي الحديث في سهل كنشاسا (مورسل ١٩٦٨م) وباللومبي التشيتولي، وحتى بالتشيتولي القديم كما عرفهم ج. مرتلمنس (١٩٦٢م) وج. د. كلارك (١٩٦٣م). ولا يوجد المستوى الثالث، أي السندولي، الا في شكل تجمعات صغيرة. ويتميز خاصة بحدود السهام الصغيرة الورقية الشكل. وقد كان قطع القطبين يجري بعين المكان، وما يشهد بذلك وجود «قطع من شظايا عظمية». ولذلك وجب تقريب هذه الصناعة من التشيتولي المتأخر (مورسل ١٩٦٨م، كاهن، مرتلمنس ١٩٧٣م). إن أحد التواريخ المعطاة للكاليني يوافق عصر السنگون (كلارك، ١٩٦٩م، ٢٣٦) ويوافق تاريخ آخر المراحل القديمة من اللومبي (كلارك ١٩٦٣م، ١٨ - ١٩، مورسل ١٩٦٨م، ٢٢١). ان التواريخ المعطاة لعينات من المستوى الدجوكوسي لا تختلف بتاتا عن التواريخ المحسوبة بالنسبة لصناعات مشابهة. فمن التواريخ المرتبطة بالسندولي، يوجد تاريخ واحد يناسب تواريخ التشيتولي المتأخر المعطاة سابقا بسهل كنشاسا ومنطقة لوند.

ويمكن ان نقول بصفة عامة ان الصناعات التي وجدت بالطبقة الارضية بلوندا، وغومب وبسهل كنشاسا، متشابهة من حيث النماذج، ومتوافقة من حيث التاريخ، فيؤرخ السنگون - اللومبي الاسفل ما بين ٤٥٠٠ سنة و ٢٦٠٠٠ قبل الحاضر، واللومبي الاعلى والتشيتولي بما بين ١٥٠٠٠ سنة و ١٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر، والتشيتولي الاسفل بما بين ١٠٠٠٠ سنة و ٧٠٠٠ سنة قبل الحاضر، والتشيتولي الاعلى ب ٦٠٠٠ سنة الى ٣٥٠٠ سنة قبل الحاضر (انظر البوحة ١). لقد وفر خندق استكشاف حفرة ب. دي ماري بكهف ديمبا تعاقبا من ١٥ طبقة أثرية، وتاريخا يتراوح بين ٢٠٠٠ الى + ٦٥٠ سنة قبل الحاضر، وذلك بالنسبة لصناعة. من نوع اللومبي الاعلى واللومبي - التشيتولي. ويبدو ان تلك الصناعة أقدم من ذلك الى حد ٢٥٠٠ سنة ق. ح. ان ذلك التاريخ من شأنه أن يسد الثغرة التي أشار اليها كاهن (١٩٧٧م) والتي توجد بالتواريخ بين ٢٧٠٠ سنة قبل الحاضر و ١٥٠٠ سنة ق. ح.

ان كهف هو (Hau) لم يوفر تواريخ راديوكونية مفيدة. وهو الموقع الوحيد الذي ربما كان يوجد بالغابة الاستوائية عندما كان محل اقامة والذي اكتشف به. ف. فان نوتن صناعة لومبي تبعها «عصر حجري حديث».

وقام ج. ب امفر سنة ١٩٦٦م بحفريات في كهف بيتوري فلاحظ عشرين مستوى اقامة من العصر الحجري. ولقد أعطى أحد المستويات راديو كربونيا قدر ب  $3930 \pm 200$  سنة قبل الحاضر، وأعطى مستوى أسفل تاريخا يقدر ب  $4030 \pm 200$  سنة ق. ح. وتعتبر الادوات الحجرية التي لا تتطور من مستوى الى آخر مكونة وحدة نوعية تذكرنا بصناعتها بالتشيتولي الاعلى. ولقد أרך باحث آخر مستوى تشيتولي في موسندا بما قدره  $6600 \pm 1300$  ق. م (دليلير باس ١٩٧٤م، ٤٧).

وفي بلاد الجابون، اكتشفت الصناعات التي تدعي اللوهمية في مناسبات عديدة (بلنكف ١٩٦٥م، حجي جورجيو، بومري، ١٩٦٥م، فرين ١٩٦٥م).

## الصيادون الجانون المتخصصون

ظهرت في وقت ما، ويحتمل أن يكون ذلك بين ٥٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر و٤٠٠٠٠ سنة قبل الحاضر، حجارة صغيرة هندسية الشكل على شكل قطع دائرة، ومثلثات ومستطيلات، ومعينات.. ويبدو أن القطع كانت أبرزها، وإن كانت موجودة من قبل في جنوب افريقيا في آخر العصر الحجري الوسيط حيث كانت تستعمل فيه كعذبات بقاعدة حدود النصال (١). أما في العصر الحجري الجديد، فكانت تستعمل تلك الحجارة الصغيرة وحدها لتركيب السهام، والنصال، والمخاطف، والسكاكين والمقصات.

ومثلما سبق، يمكن أن تقسم المنطقة المدروسة الى منطقتين متميزتين، فنلاحظ في القسم الغربي الذي يغطي أنجولا، وكساي، وكوانكو، والزايير الاسفل، وجمهورية الكونغو الشعبية، نلاحظ دوام التقاليد التي تعرف بالتقاليد اللوهمية، كما لو ان اللوهمي، في تطوره بعين المكان، قد أنشأ التشيتولي. وأصبحت الحجارة الصغيرة الهندسية الشكل عديدة الا أنها لم تكن غالبية مثلما هو الشأن بالقسم الشرقي، حيث تمثل فيه العنصر الاساسي للادوات. ان س. ميلر (١٩٧٢م) الذي استعرض التشيتولي ولخص الاعمال السابقة، يعرف هذه الصناعة بوجود أدوات ذات وجهين من نوع المنقار - المقص، وحدود ورقية الشكل، وحدود ذات ساق معلاقية، وقواطع صغيرة، وحجارة صغيرة هندسية الشكل. ان منطقة لوندرا قد أعطت صناعة تجمع كل هذه العناصر، وان كانت ممثلة تمثيلاً ناقصاً بمختلف المواقع. وهكذا أمكن تمييز مظهر ثقافي لواد توفرت فيه القواطع الصغيرة مثلما هو الشأن في دينكا، ومظهر آخر لنجد عثر فيه على سلاح يتألف أساساً من حدود ذات ساق معلاقية (بكسرت ١٩٥٢م). ان الموقع الكائن بنجد باتيكي الذي كان ج. مرتلمنس حفره سنة ١٩٥٩م بهدف انقاذ الآثار، (كاهن، مرتلمنس ١٩٧٥م) قد أعطى صناعة تدعى بالصناعة «الكاملة» مثل التي توجد بمنطقة لوندرا. ان الحث المتعدد الشكل الذي كان عملياً المعدن الوحيد المستعمل في الأدوات المكتشفة، أصله من المناجم التي يوجد أقربها على بعدة عشرة كيلومترات من الموقع. وتختص تلك الصناعة بعدد كبير من الشظايا وبقايا القطع (٩٦١٪)، وبعض النوى (١٤٥٪) وبعض الآلات (٢٤٪). ووجدت بجانب حدود سهام ورقية الشكل أو معلاقية الساق، حجارة صغيرة هندسية الشكل، وشظية كبيرة لها قاطع مصقول. ان أغلب قطع النواة من النوع المستدير أو النصالي. ونلاحظ أيضاً وجود عديد كبير من النوى الصغيرة متفتتة تماماً. ان التقطيع الذي يتكون من شظايا تهذيب، يشمل بعض الشظايا اللولولوازية، ونصالا صغيرة. وتلك هي خصائص التشيتولي المتأخر، ويبدو ان هذا الموقع كان مخمياً للصيد، لان نجد باتيكي، وان كان سهياً تماماً، كانت

تقسمه ممرات غابية يتردد عليها انسان ما قبل التاريخ الباحث عن الصيد. ولئن كانت المادة الخام المستعملة مجلوبة، فإن كثيرا من الأدوات كانت تنحت بعين المكان. ويمكن أن نتصور ان لبن النبات والكوبال المعثور عليها بالحفريات، قد استعمالا كمادة لاصقة لتثبيت الحجارة الصغيرة على مقابض النصال والسهام. وكانت المكاشط، والامقاص والسواطير تستعمل لصنع أدوات مركبة توضع فيها القواطع المستعرضة وحدود السهام المعلقة الساق.

وقد وفرت منطقة لوند التي درسها ج. د. كلارك تشيتولي يمكن أن يورخ بما بين ١٣٠٠٠ سنة و٤٥٠٠ سنة قبل الحاضر (كلارك ١٩٦٣ ب، ١٨ - ١٩). الا ان تلك الصناعة ربما استمرت حتى بداية عهدنا (كلارك ١٩٦٨ م، ١٢٥ - ١٤٩). ويكون تاريخ تشيتولي سهل كنشاسا بين ٩٧٠٠ و٥٧٠٠ سنة قبل الحاضر. (مورسل ١٩٦٨ م - ٢٢١).

ويمكن أن نتساءل: الى ماذا تشير المظاهر الثقافية الموجودة بالتشيتولي؟ فهل هي تكيفات مع أوساط مختلفة، وهي تعني مثلا أنها نوع من التخصص في تقنيات الصيد، أو أنها ليست سوى فوارق «ثقافية»؟.

نجد في القسم الشرقي، حول الغابة الاستوائية، من امبراطورية وسط افريقيا الى منطقة شابا، صناعات تدعى بصناعات «العصر الحجري الحديث». ان أقدمها ليست من حيث علم الأنواع البشرية متنوعة اذ لم تظهر الادوات المتخصصة الا متأخرة. وذلك ما لوحظ بكهف متوبي حيث كشفت حملتان حفريتان متابعتان سنة ١٩٧٣ م و١٩٧٤ م عن آثار اقامة بشرية طويلة ابتدأت قبل ٤٠٠٠ سنة قبل الحاضر بكثير (فان نوتن، ١٩٧٧ م). ولقد عثر على الأدوات المدروسة الى الآن في متر مربع واحد وفر ٨٠٤٥ أداة. وهي منحوتة على المروح حسب طريقة خاصة بصناعات الحجارة الصغيرة وحدها: وهي تقنية القطبين. وتمثل بقايا شظايا التقطيع ٩٠٪، ولا تزيد نسبة الأدوات في حد ذاتها على ٤٪، يضاف الى ذلك القطع التي بها آثار استعمال، دون ان تكون أدوات «شكلت» وهي تمثل ٥٪. ان هذه الصناعة صناعة حجارة صغيرة محضة، و يقرب فيها طول الشظايا الأقصى من ١٧٧ ملم، وقد أعدت كل هذه الادوات الحجرية لتكون أدوات مركبة. ان الادوات الحقيقية تشتمل، مرتبة حسب كثرتها، على غزوزات ومكاشط، ومثاقب، ومخافر، وشظايا ونصال حافتها منحنية، وشظايا مهذبة، وقطع مبتورة، وبعض الحجارة الصغيرة الهندسية الشكل (قطع دائرة وأنصاف دائرة، ومثلثات). ان الأدوات الحجرية الصغيرة المنحوتة على المرو، والحت أو الشيست متكونة من أرحية، ومهاريس، وسندانات، وقوارع، ومكاشط وبعض المقصات. ولقد أرخت قطعة حجرية مثقوبة تزينها حزات بـ ٢٠٠٠٠ (٢) سنة قبل الحاضر تقريبا. وكانت البقايا العظمية الحيوانية محفوظة حفظا حسنا وتدل على بيئة أكثر جفافا من بيئة اليوم. وكان سكان الكهف يصيدون حسب نظام تنازلي البقريات (الظبي والأبقار الوحشية) والزلم والقوارض (لاسيا الشرمنجديات) والخنزيريات ونادرا القرديات والشياهم. ان هذا الكهف الموجود اليوم بالغابة

(٢) ان الحجارة المثقوبة المعروفة أيضا باسم (كوي (Kwé))، وهي جزء من صناعات العصر الحجري الحديث من المحتمل أنها كانت تستعمل عصيا للحفر.

الاستوائية كان يوجد في أغلب مدة سكناه بالسبب، غير بعيد عن الغابات الممرات: كما تدل على ذلك التحاليل الباليولوجية. فلقد كانت مسكونة بدون انقطاع بما كانت الصناعة الغير المختصة من الفترة الأولى تتحول الى صناعة كلاسيكية توفر حجارة صغيرة هندسية الشكل، وأدوات عظمية قليلة، وهيماتيتا أحمر كان يستعمل للتلوين ودوائر نظم من قشرة بيضة النعامة. ونظرا الى قلة الأدوات التي تصلح آلات أو أسلحة، وخاصة بالطبقات القديمة، فاننا نعتقد أن الأدوات كانت في جلها مكونة من الخشب كما لاحظنا ذلك في كويشو (فاكان، فان نوتن، ١٩٧٢م).

وقد بينت حفريات إيشانكو التي أجراها ج. هنزليين سنة ١٩٥٠م وجود ثلاث صناعات حجرية صغيرة (هنزليين ١٩٥٧م). لأن كانت الحجارة الصغيرة مفقودة في الأولى، فهي موجودة أكثر بالشانية ومتوفرة بأصغرها سنا. ان خصائصها النوعية خشنة بصفة عامة، وتتجمع في التقطيع كل التقنيات ويخضع لطبيعة المرو الرديئة الذي يستعمل مادة خاما. ان تلك العناصر تذكر بدون شك بالتطور المشهود في ماتوبي. وقد وفرت إيشانكو سلسلة من المخاطف قد تكون استعملت لصيد السمك وللتنص وهي تبين تطورا ملحوظا ينتقل من نماذج لها صفوف من التشويكات بالطبقات السفلى، الى أمثلة لها صف واحد بالمستويات الأصغر سنا. ومن بين المكتشفات المدهشة عصا صغيرة من العظم تزينها خطوط وتستعمل مقبضا لشظية من المرو. ولقد أرخت صناعة إيشانكو بـ ٢١٠٠٠ ± سنة ق. ح، وذلك ما بدا قديما جدا عندما نشرت الدراسة المخصصة للموقع. الا ان هذه النتيجة تبدو اليوم أكثر احتمالا، ان اعتبرنا التواريخ المحصلة في ماتوبي. وكان سكان إيشانكويشيون من صيد السمك ومن الصيد، لا سيما صيد فرس البحر والتوبي وكذلك الثدييات التي انقرض بعضها اليوم. وكانت الطيور تصطاد أيضا، ومن الاسماك المصطادة نذكر خاصة السيلوريات (Silures)، والسيكليديات (Cichlides) والبروتو بتيترات Protopteres. ولقد درس ف. تويسلمان (١٩٥٨م) البقايا الانسانية المكتشفة ضمن مخلفات المطابخ. فهي تفيد بأن الموقع كان يسكنه ناس لا ترتبط صفاتهم البيولوجية المناخية اللانوعية والخنثى بأي ارتباط مباشر مع السكان العصريين من هذا الصنف أو ذاك.

ولقد برزت حذو تلك الصناعات الحجرية المصغرة المحضة، بمنطقة ما بين البحيرات، وبشبابا وعلى ضفاف بحيرة طنجانيقا، صناعات بينية نوعيا، فهي بين الحجرية المصغرة المحضة، وبين الصناعات الخاصة بالقسم الغربي من افريقيا الوسطى. ويمكن لنا أن نتصور، نظرا لخصائص تلك الصناعات المتنافرة، أنها تواصل تقاليد العصر الحجري الوسيط الموصوفة أعلاه. ولقد اضطرج. نينكان الى ابتداء اسم «ولطن/تشيتولي» ليصف العصر الحجري الحديث في رواندا، وبروندي (نينكان ١٩٦٧م) حيث لم يؤرخ لها مع الأسف الا قليل من المواقع، ويقدر بـ ١٥٠٠٠ — ١٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر، عمر الصناعة الانتقالية لكوا الذي يمكن تقريره من اللوبمي — التشيتولي للقسم الغربي، وان العصر الحجري الحديث الفقير والقليل الاختصاص قد أرخ في نفس الموقع بما قدره ٦٠٠٠ الى ٢٠٠٠ سنة قبل الحاضر (كاهن، ١٩٧٥م). فيبدو ان تقاليد مختلفة قد تعايشت طويلا جنباً الى جنب، ولذلك فلقد حاذت صناعات ذات طابع مختلط، وصناعات حجرية صغيرة محضة مثلها هو الشأن في موكينانبرا (فان نوتن، هيرنو ١٩٦٧)، وفي بحيرات موكونو (فان نوتن ١٩٦٨م).

لم تتوفر إفريقيا الوسطى موقعا له ثروة كبرى تسمح بان تستعاد استعادة مفصلة طرق عيش أولئك الصيادين الذي كان سلوكهم في الحياة يشابه سلوك البوشيمان ه في كالا هاري. وقد أعطى موقع كويشوفي زامبيا فكرة كاملة عن طرق العيش بالعصر الحجري الحديث في الألفية الخامسة ق. ح. وفضلا عن وجود أدوات مهذبة، ساعد الحظ مساعدة استثنائية على أن نجد فيه عددا كبيرا من الأشياء الخشبية والعظمية التي تدل على أهمية خدمة الخشب حتى السباسب الخفيفة (فاغان، فان نوتن ١٩٧٢م).

## انتهاء عصور الحجر

ان وفرة الادوات المهذبة في بعض المناطق قد أدت الى اعتبارها علامة على العصر الحجري الجديد، لكن رأينا أنه يمكن وجود تلك الادوات ابتداء من «العصر الحجري الحديث» وأنها كانت مازالت تصنع وتستعمل في القرن التاسع عشر بمنطقة أولي (فان نوتن ١٩٦٩م (ب)). ولذلك فان اكتشاف ادوات مهذبة، خارج كل سياق أثري، لا يعني شيئا، الا ان توزع تلك الادوات ليس خاليا من الأهمية لأن تلك الأشياء لم تلحظ الا بمحيط الحوض الأوسط. وتعتبر تلك الاكتشافات بالشرق نادرة للغاية فلا نعرف في بروندي الا فأسين مصقولين وكهفا له مصاقل (فان نوتن ١٩٦٩م، كاهن، فان نوتن ١٩٧٠م). ولقد ازداد عدد الاكتشافات نحو الجنوب الشرقي اذ وجدت بعض الفؤوس وبعض المصاقل في شابا. أما في كساي فقد عثر فيها فعلا على بعض المصاقل، الا ان الادوات المصقولة مفقودة عمليا (سليس ١٩٧٢م). وعلى العكس، تمثل تلك العناصر أساس المكتشفات الأثرية التي وقعت بالشمال من الغابة الكبرى. لقد جمعت بحوض أولي وحتى في ايتوري أكثر من ٤٠٠ أداة منها فؤوس رائعة من الهيمايت صقلت صقلا دقيقا، ومصاقل عديدة. ولم توضع الى الآن الا خريطة واحدة لتوزع تلك الادوات (فان نوتن ١٩٦٨م (ب)). ان العصر الحجري الجديد «الأولى» لا يتجاوز ولو جزئيا على ما يبدو القرن السابع عشر ويتسبب اذن الى عصر الحديد كما تدل عليه الحفريات في بورو (فان نوتن (ف) وفان نوتن (ا)، ١٩٧٤م).

وقد عثر في الناحية الغربية، أي في المنطقة التي يتصل فيها الأوبنكي بالغابة، عثر على تجمع آخر من الفؤوس المصقولة. والكثير منها أقل جودة من فؤوس أولي، وعلى العموم لم تصقل منها الا بعض الأجزاء. ولم تسمح الاستكشافات بتلك المناطق بالعثور على أدوات مثالة في اطار أثري. الا أن ر. دي بايل (١٩٧٥م) قد اكتشف في حفرة قام بها بالجهة الأخرى من النهر، في باطايو بامبراطورية وسط إفريقيا، وذلك لأول مرة، له قاطع مصقول يعود الى صناعة غير حجرية مصغرة ولصناعة الحزف. وهذه الصناعة الحزفية تتميز بقعر مستو، وهي في العادة مزينة بزخرفة كاسية أو ممتزجة بخديدات، وحزات ودمغات خطت بالمشط. وقد لا يكون ذلك الحزف سابقا للقرن الرابع الميلادي عندما يؤرخ بالحرارة الضوئية، وذلك يعني أنه حديث جدا بالنسبة لتلك الصناعة، واذا كانت بعض الفؤوس المبعثرة قد جمعت في أماكن مختلفة، بامبراطورية وسط إفريقيا، فلا يوجد حسب علمنا مصقل واحد بتلك المناطق.

وقبل ان نتعرض لمنطقة التجمع الأخيرة، يجب ان نشير الى أن فؤوسا مصقولة مرتبطة بالحزف،

موجودة في بحر الكرون، على جزيرة فرنندوبو، وقد أُرخت بالقرن السابع الميلادي (مرتين دل مليون ١٩٦٥م) وظلت مستعملة حتى عهد قريب.

تمتد المنطقة الأخيرة موازية للساحل الاطلسي ابتداء من الجابون الى الشمال الغربي من أنجولا. ان الادوات الحجرية الجديدة التي عثر عليها في هذه المنطقة منحوتة، ولم يصقل منها الا القاطع.

وللفؤوس في الجابون حافات متعرجة تكون لسانا خاصا بها (بومري، ١٩٦٦م). ولقد اكتشف اناء اثر أعمال كبيرة وهو يحتوي على قطعة من أداة مصقولة وفحم خشبي لم يؤرخ مع الأسف (بومري، ١٩٦٥م). ولم يعثر في جمهورية الكونغو الشعبية بأنجولا (مرتين، ١٩٧٦م) الا على مكتشفات سطحية. وبالعكس من ذلك، اكتشف ج. كوليت في بوانت لا كومبي فأسا مصقولا يبدو أن له صلة بالحرف ذي القعر المستوي (بيكرت، ١٩٣٨م) مما جعله يسميه «الحجري الجديد الليوبولدي» وهو مصطلح صار يطلق فيما بعد على الفؤوس المصقولة التي وجدت بالزايير الاسفل. وجمع مرتلننس (١٩٥٩م) بالسطح، في كونكوديا فانكا فؤوسا مصقولة، ومروا منحوتا غير نوعي، وخزفا خشنا له قعر مستو. ويوجد نفس الحرف بكهوف نظادي - نظادي وديما ونكوفو، التي لها صلة في الموقعين الأخيرين بفؤوس مصقولة. ولقد أرخ، في أربع مرات، فحم خشبي مجاور بالقرنين الأخيرين قبل الميلاد (ماري، ١٩٧٧م أ). الا أن الأمر لا يتعلق الا بسبر محدود لا يسمح بأن نستبعد نهائيا نسبة تلك الآثار الى عصر الحديد، لاسيما وان حفريات جديدة تبين ان الليوبولدي في بوانت لا كومبي قد يندمج في عصر الحديد (كاهن، ١٩٧٦م). لكن هذا الموقع قد عرف اضطرابات ويمكن ان يتعلق الأمر بمجرد تسرب من الآفاق العليا.

في دمبا ونكوفو، وهو الموقع الوحيد الذي حفظت فيه عظام، فان تحليل الحيوانات التي عثر عليها فيه، لا يدل على وجود حيوانات أليفة. ونظرا الى فقدان معطيات اجتماعية أخرى، فقد يكون من السابق لأوانه ان نعتبرها تنتمي الى العصر الحجري الجديد الحقيقي الذي كان سكانه يستعملون أدوات مصقولة والحرف ويتعاطون تربية الماشية والفلاحة. وكذلك الشأن بالنسبة لجميع الصناعات التي لها مظهر العصر الحجري الجديد والمكتشفة الي يومنا هذا بافريقيا الوسطى. فنحن لا نعرف مستعملها ولا العصر الذي عاشوا فيه ولا نظامهم الاقتصادي. ولقد افترض بعضهم أخيرا ان بعض الآثار المعنية قد تكون تناسب مستوى نهائيا من العصر الحجري الذي قد تناسبه المراحل الاولى من انتشار السكان الناطقين بلغة البانتو في حوالي الألفية الأخيرة بعد الميلاد أي قبل أن تتقن استعمال الحديد (فليس، ١٩٧٦م، ماري، ١٩٧٧م ب)، فان نوتن، تحت الطبع.

يجب علينا أيضا أن نذكر هنا الحجارة الضخمة المكتشفة بمنطقة بوار. فهي قد تعود الى الألفية الخامسة أو الى الألفية الاولى قبل الميلاد، لكن القضية يمكن ان تتعلق باستعمال جديد (بايل دي هرمنس، ١٩٧٥م). و يبدو أن تلك النصب باعتبار أحجامها تدل على سكان قارين يمكن أن نفترض أنهم تجاوزوا مرحلة الصيد والجنى. ولندكر هنا أن تلبط أبي API بالحجارة الكبيرة ظاهرة طبيعية وليست بتاتا من عمل الانسان (فان نوتن ١٩٧٣م) كما هو الشأن بالنسبة لجميع البنيات المسماة بالنصبية المعروفة الى يومنا هذا بالزايير.

## نظرة مثالية الى الآثار؟

لقد حاول ج. د. كلارك، في المؤتمر الافريقي المنعقد بداكار سنة ١٩٧٦م، ان ينظم قائمة المصطلحات الخاصة بمجوز الزاير (كلارك، ١٩٧١). وبين كاهن بوضوح، عندما أرخ مختلف المصطلحات المستعملة للتعبير عن الصناعات التابعة للأشولي بالمنطقة المعنية، أن الأمر يتعلق بخليط عجيب (كاهن، ١٩٧٧م).

ان الحفريات الحديثة في كامبي قد سمحت بالعثور على المقطوعة الأثرية وتاريخها وهي التي عرفها ج. كوليت. الا ان إعادة التركيب من القطع الآتية من أعماق مختلفة بينت أن الموقع قد كان مضطربا كثيرا وان الصناعات ليست متجانسة (كاهن، ١٩٧٦م). فلقد تنقلت الأشياء من مكان الى مكان، كما أكدت على ذلك التجارب المختبرية (ميرسن، ١٩٧٧م). ويحتمل أن طرأت ظاهرات مشابهة بمواقع أخرى حيث وجدت البقايا الأثرية في رمال كالاهاري متبدلة، مثلاً هو الشأن بالشمال الشرقي من أنجولا، وبالزاير الأسفل، وكساي، وشابا والكونغو، (كاهن، ميرسن، ١٩٧٧م). ونحن لا نعلم الى أي حد أصاب الاضطراب مختلف الصناعات، ونلاحظ من جهة أخرى توافقاً نوعياً وتاريخياً ملحوظاً بين مختلف مواقع ما قبل التاريخ بالحوض الجنوبي من الزاير. وبصفة أقل بآفريقيا الوسطى. ولقد اقترح د. كاهن (١٩٧٧م) ان تجمع تلك المجموعات في ما قبل التاريخ المتقاربة حسب مركب صناعي واحد ما بعد الأشولي بآفريقيا الوسطى، يشمل في البداية آفريقيا الوسطى كلها، ثم يتقلص عبر الزمن ليقصر في النهاية على الجنوب الغربي من حوض الزاير.

ان هذا المؤلف يعتبر أيضاً ان المصطلحات مثل السنغون، واللوپمي، والتشيتولي لا تعبر عن أي واقع علمي مقرر. لكنه يبدو لنا، كما حاولنا تبيان ذلك بهذا الفصل، انه من الممكن ان يميز بعد الاشولي، وخلال الصناعات الحجرية، أنماطاً جهوية وأن تنتج تطورها. وقد يكون في هذا التمييز نوع من التبسيط، وبماجلاً للأخذ والرد، الا أنه يعكس واقعا معينا، يبدو بلا شك أكثر تعقيدا الآن مما كنا نشوقه. ان تحسين مناهجنا على أساس حفريات جديدة، مكنتنا من أن ندرك أحسن إدراك التنوع العجيب الذي توفره آفريقيا الوسطى طيلة العصور الحجرية. ان قائمة المصطلحات الموجودة صالحة حسب رأينا لأن يحتفظ بها كأداة عمل مؤقتة.

## الخاتمة

ان ماضي آفريقيا الوسطى لم يعرف بعد معرفة كاملة لان دراسته لم تقع الا مؤخرًا بصفة شاملة. ولقد استطاع علم الآثار أن يأتي بشمراته الأولى. فلقد تضاعف خمس مرات عدد التواريخ بالكربون ١٤. وذلك في ظرف بضعة سنوات. (ماري، فان نوتن، كاهن ١٩٧٧م) ويمكن ان نتصور الخطوط العريضة للفرضيات الأولى (فان نوتن، وهي قيد التهييء).

ان الابحاث الجديدة كانت ترمي أولاً الى اجراء سلسلة من الحفريات تشمل المناطق وحقبات مختلفة حتى نصل في أجل معقول الى وضع اطار تاريخي طبقي عام خاص بآفريقيا الوسطى. ولا بد أن تؤخر هذا المشروع الطموح الى الدرجة الثانية، لأن موقعا هاما مثل موقع كامبي قد قلب رأساً على

نمقّب لا المصطلحات الموجودة فحسب، بل حتى قيمة الملاحظات الطبقيّة الأرضية، ووفرت مواقع أخرى مثل ماتوي صناعات جديدة تشكّك تواريخها في دمجها ضمن إطار واسع تجد فيه «صناعات» و «ثقافات» نهائيا «مكانها».

فبقدر ما نكتشف مواقع جديدة، يصبح من الواضح اننا نجد كل مرة شيئا طريفا وغير منتظر، وذلك ما يوافق إحدى فرضياتنا العملية التي كانت تتصور تنوعا كبيرا جدا ضمن كل واحدة من «الصناعات» أو «الثقافات». لقد اضطر الانسان، أمام محيط صغير خاص أن يكيف أدواته مع ذلك المحيط. وما علينا الا أن نتصوره في حدود موطنه وهو يعيش عيشة أكثر استقرارا من عيشة الترحال المطلقة التي تنسب كثيرا إلى الصيادين الجائعين، فعوضا عن أن يطاردوا دون هوادة حيوانات الصيد، كان أولئك السكان قد طوروا ثقافة خاصة بهم، كانت تركيبتها متناسقا بين المحيط وتقاليدهم الموروثة عن أسلافهم. ونحن لا نعتقد بجبرية البيئة جبرية مطلقة. فكلما استقر التوازن الميزولوجي، ظلت الأدوات قارة طيلة أحقاب طويلة فلعلها تستجيب تماما لمتطلبات البيئة وأولئك السكان. وكلما دام هذا التوازن الدقيق، لم يوجد ما يخرّض الانسان على التطور بسرعة.



## افريقيا الشمالية في ما قبل التاريخ

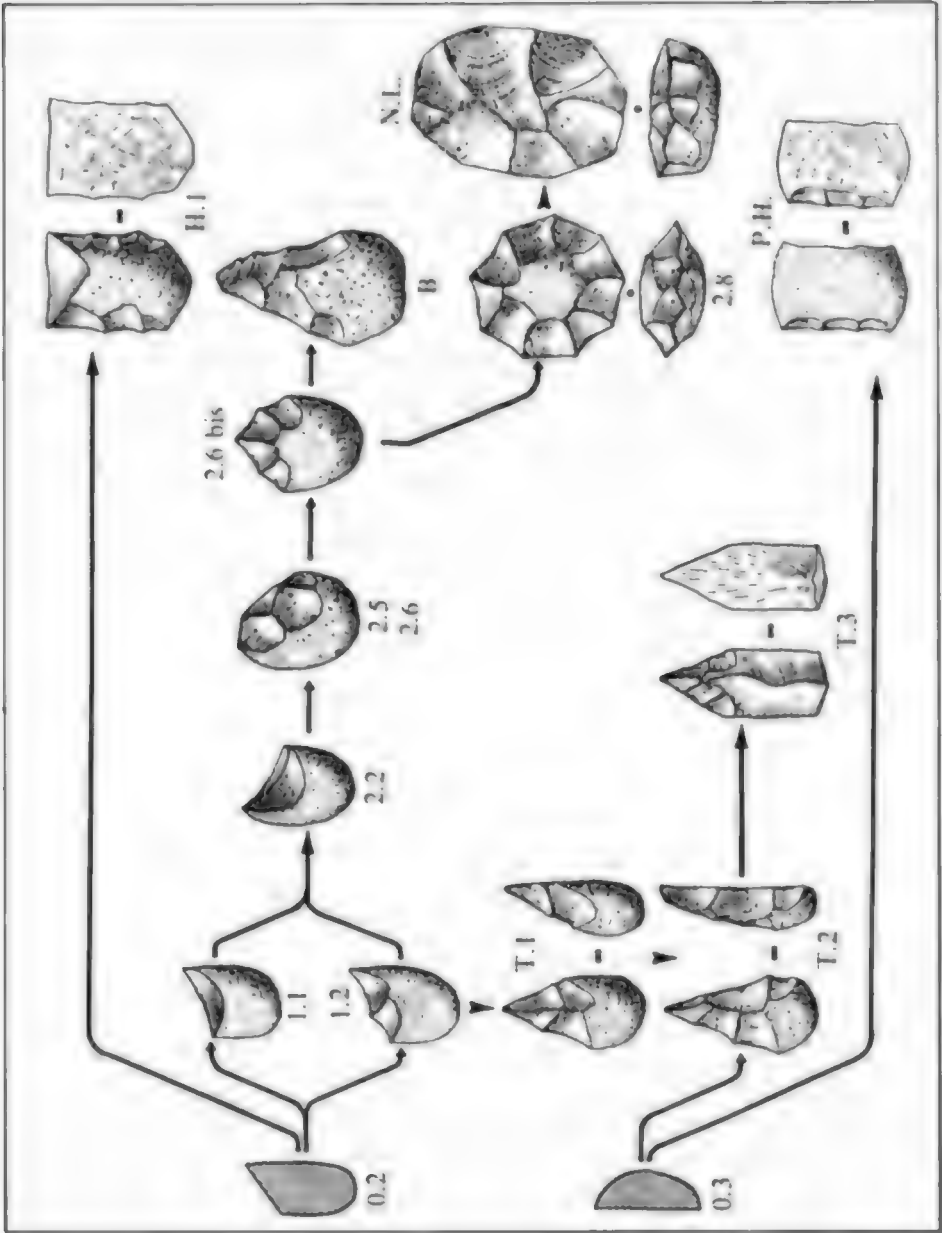
بقلم: ل. بالو.

ان بلدان المغرب نظرا لقربها من أوربا ولمواجهتها للبحر الأبيض المتوسط شمالا، قد جاب فيها منذ أكثر من قرن الباحثون الأوائل الذين كانوا يتطلعون لمعرفة الأحقاب السابقة لتاريخها. فتراكمت بذلك كميات هائلة من المراجع المتفاوتة قيمة فضلا عن الاستدراكات والايضاحات التي عدلتها ودعمتها (والتي أجريت سنوات ١٩٥٢م — ١٩٥٥م — ١٩٧٤م). ومع ذلك فلم يحافظ البحث المتعلق بما قبل التاريخ هذا الجزء من شمال افريقيا على ما كان يتمتع به منذ عهد طويل من تقدم وسبق. فالابحاث رغم كل ذلك متأخرة في ميدانين أساسيين هما:

— طرق التنقيب والحفريات، باستثناء حالات نادرة جدا.

— الترتيب التاريخي المطلق، وهذا راجع أساسا الى امكانيات الاشعاع الكربوني.

ولقد حققت افريقيا الشرقية تقدما أحسن بكثير في هذين الميدانين. فنظرا لانعدام الأحفورات البشرية بالعهد البليستوسيني الاسفل، والتواريخ الحاصلة بطريقة البوتاسيوم أرجون، وفقدان المستوطنات منذ العهد الحجري القديم، لا يمكن لنا اليوم أن نعرف قدم استقرار البشر في المغرب والصحراء الا بالاعتماد على فرضيات حول علاقات الارتباط بين الحيوانات ونمط الصناعات الحجرية. ونظرا لانعدام رسوم طبقية أرضية كافية مساحة وعددا، يَعْسرُ إثبات تواصل الاستقرار الانساني وان كان هذا الاستقرار محتملا جدا. فالمناجم الأساسية معزولة زمانا ومكانا، من ذلك ترزيفين (انسان الاطلس) بالجزائر مثلا. ولا تزال مشاكل المستيري وعلاقاته بالعاطري، ومشاكل الانسان الحامل لهذه الحضارة الاخيرة، والانتقال من العاطري الى الايبروموروسي، والرسوم القابسية، والاحداث الخاصة بالعصر الحجري الجديد كل ذلك ينتظر حلا في أغلبها. ولقد



● تطور «ثقافة الحصى» نحو أشكال  
الاشولي: والارقام تشير الى التصنيف  
النقطي المستخدم لما قبل الاشولي في  
أفريقيا. H = بلطة. (تصويرم. بوقي).

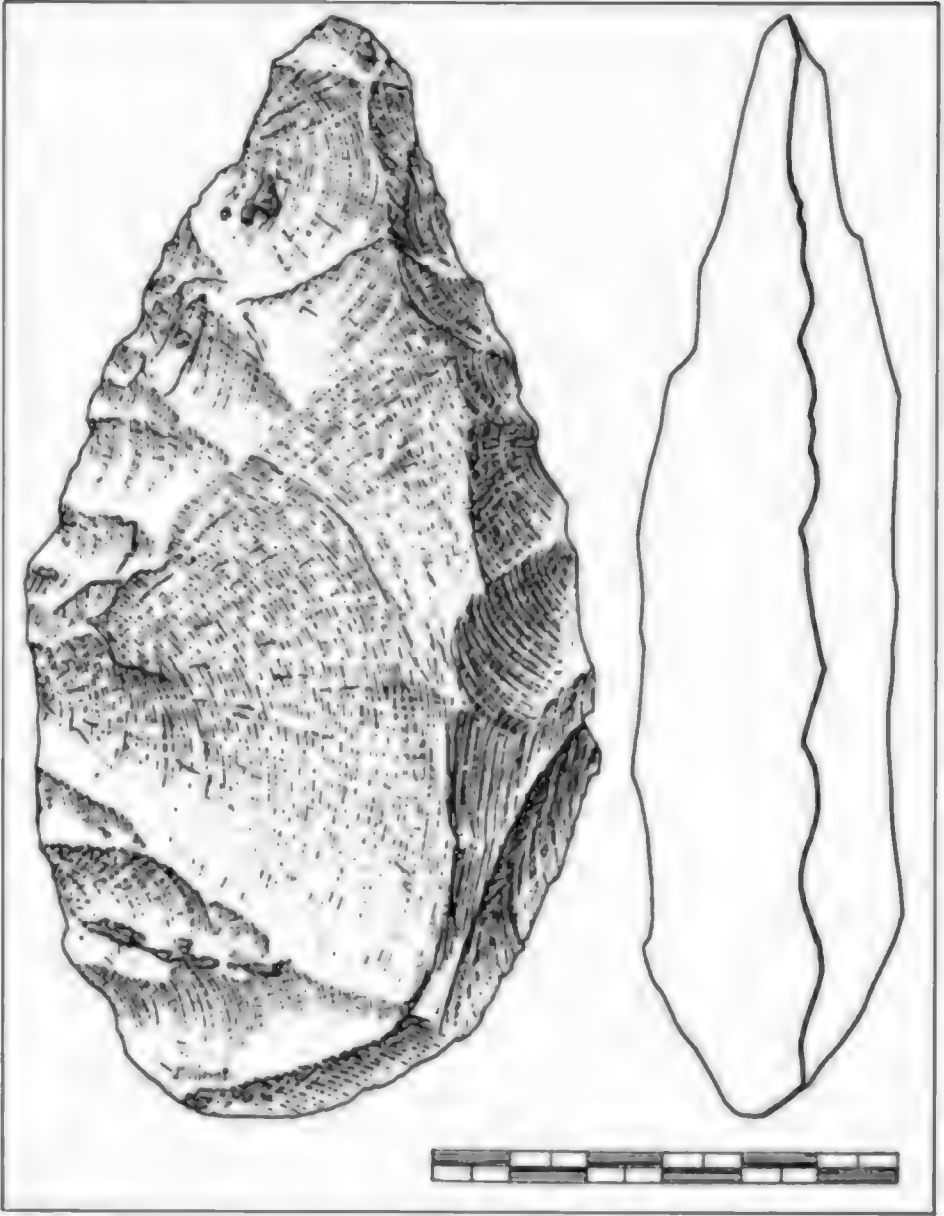
وفرت الأبحاث المتعلقة بما قبل التاريخ الكثير للتعرف على الدهر الرابع، مثل دراسة رسوم طبقية الأرض، والإحاثية، إذ أنها سمحت بإثبات وجود نوع تجاوزت أهميته حدود المغرب. لكن عليها في المستقبل ان تعتق وجهة نظر إحيائية — اثنولوجية أي التخلي عن دراسة «الانسان ومحيطه» لتبنى منهجية تعني أساسا بالانسان في محيطه.

## أقدم الصناعات البشرية ما قبل الأشولي

ان الشواهد وافرة الا أن تأويلها تأويلًا آخر غير نوعي، يعتبر أمرا دقيقا: فالتأويل يركز على رسم طبقية الأرض في الدهر الرابع بساحل المغرب (بيرسون)، وعلى الإحاثية الحيوانية في الجزائر (عين حنش بالقرب من سطيف، حسب حفريات س. ارمبورك) وبتونس (عين برمية بالقرب من قبلي). وتعتمد على النوعية فقط بالصحراء (رقان، وعين أفلاح، الى غير ذلك...) وهكذا، يمكن أن ترتبط علاقات نقل أو تكثر متانة بمناجم طانزانيا وكينيا وأثيوبيا. تعتبر تلك العلاقات ضعيفة لأن المناطق المغربية المتاخمة لسواحل المحيط الأطلسي هي وحدها التي سمحت بإثبات تطور نوع من «الحصاة المهيأة» على الأسس التي اعتمدها ب. بيرسون والتي أصبحت فيما بعد محل نقاش وشك بصفة جزئية، باعتبار أن الحيوانات ليست بالضرورة متعاصرة، وباعتبار توفر وجود آثار من جهة، وبنية أثرية من جهة أخرى، ونظرا لاختلاف طرق التحليل النوعي المستعمل في إفريقيا المستعملة للفرنسية وإفريقيا المستعملة للانكليزية، الخ.

وليس من المحتمل في الوقت الراهن أن يكون حضور البشريات في المغرب والصحراء، أقدم من وجوده في إفريقيا الشرقية والجنوبية، لأن الصناعات التي تعتمد الشظايا والتي سبقت الحصاة المهيأة لم تعرف، إذ لا وجود لآثار الشقافة العظمية السنية القرنية. ولا وجود لبقايا الانسان القرد (قرد الجنوب). وعلى كل فان كل القرائن تجعلنا نرى أن الحصاة المهيأة الموجودة في كل من المغرب الأقصى والجزائر والصحراء، تنضوي تحت تاريخ مواز لتاريخ الأولدوواي، أي بين مليونين ومليون واحد من السنوات (وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار الحصاة المنحوتة من ذوات الوجهين والموجودة بالأومويكون لنا مليونان ونصف من السنوات).

وهكذا انصب المجهود لأقامة علاقة ارتباط زمني طبعي/وتطور نوعي، مما أدى الى اثبات قوائم نوعية لها انعكاسات زمنية. وهذا ما قام به ب. بيرسون في شأن المغرب الأقصى، وه. هوغو ول. رمندو في شأن الصحراء الوسطى، وه. آين وج. شافايون في شأن الصحراء الغربية. ولقد ارتكز التحليل على الخصائص التقنية التي تسمح ملاحظتها بتمييز أشكال منتظمة. أما التصنيف فيعتمد منهجا أساسه البداية من البسيط والتدرج الى المعقد، أي الانطلاق من النحت ذي الوجه الواحد، فذوي الوجهين فتعدد الصفحات. ولا شك ان هذا التصنيف يندرج في نطاق الترتيب التاريخي الخططي. لقد وضع ب. بيرسون في إطار الدهر الرابع بالمغرب الأطلسي، وج. شافايون فيما يتعلق بأراضي الساوره نظما ذات قيمة جهوية على الأقل. واعتمادا على الإحاثية وضعت أشباه الكرات ذات الوجوه التي تنتسب لعين حنش في نطاق تطور حيوانات الفيلافرنشي، كما هي معروفة في المغرب (فواره) وفي الجزائر (عين بوشريط وعين حنش) وفي تونس (بحيرة اشكل وعين برمة).



● أداة ذات وجهين من الاشولي،  
وهي الأكثر تطوراً من موقع ترنيقن  
(الجزائر الغربية). - جفريات أرمبورك  
(١٩٥٤)، رسم م. دوقوا.

وعلى كل حال فإننا نعتمد على الرسوم الطبقيّة الأرضية للفيلّا فرنشي المؤسسة في جملتها على الأحاثّة الحيوانية. فتبرز في هذه المجموعة الصناعات البشرية التي يمكن اثبات تطورها. نحو ذوات الوجهين والقذومات الخاصة بالعصر الحجري القديم الأسفل. على أنه لم تتوفر لدينا أية بنية أثرية وذلك يعني انعدام أي إطار إحصائي أثنولوجي، عكس ما هو موجود في طانزانيا (أولدوواي) وكنينا وأثيوبيا.

## الصناعات الأشولية

لقد أصبحت عبارة «الأشولي الإفريقي» منذ ندوة بورك فارتنشتاين سنة ١٩٦٥ م ومؤتمر داكار (١٩٦٧ م) المتعلقة بما قبل تاريخ إفريقيا — تشمل كامل العصر الحجري القديم الأسفل الذي يوافق بأوروبا الغربية، العهد الأبقيلي والعهد الأشولي وكذلك العهد الكلاكتوني والعهد اللوفالوازي اللذين يعتبران محل نظر.

فالأشولي وافر جدا في بلدان المغرب، ويتمثل إذا ما نحن تركنا جانبا المحطات الموجودة حاليا على سطح الأرض في ثلاثة أنواع منجمية لها خصائصها:

(أ) نوع من المناجم التي لها علاقة بالدهر الرابع الساحلي والبري وحتى البحري ويتمثل ذلك خاصة بالمغرب الاطلسي حيث تمكن ب. بيبرسون من تقديم مقطوعة أشولية اعتمادا على الحصاة المهيأة التابعة «لشقافة الحصاة» في العهد السابق للأشولي، ومنتهية الى العصر الحجري الأوسط (العاطري). أما الجزائر فليس لها حظ في ذلك لأسباب ترجع الى الجغرافيا المورفولوجية الساحلية، وان كانت بعض «المناجم» موجودة على ساحل القبائل (جيجل) وقرب عنابة. وبالنسبة للسواحل التونسية فإنني لا أعرف مناجم أشولية من هذا النوع.

(ب) المناجم التي أصلها من الطمسي النهري أو البحيري. فالنوع الأول أندر وأضعف مما هو موجود في أوربا، والعلاقات بينها من حيث طبقات الأرض، ومن حيث الاحاثّة غامضة جدا في أكثر الأحيان. وذلك هوشأن عدد من المناطق المغربية (وادي الملاح) والجزائرية (أوزيدان قرب تلمسان وشابلان قرب المدية) وتامدا (بوادي سباع) والمنصورة (قسنطينة) وكلافونتين (شمال تبسة) والباينكية «» وخاصة الماء الأبيض جنوب تبسة. وفي تونس، أشولي الرديف (قفصة). أما المناجم القائمة على ضفاف البحيرات وما أكثرها في إفريقيا الشرقية، (مثل أولور كسايلى بالكنينا)، فهي لا تكاد تستحق الذكر. هناك مثلا بحيرة القرار (تلمسان) ذات الحفريات القديمة جدا والتي قام بها م. بول بصورة منقصة، وكذلك مناجم أبو الخير بمستغانم التي بقيت الى الآن غير معروفة. ولقد برز منجم واحد من هذا الغموض، ونعني بذلك منجم سيدي الزين (بالكاف في تونس) حيث يوجد فيه مستوى من القذومات بين اثنين آخرين من ذوات الوجهين ليس فيها قذومات. على أن الأشولي المرتبط بترسبات بحرية أمر مشهود بصفة منتظمة من موريطانيا الى ليبيا.

(ج) المناجم التي لها علاقة بعيون جوفية قديمة. ويبدو أن تلك العيون كانت تجذب الانسان بين الاشولي الى العاطري. وذلك أولا شأن تيط مليل (بالدار البيضاء) وعين فريطيسة (بجنوب وجدة في



- (١) أشولي من منطقة تيوداين للكتبان الرملية: بلطة من الريوليت.
- (٢) شوكة موستيرية، الفخار (تونس) حضريات الدكتور غروويه
- (٣) عين حانش، «كرويات متعددة الوجة» (تصوير م. بوفي).

المغرب، وبحيرة كرار بالجزائر التي سبق ذكرها، وكذلك الأمر بالنسبة لشمته (بسكرة) التي لا نكاد نعرف عنها شيئا وخصوصا مناجم ترنيقين (معسكر). و يعتبر هذا الأخير المنجم الوحيد الذي حظي أخيرا بحفريات منتظمة (١٩٥٤ م - ١٩٥٦ م) قام بها الاستاذ س. أرمبورك بطلب من الجزائر. إلا أنه لا ينبغي أن نتوهم ما يتجاوز الواقع فما لا شك فيه أن الصناعة التي عثر عليها هامة جدا، وإن بقايا الحيوانات تمثل ثروة كبرى، وإن إنسان الأطلس اكتشف هنا. ولكن التكوين الطبقي لهذا المنجم الجميل يثير مشكلا، لأنه يترك المجال الزمني المتضمن لمجموع الوثائق مفتوحا جدا، ولعل ذلك ينطبق أيضا على طبيعة الموقع بالذات: أفلا تسمح الرمال التي حولتها بدون انقطاع الينابيع الجوفية بوضع تاريخ طبقي؟. ذلك ما لا يمكن أن نبرهن عليه و يبدو أن دراسة الأدوات تدل على أن الأمر لا يتعلق بمشاكل للنحت، بل بمكان للصيد.

إن الأشولي المغربي والصحراوي ليس غالفا أساسا للأشولي الذي ضبط بفرنسا. والدراسة التحليلية (بوردي ١٩٦١ م وبالوت ١٩٦٧ م) لا تدل على ابتكار كبير في صنع ذوات الوجهين. وكذلك الشأن بالنسبة لذوات السطوح المثلثة. ثم إن وجود بعض الشظايا، وصناعة صغيرة بترنيقين مثلا، ليسا أمرا مستغربا. ولقد ظهر استعمال القداحة اللينة في غضون أواخر العهد الأشولي القديم (النحت أو إعادة النحت): فلم توجد منها إلا قطعة واحدة ثابتة في ترنيقين (من ذات الوجهين). ثم أننا نلاحظ ظهور «ضربة الشفرة» في تخليص الحد الذي يفصل بين السطوح الثلاثة. على أن الابتكار الأساسي الذي أكدنا عليه منذ زمان يتمثل في المكانة التي تحتلها القدومات ذات الشظايا ولعله من الخطأ اعتبارها أداة (نوع من الفأس) خاصة بأفريقيا وفعلا فليست هذه الأداة موجودة دائما في الأشولي بأفريقيا (وهي مثلا ليست معروفة في الآثار الهامة الموجودة في الماء الأبيض، إن أردنا ذكر مثال واحد من الجزائر) ولكنها موجودة من الشرق الأدنى إلى الجزيرة الهندية. ولقد أدى وجودها بإسبانيا (ريومازانيس، قرب مدريد)، وعبورها إلى جبال البريني أدى هذا الأمر بـ هـ. أليين إلى إعادة النظر أخيرا (١٩٧٥ م) في مشكل عبور جبل طارق قبل ملاحاة العهد الحجري الجديد بكثير. فقد استنتجت من ذلك وجود برزخ مرتفع وأصبح ممكن العبور خلال فترات الانحسار الريسي.

ويرجع الفضل إلى ج. تكسيبي من أجل تحليله الممتاز لأنواع القدومات المغربية. وذلك ما يستحق إبداء ملاحظتين هامتين: تتمثل أولهما في ظهور طريقة لوفالوا في قطع الحجارة منذ العهد الأشولي القديم، والتي أدت إلى التوحيد المدهش الطارئ على القدومات المسماة تابلبالت تشقيط (بغربي الصحراء الجزائرية). وتتمثل ثانيتهما في تقنية «الشظايا النووية» التي سمحت بالحصول على شظايا لها وجهها انفجار متقابلان يكونان حافة قاطعة حادة (وهي تقنية الكومبيا بأفريقيا الجنوبية فهل أن أفريقيا هي التي قامت فيما بعد بنقل طرقها على غاية من الإكتمال إلى أوروبا، حيث لعبت الطريقة الأولى على الأقل دورا هاما جدا قبل العصر الحجري القديم الوسيط؟).

ولقد كان الأشولي يعرف دائما على أساس أثري. وتغطي صناعات ذوات الوجهين جوديين (مندل - ريس) كذلك الجمودي الفاصل بينها والمراحل التي تجزئها. وقد حاول ب. بيرسون إيجاد التوازن بين فترات التعدي والانحسار البحري: فالاميري يوازي المندل، والأنفوي يوازي الريس،

والتنسفي يوازي الرئيس. الا ان هذه العلاقات التوافقية تبقى دائما افتراضية. و يعتبر الامتداد في عهد ما بين جمودي ريس - فورم أمرا مقبولا.

ونظرا لتعذر ضبط التواريخ بدقة فاننا مضطرون الى ان نعتد على علم الإحاثة وذلك أن الحيوانات بدأت تفقد عناصرها الباقية من العهد الفيلافرنشي الأعلى لتصبح «حيوانات تشاد وزمبير الكبرى» كما سماها س. ارمبورك. لكننا لا نعرف الى حد اليوم الحيوانات الصغيرة والنباتات الموجودة بترينفين.

وماذا عن الانسان الأطلسي أي انسان ترينفين؟ وعن انسان المغرب (انسان الرباط) وعن انسان سيدي عبد الرحمان (الدار البيضاء) الذي ينتسب الى الانسان المستقيم؟ ان هؤلاء الناس القردة القريبين جدا من انسان الصين (بيكين) لا يمكن ضبط تواريخها الا بكثير من التجاوز أي على الأقل من ٤ الى ٥٠٠ ألف سنة وهو ما يعتبر فرضية مقبولة. ويغلب على الظن ان أولئك الناس قد عرفوا النار. وكانت لهم لغة بدائية إن المغرب لا يوفر لنا شيئا في هذا الشأن.

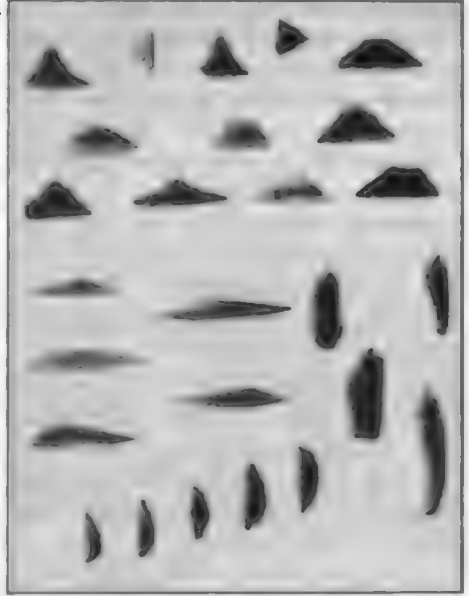
## الموستيري - العاطري

قلت في مقال كتبتة في ١٩٥٥م بأنني أشك في وجود عهد موستيري مستقل في افريقيا الشمالية. الا ان الدكتور كوبرت قد أثبت بشدة، وكان على حق. ثم عدلت فيما بعد (١٩٦٥م) موقفي الاول، الا أن ذلك لم يحسم المشكل بل غير موضعه. فمن المؤكد أنه كانت توجد في بلدان المغرب مناجم موستيرية ولكنها كانت واقعة في ظروف جغرافية لا تكاد تصدق، ومخالفة جدا لكل المفاهيم المتعلقة بعرقية ما قبل التاريخ. ومن ذلك ستة مناجم لا نزاع فيها بتونس وهي مناجم سيدي الزين (الكاف) وعين محروثة (القيروان) وعين مثرشم (جبل الشعاني) وسيدي منصور (بقفصة) والقطار (قفصة) ووادي العكاريت (بقابس). ويوجد منجم واحد بالجزائر هو منجم الرثايمية (وادي شلف)، وثلاثة بالمغرب (تافوغالت بوجدة - كيفان ابن الغماري تازة) جبل إغود. ولا يوجد أي منجم بالصحراء، والحقيقة ان المواقع السابقة للعهد الموستيري واللاحقة له تعد بالمشات. مع العلم أن هذه القلة لا تدل على قصور الأبحاث لأن إكتشاف العهد الموستيري كان شغلا شاغلا لدى مؤرخي ما قبل التاريخ التكوئين في فرنسا، حيث يكثر عدد المناجم مثلما هو الشأن في الجزر الايبيرية والايطالية انطلاقا من جبل طارق. وكمثال، تفصل ٨٠٠ كلم سيدي الزين بالكاف عن الرثايمية، و٣٦٠ كلم الرثايمية عن كهف تافوغالت ثم ٧٠٠ كلم للوصول الى جبل إغود والأمر هنا يتعلق بموستيري متميز يمكن أن يدمج في المظاهر الأوروبية، لاسيما المظاهر المقطوعة بحسب تقنية لوفالوا. ونجد في المناطق الواقعة بين الطرفين، ما يشهد على وجود البشر: من ذلك النياندرتاليون بجبل إغود وأقدم أثر طقوسي معروف أي «الكارين» أو «هرميون» في القطار، وهو الذي لم يبق منه بارزا سوى قته في النبع الذي سمي باسمه. وباستثناء ما هو موجود بوادي العكاريت فاننا لا نجد أي منجم موستيري ثابت قريب من السواحل. لكن أين كانت اذن سواحل شط قابس؟ ان الموستيري المغربي لم يأت الا من الشرق. ولكن ما يثير الانتباه في شأن الموستيري هو أنه سر يعا ما طرأ عليه تطور فريد. فلقد تحول بعين المكان الى عطاري. وعند تطبيق



لقواعد التصنيف الجيولوجي تطبيقا يعتمد على «أحدث الأحفورات» اعتبرت من العطاري كل المناجم ذات الصناعة المستيرية التي يوجد فيها رؤوس عطارية ذات ساق (مثل الصناعات الموجودة بالقطار وعين المشرم وغيرها). واعتقد أن ذلك دليل قاطع على المعاصرة بين المستيري والعطاري بل أرى أن المستيري المغربي قد طرأ عليه تحول مغاير لتطور كل أنواع المستيري الأخرى. ولقد بين ج. تكسيي بصفة قطعية أن الأمر لا يتعلق بزيادة في الرؤوس أو المكاشط ذات الساق بل يتعلق بتحول مجموعة تضم ثلاثين شكلا من مستيريا وعاطريا، وذلك بنحت ساق في القاعدة. أما في أوربا وبالأخص في فرنسا فلقد اتبع المركب المستيري طرقا أخرى. وكانت هذه الطريقة جديدة مما جعل البعض يميزونها عن غيرها، وذلك ما لا يعقل: ومفاد ذلك أن العطاري ليس سوى مظهر متطور من المستيري خاص بجزء من إفريقيا. فهو يقدم مقامه، حتى من حيث الترتيب الزمني. إن تعريف ر. فوفري الذي يقول بوجود عهد عطاري في العصر الحجري القديم الأعلى، لم يعد ذا جدوى. فلقد تحدث البعض من المؤلفين القدامى عن «مستيري فيه أدوات ذات ساق» مثلما نقول نحن اليوم بوجود «مستيري فيه أدوات مسننة». ونظرا لكون الصناعة التي عثر عليها في المنجم الحامل لاسم العاطري، (وادي الجبانة، قرب بئر العاطر بجنوب تبسة) لم تحلل أبدا تحليلًا إضافيًا دقيقًا من طرف واضعها، فإن لفظة «العاطري» تبقى كما قال م. أنطوان «اسما بدون معنى». ونظرًا لكونه يعتبر تطورًا سابقًا لأوانه قد طرأ على المستيري ودام مدة طويلة جدًا وانتشر في المغرب والصحراء شمالًا وجنوبًا فهو في نفس الوقت النظير الزماني لجزء من العصر الحجري القديم الأوسط وعلى الأقل لبداية العصر الحجري القديم الأعلى.

إلا أن معالمنا الزمانية ما تزال تعوزها الدقة. ويعتبر ما اقترحه ج. كامبس من مقاربات بالتواريخ التي تحصل عليها ماك بورني في برقة ضعيفًا، لأن ماهية الصناعات لم تثبت بتاتا. فالعاطري محل نقاش (كامبس) والايبيرو-موروسي لا وجود له (تكسيي). ولقد أمكن ضبط علاقات طبقية أرضية متصلة بالدهر الرابع القاري أو البحري، سواء بالصحراء أو في بلدان المغرب. وذلك بالاعتماد على تأريخ نسبي أو تأريخ مطلق، فلا يمكن أن نعتبر الألفية الأربعين قبل الميلاد بأية حال التاريخ الأقصى الذي يمكن اعتماده لظهور العاطري. إن انزعاجنا في هذا الشأن يرجع إلى قلة فاعلية الكربون ١٤ فالتواريخ المتحصل عليها في شان المغرب والصحراء محصورة فيما بين ٣٧.٠٠٠ و ٣٠.٠٠٠ سنة قبل الميلاد وهي تواريخ منسجمة تدعو إلى الاطمئنان. ولذلك نعتبر أن العاطري هو عهد حجري قديم أوسط في أولى مراحله ثم أصبح فيما بعد معاصرًا للكستلبروني الأورينيائي، أي للجزء الأول من العصر الحجري القديم الأعلى بفرنسا على الأقل. إن علاقته مع تشكيلات الدهر الرابع متطابقة. وقد يحدث أن يعمر العاطري الشواطئ التيرينينة الجديدة التي انكشف عنها الماء عند بداية انحسار البحر الكبير الأخير (مثلا بالخروبة قرب مستغانم بغربي الجزائر). إن نهاية هذه الفترة الفاصلة الورمية (ورم ١/٢) قد حصلت في حوالي ٤٨.٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وترجع التشكيلات البرية التي كانت عمومًا محمزة وغنية من حيث العاطري والتي كانت تغطي تلك المناطق المغمورة تحت البحر الحالي، ترجع إلى الانحسار البحري الذي بلغ خمسين ومائة متر (١٥٠ م).



- (١) أتيري من وادي جوف الجمل (الجزائر الشرقية): شوكات ومكاشط ذات سيقان تعليق، ومكاشط أو عكّات، ونويات لوفالوا (تصوير م. بوئي). (٢) الصناعة النخيلية للكابسي (تصوير م. بوئي).
- (٣) صناعة الأسلحة في الكابسي الأعلى: مثلثات مختلفة الاضلاع، ومتوازيات أضلاع وإزاميل صغيرة، ومناشير ونصال متعددة الحزوز، إزميل زاوية، من وعارن ومكاشط، ونويات غنّدة، الخ. (تصوير م. بوئي) (٤) القابسي الاقل: أحجار صغير هندسية الاشكال (متوازيات اسرع، ومثلثات مختلفة الاضلاع، وأهلة، وإزاميل صغيرة) (تصوير م. بوئي).

ان ضبط نهاية تاريخ العهد العاطري لدقيق جدا. ان فتح الصحراء أمر، كما أن التطور التقني الصناعي المتجه الى أشكال تؤذن بالعصر الحجري الجديد أمر آخر. ويعتبر هـ. هوكون العاطري لم يتجاوز حد البحيرات الكبرى ذات المشطورات، والتي كانت مليئة بالماء الى الألفية السابعة قبل الميلاد. الا ان البرهان على هذا العاطري السابق للعصر الحجري الجديد لم يقدّم بعد، رغم ما في الفرضية من اغراء كبير. فنحن لا نعرف صناعة فاصلة. ولقد أخذت العقبلة الأساسية ذات الطابع الانثروبولوجي تتلاشى لأن كل الاكتشافات الاخيرة التي وقعت بالمغرب تدعم الفرضية القائلة بأن الانسان العاطري ليس انسانا نياندرتاليا مثل موستريي جبل إغود، بل قد أصبح انسانا عارفا.

## العصر الحجري القديم الأعلى والعصر الحجري الوسيط

ومهما كانت امتدادات العاطري في الصحراء، فقد طرأت أمور أخرى ببلدان المغرب وليس من المفيد هنا ان نستعرض تاريخ تنفيذ فرضيات ر. فوفري التي كانت تعد حجة مدة طويلة. اذ نرى انه يحسن بنا أن نضبط وضع المعارف الحديثة التي تنتظم حول أربع أفكار جوهرية نستعرضها فيما يلي:

— ان العهد الايبيرو-موروسي الذي كنت ساهمت في فصله عن القابسي لأسباب انثروبولوجية وباليتولوجية، هو أقدم مما كنا نعتقد. فهو معاصر للمكدليني الفرنسي وبذلك فهو عبارة عن حضارة تنسب الى العصر الحجري القديم الأعلى.

— ان الخصومة التي كانت قائمة بيني وبين ر. فوفري والدكتور كوبرار والمتعلقة «بأفق كولينيون» قد انتهت، وذلك ان الصناعة ذات الصفيحات التي تقترب من الايبيرو-موروسي أكثر من القابسي سابقة بكثير لهذا الأخير.

— ان التمييز الذي أقامه فوفري والمتعلق بعهد قابسي «نموذجي» فوق عهد قابسي «أعلى» أو متطور قد تلاشى لترك المجال لفكرة تقضي بتدغل الصناعات القابسية وتعتمد على مجموعة كبيرة من التواريخ الراديومترية التي تقنع.

— ان العصر الحجري الجديد ذا التقاليد القابسية الذي ابتكره ر. فوفري على أسس ضيقة جدا والممتد الى جزء كبير من إفريقيا ينبغي ان يحدده الأصلية وأن يترك المجالات الشاسعة المأخوذة باطلا لمظاهر أخرى عديدة من إفريقيا التي أخذت تدخل في العصر الحجري الجديد.

## الايبيرو-موروسي

لم يبق مقبولا التعريف القديم للمورخ بالاري (١٩٠٩ م) الذي لا يزال يستشهد به. ذلك أنه كان أكد تكاثر التقنية المتمثلة في الحاشية المعكوفة بالصفيحات والتي كانت تختص بها كل الأدوات الحجرية. وكان علينا أن نتنظر التحاليل الدقيقة الانموجية التي قام بها ج. تكسيي ليحل

مجموعة من التقنيات الدقيقة محل تقنية عامة، وذلك ما كان أدركه نوعا ما بعض مؤرخي ما قبل التاريخ لا سيما الدكتور كوبر بتونس. ان استئناف الحفريات التي قام بها أ. سكسون في منجم تامرهات (كورنيش بجاية بالجزائر) قد سمح بالحصول على توارخ نظيرية قديمة جديدة وبفهم أحسن لصيادي الأروى القاطنين بالمغاوير الساحلية التي تفصلها عن البحر المستنقعات ومنطقة قارية مرتفعة عن البحر وثرية بالمحارات. ان الايبيرو-موروسي هو عبارة عن حضارة ساحلية وتلية قد عرفت مع ذلك، بؤغلات قارية منها منجم كلمناتا الذي لا يشك فيه (تاهرت بالجزائر) وذلك لا يمنع من ان تكون منطقة طنجة وشاطئ الساحل التونسي فارغين. فان كان الايبيرو-موروسي مفقودا كليا في تونس جنوب وادي مجردة فذلك يعني أن أحداثا قد وقعت بها وتستحق أن نتعرض لها في ما يلي:

ان الأدوات الايبيرو-موروسية فقيرة حتى ولو حللت تفصيلا. ولقد أكدت بعض المئات من المناقش الصغيرة التي عثر عليها بعد الحفريات بمدة طويلة، في المنجم الأنموذجي للمويلح (بالقرب من مغنية بالجزائر)، أنها كانت مرتبطة بصناعة الحدود ذات الرؤوس المثلثة (المسماة بمجد المويلح) وليست حجارة بركانية هندسية مثلما هو الشأن في العهد القابسي. ان الصناعة العظمية فقيرة جدا ولم توفر الا شكلا طريفا واحدا وهي «المقعدة». فلم توفر أثاثا ولا فنا جداريا، والحال أننا في عهد ألتيرا، ولاسكو، وأن الناس سواء أكانوا في شمال البحر المتوسط أو في جنوبه هم من جنس يشبه الكرومانيون، والمتمثل هنا في نموذج «مشتى العربي».

ولم تثبت الفرضية التي أصبحت اليوم تقليدية والقائلة بوجود أصل شرقي قد تفرع عنه تيار الكرومانيون الأوربيون المتجه نحو شمال البحر المتوسط، وتيار آخر هو تيار المشتى العربي المتجه الى الجنوب على طول السواحل الافريقية. الا أننا اذا ما أخذنا بعين الاعتبار المستوى الانثروبولوجي يمكن لنا أن نعتبرهم منحدرين من النيادراتالين بواسطة الانسان العاطري. ولكن هذه الفرضية — منها تكن مغرية — فانها لا تفسر بحال وجود صناعة، لا أثر فيها لأي وجه شبه بالموسيري العاطري. فالقول بأن الايبيرو-موروسيين ليسوا اصحاب تلك الحضارة ليس قولاً معقولا لأن تلك الحضارة لا تعتمد على جذور محلية. الا أن ذلك لا يمثل المشكل الوحيد: أن أولئك المغاربة «الكرومانيون» يتميزون بميول واتجاهات تتنافى مع ما نجده عند أهالي أوربا، ان صناعاتهم المحلية المعاصرة للمكداليين، أو على الأقل لبدائته هي «ميزوليتية» (نصف حجرية) الى درجة أن البعض كان يسميها صناعة «أزيلية بربريسكية».

ان صناعاتهم العظيمة ليس لها أي ارتباط بصناعة المكداليين ولم يكن لديهم فن أثاث ولا رسم جداري رغم الزعم بوجودها في المغرب. ومع هذا، فقد تمكنوا من البقاء الى العصر الحجري الجديد واستطاعوا ان يستعمروا ارجيل الجزائر الخالدات حوالي نهاية الألفية الثالثة قبل الميلاد. وتوجد أشياء أخرى تحتص بها بلدان المغرب عمليات قطع الأسنان والمقابر المحفوظة في المغاور أو في الملاجىء (أفلو بالرميل بالجزائر — تافورالت بالمغرب) والمعالم المأتمية (كلمناته).

## «أفق الكولينيون» والصناعات الصفيحية الأخرى السابقة للعهد القابسي

لقد ثبت اليوم بالحجة وعلى أسس طبقيّة أرضية وجيومورفولوجية ان الصناعات الصفيحية بالجهات التونسية المتاخمة للصحراء (قفصة ومناطق الجريد...) كانت سابقة لكل المراحل القابسية. ان أفق كولينيون بسيدي منصور (قفصة) مقحم ضمن الطمي النهرى، وتتميز مرحلة توقف الترسيب في وسط البحيرات بتشكيلات جبسية هامة. وبعدها استؤنفت مرحلة الترسيب عادت الى التوقف بخسوف حوض قفصة الذي تلاه الانجراف. ولذلك فالقابسي النموذجي المتطور يحتل الدرجات الأولى من ذلك الانجراف بله الهضاب التي تقوم مقام الشواهد. فلا يمكن تحديد المعالم التاريخية تحديدا دقيقا، الا على سبيل القول بان الترسيب يعود الى الموستيري. ولا يمكن ان تقارن تلك الصناعات الصفيحية بالايبيرو-موروسي الا على أساس اختلافها عن القابسي اختلافا نوعيا. وذلك لأن نموذجها مختلفة باستثناء تكاثر تقنية الحافة المعكوفة. وينبغي البحث عن الأصل بالاتجاه نحو الشرق (برقة، مصر، الشرق الأدنى). وتوجد صناعات أصيلة أخرى من العصر الحجري اللاحق وتندرج بين العهد الايبيرو-موروسي والمظاهر القابسية وتتميز «الكولنتاني» الذي تنتسب اليه المقبرة بصناعة ميكروليتية (حجارة صغيرة) خالصة وذلك في الألفية السابعة. ولقد عرفت مواقع أخرى أهمها ملجأ كدية كيفان الهدى (عين مليئة بالجزائر الشرقية) حيث تعود الصناعة السابقة للقابسي الى الألفية السابعة أيضا.

ولقد اقترحت عبارة «ايلاسوليتيك» لتعبر عن هذا المجموع الميكرولتي المتطرف المرتبط بنوع من الحياة التي عجزنا عن تعريفها. وقد لوحظت مظاهر أخرى بالجزائر الغربية أهمها «الكريمي» «والكريستيلي» اللذان يرجعان الى الألفية الثامنة وهما يوجدان على ساحل وهران. ان القائمة ما زالت مفتوحة وفي الواقع يوجد مجموعة كبيرة من الصناعات بين العهد الايبيرو-وموروسي الذي يعتبر بصفة عامة من العصر الحجري القديم، وبين العهد القابسي، كما هو الشأن في الصناعات التي نعرفها في الميزوليتيك الأوربي.

### المظاهر القابسية

لقد كانت «المجموعة القابسية» تمثل الحجة الرئيسية لفرضيات ر. فوفري الذي يستعمل: القابسي «الانموذجي — الأعلى» — «ذو التقاليد القابسية». فان كان ذلك الهيكل المبسط محل تهجم على أساس التواريخ الاشعاعية الكثيرة خاصة، فينبغي الاعتراف بان التعرف على المجموع يحقق التقدم المنتظر منذ عشرين سنة. ذلك أن سير الحفريات في «الحلزونيات» لم يجد وسيلة للعثور على التركيبات الطبقيّة الأرضية ولا على الهياكل الأثرية، باستثناء حالات نادرة جدا. فادامت التقطيعات الطبقيّة العديدة لم تسمح بمشاهدة تناضد مختلف المظاهر القابسية فاننا سنعتمد في المعاصرات والمقطوعات على أساس تواريخ الكربون ١٤ وذلك ما لا يوفي بما يوفي به تكون طبقي أرضي.

وبما أن تناضد القابسي الأعلى والقابسي النوعي في مستويات عديدة أصبح امراً ثابتاً فإنه سيظل منطلق كل تصنيف، وتكون المناجم في هذه الحالة أو تلك عبارة عن أكداس من الركام المختلط رمادا وحجارة محرقة وقواقع الحلزونات التي تعد بمئات الآلاف وعظام الحيوانات التي استهلكها الإنسان وصناعته الحجرية والعظمية وأشياء للزينة وللأثاث وبقايا انسانية الخ. ويحق لنا أن نتصور مساكن تحت الأكواخ تسببت في أكداس تلك البقايا وقد تكون نوعاً من الأكواخ التي بنيت بالقصب يضم بعضه إلى بعض بواسطة الطين. هذا إذا ما أخذنا بملاحظة قديمة جداً مع الأسف وقعت في منطقة خنشلة (الجزائر الشرقية).

وتمتاز الصناعة الحجرية للقابسي النموذجي بنوعية رفيعة على العموم، وتحتل نقوش الزاوية على البلورة مكانة ممتازة. وكذلك الأمر بالنسبة للشفرات الكبيرة ذات الحافة المعكوفة والظهر المخضب والمسماة أحياناً «بالسكاكين». وتمثل الشفرات ذات الحافة المعكوفة نسبة تقدر بالربع إلى الثلث من الأدوات الحجرية المتحصل عليها أحياناً بتهديب بقايا النقوش (الابرة المستقيمة التي يستعملها كوبر). وهناك مناقشات صغيرة لم تأت مثلاً هو الشأن في الأبيرو - موريوسي من صناعة «حدود المويلح» بل من حجارة صغيرة هندسية (مربعات منحرفة - مثلثات أخمقيات). أما الصناعة العظمية فهي فقيرة. والعهد القابسي النموذجي ليس معروفاً إلا في منطقة محدودة جداً، فهو مبعثر على الحدود الجزائرية التونسية، في الجنوب من خط العرض ٣٥، أكثر من شماله. وهو لا يغطي إلا الألفية السابعة إذا ما اعتمدنا على التواريخ الراديومترية، ونتيجة لذلك فقد يكون في هذه المنطقة ذاتها معاصراً للقابسي «الأعلى» وهو أمر مخالف للتكوينات الطباقية الأرضية المعروفة ولن أقتنع بهذا إلا عندما يتبين وجود القابسي «الأعلى» تحت القابسي النموذجي! فنأين انبثق في هذه الحالة هذا القابسي الذي اتفق الناس جميعاً على نعتة بالمتطور؟ ثم إن صانع حضارة القابسي «النموذجي» يكاد يكون مجهولاً لدينا...

وقد وفر لنا القابسي المتطور كثيراً من المظاهر التي اجتاحت الغرب الجزائري وجزءاً من الصحراء على الأقل. وإن الأمر يستوجب ملازمة الحذر، ولا نرتكب الخطأ الذي وقع فيه ر. فوفري بأن مدد «عصره الحجري ذا الثقالييد القابسية» بإضافات متواصلة إلى جزء كبير من القارة الأفريقية...

وإذا ما استثنينا ما سميت «بالمظاهر التبسية» (المثقلة بالأدوات الكبيرة التابعة للقابسي النموذجي) فإن القابسي المتطور يتميز بصناعة تتكون من أدوات صغيرة الحجم وغنية بالحجيرات الهندسية التي عادة ما تكون رفيعة فنياً وتقنياً، خاصة فيما يتعلق بالمثلثات وبعض المثلثات المنحرفة فالتمايزات التي وقعت على أسس احصائية ليست صالحة، لأن الأمر يتعلق بمجموعات متاخر و باختيار وانتقاء لحفرات أجريت بصفة رديئة ومتقطعة كما يتعلق «بطبقات» مصطنعة يختلف سمكها من باحث إلى آخر. ولقد عرفت مجموعة حلزونية درستها بعين ذكارة إقامة بشرية امتدت ألف سنة أي من أواسط الألفية السابع إلى منتصف الألفية السادسة قبل الميلاد. فهل يحق أن نميز صناعتها بالإلتجاء إلى طريقة إحصاء شامل؟

إن القابسي «الأعلى»، بنزوله إلى الألفية الخامسة وعلى الأقل عند توسعه الشمالي قد دام حتى طراً العصر الحجري الجديد الذي امتد بدوره على حقبة طويلة جداً. وهكذا يمكن لنا أن نؤيد وجود



١٠ (١) هاون ومدقّ به آثار من الفحم  
والمغرة وشظايا من قواقع هليكس.  
الحجري الحديث من التراث القابسي  
في داموس الاحمر، الجزائر الشرقية  
(تصويرم. بوفي)

٢٠ (٢) لوحة جيرية محفورة. القابسي  
الاعلى في خنفة الموحدين. الجزائر  
الشرقية. (تصويرم. بوفي).



المعاصرة في مناطق مختلفة بين صناعات كل من العهد القابسي النموذجي والأعلى وبين العصر الحجري الجديد ذي التقاليد القابسية.

وهكذا تكون الحضارة القابسية قد دامت ما يقارب ٢٠٠٠ سنة، أي بضعة قرون أقل من العهد الفرعوني بمصر. وإذا عجزنا عن كتابة تاريخها فانه يمكن لنا أن ندرك على الأقل العناصر الأساسية لجنس بشري. فالإنسان القابسي لا ينتسب الى النوع الكرو—مانيوئيد الموجود بمشيتي آفالو: بل هو إنسان من حوض البحر الأبيض المتوسط، مثاله النموذجي المحفوظ في ظروف طبعية أرضية لا جدال فيها، هو الإنسان الموجود بعين ذكارة (بتيسة) الذي يرجع الى نصف الألفية السابعة.

ان المساكن القابسية تعد بالمئات وكل واحد منها دام قرونا وتجاوز حتى الألفية من السنوات. ان مثل هذا الاستقرار السابق للعهد الرعيي وللعهد الفلاحي يستحق التنويه، رغم أن الأمر يتعلق بأكواخ مصنوعة من القصب والأغصان المدعمة بالطين أو المشدودة بالجلود. أما الصيد فلم يكن له دور أساسي، خاصة اذا نظرنا الى قلة بقايا الحيوانات، لا الى تنوعها. فالرخويات البرية تحتل مكانة لا يستهان بها. ولقد كان جني الخضر يلعب دورا ضئيلا. فلا «المناجل» الموجودة بكلو مناطه ولا الكرات الحجرية المثقوبة ولا المدقات ولا «أدوات الحصاد» تصلح أن تكون حجة تثبت وجود الفلاحة.

وكان الإنسان القابسي يدفن الموتى حسب طقوس متغيرة مختلفة أهمها الوضع المضطجع الجاني المنحني. أما الاستعمال المتكرر لمغرة التخضيب فانه يظل غامضا. ومن العجب العجيب استعمالهم العظام الانسانية ومنها «الجمجمة كمغرم» الموجودة بقايد سوار (عين البيضاء بالجزائر) والتي يظن أنها كانت تستعمل قنعا. ولقد حدث أن القابسيين كانوا يقلعون أسنان الأحياء لا سيما النساء، الى حد ثنائي ثنايا.

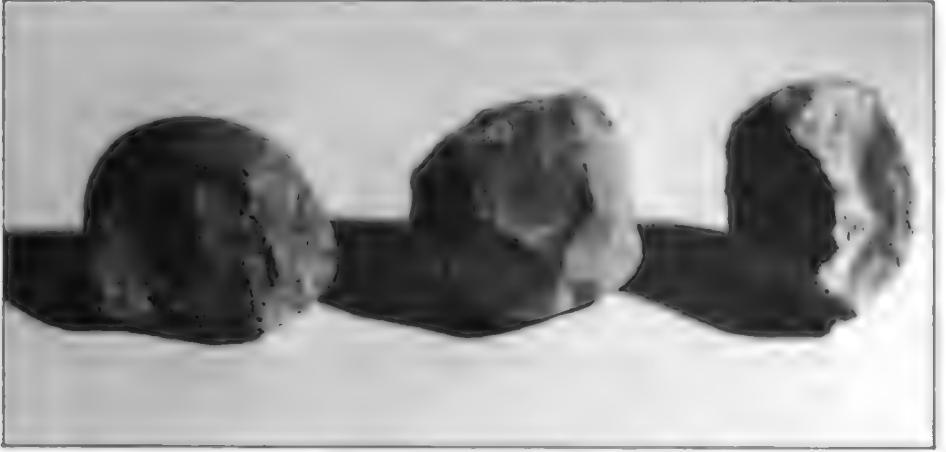
ومع هذا، يُعْتَبَرُونَ الفنانيين الأوائل الذين ظهروا ببلدان المغرب. ويشهد على ذلك وجود المجوهرات ومحاولات نقش بيض التتعام منذ العهد القابسي النموذجي، والصفائح المنقوشة والأحجار المنحوتة التي يمكن لها ان تؤدي بنا الى الفن الجداري.

## الدخول في العصر الحجري الجديد والعصر الحجري الجديد

ان الرؤية الحاصلة في أذهان الناس عن العصر الحجري الجديد بافريقيا الشمالية قد نظمتها ونسقها ووحدها ر. فوفري منذ ١٩٣٣م. ان تصوره لهذا العصر ذي التقاليد القابسية والشامل لكل بلدان المغرب والصحراء وجزء من المناطق الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء، هذا التصور كان على العموم مقبولا الى درجة أن رمزه «العصر الحجري الجديد» ذو التقاليد القابسية (ج ت ق) أصبح مستعملا استعمالا رائجا. هذا رغم أنني، والدكتور كوبار كنا عبرنا عن تحفظاتنا الشديدة إزاء الصفة المصطنعة لذلك البناء النظري المقام اعتمادا على اضافات متتابعة كان مجموعها يبدو لنا متباينا.

والحقيقة أننا لم نتمكن من إدراك الطريقة الفكرية التي كان يعتمد عليها ر. فوفري. فلماذا اعتمد





١٠. عين حانش. حصوات مشكّلة  
 على هيئة وحيدة الوجه (قاطع) أو ثنائية  
 الوجه (أداة قطع) (تصويرم. بوثي).  
 ٢٠. نقبة ماقى صفوى بشرية مشكّلة  
 على هيئة خنجر. القابسي الاعلى،  
 مشقّ العبري (الجزائر الشرقية)  
 حفريات ١٩٥٣ (تصويرم. بوثي).



كمراجع، أضعف منجم وهو منجم طاولة جعته (بتونس)؟ ولقد عرض س. روي سنة ١٩٧٦م — كيفية سير تفكيره. فوفري. فالذي يهمه ليس هو العصر الحجري الجديد لذاته، بل يريد فقط أن يبين تواصل التقاليد القابسية التي أخذت تدريجياً تتحول إلى التلاشي عندما ابتعدت عن مصادرها. وبذلك لا يكون العصر الحجري الجديد سوى ظاهرة عرضية للعهد القابسي. ثم إن التوسع الذي وصف به «ج. ت. ق.» سيبرر اعتماداً على تطعيم العناصر الثقافية المنسوبة إلى العصر الحجري الجديد، وذلك ما أدى إلى التصور «النموذجي» لهذا العصر بدون أن ينتبه إلى ما يتجاوز الثورات التقنية ويفسرهما ونعني بذلك الانقلاب في نمط الحياة. والحقيقة أن نمط الحياة لم يصل إلى مرحلة العصر الحجري الجديد، في حين أن التقاليد القابسية مزدهرة. فالسهام وحدود السهام الوفيرة بالصحراء تقوم دليلاً على امتداد نمط حياة الصيادين القناصين الذين لا يمكن لنا أن نعتبرهم منتمين إلى العصر الحجري الجديد.

وفي هذه الأحوال يجب أن نعيد العصر الحجري الجديد ذا التقاليد القابسية إلى حدود منطقته الأصلية. وذلك ما قام به س. روي عند اعتماده على حفريات مغارة كبلتي (بأوراس في الجزائر)، فيبتين إذن أن مكان علم البيئة أصبح أساساً بجانب علم النماذج البشرية الضروري. ويعني ذلك معرفة المحيط الذي يعيش ضمنه الإنسان. وهي طريقة يمكن بها أن نعرف اقتصاد الرعي السابق للفلاحة والمعتمد على الترحال ولا يمثل نهاية عهد ما قبل التاريخ بل نقطة بداية الحضارة الجبلية المعاصرة لأهل الشاوية بأوراس الذين كانوا رعاة صغاراً للغنم والماعز.

لقد وجدت إذن ببلدان المغرب أشكال أخرى من العصر الحجري الجديد غير الشكل المعروف بالرمز ج. ت. ق، بالمفهوم الدقيق، بين الألفيتين الخامسة والثانية. ولقد شهدت في مرحلة أولى، المناطق التي بقيت بعيدة عن القابسي تطوراً خاصاً بها له مميزاته الأساسية التي تتمثل في موالات العهد الأيبيري — موروسي وفي تكوين علاقات مبكرة مع أوربا البحر الأبيض المتوسط. ولقد وقع ذلك ابتداءً من الألفية الخامسة. ومنذ ذلك الحين أصبحت قضية الملاحة مطروحة، فلقد وجدت مظاهر عديدة تابعة للعصر الحجري الجديد ومستقلة استقلالاً كاملاً عن كل عادة قابسية تشهد على وجود الاتصالات بأوربا، يدل عليها خزفها واستيرادها للنسيج. ويصح هذا الكلام أيضاً في شأن الساحل الأطلسي للمغرب.

وعلى العكس من هذا فإن العصر الحجري الجديد ذا التقاليد القابسية لا يمكن أن يتسع، كما أراده ج. كامبس إلى الصحراء الشمالية، وأقل من ذلك إلى الصحراء الأكثر جنوباً حيث يوجد الفن الجداري بالمقارو وبتاسيلي — ن. آجر.

ورغم كل ذلك فإن الربط بين الفن الجداري والعصر الحجري الجديد والذي اقترحه ر. فوفري يبقى صالحاً وإن ظلت نسبة التقاليد القابسية للعصر الحجري الجديد موضع خلاف كبير، علماً بأن الأمر لا يتعلق إلا بجزء من الآثار المنقوشة على الحجر. لأن الجزء الآخر مرتبط بعصر بداية التاريخ. فلا يمكن أن ترتبط تلك الآثار الأولى ذات الأسلوب الطبيعي لا بأوروبا ولا بالصحراء إذ ينبغي البحث عن أصلها في ارتباط القابسي بالعصر الحجري الجديد. ومع هذا فإن الربط بين «الصناعة والفن» سيظل في حاجة إلى برهان. وعلى هذا الأساس يعترف ما قبل تاريخ بلدان المغرب بنقائضه مهما كان ثراء الشواهد الدالة عليه. فلا يمكن له أن يقدم إلا إذا اعتمد على حفريات كبرى تجري بطريقة تتناسب مع أساليب اليوم.

## الصحراء في ما قبل التاريخ

بقلم: هـ. ج. هوغو

ان الصحراء منطقة مقفرة مشرامية الأطراف تغطي معظم شمال افريقيا. وليس من السهل تحديدها أو تعريفها. ويمثل الجفاف القاسم المشترك بين مختلف الجهات التي تتكون منها، فهي تمتد من الشرق الى الغرب على طول ٣.٠٠٠ كلم من البحر الأحمر الى المحيط الأطلسي، وتمتد من الشمال الى الجنوب على طول ١٥٠٠ كلم من الأطلس الصحراوي الى الساحل السوري ولقد شملت الظروف الصحراوية ما يقرب من ٤٥ مليون كلم<sup>٢</sup>. ورغم ذلك فان الصحراء كما نراها اليوم تختلف جدا عما كانت عليه عبر عصور ما قبل التاريخ.

وتتمثل وحدتها الحالية في افتقار هوائها الى الرطوبة، ومن أهم خصائصها، فضلا عن ندرة الماء، الفارق الكبير الذي يفصل حرارة النهار عن حرارة الليل، وكثرة الرمال التي لا تفتأ تتناقلها الرياح فتؤثر تأثيرا بالغا على أرض أكل عليها الدهر وشرب.

ان هذه المنطقة المقفرة اليوم كانت تعج بالسكان قديما وفي حقبات زمنية عديدة وتعزى هجرة آخر الاجناس البشرية التي سكنتها الى استقرار مناخ متطور الجفاف والحرارة أدى الى ضالة كميات الأمطار ونضوب عيون الماء والأنهار ان الانقراض المزدوج للغطاء النباتي والحيوانات التي يعتمد عليها الانسان في غذائه دفع به نحو الجهات المتاخمة المناسبة أكثر لعيشه. ولقد انكب الكثير من الاختصاصيين على مسألة تحول الصحراء الى أرض مقفرة، وأسباب ذلك، ونتائجه، ونخص بالذكر

منهم أ. ف غوتيسي (١) و.ث. مونود (٢) ور. كابوت - ري (٣) وج. دوبياف (٤) ول. بالوت (٥) وك. بوتزروج. ا. هزين (٦) وذلك على سبيل المثال لا على سبيل الحصر. لقد أدركنا الآن الأسباب النظرية التي من أجلها لم تعد موسمة الخليج الغيني والجهة القطبية ترسلان الى الصحراء عشصري الرطوبة اللذين يتحكمان في خصوبتها التي جعلتها عامرة أهلة عبر عصور ما قبل التاريخ. لكن لا بد في هذا الصدد من حصول اتفاق حول مسألة تطور المناخ الصحراوي فنحن لا نعلم الى الآن ان كنا في قة تدهور المناخ، أو ان ذلك قد مر، أو لما يأت بعد. فاننا لا ندري بعد الكيفية التي بها يطرأ التصحر، فهل هو منتظم الانتشار حول مركز معين؟ أو أن أطراف الصحراء تتحرك مثل كفتي ميزان، تارة نحو الجنوب وطورا نحو الشمال؟. أما تعاقب المراحل المناخية نفسها التي جعلت الصحراء في حالات كثيرة تسمح بعيش الانسان فيها، فانه يستلزم كثيرا من المعلومات كي نستعيد تسلسل أحداثه التاريخية بدقة. لقد اجريت في أماكن مختلفة بعض الأبحاث الهامة. لكن يجب اقرار ندرتها، ولم تقع محاولات جادة لتطويرها. الا أن قيمتها كبيرة جدا لا في ميدان البحث العلمي فحسب بل كذلك لفهم ظاهرة تهم حياة الانسان. ان معرفة التغيرات المناخية الصحراوية في الدهر الرابع أصبحت ذات فائدة أساسية في دراسة التطورات البيئية. فظننا الى أننا نعيش في عهد يكتسي فيه كل متر مربع قيمة معينة سيلعب هذا «القفر الرائع» دور تكون أهميته على قدر معرفتنا الدقيقة لماضيه.

## لمحة تاريخية

ان انعدام النشرات المرجعية المنتظمة الخاصة بالبحث في ما قبل التاريخ بمجموع الصحراء لا ييسر وضع خريطة للأعمال التي تم إنجازها في هذا الشأن. توجد بالنسبة للعهد الإستعماري نشرات مرجعية كالتى ذكرناها، لكنها ناقصة ومبعثرة. فالكشفت التي ذكرتها التقارير العسكرية مثلاً، يعبر الوصول إليها. ولا شك أن تقسيم الصحراء السياسي يفسر من جهة أخرى تشتت الدراسات التي اهتمت بشرواتها ما قبل التاريخ. لقد ساهم الانكليز والاسبان والفرنسيون والايطاليون مساهمة علمية هامة في اكتشاف ماضي الصحراء. وقد التحق بهم في هذا الشأن حديثا الألمان واليابانيون والروس الخ. والملاحظ أن التوغل في الصحراء أمر حديث جدا.

ان أول دراسة جادة تتعلق بالصحراء قبل التاريخ قد تكون الدراسة التي نشرها القس ريتشارد (٧) سنة ١٨٦٨م: فهي تهم الصحراء الجزائرية. ولقد بدأت الأبحاث في مصر في نفس

(١) عوتبي أ. ف.، ١٩٢٨م.

(٢) مونود ت.، ١٩٤٥م، ص ٢٧ - ٥٥ ندوة بورغ فرنشتاين ١٩٦١م.

(٣) كابوت - ري ر.، ١٩٥٣م.

(٤) دوبياف ج.، ١٩٥٩م.

(٥) بالوت ل.، ١٩٥٢م.

(٦) بوتزرك. ف.، ١٩٥٨م حزين (ج أ). ١٩٣٦، ص ١٩ - ٢٢.

(٧) ريتشارد، القس، ١٨٦٨م ص ٧٤ - ٧٥.

الوقت تقريرا وكان منطلقها رسالة أ. أرسلان بتاريخ فيفري ١٨٦٧م (٨). ولم تبدأ الأبحاث في الغرب الا في بداية القرن الحالي. أما الأعمال التي تهم الصحراء الوسطى، فهي مدينة جدا للبعثات الاستكشافية التي أرسلها فورو ابتداء من سنة ١٨٧٦م (٩) والتي بلغت أوجها مع بعثه سنة ١٨٩٨م - ١٩٠٠م الهامة (١٠) وفيما بين ذلك ذكر ليز (١١) وجود أدوات ما قبل التاريخ في تدينيت سنة ١٨٨٦م. وبعد ذلك راجت الدراسات المتعلقة بالصحراء فيما قبل التاريخ ثم عرقلتها قليلا الحربان العالميتان.

فن المعلوم ان ثروات الصحراء في تلك الحقبة شددت اليها اهتمام العلماء. لكن يستحيل علينا أن نقدم هنا قائمة كاملة عنهم. الا أن قراءة تلك الأعمال القديمة مدهشة لما توفره من معلومات ثرية. فأعمال س. ب. م فلامان (١٢) وفرو بينيوس (١٣) والآنسة كانون — طومسون (١٤) مثلا تعتبر تمهيدا أساسيا لكل دراسة جادة للصحراء في ما قبل التاريخ.

ان البحث في فترة ما قبل التاريخ قد تأثر في الصحراء أكثر من أي مكان آخر بالاهتمامات العاجلة وقد التصقت به ظاهرة خاصة جدا أدت الى سوء فهم مشاكله الحقيقية لمدة طويلة. فكثيرا ما اعتبرنا قبل تاريخ الصحراء «علما ملحقا» ضمن اهتمامات البعثات التي كانت تجوب الصحراء. وعلى هذا الأساس فلقد كان ما قبل تاريخ الصحراء يعهد به الى هواة أو اخصائيين في مسائل أخرى، لا يولون لمحتواه الإهتمام اللازم، ويضاف الى ذلك ان صعوبة التغلغل في ذلك الوسط الذي تتعلق فيه حياة الانسان بكل كيلوغرام يحمله معه، كانت تجعل من الوثائق الخاصة بما قبل التاريخ بشكلها وعبثها الثقيل ما يبعث على اهمالها. ويجب أن نضيف الى ذلك أن الصحراء ليست وسطا مثاليا يسمح للمسافر بالتجوال، فضلا على القيام بحفريات جادة، وهذا ما يفسر لنا لماذا طال الحديث في شأن الصناعات في الهواء الطلق وانعدمت الدراسة الطبقيّة الأرضية انعداما تاما الخ.. والحقيقة أن الصحراء في عصر ما قبل التاريخ تعتبر ثرية مثل غيرها.

وما أن توفر الوقت والوسائل للبعثات المختصة حتى تغيرت الأوضاع بسرعة. وقد حدث ذلك اثر الحرب العالمية الثانية، وأمكن الحصول على عدد ضئيل مع الأسف، من الدراسات المفردة تتعلق بالخصوص بالهقار والساورة وتشاد، وموريطانيا، والصحراء الليبية والقران الخ..

ان التعاون بين الصناعة والعلم أدى الى تحقيق نتائج مدهشة ذكرت في الوثائق العلمية لبعثات برليي — تري — تشاد (١٥).

ومع ذلك يصعب أن نضم فترة ما قبل تاريخ الصحراء رغم أهميته الكبرى وتراثه دفنا كتاب

(٨) أرسلان أ. رسالة بعث بها الى هيئة تحرير «مواد للتاريخ البدائي للانسان» نشرت في المجلد ٥ لسنة ١٨٦٩م.

(٩) فوروف. ١٨٨٣م.

(١٠) فوروف. ١٩٠٥م.

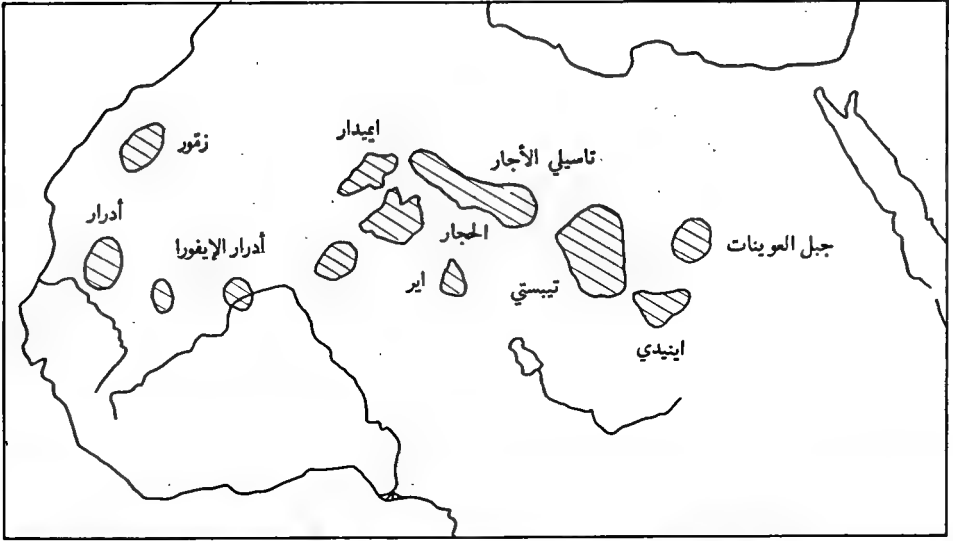
(١١) ليز ١٨٦٤.

(١٢) فلامان ج. ت. ف. ١٩٠٢م، ص ٥٣٥-٥٣٨، و ١٩٢١م، ص ١١٤-١١٥، هـ. بيرى، ١٩٣٧م قائمة المواقع المدروسة

(١٣) فرو بينيوس ل. ١٩٣٧م.

(١٤) كانون — طومسون ك. وغردنر أ. و. ١٩٣٤م.

(١٥) هوغو هـ. ج. ١٩٦٢م.



- ٢
- (١) المواقع الرئيسية لآثار الرسم والنحت على الصخور في الصحراء الكبرى.
  - (٢) فأس مسطحة ذات تجويفين، من جوتولوروم في النيجر.
  - (٣) بلسطة من تي - ان - أساكو (مالي).

تعليمي أو يحويه حتى كتاب مبسط في زمن وصل فيه الانسان الى القمر. ويكفي أن نذكر أن ما قبل التاريخ كان موضوع عدد كبير من الدراسات التفصيلية وبعض الفصول من الكتب العامة نذكر بالأخص منها ما ألفه هـ. أليمان (١٦) وهـ. ج. هوغو (١٧) ور. فوفري (١٨).

## البحث عن ترتيب تاريخي

لقد بحث ما قبل تاريخ الصحراء منذ بدايته عن سلاسل للمقارنة بأوروبا لا سيما بفرنسا لذلك جرى الحديث عن «كلاكتو- أبفيلي» وعن «شليو- أشولي» و «الموستيري» و «الصفائح الاورينية» و «الحدود المورقة الشكل السلوترية» الخ. ان الاخطاء الناتجة عن هذه النظرة الساذجة مازالت آثارها قائمة، لا سيما وأن ما قبل تاريخ الصحراء، مثله مثل ما قبل تاريخ العالم كله، لا ينشأ إلا من تحليل الدراسات المفردة الشاملة المخصصة لمختلف صناعاتها. ولكن أمثال هذه الدراسات لا تزال مفقودة. وتوجد نتيجة أخرى مؤسفة لفقدان الانضباط في البحث في ما قبل تاريخ الصحراء، تكمن في اسناد انظمة اجتماعية معينة لأجناس بشرية منقرضة، دون ان تتوفر أية حجة جادة عن واقع الأحداث.

أما فيما يتعلق بالترتيب التاريخي (١٩) فإن الأمر يستوجب ملاحظتين: أولهما تتمثل في أننا لا نعرف دراسة طبقية (٢٠) هامة مخصصة لأية نقطة من الصحراء تسمح لنا بأن نقرر اقارار واضحة تعاقب طبقات ما قبل التاريخ. والملاحظة الثانية تبين — باستثناء العصر الحجري الجديد أنه — لم تتوفر لنا توار يخ مضبوطة تسمح بوضع ترتيب تاريخي مطلق. ورغم هذه الصعوبات فقد توفرت لنا

(١٦) أليمان هـ، ١٩٦٠م.

(١٧) هوغو هـ، ج، ١٩٧٠م.

(١٨) فوفري ر، ١٩٦٩م.

(١٩) ترتيب الدهر الرابع: هو تعاقب ضمن الزمن لفترات مناخية مختلفة وفي حالات كثيرة لم تتوفر لنا بالنسبة للصحراء الفقيرة من حيث الدراسات الطبقية، عناصر ترتيب تاريخي نسبي. فكان عمل ج. شفاين أحسن ما قدم منها. (١٩٦٤). ميز هذا المؤلف انطلاقا من القاعدة الى قمة السامرة في الشمال الغربي من الصحراء ما يلي:

الدهر الرابع القديم	عائدي
الفيلافرنسي	مزيري
الدهر الرابع الوسيط	تاوردتي
	أوغرتي
الدهر الرابع الحديث	السأوري
الدهر الحالي	غويري

(٢٠) علم طبقات الأرض: وهو قراءة ثم تأويل الطبقات التي تعاقب تراكمها في مكان لتكوين التربة التي تسير عليها. ومن المعقول أن الصحراء التي خضعت لكوارث مناخية لم تحتفظ لنا بكثير من الشواهد. لكن يوجد منها نصيب، بل نعم أنه يوجد منها في أماكن، سلسلة من مسطحات ثلاث تعرف بالقدية والمتوسطة والحديثة وتشهد على ثلاث مراحل مناخية. الا أنه ينبغي الا نبالغ في التعميم. إن مشكل المراحل المناخية المستقرة بالطبقة معقد جدا إذا اعتبرنا المناخات الصغيرة. إن الطبقة توحي بأن التصحر كان أمرا مقضيا حوالي — ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

أعمال حسنة للغاية قام بها ج. شفايون عن الساورة (٢١)، وه. فور عن تشاد (٢٢) وب. ه. شامار (٢٣) عن موريطانيا. وقد دعمت هذه التحاليل بدراسة محيطية جادة عن الجزائر (٢٤) والمغرب (٢٥) وليبيا (٢٦) الخ..

### اللوحة

الاطار  
التاريخي  
لما قبل تاريخ  
الصحراء

معالم تسمى «ما قبل الإسلام»	آخر تكرار رطب	من ١٠٠٠ سنة قبل عهدنا إلى ١٠٠٠ سنة من عهدنا
العصر الحجري الجديد الحديث تشيت قاديلي بوركو	طمي أعماق الأخلجة نقصان عيون الماء. الآبار الأولى إستمرار مناخات صغيرة جبلية	من ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ سنة قبل عهدنا
العصر الحجري الجديد القديم منية عين قزام تيلمسي؟	آخر حفر للأودية بحيرات ذات هازجة الماء	من ٢٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ سنة قبل عهدنا
	كشبان قديمة من نوع ٢ آوكير	من ٥٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ سنة قبل عهدنا
العاطري الساورة تديكلت موريطانيا العاير	المستوى النهائي للبحيرات الكبيرة ذات المسطورات جبرى - فيل، فرس الماء الكركدن نظام تهاطل المياه كشبان قديمة من نوع ابراكين.	من ٧٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ سنة قبل عهدنا
الأشولي ٣ الى ٨ ل بيبيرسن (١٩٦١)	تحدد القصات انتهاء الإجتراف تشكل مسطحات تقاساسات	
حضارة الحصاة المهياة	سيلان الأنهار الكبيرة ظهور البحيرات الكبيرة إجتراف عنيف	

(٢١) شوافيون ج.، ١٩٦٤م.

(٢٢) فور ه.، ١٩٦٢م.

(٢٣) شامار ف.، ١٩٦٦م - ١٩٧٠م.

(٢٤) بالوت ل.، ١٩٥٥م.

(٢٥) بيبيرسن ب.، ١٩٦١م.

(٢٦) ماك بورني، ل. ب. م. وهاي ر و، ١٩٥٥.



وعلى ضوءها نستطيع تكوين فكرة واضحة نسبيا عن الخطوط الأساسية للإطار التاريخي لما قبل تاريخ الصحراء. غير أن افتقاره الى وثائق إحيائية وبصفة عامة الى مواد عضوية صالحة للاستعمال من أجل ضبط التواريخ بالاعتماد على القياس بالإشعاعية لا يسمح بضبط ترتيب زمني مطلق يتجاوز العصر الحجري الجديد (انظر اللوحة أسفله).

إن هذا الجدول مبسط طبعاً للغاية، خاصة أنه لا يتضمن مجموعة كبرى من الشظايا التي تعتمد تقنية لوفالوازية تثبت بأشياء من ذوات الوجهين الرقيقة التي لها حجم ووزن صغيران، ويحتمل أن يعود تاريخها الى نهاية الأشولي. وذلك شأن تغلقمين (٢٧)، وبروكو (٢٩) الخ... ونلاحظ أنه لا يوجد اليوم ما يسمح بالحديث عن العصر الحجري القديم الأعلى (٢٩) بالصحراء. إن هذا المفهوم ليس له ما يدعمه في الوقائع. والخطأ أكبر إذا تحدثنا عن العصر الحجري الوسيط، لأن المصطلح أصبح مهجوراً.

ويمكن أن ينشأ عن الجدول السابق ترتيب تاريخي أكثر تفصيلاً. فهو يربط خطوط المناخ العامة التي نعرفها بالعمران البشري في ما قبل التاريخ. ولم توفر الصحراء الا عدداً قليلاً جداً من الهياكل العظمية مع بعض الصناعات التي تسمح بتصنيفها إلا أن ما يوجد منها يؤكد أن الإنسان قديم جداً.

## العصر الحجري القديم

### ظهور الإنسان بالصحراء وصناعة الحصى المهيأة

كثيراً ما نشاهد على ضفاف أنهار قديمة زالت من الوجود، مسطحات تشكلت عندما كانت مياه تلك الأنهار موجودة، وتتكون تلك المسطحات من ثلاثة مستويات مختلفة يعبر عنها، طلباً للسهولة، بالمسطحة القديمة والمسطحة الوسيطة والمسطحة الحديثة. ففي جبل إيجارن (٣٠) على بعد ١٢٠ كلم شرقي عين صالح (في صحراء الجزائر) وفرت المسطحة القديمة حصى مهياً. ونحن نعلم أن تلك الحصى تعتبر أول الأدوات التي بها سمة مشهودة ناتجة عن صنع الإنسان. وفي أغلب الحالات لا نعدو أن تكون حصى بسيطة نهرية اقتطعت من جزء منها شظايا لصنع حد خشن أو ملتو. ولقد اعتبر بعضهم أن تلك الأشياء من خصائص صناعة الإنسان الماهر.

ونوجد أيضاً في صحراء نيجيريا، على ضفاف تفاساسات (٣١)، وهو من روافد بحيرة تشاد القديمة التي تصب في بحيرة تشاد، وتوجد كمية كبيرة من الحصى المهيأة، لكن وضعها يختلف عما

(٢٧) نفس المرجع، ١٩٦٢م، انظر الحاشية السابقة عدد ١٥.

(٢٨) نفس المرجع، ١٩٦٢م، انظر الحاشية السابقة عدد ١٥.

(٢٩) العصر الحجري القديم: إن التقسم التاريخي الناشئ عن تمييز الإنسان الماهر بكونه السلف المحتمل لسلالة الإنسان الحالية لم يغير المشاكل المطروحة بالصحراء، إذ يبدو حالياً أنه لم يوجد لا عصر حجري قديم متوسط ولا عصر حجري لاحق. يحتمل وجود عصر حجري قديم نائي يمتلئ العاطري الآتي بعد الوستيري والمنفصل عن العصر الحجري الجديد بفراغ قصير.

(٣٠) بوني أ.، ١٩٦١م ص ٥١ - ٦١.

(٣١) هوغو ه. ج.، ١٩٦٢م ص ١٥١ - ١٥٢.



● ١ و ٢) حصانان مشكلتان (ثقافة الحصى)، أوليف (الصحراء الجزائرية).  
 ● ٣) أداة ثنائية الوجه من الحجري القديم الأدنى، من تاشنقيط، (الصحراء الجزائرية). ٤) بلطة من الحجري القديم الأدنى، من تاشنقيط، (الصحراء الجزائرية).

هي عليه حصاة الجبارن. وتوجد كذلك مجموعات أخرى مثل مجموعة (٣٢). أوليف التي اندثرت أو أتلقت أما مجموعة الساور (٣٣) فعددها من ضالته لا يسمح أن تكون موضوع دراسة. فالذي يمكن أن نوكدّه هو أن حضارة الحصاة قد عرفت انتشارا واسعا داخل الصحراء التي كانت رطبة خلافا لما هي عليه الآن. واننا لنأسف على انعدام وصول أي أحفور حيواني وانساني إلينا عن ذلك العهد فلا يمكن لنا إلا أن نبدي افتراضا مفاده أن تلك الأدوات الحشنة جدا التي تعتبر باستثناء المواقع المجموعة بها، منتشرة في كل مكان بالصحراء، الأدوات التي نحتها واستعملها أسلافنا البعيدون.

### الانسان المستقيم، صانع ذوات الوجهين

ان نهاية حضارة الحصاة المهيأة أبرزت تطورا تقنيا آلى أشكال قد تليق بالمستوى الذي وصل إليه الانسان في بداية العصر الحجري القديم الأسفل. ان السر الذي يحيط بالتطور الانساني الكبير والتقني المتميز بظهور ذي الوجهين مازال قائما. فلم يكتشف في الصحراء أي هيكل عظمي لأصحاب تلك الأداة البدئية والقدم الذي اشتق منها، مما يوحي بوجود أفق غايي ربما كان مسيطرا في ذلك العهد. اننا نجعل البيئة التي عاش فيها أولئك الذين اخترعوا الحصاة المهيأة. ولقد نوفرت معلومات مفيدة عن بيئة الذين أتوا بعدهم. ان الصحراء التي كانت موطن بحيرات كثيرة قد توفرت فيها مياه وأمطار كافية ساعدت على نمونباتات توخي بمناخ ميال الى البرودة. وبالطبع كانت الحيوانات الاثيموبية منتشرة بها في كل مكان. ولقد طرأ حدث هام مفاده أن الأمطار الاعصارية التي اختصت بها الحقبة التالية أتلقت أوقضت على كل الترسبات التي تراكمت في أعماق بحيرات ذلك العهد ولقد عجلت بسرعة اندثارها مرحلة جفاف كبيرة طرأت بين ذلك العهد والعصر الموالي.

ولقد كانت الشواهد الطبقيّة قليلة جدا نتيجة لتلك الاندثارات، وان كان عدد ذوات الوجهين التي تغطي الصحراء كبيرا جدا.

ونحن لا نتجرأ على التأكيد ان الانسان الاحفوري التشادي (٣٤) كان صانع ذوات الوجهين، ولقد وضعه فوفري (٣٥) في موضع الصدارة من فصل كتابه المخصص للعصر الحجري القديم الأسفل والأوسط بالصحراء. لكن هذا السلف المحترم الذي نجعل تماما ان كان بحق ناحت أدوات، لا يمثل في حقيقة الأمر الا اكتشافا هام يتعلق بعصر الحجر القديم.

لقد وجدت في تبحوزين التي ذكرها أول مرة دوفيري سنة ١٨٦٤م (٣٦) والتي زارها، غوتي أ. ف.، ورايفاس سنة ١٩٣٢م (٣٧) صناعة مختلطة بحيوانات الكركدن، والفيل، وفرس البحر،

(٣٢) هوغو. ج.، ١٩٥٥م ص ١٣١ - ١٤٩.

(٣٣) شافايون ج.، ١٩٥٦.

(٣٤) كوينس ي.، ١٩٦٢م ص ٤٥٥ - ٤٥٩.

(٣٥) فوفري ر.، المذكور أعلاه - (بعد وفاته) ١٩٦٩م، ٢١.

(٣٦) دوفيري بي. ه.، ١٨٦٤م.

(٣٧) غوتي أ. ف. أورايغاس م.، ١٩٣٤م.

والبقريات والجاموس، والخنزير ذي القرنين وحمار الوحش، والتمساح والغزال الخ.. فالواضح أن صناعة تيحوذين الأشولية كانت متطورة وغالبا ما كانت تعتمد على العظام والاختشاب في تحتها. فلقد بلغت مرحلة متقدمة ولا تعتبر موالية لحضارة سابقة.

و يوجد على مسافة غير بعيدة من تيحوذين منجمان أشوليان جيلان جدا يتكونان من خليط من بذوات الوجهين وأحيانا من أشكال مصغرة تكاد تكون ((سبايكية (s'baikiennes) ومن قدومات ونعني بذلك منجم عرق أدمير (٣٨) الذي اكتشفه عسكري سنة ١٩٣٤م وكتب عنه لأول مرة هـ. لوط وهـ. كيلي سنة ١٩٣٦م (٣٩) ولم يضبط تاريخ ذلك المنجم، شأن منجم وادي تفاساسات (٤٠) الذي اكتشفته بعثة برليي - تينيري ولم يحظ باشغال كانت تسمح بابرار أهميته للوجود.

ان تبليباله وتشنقيط معروفتان (٤١) بذوات الوجهين المصنوعة من المرو الأحمر، وعلى الأخص بمجموعاتها الكبيرة من القدومات ذات التقنية المتقدمة جدا.

وفي تلك المنطقة نفسها من افريقيا أبرزت أعمال ج. شوفايون وهـ. أيمان وجود أشولي متطور بعين المكان، قد يكون هو السابق مباشرة لصناعة الشظايا أو يكون قد اندمج في أشولي وسيط وذلك شأن مازروبي عباس وكرزاز (٤٢).

وتوجد بشبكة منونة في الساوره من الصحراء الجزائرية (٤٣) مجموعة مفيدة لكنها لسوء الحظ قليلة العدد.

و يوجد الأشولي الوسيط في عين أكر وفي منيت وأرك (٤٤) تحت الطمي الذي يحتوي على العاطري المبعثر.

ولقد عثر على الأشولي أيضا بكيات متوفرة في أ. أوليف (٤٥) وتشردا (٤٦) والبيض (٤٧) والشهانب (٤٨) والصحراء الغربية (٤٩) وخرقة في الصحراء الليبية (٥٠). وخلاصة القول انه يغطي كل الصحراء، لكننا عاجزون عن ترتيبه زمنا اذ انه لا يوجد في وضع طبقي باستثناء أربع أو خمس طبقات فهو مازال يحتاج الى عمل أساسي يعتمد على عمل جاد في الحفريات والسبريات.

(٣٨) ان ذلك المنجم السطحي يدل أحسن دلالة على صعوبة التفريق بين الصناعة السائدة والتأثيرات المولية التي تؤثر بها أدوات أخرى أكثر حداثة.

(٣٩) لوط هـ.، كيلي هـ.، ١٩٣٦م ص ٢١٧ - ٢٢٦.

(٤٠) هوغو هـ. ج.، ١٩٦٢م.

(٤١) شميوب.

(٤٢) أيمان هـ. ١٩٦٠م ص ٤٢١ - ٤٢٣.

(٤٣) شوفايون ج.، ١٩٥٦م ص ٢٣١، وأيضا ١٩٥٨م ص ٤٣١ - ٤٤٣.

(٤٤) هوغو هـ.، ١٩٦٣م.

(٤٥) بندو ب. و «آل»، ١٩٣٨م ص ١٧ - ٢١.

(٤٦) دلوني م.، ١٩٤٨م.

(٤٧) بيرسن ب.، ١٩٦٥م ص ١٧٣ - ١٨٩.

(٤٨) أركل أ. ج.، ١٩٥٤م ص ٣٠ - ٣٤.

(٤٩) المغروباخ م.، ١٩٤٦م.

(٥٠) كاتون - طمن.، ١٩٥٢م.

## النقطة الغامضة: صناعات الشظايا

يختص العصر الحجري القديم الأسفل الأوربي مثلما هو شأن الصحراء، بآداة أساسية وهي ذات الوجهين. فلقد ابتدأ من الاشكال الحشنة التي جمعت تحت عنوان (الشولي). ثم تطور نحو القطع الأنيقة المتوازية التي تم نحتها واكتمل مثل قطع «الميكوك».

لقد آذن بظهور ذوات الوجهين بالصحراء، الحصة المهيأة الأخيرة، فلو حظ تغير جذري سريع في تقنية النحت. ويبدو ان تلك المهارة الجديدة من التهيئة العسيرة للحجارة لم تكن غريبة عن خفة الاشكال واتقان صنعها. فلم يحصل التطور في أوروبا أو الصحراء الا بعد اكتشاف مزايا قارع مرن من العظم أو الخشب عوض المطرقة الحجرية التي لم تكن دقيقة، لما ينشأ عن حدة وقعها فان كان ذو الوجهين الأداة المعتمدة، أي بعبارة أخرى الأحفور الموجه في العصر الحجري القديم الأسفل، فان الامر يستوجب النظر لكي يعتبر الأداة الوحيدة التي صنعها الانسان المستقيم. وتوجد أسباب كثيرة أدت الى الاعتقاد بأن الشظايا كان منذ خطوات التقنية الأولى، مستعملة أيضا، كما استعمل جزء هام من الفواضل المختلفة من قطع النوى. لذلك كانت غلبة الشظايا أمرا طبيعيا في العصر الحجري القديم الوسيط (٥١)، فالشظية ليست اكتشافا بل هي تمثل تحويلا يتميز بتصغير شكل ذوات الوجهين التي أخذت تتطور نحو الميكل السلاحى. ان ما يعتبر ثوريا لا يمكن في تعميم تقنية لوفالوا التي برزت مبكرا في الصحراء، واليها تنسب طريقة صنع بعض ذوات الوجهين في تشنقيط (٥٢)، واليها تنسب أيضا صناعة بروكو وتيمبرورين. وبالرغم من هذا الظهور المبكر، فليس لهذا الأمر— فيما يبدو— من علاقة بنمط عيش مخترعها. ولم يكن أولئك المتقدمون طبعا نياندرتالين والا كانوا قد اتخذوا طريقة عيش مغايرة تتطلب منهم استعمال أسلحة ومعدات أخف تخالف في فكرة صنعها ثقل ذي الوجهين والقدوم ان الشيء الذي يثير الاهتمام ولم ينه اليه أحد، ليس هو فقدان «موستيري» حقيقي في الصحراء، أو فقدان أية صورة أخرى مشابهة له، بل لأن العاطري الذي خلفه، وهو في الحقيقة ذو طابع موسستيري يمثل في أساسه صناعة صيادين. فالذئب لا يذكر بالمقبض فحسب بل بالرمح. وتذكر (الولاتات) (Bolas) والشظايا الكبرى ذات الحدود اللوفالوازية بآلات الصيد. فهي باختصار صناعة مهاجرين، ولذا كانت خفيفة بالمقارنة مع سابقتها.

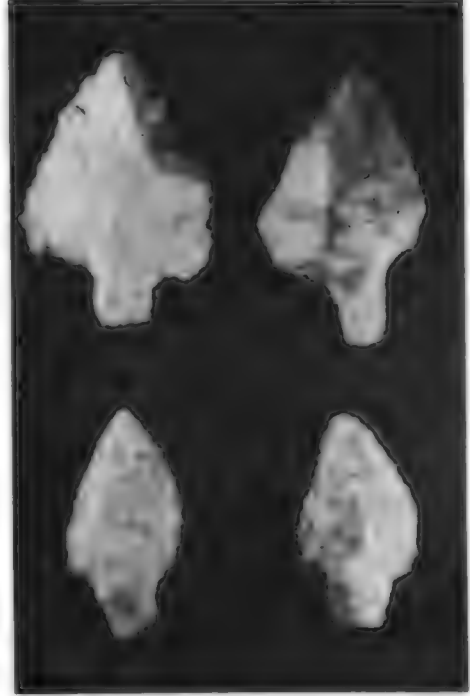
## العاطري

يحتل العاطري (٥٣) في الوضع الراهن من البحث في الصحراء المكانة التي يمثلها «الموستيري»

(٥١) ينبغي الانسي ان التغير الحقيقي انساني و يتمثل في ظهور انسان نياندرتال، صاحب الصناعات الموسستيرية.

(٥٢) تكسي ج، ١٩٥٧م.

(٥٣) العاطري: هو صناعة أصلها من شمال افريقيا، تتكون في مجموعها من أساس موسستيري تضاف اليه سلسلة كاملة من الأشياء المورقة الشكل. ان العاطري لاحق زمنيا للموسستيري المختص بالتقنية اللوفالوازية. ولقد تطورت تلك الأدوات الحجرية الممتازة بالتدرج عبر الصحراء. ويبدو ان حده الجنوبي كان يتكون من البحيرات الكبرى الجنوبية التي زالت اليوم باستثناء بحيرة تشاد، ولقد وجدت على الضفة الشمالية الشرقية من تشاد القديم، مواقع يمكن تحديدها تاريخيا بـ ٩٠٠٠ الى ٨٠٠٠ سنة قبل عهدنا. ان هذه الصناعة ينبغي أن تنسب الى العصر الحجري القديم النهائي، لا الى عصر حجري قديم وسيط.



- (١) شوكة كبيرة مزدوجة ثنائية الوجه  
أثيرية، من تيميموم، (الصحراء  
الجزائرية). (٢) أشواك أثيرية، من  
أوليف (الصحراء الجزائرية).
- (٣) شوكة مزدوجة ثنائية الوجه  
أثيرية، من أدرار بوس • (النيجر).



في غيرها من الأماكن. فله منه خصائص كثيرة وذلك بما فسحه من مجال لتقنية لوفالوا، إذا اعتبرنا التهذيبات ونوعية الأشياء المتممة. ويختلف عنه من ناحيتين:

- ١ — وجود زائدة ذنبية قد تكون حدا مهذبا أو خاماء، أو محكا أو ازميلا أو مثقبا.
- ٢ — اختلافات ظاهرة في المستوى الاحصائي بالنسبة لصناعة المستيري. فان صرفنا النظر عن ذلك تظل فكرة «الاساس المستيري» قائمة. ورغم أنه لم يتوفر لنا هيكل عظمي عاطري، فلقد تعودنا على نسبة تلك الصناعة الهامة الى انسان قريب من انسان نياندرتال.

ان العاطري كما نعلم هو صناعة من شمال افريقيا توجهت توجها قويا نحو الجنوب (٥٤) لتتوقف بصفة عامة على طول ضفاف البحيرات الكبرى في الصحراء الجنوبية. فبقدر ما كان يتجه نحو الجنوب كان يتحول حتى أنشأ المظهر الرائع بأدرا بوس (٥٥) حيث تضاف الى المجموعة الكلاسيكية نوى وصفائح وشظايا ومكاشط، ومخزات وحدود مضاعفة ورقية الشكل نابعة من تقنية ذوات الوجهين، وكرات حجرية وكذلك نصال ذنبية تعتمد تقنية ذي الوجهين وتبلغ الواحدة منها ١٩ سم طولا.

ان انتشار العاطري واسع جدا اذ أنشأ نجده في تونس (٥٦) والمغرب (٥٧) والجزائر (٥٨) والساورة وتديكلت حيث يستعمل استعمالا حسنا المادة الممتازة التي يوفرها أحفور (٥٩) أروكاريا وفي موريطانيا حيث يحده (٦٠) عموما أدرا. كما أنه منتشر في المقار (٦١) وعرق أدمر (٦٢) وتيحوذين (٦٣) وأدرا بوس (٦٤). ونلاحظ أيضا وجوده في الفزان وزمرى وتوجد آخر معاقله الشرقية في خربة، بمصر (٦٥) وأما من الناحية الزمنية فان تحديد موقع العاطري أمر صعب. ولعله ظهر في حوالي ٣٥٠٠٠ سنة.

و يبدو أن تقدمه قد توقف على ضفاف بحيرة تشاد عند آخر ارتفاع من مستوى المياه و يؤرخ في تلك الظروف بـ ٩٠٠٠ الى ٧٠٠٠ سنة وان كان كل ذلك من باب الافتراضات.

كان من المنطوق أن يأتي بعد هذه الصناعة التي تأثرت كثيرا بتأثيرات مستيرية، العصر الحجري القديم الأعلى، وذلك ما يفرض طرح سؤالين: هل يمكن لنا أن نضع العاطري المتأخر جدا ضمن العصر الحجري القديم الوسيط؟ ذلك ما لم يمل اليه ل. بالوت في أطروحته الموقفة. ثم ماذا نعلم عن عصر حجري قديم لاحق في الصحراء؟ اننا لم نؤث من العلم الا قليلا. ان صناعة وادي

(٥٤) هوغو. ج.، ١٩٦٧م ص ٥٢٩ — ٥٥٦.

(٥٥) هوغو. ج.، ١٩٦٢م ص ١٥٨ — ١٦٢.

(٥٦) غروني. م.، ١٩٥٤م.

(٥٧) انطوان. م.، ١٩٣٨م.

(٥٨) رايفاس. م.، ١٩٢٢م ص ٤٦٧ — ٤٧٢.

(٥٩) غوتي. ا. ف.، دوسان مارتان، ١٩٠٨م... رايفاس. م.، ١٩٢٣م.

(٦٠) غويتات. ر.، ١٩٧٢م ص ٢٩ — ٣٣.

(٦١) هوغو. ج.، ١٩٦٢م ص ٤٧ — ٧٠.

(٦٢) بوبوج. م.، ١٩٥٦م ص ٢٦٣ — ٢٦٨.

(٦٣) بالوت ل.، ارمبورك.، وبالوت ل.، ١٩٥٥م ص ٢٨٧ — ٢٩٢.

(٦٤) هوغو. ج.، المذكور اعلاه، ١٩٦٢م ص ١٥٨ — ١٦٢.

(٦٥) كاتون — طامسن لك.، ١٩٥٢م و ١٩٤٦م.

أشد التي اكتشفها ر. موني (٦٦) لم تكشف بعد عن أسرارها. ولقد ظلت المجموعات الحجرية ذات الهيئة القابسية في ضفة تادمايت (٦٧) الجنوبية محل جدال. فلا يشهد على وجود تجمع قابسي أصيل في منطقة غمرتها الصحراء اليوم الا مجموعة (مرجومة) التي تقادم عهدها (بوادي ميا، بنجد تادمايت بالصحراء الوسطى الجزائرية) ولكن هذا لا يكفي لإقناعنا. لذلك اقترح بعضهم سعيًا وراء وجود حل يوفر ترتيبًا زمنيًا، بأن يقسم العاطري تحت عنوان لا لبس فيه، هو العصر الحجري القديم النهائي.

## الفراغ

استعمل ج. د. كلارك حديثًا عبارة العصر الحجري الوسيط أو الميزوليتي لوصف صناعة متطورة ما بعد عاطرية نشأت في أدرار بوس (النيجر). ان الكلمة التي بدأ استعمالها يضمحل الحسن الحظ لا تفيد شيئًا على مستوى عام ولا تعبر عن شيء معروف في الصحراء ولا يمكن الا أن تؤكد الخطأ المعروف الذي وقع فيه اركل (٦٨)، وهو خطأ معقول يوم كان يشتغل على النيل. ان علماء ما قبل التاريخ الفرنسيين لم يتفقوا في هذه المرحلة من البحث على هذا المصطلح. وهذا لا يعني ان مشكل العصر الحجري الوسيط قد سُوي. فلقد سبق السبيلي ٣ المصري الذي اجتاحتته الحجارة الصغيرة الهندسية الشكل (٦٩) العصر الحجري الجديد (أ) دون أن يختلط به. وهناك آثار قليلة في الواقع تسمح بان نفترض أنه تجاوز المناطق التي وقع العثور فيها عليه.

## العصر الحجري الجديد

اننا نجعل المهم من أصل الأجناس المنتسبة الى العصر الحجري الجديد (٧٠). ويبدو أنها تقدمت تدريجيًا عبر الصحراء منطلقًا من قواعد مختلفة. وتوجد حسب م. ك. شملا (٧١) ظاهرة قارة في تعمير الصحراء في العصر الحجري الجديد، وهو المهجانة بقطبيها: السود من جهة، والبيض من جهة أخرى، وأصلهما نصف شرقي ويجمعون تحت اسم «أهل حوض البحر المتوسط».

(٦٦) صناعة غير معروفة محفوظة بقسم ما قبل التاريخ (IFAN) بجامعة دكار.

(٦٧) هوغو. ج.، ١٩٥٢م ص ٦٠١-٦٠٣.

(٦٨) اركل أ. ج.، ١٩٤٩م، اركل أ. ج.، ١٩٤٣م.

(٦٩) خنبار أ.، ١٩٢٣م ص ١-٧٦.

(٧٠) العصر الحجري الجديد: يستعمل للدلالة على ظهور تقنيات جديدة لا سيما فن الحرف وصقل الحجر، وبداية تأهيل الحيوانات، والفلاحة وال عمران الخ... فضاف الى الأساس المتطور جدا من الصناعة الحجرية بالمرحلي القديم اللاحق. ففي الصحراء يبدو أن أقدم أماكن ذلك العهد تنسب الى الألفيات ٥ الى ٦ قبل الميلاد. ونعلم ان العصر الحجري الجديد يمكن ان ينشأ عن معرفة كامل التقنيات المذكورة، الا أن من أهم المظاهر التي يجب الاعتناء بها المظاهر التي تتمثل في طهي الاغذية، الذي سيؤثر بتغييراته الكيميائية، بطريقة حاسمة على التطور البدني للانسان. ويوفر العصر الحجري الجديد الصحراوي وتياراته المتعددة مثلاً لنوع من «الانفجار التقني» لا مثالا ثوريا كما زعم بعضهم.

(٧١) شملا م. ك.، ١٩٦٨م.



## الاعمار الأول: أهل العصر الحجري الجديد من ذوي التقاليد السودانية

لابد من توفر عوامل كثيرة حتى يكون لسكان الصحراء أصل واحد في العصر الحجري الجديد. فإذا اعتمدنا الترتيب، نرى ان أقدم موجة كانت تلك الموجة التي تكونت على ضفاف النيل موازية لمستوى الخرطوم والشهبان، وتحركت من الشرق الى الغرب على طول البحيرات الكبرى. ولا يبدو أنها تجاوزت كثيرا الحاشية الشرقية أوكر، أو أنها توغلت في الغابة. لكنها استكشفت الشمال على الأقل مرتين: الأولى في الهفار شمالا، حتى الحدود الشمالية من المنطقة التي تشمل ما قبل العصر التاسيلي والآخرى حتى الساوره، انطلاقا من تلمسي. وتعرف تلك الحضارة الرائعة بسهولة اعتمادا على خصائصها وعلى غنى زخرفة الحرف، ولكنها في المستوى الصناعي عسيرة التحديد اذ أن أهل العصر الحجري الجديد من ذوي التقاليد السودانية قد استفادوا من جهات متعددة. فهؤلاء السكان الأوائل للصحراء كانوا صيادي سمك وحيوانات، وكانوا يجنون الثمار، وكانوا مغرومين بلحم فرس البحر وثمار النشم، لكنهم لا ينفرون من أكل سمك البحيرات أو سلحفاة المياه الحلوة أو قشاء الماء. ان تعاطيهم لصنع القدومات وأدوات العزق والمرس والدرس وغيرها لا يثبت بتاتا أنهم اتقنوا عملا معينا من أعمال الفلاحة (٧٢) وعلى كل فان ملأ الجرار المستمر بثمار النشم وكثرة اكتشاف آثار اللب لفصائل القرعيات في الحفريات قد يدفعنا الى الاعتقاد بوجود شبه فلاحه بدائية. ولقد حدث أن وزعت الاعمال حسب وظائف مختصة، فكان صقل الحجارة واسع الانتشار وكانت أدوات الحرب متعددة. وكان الصيد يعتمد على القوس والرمح وكانت تستعمل المخاطيف والصنارات العظمية، وكانت الفأس وآلات العزق والمرس الحجرية المصقولة تحتل مكانة كبيرة بين معداتهم. ولما كانوا بارعين في تهيئة الدرر (الأمنيت والكلسدون والهيماتيت والكرنلين الخ) صنع المختصون آلات ثقب طريقة (٧٣) تجمع بين الأزميل والابر، ومثاقب كانت تستعمل مع المواد الصمغية والرمال الناعمة. وعندهم معدات للمرس كثيرة، بل جميلة جدا. فان لم تدل معدات الطحن في بعض الاحيان على الطحن، بأنم معنى الكلمة فإنها على الأقل تدل على معرفتهم لفن المرس. ويتكون المطحون أساسا من الطين الأحمر ويمكن أن يكون حبوبا برة وعنبيات كانت عشبية يابسة ومصبوغات نباتية ومنتجات صيدلية. ان أدوات الفخار تستحق اهتماما خاصة لثراء تزويقها وجمال أشكالها. وهنا نلاحظ ان الاشكال المخروطية ذات النتؤات والاشكال المستطيلة كالجرار، مفقودة. وعلى العكس من هذا، نجد بعض المناقير المسكبة وبعض العرى والقفلات.

(٧٢) الفلاحة: زراعة متقنة للنباتات المختارة على قطع أرضية هيئت خصيصا لهذا (الغرض). ان الدليل على معرفة فلاحه ما قد تنشأ

عن:

أدلة بليولوجية صالحة احصائيا.

وجود آثار أراض مزروعة.

الحصول على نباتات أحفورية معروفة. ولا يكفي وجود أدوات معروفة بأنها «فلاحية» ومن الممكن أن تكون تلك الآلات قد استعملت لاستخراج الطين لصنع الحرف، والرحي لطحن مواد التلوين والحبوب البرية، والأدوية الطبية الخ... ان نسبة كلمة «فلاحية» تنشأ اذن من قواعد دقيقة لا من فرضيات وأهية.

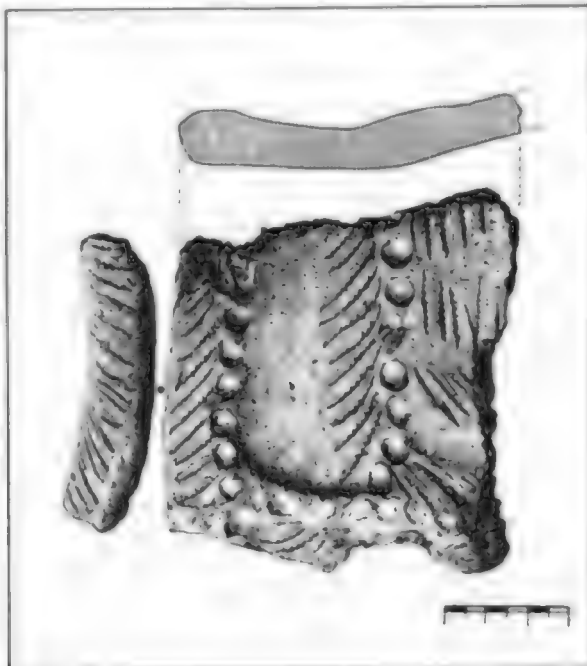
(٧٣) غيوسان م. وج.، ١٩٦٥م، ص ٢٣٧.



١

● (١) قطعة خزف من الحجري  
الحليث، من دهارة تيشيت  
(موريتانيا).

● (٢) قطعة خزف من أكريجيت  
(موريتانيا).



٢

## العصر الحجري الجديد الغني

ان تلك الموجة الأولى من أهل العصر الحجري الجديد قد أصبحت معروفة بعض الشيء ولقد تلاها في اتجاه الجنوب جنس افريقي آخر سيحتل الغابة. فهو رغم أهميته التي أخفاها كثيرا الغطاء الغابي، سيسمى هذا العصر الحجري الجديد المعروف جيدا بغينيا، العصر الحجري الجديد الغني (٧٤) وان كان يحتمل أن يكون أصله من افريقيا الوسطى.

## العصر الحجري الجديد ذو التقاليد القابسية

ويأتي بعد ذلك العصر الحجري الجديد ذو التقاليد القابسية الناتج عن أثر العصر الحجري الجديد بعين مكان القابسي الافريقي القديم و يبدأ يتحرك نحو الجنوب فيصل الى شمال شرقي موريطانيا والهقار حتى منيت، حيث ينتشر على سطح مواقع العصر الحجري الجديد ذي التقاليد السودانية. ان حده الشرقي غير مدقق لفقدان دراسات مفردة ليبية صالحة للاستعمال. فالعصر الحجري الجديد ذو التقاليد القابسية أكثر وقعا من العصر الحجري الجديد ذي التقاليد السودانية ان خزفه قليل التزيين أو منعدمه وكثيرا ما تكون الصناعة الحجرية ذات التقاليد القابسية في الغالب لها تقنية جادة وقد أثيرى مظهرها الصحراوي عدد وافر وروائع من الهياكل للحدود والسهام، في حين أن الصناعة الحجرية ذات التقاليد السودانية كثيرا ما تكون ذات طابع انتازي. ان حجارته المصقولة كثيرا ما تكون جميلة جدا. ان الانطباع الذي تركه من الحزف أزالتة قطع حجرية صلبة وتمائيل صغيرة (٧٥) ذات أشكال حيوانية رائعة. ونجد في ذلك المظهر من العصر الحجري الجديد خرزا للنظم يتكون أجزاؤه أحيانا من سوسن البحر وغالبا من قطع اسطوانية الشكل مصنوعة من قشرة بيض النعامة ولقد أفرغت بيضات كاملة وحولت الى أوان قد زين بعضها رسوم خطية.

اننا نعلم أن الايبيرو — مورويسين يختلفون عن القابسين. وبيننا نجد هؤلاء قد سكنوا خاصة الانجاد العالية الجزائرية حيث تركوا تلك الأكداس العجيبة الصدفية المعروفة بالحلزونات، فان الايبيرو — مورويسين استقروا على ضفاف البحر الأبيض المتوسط في تونس والمغرب. واننا لا نعلم كيف توصل «أشباه الكرومانيين هؤلاء الى الاستقرار في شمال افريقيا ولا كيف انقسم الجنسان. كل ما نعلمه أنهما قد انطبعا بطابع العصر الحجري الجديد في عين المكان.

وكان أهل العصر الحجري الجديد ذوو التقاليد الايبيرو — مورويسية يعيشون قرب البحر وقد أثر ذلك فهم. فان تمادينا نحاذي ضفة المغرب الأطلسية نحو الجنوب، سنكتشف وجود كجكهنودنغيات (Kjokenmøddingn) متكونة من أصداف بلع البحر والحار ومن أم الحلول التي مازالت تستهلك بالسنغال الى يومنا هذا. ولقد عم في الصحراء المغربية والموريتانية ذلك المظهر الخاص جدا والذي درس أولم يدرس الا قليلا وهو يتميز بفخار قليل الزرشرة خشن يكون من

(٧٤) دولاكروان، وفورفاري، ١٩٣٩م، ص ٢٦٥ — ٣١٢.

(٧٥) مجموعات ما قبل التاريخ بمتحف علم الاجناس لما قبل التاريخ بباردو (الجزائر) — مجلد رقم ١ أ. م. ج. طبعة باريس

١٩٥٦م، لوحات ١٠٧ الى ١١٠.

حجارة المواعد، وله صناعة حجرية نادرة. فيكون من المفيد أن نعلم كيف تشكل ومن أين أتى، لأننا وإن كنا نعلم بأنه تأثر بنظيرة الايبيرو-موروسي في المغرب - فنحن نجعل كل شيء عن كل عناصره.

## التينيري

وقد لفت نظر الاخصائيين تيار خامس وهو ذلك الذي وقع التعرف عليه في ادرار بوس وأطلق عليه لهذا السبب اسم «التينيري» ولقد اقترح أخيرا ج. د. كلارك الذي رآه في عين المكان بأنه يمكن أن يكون ممثلا للعصر الحجري الجديد الصحراوي، وذلك غير مقبول الا اذا اعتبرنا ان لفظ «صحراوي» ينعت منطقة جغرافية واسعة.

ان التينيري الذي اكتشفه جوبار (٧٦) سنة ١٩٤١م لا يمكن اعتباره كلاسيكيا ان اعتبرنا هياكله التي تظهر في شكل زهرة اللوتس، واطباقه ومحكاته المحدودية السميكة وعناصره المنشارية وفؤوسه ذات الحلق، ونماذجه البشرية وتشكلاته العديدة، لأن ذلك المصطلح خاص بالمظهرين السوداني والقابسي اللذين يغطيان معظم الصحراء. وكثيرا ما رغب فوفري في ارجاع كل شيء الى العصر الحجري ذي التقاليد القابسية (٧٧) وهو يقول: «ان التأثيرات المصرية المعروفة في الجزائر توغلت في أكمل مظاهرها حتى المقار»، ثم يضيف قائلا: «ان تلك المراحل التي بلغها التينيري تمثل أوج صناعة العصر الحجري الصحراوية التي نذكرنا بما قبل عهد الملوك المصري (٧٨). ولنلاحظ أيضا أن التأثير المصري على التينيري لا يبدو واضحا رغم تأكيدات فوفري.

ولقد بقي أن نعرف بأية طريقة استطاعت صناعة التينيري الرفيعة المرتكزة في أساسها على اليشب الجميل ان تتأثر ذلك التأثير الذي تجلى فيها بكل وضوح.

لكن يجب أن نحتاط من التعميم الى ما لا نهاية له فيما يتعلق بمفهوم «المظهر» فنحن نعلم الآن ان نفس الجنس البشري قادر على أن يستجيب لما تقتضيه البيئة وباطن الأرض والمعادن الخ.. فحيث يوجد اليشب والصوان اللذان يسمحان بخلق الروائع انطلاقا من الحجر، تنتشأ صناعة تختلف عن الصناعة التي يمكن أن تنطلق من الصلصال المشب من الادار بوس «والفوسولوروم» (٧٩) شيء واحد لا يتجزأ، لكن وجبت الاحاطة بفن الحرف والاسطوانات والفؤوس الخ.. حتى نومن بذلك فلا تلتقي الصناعات الا في نوعية نحتها.

بقي لنا أن نقول كلمتين عن مظهر جميل جدا وجد في جنوب شرق موريتانيا، وبالتحديد على طول ظهر تشيت (٨٠). ولقد أبرزت دراسات هامة أجريت في تلك المنطقة صناعة متأخرة ومرتبطة

(٧٦) جوبار ج.، وفوفري ر.، ١٩٤١م - ١٩٤٦م، ص ٣٢٥ - ٣٣٠.

(٧٧) فوفري ر.، ١٩٣٨م، ص ١٠ - ٢٩.

(٧٨) فوفري ر.، المذكور اعلاه، ١٩٦٩م، ص ٦٦.

(٧٩) هوغو ه. ج.، المذكور اعلاه، ١٩٦٢م، ص ١٥٤ - ١٦٣ و ١٦٨ - ١٧٠.

(٨٠) هوغو ه. ج.، وآل، ١٩٧٣م.

بمجموعة خاصة من القرى المبنية بالطوب حيث بلغ العمران (٨١) وفن التحصين مستوى عاليا. ولقد تحصلنا أخيرا على ما يثبت أن المجموعات المحلية كانت منذ ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد تستهلك الذرة البيضاء وذلك يعطي معنى دقيقا للأدوات العظيمة الخاصة بالطحن الموجودة بآثار تلك القرى. وتعتبر حضارة ظهر تشيت بفن الحزفي وبخصائصها الأخرى حضارة إفريقية. ولا شك أنها قد تكون آتية من الشرق وبالتحديد من مكان قرب تلمسي. غير أن هذا الرأي لا يعتبر سوى فرضية مؤقتة. فيمكن عندئذ أن يقتصر العصر الحجري الجديد على خطوط قوة مولدة لتيارات ثانوية اتصفت بترائها الثقافي المشترك الذي يعرف بالحزف، ونادرا ما يعرف بخصائص تقنية طبقت على الصناعة الحجرية.

ونستخلص من هذا أن العصر الحجري الجديد يمتد من الألفية الخامسة قبل الميلاد إلى بداية الألفية الأولى. ولم يفتأ مستوى البحيرات ينخفض في ذلك العهد وسرعان ما نزلت الحيوانات الأثيوبية نحو الحواشي، وخاصة نحو الجنوب وانقرضت النباتات وهاجر الإنسان بدوره مع قطعانه.

## الحيوانات والنباتات

أما الحيوانات فهي قد بقيت من العهد العاطري، وهو عهد قد انتهى عندما بلغت البحيرات مستواها العالي الأخير. ولقد عثر على شواطئها أو بمياهاها على الحيوانات المدعوة بالأثيوبية ومنها الكركدن والتمساح والتمساح النيلي، وفرس البحر، والفيل والحمار الوحشي والزرافة والجاموس والخنزير ذو القرنين. ولقد كثرت أذاك في المياه بعض الحيوانات، مثل (كلارباس)، وفرخ النيل وكذلك سلحفاة الماء الحلو. أما المراعي، فكان فيها الماعز والظبي. إن هذه القائمة لا تستغرب إلا من حيث المكان الذي تطبق عليه وهو الصحراء. وعكسا لذلك فإن النباتات تدعو إلى الحيرة فلقد وجدت في بداية العصر الحجري شجر الجوز والزيزفون والصفصاف والدردار. وتدل صدفة عثر عليها في منيت (صحراء الجزائر) أن معدل كمية الأمطار كان يبلغ ٥٠٠ مم. وكانت نباتات الحلنج تغطي بعض الطبقات الجبلية. وبسرعة بدأت النباتات تندثر تاركة مكانها لمشهد يوحى بجفاف شديد. فانقرض الأرز وصنوبر حلب، والعرعر، والزيتون، والمصطكا وكذلك النشم الذي احتل مكانة هامة من حيث غذاء سكان تلك المناطق.

وكانت الرخويات متوفرة في البحيرات. فلقد وقع العثور في بعض المناطق على ترسبات كبرى من صفق أونيو (Unio). وبالطبع كانت صحراء العصر الحجري الجديد قد اختصت في فجر تلك الحضارة بوجود مجموعة من البحيرات التي كانت منعزلة، وعلى ضفافها نشأ أهل العصر الحجري الجديد ذوو التقاليد السودانية. ولقد كانت تلك البحيرات قد ساعدت على استقرار مجموعات إنسانية بما وفرته لها من موارد.

(٨١) العمران: هوداسة مخطط مجموعة سكنية يقيم بها عموما سكان مستقرون منظمون حسب مخطط دقيق باعتبار تقسيم العمل والمعتقدات الدينية لسكانه. ويعتبر مجموع ظهر تشيت الوحيد الذي ينطبق عليه هذا التعريف، وهو موجود في مور يتانيا وتعود بدايته إلى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد.

## الصحراء مهد الزراعة

عرضت هذه الفكرة في مناسبات عدة ومن دون أن يستدل الكثيرون على امكانيات استعمال هذا المصطلح وما يترتب عليه من آثار خطيرة.

لا وجود لدليل على الفلاحة عندما يستند فقط على وجود أشياء أو أدوات معروفة بأنها فلاحية. ان الفلاحة يستدل عليها عندما تبرز الاحفورات والحبوب أو اللقاحات الفرضية المطبقة على الأشياء أو على الأدوات. ان جيوب الذرة الموجودة بتشتيت (موريتانيا) تؤكد آراء مونسن (٨٢) وآراء مونود (٨٣) في هذا الميدان.

أما فيما يتعلق بالباقي، فنحن نعلم ان سكان العصر الحجري الجديد بالصحراء كانوا قد جمعوا كميات هائلة من العنبات أو النشم الذي استعملوه للتغذية وقد لوحظ أيضا، في منيت وتشتيت وجود حبوب من القرعيات التي يحتمل أنها كانت بطيخا مائيا، لا من نوع الليمون القلوني الشكل. ان هذين النباتين الأخيرين يقطفان، وينتسبان الى بداية الفلاحة لا الى الفلاحة وهي تهيئة الارض لزراعة نباتات مختارة زراعا منظما.

ان القائمة تبدو اذن فقيرة (٨٤) فلا يوفر التحليل الباليولوجي للرواسب من العصر الحجري الجديد في منيت (النيوليتية) اشارة واحدة تخص شكلا معينا من الفلاحة. ولم يوفر تحليل عام بأدرار بوس شيئا يذكر، وكذلك الشأن في تين أسكو وبمواقع عديدة درست من حيث هذا الصدد. ان الآثار الوحيدة عن استهلاك معين للمنتوجات النباتية بالمواقع النيوليتية الصحراوية تتمثل في حبوب الزرغفوس واللوتوس والسلتيس وفي بعض النجيليات البرية، يضاف اليها آثار البنسم التي وجدها مونسن، وكذلك حبوب الذرة المكتشفة في تشتيت، في تربيئات أحفورية.

وقبل الوصول الى وضع خاتمة معينة علينا ان نحلل تحليلا شاملا رواسب العصر الحجري الجديد. ان الباليولوجيا رغم أهميتها لم تطبق على الصحراء الا قليلا فلئن سمحت الصحراء بزراعة بعض النباتات فلا يبدو أن تلك المنطقة كانت أصلح من مكان آخر لنمو النباتات المستهلكة العادية في شمال إفريقيا.

وخلاصة الأمر أن الرعاة كانوا منذ أمد طويل قد خلفوا في كل مكان تقريبا الصيادين والحوادين والقطافين. ان وجود أدوات حجرية في كل مكان تتكون من مجارف ومطاحن ومهاريس ومن موازين لإثقال عصي الحفر، ومن مناقير، لا يعني حتما وجود زراعة بالمعنى المعروف للكلمة. ففي مصر حيث تطور هذا المظهر تطورا كبيرا، نجد له آثارا واضحة في كل مكان. ولقد وجد أيضا في تشتيت بموريتانيا لأن قري الاستقرار كانت تبرز ذلك الوجود. ولكن الأمر ليس كذلك في أماكن أخرى. وعلى كل حال لا ننس أن تحول الصحراء الى أرض جرداء قد أصبح أمرا مقصيا في ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ولم يساعد انعدام الامطار الفلاحة، وهذا لا يعني الجهل بأي نوع من أنواع الفلاحة أو القطف الانتقائي الذي سبقها. ويضاف الى ذلك ان تجربة الغذاء ذي الأصل النباتي قاد

(٨٢) مونسن ب. ج. ١٩٦٣م، ص ٦ - ١٣.

(٨٣) مونود ث. ١٩٦١م، ص ١٥٦.

(٨٤) فلأمان س. ب. م. ١٩٢١.



- (١) رؤوس أسهم من الحجري الحديث، من غويزام (النيجر)
- (٢) فأس ذات عنق من الحجري الحديث، من أدرار بوس (النيجر).
- (٣) فأس مصقولة من الحجري الحديث، منطقة فايا (نشاد).

أصحابها الى البحث عن أنواع معينة أي أنها أدت بهم الى شكل أولي من الإنتقاء. فلا توجد امكانية للزراعة الا في اطار من الاستقرار أو في اطار اقامة. لكن العصر الحجري الجديد المحتجب كان في أماكن كثيرة من الصحراء، يوحى بمخيمات أناس رحل أكثر مما كان يوحى بقرى منظمة وان كانت موجودة.

## أصل التأهيل والصحراء

لقد كان لصحراء العصر الحجري الجديد حياتها الخاصة. وبالرغم من أن رعاة البقر في تأسيلي ناجر كانوا معاصرين للعربات «الطائرة عدوا» والتي لم يدق تاريخها والتي يمكن أن تكون معاصرة لغزوات «شعوب البحر» الذين شتتوا بعد غزواتهم غزو مصر، فانهم قد طوروا بعين المكان طريقة لتربية الماشية كانت تدهش دائما من لا يعرفها اذ يبدو ان الحضارة البقرية قد بلغت في ذلك العهد أوجها فاكتمست فنا راقيا يتعلق بطرق تربية الماشية التي تتطلب تعلما طويلا. ولقد تعاطى المصريون تجارب متنوعة في تربية الحيوان التي عرفناها من خلال الرسوم الجدارية ولولاها ما علمنا أنهم حاولوا تأهيل السنوريات والغزال والكليبات وحتى الضباع. فكيف كان الامر بالصحراء؟ يبدو أن السلوقي السوداني وهو مساعد ثمين للصيادين كان من سلالة قديمة جدا. فلعلة هو الذي كان ممثلا في الرسوم البقرية وتوجد إشارات أخرى الا أنه ليس فيها ما يقوم حجة ثابتة. ونحن نعلم أن الثور والكلب، كانا موجودين في أوكر ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد، لكن الرسامين على الجدران لم يبينوا لنا، بالنسبة للحقبات السابقة، ما هي الحيوانات التي حاول الإنسان تأهيلها.

## الحياة في العصر الحجري الجديد (\*)

اننا نعلم ان أهال العصر الحجري الجديد ذوي التقاليد السودانية، كانوا يتطفلون تطفلا لا نهاية له للاطلاع على التقنيات الجديدة فلقد ظلوا ينتحون الحجر ليستخرجوا منه مجموعة من الأسلحة الرائعة تتكون من الحدود المختلفة التهذيب، ومن مثاقب، ومكاشط لها أشكال متعددة ومن حجارة صغيرة هندسية الشكل، ومنشرات الخ... ان الجديد عندهم هو التقنية الجيدة في صقل الحجر وقد استخدموها في صنع الفؤوس والمجارف والمناقر والمقصات. وتضاف الى تلك المجموعة أحيانا أوعية من الحجر الصلب، ولبريات Labrets ودرر من الأمزونية والكرنلين والمرو، وكرات (لعلها كانت قذائف). واليها يضاف أيضا العديد من الرحي القارة والمهاريس التي ليست بالضرورة دليلا على معرفة الفلاحة، و«كوا» (وهي حجارة تثقل به عصي الحفر) وكانت تستعمل سابقا في جنوب افريقيا. أو عند البيغمي. ويكتمل كل ذلك بسلسلة رائعة من الأواني الخزفية التي كانت أشكالها وتزييناتها زنجية افريقية. ولقد صنع العظم واستعمل، لصنع مخاطيف ومثاقب، وابر، وأمشاط لصانعي الفخار ومصاقل وأحيانا خناجر. ان أهالي العصر الحجري الجديد السودانيين استطاعوا التأقلم ببراعة مع الحتمية المعدنية بالأقطار التي أقاموا بها وذلك ما أدى الى الإعتقاد بتعدد



الأسس العرقية، وإن كانوا من جهة أخرى مستقرين أحسن استقرار وموحدون ثقافيا. و يكفي دليلا على ذلك تناسق ما توحى به تزويقات الحُرَف. نضيف الى هذا أن أولئك الناس المكونين في بوتقة الحياة الاجتماعية كانوا يعرفون الملاحة ولا يستبعد أن يكونوا قد تحولوا عبر البحيرات على ظهر قوارب من القصب مثلما هو الشأن بتشاد حيث تعرف باسم «كداي».

وهناك اختلاف في مسائل عديدة بين رجال العصر الحجري الجديد أصحاب التقاليد القابسية وأشباههم وسابقيهم من ذوي التقاليد السودانية. ان هؤلاء انطلقوا من السودان على موجات عديدة، من الشرق الى الغرب دون أن يبلغوا حسبا يبدو الساحل الأطلسي، وكانوا زنوجا وأكثرهم أفارقة أقحاح. أما الأهالي الذين انطلقوا من الهضاب الجزائرية فكانوا ينتسبون أكثر الى البحر الأبيض المتوسط وورثوا عن سابقيهم القابسين موهبة ممتازة في نحت الصوان الجميل. ان حصيلة أدواتهم مدهشة وكثيرا ما تذكر الصفائح الدقيقة المهذبة بالخلي. وتضاف الى المثاقب والحدود والمكاشط الصغيرة، حجارة صغيرة هندسية الشكل متكونة على حسب الصفائح، وهي منحرفات، ومستطيلات ومثلثات، وقطع مستديرة. وهم لا يجهلون رغم ذلك فن الصيد لأنهم كانوا يصنعون أسلحة عديدة من حدود السهام التي أصبحت اليوم مع الأسف موضوع تجارة سياحية هامة. وكانت الفؤوس المصقولة عديدة ولم تكن ذات شكل قصير، كما كانت في العصر الحجري الجديد ذي التقاليد السودانية. وخلافا لذلك فان التقاليد القابسية تخصص مكانة أهم للأدوات الحجرية التي لها أيضا تقنية متنوعة. وهنا أيضا نجد الإنسان يعرف كيف يصقل القطع الحجرية الصلبة ويصنع حسب كرات مستديرة تماثيل بديدة صغيرة مثل بقرة سلت وكبش تمنيت وغزالة إيمكاسن. الا أن الفخار يعتبر أقل ثراء من حيث الأشكال والتزويقات وذلك لا يعني أن الصانع كانوا محدودي الخيال لأنهم يعبرون عن ذلك الخيال من خلال قدرتهم على تزويق بيض النعام الذي يصنعون منه كاملا، أواني (مهشمة) ودررا عديدة. ولقد احتفظت قطع كثيرة من القشرة برسوم رقيقة خطية. ويوجد بالطبع بهذا الإطار رحي ثابتة ومهاريس ونعلم ان جزءا من هذا العتاد قد استعمل لهرس الأصباغ، ويحتمل أن يكون ذلك لدهن الاجسام.

ان العصر الحجري الجديد غير معروف كثيرا لأن الاعمال التي تتعلق به لم تنشر بعد. الا أننا نعلم أنه توجد، ابتداء من المغرب وعلى طول الساحل الأطلسي ترسبات لا تخص من الصدف تشكل أحيانا «تلالا» مخلوطة بالرماد وبقطع خزفية، وذلك هو الشأن حتى السنغال. ولكن يبدو أنه في تلك المنطقة، حل محل ذلك الجنس جنس آخر من قبل التاريخ بقي علينا أن نبين لماذا - عند حدود موريتانيا وساحل الذهب. لماذا حل محل الحُرَف ذي القعر المستدير أو المسطح المعروف بالصحراء، خزف آخر بدیع ذو قعر مخروطي. ولكن هذا المظهر الثقافي يستحق أن تكتب حوله الدراسات.

وفي اتجاه الشرق، بمنطقة العائثر، في آدرار بوس، نجد منجما يتميز بتميزا واضحا عن المظاهر الأخرى المعروفة من العصر الحجري الجديد الصحراوي، مهما كانت اصولها، وهو الذي دعي بالتينيري. فلقد استخرج من يشب أخضر فاقع ونشأت منه أدوات رائعة. فهو عصر حجري جديد ثري الأشكال، يذكرنا بالعصر الحجري المصري وفيه أسطوانات منبسطة، وهياكل مزوقة بزهور اللوتس، ومكاشط مخززة تسمى «الاهلة»، ويجارف لها قاطع صقله الاستعمال، ويمكن أن تكون بطبيعة الحال مجرد توافق، ولكن قد يكون من المستغرب أن تكون بنت الصدفة. ويضاف الى ذلك

أن بعض الرحي القارة المتصلة بهذا المركب الرائع، تشابه نفس الرحي التي توجد بالرسوم الناتئة المصرية. ولنا أن نعتقد أن أدرار بوس كان قد احتله أناس لهم صلات وثيقة بالنيل وإن كانوا قد استعملوا — وهذا أمر غريب — خزفا يشابه كل الشبه خزف العصر الحجري الجديد ذي التقاليد السودانية. لكن ألم يسبق لتلك التقاليد أن استمدت نماذجها من الشهبان؟.

لقد كانت الغابة كثيفة وأكثر خضرة من يومنا هذا، وذلك بجنوب خط البحيرات، وفي عهد كان أكثر رطوبة. وذلك ما يفسر بدون شك أنها تقوم حاجزا لم يتجاوزه الناس الذين أقاموا بالصحراء والحقيقة أنه لم تبدأ الا حديثا دراسة العصر الحجري الجديد الغابي الذي سمي، توخيا للسهولة ولتقدمه زمنا «بالغيني» وإن كان في الواقع آتيا من مكان بعيد ويحتمل أن يكون من الكنفو.

## الخاتمة

إن دراسة ماضي الصحراء الشيق مازال في مراحله الأولى. فهي توفر للإختصاصيين ولذوي العزائم فرصة استثنائية لا بد من اغتنامها قبل أن يجرمنا استثمار المدخرات الطبيعية الى الأبد من الاطلاع على أسرار المشاكل التي تهم ماضي الإنسان. إن الإنسانية ستصنع مستقبلها اذا وعت ماضيها، لأن تجربتنا لا تقتصر على الحاضر لكنها نابعة مباشرة من ما قبل التاريخ. إن نكران ذلك يحرمها من كل ركيزة معقولة، ومن كل قيمة علمية. ولقد انتهى اعتبار ما قبل تاريخ الصحراء بحثا فرديا ليصبح مبادرة جماعية تعتمد على فريق كامل، وعلى وسائل متوفرة. ومن المؤسف أن نلاحظ بأن مثل هذه البحوث مهملة. فعلى الذين يملكون هذه الصحراء الكبيرة القاسية ان يكونوا الرجال القادرين على أن ينتزعوا منها أسرارها.

## افريقيا الغربية في ما قبل التاريخ

بقلم : ثورستان شوا

### المناخ والبيئة

ان المناطق المناخية والنباتية الرئيسية تشق كامل إفريقيا الغربية من الشرق الى الغرب. وتنزل الأمطار الأكثر غزارة قريبا من الساحل، وهي تنقص كلما اتجهنا نحو الشمال، في الدواخل. أما في الشمال، فالحزام الجاف لمنطقة الساحل، يحده القسم الجنوبي من الصحراء. وفي الجنوب نجد منطقة السباسب الكبرى، ويوجد بين منطقة السباسب والغابة المدارية الكثيفة الرطبة التي تمتد بحاذأة الشاطئ، منطقة غابية متدهورة مستصلحة للزراعة. قد حولتها يد الإنسان الى منطقة سباسب.

ان الأمطار لا تنزل الا حسب فصول معينة وهي تتكاثر في الجنوب من أفريل الى أكتوبر (مع بلوغ حد أعلى في يوليو وأكتوبر). وتتواصل في الشمال من يونيو الى سبتمبر وتأتي بتلك الأمطار الرياح الجنوبية الغربية التي تشبع بالرطوبة فوق المحيط الأطلسي. وإلى جانب ذلك فإن الجهة المدارية تقسم إفريقيا الغربية من الشرق الى الغرب، فتفصل الكتلة الهوائية البحرية المدارية المتكونة فوق المحيط الأطلسي الجنوبي عن كتلة هواء الصحراء القارية والجافة. إن موقع هذه الجهة يختلف حسب الفصول. ففي شهر يناير تستقر في أقصى الجنوب بحيث أن الرياح الصايبات الشمالية القادمة من كتلة الهواء الجاف الشمالية تنزل مباشرة على الساحل الغني حيث تتسبب في انخفاض درجة الرطوبة انخفاضاً كبيراً.

وينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار معطيات هذا المناخ وهذه النباتات حتى نفهم عصر ما قبل التاريخ في إفريقيا الغربية وكذلك علم آثارها: إن وضعية مختلف المناطق النباتية وامتدادها.



وكذلك موقع الجهة المدارية الداخلية قد خضعت في الماضي لتنوعات أثرت في الظروف التي عاش فيها إنسان إفريقيا الغربية في مختلف العصور.

يوجد في هذه المناطق النباتية عدد من الخصوصيات الجغرافية التي تؤدي الى تبدل الاطار العام تبدلات محلية: وذلك بهضبة فوطاجلون ومرتفعات غينيا. وكذلك سلسلة جبال الأتاكورا في الطوغو، ومنها في الكمرون هضبة باوتشي ومرتفعات مندرا. ومنها كذلك الدلتا الداخلي لنهر النيجر ومنعطفه الكبير نحو الشمال، وبحيرة تشاد، ودلتا مصب النيجر. ويوجد بين غانا ونيجيريا حزام الغابة المدارية الرطبة الذي يمثل حلا للتواصل يتجسم في «فجوة الداهومي».

## انسان ما قبل التاريخ

### الآثار الاحاثية

إن افريقيا الغربية لم تنتج الى حد الآن لا آثاراً للأشكال الإنسانية القديمة (أو البشريات المشابهة لما تم اكتشافه في افريقيا الشرقية والجنوبية (١)، ولا أدوات للعصر نفسه (٢). فهل يمكن القول بأن كائنات كهذه قد وجدت في افريقيا الغربية؟ فهل النقص الحالي في المعطيات راجع الى أن تلك البشريات لم تعيش في تلك المنطقة في ذلك العهد؟ أو أننا نفتقر فقط وبصورة مؤقتة الى الشواهد؟ انه سؤال يستحيل في الوقت الراهن أن نجيب عليه. على أننا لا نشاهد في افريقيا الغربية أي مجهود في ميدان البحث يمكن أن نقارنه بالمجهودات التي كانت إفريقيا الشرقية اطارا لها. ويجب أن نقرر ايضا ان المناجم التي لها نفس القدم تبدو اقل بكثير. ومن المعلوم كذلك أن ظروف المحافظة في تلك المنطقة أضعف بكثير نظرا الى ارتفاع درجة الرطوبة وحموضة التربة (٣). وذلك ما توضحه معطيات عصر هو أقرب الينا نسبيا: اذ أن خريطة توزيع اكتشافات الآثار البشرية العظمية في افريقيا بالعصر الحجري المتأخر تظهر فراغا تاما بالنسبة لمنطقة الكونغو و افريقيا الغربية (٤). على أنه، منذ وضع هذه الخريطة، حصلت اكتشافات في نيجيريا وغانا وهي تبين أن هذا الفراغ يدل على وضعية معينة للبحوث أكثر مما يدل على انعدام حقيقي للآثار ما قبل التاريخ (٥). ويمكن أن يكون الأمر كذلك بالنسبة الى الفترة الأكثر قدما والتي سندرسها (٦). ومن المحتمل أن يكون الأمر كذلك بالنسبة الى خريطة توزيع أحفورات مناجم الفقاريات بالبليستوسين الأسفل والوسيط الذي يوجد به نفس الفراغ (٧). فبقدر ما نستطيع أن نرجع الى الماضي القديم يبدو أن عددا من مناطق افريقيا الغربية قد كانت لها ظروف بيئية قريبة جدا من الظروف التي سمحت بتطور

(١) ر. أ. ف. لايفي، ١٩٧٣.

(٢) م. لايفي، ١٩٧٠.

(٣) كلارك، ١٩٦٨، ص ٣٧.

(٤) غابل، ١٩٦٦، ص ١٧.

(٥) شوو، ١٩٦٥، المذكرات الافريقية، ١٩٦٩، وقائع بروثوال وشو، ١٩٧١ فلايت ١٩٦٨، ١٩٧٠.

(٦) كوبنس، ١٩٦٦، مجلة المعهد الفرنسي لافريقيا السوداء، ص ٣٧٣.

(٧) كوبنس، ١٩٦٦، مجلة المعهد الفرنسي لافريقيا السوداء، ص ٣٧٤.

الأسطرابوبتيك بإفريقيا الشرقية، وذلك لا يعني، طبعاً أن هذه المناطق قد كانت مسكونة بالفعل ويمكن اليوم لقطاعات عديدة من الغابة المدارية أن توفر حاجات قرود الغوريلا. ولكننا لا نجد لها في الواقع إلا في موضعين محدودين جداً (٨) هذا، ويقطع النظر عن نوع من التشابه في الظروف، فإن منطقة سياسب إفريقيا الغربية لا تتوفر فيها حيوانات الصيد، من حيث الكثرة والتنوع، مثلما هو الشأن بإفريقيا الشرقية (٩).

لقد وفر الجزء الجبهي الوجهي لمجموعة عثر عليها على بعد ٢٠٠ كلم غربي الجنوب الغربي من لارجو، وفر عنصرًا إيجابيًا يسمح بأن نعتقد أنه يمكن العثور على عدد من البشريات الأولى من أول البليستوسين بإفريقيا الغربية. ولقد سمي هذا النموذج الإنسان التشادي الأوكسريس (١٠)، واعتبرا في البداية أنه من سلالة الأسطرابوبتيك (١١) إلا أنه عد بعد ذلك أقرب إلى الإنسان الماهر (١٢). وفي الحقيقة يصعب أن يحكم في شأن هذا النموذج، وذلك لانعدام تأريخ مضبوط، ونظراً إلى جزئية هذا الأثر. إن دراسة هذه المجموعة التي تمثل خصائص عتيقة ومتطورة، دراسة شاملة توحى بتطور نحو الإنسان المستقيم (١٣) الذي يمثل مرحلة أكثر تطوراً من تطور البشريات والذي له سعة حجمية تقدر بما بين ٨٥٠ إلى ١٢٠٠ ستم ٣. وينبغي أن نكرر القول إن إفريقيا الغربية لا توفر مثلاً لذلك الشكل، رغم أن نماذج من النوع نفسه المسماة بإنسان الأطلس الموريتاني قد وجدت في الجزائر (١٤).

## الصناعات

بالرغم من أن أدوات إنسان ما قبل التاريخ قد نحتت سواء من العظام أو الخشب أو الحجارة فإنه من النادر أن يبقى الخشب، كما أن تركيب تربة أراضي إفريقيا الغربية غير ملائم لصيانة العظام. وتتكون الأدوات الحجرية الأكثر قدماً وبساطة — باستثناء الشظايا المستعملة والمصنوعة صنعاً رديئاً — تتكون من حصة أو كتل منحوتة بالطرق لتوفر أدوات ذات حد يتراوح طوله بين ٣ و ١٢ سم. ونشير إلى هذه الأدوات باسم الحصة المهيأة أو الأدوات الأولدوائية، نسبة إلى الفج المسمى بهذا الاسم في تانزانيا. إن هذه الأدوات كثيرة الانتشار في إفريقيا، والناس الذين صنعوها قد تمكنوا من أن ينتشروا كثيراً في أغلب سياسب القارة وأدغالها. وقد عثر في أماكن عديدة من إفريقيا الغربية على أدوات مماثلة (١٥). على أنه لا يوجد حتى الآن ما يؤكد أنها تنتمي إلى نفس

(٨) دورست. وندلو، ١٩٧٠، ص ١٠٠.

(٩) دورست. وندلو، ١٩٧٠، ص ٢١٣ — ٢٢٣.

(١٠) كميل، ١٩٦٥، ص ٩، ٤.

(١١) كوبنس، ١٩٦١.

(١٢) كوبنس، ١٩٦٥، كوبنس ب، ١٩٦٥، أعمال المؤتمر الإفريقي الخامس، كوكس، ١٩٦٥.

(١٣) كوبنس، ١٩٦٦، اثربولوجيا.

(١٤) اثربورغ وهفستاتر، ١٩٥٤، ١٩٥٥، اثربورغ، ١٩٥٤، ١٩٦٦.

(١٥) ديفيس، ١٩٦١، ص ٤٤١، ديفيس، ١٩٦٤، ص ٨٣ — ٩١، موني، ١٩٦٣، سوبر، ١٩٦٥، ص ١٧٧، هوغو، ١٩٦٦، مجلة المعهد الفرنسي لإفريقيا السوداء.

العهد الذي تنتمي اليه صناعة الأولدواي التي تقع في إفريقيا الشرقية بين - مليونين و٧٠٠ سنة. ان دراسة دقيقة للحصاة المهيأة المكتشفة على طول نهر غمبيا في السنغال قد بينت أن البعض منها يمكن أن يكون منتميا الى العصر الحجري الحديث، في حين ان بعضها الآخر ينتمي الى العصر الحجري المتأخر. ولا يوجد أي عنصر طبقي يسمح بان نعتها صناعة ما قبل اشولية (١٦). فلا يمكن لنا أن نتأكد من أقدمية الحصاة المهيأة الا اذا كان ضبط تأريخها يرجع الى اكتشافها في بيئتها، أي في مناجم يمكن بدورها أن تؤرخ تأريخا نسبيا أو مطلقا. ان علم الاحاثية يسمح بضبط تأريخ نسبي لمناجم يايو التي وجدها الإنسان التشادي على أنه لم يعثر فيها مع الأسف، على أية أداة. ويبدو من المعلومات التي وفرتها عظام فرس البحر (ايماغونكولا) المنقرض حاليا والتي استخرجت من بئر في بورنو (١٧) (Bornoo) يبلغ عمقه ٥٨ مترا أنه من المحتمل ان رواسب حوض التشاد تحتوي على آثار احاثية وكذلك أثرية من بداية البليستوسين، الا أن هذه الآثار تقع الآن تحت طبقة كثيفة جدا من الطمي أحدث منها.

## التغيرات المناخية

حدثت في أوروبا خلال الدهر الرابع مراحل جمودية عديدة وقد سميت المراحل الأربع الرئيسية منها بأهار ألمانيا. ونحن نعرف الآن أنه رغم وجود نسق وخصائص صالحة بصفة عامة بالنسبة الى الظواهر الجمودية، يجب مع ذلك أن نأخذ بعين الاعتبار عددا من التغيرات المحلية. فكان من نتيجة ذلك أن استعملت أساء عملية بالنسبة الى كل منطقة. ويبدو أن النتيجة هي أكثر قربا من الواقع (١٨) رغم أنها أكثر تعقيدا.

ولقد كان كذلك الشأن بالنسبة الى إفريقيا حين قام الباحثون الأوائل، اعتمادا على آثار الشطوط البحرية المرتفعة إثر مراحل الإجتفاف وتجمع الحصى الكبيرة، قاموا باكتشاف الآثار الخاصة بفترات الدهر الرابع التي كان خلالها المناخ الافريقي أكثر رطوبة من يومنا هذا. ان هذه الحقبات التي تتصف بغزارة أمطارها سميت «مطارات». ولما تم قبول مفهوم المراحل الجمودية بالنسبة الى المناطق الشمالية المعتدلة فن الطبيعي أن توجد مرحلة ممطارية تقابل، في الجوامد الحار، المراحل الجمودية في أوروبا وأمريكا الشمالية (١٩). فيمرور الزمن أصبح مفهوم ثلاث مراحل ممطارية افريقية ثم أربع مراحل سنة متبعة (٢٠). وهناك افتراض بأنها كانت توافق جموديات العهد الجمودي الأوربي (٢١) مع أنه اقترحت نظرية جديدة تفيد أن مرحلة ممطار افريقية واحدة تقابل تجمدين شماليين اثنين (٢٢). ان تقديم اقتراحات هي على ما هي عليه من اختلاف

(١٦) موني، ١٩٦٨، ص ١٢٨٣، بيايوديكامب، ١٩٦٩.

(١٧) تنام، ١٩٤٤، ص ٣٩.

(١٨) فلنت ١٩٧١، سيرك، وواست، ١٩٧٢.

(١٩) وابليند ١٩٣٤، ١٩٥٢.

(٢٠) ل. م. ب. لايبكي ١٩٥٠، ل. م. ب. لايبكي ١٩٥٢، قرار ١٤ (٣) ص ٧، كلارك ١٩٥٧ ص ٣١، قرار ٢.

(٢١) نلسن، ١٩٥٢.

(٢٢) سمبسن، ١٩٥٧.

يدل على استحالة اقرار توافق تاريخي دقيق. ومن المؤكد أن لا نقرباً بالنسبة للمسافات الطويلة التوافقات الجيولوجية تبعاً للمناخات، بل حسب التشكلات الصخرية. وبالإضافة إلى ذلك فإن آثار المراحل الممطرة التي هي أقل وضوحاً بكثير من آثار التجمدات قد تسببت في كثير من اللبس (٢٣). وبمرور الزمن أعيد النظر من جديد في فرضية مراحل الممطرات الأربعة (٢٤).

إن إفريقيا الغربية لم تسلم هي أيضاً من طريقة القياس، لأن بعض العلماء أخذوا يستعملون النتائج المتحصل عليها في مناطق أخرى من القارة لاعطاء مدلول المعطيات كانت ستبقى معزولة أو صعبة التأويل (٢٥) إلا أنه طرأ حديثاً عاملان مكننا من تحسين المقاربة العلمية فيما يتعلق بإفريقيا الغربية؛ يمثل أولهما في بحث أكثر عمقا في هذا الموضوع (٢٦) وثانيهما في ظهور نظرية جديدة في التنوعات المناخية في إفريقيا (٢٧).

وفيما يخص هذه التقلبات المناخية فإن إفريقيا الغربية لا توفر أية معلومات جيولوجية أو جيومورفولوجية جديرة بالثقة تنتمي إلى ما قبل المرحلة التجمدية الأخيرة في أوربا. إن دراسة بحيرة التشاد تبرز وجود مستويات عالية ابتداء من ٤٠٠٠ سنة (٢٨). إن هذا المستوى العالي تحدده قمة باما التي يقوم عليها ميدوغوري والذي هو في هذا الموضع يتمحور شمالاً غرباً وجنوباً شرقاً، ثم يتسع الطرفان نحو الشمال الشرقي مطوقين لارجو وغور بوديلي بأكملهما، وبحر الغزال. إن تشكل هذه القمة، التي تعتبر حاجزاً بحيرياً أكثر مما تعتبر الخط الحقيقي لضفة، يمكن أن يكون قد دام ٦٠٠٠ سنة (٢٩). إن البحيرة القديمة كانت تقع فوق مستوى سطح البحر بـ ٣٣٢ م، في حين إن الارتفاع الحالي للتشاد هو ٢٨٠ م. وكان يحدث أن يفيض في مصب النغور وأن يصرف مياهه في البينوي ويبدو أذن أنه خلال هذه الفترة الأكثر رطوبة كانت غابة إفريقيا الغربية قد امتدت امتداداً محسوساً إلى الشمال أكثر مما هي عليه اليوم. على أنه يستحيل أن نؤكد أن كانت قد بلغت الدرجة ١١٠ من خطوط العرض الشمالية (٣٠) أو خط التماطر بمقدار ٧٥٠ مم الحالي (٣١) ما دامت البلنولوجيا لم تؤكد لنا ذلك.

ويبدو أن إفريقيا الغربية كانت أكثر جفافاً مما هي عليه الآن وذلك تقريباً في النهاية الأخيرة من التجمد الأخير في أوربا الغربية، ذلك التجمد الذي تقع بدايته في حدود ٢٠٠٠ سنة. وقد كانت أنهار تلك المنطقة في ذلك العهد تصب مياهها في محيط ينخفض بـ ١٠٠ م عن مستواه الحالي وذلك نتيجة لكمية المياه الضخمة التي كانت محصورة في القبعات الجمودية في القطبين، ذلك فإن البينوي قد حفر مجراه في مأكوردي، في حين كان المجرى الأثري لنهر النيجر يوجد في جبة

(٢٣) كلارك، ١٩٥٧ ص ٣١، قرار، ٤، بوتر، ١٩٧١ ص ٣١٢ - ٣١٥.

(٢٤) فلنت، ١٩٥٩.

(٢٥) بند، ١٩٥٦، ص ١٩٧ - ٢٠٠، ب. ا. ب. فاتح، ١٩٥٩ ص ٢٩١، دافيس، ١٩٦٤، ص ٩ - ١٢، بياس، ١٩٦٧.

(٢٦) الجمعية السنغالية لدراسة الدهر الرابع، ١٩٦٦، ١٩٦٧، ١٩٦٩، بورك وآل، ١٩٧١، بوتر، ١٩٧٢ ص ٣١٢ - ٣٥١.

(٢٧) زنديرن باكر أ. م. فان، ١٩٦٧.

(٢٨) سرفنت وآل، ١٩٦٩، غروف ووارن، ١٩٦٨، بورك وآل، ١٩٧١.

(٢٩) غروف، وبولون، ١٩٦٤.

(٣٠) دافيس، ١٩٦٤.

(٣١) دافيس، ١٩٦٠.



(Djibba) تحت ٢٥م من مستوى سطح البحر وهو يزداد غوصا في أونيتشا (٣٢) ولقد كان نهر السنغال يسيل في مجرى دون مستواه الحالي بكثير، وتوجد كثبان كبيرة من الرمل تسد مصبه، وكذا الأمر أيضا بالنسبة للمجرى المتوسط لنهر النيجر. ان نهر التشاد كان زمنئذ جافا وتكونت كثبان رملية في قاع البحيرة وفي عدد من المناطق بنجيريا الشمالية وذلك ما يشير الى أمطار سنوية تقل عن ١٥٠مم، في حين أنها في أيامنا هذه تتجاوز ٨٥٠مم. وبالرغم من انعدام توار يخ قاطعة، الا لبعض ترسبات مصب نهر السنغال والمناطق المجاورة لبحيرة التشاد فان كل الأدلة الأخرى تتضافر على تأكيد فترة جافة بصفة عامة وذلك في حدود ١٨٠٠٠ سنة. ولئن كانت كثبان الرمال قد تكونت في خط عرض كانوا، فان السباسب والمنطقة الغابية قد انحسرت بعيدا نحو الجنوب. ويحتمل أن تكون الغابة كلها تقريبا قد اضمحلت باستثناء بقايا غابات في مناطق هي أغزر أمطارا مثل سواحل ليبيريا وجانب من ساحل العاج ودلتا النيجر وجبال الكرون.

ويبدو أن الظروف الطبيعية قد تطورت في حوالي ١٠٠٠٠ سنة نحو رطوبة أقوى. فنه النيجر عند مروره في بلاد مالي يفيض فوق عتبة الطاوسا، والتشاد الكبير كما كان يسمى (٣٣)، يغطي من جديد مساحة شاسعة. وقد تلونت بصيغة حراء الكثبان الرملية التي تكونت خلال الفترة الجافة السابقة وذلك اثر وجود فصول سنوية أكثر رطوبة. لقد وجدت آثار فحم خشبي مبعثرة في أيغو-أوكونو، ويرجع تاريخها الى ١١٠٠٠ أو ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وقد تكون دليلا على نيران ادغال، وعلى تواصل الحياة في ذلك العهد وبذلك المنطقة، لمجموعة نباتية من النوع السبسي (٣٤). ويحتمل جدا أن تكون الغابة خلال ذلك العهد قد تقدمت من جديد شمالا انطلاقا من مناطق انحسارها في الساحل، حيث ظلت قائمة خلال الفترة الجافة السابقة. ان النظرية التي تسمح بالربط بين الأحداث المناخية لنهاية الدهر الرابع في إفريقيا الغربية، وبين الأحداث المناخية في أوروبا الشمالية، هي نظرية تركز على حجج عديدة قوامها الخاصية العامة لتغيرات درجة الحرارة في العالم كله، فلقد تسببت في انزلاق المناطق المناخية من كلا جانبي خط الاستواء، وهو انزلاق حدد صورته شكل الكتل الكبيرة البرية والمحيطية (٣٥). فكلما انخفضت درجات الحرارة العالمية نتج عن ذلك في خطوط العرض الشمالية تجدد يدفع نحو الجنوب الاعصار المعاكس القطبي، أما المناطق المناخية الواقعة خارج ذلك النطاق، فيقع عليها ضغط نحو خط الاستواء، بحيث أن الجهة المدارية الشمالية تتحول الى جنوب موقعها الحالي. ونتيجة لذلك كانت رياح الشمال الشرقي الجافة تهب بقوة ولمدة طويلة، ومن طرف إفريقيا الغربية الى طرفها الآخر، بينما كانت الرياح الممطرة الجنوبية الغربية المسماة بالرياح الموسمية تعصف ضعيفة وعلى مسافة قصيرة، وذلك خلال الفصل الرطب، وهو ما يفسر التطابق التقريبي بين فترة جافة في إفريقيا الغربية وبين فترة جوية شمالية. ولقد كان شمال الصحراء في الوقت نفسه أكثر رطوبة مما هو عليه اليوم لأن مسار أعاصير المحيط الأطلسي كان يؤدي الى جنوب الأطلس. يدل أن يمر على شمال تلك السلسلة الجبلية.

(٣٢) فوت، ١٩٦٢، وفور، وإيلوان، ١٩٦٧.

(٣٣) مورو، ١٩٦٣، سرفنت وآل، ١٩٦٩.

(٣٤) شوي، ١٩٧٠، ص ٥٨ - ٩١.

(٣٥) باكر، ١٩٦٧.

ولما ارتفعت درجة الحرارة في العالم انحسرت القيعات الجليدية شمالا ووقع الأمر نفسه بالنسبة للجهة المدارية واستقرت مستويات البحار في ارتفاعها الحالي وأصبحت صحراء الشمال أكثر جفافا إثر تنقل مسار أعاصير المحيط الأطلسي نحو الشمال. إلا أن المدخزات المائية والنباتية كانت كافية لتأخير موعد جفافها النهائي إلى تاريخ أبعد من ٣٠٠٠ سنة. ولما أصبح هذا الجفاف على هذه الدرجة بحيث لم يعد في إمكان السكان أن يواصلوا الحياة في الصحراء خصلت بطبيعة الحال انعكاسات على المناطق الواقعة في الجنوب.

## العصر الحجري

إن مصطلحات «عصر حجري قديم» و«عصر حجري قديم لاحق» و«عصر حجري حديث» ما زالت مستعملة في إفريقيا الشمالية. وبالمقابل لذلك فإن علماء آثار إفريقيا الجنوبية الصحراء قد رأوا منذ مدة طويلة أنه من الأفضل استعمال اصطلاح خاص بهم ومركز على واقع القارة، لا على نظام أوربي مفروض من الخارج. إن هذا الاصطلاح صودق عليه رسميا في المؤتمر الإفريقي الثالث لما قبل التاريخ، وذلك منذ ٢٠ سنة تقريبا. لذلك فإنا سنستعمل مصطلحات «العصر الحجري المبكر» و«العصر الحجري الوسيط» و«العصر الحجري المتأخر» (٣٦). إن الحدود لتقسيمات العصر الحجري هذه تختلف قليلا من منطقة إلى أخرى. ويمكننا بصورة تقريبية جدا أن نضبط العصر الحجري المبكر من ٢٥٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ سنة، والعصر الحجري الوسيط من ٥٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ سنة، والعصر الحجري المتأخر من ١٥٠٠٠ إلى ٥٠٠ سنة. إن توفر المعلومات الجديدة قد فرض على التقسيمات والتأريخات البسيطة جدا أن تتحور وأن تستدعي تقديما أكثر شمولاً (٣٧). وقد أصبح استعمال مصطلح «عصر حجري حديث» غرضة للنقد وذلك عندما يطبق على واقع إفريقيا جنوب الصحراء، لأن هذا المصطلح هو في الحقيقة مصطلح غامض إذ أننا لا نعرف بالضبط إن كان يشير إلى حقبة أو إلى تكنولوجيا أو إلى نمط اقتصادي أو إلى هذه الأمور الثلاثة مجتمعة.

## العصر الحجري المبكر في إفريقيا الغربية

### الأشولي

تركزت مجموعة الصناعات الأولدواينية مكانها في إفريقيا الشرقية والجنوبية والشمالية الغربية للمركب الذي يعرف باسم الأشولي والذي يتميز بذوات الوجهين. إنها أدوات ذات شكل بيضوي أو بيضوي مذهب قد نحت حدها على كامل محيطها ومن الوجهين بكامل الدقة. والقدم نموذج آخر متميز وله حد مستقيم بالعرض. وبالرغم من أن نصف المواد الغذائية على الأقل كان متعلقا بالنساء والأطفال الذين كانوا يجمعون العنبات والحبوب والجذور، فإن الرجال كانوا يتجمعون وينسقون مجهوداتهم لصيد الحيوانات الكبيرة. وقد عرفت النار في إفريقيا منذ نهاية الحقبة الأشولية.

(٣٦) كلارك، ١٩٥٧، قرار ٦.

(٣٧) بيشوب وكلارك، ١٩٦٧ ص ٦٨٧ - ٨٩٩، إشوي، ١٩٦٧، ص ٩ - ٤٣؛ فيجل وبومان، ١٩٧٢.



- (١) خنزف (شققات مزخرفة) من رأس مانويل في السنغال، متحف الايفان (تصوير أ. دياغني).
- (٢) أداة صقل أو تنعيم من العظم عثر عليها في موقع العصر الحجري الحديث في رأس مانويل بالسنغال، متحف الايفان، (تصوير أ. دياغني).



وكان نوع الإنسان المتسبب في صنع الأدوات الأشولية حيثما وجدت هو الإنسان المستقيم الذي تقل مقدرة دماغه عن مقدرة دماغ الإنسان المعاصر بشكل محسوس، الى أنه من زوايا أخرى، قريب من هذا الأخير من حيث التركيب البدني.

ان النماذج ذات الوجهين التي تعتبر عادة قديمة (والتي كانت تسمى «شولية») لم يبق لها أثر في الصحراء. على أنه أشير الى وجودها في السنغال (٣٨) وفي جمهورية غينيا (٣٩) وفي موريتانيا (٤٠) وفي غانا حيث وجدت ضمن الطبقات ملفوفة في طمي المسطحة المتوسطة (٤١) بقطع النظر عن دلالة هذه الوضعية من حيث الترتيب الزمني النسبي. وقد كان مجال توزيعها موضوع (٤٢) خرائط يستفاد منها أن المنطقة عامرة ابتداء من نهر النيجر على طول سلسلة جبال الأتاكورا وروابي الطوغو. ان المراحل الأخيرة للأشولي المتميزة بأدوات ذات وجهين منحوتة بالقارع اللين (من الخشب أو العظام) وافرة في الصحراء شمال خط العرض السادس عشر. ولعله من المناسب أن نربط هذا التوزيع بالفترة الجمدية الأوربية قبل الأخيرة (ريس)، أو لعله يمكن ربطه أيضا بالأول الأقصى للتجمد الأخير (وورم). ويبدو أن الأمطار كانت في ذلك العهد أكثر غزارة في شمال الصحراء في حين يبدو أنه لم يكن للمنطقة الصحراوية، اذا انتقلنا الى الجنوب، الا جاذبية قليلة بالنسبة الى الصيادين القاطنين. على أنه يبدو أن الأراضي المرتفعة لهضبة جوس قد شذت عن القاعدة. ويحتمل ان المناخ كان في ذلك المكان أقل جفافاً وأنه ساعد على وجود مروج شاسعة تتخللها غابات، وهو ما كان يبعث عنه الإنسان الأشولي. فكان ذلك النجد اذن بمثابة منطقة شائعة من الأراضي القابلة للسكن الممتدة الى جنوب العابر والمنطقة الأشولية من الصحراء (شمال خط العرض ١٦). وقد أرخت بعض المواد المتصلة بالأدوات الأشولية والتي وجدت في الحصباء القاعدية التي تملأ مجاري السيول المحفورة خلال الفترة الجافة السابقة، أرخت بواسطة الفحم ١٤ باعتبارها منتمية الى عهد سابق لـ ٣٩٠٠٠ سنة قبل الحاضر (٤٣).

وعندما سكن الإنسان الأشولي هضبة جوس يحتمل أن مرتفعات فوطا جلون كانت ملائمة هي أيضاً لاقامة الإنسان بها. وقد اكتشف عدد من الأدوات الأشولية في تلك المنطقة (٤٤) ونجد كذلك آثاراً تنتمي الى العصر الأشولي المتوسط والأعلى، مبعثرة حوالي نهر السنغال الأعلى وفي شمال هذا النهر الذي يمكن أن يعتبر همزة وصل بين منطقة فوطا جلون والمواقع المتكاثرة في موريتانيا. ان آثاراً أشولية قد عثر عليها في جنوب شرقي غانا وعلى طول سلسلة روابي الطوغو والأتاكورا، وهي آثار توحى بإمكانية تسرب (٤٥) الإنسان من شمال هذه المنطقة التي لا بد أنها كانت توفر

(٣٨) كراباي، ١٩٥١.

(٣٩) كريتش، ١٩٥١.

(٤٠) موني، ١٩٥٥ ص ٤٦١ - ٤٧٩.

(٤١) ديفيس، ١٩٦٤ ص ٨٦ - ٩١.

(٤٢) ديفيس، ١٩٥٩.

(٤٣) برنيسن وآل، ١٩٦٥.

(٤٤) كلارك، ١٩٦٧ - الأطلس.

(٤٥) ديفيس، ١٩٦٤. كلارك، ١٩٦٧، الأطلس.

محيطا ملائما لسكن الإنسان. ويبدو أن التسرب لم يكن قويا جدا ولم يكتشف أي أثر أشولي في طبقات أرض المنطقة، وكثيرا ما يعسر أن نصنف نهائيا وباعتبارها أشولية مجموعات ضخمة أو عينات نادرة ما دامت أشكال عديدة تتداخل أو تلتبس بأشكال الصناعة السنغونية (٤٦) التي تعتبر أكثر حداثة.

### السنغون

ان مجموعة الصناعات السنغونية صعبة التحديد (٤٧). ولقد شك حتى في وجودها في إفريقيا الغربية (٤٨) فقد ظهر إلى الوجود مركب صناعي جديد مواليا في الزمن للأشولي ومحتفظا ببعض القطع من مجموعة أدواته مثل المنقروذي الوجهين، وقد اختفى القدم وندرت أشباه الأشكال الكروية بينما عادت الأولوية للمناقر ذات الهيئة الثقيلة والكثيفة. ونجد كذلك سواطير نحتت غالبا من الحصى.

ان توزيع العناصر السنغونية هو في إفريقيا الغربية أكثر وقوعا جهة الجنوب من توزيع العناصر الأشولية (٤٩)، وهذا يدل على أنماط جديدة من الاستقرار. إن صناعة «كاب مانال التي عثر عليها في داكارة، اعتبرت في بداية الأمر صناعة منتمة إلى العصر الحجري الجديد (٥٠)، إلا أنها تعتبر اليوم صناعة سنغونية (٥١) أو لعلها إحدى مخلفاتها المتأخرة. ويمكن أن نقول مثل ذلك بالنسبة إلى عدد من العناصر التي جمعت في باماكو (٥٢). وفي نيجيريا تقع الآثار السنغونية في قسم من هذا البلد يمتد جنوب هضبة جوس شمال الغابة المدارية الكثيفة، وهي توجد على طول الأودية النهرية وفي الحصى على ارتفاع يتراوح بين ١٠ و ٢٠م، فوق المستوى الحالي للنهر (٥٣). ونجد وادي نهر النيجر قريبا من بوسا صناعة تتمثل خاصة في حصى مهياة، لكن لا أثر فيها للمناقر، ورغم ذلك فقد اعتبرت هذه الصناعة معاصرة للسنغونية وذلك لأسباب جيولوجية (٥٤) وقد اكتشفت مجموعة الأدوات السنغونية مبشرة عند أسفل سلسلة جبال أتاكورا — الطوغو، وفي جنوب غانا (٥٥) وتلك الصناعات نادرة في شمال غانا لكنها وافرة نسبيا في جنوبها.

وفي غير هذه الأمكنة من إفريقيا (٥٦) نسبت إلى السنغونية تواريخ ترجع إلى ٥٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ومن الملاحظ أن المركب الصناعي السنغوني يمكن أن يدل على الحاجة إلى التأقلم مع منطقة أكثر اشجارا وذلك في فترة أصبحت أكثر جفافا (٥٧). ان الصناعة السنغونية في إفريقيا

(٤٦) ديفيس، ١٩٦٤ ص ٨٣، ٩٧، ١١٤، ١٣٧ — ١٣٩.

(٤٧) كلارك، ١٩٧١.

(٤٨) واي — أوغوس، ١٩٧٣.

(٤٩) كلارك، ١٩٦٧، الأطلس.

(٥٠) كراي وآل، ١٩٤٨، ص ٤١٣.

(٥١) ديفيس، ١٩٦٤، ص ١١٥، هوغو، ١٩٦٤ ص ٥.

(٥٢) ديفيس، ١٩٦٤، ص ١١٣ — ١١٤.

(٥٣) ديفيس، ١٩٦٤، ص ١١٣ — ١١٤، سوبر، ١٩٦٥ ص ١٨٤ — ١٨٦.

(٥٤) سوبر، ١٩٦٥، ص ١٨٦ — ١٨٨.

(٥٥) ديفيس، ١٩٦٤، ص ٩٨ — ١٠٠.

(٥٦) كلارك، ١٩٧٠، ص ٢٥٠.

(٥٧) كلارك، ١٩٦٤، ص ٢٣، ١٣٧ — ١٤٢.

الغربية لم تؤرخ البتة بحسب الكربون ١٤. وان المواد السنغونية الموجودة بنفق خط السكة الحديدية في أسوكروكونا في غانا الجنوبية هي في مجموعها، سابقة لبيتش ٤، (Beach 4) من تصنيف دفيس الذي يعتبره هونفسه مقابلا على الأقل لما بين مراحل غوتفاخ (Gottweig) (٥٨) وهي وضعية طبقية لا تزودنا بشيء بعد ذلك التاريخ المنتظر. وإذا كانت الحصاة الواقعة على ارتفاع يتراوح بين ٢٠ و ١٠م، من النيجر قد رسبت، قريبا من جبة عندما ناسب مجرى النهر مستوى البحر العالي لـ «أوبوانشيريان» (٥٩) فإن وجود أدوات سنغونية غير مدرجة يشير الى تاريخ قريب من ٣٠٠٠ سنة، في حين أن العينات المدرجة يمكن أن تكون معاصرة لها أو هي أكثر قدما منها. وقد يدل التوزيع الجنوبي للسنغون في وسط غابى وعلى طول الأنهار، على نمط من الحياة هو بمثابة رد فعل على الجفاف الذي حصل منذ ٤٠٠٠ سنة. وقد بدأت بحيرة التشاد، بعد ذلك تمتلئ وتتسع ومن المحتمل أن تكون الحيوانات التي كانت تصطاد من قبل قد أصبحت أكثر ندرة وذلك بالتجائها الى الجنوب، وأن يكون تجدد صنع المناقر قد استجاب لحاجة الإنسان الى قلع الجذور والعساقل أو الى حفر الخنادق ليصطاد الحيوانات التي أصبح صيدها عسيرا.

### العصر الحجري الوسيط في افريقيا الغربية

ان مصطلح «العصر الحجري الوسيط» يطلق للدلالة على مجموعة من المركبات الصناعية الممتدة تقريبا بين ٣٥٠٠٠ و ١٥٠٠٠ سنة.

فالصناعات المنتمية الى العصر الحجري الوسيط في افريقيا الغربية معروفة معرفة ناقصة عما هي عليه في بقية افريقيا الواقعة جنوب الصحراء. ولقد اكتشف عدد من العينات النادرة من نوع اللومبي في غانا (٦٠) وفي نيجيريا (٦١)، الا أنه لم يوفر أحد منها توضيحات طبقية مرضية عن عمرها. واكتشفت على هضبة جوس وشمالها بأعلى روابي ليروس مجموعات هامة من الآلات تتميز بـ «أعقابها ذوات الوجوه» صنفت على أنها من العصر الحجري الوسيط (٦٢). وهي موجودة في نوك ضمن الطبقات بين الحصاة القاعدية المشتملة على أدوات أشولية وبين الترسبات الأكثر حداثة التي تحوي عناصر من ثقافة نوك (٦٣) وليست لها علاقة بالمركب الصناعي اللومبي بل هي قريبة من صناعات العصر الحجري القديم الوسيط بافريقيا الشمالية، من النوع الشبيه بالموستيري عموما، وقد تعكس نمطا من العيش أكثر تأقلا مع السبابس. وهناك إشارة الى صناعات مشابهة في غانا وفي ساحل العاج (٦٤) وفي داكار (٦٥) وفي الصحراء الوسطى (٦٦) ولقد وفرت قطعة خشب وجدت

(٥٨) دفيس، ١٩٦٤، ص ٢٣، ١٣٧ - ١٤٢.

(٥٩) فور والوار، ١٩٦٧.

(٦٠) دفيس، ١٩٦٤، ص ١٠٨ - ١١٣.

(٦١) لقد اكتشفها بالسطح بمنطقة أفيكبو الاستاذ د. د. برتل وهي من مجموعات جامعة نيجيريا في نسوكا.

(٦٢) [سوبر، ١٩٦٥، ص ١٨٨ - ١٩٠.

(٦٣) أ. ب. أ. ب. فاغ ١٩٥٦ - الندوة العالمية الثالثة لغربي افريقيا، ص ٢١١ - ٢١٤.

(٦٤) دفس، ١٩٦٤، ص ١٢٤ - ١٤٢، كلارك، ١٩٦٧، الأطلس.

(٦٥) كراباي، وآل، ١٩٤٨، كراباي، ١٩٥١، ريشان، ١٩٥٥.

(٦٦) كلارك، ١٩٦٧، الأطلس.



- ١) حجر رحي مكسور، من الصخر البركاني، عثر عليه في موقع العصر الحجري الحديث في نفور. متحف الايفان، (تصوير أ. دياغني).
- ٢) دلائل تعلق في العنق من حجر البازلت، عثر عليها في موقع الحجري الحديث في «بات دوا». متحف الايفان (تصوير أ. دياغني).

في منجم زني في شمال نيجيريا، وهو أحد المواقع الغرينية المحتوية على آثار شبه موسيرية تأريخا يقدر بـ  $3485 \pm 110$  سنة قبل الميلاد. على أن الوضعية الدقيقة لقطعة الخشب تلك بالنسبة للأدوات الحجرية لم تضبط ضبطا دقيقا، ويعتبر تأريخها أكثر حداثة بقليل مما ينتظر من صناعة من هذا النوع (٦٧).

وفي تيمصاص قريبا من ساحل السنغال، أظهرت حفريات أثرية، من بين ما أظهرت حدودا ذات وجهين مدجة بأدوات من نوع أدوات «العصر الحجري القديم المتوسط والأعلى». وقد اعتبرت في البداية على أنها تشكل مزيجا من عناصر تنسب إلى العصر الحجري الحديث ومن عناصر أكثر قدما (٦٨). على أن دراسة أكثر دقة أظهرت أن تلك الحدود ذات الوجهين تشكل جزءا لا يتجزأ من صناعة موجودة في الطبقات الجيولوجية لا تشتمل على عناصر أخرى من العصر الحجري الجديد ولذلك اعتبرت تلك الصناعة مثالا للصناعة شبه الموسيرية المتميزة بعناصرها المحلية والتي تعوض في هذا المكان العاطري الذي يوجد نحو الشمال (٦٩). إن هذا المركب الصناعي ينتمي إلى نهاية العصر الحجري القديم المتوسط في الجزائر، وهو يمتد نحو الجنوب في الصحراء. وقد رأى فيه «دفيس» في إفريقيا الغربية امتدادا يسميه «العاطري الغيني» (٧٠)، إلا أن حججه ليست مقنعة، وقد أصبحت موضع شك عند أغلب الباحثين (٧١).

## العصر الحجري المتأخر

إن العصر الحجري المتأخر يتميز في كامل إفريقيا تقريبا ب بروز أدوات حجرية صغيرة جد سميت بسبب ذلك «الحجارة الصغيرة». إنها عبارة عن أشياء صغيرة نحتت بعناية لتتشب في قسبة سهام تشكل جزءها الحاد والسائك أو لتتجمع على أداة أخرى متعددة العناصر وهي تبين أن أصحابها كانوا يملكون القوس وأن الصيد به كان يلعب دورا مهما في اقتصادهم.

إننا في هذا الصدد نتحرج من استعمال «عصر حجري جديد» ومن غموض دلالاته ولذا يستحسن بالنسبة إلى إفريقيا أن نتجنب استعماله كلما أمكنا ذلك لا سيما فيما يتعلق بإفريقيا جنوب الصحراء (٧٢). إلا أنه يجب أن نأخذ بعين الاعتبار استمرار هذا الإستعمال في إفريقيا الشمالية وفي الصحراء. وفي الصحراء نجد عددا كبيرا من الصناعات سميت بمجموعة أدواتها «بالحجرية الجديدة» ويرجع تأريخها في المنطقة الوسطى إلى الألف السادسة قبل الميلاد. إن الظروف المناخية كانت أكثر رطوبة مما هي عليه اليوم، فكان أن ظهرت نباتات من نوع نبات البحر الأبيض المتوسط، وسكان رعاة، بقطع النظر عن أن أولئك الرعاة كانوا كذلك يتعاطون الفلاحة أو

(٦٧) برندنس، وآل، ١٩٦٥.

(٦٨) داغان، ١٩٥٦.

(٦٩) غيبو، ودوكان، ١٩٦٩.

(٧٠) دفيس، ١٩٦٤ ص ١١٦ - ١٢٣.

(٧١) هوغو، ١٩٦٦، أعمال المؤتمر الإفريقي الخامس.

(٧٢) بيشوب وكلاك، ١٩٦٧ ص ٨٩٨ قرار (ك)، كلاك، ١٩٦٧، خلفية التطور بإفريقيا. شو، ١٩٦٧ ص ٣٥ قرار ١٣،

مونسن، ١٩٦٨، ص ١١. والملاحظ أن بعض المؤلفين لا يوافقون على هذا الرأي.





- (١) فؤوس مصقولة من حجر  
الدولريت، من فترة «بل اير»،  
متحف الايفان، (تصوير أ. دياغني).
- (٢) وعاء فخاري من دياكيتي، من  
العصر الحجري الحديث الفترة المسماة  
«بل اير». متحف ايفان (تصوير أ.  
دياغني).



لم يكونوا (٧٣). ولقد ثبت وجود الفلاحين في برقة (ليبيا) في سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد (٧٤). إلا أنه قد ثبت الآن أن «العصر الحجري الجديد» ذا التقاليد القابسية الذي انتشر كثيرا في الشمال الغربي من إفريقيا والذي جاء على أثر زراعات العصر الحجري القديم اللاحق لم تكن له تقاليد فلاحية رغم أنه يمتد إلى أبعد من الألف الثانية قبل الميلاد (٧٥). لقد مضى الزمن الذي صنفت فيه اكتشافات في روفيسك بالسنگال ضمن العصر الحجري الجديد ذي التقاليد القابسية (٧٦) لكنه من الأفضل أن نعدها اليوم تمثل قسما من امتداد الحجارة الصغيرة المنتشر في إفريقيا الغربية.

إن امتداد هذه الصناعة الحجرية الصغيرة أو (الحجارة الصغيرة الغينية) منتشر أيضا خارج هذه الحفریات القرية من داکار، في النصف الشرقي من إفريقيا الغربية (٧٧) إلا أنه في النصف الغربي لا أثر في المواقع الموجودة أكثر نحو الجنوب في منطقة ليبيريا وسيراليون وجنوب جمهورية غينيا. لقد أنجزت الحفریات الأثرية الأولى في غينيا في عدد من الكهوف والمخابئ تحت الصخور ويعود بعضها إلى سبعين سنة مضت (٧٨). ووجدت في بعض المواقع قطع ذات وجهين تذكر بأشكال أقدم من العصر الحجري المتأخر، وقد رأى فيها البعض معازق، وهوما يعتبر شهادة غير مباشرة على وجود الفلاحة. إن هذا الاحتمال لا يجوز أن يرفض، لأن الرز كان في الماضي يعوض الانيام باعتباره زراعة رئيسية في النصف الغربي من إفريقيا الغربية. إن هذا الرز الإفريقي (أوريزا غلابرما) قد يكون تأقلم في منطقة دلتا نهر النيجر الأوسط (٧٩). إن بعض القطع العريضة من الصوان ذات المحيط المنحوت تحتنا خشنا (٨٠) تعتبر معازق ودليلا على قيام الفلاحة في غانا إلا أن التواريخ والمقاربات مفقودة. إن أغلب المواقع في جمهورية غينيا قد وفرت حجارة صغيرة وفؤوسا من الحجار المصقولة وأرجاء وفخارا. وذلك شأن موقع في غينيا بيساو (٨١). ويوجد عدد من المواقع الغنية يشتمل على الفخار رغم أنه لا يظهر في كهف كامبون إلا في الطبقة العليا (٨٢). وأظهرت الحفریات التي أنجزت في المخابئ الواقع تحت الصخر في بلاندي في الطرف الجنوبي الشرقي من جمهورية غينيا، أظهرت صناعة تشتمل على فؤوس حجرية وقطع فخار مختلطة بأدوات ذات وجهين كبيرة تذكر بمشيلاتها في كهوف كنديا وفوطا جلون، لكنها لا تشتمل على العنصر الحجري الصغير (٨٣). فلا أثر للحجارة الصغيرة أيضا في كهف ينجما في سيراليون حيث

(٧٢) هوغو، ١٩٦٣، ص ٢٤٨ - ١٥١، موري، ١٩٦٥، كامبس، ١٩٦٩.

(٧٤) ماك بورني، ١٩٦٧، ص ٢٩٨.

(٧٥) روي، ١٩٧١.

(٧٦) فوري، ١٩٤٦، أيمان، ١٩٥٧، ص ٢٢٩ - ٢٣٣، دقيس، ١٩٦٤، ص ٢٣٦.

(٧٧) هوغو، ١٩٥٧، ١٩٦٤، ص ٤ - ٦، شو، ١٩٧١، تاريخ إفريقيا الغربية، ص ٦٢.

(٧٨) هامسي، ١٩٠٠، غيهان، ١٩٠٦، ١٩٠٩، ديسبلان، ١٩٠٧، نشرية الجمعية الجغرافية. هيو، ١٩١٢، هوبرت، ١٩٢٢.

بروي، ١٩٣١، دلكرو وفوري، ١٩٣٩، شو، ١٩٤٤.

(٧٩) برترن، ١٩٦٢، ص ١٩٧ - ١٩٩.

(٨٠) دقيس، ١٩٦٤، ص ٢٠٣ - ٢٣٠.

(٨١) ماتوس، ١٨٥٢.

(٨٢) هامسي، ١٩٠٠.

(٨٣) هولاس، ١٩٥٠، ١٩٥٢، هولاس وموني، ١٩٥٣.

كشف المستوى الأكثر قدما عن صناعة صغيرة من شظايا الصوان قارنها الباحث بصناعة إيشنغو على بحيرة إدوار. (٥) في المستوى الأوسط نجد مناقر ومنعايق ذات وجهين تشبه قسما من أدوات الكهوف الغنية، قد عدها الباحث مركبا صناعيا لومبيا. وأخيرا، وفر المستوى الأعلى فؤوسا من الحجر وفخارا حددت تواريخها بواسطة تأريخين بالإضاءة الحرارية في حوالي سنة ٢٠٠٠ و ١٧٥٠ قبل الميلاد (٨٤). ومهما يكن من أمر فإن عنصرًا جبريا صغيرا قد ظهر في مخاين تحت صخرين آخرين استكشفا نحو أقصى شمال سييرا ليوني في ياغالا، وكامباي. ان التواريخ بالراديو كربون تشير هنا الى مرحلة من العصر الحجري المتأخر تمتد من -٢٥٠٠ سنة الى القرن السابع الميلادي (٨٥).

يبدو إذن ان نوعا من تقاليد العصر الحجري الوسيط (الذي يمكن ان يكون وجد في داكار وباماكو) قد تواصل من غير ان يكون تغير نسبيا في المواقع الواقعة جنوبا، وأنه لم يتبن ولم يخترع تقنية الحجارة الصغيرة. ويحتمل جدا أن تكون أسباب ذلك أسبابا بيئية نظرا الى أن تقنية الحجارة الصغيرة مرتبطة باقتصاد منطقة السباسب، حيث كان للصيد دور أساسي. فإذا ما سجلنا توزيع المواقع التي ليس بها حجارة صغيرة (كوناكري - يتغاما - بلاندي) ورسمنا خطا فاصلا بين تلك المواقع والمواقع التي بها ذلك النوع من الحجارة (كامباي - ياغالا - كنديا - نهاميسيري) فإنا نلاحظ أن هذا الحد قريب جدا من الحد الذي يفصل بين الغابة ومنطقة السباسب. ان التقنيات الجديدة للفؤوس المصقولة وللأدوات الفخارية قد وصلت الى هذه المنطقة فيما بعد. و يضبط تاريخ ظهورها المؤثرات بحوالي منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد، وهو ما يوافق الزمن الذي تم فيه جفاف الصحراء. فمن المعقول إذن ان تقرب بين الحدين وأن نرى في ذلك أثر هجرة السكان خارج الصحراء. وبالرغم من أنه لم يتوفر لنا في هذا الصدد أي أثر عظمي، فمن المحتمل أن يكون أولئك السكان قد أخذوا معهم الماشية، ولعل منها الأصل القديم لسلالة نداما من فوطا جلون التي هي محصنة ضد داء المثقبيات.

ومن الملاحظ في كامل بقية إفريقيا الغربية تقريبا ان صناعة الحجارة الصغيرة تسبق تقنيات صنع الفخار وفؤوس الحجارة المصقولة، وهذه الأدوات يبدو أنها انضافت الى التقاليد الحجرية الصغيرة ولم تعوضها. وفي كورونكوركال، بالقرب من باماكو، نجد طبقة سفلية ذات حجارة صغيرة وأدوات عظمية خشنة تحت طبقة أخرى ذات حجارة صغيرة أكثر اتقانًا. كما نجد فؤوسا من الحجر المصقول وفخارا (٨٦). وان مخايناء روب (٨٧) الواقعة تحت الصخور في نيجيريا على هضبة باوشي، ومخايناء ايوايليرو في المقاطعة الغربية قد كشفت عن مستويات حجارة صغيرة بدون فخار وبدون فؤوس مصقولة تحت طبقات من صناعات حجارة صغيرة. وفي ايوايليرو، وفر الراديو كربون تاريخا قدر بـ ٩٢٠٠ سنة قبل الميلاد، وذلك قريبا من قاعدة الطبقة السفلية. ويبدو ان الانتقال الى الطبقة العليا لا يكاد يتجاوز سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد (٨٨). وفي أولداويو، في كهف

٥ هذا ما في المطبوع.

(٨٤) كون، ١٩٦٨.

(٨٥) أثرتن، ١٩٧٢.

(٨٦) زموسكي، ١٩٥٦.

(٨٧) ب. أ. ب فاغ، ١٩٤٤، ايو، ١٩٧٢، مجلة الآثار للغرب الافريقي، روسنفلد ١٩٧٢، فاغ ١٩٧٢.

(٨٨) شو، ١٩٦٩، الاعمال الأولى للمعهد العالمي الافريقي.

ماجيرو، عثر على صناعة للحجارة الصغيرة لا أثر فيها للفخار وكذلك للفؤوس الحجرية المصقولة، إلا أن العينة ضئيلة وليست مؤرخة (٨٩). وفي غانا أيضا كشف كهف بوسمبرا، في أبينفي، عن مجموعة من الفخار وأدوات الحجارة الصغيرة والفؤوس المصقولة، إلا أنها ليست مؤرخة (٩٠). و يوجد في غانا، مظهر متخلف من العصر الحجري المتأخر يدعى (ثقافة كينتانبو) فهذه الثقافة التي خلفت مرحلة سابقة متميزة بصناعة الحجارة الصغيرة وبالفخار، قد توفرت فيها الفؤوس المصقولة والأساور الحجرية (تعرف بحسب المواقع «الحجرية الجديدة» الصحراوية)، و يوجد بها أيضا نوع خاص من المهار يس المنحوتة. وتعود المرحلة القديمة (بونبون (Punpun) إلى ١٤٠٠ سنة. ولقد وفرت المرحلة الحالية بقريات مؤهلة وماعزا قزما يقرب جنسها من جنس الماعز القزم القصيرة القرن من افريقيا الغربية (٩١). وقد كانت الحجارة الصغيرة موجودة حتى في موريتانيا الجنوبية في المرحلة الأكثر قدما (أكرجيت) من مقطوعة تيشيت وذلك في نفس الوقت الذي وجد فيه الفخار والفؤوس الحجرية، ولكنها اضمحلت في جميع المراحل الموالية (٩٢).

إن الحالة تبدو غير مختلفة كثيرا في المرحلة الأكثر حداثة من العصر الحجري المتأخر، وذلك في الحواشي الجنوبية من منطقتنا من الساحل، مباشرة نحو الجنوب من القفر الصحراوي، هذا مع ملاحظة أنواع من التكيف في الثقافة المادية، بحسب ما تقتضيه البيئة المحلية. وكان السكان الرعاة في كركر يكينشات شمال غاوا، بين ٢٠٠٠ و ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد يعيشون في أماكن تعلق مستوى مجاري الماء الفصلية، وكانوا يعرفون الفخار كما كانت لهم أجهزة حجرية تشمل الفؤوس الحجرية المصقولة والحدود من السهام ذات الوجهين من النوع الصحراوي (لكن قاعدتها ليست محدودية) (٩٣) ثم بعض الحجارة الصغيرة. ويعتبر صيد الأسماك مساهمة هامة بالنسبة للاقتصاد، مثلما يشهد بذلك كثيرا الجنوب الصحراوي «بالعصر الحجري الجديد الحديث» (٩٤) ونجد بشمال نيجيريا الشرقي في دائما وذلك بعد ألف سنة، حالة مشابهة تقريبا. ويحتمل أن يكون رعاة البقرات قد زرعوا الذرة بالطين الخصب الذي بقي بعد انحسار بحيرة تشاد، وإن كانوا قد استعملوا الفخار والفؤوس المصقولة وصناعة كبيرة من الأشياء العظمية. وكانوا يجهلون صنع الحجارة الصغيرة (٩٥).

و يوجد مقابلة لذلك تأقلم مع محيط بيئوي مخالف تماما وذلك على طول الحاشية الجنوبية من افريقيا الغربية على الساحل الاطلسي. هناك كان سكان العصر الحجري المتأخر يستثمرون الأصداف المتوافرة بالبحيرات الشاطئية ومصببات الأنهار سواء لتكون طعمة لصيد الأسماك أو

(٨٩) و ليت، ١٩٦٢، أعمال المؤتمر الافريقي الرابع.

(٩٠) شو، ١٩٤٤.

(٩١) دفييس، ١٩٦٢، ١٩٦٤ ص ٢٣٩ - ٢٤٦، ١٩٦٧ غربي افريقيا قبل الأوربيين، ص ٢١٦ - ٢٢٢، فلايت، ١٩٦٨،

١٩٧٠: كارتز وفلايت، ١٩٧٢.

(٩٢) مونسن، ١٩٦٨، ١٩٧٠.

(٩٣) موتي، ١٩٥٥ كركر يكينشات، سميث، ١٩٧٤.

(٩٤) مونتود وموتي، ١٩٥٧.

(٩٥) كونا، ١٩٦٧، ١٩٦٩، ١٩٧١.

للتغذي بها. وكانوا يتركون أكداً كبيرة من الاصداف. ولقد ثبت بساحل العاج أن تلك الحلزونيات وجدت منذ ١٦٠٠ سنة قبل الميلاد إلى القرن السابع عشر الميلادي (٩٦). ولقد اكتشف باحداها بالسنگال فأس منحوت بالعظم. (٩٧). إن المواقع المشابهة التي كانت محل دراسة بمنطقة كازامانس تكون موالية للعصر الحجري (٩٨).

وقد وجد في أفكوجونوب نيجيريا موقع فيه فخار وفؤوس حجرية مصقولة وصناعة حجرية لا حجارة صغيرة بها. أن التاريخ بالراديو كربون ضبط تلك الصناعة بين ٣٠٠٠ و ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد (٩٩) ولقد ميزت أربع مراحل. في فرنندوبو في مجموعة من العصر الحجري المتأخر (١٠٠) يتشمل على الفخار والفؤوس الحجرية المصقولة ولا تشتمل على الحجارة الصغيرة. وضبط التاريخ بالراديو كربون بالقرن السادس الميلادي، بالنسبة للمرحلة الأكثر قدماً، وذلك مما يجعل تلك المقطوعة متأخرة، إن لم نخطئ في ذلك. ويقترب الشكل الحزم للفؤوس من شكل الفؤوس الآتية من نيجيريا الجنوبية الشرقية (١٠١) ومن الكرون وجهورية تشاد (١٠٢).

وختاماً يمكن أن يقسم العصر الحجري المتأخر بإفريقيا الغربية إلى مرحلتين: المرحلة ١ التي تبدأ في ما لا يزيد على ١٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وهي تتميز بمظهرين: المظهر (أ)، وهو يحوي الصناعات ذات الحجارة الصغيرة المتصلة بالصيد بالساسب. والمظهر (ب) الذي ينتمي إلى المنطقة الغاية بالطرف الجنوبي الشرقي من إفريقيا الغربية، وهو لا يحوي حجارة صغيرة. أما المرحلة ٢ فهي تبدأ بعد ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد بقليل، ويمكن أن نميز بها أربعة مظاهر، وهي المظهر (أ) الذي يضيف الفخار والفؤوس الحجرية المصقولة إلى الحجارة الصغيرة في أكبر جزء من الساسب. والمظهر (ب) بالساحل يشمل صيد الأسماك في اقتصاده، ولا يوجد فيه عملياً حجارة صغيرة، إلا أنه يحتوي على صناعة عظمية فيها مخاطف وصنارات الخ.. والمظهر (ج) وهو ساحلي، وقد تأقلم اقتصاده مع استثمار موارد البحيرات الشاطئية ومصببات الأنهار. والمظهر (د) المتصل بالمحيط الغابي وهو يعرف الفخار، والفأس المصقول، ولا توجد به حجارة صغيرة.

وخلال الألفية الثالثة، لما هاجر رعاة الصحراء لأول مرة نحو الجنوب، حيث اتصلوا بالصيادين صناعات الحجارة الصغيرة، كانوا آنذاك قد هاجروا من منطقة وفرت لهم الصوان بكثرة إلى منطقة أخرى كان يستحيل فيها صنع هياكل وشوائك السهام إلا على المرو أو على كل حجر صعب جداً لكي تنحت منه حدود ذات وجهين، ولذلك استنقصته العين العصرية من حيث الجمال. ويبدو أنهم اتخذوا تقنية الحجارة الصغيرة المحلية لتسليح و«تشويك» سهامهم، معتبرين بما لها من نجاعة.

(٩٦) موني، ١٩٧٣، السن، ١٩٧٣.

(٩٧) جوار، ١٩٤٧، موني، ١٩٥٧، ١٩٦١، ص ١٥٦ - ١٦٢.

(٩٨) لئراس دي سين، ١٩٧١.

(٩٩) هرتل، ١٩٦٦، ١٩٦٨.

(١٠٠) مارتن دي مليون، ١٩٦٥.

(١٠١) كندى، ١٩٦٠.

(١٠٢) كلارك، ١٩٦٧.

ان الذين بلغوا منهم نترسو في غانا الوسطى، وذلك في النصف الاول من الألفية الثانية، وحافظوا بها على حدود سهامهم ذات الوجهين الخاصة، كانوا يمثلون حالة استثنائية (١٠٣). ولئن كانت هذه الهجرة للسكان الصحراويين نحو الجنوب تمثل تسرب عنصر جديد الى السكان الأصليين، فانه لم يكن لها حسبا يبدو أثر مباشر على النوع البدني، لأن النوعين من السكان كانوا من لون أسود (١٠٤) فان كان المهاجرون يتكلمون، كما يبدو ذلك ممكنا، لغة ما قبل النيلي الصحراوي فلا يستبعد ان تكون الجماعات الصغيرة قد فقدت لهجاتها الخاصة واستعملت لغة النيجر- كنغو الغالبة محليا. ولم تستطع الا مجموعات أصلية مثل أسلاف سنغاي المحافظة على لغتها الخاصة (١٠٥).

## اقتصاد الانتاج

ن الانتقال من الوضع الذي كان فيه الانسان يخضع للصيد وصيد الاسماك وجني العنبات البرية الى زرع النباتات وتربية الماشية، يعتبر أهم خطوة خطاها أسلافنا في الألفيات العشر الأخيرة. ولم تحدث تلك الثورة في مكان واحد من العالم لتنتشر في كل مكان آخر، بل حدثت بعدد محدود من «المواطن» بأوروبا وآسيا الغربية وإفريقيا الشمالية الشرقية. وكان أهم موطن بالمنطقة الجبلية من الأناضول، وبإيران وبشمال العراق. في تلك الأماكن نمت زراعة القمح والشعير وتأهيل الأغنام، والماعز، والبقر. ثم أدخل فيما بعد الانتاج الغذائي بالأودية النهرية الكبرى مثل دجلة والفرات، والنيل والهندوس، وتحسن بالاعتماد على تصريف المياه والسقي (١٠٦). وأهلت في مصر بالألفية الخامسة، الغنميات والبقرات وكانت الحبوب مزروعة بها (١٠٧). ولنا الآن الحجة على أن الماشية قد أهلت من قبل بالأراضي المرتفعة الصحراوية، وتوجد قرائن - وان كانت ضئيلة - على زراعة الحبوب (١٠٨). وكما يشهد بذلك وادي النيل، فالصعوبة الموجودة لزراعة الحبوب بإفريقيا جنوب الصحراء، ناشئة عن كون النباتات المزروعة الأكثر قدما مثل القمح والشعير، كانت مرتبطة «بأمطار الشتاء» ولا يمكن لها أن تنصب الا بصعوبة، جنوب الجهة المدارية، بمنطقة «الامطار الصيفية». ولقد كانت الضرورة تدعو الى تأهيل النجيليات البرية المناسبة بعين المكان ولذلك زرعت الذرات الافريقية. وكان أهم تلك النجيليات الذرة ذات اللونين أو ذرة غينيا التي زرعت في النصف الاول من الألفية الثانية بالمساحة الموجودة بين الصحراء والسباسب وبين النيل وبحيرة تشاد (١٠٩).

(١٠٣) ديفيس، ١٩٦٦ أعمال المؤتمر الافريقي الخامس، ١٩٦٧ مجلة (أسيكوا) ١٩٦٧ إفريقيا الغربية قبل الأوربيين ص ١٦٣، شو ١٩٦٩، الانثروبولوجيا الحديثة ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(١٠٤) شملا، ١٩٦٨، بروثوال وشو، ١٩٧١.

(١٠٥) غرينبرغ، ١٩٦٣.

(١٠٦) غراهام كلارك ١٩٦٩، ص ٧٠ وما بعدها أوكو، ودميلي ١٩٦٩.

(١٠٧) كاتن - تمسن وغرندرن، ١٩٣٤، سدن ١٩٦٨ ص ٤٩٠، وندورف وآل ١٩٧٠ ص ١١٦٨.

(١٠٨) هوري، ١٩٦٥، كميس، ١٩٦٩.

(١٠٩) دي فات وهرنز، ١٩٧١.



● وعاء فخاري ذوقاق مستومن عصر  
الحديد. متحف الألفغان (تصوير  
أ. دباغني).

ولقد أهلت نجيليات برية أخرى وفرت الذرة البرية والذرة المقشورة أو «الذرة الأصبعية» ولقد ذكر الرز الافريق سابقا (١١٠) ونجد في موريتانيا الجنوبية، في ضواحي تشيت آثار استهلاك حبوب النيجيليات المحلية، ولكن في حوالي ١١٠٠ سنة قبل الميلاد، تحولت نسبة الذرة المقشورة من ٥ الى ٦٠ في المائة (١١١) وفي المناطق الأكثرطوبة من افريقيا الغربية يعتبر الأنعام أهم عسقله، وقد زرعت (١١٢) أنواع افريقية كثيرة منها. وبالرغم من ان تلك الزراعة يمكن ان تعود الى ما يقرب من خمسة آلاف سنة، فلم تتوفر لنا الى الآن المعطيات الأثرية أو النباتية للدلالة على ذلك. ويمكن أن يساعد على تفسير كثافة سكان نيجيريا الجنوبية (١١٣) التاريخ المديد لزراعة الأنعام المرتبط بالمساهمات الغذائية الاضافية التي أتت بها غنبيات النخيل الزيتي والتي كانت محمية أو مخدومة.

وبالرغم من ان انتشار الانتاج الغذائي يعتبر مقدمة لل عمران، فانه لا يقود حتما بنفسه الى نمو المدن والأمصاير. ويبدو ان عناصر أخرى لها دخل في القضية ومن ذلك الازدياد الى حد معين في الضغط السكاني والنقص في الأراضي المزروعة (١١٤). ولقد ازداد أثر المماريا بافريقيا جنوب الصحراء بعد ان استصلحت الارض، ووجدت جماعات قارة وافرة. فكان تضخم السكان الناتج عن اعتماد الفلاحة أكثر ببطأ مما كان منتظرا (١١٥). وكانت الأراضي الصالحة للفلاحة متوفرة بالمناطق جنوب الصحراء في ذلك العهد (١١٦). فلقد وجد في بداية الألفية الاولى من الميلاد اقتصاد زراعي كان يكفي لسد حاجات ممالك قديمة مثل ممالك غانا، ومالي، وسنغاي وبنان وأشنتي.

## عهد المعدن

بالرغم من الدعوة في أوروبا، وذلك منذ وقت طويل ولأسباب منهجية صالحة، الى ترك نظام «العصور الثلاثة» أي عصر الحجر، وعصر البرنز وعصر الحديد (١١٧)، فان سهولته ما انفكت تمدد في استعماله.

ان افريقيا الغربية في مجموعها لم تعرف العصر البرنزي الا قليلا. ولقد تجلّى مظهر من مظاهره الآتية من اسبانيا والمغرب في موريتانيا حيث اكتشف ١٣٠ إناء من النحاس وحيث كانت تستغل مناجم أكجوجت الغنية التي أرخت بالكربون ١٤ بالقرن الخامس قبل الميلاد. ولقد وجدت أيضا

(١١٠) إيرترز، ١٩٥١، ١٩٥٨، ١٩٧٢.

(١١١) امنسن، ١٩٦٨، ١٩٧٠.

(١١٢) كرساي، ١٩٦٧، ١٩٧٢.

(١١٣) شو، ١٩٧٢، ص ٢٧ - ٢٨، ريس، ١٩٦٥.

(١١٤) واب، ١٩٦٨.

(١١٥) لفنتفستون، ١٩٥٨، فيسنفلد، ١٩٦٧، كورساي والكسندر، ١٩٦٨.

(١١٦) شو، ١٩٧١، مجلة تاريخ افريقيا ص ١٥٠ - ١٥٣.

(١١٧) دنبال، ١٩٤٣.





● (١) منطقة الاحجار الاثرية الضخمة  
السنغامبية، موقع تيبكيي بوتورا في  
'السنغال. في مقدمة الصورة «مدفن  
الملك». متحف الايفان (تصويراً.  
دياغني).

● (٢) تمثال صغير مشاكل للانسان،  
من ثيارويي في السنغال. متحف  
الايفان (تصويراً. دياغني).



حدود سهام منبسطة من النحاس في أماكن عديدة من بلاد مالي وبالجانب الشرقي من الجزائر (١١٨).

لماذا لم تعرف إفريقيا الغربية عصر البرنز؟ ولماذا لم تتأثر أيضا بالحضارة المصرية القديمة؟ توجد الأسباب جزئيا في كون العدانة، والكتابة، والمهندسة المعمارية للبناءات الحجرية واستعمال العجلة، ومركزية الحكومة المستقرة استقرارا قويا بمصر في الألفية الثالثة، كل ذلك حصل في العهد الذي جفت فيه الصحراء جفافا نهائيا. ولذلك هاجر السكان من الصحراء التي لم تعد صالحة لتكون رابطا غير مباشرين مصر وإفريقيا ولم تنعقد تلك الرابطة من جديد إلا بعد ثلاثة آلاف سنة بالاعتماد على الجممل. وتوجد أسباب أخرى تعود إلى وضع أسس اقتصاد فلاحي بإفريقيا الغربية وذلك في فترة متأخرة وبطريقة بطيئة. وذلك ما تطرقنا إليه أعلاه. ولقد أراد بعض المؤرخين إبراز مآثر إفريقيا الغربية، ومجدها فراحوا يؤكدون على علاقاتها بمصر القديمة لكي ينعكس مجد مصر عليها (١١٩)، ولكن هذا العمل غير ضروري (١٢٠).

### بداية عصر الحديد

(حوالي ٤٠٠ سنة قبل الميلاد، إلى ٧٠٠ سنة ميلادية)

يبدو أن قطاعات عديدة بإفريقيا الغربية ظلت، طيلة بداية عصر الحديد، معزولة عن الخارج، وكانت الاتصالات في أغلب الأحوال مع العالم العتيق المعروف تجري بصفة غير مباشرة، متقطعة، لا يكاد يُعْتَدُّ بها (١٢١). ولقد ثارت زوبعة كلامية حول رحلة هانن المزعومة، ويحتمل أن يكون ما حكى عنها مختلفا (١٢٢). أن ما كتبه هردوت عن «التجارة الصامتة» التي كان يقوم بها القرطاجنيون، كانت بدون شك تعتمد على وقائع (١٢٣) ولا شك أن بعض الأسباب دعت للاتصال بالعالم الخارجي، لأن معرفة الحديد قد بلغت إفريقيا في ذلك العهد. فلا يتعلق الأمر باستيراد بعض الأشياء الحديدية فحسب، بل بمعرفة تحويل المعدن، وأن كان هذا لا يعتبر اختراعا، نظرا إلى أنه لم توجد من قبل مبادئ عدانة (١٢٤). فلقد درس بني جيريال الوسطى، في تاروغا، عدد من المواقع المعينة لصهر الحديد. وقد بين الكربون ١٤ تواريخ تتراوح بين القرنين الخامس والثالث قبل الميلاد (١٢٥) وتشهد حفريات جرت بمجالات سكنية من وادي النيجر، بوجود الحديد بالقرن الثاني قبل الميلاد (١٢٦) ويبدو حسب معارفنا الحالية أن تعلم إفريقيا الغربية لعدانة الحديد عائد

(١١٨) موتي، ١٩٥١، موتي وهلمنس، ١٩٥٧، لبيان، ١٩٧٠، ١٩٧١.

(١١٩) لوكاس، ١٩٤٨، ديوب، ١٩٦٠، ١٩٦٢.

(١٢٠) شو، ١٩٦٤ علم الآثار ونيجيريا ص ٢٤.

(١٢١) لور، ١٩٦٦ فرغن، ١٩٦٩، موتي، ١٩٧٠ النصور الحالية ص ٧٨ - ١٣٧.

(١٢٢) بكيان، ١٩٧١، موتي، ١٩٧٠، علم الآثار ١٩٧١ ص ٧٥ - ٧٧.

(١٢٣) هيردوت، ١٩٦٤، الكتاب ٤، ص ٣٦٣.

(١٢٤) ديفيس، ١٩٦٦، الانثرو بولوجيا الحديثة، شو ١٩٦٩ الانثرو بولوجيا الحديثة ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(١٢٥) ب. ا. ب فاغ، ١٩٦٨، ١٩٦٩.

(١٢٦) بريدي، ١٩٧٠، هرتل، ١٩٧٠، يامازاكي، وآل ١٩٧٣، ٢٣١ - ٢٣٢.

لا إلى مملكة المغرب كما ارتأى البعض (١٢٧)، بل إلى منطقة الشمال الإفريقي الخاضعة آنذاك لتأثير قرطاجنة. فعمل الكارامنت المستعملين للعربات، قاموا بدور الوساطة. إن الطريق من فزان إلى منعطف النيجر الأوسط (١٢٨)، ملئ بالرسوم الجدارية المثلثة للعربات. وتدل رسوم جدارية عثر عليها في الناحية الغربية، على طريق آخر للعربات، يربط المغرب بجنوب موريتانيا. فهل يمكن أن يكون ذلك ناشئاً عن ضغط أناس رحل كانوا يحسنون استعمال الحديد (إن النصل ذا الحد المعدني أصبح السلاح المشترك وحل محل القوس في الرسوم المنقوشة على الصخر) مما دعا أناس العصر الحجري الساكنين في تشيت (مرحلة أكنجير) إلى تحصين قراهم ابتداء من القرن الخامس والرابع قبل الميلاد (١٢٩). وخلال الحفريات التي أجريت في تاروغا، كان من جملة ما اكتشف فيها، تماثيل صغيرة من الطين الحمى من ذوات الأسلوب الخاص الذي أخذ منه اسم القرية النيجيرية (نوك) حيث وجدت لأول مرة، مثلها هو الشأن بالنسبة لأغليتها، وذلك إثر استغلال مناجم القصدير (١٣٠) ونظراً إلى كون الرؤوس أصلها من طسمي يحوي القصدير، فإنها الوحيدة التي تظل مصونة لأنها أصلب وأقوى من جميع أجزاء الجسم. ولقد كان من العسير في البداية أن نعلم أن كانت الأشياء الأخرى المكتشفة في الحصاء معاصرة للتماثيل الصغيرة أو أنها كانت تمثل خليطاً من أشياء من عهد واحد وأخرى أقدم منها، لأنه عثر، فضلاً عن الأشياء الحديدية والآلات الصالحة لاستخراج المواد من المسبك، عثر على فؤوس حجرية مصقولة وأدوات أصغر من نوع العصر الحجري المتأخر (١٣١). ويبدو اليوم أن أدوات العصر الحجري المتأخر أقدم وأن أصلها من الطمي (١٣٢). والمحقق أنه لا يوجد في تاروغا أثر واحد ينسب إلى العصر الحجري، وإن كان عثر على فأس حجري بأحد المواقع النادرة الصالحة للإقامة بالمنطقة (١٣٣). إن تاريخ الحصاء قد حدد عصر التماثيل الصغيرة بـ ٥٠٠ سنة قبل الميلاد و ٢٠٠ سنة ميلادية، وهذا التاريخ ثابت ومدقق فيما بعد بالاعتماد على تواريخ بالراديو كربون أجريت في تاروغا وبموقع إقامة سبق أن ذكر (القرن الثالث قبل الميلاد). وبالاعتماد على تاريخ بالاضاءة الحرارية (٦٢٠ ± ٢٣٠ سنة قبل الميلاد) (١٣٤). فالبرغم من أن أسلوب الطين الحمى ليس قاراً، فإنه يمثل تحفة فنية، ورأى الاختصاصيون في هذا الفن أنه من أسلاف أشكال معينة من فن يوربا الذي ظهر بعد ألف سنة وعلى بعد ٦٠٠ كلم نحو الجنوب الغربي (١٣٥) ولقد جرت اكتشافات حضارة نوك بمنطقة تمتد على ٥٠٠ كلم طولاً، من الجنوب إلى غربي نجد جوس.

(١٢٧) كلارك، ١٩٦٩ ص ٢٠١.

(١٢٨) موني، ١٩٥٢، لوت ١٩٦٦، شو ١٩٦٩، الانثروبولوجيا الحديثة ص ٢٢٩، دنيال ١٩٧٠ ص ٤٣ - ٤٤، هورت ١٩٦٦.

(١٢٩) موني، ١٩٤٧، ١٩٧١ ص ٧٠. منسن ١٩٦٨، ص ١٠.

(١٣٠) سان فاغ، ١٩٤٥، ١٩٥٦، مجلة أفريقيا الغربية، ١٩٥٩.

(١٣١) ب. أ. ب. فاغ، ١٩٥٦، مجلة أفريقيا الغربية.

(١٣٢) شو، ١٩٦٣، ص ٤٥٥.

(١٣٣) أ. فاغ، نوك، ١٩٧٢.

(١٣٤) فاغ، وولمنغ، ١٩٧٠.

(١٣٥) فاغ، ووليت، ١٩٦٠ ص ٣٢، وليت ١٩٦٠ ص ٢٤٥، ١٩٦٧ ص ١١٩ - ١٢٠، ١٩٨٤، ص ٢٣، روبين ١٩٧٠.

وتوجد قرب جدول غمبي، بالسنگال، وفي غامبيا، توجد مقاطعة تقوم فيها أسطوانات حجرية عمودية معزولة في وضع دائرات. وكانت الحجارة الكبيرة المتقنة الصنع مضاعفة، وتميل الى تمثيل شكل كنانة. ولقد تأتى، بفضل الحفريات الجارية تحديد ثلاثة توارىخ بالكربون، وتدل على القرنين السابع والثامن. فضلا عن تأريخين من القرن الاول حاصلين من الطبقة السفلى تحت الحجارة الكبيرة والتي هي لها مستودع قليل تنصيبها، ويبدو ان الامر يتعلق بمعالم ضريحية (١٣٦) وقد اكتشف في تونديدارو، بمنعطف النيجر الأوسط مجموع رائع من المعالم القضيبيية الحجرية وقد أساء اليه جهل الباحثين والاداريين من القرن العشرين وحاسهم الساذج. ولذلك ليس لنا عنه الا معرفة واقعية محدودة جدا. فلعله ينتسب الى العهد الذي تنتسب اليه المعالم السنغالية الغمبية (١٣٧).

وفي أواخر حقبة الاتصالات الاولى تقريرا، وذلك بالحدود الشمالية من افريقيا الغربية، اتصل سكان سود بالبربر الرحل الصحراويين. وكانت لهم جمال فكانوا ينقلون نحو الشمال ذهب افريقيا الغربية، عبر الصحراء. ان شهرة «غانا» أرض الذهب بلغت في آخر القرن الثامن مدينة بغداد (١٣٨) وقد توفرت لتلك المناطق الشمالية من افريقيا الغربية، مبادئ الفلاحة وتقنية الحديد، وبلغت نضجا أهلها لا تباع طريق التقدم السياسي، وتكوين الدول مجابهة ضغط الرحل القادمين من الشمال، حتى يتمكنوا من مراقبة تجارة الذهب لما فيها من منافع. ولم يظهر استعمال الحديد في الجنوب، بشمال سيرا ليوني قبل القرن الثامن، وكان بطيئا (١٣٩).

(١٣٦) أوزان، ١٩٦٦، سيسبي وثلمنس، ١٩٦٨، فغان، ١٩٦٩، ص ١٥٠، دي كمبس، ١٩٧١.  
(١٣٧) دبلاتية، ١٩٠٧، النجد الأوسط النيجيري، ص ٤٠ - ٤١، ماس ١٩٢٤، موني ١٩٦١، ص ١٢٩ - ١٣٤، ١٩٧٠، ص ١٣٣ - ١٣٦.

(١٣٨) لفتزيون، ١٩٧١، ص ١٢٠.

(١٣٩) أثرتن، ١٩٧٢، ١٩٧٣.

## وادي النيل قبل التاريخ

بقلم: فرنان دي بونو

السودان والنوبة ومصر ثلاث مناطق مختلفة من عدة جوانب، قد وحد بينها نهرا واحد فألفت واديا فريدا. ولكن، من الصعب ان نتصور اليوم ان هذا الامتداد الصحراوي الذي شمل النهر من جانبيه قد نشأت فيه، فيما خلا من الأيام، وفقا لتقلب المناخ وتغير البيئة، محطات ومسالك وحواجز منيعة مع بقية القارة الافريقية.

ان هذه العوامل الطبيعية نفسها تكيف نمط حياة السكان الأوائل لهذا الوادي في كفاحهم الدائم ليتكيفوا مع أوساط معادية أو مناسبة لنموهم. وفي هذا السياق، نرسم باختصار تاريخ تطوّرهم الطويل منذ فجر ظهور الانسان الى أوج ازدهار العهد الفرعوني. ان عددا من الثقافات معروفة بالفعل معرفة جيدة في بعض الفترات الزمنية. الا ان سمة البحوث التي ما زالت ناقصة من ناحية، وروح النظام المطبقة غالبا على النتائج، تقودان في عدة حالات أخرى، الى تجزئة قد تبدو في المستقبل متكلفة، وحتى سيئة الاستعمال أحيانا.

كما ان مضاعفة «النماذج»، على بعد عدة كيلومترات، لها نسبة قليلة من الصحة في بعض الحالات. لذلك يعمل المؤرخون الذين شغل فكرهم هذا التشتت على جمع النماذج المعروفة في مقولات تاريخية كبرى. وحتى هذه الأخيرة يمكن من الآن ان تكون أحيانا ناقصة وغير كافية.

## الأولدواي (١)

تميزت هذه الشقافة في كل مكان بحصاة مهيأة، فقد مكنت اكتشافات حديثة متعلقة بأصل الانسان من التأكيد على وجود آثار أولى لم يتركها هذا الانسان في مناطق افريقيا الأخرى فحسب بل في وادي النيل أيضا.

فالشواهد القديمة جدا على تلك الكائنات التي أصبحت بشرية هي شواهد متكونة من حصاة مهيأة نحتت منها ادوات لا شكل لها، وقد وقع اكتشافها في السودان منذ سنة ١٩٤٩ في «نوري» و«واوا». ولكن لا يمكن ان تكون هذه المكتشفات المتفرقة حجة نهائية فلم نصل الى اليقين الا منذ سنة ١٩٧١ فقط بغد بحوث انتظامية جرت في مصر.

ان الترسبات الغرينية العائدة الى الدهر الرابع القديم، وعددها ٢٥، قد وفرت محصولا ثريا من تلك الادوات الغليظة. ولقد زودنا سنة ١٩٧٤ اكتشاف ثلاثة مناجم طبقية تشتمل على حصاة مهيأة بمعلومات مهمة تقضي على ما تبقى من التردد. وكانت مستويات الحصاة المهيأة تقع تحت الاشولي القديم (العصر الحجري القديم) المتميز بسطوحه الثلاثية في مستوياته الضاربة في القدم. ولقد عثر منذ عهد قريب جدا على سن لكائن بشري وذلك بالغرين القديم الموجود بجبل طيبة، وهذا السن كان موجودا مع السواطير.

ولنذكر انه لوحظ أيضا تعاقب مشابه سنة ١٩٢٥، وذلك بغرين العباسية قرب القاهرة. ولقد صنفت الحصاة المهيأة لتلك الطبقة في ذلك الوقت في باب الأدوات الصوانية. ان دراسة ذلك العهد قد أثريت أخيرا بمساهمة اضافية في أدبها بصعيد مصر، أثر الاكتشافات التي قامت بها بعثة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية (٢). ويتعلق الامر بترسب جديد مازال تحت الدرس ويبدو مشابها للترسبات السابقة.

## العصر الحجري القديم (٣)

توجد تلك الصناعة الحجرية المتميزة بذوات الوجهين ذات الطرف المتقلص بكل مكان من افريقيا. ولعل جذورها موجودة في هذه القارة، انطلاقا من الحصاة المهيأة بالعهد السابق ثم انتقلت الى عدة مناطق أخرى من العالم. وقد ظهرت في وادي النيل شواهد عن تلك الحضارة دون انقطاع ملحوظ من السودان الى مصر.

وقد تعرفنا على تلك الثقافة في شمال السودان أحسن مما تعرفنا عليها في المناطق الجنوبية اعتمادا

(١) سمي هذا المعهد بهذا الاسم اعتمادا على المكتشفات التي تمت بأولدواي (انظر الفصل ٢٨). وقد سبق ان سمي با قبل الاشولي أو العصر الحجري القديم العتيق.

(٢) I.F.A.O.: Institut français d'archéologie orientale

(٣) يطابق على العموم العصر الحجري القديم الاسفل وغالبا ما يسمى أيضا بالاشولي، أي حوالي ٦٠٠٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠٠ سنة تقريبا.

على الاشغال التي جرت حديثا. فالأشولي الاسفل الذي تدل عليه ذوات الوجهين مما لها قواطع متعرجة غليظة أحيانا، تصاحبه حصة مهيأة في «عظيرة» و«واو» و«نوري». وفي «نوري» حصل له تطور في مركب انتقالي. أما الأشولي الاوسط والاعلى، المدروسان خاصة في الشمال، فهما يتميزان باتقان الصنع وبظهور صناعات شبيهة بصناعة لوفالوا. ان تلك الصناعات التي سيتولد عنها فيما بعد التقطيع اللوفالوي تبدو أيضا بارزة في خور أبو عنقا. ولئن كان الأشولي موجودا في قارات أخرى، فان النوع السنغوني، وهو نهاية الاشولي الذي دام كثيرا، هو نوع افريقي بحت. فبعد ان اكتشف في السابق بافريقيا الجنوبية والوسطى على الخصوص، أخذ اليوم يظهر في خور أبو عنقا وفي ساي. ويبدو أنه أخذ يفقد عددا من عناصره، ابتداء من وادي حلفا. ويوجد عدد قليل من القدومات من ذوات الوجهين المنحوتة الطرف في السودان.

وجد الاشولي على مسطحات النهر وفي نوبة مصر حيث يمكن ان نلاحظ تطورا قائما على اتقان النحت. الا أننا لا نعرف معرفة كافية خصائصه النوعية.

وخلافا لذلك فاننا نجد بمصر ان الرواسب الطبقيّة في العباسية (قرب القاهرة) والرواسب التي درسناها أخيرا بطيبة (١٩٧٤) او بمسطحات النيل القديمة تبرز صناعات أشولية بالطوابق المتتالية ويتبع المستوى الاولدواني المتميز بالحصى المهيأة الاشولي الذي يشمل أشكالا ثلاثية السطوح وذوات وجهين أكثر تطورا وقطعا لوفلوازية. يوفر منجم «خرجة» طبقات متراكمة من أشولي أكثر حداثة قد يبلغ العصر الحجري الوسيط. ولئن وفرت ذوات الوجهين أشكالا كلاسيكية موجودة في أماكن أخرى فاننا نلاحظ في مصر أيضا تحويلها أحيانا الى قدومات وذلك بأطرافها المتباعدة بعدا متساويا. وذلك هو النموذج الوحيد المعروف حاليا من القدوم في مصر. ولقد اختصت مصر أيضا بذوات الوجهين المخدومة حسب تقنية تشابه التقنية المسماة «فكتور يا واست» التي تسبق هي أيضا التقطيع اللوفالوازي الكلاسيكي (٤) ونلاحظ وجود ذوات وجهين أخرى من النموذج السنغوني قرب القاهرة، ويبدو انه أكثر حداثة.

## العصر الحجري الوسيط (٥)

تسببت أوضاع الحياة الجديدة في ذلك العهد في تعميم استعمال الشظية التي حلت محل ذي الوجهين الذي أصبح نادرا، ثم زال. ان تلك الشظايا ذات الكعب العديد المظاهر والمخدومة اعتمادا على التقنية اللوفلوازية السابقة مستمدة من نواة خاصة تنتج شظايا ذاك شكل معين مسبقا. دامت تلك الطريقة بافريقيا ببعض المناطق حتى العصر الحجري الجديد نظرا الى أنه يعتمد على تفكير تكنولوجي متقدم جدا.

ان الصناعة المستيرية ذات التقطيع اللوفلوازي والتي لم تدرس الا قليلا بالسودان توجد في

(٤) تنتزع شظية كبيرة بالقرع، وغالبا ما يكون هذا القرع على أحد الوجهين الجانبين وقل أن يقرع أحد الطرفين. وهذه الشظية تستعمل بدورها كأداة.

(٥) تطلق هذه التسمية اجمالا على العصر الحجري القديم الاوسط منذ حوالي ٢٠٠٠٠ سنة.

تنغاسي، وفي شكل أكثر تطوراً في أبو طبري في نوري. وعلى العكس من هذا، فإن البحوث الجديدة التي أجريت بالشمال أثبتت وجود ثلاث مجموعات متميزة: أولها المستيري النوبي: وهو قريب من المستيري الاوربي دون ان يكون مماثلاً له. ونلاحظ فيه نسبة ضعيفة من الشظايا اللوفلوازية وأدوات من النوع المستيري هذبت تهذيباً ضعيفاً. وتتصل بأنواع من العصر الحجري القديم الأعلى وذوي الوجهين الاشولي في بعض الحالات. (وذلك حوالي ٤٥٠٠٠ الى ٣٣٠٠٠ سنة). وثانيها المستيري المسنن: وهو يظهر من خلال شظايا لوفلوازية قليلة العدد نادرة الصفائح وان كانت القطع المسننة تعدد فيه من ناحية أخرى. وثالثها السنغوني اللومبي ويكثر فيه التقطيع اللوفلوازي الذي تضاف اليه ذوات الوجهين ومحكات جانبية وقطع محززة أو مسننة وشظايا مبتورة وذوات وجهين حادة بها تهذيبات ورقية الشكل. أما الخزمي فيمتد من «جاي» الى دنغولا، ويشمل قسماً مهماً من الشظايا اللوفلوازية المهذبة والشظايا المسننة والمناقش التي تندر. ولقد أرخ بالاعتماد على أعمال حديثة بحوالي ٢٥٠٠٠ سنة الى ١٦٠٠٠ سنة، وهو تقدير قد ابعد في المدة الأخيرة حتى ٤١٤٩٠ سنة.

ان المعلومات المجموعة في نوبة مصر غير كافية ان قارناها بشمال السودان. وقد أثبتت أعمال سندفور وأركيل القديمة تفوق تقنية التقطيع اللوفلوازي ذات التقاليد الاشولية أحياناً. وتشير اليه بحوث حديثة سنة ١٩٦٢ في آفية وخور داود. ولقد اكتشفناه نحن في أمداس سنة ١٩٦٢ — ١٩٦٣ في وضع التقطيع اللوفلوازي الصرف. ودرسنا في سبوعة صناعة تنتسب بلا شك الى المرحلة النهائية من تلك الفترة وتتصل بشظايا غير لوفلوازية تحتوي على مناقش عديدة.

أما العاطري، وهو صناعة يختص بها المغرب والصحراء الجنوبية فهو يظهر من خلال شظايا تنتهي قاعدتها بذبب بارز، وباستعمال النحت الورقي الشكل، فلقد ابتدأ من دون شك مع المستيري ودام في بعض المناطق من حين الى آخر حتى العصر الحجري الجديد. ووقع التعرف عليه في نوبة مصر بالصحراء الليبية وذلك بالشمال الغربي من أبو سنبل (٦). وكان متصلًا بحيوانات برية منها الكركدن الابيض والبقرات الكبيرة، والحمار الوحشي ونوعان من الغزلان والظبي والشعلب، وابن آوى والخنزير ذو القرنين، والنعام ونوع منقرض من الجمال والسلحفاة. فالعاطري في النوبة يبدو كأنه قد اختلط بالأمدى، وهو صناعة ذات تقاليد موسستيرية لوفلوازية. أما في مصر فهو يوجد على حالته الخام بالوحدات الشرقية وفي سيوا والدخلة وخرجة، كما نجده بالصحراء الشرقية في وادي حمامات. وتفرق تلك الصناعة في الوادي نفسه على شكل قسيمات، في طيبة ودارا. ولقد تمكن من التأثير في الصناعة الحوارية في العهد الموالي في أسنا وطيبة وقد اتخذ مظهر أحجار ذات أبعاد صغيرة، في تلك الصناعة نفسها بالعباسية وجبل الأحمر قرب القاهرة (من ٤٤٠٠٠ الى ٧٠٠٠ على الأقل).

وبالرغم من الآثار الكثيرة الدالة على العصر الحجري الجديد بمصر فإنه لم يدرس دراسة نوعية شاملة تستوعب أدواته. فالأشغال الاولى التي أجريت بالمسطحات القديمة للوادي وبالقيوم سمحت باعطاء رؤية عامة عن الحضارة التي كانت قائمة آنذاك. وتوفر حفرياتنا الشاملة التي أجريناها

(٦) وقمت تلك المكتشفات سنة ١٩٧٦ ولقد حدثت في بئر طراوي وبئر الصحراء.





● (١) وادي الملكات، منطقة الاقصر، مصر. (تصوير ج. ديفيس).  
 ● (٢) رؤوس رماح من السيليكس (الصوان)، موقع مرقيسة في السودان. حفريات ج. فيركوتيه (تصوير بمئة الاثار الفرنسية بالسودان).

بجبل طيبة منذ ١٩٧١ برعاية اليونسكو، عناصر جديدة في الموضوع. ان وضع العلامات في الترسبات الجيولوجية وفي نحو مائة من المواقع لذلك العهد والموضوعة حسب طبقات متتابعة مرتبة ترتيباً زمنياً يمكن من رسم خطوط عامة لتطور تلك الصناعة التي تدل على تغلب الطابع اللوفلوازي. وتتفق كل تلك البحوث على الدلالة على وجود عهد قديم «أشولي لوفلوازي» يتبعه عهد آخر ذونوي ضخمة، يتحسن تدريجياً، بتقليص أحجامه. وظهرت في مرحلة أكثر حداثة على الشظايا الصفائحية تهذيبات ثانوية أكثر عدداً ذات مظهر شبه موسستيري (٧) كما ظهرت أدوات مختلفة. وإذا كانت هذه الصناعات قد أعطت عناصر متشابهة مع عناصر أخرى في إفريقيا، فينبغي ان نشير كذلك الى وجود صناعة أخرى خاصة بمصر لم يشر اليها بتاتا بكان آخر. و يتعلق الامر بالصناعة المسماة بصناعة جبل سوهان والتي تميزت باستعمال النوى حسب التقطيع اللوفلوازي ذي المضارب الثنائية الاقطاب التي نحتت من جديد باستعمال مكشط مقعر على أحد أطرافها. أما فيما يتعلق بالانسان من ذلك العهد، فيجب تسجيل ما اكتشفناه سنة ١٩٦٢ في (سلسلة) ان عثرنا على قطعتين من غلاف جمجمة يحتمل ان تعود الى ذلك العهد (٨). فلقد سبق ان أظهرت دراستها التي لم تكتمل خصائص عتيقة تتصل بخصائص أخرى أكثر حداثة. ويمكن ان توفر بقية الأعمال في شأن هذه النقطة نظرة جديدة عن أصل الانسان الافريقي المتنازع في شأنه بالعصر الحجري الوسيط والذي بقي غير معروف تمام المعرفة ان اعتمدنا المكتشفات المعزولة التي وقعت ببرقة والمغرب وزمبيا.

## العصر الحجري الجديد

من الملاحظ عموماً ان الانتقال من العهد السابق الى هذا العهد في أوروبا ومناطق أخرى من إفريقيا قد حدث حسب قطيعة سريعة وشديدة في المستوى التكنولوجي وحتى أحياناً في المستوى الانساني. ولكن هذا لم يكن كذلك في وادي النيل. ان صعوبة اكتشاف فواصل واضحة تفصل بين فترة وأخرى تجعل من العسير تمييز المقطوعات الزمنية. ان التطور يخلق في نفس المكان، ابتداء من الفترة السابقة، مظاهر اقليمية جديدة ومتوازية أحياناً تنتسب الى بيئات محلية. و يبدو في نفس الوقت ان التغيرات البيئية تبدل العلاقات بين سكان الوادي وجيرانهم، وتقطع الروابط القديمة وتعبّر عن تقارب جديد. ان احصاء التماذج الثقافية المعروفة حالياً وحديثاً يترك احساساً بتشتت كبير جداً اذ الامر يتعلق بوضعية مؤقتة، وربما تساعدنا التحاليل العميقة جداً على استخراج الخطوط التأليفية. ان هذه الملاحظات تنطبق أيضاً على العهد الموالي وهو العصر الحجري القديم اللاحق ولقد انتهت أخيراً دراسة تلك الفترة في السودان، وهي تبرز في القسم الشمالي منه صناعتين مختلفتين.

(٧) لقد وجدت تقنيتان لتقطيع الشظايا: التقنية اللوفلوازية الكلاسيكية وتقنية نزع الصفائح المطولة. و يوجد بين هاتين التقنيتين اشكال انتقالية عديدة.

(٨) قدم هذه المعلومات السيد ب. فندرميرش (مختبر علم الاحاث الانسانية — كلية العلوم جامعة باريس ٦) واليه أسندت دراسة هذه الوثائق.

الصناعة الجمائية: في ضواحي حلفاء، وهي تحتوي على شظايا تشتمل على نسبة لوفلوازية ضئيلة وحدود هذبت تهذبا بسيطا. وتختص بمحكات جانبية متباينة ومناقش وأدوات مسننة (تورخ بنحو ١٥٠٠٠-١٣٠٠٠).

الصناعة السيلية: وجدت في الماضي في كوم أمبو (مصر)، وتظهر الآن في السودان في حلفاء بالمرحلة الأولى. ان شظاياها ذات البلورات المعدلة لتيه من نوى شبه اسطوانية لوفلوازية (حوالي ١٣٠٠٠-٩٠٠٠ سنة).

أما في النوبة المصرية فلقد عرفت صناعتان هما:

الصناعة الامدية: اكتشفناها بأمد (بعثات المعهد الألماني سنة ١٩٦٣) وتشتمل على أدوات متنوعة يغلب عليها الطابع اللوفلوازي، ولها صلة بمحكات منظمة ومثاقب وقطع من تقنية خرجية وسوف يأتي الحديث عنها. ان استعمالها المؤقت للتهذيبات الورقية الشكل تذكرنا بالصناعة العاطرية.

الصناعة السيلية: التي تعرفنا عليها بسبوعة (بعثة المعهد الفرنسي لافريقيا الغربية) في عدة أماكن وهي تنتسب ايضا الى المرحلة الأولى — فهي ممزوجة بشظايا لوفلوازية وبمحكات قليلة ومناقش كثيرة ويحتمل أن تكون موجودة كذلك في خور داود.

أما الصناعة الجيزية فقد اكتشفت قرب القاهرة منذ ١٩٣٨ وتشمل حجارة قطعت تقطيعا لوفلوازيا، وقد تقترب شظاياها من بعض الاشكال الهندسية التابعة للصناعة الخزمية.

الصناعة الحوارية: (المسماة سابقا: اللوفلوازية اللاحقة) (٩) وهي صناعة الحجارة الصغيرة، وقد شملت منطقة تمتد من أسنة (صعيد مصر) الى أقصى الدلتا وإلى المناطق المجاورة (وادي تميلات). وهي شبيهة بالصناعة السيلية من حيث التقطيع اللوفلوازي، ولكن ليس لها أشكال هندسية. وتشتمل على مراحل وعلى مظاهر لا تزال قيد الدرس. وتتميز بنوى ذات قطبين ربما اشتقت من النوى المسماة «جبل سوهان» السابق الذكر، والتي ترجع الى العصر الحجري الوسيط. ان بعض النوى التي يحتمل أنها أكثر حداثة قد انتجت في آن واحد شظايا وصفائح لها أعقاب ذات وجهات. وهي تدل على تحول بالنسبة للصفائح ذات الاعقاب الملساء التي كانت غالبية في العصر الحجري المتأخر وفي العصر الحجري القديم اللاحق. ويظهر التأثير العاطري في الحوارى، وذلك في أسنة وطيبة، يدل عليه وجود منحوتات جديدة ورقية الشكل، كما تدل عليه قطع هجينة. وعلى العكس من هذا، تلاحظ شظايا معلاقة الساق متكونة من الحجارة الصغيرة والعاطرية نوعيا، وذلك في الحوارى بالعباسية وجبل الأحمر قرب القاهرة. فهل كانت تلك التأثيرات ناتجة عن تسرب شعوب الصحراء الى وادي النيل؟.

أما الخرجي وهو معاصر للحوارى بوجه من الوجوه، ولم يعترف به بعض مؤرخي ما قبل التاريخ، فهو موجود بواحة خرجة مع لوفلوازي سابق للخرجي الصرف، وكذلك توجد هذه الصناعة

(٩) اعتبرت الصناعة السيلية كأنها الميزة الرئيسية لهذا العهد في كل مكان. قد بينت البحوث أنها لا تميز في الواقع الا منطقة كوم أمبو. وقد تم تمييز نموذج مختلف معاصر، ان مواصلة النقاش بين الاختصاصين قادت كاتب هذا المقال الى دحض فكرة نصف ثقافة ما بالاعتماد على تقنيتهما فحسب. اننا نرى أنه يستحسن وصفها باسم المكان الذي اكتشفت فيه أولا ولذلك أصبح اللوفلوازي اللاحق يوصف بالحواري.

ذات الشظايا اللوفلوازية ذات التهذيبات الهاوية التي تبدو في الظاهر لا أشكال لها، في واحة كركور وفي قرى وطيبة بمصر. وهو ذو صلة بصناعات أخرى في أسنة (صعيد مصر) وأمدا (في النوبة المصرية).

## العصر الحجري القديم اللاحق

تتميز هذه الفترة عموما عن الفترة السابقة بوادي النيل بتعويض تقنيات التقطيع ذي الشظايا بتقنيات الصفائح والصفائح من الحجارة الصغيرة التي لها أعقاب ذات وجيحات. ولا يستثنى من ذلك الا حالات الدوام والظهور مرة أخرى والتداخل.

ان البحوث التي أجريت في شمال السودان وجنوب النوبة المصرية قد أبرزت مركبا من الصناعات يمثل أحيانا وبلا شك مظاهر لثقافة واحدة. فالخلفي، نسبة لحلفا (خور كوسة) يعرف أيضا في شمال كوم أمبو (مصر) فهو يمثل انتقالا مبكرا وقع بين التقطيع اللوفلوازي للعهد السابق، وعهد الحجارة الصغيرة التي تستعمل الشظية أو الصفيحة. ويعتبر استعمال التهذيب المعروف بتهذيب (وشتاة) طريقة طلائعية تظهر بعد ذلك بكثرة مع الايبيرو — موروسي المغربي ونلاحظ في شأن الصناعة الحلفية أنها تستعمل استعمالا متتابعا الشظايا والصفائح الظهرية والمحكات والمناقش والمسننات والقطع المقشورة (وذلك حوالي ١٨٠٠٠ الى ١٥٠٠٠).

أما البلا في فهو أكثر حداثة في حلفا وبلانة. وهو يشتمل على حجارة صغيرة مبتورة وأخرى لها ظهور هذبت تهذيبا خفيفا وشظايا مقطوعة ومحكات، ومناقش وحدود ونوى بسيطة أو ذوات مستويات مقروعة قرعا متقابلا (في حوالي ١٤٠٠٠ الى ١٢٠٠٠).

أما القادي فأصله من أبكا وتوشكا في النوبة. فهو يحتوي على أدوات تشمل شظايا من حجارة صغيرة أولا وتشمل أيضا صفائح، وله محكات وظهور مستديرة ومناقش وأدوات مبتورة وحدود انقرضت فيما بعد. ان القبور البيضوية الشكل الموجودة داخل المنازل وخارجها مغطاة بالبلاطات. وقد كشفت عن جنس بشري قريب جدا من جنس الكرومانيون بالمغرب (حوالي ١٢٠٠٠ الى ٥٠٠٠).

الأركيني اكتشف بمصر في موقع واحد قرب حلفا. فهو يمثل صناعة ذات شظايا خاصة و يتركب من محكات متساوية البعد و صفائح ظهرية، لها تهذيبات (وشتاة)، ومن أنصاف دوائر وقطع مقشورة ومدقات (حوالي ٧٤٠٠).

ولقد اكتشف القاني قرب القاب في ثلاث طبقات سكنية متتابعة توفر احداها ما يشبه مضربا مستطيلا متكونا من عظم مصقول (حوالي ٧٥٠٠).

ويحتوي الشمكي في منطقة حلفا على نوى متعددة الاتجاهات ويكشف عن أدوات هندسية الاشكال في مرحلته الاخيرة التي لها صلة بقطع أخشن منها. وقد يكون هذا الشمكي تطورا جانبيا للقابسي المغربي (حوالي ٥٠٠٠ الى ٣٢٧٠).

لقد درسنا في مصر (السلسلي) ودرسه آخرون بعدنا وذلك بمنطقة سلسلة قرب كوم أمبو فهو يحتوي على ثلاثة طوابق: السلسلي الأول الذي يوفر صفائح هذبت تهذيبا خفيفا، ومكونة أحيانا

من حرير، ومثلثات غير منتظمة تكون أحيانا من حرير ومنيشات، وعددا قليلا جدا من المناقش، والمحكات وصناعة عظمية. أما البقايا البشرية فهي تشير الى جنس شبيه بالكرومانيون (حوالي ١٣٠٠٠-).

أما السلسلي الثاني (١٠) فهو يشتمل على صفائح وصفائح طويلة لها تهذييات متقطعة تكون أحيانا حريرية ومناقش ومحكات وصناعة أساسها العظم (حوالي ١٢٠٠٠-). والسلسلي الثالث مازال تحت الدرس. وهو يشمل صفائح كثيرة لم تهذب الا قليلا وأحجارا للتسخين وكوخا مستديرا وهو أقدم كوخ عرف الى حد اليوم بمصر. ان الفكورى المدروس في منطقة أسنة، يبدو منتسبا قليلا الى الايبيرو-موروسي ولعله يوجد أيضا في أماكن أخرى بمصر (حوالي ١٣٠٠٠-) تتميز هذه الصناعة بالصفائح الرقيقة المهذبة، وبالمقاب والسهم الصغيرة.

السبيلي لقد تميزت تلك الصناعة التي حافظت على التقطيع اللولوازي بشظاياها ذات القاعدة المعدلة والأشكال الهندسية. وهي صناعة جنوبية في مصر، تظهر خاصة في مقاطعة كوم أمبو وسلسلة وداراو، ولا سيما في المرحلة الثانية. ولقد شهدت في النوبة، وهي نادرة جدا في الشمال، ولا تصنف في أي نوع أحيانا. وقد وفرت أشغالنا بسلسلة أيضا أدوات عظمية ومهارس، ومدقات وبقايا انسانية أصلها من حفرياتنا التي مازالت تحت الدرس (حوالي ١١٠٠٠-). ان المثال السبيلي يستحق المناقشة. وتوفر التواريخ الفيزيوكيميائية ترتيبا زمنيا يناقض في البداية المعلومات التكنولوجية التي توفرها هذه الثقافة. ان هذا الامر جدير بالملاحظة، خاصة ان السبيلي ليس بعيدا زمنيا ومكانيا عن الفكورى.

المنشي (ضواحي سلسلة) يتركب من أدوات حجرية لها الى حد ما، ارتباط (بالاوريفانسي) المشرقي، كما يتركب من صناعة عظمية ومدقات وصفائح لماعة الاطراف ومن أدوات وبقايا انسانية. وتستنتج معاصره للسبيلي الثاني اعتمادا على تشابه بعض الادوات الجديدة ذات النوع المنحصر.

اللاكيتي يمثل ثقافة تعرفنا بالصحراء الشرقية وهو ينفرد بمناشروية التسسن تصاحبها سهيمات معلاقية الساق.

الحلواني عرفناه بضواحي حلوان (جنوب القاهرة)، وهو يتألف من أربع مراحل مختلفة: للمرحلة الاولى تحتوي على صفائح وافرة وصفائح هذبت أحيانا تهذيبا خفيفا (وشتاتة). وتتميز الثانية بمجارة صغيرة مركبة من مثلثات مختلفة الاضلاع ومثلثات متساوية الضلعين ومن قطع دوائر عادية، ومنيشات. وتتألف المرحلة الثالثة من قطع دوائر. أما المرحلة الاخيرة، فتتألف من قطع دوائر ذات قاعدة مستقيمة تنتسب الى نموذج جديد.

(١٠) تسمية وضعها ب. سميث (١٩٦٦) تخليدا لاله سبك الشخص في صورة تمساح، وهو من آلهة ذلك المكان. وقد قمنا نحن أيضا بحفريات في ذلك الموقع. ونقترح اسم السلسلي الثاني اعتمادا على جبل سلسلة الموجود في تلك المنطقة وذلك أنسب للقواعد المتبعة في التسمية المعتمدة على أسماء الأماكن.

النتوفي صناعة من فلسطين قد تكون تسربت بصورة متتابعة الى التراب المصري. فقد عرفت مرحلة من تلك الصناعة في حلوان، وتميزت بقطع لها ظهور صنعت اعتمادا على تهذيبات متقاطعة وعلى العكس من ذلك، فان حدود السهام التي لها قاعدة مجهزة بحزات متناسقة، والتي نسبت أول الامر الى النتوفي، قد اكتشفت منذ ١٨٧٦ بملوان حيث عثرنا عليها مرة أخرى سنة ١٩٣٦. ومنذ عهد قريب أيضا أي في سنة ١٩٥٣، اكتشفناها في القسم الشمالي من الصحراء الشرقية (حوالي ٨٠٠٠ الى ٧٠٠٠). وقد عرفت تلك الحدود منذ ذلك الوقت في الخيام وأريحا (فلسطين) وسماها الاختصاصيون «حدود الخيام». ان الفرضية التي تفيد بتسرب النتوفي مازالت تحتاج الى تحقيق دقيق.

## العصر الحجري الجديد وعهد ما قبل الملوك

ان هذه الفترة الطويلة التي تغطي في الجملة أثنى سنة تقريبا (من ٥٠٠٠ الى ٣٠٠٠) قد حلت هنا تحليلا مفصلا. فالظواهر المادية لكل ثقافة من الثقافات او ما يسمى «بالافاق الثقافية» التي تمثل تلك الفترة قد وصفت بدقة، مؤلفة بذلك مرجعا ضروريا لكل من يريد أن يتفهم التطور البطيء في سياقه الطبيعي. وهو تطوير يقود بمجموعات بشرية من الرجل أو أنصاف الرجل الى أن تؤسس تدريجيا مجتمعات إما متركزة تتركز كثيفا كما هو الشأن بمصر، أو منظمة حسب امارات مستقلة مثلما هو الشأن بالسودان النيلي. ولقد درس التطور التاريخي لتلك المجتمعات الحجرية الجديدة والماقبل الملوك في الفصل ٢٨ من هذا المجلد. فالعرضان اذن متكاملان، وكل واحد منها يتصور المشاكل من زوايا مختلفة ونجد بين معقنين الاحالات الضرورية التي تساعد القارئ على ادراج ثقافة محددة قد وصفت في هذا الفصل حسب الخطوط الكبرى للتطور التاريخي الخاص بمجموع «الافاق الثقافية» المذكورة في الفصل ٢٨.

ان تلك المرحلة الجديدة تشكل خطوة حاسمة من تاريخ الانسانية. فانسان وادي النيل المتنقل من حياة الترحال الى نصف حياة الترحال ثم الى حياة الاستقرار قد أنشأ العناصر الرئيسية لمرحلتنا الحضارية الحالية. ان المسكن الثابت يحدد استعمال صناعة الفخار وتأهيل الحيوانات وتربية الماشية والفلاحة وتعدد أدوات تصلح لسد الحاجات المتزايدة.

وفي السودان (١١)، يبدو ان الخرطوم (١٢) هو أقدم ثقافة بتلك الفترة في ذلك البلد. فلقد عثر عليه في أكثر من اثني عشر موضعا في مساحات شاسعة وذلك في الشرق ابتداء من كسالة، وفي الغرب على مسافة ٤٠٠ كلم في قلب الصحراء، وفي الشمال حتى دنقلة، وفي الجنوب في اتجاه أبي هقار على النيل الابيض، ان المعلومات المستخلصة من حفريات الخرطوم التي شاركنا فيها توفر الحجج المؤكدة على وجود مسكن ثابت. ويشهد على ذلك أكوخ من قضبان خشبية، واعتماد

(١١) انه الخرطوم القديم المذكور في الفصل ٢٨. نفضل الاحتفاظ باسم الخرطومى توقفا لاكتشافات مقبلة قد تكشف عن مراحل أقدم من تلك المرحلة.

(١٢) انظر الفصل ٢٨.

صناعة فخارية متطورة منتشرة على مساحة كبيرة، واستعمال الرحي. وتتميز تلك الصناعة الفخارية المتكونة من أقذاح، بزخرفة خطوطها المتموجة المقطوعة وبنقط موشاة. فالادوات الحجرية الصوانية الكثيرة هي أدوات من حجارة صغيرة وهندسية محضة تتألف من نماذج متنوعة. ففيها انصاف دوائر وقطع دوائر ومثلثات مختلفة الاضلاع ومستطيلات ومنحرفات وشظايا مقشورة ومثاقب. فأنصاف الدوائر وقطع الدوائر التي هذبت من حيث حافتها أيضا تشهد بالتشابه مع اللوطوني، والحجري الجديد في هيراكس هيل، بروديسيا، أما الادوات المنحوتة في الريوليت، وهي صخر صلب، فهي أدوات أكبر حجما من الادوات الصوانية، ولها شظايا وصفائح بسيطة بعضها ذو أعقاب جدد نحنا (محكات)، وأنصاف دوائر ضخمة ومكاشط قليلة ويتميز الخرطومى أيضا بالمخاطف العظمية الشائكة ذات الوجه الواحد. تضاف الى ذلك مرقاة حجرية ذات أقاع وسطية ومهارس، ومقارع واسطوانات مشقوبة الوسط، ورحى قليلة ومثاقيل شبك لعلها من نفس النوع الموجود في الفيوم والعمرى (مصر) وبالصحراء النيجيرية. وتتكون أدوات الزينة من درر تشبه الاسطوانة التي في شكل بيضة النعامة، ومن أقرط نادرة. ولقد استعمل الطين الاحمر أو الاصفر للوشم على الجسد. ان الاموات المدفونة في مساكنها، والممدودة على أحد الجانبين كانت تنتسب الى جنس أسود وهو أقدم جنس في افريقيا. وكانت تخضع عندما كانت حية لقلع أضراس طقوسي كان رائجاً في الماضي عند القابسين والايبيرو - موروسيين بالمغرب وعند سكان الحجري الجديد بكنينا. وقد دامت تلك التقاليد مدة طويلة في السودان وخارجه بالقارة الافريقية. وتتألف الحيوانات المعروفة من الجاموس والظبي وفرس الماء والقسط البري والدلدل والفأر والتمساح وكمية كبيرة من الاسماك (حوالي ٩٤٠٠٠).

الشهاني: ظهر في مواقع عديدة مبعثرة في جنوب الشلالة السادسة. ولقد وفرت الحفريات بالشهاني عناصر ثقافة متفرعة بدون شك عن الخرطومى، وتركز خصائصها المميزة على استعمال صناعة فخارية خاصة، وعلى الازميل والفأس العظمى المصقول. وتتألف الصناعة الفخارية من أوان مزينة أحيانا بخطوط منمقة مثل الخرطومى، الا انها تنفرد بصقل سطوحها وحواشيها السوداء وبزخرفة المثلثات المحززة. وتضاف الى هذه الأدوات الحجرية نماذج من الحجارة الصغيرة وفؤوس مصقولة ومراقش «ملساء مستوية» وحدود دبابيس مستوية أو محدبة.

أما الحراب العظمية، فظل موجودة حتى ظهور الصناعة اللؤلئية والجواهر المصنوعة من الامزونيت أو العقيق، واللبريات المستعملة حتى يومنا هذا. وكانت حيوانات الصيد هي الجواميس والظباء والزرافات والخنازير. ويرى الماعز القزم ولم يبق أثر للمساكن الخفيفة بل بقيت مواطن عميقة وللشهانى (١٣) جوانب مشتركة مع الفيومى المصرى، في مرحلة من مراحل ذلك باستعمال السطوح المستوية والمراقش والحراب ورؤوس الدابوس والامزونيت والمواقد المحفورة. وهو مرتبط بعهد ما قبل الملوك القديم لمصر، باستعمال الصناعة الفخارية الملساء ذات الحواشي السوداء بصعيد مصر. وتوجنى الامزونيت والمراقش والفخار المقطوع بنقط تشابه مع الغرب (تبستى)، كما يوحي

الماعز القزم بنقطة تشابه مع الشمال الغربي. وقد وفر موقع «كادبرو» الذي مازال تحت الدرس حالياً، والذي هو أكثر حداثة، وفر أضرحة (تؤرخ بحوالي ٣٥٠٠ الى حوالي ٣٠٠٠). وقد وفرت حفريات جرت خلال (١٩٧٦ - ١٩٧٧) في كدادا (منطقة شندي) نوعاً ثالثاً لعله أكثر حداثة من الشهاني، ويتألف من أضرحة لها صلة بالمسكن، ومن فؤوس حجرية مصقولة ذات حجم كبير، ولوحات تزويق شبه معينة الشكل تقريباً، واسطوانات مثقوبة لا يعرف استعمالها، وأوعية كأسية الشكل، وأضرحة أطفال موضوعة في جرار. وهذه هي العلامات المميزة له. وقد يكون الأبكي (١٤) بشمال السودان وجنوبه، الى حد ساي على الأقل، معاصراً بصورة متتابعة للخرطومي والشهاني، ولعله قد تواصل الى ما بعد ذلك العهد، مروراً بأربع مراحل. فالمرحلة الأولى الفقيرة من حيث الفخار قد تكون متفرعة عن الكادي. والثانية عبارة عن تشكيلة من الأواني الفخارية لها فحات مقطوعة وسطح مزخرف بخطوط منقوشة نقشاً متعرجاً أو بتنقيط مستطيل أو مستدير. والثالثة تتميز بأدوات حجرية لها مثاقب على شظايا متعددة أحياناً ولها صفائح بسيطة أو ذات حواش مهذبة والرابعة تتألف من صناعة فخارية لها حواش سوداء وسطوح حمراء مصقولة أو منضدة تشابه الشهاني والمجموعة (أ) بالنوبة ومصر في عهد ما قبل الملوك (حوالي ٣٣٨٠ الى ٢٩٨٥).

ويتميز ما بعد الشمكي الذي لم يعثر عليه الا في موقعين، من حدود صغيرة وصفائح مخزقة وشظايا جانبية وسطوح مستوية توحى بوجود صلات بالفيوم واحة خرجة (حوالي ٣٦٥٠ الى ٣٢٧٠).

ان انعدام الثقافات المذكورة آنفاً في النوبة المصرية، وكذلك الثقافات المطابقة لها زمنياً، يفسر بظروف بيئية خاصة وبندرة المواقع أو ربما باستكشاف ناقص ليس الا. وعلى العكس من هذا لوحظ بالنوبة المصرية - باستثناء بعض الحالات المحلية - لوحظ تشابه واضح مع حضارات عهد ما قبل الملوك المصري، وحتى مع البدري حسباً يبدو. أما النجادي الأول (١٥) فهو موجود في عنينة وسبوعة وشلالة وخور أبوداود (النوبة) وهو حالياً الموقع السكاني الوحيد المحتوي على مخازن تموين.

ويوجد النجادي الثاني (١٦) قرب أبي سنبل وخور داود وسبوعة وهان وأحجمت. وأخذت الاتصالات تضعف ابتداءً من عهد الاسرة المالكة الاولى بين النوبة ومصر. وأخذت تتطور في عين المكان الصناعات محتفظة بخصائصها من قبل التاريخ الى عهد الامبراطورية الجديدة، حاملية الاسماء المتتابعة لمجموعة (أ) (١٧) ومجموعة (ب) ومجموعة (ج) النوبية. وقد عملت أوضاع جغرافية وطبيعية مختلفة في مصر على تطوير مجموعتين ثقافيتين مختلفتين بصورة متوازية في التراب المصري، في الجنوب والشمال. وقد حافظتا على ذلك الاستقلال الثقافي الى عهد توحيد البلدين في عهد الاسرة

(١٤) يقارن بالأبكي المذكور في الفصل ٢٨.

(١٥) عهد ما قبل الملوك القديم في الفصل ٢٨.

(١٦) عهد ما قبل الملوك القديم في الفصل ٢٨.

(١٧) انظر الفصل ٢٨.



المالكة الاولى. ولعب النحاس دورا ثانويا لانه ظهر في الجنوب قبل الشمال لمجاورته لعدد من المناجم الصغيرة التي تكني لاستعمالات محدودة.

### المجموعة الثقافية الجنوبية (الصعيد)

برزت منذ البداية مجموعة الجنوب في مظهر حضارة متقدمة. وهي معروفة اعتمادا على دراسة أضرحتها المتعددة وبقايا تجمعات سكنية قليلة الأهمية.

ان التازي لم يحلل الا تحليلا عاما، بل هو محل نزاع بين المختصين فيما قبل التاريخ. وهو يوجد في مصر الوسطى في تازا، وبدري ومستجدة ومطمر. وهو متميز بعلامات طريفة غير معروفة في أماكن أخرى، وعدد قليل من الأضرحة والآثار القروية. فالصناعة الفخارية التي كثيرا ما تتكون من أوان داكنة، ونادرا ما تكون حراء ذات حواش سوداء ولها أحيانا سطح متجدد، تتميز بزوايتها البارزة الموجودة بين القسم الاعلى المستقيم أو المنحرف والقاعدة المتقلصة. وتمثل الاوعية الكأسية بزخرفتها المحززة المنقطعة نموذجا آخر طريفا له طابع افريقي. فتحتوي الادوات الحجرية خاصة على فؤوس مصقولة لها أحجام كبيرة كلسية سيليسية، وعلى مكاشط وسكاكين ومثاقب وغيرها. وتضاف اليها لوحات الزينة، لاسيما من رخام، مستطيل الشكل، وخواتم وأساور عاجية وأصداف بحرية مثقوبة، وبها تكتمل أدوات الزينة. ولنذكر أيضا الملاعق والصنارات العظمية. أما التقاليد المائمية، فقد كشفت عن قبور بيضوية الشكل أو مستطيلة لها لحد جانبي يحمل جسما ممدودا على الجنب، أطرافه مطوية ورأسه موجه الى الجنوب ووجهه موجه الى الغرب. وكانت تلك القبور تزود بعدد من أدوات الزينة والأوعية والادوات المختلفة.

ويمثل البدري (١٨) حضارة مزدهرة خاصة في مصر الوسطى. وهو يوجد في بدري ومستجدة ومطمر وحمامية. وتدل صناعة فخارية جميلة جدا على هيأته الطريفة من خلال أوعية متنوعة حراء أو بنية أو رمادية أو حراء، لها حواش سوداء غالبا ما تغطي بأخاديد مقطعة تقطيعا دقيقا بشكل انحرافي فهي تتكون خاصة من صحاف ضيقة او مفلطحة أو تشبه قعر السفينة.

ونلاحظ وجود أوان وأقداح من البزلت وأوعية عاجية. وتزين الداخلة أحيانا مواضع نباتية منحوتة. وتحتوي الادوات الحجرية على أسلحة من ذوات الوجهين، لها قواطع مسننة محدبة وعلى حدود سهام لها قاعدة مجوفة أو لها شكل ورقة الرند، وعلى أدوات لها تقنية صفائحية. وتمتاز بواطن الملاعق بصنع فني رفيع، وكذلك الامشاط وأساور اليد والصنارات والتمائيل العظمية والعاجية. أما التماثيل النسائية، وتماثيل فرس البحر فلها وظيفة طقوسية. وتحتوي أدوات الزينة على لآلئ صوانية مغلفة في محلول النحاس، وعلى أصداف ولوحات تزويق منضدة مستطيلة الشكل لها في أغلب الاحيان طرف مقعر. وقد كان يزرع القمح والشعير والكتان، ويرى الثور والشاه ويصطاد ويؤكل الغزال والنعام والسلحفاة، وقد اندثرت المساكن المكونة من أكواخ بسيطة خفيفة.

أما الموتى الذين كانوا يوضعون في وضعية انثناء، فقد كانوا ممددين على جنب، ورؤوسهم موجهة الى الجنوب ووجوههم نحو الغرب، وذلك في حفريات بيضوية أو مستديرة الشكل، قل ان تكون مستطيلة

وكانوا يحملون معهم الى الآخرة العناصر المتنوعة المذكورة سابقا. ومن الممكن ان نثر على فروع متباينة من تلك الثقافة بالصحراء الشرقية (أ. حمامات) وأرمنت (الصعيد) وفي منطقة عديمة (صعيد مصر) وربما بالنوبة.

واكتشف النجادي الاول (١٩) في حمامية ومستجدة في وضعية طبقية، تحت البدري ابتداء من مصر الوسطى والنوبة وحتى بالصحراء الشرقية (أ. حمامات). فالصناعة الفخارية ذات السطح الاملس أو المصقول، وذات اللون الاحمر أو الرمادي أو الأسود، متميزة عن الصناعة البدري. ويختص النجادي الاول بالتزيق — فلم تبق مواضعه منحوتة نحتا ولكنها تمتاز بتزيق أبيض على أوعية حمراء رسم عليها أشخاص بخطوط هندسية ونباتات وأشكال، بأسلوب طبيعي. وفي أغلب الاحيان تنتهي الأوعية الحجرية الانبوبية الشكل، والتي غالبا ما تكون من البزلت وذات عرى مشقوبة، تنتهي برجل هرمية. وتحتوي الادوات الحجرية ذات الوجهين على سهام قاعدتها مقعرة، وعلى سكاكين لها شكل المعين أو الفاصلة. وتوجد أدوات أخرى لها طرف مفروق على شكل حرف وعلى فؤوس مصقولة وأدوات صفائحية ودبابيس اسطوانية أو هرمية. ان لوحات الزينة، وخاصة منها المصنوعة من الشيست، والتي كانت في الاول معينة الشكل، تصبح ذات شكل تير يومورفي. وتزدان الادوات العظمية والعاجية المستمدة من الهام جديد مثل الامشاط والدبابيس، تزدان بصور حيوانية أو بشرية. إنها، وان كانت تستعمل لاغراض سحرية، الا أنها قد تستعمل حرايا. والمسكن عبارة عن ملجأ خفيف ذي سياج، مثل المساكن التي اكتشفت في عسنة.

ونلاحظ استعمال النحاس بصورة تدريجية. وكانت المؤونة تحفظ في غازن محفورة في الارض ولكنها كانت تحفظ أيضا في أوعية، بمستجدة وبدير المدينة. وتكشف مراسم الدفن عن قبور مستطيلة تحتوي على أموات في وضعية على الجنب، رؤوسهم موجهة الى الجنوب وجوههم نحو الغرب ولقد سجلنا حالات دفن متعددة أو أجساد، مقطوعة الاطراف (حوالي ٤٠٠٠ الى ٣٥٠٠).

ويعلو النجادي الاول طبقيا النجادي الثاني (٢٠) في حمامية ومستجدة وأرمنت. و يعثر عليه ابتداء من مدخل الفيوم، في جزرة، الى النوبة المصرية الجنوبية. وفيه تطورت صناعة فخار النجادي الأول التقليدي بتضييق فتحاتها وابرار حواشها. ولقد حلت محل الصناعة الفخارية ذات الزينة الببيضاء صناعة أخرى وردية، لها زينة بنية ومواضيع مقننة رمزية كاللؤلؤ والمراكب والنباتات والأشخاص المرفوعي الايدي. ويتميز النجادي الثاني أيضا بالأوعية الكبيرة البطن ذات العرى المتموجة التي تصبح بعد ذلك أنبوبية الشكل، وتفقد عراها في بداية التاريخ. وعلى العموم، فان الأوعية الحجرية المتنوعة التي كثيرا ما تكون متطورة الأشكال، يلاحظ عليها تقليد أشكال الفخار الوردي. وتشتمل الأدوات الحجرية التي كثيرا ما تكون متطورة جدا، على سكاكين مفلوقة الشطرين ذات طرف شكله شكل «٧» ومن أدوات أخرى لها حدود متعكسة مقعرة محدبة، ولها تزيينات متناسقة جدا على وجه قد صقل سلفا وتغطي المقابض أحيانا بورقة ذهبية أو عاجية. وتكون حدود الدبابيس اجاصية الشكل. وتنتج صناعة النحاس المتطورة حدودا ومساكات وفؤوسا. ان اللوحات المرسومة تدريجيا تصبح في النهاية مستديرة أو مستطيلة. وتبسّط أشكال التماثيل الصغيرة

(١٩) ما قبل عهد الملوك القديم، المذكور في الفصل ٢٨.

(٢٠) ما قبل عهد الملوك الاوسط، أو الفرزي، المذكور في الفصل ٢٨.

العظمية والعاجية هي أيضا بصورة مفرطة. وتحسن تقاليد الدفن. فتغطي جوانب الحفر البيضوية الشكل أو المستطيلة، باللوح أو الغرين أو الآجر. ولقد مكنت الحفريات الحديثة التي قننا بها بأديمة (بعثة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٧٤) من اكتشاف حفر من نمط جديد على شكل أحواض يرجع تاريخها الى نهاية تلك الحضارة. ويخضع تقديم القرابين لقوانين قارة. فهي توضع أحيانا في فروع جانبية. ولقد لاحظنا أحيانا وجود أجساد مقطوعة الاطراف الا ان القبور المتعددة قد زالت، ولم يبق توجيه الموقى قارا. وأصبح السكن يتكون من أكواخ مستديرة أو نصف مستديرة من الطين، ومن مآوى خفيفة وهياكل لتربية الحيوانات مستطيلة الشكل (الامراح) (في حوالي ٣٥٠٠ الى ٣١٠٠).

### المجموعة الثقافية الشمالية (مصر السفلى)

تختلف المجموعات الثقافية الشمالية عن المجموعة الجنوبية اختلافا كبيرا، لا سيما في اتساع التجمعات السكنية وفي الصناعة الفخارية ذات اللون الواحد وفي الدفن المؤقت بالمسكن نفسه. ان الفيومي (ب) (٢١) الذي ليس معروفا معرفة جيدة قد درس في شمال بحيرة منطقة الفيوم تلك. ولعله يعود الى العصر الحجري النهائي أو العصر الحجري الجديد ما قبل الحزفي. وهو يتركب من صفيحات بسيطة ومن حجارة صغيرة منحوتة الظهر ومن حراب عظمية ومدقات. ولقد أبرزت أحدث البحوث مرحلة وسطى بين الفيومي (ب) وهو أكثر قدما، والفيوم (أ)، وهو أقرب مناء ونقترح تسميتها بالفيومي (ج)، وتتألف تلك المرحلة من مراقش وحدود سهام من ذوات الوجهين مغلاقية الساق يمكن تشبيهها بمحدود سهام الصحراء الغربية (سيوة بليبيا) وعلى هذا الأساس تربط الصلة بالصحراء ويمكن تأريخها (بحوالي ٦٥٠٠ الى ٥١٩٠).

أما الفيومي (أ) (٢٢) الذي درس أكثر عمقا بالأماكن السكنية، فهو يحتوي على خزف ذي هيئة خشنة وحيد اللون أملس أو مصقول أحمر أو بني أو أسود. وهو يتألف من أوان وأقداح وأكواب وعلب مستطيلة وأوعية ذات رجل أو مزدانة بدوائر في شكل حلقات على الحواشي كما هو الشأن بالبدري. تتميز الصناعة الحجرية بتقنية متقدمة وهي من ذوات الوجهين وتحتوي على سهام لها قاعدة مقعرة أو مثلثة وحدود وقطع من المناجل أثبتت بمقابض خشبية مستقيمة، وفؤوس مصقولة وحدود ذات قاعدة اسطوانية. ومن الادوات العظمية نجد مثاقب وحدودا قواعدا محذبة. اما لوحات الخضاب الخشنة فهي كلسية ونادرا ما تكون من الديوريت. وكانت الاصداف البحرية وقطع البيض او المكرولين (الامزنييت) تستعمل حبات للنظم. ولا أثر للملاجيء بالاماكن السكنية، لأنها كانت بدون شك خفيفة جدا. لكن يوجد عدد كبير من المواقف المحفورة في الارض مثلما هو الشأن بالشهانب بالسودان.

وكانت المطامير المتكونة من جدار غائرة في الارض مجموعة بجوار المسكن. فكانت تحفظ القمح والشعير والكتان وأشياء أخرى. وكان الخنزير والماعز والثور وقرس الماء والسلحفاة من الحيوانات

(٢١) انظر العصر الحجري الجديد، فيوم، (ب) المذكور في الفصل ٢٨.

(٢٢) عهد ما قبل الملوك البدائي المذكور في الفصل ٢٨.

التي تؤكل لدى تلك الشعوب، ولم نعث إلى الآن على مقابر، ولعلها كانت بعيدة عن عين المكان. ويمكن ان تكون تلك الثقافة معاصرة للبذري (نحو- ٤٤٤١ الى - ٣٨٦٠).

يشمل المرميدي (٢٣) تجمعا سكنيا كبيرا تتجاوز مساحته هكتارين غربي الدلتا. الا ان الحفريات مازالت لم تنته ولم تنشر نتائجها الا بتقارير مختصرة أولية. فهي تبرز ثلاث طبقات متتابعة من أطلال أثرية وتكشف عن تطور ثقافة واحدة خلال العصور وهي ثقافة أصيلة لكنها خاصة بالشمال. ان صناعة الفخار ذات اللون الواحد الملساء المصقولة أو الخشنه تحوى نماذج متنوعة، منها على الخصوص أوعية وأقداح وأطباق وأباريق. لكن لا توجد بها نماذج من عرى ضيقة ذات حواش. وتتكون الاشكال المتميزة من مغارف مثلما هو الشأن في البذري كما تتكون الأواني من نتوءات مستديرة مثلما هو الشأن في البذري والفيومي، ومن الاوعية ذات الأرجل مثلما هو الشأن في الفيومي. وتزدان تلك الأوعية أحيانا بمطاط محفورة على الحاشية أو بخطوط محفورة عمودية أو بمواضيع ناتئة أو حتى برسوم شكلها شكل سعف النخيل. وتندر الاواني المكونة من البزلت أو من الحجر الأخضر الصلب والمنتية برجل من نوع النجادي الاول. وتذكرنا الادوات الحجرية الشائبة الوجه بنفس النماذج الملحوظة في الفيومي. وشاهدنا رأس هراوة اجاصي أو كروي الشكل. أما المشاقب والابر والمسارد والخراب والمساوط والصنارات فلقد نحتت من العظم أو العاج. وتتكون أدوات الزينة من دبابيس للشعر وأساور وخواتم وأصداف مثقوبة ولآليء متنوعة المواد. ولنلاحظ وجود لوحتي خضاب الاولى ترسية الشكل شستية، والآخرى غرانيتية. وهما مادتان مستوردتان من الجنوب. وقد تكونت المساكن في البداية من أكواخ متباعدة خفيفة، بيضوية الشكل مشدودة بأوتاد، وتليها أكواخ أخرى أكثر متانة وأقل تباعدا. وتوجد في النهاية منازل بيضوية الشكل لها جدران مدرية طينية متجمعة على شكل شوارع مصفوفة. تضاف الى تلك الاكواخ مطامير الفيومي، عوضت فيما بعد بجمار غرست بالأرض. وكانت الاموات، - بعضها، لا كلها -، تقبر في حفر بيضوية الشكل بين المساكن دون ان يكون معها أثاث. ويبدو أنها كانت موجهة نحو منازلها. وكان الانسان يرعى الكلب والماعز والشاة والخنزير. وكان يصطاد خصوصا فرس الماء والتمساح والسلحفاة الى جانب تعاطي الصيد البحري. ولقد تطورت تلك الثقافة بين - ٤١٨٠ الى - ٣٥٨٠. ويمكن ان تكون معاصرة للفيومي، ثم تواصلت الى بداية النجادي الأول.

يشمل العمري (أ) (٢٤) ثقافة أخرى من مجموعة الشمال اكتشفت قرب حلوان بين بقايا تجمع سكني كبير يتجاوز طوله الكيلومتر بمدخل وادي خوف. ويوجد فرع من تلك القرية الماقبل تاريخية فوق نجد يشرف على جرف شديد الانحدار، وهو فريد من نوعه بمصر. ان الحفريات التي قننا بها والتي لم تنته بعد، قد وفرت عناصر حضارة جديدة مختلفة عن حضارة الجنوب مثلما هو الشأن في مرمدة والفيوم. فالخزف يشمل أنواعا مختلفة جدا وهو من نوع رفيع يمتاز بأسلوب متطور أكثر من أسلوب الخزف الموجود بالموقعين وان كان وحيد اللون. نجد في الاشكال السبعة عشر التي تتكون منها الاواني الملساء أو المصقولة، الحمراء أو البنية أو السوداء، أوعية لها فوهة ضيقة وأخرى بيضوية الشكل

وأقداحا وأخرى اسطوانية وأوعية خزفية واسعة أو مقعرة وأخرى هرمية وجراراً. ولا تشابه أوعية مرمدة والفيوم إلا الأوعية ذات الحلمات. وكانت تستعمل أوعية نادرة من الكلسيت أو البزلت. إن الصناعة الصوانية ذات الوجهين لا تختلف عموماً عن صناعات المواقع السابقة. لكن الصناعة الصفائحية قد وفرت أنماطاً متميزة جديدة بمصر: فهي تشمل سكاكين مقوسة الظهر معكوفة نحو الحد، وبقاعدتها مقبض صغير متكون من فريضتين يحتمل أنها بقايا «التتوفيين» الذين أقاموا في العهد السابق بنفس المنطقة. ويمكن أن نذكر أيضاً أثقال الشباك من نوع عثر عليه بالخرطوم والفيومي والصحراوي النيجري، حيث توجد أيضاً صناعة ذات شظايا وافرة. وتمثل الصناعة العظمية من النوع الرفيع النماذج الكلاسيكية. إلا أن الصنارة كانت مصنوعة من القرن. وتشمل أدوات الزينة الكثيرة العدد أصداًفاً بطنية الأرجل من البحر الأحمر ولآلئ منحوتة من بيض النعام والعظم والحجارة وفقرات الأسماك. وكانت النوميليات (Nummulites) الأحفورية المثقوبة تستعمل أقراطاً. وكان الكلين والصمغ يستوردان. أما اللوحات المستعملة لهرس المغرة (التراب الحديدي) فهي من النوع الخشن ومصنوعة من الكلس والصوان. وكانت الحيوانات تتكون من البقر يات والماعز والظباء والخنزير ورفس الماء، والكلب، والنعام والحلزونات والسلحفاة وعدد كبير من الأسماك وكان يزرع بالمكان القمح والشعير والكتان، وكانت النباتات تتكون من الحماط والنخيل والأثلة والحلفاء وكانت المساكن على نمودجين، منها ما كان ذا سقوف مسنودة بأوتاد وكانت بيضوية الشكل، ومنها ما كان محفوراً جزئياً في الأرض وسطوحها مدورة. وهي تمتاز بمساحتها الكبيرة على مطامير الحبوب المنتشرة في كل مكان تقريباً. إن الموقى المقبورين في القرية نفسها قبراً أكثر كثافة مما هو موجود بمرمدة، كانوا مصنفين عموماً حسب توجيه قار، وكانوا كلهم موضوعين في أوعية تربية، رؤوسهم إلى الجنوب وجوههم نحو الغرب. وكان أحد الموقى — ولعله كبير منهم — يحمل صولجاناً خشبياً (الصولجان «أميس») له شكل كان معروفاً في شمال البلاد في العهد الفرعوني (حوالي ٣٣٠٠-٣٠٠٠).

وقد ظهر العمري (ب) (٢٥) ثم تطور في بداية النجادي الأول. فلقد تعرفنا عليه بشرقي الموقع السابق، وهو يختلف عنه اختلافات عدة فيما يتعلق براسم الدفن والصناعة. فلقد كانت المقبرة المتميزة عن التجمع السكني تحتوي على أضرحة مغطاة بحثة من الحجارة. ولا توجد قاعدة قارة يعتمد عليها في توجيه الجثث. أما فيما يتعلق بالتجمع السكني الذي هو أقل اتساعاً من تجمع العمري (أ) فإننا لم نشته بعد من البحث فيه. وإذا كانت للخزف سمات مشتركة، فإن الأدوات الحجرية كانت متخالفة تماماً. إن العمري الذي يعتمد تقنية صفائحية يتكون من سكاكين صغيرة ومكاشط صغيرة الحجم، مستوية ومدورة، ومن قطع صغيرة. وفي انتظار مواصلة أعمالنا، يصعب علينا الآن أن نحدد تاريخ الموقع بالنسبة إلى العمري (أ).  
اكتشف المعادي (٢٦) بعد إجراء حفريات لم تكتمل، وذلك بتجمع سكني مجاور لمقبرتين

(٢٥) يمكن ترتيبه في عهد ما قبل الملوك الحديث، المسمى أيضاً بالجزري الحديث، وهو مذكور في الفصل ٢٨. إلا أن تحديد تاريخه مازال غير ثابت.

(٢٦) لعله ينتسب في قسم منه على الأقل إلى عهد ما قبل الملوك أو الجزري الحديث (انظر الفصلا ٢٨) ولكن يمكن أن يكون معاصراً لعهد ما قبل الملوك الأوسط أو الجزري (انظر الفصل ٢٨).

بالمعادي، قرب القاهرة كما اكتشف بعد حفرة قننا بها بمقبرة ثالثة عثر عليها بعين شمس (ضواحي القاهرة). ان ثقافة ذلك التجمع على غاية من الطرافة وهي لا تتبع زمنيا بصورة مباشرة ثقافة العمري بل تمثل مجموعا ثقافيا ثانيا من مجموعة الشمال. ان خزفه ذا اللون الواحد يبدو أقل رقة من خزف العمري. فهو خصوصا أملس ولونه أسود أو بني. وندر ان يكون أحمر أو مغلفا بعجين أبيض. أما النماذج المتوافرة فهي متكونة من أوعية بيضوية الشكل، طويلة العنق، لها حاشية بارزة. وقد لاحظنا وجود أوعية صغيرة كروية لها أطواق غالبا ما تكون مزدانة بنقط منقوشة. وتوجد أوعية أكثر تميزا لها قاعدة متكونة من حلقات ناتئة مدورة تذكرنا بأوعية البزلت من ذلك النموذج، وهي موجودة أيضا بالمكان. أما الأوعية التي لها زخرفة بنية من النجادي الثاني، فهي نادرة وربما تكون مستوردة من الجنوب، ويوجد فيها أيضا أوعية كبيرة البطن لها عرى متموجة موجودة في النجادي الثاني وفي فلسطين. ان تلك الأوعية تدل على تواصل العلاقات الثقافية المستمرة بين النيل وفلسطين. وتشابه أوعية البزلت الأنبوية كذلك أوعية صعيد مصر في عهد النجادي الأول. وهناك صناعة حجرية صفائية عديدة رفيعة، وقد نحتت من جديد في شكل أدوات اختصت بها تلك الثقافة المعادية. اما السكاكين المفروقة التي لها شكل حرف (U) فهي أقل عددا، ولعلها هي أيضا مستوردة من النجادي الأول. وقد لاحظنا قلة في أدوات الزينة الا ان بعض اللوحات الشستية المعينية الشكل قد جاءت هي أيضا من النجادي الأول. أما اللوحات الاخرى فهي إما صوانية أو مجرد قلامة صوانية بسيطة مسطحة.

إن أهم ما تتميز به الثقافة المعادية هو أنها توفر لنا لأول مرة ضمن ثقافات عهد ما قبل الملك، دليلا على استعمال النحاس على نطاق واسع. وبيننا نجد أن الفيومي والمريدي والعمري لم تعرف النحاس أبدا، فقد كان مستعملا في صعيد مصر منذ عهود قديمة جدا. وكان سكان الوادي منذ البدري وإبتداء من النجادي خاصة يستغلون المناجم الصغيرة المجاورة لهم في المنطقة الجنوبية من الصحراء الشرقية. ولقد تم فعلا العثور على مقصات ودبابيس ومثاقب وصنارات وفؤوس من النحاس. ويبدو ان أنواعا من الموارد المعدنية قد وجدت في نفس الوقت في ذلك المكان. وأصبح ذلك المعدن مشهورا بالمعادي. ونحن ننسب ذلك الوضع من الأشياء الى اتصال المعادين بالمناجم المعدنية في ذلك الوقت بسيناء. وتؤكد العلاقات بوجود سماء مشتركة عديدة مع الشرق. وفضلا عما ذكرناه أنفا من وجود صناعة الفخار في فلسطين يمكن ان نذكر كذلك بعض الادوات الصوانية والمنغنيزية. وتتكون الحيوانات من بقرات وماعر وشياه وخنازير وأفراس ماء وسلاحف وأسماك، وكان النبات يتكون من القمح والشعير والخروع والحلفاء.

أما فيما يتعلق بالتجمع السكاني فقد وجدنا عددا كبيرا من الأوتاد المغروسة في التراب مكنتنا من اثبات وجود أكواخ بيضوية الشكل وآثار ملاحية بسيطة. وقد اكتشفنا أيضا أكواخا أكثر تطورا، مستطيلة الشكل، مبنية بالآجر مثلها هو الشأن في محسنه، كما اكتشفنا أكواخا أخرى تحت الأرض يدخل إليها بالادراج. وكانت الجرار الغائرة في الأرض تستعمل مطامير للحبوب. وكانت الحفر المستديرة مخازن مؤونة وتخفي غالبا أوعية مثلها هو الشأن في النجادي. وكانت المقابر المنفصلة عن القرية تحتوي على قبور مستديرة أو بيضوية الشكل، وليست مستطيلة أبدا. فهي تحوي جثثا منشئية على الجنب، رؤوسها موجهة غالبا نحو الجنوب وجوهها نحو الشرق وتصاحبها تماثيل أوعية.

وكانت تدفن أيضا في تلك المقبرة الغزلان التي كانت تعتبر بدون شك حيوانات مقدسة وغالبا ما تكون مصحوبة بأوعية كثيرة. ولقد اكتشفنا بطرف مقبرة عين شمس صفا من الكلاب الموجهة الى كل ناحية، وغير مصحوبة بأدوات جنازية، فلعلها كانت تقوم بدور الحراسة مثلها كانت تفعل لما كانت حية، ولم تبق الا لآثار قليلة إلى الآن نظرا لصغر الموقع.

ان هذه الثقافة لم تحل في الحين محل العمري، بل ظهرت عند نهاية النجادي الأول، واستمرت في تطورها الى غاية انتهاء النجادي الثاني في صعيد مصر.

## استمرار العصر الحجري في العهد الفرعوني

بعد ان تحدثنا عن التيارات التي عرفتها مصر قبيل عهد الملوك، يجدر بنا الآن ان نلخص خصائصها، وان نحاول شرح أسباب تباعدها ثم أخيرا تقاريرها في العهد الفرعوني.

اننا نجد، في تاريخ الفراعنة الطويل، اشارات الى مصر الشمال ومصر الجنوب، وكيف وحد بينهما مينيس الشهير، مؤسس السلالة الملكية الاولى. والحقيقة ان هذه الاشارات تركز على وقائع ملحوظة ترجع الى غياهب الماضي، بل الى ما قبل التاريخ.

وقد رأينا كيف أثبتت الحفريات الحديثة صحة هذه السنة المتبعة، وكيف ان هذه الفوارق الجغرافية بين شمال البلاد وجنوبها، كانت موجودة منذ المرحلة المسماة «العصر الحجري الجديد».

ولم تكن هذه الفوارق جغرافية فحسب، بل كانت تشمل عدة ميادين من حياة الانسان، الى درجة أنه تولدت عنها مجموعتان ثقافتان كبيرتان مستقلتان عن بعضهما، تستمدان طاقتها من ظروف طبوغرافية وبيئية مختلفة. وقد انبثقت مجموعة الجنوب على طول مجرى النيل الضيق، محصورة بين جرفين قاحلين، أما مجموعة الشمال، فقد نشأت في دلتا النيل الخصب الواسع ذي الآفاق المترامية الأطراف.

ولقد تفرعت عن مجموعة الشمال عدة ثقافات هي متشابهة من حيث الخطوط العامة ولكنها متميزة من حيث التفاصيل، وهي الى حد ما متعاقبة زمنيا. ورغم وجود الأصل المشترك، فإن مجموعة الجنوب لها خصائص تميزها تميزا واضحا عن ثقافات الشمال. وهذه الفوارق ملحوظة في خصائص كل من المجموعتين اللتين تشكلت من اتحادهما فيما بعد مصر الكبرى.

وهكذا، فنذ البداية، لوحظ في شمال البلاد تطور مدني معتبر. ففي الفيوم نشأت قرى صغيرة متقاربة بعضها من بعض. وفي مرعدة قامت مدينة بأتم معنى الكلمة وامتدت على ما يقرب من مئتي هكتار، اصطفت فيها المنازل. وامتد العمري على طول قدره كيلومتر، والمعادي على كيلومتر ونصف، أما في الجنوب، فنظرا الى ضيق المواقع، لم يبق من آثار المدن الا القليل.

وفما يتعلق بالانشطة الاخرى التي لها صلة بحياة الانسان وأعماله بمصر في ذلك العهد، فإن الصناعة الفخارية الشمالية سواء كانت بنية أم سوداء أو حراء، قد بقيت رغم تطور الأشكال ومحافظة على اللون الواحد المستقر، وتميزت بانعدام الزخرفة انعداما كاملا. وخلافا لذلك فإن تعدد الأشكال وتقدم الزخرفة تقدما كبيرا في الجنوب قد ظلا علامتين مميزتين مع الأوعية الشهيرة ذات الحواشي السوداء..

ولئن ظهر في خزف الشمال بعض النقص فإن العكس يظهر في الصناعة الصوانية التي تدل على دقة رائعة في صياغتها. ولقد بلغ اتقان نحت بعض القطع في الجنوب مستوى رفيعا. ان الشمال فقيرا فقرا تماما في ميدان الفن المحض، وبذلك يقف على طرفي نقيض مع ما بلغه الجنوب من ازدهار كبير. ولقد ظهر ذلك الازدهار في الجنوب منذ البدري وتحلى في تماثيل رائعة من العظم والعاج أو الطين المحروق، وفي أدوات الاستعمال اليومي كالامشاط والمعالق وجواهر الاقراط واللوحات الجميلة جدا، التي يسحق بها الحضاب، والحروز المنحوتة من الشيست الأخضر. لذلك ندرك الاختلافات الكبيرة في ميادين متنوعة بين الشمال والجنوب بمصر. فنلاحظ ان الشمال بلغ تقدما عاليا من الناحية العمرانية والاقتصادية وأن الجنوب بلغ مرحلة فنية متقدمة جدا معلنة عن عهد الفراعنة. وسيكون توحيد هاتين الثقافتين المتكاملتين هو السبب الرئيسي لعظمة مصر في عهد الفراعنة.

الا ان حلول الغهد التاريخي الذي واكبته الكتابة وتوحيد مصر تحت سلطة واحدة، وتقدم استعمال المعدن، لم يغير كما كان منتظرا بعض مظاهر عيش السكان بالوادي. وينطبق هذا على التماذي في استعمال الصوان خاصة وهو مادة ناجعة جدا كانت متوفرة في البلاد طيلة العهد الفرعوني.

وما يستحق الذكر ان الاتقان العظيم في نحت الصوان قد بلغ أوج ازدهاره في عهد الأسر المالكة الأولى، وتدل على ذلك السكاكين الرثة التي تسمى سكاكين «القربان» وأضرحة أبيدوس الملكية في صعيد مصر وسقارة أو حلوان قرب القاهرة، حيث ان اتقان صناعتها وحجمها الرائع يثيران الإعجاب. وقد عثر أيضا في أطلال مساكن ذلك العهد على أدوات منزلية من الصوان وبعض أدوات نادرة جدا من النحاس في هيركمبوليس والقاب، بصعيد مصر ووادي حمامات بالصحراء الشرقية.

واكتشفنا في آثار الامبراطورية الوسطى بطيبة القديمة أي بالكرنك عددا وافرا جدا من الادوات الصوانية وهي تختلف من حيث تقنية صنعها وتنوع أدواتها عن الأدوات المستعملة طيلة العصر الحجري القديم الاعلى والعصر الحجري القديم اللاحق. وقد لاحظنا كذلك عددا وافرا من المناقش والادوات المتكونة من الحجارة الصغيرة.

ان الاستكشافات النظامية التي قنا بها منذ ١٩٧١ من جهة أخرى مجيل طيبة والأقصر بينت ان أكثر من نصف الـ ٢٠٠ معمل لنحت الصوان لا يعود الى ما قبل التاريخ بل الى الامبراطورية الوسطى وكانت هذه المعامل تزود العاصمة بأدوات مصنوعة حسب تقنية تعتبر أختش من تقنية الامبراطورية الوسطى. وتتكون من صفائح وسكاكين وقطع مناجل ظلت موجودة طيلة العهد الأسفل.

لم يقتصر استعمال الصوان في عهد الفراعنة على الأدوات المنزلية فحسب، فلقد استخدمت أهلة من الصوان لحفر الأساور الشستية بوادي حمامات وهي أدوات للزينة استعملت من أول التاريخ الى نهاية العهد العتيق واستعملت في نهاية الأسرة المالكة الثالثة لقطع الكتل الحجرية الكبيرة في وقت ما لبناء الهرم من عهد فرعون زوزر الى عهد فرعون سقارة. وقد حفرت الأواني المصنوعة من



حجر رخو ببتلك الآلات نفسها الى عهد الامبراطورية القديمة في معامل الفيوم بجوار مناجم الكلكسيت.

ولقد كانت سهام المحاربين المصريين منذ الاسرة المالكة الاولى الى عهد الامبراطورية الجديدة مسلحة بمحدود قاطعة من الصوان. ولنلاحظ ان سهام فرعون توت أنخ أمون (الأسرة المالكة الثامنة عشرة) كانت من عجين البلور. وهي مادة نفيسة فعالة مثل الصوان.

وقد استعملت مصر الفرعونية أيضا صخورا أقل رخاوة من الصوان لصنع أدوات تؤدي وظائف معينة، ان المعاول والمطارق الخاصة بالاشغال المنجمية أو المحاجر والتي لها أعناق تمسك بها، قد كانت من الحجر الصلب طيلة الامبراطورية القديمة. وقد أصبحت أكثر خشونة وكانت من الكلس السلسبي في عهد الامبراطورية الوسطى والامبراطورية الجديدة. فلقد حفرت وهيتت بواسطة تلك الآلات الحجرية الخشنه، الدياميس المقبرية التابعة للامبراطورية القديمة بالجيزة (قرب القاهرة) ودياميس الامبراطورية الوسطى بمصر الوسطى، ودياميس الامبراطورية الجديدة في جبل طيبة.

أما فيما يتعلق بالنوبة المصرية وقسم من النوبة السودانية اللتين غطتها المياه في الوقت الحاضر، فان الابحاث الاثرية لم تجر حسب ما يرام اثر عمليات الانقاذ. وذلك ما حرمتنا مع الأسف من معلومات كثيرة ثمينة تتعلق بماضي تلك المناطق لا سيما بدوام استعمال الحجر في العهود التاريخية.

الا ان المواد الاثرية المجلوبة من قرية تنتسب الى مجموعة (ج) النوبية (الامبراطورية الوسطى) (في سبوعة) مكتنتا من التعرف على عدد من الصفائح والصفائح وقطع من المناجل من الصوان. ولا شك ان هذه الاخيرة التي استوردت من مصر تشابه تماما ما يرجع تاريخها الى نفس العهد والتي اكتشفت أخيرا بالكركن وقد سبق ان ذكرناها.

ونجد من ناحية أخرى في أماداء، وهي قرية أخرى من مجموعة (ج) موجودة أيضا في النوبة المصرية جرت بها حفريات أشرفنا عليها، نجد أدلة أخرى على استمرار العصر الحجري في العصر المعدني. فلقد كانت الصفائح وقطع المناجل مثلما هو الشأن بسبوعة تأتي من مصر.

وقد اكتشفنا فضلا عن ذلك بموقع أماداء حدود سهام صغيرة من حجر يمان أو عقيق تضاف الى تلك الصناعة الحجرية المستوردة. ووجدنا فؤوسا مصقولة من الحجر الصلب المحلي.

أما فيما يتعلق بالنوبة السودانية فان الحفريات التي جرت في الحصن المصري بمرغسة قد وفرت — كما كان متوقعا — أسلحة. فوجدت ضمن تلك الأسلحة التي تعود الى الأسرة المالكة الثامنة عشرة سهام من نوع كلاسيكي، أي لها حدود قاطعة من الحجر المذكور سابقا. وتكن الظاهرة الجديدة في أن رؤوس الرماح لم تكن من المعدن مثلما هو الشأن في مصر الفرعونية في ذلك العهد، ولكنها كانت من الصوان قد صيغت حسب نحت ذوات الوجهين المتقن، وتشبه النحت المستعمل في العصر الحجري الجديد. وقد كانت غاية احياء تلك الطريقة اعادة صنع حدود الرماح المعدنية بأدق طريقة ممكنة. وبما أنه كان من الصعب الحصول على المعدن وعلى الرماح المصنوعة في تلك الفترة بتلك المنطقة البعيدة، فان هذا الامر قد ساعد في الرجوع الى تقنية صناعية تركت منذ آلاف السنين.

## الخاتمة

ينبغي، بعد ان استعرضنا استعراضا اجماليا تاريخ البشر الأول الذين أقاموا بوادي النيل، ان نضع التقويم، وان نذكر المكاسب وان نشير الى النقائص الهامة العديدة.

ان الاكتشافات الحديثة جدا المتعلقة بالعهود العتيقة تاريخيا تسمح لنا بالتأكيد على وجود أول انسان بدائي معروف وهو الانسان الألدواي، ليس بإفريقيا الجنوبية والشرقية فحسب بل كذلك في القسم الشمالي من وادي النيل أيضا. اننا نعرفه اعتمادا على أدوات حجرية كثيرة. ولكن يستحسن متابعة البحوث لتستكمل الوثائق العظمية المتمثلة الى حد الآن في سن بشرية وحيدة. فيجب ان تجرى استكشافات مماثلة تتعلق بذلك العهد في القسم السوداني الذي يمثل نقطة اتصال مع اثيوبيا حيث حدثت اكتشافات رائعة تخص ذلك العهد.

أما الأدوات الحجرية الراجعة الى العصر الحجري القديم فلقد حلت تحليلات وافيا من حيث خصائصها في منطقة وادي حلفا فحسب وذلك على سبيل التقريب. ولقد وفرت أدوات طيبة معطيات تخص أقدم مرحلة. لكن ما زالت قضايا كثيرة تحتاج الى التوضيح، منها ما يتعلق بالأجناس البشرية طيلة ذلك العهد.

أما فيما يتعلق بالعصر الحجري الوسيط، فالشواهد الحجرية كثيرة على طول وادي النيل. فلقد تحقق دائما تقدم كبير في منطقة وادي حلفا مما سمح لنا بأن ندرك أحسن ادراك مرفولوجية أدوات ذلك القسم فحسب. ان الحصيلة المثمرة التي توفرت بجمل طيبة مازالت تحت الدرس وستسمح بمقارنات مفيدة بحصيلة الجنوب. وتعتبر قطع من العظم القذالي هي البقايا البشرية الوحيدة التي استخرجت الى حد الآن. ولقد عثر بالصحراء الليبية في الشمال الغربي لوادي حلفا على أدوات حجرية لأول مرة لها صلة بمجوانات. ومازالت مناطق سودانية شاسعة لها صلة بتلك الفترة تحتاج الى ان تستكشف.

لقد لوحظ أيضا وجود العطارى، الذي يكاد يكون معاصرا بالقفر الموجود بالشمال الغربي من أبي سنبل، أن تلك الصناعة المتصلة بمجوانات، والتي أصلها من الشمال الغربي الإفريقي قد دامت الى عهد متأخر بتلك المناطق. وقد يكون من المهم أن نقدر الى أي حد يوجد تقارب في السن مع مكتشفات أخرى بمصر، وهل أثرت في صناعات مصرية محضة.

أما فيما يخص العصر الحجري الجديد والعصر الحجري القديم اللاحق، فان الاكتشافات التي حصلت في بقاع معينة قد وفرت أمورا عديدة كانت مجهولة الى حد الآن. وربما بالغنا في وضع تسميات جديدة مركزة على دراسات احصائية وتحاليل فيزيوكيميائية تنقصها الدقة أحيانا. ولعل السبب في ذلك هو انعدام رسوم طبقية أرضية.

ولقد وقع تحقيق تقدم لا ينكر فيما يخص العصر الحجري الجديد (وتلك تسمية لا تؤدي مفهوما دقيقا بمصر) وعهد ما قبل الملوك على طول وادي النيل.

واعتبارا لذلك فان مواقع المجموعة الثقافية الجنوبية في مصر قد وفرت وثائق كثيرة استخرجت من المدافن خاصة. ويستحسن أن تجري أبحاث على صعيد أوسع في التجمعات السكنية التي ستوفر لنا سجلا أكمل عن السكن والفخار المستعمل والأدوات الحجرية المستعملة.

ولما كانت المواقع المصرية لم تحفر حفرا شاملا بسبب المساحات الكبيرة التي تشملها، فهي لم تعرف الا بالاعتماد على تقارير ناقصة. ولقد وفرت رغم ذلك معطيات أكثر اكتمالا من المواقع الجنوبية المعاصرة، وقدمت توارخ ثقافات مختلفة وفرتها بحوث حصلت بالمداخن مثلما حصلت في الأماكن السكنية أيضا. فينبغي إذن مواصلة الاكتشافات المتوقفة منذ عدة سنين بتلك المنطقة الشمالية المصرية لأسباب مختلفة، حتى تكتمل وثائقنا.

أما فيما يتعلق بالنوبة السودانية، فإن حضارات عديدة متميزة تنتسب الى تلك العهود قد درست دراسة دقيقة، تذكر منها الخرطومى والشهانبي اللذين كانا يبدوان أكثر الحضارات تمثيلا لذلك العهد الى حد الآن. ونحن ننتظر القيام بعمل واسع لأن عشرات المنشآت التي عثر عليها تعود الى تلك الثقافات أو الى مراحل زمنية مختلفة، وهي تنتظر متى يعنى بها الباحثون. ان هدفنا من هذا التحقيق يرمي الى المساهمة في ضبط حلقات التاريخ الافريقى قبل العهد الفرعونى.

## الفن الإفريقي في ما قبل التاريخ

بقلم: ج. كي زيربو

لا يكاد يظهر الإنسان، حتى تظهر معه الأدوات، ويظهر معه الانتاج الفني (الإنسان الصانع، الإنسان المبتكر). وهذا الأمر يصدق أيضا على ما قبل التاريخ الإفريقي. فنذ آلاف السنين، أتلّف الإنسان والعناصر الطبيعية ذخائر ما قبل التاريخ في إفريقيا بل تعتمد الإنسان ابتداء مما قبل التاريخ نفسه، الاتلاف، وذلك لأسباب تعبدية سحرية. ان المستعمرين من المدنيين والعسكريين، وكذلك السواح والنفطيين والأهالي، ما انفكوا يقومون بالتخريب و«التهب المشين» الذي تحدث عنها ل. بالوت في تمهيدته للنشرة المخصصة للتعريف بالعرض حول «الصحراء قل ان تصبح قفرا».

ان فن ما قبل التاريخ يزين عموما الهضاب والجبال من إفريقيا وتعتبر الجبال العالية والمنخفضات وأحواض الانهار والغابات بالمنطقة الاستوائية من إفريقيا أقل ثراء في هذا الميدان ان قارناها بما سبق من المراكز المحظوظة.

قد حددت تلك المواقع في مستوى المنحدرات الصخرية التي تتكون منها حروف الأراضي العالية ولا سيما ان كانت تشرف على تلغ الانهار الحالية أو الاحقورية. وتشكل إفريقيا الصحرواية وإفريقيا الجنوبية الوطنيين الاساسيين. ولقد عثريّن الاطلس والغابة المدارية من جهة وبين البحر

---

(١) تحدث ه. لوط عن عسكريين فرنسيين بالجزائر طمسوا في ١٩٥٤ بالألوان الذهبية اللوحة الرائعة التي تمثل فيلة حجرة محصرات ليحسنوا تصويرها. وخرب آخرون برصاص رشاشاتهم الجدار القريب من نقش العقرب الكبير في قرعة الطالب، وفي بني ونيف هدمت القمم المزينة بالنقوش لتستعمل في بناء المساكن الخ... انظر في هذا الشأن ه. لوط ١٩٧٦. ولا يمكن أيضا أن يسلم بعض الاختصاصيين أنفسهم من اللوم. فهذا اميل هلوب قد فكك قطعاً عديدة ونقلها الى فيينا في نهاية القرن التاسع عشر.

الأحمر والمحيط الأطلسي من جهة أخرى، على المئات من المواقع التي تحتوي على عشرات بل على مئات الآلاف من النقوش والرسوم. ولقد أصبح البعض من تلك المواقع مشهورا عالميا، بفضل أعمال علماء ما قبل التاريخ من الفرنسيين والإيطاليين والانقلوسكسون، والافارقة الذين يتزايد عددهم، وذلك بالجزائر، جنوب وهران وبتاسيلي - أن - أجر (جبارن - سفر - تيسوكاي - جنات - الخ...) وبجنوب المغرب وفزان (ليبيا)، وكذلك في العاير وتينيري (النيجر)، وتيبستي بتشاد، وبالنوبة، وبجبل الحبشة، وبظهر تشيت (موريتانيا)، وبمسامدس بأنغولا. و يوجد المركز المهم الشافي في المخروط الجنوبي من افريقيا بين المحيط الهندي والمحيط الأطلسي، في لوسوطو وبوتشوانا، وملاي ونغوان، ونميبيا وجمهورية جنوب افريقيا، وخاصة في ولاية أورانج الحرة، ومنطقة الفال والترنسفال الخ. فهناك توجد الرسوم في ملاحيء حجرية، وتوجد النقوش مكشوفة وتعتبر المغارات مثل مغارة كانغوشينا استثنائيا وقل ان تجد بين الاقطار الافريقية بلدا لم يكتشف به آثار فنية أو آثار من عهد ما قبل التاريخ. والحقيقة ان الاستكشاف لا يزال في خطواته الأولى.

كيف نفسر هذا الازدهار في الاراضي القاحلة والسباسب؟ أولا لأن الأراضي لم تكن قاحلة في ذلك العهد، ثم ان تطورت تلك المناطق الى حالتها الراهنة جعل منها متاحف طبيعية نظرا لجفاف الهواء نفسه، والدليل على ذلك أنه اكتشف في الصحراء مثلا أشياء ثابتة على حالتها في مواقعها الاصلية منذ آلاف السنين. فلماذا حدث ذلك على حواشي الاودية التي تخترق الهضاب؟ حدث ذلك لاسباب سكنية ودفاعية ولإمكانية توفير الماء وقرب مواقع الصيد. ومثال ذلك في التاسيلي الصلصالي المقلوب حول النواة البلورية لجبال الهقار، والمشرف على الجنوب من ارتفاع ٥٠٠م، حيث تضامر تناوب الحرارة والبرد، وسيلان المياه في حفر افريزات وخبايا هائلة تحت الصخور، تشرف على تلغ الانهار. وأبلغ مثال على ذلك هو المنحبا الكائن تحت الصخور في تين تازا ريفت. ولقد حفرت الرياح من جهة أخرى في الهضاب الصلصالية أروقة طبيعية سرعان ما استغلها الانسان. ذلك هو الاطار الطبيعي الذي مثلته بكل أمانة ودقة، رواثع الرسوم الجدارية الافريقية.

## الترتيب التاريخي والتطور

### المناهج ومشاكل ضبط التواريخ

كثيرا ما تظهر في هذا المجال، طريقة دراسة الطبقات المتصلة بالصخور الثابتة ذات فائدة محدودة، ذلك ان المناخ الرطب المتواصل خلال عصور طويلة في ما قبل التاريخ تسبب في تذويب عميق للطبقات التي تغطي أرضية المنحبا. لكننا نجد في بعض الاحيان بجنوب افريقيا نقوشا تحت الرسوم. وقد يعطي حظام المواد العضوية المتساقط من الجدران على طبقة غير منسوبة، قد تعطي بعض العلامات. الا ان تعرية تلك الطبقات وتغطيتها، عمدا في بعض الأحيان، تشوش ضبط التواريخ التي يأمل الباحث أن يستخلصها، حتى ولو كانت نسبية.

لذلك يستعان في بعض الحالات بزنجار الرسوم وقواعد الصخرية مع دراسة مقارنة لتحولاتها اللونية، وتعتبر هذه الطريقة ملائمة لأنها مرتبطة بالموضوع نفسه، الا أنها تفترض أن الزنجار الأكثر وضوحا والاكثر اختلافا مع لون الصخرة الأم هو الاحداث لان ظهور الزنجار يطرأ ببطء على كل

الصخور حتى على الصلصال الأبيض. وتلك عملية شبيهة بتشكيل اللاتيريت اذ ان الأكسيدات والكاربونات التي تسربت في شكل سوائل من جراء المطر أو الرطوبة تتصاعد الى السطح جذبا وتشكل بعد التبخر قشرة صلبة وداكنة نسبيا حسب قدمها. وهكذا تتكون لنا الرجوع الى الصخور الشابتة قاعدة نظرية لضبط التاريخ النسبي. لكن العوائق كثيرة اذ ان الامر كله مرهون بطبيعة الصخور وبوجودها بالشمس أو في الظل أو في الهواء الطلق أو معرضة للرياح الخ... ان ضبط التاريخ بهذه الكيفية لا يمكن ان يكون الا نسييا (٢).

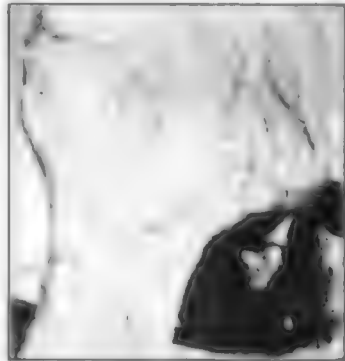
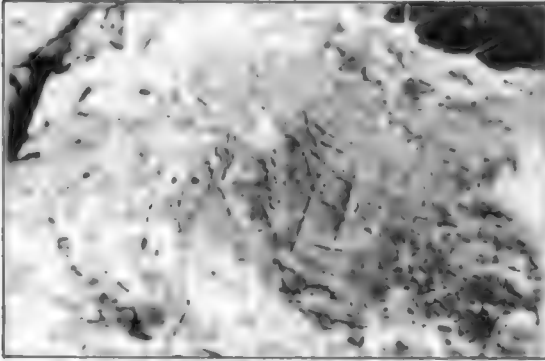
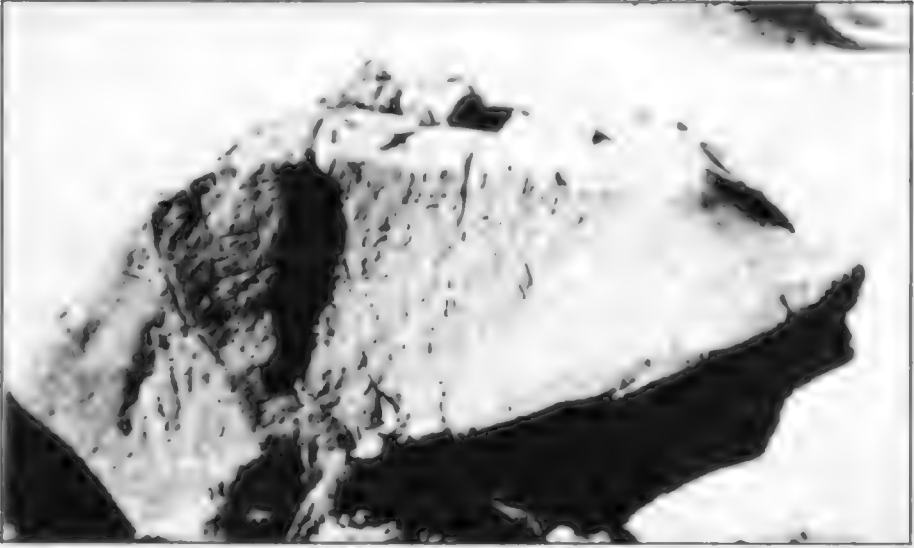
و يستند في بعض الحالات الى الحيوانات الممثلة في الرسوم للحكم على قدم اللوحات، نظرا الى ان كل الانواع لم تعيش في نفس الحقب الزمنية الكبرى. فالحريم مثلا هونوع قديم جدا قد اندثر ولا يعرف الا بالاعتماد على أحفوره العظمية. ولكن، ألا يمكن أن تكون تلك الحيوانات قد رسمت للتذكير بعصر سالف؟ ان الأساليب لا تشكل أيضا - مثلما سنرى - دليلا مضبوطا، اذ ان ذلك لا يكفي ويبدو أول وهلة ان الملاحظة هي الغالبة مما يؤيد وجود أثر شبه طبيعي مميز الا ان النقوش الحيرمية بالصحراء الكبرى تعتبر من جهة أخرى سابقة غالبا للرسوم ولذلك فان الاشياء الموجودة تحتها والتي تتميز بنفس النوع من التسميات الموجودة بالرسوم هي مبدئيا معاصرة لها. لكن لا يمكن ان نعتد هنا أي قاعدة عامة. ويستعان كذلك أحيانا بطريقة أخرى وهي ضبط التاريخ النسبي انطلاقا من الإضافات، باعتبار ان السمات الطامسة لسمات أخرى، هي أحدث منها. لكن الزيادات لا توجد في كل مكان. يضاف الى ذلك ان تلف الصخور وتحول الالوان غالبا ما يجعل التأويل غير ثابت ومتضاربا (٣).

على أنه تبقى، بطبيعة الحال، طريقة الكربون ١٤ وهي طريقة مثالية، لكن تطبيقها نادر جدا للأسباب التي وقع التعرض لها سابقا، كما يستوجب استعمالها الكثير من الحذر. ألم يكن حطام الرسوم متصلا بمواد عضوية حديثة العهد؟ أو لم تنشأ قطعة الكربون من حريق أحدثته صاعقة؟ ومع ذلك تتكاثرت التواريخ من هذا النوع شيئا فشيئا. ففي منيت مثلا، بالصحراء الوسطى، وفر كربون من طبقة عميقة تاريخا قدر بـ ٥٤١٠ + ٣٠٠ قبل الحاضر.

ويمكن للسياسة أن تتدخل أيضا في ضبط التاريخ، ومن ذلك ان المراقبين البورز (Boers) لا يعترفون إلا على مضض بعراقة الحضارة الفنية للافارقة الاصليين، لذلك فانهم يحاولون اختزال التطور بطريقة التداخل أو بالتطبيق الآلي لطرق التقدير التي يستعملها علماء ما قبل التاريخ الاوربيون. ففي هذه الظروف يرجعون لوحات الدراكنسيرغ الى ما بعد القرن السابع عشر أي بعد قدوم البنتويدة طويلة. ولكن، هل من المعقول ان تكون قبائل (سان) قد انتظرت نزاعاتها مع البانتو حتى يكونوا فنا يستلزم ابتكاره حدا أدنى من الاستقرار؟ وذلك بغض النظر عن ان

(٢) ان غير شكل الخط يتحول في النقوش تحت تأثير تفاعلات فيزيائية كيميائية من شكل «V» الى شكل واسع ومسطح لا يدل الا بصفة تقريبية جدا على عمر اللوحة.

(٣) طبق لاجو أحد الطرق التقنية الفوتوغرافية على لوحات ابنا هوانغات (تاسيلي). فالأشخاص الحمر الذين نراهم كأنهم مرسومون فوق رسم امرأة ملشمة لونها أخضر ضارب الى السمرة ليسوا كذلك تماما. وذلك لأن الزينة البيضاء للمرأة قد أضيفت في مرحلة لاحقة فوق الأشخاص الحمر. ان ممارسة إعادة تلوين الرسوم الجدارية الاسترالية (وند جينا) كتي تردد ووضوحا تعتبر شائعة ويقرها السكان الأصليون بمكايات أسطورة للاستسقاء. وقد لاحظ ذلك أيضا ل. فرو بنيس عند الشبان السينيغاليين.



٢

٣

- (١) نقش صخري لخرتيت، من  
بلاكا في النيجر. (تصوير هـ. ج.  
هوغو).
- (٢) غزلان بلاكا، النيجر (تصوير  
هـ. ج. هوغو).
- (٣) فيل عين ابيكر، الصحراء  
الجزائرية (تصوير هـ. ب. س.  
هام).



بعض مغارات الفن بمجنوب افريقيا تصور حيوانات يرجع تاريخها بتلك المناطق الى ما قبل ذلك التاريخ بكثير. ولهذا وجب علينا ان ننظر الى مشكلة الحقب.

## الحقب

اذا أردنا تصنيف اكتشافات فن ما قبل التاريخ حسب مقطوعات زمنية معقولة، يجب ان يكون المنظار الاول جيولوجيا وبيئيا نظرا الى أن البيئة أيضا هي التي كانت تحدد الاطار العام للعيش وتفرضه، اذ كانت البيئة أكثر سيطرة من وقتنا الراهن على الشعوب المقترة الى التقنية. وقتئذ. ولقد كانت الظروف الطبيعية بصفة خاصة، تتحكم في حياة الانواع المصورة ومنها الانسان نفسه بتقنياته وأساليبه، اذ انه من المتأكد، حسب تعبير ج. روفي «ان الانسان كان في الاصل حيوانا مداريا» افريقيا، ولقد سمحت الظروف المعتدلة في الجزء الشمالي من الكرة الارضية بعد التجمدات الكبرى، باستقرار الانسان في أوربا، وبلغ أوجه الازدهار في فن المغارات منذ ٤٠ قرنا. أما الفن الجداري الافريقي فهو أحدث من ذلك بكثير. فهو يرجع لا محالة حسب ما يعتقده بعض المؤرخين مثل أ. هولم الى حوالي العصر الحجري القديم اللاحق لكنه مبن، أساسا، العصر الحجري الجديد (٤).

ولقد تعودنا على تسمية المراحل الكبرى للفن الجداري باسم حيوان هو بمثابة قرينة نوعية له، ومن ثم ميزت أربع وحدات زمنية كبرى بالحيرم والثور والحصان والجمال. كان الحيرم (Bubale) عبارة عن جاموس ضخم يرجع حسب الاحاثين الى بداية الدهر الرابع. فلقد مُثِّل وصُور منذ مطلع الفن الجداري (حوالي ٩٠٠٠ سنة قبل الحاضر) حتى حوالي ٦٠٠٠. إن الحيوانات التي تميز أيضا تلك الفترة هي الفيل والكركدن. أما الثور فهو ما الثور الاسباني أي «البراكسيروس» ذو القرنين القصيرين والغليظين، أو الثور الافريقي ذو القرنين الجميلين اللذين لهما شكل الكنارة. ولقد ظهر هذا الأخير في حوالي سنة ٦٠٠٠ قبل الحاضر. ويأتي الحصان الذي يجز أحيانا عربة في حوالي سنة ٣٥٠٠ قبل الحاضر (٥). ان تصوير

(٤) يبدو ان العصر الحجري الحديث الصحراوي، حسب الاكتشافات الحديثة موغل أكثر فأكثر في القدم. فلقد أرخ منجم فخاري من العصر الحجري الحديث بالمغار اعتمادا على الكربون ١٤ بحوالي ٨٤٥٠ سنة قبل الحاضر. ولذلك فهو موافق للعصر الحجري الحديث في الشرق الأدنى. ولذلك وجب الرجوع أيضا الى التواريخ التي قدمها د. اولديروغ في الفصل الحادي عشر لبلانة وتوشك في النوبة السفلى وهي تقدر ب ١٢٠٥٠ و ١٢٥٥٠ سنة قبل الحاضر. وفي عين ايتيان وقع العثور على فضلات طعام بمنجم في نجبا صخري ذي رسوم بقرية. اما أقدم موقد، فلقد حدد تاريخه اعتمادا على الكربون ١٤ بحوالي ٤٨٦٠ ± ٢٥٠ سنة قبل الحاضر. وقد عثر. موري في هضاب الأكاكوس (ليبيا) بين طبقتين ذاتي بقايا موقد، على جزء من جدار سقط مع قسم من اللوحة يرجع تاريخه الى عصر الشيران. ولما أمكن تحديد تاريخ الطبقتين اتضح ان الجزء الذي سقط من الجدار يرجع الى سنة ٤٧٣٠ قبل الحاضر (انظر ه. هوت ١٩٧٦، ص ١٠٢ و ١٠٩) كما يذكر أيضا تاريخ ٧٤٥٠ سنة قبل الحاضر لعصر الثيران الاوسط بالأكاكوس (انظر ه. ج. هوغو، ص ٢٣٤) كما أن ج. د. كلارك يشير في سولو يزي (زيمبيا) الى تاريخ ٦٣١٠ ± ٢٥٠ سنة قبل الحاضر. وعلى العكس من هذا، فان التاريخ الذي نجده في اطروحة ج. ت. لورغن نجأ ماتس بمقاطعة الكاب ١١٢٥٠ ± ٤٠٠ سنة قبل الحاضر. يعتبر غير موثوق. و يعتبر مثال تين هنكتن خارقا للعادة لأننا نستطيع أن نقيم علاقة ارتباط بين رسوم جدارية وسلسلة كاملة من مستويات العصر الحجري الجديد ومن مستويات بداية العصر التاريخي الاولى محتوية على هياكل عظمية. و يوجد به أيضا مستوى عاطري في طبقة بشرية سهل ضبط تاريخها. (انظر اكتشاف نادر في تاسيلي، بجلة أركيولوجيا عدد ٩٤، ماي ١٩٧٦، ص ٢٨ و ٥٩).

(٥) كثيرا ما يبالغ في الربط بين دخول الحصان لافريقيا ودخول الهكسوس (Hyksos) لمصر (انظر في هذا الموضوع: ج. كي. زيربو ١٩٧٣ ص ٩٩).



الركض الطائر، دون أن يكون واقعيًا، يبدو طبيعيًا عندما يجري على المسلك الغربي من المغرب إلى السودان، ثم يصبح ارتساميًا عندما يجري بالطريق الشرقي من القزاق (٦). ونكون بهذا قد انتقلنا منذ مدة طويلة إلى العصر التاريخي الذي زال فيه تمثيل فرس البحر من الفن الجداري، وذلك يعني بدون شك نهاية المياه الدائمة. وينتهي الجمل مسيرة هذه القافلة التاريخية. فلقد دخل مصر في حوالي ٥٠٠ سنة، منذ الغزو الفارسي وتكاثر في حوالي أوائل التاريخ الميلادي (٧). لكن، نظر إلى أن الأمر يتعلق بما قبل التاريخ، فإننا سنهتم خاصة بالفترتين الأوليين وببداية الفترة الحثلية. إن تلك الفترات تميز الحياة النشطة في تلك الأرض الشاسعة التي لم تتحول بعد إلى صحراء قاحلة. ويتجادل الاختصاصيون من ناحية أخرى جدًا لا حاد في نطاق كل فترة كبيرة حول شأن التقسيم الزمني وتجزئته إلى حقبات تاريخية ثانوية، لكن الاكتشافات متواصلة ويجب الانتباه، ولا يجوز أن نتسرع بطريقة تعسفية في الزعم بأن هذا الحيوان أو ذاك يميز فترة كاملة من تاريخ لا نعرف منه إلا الشيء القليل. إن الأمر يتعلق قبل كل شيء، إن صح التعبير، بفصائل حيوانية غامضة، في نطاق علم الصور، إذ يوجد بينها كثير من التداخل والاختلاط. فالكبش مثلاً يصنف بأنه لاحق زمنيًا للحريم والفيل إلا أنه يظهر أحيانًا معاصرًا لها، فتراه على نفس الجدران وبفسف التقنيات وله نفس الزنجار. ولعل الإنسان قد أخذ يعمل على تأهيل هذا الحيوان أو حبسه لغاية دينية. وكذلك شأن الثيران الكبرى المنقوشة في ديدر (تاسيلي) ومنها ثور يتجاوز ٥ أمتار، مبرزا قرنين كبيرين في شكل كنارة تحيط برمز. فهذه الثيران تبدو كأنها معاصرة للحريم. ويصنف بعض الاختصاصيين ثور وادي جرات ذا القرط ضمن حقبة الحريم. ويزيد ظهور حيوانات جديدة في اللوحة مثل بومات تان تريت التي يبلغ عددها حوالي الأربعين والتي تبرز بصورة الثيران. أما الفترات الكبرى في المناطق الأخرى خارج الصحراء فإنها غالبًا ما تكون أكثر حداثة كما أنها تتميز بصفات أخرى تختلف حسب المؤرخين، خاصة وإن هؤلاء يعتمدون أحيانًا في التقسيم الزمني على التقنيات والأنواع والأساليب (٨).

## التقنيات والأنواع والأساليب

### التقنيات

#### النقوش

إن النقوش السابقة للرسم عموماً، وذلك عندما تكون تلك الرسوم موجودة أيضاً، وتظهر فنياتها الأكثر إبداعاً في أعلى الحقبات، وكانت تنقش على صخور صلبة أقل صلابة وكذلك على حجر الصوان والمرمر أيضاً باستعمال حجارة حادة مصنوعة بقارص من العصر الحجري الحديث وجدت منه

(٦) انظر: ر. موني «طرق العربات». ١٩٦١.

(٧) إن الجمل فيما يبدو، معروف منذ العصر الفرعوني (انظر: دوجو ١٩٦٠ ص ٢٠٩ - ٢٤٧).

(٨) ينطلق بعض المؤرخين بإفريقيا الجنوبية من شكل الخط، ومن فن مباشرة الحجارة (الخز والدق المتفاوت والصقل الخ...) ومن طبيعة الكائنات المثلثة تميز حقتين كبيرتين تضم الأولى منها مرحلتين والثانية أربع مراحل.

بعض النماذج قرب اللوحات. وقد أمكن للفن ان يصل الى درجة كبيرة من الاتقان باستعمال تلك الادوات البسيطة فلقد نقش فيل برداي بخط خفيف بسيط فهو يكاد يكون تخطيطاً، الا أنه يدل على الجوهر وبعكس ذلك فان فيل عين غاليجين (مائدوس) وفيل عين هبتر الثاني، محفوران حفراً عميقاً حسب خط بارزو واضح. كما نجد نفس الاسلوب في كركدن غنوا (تبستي) فنرى الخط الذي يقارب عمقه سنتمراً تقريباً في شكل «V» أو «U»، أما الحزق قد أنجز باستعمال فأس صخرية أو باستعمال خشب، صلب، يضاف الى ذلك استعمال رمل مبلل للحك. يظهر أحياناً ان عدة تقنيات استعملت في نفس الوقت مثل التطريق الخفيف والحز حسب شكل «V»، وقد ترك التخطيط المسبق هنا وهناك آثار تضرس داخل الخط. والصقل النهائي مصحوب بعملية برغلة (Bouchardage). وقد تطلب انجاز تلك النقوش أحياناً مواهب رياضية لا شك فيها كما نرى ذلك في وادي جرات مثلاً حيث نجد فيللاً يزيد ارتفاعه عن أربعة أمتار ونصف ومخططاً لكركدن طوله ٨ أمتار.

قد تكون النقوش المحاطة بحفر واسع بافريقيا الوسطى والجنوبية مرتبطة باعتبارات دينية بينما تعبر النقوش ذات الخطوط الخفيفة عن هدف من أهداف التنشئة أو التربية. وتصلح بعض المساحات الداخلية المحوفة والمصقولة ببراعة، لظهور ألوان شعر الحيوانات والأشياء التي تحملها، ومن هنا يأتي التفنن. وفي ذلك ارهاص بالنقوش الجدارية بمصر الفرعونية فننظر الى الصورة أحياناً وكأنها قوالب لنقوش بارزة في الصخر التي أفرغت لهذا الشأن (كامبي) وتستعمل الصخرة الام بكثير من الحذق ومن ذلك ان زرافة قد صورت على كتلة مستطيلة من الديباز التي تفاعلت معه تفاعلاً مكتملاً (بالترنسفال الغربي) وكذلك الشأن بمنطقة لوفنتين حيث صوّر كركدن على سطح صخرة خشنة حدودها مقرنة تعبر بدقة عن درع الحيوان المنقوش عليها. وعلى ربة في منطقة أخرى من مرت جيسفونتين بالترنسفال الغربي أنجز تصوير حمار وحشي باستعمال النقش والتنقيط على قطعة من الديباز ويحد فكه الأسفل تقبب خفيف للحجارة بين شكل الجسم. ومثل عرف ظبي بدیع موجود بمتحف الترنسفال بأشرطة منقوشة حفراً. ونقشت خصلته الامامية بخطوط محفورة بخفة. وتستعمل ألوان الصخرة الداخلية منها (الأزرق) والخارجية (أمر) (Ocre) أحمر) ببالغ المهارة لظهور التباينات. وتعتبر زرافات بلاكا بفروها المختلف وبقوائمها في أوضاعها الطبيعية وحتى ارتعاش أذناها آية من آيات الفتنة لمدرسة نقوش ما قبل التاريخ الافريقي. الا أن التقنية ستنحو عموماً نحو التدهور. لقد أصبحت النقوش رديئة عموماً حتى في ما يسمى مرحلة الثيران، و يظهر ذلك مثلاً في زرافات القريربات المرسومة بنقش عريض وخشن.

### الرسوم

لا يمكن فصلها تماماً عن النقوش. وتمكننا التخطيطات المنقوشة على الجدران في تيسوكاي من التفكير في أن الفنانين كانوا ينقشون قبل الرسم: ولقد كان الفن يتطلب في عين المكان أيضاً براعات رياضية. وفي وادي جرات رسم سقف من مرحلة الخيول وذو منحد وعر على تسعة أمتار. وفي بعض المحطات في تاسيلي في تيسوكاي مثلاً تظهر الرسوم على ارتفاع ٤ أمتار وكأنه يراد بها ان تبعد عن الأماكن السفلى التي يمكن ان يبلغها الانسان، وذلك ما استوجب استعمال سلام بدائية

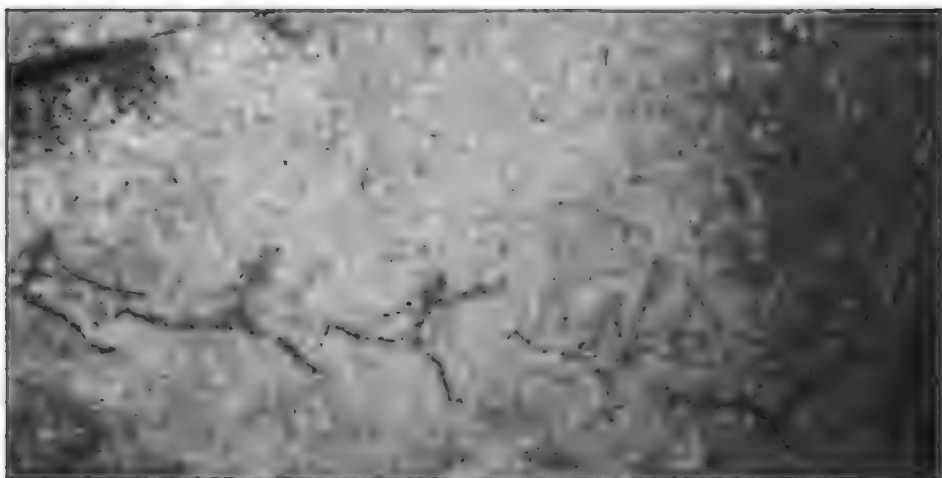
وحتى اقامة منصات. ان الرسوم متكونة من لون واحد أو متعددة الألوان حسب الحالات (٩) فنجد الصلصالي البنفسجي في المرتوتك المنخفض، والصلصالي الدموي في غبأ جنوب الأثرى بلاكا. ونجد في مكان آخر لوحة متألثة تلمع بفعل مزج الألوان مزجا موقفا الى درجة أنها تكاد تخلق من جديد ظروف الواقع وتوازنه وهذا العمل يتطلب تكنولوجيا خاصة ومعقدة نسبيا وقد عثر على بقاياها في شكل مشاغل (Ateliers) فلقد استخرجت في عين ايتين رحي صغيرة مسطحة مصحوبة بمهاريس صغيرة تستعمل لفت الحجارة كما وقع العثور على أوعية صغيرة للألوان. ولقد تبين بالاعتماد على لمعان الألوان المدهش الذي نشاهده اليوم ان تلك الألوان كانت على غاية كبيرة من الصلابة. و يتركز سلم الألوان على بعض الألوان الرئيسية مثل الاحمر والاسمر، وأصلهما من الأمغر المستخرج من أكسيدات الحديد. وتوفر الابيض من الصلصال الأبيض أو من يجر الحيوان وأيضاً من عصارة النباتات أو من أكسيد الزنك. اما الاسود فانه يستخرج من الفحم الخشبي أو من عظام محروقة ومطحونة وكذلك من الدخان أو من الشحم المحروق و يدخل الاصفر والاخضر والبنفسجي الخ... في هذه المجموعة.. ويتأتى هذا اللمعان الحلي الذي استطاع اختراق آلاف السنين من أن المواد اللونية المسحوقة جيدا بالمدق كانت تعجن وتخلط مع سائل، يمكن ان يكون حليبا لأنه يحتوي على الكازين (مادة بروتينية في الحليب) الذي يساعد على الخلط، ويمكن ان يكون شحما ذئبا أو غرقد (بياض) البيض، أو عسلا أو نخاع العظام المحروقة. وكانت الألوان تلصق بالأصابع أو بريش العصافير أو باستعمال ملعقة من القش أو من الأخشاب المضغوطة، وكذلك بوبر حيوانات مربوطة بعضا بواسطة أوتار، وأحيانا باستعمال الفم لرش السائل. وقد أعطتنا هذه الطريقة الاخيرة الرسوم السلسلية للأيدي التي مازلنا نراها على جدران الصخور والتي تمثل نوعا من الامضاء الاصلي لأصحاب الرسوم. وتطرأ أحيانا بعض الاصلاحات بدون طمس الرسوم الاولى فنرى ثيرانا بأربعة قرون، أو رجالا بأربعة سواعد الخ... وفي هذا المجال استعملت خصائص الصخرة استعمالا مفيدا أحيانا، كما في تهيلاهي، حيث استعملت فجوة طبيعية في الصخرة، فأصبحت موردا يتقاطر اليه القطيع (١٠).

### الحلي

تتطلب صناعة الحلي مهارة لا تقل تطورا عن غيرها. وتتكون بعض المجوهرات من العقيق الاحمر المستخرج من صخرة خارجها صلب جدا. وتمكننا البقايا التي تركها صانعو المجوهرات في مختلف مراحل عملهم من اعادة تركيب تلك المراحل. فتصنع أولا أقراص صغيرة قرعا، ثم دلكا. وتفصل بعد ذلك ابرة كبيرة ذات أربع زوايا من حجر الصوان لتستعمل منقاشا. ويفرز حدها القاطع في وسط القرص من جهة ثم من الجهة الاخرى على التوالي، للحصول على كوبين صغيرين متواجهين يمثل التقاؤهما أدق مرحلة في العملية، ثم يتحول خنجر الصوان هذا الى مثقاب دوار يبرد الثقب

(٩) تحتوي افر يقيا الجنوبية والترانسفال وناميبيا خاصة على رسوم ذات لون واحد، وكثيرا ما نجد رسوم بوتشوانا، وغريكا لند، ونااتال متعددة الألوان.

(١٠) لاجوكس — المصدر المذكور سابقا ص ١٥١.



- (١) رسم على صخر من ناميبيا  
(تصوير أ. أ. أ. ميري، رقم ٣٦٧٢).
- (٢) نقش على الصخر من تيبستي  
(تصوير هاوكي، رقم ١١٠٠٣).



الوسطى حتى يفتحه تماما باستعمال رمل دقيق مغلف بطلاء نباتي. وكانت تصنع أحجاز أخرى لا تقل صعوبة (الأمازونيت والهماتيت والكالسيدوين) وكذلك العظام والعاج لكي تستخرج منها قلائد وأساور وخلاخيل وكان حجر الكذان (Ponce) مستعملا لصقلها. ولقد عثر في تين هنا كاتن على بعض المشاقب من الميكروديوريت وسط حبات من قشرة بيض النعام تصلح لنظم القلائد.

### صناعة الفخار

أما عجبن الخزف فقد كان يعد بمادة لزجة تتكون من غائط حيوانات مجترية. ثم ييؤ باستعمال فصيد (Boudin) مطوى من العجين مخدوم بالأصابع والمصقال. وكانت لفوهات تلك الأواني أشكال مختلفة. منحنية كالقصيد، عريضة أو مائلة. ان الفروق الدقيقة بين الألوان المتزاوجة من الوردى الى الأسود الداكن توضح لنا ان الاكتواء كان على غاية من الجودة. وكان دهان الفخار معروفا وكذلك البرنيق (Vernis) النباتي الذي مازال مستعملا في إفريقيا الى يومنا هذا في صناعة الخزف ولك (Laquer) وتجميل أراضي المنازل وسقوفها وجدرانها. وكانت الزخرفة الرائعة ترسم باستعمال أمشاط عظمية أو بحسك السمك وكذلك بشوك السنابل والحبال أو الحبوب، وهي تدل على فيض من الخيال من خلال تكرار المواضيع والأشكال. وتشهد أفران الخزافين بوادي أشد في شمال بلاد مالي، والمجموعة في مكان مخصص على أهمية عمل أولئك الصناع الذين لا يقلون عبقرية عن معاصريهم بالشهانب بالسودان الخرطومى (١١).

### النحت

ان النحت أيضا ليس منعما فهوهم خاصة المنمنمات اذ نجد في وادي أمزار (تاسيلي) حيوانا مجتثا ممتددا، وثورا راقدًا في ترزروك بالهقار، وفي أدجفوا نرى أرنبًا بريًا صغيرًا ذا أذنين طويلتين مسترخيتين على الجسم، ورأس كبش فتان في تمنيت بالتوات، وصخرة منحوتة ذات شكل انساني في عوان سيدي بالعرق الشرقي، وتمائيل صغيرة رائعة لرأس بومة بتابلبلت. أما في تين هنكتن فنجد تماثيل صغيرة من الطين تمثل أشكال عصفائر، ونساء، وبقريات على رأس احداها الى حد الآن غصنان صغيران يقومان مقام القرنين.

### لأنواع والأساليب

يمكننا ان نميز في الصحراء بصفة اجمالية ثلاثة أنواع وثلاثة أساليب كبيرة تتناسب تقريبا والفترات التي ذكرناها آنفا. النوع الاول هو الصنع القديم ذو الحجم الكبير، ونصف الطبيعي. أو الرمزي فيظهر ان الانسان مازال تحت وقع الاحاسيس الاولى أمام قوة الحيوانات التي تستوجب

اخضاعها بالسحر عند الاقتضاء. ويمكننا ان نميز طابقين من هذا النوع ينسب الأول الى الاسلوب الحيرمي المتمركز في جنوب منطقة وهران وبتاسيلي وفي الفزان، ويتميز بنقوش تدل على قوة في الملاحظة، وكثيرا ما تكون المواضيع المتكونة غالبا من الحيوانات الكبيرة منعزلة. ويكتفي الصنع نصف الطبيعي المتجرد والبسيط بالخطوط الرئيسية المرسومة بمهارة وذلك شأن الكركدن والبجع بوادي جرات (في تاسيلي) وفيل برداي بالتشاد، وفيل عين غالجن في وادي مائندوس. ويتميز الطابق الثاني بالظباء وبأوريات مرسومة خصوصا. ان رسوم الانسان، برأس كروي، كثيرة في هذا الطابق، مما يشير الى نزعة نصف طبيعية وأحيانا رمزية. أما الاشكال فانها تبدو أكثر حركة وانتعاشا وحتى مؤثرة عوض أن تكون بسيطة. والطقوس ليست غائبة، بل نحس بها عندما نرى الحيوانات الطوطمية والبشر المقنعين والرقصات الدينية الخ... فليس من المعتاد ان تبرز الأشياء هنا منعزلة. وتوجد بعض اللوحات الصغيرة كما توجد أفاريز ولوحات كبيرة مركبة، وهي أكثر اللوحات في العالم. يستقر هذا الاسلوب المتجمع في تاسيلي من مشاهد تظهر فيها أرويات قرونها قوية، ورقاصون مقنعون مثلها هو الشأن بسفار (اسم موقع أثري حسب ج. لاجو) وكاهنة وانريت المسماة (السيدة البيضاء).

ان النوع الكبير الثاني يتمثل في الرسم والنقش الطبيعي ذي المواضيع الصغيرة الشكل تبدو منفردة أو مجمعة. ان هذا الاسلوب وصفي بحت، ونشعر بأن الانسان نشيط. وبأنه أصبح يسيطر على البقر والكلاب والضأن والماعز ويقودها. وقد تكاثرت الالوان. والمشاهد تمثل صحراء القرى والخيمات ويمكن ان يكون الموقع الأثري الممثل لهذا النوع هو جبرين.

أما النوع الاسلوبي الثالث فانه ارتسامي، رمزي أو تجريدي. ولقد احتفظ بالتقنية السابقة لكنها غالبا ما مجدها متدهورة. على ان ذلك لا يدعو الى ان نتصور تقهقرا شاملا. وأصبح النقش هجينا عندما اتخذ الاسلوب الغامض والمنقط التقريبي. لكن أسلوب الخط الحقيقتي في الرسم ولو أنه أقل قيمة من الخط البسيط والقوي القديم من عدة أوجه، الا أنه مكن من احراز التقدم للتعبير عن الحركة بنسبة ثلاثة أرباعها أحيانا. وهو يخضع أحسن للتنميق وللنماذج الجديدة. وتذكرنا أناقة الخطوط عند انسان غنوا (في الصحراء التشادية) برسم الريشة حيث تظهر بدقة شبه فوتوغرافية، العيون والحدقات والشعر والفم والأنف. وتمكن طريقة التصوير المائي أيضا من اظهار الاختلافات الدقيقة وذلك شأن الظبي الصغير في اهرن (تاسيلي) ذي القوائم المرتخية، الذي يقبل للرضاع تحت خطم أمه الذي يكاد ينحني عطفًا عليه. ان ذلك الفن ملائم تماما لتصوير الخيل والعربات ثم الجمل وكذلك الانسان الذي أصبح ذا مثلثين كما نرى ذلك في أسدجان وان ملان، أو الذي يبرز رقبة طويلة مكان الرأس. نجد اذن في نفس الوقت اتجاهات نحو تكلف الخط الدقيق ونحو التبسيط الهندسي المتسرع الذي يتداخل في آخر العصر مع الحروف الهجائية الليبية البربرية أو التيفيناغ. ان الكثير من التفاصيل كالسروج العربية ذات القربوس الخلفي التي ترجع الى ما بعد القرن السابع، تمكننا ان نصنف تلك المشاهد خارج عصورها قبل التاريخ.

ان بعض الملاحظات تفرض نفسها في ما يخص تلك الأساليب التي تتطور بدون تقسيم زمني دقيق، اذ ان الطابق الثاني هو من أسلوب عتيق مخلوط. فليس للثور ذي الهملجة في سفارشيء من الرؤوس القنعة ذات المواضيع الرمزية. كما أن بعض القوالب من جهة أخرى مستمدة من عدة

أنواع وأساليب. ومثال ذلك فن الرسم الذي يقوم بتمثيل البقرات بقرون أمامية، وتمثيل الرأس في منظر جانبي كما نرى ذلك في وان رندر. ويلحق بالقوالب أيضا رسوم الرعاة في حركات أو مواقف نشاهد فيها يدهم ممدودة واليد الأخرى معطوفة على الخصر. كما برزت بصفة جلية بعض المواضيع الجهوية، من ذلك: الكيش بجنوب منطقة وهران، واللؤلؤ في تاسيلي، مع أنه لا يظهر في الفزان وفي جنوب منطقة وهران، أما المواضيع الجنسية فانها تميز خاصة الفزان وتاسيلي.

أما فيما يخص أسلوب الزينة، فاننا نشاهد في القابسي الاعلى نقوشا على بيض النعام مواضعها هندسية. ولقد وفر لنا خاصة العصر الحجري الجديد ذو التقاليد السودانية الادوات والأسلحة الفنية، والصفائح البديعة الصوانية الميشبة. والمطلية بالأخضر والأحمر الداكن، وأواني الفخار التي تزيها خطوط متموجة ورؤوس سهام تيشيت بأسنانها المصقولة صقلا جيدا وبشكلها المثلث الممتاز.

ان النوعية مازالت تنتظر التحديد في المناطق الافريقية الأخرى. ولقد ذكر مثلا مؤرخ في ناميبيا ٢٠ طبقة وأسلوبا من ألوان مختلفة تتوزع على أربع مراحل كبيرة: (١) مرحلة الصنع القديم التي تشمل حيوانات كبيرة بدون رسوم انسانية. (٢) مرحلة اللوحات الصغيرة وبها صور انسانية. (٣) مرحلة اللون الواحد وبها مناظر الصيد والرقصات الدينية التي تطفح بالحياة. (٤) مرحلة استعمال الألوان المختلفة التي تبلغ القمة الجمالية في غبأ فيليب كاف (داماراالاند)، مثلا وفي رسوم برندبرغ التي يرجع تاريخها الى سنة ١٥٠٠. يميزل. فروبنوس من جهته أسلوبين أساسيين في الفن الجداري بإفريقيا الجنوبية. في أقصى جنوب القارة، من الترانسفال الى الكاب، ومن دراكنسبرغ الشرقي الى الشواطئ الصخرية الناميبية، نلاحظ «فنا طبيعيا» تغلب فيه الحيوانات المرسومة في أكثر الأحيان مفردة بمهارة كبيرة، فتظهر طيات الجلد وخطوط جلد الحمار الوحشي، الا أن ذلك الفن يبدو جامدا أو فاترا وان كانت الرسوم ملونة بألوان مختلفة ومركبة. ولقد وضعت الألوان بمهارة كبيرة باستعمال ذلك. ان الأمر يتعلق هنا بمناظر منظمة تعبر عن الصيد والرقص والمواكب والمجالس وبالعكس من ذلك، فان الفن من الترانسفال الأوسط الى الزمبيز (زمبيا، زمبابوي وملاوي) يختص بلون واحد أساسا، فهو يركز على الأحمر أو أمغر أكسيدات الحديد، ويميل أحيانا الى البنفسجي. وتتكون الصخرة القاعدية من الغرانيت عوضا عن الصلصال الذي نجده في الموضوع السابق. ويرتكز الفن على الرسم الذي يبين كيف يكون أيضا قريبا من الواقع، مثل التصوير المائي بالجنوب. الا أن ذلك لا يعني تصويرا آليا للواقع الذي يؤول أحيانا الى مشاهد مركبة يخضب فيها الخيال الى درجة الروعة (١٢).

يظهر الانسان وله كتفان عريضان وخصر ضيق. وبكل ايجاز له شكل مسماري. وعندما ننظر اليه من الأمام نشاهد أعضائه في منظر جانبي مثل ما هو الشأن في النقوش الجدارية المصرية. ويبدو أن أشخاص الجنوب أقرب الى الطبيعة ولهم أعضاء أكثر احكاما وذلك في مشاهد الصيد أو الصراع المتداخلين في بعض الأحيان. ويتعلق الأمر في الشمال، بمشاهد مأتمية ذات أبهة، لعلها تمثل جنائز ملكية يعبر فيها أشخاص عن ولائهم وعطفهم. أما الحيوانات، فانها تتوالى، كما هو

(١٢) ان تمثيل حيوانات القنص والحيوانات عموما أمر طبيعي، وذلك لأسباب سحرية في بعض الحالات لأن الرسم يجب ان يمثل بأكبر دقة ممكنة موضع الشعائر الطقوسية. أما الصور الانسانية فانها بالعكس مبسطة عمدا بغية إبعادها عن مفعول السحر.

الشأن في مغارة اينورو الكبيرة، لا كسفينة نوح المرسومة بعناية، بل كأنها أساطير حيوانات خارقة، فيها طيور ضخمة لها مناقير تشبه أفواه التماسيح، وفيلة عظيمة ذات ظهور مستننة، وحيوانات من ذوات الرأسين، كما نجد أحيانا أساطير مهذبة مثل أسطورة المطر. يتكون اطار هذه اللوحات الخيالية من مناظر حقيقية تكون فيه الصخور والاشجار معروفة الأنواع. أما البحيرات ذات السمك، فانها مرتبة ترتيبا ذكيا. فهذا الفن هو فن زمبابوي ويبدو أقل حركية من الجنوب لكنه ملئ بالأحاسيس الفياضة والمؤثرة، ان الاسلوب المسامري لا يمكن ان يكون حسب ل. فرو بنويس الا مرتبطا بمحضارة عظيمة، ونحن نعلم ان منطقة زمبابوي لا يتقصها ذلك. فهو يرى أيضا ان ذلك الاسلوب المليء بالزوايا والبسيط قد ترك المجال لأسلوب أكثر تكورا ومرونة وأكثر تكلفا وأثوثة عند اضمحلال المجتمعات التي أوجت به (١٣).

يبدو أسلوب النقوش الجدارية في شمال فولتا العليا (أريندا)، نصف طبيعي أو ارتسامي، في حين تختص نقوش الجنوب بأشكال هندسية. وتوجد أيضا رسوم في مغارات الشاطئ الصخري في بنفورا.

وقد مكنت الحفريات في امبراطورية وسط افريقيا من إكتشاف مواقع تشهد بالوجود الإنساني منذ عصر ما قبل الأشولي، وتواصل حتى عصر المعادن. فلقد حددت خمس مواقع للفن الجداري: نجبا تولو بمنطقة نديلي المسكون منذ ما قبل التاريخ الى يومنا هذا، والذي يحتوي على أشخاص من غابر الأزمان، مصورين بالأحمر، وعلى مواضيع أخرى لونها أبيض وتبدو الأيادي في شكل «عروة وعاء». ويوجد أيضا نجبا كومبالا، ومواقع النقوش بمنايع مباتو، ومواقع لنغو (مبومو). إن هذا الفن قليل النسب بفن الصحراء بل له صلة بلوحات إفريقيا الشرقية والجنوبية (١٤).

## الحوافر والتأويلات

وصفت الرسوم الجدارية بأنها بטרولوجرافية. ان هذا الفن يعتبر علامة هنا أكثر من أي مكان آخر، أي أنه يمثل جسرا بين الواقع والفكرة، انه رمز خطي تستوجب قراءته مقياسا. ان الجهل بالظروف الاجتماعية التي أنتجت هذا الفن هو في الواقع أكبر عقبة دون تأويله تأويلا صحيحا. لذلك ينبغي ألا نسرع كثيرا نحو التأويل، وأن لا نتجاوز مرحلة وصف الرمز في حد ذاته، بمعنى مرحلة التحليل الشكلي، اذ انه يحدث ان يحصل الوصف نفسه حسب مصطلحات تأويلية. ان الطريقة الاحصائية قادرة على ان تمكننا عند الضرورة من جدولة المعطيات الكمية والكيفية بالنسبة لأكثر عدد ممكن من اللوحات بصورة تسمح لنا بالتحليل المقارن (١٥). فنستطيع ان نرى مثلا هل أن أنظمة الرموز الملحوظة في عدد معين من اللوحات تخضع لدينامية معينة في الزمان والمكان. وتكون مرحلة التطور التي أعيد انشاؤها أكثر احتمالا كلما اكتملت الوثائق. فلا يمكن تأكيد

(١٣) انظر: أ. هيرلاند، ليوفرو بنويس.

(١٤) انظر: ر. دي بابل دي هومنس في «أركيولوجيا» عدد ٩٢، مارس ١٩٧٦.

(١٥) يمكن أن تخضع هذه الدراسة الكمية للمعالجة بواسطة العقل الالكتروني، مع ضرورة التزام الحذر. انظر: في هذا الشأن أ. ستر يدتر، بمعهد فرو بنويس بفرنكفورت الذي يديره الاستاذ هيرلاند.



الافتراضات الناتجة عن الدراسة الشكلية الا اذا وافقت مجموعة المعطيات التي تشكل النظام العام لذلك المجتمع، لأن لوحة من عصر ما قبل التاريخ ليست في الواقع الا جزءا ضئيلا من نظام كبير من المعلومات، أي من ثقافة تحتوي على أشياء أخرى. اننا ندرك في هذا المستوى من التحليل ما عسانا نبلغ من التعقيد في العلامات للوصول الى فهم المعنى الصحيح للتمثيل الجمالي. مع العلم أنه، زيادة على معنى التمثيل الواضح، يمكن لنفس التمثيل ان يعبر عن معنى خفي، لأن الرمز ليس علامة فحسب عن شيء ما ولكنه علامة عن شخص ما (رمزية)، فوجب اذن ان نرتقي من الشكل الى التركيب الاجتماعي فنستطيع ان نتجاوز التعليق البسيط على لوحة طبيعية محضة، ومن معنى بديهي الى مرحلة فك المعنى المدلول للوحة مجردة. فهنا ينبغي الرجوع الى الثقافة المحيطة، لأن المدلول يمثل بطرق مختلفة بحسب الثقافات وكلما بعد الرمز عن الموضوع المحدد كان الرمز خاصا بثقافة معينة وكان أكثر دلالة. مثله مثل المشكلة الصوتية الموجودة في لغات عديدة والتي لا يمكن ان تميز واحدة منها، نظرا لأن هذا الصوت مشاكل لنفس الطبيعة المشتركة. وعلى العكس من هذا، فان الامور تختلف بالنسبة لكلمة نموذجية من لغة معينة فيمكن لنا عندئذ ان نعتبر الأروقة الفنية الكبرى بمثابة محطات لبث الآثار الفنية. لكن من هم الملتقطون لها؟ ألا تبث تلك الأجهزة للمتبحرين أنفسهم قبل كل شيء، وكذلك لمجتمعهم الذي لم يترك لنا الا آثارا نادرة تسير لنا قراءة وفهم تلك الآثار؟ وبايجاز يجب ان تنتهي اشكالية واستراتيجية الاستكشاف الفني بتعريف أنواع الثقافة التي تقوم عليها هذه المظاهر الجزئية. ويمكن لنا بالاعتماد على تحديد المجالات الثقافية التي ترعرعت فيها، أن نستعيد بناء العلاقات التاريخية في نطاق النسيج الذي تدرج فيه.

لذلك فقد نفقد الفن دلالة اذ أطلقنا على الرسوم الجدارية الافريقية عبارات وعناوين مثل (القضاة، السيدة البيضاء، قالع الاسنان، جوزفين التي باعها أخواتها، أو سكان المريخ) لأننا نحول ونغير كيانا ثقافيا عندما نؤوله باعتقاد فهم ملاحظ واحد، أو من خلال حضارة أخرى (١٦)، فيمكننا ان نعتمد مبدأ عاما يتلخص في ان فن ما قبل التاريخ الافريقي يستوجب أن يؤول أولا، انطلاقا من مستندات افريقية أصيلة. فلا يمكن لنا أن نبحث عن أسباب خارجة عنها الا اذا لم نحصل على جواب لمشكل من المشاكل في المحيط الزمني والمكاني والثقافي المحلي، الجهوي أو القاري.

وانطلاقا من ذلك، تعتمد حاليا معالجتان لتفسير فن ما قبل التاريخ، أي المعالجة المثالية والمعالجة المادية. يمثل هذا الفن، حسب المعالجة المثالية، قبل كل شيء تعبيرا عن مختلف النظرات الى العالم التي كانت سائدة عند تلك الشعوب آنذاك. ان تلك النظرات وحدها تفسر لا المحتوى فحسب، بل الشكل أيضا. فيجب اذن التخلص من العقل العقلاني: فلقد قال أريك هولم «ان الفن بافريقيا الجنوبية يظهر في صورته الحقيقية اذا اعتبرناه تعبيرا عن الشعور الديني وعن الحاجة لتجاوز الأشياء. فلقد كانت تلك الماورائية ميزة الانسانية البدائية وليست الصور الحيوانية الاقناعا

(١٦) انظر: في هذا الشأن ملاحظات ج. د. لاجو القيمة، ١٩٧٧، ص ١١٥ وما بعدها. بدون ان ننكر الاب بروي في المزل أو ننكر ثقافته الواسعة أو الخدمات الجليلة التي قدمها لدراسة ما قبل التاريخ عموما وما قبل التاريخ الافريقي بصفة خاصة فيجب ان نقر بأنه غالبا ما خضع هذا الاتجاه المزي.



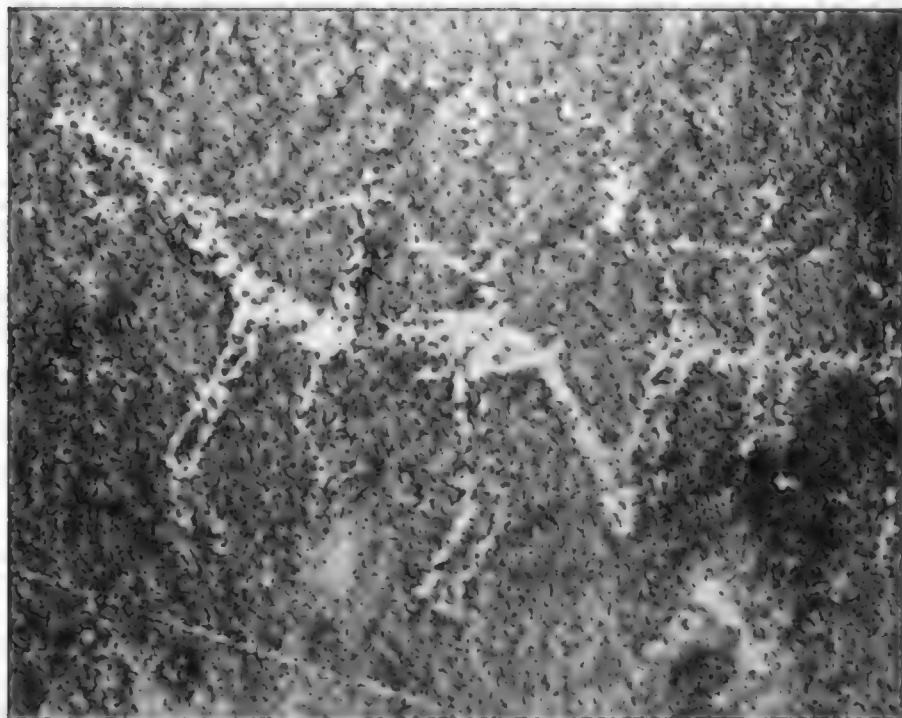
- (١) درب الافعى. (تصوير أ. أ. أ.، مودوي) رقم ٣٥ ج.
- (٢) الرسم الصخري المسقى «السيدة البيضاء». (تصوير أ. أ. أ.، دوفرجيه)، رقم ٤٨٥٢.

يخفي الطبيعة الحقيقية لطموحات الانسان. فلنكتف اذن بالاشارات التي تزودنا بها الأسطورة عوضا عن أن نساق الى الجدل الكلامي، لأن تلك الصور واضحة بما فيه الكفاية (١٧).  
في هذه الظروف، تمثل الرمزية الخرافية والمتعلقة بنشأة الكون أهم مفتاح لاستكشاف عالم الفن الجداري. ولقد توسع فروبينسيوس في شرح نفس الآراء وان كان قد أخذ بالاعتبارات الاجتماعية أيضا.

و يقال بأن الأسد نقش في لوفنتين على الوجه الجانبي من الصخرة لتضيئه الشمس بأشعتها الاولى، لأنه يمثل كوكب النهار، في حين ان وجه الكركدن موجه نحو الغرب لأنه يمثل روح الليل والظلام. ان الكركدن الذي يرمز قرناه الى الهلال الناشئ يعتبر حسب التقاليد أنه قد اغتال القمر الخ... ويتحدث أ. هولم أيضا عن «الوظيفة القدسية» للمغارات الواقعة في المرتفعات النائية. فلقد دعت أسطورة نشأة الكون العالم اللغوي الألماني وليام بليك التي استقاها في القرن التاسع عشر من قبيلة السان الى اعتبار أولئك السان بأنهم «لا يميزون بين المادة والروح». ان تمثيل ظبي الكاب بقوائمه الضامرة يرمز الى القمر الطالع. وهذا الظبي اذ يواجه رسوما انسانية مثل التي توجد في مغارة هرنفان (دراكسنبروغ) يفيد أن أولئك البشر كانوا يعبدونه: و يرمز الشمواه (تيس الجبال) الفاقع اللون المخطط بالأحمر الى الزوبعة، وترمز الراهبة الى البرق، والفيال الى السحاب المطر، مثلما هو الشأن في جبل القديس بولس (دراكسنبروغ) وقد توجد تلك الأسطورة لا في جهات أخرى من افريقيا فحسب (مغارة فيليب بنامبيا، وجبل بوسيع، وعين غجة بالجزائر) بل توجد أيضا على عاج منقوش، في المادالان بفرنسا.

ويختص ظبي الكاب البديع الموجود بمتحف الترانسفال بوبر لونه عسلي، وهو يفيد بكل بساطة بأن الظبي مخلوق الراهبة التي تمثل الشمس وأن الراهبة قد دهنته بعسل صاف حتى يلمع وبره. ولئن كان الحمار الوحشي قد رسم أحيانا بدون خطوط كما هو الشأن في مغارة نسواتوغي في جبال متوبوبزمبابوي، فذلك لأن هذا الحيوان لم يكن في الأصل مخططا ولم يتميز وبره الا بعد ان وقعت الشمس على صلبه تاركة حروقها به الخ... من هذا المنظار، يكفي ان تتوفر لنا كل تفاصيل «تحول العقائد الشارحة للألغاز الافريقية لكي نتحصل على المفتاح الذي يمكننا من فهم كل ألغاز الفن الجداري الافريقي المعبر عنه بأنه «لا يخضع للزمن مثل الأسطورة». لكن يجب ان نعترف بأن الأمر ليس بمثل هذه البساطة.

أما أصحاب المعالجة المادية، فانهم يرون أن فن ما قبل التاريخ مثله مثل أي فن آخر ليس الا انعكاسا للوجود الملموس للانسان في مجتمع معين فهو «لحظة ايدولوجية» وأداة من البنيات الفوقية تعبر عن توازن بيئي واجتماعي معين تمكن الانسان من المحافظة عليه أو من تحسينه لمصلحته.  
في هذا الاطار، نرى أنه يلزم القيام بالتأليف بين هاتين المعالجتين، لانهما ناقصتان اذا نفت احدهما الاخرى. فـما من شك أن فن ما قبل التاريخ قام بنقل رسالة بيداغوجية واجتماعية. ان السنان الذين يشكلون اليوم أقرب شعب الى واقع التمثيل الجداري، يؤكدون ان آباءهم فسروا لهم العالم من خلال مجموعة الرسوم الضخمة التي تمثلها الأروقة: وترتكز تربية الشعوب التي لا كتابة



١

- (١) تفصيل من نقش صخري من فولتا العليا (تصوير ج. ديفيس).
- (٢) رسم صخري من ناميبيا (تصوير أ. أ. أ. ميريوز)، رقم ٣٨٠٨.



٢

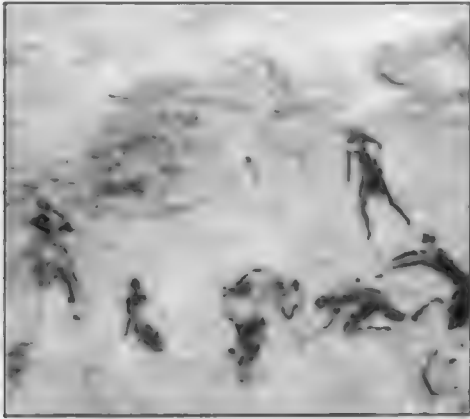
لها على الصورة والصوت، قل كل شيء، أي على الطريقة السمعية البصرية كما نرى ذلك الى اليوم في تنشئة الشباب في جنوب الصحراء الافريقية. ان النقش الفني على الحجر يخضع لهذا النظام. ومن البديهي أن الأسطورة لا تفسر كل شيء لأنه يجب، قبل انتاج الاسطورة، بناء، ثم إعادة بناء المجتمع نفسه. وهذه الصورة يمكن ان تصبح الاسطورة أداة ممتازة لتحسين (أو لإتلاف) الطاقات الانتاجية وعلاقات الانتاج وهذا ما يعتقد أ. هولم نفسه عندما ذكر شأن شاب السان المتأكد من ان سنان السهم المنقوشة في المرو اللامع هي جزء من النجم، فيخطبه مبتهلا اليه: «أنت، يا من لا يخطيء المرمى، أيها المعصوم من الخطأ، مكني من أن أدرك غييمتي». ان هذه الجملة وحدها تعبر عن مغزى منفعي قبل كل شيء عكسا للاستنتاج المثالي الذي يخلصه منها الكاتب. ان الانسان يحتاج ليظل على قيد الحياة الى أن يستنفر الكون وأن يجنده. وتلك هي وظيفة الاسطورة وان كنت لا أظن أنها وظيفته (١٨) الوحيدة، ولذلك يجب الاتمنا غابة الرموز من رؤية أشجار الواقع الملموس.

يمكن أن توجد الوظيفة الروحية وجودا مستقلا، فتصلح حينئذ من الناحية الذاتية لا كوسيلة، بل كنهاية في حد ذاتها. أليست الأسطورة في النهاية طريقة يستعملها الانسان لادراك الكون وذلك بتنظيمه أي بجعله مفهوما عقليا نوعا ما، اذ ان الخطاب الاسطوري يعتمد على منطق ذاتي خاص به فالهدف الروحي موجود اذن، ولو أنه مربوط في أغلب الأحيان بأمر دنيوية. ان تمثيل كائن مخيف يعني قبل كل شيء التخلص من سيطرته، ومراقبته بالنظر تعني السيطرة عليه. فهل يعبر سكوت المعادن الذي يكاد يلمس والذي يملأ الاروقة الصخرية السرية المسدودة في عين اتينان، وتسوكاي، هل يعبر عن خشوع المعابد وأماكن التنشئة، أو عن ايواء حيوانات محشورة فيها أو مسروقة؟ قد يفيد هذا وذلك. ان الاشخاص الواضعين على رؤوسهم قناع الحيوانات ووجدون غالبا في نفس المكان مع الحيوانات ذات الصفات الدماغية (أقراص، قضبان الخ..). (١٩) وذلك بجنوب منطقة وهران في وادي جرات، توحى بأشخاص في موقف تبدد أمام الحيوانات. وكذلك يمكن أن يعبر الصيادون الثلاثة المقتنعون في جرات، عن حالة من الافتتان، وكأنهم يطاردون جاموسا يحمل قرصا.

وبما أن الأهالي الافارقة ما انفكوا يستعملون الأتعة فلماذا لا نركز تأويل مثل تلك المشاهد على هذه الاشكالية الثقافية عوض ان نركن الى الخرافات البسيطة؟ والملاحظ أن التفسير ليس دينيا دائما. ويلبس صيادو المنطقة الساحلية حتى يومنا هذا رأس أبوقرين (طائر) فيحركونه من الأعلى الى الأسفل مقلدين ذلك الطائر ليقتربوا على أربعة قوائم من الطي قبل رميه بالسهم. ان التباعد بين الوسائل والنتيجة تبلغ حدا كبيرا أحيانا الى درجة تجعلنا نشتم السحري بوقه كأن نرى مثلا رجلا مقنعا يجذب بدون جهد كركدنا مقتولا وأرجله الاربعة مطلوقة في الفضاء وذلك بعين هباتر

(١٨) تحوي الاساطير من حيث النظرة التاريخية البحتة، كثيرا من المعلومات، فان الشمس — في اعتقاد قبيلة السان — انزعجت من حمل الحمار الوحشي لها على ظهره، فهجرت لتستقر بين قرني الثور. وذلك ما يحلنا الى الطرف الآخر من القارة أي الى الرسوم التمثيلية بشمال افريقيا (جنوب وهران، والصحراء ومصر) حيث نرى بقر يات تحمل أقراصا شمسية، فهل نستنتج من هذا ان الآلهة — البقرة (هاتير) نشأت من أسطورة افريقية؟.

(١٩) انظر: الامثلة المشهورة عن ثور مياديب (ليبيا) وكيش بوعلام (الاطلس الصحراوي).



● (١) رسوم الصخر من هضبة تاسيلي  
الناجر (الجزائر). (تصوير أ. أ. أ. ١،  
و ٤: سود، رقم ١٢٥٩٩ و ١٢٣٧٩  
و ٣ سودين، رقم ٣١ و ٤٣).

(ليبيا). وتظهر بعض طقوس الخصوبة جليا في تصرفات الممثلين الموجودين بالمشهد والذين يظهرون وكأنهم متفرغون لمجموعات شعائرية في المجامعة الواقعة بين امرأة ورجل مقنع في تين للان أو في منظر أولئك الذين يرقصون رقصات متحمسة، مع تصرفات جماعية بارزة. وكانت الخصوبة هي القضية الكبرى في الواقع، خاصة في أواخر عصر ما قبل التاريخ في الصحراء الكبرى أو في صحراء ناميبيا، وذلك اثر تدهور كل أثر للحياة وأمام التقدم الحتمي نحو الجفاف. أما (همباتي با) فقد أقر بأن حلقة العقيق الاحمر المسدسة الأضلاع الموجودة في المنجم الحجري الحديث في تن فلكي تمثل تيممة لا تزال تستعمل للخصوبة حتى يومنا هذا عند نساء الفلاتيين (٢٠) وقد لا يستبعد الدافع الجمالي أيضا في هذه القضية بالذات. وفي الواقع، بما أننا نعد رجال ونساء العصر الحجري الافريقي الحديث من نوع الانسان العارف مثلنا، فأننا لا نستطيع أن نحرهم من الشعور الخاص الذي يعترينا، وهو الرغبة في خلق الاشكال بغية التمتع بتأملها لا غير. ان الاعجاب الذي نشعر به اليوم أمام هذا الخلق كان أشد عندما كانت اللوحات حديثة وعندما كانت نماذجها متوافرة بالبيئة المحيطة بها. وتشهد بروعة الذوق الجمالي لأفارقة ذلك العهد، مساحيق مواد التجميل ولآلى الأمازيت والكالسيدون أو المصنوعة من قشرة بيض النعامة (في تينيري) وكذلك شكل القووس ذات الأعناق المشوقة. ان التصاميم المهملة لأنها غير مرضية كثيرة نسبيا. ومن جهة أخرى فان اللوحات المعرضة للهواء الطلق، أو الموجودة في متناول كل عابر سبيل، تدعو الى الاعتقاد بأنها مغيرة عن أصلها ولعلها مظهر من مظاهر الفن الشعبي. وهو شعبي أيضا لأن القصد التاريخي ليس معدوما منه. ان السور بالذكري، والرغبة في تخليد الاحداث الفردية أو الجماعية يعتبران من «معالم» جنسنا البشري فلقد وُجد الانسان مؤرخا. ويعتبر فنانا ما قبل التاريخ هم المؤرخون الأفارقة الأوائل، لأنهم مثلوا لنا بأبلغ عبارة، الحالات المتفاوتة التي تعترى انسان ما قبل التاريخ في علاقاته مع الوسط الطبيعي والاجتماعي.

## العبء التاريخي أو الفن كوثيقة

لماذا نعتبر فن ما قبل التاريخ الافريقي هي الصفحات المصورة الأولى لأول كتاب لتاريخ إفريقيا؟

### البيئة الإيكولوجية

أولا - نجد فيه شريطا وثائقيا عن البنية التحتية للمجتمعات الاولى التي عاشت في قارتنا وعن الظروف البيئية. ويمكن ان يشاهد مجال الحياة هذا مباشرة، كما هو الشأن بالنسبة للأشياء التي وجدت في أمكنتها الاصلية. ولكن محتوى اللوحات كذلك يمكن ان يدلنا عليه. لقد دعونا الى الحذر عندما ذكرنا بأن تمثيلا جماليا لا يشكل بالضرورة صورة صادقة عن الواقع المحيط المعاصر، اذ يمكن ان يكون الفنان قد صور ذكريات قديمة أو شخص سرايا أو أحلاما. الا أن الشواهد الكثيرة المتفقة في هذا الشأن مع نتائج التحليل الجيومورفولوجي الذي مكن من معرفة مدى امداد البحيرات

الميتة وشبكات المياه القديمة لا تترك مجالا للشك. ومن ناحية أخرى وجدت عظام كركدن عثر عليها أ. لوط في منجم بالأدرا بوس يقدر تاريخه بـ ٥١٤٠ ق. ح. اعتمادا على الكربون ١٤، وهذا ما يؤكد مثالا الاصاله التاريخية لمجموعة الكراكدة المرسومة في أسدجان وأن ملين و يعتبر ذلك الحيوان علامة بيئية حقيقية لأنه يستوجب مياها دائمة. وذلك شأن الفيل الذي يستهلك يوميا كميات هائلة من النباتات، فكانت صحراء اللوحات اذن في ما قبل التاريخ حديقة كبيرة من نباتات البحر المتوسط التي بقيت منها بعض البقايا الى اليوم. الا ان تلك البيئة أخذت تتقلص شيئا فشيئا أمام مجال للحياة «سوداني وساحلي» (٢١). ونجد في عصر الحصان والعربات بعض رسوم الأشجار مثل النخيل الذي يشير بدون شك الى وجود الواحات.

ان الاسلوب الشمالي (المعروف بالروديسي) في افريقيا الجنوبية ملئ برسوم الأشجار فمنها ما هو معروف. ونستطيع اليوم ان نتصور الحيوانات الكثيرة المختلفة التي سكنت خبايا المناطق التي أصبحت اليوم قفرا وكأنها اليوم سفينة نوح جديدة، وحديقة حيوانات جامدة فيها أسماك منقوشة، وحيوانات وحشية كثة الوبر وقوية مثل الحيرم القديم وقرونه الكثيرة التي يبلغ قطرها ثلاثة أمتار، وسنوريات مثل الفهد والضبع والقرد الطويل الذيل والقرد القردوحي (في تين تازر بيت) ونعامات وبوم الخ.. ففي كل مكان نرى مشاهد الصيد التي تذكرنا بالصراع الكبير بين الانسان والحيوان منذ الخليقة. ان تلك المشاهد المملوءة بالحياة وأحيانا بالعنف والتي ينجلي فيها انتصار العقل على القوة الوحشية، تذكرنا بالصيادين الذين أشار اليهم يويوت بوادي النيل في ما قبل الملوك، بجيوشهم الذكورية بين أفخاذهم وأسلحتهم المقوسة وأذيالهم المستعارة وهي تتكون في الواقع، كما هو الشأن اليوم في افريقيا الوسطى، من جلد حيوان يلبس قلادة. ونشاهد في اهرن أسدا يصطاد وقد كانت تطارده وتحاصره دائرة من الرماح المهددة. ونرى في تسوكاي حيوانا وحشيا مقتولا على وشك ان يقطع. ونجد على ضفاف النيل وفي ليبيا وفي الصحراء الكبرى كلها رسوما كثيرة لأفخاخ تشهد بمهارة انسان ذلك العهد المتعدد الاشكال، وكان ذلك الانسان يكيف تقنياته مع البيئة وطباع الحيوانات (٢٢).

وتبين لنا كثرة تلك اللوحات المتعلقة بالصيد، من النيل الى المحيط الأطلسي وجود حضارة صيادين حقيقية، فكانت حيوانات هائلة مثل الفيل لا تستطيع الفرار كما يدل على ذلك مشهد الصيد الكبير بمروتوك الاعلى. وتكاد ترتبط الافخاخ في كل الأماكن برمز الصيادين تحت مجموعة ثقافية أصيلة، امتدت تقريبا على القارة الافريقية كلها وذلك على عشرات الألفيات من السنين وتواصلت مدة طويلة في العصر التاريخي كما تشهد على ذلك خرافة سندجانا.

وتوحي تلك التمثيلات أيضا بالتحول التدريجي من مراقبة أو «حبس» الحيوانات، الى السيطرة عليها ثم تطويعها: فنرى رجلا بيده قوس يشد حيوانا من زمامه. ونرى مشهدا عن صيد الأروية في

(٢١) انظر: ي، ومفيا ١٩٧٤.

(٢٢) لقد أحسيت حباك وأشبائك، وأفخاخ منصوبة، وخنادق تقوم مقام الأفخاخ، وأفخاخ تصرع، وأفخاخ تشد، منها ما يربط ومنها ما يلوى مثلها هو الشأن في داومتي، على التخم النيجرية التشادية حيث عرقلت حركة زرافة باستعمال جهاز معقد وبشي عنقها ثنيا أفتيا. انظر: ب. هوراد، وج. لوجلان، ١٩٧٣ ص ١٣٦ وما بعدها في شأن التفاصيل المتعلقة بهذا الموضوع.



تيسوكاي وقد استعين فيه بالكلاب. وبين المشهد الحي عن الكلب السلوقي وذيله المطوي في سفار، ان ذلك الحيوان كان دائما رفيق انسان الصحراء. ويظهر مشهد في جبارين صيادا يحمل سلاحا مقوسا وهو يترصد حيوانا وحشيا يتبعه حيوان آخر ينتظر الفريسة الا أنه يبدو أنه قد تأهل. ولقد لوحظت البقرريات أيضا منها الثور الاسباني ذو القرنين القصيرين والغليظين بالجنوب، والثور الافريقي في تاغيب وجبارين الخ، وقرناه الكبيران اللذان لها شكل كنارة. وتحمل تلك الحيوانات أحيانا قلادات برقابها (واد جرات).

ثم نرى في عين اتينان مثلا بقرريات قد أحكم تصوير قرونها، وزخرفت ثم عوجت اصطناعيا أشكالها على نمط اللولب. ان نوع الحمار المصطاد في تيسوكاي هو من نفس النوع الذي أهل منذ العصر الحجري الحديث، حيث نراه وقد ركب الانسان. وهناك أغنام وماعر أيضا الخ... وحتى الأجهزة المستعملة في الماء فقد بدأت تظهر كما نرى ذلك في تين تازار يفت بشكل يذكركنا بمراكب البردي بالبحيرات والأنهار في السودان التشادي وفي النوبة.

## الإطار الانساني

وتذكر رسوم عين أتيتان التي تظهر أناسا منحنيين على الأرض يستعملون أدوات مكوعة بمشاهد الحصاد التي تستعمل فيها المناجل، والموجودة في النقوش الجدارية الفرعونية.

وكذلك فان رسوم النساء المنحنيات انحناء الذاريات للحبوب، أو الجامعات للسنابل تجعلنا نفكر في وجود زراعة حبوب بالعصر الحجري الجديد بالصحراء، وما يؤكد كثرة الرعي، ومهارس الحبوب (٢٣) الا أن دراسات البليولوجيا، اعتمادا على عينات صحراوية، تدعونا الى الحذر. فلعل الأمر يتعلق بجمع الحبوب، وان كان الفاصل بين مرحلة الجمع والمرحلة الممهدة للفلاحة ومرحلة الفلاحة بآتم معنى الكلمة صعب التحديد. في باتل كاف تغدوفتيات من السان الى الجمع وهن يحملن عصي الحفر على أكتافهن. ومهما يكن من أمر فان كثرة القطع الفنية الجدارية والأثاثية المكتشفة في مناطق واسعة من افريقيا، لا سيما في المناطق التي أصبحت اليوم صحراوية، تعطي فكرة هامة عن الكثافة السكانية في تلك المناطق. ان أحجام تلك القطع الضخمة توحى بانتاج «نصف صناعي» كما هو الشأن في الشمال الشرقي من باشر أو في عرق الروى، أو حتى في المجدوبة (الصحراء الغربية) كما تؤكد ذلك ملاحظات ث. منود.

ان الفن الافريقي في ما قبل التاريخ يعطي أيضا فكرة واضحة عن لباس الانسان حينذاك. فهو يفيدنا أن الرجال — وذلك ما يجري كثيرا في البداية — كانوا يتحلون أكثر من النساء حتى عصر البقرريات حيث انعكست الآية.

اننا نرى الرجال لابسين جلود الحيوانات، متبرجين بأشرطة جيبينية مزخرفة أو بمعاطف من الريش، وكانوا يحملون شعارات مختلفة غامضة أحيانا تتكون من قلاند وساعات وأساور الخ.. وغالبا ما تظهر النسوة في عدة بسيطة للغاية، ويلبسن في بعض الأحيان شريطا من القطن بين الفخذين مشدود بحزام، وهو لباس متعارف عند الفتيات في المنطقة السودانية، وتوجد أيضا الوزرة



● (۱) مشهد شهواني من تاسيلي.  
(تصوير ب. كولوميل)، رقم ۷۵۳۲۱.  
● (۲) مشهد شهواني من تاسيلي.  
(تصوير ب. كولوميل)، رقم ۷۳۱۰۷۵.



بأهدابها التحتية المختلفة الأوضاع والفساتين اللصوقة، وأنواع من ساترات النهود أو من رافعاتها، وتسريحات شعر مختلفة منها تسريحة الخوذة مثلما هو الشأن في جبارين.

أما المسكن، فهو كثيرا ما رسم رسما مبسطا في شكل نصف كروي يمثل أكواخا نرى الأثاث بداخلها ومشاهد عائلية. وتبين من ناحية أخرى اكتشافات منحدر تشيت (موريتانيا) حيث عثر على ١٢٧ قرية، أن أفارقة العصر الحجري الجديد كانوا أيضا بناءة. إن تلك التجمعات السكنية المكونة من الحجر الجاف والمستقرة على نتوءات جنوبية تحوي كل واحدة منها ٣٠٠٠ نسمة وتقوم غالبا على ركيزة من الصخور العملاقة التي تذكرنا بزمبابوي إفريقيا الوسطى والجنوبية وتميز الأعمدة الحجرية المصقولة هذا الفن المعماري الرائع بالنسبة لذلك العهد (٢٤).

إننا نلمح من خلال لوحات الفن الجداري الإفريقي مجتمعا كاملا ينشط حتى أنه يكاد يبلغ البعد الثالث أي بعد الحياة. ففي تكداماتين مثلا نرى النساء أجسامهن مكنتزة لحما، يشعر من يراهن بأنهن قد شبعن من الحليب. وكن جالسات أمام أكواخ مع أطفالهن، ولقد ربطت عجول ربطا محكما إلى حبل، وكان الرجال مهتمين بحلب الأبقار، والمشهد مشهد مسائي قد اتسم بالطمأنينة العروية. فهل يوحي عدد النساء بنظام تعدد الزوجات؟ في أورنج سبرنغس، وفي نكوسيزانا سترم (التال) تبين مشاهد من الرقص الحي أناسا أغلبهم نساء مجتمعين وهم يصفقون، حول راقصين مقنعين. وفي جبارين تجذب امرأة ابنا الصغير الحرون. وفي سفار يظهر رجل وهو يجذب حبل العجل الذي يعتبره بعض صيادي قبائل الفلانين اليوم شيئا مقدسا (دنفول) وفي غنبا إهرن، نرى على اللوحة الضخمة التي تمثل إحدى روائع رسم ما قبل التاريخ استعراضا لثيران مسرجة بهمة تحمل على جوانبها قرب الماء وتركبها نساء كثيرات الحلي. ونرى حيوانات تنحني إلى المورد، بينما كان قطيع كبير يتقدم بكل وقار، كما نرى نساء مزينات جالسات مسترخيات أمام بيوتهن بينما توقف الرجال، وبشعرهم ريش، لتحيتهن. ونجد في الأكواخ أثاثا منزليا متنوعا. في عين اتينان يبرهن الأعيان المتحلون بلباس الأبهة، والمحاربون الذين يلبسون البدلة، على أن المجتمع أخذ يخضع لمبدأ الرتب. ويبدو الرماة المرتدون معاطف مرتبين حسب زمر تقوم بدور ية يقودها قائد. فهي تبدو كأنها «قوة من قوى حفظ النظام».

إن مشاهد الحرب في إفريقيا الجنوبية كثيرة وهي تروي الصراعات المتعددة بين قبيلتي السان والبانانتو.

الا أن ذلك لا يقضي على الحب إذ نرى مشاهد كثيرة تبرهن على أن فنانا ما قبل التاريخ الأفارقة لا يشعرون بأي خجل زائف أمام هذا المظهر من حياة مجتمعه. فلقد مثلت حيوانات عند تهيجها الجنسي، كما هو الشأن في التئود الصخري الجنوبي ببلالكا حيث نرى كركدين يشم أحدهما عضو الجنس الآخر. ونجد في مكان آخر تيسا يركب عنزة. وتبين مشاهد الجامعة الانسانية بتنوع أوضاعها. إن الإنسان لم يبتكر شيئا مهما في هذا الميدان منذ الزمن القديم. وتمثل صخرة أهانا في وادي جرات (تاسيلي) مهرجان رجال مقنعين لهم ذكور هائلة منتصبه على حافة فروج نساء قابعات

قبوع توليد. وجميع التفاصيل موفرة. ولقد خصصت اللوحة الكبيرة في تين للان بالأكاكوس (ليبيا) لذلك الموضوع الاباحى (هوغو — برغمان، عدد ١٦٤).

وفي (أنا هوانرات) نرى مشهد مجامعة أكثر ابتذالا، ونرى في تيمنزوز ين (تاسيلي) زوجين يتجامعان وبقربها وقف ثلاثة رجال وثلاثة نساء وقد عبر الراسم تعبيرا دقيقا عن مقاومة النساء المصطنعة.

عندما ندخل ميدان السحر والدين، نكون مضطرين الى الاعتراف بأن عددا كبيرا من اللوحات مازالت غامضة تماما، لأنها مغلفة في خفايا الأساطير. فإذا تمثل الثيران ذوات الرأسين، أو التي نراها في وادي جرات ولها جسم مزدوج مخنث يحمل أسا واحدا؟ وماذا تعني اللولب المنقوشة نقشا بديعا والتي لها صلة بحيوانات كثيرة كالتي نراها على الحيرم في وادي جرات؟ إن ذلك الرسم الذي نجده على الفخار الغرزي يبدو متصلا بشعائر الصيد (الأفتان)، وكذلك الشأن بالنسبة للولب الشعبان (ميهون) المعروف في الحقبة الثنية (الأسرتان الفرعونيتان الأولى والثانية) (٢٥). ويرى بعضهم أن اللولب يعني تواصل الحياة. أما الجبل السري الذي يربط بين شخصين ابتداء مثلا من تلاقي فخذى امرأة لينتهي الى سرة تبال وهو يصطاد، فكأنه يعبر عن تيار روحاني يندفع من الأم التي تصلي ويدها مرفوعتان، في اتجاه ابنها الواقع في خطر. ونرى كذلك في افريقيا الجنوبية (بوتسوانا) حيوانا يبشر بالمطر قد سيق عبر البلاد بجبل اعتصم به موكب من الأشخاص ذوي الحزم. وتنتسب المواضيع الشمسية الى نفس التراث الديني، إلا أن الرجوع الى المحيط الثقافي الخاص بافريقيا هو الوحيد الجدير بتوفير حل لغز اللوحات التي ما تزال مبهمة. ذلك ما حصل عندما اكتشف أ. هيبات با في مشهد بتين تزاريفت عرف حتى ذلك العهد بالثيران الارتسامية (لأن قوائمها تبدو مصغرة مثل الجذوع فظن أنها مقرصة) اكتشف حيوانات تقاد الى المورد في حفلة اللوتوري بغية الاحتفال بأصل البقرات المائي. وعرف هيبات با في الشكل المتصنع الغامض الممثل للأصبع الذي يجاوز المشهد السابق، عرف فيه أسطورة يد الراعي الأولى المسمى كيكالا، وهي يد تذكر بعشائر الفلانيين، وبألوان جلد الثيران والعناصر الطبيعية الأربعة (٢٦). ويدل التطور بصفة عامة على تحول السحر المرتبط أحيانا برقصات الدروشة، الى الدين الذي يدل عليه مقطع من الشريط المصور الكبير في عين اتيتان الذي يعبر عن قربان كبش.

## علاقات وهجرات

يجب أن نشترك الاتجاه الى تفسير كل الملامح الثقافية الافريقية بالتيارات والتأثيرات الخارجية ولكن هذا لا يعني نكران العلاقات بل يجب تعريفها بكل حذر. إن الفن الجداري الفرنسي الكاتنيري الذي يعود الى ٤٠٠٠ سنة تقريبا ينتسب الى العصر الحجري القديم ولذلك فهو سابق لفن ما قبل التاريخ الافريقي، ويكون العصر الحجري الجديد الافريقي، عكسا لذلك سابقا لنفس

(٢٥) انظر أيضا دور الحية في التشكويات الافريقية.

(٢٦) يجب أن نحتز من التخرجات التي تعتمد على الحكايات الاسطورية الحالية لتفسر كل الرموز الناشئة ما قبل التاريخ.

انظر: د. لاجو، المذكور سابقا.

العصر في أوربا (٢٧). ولقد كان هناك ميل كبير الى القول بأن فنانى القارة الافريقية كانوا يستمدون الالهام من الشمال، حتى قال بعضهم بفن أوربي افريقي قد يكون نبع من أوربا وذلك ما يوحي بنوع من النظرية الحامية في ميدان الفن الافريقي في ما قبل التاريخ.

## حضارة أصيلة

على أن الأمر ليس كذلك، فبقطع النظر عن كون ١٥٠٠٠ سنة على الأقل تفصل بين الحركتين الجماليتين، فمن البديهي ان الشرق الاسباني الذي كان من المحتمل أنه صلة الوصل في التأثير، لا يحتوي على أي شيء يمت بصلة الى الفن الاصلي بجنوب منطقة وهران، وبالتاسيلي أو بفزان وقد أكد ل. بلسوط بقوة على انعدام العلاقة بين ما قبل التاريخ بافريقيا الشمالية، ومثيله باسبانيا في العصر الحجري القديم الاعلى. ومن جهة أخرى فلقد رفض كل المؤرخين تقريرا الأصل القابسي لنقوش منطقة جنوب وهران ونقوش الصحراء الكبرى. ان فن ما قبل التاريخ قد ازدهر انطلاقا من الأطلس وتعتبر وقائعه ومراكزه افريقية بحتة.

وهناك تساؤل أيضا عن امكانية اشعاع هذا الفن انطلاقا من الشرق، أو من ضفاف النيل تجاه داخل القارة، لكن الفن في الوادي المصري من النهر لاحق بدوشك لإزدهار الفن الصحراوي والسوداني. فان رسوم البقرات ذات الأقراص بين قرونها، أقدم بكثير في الصحراء من رسوم البقرة الإلهة هاتور... ويرجع تاريخ الصقر المنقوش نقشا دقيقا على صفيحة الصلصال بمحادة قير الى ما قبل الرسوم الماثلة له، ولو أنها أصغر حجما، والتي تظهر على قبور مصر في عهد ما قبل الملوك، وتمهد لتمثيل هوروس. ان كبش بوعلام البديع ذا الكرويات يسبق بكثير كبش أمون الذي لم يظهر في مصر الا في عهد الاسرة المالكة الثامنة عشرة. وقد حكم ملرو على الرؤوس ذوات الأشكال الحيوانية التي شاهدها في وادي جرات بأنها كانت تمهد لتمثيل عبادة الحيوانات المصرية. وينطبق نفس الشيء على الإلهات ذوات الرؤوس العصفورية بجباران. فالانجاء الشبه الطبيعي لم يظهر في مصر الا في العصر الغرزوي، وهو ينتسب الى نقوش العصر البقري الصحراوية، وذلك أيضا شأن لوحات وادي حمامات ذات الصنع الرديء وتنتسب المراكب الرائعة «المصرية النوع» التي نراها في الصحراء (تين تزاريفت) بكل بساطة وبدون أدنى شك الى النوع الصحراوي. ويبدو لي أنه يجب ان نعيد النظر، ومن وجهة مختلفة تعتمد المنظور التاريخي، في اشباع راردس (تيسوكاي) التي تذكرنا «بالهيكسوس» و«فرعون» و«أنثينيا» وغطاء رأسه الذي يذكر «بابشتن الفرعوني». من الأكيد ان مصر قد اشعت ساطعا لكنه كان بلا شك محدودا في اتجاه وسط افريقيا. ان الشيء الذي يبدو أكثر وضوحا يتمثل في أسبقية حضارة ما قبل التاريخ الصحراوية، ويرجع ذلك أيضا الى انعدام أي حاجز — باستثناء المسافات — يمكن ان يفصل شعوب الهقار والتاسيلي وفزان عن ضفاف النيل التي ظلت مدة طويلة الى أن أصبحت الصحراء قاحلة منطقة منفرة كثيرة المستنقعات. ولم تبلغ أوج ازدهارها الا ابتداء من العصر التاريخي، وهي التي تجعلنا الى اليوم ننسب كل شيء الى

(٢٧) يعود العصر الحجري الجديد الصحراوي على الأقل الى الألفية الثامنة قبل الميلاد، وكان يعتقد منذ عهد ليس بالبعيد، بأنه متأخر بالنسبة لافريقيا الشمالية ومصر والشرق الأوسط هـ. لموت ١٩٧٦ ص ٢٢٧.

مصر حسب المبدأ القائل «لا تعطى القروض الا للأغنياء». لكن المراكز في ميدان الفن والتقنية كانت موجودة في البداية بالصحراء الكبرى والسودان الخرطومى وبافريقيا الشرقية والشرق الأدنى. ان صحراء ما قبل التاريخ مدينة أكثر الى مراكز الجنوب الشرقي منها الى الشرق الأدنى. أما العلاقات بين افريقيا الجنوبية والمنطقة الصحراوية فاننا لا نراها تتركز على براهين ملموسة وان كان فروبنوس قد أشار الى تشابهات عديدة (٢٨). وتكلم بعضهم عن «حضارة ماغوزية» يحتمل حسب هـ. هولم أنها شملت كل افريقيا وذلك ما لا يؤكده برهان. ومهما كان الأمر فان الانتاج الفني لما قبل التاريخ بجنوب افريقيا غالبا ما يبدو لاحقا لانتاج افريقيا الواقعة شمال خط الاستواء، وان كان استقرار الانسان بالجزء الجنوبي من القارة يرجع الى تاريخ قديم جدا (٢٩). وينسب بعض الكتاب عن خطأ كامل كما رأيناه في البداية، عصر التمثيلات الكبير المرتفع الدراكستبورغ الى القرن السابع عشر أي بعد قدوم البنتو. ويبدو، اذا نظرنا الى الأسلوب، ان الرسم الجنوبي لا يمت بصلة الى العصر المسمى «عصر الرؤوس المكورة» في الصحراء، وليس له من صلة الا بعصر الشيران. ويمتاز أيضا بمواضيع خاصة كالنباتات الكثيرة والمناظر الطبيعية ذات الصخور المنمنمة والمواضيع المأتمية الخ.. ومهما يكن من أمر، يجب دفع الدراسة المقارنة الى الامام ويجب خاصة تجويد الاطار العام لتاريخ الانسان العارف الافريقي في ما قبل التاريخ قبل القول بوجود اتجاهات جمالية معينة.

### بسط النظريات العرقية

وتنطبق هذه الملاحظة أكثر ما تنطبق، على «الاجناس» المسؤولة عن خلق ذلك الانتاج الفني لكن، الا يوجد هنا تعسف لغوي عندما نستعمل مفهوم «الجنس»؟ (٣٠) وهل تمكنا بعض المياكل العظمية وحطام العظام التي عثر عليها، من اختلاق سناريوات العمران من طرف «أجناس» ما قبل التاريخ لكن بعض الكتاب بسطوا التطور الديموغرافي المعقد على النحو التالي: وذلك أن نياندرتالين في الشرق الأدنى كانوا قد هاجروا الى افريقيا بعد تعمير افريقي أصيل، وكان منهم فرعان: فرع وصل في تقدمه الى المغرب، والآخر اتجه الى الهضاب العليا في الشرق الافريقي، مروراً بالقرن الافريقي، وهذا الفرع يتكون من العاطرين من العصر الحجري القديم المتوسط. ويحتمل ان تكون وصلت بعد ذلك حتى شمال افريقيا موجة أخرى من الكرومانيونيين في مرحلة لاحقة للعصر الحجري القديم الذي ينتسب احتمالا الى العصر السبيلي بمصر. فيحتمل أن يكونا قد احتسويا على نواة ايبيرية - موروسية وعلى نواة قابسية. ويمكن ان تكون المجموعتان قد دخلتا العصر الحجري الجديد بعين المكان - لينشأ منها بالخصوص العصر الحجري الجديد ذو التقاليد القابسية

(٢٨) انظر أ. هارلند، ليوفروبنوس، ١٩٧٣، ص ٧٤.

(٢٩) انظر الفصل العشرين من هذا المجلد، بقلم ج. د. كلارك. ويرى بعض المؤلفين ان انتشار الفن الجداري وقع من زمبابوي، نحو ناميبيا والكام، ثم نحو الترانسفال ومقاطعة أورانج. أما بالنسبة للرسم المتعددة الألوان المتطورة، فقد انتشرت مرة أخرى من زمبابوي نحو ناميبيا. انظر أ. ر. ويلكوكس.

(٣٠) يجب أن تقلب عملية التخصيص التي تحدث عنها ج. روني خاصة بعد التمازجات التي يسرتها البيئة المتكاملة بالاكومين الصحراوي. انظر الفصل ١١، الخاص بالأجناس والتاريخ بافريقيا.

الذي يوجد في مناطق عديدة منها شمال الصحراء الكبرى. وقد وفرت مراكز أخرى تنوعا ملحوظا في مستوى الصناعات والفنون، ويجب ان نشير خاصة الى الاشعاع الكبير الناشيء بالعصور الحجرية الجديدة ذات التقاليد السودانية والغينية، والى ما صاحبه من المراكز الثانوية بتينيري وبساحل المحيط الأطلسي، بشمال موريتانيا (٣١). إن بعض الكتاب يرون أن العصر الحيرمي للفن الجداري من صنع أهل حوض البحر المتوسط غير المعرفين تعريفا كاملا، والذين يعتبرهم البعض بيضا ويعتبرهم البعض الآخر خليطا هجينًا. وقد ينسب العصر المعروف «بالرؤوس المكورة» الى «زنج» يرى البعض أنهم تهجنوا فأصبحوا سمرا إثر اختلاطهم بشعوب الشرق الأدنى وأصبحوا من أهل العصر الحجري الجديد ذي التقاليد السودانية. وقد يكون عصر البقریات من عمل أسلاف قبائل الفلانيين، وفي النهاية يمكن أن نتحسس أثر التقاليد المعروفة بالغينية الموجودة أكثر جنوبا في المباني القائمة على منحدر تشيت بموريتانيا. ولكن، تظل كل هذه الافتراضات هزلية، والحق يقال، وهي طبعا لصالح الرأي القائل بالمساهمات الخارجية فيها. ولقد حدث أن تكلم بعضهم عن تأثير افریقی واضح في لوحة جدارية بالصحراء... الا أن هذه الافتراضات ترمي خاصة الى اقامة معادلات بين مفاهيم تختلف عن بعضها مثل مفهوم الجنس والسلالة ونمط الحياة والحضارة. ويتحدث بعضهم عن السود والبيض والفلانيين والافارقة والقباسيين والسودانيين بدون ان يحددوا بالطبع محتوى تلك العبارات. فهذا، مثلا، لوط يني تأثير القباسيين (٣٢) على نقوش العصر الحيرمي، وان كان يصرح بأن في نقوش وادي جرات لا يوجد شكل زنجي واحد محض فكل الاشكال الواضحة هي بدون منازع أوربية. ويجب ان نفترض اذن بأن المسألة تتعلق هنا بالبيض، وتتوصل الى نفس النتيجة بعد درس أشكال بجنوب منطقة «وهران وبفران». ولقد قال لي زميل من جنوب إفريقيا ذات يوم: «يا للأسف لكونها عاجزة عن الكلام» (٣٣).

ولقد استند بعضهم أيضا الى نفس العلامات الهزيلة من الأشكال الانسانية لينسب عصر «الرؤوس المكورة» الى السود، وعصر البقریات الى قبائل الفلانيين، لكن تعريف الجنس هو في الغالب قائم أيضا على أنماط العيش وعلى الثقافات، وذلك عين الضلال، ويعرف أهالي العصر الحجري الجديد ذوو التقاليد السودانية بأنهم من «عرق الصيادين الراعاة القادمين من الشرق». وتكفي «الملامح الرقيقة والتقنيات الرعوية وتسريحات النساء على شكل خوذة، والصفائر عند الرجال»، لينسب كل الفن الجداري الممثل لكل تلك الوقائع الى قبائل الفلانيين، وان كان هؤلاء لا يعبرون في الوقت الحاضر عن أي ذوق جمالي من هذا النوع كما أنهم لم يحافظوا على ما يذكر به، مثل ما هو الشأن عند السان مثلا، وان كانت كل الطبقات وكل الأساليب وكل الأشكال الأنتروبولوجية تتداخل الى حد بعيد في اللوحات الجدارية ويمكننا الى اليوم في جل مناطق إفريقيا المدارية إعادة بناء سلسلة كل الأشكال الممكنة مشاهدتها في رسوم الصحراء (٣٤). وذلك بقطع النظر عن ان رساما فلانيا قد يكون صور راقصين مقنعين، أو ان فنانا «زنجيا» قد يكون مثل مشاهد

(٣١) انظر هـ. ج. هورغو، ١٩٧٤ ص ٦٢ وما بعدها.

(٣٢) انظر: هـ. لوط المذكور سابقا ص ١١٠.

(٣٣) هـ. لوط، المذكور سابقا ص ٤١.

(٣٤) ب. ف. طيباس. يشير ان كل المائدات وكل أشكال الجماجم توجد أيضا عند الموتى بمقاطعة الكاب.

من الحياة الرعوية أو حوّل ملامح أبطاله وبطلاته مثلما يفعل ذلك بعض الرسامين السينغاليين اليوم. أفلم يصوّر رجال السان القصار في الغالب أنفسهم طوال القامة ونحفاء وذوي بنية صلبة؟ ان كل فن يعتبر اصطلاحا ولم يشاهد أي كان أبدا شعبا من السود ليس له الا «رؤوس كروية»، ومن جهة أخرى فهل كان تخصصهم «كفلاحين رعاة» على نفس الدرجة من البروز التي نراها اليوم؟ (٣٥).

فلقد قال هـ. ج هوغو في خصوص العصر الحجري الجديد الموريتاني ما يلي: ((عندما وصل سود تيشيت كانت ثيراتهم معهم)) وكتب في مكان آخر «شهدت المرحلة الرعوية المتوسطة قدوم عناصر زنجية وذلك هو العصر البقري الكبير المتميز بقطعان الثيران المصورة بكثرة» (٣٦) ولذلك فان الرعوية ليست حجة كافية، وكذلك القياسات الدماغية أو الانطباعات الذاتية المتعلقة بالملامح. فليست الأجناس هي التي تصنع التاريخ. والعلم الحديث لا يحصر الجنس في خصائص جسمية سطحية (٣٧). ان كل «السيدات البيضاء» في الرسوم الجدارية الافريقية التي لم تبيض منها الا وجوهها، كما في جنوب افريقيا، تذكر القس بروي بأفاريز كنوسوس التي رأى فيها «عبور قوافل من الرواد القادمين من الخليج الفارسي»، لا تمثل في الحقيقة الا أشخاصا متعبدين، وصيادين أو فتيات افريقيات خارجات من حفلات التنشئة كما يمكن أن نراها اليوم أيضا مرسومة بالصلصال الأبيض، لأن ذلك اللون هو لون يفيد موت شخصية سابقة، والارتقاء الى مرتبة جديدة (٣٨). أما فيما يخص رسامي لوحات الفن الجداري بافريقيا الجنوبية، فانهم ما انفكوا على جدال. الا ان القاعدة التاريخية أصبحت معروفة أكثر. فالأمر هنا يتعلق بعلاقات بين الخوي — خوي والسان أولا، ثم بين الخوي — سان والبنتو. ويعبر عدد كبير من اللوحات عن تلك الديناميكية التاريخية. فالمقارنة الاحصائية بين الايدي المخطوطة والرسومة على الحجارة تناسب قامة السان، كذلك الامر بالنسبة لتراكم الدهن وانتصاب الذكر الجزئي الخ.

أما نقوش عصر الخيول والعربات الحربية فهي ترجع الى العصر التاريخي. ولقد أمكن للبعض ان يتساءل، مقابل ذلك، عما اذا كانت الرسوم والنقوش من انتاج شعوب مختلفة، علما بأن الاولى قد أنجزت في الخبائيء، والثانية فوق الهضاب. ولكن، يبدو أن هذا غير صحيح، اذ يتعذر على الرسامين في غالب الأحيان العمل في الهواء الطلق. فلو فعلوا ذلك لأمحت تصاويرهم ولزالت. اما النقوش فلقد كانت، مقابل ذلك يسيرة الانجاز على الدوليريت والديياز

(٣٥) «الملحوظ اننا لا نعرف معيارا واحدا صحيحا للتمييز بين أهل عصر الحريم وأهل العصر الأول الرعوي (البقري ١). ان وجود البقريات التي كانت أهلت نهائيا منذ عصر الرسوم الطبيعية الجميلة بعيد الى أحقاب بعيدة ظهور المواشي». ت. مونود. يناير ١٩٥١.

(٣٦) هـ. ج هوغو، المذكور سابقا ص ٢٢٥ — ٢٧٤.

(٣٧) انظر: «الأجناس والتاريخ بافريقيا» حاشية الفصل ١١.

(٣٨) يعتبر كثير من المؤلفين، ان «السيدة البيضاء» في برنبارغ التي تحيد نفسها عن اللوحة الأصلية تمثل في الواقع شابا يدل عليه قوسه، وردفاه وذكره الظاهر مثلما هو الشأن غالبا عند قبيلة السان الذين يكون ذكرهم نصف قائم. أما فيما يتعلق بلونها، يجب أن نلاحظ ان وجهها ليس مدهونا بل عبرته بلون صخرة من عين المكان. ان لونها وردي من الرجلين الى الحصر ثم يصبح أسود في الأعلى. والحقيقة ان اللون لا يفيد شيئا اذ نجد قبلة وقردة، ونساء لونهم أحمر ورجالا لونهم أبيض. . انظر: أ. ر. ويلكوكس ١٩٦٣، ص ٤٣ — ٤٥.



والكوبج، حيث تعطى مقابلة جميلة بين الزنجاز الأمغر، والباطن الرمادي أو الأزرق الصخري. وهذا ما لم يكن ليحصل في جص الخابىء بل اننا لنجد أحيانا رسوما ونقوشا في مكان واحد كما نجد نقوشا كانت قد طليت في بادىء الأمر مثلها هو الشأن في مقاطعة تركستاد. وفي بعض الاحيان نجد زيادة على ذلك نفس الاصطلاح الجمالي في كلا الصنفين من اللوحات.

## الميدان الجمالي

ان فن ما قبل التاريخ الافريقي يعتبر في الميدان الجمالي البحث، مصدر الفن الافريقي الحالي، الذي لم تستكشف جذوره بعد، الا قليلا، وما استكشف منه يعتبر بداية رائعة. نجد في فن ما قبل التاريخ الافريقي ثراء في الأساليب يمكن ان نتبع تطورها أحيانا تتبعاً شبه متصل حتى ندرك الابداعات الفنية لافريقيا الحالية والتي اقتبست كثيرا من الفن العربي والاوربي. ولكن يوجد الى جانب ذلك تراث قديم يكن طبعه في الخابىء تحت الصخور، وفي أنفاق ما قبل التاريخ. ان الرسم يعتمد على بعض الألوان البسيطة مثل المغر الأحمر والأبيض والأسود والأصفر وعلى لونين ثانويين الأزرق والأخضر. واننا لا نزال الى يومنا هذا نجد هذه الألوان في تشكيلة ألوان الاقنعة وفي زينة الراقصين.

ان هذا الفن هو فن ملاحظة وانتباه شبه هيامي و يصبح أحيانا تعبديا أمام الواقع. فالنقش والرسم يعبران جيدا عن هذا المظهر لكن ليس بنفس الطريقة، ففور اوغسبورغ (بتسوانا) الذي لم يبق منه سوى النصف الاعلى، يبرزه خط جيد الاتقان يكشف عن التفاصيل العضوية الدقيقة لكل من الحنطم والعينين والشعر الخ.. وتعتبر زرافة الايبيري نحتا واقعيا تام الشروط وقه ظهر تنقيط جلدها باستعمال ضربات المطرقة الخافرة حفرا رقيقا وذلك لابراز الخط المحيط بالرأس والحروف الوجنية والقرنين والعينين المبكورتين والخيشومين والحافرين بظلفيه وقرنه اللامع. ان الجانب الطبيعي ملحوظ في تقطيع الملامح باحكام، وفي النقش بالمطرقة التي تجود التفاصيل الداخلية، وكذلك في وجود زرافة صغيرة تستند الى أمها في حركة تلقائية مؤثرة.

ان تلك المهارة في الملاحظة توجد أيضا في جدارية اهارن حيث تتلاصق دون أن تختلط البتة لأن دقة الخط كانت على غاية من الاتقان، ست عشرة زرافة تجمعت تجمعا رائعا وأسراب من النساء المترينات المسافرات وهن يركبن ثيرانهن الناقلة، وغزلان وظباء (دوركا، داما، أور يكس، وحيارم) تعرف بالتوالي اعتمادا على قرنها الدقيقين وجلدها الأبيض وقرنها الطويلين المتجهين الى الخلف ورأسها المستطيل، وفي نفس اللوحة نرى زرافة وليدة مربوطة بمشيمتها تبحث عن اترانها وهي منحنية، كما نرى أسدا قابضا على خروف بين مخالبه وهو يراقب رجلا مسلحين يطاردونه بينما كانت خرفان أخرى تفر مروعة و يقترب ثور من غدير ليشرب، مما أقفز بعض الضفادع. كل ذلك يعبر عن ارتعاش الطبيعة الحي والمؤثر وقد تسرب الى الانسان صاحب الملك.

لكن الاسلوب الطبيعي الميال للتفصيل لا ينفي البتة التعبير عن الاساس، واستعمال في التركيب المشهدي الذي يرجع الى نوع من المعالجة النحتية للرسم. ولذلك صورت الشخصية الأساسية حسب حجم كبير مما جعلها تسيطر على بقية الشخصيات التي صغرت نسبيا مثل أولئك

الصيادين الكبار المقتنعين الذين تطفئ قاماتهم على السباع، ومثل الفرعون الذي يطرح أعداءه أرضاً وكذلك الأوباً في بلاد بنين، الذي ظهر عظمياً بالنسبة لرعاياه. ولقد تولدت عن المعنى الانساني الاشكال الرمزية التي تخالف تماماً فن البهرجة وهي الاشكال الرمزية إذا ضمت الى الصنع النحتي، يتولد عنها الايقاع الخاص الذي يحرك الحيرم المرسوم بخط مجرد وبسيط، مثلما يحرك قطع الثيران بجيارن التي يخيل للانسان أنه يسمع وقع حوافرها الصاخب وتنفسها الساخن وخواراتها. (انظر لاجو) (الصورة).

## حالية فن ما قبل التاريخ الافريقي

تغلب على ذلك الفن الشعبي واليومي روح الفكاهة، وهي السخرية الباسمة أو المرة كما هو الشأن في الحياة. وهو يغموضه يرتعش ارتعاش المتعبد الصوفي يحمله محراف الفنان أو ريشته، فيوفر عدداً من أروع آيات الفن العالمي. وذلك شأن الكبش ذي القرص الشمسي (كبش بوعلام) الذي تعبر هيئته الكهنوتية عن الأسرار وتدعو الى الخشوع (٣٩) وتدل تلك المعالجة المزدوجة على وضعية الانسان الافريقي المعاصر المزدوجة والمتماثلة في عفويته التي تكاد تكون فظة كما هي في الحياة اليومية، أو في وقاره وتصوفه الشديدين عندما يستولي عليه ايقاع رقصة دينية.

وفي الجملة فان فن ما قبل التاريخ الافريقي لم يندثر، بل هو حي معاصر، حتى ولو لم يكن الا من حيث أسماء الأماكن التي ظلت باقية. ويوجد واد رافد لوائي جرات يدعى تين تهد، أي مكان الأتان، وتوجد به صورة منقوشة جميلة لحمار. ولقد اشتهر ايسوكاي، ان آفلا بالأرواح التي تسكنه (الجنون). وقد يعود ذلك الى انه يوجه به كائن له شكل حيوان مربع، يجمع بين سمات الثعلب والبوم، بقطع النظر عن ذكره الضخم، أما ركام من الاحجار المكون من حجارات بركانية ملفوفة. ويستحق ذلك الفن ان يدمج من جديد اعتماداً على البرامج المدرسية في حياة الأفارقة الذين فصلوا عنه بمسافات لا يسلكها سوى إخصائي الاقطار الغنية وخبرائها.

وينبغي ان يصان ذلك الفن بغيرة من التدهورات المتنوعة التي تهدده يومياً لأنه يمثل تراثاً لا بقدر ثمنه (٤٠) وينبغي ان يجمع في مدونة عامة حتى يتيسر تحليله تحليلًا مقارناً.

فالفن في الحقيقة هو الانسان ذاته. وما دام فن ما قبل التاريخ شاهداً أميناً على الانسان الافريقي الاول، من محيطه البيئي الى احساساته السامية، وما دامت الصورة تفصح أحياناً مثلما تفصح الكتابة، يمكن لنا ان نخزّم بأن الفن الجداري الافريقي هو أول كتاب تاريخ لهذه القارة الا أن الأمر يتعلق بشاهد غامض وصعب التنايل يستوجب ان يدعم بمصادر اعلامية أخرى مثل علم الاحاث وعلم المناخ والهندسة المعمارية والرواية الشفاهية الخ.

(٣٩) من الملاحظ ان المؤلفين يشيرون ببلاط امبراطور مالي، في القرن الرابع عشر الى كيشين مهمتها حراسة الملك من العين. و يشار أيضاً الى الكبش في بلاطات افرقية أخرى مروى، بلاد اكن (غانا) كبة (الزايير)، كمن (تشاد).  
(٤٠) لقد صدر سنة ١٩٧٤ مرسوم حكومي جزائري يعتبر مجموع منطقة الرسوم والنقوش بتاسيلي متحفاً قوياً.

ان فن ما قبل التاريخ لا يكشف في حد ذاته الا عن الجانب الملحوظ من الجليد العائم على سطح البحر. فهو يرتسم على اللوحة المعدنية المجددة في الخبايا الحجرية، وتلك الصورة المرتسمة تمثل مشاهد حية أصبحت الى الأبد في غياهب التاريخ. فالفن انعكاس ومحرك. فالإنسان الإفريقي قد أعلن في فن ما قبل التاريخ ولكل العصور عن كفاحه المستميت من أجل السيطرة على الطبيعة وكذلك عن تحرره الواعي من تلك الطبيعة للوصول الى فرح لا حد له، فرح الخلق ونشوة الإنسان المبدع.

## بداية التقنيات الفلاحية وتطورها وانتشارها

بقلم: رولان بوزير وجاك بارو

إن الأفكار الراسخة حول أصول الفلاحة بقيت مدة طويلة متلونة بالتمركز العرقي أشد التلون. ذلك ان الناس كانوا، ولا يزالون، ينظرون أحيانا الى الشرق الأدنى — المهد الزراعي والرعوي الذي قال عنه غوردن تشايلد (١) بأنه مركز العصر الحجري الحديث — ينظرون اليه لا باعتباره مكان نشأة فلاحة الحبوب الهامة (قمح، شعير...) وتربية المواشي (ماعز، غنم، ثم بقر...)، وهما يمثلان القاعدة المادية للحضارة البيضاء، فحسب، بل باعتباره أيضا نواة الحضارة وموطنها الاول، لاسيما فيما يتعلق «بالعالم القديم». إن الأبحاث الأثرية التي أجريت منذ الحرب العالمية الأخيرة — وخاصة في غضون العشرين سنة الأخيرة — قد ساهمت بدون شك في تعديل هذه النظرة الضيقة المغرورة تعديلا جزئيا. فلقد بينت فعلا أهمية «الهلال الخصيب» في تاريخ الفلاحة العالمية (٢) وأبرزت أيضا دور أجزاء أخرى من المعمورة في هذا التغير الهام في تاريخ البشرية، وهو تغير قد نشأ عن إنتاج المواد الغذائية التي لم تستملك الى حد ذلك الوقت الا في الوسط الطبيعي، فظهر بوضوح وجلاء مدلول الاختراعات الزراعية ومعنى تأهيل النباتات بأمر يكا (٣) كما ظهرت السابقة النسبية للمهد الفلاحي بجنوب شرقي آسيا البدائية (٤) كما ظهرت أخيرا المساهمة التي قدمتها افريقيا لتاريخ هذه الفلاحة العالمية.

(١) ماذا وقع في التاريخ ط ١٩٤٢ (تم أعيد منقحا ١٩٥٤) مطبعة باليكان، بنغوين بوكس.

(٢) انظر: مثلا ر. ج. برايدود ١٩٦٠.

(٣) انظر: مثلا في هذا الموضوع ر. س. ماك نايش، ١٩٦٤.

(٤) انظر: بارو ١٩٧٥.

الا أنه منذ ما يقرب من نصف قرن، كان ن. أ. فافيلوف (٥) العالم الفلاحي والتكويني الروسي المشهور، قد اعترف بوجود مراكز لأصل النباتات المزروعة بإفريقيا، ثم بين بعد ذلك أحد مساعديه وهو أ. كوبتسون (٦) انه كانت توجد بإفريقيا أمهاد فلاحية أولى. وبعد سنوات قليلة ضبط أحد الدارسين بركزنا موقع تلك الأمهاد وعددها ودورها (٧).

الا أن نوعا من الافكار المسبقة المتولدة عن الاستعمار وكذلك الجهل بأصول العديد من المكونات الزراعية الافريقية، وبصفة أعم بما قبل تاريخ هذه القارة، جعل الناس، ولمدة طويلة ينتقصون أوحى يجهلون الدور الذي قامت به إفريقيا في تطوير الفلاحة وتقنياتها ومواردها.

والملاحظ ان هذه الوضعية قد تبدلت فعلا اذ بدأ يظهر منذ سنوات اهتمام حقيقي بدراسة أصول الفلاحة الإفريقية كما تشهد على ذلك مثلاً المحاولات المنشورة سنة ١٩٦٨ بالانثروبولوجيا المعاصرة (٨) والعديد من التعليقات التي أثرت حولها، كما يجب ذكر الدراسات التي جمعها في هذا النطاق كل من ج. د. فاج. ور. أ. أولفير (٩)، وأيضا المساهمة التي قدمها أخيرا و. ج. ل. رندلس لتاريخ حضارة البانتو (١٠). ولكننا قبل أن نحاول تقديم خلاصة موجزة للمعلومات المتعلقة بما قبل تاريخ الفلاحة الإفريقية وبتاريخها، يجدر بنا أولا أن نعطي بسطة إجمالية نصف فيها الإطار البيئي الذي ظهرت فيه.

## الأوساط الطبيعية للفلاحة الإفريقية وأصولها

انه لمن البديهي أن أصول التقنيات الفلاحية وتنوعها وتطورها كانت متصلة اتصالا وثيقا بحالات الاوساط الطبيعية التي توجد فيها (الطقس — المياه — التضاريس — الأرض — النبات — أنواع النباتات المستعملة أصلا — نوع المواد الغذائية المتوفرة...) وإذا كانت هذه العوامل التي أوجدتها الاوساط الطبيعية قد قامت بدور هام بل أساسي في تكوين الزراعة والرعي، فانها لم تكن مع ذلك هي الوحيدة، ذلك ان هذه التطورات تفرض أيضا وجود مظاهر ثقافية وحضارية عديدة. وفعلا، فحتى في العصور السابقة للعهد الفلاحي ولأصول الفلاحة فان الانسان — أثناء هجرته وتنقلاته — قد حمل معه أدواته وتقنياته وطرق إدراكه وفهمه للبيئة، والأساليب التي بها يستعمل المكان وهيبته... كما حمل معه أيضا جملة من المواقف والتصرفات التي تولدت عن علاقاته بالطبيعة في الأماكن التي نزل بها من قبل. ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تكاد تخرج من العهد الحجري القديم، كانت الفلاحة النباتية وتربية الحيوانات قد تركزت في الشرق الأدنى، حيث ظهرت المدن

(٥) ١٩٥١ — ن. أ. فافيلوف.

(٦) ١٩٥٥ — س. د. د. رندلس. ١٩٦٣.

(٧) انظر: ر. بورتير. ١٩٦٢.

(٨) أ. دايفيس: أصول الفلاحة بقرى إفريقيا، ه. ج. هوغو: أصول الفلاحة: الصحراء، د. سدون: أصول الفلاحة وتطورها بشرق إفريقيا وجنوبها.

(٩) ج. د. فاج. ور. أ. أولفير. ١٩٧٠.

(١٠) و. ج. ل. رندلس، ١٩٤٤.

الأولى. ومن هذا الشرق الأدنى وصلت الى أوروبا — التي كانت آنذاك متأخرة نسبيا — الاختراعات التقنية والافكار المصاحبة لها التي تسببت في ثورة العصر الحجري الجديد المرتكزة على الفلاحة وتربية الحيوانات.

ان هذه الظواهر المتشابهة من حيث الانتشار والتبادل، قد حدثت في أماكن أخرى من العالم وبأفر. يقد ا طبعاً، سبب الرحلات والهجرات البشرية المتوافدة اليها أو التي خرجت منها أول التي حدثت داخلها.

على أنه يجدر بنا أولاً أن ننظر جلياً فيما تضمنته الاختراعات الزراعية والرعية وكذلك تأهيل النباتات والحيوانات. فهذا الانتقال من التملك (قطف الثمار وصيد الحيوانات) الى الانتاج (الزراعة وتربية الحيوانات) قد جعل الانسان يتحرر تدريجياً وجزئياً من الصعوبات التي فرضتها النظم البيئية التي ينتمي اليها أو التي كان يعيش فيها قبل ظهور الفلاحة وتربية الحيوان، عيشة تقترب من عيشة «الوحدة الحيوية»، مثله مثل الأجسام الأخرى وذلك حسب المجرى العادي الخاص بالأشياء الطبيعية.

ان هذا التغير الاساسي المتمثل في ظهور الفلاحة وتربية الحيوان قد تحلى بتكيف الانسان وتأقلمه مع المحيط الطبيعي المتنوع الذي يسمح لمركبات بيولوجية أن تنتج أكثر، أو أن تنتج أشياء أخرى غير التي تنتجها طبيعياً. وباعتبار أن الانسان أصبح فلاحاً أو مربياً للماشى، فقد طرأت تحولات متفاوتة على الأوساط الطبيعية كما طرأ توجيه كمي أو نوعي على انتاجها.

الا ان الانسان مهما كانت سيطرته على عناصر هذه الأوساط الطبيعية، فانه لم يستطع بصفة فجائية وشاملة أن يتحرر من كل العراقيل. ولذلك وجب ان ننظر أولاً الى الصعوبات الناشئة عن خصائص تلك الأوساط الطبيعية، والتي قامت بدور أساسي في حقب ما قبل تاريخ الفلاحة وأثناء تاريخها. وفيما يتعلق بالقارة الافريقية يجب علينا ان نقدم نبذة عامة يكون لنا بواسطتها الملم عام بالمحيط وذلك أن افر يقياً تبدو مقسمة الى شرائط واسعة على خطوط العرض، مختلفة من حيث البيئة، ومتناظرة بالنسبة لجهتي خط الاستواء.

ان بعض هذه الشرائط كما لاحظ راندلس (مصدر مذكور) كانت تقوم بدور الحواجز بالنسبة لتيارات الانتشار القادمة من الشمال الى الجنوب، وذلك شأن الصحراء والغابة الاستوائية الكبيرة و «السياسب» التانزانية وصحراء كالا هاري. وبالعكس من ذلك فان الشرائط الأخرى قد فتحت مجالات لتلك التيارات الانتشارية التي كانت تجدد فيها أو كارا مناسبة لها. وهذا ما وقع في السياسب الكائنة بالشمال والجنوب. على ان «راندلس» لاحظ أنه لا يوجد من تلك الحواجز حاجز واحد يتعذر عبوره اطلاقاً باعتبار ان الصحراء والغابات الكبيرة مثلاً قد سمحت ببعض التنقلات البشرية.

ان خطوط العرض بافر يقياً ليست هي العامل الوحيد الذي يمكن من تحديد المناطق البيئية الكبرى تحديداً عاماً، بل هناك التضاريس والمرتفعات التي تتدخل معها في تقسيمها. فخط قم المرتفعات الرابطة بين الزاير والتيل يفصل الاراضي المرتفعة بشرق افر يقياً عن شبه سهل الغرب الافريقي، مع العلم ان هذا الأخير يقسمه محور صغير قائم، يمتد من جزيرة برنسيب الى التشاد. في هذا التقسيم البيئي على أساس خطوط العرض للقارة الافريقية توجد بعض الحالات

الاستثنائية التي قد تكون أهمها المرتفعات الممتدة موازية للريفت (Rift) من شمال بحيرة فكتوريا الى جبال مونشغا والتي، حسب ما ذكره راندلس، تمثل ممرا ضيقا ظاهرا يسمح بعبور حاجز خط الاستواء (الخريطة رقم ١). وبالإضافة الى ذلك فهناك «المقل» الأثيوبي الذي سنبين فيما بعد دوره في الأصول الافريقية للنباتات المزروعة.

واذا رتبنا الآن هذه المعطيات المختلفة، رغم كونها لم تتجاوز بعد مرحلة العموميات، فإن افريقيا تبدو لنا وكأنها تحتوي شمالا وشرقا وجنوبا وحول محور الغابات الاستوائية، على منطقة تكاد تكون دائرية من السباسب والسهوب، ثم شمالا وجنوبا على منطقتين قاحلتين هما الصحراء، وصحراء كالا هاري، وأخيرا في أقصى الشمال وأقصى الجنوب على منطقتين تكادان تصلحان مناخيا للإنسان، بل يمكن، عند تبسيط الأمور تبسيطا كبيرا، يمكن القول بأنها تجر وسطية بالمعنى المناخي للكلمة، مع الإشارة الى بعض الخصائص البيئية في أقصى جنوب افريقيا. (خريطة رقم ٢). وانطلاقا من «قلب» الغابة الاستوائية وبقطع النظر عن المناطق الساحلية يحصل لنا بصورة عامة، ممال ينتقل من الرطب جدا نحو الجاف جدا ومن «النظم البيئية العممة» من نوع «الغابة المدارية الرطبة» الى «النظم البيئية الأكثر اختصاصا» من أنماط السباسب والسهوب والنباتات الصحراوية (١١).

وفما يتعلق بالفيا في، وبعبارة أدق فيما يتعلق بالصحراء، علينا ان نذكر هنا — وان كان الامر قد أصبح معروفا جدا — بأن هذه الصحراء لم تكن منذ أن وجدت صحراء قاحلة كما هي عليه الآن، إذ الفلاحة وتربية المواشي قد وقعتا فيها سابقا، بل ان العديد من المؤلفين (١٢) قالوا بأنها كانت مهدا للحياة الرعوية والزراعية.

فلنعد الآن للصورة البيئية التي رسمناها منذ حين للقارة الافريقية، فيمكن — حسب رأينا ان نتصور أنه، في الأزمنة القديمة السابقة لفترات الفلاحة أي في النظام البيئي المعمم للغابات الاستوائية الكبيرة، كانت تستعمل أولا أشكال من القطف والقتص يمكن تشبيهها من حيث بعض جزئياتها التقنية بالطرق التي يستعملها في أيامنا هذه البيغمي. ونلاحظ ان الموارد الغذائية والنباتية والحيوانية لهذه النظم البيئية لا تقل تنوعا ووفرة عما هي عليه مركبات وحداتها الحيوية.

ان الملاحظات التي استطعنا تسجيلها في شأن الاقتصاد المعاشي لمجموعات البيغمي قد بينت لنا ان هذه الموارد — نظرا لكثافة هذه المجموعات الغابية — كانت قادرة على تأمين معاشها بدون ان يكلفهم ذلك جهدا كبيرا.

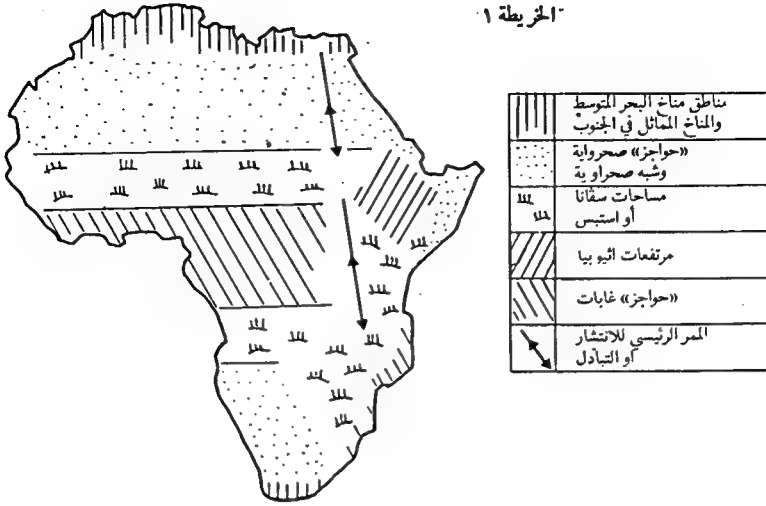
ان نفس الملاحظة تنطبق من جهة أخرى على حال الجانين الصيادين بالنظم البيئية الأكثر اختصاصا في المناطق القاحلة أو الجرداء مثل مناطق قبائل سان، وكونغ، بصرعاء كالا هاري الذين درسهم ر. ب. لي (١٣) الا ان الموارد بالنسبة اليهم كانت أقل تنوعا وان التزود بالماء كان عاملا

(١١) انظر: فيما يتعلق بعبارات «النظام البيئي المتخصص» و «النظام البيئي المعمم»، د. هاريس ١٩٦٩.

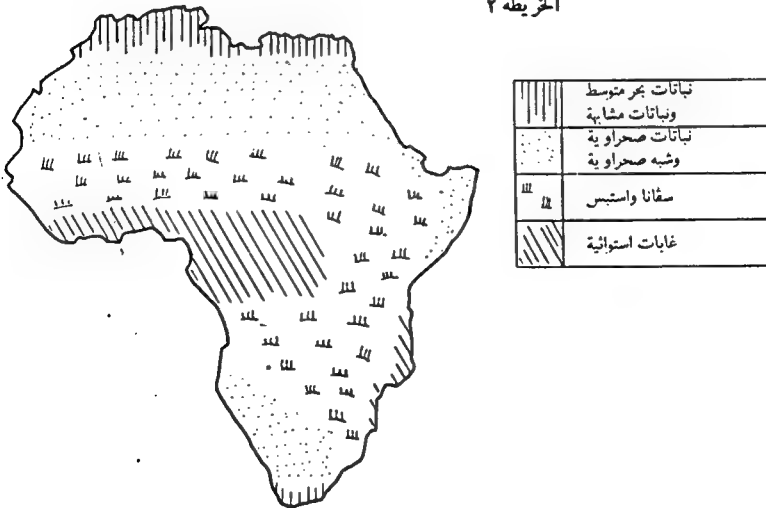
(١٢) انظرا مثلا: أ. شوفاليي ١٩٣٨، ه. ج. هوغو المذكور أعلاه - وج. ج. هستر ١٩٦٨.

(١٣) ١٩٦٦.

الخريطة ١



الخريطة ٢



- الخريطة ١: توزيع المناطق الايكولوجية حسب خطوط العرض
- الخريطة ٢: النظم الايكولوجية المختلفة



حداً من تلك الموارد، لأن تغير كمياته الفصلية قلل من استثمار الموارد التي لا يستفاد منها الا بحسب قرب مواقع الماء.

ولكنني نرجع الى ماضي افريقيا في حقبة ما قبل العهد الفلاحي، فلنذكر أنه — بعد نهاية العهد البلستوسيني — حدثت فترة رطبة تسمى «الماكالي» (من ٥٥٠٠ الى ٢٥٠٠ قبل الميلاد) قد يسرت الاتصال بين سواحل البحر الأبيض المتوسط ومناطق جنوب الصحراء، وفي نفس الوقت، يسرت حالة مجاري المياه والبحيرات — حتى في قلب القارة — كما يسرت تطور صيد الأسماك، أي استقرار نسبياً للسكان الذين يمارسونه، فكانت ظروفًا ملائمة لنقل متدرج نحو الانتاج الفلاحي (١٤). وكان آنذاك قد حصلت، انطلاقاً من مهد الفلاحة بالشرق الأدنى. والبحر الأبيض المتوسط — انتشارات ساهمت بدون شك في تقدم تلك العملية بسرعة (١٥).

وبداية من العهد البلستوسيني، أي حوالي ٩٠٠٠ سنة ق. م وفي مطلع الماكالي وجدت — كما يبدو — في القارة الافريقية مواطن متميزة لجني الثمار المكثف نسبياً والذي سمح بدون شك بتكون تجمعات بشرية محدودة، فكان ذلك شأن المناطق المتقابلة من الغابة والسباسب، بمحاذاة قلب الغابة الاستوائية والأنجاد العشبية بشرقى افريقيا، وفي المناطق القريبة من البحيرات والمجاري المائية الرئيسية مثل نهر النيل، وكذلك بالمناطق الساحلية في شمال وجنوب القارة الافريقية (١٦).

وقد كانت مناطق العبور هذه وخصوصاً المناطق التي تتقابل فيها السباسب والغابات كانت فيما بعد أوكارا ممتازة للتطورات الثقافية، وبالتالي لبعض من الحضارات الافريقية، اذ لاحظ رندلس (انظر أعلاه) في هذا الصدد بأنه «في حدود السبسين (الساحل وتخوم الغابة) توجد حضارات البانتو الشهيرة».

يجب علينا الآن ان ننظر الى امكانية تأهيل الأعشاب التي وفرتها تلك القارة الافريقية، فالمنطق البيئي يتطلب منا ان نعتبر في البداية العناصر المنتجة الأولية أي النباتات.

## الأصل الافريقي لبعض النباتات المزروعة

ان علوم الطبيعة لم تول أصل النباتات المزروعة ما تستحق من أهمية الا حديثاً، ذلك أننا اذا ما استثنينا المؤلف المهم الذي وضعه العالم أ. دي كندول والمنشور سنة ١٨٨٣، فان الطريقة التأليفية لم تتطور على المستوى العالمي الا بعد أعمال العالم النباتي الروسي ن. أ. فافيلوف وفريقه، بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧، وذلك لطرق هذه المسألة ذات الأهمية البالغة في تاريخ الانسانية ولتهيئة الأوساط الطبيعية والتصرف في مواردها (١٧). فلقد تمكن فافيلوف ومساعدوه من التعرف على وجود ثمانية مراكز لأصل النباتات المزروعة (وفيها — حسب فافيلون — ثلاثة مراكز ثانوية، أي أنها كانت مرتبطة بمراكز جهوية هامة). وتوصل الى هذه النتيجة بالجمع بين استقراء شامل للمعطيات

(١٤) في موضوع استقرار صيادي الأسماك، وما له من علاقة بأصول الفلاحة، انظر س. أ. سوار ١٩٥٢.

(١٥) انظر: ج. دسموند كلارك ١٩٧٠.

(١٦) انظر: ج. دسموند كلارك ١٩٧٠.

(١٧) انظر: المصدر المذكور، حول آثار فافيلوف الواسعة، ١٩٥١.

الزهرية والجغرافية النباتية، مع استقصاءات فلاحية نباتية ودراسات تكوينية. و يوجد في افريقيا مركز واحد من تلك المراكز ويسمى بالمركز الحبشي (الأثيوبي) في حين ان مركزا آخر - يسمى بمركز البحر المتوسط - يوجد على سواحل البحر الأبيض المتوسط وهم افريقيا بصفة جزئية (شمال افريقيا ومصر) وله مع ذلك ارتباطات بالمركز الواسع الهام الموجود بالشرق الأدنى، الذي ظهرت فيه من النباتات المزروعة - كما سبق أن قلنا - الحبوب الأساسية (قمح، شعير، شيلم...) .

وفيا يتعلق بافريقيا، فان هذا يعتبر تقدما محسوسا بالمقارنة مع ما توصل اليه كاندول (المذكور أعلاه) الذي لم يحدد للفلاحة والنباتات الالهية الا ثلاثة مراكز أساسية وأصلية، وهي الصين وجنوب غربي آسيا (مع الامتداد الى مصر) وأمريكا. وهذا ما يجعل مساهمة فافيلوف لمعرفة أصل النباتات المزروعة ذات أهمية بالغة في المستوى النظري، ذلك أنها أوضحت أنه في نطاق البحث عن أصل نبتة مزروعة، يجب ان نفرق بين موطن أو مركز التغير الاول المتميز بتنوع كبير في أشكال النبتة مع ظهور بارز جلي للصفات الغالبة، وبين مناطق التغير الثانوي الذي يمتاز بكثرة الصفات المتقلصة الضامرة في مواطن التغير الأول.

ان ضبط النطاق الجغرافي لمواطن التغير وتوزعه يسمح بتحديد مناطق المهدي الفلاحي وذلك انه، اذا كانت مساحات تلك المواطن تتطابق وتتداخل كليا أو جزئيا، يحق لنا أن نرى أن عدة حضارات كانت مدة طويلة من الزمان، تمارس في منطقة التلاقي تلك، نشاطا تأهليا ونحويليا سلطته على تلك النباتات التي نتحدث في شأنها.

ولنوضح الآن نقطة أخرى ذات أهمية: ان المركز الاصلي النباتي لنوع من أنواع النباتات المزروعة لا يتطابق حتما مع مساحات التغير هذه، والمرتبطة بتدخلات الانسان في المادة النباتية. وبعبارة أخرى فان المنطقة التي توجد فيها الاسلاف المحتملة للخلف النباتي كثيرا ما تختلف اختلافا واضحا عن المنطقة أو المناطق التي ظهر فيها عن طريق تدخل الانسان - ذلك الخلف النباتي، هو نبتة ناشئة عن التأهيل والانتقاء والتنوع.

وهذا له على الأقل سبب واحد ينحصر، في العهود القديمة، في تنقل الاسلاف البرية تنقلا متكررا خارج مواطنها عندما تستعمل في الجني البسيط (١٨).

فلقد استطاع أحدنا بالنسبة للقارة الافريقية ان يكمل الجدول الذي قدمه فافيلوف (١٩) وبذلك نكون قد بينا وجود موطن في غرب افريقيا وآخر في شرقها، فضلا عن الموطن الحبشي والجزء الافريقي من الموطن البحرسوطي - على أنه يمكن اعتبار موطن شرقي افريقيا امتدادا للموطن الحبشي في المرتفعات الاستوائية (٢٠).

فاذا ما نحن جمعنا ولخصنا المعطيات المتعلقة بهذه المواطن أو المراكز المختلفة التي تهم أصل النباتات المزروعة وتنوعها فاننا نحصل على الجدول التالي:

(١٨) انظر: ج. بارو ١٩٦٢.

(١٩) انظر: ر. برتير، ١٩٥٠، ٩ - ١٠، ١٩٥١، ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢٠) انظر: في هذا الموضوع ر. شنايل ١٩٥٧.

### مركز البحر المتوسط

ترتبط بهذا المركز مجموعة كاملة من النباتات المزروعة التي تمتاز بها مناطق البحر الأبيض المتوسط، من ذلك الحبوب (قمح وشعير خاصة) والخضروات الحبوب الصالحة للاستهلاك (الحمص والعدس، والجلبان والبيقية). وهذه النباتات تدل على وجود قرابة بين هذا المركز ومركز الشرق الأدنى. كما نجد فيه زمرة النباتات المولدة البحر وسطية التي منها الزيتون (الزيتون الأوروبي ل) والخروب. إلا أن البعض من هذه النباتات تخص بها إفريقيا مثل شجر اللوز البري (اوغانيا سدروكسيلون روم) وهو شجر مغربي يوفر الزيت وصمغ البريد. ويشمل هذا المركز مصر التي لها علاقات واضحة بمركز الشرق الأدنى والتي كان لها تأثير هام في تاريخ الفلاحة وتربية الحيوان بالشمال الأفريقي. فصر تنقسم مع الشرق الأدنى السوري أصل نبات له أهمية اقتصادية أكيدة وهو البرسيم أو قفل الاسكندرية. وإذا كان هذا الجزء الأفريقي الكائن في وسط سواحل البحر المتوسط لم يقم بدور مباشر في التاريخ الفلاحي لإفريقيا الاستوائية فإنه قد أثر تأثيراً عميقاً في الصحراء عندما طرأت عليها فترة مناخية مواتية للتنمية الزراعية والرعية (٢١).

### المركز الحبشي

ونجد فيه قرابة نباتية توليدية مع مركز الشرق الأدنى (قمح، شعير، خضر من نوع الحمص والعدس، والجلبان، والبيقية، إلى غير ذلك)، ومع المراكز الأفريقية (الذرة البيضاء) التي ستكون موضوع حديثنا بعد حين. ويبدو من الواضح أيضاً أن النباتات الآتية من آسيا المدارية قد مرت من هذا المركز عند تغلغلها في إفريقيا. على أن هذا المركز كانت له نباتات مولدة يختص بها ومنها شجرة البن العربي وشجرة الموز الحبشي والتف الحبشي والغيروتيا الحبشي، أو النيجردو الحبات الزيتية.

### مركز شرق إفريقيا

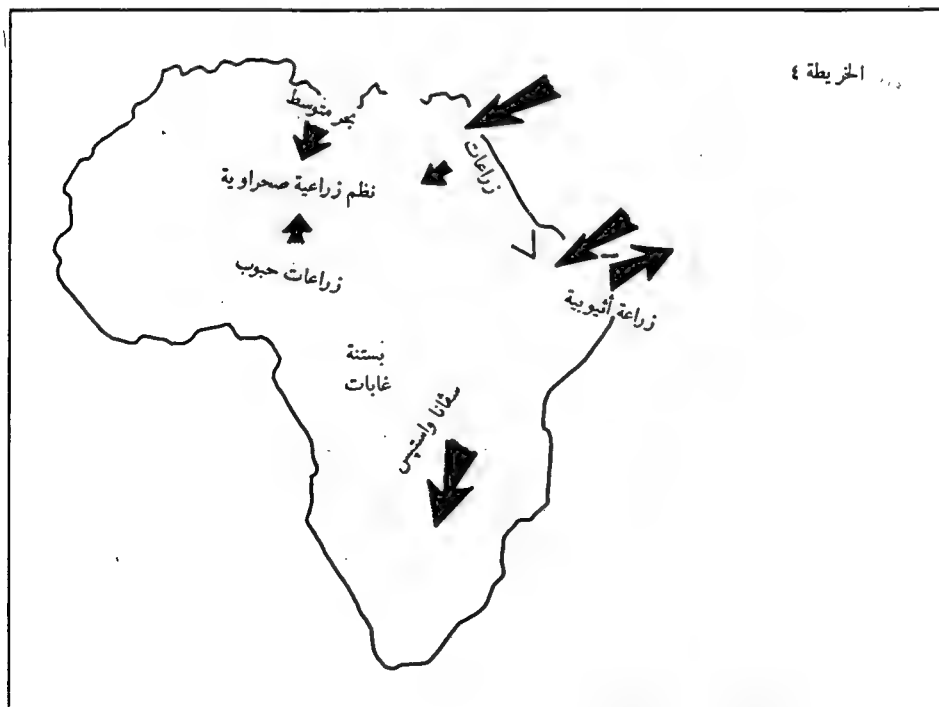
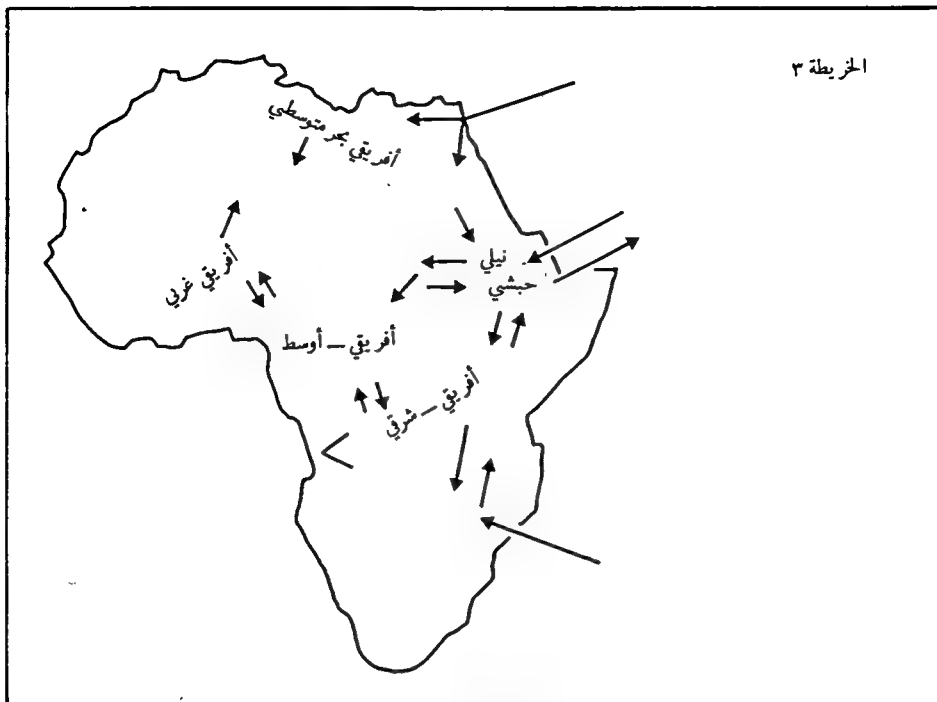
يمتاز بأنواع من الذرة المختلفة ابتداء بالذرة والذرة ذات الشكل القلبي والدخن الذي منه الإبلوزين كركناغارتن والسمسم.

### مركز غرب إفريقيا

نجد فيه أصل مختلف أنواع الذرة المشتقة من الذرة المشابهة للقصبة والذرة ذات الشكل القلبي مثل أنواع الذرة الريشية والهوب (Hubb) أو أيضاً الذرة الريشية الغمبية والهوب وكذلك أنواع من الذرة ذات الشكل القمعي التي منها الإيبورو، والإيبورو القمعية والفونيو والأكسيليس القمعي وكذلك مختلف أنواع الرز التي سنعود إلى التحدث عنها فيما بعد (٢٢). ويمكن لنا أن نميز في نطاق هذا المركز بين قطاعين كبيرين: مداري أولاً، ثم ما أسفل المدارين والقطاع المداري ينقسم بدوره إلى فروع عديدة (الفرع السنغالي الغمبي — الفرع النيجيري المركزي — الفرع التشادي النيلي)،

(٢١) انظر: هذا الموضوع، ج. دسموند كلارك، وه. ج. هوغو المذكورين أعلاه.

(٢٢) انظر: ر. برتير ١٩٦٢، المذكور أعلاه.



- الخريطة ٣: المواطن الأولى لأنواع الزراعة الأفريقية
- الخريطة ٤: التوزيع الجغرافي العام لأنواع الزراعة في أفريقيا

وكل فرع يتميز بنباتات مزروعة خاصة به، مثل الحبوب، وكذلك نباتات عسقلية مثل الكوليوس دازوشيف ونباتات زيتية مثل البوتيرسبروموم باركي، والكتشي المعروفة عند علماء النباتات باسم (الفيتلاريا بارادوكسا غارتنر).

وترتبط بهذا القطاع المتفرع عن مركز إفريقيا الموجود أسفل خط الاستواء، ترتبط به نباتات الانيام (Ignames) مثل (ديوسكوري كايينانيسيس لامك. د. د. وميتوروم باكس. د. روتونداتابوار) وكذلك نباتات ذات بذور زيتية (Elais guineensis Jacq., Telfairia occidentalis Hook) ونباتات منبهة مثل الكولانتيدا. (Cola nitida A. Chev.) والحقيقة ان هذا المركز يمتد بإفريقيا الوسطى مثلما تمتد مساحات يتوزع فيها البعض من أنواع النباتات المذكورة أعلاه (الكولا) (Cola) والكوليوس (Coleus) والألياس (Elaeis) وهناك يوجد أصل (الحبوب الأرضية) مثل الفاندزيا (Vpandzeia subterranea Thon) أما النبات البقلى الإفريقي الآخر (Kerstingiella geocarpa Harms) فانه ينتمى الى مركز غرب إفريقيا.

ويبدو لنا أنه في شرقي المنطقة الغابية الاستوائية أو في جنوبها وقع في البداية تجمع نباتي مولد شبيه بما وصفناه منذ حين بالنسبة لمركز غرب إفريقيا وهو يمتد على رقعة أرضية تشمل هذه المنطقة الغابية وتحاذي في امتدادها مركز شرقي إفريقيا وتحتل تقريباً المنطقة المحيطة بغابات الجني المكثف الذي يبناه سابقاً (٢٣).

### المهاد الفلاحية

ان ماتقدم ذكره قد أدى بنا (٢٤) الى افتراض وجود عدد من المهاد الفلاحية بالقارة الإفريقية وهي مهاد يمكن لنا اليوم ان نعيد النظر في ترتيب قائمتها وهي كما يأتي من الشمال الى الجنوب (الخريطة رقم ٣).

- المهد الإفريقي البحر وسطي: يمتد من مصر الى المغرب وهو الذي أثر في المناطق الرعوية والزراعية للصحراء، وكان له عن طريق مصر، تأثير متبادل مع مهد الشرق الأدنى.
- في الغرب: المهد الإفريقي الغربي، بأقسامه المدارية وما تحت خط المدارين.
- في الشرق: المهد النيلي الحبشي، بقسميه النيلي والحبشي.
- مهد إفريقيا الوسطى: في شرق هذا المهد يوجد المهد الإفريقي الشرقي الذي يمتد غرباً، الى أنغولا. وفي أقصى الجنوب يبدو أن التغطاف قاوموا طويلاً التأثير الرعوي والزراعي من المهاد التي وصفناها منذ حين وخاصة من مهد شرقي إفريقيا (٢٥) وذلك لأنهم اكتفوا بما لديهم من موارد واحتموا بجفاف صحراء كالا هاري.

(٢٣) انظر: د. سدون ١٩٦٨، المذكور أعلاه.

(٢٤) انظر: ر. برتر ١٩٦٢، المذكور أعلاه.

(٢٥) انظر: د. سدون ١٩٦٨، المذكور أعلاه.



٢

- (١) احراق العشب لاختصاب الأرض — بعد الحريق. منظر من فوتا جالون: بيتا، تيمبي — مدينة، (تصوير ر. بوير).
- (٢) فلاحه الارض بالكاديبيند و بواسطة مزارعي الديولا دوسويي (كازامانس)، استعدادا لإعادة غرس الشتلات في أحواض الأرض. (تصوير ر. بوير).

## الموطن البستاني والموطن الفلاحي

وفي الواقع فإن مفهوم المهد يمكن أن يكون غير ناجع إذ أنه لا يخلو، في مستوى ما قبل التاريخ والتاريخ الزراعيين، من شيء من التلقيق. والحقيقة أننا نستطيع على ضوء ما سبق أن نستخرج مجموعة أكثر انسجاما:

(أ) فالغابة الوسطى (حيث يوجد النظام البيئي المعمم) تصلح كمركز نباتي زراعي ولكننا ونحن هنا قد استعملنا التعبير السيء الذي وضعه كل من ر. ج. برايد وود، وك. أ. ريد (٢٦) ولكننا نفضل أن نطلق اسم (موطن بستاني) حيث سمحت إنتاجية القطف في وسط غابي لذلك القطف أن يدوم ونلاحظ هنا أن الكمية النباتية التي أمكن تأهيلها في ذلك الموطن كانت أقل من الكميات الموجودة في الغابات المدارية الرطبة في آسيا أو في أمريكا.

(ب) إن ما يحيط بهذا المركز الغابي من سياسب، أي النظام البيئي الأكثر اختصاصا، يصلح كموطن فلاح، منتج للحبوب، ويمتد من غرب إفريقيا إلى شرقها متواصلا نحو أنغولا.

وفي شمال القارة، أي في الجزء البحر وسطي منها، ظهر بوضوح، عبورا بمصر، تأثير فلاحية الحبوب التي كانت في مناطق ما بين النهرين بالشرق الأدنى. فلقد تأثرت الصحراء أيضا في العهد الذي كانت صالحة للفلاحة بهذا الأمر، وهذا ما يفسر انتشار البعض من النباتات بجنوب الصحراء الحالية وأيضاً انتشار آخر معاكسا أي من الجنوب إلى الشمال انطلاقاً من المناطق الأفريقية الموجودة جنوب الصحراء.

ولقد كان تأثير منطقة ما بين النهرين محسوسا في المعقل الأثيوبي الذي له بدون شك قرابة بالمركز الفلاحي للسياسب والسهوب، والذي له مميزاته النباتية المولدة الخاصة به.

إن الفرق بين المركز الفلاحي والمركز البستاني هو من جهة سيطرة النباتات ذات العساقل المتعددة في المركز البستاني، ومن جهة أخرى الممارسات الزراعية المتعلقة بالبستنة: وذلك أن حقل السياسب والسهوب يقابله بستان الغابة وحواشها.

أما بالنسبة للأدوات الزراعية، فهي متميزة في مجموع القارة الأفريقية باستعمال المجازف والأوتاد للحفر وأنواعها الأخرى. إلا أن المحراث كان مستعملا في جزء من الموطن الفلاحي المنتج للحبوب، بعد ما استعملته مصر وأثيوبيا.

## أنواع البذرة والرز

إن هذا الموطن الفلاحي الإفريقي في النظام البيئي المتخصص نسبيا في السياسب والسهوب، مابين للمركز البستاني في الغابة المدارية، وهو يتميز بما يلي:

- الاستعمال الغالب لإنتاج النباتات المزروعة بواسطة طريقة التلقيق (الحبوب المزروعة).
- أهمية الحبوب في المركب الغذائي النباتي.



• أدوات «السونغ» أو الجاروف لدى قبيلة سيرير غنومنكا، وهم صائدو أسماك وزارعو أرز في جزر «الساحل الصغير» بالسنگال. وتستخدم أداة السونغ في عزق وترصيف التربة الثقيلة في حقول أرز مستنقعات المنغروف، وهي تناظر أداة الكادييند والتي تستخدمها قبائل ديولا بابوت في كازامانس، وأداة الكوفي أو الكوب لدى البانغا في ساحل غينيا. (تصوير: بورتير).



ان الزراعات التي تطورت في هذا الموطن تستعمل طريقة جميلة مخالفة للطريقة الفردية المعمول بها في الزراعات البستانية بالموطن الغابي. وما لا شك فيه ان حضارات الموطن الفلاحي قد وسعت حقولها على حساب الغابات عندما اعترضتها في توسعها الترابي. ولقد تمكن هذا التوسع الفلاحي من القيام بدور في تطور عمليات تحويل المناطق الى سباسب، وبتعبير ييثوي، فان تلك العمليات تناسب تخصصاً طراً على نظم ييثوية معممة، كما لو أن كل شيء قد جعل تلك الحضارات الفلاحية تتكيف مع المحيط الطبيعي بحسب تقنياتها أو بالأحرى بحسب طرق ادراكها لها. وربما حصل مع تغلغل الزراعات في هذا الوسط الغابي، نوع من سوء التكيف كثير أو قليل، من ذلك أنه ربما حدث أن أهملت الحبوب لتعويضها الزراعات الغذائية التي تتميز بها المناطق الغابية، بل ربما حدث أيضاً — وهو افتراض لا يمكن استبعاده — اعتماد نباتات القطف لتكون أساساً لما يقتات به فلاحو السباسب الذين كانوا قديماً ملزمين أثناء نزوحهم على العيش في محيط غابي.

ان الحبوب ظلت رغم ذلك تميز الفلاحة في السباسب والسهوب، ومن تلك الحبوب، رغماً عن أصالة الحبوب الموجودة في مختلف هذه المناطق الفلاحية، نذكر منها حبوب الذرة البيضاء، أو الذرة الكبيرة، التي تعتبر كأنها السمة الخاصة بالنباتات التوليدية المشتركة لمجموع هذا الموطن.

ان أصل هذه الذرة أو بالأحرى أنواعها قد كان، ولمدة طويلة، محل نظريات مختلفة وآراء متناقضة (٢٧) ولكن يبدو ان هذه الأنواع هي حقا واردة أصلاً من افريقيا. وكانت لها فعلاً — في اطار هذا الموطن الفلاحي الافريقي — جذور مستقلة نذكر منها هنا:

— ان النوع البري أو الذرة المشابهة للقصب الذي تغطي مساحته المناطق المدارية الرطبة الممتدة من الرأس الأخضر الى المحيط الهندي، تقابله أنواع الذرة المزروعة في غربي افريقيا، منها الذرة الشديدة السواد، والذرة اللامعة والذرة الدرمندنية والذرة الدرية والذرة الغنية والغنية والذرة الناتئة الى غير ذلك...

— وان النوع البري أو الذرة المذبة الموجود بشرق افريقيا من أريتريا الى جنوب شرقي افريقيا تقابله مجموعتان من الأنواع المزروعة:

احدهما بالجنوب الشرقي لافريقيا وهي أنواع الذرة: «كافير» التي منها: الذرة كفرم والذرة القاسية والذرة الحلوة، وثانيتهما بمناطق النيل والتشاد من نيجيريا الى أريتريا، وبها الذرة الزنجية والذرة الذنية.

— ان الجنس البري أو الذرة الأثيوبية الموجود بأريتريا والحشة تقابله الذرة الصلبة الموجودة في مناطق النيل الأزرق والذرة المزروعة بتشاد وبالحند وفي كل البقاع الواقعة جنوب الصحراء، والذرة المنحنية الموجودة في مناطق النيل، والذرة الزنجية الموجودة في الدلتا الأوسط لنهر النيجر.

ولنذكر أنه يوجد في مادون الدائرة الكائنة بنيجيريا الوسطى أي في الدائرة المدارية لمهد غربي افريقيا (انظر أعلاه) نوع خاص من الذرة البيضاء المزروعة أو الذرة العسلية، وهو نوع يستعمل لاعداد مشروبات كحولية (٢٨)، بسبب غناه بالسكر، فضلاً عن وجود أنواع أخرى من الذرة التي

(٢٧) انظر: ز. برتير ١٩٦٢ المذكور أعلاه.

(٢٨) انظر: شنابل ١٩٥٧، مصدر مذكور.



- (١) أحواض أرز في تربة هيدر ومروية تتعرض للاغراق الموقت أثناء فصل الأمطار (زراعة الأرز على المطر) إحدى قرى البايوي في نياما كازامانس (تصوير بورتير).
- (٢) جزر صناعية لزراعية الارز في الحقول البالغة الانخفاض الى درجة تحول دون صرف المياه العذبة غينيا - بيساو (تصوير بورتير).

تستعمل لاعداد (جعة الذرة البيضاء)).

وتوجد علاقات واضحة بين مختلف أنواع هذه الذرة المزروعة كما يشهد وجود الذرة (*S. conspicuum*) (من طنجنيقا الى روديسيا الى أنغولا)، وكذلك ذرة (*S. roxburghii*) أوغندا، كينيا، روديسيا، جنوب افريقيا. وهي أنواع متولدة من التلاقح بين أنواع الذرة التي ينتمي البعض منها الى فصيلة الذرة المسماة (*S. arundinaceum*) والبعض الآخر الى الذرة المسماة (*S. vesticilliflorum*) ومن بين هذه الأنواع المذكورة فإن ذرة الدرة (*S. durra*) تستحق اهتماما خاصا بسبب انتشارها الواسع، من السودان الشرقي الى آسيا والى الهند، ومن منطقة ما بين النهرين الى إيران والى مناطق غوجيرات.

ان ما سبق بيانه لدليل واضح على أهمية هذه الحبوب في الحياة الاقتصادية النباتية للمركز الفلاحي في السباسب والسهوب الافريقية. ويتجاوز مدلول هذه الأهمية إطار القارة الافريقية لأن البعض من أنواع هذه الذرة المزروعة قد بلغت منذ مدة طويلة، مناطق أخرى في العالم. ومن هنا تدولنا افريقيا مجموعة من المهاد الفلاحية الأصلية ونوعا من الفيسفاء المكونة من المراكز الأصلية للنباتات المزروعة التي كان للبعض منها أهمية اقتصادية على الصعيد العالمي. ان لطرافة الزراعة الافريقية جوانب أخرى أحدها، وهو من أهمها، يتمثل في زراعة الرز القائمة أساسا على أصناف الرز الافريقية والتي تستحق ان نولها عنايتنا، وذلك ان هذه الأنواع من الرز هي تابعة للمهد الغربي لافريقيا السابق الذكر، وبصفة أدق هي تابعة للقطاع الفرعي النيجيري الأوسط (الموطن الأولي) وللقطاع الفرعي السنغالي الغامبي (الموطن الثانوي).

ولقد تحدث سترابون منذ العهود القديمة عن الفلاحة الافريقية للرز. وفي القرن الرابع عشر لاحظ الرحالة ابن بطوطة ان النيجرينتج الرز (٢٩). الا ان هذه الشهادات بقيت مدة طويلة منسية في الوقت الذي كان الناس يعتقدون أن زراعة الرز بأفريقيا كان أصلها الرز الآسيوي (*Oryza sativa L.*)، ولم تتغير الفكرة الا حوالي سنة ١٩١٤ فأصبحنا منذ ذلك الوقت نعلم بوجود رز خاص بأفريقيا، ويسمى غلابرما شتودل (*O. glaberrima Steudel*) ويتميز بسنبلته الصلبة والمستقيمة وبثمرته الحمراء أو السمراء والذي يستغل بالقطف، أو بعد زرعه وتعهده بالخدمة. ويبدو أنه من فصيلة الرز المسمى (*O. breviligulata*) التي نجدها في أجزاء واسعة من افريقيا المدارية (أ. سيف، وأ. روير).

واذا رجعنا الى ما قلناه سابقا حول أعمال فافيلوف فاننا نجد فيها توضيحا بيانيا لصورة الرز الافريقي كما اقترحها هذا المهندس الزراعي والعالم التكويني فيما يتعلق بأصل النباتات المزروعة. فهناك مساحات واسعة للفصائل البرية، وأنواع كثيرة من الرز الافريقي، مع تغلب الخصائص المهيمنة في دلتا النيجر الأوسط (المركز الأولي)، وتنوع كثير، مع ظهور خصائص دينية في غمبيا العليا وكزنس (مركز ثانوي).

وهكذا نلاحظ ابتداء من دلتا النيجر الأوسط، انتشار أنواع الرز الافريقي في كامل الغرب

الافريقي الى حد سواجل غينيا. ومن المؤكد استعمال الرز من نوع غلابرما، بواسطة الجنى منذ القديم، ولا شك ان هذا النوع من الحبوب البرية كان لها مكان معتبر في هذه المراكز المتميزة التي كانت تختص بقطف شبه مكثف (انظر أعلاه)، وفيها ابتدأت المراحل التأهيلية. وهذا ما يجعلنا نرى أن تأهيل هذا الرز لا يقل قدما عن الأنواع الاخرى من حبوب افريقيا.

ثم بعد ذلك بكثير أدخلت الأنواع الاخرى من الرز المزروعة بآسيا الى افريقيا (ابتداء من القرن الثامن على السواحل الشرقية، بواسطة العرب؟ وابتداء من القرن السادس عشر على السواحل الغربية عن طريق الأوربيين؟).

ولنعبر رغم ذلك بأن الآثار النباتية التوليدية التي عدناها الى الآن (اذ لا يسمح لنا هذا المجال الا بتقديم لمحة عامة) تظهر بوضوح امكانية وجود حضارات زراعية نشأت بافريقيا اعتمادا على الموارد النباتية المتوفرة بالبيئة المحلية وبدون أن نتصور بالضرورة وجود تأثيرات خارجية عن افريقيا.

## بين افريقيا وآسيا

انه لمن الأكيد (وهذا ما بيناه سابقا) ان موجات انطلقت من المهذ الزراعي والرعي للشرق الأدنى قد لعبت دورا هاما في التاريخ القديم للفلاحة الافريقية. وبذلك وجدت من الحبشة الى افريقيا الشمالية مرورا بمصر عن طريق النيل — منطقة يمكن اعتبارها ضمن المنطقة البحر—وسطية القديمة التي عرفها كل من هود ريكورت وهيدن (سنة ١٩٤٣ المذكورين أعلاه). ولكن نجد حتى في هذه المنطقة، مركبات نباتية توليدية افريقية محضة خصوصا في أثيوبيا وأيضا في مصر وفي شمال افريقيا.

ان تاريخ العلاقات القديمة بين افريقيا وآسيا هي على غاية من الأهمية وإن كانت مجهولة بعض الشيء. فافريقيا قد أعطت لآسيا نباتات أهلية. وتدل على ذلك أنواع الذرة التي تحدثنا عنها سابقا. الا أن افريقيا لم تقتصر على أن تستمد من آسيا نباتات توليدية واردة من الشرق الأدنى (قمح — شعير)، بل أخذت أيضا نباتات واردة من جنوب شرقي آسيا المدارية، ويبدو من المؤكد فعلا أنه وصل قديما الى افريقيا — سواء عن طريق سبأ، بجنوب الجزيرة العربية أو عن طريق شمال افريقيا أو بواسطة ملاحين قدامى بلغوا الساحل الجنوبي — أشجار الموز وأشجار النيام الكبيرة (*Dioscorea alata*). وشجر القلقاس (*Colocasia esculenta* (L.) Schott) وحتى قصب السكر (*Saccharum officinarum* L.) ان البعض من هذه النباتات المزروعة الآسيوية الأصل سمحت بغزو زراعي سريع لميدان الغابات المدارية الافريقية.

ولكن لنرجع الى مسألة أنواع الذرة التي توفر لنا أحسن مثال للتبادل بين افريقيا وآسيا (٣٠) ذلك أنه يوجد فعلا بآسيا أنواع من الذرة المزروعة الواردة من افريقيا زيادة على الأنواع التي ذكرناها. فذلك شأن الذرة ذات اللونين الذي يبدو أنه ناشئ عن عملية تلاقح بين نباتات توليدية ناشئة عن الذرة الأثيوبية من جهة ومن أخرى من النوع البري خاصة (الذرة السودانية). وبالنوع

الأول أي الذرة ذات اللونين يمكن ان نلحق خاصة ذرة دخنة (Dochna) الموجودة بالهند والجزيرة العربية وبورما، والذي أدخل من جديد الى أفريقيا أخيرا. وكذلك الأمر بالنسبة للذرة التي شكلها شكل الدخن (Mil) الموجود بالهند، ومنها دخلت حديثا الى كينيا. وهذا يصدق أيضا على أنواع الذرة الموجودة بفريقيا الشرقية. وهناك نوع آخر مزروع وهو الذرة ذات الألياف الكثيرة الذي يبدو أنه ينتمي لفصيلة الذرة الأثيوبية وهما نوعان يبدو أنه ألحقت بهما أنواع موجودة في بورما وفي الصين.

وبدون أن ندخل في الجزئيات المعقدة لهذا الخليط التكويني، فإننا نلاحظ أنه توجد علامات على اتصالات قديمة حصلت بين أنواع الذرة الافريقية والأنواع الآسيوية. فكل شيء يحمل على الاعتقاد ان علاقات قديمة جدا وتبادلات نباتية قد حصلت بين افريقيا الشرقية وآسيا وهو ما يؤكد وجود بعض القرابة النباتية التوليدية السابقة للعهد الاستعماري والقادمة من الجنوب الشرقي لآسيا المدارية.

على أننا لا يمكن ان نستبعد امكانية وجود غزوزراعي لغابة افريقيا بفضل وصول نباتات توليدية (أشجار الموز والقلقاس) القادمة من النظام البيئي المعمم وهو الغابة المدارية الرطبة لجنوب شرقي آسيا ومن العالم الجزري الهندي، فمن هذا الأخير قدم عن طريق البحر المهاجرون الذين وصلوا — وهم يحملون البعض من نباتاتهم — الى مدغشقر والسواحل الشرقية لافريقيا.

واذا كانت افريقيا قد أمدت في العصور القديمة العالم الخارجي الشرقي بالنباتات المزروعة، واستمدت منه نباتات أخرى، فيبدو جليا أنها كان مدينة له فيما يخص حيواناتها الأهلية فالبعض من خنازير افريقيا الشرقية يبدو أنه من فصيلة الخنازير التي وقع تأهيلها بآسيا. فمن المؤكد كما يلاحظ ك. رايفلي (C. Wrigley) (٣١) ان تربية الحيوان لم تتطور مستقلة في افريقيا جنوب الصحراء التي لم يكن فيها للحيوانات أي سلف ممكن «للبقر والماعز والغنم المؤهلة»، فهذه الحيوانات قدمت اذن الى هذا الجزء من افريقيا وخاصة من مصر عن طريق سهول النيل. ورغم ذلك فإننا نسجل الامكانية الكبيرة في أن البعض من هذه الحيوانات وقع تأهيلها في الجزء الافريقي من المنطقة البليو بحر وسطية وخصوصا الأبقار بمصر حيث كان الرجال، فيما يبدو، يصطادون في عهود ما قبل العصر الحجري الجديد أنواعا عديدة من الأبقار المسماة:

ان هذه النظرة الاجالية التي أعطيناها مكنتنا من أن نتبين أن افريقيا لم تكن أبدا تلك القارة التي اعتبرناها مدة طويلة تأخذ من الخارج كل ما هو أساسي لتطورها الزراعي والرعوي. فمن الأكيد أن افريقيا لم تكن في العهود السابقة منعزلة منفصلة عما يقدمه الخارج، شأنها في ذلك شأن أوروبا وآسيا. ومن الأكيد أيضا أنها يجزئها الساحلي تتقاسم مع أوروبا وآسيا انتاءها الى ميدان بحر وسطي كان له سابقا تواصل بيئي أكثر مما هو عليه في أيامنا هذه. وعلى كل فان القارة الافريقية قد عرفت تطورات في الفلاحة والبستنة مرتكزة على تأهيل النباتات التي كانت تختص بها والتي استفاد منها العالم سبقتا، وخاصة فيما يتعلق بالبعض من النباتات التوليدية وبالأخص أنواع الذرة. وإذا كان الجني والصيد قد بقيا مدة طويلة أساسيين للمعيشة في بعض أجزاء افريقيا فذلك ليس

راجعا للتأخر، بل هو نتيجة لكثرة وتنوع الموارد الطبيعية التي سمحت للناس بعيش رغيد في نظامهم البيئوي بدون أن يضطروا الى تحويله وتأهيله.

## الخاتمة

نجد أيضا بجانب القطف في افر يقيا هذا الشكل من الفلاحة الناشئة التي تتمثل في مساعدة النبات وفسح المجال له بدون تدخل مباشر في انتاجه وتوافره. وهذا الأمر ينطبق حاليا على أنواع من النباتات الغذائية الشبيهة بالأشجار مثل شجر الكولا تبي (Colotier) والكاريتي (Karité) أو النخيل الزيتي. على أننا نجد أيضا في القارة كل درجات التطور البستاني والزراعي، وبايجاز نجد تنوعا كبيرا في التقنيات الفلاحية التقليدية التي تدخل ضمنها استعمالات ذكية للأرض قصد اعدادها لزراعة الرز الافريقي، وأشكال مختلفة لحفر الأرض واستئصال الأعشاب، وكذلك أساليب زراعية، غابية ورعوية.

ان افر يقيا تنتمي، من حيث بداية الفلاحة فيها، وتطورها، الى ثلاثة مراكز أو مواطن هامة (خريطة ٤).

المركز الأول: يهم شمال القارة من مصر الى المغرب وهو يدخل ضمن المنطقة البحر وسطية. وقد خضع لتأثير واضح أثناء من المهد الزراعي والرعوي الموجود بالشرق الأدنى، بالإضافة الى أنه عرف تطورات خاصة به ونابعة منه.

المركز الثاني: يهم مجموع المناطق المحيطة بالسباسب والسهوب الكائنة في قلب افر يقيا الغابي. وهو يتميز بتطور زراعة الحبوب (الذرة البيضاء، والدخن).

وأخيرا المركز الثالث: الذي يشمل الغابة وما حوّلها والمختص ببستنة لها صلة بالقطف. وهو قطف معتمد على بعض النباتات المزروعة بالغابة.

ولا توجد بين هذه المراكز حواجز منيعة، اذ كثيرا ما تتجاوز في الواحات، الحبوب وأنواع الذرة البيضاء، والدخن. أما في حقول السهوب، فنجد نباتات غذائية قادمة من بستنة المناطق المتاخمة للغابات، وقد أخذت الفلاحة البستانية بدورها النباتات الصالحة للقطف المتوفرة في الغابة المدارية. وهناك مثال آخر يتمثل في أثيوبيا التي لها في نطاق رصيدها النباتي الاقتصادي العتيق، نباتات خاصة بها وأخرى قادمة من المنطقة البحر وسطية وأخرى قادمة من المركز الفلاحي للسهوب والسباسب الافريقية وأخرى أخيرا من المناطق الشرقية الخارجة عن افر يقيا...

فن هذه المواطن يبدو أن أكثرها أهمية ودلالة في تاريخ الفلاحة الافريقية هو موطن السهوب والسباسب، لا سيما في أجزائها المجاورة للغابة، أو للأنهار أو المساحات المائية الهامة.

أما فيما يتعلق بضبط الزمان ضبطا دقيقا لما قبل تاريخ الفلاحة الافريقية وتاريخها فالأمر ليس سهلا يسيرا. على أننا نعتقد أن الحقبة الحاسمة في بداية عمليات التأهيل الافريقية المحضة قد طرأت في البليستوسين الأخير (أي بين ٩٠٠٠-٥٠٠٠ سنة). ففي ذلك العهد، حصل في محيط الموطن الغابي الأوسط، قطف مكثف، بل حصل نوع من التخصص في القطف، كما تحسن صيد الأسماك في المياه الداخلية، وصاحبه استقرار الأهالي استقرارا نسبيا. وبايجاز ظهرت ظروف ملائمة للتأهيل.

إنشاء، وإن كنا ننتظر أن يؤيد علم الآثار رأينا أو يفنده، فمع ذلك نعتقد أن كل هذا وقع في الوقت الذي كانت تتكون في الهلال الخصيب بالشرق الأدنى القواعد الرعوية والفلاحية التي أصبحت فيما بعد من بين قواعد الحضارات البيضاء في العالم الأوربي.

• في ٢٠ مارس ١٩٧٣ توفي رولان بورتيير الأستاذ بالمتحف القومي للتاريخ الطبيعي بباريس. وقد كانت اللجنة العلمية الدولية لوضع تاريخ إفريقيا العام قد عهدت إليه بكتابة هذا الفصل المتعلق بأصول التقنيات الفلاحية وتطورها، فقام بوضع مشروع أولي للعمل. إلا أن الموت حال بينه وبين إنجازها كاملاً، فكان مشروعه آخر عمل قام به، وبقي العمل ناقصاً غير تام، وقد اعتمدت على ما نشره رولان بورتيير من مؤلفات عديدة في هذا الميدان وعلى ملاحظاته وأيضاً على محادثاته العديدة في الموضوع، فعملت بكل جهدي على مواصلة عمله وإنجازه، محاولاً أن أبقى وفياً مخلصاً للاهتمام الكبير الذي كان رولان بورتيير يولييه لطبيعة إفريقيا الجذابة وبلدانها شعوباً وحضارات. ومهما تكن هذه المساهمة ناقصة فإنها تريد أن تكون إهداء أتقدم به للأستاذ والصاديق الذي عمل كثيراً لكي تكون معرفتنا لفلاحة القارة الأفريقية ومزروعاتها، أحسن وأفضل. جاك بارو.

## اختراع المعادن وانتشارها وتطور النظم الاجتماعية الى القرن الخامس قبل الميلاد

بقلم: ج. فركوتر

لقد لعب وادي النيل دورا ممتازا في تاريخ افريقيا العام. فرغم المصاعب التي تسببت فيها الشلالات، وهي مصاعب لا تخلو أحيانا من مبالغة (١)، فإن النيل الذي يبلغ ٦٥٠٠ كلم يشكل وسيلة من وسائل الاتصال والتبادل بين الاقطار من الجنوب الى الشمال، وهي وسيلة لا يمكن أن نتهاون بها. ان وادي النيل اذا أتتته من الشمال، من وراء خط الموازة السادس عشر، وقفار بيوضة غربا، وبوتانا شرقا، يدخل مناطق ذات أمطار سنوية، ويفضي بك الى الطريق الافريقي العريض المتجه من الغرب الى الشرق والذي يقود من المحيط الأطلسي الى البحر الأحمر عبورا بأودية ومنخفضات النيجر وتشاد وأنجاد درفور، وكردفان ثم سهول العظيرة والبركة. وهكذا، بالإضافة الى مزاي محور اتصال متجه من الجنوب الى الشمال، انطلاقا من البحيرات الاستوائية الى البحر الأبيض المتوسط، توجد مزاي محور المتجه من الغرب الى الشرق، اذ ان حوض النيل يفتح الطريق الى حوض الكونغو والنيجر والسنگال.

تحتل تلك المنطقة الواسعة الواقعة في الزاوية الشمالية الشرقية من القارة، مكانة أساسية في تاريخ افريقيا الغابر. وهي لم تستكشف مع الأسف الا قليلا من حيث آثارها وتاريخها. فان كان الوادي الاسفل للنيل، ابتداء من الشلال الثاني الى البحر، معروفا معرفة حسنة، اعتمادا على جهود الاثريين الذين استكشفوا ذلك القسم من الوادي، ابتداء من أوائل القرن التاسع عشر الى يومنا هذا فان الامر ليس كذلك فيما يتعلق بالوادي الأوسط من النهرين الشالين الثاني والسادس من

(١) ان كتاب أ. شلو، ١٨٩١ ص ٣٠-٧٣ يعتبر أكثر المؤلفات، تفصيلا عن الشلالات ومصاعبها الحقيقية أو الوهمية وهو يصف كل شلال ويوفر رسوم القنوات التي تصلح فيها للملاحة.



جهة، ولا فيما يتعلق بالوادي الأعلى من جهة أخرى، من الخروط إلى البحيرات الكبرى، ولا فيما يتعلق على الأخص بالمناطق الصحراوية للنيل وروافده التي لم تستكشف أثريا سواء بالشرق أو بالغرب، والتي لا يعتمد تاريخها إلى الآن إلا على فرضيات كثيرا ما كانت مرتكزة على مشاهدات غير كافية أو منقوصة كما وكيفا.

وسنتبع في عرضنا هذا الترتيب الزمني والترتيب الجغرافي. اننا نميز حقبتين: أولاها من العصر الحجري الجديد إلى أوائل الألفية الثالثة التي برزت فيها الوثائق المكتوبة، وبالتالي برز فيها التاريخ بوادي النيل الأسفل. وتلك حقبة سنتعرض فيها، انطلاقا مما هو معروف معرفة حسنة نسبيا إلى ما هو مجهول، أي ابتداء من الشمال إلى الجنوب، سنتعرض للحضارات التي كانت قائمة على ضفتي النهر. وتشمل الحقبة الثانية أوائل الألفية الثالثة إلى حدود القرن الخامس قبل الميلاد، متبعين بالمثل المناطق الجغرافية انطلاقا من الوادي الأسفل إلى الوادي الأعلى من النيل.

## من العصر الحجري الجديد إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد

إن تلك الحقبة التي تشمل عموما ألفيتين، من ٥٠٠٠ سنة تقريبا إلى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، قد شهدت بروز المعدن وانتشاره بوادي النيل، كذلك ظهور النظم الاجتماعية لأول مرة. فهي حقبة ذات أهمية كبرى، إن لم تكن أهم حقبة من الناحية التاريخية. وإذا كنا نعود للحديث عن ثقافات العصر الحجري الجديد بوادي النيل بعد أن درسناها في هذا الكتاب (انظر الفصل الثاني)، ولشرحها بسرعة، دون التوقف عند مظهرها المادي، فلأنه من الصعب أن نتكلم عن القرون المجهولة المتعلقة بابتداء التاريخ النيلي بالألفية الرابعة قبل الميلاد (من ٣٨٠٠ إلى ٣٠٠٠ سنة) دون أن نذكر في نفس الوقت الثقافات التي سبقتها. ولقد أيدت ذلك فعلا كل البحوث الحديثة بالنوبة ومصر تأييدا قويا، ومعنى ذلك أن ظهور المعدن لم يسبب أي انقطاع في التطور العام للحضارات بإفريقيا الشمالية الشرقية، إذ أن ثقافات عصر النحاس هي النتائج الشرعي المباشر لثقافات العصر الحجري الجديد، ويستحيل غالبا أن نميز في عين المكان بين موقع من نهاية العصر الحجري الجديد وموقع من عصر النحاس. ويعتبر الملك الأول من الأسرة المالكة الثبتية من الذرية الشرعية لرؤساء الاجناس الاخيرة من العصر الحجري الجديد، كما أن الفراعنة الكبار من العهد الطيبي هم ذرية ملوك الامبراطورية المفية.

## وادي النيل الأسفل، من ٤٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد (٢)

إن التنظيم الاجتماعي الذي نراه بل الذي نتصوره قائما بوادي النيل الأسفل من مصر منذ ٣٠٠٠ سنة

(٢) فيما يتعلق بتكون مصر بالذات، قبل العهدين من العصر الحجري الجديد وعصر النحاس اللذين تطورت فيهما النظم الاجتماعية الأولى، انظر الكتاب الممتاز لـ د. هاس، ١٩٦٥. فهنا الكتاب الذي نشر بعد موت صاحبه والذي طبعه لـ ك. سيل، يشمل فصلا كاملا عن تكوين مصر، ص ١-٢٩ مع مراجع تحليلية كثيرة في ص ٢٩-٤١.

قبل الميلاد، هويقيننا نتيجة تقنيات فرضها الري من أجل استصلاح وادي النيل زراعيا. ان استملاك الانسان للوادي قد ابتدأ من العصر الحجري الجديد، واستمر تطوره حتى ظهور نظام ملكي.

ولقد قال هيرودوت، وردد بعده كثيرون ما يلي: «ان مصر هبة من هبات النيل». فنذ بداية العهد التاريخي، عندما كانت عملية التجفف بافريقيا الصحراوية، من المحيط الاطلسي الى البحر الاحمر، قد أخذت تكتمل، ما كانت مصر يومئذ لتعيش لولا الفيضان السنوي الذي يطرأ على النهر، فبدونه تصبح قفرا مثل الصحراء نفسها أو مثل النقب. الا ان تلك الهبة التي وفرها لها النهر وأمدّها بالحياة، يمكن ان تكون هبة مسمومة. ففي السنة الثالثة من أزركون (Osorkon). الثالث (٧٥٤ سنة قبل الميلاد) كان الفيضان على غاية من الشدة حتى أتى على كل سد، و«أصبحت معابد طيبة كلها تشبه المستنقع». وتضرع كاهن أمون الى الله كي يمنع المياه من الارتفاع. وتجددت نفس الكارثة في السنة السادسة من تحرقه (Taharqa) (٦٤٣ سنة قبل الميلاد) عندما «استحال الوادي الى محيط»، وان كان الملك قد أول تلك الظاهرة، حرصا منه على شعبيته، على أساس أنها بركة من بركات السماء.

ان ارتفاع المياه يكون إما غير منتظم أو شديدا جدا أو ضعيفا جدا ولا يبلغ الا نادرا ما هو مستحب (٣). فلقد لوحظت، من ١٨٧١ الى ١٩٠٠ ثلاثة ارتفاعات سيئة، وثلاثة رديئة، وعشرة طيبة، واحدى عشر وافرة فوق اللزوم، وثلاثة خطيرة. وهكذا، فن أصل ٣٠ فيضانا، كانت عشرة منها مفيدة. (٤).

ان تاريخ الحضارة بافريقيا النيلية هي حضارة «تطويع» الانسان للنهر، اذ صبح التعبير، ولقد اعتمد في ذلك التطويع على وضع سدود أو رفع حواجز ترابية، منها ما هو مواز لجري النهر، ومنها ما هو عمودي له. ان تلك التدابير سمحت بتكوين أحواض تتجمع به المياه وتقلل من أخطار الفيضان، وتتحكم فيه وتصرفه الى أراض قد لا يبلغها ان ترك لحاله.

ان هذا النظام المعتمد على خبرة طويلة، لم يستقر الا تدريجيا، (٥) لأن أحواض التجمع تستوجب لتكون مجدية، ان تبتأ منهاجيا في البلاد كلها، وعلى الأقل بمناطق شاسعة فهي تفترض اذن اتفاقا مسبقا بين عدد كبير من الناس للقيام بعمل جماعي. وذلك كان شأن أصل النظم الاجتماعية الاولى بوادي النيل، اذ تجمعت أجناس حول مركز فلاحى قروي أولا، ثم تجمعت مراكز قروية عديدة كونت في نهاية الأمر مجموعتين سياسيتين أكبر منها، احدهما بالجنوب والأخرى بالشمال (٦).

(٣) انظر في شأن أخطار الفيضان: ج. بيزنسون، ص ٧٨ - ٨٤.

(٤) نفس المرجع، ص ٨٢ - ٨٣، المراجع ص ٣٨٧ - ٣٨٨.

(٥) ان المؤلفات العامة المتعلقة بالري بمصر لا تدرس حسب ما أعرف، المشاكل التي طرحها ظهور الري بمصر وتطوره المتدرج وفي كتاب بيزنسون السابق الذكر (ص ٩٧-٨٥) وصف لهذا النظام وكذلك في كتاب ف. هارتمان، ١٩٢٣ (ص ١١٣-١١٨)، وكتاب كز يزانيك، ١٩٧٧ وهو يميز بين حقبة ري طبيعية (ص ٥٢-١٢٣) وحقبة ري مراقبة (نفس المرجع ص ١٢٧-١٦٧) ولقد ابتدأت الحقبة الأخيرة في الجزري (النكادي ٢) انظر نفس المرجع ص ١٣٧ أي حوالي ٣٠٧٠ ± ٢٩٠، انظر في شأن ذلك التاريخ

ن. أ. وردتسم، ١٩٧٢، ١٩٧٢، ص ٥.

(٦) ١٩٦٧، ص ٢٥٣ - ٢٥٧.

ان الوثائق المتوفرة لدينا عن تلك الحقبة من ٥٠٠٠ الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد لا تسمح بتحديد طبيعة النظام الاجتماعي الذي يعتبر أساس احتلال السكان للارض واستصلاح وادي النيل الاسفل. ونعتبر لفظ «جنس» الذي سبق ان استعملناه «خاطئا» اذ ليس هناك ما يؤيد وجود مجموعات من الاجناس في ذلك العهد متنوعة في وادي النيل، في حين أنه ثبت وجود مجموعات سياسية أو سياسية دينية. فالدليل الوحيد المتوفر لدينا يعتمد على تمثيل معالم نذرية لها أحجام صغيرة، ومن ذلك لوحات الحضاب وهراوات طقوسية من أصل سحري ديني. ان تلك الوثائق لا تعكس اجمالا الا الحالة السائدة في أواخر هذا العهد، عند الاجيال الاخيرة من نهاية الألفية الرابعة (٧) على أن النظام الاجتماعي الذي نتلمحه من خلال تلك الوثائق لم يتطور بتاتا طيلة الألفيتين من تلك الحقبة.

ان بداية التاريخ المكتوب توافقت اجمالا اندماج المجموعتين من الجنوب والشمال ضمن نظام واحد تحت سلطة ملك واحد. وبذلك تتكون لدينا صورة اجمالية عن تاريخ وادي النيل الاسفل، من ٥٠٠٠ الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وهو تاريخ يتميز كما نرى لا بظهور المعدن فحسب — وهو في الواقع ظاهرة ثانوية — بل يتميز على الأخص باستيلاء الانسان على مجموع الوادي. ان ذلك الاستيلاء قد استوجب، بقطع النظر عن تهيئة السدود والحواجز لتجمع المياه، استوجب بسط الأرض حتى لا يركد بها الماء في قعرها وحتى ينتشر من جهة أخرى لكي تتوسع مساحة الأراضي الصالحة للزراعة من الوادي، وذلك ما يمثل انتصار الفلاح على الطبيعة القاسية، رغم كل ما قيل في شأنها.

## العصر الحجري الجديد

يوجد في الفصل ٢٥ من هذا المجلد، وصف مفصل عن الجانب المادي لمختلف «الثقافات» أو «الآفاق الثقافية» التي تشكل شبكة التطور الاجتماعي لتلك الثقافات المجموعة تحت مصطلحين عامين هما «العصر الحجري الجديد» و«ما قبل عهد الملوك» وذلك بوادي النيل، في السودان وفي مصر. ولقد اقتصرنا في الصفحات الموالية على استخراج الجوانب الاجتماعية والتطور التاريخي لتلك الثقافات، لأن العصر الحجري الجديد وعهد ما قبل الملوك يشكلان بوادي النيل «تواصلًا» ثقافيا. ويكفينا مثالا على ذلك أن «البديري» الذي حلل بالتفصيل في الفصل ٢٥ السابق، ليس الا مرحلة ضمن تطور ثقافة هي جزء من «التاسي» (انظر نفس المرجع ص ١٢ — ١٣) وينتهي الى «النكادي ٢» (انظر نفس المرجع ص ١٤-١٥) والى المجتمعات «ما قبل الشيتية».

وبعبارة أخرى فاننا نقدم هنا وبصفة تركيبية ما ورد بصفة تحليلية في الفصل ٢٥ السابق ويعتبر الوجهان من القضايا المطروحة متكاملين. وقد وضعنا بين معقوفين المراجع الضرورية التي تسمح للقارئ بأن يعثر بسرعة على الوصف المفصل «للتقافات» التي لا تذكر بهذا الفصل الا ذكرا عاما جدا.

لا تعرف الحقبة الحجرية الجديدة بمصر إلا بالاعتماد على عدد قليل من المواقع التي لم تكن أحيانا متعاصرة. ويحتل أقدمها ضفاف منخفض الفيوم (= الفيومي ب - الفصل ٢٥) بغربي الوادي بمصر الوسطى (٨). ونعرف مواقع مرمدة - بني سلامة (٩) (المرمدي، الفصل ٢٥) بالدلتا الغربية على حافة الصحراء وعلى بعد ٥٠ كلم تقريبا من الشمال الغربي للقاهرة وموقع العمري (١٠) (= العمري (أ) و (ب) الفصل ٢٥) قرب القاهرة على مقربة من حلوان وبمصر الوسطى وصعيد مصر نجد مواقع دير تاسة، بالجنوب الشرقي من أسيوط، ومواقع أقل أهمية بتوخ وأرمات سبلان، بمنطقة طيبة (١١). ان المقارنات الممكنة بين تلك المواقع سعى الى ضبط طبيعة وانتشار مختلف مظاهر العصر الحجري التي تمثله منه، تصبح عسيرة أكثر نظرا الى أنها ليست متعاصرة. ان التحليلات بالكربون ١٤ تفيد ان أقدمها وهو موقع الفيوم (أ) يعود الى ٤٤٠٠ ± ١٨٠٠ سنة قبل الميلاد، ثم تليه مواقع مرمدة - بني سلامة ٤١٠٠ ± (١٨٠٠) وموقع العمري (٣٣٠٠ ± ٢٣٠٠) وأخيرا موقع تاسة الذي يعود الى نهاية العصر الحجري الجديد (١٢).

ان المواقع المحفورة تفيدنا بعبارة أخرى بمعلومات عن بدايات العصر الحجري الجديد بالفيوم والدلتا من جهة. وعن انتهاء تلك الحقبة من جهة أخرى وذلك بالطرف الجنوبي من الدلتا وبمصر الوسطى، الا اننا لا نعرف من ٤٠٠٠ الى ٣٣٠٠ سنة قبل الميلاد، أي طيلة ٧ قرون، الا قليلا عن التطور العام للعصر الحجري الجديد في مجموعه. وذلك شأن المنطقة الممتدة في الجنوب من مصر الوسطى. ان المكتشفات السطحية في ضواحي الوادي وبالصحراء عديدة، وتدل في الواقع على ما يسمى «الفاصل الرطب» أو «العصر الحجري الجديد دون المطر» (١٣) الطارئ في نهاية الألفية السادسة وهو يدل على توقف طرأ على عملية التجفيف المناخي بأفريقيا الشمالية الشرقية. لكن تلك المكتشفات لا تجربنا كثيرا لانعدام حفريات شاملة تشمل الثقافات الحجرية التي تعتبر من آثارها الباقية. ان الدراسات المثمرة الوحيدة هي الدراسات التي تعتمد المواقع المحفورة حفرا جيدا والتي ذكرناها. والملاحظ اذن ان استكشاف تلك المواقع قد ترك مناطق شاسعة تمتد زمانا ومكانا امتدادا كبيرا، فبقيت مجهولة، وهذا ما يؤسف له، خاصة أنه يعتقد بأن «الثورة» الحجرية الجديدة قد أتت مصر من الشرق الأوسط السوري الفلسطيني أي من الهلال الخصيب حيث كانت موجودة منذ القدم، ولذلك كان ابتداء العصر الحجري الجديد في أرمية قد أرخ بـ ٦٨٠٠ سنة قبل الميلاد، أي قبل العصر الحجري الجديد بالفيوم بكثير ومن أجل اقامة الدليل على ان العصر الحجري الجديد بوادي

(٨) انظر فيما يتعلق بالعصر الحجري الجديد، و. ك. هابس ١٩٦٥ ص ٩٣-٩٩، وص ١٣٩-١٤٠ ونضيف اليه ملاحظات إف. ض. ونذور، ور. سعيد، وشيلد، ص ١١٦١-١١٧١.

(٩) انظر في شأن مرمدة - بني سلامة، و. ك. هابس، ١ ص ١٠٣-١١٦ و ١٤١-١٤٣، يضاف اليه فيما يخص الحرف، ل. جلر ١٩٦٢، ص ٣ وما بعدها.

(١٠) انظر و. ك. هابس ١٩٦٥ ص ١١٧-١٢٢ و ١٤٣-١٤٤.

(١١) لم تتوفر لنا مع الأسف فيما يخص صعيد مصر ملاحظات ومراجع و. ك. هابس النقدية أي مصر العتيقة جدا لأن هذا الكتاب لم يكتمل بعد موت مؤلفه (انظر ١ ص ١٤٨ رقم ١) ويمكن أن نعود الى ملاحظات ج. فاندنيي ١٩٥٢ ص ١٦٦-١٨٠.

(١٢) انظر ج. برتن في شأن العصر الحجري «الناسي»، ١٩٣٧ ص ٥-٣٣، انظر في شأن التاريخ وف. لبي، ١٩٥٥ ص ٧٧.

٧٨.

(١٣) بوتزر، ١٩٦٤، ص ٤٤٩-٤٥٣ وج. كعب، ١٩٧٤ ص ٢٢٢.

النيل ولاسيا بالدلتا والفيوم أتى من آسيا. وجب ان نعرف المواقع الموجودة بالتخوم البحرية وبالقسم الشرقي من الدلتا، الى منفيس، وتلك بالضبط مناطق مجهولة بالنسبة الينا. فينتج عن ذلك أن الرأي الذي يقول بالأصل الآسيوي للعصر الحجري الجديد المصري سيظل من باب الفرضيات (١٤). ان تلك الفرضية تستوجب اقامة الدليل، خاصة اذا عرفنا ان البحوث التي جرت بالصحراء في العقد الأخير من السنين، قد بينت بأن العصر الحجري الجديد قد استقر بها أيضا منذ عهد بعيد، لا سيما في الهقار حيث ان موقع أمكني يكاد يكون معاصرا للأرجحي الطاريء في بداية التاريخ (١٥). ونلاحظ من جهة أخرى ان توار يخ ذلك العصر الحجري الجديد الصحراوي السوداني كانت سابقة لتوار يخ العصر الحجري الجديد المصري، على الأقل فيما يتعلق بالمناجم المؤرخة حاليا في الفيوم وممرمة بني سلامة (١٦) وكذلك سابقة لمناجم العصر الحجري الجديد النوبي (١٧). وربما ظهر الفخار مبكرا بالنوبة قبل مصر (١٨) اذا أخذنا دائما بالاعتبار المعلومات المتوفرة لدينا الآن.

لا نستبعد اذن، نظرا الى أقدمية العصر الحجري الجديد الصحراوي السوداني ان يكون العصر الحجري الجديد بوادي النيل، في مصر وكذلك بالنوبة، منحدرا من ذلك العصر الحجري الجديد الافريقي. وبالطبع ينبغي أن نكون حذرين نظرا الى قلة، بل ندرة المواقع الحجرية الجديدة في وادي النيل الاسفل بمصر من جهة، ونظر الى أن شواطئ النهر بالنوبة كانت الأماكن الوحيدة التي استكشفت استكشافا حسنا. ولم يحصل ذلك الا بين الشلال الاول وجنوب الشلال الثاني. ان الجاشية التي تمتد بين وادي النهر والصحراء الشرقية مازالت مجهولة من الوجهة الأثرية وذلك يعني أن التأثيرات التي طرأت في القابسي والايبيرو-موروسي انطلاقا من افريقيا الشمالية نحو النوبة، وفي السبيلي والعصر الحجري القديم الوسيط بافريقيا الوسطى دائما نحو النوبة (١٩)، قد دامت الى بداية العصر الحجري الجديد. ونظرا الى أن الدلتا المصرية كانت تعتبر ملتقى طرق عديدة، لذلك فقد يكون من البديهي ان تستقطب تأثيرات أتت من الغرب ومن الجنوب وكذلك من الشرق والشمال الشرقي.

ونلاحظ تميزا ثقافيا بين مجموعة الشمال ومجموعة الجنوب، هنذ ظهور العصر الحجري بوادي النيل الاسفل. ان المجموعتين من السكان كانتا تتألفان من الفلاحين ومرعي الماشية الذين كانوا يتعاطون صيد الأسماك والقنص، الا ان الأدوات التي تركوها كانت مختلفة قليلا من مجموعة الى أخرى في طبيعتها وكمها وكيفها (انظر فصل ٢٥) وكذلك الشأن بالنسبة لبعض العوائل.

(١٤) ان السيدة أ. بومغرتل لما درست مشكلة أصل الاستيطان المصري في ما قبل عهد الملوك دحضت سنة ١٩٥٥ امكانية الاصل الغربي والشمالي والشرقي (انظر: أ. بومغرتل ١٩٥٥ ص ١٩)، ان الأعمال الحديثة التي قام بها أثر يون بالصحراء (انظر: أدناه) بينت ان هذا الموقف يحتاج الى تعديل فيما يتعلق بالغرب وان كان صالحا فيما يتعلق بالشرق.  
(١٥) ج. كسب، ١٩٧٤ ص ٢٢٤ ونفس المرجع، ١٩٦٨، تؤرخ أمكني بـ ٦٧٠٠ سنة قبل عهدنا، وبداية العصر الحجري الجديد بـ ٦٨٠٠ سنة قبل عهدنا.

(١٦) هـ. نردسرم، ص ج أ ١٩٧٢ ص ٥٠.

(١٧) نفس المرجع ص ٨-١٦-١٧ و ٢٥١٧.

(١٨) فونديورف ١٩٦٨ ص ١٠٥٣ ظهر الفخار بالنوبة في الشرقي سنة ٥٧٥٠ قبل الميلاد ولم يظهر بالفيوم الا سنة ٦٣٩١ قبل الحاضر أي ٤٤٠٠ سنة قبل عهدنا.

(١٩) المرجع نفسه ص ١٠٥٥ شكل ٨.

وفي الشمال، تدل المنازل المجمعّة تجمعاً حسناً على بنية اجتماعية بلغت حد التناسق. وكان الموتى يدفعون في القرى بطريقة تفيد بأنهم مازالوا ينتسبون الى مجموعة منظمة (٢٠). أما في الجنوب، فقد كانت الأضرحة تحفر على حافة الصحراء، ويبدو أنه كان يحافظ على نظام الأسرة أكثر مما في الشمال، كما تدل على ذلك مجموعات السكنية المبعثرة. ويظهر الاختلاف أيضاً بين التقنيات المستعملة في المكينين. فالشمال يعتمد نحت الحجارة نحتاً رقيقاً، وابتداءً صنّاعه يصنعون أواني حجرية، مولدين بذلك تقنية ستكون من أخص خصائص مصر الفرعونية العتيقة. أما فيما يتعلق بالفخار فلئن عرف الشمال تنوعاً كبيراً في الأشكال، فإن الجنوب قد تميّز بتقنية حسنة في الصنع. وهنا يظهر فعلاً بجانب الحرف الأسود ذي التزيين الأبيض، فخار رائع أحمر ذو حاشية سوداء سيورث مصر ما قبل عهد الملوك ومصر العتيقة، صناعة يختص بها وادي النيل، والسودان ومصر. وهكذا توضح منذ العصر الحجري الجديد المفارقة بين مجموعتين ثقافيتين، وربما أيضاً، بين نظامين اجتماعيين: فمن حيث المكان توجد أحدهما حول منطقة منفيس — الفيوم والطرف الشمالي الغربي من الدلتا. والآخرى موجودة بمصر الوسطى وصعيد مصر، بين أسبوط وطيبة (٢١). ويستوضح ذلك الاختلاف الثقافي الذي لا يمنع في الحقيقة وجود التقارب بين المجموعتين، وذلك طيلة القرون الأخيرة من الألفية الرابعة قبل أن ينصهرا في حضارة لها خصائص مشتركة قبيل ظهور الملكية الموحدة بوادي النيل المصري، نحو ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد (٢٢).

### عهد ما قبل الملوك

كثيراً ما وصف عهد ما قبل الملوك المصري بعصر النحاس، كأن ظهور المعدن يدل على حدث أساسي، وعلى انقلاب حقيقي في تطور الوادي. ولكن الواقع يقر — وذلك ما يستوجب التأكيد — بأنه لا يوجد انقطاع بين العصر الحجري الجديد وعصر النحاس بوادي النيل الأسفل بل العكس هو الصحيح: فإن تواصل التطور كان واضحاً. ولذلك نفضل الاحتفاظ بمصطلح عهد ما قبل الملوك لوصف تلك القرون المجهولة التي لها أهمية أساسية في تاريخ إفريقيا.

لقد كان ظهور المعدن بإفريقيا بطيئاً ولا يبدو أنه من عمل الغزاة. وخلافاً لما جرى بمحضارات أخرى، فإن النحاس ظهر قبل الذهب (٢٣) وإن كان من السهل العثور على الذهب الخام بمناجم قرب الوادي. وظهرت الأدوات النحاسية ذات الأحجام الصغيرة بالمجموعة الجنوبية بموقع بدري الذي يلى ينسب البدري (٢٤)، وظهرت بالمجموعة الشمالية في دومة وقصر مارون وخسمة الذهب

(٢٠) هـ. جنكر، ١٩٣٠ ص ٣٦-٤٧. انظر فيما يتعلق بالمراجع الكاملة، الفصل ٢٥ أعلاه.

(٢١) نلاحظ أن المجموعة الشمالية لا تمازج البحر، فهي أيضاً «برية» مثل مجموعة الجنوب (انظر: ج. ل. سنغال، ١٩٧٣، خريطة أ، ص ٥٠).

(٢٢) ج. فركوتر، ١٩٦٧، ص ٢٥٠-٢٥٣.

(٢٣) انظر أ. لوكا، ١٩٦٢، ص ١٩٩-٢٠٠.

(٢٤) انظر الفصل ٢٥. وكثيراً ما درست الحضارة البدريّة (انظر المراجع أسفله) و يعتبر كتاب ج. برتن الكتاب الأساسي لدراستها وكذلك ج. كتن تمسن، لندن ١٩٢٨، الذي يعتبر مكملاً لكتاب ج. برتن ١٩٤٨، الفصل ٥٦.

بالفيوم، وتسمى تلك المجموعة من المواقع بالفيومي لتمييزها من فيوم العصر الحجري الجديد أو فيوم (ب).

ان أصل عدانة النحاس بمصر ما زال محل نظر (٢٥). ويمكن ان تكون قد أتت من الخارج أي من الشرق الاوسط. فان كان الامر كذلك، فانه قد حدث بصفة محدودة جدا. فلا يمكن لنا أن نترك الفرضية القائلة بالتوافق، أي ان بعض سكان وادي النيل اكتشفوا بأنفسهم المعدن تقريبا في نفس الوقت الذي اكتشف فيه «بالهلال الحبيب». وفعلا فلقد كان السكان البدريون قد اكتشفوا في نفس العهد ولعل ذلك على سبيل المصادفة، الميناء الأزرق، وذلك بتسخين الأرحية أو اللوحات التي قد هرس فيها خضاب العيون، وهو خضاب يعتمد الدهنج (مالاشيت) وهو معدن من النحاس (٢٦)، وهكذا نستطيع ان نقول بأن سكان الوادي اكتشفوا في نفس الوقت النحاس الذي كانوا يخدمونه، وهو بارد، وهو ما نسميه «الحزف المصري» أي الميناء الأزرق، فأخذوا يستعملونه لصنع اللؤلؤ.

ومهما كان أصل المعدن الآسيوي أو الأهلي فان استعماله كان محدودا جدا وظلت الادوات الحجرية أكثر رواجاً سواء بالمجموعة الجنوبية أو بالمجموعة الشمالية. ومن المؤكد ان اكتشاف المعدن وانتشاره لم يبدل شيئا يذكر من التنظيم الاجتماعي الذي يمكن ان نتصوره اعتمادا على تنظيم الأضرحة.

ينقسم عهد ما قبل الملوك، من ٤٠٠٠ تقريبا الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، الى أربع مراحل تساعد على رسم تطور الوادي طيلة ذلك العهد الذي مازال مجهولا جدا مع الأسف. فنميز العهود التالية: ما قبل الملوك البدائي، والقديم، والوسيط، والمتأخر.

في عهد ما قبل الملوك (= البدري، الفصل ٢٥) ظلت المجموعتان الجنوبية والشمالية تتطوران كل واحدة من جهتها. ولقد عرفت تلك المرحلة بالجنوب اعتمادا على موقع بدري الذي يوجد قرب دير تاسة. ورغم ظهور المعدن، كان البدري (٢٧) مازال قريبا من العصر الحجري الجديد حتى تساءلنا أحيانا ان كانت تلك الثقافة مظهرها حليا بسيطا متغيرا من التاسي الحجري الجديد. ان دراسة الهياكل تبين من الناحية الجسمية ان البدريين من عهد ما قبل الملوك البدائي كانوا قريبين من المصريين القاطنين حاليا بنفس المنطقة. ولقد ظل السكان يقيمون بأكواخ بيضوية الشكل، وقد توفرت لهم مرافق الراحة أكثر مما كان الحال في العهد السابق، فكانوا يستعملون حصيرات منسوجة، ووسادات من الجلد وحتى أسرة من خشب. وكانت طقوس الموتى قد تطورت: فكانت الجثة معزولة بفاصلة خشبية في القبر البيضوي الشكل الذي توضع فيه. ولقد كان البدريون مثل أهل العصر الحجري الجديد التاسي، يزرعون الكتان وينسجونه، مع استعمال الجلد الحاصل من الصيد ومن تربية الماشية. وكانوا يعتمدون اقتصادا مزدوجا: فلقد أصبحوا فلاحين

(٢٥) انظر أ. لوكا، ص ٢٠١-٢٠٦. وحول أصل عدانة النحاس في الشرق الاوسط القديم، انظر ج. فوربس، ١٩٦٤، ص ١٦.

٢٣. أما الاسم المبروغليني للنحاس، فلم يجد الا حديثا. انظر ج. ر. هاريس، ١٩٦١، ص ٥٠-٦٢.

(٢٦) أ. لوكا، ١٩٦١، ص ٢٠١.

(٢٧) المؤلفات الأساسية المخصصة لتلك الحضارة لا تزال هي مؤلفات ج. برتن، ١٩٢٨، ص ٤٢-٤٣، ١٩٣٧، ص ٦٦-٦٧، ١٩٤٨،

ومربين الماشية الا أنهم كانوا يقومون أيضا برحلات للصيد وصيد الأسماك. وظلوا يصنعون الأواني الحمراء والخزف الجميل الأحمر والجيد الصقل. ولقد مكن اكتشاف الميناء الصناع من صناعة اللآلي ذات اللون الأزرق الفاقع وكان خضاب العيون يهرس على لوحات من الشيست كان بعضها يزوق مثلما كان شأن الأمشاط العاجية وعلى هذا الأساس ابتدأ الفن ينشأ شيئاً فشيئاً.

ان عهد ما قبل الملوك البدائي (= الفيومي أ، الفصل ٢٥، يمكن أن تنتسب أحدث طبقة بمرمدة بن سلامة اليه)، يعرف بمجموعة الشمال اعتماداً على مواقع الفيوم (أ) (٢٨). فاستعمال الصوان فيه مظهر أكثر من استعمال المعدن لصنع الأدوات مثلما هو الشأن بالبديري. وكان صنّاع فخار الفيوم (ب) ينتجون أنواعاً من أشكال الأواني أكثر من صنّاع البديري، إلا أن تقنيتهما كانت أقل جودة. والملاحظ أن الصانع من الشمال يتفوق من جديد على الصانع من الجنوب، وذلك بنحت أوعية وأوان حجرية رائعة، من الشيست الأسود خاصة. وتعتبر المجموعتان متقاربتين فيما تبقى، ولا يمثل كل واحد منها الا تطوراً عادياً قد طرأ على الثقافة الحجرية الجديدة التي سبقتها بعين المكان. فلا يوجد ما يدل على أنه حصلت باحدى المجموعتين، اختلافات محسوسة بين أعضائهما، ولا يبدو خاصة أنه وجد ضمن المجموعة أشخاص أغنى من غيرهم، فكل شيء يجري كما لو أن المساواة في مستوى القنانون الاجتماعي قائمة بين مختلف أعضاء الجماعة، مهما كانت أعمارهم وأجناسهم. ويصدق هذا بالطبع بعدما ثبت ان المقابر المعروفة والمحفورة هي مقابر المجموعة الانسانية المعنية بالأمر بأكملها. وذلك يعني بعبارة أخرى أن بعض أعضاء تلك المجموعة لم يدفنوا خارج تلك المقابر على أساس التمييز بحسب الجنس أو الدين أو المنزلة الاجتماعية.

ان عهد ما قبل الملوك القديم = (النجادي ١، الفصل ٢٥) ليس معروفاً مع الأسف الا بالاعتماد على مواقع الجنوب، وهو يسمى أيضاً بالأمرسي، نسبة الى المكان، وهو الأمر (٢٩) قرب أبيدوس، في ناحية الجنوب، وهو أبعد من بدري. ان الأمرسي يوافق ما يعرف أحياناً بثقافة نجادة ١، حسب تسمية فنلدرس بترى المعتمدة على الخصوص في التآريخ بالكربون ١٤.

ان الثقافة الأمرسية منحدرت زمنيًا من الثقافة البديرية، دون ان يكون انقطاع بينهما أيضاً، ويكون مستوى الأمرسي متصلًا اتصالاً مباشراً بمستوى البديري وذلك في بعض المواقع. ولقد كانت تلك الثقافة تنتج دائماً الفخار الأحمر الجميل ذا الحاشية السوداء، الذي أنتجته الثقافة السابقة لها. لكنها تنتج الفخار المزوق برسوم هندسية وطبيعية، مذهونة بالأبيض الكامد، على خلفية حمراء، وبنية حمراء. ويكون التزويق محتوياً على حزات يملأها بياض على خلفية سوداء. ولقد كان صانع الفخار الأمرسي يبدع أكثر من سابقه البديري. فاخترع أشكالاً جديدة تمثل خاصة الحيوانات ولعب الصيد دوراً مهماً في مواضيع التزويق الطبيعية، لا سيما صيد فرس البحر. ويبدو أن الانتقال في عهد ما قبل الملوك القديم من نظام اجتماعي مكون من قناصين وصيادي أسماك رحل، الى نظام قرى أو مجموعات من الفلاحين المربين للماشية المستقرين لم يكن مكتملاً بعد.

(٢٨) لك. كتن تسمن، ١٩٣٤.

(٢٩) انظر: ج. فنديبي، ١٩٥٢، ص ٢٣١-٢٣٢. ولقد اكتشف الموقع سنة ١٩٠٠. ونشره رندل ماسيفر، وأ. لك. ماسي،

١٩٠٢، ص ٣-٥٣.



ويجب أن نلاحظ أن السلاح الذي يختص به الأمرسي هو الهراوة التي كثيرا ما تكون منحوتة من الحجر الصليب، ولها شكل جذع غروط (٣٠) وذلك أمر مهم لأن ذلك السلاح سيضمحل تماما بعد الأمرسي. وكان رمزا من رموز النظام الميرغليفي، وقد أعطى لها في العهد التاريخي صورة صوتية (٣١). وذلك يعني أن نظام الكتابة الميرغليفية ابتداء يتكون بالعهد الأمرسي، أي بعهد ما قبل الملوك القديم، في حوالي ٣٨٠٠ سنة (وهو تاريخ وفرة الكربون ١٤).

وظل الفن يتطور فظهرت عندئذ التماثيل الصغيرة لرجال ذوي لحى، وهم يحملون علبة قضيبية، أو لنساء راقصات، أو لحوانات متنوعة، وظهر في نفس الوقت عدد أكبر من لوحات الخضاب المزوقة والأشواط المزينة بصور حيوانية (٣٢).

إن مواقع الأمرسي المتجمعة بين أسبوت شمالا وطيبة جنوبا، تشمل خاصة مواقع نجادة، وبلاس، وهو، وأبيدوس. ونحن نأسف لأننا لا نعلم بالنسبة للمجموعة الشمالية وجود موقع معاصر للأمرسي، خاصة أنه توجد في هذا الأخير آثار واضحة عن اتصالات بين الجنوب والشمال لا سيما بظهور أوان حجرية بالأثاث المائمي الأمرسي لها أشكال يختص بها عهد ما قبل الملوك الشمالي. ولا يوجد شيء بالعادات المائمية يدل على حدوث تغير في النظام الاجتماعي بين عهد ما قبل الملوك البدائي وعهد ما قبل الملوك القديم الأمرسي. فنحن دائما أمام مجموعات انسانية مكونة من أشخاص متساوين وإن كانوا يخضعون لسلطة رئيس واحد أو لسلطة مجموعة من الأشخاص.

ثم أخذت الثقافة الأمرسية بعد قرن من الوجود، أو أقل من ذلك، تنصهر بتدرج ثقافة جديدة معقدة تخلط عناصر من الأمرسي بعناصر أخرى من أصل شمالي واضح. إن تلك الثقافة المختلطة، أي عهد ما قبل الملوك المتوسط (= النجادي ٢، الفصل ٢٥-٢٥، وربما العمري نفس المرجع)، أو الجرزي (النجادي ٢، في تسمية بترى) تستمد اسمها من موقع يسمى جرزة (٣٣) بمصر السفلى، قرب الفيوم، حيث ظهرت بوضوح، ولها مظهران أحدهما جرزي محض بالشمال والآخر خليط بين الأمرسي والجرزي بالجنوب (٣٤).

وقد تركزت تلك الثقافة شمالا بمنطقة منف - فيوم، والطرف الجنوبي من الدلتا. ويتميز الجرزي الشمالي في ميدان الفخار على الخصوص من خلال أوان لوها فاتح وشمواهي، وتتركب من مادة تختلف كثيرا عن مادة الفخار الجنوبي. إن تزيينها تزيين طبيعي بالطين الأحمر الموضوع على خلفية فاتحة، وله مواضيع جديدة تشمل جبالا، وإياكسا ونخاما والوة وخاصة مراكب. إن صناع الجرزي مثلهم مثل صناع الفيوم (أ) الذين خلفهم كانوا يصنعون أواني من حجر ويضيفون للشبيست حجارة أكثر صلابة متكونة من ثلم، وبزلت وديريت، وسربنتين. إن السلاح للذي تختص به تلك الثقافة هو الهراوة الكثرية الشكل (٣٥) التي ستصبح السلاح الممتاز في أوائل

(٣٠) انظر: في شأن تلك الهراوة. م. بترى، ١٩٢٠، لوحة ٢٥، ص ٢٢-٢٤.

(٣١) أ. هسغردنر، ١٩٥٧، ص ٥١٠ - مجلد ١.

(٣٢) ج. ل. سنفال، ١٩٧٣، ص ٦٠٢.

(٣٣) إن قرية جرزة تقع في مستوى الفيوم، وبالتالي في أقصى جنوب القاهرة الحالية. وقد أجريت الحفريات في موقع عهد ما قبل الملوك عام ١٩١١. انظر، و. م. بترى، مكى، وج وبناريت، ١٩١٢.

(٣٤) ج. فركوتسي، ١٩٦٧، ص ٢٤٥-٢٤٧، وج فنديبي، ١٩٥٢، ص ٢٤٨، ٢٥٢، ٤٣٦-٤٤٦.

(٣٥) و. م. بترى، ١٩٢٠، لوحة رقم ٢٦، ص ٢٢-٢٤.

التاريخ ومستظل مثل الهراوة الأمرسية إحدى رموز الكتابة المهيرغليفيه (٣٦). ونلاحظ أيضا تطورا اجتماعيا ودينيا. فالأموات أصبحوا يدفنون في قبور مستطيلة الشكل رؤوسهم الى الشمال، ووجوههم نحو الشرق لا نحو الغرب. أما المراكب التي كانت ترسم على أواني الفخار الجرزية، فانها تحوي في جوفها «علامات» يعسر ألا نرى فيها أسلاف شعارات «النوم» أو الولايات المصرية الفرعونية.

وهكذا يبدو أن المجموعات الانسانية قد تجاوزت مرحلة الأسرة والقرية وتجمعت نهائيا ضمن زمر أكبر حجما. ان القوة الناتجة عن ذلك التنظيم الاجتماعي قد سمحت بلا شك باستغلال أحسن للوادي اعتمادا على الري. وستوفر نتيجة لذلك ثورة أكبر ستظهر في انتاج الأشياء المخدمية، كالأواني الحجرية الوافرة الجميلة والأدوات والأسلحة النحاسية الوافرة، ومنها الأمقاص والخناجر، وحدود المخاطيف والفؤوس. وليس من باب المصادفة بدون شك ان تعتمد الحلي المائمية في ذلك الوقت على الذهب وعلى الحجارة نصف النفيسة مثل اللازورد والكلسدون، والفيروز والكرنيلين، والعقيق. وقد أخذ النحت يتطور ويظهر من المواضيع المثلة، كالباز ورأس البقرة خاصة، ان الديانة الفرعونية كانت هي نفسها في مخاض، اذ كان هروس الباز، وهاتور البقرة يعبدان.

وفي الجنوب كانت الشقافات التي تلت الأمرسي من عهد ما قبل الملوك القديم قد خضعت لتأثيرات جرزية عميقة. ولذلك يوجد الفخار الجرزي الكلاسيكي، الشموهي (Chamois)، ذو التزيين الطبيعي الاحمر، جنبا الى جنب مع الفخار الجنوبي التقليدي، الأحمر ذي الحاشية السوداء أو ذي التزيين الأبيض الكامد.

وفي الحقيقة كان التأثير متبادلا بين المجموعتين وكانت المشابهات بين المجموعتين عديدة في ذلك العهد، لا سيما فيما يتعلق بالأدوات الحجرية. ولقد بلغت تقنية نحت سكاكين الصوان أوج جودتها وكان ألواح الخضلب الشيسية متشابهة. وكان كل شيء ينمو نحو انصهار المجموعتين الثقافيتين انصهارا كاملا.

ان الانصهار بين الجنوب والشمال سيتحقق في عهد ما قبل الملوك الحديث أو الجرزي الحديث (يدعى أحيانا السمانى (= الغمري (ب) والمعادي، الفصل ٢٥ ص (٣٧). وهذا الحدث يُفضي بنا الى عتبة التاريخ لأن مدة تلك الفترة كانت قصيرة جدا. فاذا احتفظنا بتاريخ ٣٠٠٠ سنة كبداية التاريخ — وذلك ما فعلناه حتى نظل أوفياء لتواريخ ما زالت مقبولة تقليديا — فقد تكون تلك المرحلة لم تدم أكثر من جيلين أو ثلاثة على أقصى تقدير. ويفيد تاريخ حصل بالكربون ١٤ ومطبق على عهد ما قبل الملوك المتوسط، بأن ذلك العهد كان لا يزال مستمرا في سنة ٣٠٦٦ قبل الميلاد، وبذلك تبقى ثلاثة أرباع قرن فقط للانتقال من نهاية عهد ما قبل الملوك المتوسط الى بداية التاريخ. وفي الواقع يجب ان ننقص قرنين تقريبا من تلك البداية. ولكن، حتى لو ضبطناها بموالي ٢٨٠٠ سنة قبل الميلاد (٣٨) فلم يبق الا قرنان أو أكثر بقليل لكي تنتهي مرحلة شهدت اكتمال استصلاح وادي النيل الأسفل واقامة نظام اجتماعي يحكمه نظام ملكي ذو سلطة إلهية.

(٣٦) ا. هـ. غردنر، ١٩٥٧، ص ٥١٠ ملج ٣.

(٣٧) العبارة وضعها فلندرنس بتري. وسمانة هي قرية من صعيد مصر، قرب قنا، انظر أيضا ج. فركوتيني، ١٩٦٧ ص ٢٤٧ - ٢٥٠.

(٣٨) أ. شارف، ١٩٥٠، ص ١١١.

ان تلك المرحلة على غاية من القرب من المرحلة التي تشهد ظهور النصوص المكتوبة حتى أن بعضهم سعى الى تعميم المعلومات التي وفرتها تلك النصوص على ما يجربنا به علم الآثار (٣٩). ان النصوص تجعلنا نعتقد حسبا يبدو، أن أقوى مدينة بالجنوب كانت في نهاية عهد ما قبل الملوك الحديث، ان لم تكن في نهاية عهد ما قبل الملوك المتوسط، هي مدينة أمبوس (تسمى النوبة في مصر اليوم). وهي تقع قرب نجادة. أي في قلب الثقافة الأمرسية. كان إله المدينة هوسث، وهو إله حيوان ما زالت طبيعته محل نقاش. فلقد اعتبر أنه آكل نخل، ونوع من أنواع الخنزير وزرافة.. وحيوان أسطوري قيد اندثر قديما من الحيوانات المصرية. ان النصوص تفيد أن ذلك الإله الجنوبي دخل في صراع مع إله - باز هو هوروس المعبود بمدينة بهدت التي كانت موجودة باللدئا، أي في لطاق الثقافة الجزرية. ولذلك كانت مصر في نهاية عهد ما قبل الملوك المتوسط مقسمة الى بنتين اجتماعيتين، احدهما بالشمال، يشرف عليها هوروس، في بهدت، والأخرى بالجنوب تخضع لسث، بأمبوس.

ان المراجع المتوفرة لا تسمح هنا مع الأسف بضبط طبيعة البنتين الاجتماعيتين، ولا نستطيع سوى أن ننصو أهمية دور رئيس المجموعة، وهي أهمية تعتمد على سلطة سحرية ودينية، ما لبثت في العهد التاريخي ان اصطبغت بالصبغة الإلهية التي كان يتمتع بها شخص الملك (٤٠). ويمكن لنا ان نقول بأن رئيس المجموعة كان يتمتع بسلطة لا حد لها عمليا، يطبقها على أعضاء المجموعة التي كانت بدورها تستطيع قتل الرئيس اذ انقضت سلطته السحرية (انظر موري، اعدام الإله بمصر). ان تأويل النصوص، يجعلنا نقول بأن الصراع بين المجموعتين انتهى في المرحلة الأولى، بانتصار الشمال على الجنوب، ونشأت على اثر ذلك مملكة موحدة، كان مركزها عين شمس (هليوبوليس) (٤١) قرب القاهرة، أي على بعد ٦٠ كلم شمالا من موقع جرزة. ان انتصار الشمال على الجنوب اذا ترجم بلغة علم الآثار، يوافق تغلغل الثقافة الجزرية في الميدان الأمرسي. ولنستمر في تأويل النصوص لنقول بأنه حدث تطور سياسي واجتماعي في المجموعتين سواء بالشمال والجنوب طيلة عهد ما قبل الملوك الحديث. ان الوحدة السياسية الناتجة عن انتصار الشمال على الجنوب في نهاية عهد ما قبل الملوك المتوسط، أو في بداية عهد ما قبل الملوك الحديث لم تدم كثيرا وعادت كل مجموعة الى حياتها المستقلة. ونلاحظ على إثر ذلك التطور أن المركز السياسي بالشمال انتقل من بهدت، التي نجعل موقعها بالضبط، الى بوتوباللدئا الغربي، على بعد ٤٠ كلم من البحر، وتلك منطقة عس فيها بلوغ مستويات أثرية معاصرة لعهد ما قبل الملوك. ولقد انتقلت في نفس الوقت عاصمة الجنوب من أمبوس الى الكاب (وكانت تسمى النكب بالمصرية القديمة) على بعد ١٠٠ كلم نحو الجنوب (٤٢)، وبذلك اقتربت مجموعة الجنوب أكثر من خط الاستواء ومجموعة الشمال أكثر من الشمال...

(٣٩) يعتبر عمل ك. سانه، ١٩٣٠ المتنازع هو الكتاب المعتمد.

(٤٠) انظر: ج. بوزنر، ١٩٦٠.

(٤١) ك. سانه، نفس المرجع - نظرية رفضها ه. كيس، ١٩٦١، ص ٤٣.

(٤٢) ج. فركوتتي، ١٩٦٧، ص ٢٤٨-٢٤٩.

وكان يعبد في بوتو إلهة في صورة حية (كوبرا)، اسمها وإجيت، وفي الكاب كان يعبد صقر أنثى. وسيظل الالهان في العهد التاريخي يحيمان الفراغة ومثالان بانتظام في «المراسم» المنظمة من أجل الملك (٤٣) وذلك بمناسبة احتفالات التتويج. وكانت بعض الوثائق، الموالية بما يقرب من ألف سنة قد حافظت على أسماء ملوك تلك المجموعات السياسية في نهاية عهد ما قبل الملوك الحديث، ولكن لم يصلنا من تلك الوثائق الا القليل. ويبدو ان الوحدة الثقافية بين الجنوب والشمال قد تمت منذ ذلك العهد. ولذلك كان الاله هوروس الذي أصله من الشمال، معبودا أيضا بالجنوب، وكان الرؤساء السياسيون بالجنوب وبالشمال، يعتبرون أنفسهم من خدمه أو من أنصاره ويطلق عليهم لقب شمسو هوروس (٤٤).

ولا يوجد، من الناحية المادية، الا اختلاف ضئيل بين حضارة عهد ما قبل الملوك المتوسط وحضارة عهد ما قبل الملوك الحديث، ولكن نلاحظ تقدما ثابتا في مستوى الفن والتقنية. فلقد أصبح الوجه الانساني موضوعا كثيرا ما تناوله الفنانون. وظهر الرسم الجداري في هيرا كنبوليس (تسمى «نكسن» بالمصرية القديمة)، وهو مركز هام على الضفة الغربية من النهر يكا د يكون مواجهها للكاب (٤٥). ولقد أصبحت هيرا كنبوليس مهد الملكية الجنوبية التي شرعت في حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد في عمارية الشمال.

فكم دام ذلك الصراع؟ من المستحيل معرفة ذلك. فقد استغرق كل السنوات الأخيرة من عهد ما قبل الملوك الحديث وانتهى بانتصار الجنوب على الشمال وبانشاء دولة موحدة تجمع كل الوادي من الكاب الى الأبيض المتوسط. وقد حكم الدولة ملوك من الجنوب، أصلهم من مدينة ثيس (٤٦) الواقعة قرب أبيدوس، ومنهم نشأت الأستراتن الأوليان المعروفتان بالثينيتية. ولذلك كانت الحقبة القصيرة من عهد ما قبل الملوك الحديث كثيرا ما توصف بالعهد ما قبل الثينيتي.

ان المعالم الأثرية الماقبل الشينيتية التي بقيت الى هذا العهد وجدت كلها في هيرا كنبوليس (٤٧). فهي تتكون أساسا من لوحات خضاب نثرية (٤٨)، مؤرخة، من الشيس، ومن رؤوس هراوات كلسية، منقوشة. ان المشاهد المرسومة على النوعين من الآثار تنيرنا قليلا عن النظام السياسي والاجتماعي الذي كان سائد بوادي النيل الأسفل. وكانت البلاد مقسمة الى مقاطعات، أو مجموعات انسانية نرى شعاراتها تصاحب الملك في المناسبات الكبرى.

ان مقارنة الشعارات المرسومة على المراكب الجرزية وعلى اللوحات أو الهراوات الماقبل ثينيتية برموز «النوم Nomes» أو المقاطعات، المرسومة على المعالم الأثرية الباقية من العهد التاريخي تبين ان تطور النظام الاجتماعي منذ الجرزي بوادي النيل الأسفل، شمالا وجنوبا، أخذ يتقدم في

(٤٣) انظر: ١. ه. غردن، التوالمصري، الطبعة الثالثة، لندن ١٩٥٧، ص ٧١ - ٧٦.

(٤٤) انظر: في شأن شمسو هوروس، ج. فغندي، ١٩٦٢، ص ١٢٩ - ١٣٠ و ٦٣٥ - ٦٣٦.

(٤٥) وفرت هيرا كنبوليس معالم عديدة من عهد ما قبل الملوك. انظر: برتر - مونس، ١٩٣٧، ص ١٩١ - ١٩٩.

(٤٦) لم يكتشف موقع العاصمة. ان وجود مقبرة ملكية من ذلك العهد (انظر: و. م. ف. بترى، ١٩٠١) على الضفة الغربية من النيل، بأبيدوس يدل على ان المدينة كانت على مقربة من المقبرة.

(٤٧) استكشف الموقع سنة ١٨٩٨ - أنظر: ج. ا. كيل، هيرا كنبوليس، لندن ١٩٠٠ - ١٩٠٢.

(٤٨) قام بجمع أجملها و. م. ف. بترى، ١٩٥٣.

إطار جغرافي واقتصادي وليس في إطار عرقي. فكانت المجموعة الانسانية تنتظم حول موقع سكني، وحول آلهة وكان ذلك ناتجا عن المستلزمات الزراعية التي فرضها نظام النيل على الوادي سواء بالشمال أو بالجنوب. فالمجموعة لا تستطيع أن تعيش ولا أن تتطور إلا اذا كانت وافرة العدد، ومنظمة تنظيما كافيا لتنجز الأعمال التي تحمي أرضها من الفيضانات، وتوسع في الأراضي المفلوحة، ولتوفر مدخرات ضرورية حتى تجابه التقلبات الناتجة عن فيضان النهر. ويعتبر ذلك التنظيم الحدث الهام والقار غالب في النظام الاجتماعي بوادي النيل الأسفل.

ومن الممكن ان يكون هذا النظام القائم في نهاية الأمر على توزيع جغرافي قد حل محل نظام أقدم منه يركز على قاعدة عرقية أو اجتماعية. وذلك ما نستشفه من ثلاث كلمات مصرية موجودة منذ فجر التاريخ والتي ستدوم الى آخر الحضارة المصرية. وتلك الكلمات هي: بات، وخيت، وهنمت (٤٩). التي يبدو أنها مرتبطة بثلاث مجموعات بشرية كبرى: مجموعة البات، وهم سكان الصعيد الذين يعبدون هوروس، ومجموعة الرخيت، وهم سكان الوادي الأسفل المغلوبين في نهاية عهد ما قبل الملوك الحديث ومجموعة الهنمت أو «شعب الشمس» وهم سكان المنطقة الشرقية الموجودة بين البحر الأحمر والنيل. ان تلك المنطقة التي كانت مسكونة في العصر الحجري الجديد وفي عهد ما قبل الملوك منطقة مهمة بالنسبة لاقتصاد الوادي. لأنها وفرت المعادن والنحاس والذهب. وقد يكون هذا النظام الاجتماعي العرقي العظيم هو الذي انقسم الى وحدات جغرافية وزراعية صغيرة. وسيكون دور الملكية سياسيا بحثا، اذ قامت في أول الأمر بجمع تلك المقاطعات ضمن كنفدراليتين كبيرتين، أحدهما في الشمال والأخرى في الجنوب، ثم وحدت في مرحلة ثانية بالقوة الكنفدراليتان ضمن مملكة واحدة، وبذلك وفرت استصلاحا أحسن لمجموع البلاد المصرية. وستكون تلك المهمة الثانية من أعمال الفراعنة الثينيتين الأولين وعندئذ ندخل في التاريخ.

## وادي النيل الأعلى (من ٥٠٠٠ الى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد)

ان مختلف الشقافات بالوادي الأسفل من النيل التي سبق ان رأيناها لا تتجاوز منطقة الكاب جنوبا. وتنسب منطقة أسوان والشلال الأول الى ميدان ثقافي آخر. ويبدو ان سكان وادي النيل الأعلى يقتربون عرقيا من سكان مجموعة الجنوب من الوادي الأسفل: وهم البديون والأمريسيون. ويمكن بدون شك ان نوسع تلك المقاربة الى أجناس مجاورة من الصحراء الشرقية كلما أمكن لنا الاعتماد على دراسات بشرية، وان كانت هذه الدراسات مازالت قليلة العدد (٥٠).

ان العصر الحجري الجديد وعهد ما قبل الملوك غير معروفين كما ينبغي في مصر كما رأينا، نظرا للعدد الضعيف من المواقع التي استكشفت استكشافا علميا. والحالة أسوء من ذلك بالوادي الأعلى إذ أن القسم الشمالي، بين الشلال الأول والشلال الثاني، يعتبر الوحيد الذي استكشف نسبيا، وإن كان ينبغي أن نلاحظ أن نتائج الحفريات الجبلية من سنة ١٩٦٠ الى ١٩٦٦ لم تنشر الا جزئيا (٥١).

(٤٩) ١. هـ. غردنر، ١٩٤٧، ص ٩٨ - ١١٢.

(٥٠) انظر في النهاية: وف. نيلسن، ١٩٧٠، ص ٢٢، للراجع ص ١٣٦ - ١٣٩.

(٥١) انظر: فيما يخص العهد التي تهتم المؤلفات التالية: ف. وتدورف، ١٩٦٨، وه. نردسترم، ١٩٧٢.

اما فيما يخص الشلال الثاني الى البحيرات الاستوائية الكبرى فإن العناصر النادرة المعروفة مستمدة من تقارير استكشاف بالسطح، لأنه لم يخفر الا عدد ضئيل من المواقع، ولذلك فإن معارفنا محدودة جدا زمنيا ومكانيا فيما يخص الوادي الأعلى والوادي المصري.

### العصر الحجري الجديد (± ٥٠٠٠ - ٣٨٠٠ قبل الميلاد)

لقد حفر لأول مرة موقع ثبت أنه من العصر الحجري الجديد وذلك بمنطقة الخرطوم. إن الثقافة التي كشف عنها، والمعروفة أحيانا باسم العصر الحجري الجديد الخرطومي، تسمى عادة ثقافة الشهاب (= الشهابي، الفصل ٢٥) نسبة الى اسم الموقع الذي عرف بها (٥٢).

إن الشهاب موقع سكني لم يعثر على أضرحتة، إلا أن الأدوات الوافرة المستعملة في الحياة اليومية والتي وفرها تدل على أن السودانيين من الشهاب القناصين وصيادي الأسماك خاصة، كانوا أيضا يربون الماشية. إن دراسة فخارهم، المزين باستعمال مدقة للطبع، تبين أنهم ربما كانوا ينحدرون من ثقافة عصر حجري جديد أكثر قدما قد عثر على آثارها بموقع بالخرطوم نفسها. إن ذلك الموقع، وهو الخرطوم المبكر (٥٣) (= الخرطومي، الفصل ٢٥). وقد وفر هو أيضا قبورا كانت قد دفن بها زنوج. فإن كان الشهاب منحدرا من الخرطوم المبكر، كما يبدو، وجب أن نقرأ هنا أيضا أمام سكان سود، يتألفون من قناصين وصيادي أسماك كانوا يصارعون أيضا الأسود، والجواميس، وأفراس البحر والظباء، والغزلان، والأر بكس، والأرانب البرية، وقد وجدت عظامهم بمواقدهم. وكان سلاحهم يتكون من فؤوس مصقولة وهراوات نصف كروية الشكل اعتبرت أحيانا سابقات للهرارات المخروطية الجذع الأمروسة. وكانوا يخدمون الخشب ويحسون النسيج، إلا أنهم يفضلون الجلد حسبا يبدو في لباسهم. وتسمى حضارتهم أحيانا «ثقافة المنقر» نظرا للعدد الكبير من تلك الأدوات المكتشفة بالموقع. وبالا اعتماد على فخارهم المتميز كان من الممكن إقامة البرهان على أن ثقافة الشهاب قد امتدت نحو الغرب (تنري والتبستي) ونحو الشرق على ضفاف النيل الأبيض والنيل الأزرق، جنوب الخرطوم. ولا يوجد ما يسمح بأن تضبط ما كان عليه تنظيمهم الاجتماعي.

وقد يكون من المفيد أن نعرف كيف كانت العلاقات بين العصر الحجري الجديد بالشهاب ونفس العصر بالوادي الأسفل، وبالفيوم خاصة. ولكننا لا نعرف مع الأسف موقعا واحدا بشمال الخرطوم، بين الشلالين السادس والثاني يسمح بأن نعقد مقارنات مفيدة. إن الأعمال الحديثة بالنوبة السفلى، جنوب الشلال الثاني، تفيد أن العصر الحجري الجديد بتلك المنطقة قريب جدا من نفس العصر بالشهاب، إلا أنه يختلف عنه بعض الشيء، الى حد جعل الأثرين الأتكلوسكسون الذين درسوه يصفونه «بالخرطوم المتنوع» (٥٤).

إن الانتقال من العصر الحجري الجديد الى عهد ما قبل الملوك، أي الى عصر النحاس بالوادي الأعلى مازال مجهولا جدا. وقد تدل الأضرحة الموجودة بملتقى النيل الأبيض والنيل الأزرق على وجود

(٥٢) — انظر: أ. ج. أركل ١٩٥٣.

(٥٣) — انظر: نفس المرجع ١٩٤٩.

(٥٤) ف. وندورف، ١٩٦٨ ص ٧٦٨-٧٩٠ وه. نردسترم، ١٩٧٢، ص ٩-١٠.

ثقافة متأثرة في ذلك المكان بعهد ما قبل الملوك النوبي، المعروف بالمجموعة أ (انظر أعلاه). إلا أن تلك الثقافة لا يمكن أن تؤرخ تاريخياً مضبوطاً.

وعلى العكس من هذا اكتشفت حديثاً صناعة، بالشلال الثاني تدعى الأبكي (أبكن) (٥٥) (= الأبكي، الفصل ٢٥)، نسبة إلى موقع «أبكة»، حيث هي ممثلة تمثيلاً جيداً. ولا نعرف عنها إلا صناعتها الحجرية وفخارها. ولم ينشر شيء عن المواقع التي عثر فيها عليها. ويبدو مما نعرف أن تلك الثقافة تنتسب إلى سكان يتعاطون صيد الحيوانات والأسماك، مثلها مثل ثقافة الشهبان. إلا أن صيد الحيوانات بها أقل انتاجاً، ولعل ذلك يعود إلى حلول مرحلة التجفيف التي جاءت بعد «المرحلة الرطبة». ويبدو أن رجال أبكة يستعملون في صيد الأسماك، فخاخاً كبيرة قارة، وضعت بمهارة في قنوات الشلال عندما تنخفض فيها المياه، فكانت الأسماك تظل أسيرة بها عندما يغيض الماء. إن جني الثمار والنباتات الوحشية يكل تلك الموارد. وصنع الفخاخ المتركبة من جدران حجرية مساحتها واسعة، يستلزم وجود نظام اجتماعي معين. ولا توجد علاقة نسب بين هذه الثقافة وثقافة الشهبان التي اتخذت في نفس المكان شكل «الخرطوم المتنوع» وتميزت عنها كثيراً، رغم أنها معاصرة لها. وعلى هذا، فهي شكل خاص من العصر الحجري الجديد الذي لا يدين بشيء. لا للجنوب ولا للشمال. على أنه يبدو أن عهد ما قبل الملوك النوبي قد نشأ عن العصر الحجري الجديد الأبكي.

### عهد ما قبل الملوك (٣٨٠٠ - ٢٨٠٠ قبل الميلاد)

عندما قررت الحكومة المصرية سنة ١٩٠٧ أن يرفع إلى سبعة أمتار علوسد أسوان الأول، وهو قرار يترتب عليه فيضان المياه على التوبة السفلى، من الشلال إلى كرسكو، جرى استكشاف أثري شامل بالمنطقة التي ستفيض عليها المياه. إن الأثرين الذين لاحظوا اختلافات الثقافات بين مصر المعروفة لديهم معرفة حسنة، والتوبة، وضعوا نظاماً مؤقتاً للتصنيف يعتمد على الحروف للدلالة على الثقافات التي كان يحتمل أن يعثروا عليها، وميزوا اعتماداً على تاريخ نسبي بين المجموعة (أ) والمجموعة (ب) والمجموعة (ج) الخ (٥٦). ومن ذلك الحين بذلت محاولات لوضع نظام يقلد نظام الوادي الأسفل، بحيث يكون النوبي القديم والنوبي الوسيط يوافق الأمبراطوري القديم والأمبراطور الوسيط (٥٧) ولقد عدل عن ذلك نظراً إلى الصعوبات القائمة في وجه توسيع نطاق ذلك النظام، من التوبة إلى الشمال من الشلال الثاني، وإلى شلال الجنوب. ومنظّل اذن نستعمل اسم المجموعة (أ) التي تشمل عهد ما قبل الملوك.

تتمتد المجموعة (أ) (٥٨) زمنياً من نهاية العصر الحجري الجديد، أي حوالي ٣٨٠٠ سنة إلى نهاية الأمبراطورية المصرية القديمة، إلى حوالي ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ويمكن أن نغزبها ثلاث مراحل:

(٥٥) وصفت تلك الصناعة ب. ف. وندورف، ١٩٦٨ ص ٦١١-٦٢٩ وانظر أيضاً هـ. نردسترم، ١٩٧٢ ص ١٢-١٦.

(٥٦) ج. ا. رايسن، ١٩١٠ ص ٣١٣-٣٢٢.

(٥٧) ب. ج. تريفر، ١٩٦٥ ص ٦٧ وما بعدها، وشكل ١ ص ٤٦.

(٥٨) لم تنشر إلى الآن كل التقارير عن الحفريات التي جرت بالتوبة إثر نداء اليونسكو سواء بمصر أو بالسودان. انظر فيما يتعلق

بالمجموعة (أ) ما ألف، وهو مؤلف هـ. أ. نردسترم ١٩٧٢ ص ٣٢، ١٧.

المجموعة (أ) القديمة، من ٣٨٠٠ الى ٣٢٠٠ سنة تقريبا، والمجموعة (أ) الكلاسيكية، من ٣٢٠٠ الى ٢٨٠٠ سنة تقريبا، والمجموعة (أ) المتأخرة (المجموع ب القديمة)، من ٢٨٠٠ الى ٢٢٠٠ سنة تقريبا. ولن نهم هنا الا بالمرحلتين الأوليين.

تعتبر المجموعة (أ) غير معروفة كثيرا (٥٩) فلقد لوحظ إثر الحفريات الحديثة بالنوبة السودانية بين ١٩٦٠ و ١٩٦٦ أن الحضارة «النحاسية» للمجموعة (أ) تلي مباشرة حضارة الأبكي من العصر الحجري الجديد. فيجب انتظار نشر التقارير الكاملة للحفريات حتى تتكون لنا فكرة أكثر دقة عما تشمله تلك المجموعة. ويبدو أن موقع خوربهان، بالنوبة السفلى، جنوب شلال، ينتسب الى تلك المرحلة القديمة وأنه معاصر للجرزي، وبالتالي لعهد الملوك الوسيط المصري. لقد كانت الزراعة وتربية الماشية، المفقودتان في العهد الأبكي، تمارسان بالنوبة السفلى، إذ أن مجموعات الفلاحين الذين كانوا يستعملون تقنية خاصة بالوادي الأعلى، كانوا يقيمون أثناء انخفاض المياه، سدودا من الحجارة عموديا بالنسبة لمجرى النهر، وهي سدود كانت تبطل ع حركة التيار، وتيسر وفقا لذلك ترسب الطمي بالحقول على شواطئ النيل، كما توسع في مساحة الحقول. يضاف الى ذلك ان العثور على عظام بقر وماعز بالقبور — وأصلها بدون شك من تضحيات مأتمية — يدعو الى الاعتقاد بأن تلك المجموعات البشرية كانت من أشباه الرُّحل. فنظرا الى كون الحقول لم تكن كافية لتغذية عدد كبير من الحيوانات يمكن ان نتصور أن القطعان كانت ترحل في جزء من السنة الى الهضاب المجاورة التي كانت سهبا مثلها يدل على ذلك وجود الظباء والأسود.

ان اكتشاف أدوات نحاسية بمواقع المجموعة (أ) القديمة يثير قضية انتشار ذلك المعدن بالوادي الأعلى. ان أفرقة المجموعة (أ) مثلهم مثل أهالي البديري، كانوا يستعملون الدهنج (Malachite) خضابا للعيون وكانوا يهرسونه على لوحات من المرو وكانوا يعرفون صنع العجين للطلاء الخزفي (الخزف المصري). وبما أنه توجد مناجم معدن النحاس بالنوبة، وكانت تستغل منذ عهد قديم جدا، فانه من المحتمل جدا ان تكون الأشياء النحاسية الموجودة بمواقع المجموعة (أ) القديم (لا سيما الابري) من صنع محلي بحث (٦٠).

ويبدو ان المستوردات من الشمال تقتصر على أوان حجرية من الألباتر، والشيست، والرخام الصنعي، وعلى مواد خام، وعلى الصوان الذي لا يوجد أساسا في الحث (Gres) النوبي، في حين أنه متوفر بكثرة بمصر. ويتكون الفخار من النوع الأحمر ذي الحاشية السوداء. والنوع المصنوع محليا يعتمد على تقنية ممتازة. ان أهالي المجموعة (أ) كانوا في صنع الأدوات والأسلحة يستعملون الحجر والعظم أكثر من المعدن. ان السكاكين والمراوات التي لها أشكال شبيهة بالأمرسبي، مصنوعة من الصوان أو من الديوريت أو البزلت، وكانت الابري والمشابك والمناقب تتكون غالبا من العظم أو العاج. ولقد ظهر الذهب في الحلي، وكان لوحات الخضاب الشيستية مستوحاة بدون شك من اللوحات المصرية. لكننا نجد لوحات من المرو الأبيض التي تعتبر من خصائص ثقافة المجموعة (أ) (٦١).

(٥٩) هـ. نورد ستروم، ١٩٧٢ ص ١٧ — ٢٨ وما بعدها.

(٦٠) نلاحظ أن معدن النحاس بالامبراطورية القديمة كان يعالج بعين المكان في بوهم على الخصوص. انظر: و. ب. أمري،

١٩٦٥، ص ١١١، ١١٤.

(٦١) ف. هنري، ١٩٦٧ ص ٤٤.



وبلي المجموعة (أ) القديمة التي لا نعرف عنها الكثير، المجموعة (أ) الكلاسيكية، وهي — اذا نظرنا الى الأضرحة والمقابر التي تركتها — قد شهدت ما يمكن أن نسميه انفجارا سكانيًا. (٦٢) ان المجموعة (أ) الكلاسيكية القريبة جدا ماديا من سابقتها، تتميز عنها بأهمية عدد كبير من الأشياء المجلوبة من الوادي الأسفل. ولقد اعتبرت تلك الظاهرة دليلا على نشاط التجارة بين الوادي الأسفل والوادي الأعلى من النيل، وكان الفخار يتميز بقيمة وجودة رفيعة، الا أنه كان يشمل عددا كبيرا من الأواني المستوردة من النوع الجرزي ذي اللون الفاتح، وهي أوان للاستعمال يحتمل أنها كانت تحتوي على مواد معرضة للزوال، (لاسيا الزيت)، وكانت تستورد بالمقايضة مع العاج أو الآبنوس المجلوبين من الجنوب.

ظلت ثقافة المجموعة (أ) الكلاسيكية تزدهر حتى حدود ٢٨٠٠ سنة تقريبا، ثم فجأة كادت تنقرض تماما، وتركت مكانها لثقافة ضحلة جدا من المجموعة (أ) المتأخرة (مجموعة ب القديمة) (٦٣) ولقد اعتبر ذلك الانقراض نتيجة هجومات مصرية قادها فراعة من الأسرة المالكة الثينيتية. وتوجد نقوش مصرية من ذلك العهد، اكتشفت قريبا من شمال الشلال الثاني، وهي تجعل هذا التأويل محتملا. لكن ذلك يخرجنا على كل حال من عهد ما قبل التاريخ.

وإذا أردنا أن نلخص، فيما يتعلق بوادي النيل، تلك الحقبة المجهولة، ولكنها على غاية من الأهمية، والتي تمتد من العصر الحجري الجديد الى نهاية عهد ما قبل الملوك، يمكن أن نقول إنها تميزت في الوادي الأسفل بالانتقال من نظام اجتماعي قائم على الأسر أو المجموعات الضيقة من الصيادين للحيوانات والأسماك، والمتعاطين قليلا لتربية الحيوان، وشيء من الزراعة على ضفاف النهر، وبحوار الفيوم، الى نظام معقد خاص بالأهالي المستقرين المنظمين حسب قرى أو مجموعات من القرى، والممارسين للري والزراعة المتخصصة. وكان تلك القرى موحدة في حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد تحت سلطة رئيس واحد، وهو فرعون الذي كان يحكم الوادي الأسفل، من الشلال الأول الى الأبيض المتوسط.

نلاحظ في الوادي الأعلى، انتقال مجموعات بشرية من صيادي الأسماك والحيوانات والمتعاطين قليلا لتربية الحيوان، الى نظام يجمع مربى الماشية والفلاحين، فهؤلاء وان كانوا من أشباه الرحّل، الا أن لهم روابط جغرافية على طول النهر حيث كانوا يصنعون سدودا لتوسع ثقافتهم. وكان بناء تلك السدود يستدعي تنظما جماعيا هاما، الا أنه كان أقل أهمية مما هو عليه بالوادي الأسفل. ونشهد طيلة ذلك العهد وابتداء من ٣٣٠٠، النحاس ينتشر بوادي النيل كله. وبالرغم من أن أصل عدانة النحاس مازال غير معروف ومازال محل نقاش، فلا يستبعد أن تكون هذه العدانة قد نشأت أو استحدثت من جديد بوادي النيل.

(٦٢) ب. ج. تريغر، ١٩٦٥: ص ٧٤ — ٧٥.

(٦٣) ا. هـ. س. سميث، ١٩٦٦: ص ١١٨ — ١٢٤.

## العهد التاريخي، من ٣٠٠٠ سنة الى القرن الخامس ق. م.

لما ظهرت النصوص المصرية الأولى، في حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، كانت النظم الاجتماعية قد استقرت على ما يبدو في مجموع وادي النيل ولم تتطور أبدا فيما بعد. ففي الجنوب يوجد نظام ملكي قائم على الحق الإلهي، وبحكم مجموعة من الأشخاص المتساوين في الحقوق — على الأقل نظريا — أمام الملك. وفي الجنوب، يبدو النظام أقل تصلبا، فهو باعتبار الترحال أو شبه الترحال، نظام قائم في معظم الأحيان على الأسرة، وظل قائما طيلة العهد الذي يمتد من ٣٠٠٠ سنة الى القرن الخامس قبل الميلاد. ان وادي النيل لم يخضع لنظام اجتماعي يشابه تقريبا نظام الوادي المصري الا في نهاية ذلك العهد، بين الشلال الأول وملتي النيلين الأبيض والأزرق. ونظرا الى الصفة القارة التي تخصص بها النظم الاجتماعية طيلة ذلك العهد، سنعرض بسرعة لتطورها. وسنؤكد كثيرا على الحداثين الثقافيين اللذين أثرا في ذلك العهد: وهما اختراع البرنز وانتشاره من جهة، ثم اختراع وانتشار الحديد، بعد ذلك بكثير.

### تطور النظم الاجتماعية

نظرا الى افتقارنا للوثائق القانونية الكافية، فلا نعرف التنظيم الاجتماعي بالوادي الأسفل الا معرفة ناقصة. واذا اعتمدنا على المؤلفين الكلاسيكيين من أمثال هيرودوت، وسترابون، فالجتماع المصري يبدو مقسما الى طبقات متصلة. وذلك خطأ يقينا باستثناء الجنود، في النهاية القصوى من التاريخ الفرعوني. فلم توجد بتاتا «طبقة الكهان» مثلا زعم سترابون، وليس من المحقق أن تكون وجدت طبقة العبيد، بالمفهوم الذي نقصده اليوم بهذه الكلمة (٦٤). والحقيقة ان النظام الاجتماعي المصري، كان يتميز في العهد التاريخي بمرونة كبرى. فهو يعتمد أكثر على استثمار الأرض، واستصلاح البلاد، لا على قانون متصلب. ولما كانت مصر لم تعرف قط النقود، كان الشخص مهما كانت رتبته في المجتمع مر بوطا وجوبا بهيئة توفر له غذاءه ولباسه ومسكنه.

وتعتبر المزرعة العائلية أبسط تلك الهيئات. ولئن كانت الأرض مبدئيا ملكا لفرعون مصر، فان حق فلحها يُعطى أحيانا لأحد الخواص الذي يستطيع أن يورثها لأبنائه (٦٥). ولقد وجدت في كل العصور مزارع عائلية من هذا النوع، كثيرا ما كانت ضيقة، و يوزع رب العائلة بنفسه محصولاتها كما يشاء، وتكون الأسرة بمعناها الواسع مرتبطة به تمام الارتباط. ان الواجب الوحيد الذي يقوم به رب العائلة هو القيام بما عليه من واجبات نحو الدولة مثل الضرائب والخدمات المجانية، ومظاهر الولاء. وتوجد الى جانب المزارع العائلية، مزارع أخرى أهم منها، هي المزارع الدينية والملكية، وكانت المزارع الدينية. وخاصة ابتداء من الأسرة المالكة الثامنة عشرة (بعد ١٥٨٠ قبل الميلاد) غنية جدا. ومن ذلك أن مزارع الإله آمون كانت تضم ٨١٣٢٢ رجلا، و٤٢١٣٦٢ رأس بقر، و٤٣ بستانا، و٢٣٩٣ كلم<sup>٢</sup> من الحقول، و٨٣ مركبا، و٥٦ قرية (٦٦). وكانت تلك الممتلكات

(٦٤) انظر: الملاحظات القيمة لـ ج. بوسر الموجودة في ج. بوسن، ص. سومرن، وج. بيوت، ١٩٥٩ بخصوص موضوع الرق، ص

١٠٧.

(٦٥) ج. بيران، ١٩٣٢ ص ٢٠٦ — ٢١١، وج. بوسن، ١٩٥٩ ص ٧٦ — ١٠٧.

(٦٦) ج. هـ. بريستد، ١٩٠٦، ص ٩٧.



- (١) قبر «ريش مي - رع» في طيبة، متحف المتروبوليتان للفن، البعثة المصرية، المجلد العاشر.
- (٢) قبر حوى: الجدار الشرقي (الواجهة الجنوبية).
- (٣) شفرة حلاقة (مرقيسة، السودان). تصوير البعثة الأثرية الفرنسية في السودان.



موجودة بصعيد مصر، وبمصر السفلى وبسوريا وفلسطين والنوبة. وكانت الممتلكات الملكية متكونة على نفس النسق وموزعة في البلاد، وتقع حول القصر أو الهيكل المأتمني للملك. ويرتبط كل شخص وجوبا بإحدى هذه الممتلكات التي توفر له حاجاته بطريقة تقوم على نظام المراتب. وتختلف الأجور العينية كثيرا حسب الوظيفة. ومن ذلك أن «المستكتب» يتقاضى «أقساطا» تفوق أقساط المزارع أو الصانع، وذلك ما مكن محظوظي هذا النظام من ان يكتسبوا بدورهم الخدم والممتلكات العائلية، لا عن طريق بيع وظيفتهم، بل عن طريق بيع جزء من العائدات المرتبطة بتلك الوظيفة.

ان الشخص الذي يريد أن يتخلص من الضغط الذي يفرضه عليه النظام الاجتماعي المصري ليس له الا ان يهرب. ويهرب «الفارون» نحو الغرب، الى حاشية الصحراء، حيث يعيشون من الغزو السطو على مزارعات الوادي، أو أنهم يقصدون الخارج، لا سيما سوريا وفلسطين (٦٧).

ان استقرار النظام الاجتماعي مرتبط الى حد بعيد بنفوذ السلطة المركزية وحزمها، سواء كانت متمثلة في الملك أو الادارة. أما اذا كانا ضعيفين، فتطرا فوضى كبيرة في سير النظام، وأحيانا شوبليت، وذلك ما وقع خاصة بين ٢٢٠٠ و ٢١٠٠ سنة تقريبا عندما اهتز عرش فرعون واغتصبت أملاك المحظوظين (٦٨). ولقد وقعت أيضا اضطرابات عميقة، منها إضراب صناع الممتلك الملكية بدير المدينة سنة ١١٦٥ لأنهم لم يتقاضوا أقساطهم الشهرية ولا لباسهم.

ان وضع الشخص الاجتماعي لا يستقر نهائيا، اذ يمكن في أي وقت أن يتغير، سواء بارادة الملك أو على إثر أخطاء ترتكب عند ممارسة الوظيفة. ولقد ذكرت النصوص المصرية في مناسبات متعددة كيف كان الموظف يعزل ثم يرسل لخدمة الأرض (٦٩).

ابتداء من ١٥٨٠ أخذ العسكريون يحتلون منزلة خاصة في النظام الاجتماعي المصري. وقد أنشأ الفرعانة جيشا محترفا بأتم معنى الكلمة (٧٠) وذلك لطرد الهيكسوس من مصر ولتحقيق سياسة غزواتهم العدوانية نحو النوبة ونحو آسيا الصغرى. وكان العسكريون يُكافؤون بهبات من قطع أرضية، ومن ضيعات زراعية، يمكن لهم أن يورثوها ورثتهم شريطة أن يثابروا هؤلاء على إحتراف العسكريين. ولقد تطور ذلك النظام على مر القرون ونشأ عنه في نهاية تاريخ مصر، تكوين «طبقة» عسكرية.

ان التنظيم الاجتماعي لا يزال غير معروف بالوادي الأعلى من النيل. لقد رأينا في نهاية عهد ما قبل الملوك بأن نظاما اجتماعيا قد استقر على الأقل بالنوبة السفلى، وكان يتألف من أهال مستقرين ورحل أو أشباه رحل، ولكننا لا نعلم اذا كانوا يعيشون عيشة مشتركة أو أنهم متجاورون فقط. ان الوثائق القليلة التي تشير الى التنظيم السياسي الخاص بسكان جنوب الشلال الأول، تفيدنا بتوابع جماعات كثافتها ضعيفة، على طول الوادي، وخضوعها لرؤساء محليين لهم سلطة وراثية (٧١).

(٦٧) إن أحسن مثال على ذلك هو مثال سينهي الذي فر الى فلسطين خشية أن يهتم بالمشاهدة في مؤامرة بلاطية. وكان عليه أن يطلب من فرعون مصر العفو حتى يتمكن من العودة الى مصر. انظر: ج. لفاور ١٩٤٩ حكاية سينهي ص ١ - ٢٥. ونجد بصفحة ٤٤ مراجع الترجمات المختلفة - تصنيف الى ذلك. و. ك: سمن طبعة ١٩٧٢، ص ٥٧ - ٧٤.

(٦٨) ج. فندلي، ١٩٦٢ ص ٢١٣ - ٢٢٠ و ٢٣٥ - ٢٣٧.

(٦٩) وخاصة في مرسوم توري حيث يعتبر ذلك عقوبة معتادة. انظر: ف. غريفيث، ١٩٢٧ ص ٢٠٠ - ٢٠٨.

(٧٠) ر. أ. فولكن، ١٩٥٣ ص ٤١ - ٤٧.

(٧١) ج. بوسن، ١٩٤٠ ص ٣٥ - ٣٨ و ٤٨ - ٦٢.



● قبر حوى (تصوير جمعية التنقيب المصرية).

ان علم الآثار لا يأتينا بمزيد من المعلومات. فلقد ظلت تربية الماشية العامل الاقتصادي الهام بالوادي الأعلى، ولعلها كانت تيسر المحافظة على البنيات العائلية. والملاحظ أن التدخل المصري كان، ابتداء من -١٥٨٠، قد حوّر بدون شك النظام القائم، بل قضى عليه. فلقد أقفرت مقاطعات جنوب أسوان بسرعة (٧٢) عندما احتلتها مصر. وقد أخذت مصر، بمقتضى سياستها الأسبوية تستغل الى أبعد الحدود الوادي الأعلى الذي كان سكانه يضمحلون، فيفرون على الأرجح نحو الجنوب أو الغرب، الى مناطق يجعلها حالياً علم الآثار.

ولم تتكون مملكة حقيقية منظمة، مستوحاة من النموذج المصري الا حوالي ٧٥٠ قبل الميلاد، وذلك نتيجة لعمل ملوك سودانيين، أصلهم من منطقة دنغولا، فكانت على ما يبدو تمتد من متلق النيلين بالجنوب، الى الشلال الثاني في بداية الأمر، ثم الى الأبيض المتوسط، مُستوعبة النوبة السفلى من ٧٥٠ الى ٦٥٠ قبل الميلاد (٧٣). ولقد كان النظام القائم على سلطة الأم يلعب في تلك المملكة — أو على الأقل بالنسبة للأسرة الحاكمة — كان يلعب دوراً مهماً، الا أن الوثائق قليلة وليس فيها ما يثير سبيلنا في شأن النظام الاجتماعي الذي تسير عليه الجماعات المؤلفة له.

### انتشار المعادن

كانت المعادن النفيسة، كالذهب والفضة وكذلك النحاس، معروفة في أوائل العهد التاريخي، وكانت منتشرة جداً في جميع أنحاء وادي النيل. وكانت عدانة تلك المعادن تتطور بعد الألفية الثالثة. وظهر في الألفية الثانية البرونز، وهو مزيج من النحاس والقصدير، ثم ظهر الحديد هنا وهناك ابتداء من -١٥٨٠.

وتوجد بين الشلالين الأول والثالث أغلب مناجم الذهب التي كان يستغلها المصريون والنوبيون (٧٤). ان التنقيب عن مناجم المعادن النفيسة مكن المصريين من الإمبراطورية الوسطى من بلوغ الشلال الثاني ثم تجاوزوه. ولقد لعب الذهب في الإمبراطورية الجديدة دوراً أساسياً في السياسة الأسبوية المصرية للحصول على الأحلاف محلياً. وكان الذهب المستخرج من مناجم مصر والنوبة يحوي دائماً نسبة كبيرة من الفضة (٧٥) وكان يميز بين الذهب الأبيض أو الكهربائي (الحاجبي بالمصرية) الذي يحوي ٢٠٪ من الفضة، والذهب الأصفر (نوب بالمصرية). والجدير بالملاحظة أن كلمة (نوب) هذه ليس من المؤكد أن تكون أصلاً لكلمة النوبة. وكان الذهب بمصر يستعمل لأغراض كثيرة، من ذلك الأثاث المائمي، والحلي، وحتى الهندسة المعمارية، حيث كان يُغطي أطراف المسلات، والأبواب الكبيرة وبعض قاعات المعابد.

وكان الذهب يستعمل بكثرة في الوادي الأعلى من النيل، وإن كان نهب المقابر لم يترك لنا الا نسبة ضئيلة من الأشياء الذهبية، مثل: الحروز، واللاكي وحلي التزيين، والمساور، والخواتم والأقراط. الأذنية: وكان الأثاث الخشبي يغطي أحياناً بصفحات ذهبية وذلك في القرن الثامن عشر قبل

(٧٢) و. ي. أدس، ١٩٦٤ ص ١٠٤ - ١٠٩.

(٧٣) هـ. ف. زاسل، ١٩٥٥، ص ١٢ - ١٦.

(٧٤) ج. فركوتر، ١٩٥٩، ص ١٢٨ - ١٣٣، والخريطة ص ١٢٩.

(٧٥) انظر: أ. لوكا، ١٩٦٢ ص ٢٢٤ - ٢٣٤.



● تمثال من النحاس للملك بيبي الأول (الدولة القديمة) — متحف القاهرة.

الميلاد. وكان الأثاث المائتي في القرن الثامن يتميز هو أيضا بشاء ذهبي أوفضي كبير، مثلها هو الشأن في نوري، عند مهبط الشلال الرابع، حيث عُثر على أشياء عديدة رغم النهب القديم (٧٦). لا يمكن التمييز بين النحاس والبرونز (٧٧) الا باعتماد على التحليل المخبري. ولم يظهر البرونز بوادي النيل الا ابتداء من سنة ٢٠٠٠ تقريبا، بل لا بد من انتظار سنة ١٥٠٠ لكي ينتشر انتشارا أوسع، دون أن يحل محل النحاس. إن البرونز - وهو مزيج من النحاس والقصدير - يتميز على النحاس بأنه أكثر صلابة منه، اذا كانت نسبة القصدير غير قوية، وبأنه يصهر في درجة هي أدنى، وأنه أسهل منه في السبك.

ورغم وجود بعض المناجم من القصدير بمصر، فإن البرونز لم يكتشف بوادي النيل. ويحتمل أن يكون مجلوبا من سوريا (٧٨) حيث كان معروفا منذ بداية الألفية الثانية. إن نسبة القصدير تتراوح بين ٢ و ١٦ في المائة في الممزوجات المصرية. والبرونز يكون أصلب من النحاس حتى نسبة ٤ في المائة من القصدير، واذا تجاوز ذلك فهو يتكسر ويفقد كثيرا من مميزاته. لذلك لم يعوض أبدا النحاس الذي يتصلب كثيرا بمجرد الطرق.

لم تتوفر لنا تحليلات تخص أشياء نحاسية أو برونزية وجدت بالوادي الأعلى، لا سيما في كرمه التي كان من الممكن أن تفيدنا إذا كان البرونز قد استعمل بالوادي الأعلى، باعتبار أن تاريخها يرجع الى الألفية الثانية. وعلى كل حال فالأشياء النحاسية أو البرونزية كثيرة بها، وهي أكثر مما هو موجود بمصر نفسها. لقد وجد بكرمة ١٣٠ خنجر نحاسي بالنسبة لما بين ١٨٠٠ الى ١٧٠٠ تقريبا أي أكثر مما وفرته مصر كلها، لقد كان النحاس في ذلك العهد يستعمل لصنع أدوات الزينة، وعلى الأخص المرايا، وكذلك الأسلحة والآلات، والأواني، والمجوهرات، والمنقوشات الأثائية. وكان النحاس يصنع بالطرق، وقل أن يصنع بالقولبة.

إن الأشياء التي عُثر عليها بكرمة (٧٩) تبين من حيث الكم والكيف أن الوادي الأعلى لعب دورا هاما في نشر عدائته النحاس بافريقيا، منذ الألفية الثانية قبل الميلاد. إن وجود مناجم نحاسية «بالمركب الأساسي» الجيولوجي النيلي قد ساهم كثيرا في ذلك الانتشار الواسع.

لقد ظل وادي النيل طويلا لا يعرف سوى الحديد النيزكي (٨٠)، ولم ينتشر الحديد الا في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد بالوادي الأسفل. ولم يمض الا قرن حتى أخذ يستعمل مثلما يستعمل البرونز والنحاس. وكان في ذلك العهد يذاب ويُخَدَم بمصر بالمراكز الخاضعة للتأثير اليوناني.

(٧٦) دوس دنهام، ١٩٥٥، في صفحات متعددة.

(٧٧) لوكا، ص ١٩٩ - ٢١٧ و ٢٢٣.

(٧٨) نفس المرجع ص ٢١٧ - ٢١٨ و ٢٥٥ - ٢٥٧.

(٧٩) انظر: ج. أ. رايسنر ١٩٢٣، الفصل ٢٦، ص ١٧٦ - ٢٠٥.

(٨٠) ب. ل شيفي، ١٩٧١، ص ٩٢ - ٩٤.



يحتل وادي النيل منزلة كبرى في انتشار الحديد بأفريقيا (٨١). ومن المحتمل أن تكون صناعته بالوادي الأعلى من النيل أقدم من صناعته بالوادي الأسفل، وذلك ما يفسر استعماله بكثرة في الأسرة المالكة الخامسة والعشرين التي أهلها من دنغولا (في حوالي ٨٠٠ سنة قبل الميلاد). وبالرغم من توفر معدن الحديد بالوادي الأعلى، والفحم الحشبي الضروري لعدانة الحديد، فإن الحديد لم ينتشر انتشارا واسعا إلا ابتداء من القرن الأول قبل الميلاد، على اثر ازدهار الحضارة المرويتية، بين الشلالين الثالث والسادس (٨٢). ان الثقافة النيلية في نبتا قد لعبت بين القرنين السابع والرابع قبل الميلاد، دورا هاما في انتشار الحديد بأفريقيا، عندما مهلت السبيل لحضارة ميروي. (Méroé)

(٨١) انظر: أ. لوكا، ١٩٦٢ ص ٢٣٥ - ٢٤٣.

(٨٢) ان دور ميروي في نشر الحديد بأفريقيا ليس أمرا مسلما به، كما كان يعتقد. انظر: ب. ل. شيني ١٩٧١، ص ٩٤ - ٩٥ الذي استشهد أيضا ب. ك. ترغر، مرو ١٩٦٩، ص ٢٣ - ٥٠. يضاف الى ذلك أن ميروي لم تكن الامكانية الوحيدة لانتشار الحديد؛ إذ من المحتمل ان يكون قد انتشر انطلاقا من افريقيا الشمالية، عبر مسالك الصحراء. انظر: ب. ل. شيني ١٩٦٧، ص ١٦٨، مع الإحالة الى س. هوارد، ١٩٦٠ ص ١٣٤ - ١٧٨ وكذلك نفس المرجع، ١٩٦٤ ص ٥٠ - ٤٩.

## من الطبيعة الخام الى انسانية متحررة

بقلم: ج. كي. زيربو

تبين الفصول السابقة بكل وضوح الدور الأساسي الذي لعبته افريقيا في فجر الأزمنة الإنسانية. ان آسيا وافريقيا اللتين توجدان خارج نطاق العالم المتطور تقنياً كانتا تحتلان مكان الصدارة على مسرح التقدم طيلة الـ ١٥٠٠٠ قرناً الأول من تاريخ العالم انطلاقاً من القرد الجنوبي الى القرد الانسان. ولقد كانت افريقيا، اعتماداً على معارفنا الحالية، المسرح الأساسي الذي برز فيه الانسان كنوع له الملك في هذه المعمورة، كما كانت منبع المجتمع السياسي. الا أن هذا الدور الممتاز في فترة ما قبل التاريخ حل محله طيلة الحقبة التاريخية من الألفيتين الأخيرتين، «قانون» التطور الذي تميز بالاستغلال والتدهور في دور الادوات.

### افريقيا موطن الانسان؟

بالرغم من أننا لم نصل الى يقين مطلق في هذا الشأن لأن التاريخ الانساني الخفي منذ أصول البشرية، ونعني به التاريخ الخبأ في الاعماق، لم يستخرج تماماً، ولأن الحفريات مازالت في بدايتها في افريقيا، ولأن حوضه الأرضي تأتي على بقايا الأحفورات، بالرغم من ذلك، ترتب المكتشفات الجارية الى الآن تلك القارة في مرتبة أحد المواطن الكبرى ان لم تكن الموطن الاساسي لظاهرة البشرية. ان الامر صحيح في مستوى قرد كينيا (قرد فكري بكينيا — ١٢ مليون سنة) الذي يعتبره بعضهم بداية السلالة الانسانية. ولم يكن قرد راما بأفريقيا الا فرعاً منه، قصد الهند انطلاقاً من افريقيا. ويستدل على ذلك خاصة بمثال قرد الجنوب أو الانسان القرد (الانسان القرد الافريقي، أو بروميتوس)، الذي يعتبر بدون منازع البشري الاول، وهو من ذوي الرجلين، استكشف سباسب

إفريقيا الشرقية والوسطى. وقد أوحى القوالب التحفية تطورا طرا على الفصين بالحاجبين ومجدران المخ، مما يشهد بالمستوى العالي الذي بلغته ملكاته الفكرية. وبلي ذلك الزنزنثروبون، والنوع الذي أطلقت عليه تسمية ممتازة وهو «الإنسان الماهر»، وفي ذلك خطوة كبرى إلى الأمام في الصعود إلى منزلة الإنسان.

وبلي ذلك الأرخنثروبون، أي (القردة الناس وناس الأطلس) الباليونثروبون أو النياتراليون، وفي النهاية نوع الإنسان العارف (إنسان المنتيتا، بكينيا، وكديش بأثيوبيا) وقد لاحظ مؤلفون كثيرون، منذ العهد الأورغنسي البعيد، أن سماته كانت زنجية، فبقطع النظر عن انتماء العلماء إلى النظرية العديدة المراكز أو المفردة المركز، فإنهم يعترفون جميعا بوجود كل حلقات السلسلة بإفريقيا، والتي تربطنا بأقدم البشريات أو ما قبل الإنسانين، بما في ذلك الأنواع التي ظلت في مستوى بداية تكون الإنسان، ولم تستطع أن تترقى رقا تاريخيا يسمح لها ببلوغ الاستقامة ومنزلة آدم، في إفريقيا فقط مازلنا نجد «الأسلاف» بل بني العمومة المحتملين للإنسان. إن قردة إفريقيا الكبرى لا سيما الغوريلا والشمينزي هما أقرب إلى الإنسان أكثر مما يقرب كل واحد منهم الثلاثة من أورانغ أوتنغ بأندونيسيا (١). لأن آسيا باعتبار خطوط العرض السفلى، وإفريقيا خاصة باعتبار غوصها المشهود في نصف الكرة الأرضية الجنوبي، قد تخلصنا من الأحوال المناخية الصعبة الموجودة بالمناطق الشمالية. ولذلك لم يوجد أثر واحد لأدوات حجرية طيلة المائتي ألف سنة من الكفري لأن أوروبا كانت مغطاة بقبعة جودية، وكانت إفريقيا في ذلك الوقت تشتمل على ثلاثة أنواع متعاقبة من الحجارة المنحوتة حسب تقنيات متطورة. والحقيقة أن خطوط العرض الاستوائية كانت تتميز في ذلك الوقت بمناخ «معتدل» صالح للحياة الحيوانية ولاكتماها. فإن أردنا العثور على أسباب ظهور الإنسان، لا يسعنا حينئذ إلا أن نعتمد الوسط الجغرافي والمناخي. ويمكن بعد ذلك الاعتماد على التكنولوجيا ثم على الوسط الاجتماعي.

## التكيف مع الوسط

إن التكيف مع الوسط من أقوى العوامل التي كونت الإنسان منذ أصوله الأولى. لقد تكونت السمات المرفولوجية البدنية لسكان إفريقيا إلى اليوم في ذلك العهد الحيوي من ما قبل التاريخ. لقد كان للأحوال المناخية المدارية أثر على مرونة الجلد. ولونه الأسمر النحاسي أو الأسود، وغناه من حيث الغدد العرقية، والمناخر والشفاه المفتحة التي يختص بها عدد كبير من الأفارقة، والشعر المتجمع، والمعقود أو الأحرش. إن اللون القاتم، والشعر الأجعد يحفظان مثلا من الحرارة، يضاف إلى ذلك أن الاستقامة التي كانت حاسمة في عملية التكوين البشري (Hominisation) والتي استوجبت أو استدعت إعادة تنظيم عظام الحزام، كانت مربوطة حسب بعض مؤرخي ما قبل التاريخ بتكيف فرضه الوسط الجغرافي للسبابس ذات الأعشاب العالية بالانجذاب الأفريقية الشرقية: فكان الأمر يستوجب دائما الاستقامة لينظر من أعلاها لمراقبة الفريسة أو للهروب من الحيوانات المعادية.

ولقد فضل علماء آخرون (من أمثال الست هولز) الوسط المائي لا لكونه سبب وجود الحياة فحسب بل لأنه كان سببا لظهور البشر أيضا. وعلى هذا الأساس ترى السيدة الين مرغن أن هذه العملية قد حدثت بافر يقيا على شواطئ البحيرات الكبرى أو على شواطئ المحيط. فهي تفسر الاستقامة بضرورة ترك الرأس فوق الماء الذي غيص فيه سعيًا وراء الهروب من الوحوش الغالبة التي تنفر من الماء. وهي تفسر بواسطة الوسط المائي، بعض الخصائص الانسانية، مثل وجود طبقة دهنية تحت الجلد، والوضع المتقلص للأعضاء الجنسية عند المرأة، والامتداد المقابل الذي يختص به العضو الجنسي عند الرجل، وكذلك نفردنا بالبكاء بالنسبة لجميع المخلوقات ذات الرجلين (٢). لقد تبنت الوراثة تدريجيا هذه التكيفات البيولوجية وجعلتها خصائص قارة. وكذلك فرض التكيف مع الوسط أسلوب الادوات الانسانية الأولى. ولذلك يقول س. غابل بأصل أهلي للأدوات من النوع «القابسي»، لأن أسلوب الصفائح، والمناقش والمكاشط يتكيف مع المادة الخام الممتازة وهي السيج.

## الوسط التكنولوجي

ان الوسط التكنولوجي الذي أنشأوه كان العامل الثاني الذي سمح للبشرين من أن يتغلبوا على الطبيعة وأن يتميزوا عليها.

لقد أصبح الإنسان عارفا لأنه كان صانعا. ان تحريري الإنسان قد خلص العضلات وعظام الفكين والجمجمة من أعمال كثيرة فنشأ عن ذلك تحرر وتزايد التحف الجمجمي حيث تطورت المراكز الحساسة المحركة بالقشرة الجمجمية. يضاف الى ذلك ان اليد جعلت الإنسان يجابه العالم الطبيعي. فهي وسيلة يتلقى بها عددا لا نهاية له من البلاغات التي تنظم المخ وتجعله قادرا على الحكم، لا سيما لبلوغ أهداف معينة بوسائل معينة (وذلك مبدأ الهوية والسببية).

فبعد أن هشم ناس ما قبل التاريخ الحجارة تشييا خشنا وذلك بنحتها نحتا غير منتظم (ثقافة حصاة انسان الأولدواي)، انتقلوا الى مرحلة أكثروعيا بالعمل الخلاق. ان وجود أدوات حجرية لها مستويات صنع مختلفة وذلك بمصانع شاسعة مثل المصانع الموجودة قرب كنشاسا يسمح بأن نستخلص أن الأداة المكتملة قد تصورها الإنسان منذ المرحلة الأولى وكانت تجسم في شظايا متتالية. وفي ميدان آخر، مر التقدم في هذا الميدان من النحت بقرع حصاة بأخرى الى النحت باعتماد قارع أقل حدة وغروط الشكل (مثل مطرقة خشبية أو عظمية الخ) ثم اعتماد القرع غير المباشر (بمقص) وفي النهاية باعتماد الضغط كلما تعلق الأمر بالتهذيبات المتينة للأداة لا سيما فيما يتعلق بالحجارة الصغيرة.

و يشهد التقدم المستمر على سيطرة الإنسان في ما قبل التاريخ على الأدوات. فنذكر لأول مرة من خلال تغير المادة الخام، واتقان صنع الادوات والاسلحة، التعلق بالنجاعة التي تزداد دقة، وبالتكيف لبلوغ غايات تزداد تعقدا، وذلك عنوان الذكاء بعينه، الذكاء الذي يحور الإنسان من السلوك النمطي الغريزي. ولذلك مر الإنسان من ذي الوجهين الى الصناعات ذات الشظايا (بمصر

\* في المطبوع ورد «Hardy».

(٢) الست هولز، اختصاصية في علم الأحياء البحري، ذكرت الين مرغن: ١٩٧٣ ص ٣٣ الى ٥٥.

وليبيا والصحراء) وإلى الوجوه الأكثر اختصاصا في العهد العطاري (٣) والفورسميثي (٤) والسنغوبائي (٥) والسيليبيائي (٦). ثم إلى أشكال أكثر جودة بالعصر الحجري الجديد (القابسي، والولوطوني، والمغوسي، والألنتيتي). ولا يمكن أن نرسم بمكان آخر غير إفريقيا خطا زمنيا واضحا يمكننا من أن نضبط بأرقام مدققة التنقل من مرحلة إلى أخرى إذ يبدو أن مختلف مراحل ما قبل التاريخ المختلفة قد تداخلت وتمازجت وتعايشت مدة عهود طويلة، لأننا نجد في نفس المستوى الطبقي الأرضي ذخائر من العصر الحجري البدائي وأدوات أكثر تطورا (الحجارة المصقولة) وأحيانا أشياء حديدية. ودليل ذلك أن السنغوبائي الذي يتتدى بداية العهد الأول للحجارة يمتد إلى نهاية العصر الحجري الجديد. إن مجموع تلك التطورات التي تعتمد المبادلات والاستعارات المتعددة، يبرز في شكل موجات من الاختراعات ذات المدى التاريخي الطويل والتي تتمازج أحيانا وتندرج ضمن رسوم متساعدة عامة تبلغ العهد التاريخي للعصور القديمة، وذلك بعد السيطرة على التقنيات الفلاحية الرعوية واختراع صناعة الفخار. ولقد انتشرت زراعة القمح والشعير والنباتات الكتانية مثل كتان الفيوم، كما انتشرت تربية الحيوانات الأهلية. ولا شك أن منطقتين أساسيتين تعتمدان الانتقاء والاستثمار الزراعيين قد أشعنا إشعاعا واضحا منذ الألفيتين السادسة أو الخامسة، وهما وادي النيل ووادي منيعطف النيجر. فلقد اخترعت الذرة البيضاء والدخن الصغير، وبعض أنواع الأرز، والسمسم، والفول، وفي الجنوب الإنيام والدا المتميز بورقة وأليافه، والنخيل الزيتي، والكولا، ومن المحتمل نوع من القطن. ولقد استفاد وادي النيل فضلا عن ذلك من مكتشفات بلاد الرافدين مثل الأمر (القمح) والشعير، والبصل، والعدس، والجلبان، والبطيخ، والتين، وجاءه من آسيا القصب السكري، وأنواع أخرى من الأرز والموز الذي كان يأتي بدون شك من أثيوبيا. ولقد طورت أثيوبيا، زراعة القهوة تأثرا بالطرق الزراعية التي اخترعها فلاحو وادي النيل، وتدل مواقع بكورو ونهر نجورو بكينيا بدورها على أن زراعة الحبوب كانت متطورة.

ولقد ظلت نباتات عديدة تأهلت في ما قبل التاريخ قائمة وذلك في أشكال محسنة وهي ما انفكت تغذي إلى الآن الأفريقيين، ونتج عنها نزولهم بمكان معين واستقرارهم به والا لما نشأت حضارة متقدمة. إن العصر الحجري الجديد الذي لا يبدأ بأوروبا إلا بين ٣٠٠٠ سنة و ٢٠٠٠ سنة، كان قد ابتدأ ثلاثة آلاف سنة قبل ذلك بمصر. ولذلك فإن فخار المنتيتا (بكينيا) الذي يعود بدون شك إلى الألفية الخامسة، هو عنصر من العناصر التي تسمح بأن نخزم بأن معرفة الحزف قد بلغت الصحراء ومصر انطلاقا من الأراضي العالية من إفريقيا الشرقية. إن الفخار، وهو تجديد ثوري، يصاحب تراكم البدائي لرأس المال المتمثل في أنواع الأمتعة التي انتزعتها الصناعة الانسانية من الطبيعة. ويتتدى مع الطبخ المظاهر الأكثر جودة من الثقافة التي تسمح لنا بأن نضبط الوثبة (من حيث الكيف) التي قام بها الإنسان الماهر وكذلك نظامه الغذائي المتكون من الورق، والعروق واللحم المذبح، وهي تكون بايجاز «اقتصاد الفريسة».

(٣) بئر العاطر بالجزائر.

(٤) من فورسميث بمجنوب إفريقيا.

(٥) من سنغوباي بالضفة الغربية من بحيرة فكتوريا.

(٦) من ستيل باي بمقاطعة رأس الرجاء.

## الديناميكية الاجتماعية

إلا أن هذه التغيرات من حيث الكيف، والتي تؤكد وتعزز القابليات الأساسية للإنسان، لم تتوفر إلا بالاعتماد على التبادلات مع أبناء جنسه وعلى دينامية اجتماعية نقشت صورة الكائن الإنساني بقدر ما فعلت النبضات النابعة من أعماق حيويته، ومن تعرجات فصوصه المخيمة أو من مشاعره العميقة. ولقد لعب العامل الاجتماعي دوراً أساسياً في مستوى العدوان وذلك بالقضاء قضاء عنيفاً على الضعفاء. ولذلك قضى الإنسان العارف على النياندرتاليين بعد نوع من حرب عالية دامت عشرات الألفيات العديدة. ولكن البعد الاجتماعي لعب مع ذلك دوراً إيجابياً «فالدراسات المقارنة لقوالب قشر الجمجمات لإنسان العصر الحجري القديم وللإنسان العارف، تبين فعلاً أن الأجزاء القشرية الجمجمية المربوطة بوظائف العمل والكلام، وتنظيم سلوك الشخص ضمن المجموعة، بلغت تطوراً هاماً لدى الإنسان العارف». (٧).

لقد لعبت العلاقات الاجتماعية دوراً أساسياً في اكتساب الكلام ابتداء من الإشارات الصوتية الموروثة عن القدماء الحيوانيين إلى الأصوات المنطوقة المركبة بطرق مختلفة حسب مقاطع. أن مرحلة الثغغة التي تعتمد المقاطع الأحادية كانت ترمي إلى التسبب، حسب رد فعل مشروط، في حركة أو في فعل، أو في سلوك، أو في الإشارة إلى حدث معين قد حدث أو على وشك الحدوث. وبايجاز كان الكلام في الأول يعتمد العلاقة. فبقدر ما كان امتداد الفك يدفع إلى الوراء بأعضاء الحلق وينحدر بنقطة ربط اللسان، كان «مد الهواء المدفوع لا يتجه مباشرة نحو الشفاه كما هو الشأن عند القرود، بل كان يتجاوز سلسلة من الحواجز التي تراقبها المراكز الموجودة بالغلاف الجمجمي» (٨).

وخلاصة الأمر هي أن الكلام عملية جدلية بين علم الأحياء والتقنيات والفكر، ولكن هذا يحصل بواسطة المجموعة. فإن لم يكن للإنسان شريك يحميه كالصدي، وإن لم يكن له مخاطب، لظل صامتاً. إن الكلام يعتبر مكسباً ثميناً جداً حتى اعترف له بالنفوذ على الأشياء في التصورات الراجعة للسحر وتكون الجنس الأفيقية. إن الكلام خلاق، والكلام يعتبر أيضاً سلاح التقدم. فهو ينقل المعارف، والتقاليد «والتراث المسموع». وهو الرصيد المعرفي الذي يعلو بالإنسان نهائياً فوق الميكانيكية المغلقة الأبدية للغريزة (٩). لقد دل الكلام على بداية السلطة الاجتماعية ونعني بذلك نشأة الزعامة والسلطة.

## بروز المجتمعات السياسية

لئن كان الإنسان العارف حيواناً سياسياً، فلقد كان كذلك طيلة عهد ما قبل التاريخ ولعله من الصعب أن نضبط أسباب ومراحل تلك العملية حسب العهود التاريخية. ولقد لعبت في هذا المجال تقنيات الإنتاج والعلاقات الاجتماعية دوراً هاماً.

(٧) فينولود ب. ياكيموف، ١٩٧٢، ص ٢.

(٨) انظر: فكيبوناك، ١٩٧٢، ص ٦٩.

(٩) ألا تعتبر اللغة التي سمحت للإنسان أن يتصور الأشياء المجردة، وأن يدخر المعلومات المكتسبة في تجربة الحياة اليومية وأن يبلغها إلى الغير ألا تعتبر أبعد ما خلفته القدرة العلمية في المجتمعات الغير العالة؟ ب. فرهاغن، ١٩٧٤، ص ١٥٤.

## التقنيات أولاً

ان ما قبل البشر، والبشر المنتسبين الى ما قبل التاريخ الافريقي كانوا منظمين حسب قطعان، وزمر وأفواج، وفرق باعتبار المهام التقنية المحسوسة التي لا يمكن القيام بها الا ضمن المجموعة من أجل البقاء على قيد الحياة أو لبلوغ حياة أفضل.

لقد كان المسكن اطارا جماعيا ظهر منذ الفجر الأول للذكاء الانساني، فهناك دائما مكان للتسليقي، حتى ولو كان مؤقتا، ونقطة مخصصة للاستراحة، وللدفاع وللتموين وكانت النار من حين لآخر تجمع أعضاء الفوج لتقييم من الحيوانات، والخوف والظلمات المحيطة بهم. ففي وادي أومو (بأثيوبيا) ما زالت بعض الآثار الحجرية المتواضعة، المتراكبة عن قصد، مازالت تصور على الأرض التصميم الخاص «بأكواخ» البشريات الأولى. ثم أخذت هذه المنشآت تتحسن حتى أصبحت قرى نيوليتيكية، تشرف على مواقع ممتازة محفوظة من الفيضانات والهجومات، وتكون على مقربة من عين ماء، مثلاً على الجبل المنحدر في تيشيت — وألاطا (موريتانيا). ولقد كان صيد السمك وصيد الحيوانات بشكل خاص سببين من أسباب توحيد الأهداف، لأن أسلافنا في ما قبل التاريخ لم يكونوا قادرين على قتل الحيوانات التي تفوقهم قوة الا باعتماد تنظيم تتعزبه قوتهم، فكانوا يجتمعون لمطاردة حيوانات كانوا يدفعون بها الى الجبال المنحدرة والى الهوايا التي كان يترصد بها رفاق لهم للقضاء عليها. وكانوا ينصبون قرب عيون الماء التي يكثر بها الصيد في الفصل الجاف، فخابا عملاقة كانت تقع فيها الحيوانات. ولكن لا بد بعد ذلك من الاجهاز على الحيوان، وتقطيعه، ونقل أجزائه، وكل ذلك يستلزم نوعا من تقسيم العمل الذي سيتخذ معنى خاصا في العصر الحجري الجديد نظرا للتنوع المتزايد في النشاط. وفعلا لم يكن للشباب من العصر الحجري الأسفل خيار، لأن توجيهه المهني كان آليا اذ أنه لا يهتم الا بجني الثمار، وبالصيد أو صيد السمك. ولقد أصبح الاختبار متنوعا في العصر الحجري الجديد، وذلك ما كان يستوجب توزيعا محكما للإشغال التي أصبحت شيئا فشيئا خاضعة للتخصص بالنسبة للنساء والرجال والفلاحين والرعاة، والاسكافيين وصناع الحجر والخشب والعظم، ثم الحدادين.

## العلاقات الاجتماعية

ان هذا التنظيم الجديد والحاجة المتزايدة للادوات أدى الى وجود فائض عن الحاجة وأتاح للبعض أن يتخلص من مهمة المنتجين للثروات ليهتموا بالخدمات. وتوعدت العلاقات الاجتماعية بقدر ما تداخلت الجماعات وتساوت في المرتبة أو أخذ بعضها يتفوق على البعض الاخر في المنزل. وفي ذلك الوقت تكونت الاجناس واحتلت مكانتها. فكان أقدمها أشباه البوشيمين (خواي — سان) والبيغمي — (الأقزام) ثم ظهر بعد ذلك الزنجي الطويل القامة (السوداني أو البنتي) ومن ذلك انسان أسلار (وادي تلمسي في بلاد مالي)، فالزنجي الذي انتشر في قارات كثيرة (١٠) أخذ يتميز ويتطور حسب ما يبدو، منتصرا بافريقيا، مسقط رأسه، انطلاقا من الصجراء، لكنه رد على أعقابها مثلها هو

(١٠) انظر: «الجنس الأسود كان يغطي العالم منذ ٣٠.٠٠٠ سنة مضت». في «العلوم والمستقبل»، أكتوبر ١٩٥٤ عدد ٩٢ انظر أيضا موري: تاريخ الشرق ص ١٩.

الشأن بأسيا بالمضيق الدرافيدي في دكان، أو حلت محله أجناس تكيفت أحسن منه مع الاحوال المناخية غير المواتية كما في أوروبا. وذلك ما حدث أيضا بمناطق افريقيا الشمالية لصالح «أجناس» البحر المتوسط. ويرى فورن أن التماثيل الصغيرة الباقية من الأورنياسي تمثل نموذجاً جنسياً شبه زنجبي، لأن هذا المؤلف يعتبر أن «الأورنياسيين شبه الزنجيين تواصلوا في حضارة تدعى بالحضارة القابسية» (١١) أما دي مولان دي لبلانت فإنه كتب وعندئذ وقعت هجرة أشباه الزنوج من نوع الهونتوفاكتسحت شمال افريقيا انطلاقاً من افريقيا الجنوبية والوسطى... وفرضت بالقوة حضارة جديدة على أوروبا البحر المتوسط. وتلك هي الحضارة الأورنياسية (١٢) ولذلك يجب أن نستنتج من ذلك أن أجناساً هجينة كانت قديماً موجودة بتخوم العالم الأسود، وهذا ما يفسر وجود الأهالي ذوي السمات شبه الزنجية غير البارزة، والذين دعوا على عجل «بالجنس الأسمر» ومنهم قبائل الفلانيون والاثيوبيون، والصوماليون، والنيليون الخ. ولقد حدث أيضاً أن استعمل تعسفاً مصطلح الجنس «الخامى».

وهناك ميدان آخر تبرز فيه بصفة ساطعة مظاهر الحياة الاجتماعية، وهو الفن في ما قبل التاريخ الافريقي المرسوم على جدران والفن التشكيلي. وبما أن افريقيا كانت هي القارة الأكثر أهمية بالنسبة للتطور في ما قبل التاريخ، وكان فيه الأهالي من البشريات والانسانيات الأكثر قدماً، والأكثر عدداً والأكثر ابداعاً، فلا يستغرب أن يكون الفن في ما قبل التاريخ الافريقي أغنى فن بالعالم وأن يكون قد فرض سيطرة تعادل أهمية الموسيقى الزنجية الافريقية بعالمنا الحاضر. إن تلك الآثار يوجد معظمها بمجنوب افريقيا وافريقيا الشرقية والصحراء ومصر والهضاب العليا من الاطلس. وبالطبع كان ذلك الفن يعكس التعجب الشخصي أمام الحياة الحيوانية الزاخرة الموجودة حول الملجأ. إن الأمر يتعلق في غالب الأحيان بفن اجتماعي يركز على مهام يومية أي «أشغال وأيام» المجموعة، ومجابهاتها للوحوش والعصابات المعادية لها، وما تعانيه من تأثر وفزع وما عرفته من أوقات ترويحية وألعاب، وبإيجاز كل ما يتعلق باللحظات الحاسمة في حياتها الجماعية. فلقد كانت سراديب ولوحات جدارية مكتظة وزاخرة بالرسوم تعكس على مرآة الصخور الحياة المتأججة أو الحياة الريفية للعشائر الانسانية الأولى. وكثيراً ما يعكس ذلك الفن الذي يعتمد تقنية صافية، اهتمامات المجموعة وقلقها الروحي. فهو يمثل رقصات افتتاح، وزمراً من الصيادين المقتنعين، وسحرة في عمل جاد، وسيدات وجوههن مدهونة بلون أبيض (مثلاً هو الشأن اليوم بافريقيا السوداء بمناسبة طقوس التنشئة، وهم يتسارعون كأنهم دعوا إلى موعد غريب. ونشعر مع مرور الزمن بالانتقال تدريجياً من السحر إلى الدين، وذلك ما يؤيد تطور الإنسان نحو المجتمع السياسي في ما قبل التاريخ الافريقي اذ يقوم في البداية عدد من الزعاء بدور الرؤساء والكهنة في نفس الوقت.

إن نمو القوى المنتجة في العصر الحجري الجديد قد يكون فعلاً تسبب في زيادة ديمغرافية نشأ عنها بدورها هجرات مختلفة. والشاهد على ذلك هو الانتشار المشهود الذي طرأ على بعض ((الشاغل)) في ما قبل التاريخ التي تحتوي أدواتها الحجرية على قطع متقاربة الأسلوب. إن مدى الغارات والرحيل النهائي كان يتزايد بقدر ما كانت نجاعة الادوات والأسلحة تتطور لا سيما إذا خف وزنها. فافريقيا

(١١) فورن، ١٩٤٣ ص ١٤-١٥.

(١٢) ديولان دي لبلانت، باريس ١٩٤٧ ص ١٣.





● من الطبيعة البكر الى انسانية  
متحررة.

(١) انسان الغابات البدائي الجنوبي  
مواقع الأومو. مجموعة متحف الانسان.  
(تصوير أوستر)، رقم ٤٩٤ ١٤٩٥. ٧٧  
(٢) غنبر للبحوث الخاصة بتطوير دلتا نهر  
السفغال، يقوم في روستوبيشي  
بالسفال. (تصوير ب. ناتيه).



قارة كان بنو الانسان قد جابوها طولاً وعرضاً كما لو أن الآفاق العظيمة لتلك الأرض الكبرى تستهوسم. فالخط الذي تسجله هذه التداخلات المعبرة عن خريطة الأجناس الافريقية والذي يشكل لغزاً يختار أمامه العقل الالكتروني لو عرض عليه، هو نتيجة تلك الحركة الدائبة للشعوب التي لها أصل يعود الى ألفيات عديدة من السنين. ويبدو أن الهجرات الأولى انطلقت من عند قبائل «البانتو» بالشرق والشمال الشرقي لتنتشر نحو الغرب والشمال. ويبدو ابتداء من العصر الحجري الجديد، ان الاتجاه العام كان يعتمد النزول نحو الجنوب كأنه يكره الصحراء العملاقة التي كونت شريطاً بيئياً قد امتد نهائياً وسط القارة وتسלט على تلك المنطقة. ان ذلك المد نحو الجنوب والشرق (السودانيون، والبانتو والنيليون الخ) سيستمر طيلة العهد التاريخي الى القرن التاسع عشر الذي كانت فيه الموجات الاخيرة تأتي لتحتضر على سواحل البحر الجنوبي.

ان زعيم القافلة المدجج بالحروز والأسلحة، والقائد للعشيرة نحو التقدم أو الى المغامرة هو الجلد الذي سميت باسمه والذي كان يقود خطوات شعبه في مسيرة التاريخ، وهو الذي سيخترق اسمه القرون وتحيط به هالة من التقدير الذي يكاد يصبح من الطقوس. ذلك ان الهجرات كانت ظواهر جماعية وكانت تمثل مواقف لها عناصر ذات معنى اجتماعي عميق.

ان تلك الهجرات الناجمة عن الانتصار أو الخيبة في الوسط الأهلي، ستنتهي الى نتائج غامضة. فهي تنشئ التقدم من جهة لأن موجاتها المتعاقبة والمتلاحقة ستضمن شيئاً فشيئاً الاستيلاء ان لم تكن السيطرة على القارة، وستشجع، اعتماداً على المبادلات التي تتسبب فيها، ستشجع التجديد كنتيجة للأثر التراكم إلا ان الهجرات في تخفيفها للكثافة السكانية بفضاء لا حدود له، ستمنع المجموعات الانسانية من بلوغ عتبة التجمع التي تفرض على الآلاف المؤلفة من البشر أن تتنافس في ميدان الاختراعات سعياً وراء البقاء على قيد الحياة. ان الذوبان في الوسط الجغرافي يضاعف سيطرة ذلك الوسط ويميل الى ارجاع العشائر الافريقية الأولى الى أصول غامضة كان الانسان يولد فيها ولادة مؤلة من خلال القشرة المظلمة للعالم الغامض.

## الحركة التاريخية

ان لحظة التطور الانساني التي وضعنا باختصار مفرد، معالمها ومراحلها، تبين لنا إنسان ما قبل التاريخ الافريقي وهو يتخلص بعناء من الطبيعة لينغمس شيئاً فشيئاً في المجتمع الانساني، وذلك في شكل فرق وجماعات أصلية، تتجمع وتتفرق لتتركب في أشكال أخرى، وباعتماد تقنيات تتركز أكثر فأكثر على أدوات أو أسلحة من حديد، وفي زواجات أو مجاهبات تصدح بأول أغاني الحب ومقارعة الأسلحة الأولى في التاريخ. ولذلك فإن ما يسترعي الانتباه في هذا التصاعد، هو دوام المجموعات الأصلية المتولدة من ما قبل التاريخ، المنطقة في المسيرة التاريخية الى أن انتهى بها المطاف في قلب القرن العشرين. فلو جعلنا التاريخ يبتدئ من استعمال الأدوات الحديدية، لأمكن لنا أن نقول ان ما قبل التاريخ قد دام في مناطق عديدة افريقية حتى الى حدود سنة ١٠٠٠، بل يوجد في القرن العشرين عدد من الجماعات الافريقية التي لم تكن «زنجية عتيقة» فحسب، بل كانت لها هياكل انتاجية وعلاقات اجتماعية اقتصادية لا تختلف كثيراً عن الهياكل والعلاقات الموجودة في ما قبل التاريخ، باستثناء استعمال الأدوات الحديدية ان تقنيات الاقزام في الصيد قد أعادت، في

قلب القرن العشرين، ومن خلال ألفيات من السنين، نفس تقنيات الأفارقة في ما قبل التاريخ. وبقطع النظر عن المنزلة الباهرة التي بلغت الحضارة المصرية، والأعمال البارزة أو المجيدة التي حققتها ممالك وإمبراطوريات إفريقية، فإن ذلك الواقع الضخم يجابهنا بمادته ونسجته على خط تطور المجتمعات الإفريقية ويستدعي منا أن نقف عنده لنضع خاتمتنا.

ما من شك أن «اتجاه التاريخ» ما كان أبداً اتجاه واحد خضعت له عقول بني الإنسان خضوعاً إجماعياً. والآراء في هذا الشأن متعددة.

فلقد كان لماركس وتيلارد دي شردان آراؤهما. ولقد أنجبت إفريقيا مفكرين كان لبعضهم تصورات عميقة تتعلق بدينامية واتجاه الحركة التاريخية، فلقد خطا القديس أغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) خطوة عملاقة بالرؤية التاريخية وذلك بقطع الصلة مع نظرية الدور والتسلسل التي كانت سائدة في ذلك العهد.

وكان يقول بأنه يوجد، من الخطيئة الأولى إلى يوم الحساب، يوجد مسار لا رجعة فيه وضعته قدرة الإله، ويمكن للإنسان أن يبلغ فيه النجاة أو الخسران، بحسب ما قدمت يداه من أعمال. ونحن إذ ندرس تاريخ العالم الديني، فلنكتسب فيه العلامات المبشرة بالعالم العلوي.

أما ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦)، وإن كان يعترف أن الله سلطاناً كبيراً على مصير العباد، فهو واضح التاريخ كعلم يعتمد بحاله على براهين يقرها العقل. «يجب الاعتماد على ميزان حكمتنا، لأن كل حقيقة يمكن أن يتصورها العقل». يضاف إلى ذلك أن موضوع ذلك العلم بالنسبة إليه ليس الزبد السطحي فحسب من الأحداث، إذ يقول «ما المنفعة من رواية أسياء زوجات ملك قديم، والكتابة المنحوتة على خاتمته؟» فهو يدرس خاصة طرق الإنتاج ونماذج العيش. والعلاقات الإنسانية، وبايجاز الحضارة (أو العمران البشري). وفي النهاية فهو، سعياً وراء تفسير عملية التطور التاريخي، يضع نظرية جدلية فيقابل بين دور الروح التضامنية الداعية إلى المساواة (أوه العصبية) وبين استبداد الملك في كل من المناطق البدوية أو الرعوية (العمران البدوي) وفي المدن (العمران الحضري).

وهكذا، فهناك انتقال دائم ومتبادل من سيطرة شكل من أشكال الحضارة إلى سيطرة الشكل الآخر، من دون أن يخضع ذلك لتواتر دوري. إذ ينشأ كل مرة في مستوى أعلى يتولد عنه نوع من التطور اللولي. فابن خلدون عندما قال مؤكداً «بأن الاختلافات في العوائد والحكم تختلف الشعوب راجعة للطرق التي يستعملها كل منها للاستزاق» فهو قد عبر بكل وضوح، وبذلك سبق غيره بعدة قرون، عبر عن أحد المبادئ الأساسية التي تقوم عليها المادية التاريخية لكارل ماركس. فهذا الأخير، بعد أن حلل بما هو معهود عنه من دقة ومقدرة على التركيب قانون تطوع العالم الغربي، تعرض لأنماط الإنتاج الدخيلة، فأنتهى في ١٨٥٩م إلى شرح تصوره «لطريقة الإنتاج الآسيوي»، وذلك في كتاب «فورمان». إن هذه الطريقة هي إحدى الأشكال الثلاثة من المجموعات الفلاحية «الطبيعية» المعتمدة على ملكية الأرض الجماعية. وتختص طريقة الإنتاج الآسيوي بوجود مجموعات قروية في القواعد، وهذه المجموعات خاضعة لهيئة تابعة للدولة تقوم بتحصيل الفائض من إنتاج الفلاحين الذين يخضعون لا لعبودية فردية بل لعبودية عامة تستبد بهم كمجموعة. ولذلك كان لأهل الحل والعقد، فضلاً عن سلطان الوظيفة العمومية، سلطان آخر يمكن تلك المجموعة العليا من استغلال

المجموعة السفلى، فستبد الأولى بملكية الأرض (١٣)، وتقوم بتسويق الفائض من الانتاج وتنهض بالمشاريع الكبرى، ولا سيما مشاريع الري للنهوض بالانتاج، وتفرض باجياز على الجماهير سلطة توصف «بالاستبداد الشرقي». الا أن المعلومات الاثرية والاثثروبولوجية المتوفرة منذ ماركس قد بينت أن تطور بعض المجتمعات لا يخضع للمراحل الخمسة التي حددها ماركس في «رأس المال» والتي جعل منها ستالين سنة لا تبديل فيها، ولا يخضع للنوع السائد في ما قبل من «طريقة الانتاج الآسيوية» التي اعتبرها نوعا من أنواع الانتقال الى الدولة، وذلك بالنسبة للمجتمعات الغير الأوروبية. ان التحليل الموضوعي للبنىات الافريقية لا يسمح بأن نستخلص جميع الخصائص التي عبر عنها ماركس للثور على تعاقب مختلف طرق الانتاج.

في مرحلة المجموعة البدائية، لا يدل الواقع الافريقي على النزوع الى الملكية، خلافا للأشكال الأوروبية (القديمة والجثمانية) التي تتميز بكون الملكية الخاصة تتطور ضمن الملكية الجماعية (١٤) باستثناء هذه الخاصية البارزة، فالمجموعات الأصلية الافريقية تختص بنفس الخصائص الموجودة في ما تبقى من العالم. وتبدو كذلك بوضوح الاختلافات التي تميز البنىات الافريقية عن طريقة الانتاج الآسيوية، فالسلطة العليا، أي الدولة، لا تعتبر هي مالكة الأرض، في المجموعات القروية الافريقية مثلما لا يعتبر الخواص ملاكا. فالدولة لا تقوم عامة بمشاريع كبرى. أما بنية السلطة نفسها، من حيث كونها بنية فوقية، فهي لا تندرج ضمن التحديد الخاص بطريقة الانتاج، وان كانت تقوم دليلا على تشكل الطبقات. لكن تلك البنية لا تدل في افرقيا على خصائص «الاستبداد الشرقي» الذي وصفه ماركس (١٥). ونحن لا ننكر وجود حالات من الاستبداد القائم على سفح الدماء، ولكن على العموم كانت سلطة الدولة تكتسي دائما بافرقيا شكل نظام ملكي معتدل تحيط به هيئات رسمية وتقاليد تعبر دستوراً بأتم معنى الكلمة، وان كانت غير مكتوبة، وتحيط به أيضا سلطات موروثية في الغالب عن التنظيم أو الطبقية الاجتماعية السابقين. و يصدق ذلك حتى على امبراطوريات مجيد وناجعة مثل امبراطورية مالي، تلك الامبراطوريات التي أعجب بها ابن بطوطة عندما وصفها في القرن الرابع عشر، وكانت تمتد على أقطار شاسعة. فالحكم اللامركزي فيها — وهو اختيار مقصود — قد فسح المجال للمجموعات كمي تتمتع على مستوى القاعدة باستقلال ذاتي حقيقي. وعلى كل حال لما كانت الكتابة قليلة الاستعمال على العموم، ولما كانت تقنيات ووسائل النقل قليلة التطور، فان سلطة الامبراطورية المركزية كانت دائما منقوصة نظرا للمسافات التي كانت تتسبب دائما في التهديد الدائم بخروج الرعايا عن طاعة الحكم الاستبدادي.

يضاف الى ذلك أن فائض المجموعات القاعدية بافرقيا كان ضئيلا، الا حينما يوجد احتكار الدولة لمواد نفسية مثل الذهب في غانا أو أشنتي، ومثل العاج والملح الخ... وحتى في هذه الحال يجب الانسنى الخدمات التي توفرها الرئاسة ومن ذلك المحافظة على الأمن، والعدالة، وتنظيم

(١٣) ان المقصود بالوحدة العليا هو «المالك الأعلى» أو «المالك الوحيد». لأن ماركس «يؤكد أحيانا على كون الدولة هي نفسها المالك الحقيقي للأرض، ويلاحظ أحيانا أخرى أهمية حقوق الملكية بالنسبة للمجموعات القروية فلا يوجد بدون شك تعارض بين هاتين الوجهتين» ج. شسنو، ١٩٦٩، ٢٩.

(١٤) «لا توجد ملكية خاصة للأرض حسب مفهوم القانون الروماني أو القانون المدني» ج. سوري كنال ١٩٦٤ ص ٨.

(١٥) «ان كنا نعي بالاستبداد سلطة مطلقة واعتباطية، فلا يمكن لنا أن ننفي وجود معنى الاستبداد الافريقي». ج. سوري كنال، ص ١٢٥، وهو يقول «ونحن نعتقد أنه لا داعي الى البحث في تنظيم الدول الافريقية عن طريقة مستعارة من آسيا، فلا يمكن أن نجد الا بعض الشبه السطحي». المرجع المذكور، ص ١٢٢.

الاسواق الخ، ولا ان نستنقص كون جزء كبير من الرسوم والضرائب كان يوزع في الاحتفالات التقليدية طبقا لقانون الشرف السائد بالنسبة للذين يجب أن يعيشوا عيشة الاشراف (١٦) وذلك ما يفسر الكرم الحاتمي الذي عبر عنه كنكو موسى البهي، امبراطور مالي، اثر حجة الفاخر سنة ١٣٢٤. أما طريقة الانتاج المعتمدة على استخدام العبيد فهل كانت موجودة بافريقيا؟ وهنا نكون ميالين الى الاجابة بالسلب. فالرق، لم يلعب في جميع المجتمعات جنوب الصحراء، الا دورا هامشيا. فالعبيد أو بالأحرى الأسرى كلهم أسرى حرب، فالأسر لا يُخضع الانسان ليصبح ملكا محضا حسب المفهوم الذي حدده كاتون... فالعبد الافريقي كان يتمتع غالبا بنوع من حق الملكية فهو لا يستغل استغلال الآلة أو الحيوان. فأسير الحرب، ان لم يضحي به تضحية طقوسية، مثلما يقع أحيانا، فهو يدمج بسرعة ضمن الأسرة التي يكون ملكا من أملاكها الجماعية. فهو عنصر انساني اضافي يتمتع بعق شرعي أو واقعي في ظرف قصير. فان استعمل الأسرى مشاة في الجيش، فانهم كثيرا ما يجدون امتيازات هامة في تلك المهنة و يكونون أحيانا ممثلين، مثلما هو الشأن في ناحية كايور داخل الحكومة من خلال شخص القائد. وفي الآشنتي كان يمنع منعاً باتاً ان يذكر الأصل العبدى للشخص وذلك للمحافظة على الوحدة «القومية». فيمكن لأسير قديم أن يصبح رئيس قرية «فحال الأسر، وان كانت موجودة بكثرة في افريقيا، الا أنها لا تستوجب الدور المعين لها في الانتاج الذي تختص به طبقة اجتماعية» (١٧).

أما في المناطق التي يأخذ فيها الرق أبعادا واسعة وطابعا آخر من حيث الكيف كما هو الشأن في الداهومي، والآشنتي، وزنزينار في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، يصبح الأمر يتعلق ببنيات لها صلة بطريقة انتاج غالبية. فما هو شأن طريقة الانتاج الاقطاعية؟ لقد أدى التشبيه المتسرع ببعض المؤلفين الى وصف رئيس القبيلة «بالاقطاعية» (١٨). وهنا أيضا لا يوجد امتلاك، ولا منحة خاصة للأرض، وبالتالي فلا يوجد اقطاع. ان الأرض متاع جماعي لا يقتصب الى حد أن الفريق الغازي الذي يستولي على السلطة السياسية، كثيرا ما يترك مسؤولية الأرض الجماعية الى المتصرف الأهلي، وهو «رئيس الأرض» أي (التنغ سوبا موسى) مثلا، لأن سلطة الارستقراطية كانت «تمارس على الثروات والناس، دون أن تنطبق على ملكية الأرض التي تعتبر من صلاحيات الأهالي» (١٩). «فالشرف في افريقيا لم يتحول إلى قيمة تجارية، لأنه ظل دائما صفة وراثية لا يمكن لأحد أن يسلب منها صاحبها».

(١٦) ان ج. مأكبي، بعد أن لاحظ أن ج. بالانديبي يرى أن التمن الذي وجب على أصحاب السلطة السياسية دفعه لا يدفع كله في نهاية الامر «بتعتقد فيما يخصه بأن الخدمات العامة التي يقدمها الرؤساء» لا تستوجب سلطة زجرية مثلما هو الشأن بالمجتمعات الكبرى، الغير المنسقة والحضرية. في غير ذلك يكفي الاعتماد على شبكة الانساب وعقوباتها التي لا تفرض بالقوة». وهو يتم بقوله فباستثناء اعادة التوزيع، يستولي الحكام على فائض المجتمع التقليدي من دون مقابل اقتصادي ج. مأكبي. ١٩٧٠، ص ٩٩ — ١٠١.

(١٧) ج. مسوري كنال المذكور أعلاه ص ١١٩. انظر أيضا دينغ أ. أ. سرم C.E.R.M. باريس عدد ١١٤ — ١٩٧٤. وهو نقد عميق وموثق للنظريات الماركسية «المطاطية» التي يقول بها عجموت ديوب.

(١٨) فعلى اذا اعتقدنا مثل ما يعتقد ج. مأكبي، مستشهدا بكلام بلوغ وغشوف، بأن «المهم في الامر هو العلاقة بين السيد والمسد لا الاقطاع»، يتضح انه لا يمكن ان تفصل الوجد عن الآخر. ان العلاقات «الاقطاعية» التي يصفها المؤلف تبدو من خصائص المجتمعات المعاشية بين البحيرات وهي تربط غالبا بين أعضاء الطبقة العليا كما هو الشأن في أنكولي أو في بوجا، فهل هذه الحالة مشابهة للحالة السائدة في أوروبا مثلا؟ — انظر ف. كابور، ١٩٦٢، ص ٦٠٩ — ٦٢٣.

(١٩) أنظر ف. كابوري، ١٩٦٢، ص ٦٠٩ — ٦٢٣.

وأخيرا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار البنيات الاجتماعية الاقتصادية مثل النظام العائلي المعتمد على الأم الذي تختص به المجتمعات الافريقية، على الأقل في أول الأمر، وذلك قبل أن تقرأ عليه تأثيرات جاءت من الاسلام ومن الحضارة الاوربية الخ... وفرضت النظام الذي يعتمد الأب. ان تلك البنية الاجتماعية الهامة المعبرة عن دور المرأة الكبير في المجموعة، كانت لها نتائج اقتصادية وسياسية وروحية لأنها كانت تلعب دورا ملحوظا سواء في انتقال الثروات المادية أو في انتقال حق وراثة العرش الملكي، مثلما هو الشأن في مملكة غانا القديمة. فيبدو أن صلة الأمومية آتية من أعماق ما قبل التاريخ الافريقي عندما أبرز الاستقرار الحاصل في العصر الحجري الجديد أهمية دور المرأة في المنزل الى حد ان جعل منها العنصر المركز في النظام الاجتماعي، فتنتج عن ذلك عادات متعددة مثل «القرباة على سبيل الفكاهة»، والزواج بالأخت، ودفع المهر لأهل الزوجة المنتظرة الخ.

في هذه الأحوال كيف يمكن أن نصف خط التطور الخاص بالمجتمعات الافريقية التي كيفها ما قبل التاريخ؟ يجب أولا أن نلاحظ ان افريقيا قد لعبت في العلاقات بين القارات دور القطب والقلب المركزي لاختراع التقنيات وانتشارها. الا ان تلك النتائج قد تحولت بسرعة الى حالة من التبعية والهامشية نظرا لعوامل متنافرة داخلية ذكرت سابقا، ونظرا أيضا الى امتصاص ثروات وخدمات افريقيا دون مقابل كاف لصالح تلك القارة، وذلك مثلا في شكل نقل مكافئ من رؤوس الأموال والتقنيات. ان استغلال افريقيا مدة ألفيات عديدة من السنين قد مر بثلاث فترات حاسمة: أولاها حدثت في العهد القديم، بعد انحطاط مصر، اذ ان وادي النيل والمقاطعات الرومانية الباقية من افريقيا الشمالية قد أصبحت نهبا ومغزنا يوفر الجيوب لروما. ان الامبراطورية قد استجلبت فضلا عن المواد الغذائية، عددا كبيرا من الحيوانات الوحشة من افريقيا، ومبارزين، وعبيدا للعمل في الجيش والقصور والمزارع الكبرى وألعاب السيرك الفتاكة. وفي القرن السادس عشر بدأ العهد المظلم لتجارة الرقيق السود. اما القرن التاسع عشر فقد تميز بتركيز التبعية وذلك باحتلال الارض واستعمارها. ان تراكم رأس المال بأوروبا ونهضة الثورة الصناعية، وهما ظاهرتان متناظرتان ومتكاملتان، ما كانا لينجحا لولا هذه المساهمة المفروضة على آسيا، والامريكيتين وخاصة افريقيا.

وموازة لذلك وطيلة قرون من التطور الداخلي الذي لم يتعرض لكثير من الاطماع الخارجية (بين العهد القديم والقرن السادس عشر) فقد شكلت التناقضات الداخلية العديدة في النظام الافريقي نفسه عراقيل بنيوية داخلية دون أن ينشأ عنها عن طريق الضغط الداخلي الانتقال الى بنى أكثر تطورا. وذلك ما عبر عنه بغمق ج. سوري كنال في حديثه عن طريقة الانتاج الأسبوية (وهذه الملاحظة صالحة بالاحرى للحالة الافريقية بما في ذلك الفترة الاستعمارية). إن هذا النظام يؤدي الاستغلال الطبقي الى تعزيز البنى القائمة على الملكية الجماعية للارض عوض أن يقضي عليها: فهي تشكل الاطار الذي يؤخذ منه فائض الانتاج، وذلك هو الاستغلال بعينه. وفعلًا فلقد كانت المجموعات القاعدية هي التي توفر دفع الفائض الانتاجي. ان افريقيا بنظامها العشائري وقراها الباقية دائما، لم تكن تميل الى الملكية الخاصة للارض (وهي ثروة مشاعة وشمينة جدا، لكنها مجانية مثل الهواء)، فظلت مدة طويلة لا تشهد هذا الصراع الكبير بين الطبقات الاجتماعية. الا أن ذلك لم

يكن السبب الوحيد للوضعية البائدة التي آلت إليها الاشكال الاجتماعية بإفريقيا. فالمستوى الضعيف للتقنيات والقوى المنتجة كان — على منوال دائرة مفرغة — السبب والنتيجة لتشتت شمل السكان في فضاء لا يمكن التحكم فيه لأنه فسيح جدا.

ونظرا الى الحواجز الطبيعية، لم تتخضم حركة التجارة البعيدة المدى الا قليلا، وكانت تشمل بعض المواد الفاخرة المقصور تداولها على الأسواق الخاصة بالقصور. ونحن لا نأخذ هنا بفكرة بليخانوف الخاصة «بالوسط الجغرافي»، لأن هذا الوسط ان هو الا وجه من وجوه الوسط التاريخي ومع ذلك يجب أن نأخذ بعين الاعتبار العراقيل المناخية المذكورة في مدخل هذا المجلد: وما يؤيد هذا القول، أنه كلما رفعت تلك الحواجز الطبيعية كليا أو جزئيا، مثلما هو الشأن بوادي النيل، وعلى مستوى أقل بوادي النيجر، تحررت الدينامية الاجتماعية بفضل النهضة المصاحبة لكثافة السكان وللملكية الخاصة.

وهكذا فلم تشهد إفريقيا (السوداء) مرحلة رق ولا مرحلة اقطاعية مثلما هو الشأن بأوروبا (٢٠). بل لا يمكن أن نقول ان النظم الافريقية هي وليدة تلك النظم الاقتصادية الاجتماعية، لأنه كثيرا ما تعوزها العناصر المكونة الأساسية. فهل هذا يعني وجوب عزل إفريقيا عن قوانين التطور العامة للانسانية جمعا؟ طبعاً، لا. ولكن، حتى وان كانت تلك القوانين مشتركة بين الناس، وان كنا نقر أن الاساسي من المقولات المنهجية العامة للمادية التاريخية صالحة بأن تطبق في كل مكان فلا بد أن نعود الى أمر أساسي وهو التوافقات (الغير الآلية) التي نلاحظها قائمة بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج، وكذلك الانتقال (الغير الآلي) من أشكال المجتمعات دون طبقات، الى أشكال اجتماعية فيها صراع الطبقات. ففي هذه الحال ينبغي دراسة الواقع الإفريقي لا في اطار الرجوع الى كارل ماركس، بل في اطار الاستشهاد بأقواله. فان كان العقل واحداً، فان العلم يفرض أن نكيف التناول العقلي بحسب كل موضوع ندرسه.

وبإيجاز نلاحظ في إفريقيا الدوام المشهود لطريقة انتاج ذاتي ينتمي الى الأنواع الاخرى من المجموعات «البدائية» لكنه يتميز بفروق أساسية، لا سيما النفور من الملكية الخاصة أو ملكية الدولة (٢١).

ثم وقع الانتقال بالتدرج الى أشكال دولية قد برزت بنفسها منذ مدة طويلة بشبكة العلاقات قبل تكون الدول القاعدية، ثم تخلصت تدريجيا بفعل قوة داخلية وضغط خارجي، من عقبة العهد الجماعي البدائي الذي ليس له بنيان، لتتنظم على أساس الملكية الخاصة وعلى جهاز الدولة، اعتمادا على طريقة انتاج رأسمالية، غالبية أولا، ثم احتكارية.

وبالفعل قامت الدولة الاستعمارية كمصرف في الأسواق التي فتحتها هنا وهناك، الى أن حلت محلها الدولة الرأسمالية المستقلة في نصف القرن العشرين، وفرضت طريقة أخرى هي الانتقال من الحالة الغالبة الجماعية الأصلية الى الحالة الغالبة الرأسمالية ثم الى النهج الاشتراكي في التنمية.

(٢٠) يقول ج. شسنو، ١٩٦٩ في ص ٣٦: «والذي يبدو ثابتا، هو الاستمالة المطلقة في اعتبار المجتمعات الافريقية ما قبل الاستعمار، باستثناء البعض القليل منها، مجتمعات رق أو اقطاعية حسب المعنى المتعارف.

(٢١) النفور ليس مربوطا بقانون وراثي خاص، ولا «بطبيعة» مختلفة لكنه مربوط بوسط تاريخي أصيل.

ومهما كانت الحال، يوجد واقع يفرض نفسه في إفريقيا وهو أنه، لأسباب بنيوية لم تتبدل في جوهرها منذ خمسمائة سنة على الأقل، ونظرا إلى تزايد السكان، يسود إفريقيا اليوم ركود القوى الانتاجية، وهو مصحوب أحيانا ببعض النمو المبعثر والمحلي، ولكن بدون تطور. وهذا الركود مصحوب أيضا بتفتح فني خارق للعادة، وبتعزيز العلاقات بين الأشخاص، كما لو أن الأفارقة قد وظفوا فيها كل طاقاتهم الخلاقة (٢٢). وبالأجمال فإن الحضارة المادية المنطلقة من المناطق المدارية الإفريقية الآسيوية طيلة ما قبل التاريخ، قد صعدت نحو المناطق الشمالية حتى البرزخ الأوربي حيث استقرت وتلاأت ساطعة لأنها اعتمدت على عملية تراكمية جمعت بين التقنيات، وامتلاك رؤوس الأموال. فهل يأتي تحول هذا النظام الكوني من قلبه الغربي أو من البلدان المحيطة به، فيعيد التاريخ نفسه، متمثلا في دور البرابرة مع الامبراطورية الرومانية؟ ذلك ما سيجيب عنه التاريخ، ويمكن لنا من الآن أن نؤكد أن ما قبل تاريخ إفريقيا هو تاريخ انتقال مقدّم بشري متميز ثم هو تاريخ انسانية الطبيعة بفضل ذلك العنصر المسؤول عن كل تقدم. وهي مسيرة طويلة، أخذ فيها التوازن يحتل تدريجيا بين الطبيعة والانسان، لصالح العقل. فبقيت المحافظة على التوازن أو عدم التوازن بين المجموعات الانسانية نفسها ضمن القارة وتجاه الخارج. فبقدر ما تزايد قوى الانتاج، تشتد الصراعات وتقوى روح المصلحة وحُب السلطة. ان الصراعات التحررية السائدة اليوم في بعض الأقطار الإفريقية، تقف صامدة أمام ذلك السعي إلى إخضاع القارة ضمن نظام يمكن أن نسميه طريقة الانتاج الإفريقية المتخلفة. ولكن القارة الإفريقية، منذ أن أخذ الانسان الماهر يخطو خطواته الأولى المتعشرة، انطلق فيها منذ ذلك العهد الكفاح من أجل التحرر، وتوفرت فيها نفس العزيمة المتعنتة والمندفعة نحو بلوغ مستقبل أفضل، وذلك بالتخلص من الخضوع للطبيعة ثم للانسان. وباختصار فإن الخلق، والخلق الذاتي للانسان الذي ابتدأ بإفريقيا منذ آلاف الآلاف من السنين، ما انفك إلى يومنا هذا موضوع الساعة.

وبعبارة أخرى، فهذا يعني إلى حد ما، أن ما قبل تاريخ إفريقيا لم ينته بعد.

(٢٢) ولهذا فإن تحديد «طريقة الانتاج الإفريقية المحتملة»، تستدعي عناية خاصة «بالنظم الاجتماعية، والسياسية، والايدولوجية» بالرجوع إلى تحاليل غرمسكي ون. بولنتساس.



## أعضاء اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ أفريقيا العام \*

الأستاذ ج. ف. أ. أجايي (نيجيريا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

المشرف على المجلد السادس

الأستاذ ف. أ. ألبوكيرك موراو (البرازيل) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩

الأستاذ أ. أذوبواهن (غانا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

المشرف على المجلد السابع

سعادة السيد بوبوهاما (النيجر) — ١٩٧١ — ١٩٧٨

سعادة السيدة موتومبا بول (زامبيا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

الأستاذ د. تشانوا (زيمبابوي) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩

الأستاذ ف. كورتن (الولايات المتحدة الأمريكية) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩.

الأستاذ ج. ديفيس (فرنسا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

الأستاذ منويل ديفويلا (أنجولا) — ١٩٧٨ — ١٩٧٩

الأستاذ هـ. جعيط (تونس) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩

الأستاذ الشيخ أنثا ديوب (السنغال) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

الأستاذ ج. د. فاج (المملكة المتحدة) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

سعادة السيد محمد الفاسي (المغرب) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

المشرف على المجلد الثالث

الأستاذ ج. ل. فرانكو (كوبا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

السيد موسى ح. أ. جلال (الصومال) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

الأستاذ الدكتور ف. ل. جروتانيلي (إيطاليا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

الأستاذ آيكي هابرلاند (جمهورية ألمانيا الاتحادية) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

الدكتور أكليلو هابتي (إثيوبيا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩

سعادة السيد م. أحمد هامباتي با (مالي) — ١٩٧١ — ١٩٧٨

- الدكتور ادريس س. الحراير (ليبيا) — ١٩٧٨ — ١٩٧٩
- الدكتور ايفان هربك (تشيكوسلوفاكيا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- الدكتورة أبيودو جونز (ليبيريا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- القس الكسيس كاجامي (رواندا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- الأستاذ أ. م. كيمايو (تنزانيا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- الأستاذ ج. كى زبربو (فولتا العليا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- المشرف على المجلد الأول
- السيد ديودي لايا (النيجر) — ١٩٧٩
- الدكتور أ. لتنيف (اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- الدكتور جمال مختار (مصر) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- المشرف على المجلد الثاني
- الأستاذ ف. موتيوا (أوغندا) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩
- الأستاذ د. ت. نيان (السنغال) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- المشرف على المجلد الرابع
- الأستاذ ل. د. نجكونجو (بوتسوانا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- الأستاذ ت. اوبنجا (جمهورية الكونغو الشعبية) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩
- الأستاذ ب. أ. أوجوت (كينيا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- المشرف على المجلد الخامس
- الأستاذ س. رافواجنهااري (مدغشقر) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- السيد ولترودني (غيانا) — ١٩٧٩
- الأستاذ مكى شبيكة (السودان) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- الأستاذ ي. أ. طالب (سنغافورة) — ١٩٧٥ — ١٩٧٩
- الأستاذ أفيلينو تكسيرا دا موتا (البرتغال) — ١٩٧٨ — ١٩٧٩
- سيادة المطران ت. تشييانجو (زائير) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- الأستاذ جان فانسينا (بلجيكا) — ١٩٧١ — ١٩٧٩
- صاحب الاحترام الدكتور ايريك ويليامز (ترينيداد وتوباغو) — ١٩٧٦ — ١٩٧٨
- الأستاذ ع. مزروى (كينيا)
- المشرف على المجلد الثامن (ليس عضوا باللجنة)
- أمانة اللجنة العلمية الدولية لتحري تاريخ أفريقيا العام:
- السيد موريس جليلي، قسم دراسة الثقافات، اليونسكو،
- ١ شارع ميوليس، ٧٥٠١٥ باريس

# بيانات عن مؤلفي المجلد الأول

## مقدمة

ج. كي - زيربو (فولتا العليا). أخصائي منهجية تاريخ أفريقيا؛ وضع عدة مؤلفات عن أفريقيا السوداء وتاريخها، أستاذ التاريخ بمركز التعليم العالي في واجادوجو، الأمين العام للمجلس الأفريقي الملجاشي للتعليم العالي.

## الفصل الأول

ج. د فاج (المملكة المتحدة). أخصائي تاريخ أفريقيا الغربية؛ وضع واشترك في وضع مؤلفات عن تاريخ أفريقيا. نائب رئيس جامعة برمنجهام والمدير السابق لمركز الدراسات الأفريقية بجامعة برمنجهام.

## الفصل الثاني

سعادة بوبوهاما (النيجر). أخصائي التراث المنقول؛ وضع عدة مؤلفات عن تاريخ النيجر والمنطقة السودانية؛ المدير السابق للمركز الاقليمي للبحوث والتوثيق في مجال التراث المنقول ولتنمية اللغات الأفريقية.

## الفصل الثالث

ف. د. كورتن (الولايات المتحدة الأمريكية). أخصائي في تاريخ تجارة الرقيق، وضع عدة مؤلفات عن تاريخ تجارة الرقيق، أستاذ التاريخ بجامعة جون هوبكنز.

## الفصل الرابع

ت. أوبنجا (جمهورية الكونغو الشعبية). أخصائي اللغات الأفريقية؛ كتب عدة مقالات عن تاريخ أفريقيا ووضع عدة مؤلفات عن أفريقيا في العصور القديمة؛ أستاذ في كلية الآداب بجامعة ماريان انجواي.

## الفصل الخامس

هـ. جعيط (تونس). أخصائي تاريخ العصور الوسطى في المغرب؛ كتب عدة مقالات ووضع عدة مؤلفات عن تاريخ تونس؛ أستاذ بجامعة تونس.

## الفصل السادس

أ. هربك (تشيكوسلوفاكيا). أخصائي تاريخ أفريقيا والعرب؛ وضع عدة مؤلفات عن تاريخ أفريقيا؛ أستاذ جامعي؛ رئيس قسم البلدان العربية والأفريقية بالمعهد الشرقي في براغ.

## الفصل السابع

ج. فانسينا (بلجيكا). أخصائي في تاريخ أفريقيا؛ وضع عدة مؤلفات عن تاريخ أفريقيا الاستوائية؛ أستاذ التاريخ بجامعة ويسكونسين (الولايات المتحدة الأمريكية).

## الفصل الثامن

سعادة أ. هامباتي با (مالي). أخصائي التراث المنقول؛ وضع عدة مؤلفات عن الامبراطوريات الأفريقية القديمة والحضارة الأفريقية.

## الفصل التاسع

ز. إسكندر (مصر). أخصائي تاريخ مصر؛ وضع عدة مؤلفات وكتب عدة مقالات عن مصر القديمة؛ المدير العام للشؤون الفنية بمصلحة الآثار.

## الفصل العاشر

ب. ديباني (السنغال). أخصائي في علم اللغات؛ دكتور في العلوم السياسية والاقتصادية؛ وضع مؤلفا عن السلطة السياسية في أفريقيا ومؤلفا في النحو في لغة الولوف؛ مدرس بجامعة داكار.

## الفصل الحادي عشر

د. أ. أولدروج (اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية). أخصائي العلوم الاجتماعية الأفريقية؛ وضع عدة مؤلفات عن أفريقيا؛ عضواً أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي.

## الفصل الثاني عشر

ج. هـ. جرينبرغ (الولايات المتحدة الأمريكية). أخصائي في علم اللغات؛ وضع عدة مؤلفات وكتب عدة مقالات عن الأنثروبولوجيا وعلم اللغات؛ أستاذ الأنثروبولوجيا في جامعة ستانفورد.

## الفصل الثالث عشر

س. دابارا (مالي). أخصائي جغرافيا المناطق المدارية؛ أستاذ الجغرافيا بجامعة أبيدجان.

## الفصل الرابع عشر

أ. مابوجونجي (نيجيريا). وضع عدة مؤلفات عن اليوروبا؛ أستاذ الجغرافيا بجامعة ايبادان.

## الفصل الخامس عشر

ج. كي - زيربو (فولتا العليا).

## الفصل السادس عشر

س. رشدي (مصر). فيزيائي؛ رئيس الهيئة المصرية للمساحة الجيولوجية والتعدين.  
هـ. فور (فرنسا). دكتور في العلوم؛ جيولوجي متخصص في فرنسا ما وراء البحار؛ وضع مؤلفات عن جيولوجيا أفريقيا الغربية؛ عمل مدرسا في جامعة داكار ثم في جامعة باريس

٦؛ رئيس اللجنة الفنية لجيولوجيا العصر الرابع بالمركز القومي للبحث العلمي.

### الفصل السابع عشر

ل. بالوت (فرنسا). أخصائي عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا؛ وضع عدة مؤلفات عن السلام وكتب عدة مقالات عن شمال أفريقيا، مدير سابق للمتحف القومي للتاريخ الطبيعي في باريس.

ى. كوبنز (فرنسا). أخصائي عصر ما قبل التاريخ؛ وضع عدة مؤلفات عن أصل الجنس البشري، مساعد مدير المتحف القومي للتاريخ الطبيعي في باريس.

### الفصل الثامن عشر

ر. ليكي (المملكة المتحدة) أخصائي عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا؛ وضع مؤلفات عن الحفائر الخاصة بأصل الإنسان في أفريقيا الشرقية؛ رئيس معهد لويس ليكي التذكاري الدولي لعصر ما قبل التاريخ في أفريقيا.

### الفصل التاسع عشر

ج. أ. ج. ساتون (المملكة المتحدة). أخصائي عصر ما قبل التاريخ؛ وضع عدة مؤلفات وكتب عدة مقالات عن عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا؛ رئيس سابق لقسم الآثار بجامعة أكسفورد.

### الفصل العشرون

ج. د. كلارك (الولايات المتحدة الأمريكية). أخصائي عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا. وضع عدة مؤلفات عن عصر ما قبل التاريخ والحضارات الأفريقية القديمة؛ أستاذ في التاريخ والآثار.

### الفصل الحادي والعشرون

ر. دي بايل دي هيرمنس (فرنسا). أخصائي عصر ما قبل التاريخ؛ وضع عدة مؤلفات وكتب عدة مقالات لا سيما عن عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا؛ قائم بأعمال البحث بالمركز القومي للبحث العلمي في باريس.

ف. فان نوتين (بلجيكا). أخصائي عصر ما قبل التاريخ والآثار؛ وضع عدة مؤلفات عن عصر ما قبل التاريخ في أفريقيا الوسطى؛ أمين المتحف الملكي لعصر ما قبل التاريخ والآثار.

### الفصل الثاني والعشرون

ل. بالوت (فرنسا).

### الفصل الثالث والعشرون

هـ. ج. هوجوت (فرنسا). أخصائي عصر ما قبل التاريخ؛ مدرس جامعي؛ وضع عدة مؤلفات عن التاريخ الطبيعي لعصر ما قبل التاريخ والعصر الرابع؛ مساعد مدير المتحف القومي للتاريخ الطبيعي.

### الفصل الرابع والعشرون

ث. شو (المملكة المتحدة). أستاذ التاريخ القديم؛ وضع عدة مؤلفات عن عصر ما قبل

التاريخ في أفريقيا الغربية؛ نائب رئيس مؤتمر عموم أفريقيا لعصر ما قبل التاريخ.

#### الفصل الخامس والعشرون

ف. ديبونو (المملكة المتحدة). أخصائي عصر ما قبل التاريخ في مصر؛ وضع عدة مؤلفات وكتب عدة مقالات عن عصر ما قبل التاريخ في مصر؛ باحث.

#### الفصل السادس والعشرون

ج. كي زيربو (فولتا العليا).

#### الفصل السابع والعشرون

ر. بورتير (فرنسا). كرس جزءا كبيرا من حياته للبحوث النباتية في أفريقيا؛ أستاذ سابق في المتحف القومي للتاريخ الطبيعي؛ توفي.

ج. بارو (فرنسا). وضع عدة مؤلفات كثيرة عن نباتات المناطق المدارية، نائب مدير مختبر اثنولوجيا النبات واثنولوجيا الحيوان.

#### الفصل الثامن والعشرون

ج. فيركوتر (فرنسا). أخصائي التاريخ القديم؛ وضع عدة مؤلفات عن مصر القديمة؛ أستاذ التاريخ ومدير المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة.

خاتمة

ج. كي زيربو (فولتا العليا).

## قائمة عامة بالمراجع

فحصت البيانات الخاصة بجميع المراجع بأكبر دقة ممكنة، ولكن، نظرا لتعدد المصنف وطابعه الدولي، رُبما بقيت هناك بعض الأخطاء. (ملاحظة للمحرر).

- ADAMS (W.Y.). — 1964. « Post-Pharaonic Nubia in the light of archaeology », *J.E.A.* 50 (٢٨)\*.
- AGUESSY (M.). — 1972. « Traditions orales et structures de pensée : essai de méthodologie », *C.H.M.* XIV, 2 (١٠) (٧) (٤) (المقدمة العامة)
- AITKEN (M.J.). — 1961. *Physics and archaeology*, London, Intersc. Pub. Ltd., X + 181 p. (٩)
- 1963. « Magnetic location », *Science in archaeology*, Londres, Thames and Hudson (٩)
- 1970. « Dating by archaeomagnetic and thermoluminescent methods », *P.T.R.S.*, A 269, n° 1193 (٩)
- AKINJOGBIN (I.A.). — 1967. *Dahomey and its neighbours — 1708-1818*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (المقدمة العامة)
- ALAGOA (E.J.). — 1968. « The use of oral literacy data for history », *J.A.F.* 81 (٧).
- 1968. « Songs as historical data. Exemples from the Niger delta », *Research review*, V, 1 (٧)
- 1970. « Long distance trade and states in the Niger delta », *J.A.H.* XI, 3 : 319-29 (المقدمة العامة)
- 1971. « The Niger delta states and their neighbours, 1600-1800 », in J.F.A. AJAYI and Michael CROWDER (éd.), *History of West Africa*, vol. I, London, Longmans (٢)
- 1973. « Oral tradition and archaeology. The case of Onyoma », *O.M.* 1, 1 (٤) (المقدمة العامة)

الملوي (عبدروس بن الشريف علي العبدروس الناصري الملوي) — ١٩٥٤/١٣٧٤ — ١٩٥٥. بغية الأمل في تاريخ الصومال  
موقاديشيو (المقدمة العامة) (٥) (٦).

ALBERTI (L.). — 1811. *Description physique et historique des Caffres sur la côte méridionale de l'Afrique*, Amsterdam (٦).

ALEXANDER (Sir J.). — 1967. *Expedition of discovery into the interior of Africa...*, 2<sup>e</sup> éd.; Cape Town (٦).

ALEXANDRE (J.) et ALEXANDRE (S.). — 1968. « Contribution à l'élaboration d'une stratigraphie du Quaternaire, basée sur les variations de climat dans une région du monde intertropical », *VII<sup>e</sup> Congrès INQUA*, 7 (٢١).

ALEXANDRE (P.). — 1970. « Afrique centre-équatoriale et centre-occidentale », *Histoire générale de l'Afrique noire*, Paris, P.U.F. (١٠).

ALEKSEIEV (K.). — 1973. « Sur la classification anthropologique de la population indigène de l'Afrique », *les Problèmes fondamentaux des études africaines*, Moscou (١١).

ALIMEN (H.). — 1955. *Préhistoire de l'Afrique*, Paris, Boubée (٢٢).

— 1957. *The prehistory of Africa*, Londres, Hutchinson (٢٤).

— 1960. « Découverte d'un atelier de l'Acheuléen supérieur, en place, à la limite du 2<sup>e</sup> pluvial et du 3<sup>e</sup> pluvial dans les monts d'Ougarta (Sahara occidental) », *B.S.P.F.* 57 : 421-3 (٢٢).

— 1962. « Les origines de l'homme », *Bilan de la science*, Paris, Fayard (الخاتمة)

— 1963. « Considérations sur la chronologie du Quaternaire saharien », *B.S.G.F.* 5 : 627-34 (١٣).

— 1966. *Préhistoire de l'Afrique*, réédition, Paris, Boubée, 340 p. (المقدمة العامة) (٢٨) (٢٤) (٢٣) (٢٢) (٢١) (١٣)

— 1975. « Les isthmes hispano-marocain et sicilo-tunisien aux temps acheuléens », *Anthropologie*, 79, 3 : 399-430 (٢٢).

— 1975. « Limite Pliocène-Quaternaire et définition du Quaternaire », *Prace o Plejstocie, Livre jubilaire du Professeur ROXYCKI*, Varsovie (١٦).

— 1976. Variations climatiques dans les zones désertiques de l'Afrique nord-équatoriale durant les quarante derniers millénaires, *Actes VII<sup>e</sup> P.P.E.Q.*, pp. 337-347, Addis Abeba (١٦).

ALIMEN (H.) et CHAVAILLON (J.). — 1956. « Industrie acheuléenne in situ de l'oued Fares, dans les monts d'Ougarta (Sahara occidental) », *B.S.P.F.* 53-202-14. (٢٢).

ALIMEN (H.), CHAVAILLON (J.) et MARGAT (J.). — 1965. « Contribution à la chronologie préhistorique africaine. Essai de corrélation entre les dépôts quaternaires du bassin Guir-Saoura (Sahara) et du bassin du Tafilat (Maroc) », *Congr. Préhist. de France*, Monaco, 1959, pp. 161-267, 2 fig. et 1 tableau (١٦).

ALLEN (J.W.T.). — 1959. « The collection of swahili literature and its relation to oral tradition and history », *T.N.R.* 53 (٦).

ALMAGRO-BASCH (M.). — 1946. « Prehistoria del Norte Africa y del Sahara español », Barcelona, *Instit. Estud. afr.*, 302 p. (١٢).



- ALMAGRO-BASCH (M.) et GORBEA (M.A.). — 1968. « Estudios de arte rupestre nubio », *Memorias de la Misión arqueologica en Egipto* 10, Madrid (٢٢).
- AMER (M.). — 1933. « The excavations of the egyptian University at Maadi », *B.F.A.* 1 : 322-4 (٢٥).
- 1935. « The excavations in the prehistoric site at Maadi », *B.F.A.* II : 176-8 (٢٥).
- 1953. « Rizkana, I. Excavations in the Wadi Digla », *B.F.A.* XV : 97-100, 201-205 (٢٥).
- ANCAUX DE FAVAU (A.). — 1955. « Les gisements préhistoriques de Kansenia », *Actes II<sup>e</sup> Congr. P.P.E.Q.* : 333-4 (٢١).
- 1957. « Une industrie sur galets spéciale aux plateaux des Bianco (Katanga-Congo belge) », *Acts III<sup>e</sup>. P.C.P.Q.S.* : 210-3 (٢١).
- 1962. « Evolution parallèle de deux ou plusieurs techniques au Paléolithique ancien et moyen sur les hauts plateaux katangais. Fouilles 1960-1961 », *Actes VI<sup>e</sup> Congr. I.S.P.P.*, III : 230-5. (٢١).
- ANDERSON (B.). — 1870. *Narrative of a journey to Mussardu, the capital of the western mandigoes*, New York (١).
- ANTOINE (M.). — 1938. « Notes de préhistoire marocaine. XIV : un cône de résurgence du Paléolithique moyen à Tit-Mekil, près Casablanca », *B.S.P.M.*, 12 (٢٢).
- APTER (D.). — 1955. *The Gold Coast in transition*, Princeton, Princeton Univ. Press, X + 355 p. (٢).
- ARAB-FAQIH. — 1897-1910. *Histoire de la conquête de l'Abyssinie*, Paris, R. Basset, 2 vol. (١).
- ARAMBOURG (C.). — 1949. « Sur la présence dans le Villafranchien d'Algérie de vestiges éventuels d'industrie humaine », *C.R.A.S.* 229 : 66-7 (٢٢).
- 1954. « L'hominien fossile de Ternifine (Algérie) », *C.R.A.S.* 239 : 293-5 (٢٤).
- 1962. « Etat actuel des recherches sur le Quaternaire en Afrique du Nord », *Actes IV P.P.E.Q.* 40 : 255-77 (١٦).
- 1966. « Aperçu sur les résultats des fouilles du gisement de Ternifine », *Actas V Congr. P.P.E.C.* I : 129-36 (٢٤) (١٦).
- ARAMBOURG (C.) et COPPENS (Y.). — 1967. « Sur la découverte dans le Pléistocène inférieur de la vallée de l'Omo (Ethiopie) d'une mandibule d'Australopithécien », *C.R.A.S.* 265 : 589-90 (١٧).
- 1968. « Découverte d'un Australopithécien nouveau dans les gisements de l'Omo (Ethiopie) », *S.A.J.S.*, 64, 2 : 58-9 (١٧).
- ARAMBOURG (C.) et HOFSTETTER (R.). — 1954. « Découverte en Afrique du Nord de restes humains du Paléolithique inférieur », *C.R.A.S.* 239 : 72-4 (٢٤).
- 1955. « Le gisement de Ternifine. Résultats des fouilles de 1955 et découvertes de nouveaux restes d'*Anianthropus* », *C.R.A.S.* 241 : 431-3 (٢٤).
- 1963. « Le gisement de Ternifine », *I.P.H. Archives* : XXXII, Paris, Masson, 191 p. (٢٢).

- ARKELL (A.J.). — 1949. *The Old Stone Age in the Anglo-Egyptian Sudan*, Cambridge (٢٥).
- 1949. *Early Khartoum. An account of the excavation of an early occupation site carried out by the Sudan Government antiquities service, 1944-1945*, London, Oxford Univ. Press (٢٨) (٢٥) (٢٣).
- 1950. « Gold Coast copies of fifth to seventh century bronze lamps », *Antiquity*, 24 : 38-40 (٢٤).
- 1953. *Shaheinab. An account of the excavation of a Neolithic occupation site carried out for the Sudan antiquities service in 1949*, London, Oxford Univ. Press (٢٨) (٢٥) (٢٣).
- 1954. « The late Acheulean of Esh Shaheinab », *Kush*, I : 30-4 (٢٣).
- 1961. *History of the Sudan*, 2<sup>e</sup> éd., London, Athlone (٢٨).
- 1964. *Wanyanga and an archaeological reconnaissance of the South-West libyan desert. The british Ennedi expedition, 1957*, London, Oxford Univ. Press (٢٣).
- 1975. « Prehistory of the Nile Valley », *Handbuch der Orientalistik*, VII, Abteilung, Band 2, Abschnitt A. Lief 1, Leiden-Köln (٢٨).
- ARKELL (W.J.) et SANDFORD (K.S.). — 1933. *Palaeolithic man and the Nile Valley in Nubia and Upper Egypt*, Chicago (٢٣).
- ARMSTRONG (R.). — 1964. « The use of linguistics in ethnogeography », in J. VANSINA and al., *The historian in tropical Africa*, Oxford, Oxford Univ. Press (١٠).
- 1971. « The collection of oral traditions in Africa », *A.U.A.* 579-83 (٧).
- A.S.E.Q.U.A. — 1964 et années suivantes. *Bulletin* n° 1 et suivants (١٦).
- 1966. « Etat des recherches sur le Quaternaire de l'Ouest africain », 1<sup>re</sup> série, *B.I.F.A.N.*, 28 : 371-429 (٢٤).
- 1967. « Etat des recherches sur le Quaternaire de l'Ouest africain », 2<sup>e</sup> série, *B.I.F.A.N.*, A, 29 : 821-65 (٢٤).
- 1969. « Etat des recherches sur le Quaternaire de l'Ouest africain », 3<sup>e</sup> série, *B.I.F.A.N.*, A, 31 : 210-83 (٢٤).
- ATHERTON (J.H.). — 1972. « Excavations at Kamabai and Yagala Rock Shelters, Sierra Leone », *W.A.J.A.* 2 : 39-74 (٢٤).
- 1973. « The Stone Age/Iron Age transition in Northeast Sierra Leone », *Underground West Africa*, 7 (٢٤).
- AUBREVILLE (H.). — 1949. « Climats, forêts, désertification de l'Afrique tropicale », Paris, Larose, 351 p. (١٣).
- 1962. « Savanisation tropicale et glaciations quaternaires », *Andanson*, 2, 1 : 1684 (١٣).
- AYACHE (G.). — 1961. « Les archives marocaines », *H.T.* 2 (٧).
- BA (A.H.). — 1972. *Aspects de la civilisation africaine*, Paris, Présence africaine (٨).
- BA (A.H.) et CARDAIRE (M.). — 1957. *Tierno Bokar, le sage de Bandiagara*, Paris, Présence africaine (٨).
- BA (A.H.) et DAGET (J.). — 1962. *L'Empire peul du Macina*. Paris, Mouton (٨).

- BA (A.H.) et DIETERLEN (G.). — 1961. *Koumen, texte initiatique des pasteurs peul.* (المقدمة العامة).
- BA (O.). — 1972. *Glossaire des mots étrangers passés en Pulaar du Fouta Toro*, Dakar, C.L.A.D. (١٠).
- BABET (V.). — 1936. « Note préliminaire sur un atelier de pierres taillées à Brazzaville (Afrique équatoriale française) », *B.S.P.F.* 33 : 153-5 (٢١).
- BAILLOUD (A.). — 1966. « L'évolution des styles céramiques en Ennedi », *Actes I<sup>re</sup> coll. intern. Archéol. Afr.* (المقدمة العامة).
- البكري — ١٩٦٨. (طرق أفريقيا البيضاء والسوداء بالشمال الغربي) (قرطبة ١٠٦٨) انظر مونتايل، ترجمة المعهد الفرنسي لافريقيا السوداء، ٣٠، ٣٩ — ١١٦ (٢٤).
- BALANDIER (G.). — 1971. *Sociologie actuelle de l'Afrique Noire*, 3<sup>e</sup> éd. — Paris, P.U.F. (المقدمة العامة).
- BALANDIER (G.) et MAQUET (J.). — 1968. *Dictionnaire des civilisations africaines*, Paris, Hazan (٤) (المقدمة العامة).
- BALBI (A.). — 1826. *Atlas ethnographique du globe ou Classification des peuples anciens et modernes d'après leurs langues*, Paris (١٢).
- BALL (J.). — 1939. *Contributions to the geography of Egypt*, Survey and Mines Dept., 308 p. (١٦).
- BALOUT (L.). — 1952. « Du nouveau à l'Aïn Hanech », *B.S.H.N.A.N.* 43 : 152-9 (٢٢).
- 1952. « Pluviaux, interglaciaires et préhistoire saharienne », *Trav. I.R.S.* 8 : 9-21 (٢٣) (١٦).
- 1955. in ARAMBOURG et BALOUT, « L'ancien lac de Tihodaine et ses gisements préhistoriques », *Actes II<sup>e</sup> Congr. P.P.E.Q.* : 287-92 (٢٣).
- 1954. « Les hommes préhistoriques du Maghreb et du Sahara. Inventaire descriptif et critique », *Libyca*, II (٢٢).
- 1955. *Préhistoire de l'Afrique du Nord*, Paris, A.M.G. (٢٣) (٢٢) (١٢).
- 1958. *Algérie préhistorique*, Paris, A.M.G. (٢٣).
- 1965. « Le Moustérien du Maghreb », *Quaternaria*, 7 : 43-58 (٢٢).
- 1967. « Procédés d'analyse et questions de terminologie dans l'étude des ensembles industriels du Paléolithique inférieur en Afrique du Nord », *Background to evolution in Africa*, Chicago, London, the Univ. of Chicago Press : 701-35 (٢٢).
- 1967. « L'homme préhistorique et la Méditerranée occidentale », *R.O.M.M.* III : 9-29 (٢٢).
- 1968. « L'art rupestre nord-africain et saharien. Etat de quelques problèmes », *Simposio internacional de arte rupestre*, Barcelona : 257-64 (٢٢).
- 1976. *Orientations nouvelles de la préhistoire maghrébine. In memoriam Pedro Bosch Gimpera, 1891-1974*, Mexico, pp. 99-113 (٢٢).
- BALOUT (L.) et al. — « Fiches typologiques africaines », 9 cahiers publiés depuis 1967 sous l'égide des *Congr. P.P.E.Q.* (٢٢).
- BALOUT (L.), BIBERSON (P.) et TIXIER (J.). — 1967. « L'Acheuléen de Ternifine, gisement de l'Atlanthrope », *Anthropologie*, 71 : 217-37 (٢٢).

- BALOUT (L.) et ROUBET (C.). — 1970. « Datation radiométrique de l'Homme de l'Aïn Dokkara et de son gisement, l'Escargotière du Chacal, région de Tébessa, Algérie », *Libyca*, 18 : 21-35 (٢٢).
- BARBER (E.J.W.). — 1974. *Archaeological decipherment. A handbook*, Princeton, Princeton Univ. Press (١).
- BARBEY (C.) et DESCAMPS (C.). — 1969. « A propos des Pebble-tools de la Moyenne-Gambie », *B.I.F.A.N.*, A, 31 : 276-82 (٢٤).
- BARBOT (J.). — 1732. *A description of the coasts of North and South Guinea*, Churchill's voyages, Londres, A. et J. Churchill (١).
- BARENDSON (G.W.), DEEVEY (E.S.) et GRALENSKI (L.J.). — 1965. « Yale natural radiocarbon measurements III », *Science* 126 : 916-7 (٢٤).
- BARRAU (J.). — 1962. « Les plantes alimentaires de l'Océanie, origines, distribution et usages », *Annales du Musée colonial de Marseille* 7, III-IX, 275 p. (٢٧).
- 1975. « L'Asie du Sud-Est, berceau cultural ? », *Etudes rurales* : 53-6 (٢٧).
- BARROW (J.). — 1801-1803. *Travels into the interior of the Southern Africa*, London, 2 vol. (٦).
- BARRY (B.). — 1974. « La chronologie dans la tradition orale du Waalo. Essai d'interprétation », *Afrika Zamani*, 3 : 31-49 (٤).
- BASSET (R.). — 1894. *Etudes sur les dialectes berbères*, Paris (١٠).
- 1909-1913. *Mission au Sénégal*, Paris, Leroux, 3 vol. (١٠)(٦).
- BATTISTINI (R.). — 1967. *L'Afrique australe et Madagascar*, Paris, P.U.F. 230 p. (١٣).
- BAULIN (J.). — 1962. *The Arab role in Africa*, London, Penguin books (٥).
- BAUMANN (H.). — 1936. *Geschichte und Urzeit des Menschen in Mythos der Afrikanischen Völker*, Berlin (٧).
- BAUMAN (H.) et WESTERMANN (D.). — 1962. *Les Peuples et les Civilisations de l'Afrique*, Paris, Payot (١٠)(٦) (القدمة العامة)
- BAUMGARTEL (E.J.). — 1955. *The culture of prehistoric Egypt*, Oxford (٢٨).
- BAYLE DES HERMENS (R. DE). — 1967. « Premier aperçu du Paléolithique inférieur en République centrafricaine », *Anthropologie*, 71 : 135-66 (٢١).
- 1969. « Les collections préhistoriques de la République centrafricaine au Musée royal de l'Afrique centrale, C.M. VII : 27-40 (٢١).
- 1971. « Quelques aspects de la préhistoire en République centrafricaine », *J.A.H.* XII : 579-97 (٢١).
- 1975. « Recherches préhistoriques en République centrafricaine », *Laboratoire d'ethnologie et de sociologie comparative, série Recherches ousbanguiennes* n° 3; Paris, Université de Paris X, 345 p. (٢١).
- 1976. « A la découverte de la préhistoire en République centrafricaine », *Archeologia* n° 92 (٢٦).
- BAYLE DES HERMENS (R. DE) et VIDAL (P.). — 1971. « Deux datations sur la méthode du Carbone 14 des monuments mégalithiques de Bouar, R.C.A. », *C.M.* IX : 81-2 (٢١).
- BAYNON (J.). — 1970. « The-Contribution of linguistics to history in the field of Berber studies », *Language and history of Africa* (١٥)(١٠) (٦).

- BEALE (F.C.). — 1966. *The anglo-gambian stone circles expedition 1964/65*, Bathurst, Government Printer (٢٤).
- BEATTIE (J.). — 1968. « Aspects of Nioro symbolism », *Africa* 38, 4 : 413-42 (٧).
- BEAUCHENE (G. DE). — 1963. « La Préhistoire du Gabon », *Objets et Mondes*, T. III (٢١).
- BEBEY (F.). — 1969. *Musique de l'Afrique*, Expressions, Horizons de France, Paris.
- BECKER (C.H.). — 1968. « Materialien zur Kenntnis des Islam in Deutsch Ost-Afrika », *I.N.R.* LXVII (٦) (٥) (المقدمة العامة)
- BECKINGHAM (C.F.) et HUNTINGFORD (G.W.B.). — 1954. *Some records of Ethiopia 1593-1646*, London (٧).
- BEHRENSMEYER (A.K.). — 1975. « The taphonomy and paleoecology of Plio-Pleistocene vertebrate assemblages east of Lake Rudolf, Kenya », *Bull. Mus. Comp. Zool* (١٧).
- BEIDELMAN (Th.). — 1970. « Myth, legend and oral history : A Kaguru traditional text », *Anthropos* 65 : 74-97 (٧).
- BEQUAERT (M.). — 1938. « Les fouilles de Jean Colette à Kalina », *A.M.R.C.B.* I, 2 : 29-88 (٢١).
- 1952. « Fouilles à Dinga (Congo Belge) », *Actes II Congr. P.P.E.Q.* : 317-53 (٢١).
- 1953. « La préhistoire du Congo Belge et ses relations avec la préhistoire africaine sud-saharienne à l'Holocène », *B.S.R.B.A.P.* LXIV : 37-49 (٢١).
- BEQUAERT (M.) et MORTELMANS (G.). — 1955. « Le Tshitoli dans le bassin du Congo », *A.A.R.S.C.* II, 5, 40 p. (٢١).
- BERG (F.). — 1968. « The Swahili Community of Mombasa 1500-1900 », *J.A.H.* IX : 35-56 (٦) (٥) (المقدمة العامة)
- BERGER (R.). — 1970. « Ancient Egyptian Chronology », *P.T.R.S.* 269, 1193 : 23-36 (١).
- BERGGREN (W.A.). — 1973. « Correlation and calibration of late Pliocene and Pleistocene marine and continental biostratigraphies », *Acts IX Congr. I.N.Q.U.A.* (١٦).
- BERQUE (J.). — 1957. *Histoire sociale d'un village égyptien au XX<sup>e</sup> siècle*, Paris (١٥).
- BERTIER (H.). — 1933. « Le cahier de l'écriture de Radama I », *M.A.M.* 36 (٦).
- BESANCON (J.). — 1957. *L'Homme et le Nil*, Paris, Gallimard (٢٨).
- BIBERSON (P.). — 1961. « Le cadre paléogéographique de la préhistoire du Maroc atlantique », Rabat, *Pub. Serv. Antiq. Maroc*, T. 17, 544 p. (٢٢).
- 1961. « Le paléolithique inférieur du Maroc atlantique », Rabat, *Pub. Serv. Antiq. Maroc*, T. 17 (٢٣).
- 1965. « Recherches sur le Paléolithique inférieur de l'Adrar de Mauritanie », *Actes V<sup>e</sup> Congr. P.P.E.Q.* : 173-89 (٢٣).
- BIEBUYCK (D.) et MATEEME (K.C.). — 1969. *The Mwindo Epic from the Banyanga (Congo Republic)*, Berkeley, Los Angeles (٧).

- BIRDELL (J.B.). — 1972. *Human evolution. An introduction to the new physical anthropology*, Rand McNally and Co, 299 p. (٤).
- BIROT (P.). — 1970. *L'Afrique, les régions naturelles du globe*, Paris, Masson (١٣).
- BISHOP (W.W.). — 1965. « Quaternary geology and geomorphology in the Albertine rift valley, Uganda », *G.S.A.M.* 84 : 293-321 (٢١).
- BISHOP (W.W.) et CLARK (J.D.) (éd.). — 1967. *Background to evolution in Africa*, Chicago Univ. Press., 935 p. (المقدمة) (٢٤) (٢٣) (٢٢) (١٩) (١٦).
- BISHOP (W.W.) et MILLER (J.A.) (éd.). — 1972. « Calibration of hominoid evolution », *Univ. of Toronto Press* (٢٠) (١٦).
- BITTNER (M.). — 1897. *Die topographischen Capital des indischen Seespiegels Mohit*, Vienne (٦).
- BIVARD (A.D.H.) et HISKETT (M.). — 1962. « The arabic literature of Nigeria to 1804 : a provisional account », *B.S.A.O.S.* XXV, 1 (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- BLANKOFF (B.). — 1965. « Quelques découvertes récentes au Gabon », *B.S.P.P.G. L.* 3 : 52-60 (٢١).
- 1966. « L'état des recherches préhistoriques au Gabon », *Actes I<sup>er</sup> coll. intern. archéol. afr.* : 62-80 (٢١).
- BLEEK (D.F.). — 1929. *Comparative vocabularies of the Bushman languages*, University Press, Cambridge (١٠).
- BLEEK (W.H.I.). — 1851. *De nominum generibus, linguarum Africae australis, copticae, semitarum, aliarumque sexualium*, Bonn, A. Marcus, IV + 60 p. (١٢).
- 1862-1869. *Comparative grammar of South African languages*, Cape-town, Juta, 2 vol. (١٢) (١٠).
- BLOCH (M.). — 1939. *La Société féodale. La Formation des liens de dépendance*, vol. 1, 34 et 34 bis de *l'Evolution de l'humanité*, dirigée par H. BERR, Paris (١).
- 1949. *Apologie pour l'Histoire ou le métier d'historien*, Paris, A. Colin (٧).
- BLUNDEL (H.W.). — 1923. *The royal chronicles of Abyssinia, 1769-1840*, Londres (٦).
- BLUNDEL (H.W.), BOAZ (N.) et HOWELL (F.C.). — 1977. « A gracile hominid cranium from upper member G of the Shungura Formation, Ethiopia », *A.J.P.A.* 46, 1 : 93-108 (١٧).
- BOAHEN (A.A.) et WEBSTER (J.B.). — 1970. *The growth of african civilization. West Africa since 1800*, London, Longmans (٨) (المقدمة العامة).
- BOBO (J.). — 1956. « Un ensemble de stations moustéro-atériennes aux environs de Djanet (Tassili des Ajjer) », *Libyca*, 4 : 263-8 (٢٢).
- BONATTI (E.). — 1966. « North mediterranean climate during the last Würm glaciation », *Nature*, 209, 5027 : 985-7 (١١).
- BOND (G.). — 1956. « A preliminary account of the Pleistocene geology of the plateau Tia Fields region of Northern Nigeria », *Proc. III Intern. W.A.C.* : 187-202.

- BONIFAY (E.). — 1975. « Stratigraphie du Quaternaire et âge des gisements préhistoriques de la zone littorale des Alpes-Maritimes », *B.S.P.F.* 72, 7 : 197-206 (١٦).
- BONNEFILLE (R.). — 1972. *Associations polliniques actuelles et quaternaires en Ethiopie (vallées de l'Awash et de l'Omo)*, thèse, Paris, 2 tomes (١٦).
- 1974. « Etude palynologique de dépôts plio-pléistocènes d'Ethiopie », *A.S.E.Q.U.A. B.*, 42-3 : 21-2 (١٦).
- 1976. « Végétation et climats des temps oldowayens et acheuléens à Melka Kunturé (Ethiopie) », *l'Ethiopie avant l'Histoire*, Cahier 1 : 55-71 (١٧).
- BONNEL DE MEZIERES (A.). — 1920. « Recherches sur l'emplacement de Ghana et de Tekrour », *M.A.I.*, 13, 1 : 227-77 (٢٤).
- BONNET (A.). — 1961. « La "pebble culture" in situ de l'Idjerane et les terrasses de piémont du Sahara central », *B.S.P.F.* 58 : 51-61 (٢٣).
- BOSMAN (W.). — 1967. *A new and accurate description of the coast of Guinea*, London, Frank Cass & Co (١).
- BOSTON (J.S.). — 1964. « The Hunter in Igala legends of origin », *Africa* 34 : 118-20 (٧).
- BOULLE (M.), VALLOIS (H.V.) et VERNEAU (R.). — 1934. *Les Grottes paléolithiques des Bani Ségoual (Algérie)*, Paris, Masson (٢٢).
- BOUNAK (V.). — 1972. « Du cri au langage », *Le Courrier*, août-sept. (الخاتمة).
- BOUYSSONIE (J.), BREUIL (H.) et al., — 1956. *Musée du Bardo, coll. préhist., planches*, Album n° 1, Paris, A.M.G. (٢٣).
- BOVIER-LAPIERRE (P.). — 1925. « Le Paléolithique stratifié des environs du Caire », *Anthropologie*, XXXV : 37-46 (٢٥).
- BOXER (C.R.). — 1959. (Dir.) *The tragic history of the sea, 1589-1622*, University Press, Cambridge (٦).
- BOYLE (A.H.) et JEFFREYS (W.). — 1947. « Speculative origins of the fulany language », *The language of Africa*. vol. 17 (١٠).
- BRADBURY (R.E.). — 1959. « Chronological problems in the study of Benin history », *J.H.S.N.* 1 : 263-87 (٢٤).
- BRAHIMI (C.). — 1970. *L'Ibéromaurusien littoral de la région d'Alger*, Paris, A.M.G. (٢٢).
- 1972. *Initiation à la préhistoire de l'Algérie*, Alger (٢٢).
- BRAIDWOOD (R.J.). — 1960. « The agricultural revolution », *Scientific America*, september (٢٧).
- BRAIDWOOD (R.J.) et REED (C.A.). — 1957. « The achievement and early consequence of food production ; a consideration of the archaeological and natural historical evidence », *Cold spring harbour symposium on quantitative biology* (٢٧).
- BRAIN (C.K.). — 1958. « The Transvaal Ape-Man. Bearing cave deposits, Transvaal museum », *Mémoire n° 11*, Prétoiria (٢٠).
- BRASIO (A.). — 1952. *Monumenta missionaria africana*, Lisbonne, 9 vol. (٢٠).
- BRAUDEL (F.). — 1969. *Ecrits sur l'histoire*, Paris, Flammarion (المقدمة العامة).

- BREASTED (J.H.). — 1906. *Ancient Records of Egypt*, vol. IV, Chicago, University Chicago Press (٢٨).
- BREUIL (Abbé H.). — 1931. *L'Afrique*, Cahiers d'art, Paris (٢٤).
- 1944. « Le Paléolithique au Congo Belge d'après les recherches du docteur Cabu ; VI Plateau de Bena Tshitolo » *T.R.S.A.* XXX :143-60 (٢١).
- 1952. « Les figures incisées et ponctuées de la grotte de Kiantapo (Katanga) », *A.M.R.C.B.* : 1-32 (٢١).
- BREZILLON (M.). — 1970. *Dictionnaire de la Préhistoire*, Paris, Larousse (الخاتمة).
- BROTHWELL (D.) et SHAW (Th.). — 1971. « A late Upper Pleistocen proto-West African negro from Nigeria », *Man*, 6, 2 : 221-7 (٢٤).
- BROUTANOH (A.). — 1867. « La tradition orale chez les Agni Ahali de Moronou », *B.I.E.G.T.* (٧).
- BROWN (G.). — 1941. *The Economic History of Liberia*, Washington, Associated Publishers, IX + 366 p. (٣).
- BROWNE (W.G.). — 1806. *Travels in Africa, Egypt and Syria*, London (١).
- BRUCE (J.). — 1790. *Travels to discover the source of the Nile*. Edimbourg, 5 vol. (١).
- BRUNTON (G.). — 1928. *G. Brunton and G. Caton-Thompson, The Badarian civilization*, London, Quaritch (٢٨) (٢٥).
- 1937. *Nostagedda, British Museum expedition to Middle Egypt 1928-1929*, London, Quaritch (٢٨) (٢٥).
- 1948. *Matma, British Museum expedition to Middle Egypt 1929-1931*, London, Quaritch (٢٨) (٢٥).
- BRYANT (A.T.). — 1929. *Olden times in Zululand and Natal*, London (١).
- BUCHA (V.). — 1970. « Evidence for changes in the Earth's magnetic field intensity », *P.T.R.S.* 269, 1193 : 47-56 (١).
- 1971. « Archaeomagnetic dating », H.N. MICHAEL and E.K. RALPH (éd.) *Dating techniques for the archaeologist*, Cambridge, Mass. (١).
- BUDA (J.L.), SCHROEDER (R.A.), PROTSCH (R.) et BERGER (R.). — 1974. « Concordance of collagen based radiocarbon and aspartic acid raumization ages », *AATA*, 11, 2 (١).
- BUEDEL (J.). — 1958. « Die Flaeschenbildung in den feuchten Tropen und die Rolls fossier solcher Flaeschen in anderen Klimazonen *A.D.G.*, 89-121 (١٦).
- BULCK (G.V.). — 1948. « Les recherches linguistiques au Congo belge », *M.I.R.C.B.* (١٠).
- BURKE (K.), DUROTYE (A.B.) et WHITEMAN (A.J.). — 1971. « A dey Phase south of Sahara, 20 000 years ago », *W.A.J.A.* I (٢٤).
- BUTLER (J.). — 1966. *Boston University Papers on Africa. Prehistoric Populations in Africa*, Boston (الخاتمة).
- BUTZER (K.W.). — 1957. « The last « pluvial » phase of the eurafrican subtropics », *les Changements de climats, recherches sur la zone aride*, Paris, Unesco, 20 : 211-6 (١٣).



- 1958. « Studies zum vor-und-frühgeschichtlichen Landschaftswandel der Sahara », *Akademie des Wissenschaften und der Litteratur*, n° 1, 49 p. (٢٣).
- 1972. *Environment and Archaeology*, 2<sup>e</sup> éd., Chicago ; (1<sup>re</sup> éd., 1964, Londres), XXVIII + 703 p. (٢٨)(٢٤)(١٦)
- BUTZER (K.W.) et HANSEN (C.L.). — 1968. *Desert river in Nubia*, Madison, Univ. of Wisconsin Press (١١)
- BUTZER (K.W.) et ISAAC (G.L.). — 1975. *After the australopithecines, Stratigraphy, ecology and culture change in the middle pleistocene*, La Haye (١١).
- BUTZER (K.W.), RICHARDSON (J.L.) et WASHBOURKNKAMAU (C.). — 1972. « Radio-carbon dating of East African Lake levels », *Science*, 175 : 1069-76 (٢١)(١٦)
- BUTZER (K.W.) et THURBER (D.L.). — 1969. « Some late cenozoic sedimentary formations of the Lower Omo Basin », *Nature*, 222, 5199 : 1132-7.
- BYNON (J.). — 1970. « The contribution of linguistics to history in the field of berber studies », D. DALBY (éd.) *Language and history in Africa* (١٥)(١١) (٦).
- CABU (F.). — 1935. « Considérations sur la stratigraphie de gisements pléistocènes à outillage paléolithique de la région de Léopoldville », *B.S.R.B.A.P.* 50 : 269-84 (٢١).
- 1935. « Les industries préhistoriques de la cuvette centrale congolaise et leurs rapports avec la préhistoire générale », *B.S.R.B.A.P.* 50 : 399-411 (٢١).
- CADENAT (P.). — 1957. « Fouilles à Columnata. Campagne 1956-57. La nécropole », *Libyca*, V : 49-81 (٢٢).
- 1962. « Sur l'extension de la civilisation capsienne vers l'ouest », *B.S.P.F.*, 59 : 27-32 (٢٢).
- 1970. « Le Columnatien, industrie épipaléolithique de l'Algérie », *B.S.E.R.P.* 20 : 40-50 (٢٢).
- CAHEN (D.). — 1975. « Le site archéologique de la Kamoa (région du Shaba, République du Zaïre). De l'Age de la pierre ancien à l'Age du fer », *A.M.R.A.C.* 84 (٢١).
- 1976. « Nouvelles fouilles à la pointe de la Gombe (ex-pointe de Kalina), Kinshasa, Zaïre », *Anthropologie*, 80, 4 : 573-602 (٢١).
- 1977. « Vers une révision de la nomenclature des industries préhistoriques de l'Afrique centrale », *Anthropologie*, 81 (٢١).
- CAHEN (D.), HAESAERTS (P.) et NOTEN (F. VAN). — 1972. « Un habitat lupembien à Massango (Burundi). Rapport préliminaire », *Africa-Tervuren*, XVIII : 78-80 (٢١).
- CAHAN et NOTEN (F. VAN). — 1970. « Des polissoirs dans la grotte de Mpinga (Burundi) », *Africa-Tervuren*, XVI, I : 13-7 (٢١).
- CALEY (E.R.). — 1949. « Validity of the specific gravity method for the determination of the fineness of gold objects », *O.J.S.*, XLIX : 76-92 (١).

- 1948. « On the application of Chemistry of Archaeology », *O.J.S.* XLVIII : 1-8 (١).
- CAMPBELL (B.G.). — 1965. « The Nomenclature of the Hominidae », *Royal anthropological Institute, Occasional paper n° 22* (٢٤).
- CAMPBELL (R.). — 1861. *A pilgrimage to my motherland... among Egba and Yoruba in 1859-60*, Philadelphia (٦).
- CAMP-FABRER (H.). — 1966. *Matière et art mobilier dans la préhistoire nord-africaine et saharienne*, Paris, A.M.G. (٢٣) (٢٢).
- CAMP-FABRER (H.), BOUCHUD (J.), CHABEUF (M.), CHAMLA (M.C.), COUVERT (M.), DUGHI (R.) et SIRUGUE (F.). — 1975. *Un gisement capsien de faciès sétifien Madjez II, el-Eulma (Algérie)*, Paris, C.N.R.S., 448 p. (٢٢).
- CAMPS (G.). — 1969. *Amekni, Néolithique ancien du Hoggar*, Paris, A.M.G. (٢٨) (٢٤) (٢٣) (٢٢).
- 1974. *Les Civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara*, Paris, Doin, 366 p. (٢٨) (٢٢).
- CANDOLLE (A.). — 1883. *L'Origine des plantes cultivées*, Paris, F. Alcan (٢٧).
- CAPORIAMCO (L. DI) et GRAZIUSI (P.). — 1934. *Le pitture rupestri di Aïn Doua (Auenat)*, Florence, Centro di studi coloniali (٢٢).
- CAPOT-REY (R.). — 1953. *Le Sahara français*, Paris, P.U.F. 487 p. (٢٣).
- CAPRILLE (Y.P.). — 1972. *Carte des langues du Tchad*, Paris, I.G.N. (١١).
- CARRE (J.M.). — 1932. *Les Voyageurs français en Egypte, 1517-1840*, Paris (٦).
- CARSON (P.). — 1962. *Materials for West African history in the archives of Belgium and Holland*, London (٢٤) (٦).
- 1968. *Materials for West African history in french archives*, London, the Athlone Press (٢٤) (٦).
- CARTER (G.F.). — 1964. « Archaeological Maize in West Africa : a discussion of Stanton and Willet », *Man*, 64 p. 95 (٢٤).
- CARTER (P.L.) et FLIGHT (C.). — 1972. « Report on the fauna from the sites of Ntereso and Kintampo Rock Shelter six in Ghana : with evidence for the practice of animal husbandry during the second millennium B.C. », *Man*, 7, 2 : 227-32 (٢٤).
- CASTANHOSO (M.). — 1548. *Historia das cousas que o muy esfrocado Dom Christouao da Gama fez nos Reynos de Preste Joao*, Lisboa (١).
- CATON-THOMPSON (G.). — 1928. *The Badarian civilization*, London (٢٨).
- 1946. « The aterian industry : its place and significance in the Palaeolithic world », *J.R.A.I.*, 44 p. (٢٣).
- 1952. *Kharga oasis in Prehistory*, London, the Athlone Press (٢٥) (٢٣).
- CATON-THOMPSON (G.) et GARDNER (E.W.). — 1934. *The desert Fayum*, London, Royal anthropological Institute, 114 p. (٢٨) (٢٥) (٢٤) (٢٣).
- CAVAZZI de MONTECUDOLO (G.A.). — 1687. *Istorica descrizione dei tre regni Congo*, Bologne (١).

- CELIS (M.). — 1972. *Gepolijst archeologisch stenen materiaal uit de Demokratische Republiek van Zaire*, thèse, Gand, Université de Gand (۲۱).
- CENIVAL (J.-L. DE). — 1973. *L'Egypte avant les Pyramides, IV<sup>e</sup> millénaire, Grand Palais, 29 mai-3 septembre 1973*, Paris, éd. des Musées nationaux (۲۸).
- CERULLI (E.). — 1926. « Iscrizioni e documenti arabi per la Storia della Somalia », *Rivista degli studi orientali* : 1-24 (۶) (۵) (المقدمة العامة).
- 1957. *Somalia, scritti vari editi e inediti, I*, Roma (۶) (۵) (المقدمة العامة).
- CHAMARD (Ph.). — 1969-70. *Le Bassin versant de la Sebkhia de Chemchane (Adrar de Mauritanie)*, Dakar, Fac. Lettres-Sc. hum., 205 p. (۲۳).
- CHAMLA (M.C.). — 1968. « Les populations anciennes du Sahara et des régions limitrophes : étude des restes humains néolithiques et protohistoriques », *M.C.R.A.P.E.* 9 (۲۱) (۲۲).
- 1970. *Les hommes épipaléolithiques de Columnata (Algérie occidentale)*, Paris, A.M.G. (۲۲).
- 1973. « Etude anthropologique de l'Homme capsien de l'Aïn Dokkara (Algérie orientale) », *Libyca*, XXI : 9-53.
- CHAMOT (E.M.) et MASON (C.W.). — 1938. *Handbook of chemical microscopy*, vol. I, 2<sup>e</sup> éd., New York, Wiley (۱).
- CHAMPAULT (B.). — 1953. « L'industrie de Tachenghit », 70<sup>e</sup> Congr. A.F.S.S., 126 p. (۲۳).
- CHASSELOUP-LAUBAT (F. DE). — 1938. *L'Art rupestre au Hoggar (Haut Mertoutek)*, Paris, Plon, 63 p. (۲۳).
- CHAVAILLON (J.). — 1936. « Quaternaire de la vallée du Guir (Sahara nord-occidental) », *C.R. Som. Séances Soc. Géolog. Fr.* (۲۳).
- 1958. « Industrie archaïque du Paléolithique ancien en place, dans les alluvions de l'oued Guir (Sahara nord-occidental) », *B.S.P.F.* 55 : 431-43 (۲۳).
- 1964. *Les Formations quaternaires du Sahara nord-occidental*, Paris, C.N.R.S., 393 p., 32 pl. (۲۳).
- 1973. « Chronologie des niveaux paléolithiques de Melka Konturé (Ethiopie) », *C.R.A.S.* 276 : 1533-6 (۱۷).
- CHAVAILLON (J.), BRAHIMI (C.) et COPPENS (Y.). — 1974. « Première découverte d'Hominidé dans l'un des sites acheuléens de Melka Konturé (Ethiopie) », *C.R.A.S.* 278 : 3299-3202 (۱۷).
- CHAVAILLON (J.), CHAVAILLON (N.), COPPENS (Y.) et SENUT (B.). — Sous presse. — « Présence d'Hominidé dans le site oldowayen de Gomboré I à Melka Konturé, Ethiopie », *C.R.A.S.*, tome 285, pp. 961-963 (۱۷).
- CHELU (A.). — 1891. *Le Nil, le Soudan, l'Egypte*, Paris, Chaix (۲۸).
- CHESNEAUX (J.). — 1969. *Le Mode de production asiatique*, Paris, Editions sociales (الحاتمة).
- CHEVALIER (A.). — 1938. « Le Sahara, centre d'origine des plantes cultivées », *Société de Biogéographie*, VI : « La vie dans la région désertique nord-tropicale de l'Ancien Monde », Paris : 309-22 (۲۷).

- CHILDE (G.). — 1954. *What happened in history ?*, Harmondsworth, Penguin Books Ltd. (٢٧).
- CHURCH (R.J.H.). — 1969. *Africa and the Islands*, London, Longmans, 494 p. (١٣).
- CISSE (K.) et THILMANS (G.). — 1968. « A propos de la datation des mégalithes séné gambiens », *N.A.* 117 : 13-7 (٢٤).
- CISSOKO (S.M.). — 1967. *Histoire de l'Afrique occidentale*, Paris, Présence africaine (المقدمة العامة).
- CLARK (G.). — 1969. *World Prehistory*, 2<sup>e</sup> éd., Cambridge, Cambridge Univ. Press, XVI + 331 p. (٢٤) (١٩).
- CLARK (J.D.). — 1950. *The Stone Age cultures of Northern Rhodesia*, South African Archaeological Society, Le Cap (٢٠).
- 1957. Third Panafrican Congress on Prehistory, Londres, Chatto and Windus (٢٤).
- 1960. *The Prehistory of southern Africa*. Harmondsworth, Penguin Books Ltd. (٢٤) (٢١) (١٩).
- 1962. « Vegetation patterns, climate and sands in North East Angola », *Actes IV<sup>e</sup> congr. P.P.E.Q.*, 151-66 (٢١).
- 1963. « Ecology and culture in the African Pleistocene », *S.A.J.S.* 59, 7 : 353-66 (٢١).
- 1963. « Prehistoric cultures of northeast Angola and their significance in tropical Africa », *C.D.A.P.C.* 62 (٢١).
- 1964. « The Sangoan culture of Equatoria : the implications of its stone equipment », *Instituto de prehistoria y arqueologia, Monographies, Barcelona*, 9 : 309-25 (٢٠).
- 1966. « The distribution of prehistoric culture in Angola », *C.D.A.P.C.* 73 (٢١).
- 1967. « The problem of Neolithic culture in sub-Saharan Africa », W.W. BISHOP and J.D. CLARK (éd.) *Background to evolution in Africa*, Chicago, Chicago Univ. Press, 601-28 (٢٤).
- 1967. *Atlas of African prehistory*, Chicago, Chicago Univ. Press (١٩) (٢٤).
- 1968. « Review of Oliver Davies's — The Quaternary in the Coastlands of Guinea », *W.A.A.N.* 13, 9 : 37-40 (٢٤).
- 1968. « Further palaeo-anthropological studies in Northern Lunda », *C.D.A.P.C.* 78 (٢١).
- 1969-74. *Kalambo Falls prehistoric site*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, 3 vol. (٢١) (٢٠) (١٩).
- 1970. « The prehistoric origins of african cultures », in J.D. FAGE and R.A. OLIVER, *Papers in african prehistory*, Cambridge (٢١).
- 1970. « The spread of food production in sub-saharan Africa », in J.D. FAGE and R.A. OLIVER, *Papers in african prehistory*, Cambridge (٢٧).
- 1970. *The Prehistory of Africa*, Londres, Thames & Hudson (٢٠) (١٩) (١٤) (٢٤).
- 1971. « Human behavioural differences in Southern Africa during the later Pleistocene », *American Anthropologist*, vol. 73, pp. 1211-1236 (٢٠).

- 1971. « Problems of archaeological nomenclature and definition in the Congo Basin », *S.A.A.B.* XXVI : 67-78 (٢٤).
- CLARK (J.D.) et HAYNES (C.V.). — 1969. « An elephant butchery site at Mwanganda's village, Karonga, Malawi and its relevance for Palaeolithic archaeology », *W.A.* 1, 3 : 390-411 (٢٠).
- CLARK (J.D.), MAWBY (J.E.) et GAUTIER (A.). — 1970. « Interim report on palaeoanthropological investigations in the Lake Malawi Rift », *Quaternaria*, XIII : 305-54 (٢٠).
- CLARK (J.D.) et Le GROS (W.E.). — 1967. « Man-Apes or Ape-Men ? The story of discoveries in Africa », New-York (٢٠).
- CLARK (J.D.) et ZINDEREN BAKKER (E. M. VAN). — 1962. « Pleistocene climates and cultures in North-Eastern-Angola », *Nature*, 196, 4855 : 639-42 (٢١).
- 1964. « Prehistoric cultures and Pleistocene vegetation at the Kalambo Falls, Northern Rhodesia », *Nature*, 201, 4923 : 971-5 (٢١).
- CLARKE (J.). — 1848. *Specimens of dialects : Short vocabulary of languages and notes of countries and customs in Africa*, Berwick-on-Tweed, D. Cameron, 104 p. (١٢).
- CLARK-HOWELL (P.), KLEINDIENST (M.R.) et KELLER (C.M.). — « Isimila, Preliminary report », *Proc. 4<sup>th</sup> P.C.P.Q.S.* (١١).
- CLIMAP. — 1974. *Mapping the atmospheric and oceanic circulations and other climatic parameters at the time of the last glacial maximum about 17 000 years ago*. Climatic research Unit, School of environmental sciences, University of East Anglia, Norwich, 123 p. (١١).
- C.N.R.S. (éd.). — 1974. « Les méthodes quantitatives d'étude des variations du climat au cours du Pléistocène », *Colloque international du C.N.R.S.* n° 219, 317 p. (١١).
- COCKERELL (T.A.D.). — 1907. « A fossil tse-tse fly in Colorado », *Nature*, 76-414 (١٤).
- 1909. « An other fossil tse-tse fly », *Nature*, 80, 128 (١٤).
- 1919. « New species of North American fossil beetles, Cockroaches and tse-tse flies », *Proc. NS. St. Nat. Mus.* 54 : 301-11 (١٤).
- COETZE (J.A.) et ZINDEREN-BAKKER (E. M. VAN). — 1970. « Palaeoecological problems of the Quaternary of Africa », *S.A.J.S.* 66 : 78-84 (٢١).
- COHEN (D.W.). — 1972. *The historical tradition of Busoga. Mukama and Kintu*, Oxford, the Clarendon Press. X + 218 p. (٣).
- COHEN (M.). — 1958. *La Grande Invention de l'écriture et son évolution*, Paris (١٠).
- 1947. *Essai comparatif sur le vocabulaire et la phonétique du Chamitosémitique*, Paris, H. Champion XI + 248 p. (١٢)(١٠).
- COLE (D.T.). — 1971. « The history of African linguistics to 1945 », in *Linguistics in Subsaharan Africa*, vol. VII de *Current trend in linguistics*, dir. T.A. SEBEOK, Paris — La Haye, Mouton (١٢).
- COLE (G.H.). — 1967. « Nsongezi. Summary account », W.W. BISHOP and J.D. CLARK, *Background to evolution in Africa*, 481-528 (١١).

- COLE (S.). — 1964. *The prehistory of East Africa*, New York-London (١١).
- COLEMAN (J.S.). — 1958. *Nigeria. Background to Nationalism*, Berkeley, California Univ. Press., XIV + 510 p. (٢).
- COLES (J.M.) et HIGGS (E.S.). — 1969. *The archaeology of early man*, London (١١).
- COLETTE (J.R.F.). — 1931. « Industries paléolithiques du Congo belge », *Actes XV Congr. I.A.A.P.*, 285-92 (٢١).
- 1935. « Complexe et convergences en préhistoire », *B.S.R.B.A.P.* 50 : 49-192 (٢١).
- COMMONWEALTH ARTS FESTIVAL. — 1965. *Treasures from the Commonwealth*, Commemorative Catalogue, Londres (٢٤).
- CONNAH (G.). — 1967. « Progress report on archaeological work in Bornu. Northern history research scheme, second interim report », *Zaria* (٢٤).
- 1969. « Settlement mounds of the Firki — The reconstruction of a lost society », *Ibadan*, 26 : 48-62 (٢٤).
- 1971. « Recent contributions to Bornu chronology », *W.A.J.A.* I : 55-60 (٢٤).
- 1972. « Archaeology in Benin », *J.A.H.* 13, 1 : 25-38 (٢٤).
- COOK (R.M.). — 1963. « Archaeomagnetism », D. BROTHWELL and E. HIGGS (éd.), *Science in archaeology*, London, Thames and Hudson (١).
- COOKE (C.K.). — 1969. « A re-examination of the "Middle Stone Age" industries of Rhodesia », *Arnoldia*, 17 (٤).
- 1971. « Excavation in Zombepata Cave, Sipolilo District, Mashonaland, Rhodesia », *S.A.A.B.* XXVI : 104-27 (٢٠).
- COOKE (H.B.S.). — 1958. « Observations relating to Quaternary environments in east and southern Africa », *T.G.S.S.A.*, Annexe au vol. 61 (١١) (٢١).
- 1963. « Pleistocene mammal faunas of Africa with particular reference to southern Africa », in F.C. HOWELL and F. BOURLIERE (éd.), *African Ecology and Human evolution*, 65-116 (٢٠).
- 1965. « Tentative correlation of Major Pleistocene deposits in Africa, *The origin of Man, Wenner-Green symposium*, Chicago (٢٤).
- 1972. « Pleistocene chronology : long or short », *Maritimes sediments*, 8, 1 : 1-12 (١١).
- COONS (C.S.). — 1968. *Yengema cave report*, Philadelphia, Univ. of Pennsylvania, p. V + 77 + 35 pl. (٢٤).
- COPANS (J.) et GODELIER (M.). — 1971. *L'Anthropologie, science des sociétés primitives ?*, Paris, Denoël (المقدمة العامة).
- COPPENS (Y.). — 1960. « Les cultures protohistoriques et historiques du Djourab », *Actes 1<sup>re</sup> coll. intern. archéol. afr.* (المقدمة العامة).
- 1961. « Découverte d'un Australopithéciné dans le Villafranchien du Tchad », *C.R.A.S.* 252 : 3851-2. (٢٤)(٢٣).
- 1962. « Découverte d'un Australopithéciné dans le Villafranchien du Tchad », *Colloques internationaux du C.N.R.S.* 104 : 455-9 (٢٢).
- 1965. « L'Hominien du Tchad », *C.R.A.S.* 260 : 2869-71 (٢٤).

- 1965. « L'Hominien du Tchad », *Actes V Congr. P.P.E.C.*, 1 : 329-30 (٢٤).
- 1966. « Le Tchadanthropus », *Antropologia*, 70 : 5-16.
- 1966. « Le gisement des vertébrés quaternaires de l'Ouest africain », *B.I.F.A.N. A*, 27 : 373-81 (٢٤).
- 1970. « Localisation dans le temps et dans l'espace des restes d'Hominidés des formations plio-pléistocènes de l'Omo (Ethiopie) », *C.R.A.S.* 271 : 1968-71 (١٧).
- 1970. « Les restes d'Hominidés des séries inférieures et moyennes des formations plio-villafranchiennes de l'Omo en Ethiopie », *C.R.A.S.*, 271 : 2286-9 (١٧).
- 1971. « Les restes d'Hominidés des séries supérieures des formations plio-villafranchiennes de l'Omo en Ethiopie », *C.R.A.S.* 272 : 36-9 (١٧).
- 1972. « Tentative de zonation du Pliocène et du Pléistocène d'Afrique par les grands Mammifères », *C.R.A.S.* 274 : 181-4 (١٧).
- 1973. « Les restes d'Hominidés des séries inférieures et moyennes des formations plio-villafranchiennes de l'Omo en Ethiopie (récoltes 1970, 1971 et 1972) », *C.R.A.S.* 276 : 1823-6 (١٧).
- 1973. « Les restes d'Hominidés des séries supérieures des formations plio-villafranchiennes de l'Omo en Ethiopie (récoltes 1970, 1971 et 1972) », *C.R.A.S.* 276 : 1981-4 (١٧).
- 1975. « Evolution des Mammifères, de leurs fréquences et de leurs associations au cours du Plio-Pléistocène dans la basse vallée de l'Omo en Ethiopie », *C.R.A.S.* 281 : 1571-4 (١٧).
- 1975. « Evolution des Hominidés et de leur environnement au cours du Plio-Pléistocène dans la basse vallée de l'Omo en Ethiopie », *C.R.A.S.* 281 : 1693-6 (١٧).
- COPPENS (Y.), HOWELL (F.C.), ISAAC (G. LI.) et LEAKEY (R.E.F.). — 1976. *Earliest man and environments in the Lake Rudolf basin*, Univ. of Chicago Press, 615 + XXII p. (١٧) (١٨) (١٧).
- CORBEIL (R.). — 1951. « Les récentes découvertes au Cap-Vert concernant le Paléolithique », *B.I.F.A.N. B*, 13 : 384-437 (٢٤).
- 1951. « Mise en évidence d'industries lithiques anciennes dans l'extrême ouest sénégalais », *C.R. Conf. Intern. Africanistes Ouest* 1, 2 : 387-90 (٢٤).
- CORBEIL (R.), MAUNY (R.) et CHARBONNIER (J.). — 1948. « Préhistoire et protohistoire de la presqu'île du Cap Vert et de l'extrême ouest sénégalais », *B.I.F.A.N. B*, 10 : 378-460 (٢٤).
- CORNÉVIN (R.). — 1962. *Histoire de l'Afrique*, Paris (٥).
- COUPEZ (A.) et KAMAZI (T.). — 1970. *Littérature de cour au Rwanda*, Oxford (٧).
- COURSEY (D.G.). — 1967. *Yams*, London, Longmans-Green, XIV + 230 p. (٢٤).
- 1972. « The origins and domestication of yams in Africa », *Proc. Burg. Wart. Symp.* 56 (٢٤).

- COURSEY (D.G.) et ALEXANDER (J.). — 1968. « African agricultural patterns and the Sick Cell », *Science*, 160 : 1474-5 (٢٤).
- COURTOIS (Ch.). — 1955. *Les Vandales et l'Afrique*, Paris (٥).
- CREACH (P.). — 1951. « Sur quelques nouveaux sites et quelques nouvelles industries préhistoriques d'Afrique occidentale française », *C.R. Conf. Intern. Africanistes Ouest I*, 2 : 397-430 (٢٤).
- CREACH (D.A.). — 1970. « A tale type index for Africa » *Research in Africa, Literatures*, Austin, I, 1 : 50-3 (٧).
- CREACH (S.A.). — 1852. *A vocabulary of the Yoruba Language*, London, Seeleys, V + 38, 219 p. (١٢).
- 1855. « Journal of an expedition up the Niger and Tshadda rivers », London (٧).
- CUGOANO (O.). — 1787. *Thoughts and sentiments on the wicked traffic of the slavery*, Londres (٧).
- CUNY (A.). — 1946. *Invitation à l'étude comparative des langues indo-européennes et des langues chamito-sémitiques*, Bordeaux (١١).
- CUOQ (J.). — 1975. *Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du VIII<sup>e</sup> au XVI<sup>e</sup> siècle (Bilād al-Sūdān)*, Paris, C.N.R.S. 493 p. (٥).
- CURRY (R.R.). — 1969. *Chronologie glaciaire absolue de la Sierra Nevada, Californie, pour les derniers 2 700 000 ans*, Paris (١٦).
- CURTIN (Ph. D.). — 1960. « The archives in tropical Africa : a reconnaissance », *J.A.H.* I, 1, pp. 129-147.
- 1968. « Field Techniques for collecting and processing oral data », *J.A.H.* IX, 3 : 367-85 (٧).
- CURTIN (Ph. D.) et VANSINA (J.). — 1964. « Sources of the 19<sup>th</sup> century Atlantic slave trade », *J.A.H.* 5 (٧).
- CUVELIER (J.) et JADIN (L.). — 1954. *L'Ancien Royaume du Congo d'après les archives romaines 1518-1640*, Bruxelles (٧).
- DAHL (O. C.). — 1951. *Malgache et Maanjan : une comparaison linguistique*, Oslo, Egede Institut, 406 p. (١٢).
- DAIN (A.). — 1961. « Témoignage écrit et philologie », *l'Histoire et ses méthodes*, encyclopédie de la Pléiade, Paris (٥).
- DALBY (D.). — 1965. « The Mel Languages : a reclassification of southern "West Atlantic" », *A.L.S.* 6 (١٢) (١١).
- 1966. « Levels of relationship in the classification of African languages », *A.L.S.* (١١).
- 1967. « Survey of the indigenous scripts of Liberia and Sierra Leone », *A.L.S.* 8 (٧).
- 1970. *Language and History in Africa*, Franck Cassad and Co, Londres, 160 p. (١٠).
- 1970. « Reflections on the classification of African languages, with special reference to the work of Sigismund Wilhem Koelle and Malcolm Guthrie », *African language studies*, XI (١٢).
- DALLONI (M.). — 1935. *Mission au Tibesti (1930-1931)*, Paris, Gauthier - Villard, 2 vol. (٢٣).



- 1948. *Matériaux pour l'étude du Sahara oriental, région entre la Libye, le Tibesti et le Kaouar (Niger)*, Alger, I.R.S., 120 p. (٢٢).
- 1952. « La station moustérienne de Retaïmia près d'Inkermann (Algérie) », *Actes II Congr. P.P.E.Q.* : 419-27 (٢٢).
- DALLONI (M.) et MONOD (Th.). — 1948. « Géologie et préhistoire (Fezzan méridional, Kaouar et Tibesti) », *Mission scientifique du Fezzan (1944-45)*, *Trav. I.R.S.* 6 (٢٢).
- DALLONI (M.), DALRYMPLE (G.), BRENT, LANPHERE et MARVIN (A.) — 1969. *Potassium-Argon Dating. Principles, techniques and applications to geochronology*, San Francisco, W. H. Freeman and Co (٤).
- DALTON (G.). — 1968. *Primitive, archaic and modern economies, essays of Karl Polanyi*, New York (١٢).
- DAMAS (I.) (éd.). — 1966. « Ecological essays : proceedings of the conference of cultural ecology », *Museum of Canada Bull.* 230 (٢٧).
- DANIEL (G.). — *The Tree Ages*, Cambridge, Cambridge University Press (٢٤).
- DANIELS (Ch.). — 1970. *The Garamantes of Southern Libya*, Stoughton, Oleander Press (٢٤).
- DAPPER (O.). — 1668. *Naukeurige Beschrijvinghe des Afrikaenshe Gewesten*, Amsterdam.
- DARLINGTON (C.D.). — 1963. *Chromosomes botany and the origins of cultivated plants*, London, G. Allen Unwin Ltd. (٢٧).
- DAVIDSON (B.). — 1959. *The last cities of Africa*, Boston, Atlantic monthly Press (المقدمة العامة).
- 1964. *The African past*, London, Longmans (المقدمة العامة).
- 1965. *Old Africa rediscovered*, Paris, P.U.F. (المقدمة العامة).
- 1965. *Mère Afrique*, Paris, P.U.F. (المقدمة العامة).
- 1966. *The growth of African civilisation : West Africa 1000-1800*, London, Longmans (المقدمة العامة).
- DAVIES (O.). — 1959. « The distribution of Old Stone Age material in Guinea », *B.I.F.A.N.* B, 21 : 1-2, (٢٤).
- 1960. « The neolithic revolution in tropical Africa », *T.H.S.G.* 4 (٢٤).
- 1961. *Archaeology in Ghana*, Edinburg, Nelson, IV + 45 p. (٢٤).
- 1962. « The Neolithic culture of Ghana », *Actes IV Congr. P.P.E.Q.* 3 : 291-301 (٢٤).
- 1964. *The Quaternary in the Coastlands of Guinea*, Glasgow, Jackson, XVI + 276 p. (٢٤).
- 1966. « The invasion of Ghana from the Sahara in the Early Iron Age », *Actas V Congr. P.P.E.C.* 2 : 27-42 (٢٤).
- 1966. « Comment on : "J. Arkell, B. Fagan and R. Summers, The Iron Age in Sub-Saharan Africa" » *C.A.* 7 : 470-1 (٢٤).
- 1967. « New radiocarbon dates from Ghana », *B.A.S.E.Q.U.A.* 14-15 : 28 (٢٤).
- 1967. *West Africa before the Europeans*, Londres, Methuen, XX + 364 p. (٢٤).

- DAVIES (O.), HUGOT (H.) et SEDDON (D.). — 1968. « The origins of African agriculture », *C.A.* 9, 5 : 479-504.
- DAVISON (C.C.). — 1973. « Glass beads in African archaeology », *A.A.T.A.*, 10, 2 (١).
- DAVISON (C.C.), GIAUQUE (R.D.) et CLARK (J.D.). — 1971. « Two chemical groups of dichroic glass beads from West Africa », *Man* 6, 4 : 645-9 (١).
- DAY (M.H.) et LEAKEY (R.E.F.). — 1973. « New evidence for the genus *Homo* from East Rudolf, Kenya, I », *A.J.P.A.* 39 : 341-54 (١٧).
- 1974. « New evidence for the genus *Homo* from East Rudolf, Kenya, III », *A.J.P.A.* 41 : 367-80 (١٧).
- DAY (M.H.), LEAKEY (R.E.F.), WALKER (A.C.) et WOOD (B.A.). — 1975. « New hominids from East Rudolf, Kenya, I », *A.J.P.A.* 42 : 461-76 (١٧).
- 1976. « New hominids from East Turkana, Kenya », *A.J.P.A.* 45, 3 : 369-436 (١٧).
- DAYRELL (E.). — 1911. « Further notes on nsibidi signs with their meanings from the Ikom district, Southern Nigeria », *J.R.A.I.*, vol. 41, pl. LXV-LXVII (١٠).
- DEACON (H.J.). — 1970. « The Acheulian occupation of Amanzi Springs, Uitenhage district, Cape province », *A.C.P.M.* 8, 11 (٢٠).
- 1972. « Wilton : an assessment after fifty years », *S.A.A.B.* XXVII, 1-2 : 10-48 (٢٠).
- 1972. « A review of the post-Pleistocene in South Africa », *S.A.A.B.*, Goodwin series I : 26-45 (٢٠).
- DEBONO (F.). — 1948. « Le Paléolithique final et le Mésolithique à Héliouan », *A.S.A.E.* XLVIII : 629-37 (٢٥).
- 1948. « El-Omari », *A.S.A.E.* XLVIII : 562-8 (٢٥).
- 1951. « Expédition archéologique royale au Désert oriental », *A.S.A.E.* LI : 59-91 (٢٥).
- 1954. « La nécropole prédynastique d'Héliopolis », *A.S.A.E.* LII : 625-52 (٢٥).
- 1956. « La civilisation prédynastique d'el-Omari (nord d'Héliouan) », *B.I.E.* XXXVII : 331-9 (٢٥).
- 1969. « Le sentiment religieux à l'époque préhistorique en Egypte », *C.H.E.* XI : 1-13 (٢٥).
- 1970. « Recherches préhistoriques dans la région d'Esna », *B.I.F.A.O.* LXIX : 245-51 (٢٥).
- 1971. « Etude des dépôts de silex », *Graffiti de la Montagne thébaine*, Le Caire (٢٥).
- 1971. « Prospection préhistorique (campagne 1972-1973) », *Graffiti de la Montagne thébaine*, t. I, 4, Le Caire (٢٥).
- 1975. « Thèbes préhistorique, ses survivances à l'époque pharaonique », *Actes du XXIX<sup>e</sup> Congr. Inter. Orient.* (٢٥).
- 1976. « L'homme oldowaïen en Egypte », *B.I.E.* (٢٥).
- 1976. « Survivances préhistoriques de l'usage du silex à l'époque pharaonique », *B.I.E.* (٢٥).

- DEGAN (Th.). — 1956. « Le site préhistorique de Tiémassas (Sénégal) », *B.I.F.A.N. B*, 8 : 432-61 (٢٤).
- DELAFOSSÉ (M.). — 1901. *Essai de manuel pratique de la langue mandé ou Mandingue*, Paris, Leroux, 304 p. (١٢).
- 1912. *Haut-Sénégal Niger*, Paris, Larose (١٠).
- 1914. « Mots soudanais du Moyen Age », *Mém. Soc. Ling. Paris*, 18 (١٢) (١٠).
- 1924. « Groupe sénégal-guinéen », A. Meillet et M. Cohen (dir.), *Langues du monde*, Paris, H. Champion, XVI + 811 p. (١٢) (١٠).
- DELANY (M.R.). — 1861. « Official report on the Niger Valley exploring party », Leeds (٦).
- DELCROIX (R.) et VAUFREY (R.). — 1939. « Le Toumbien de Guinée française », *Anthropologie*, 49 : 265-312 (٢٤) (٢٣).
- DELIBRIAS (G.), GUILLIER (M.T.) et LABEYRIE (J.). — 1974. « Gif natural radiocarbon measurements VII », *Radiocarbon*, 16, 1 : 15-94 (٢١).
- DELIVRE (A.). — 1974. *L'Histoire des rois d'Imerina : Interprétation d'une tradition orale*, Paris (٨).
- DEMOUGEOT. — 1960. « Le chameau et l'Afrique du Nord romaine », *Annales*, 209-47 (٢٦).
- DENIS (J.), VENNETIER (P.) et WILMET (J.). — 1971. *L'Afrique centrale et orientale*, Paris, P.U.F., 294 p. (١٣).
- DENNINGER (E.). — 1971. « Use of paper chromatography to determine the age of albuminous binders and its application to rock paintings », *S.A.A.A.S. 2* : 80-4 (٩).
- DENY (J.). — 1930. *Sommaire des archives turques du Caire*, Le Caire (٦).
- DESCAMPS (C.). — 1971. *Sénégal, préservation et mise en valeur du patrimoine archéologique*, « D. Les mégalithiques du Sine-Saloum », Paris, Unesco (٢٤).
- DESCHAMPS (H.). — 1962. « Pour une histoire de l'Afrique », in « Regards sur l'Afrique », *Diogenes* 37, pp. 113-120 (المقدمة العامة).
- 1964. *L'Afrique tropicale aux XVII<sup>e</sup>-XVIII<sup>e</sup> siècles*, Paris, C.D.U. (المقدمة العامة).
- 1969. *L'Afrique noire précoloniale*, Paris, P.U.F. (المقدمة العامة).
- DESCHAMPS (H.) et al.. — 1970. *Histoire générale de l'Afrique noire*, Paris, P.U.F., 2 t. (٧) (المقدمة العامة).
- DESPLAGNES (L.). — 1907. « L'Archéologie préhistorique en Guinée française », *B.S.G.C.* (٢٤).
- 1907. *Le Plateau central nigérien*, Paris (٢١).
- DESPOIS (J.) et RAYNAL (R.). — 1967. *Géographie de l'Afrique du Nord-Ouest*, Paris, Payot, 571 p. (١٣).
- DESTANIQ (Ed.). — 1911. « Notes sur des manuscrits arabes de l'Afrique occidentale », *Revue africaine*. (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- DEVA (I.). — 1974. « La tradition orale et l'étude des sociétés agricoles », *Diogenes*, 85 : 123-42 (٤).
- DIAGNE (P.). — 1972. *Anthropologie de la littérature wolof*, Dakar, I.F.A.N. (١٠).

- 1976. *Enquête linguistique*, Unesco, Tchad (١٠),
- DIALLO (Th.). — 1968. *Les Institutions politiques du Fouta-Djallon au XIX<sup>e</sup> siècle*, Dakar (ronéo.) (٦).
- DIEHL (Ch.). — 1969. *L'Afrique byzantine*, 2<sup>e</sup> éd., New York, 2 vol. (٥).
- DIENG (A.A.). — 1974. *Classes sociales et mode de production esclavagiste en Afrique de l'Ouest*, Paris, C.E.R.M. n° 114 (الطبعة).
- DIENG (A.A.). — 1978. Hegel, Marx, Engels et les problèmes de l'Afrique noir, Paris, Fonkoré.
- DIMBLEBY (G.W.). — 1963. « Pollen analysis », *Science in archaeology*, BROTHWELL (D.) et HIGGS (E.), dir., Londres, Thames and Hudson, pp. 139-149 (٦).
- DIOP (C.A.). — 1955. *Nations nègres et culture*, Paris, Prés. afr. (٢٤)(١٠).
- 1959. *L'Unité culturelle de l'Afrique noire*, Paris, Prés. afr.
- 1960. *L'Afrique noire précoloniale*, Paris, Prés. afr. (٢٤).
- 1962. « Réponse à quelques critiques », *B.I.F.A.N.* B. 24 : 542-74 (٢٤).
- 1962. « Histoire primitive de l'Humanité : évolution du monde noir », *B.I.F.A.N.* B. 24 : 449-541 (٢٤).
- 1973. *Introduction à l'étude des migrations en Afrique occidentale et centrale*, Dakar, I.F.A.N. (١٠)(٦).
- 1974. *Physique nucléaire et chronologie absolue*, Dakar-Abidjan, N.E.A. (١).
- 1977. Parenté génétique de l'égyptien pharaonique et des langues africaines : processus de sémitisation ; la pigmentation des anciens Egyptiens, test par la mélanine, *BIFAN*.
- DIOP (M.). — 1971-72. *Histoire des classes sociales dans l'Afrique de l'Ouest*, Paris, F. Maspero (الطبعة).
- DOBLHOFFER (E.). — 1959. *Le Déchiffrement des écritures* (trad. de l'allemand), Paris, Arthaud (٤).
- DOIZE (R.L.). — 1938. « Les boules de pierre et les pierres perforées des collections de préhistoire du musée du Congo », *A.M.R.A.C.* I : 89-140 (٢١).
- DOKE (C.M.) et COLE (D.T.). — 1961. *Contribution to the history of african linguistics*, Johannesburg, Witwatersrand University Press, 129 p. (١٢).
- DORESSE (J.). — 1971. *Histoire sommaire de la Corne orientale de l'Afrique*, Paris (٥).
- DORIZE (L.). — 1974. « L'oscillation pluviométrique récente sur le bassin du lac Tchad et la circulation atmosphérique générale », *Revue de géographie physique et de géologie dynamique*, 16, 4 : 393-420 (١٦).
- DORSON (R.M.). — 1972. « African Folklore. Garden City (récits, genres oraux, folklore, littérature et histoire) » (٨).
- 1976. « Oral literature, oral history and the folklorist », *Folklore and Fakelore*, Cambridge : 127-44 (٨).
- DORST (J.P.) et DANDELLOT (F.). — 1970. *A field guide to the larger mammals of Africa*, Londres, Collins (٢٤).

- DRAR (M.). — 1963. « Flore du continent africain : région au nord du Sahara », *Enquête sur les ressources naturelles du continent africain*, Paris, Unesco : 257-70 (١٣).
- DRIOTON (E.) et VANDIER (J.). — 1962. *L'Égypte*, 4<sup>e</sup> éd. augmentée, Paris, P.U.F., 2 vol. (٢٨) (٥).
- DROUX (G.) et KELLEY (H.). — 1939. « Recherches préhistoriques dans la région de Boko-Sogho et à Pointe-Noire (Moyen-Congo) », *J.S.A.* 9 : 71-84 (٢١).
- DUBIEF (J.). — 1959. « Le climat du Sahara », *Mém. I.R.S.*, 2 vol. (٢٣).
- DUBOIS (W.E.B.). — 1903. *The souls of black folk*, Mac Clurg (المقدمة العامة).
- 1944. *Black folk then and now*, New York, H. Holt (المقدمة العامة).
- DUMOULIN DE LAPLANTE (P.). — 1947. *Histoire générale synchronique*, Paris (المقدمة).
- DUNBAR (J.H.). — 1941. *Some nubian rock pictures of lower Nubia*, Le Caire (٢٣).
- DUNHAM (D.). — 1955. *Nuri, the royal cemeteries of Kush*, Boston, University of Fine Arts (٢٨).
- DUNHILL (A.). — 1969. *The Pipe Book* (éd. révisée), Londres, Barker (٢٤).
- DUVEYRIER (H.). — 1864. *Les Touaregs du Nord*, Paris, Challamel, 502 p (٢٣).
- DUVIGNEAUD (P.). — 1958. « La végétation du Katanga et de ses sols métallifères », *Bulletin de la société royale de botanique de Belgique*, 90, 2 : 126-278 (٢١).
- DUYVENDAK (J. J.L.). — 1949. *China's discovery of Africa*, London (٥).
- 1973. « Eastern african coast », *J.R.A.S.* : 98-122 (١٦) (٥) (المقدمة العامة).
- EBOUÉ (F.). — 1933. « Les peuples de l'Oubangui-Chari. Essai d'ethnographie, de linguistique et d'économie sociale », *Ethnographie* 27 : 3-79 (٢١).
- EDWARDS (I.E.S.). — 1970. « Absolute dating from Egyptian records and comparison with carbon-14 dating », *P.T.R.S.* 269, 1193 : 11-9 (٩).
- EGHAREVBA (J.). — 1960. *A short history of Benin*, Ibadan, Ibadan Univ. Press (٢٤).
- EHRET (Ch.). — 1963. « Sheep and central sudanic peoples », *J.A.H.* IX, 2 (المقدمة العامة).
- الكثاني (م) ١٩٦١. « التاريخ وطريقته » باريس، موسوعة لالمبياد (المقدمة العامة).
- ١٩٦٨. « مخطوطات الغرب الافريقي بخزانات المغرب » هيبيريس تامودا ١٩٠٩ : ٥٧ — ٦٣ (المقدمة العامة).
- ١٩٦٨. « اقسام الوثائق والمخطوطات للخرزانات المغربية »، هيبيريس تامودا، الرباط. ٣٤٩ : ٤٥٩ — ٦٨ (المقدمة العامة).
- التونسي (أ) — ١٨٤٥. « رحلة الى دارفور »، ترجمة الدكتور بيزون، باريس (٦).
- EMERY (W.B.). — 1961. *Archaic Egypt*, Harmondsworth, Penguin Book (٢٨).
- 1965. *Egypt in Nubia*, London, Hutchinson (٢٨).

- EMILIANI (C.). — 1975. « Paleoclimatological Analysis of Late Quaternary Cores from the Northeastern Gulf of Mexico », *Science*, 189, 4208 : 1083-7 (١٦).
- EMPHOUX (J.P.). — 1970. « La grotte de Bitorri au Congo-Brazzaville », *Cah. O.R.S.T.O.M.* II : 3-20 (٢١).
- ENCYCLOPEDIE DE L'ISLAM, 2<sup>e</sup> éd., Leyde (٥) (المقدمة العامة).
- ENGELMAYER (R.). — 1965. *Die Felsgravierungen in Distrikt Sayala Nubien*, Vienna, H. Böhlau Nachf, 90 p. (٢٢).
- ENNOUCHI (E.). — 1962. « Un néandertalien : l'homme du Djebel Irhoud », *Anthropologie*, 66 (٢٢).
- ERMAN (A.) et RANKE (H.). — 1952. *Aegypten und aegyptischen Leben im Altertum*, Tübingen. Traduction française : *La Civilisation égyptienne*, Paris, Payot (٢٨).
- EYO (E.). — 1969. « Excavation at Ile-Ife », *Afr. Arts* : 44-7 (٢٤).
- 1972. « Rop Rock Shelter excavations 1964 », *W.A.J.A.* 2 : 13-6 (٢٤).
- 1972. « New treasures from Nigeria », *Expedition*, 14, 2 : 1-11 (٢٤).
- 1974. « Excavations at Odo-Ogbe Street and Lafogido, Ife, Nigeria », *W.A.J.A.* 4 (٢٤).
- EVANS-PRITCHARD (E.E.). — 1939. « Nuer Time Reckoning », *Africa* 12 : 189-216 (٧).
- EWING (G.W.). — 1954. *Instrumental methods of chemical analysis*, Londres, McGraw Hill Book Company Inc. (١).
- EYRE (S.R.). — 1963. *Vegetations and Soils*, Londres (١٤).
- FAEGRI (K.) et IVERSEN (J.). — 1950. *Introduction to pollen analysis*, Copenhagen (١).
- FAGAN (B.M.). — 1969. « Radiocarbon dates for sub-saharan Africa, VI », *J.A.H.* 10 : 149-69 (٢٤).
- FAGAN (B.M.) et NOTEN (F. VAN). — 1971. « The Hunter-Gatherers of Gwisho », *A.M.R.A.C.* 74, XXII + 228 p. (٢١).
- FAGE (J.D.). — 1962. *An introduction to the history of West Africa*, 3<sup>e</sup> éd., Cambridge (المقدمة العامة).
- 1965. *An atlas of African history*, London, Ewd. Arnold.
- 1970. *Africa discovers her past*, Oxford, Oxford Univ. Press (١٥).
- FAGE (J.D.) et OLIVER (R.A.). — 1970. *Papers in African prehistory*, Cambridge Univ. Press (الخاصة).
- FAGG (A.). — 1972. « Pottery from the Rock Shelter excavations of 1944 and 1964 », *W.A.J.A.* 2 : 29-38 (٢٤).
- 1972. « Excavation of an occupation site in the Nok Valley, Nigeria », *W.A.J.A.* 2 : 75-9 (٢٤).
- FAGG (B.E.B.). — 1944. « Preliminary report on a microlithic industry at Rop Rock Shelter, Northern Nigeria », Cambridge, *Proceedings of the prehistoric society*, 10 : 68-9 (٢٤).
- 1945. « A preliminary note on a new series of pottery figures from Northern Nigeria », *Africa*, 15 : 21-2 (٢٤).
- 1956. « An outline of the Stone Age of the Plateau Minesfield », *Proc. III Internat. W.A.C.* 203-22 (٢٤).

- 1956. « The Nok culture », *W.A.R.* 27 : 1083-7 (٢٤).
- 1959. « The Nok culture in prehistory », *J.H.S.N.* 1,4 : 288-93 (٢٤).
- 1962. « The Nok terracottas in west african art history », *Actes IV Congr. P.P.E.Q.* III : 445-50 (٢٤).
- 1968. « The Nok culture : excavations at Taruga », *W.A.A.N.* 10 : 27-30 (٢٤).
- 1969. « Recent work in West Africa ; new light on the Nok culture », *W.A.* I : 41-50 (٢٤).
- 1972. « Rop Rock Shelter excavations 1944 », *W.A.J.A.* 2 : 1-12 (٢٤).
- FAGG (B.E.B.) et FLEMING (S.J.). — 1970. « Thermoluminescent dating of a terracotta of the Nok culture, Nigeria », *Archaeometry*, 12 : 53-5 (٢٤).
- FAGG (W.). — 1963. *Nigerian images*, London, Lund Humphries, 124 p. (٢٤).
- FAGG (W.) et WILLETT (F.). — 1960. « Ancient Ife : an ethnographical summary », *ODU*, 8 : 21-35 (٢٤).
- FARAG (N.) et ISKANDER (A.). — 1971. *The Discovery of Neferwptah*, Le Caire (١).
- FARINE (B.). — 1963. *Sites préhistoriques gabonais*, ministère de l'Information, Libreville (٢١).
- 1965. « Recherches préhistoriques au Gabon », *B.S.P.P.G.*, vol. I, 3, pp. 68-84 (٢١).
- 1967. « Quelques outils principaux des divers faciès préhistoriques des districts de Ndjole et de Booué », *B.S.P.P.G.* : 22-36 (٢١).
- FAULKNER (R.O.). — 1953. « Egyptian military organisation », *J.E.A.* 39 : 32-47 (٢٨).
- FAURE (H.). — 1962. *Reconnaissance géologique des formations sédimentaires postpaléozoïques du Niger oriental*, thèse, Paris (٢٢).
- 1967. « Evolution des grands lacs sahariens à l'Holocène », *Quaternaria* 15 : 167-75 (١٦).
- 1969. « Lacs quaternaires du Sahara », *Internationale Vereinigung für theoretische und Angewandte Limnologie*, 17 : 131-48 (١٦).
- FAURE (H.) et ELOUARD (P.). — 1967. « Schéma des variations du niveau de l'océan Atlantique sur la côte de l'ouest de l'Afrique depuis 40 000 ans », *C.R.A.S.* 265 : 784-7 (٢٤).
- FEREMBACH (D.). — 1970. *Les Cro-Magnoïdes de l'Afrique du Nord. L'Homme de Cro-Magnon*, Paris, A.M.G. (٢٢).
- FEREMBACH (D.), DASTUGUE (J.) et POITRAT-TARGOWLA (M.-J.). — 1962. *La Nécropole épi-paléolithique de Tatoralt (Maroc oriental)*, Casablanca (٢٢).
- FERGUSON (J.). — 1969. « Classical contacts with West Africa », L.A. THOMPSON and J. FERGUSON (éd.), *Africa in classical antiquity*, Ibadan, Ibadan Univ. Press, IX + 221 p. (٢٤).
- FIELDS (P.R.), MILSTED (J.), HENRICKSEN (E.) et RAMETTE (R.W.). — 1971. « Trace impurities copper ores and artefacts », *Science and archaeology* (٤).

- FILESI (T.). — 1962. *La Relazione della Cina con l'Africa nel medioevo*, Milano (٥).
- FILIPOWIARK (M.). — 1969. « L'expédition archéologique polono-guinéenne à Niani en 1968 », *Africana* II : 107-17 (٢٤).
- 1969. « Discovering Niani », *Polish Rev.*, 4, 92 : 14-6 (٢٤).
- FINNEGAM (R.). — 1970. *Oral literature in Africa*, Oxford (٨).
- FISHER (H.J.). — 1972. « He swalloweth the ground with fierceness and rage : the horse in the central Sudan », *J.A.H.*, 13-3 : 367-88 (٢٤).
- FLAMAND (G.B.M.). — 1902. « Les pierres écrites (Hadjrat Mektoubat), du nord de l'Afrique et spécialement de la région d'In Salah », *Anthropologie*, 12 : 535-8 (٢٣).
- 1921. *Les pierres écrites (Hadjrat Mektoubat). Gravures et inscriptions rupestres du Nord africain*, Paris, Masson (٢٣).
- FLEMING (H.C.). — 1969. « The classification of west cushitic within Hamito-Semitic », D.F. McCALL, N.R. BENNETT and J. BUTTER (dir.), *Eastern african history*, New York, Washington, London and Praeger (١٢).
- FLIGHT (C.). — 1970. « Kintampo 1968 », *W.A.A.N.* 12 : 71-3 (٢٤).
- FLINT (R.F.). — 1947. *Glacial geology and the Pleistocene epoch*, London, New York, 589 p. (١١).
- 1959. « Pleistocene climates in Eastern and Southern Africa », *B.G.S.A.* 70 : 343-74 (٢١)(١٦).
- 1959. « On the basis of Pleistocene correlation in East Africa », *Geology magazine* V, 96 : 265-84 (٢٤)(٢١).
- 1971. « Glacial and Quaternary Geology », New York, Wiley, p. XIV + 892 (٢٤)(١٦).
- FLUTRE (L.F.). — 1957. *Pour une étude de la toponymie de l'A.O.F.*, Dakar, publication de l'Université (المقدمة العامة).
- FODOR (I.). — 1966. *The Problems in the classification of the african languages*, Budapest, Center for afro-asian research of the Hungarian Acad. Sc. (٤).
- FOERSTER (R.) éd. — 1893. *Scriptores physiognomici* (١١).
- FORBES (R.J.). — 1964. *Studies in ancient technology*, Leyde, Brill. 1. (٢٨).
- FORD (J.). — 1971. *The historical role of tsé-tsé*, The Clarendon Press, Oxford (المقدمة العامة).
- FORDE (D.). — 1954. *African worlds*, Londres, O.U.P. (المقدمة العامة).
- 1956. *Efik trades of old Calabar*, Londres (١).
- FORTES (M.) et EVANS-PRITCHARD (E.E.). — 1962. *African political systems*, London, O.U.P. (المقدمة العامة).
- FOSBROOKE (H.A.). — 1950. « Rock-paintings of north-central Tanzania », *T.N.R.* 29 (١١).
- FOUREAU (F.). — 1883. « Excursion dans le Sahara algérien », *l'Explorateur* 16 (٢٣).
- 1905. *Documents scientifiques de la mission saharienne*, mission Foureau-Lamy, d'Alger au Congo par le Tchad, Paris, Masson, 3 vol. (٢٣).



- FOURNIER (F.). — 1963. « Les sols du continent africain », *Enquête sur les ressources naturelles du continent africain*, Paris, Unesco, 227-255 (١٣).
- FREEMAN (Th.). — 1844. *Journal of various visits to the kingdom of Ashanti, Dahomey and Abeokuta*, Londres (٦).
- FREEMAN-GRENVILLE (G.S.P.). — 1958. « Swahili literature and the history and archaeology of the East African Coast », *J.E.A.S.C.* : 28, 2. (١) (٥) (المقدمة العامة).
- 1959. « Medieval evidences for Swahili », *J.E.A.S.C.* 29, 1 (٥) (المقدمة العامة) (٦).
- 1960. « East African coin finds and their historical significance », *J.A.H.*, 1 : 31-43 (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- 1962. *The East African coast, select documents from the first to the early nineteenth century*, Oxford (٦).
- FROBENIUS (L.). — 1913. *The voice of Africa*, Londres, B. Bleen (المقدمة العامة).
- 1937. *Ekade Ektab. Die Felsbilder Fezzan*. Veröffentlichung des Forschungsinstitut für Kulturmorphologie, Leipzig, Harrasowits (٢٣).
- 1949. *Mythologie de l'Atlantide*, Paris, Payot (المقدمة العامة).
- 1952. *Histoire de la civilisation africaine*, Paris, Gallimard (المقدمة العامة).
- FROBENIUS (L.) et OBERMAIER (H.). — 1923. *Hadschra Mektuba*, Munich, K. Wolff (٢٣).
- FROGER (J.). — 1965. « La machine électronique au service des sciences humaines », *Diogène* 52 : 110-44 (١).
- FROUDE (J.A.). — 1888. *The English in the West Indies*, Oxford (١).
- FURON (R.). — 1943. *Manuel d'archéologie préhistorique*, Paris, Payot (الخاتمة).
- 1958. *Manuel de préhistoire générale*, Paris, Payot (الخاتمة).
- 1960. *Géologie de l'Afrique*, Paris, Payot, 351 p. (١٣).
- FYNN (N.F.). — 1950. *The diary of... 1803-61*, Pietermaritzburg (٦).
- GABEL (C.). — 1966. « Prehistoric populations of Africa », *B.U.P.A.* : 1-37 (١٥).
- GABEL (C.) et BENNET (N.R.). — 1967. *Reconstructing african culture history*, Boston, Boston Univ. Press (١٥).
- GALTON (F.). — 1853. *Narrative of an explorer in tropical Africa*, Londres (٦).
- GARDINER (A.H.). — 1947. *Ancient egyptian onomastica*, Londres, Oxford Univ. Press (٢٨).
- 1957. *Egyptian Grammar*, 3<sup>rd</sup> edit., Londres, Oxford Univ. Press (٢٨).
- GARDNER (J.V.) et HAYS (J.D.). — 1975. « Eastern equatorial Atlantic : sub-surface temperature and circulation responses to global climatic charge during the past 200,000 years », *G.S.A.M.* 145 (١٦).
- GARLAKE (P.). — 1974. « Excavations at Obalara's Land, Ife, Nigeria », *W.A.J.A.* 4 (٢٤).
- GASSE (F.). — 1975. *L'Evolution des lacs de l'Afar Central (Ethiopie et T.F.A.I.) du Plio-Pléistocène à l'Actuel*, thèse, Paris, Université de Paris VI, 3 vol. (١٦).

- GAUSSEN (M. et J.). — 1965. « Un atelier de burins à Lagreich-Néo. 1, Oued Tilemsi (Mali) », *Anthropologie*, 69 (٢٢).
- GAUTHIER (E.F.). — 1914. « Minette de St-Martin, note sur une collection préhistorique saharienne », *Revue africaine* (٢٢).
- 1933. « Deux centres d'influence méditerranéenne qui rendent intelligible l'Afrique occidentale », *B.S.G.F.* : 71-2 (المقدمة العامة).
- 1946. *Le Sahara algérien*, Paris (٢٢).
- 1950. *Le Sahara*, 3<sup>e</sup> éd., Paris, Payot, 231 p. (٢٢).
- GAUTHIER (E.F.) et REYGASSE (M.). — 1923. « Découverte d'un outillage moustérien à outils pédonculés atériens dans le Tidike't, oueld Asriouel, région d'Aoulef Chorfa », *Actes 46<sup>e</sup> congr. A.F.A.S.* (٢٢).
- 1934. « Les monuments de Tin Hinan », *A.A.S.C.* 7, 12 p. (٢٢).
- GENTNER (W.) et LIPPOLT (H.J.). — 1963. « The potassium-argon dating of Upper Tertiary and Pleistocene deposits », *Science in Archaeology*, BROTHWELL D. et HIGGS E. (dir.), Londres, Thames and Hudson : 72-84 (١).
- GERMAIN (G.). — 1957. *Qu'est-ce que le périple d'Hannon ?*, Rabat (٥).
- GEUS (F.). — 1976. *Rapport annuel d'activité 1975-76*, Khartoum, Service des Antiquités du Soudan (٢٨).
- GIEGENGACK (R.F.). — 1968. *Late Pleistocene history of the Nile Valley in Egyptian Nubia*, Ph. D. Dissertation, Yale University (١٦).
- GILBERT (E.W.). — 1932. « What is historical geography ? » *The Scottish geographical magazine*, 48, 3 (١٤).
- GLELE (M. Ahanhanzo). — 1974. *Le Danxome, du pouvoir Aja à la nation Fon*, Paris, Nubia (١٠).
- GOBERT (E.G.). — 1951-52. « El-Mekta, station princeps du capsien », *Karthago*, 2, 72 p. (٢٢).
- 1963. « Bibliographie critique de la préhistoire tunisienne », *Cah. de Tunisie*, 41-42 : 37-77 (٢٢).
- GODEE-MOLSBERGEN (E.C.). — 1916-1932. *Reüsen in Zuid Africa in the Hollandse Tijd*, La Haye, 4 vol. (٧).
- GOODWIN (A.J.H.) et RIET LOWE (C. VAN). — 1929. « The Stone Age Cultures of South Africa », *A.S.A.M.* 27 (٢٠).
- GOODY (J.). — éd. 1968. *Literacy in traditional societies*, Cambridge (٧).
- GOROG-KARADY (V.). — 1966-1972. « Littérature orale africaine : bibliographie analytique (périodiques) », *C.E.A.* 21, VIII : 243-501 ; 36, IX : 631-66 ; 40, X : 583-631 ; 45, XII : 174-92 (٧).
- GOUROU (P.). — 1970. *L'Afrique*, Paris, Hachette, 488 p. (١٣).
- GRANDIDIER (A. et G.). — 1903-1920. *Collections des ouvrages concernant Madagascar*, Paris, Comité de Madagascar, 9 vol. (١٢).
- GRAY (R.). — 1965. « Eclipse maps », *J.A.H.*, VI-3 pp. 251-262 (٧).
- 1968. « Annular eclipse maps », *J.A.H.* IX, I pp. 147-157 (٧).
- GRAY (R.) et CHAMBERS (D.S.). — 1965. *Materials for West African history in italian archives*, Londres (٢٤) (٧).
- GRAZIOSI (P.). — 1924. *L'arte rupestre della Libia*, Naples, Ediz. della mostra d'oltremare (٢٣).

- GREENBERG (J.H.). — 1948. « The classification of African languages », *A.A.* (١٠).
- 1954. « Etude sur la classification des langues africaines », *B.I.F.A.N. B.*, XVI (١٠)(١) (المقدمة العامة)
- 1957. *Essays in linguistics*, Chicago (١٠).
- 1957. « Nilotic hamitic and hamito-semitic », *Africa*, 27 (١٢)(١٠)
- 1963. *Langues et Histoire en Afrique*, Présence africaine n° 45, pp. 35-45 (١٥)(١٠).
- 1963. « The language of Africa », *I.J.A.L.* 29, 1 (٢٤)(١٢)(١٠)(١٠)
- 1963. « History and present status of the Kwa problem », *Actes II coll. Intern. L.N.A.*
- 1966. *The languages of Africa*, Indiana Univ. (المقدمة العامة)
- 1966. *The languages of Africa*, The Hague, Mouton, 2<sup>e</sup> éd., 180 p. (١٢).
- 1971. *Language culture and economy*, Stanford Univ. Press (١٠).
- 1972. « Linguistic evidence regarding Bantu origins », *J.A.H.* 13, 2 : 189-216 (١٢).
- GREGENSEN (E.A.). — 1967. « Linguistic seriation as a dating device for loanwords with special reference to West Africa », *A.L.R.* (١٠).
- 1977. *Languages in Africa : An introductory survey*, New York-Paris-Londres, Gordon and Breach (١٢).
- GRIAULE (M.). — 1947. « Mythe de l'organisation du monde chez les Dogon du Soudan », *Psyché*, 6 : 443-53 (٨).
- 1949. « L'image du monde au Soudan », *J.S.A.* 19 : 81-7 (٨).
- 1952. « Etendue de l'instruction traditionnelle au Soudan », *Zaire* 6 : 563-8 (٨).
- GRIAULE (M.) et DIETERLEN (G.). — 1951. « Signes graphiques soudanais », *L'homme*, 86 p. (١٠).
- 1965. *Le Renard pâle*, « I : le mythe cosmogonique », Paris, 544 p. (٨).
- GRIFFITH (F.L.). — 1927. « The Abydos Decree of Seti I at Mauri », *J.E.A.* 13 : 193-208 (٢٨).
- GROVE (A.T.) et PULLAN (R.A.). — 1964. « Some aspects of the palaeogeography of the Chad Basin », F. Clark-Howell and Bourlière (éd.), *African ecology and human evolution*, London, 230-45 (٢٤)(١٦).
- GROVE (A.T.), STREET (F.A.) et GOUDIE (A.S.). — 1975. « Former lake levels and climatic change in the rift valley of southern Ethiopia », *G.J.* 141, 2 : 177-202 (١١).
- GROVE et WARREN (A.). — 1968. « Quaternary landforms and climate on the South Side of the Sahara », *G.J.* 134 : 194-208 (٢٤).
- GRUET (M.). — 1954. « Le gisement moustérien d'El-Guettar », *Karthago*, 5, 79 p. (٢٣)(٢٢).
- GSELL (S.). — 1913-28. *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*, Paris, 8 vol. (٥).
- GUEBHARD (P.). — 1907. « Trois abris sous roche fouillés dans le Fouta-Djallon », *B.G.H.D.* 3 : 408-20 (٢٤).
- GUERNIER (F.). — 1952. *L'Apport de l'Afrique à la pensée humaine*, Paris, Payot (المقدمة العامة)

- GUILLOT (R.) et DESCAMPS (C.). — 1969. « Nouvelles découvertes préhistoriques à Tiémassas (Sénégal) », *B.I.F.A.N. B*, 31 : 602-37 (٢٤).
- GUMA (S.M.). — 1967. *The form, content and technique of traditional literature in Southern Sotho*, Pretoria (٧).
- GUITAT (R.). — 1972. « Présentation de pièces pédonculées d'El Azrag (Mauritanie) », *N.A.* 135 : 29-33 (٢٢).
- GUTHRIE (M.). — 1948. *The classification of the Bantu languages*, Londres-New York, Oxford Univ. Press, 91 p. (١٢).
- 1962. « Some developments in the prehistory of the Bantu languages », *J.A.H.*, 3, 2 : 273-82 (١٢).
- 1967. *Comparative Bantu*, Londres, Faber and Faber (١٠).
- 1969. *Linguistics and history*, Londres, d'Alby (١٠).
- HABERLAND (E.). — 1973. *L. Frobenius*, Wiesbaden, Franz Steiner Verlag (٢٦).
- HABLE SELASSIE (S.). — 1967. *Source material for ancient and medieval history of Ethiopia*, communication au Congrès international des Africanistes, Dakar (٥).
- HADJIGEORGIOU (C.) et POMMERET (Y.). — « Présence du lupembien dans la région de l'estuaire », *B.S.P.P.G.* 1,3 : 111-31 (٢١).
- HAIR (P.E.H.). — 1965. « The enslavement of Koelle's informants », *J.A.H.* 6 (٦).
- HALKIN (L.E.). — 1963. *Initiation à la critique historique*, Paris, A. Colin (١٥) (المقدمة العامة).
- HALL (E.T.). — 1965. « Recent research at the Research Laboratory for archaeology and the history of art », *Proc. Sem. A.S.E.W.A.*, Boston (9).
- 1970. « Analytical techniques used in archaeometry », *P.T.R.S.* 269, 1195 (٩).
- HALPERN (J.W.), HARRIS (J.E.) et BARNES (C.). — 1971. « Studying skulls in Egypt », *Research News, Ann Arleor*, The University of Michigan, vol. XXII, n° 1 (٩).
- HAMILTON (E.I.). — 1965. *Applied Geochronology*, Londres, Academic Press, p. 47-79 (١٦) (٩).
- HAMY (E.T.). — 1900. « La grotte de Kakimbon à Rotoma près de Konakry », *C.R. 12 Congr. Intern. A.A.P.* (٢٤).
- HANOTAUX (G.) et MARTINEAU (A.) dir. — 1931. *Histoire des colonies françaises*, Paris, 8 vol. (١).
- HARLAN (J.R.). — 1975. *Crops and man*, American society of agronomy, Madison, Wisconsin (٢٧).
- HARLAN (J.R.), WET (J.M. DE) et STEMLER (A.B.L.) dir. — 1976. *Origins of African plant domestication*, Paris-La Haye, Mouton (٢٧).
- HARLEY (G.V.). — 1950. Compte rendu de « Masks as agents of social control in Northeast Liberia », Peabody Museum, Harvard Univ., vol. XXXII (١٥).
- HARRIES (L.). — 1962. *Swahili poetry*, Oxford (١).
- 1964. « The Arabs and Swahili culture », *Africa* XXXIV : 224-9 (٦) (٥) (المقدمة العامة).

- HARRIS (D.). — 1969. « Agricultural systems, ecosystems and the origin of agriculture », P.J. UCKO and G.W. DIMBLEBY (éd.), *The domestication and exploitation of plants and animals*, Londres, Duckworth (٢٧).
- HARRIS (J.R.). — 1961. *Lexicographical studies in ancient Egyptian minerals*, Berlin (٢٨).
- HARTLE (D.D.). — 1966. « Archaeology in Eastern Nigeria », *W.A.A.N.* 5 : 13-7 (٢٤).
- 1968. « Radiocarbon Dates », *W.A.A.N.* 9 : 73 (٢٤).
- 1970. « Preliminary Report of the University of Ibadan's Hainji Rescue Archaeology Project », 1968, *W.A.A.N.* 12 : 7-19 (٢٤).
- HARTMANN (F.). — 1923. *L'Agriculture dans l'ancienne Egypte*, Paris (٢٨).
- HASSAN (F.A.) et WENDORF (F.). — 1974. « A sibilian assemblage from El-Elh », *Chronique d'Egypte*, 49 : 211-22 (٢٥).
- HAU (E.). — 1959. « Evidence of the use of pre-portuguese written characters by the Bini », *B.I.F.A.N.* XXI (١٠).
- HAY (R.L.). — 1976. *Geology of the Olduvai Gorge*, Los Angeles-Berkeley-Londres, 203 p. (١٧).
- HAYES (W.C.). — 1964. *Most Ancient Egypt*, Chicago-Londres, K.C. Seele (٢٨).
- HAYS, (J.D.), SAITO (T.), OPDYKE (N.D.) et BURCKLE (L.H.). — 1969. « Pliocene-Pleistocene sediments of the Equatorial Pacific : their paleomagnetic, biostratigraphic and climatic record », *G.S.A.B.* 80 : 1481-1513 (١٦).
- HEINTZE (B.). — 1976. « Oral traditions. Primary sources only for the collector », *History in Africa : A journal of method*, 3.
- HEINZELIN de BRAUCOURT (J. DE). — 1957. *Les fouilles d'Ishango*, Bruxelles (٢١).
- 1963. « Paleoecological conditions of the Lake Albert - Lake Edward Rift », *Viking Fund Publ. Anthropol.* 36 (١١).
- HEINZELIN de BRAUCOURT (J. DE, BROWN (F.E.) et HOWELL (F.C.). — 1971. « Plio-Pleistocene formations in the lower Omo basin (Southern Ethiopia) », *Quaternaria* (١٦).
- HENIGE (D.P.). — 1971. « Oral Tradition and Chronology », *J.A.H.*, XII, 3 (٧).
- 1974. *The chronology of oral tradition. Quest for 2 Chimera*, Oxford, Studies in African affairs (٧).
- HERBERT (E.W.). — 1973. « Aspects of the use of copper in pre-colonial West Africa », *J.A.H.* 14, 2 : 179-94 (٢٤).
- HERODOTE. — éd. 1964. *Histoires*, trad. George Hawlinson, Londres, Dent, vol. 1, p. XXI + 366 (٢٤).
- HERVIEU (J.). — 1969. « Les industries à galets aménagés du haut bassin de la Benoué (Cameroun) », *B.A.S.E.Q.U.A.* 22 : 24-34 (٢١).
- HERZOG (R.). — 1938. *Punt*, Glückstadt (١١).
- HESTER (J.J.). — 1968. In « Comments », *C.A.* 9 (٢٧)(٥).
- HEUSCH (L. DE). — 1972. *Le Roi ivre ou l'Origine de l'Etat*, Paris (٧).
- HIBEN (F.C.). — 1967. « Lukuliro », *Archaeology* XX : 247-53 (١٨).

- HIERNAUX (J.). — 1970. « La diversité biologique des groupes ethniques », *Histoire générale de l'Afrique noire*, Paris, P.U.F. (المقدمة العامة) (١١).
- 1974. *Rapport sur le concept de race*, Paris, Unesco (١١).
- HILL (P.). — 1963. *Migrant Cocoa-farmers in southern Ghana*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, XVI + 265 p. (٢).
- HINTZE (F.). — 1951. « Revue de l'essai comparatif sur le vocabulaire et la phonétique du chamito-sémitique de M. COHEN », *Z. Phon* 5, 65, 87 (١٠).
- 1955. « Die sprachliche Stellung des Meroitischen », *Deutsche Akademie der Wissenschaften Veröff.*, 26 : 355-72 (١٢).
- HINTZE (F. et U.). — 1967. *Alte Kulturen im Sudan*, Munich, G.D.W. Callwey, 148 p. (٢٨).
- HIRTH (F.). — 1909-10. « Chinese notices of East African territories », *J.A.O.S.* 30 (٥).
- HISKETT (M.). — 1957. « Material relating to the state of learning among the Fulani before their jihad », *B.S.A.O.S.* 19 (٦).
- HJALMAR (L.). — 1962. « Die Merimdekeramik im Mittelmeermuseum », *Orientalia Suecana*, XI (٢٨).
- HOCKETT (Ch. F.) et ASCHER (R.). — 1964. « The Human Revolution », *C.A.* 5, 3 (٤).
- HODGE (C.T.). — 1968. « Afro-asiatic 67 » in *Language sciences, Indiana* (١٠).
- HODGKIN (Th.). — 1956. *Nationalism in colonial Africa*, Londres (٢).
- HODGKIN (Th.). — 1966. « The Islamic literary tradition in Ghana », I.M. LEWIS (dir.), *Islam in Tropical Africa*, Oxford (٦).
- HOFFMANN (I.). — 1967. *Die Kulturen des Nilstal von Aswan bis Sennar*, Hamburg (٢٨).
- HOHENBERGER (J.). — 1956. « Comparative Masai word list », *Africa*, 26 : 281-7 (٢٦) (١٢).
- HOLAS (B.). — 1950. « Notes préliminaires sur les fouilles de la grotte de Blandé », *B.I.F.A.N.* 12 : 999-1006 (٢٤).
- 1952. « Note complémentaire sur l'abri sous roche de Blandé (Guinée) », *B.I.F.A.N.* 14 : 1341-52 (٢٤).
- HOLAS (B.) et MAUNY (R.). — 1953. « Nouvelles fouilles à l'abri sous roche de Blandé (Guinée) », *B.I.F.A.N.* 15 : 1605-17 (٢٤).
- HOMBURGER (L.). — 1930. « Les dialectes copte et mandé », *B.S.L.* 3, 1 (المقدمة العامة)
- 1930. « Le bantou et le mandé », *B.S.L.* 135, 43 (المقدمة العامة)
- 1936. « Le verbe en peul et en massaï », *Anthropologie* 46 (المقدمة العامة)
- 1941. *Les Langues négro-africaines et les peuples qui les parlent*, Paris, Payot, 350 p. (١٢) (المقدمة العامة)
- 1948-50. « Eléments dravidiens en peul », *J.S.A.* 18, 2 (المقدمة العامة)
- 1958. « La linguistique et l'histoire de l'Afrique », *B.I.F.A.N.* XX, 3, 4 : 554-61 (١٠).
- L'HONORE-NABER (S.L.). — 1931. *Reisebeschreibungen von deutschen Beamten und Kriegsleuten im Dienst der Niederländischen West und Ost indischen Kompanien 1602-1797*, La Haye, 13 vol. (٦).

- HOORE (J. D'). — 1964. *Carte des sols d'Afrique au 1:5 000 000 et mémoire explicatif*, Lagos, CCTA (١٣).
- HORTON (J.A.B.). — 1868. *West african countries and peoples... and a vindication of african race*, Londres (٦).
- HOUDAS (O.). *Documents arabes relatifs à l'histoire du Soudan*, Paris, Leroux (المقدمة العامة)
- HOUIS (M.). — 1955. « Problèmes linguistiques de l'Ouest africain », *Guide bleu de l'Afrique occidentale française*, Paris, Hachette (١١).
- 1958. « Quelques données de toponymie ouest-africaine », *B.I.F.A.N.*
- 1961. « Mouvements historiques et communautés linguistiques dans l'Ouest africain », *L'homme*, I, 3 : 72-92 (١١).
- 1971. *Anthropologie linguistique de l'Afrique noire*, Paris, P.U.F. (١١) (١٠) (المقدمة العامة).
- HOWELL (F.C.). — 1965. (The editors of Life) *Early man*, New York, Time Inc. 200 p. (١٩).
- 1969. « Remains of Hominid from Pliocene-Pleistocene Formations in the lower Omo Basin, Ethiopia », *Nature*, 223, 20 : 1234-9 (١٧).
- 1969. « Hominid teeth from White Sands and Brown Sands localities, lower Omo Basin, Ethiopia », *Quaternaria*, XI : 47-64 (١٧).
- HOWELL (F.C.), CÖPPENS (Y.) et HEINZELIN (J. DE). — 1974. « Inventory of Remains of Hominidae from Pliocene-Pleistocene Formations of the lower Omo Basin, Ethiopia (1967-1972) », *A.J.P.A.* 40, 1 : 1-16 (١٧).
- HOWELLS (W.W.). — 1972. « 20 millions d'années pour faire un homme, les origines de l'homme », *le Courrier* 8-9 : 4-13 (الخاتمة).
- HRBEK (I.). — 1965. *Actes du XII<sup>e</sup> Congrès international des Sciences historiques*, t.V, Vienne, Horn Austria : Berger (٥).
- 1966. *Dejiny Afriky*, Prague, 2 vol. (المقدمة العامة)
- HUARD (P.). — 1960. « Contribution à l'étude anthropologique des Teda du Tibesti », *B.I.F.A.N.* B, XXII, 1-2 : 179-201 (٢٨).
- 1963. « Gravures rupestres de l'Ennedi et des Erdis », *B.I.R.S.C.*, 2 : 3-39 (٢٦).
- 1964. « Un établissement islamique tchadien ouogayi », *B.I.F.A.N.*, B, XXII, 1-2 (٢٨).
- 1966. « Introduction et diffusion du fer au Tchad », *J.A.H.* 7, 3 : 377-407 (٢٤).
- 1969. « Aires ou origines de quelques traits culturels des populations pré-islamiques du Bas Chari, Logone », *Actes 1<sup>re</sup> coll. Intern. Archéol. Afr.* : 179-224 (المقدمة العامة)
- HUARD (P.) et BECK (P.). — 1969. *Tibesti, carrefour de la préhistoire saharienne*, Paris (٢٦).
- HUARD (P.) et LECLANT (J.). — 1973. « Figurations de chasseurs anciens du Nil et du Sahara », *R.E.* 25 (٢٦).
- HUBERT (R.). — 1922. « Objets anciens de l'Afrique occidentale », *B.C.E.H.S.* 5 : 382-99 (٢٤).
- HUE (E.). — 1912. « L'Age de la pierre au Fouta Djallon », *B.S.P.F.* 2 (٢٤).

- HUGOT (H.J.). — 1955. « Du Capsien au Tidikelt », *Actes II Congr. P.P.E.Q.* : 601-3 (٢٣).
- 1955. « Un gisement de pebble-tools à Aoulef », *Trav. I.R.S.* 13 : 131-49 (٢٣).
- 1957. « Essai sur les armatures de pointes de flèches du Sahara », *Libyca*, 5 : 89-236 (٢٤).
- 1962. *Documents scientifiques des missions Berliet-Ténéré-Tchad*, Paris, A.M.G. (٢٣).
- 1963. « Recherches préhistoriques dans l'Ahaggar nord-occidental 1950-1957 », *Mém. C.R.A.P.E.* (٢٤) (٢٣).
- 1964. « Etat des recherches préhistoriques dans l'Afrique de l'Ouest, 1964-1965 », *W.A.A.N.* 1 : 4-7 (٢٤).
- 1966. « Limites méridionales dans l'Atérien », *Actas V Congr. P.P.E.C.* (22) (٢٤).
- 1966. « Présence d'un faciès archaïque du Paléolithique inférieur à Dakar », *B.I.F.A.N.*, A, 28 : 415-6 (٢٤).
- 1970. *L'Afrique préhistorique*, Paris, Hatier, 128 p. (٢٣) (٢١).
- 1974. *Le Sahara avant le désert*, Paris, Les Hespérides (٢٦) (٢٥).
- HUGOT (H.J.) et al.. — 1973. *Tichitt I*, rapport scientifique (ronéo) (٢٣).
- HUGOT (H.J.) et BRUGGMANN (M.). — 1976. *Les gens du matin, Sahara, dix mille ans d'art et d'histoire*, Paris-Lausanne (٢٣).
- HUNTINGFORD (G.W.B.). — 1956. « The "Nilo-Hamitic" languages », *S.W.J.A.* 12 : 200-22 (١٢).
- HUNWICK (J.O.). — 1962. « Arabic manuscript material bearing on the history of the Western Sudan », *Supplement, B.N.H.S.N.* VII, 2 : 1-9 (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- 1973. « The mid-fourteenth century capital of Mali », *J.A.H.* 14, 2 (٢٤) (المقدمة العامة).
- HUZAYYIN (S.A.). — 1936. « Glacial and pluvial episodes of the diluvium of the old world », *Man*, 36 : 19-22 (٢٣).
- 1941. *The place of Egypt in prehistory*, Le Caire (٢٥).
- IAKIMOV (V.P.). — 1972. « Deux grandes théories sur l'apparition des races », *Le Courrier* (août-sept.), (الخاتمة).
- ILIFFE (J.). — 1969. *Tanganyika under german rule 1905-1912*, Cambridge, Camb. Univ. Press, XIII, 235 p. (٢).
- INSKEEP (R.R.). — 1969. « Some problems in relation to the Early Stone Age in South Africa », *S.A.R.B.* XXIV, 3-4 : 174-81 (٢٠).
- ISAAC (G.L.). — 1966. « The geological history of the Olorgesailie area... », *Proc. 5<sup>th</sup> P.C.P.Q.S.* 2 : 125-44 (١١).
- 1971. « The diet of early man : Aspects of archaeological evidence from Lower and Middle Pleistocene sites in Africa », *W.A.* 2 : 278-98 (٢٠).
- (sous presse) « East Rudolf... », *Proc. 7<sup>th</sup> P.C.P.Q.S.*, 1977 (١١).
- ISAAC (G.L.), LEAKEY (R.E.F.) et BEHRENSMEYER (A.K.). — 1971. « Archaeological traces of early hominid activities, east of Lake Rudolf, Kenya », *Science* 173 : 1129-34 (١٧).



- ISAAC (G.L.) et McCOWN (E.R.). — 1976. *Human origins : Louis Leakey and the East African evidence*, Los Angeles-Berkeley (١٨).
- ISAAC (N.). — 1836. *Travels and adventures in Eastern Africa*, London, 2 vol. (٦).
- ISKANDER (Z.). — 1960. « The scientific study and conservation of the objects and materials found in the discovery of the wooden Boat at Giza », *The Cheops Boats*, I<sup>e</sup> partie, Le Caire, Antiquities Department of Egypt (١).
- 1961. « Chemical identification of the samples found at the Monestary of Phoebanmon », C. Bachatly (éd.), *Le monastère de Phoebanmon dans la Thébaïde*, Le Caire, Société d'archéologie copte (١).
- ISKANDER (Z.) et SHAHEEN (A.E.). — 1964. « Temporary stuffing materials used in the process of mummification in Ancient Egypt », *A.S.A.E.* LVIII (١).
- ISNARD (H.). — 1964. *Géographie de l'Afrique tropicale*, Paris, P.U.F. (13).
- 1966. *Le Maghreb*, Paris, P.U.F., 272 p. (١٣).
- JABVU (D.T.). — 1920. *The black problem : papers and address on various native, problems*, Lovedale (١).
- JACQUARD (A.). — 1974. « Distances généalogiques et distances génétiques », *C.A.E.H.* : 11 (١٠).
- JANMART (J.). — 1953. « The Kalahari sands of the Lunda (N-E. Angola), their earlier-redistribution and the Sangoen culture », *C.D.A.P.C.* 20 (٢١).
- JASON (H.). — 1959. « A multidimensional approach to oral literature », *C.A.* X, 5 : 413-26 (٧).
- JEFFREYS (M.D.W.). — 1963. « How ancient is West African maize ? » *Africa*, 33 : 115-31 (٢٤).
- JOHANSON (D.C.) et COPPENS (Y.). — 1976. « A preliminary anatomical diagnosis of the first Plio-Pleistocene hominid discoveries in the Central Afar, Ethiopia », *A.J.P.A.* 45, 2 : 217-34 (١٧).
- JOHANSON (D.C.) et TAIEB (M.). — 1976. « Pliocene hominid remains from Hadar, Central Afar, Ethiopia », *Actes IX Congr. U.I.S.P.P.* 120-37 (١٧).
- 1976. « Plio-Pleistocene hominid discoveries in Hadar, Ethiopia », *Nature*, 260, 5549 : 293-7 (١٧).
- JOHNSON (S.). — 1921. *The history of the Yoruba. From the earliest times to the beginning of the British protectorate*, Lagos C.M.S. (Nigeria) Bookshops, IX, 684 p. (١٠) (٣).
- JOHNSTON (H.H.). — 1919-22. *A comparative study of the Bantu and semi-bantu languages*, Oxford, Clarendon Press, 2 vol. (١٢).
- JOIRE (J.). — 1947. « Amas de coquillages du littoral sénégalais dans la banlieue de Saint-Louis », *B.I.F.A.N.* 9 : 170-340 (٢٤).
- JONES (D.H.). — 1949. *The prehistory of Southern Rhodesia*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (الخاتمة).
- 1958. « Report on the second conference of London on History and Archaeology in Africa », *Africa*, 28, 1 (الخاتمة).
- 1970. « Problems of african Chronology », *J.A.H.* XI, 2 : 161-76 (٧).
- JOUBERT (G.) et VAUFREY (R.). — 1941-46. « Le Néolithique du Ténéré », *L'Anthropologie*, 50, 3-4 : 325-30 (٢٣).

- JULIEN (Ch.-A.). — 1931. *Histoire de l'Afrique du Nord*, Paris, Payot, 2 vol. (المقدمة العامة) (٥).
- 1944. *Histoire de l'Afrique*, Paris, P.U.F. (المقدمة العامة)
- 1952. *L'Afrique du Nord en marche*, Paris, R. Julliard, 439 p. (٣).
- 1978. *Histoire de l'Afrique du Nord*, Paris, Payot, 372 p., 2 vol.
- JUNKER (H.). — 1929-40. « Vorläufiger Bericht über die Grabung der Akademie des Wissenschaften in Wien auf des neolithischen Siedlung von Merimde, Benisalame (Westdelta) », *Anzeiger des philo-hist. Klasse des Akademie des Wissenschaften in Wien*, XCI-XVIII : 156-248 ; V-XII : 21-82 ; I-IV : 82-6 ; XVI-XVIII : 53-97 ; X : 118-32 ; I-IV : 3-25 (٢٥) (٢٨).
- KABORE (V.). — 1962. Le caractère féodal du système politique mossi, *C.E.A.* : 609-23 (المختصة).
- KAGAME (A.). — 1970. *Introduction aux grands genres lyriques de l'ancien Rwanda*, Butare (٧).
- 1972. *Un abrégé de l'ethno-histoire du Rwanda*, Butare (٧).
- KAISER (W.). — 1977. « Zur inneren Chronologie des Nagadakultur », *A.G.* 6 (٢٨).
- KALK (P.). — 1972. « Pour une localisation du Royaume de Gaoga », *J.A.H.* XIII, 4 (المقدمة العامة)
- KAMARA (Ch.-M.). — 1970. « La vie d'El-Hadji Omar », *B.I.F.A.N. B*, 32 : 370-411 (٣).
- KARDINER (A.) et PREBLE (E.). — 1964. *Introduction à l'ethnologie*, Paris, Gallimard.
- KEES (H.). — 1961. *Ancient Egypt, a cultural topography*, Londres, Faber and Faber (٢٨).
- KELLER (C.M.). — 1970. « Montagu Cave : a preliminary report », *Quaternaria* XIII : 187-204 (٢٠).
- KENNEDY (R.A.). — 1960. « Necked and lugged axes in Nigeria », *Antiquity*, 34 : 54-8 (٢٤).
- KENSDALE (W.E.N.). *A catalogue of the arabic manuscripts preserved in the university library*, Ibadan (Nigeria) (٦) (٥) (المقدمة العامة)
- KENT (P.E.). — 1942. « Pleistocene climates in Kenya and Abissinia », *Nature*, 149 : 736-7 (٢١).
- KENT (R.K.). — 1970. *Early Kingdoms in Madagascar, 1500-1700*, New York, Holt Rinehart and Winston, XVI + 336 p. (٣).
- KESTELOOT (L.). — 1978. *Da Monzon de Ségou. Epopée Bambara*, Paris, F. Nathan, 2 vol. (المختصة)
- KHALIL (F.). — 1963. « La faune du continent africain : taxonomie, écologie et zoogéographie », *Enquête sur les ressources naturelles du continent africain*, Paris, Unesco, pp. 285-325 (١٣).
- KILHAM (H.). — 1828. *Specimens of African languages spoken in the colony of Sierra Leone*, Londres, XI + 69 p. (١٧).
- KIWANUKA (M.S.H.). — 1967. « Some reflections on the role of oral Tradition in the Writing of the pre-colonial history of Africa », *Acta Africana*, VI, 1 : 63-74 (٤).

- KI-ZERBO (J.). — 1964. *Le Monde africain noir*, Paris, Hatier (المقدمة العامة).  
 — 1957. Histoire et conscience nègre, *Présence africaine*, n° 16, pp. 53-69 (II). (المقدمة العامة)  
 — 1969. « La tradition orale en tant que source pour l'histoire africaine », *Diogenes*, 67 : 127-42 (المقدمة العامة)  
 — 1978. *Histoire de l'Afrique Noire*, 2<sup>e</sup> éd., Paris, Hatier (١٠) (المقدمة العامة) (٢٦).
- KLEIN (R.G.). — 1970. « Problems in the study of the Middle Stone Age of South Africa », *S.A.A.B.* XXV : 127-35 (٢٠).  
 — 1972. « Preliminary report of the july through september, 1970, Excavations at Nelson Bay Cave, Plettenberg Bay (Cape province, South Africa) », *Palaeoecology of Africa* 6 : 117-208 (٢٠).  
 — 1972. « The late Quaternary mammalian fauna of Nelson Bay Cave (Cape province South Africa) : its implication for Megafaunal extinctions and environmental and cultural changes », *Quaternary research*, 2, 2 : 135-42 (٢٠).
- KOECHLIN (J.). — 1963. « La flore du continent africain ; région du sud du Sahara », *Enquête sur les ressources naturelles du continent africain*, Paris, Unesco, 271-284 (١٣).
- KOELLE (S.W.). — 1963. *Polyglotta Africana, or a comparative vocabulary of nearly 300 words and phrases in more than 100 distinct African languages*, 2<sup>e</sup> éd., Graz (١٢) (١٠) (٦).
- KOELLE (S.W.) et GUTHRIE (M.). — 1970. *African language studies* XI (12).
- KOHLER (O.). — 1955. *Geschichte der Erforschung des nilotischen Sprachen*, Berlin (١٠).
- KOLB (P.). — 1719. *Vollständige Beschreibung des afrikanischen Vorgebirges der Guten Hoffnung*, Nürnberg (٦).
- KOLTHOFF (I.M.), SANDELL (E.B.), MEEHAN (E.J.) et BRUCKENSTEIN (S.). — 1969. *Quantitative chemical analysis*, 4<sup>e</sup> éd., New York, Mac Millan, XII + 1200 p. (٩).
- KOUYATE (N.). — 1969-1970. *Recherches sur la tradition orale au Mali (Pays Manding)*, mémoire de recherche, non édité, Alger, Université d'Alger (٨).
- KRZYZANIAK (L.). — 1972. « Preliminary report on the first season of excavations at Kadero, Sudan », *Trav. C.A.M.A.P.* (avril) (٢٥).  
 — 1977. « Early Farming Cultures on the Lower Nile », *Trav. C.A.M.A.P.* 21 (٢٨).
- KUBBEL (L.E.) et MATVEIEV (V.V.). — 1960 et 1965. *Sources arabes pour l'ethnographie et l'histoire des peuples d'Afrique au sud du Sahara (VII<sup>e</sup> au XII<sup>e</sup> siècle)*, Moscou, 2 vol. (٥) (٣) (المقدمة العامة)
- KUKLA (G.J.) et MATTHEWS (R.K.). — 1972. « When will the present interglacial end ? », *Science*, 178 : 190-191 (١٦).
- KUPTSOV (A.). — 1955. « Geographical distribution of cultivated flora and its historical development », *B.A.U.G.S.* 87 (٢٧).
- LAJOUX (J.D.). — 1977. *Tassili N'Ajjer*, Paris, Chêne (٢١).

- LALL (B.B.). — 1967. *Indian archaeological expedition to Nubia, 1962*, Cairo, Antiq. Egypt. Serv. (٢٥).
- LAMB (H.H.). — 1974. « Remarks on the current climatic trend and its perspective », *W.M.O.*, 421 : 473-7 (١٦).
- LAMBERT (N.). — 1970. « Medinet Sbat et la Protohistoire de Mauritanie occidentale », *A.A.* 4 : 15-62 (٢٤).
- 1971. « Les industries sur cuivre dans l'Ouest africain », *W.A.J.A.* 1 : 9-21 (٢٤).
- LANFRANCHI (R.). — 1976. *Rapport des missions d'études et de recherches préhistoriques pour l'année scolaire 1975-76*, Brazzaville, Laboratoire d'anthropologie de l'Université de Brazzaville, 28 p. (٢١).
- LAROUÏ (Abd.). — 1970. *L'Histoire du Maghreb*, Paris, Maspero (٥).
- LASSORT (A.). « L'écriture guerzée », *C.R. 1<sup>re</sup> Conf. afr. Ouest*, Dakar, I.F.A.N. (المقدمة العامة)
- LAUDE (J.). — 1966. *Les Arts de l'Afrique noire*, Paris, Le Livre de poche (المقدمة العامة).
- LAUER (J.P.) et DEBONO (F.). — 1950. « Technique du façonnage des croissants de silex utilisés dans l'enceinte de Zozer à Saqqarah », *A.S.A.E.*, vol. L pp. 2 et sq. (٢٥).
- LAW (R.C.C.). — 1967. « Contacts between the Mediterranean civilizations and West Africa in pre-islamic times », *L.N.R.* 1, 1 : 52-62 (٢٤).
- 1971. « The constitutional troubles of Oyo », *J.A.H.* XII, 1 (المقدمة العامة).
- LAWSON (A.C.). — 1927. *The Valley of the Nile*, Univ. Calif. Chron., 29, 235-259 (١٦).
- LAYA (D.). — 1972. *La tradition orale : problématique et méthodologie des sources de l'histoire africaine*, Centre régional de documentation pour la tradition orale, Niamey (١٥)(٧).
- LEAKEY (L.S.B.). — 1936. *Stone Age Africa*, Oxford (١١).
- 1949. « Tentative study of the Pleistocene climatic changes and Stone-Age culture sequence in North-Eastern Angola », *C.D.A.P.C.* 4, 82 p. (٢١).
- 1950. « The lower limits of the Pleistocene in Africa », *Report on the XVIII<sup>th</sup> international geology Congress* (Londres, 1948), 9 : 62-5 (٢٤).
- 1952. *Proceedings of the Panafrican Congress on Prehistory*, Oxford, Blackwell, VIII + 239 p. (٢٤).
- 1965. *Olduvai Gorge — 1951-1961 — Fauna and Background*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, 118 p. (١٧).
- 1971. *Stone Age Cultures of Kenya Colony* ; Cass, Londres (١١).
- LEAKEY (L.S.B.), LEAKEY (M.D.) et al. — 1965-71. *Olduvai Gorge*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, Vol. I-III (٢٠)(١٩)(١٨).
- LEAKEY (M.D.). — 1970. « Early artefacts from the Koobi Fora area », *Nature*, 226 : 228-30 (٢٤)(١٧).
- 1971. *Olduvai Gorge, excavations in beds I and II — 1960-1963*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, 306 p. (١٧).
- LEAKEY (M.D.), HAY (R.L.), CURTIS (G.H.), DRAKE (R.E.), JACKES (M.K.) et WHITE (T.D.). — 1976. « Fossil Hominids from the Laetolil beds », *Nature*, 262 : 460-6 (١٧).

- LEAKEY (R.E.F.). — 1970. « New hominid remains and early artefacts from northern Kenya », *Nature* 226 : 223-4 (١٧).
- 1971. « Further evidence of lower Pleistocene hominids from East Rudolf, North Kenya », *Nature* 231 : 241-5 (١٧).
- 1972. « Further evidence of lower Pleistocene hominids from East Rudolf, North Kenya 1971 », *Nature* 237 : 264-9 (١٧).
- 1973. « Evidence for an advanced Plio-Pleistocene hominid from East Rudolf, Kenya », *Nature* 242 : 447-50 (٢٤) (١٧).
- 1973. « Further evidence of lower Pleistocene hominids from East Rudolf, North Kenya, 1972 », *Nature* 242 : 170-3 (١٨) (١٧).
- 1973. « Skull 1470 », *Natural Geographic*, 143 : 818-29 (١٨) (١٧).
- 1974. « Further evidence of Lower Pleistocene hominids from East Rudolf, North Kenya, 1973 », *Nature* 248 : 653-6 (١٨) (١٧).
- LEAKEY (R.E.F.), BUTZER (K.W.) et DAY (M.H.). — 1969. « Early Homo Sapiens remains from the Omo River Region of South-West Ethiopia », *Nature*, 222, 5199 : 1137-43 (١٧).
- LEAKEY (R.E.F.) et ISAAC (G.L.). — 1972. « Hominid fossils from the area east of Lake Rudolf, Kenya : photographs and a commentary on context », S.L. WASCHBURG and P. DOLHINOW (éd.) *Perspectives on human evolution*, San Francisco, Holt Rinehart and Winston, 129-40 (١٨) (١٧).
- LEAKEY (R.E.F.), MUNGAI (J.M.) et WALKER (A.C.). — 1971. « New australopithecines from East Rudolf, Kenya », *A.J.P.A.* 35 : 175-86 (١٧).
- 1972. « New australopithecines from East Rudolf, Kenya, II », *A.J.P.A.* 36 : 235-51 (١٧).
- LEAKEY (R.E.F.) et WALKER (A.C.). — 1973. « New australopithecines from East Rudolf, Kenya, III » *A.J.P.A.* 39 : 205-22 (١٧).
- LEAKEY (R.E.F.) et WOOD (B.A.). — 1973. « New evidence for the genus Homo from East Rudolf, Kenya, II », *A.J.P.A.* 39 : 355-68 (١٧).
- 1974. « A hominid mandible from East Rudolf, Kenya », *A.J.P.A.* 41 : 245-50 (١٧).
- 1974. « New evidence for the genus Homo from East Rudolf, Kenya, IV », *A.J.P.A.* 41 : 237-44 (١٧).
- LEBEUF (J.P.). — 1956. « La civilisation du Tchad », *Proc III Internat. W.A.C.* : 293-6 (٢٤).
- 1962. *Archéologie tchadienne*, Paris, Hermann (٢٤).
- 1962. « Caractères particuliers de la recherche historique en Afrique », *Revue de psychologie des peuples* (١٥).
- 1969. « Essai de chronologie saou », *Actes I<sup>re</sup> coll. intern. Archéol. afr.* : 234-41 (٢٤).
- 1969. *Carte archéologique des abords du lac Tchad*, Paris, C.N.R.S., p. 171 + cartes (٢٤).
- LECLANT (J.). — 1956. « Le Fer dans l'Egypte ancienne, le Soudan et l'Afrique », *Actes Coll. Intern. Fer* : 83-91 (٢٨).
- LEE (D.N.) et WOODHOUSE (H.C.). — 1970. *Art on the rocks drawing by Marion Didcott Purnell*, Cape Town - Londres (٢٦).

- LEE (R.B.). — 1966. « The kung bushman subsistence : an input/output analysis », D. DAMAS, éd., « Ecological essays », *Proc. Conf. Cult. Ecol.* 230 (٢٧).
- LEE (R.B.) et DEVORE (I.) éd. — 1968. *Man the Hunter*, Chicago (١٨).
- LEFEBVRE (G.). — 1949. *Romans et contes égyptiens de l'époque pharaonique*, Paris (٢٨).
- LEFEVRE (H.). — 1974. *La Production de l'espace*, Paris, Anthropos (١٥).
- LE GROS-CLARK (W.E.). — 1972. *The fossil evidence for human evolution*, 2<sup>e</sup> éd., Chicago, University of Chicago Press, 201 p. (١٨).
- LEIRIS (M.) et DELANGE (J.). — 1967. *Afrique noire, la création plastique*, Paris, Gallimard. (المقدمة العامة)
- LENZ (O.). — 1884. *Timbuktu*, Leipzig, 2 vol. (٢٣).
- LEPSIUS (C.R.). — 1863. *Standard alphabet*, Londres, Williams and Norgate, XVIII + 315 p. (١٢).
- 1888. *Nubische Grammatik*, Berlin, 506 p. (١٢)(١٠).
- LEROI-GOURHAN (A.). — 1943. *Evolution et techniques*, vol. I : « L'homme et la matière », Paris, Albin-Michel (الخاتمة).
- 1945. *Evolution et techniques*, vol. II : « Milieu et techniques », Paris, Albin-Michel (الخاتمة).
- 1969. *Sur le « mode de production asiatique »*, Paris, Editions sociales (الخاتمة).
- 1974. « Analyses polliniques, préhistoire et variations climatiques quaternaires », in « Les méthodes quantitatives d'étude des variations du climat au cours du Pléistocène », *Colloques internationaux du C.N.R.S.*, 219 : 61-6.
- LEROY (P.). — 1953. « La préhistoire à Brazzaville et dans le Moyen Congo », *Liaison*, 31 : 39-43 (٢١).
- LESLAU (W.). — 1949. « Revue d'essai comparatif sur le vocabulaire et la phonétique du chamito-sémitique », *L.G.* 25 (١٠).
- 1963. *Etymological dictionary of Harari*, Los Angeles, Berkeley, Univ. California Press (١١).
- LE TOURNEAU (R.). — 1954. « Les archives musulmanes en Afrique du Nord », *Archivum*, 4.
- LEVAILLANT (G.). — 1970. *Travels from the Cape of Good Hope into the interior parts of Africa*, Londres (٦).
- LEVI-PROVENCAL (E.). — 1922. *Les Historiens des Chorfa, essai sur la littérature historique et biographique du Maroc du XVI<sup>e</sup> au XX<sup>e</sup> siècle*, Paris (٦).
- LEVTZION (N.). — 1968. « Ibn-Hawqal, the Cheque and Awdaghost », *J.A.H.*, 9, 2 : 223-33 (٢٤).
- 1971. « The early states of the Western Sudan to 1500 », J.F.A. AJAYI et M. CROWDER (éd.), *History of West Africa*, London, Longman, I : 120-37 (٢٤).
- LEWICKI (T.). — 1961. « Les historiens biographes et traditionalistes des Ibadites », *Folia orientalia*, 3, Cracovie (٦).
- 1971. « The Ibadites in Arabia and Africa », *C.H.M.* XII, 1 : 51-130 (٥).

- LEWIN (S.Z.). — 1968. « The conservation of limestone objects and structures », *Study of Weathering of Stones*, ICOMOS, vol. I, pp. 41-50, Paris (١).
- LHOTE (H.). — 1958. *A la découverte des fresques du Tassili*, Paris, Arthaud (٢٣).
- 1966. « La route des chars de guerre libyens, Tripoli-Gao », *Archeologia*, 9 : 28-35 (٢٤).
- 1970. « Les gravures rupestres du Sud oranais », *M.C.R.A.P.E.* XVI, 208 p. (٢٢).
- 1976. *Vers d'autres Tassili*, Paris, Arthaud (٢٦).
- LHOTE (H.) et KELLEY (H.). — 1936. « Gisement acheuléen de l'Erg d'Admer (Tassili des Ajers) », *J.S.A.*, 6 : 217-26 (٢٣).
- LIBBY (W.F.). — 1955. *Radiocarbon dating*, 2<sup>e</sup> éd., Chicago, Chicago Univ. Press (٢٨).
- 1970. « Radiocarbon dating », *P.T.R.S.*, Londres, vol. A. 269; n° 1193 (١).
- LIBRA. — 1963. « I Cinesi e l'Africa orientale », *Africa*, 18 (٥).
- LICHTENSTEIN (H.). — 1811-12. *Reisen in südlichen Afrika in den Jahren 1803, 1804, 1805, und 1806*, Berlin, C. Sulfeld, 2 vol. (١٢) (٦).
- LINARES de SAPIR (O.). — 1971. « Shell Middens of lower Casamance and problems of Diola Protohistory », *W.A.J.A.* 1 : 23-54 (٢٤).
- LININGTON (R.E.). — 1970. « Techniques used in archaeological field surveys », *P.T.R.S.*, Londres, vol. A. 269, n° 1193 (١).
- LIVINGSTONE (D.). — 1937. *Missionary travels and researches in South Africa*, Londres (٦).
- 1967. « Postglacial vegetation of the Ruwenzori mountain in Equatorial Africa », *Ecol. Monogr.* (١١).
- LIVINGSTONE (F.B.). — 1958. « Anthropological implications of sickle cell gene distribution in West Africa », *A.A.* 60, 3 : 533-62 (٢٤).
- LO (A.). — 1934. « Bindoum Cholofol ti arab toubab », Saint-Louis (١١).
- LOMBARD (J.). — 1935. « Quelques remarques sur le Quaternaire de l'Afrique tropicale équatoriale », *J.S.A.* V : 175-80 (٢١).
- LOVEJOY (P.E.). — 1979. *Indigenous African Slavery*, Slave studies conference, Univ. of Waterloo, Ontario.
- LUCAS (A.). — 1962. *Ancient Egyptian materials and industries*, 4<sup>e</sup> éd., revised & enlarged by J.R. HARRIS, Londres, E. Arnold (٢٨) (١).
- LUCAS (C.P. Sir). — 1887-1923. *Historical geography of the British colonies*, 15 vol. (١).
- LUCAS (J.O.). — 1938. « Der hamitische Gehalt der Tschadhamistischen Sprachen », *Z.E.S.* 28 : 286-99 (١٢).
- 1948. *The Religion of the Yoruba in relation to the religion of Ancient Egypt*, Lagos, C.M.S. Bookshop, XII + 420 (٢٤).
- LUCAS (S.A.). — 1967. *L'Etat traditionnel luba*, deuxième partie, « Mythe et structure politique luba — Problèmes sociaux congolais », 79, pp. 93-116, Kinshasa (٧).
- LUDOLF (H.). — 1681. *Historia Aethiopica*, Francfort (٦).

- LUKAS (J.). — 1936. « The linguistic situation in the lake Chad area of Central Africa », *Africa*, 9 : 332-49 (١٠).
- LYNCH (H.R.). — 1967. *Edward Wilmot Blyden, pan-negro patriot, 1832-1912*, London (٦).
- MACAULAY (Th. B.). — 1971. « Minute on Indian Education of February 2, 1835 », Ph. D. CURTIN (éd.) *Imperialism*, New York, Walker, 13 p. (٢).
- MAC BURNEY (C.D.M.). — 1967. *The Haua Fteah (Cyrenaica) and the stone age of south east Mediterranean*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (٢٤).
- MAC BURNEY (C.D.M.) et HEY (R.W.). — 1955. *Prehistory and Pleistocene geology in Cyrenaican Libya*, Cambridge, Cambridge Univ. Press (٢٢).
- MAC CALL (F.D.). — 1969. *Africa in time's perspective*, New York, Oxford Univ. Press (١٥) (المقدمة العامة).
- MAC GAFFEY (W.). — 1974. « Oral Tradition in Central Africa », *I.J.A.H.S.* VII : 417-26 (٨).
- MACGREGOR (J.K.). — 1909. « Some notes on Nsibidi », *J.R.A.I.*, vol. 39, pp. 215, 217, 219 (١٠).
- MACIVER (D.R.) et MACE (A.C.). — 1902. *El-Amrah and Abydos, 1899-1901*, Londres (٢٨).
- MAC NEISH (R.S.). — 1964. « Ancient mesoamerican civilisation », *Science*, 143 (٢٧).
- MAES (E.). — 1924. « Notes sur les pierres taillées de Tundidarou », *B.C.E.H.S.* 31-8.
- MAHABAVA (J.). — 1922. *The color bar in South Africa*, Lovedale (٦).
- MAITRE (J.-P.). — 1971. « Contribution à la préhistoire de l'Ahaggar, I, Tefedest central », *M.C.R.A.P.E.* XVII, 225 p. (٢٢).
- MALCOM X. — 1967. *On Afro American history*, New York, Merit. Publishers (المقدمة العامة).
- MALEY (J.). — 1973. « Mécanisme des changements climatiques aux basses latitudes », *P.P.P.* 14 : 193-227 (١٦).
- MALOWIST (M.). — 1969. *L'Europe et l'Afrique au commencement de l'Exposition coloniale*, Varsovie (المقدمة العامة).
- MANESSY (G.). — 1971. « Les langues Gurma », *B.I.F.A.N.* (١٠).
- MANSO (P.). — 1877. *Historia da Congo*, Documentos, Lisbonne (٦).
- MANTRAN (R.). — 1965. *Inventaire des documents turcs en Tunisie*, Paris (٦).
- MAQUET (J.-J.). — 1961. « Une hypothèse pour l'étude des féodalités africaines », *C.E.A.* 6, 11 : 292-314 (١٥).
- 1970. *Pouvoir et société en Afrique*, Paris, Hachette (المحاتمة).
- MARET (P. DE). — A paraître. « Premières datations pour des haches polies associées à la céramique au Bas-Zaïre », *Actes IX Congr. U.I.S.P.P.* A paraître. « Bribes, débris et bricolage », *Coll. C.N.R.S. l'Expansion bantu*, Actes, 1977 (٢١).
- MARET (P. DE), NOTEN (F. VAN) et CAHEN (D.). — 1977. « Radiocarbon dates from Central Africa : a synthesis », *J.A.H.*, XXVIII, 4. (٢١).



- MARIN (Ph.). — 1972. « Classification formelle automatique et industries lithiques. Interprétation des hachereaux de la Kamoia », *A.M.R.A.C.* 76 (٢١).
- MARIN (Ph.) et MOEYERSONS (J.). — 1977. « Subsurface movements of stone artefacts and their implications for the prehistory of Central Africa », *Nature*, 266, 5605 : 812-5 (٢١).
- MARIN (Ph.) et MORTELMANS (G.). — 1973. « Un site tshitoliien sur le plateau des Bateke (République du Zaïre) », *A.M.R.A.C.* 81, 46 p. (٢١).
- MARLIAC (A.). — 1973. « Prospection archéologique au Cameroun », *C.O.R.S.T.O.M.* X : 47-114 (٢١).
- MARROU. — 1954. *De la connaissance historique*, Paris, Seuil (٥) (المقدمة العامة) (٦).
- MARTIN (B.G.). — 1969. « Mai Idris of Bornu and the Ottoman Turks, 1576-78 », S.M. STERN (éd.) *Documents from islamic chanceries II*, Oxford (٦) (٥) (المقدمة العامة) (٦).
- MARTIN (D.) et YANNOPOULOS (T.). — 1973. *Guide de recherches. L'Afrique noire*, Paris, A. Colin, 195 p. (١٥).
- MARTIN DEL MOLINO (A.). — 1963. « Secuencia cultural en el Neolítico de Fernando Poo », *Trabajos de prehistoria, Seminario de historia primitiva del hombre de la universidad de Madrid*, vol. XVII (٢٤) (٢١).
- MARTINS (R.). — 1976. « A estação arqueológica da antiga Banza Quibaxe », *Contribuições para o estudo da anthropologia portuguesa*, Coimbra, IX, 4 : 242-306 (٢١).
- MARTY (P.). — 1927. *Les Chroniques de Oualata et de Nema*, Paris, Geuthner (٦).
- MARX (K.). — éd. 1972. *Contribution à la critique de l'économie politique*, Paris, Editions sociales (الخاتمة).
- MARX (K.) et ENGELS (F.). — éd. 1952. *Formen*, Berlin, Dietz Verlag (الخاتمة).
- éd. 1968. *L'Idéologie allemande*, Paris, Editions sociales (الخاتمة).
- MASON (R.J.). — 1962. *The Prehistory of the Transvaal*, Witwatersrand University Press, Johannesburg (٢٠).
- MASSAQUOI (M.). — 1911. « The Vaï people and their syllabic writing », *J.A.S.* : 10-40 (المقدمة العامة) (٦).
- MASSOULARD (E.). — 1949. « Préhistoire et Protohistoire d'Egypte », *T.M.I.E.* III (٢٨).
- MATHEUS (A. DE). — 1952. « Nota preliminar Acerca da Estação Prehistórica de Nhampasseré », *C.R.C.I.A.O.* IV : 375-86.
- MAUNY (R.). — 1947. « Une route préhistorique à travers le Sahara », *B.I.F.A.N.* 9 : 341-57 (٢٤).
- 1951. « Un âge de cuivre au Sahara Occidental ? », *B.I.F.A.N.* 13, 1 : 168-80 (٢٤).
- 1952. « Essai sur l'histoire des métaux en Afrique occidentale », *B.I.F.A.N.* 14 : 545-95 (٢٤).
- 1952. *Glossaire des expressions et termes locaux employés dans l'Ouest africain*, Dakar, I.F.A.N. (١٠).

- 1955. « Contribution à l'étude du Paléolithique de Mauritanie », *Actes II Congr. P.P.E.Q.* : 461-79 (٢٤).
- 1955. « Les gisements néolithiques de Karkarichinkat », *Actes II Congr. P.P.E.Q.* : 616-9 (٢٤).
- 1957. « Buttes artificielles de coquillages de Joal-Fadioute », *N.A.* 7, 75 : 73-8 (٢٤).
- 1960. « Reviews of Cheikh Anta Diop's "Nations nègres et culture" and "l'Afrique Noire précoloniale" », *B.I.F.A.N.* B, 22 : 544-5 (24).
- 1961. *Tableau géographique de l'Ouest africain au Moyen Age, d'après les sources écrites, la tradition orale et l'archéologie*, Dakar, I.F.A.N. 587 p. (٢٦)(٢٥)(٢٤)(٥)
- 1963. « Contribution à la préhistoire et la protohistoire de la région de Kédougou (Sénégal oriental) », *B.S.A.* 5, 11 : 113-22 (٢٤).
- 1968. « Commentaires sur "West Africa before the Europeans" par Olivier Davies », *B.I.F.A.N.* B, 30 : 1283-4 (٢٤).
- 1970. « Le périple d'Hannon, un faux célèbre concernant les navigations antiques », *Archéologia*, 37 : 78-80 (٢٤).
- 1970. *Les Siècles obscurs de l'Afrique noire*, Paris, Fayard. (٢٤)(٥).
- 1973. « Datation au carbone 14 d'amas de coquillages des lagunes de Basse Côte-d'Ivoire », *W.A.J.A.* 3 : 207-14 (٢٤).
- MAUNY (R.) et HALLEMANS (J.). — 1957. « Préhistoire et Protohistoire de la région d'Akjoujt (Mauritanie) », *Proc. III P.C.P.Q.S.* 248-61 (٢٤).
- MAZRUI (A.A.). — 1969. *European exploration and Africa's self discovery*, *J.M.A.S.* 7, 4 (٦).
- MAZRUI (S.A.). — 1944. *Tarikh al-Mazari*, Arabic MS in photostat in the possession of G.S.P. Freeman-Grenville (٦)(٥) (المقدمة العامة)
- MBITI (J.). — 1967. « Afrikaanse begrippen van tijd, geschiedenis en de dood », *Africa*, 21, 3 : 78-75 (٧).
- MEEK (Ch.). — 1931. *Tribal studies in Northern Nigeria*, Londres, 2 vol. (١٠).
- MEILLASSOUX (C.). — 1972. « L'itinéraire d'Ibn Battuta de Walata à Mali », *J.A.H.* 13, 3 : 389-95 (٢٤).
- éd. 1975. *L'Esclavage en Afrique précoloniale*, Paris, Maspero, 17 études (الخاتمة)
- 1975. *Femmes, greniers et capitaux*, Paris, Maspero.
- 1977. *Terrains et théories*, Paris, Anthropos.
- MEINHOF (C.). — 1904. *Linguistische Studien in Ost Africa*, M.S.O.S. (١٠).
- 1906. *Grundzüge einer vergleichenden Grammatik der Bantu-sprachen*, Berlin (١٠).
- 1912. *Die Sprachen der Hamiten*, Hamburg, XV + 256 p. (١١)(١٢)(١٠).
- 1919-20. « Afrikanische Wörter in Orientalischer Litteratur », *Z.E.S.* 10 : 147-52 (١٢).
- 1932. *An Introduction to the phonology of the Bantu languages*, Berlin (١٠) (المقدمة العامة)

- MENGHIN (O.) et AMER (M.). — 1932 et 1936. *The excavations of the egyptian university in the neolithic site at Maadi, first and second preliminary reports*, Le Caire (٢٥).
- MERCIER (P.). — 1966. *Histoire de l'anthropologie*, Paris (المقدمة العامة)
- MERIVALE (H.). — 1861. *Lectures on colonization and colonies*, Oxford (١).
- METCALFE (G.E.J.). — 1964. « Great Britain and Ghana », *Documents on Ghana history, 1867-1957*, University of Ghana, Londres, Th. Nelson and Sons (١).
- MICHAEL (H.N.) et RALPH (E.K.). — 1970. « Correction factors applied to egyptian radiocarbon dates from the era before Christ », *Nobell Symposium 12* : 109-20 (١).
- MIGEOD (F.W.). — 1911. *The Languages of West Africa*, Londres (١٠).
- MILLER (J.). — 1976. *Kings and Kinsmen : Early Mbundu States in Angola*, Oxford (٨).
- MILLER (S.). — 1972. « A new look at the Tshitolian », *Africa-Tervuren*, XVIII, 3-4 : 86-9 (٢١).
- MINETTE DE SAINT-MARTIN. — 1914. « Note sur une collection préhistorique saharienne », *Revue africaine* (٢٣).
- MIQUEL (A.). — 1977. *La Géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du XI<sup>e</sup> siècle*, Paris-La Haye, 2 vol. (٥).
- MISCHLISH (A.) et LIPPERT (J.). — 1903. *Beiträge zur Geschichte der Haussastaaten*, Berlin (١) (٥) (المقدمة العامة)
- MOEYERSONS (J.). — 1975. « Evolution paléogéographique du site de la Kamon », *A.M.R.A.C.* 84 : 18-46 (٢١).
- 1977. « The behaviour of stones and stone implements buried in consolidating and creeping Kalahari Sands », *Earth Surface Processes*, Leeds.
- MOFFAT (R.). — 1842. *Missionary labours and scenes in Southern Africa*, Londres (١).
- 1945. *Matabele journal 1829-1860*, Londres (١).
- MOHAMMADOU (A. et E.). — 1971. « Un nouveau manuscrit arabe sur l'histoire du Mandara », *Revue camerounaise d'histoire*, 1 (المقدمة العامة).
- مختار (ج) وهيموروني (أ) — ١٩٦٥ — ١٩٦٦. « جدول مؤقت للمخطوطات الموريتانية العربية المحفوظة بموريتانيا » نواكشوط — ستوكهولم (المقدمة العامة) (٥) (٦).
- MOLENA (S.M.). — 1920. *The Bantu, past and present*, Edimbourg (١).
- MONIOT (H.). — 1962. *Pour une histoire de l'Afrique noire*, Annales, 1 (١٥).
- 1965. « Les sources orales dans le problème des sources de l'histoire de l'Afrique noire jusqu'à la colonisation européenne », *Rap. 12<sup>e</sup> C.I.S.H.* II : 198-208 (١٥).
- MONOD (Th.). — 1932. « L'Adrar Ahnet. Contribution à l'étude d'un district saharien », *T.M.I.E.* 19, 200 p. (٢٣).
- 1939. *Contribution à l'étude du Sahara occidental*, Paris, Larose (الخاتمة).
- 1945. « La structure du Sahara atlantique », *Trav. I.R.S.*, 3 : 27-55 (٢٣).
- 1957. « Découverte de nouveaux instruments en os dans l'Ouest africain », *Proc. III P.C.P.Q.S.* : 242-7 (٢٤).

- 1958. *Majabat al-Koubra. Contribution à l'étude de « l'empty quarter » ouest saharien*, Mém. I.F.A.N., 52 ; 406 p. (الخاتمة) (٢٣).
- 1963. « The Late Tertiary and Pleistocene in the Saharan and adjacent southerly regions », F.C. HOWELL et F. BOURLIERE (éd.), *African ecology and human evolution*, New York, Viking Fund Publications in Anthropology, 36 (٢٣) (١٦).
- 1969. « Le "Macden Ijāfen" » : une épave caravanière ancienne dans la Majabat al-Koubra », *Actes I<sup>re</sup> Coll. Intern. Archéol. Afr.* : 286-320 (٢٤).
- MONOD (Th.) et MAUNY (R.). — 1957. « Découverte de nouveaux instruments en os dans l'Ouest africain », *Proc. III P.C.P.Q.S.* (٢٤).
- MONTEIL (V.). — 1965. « Les manuscrits historiques arabo-africains », *B.I.F.A.N.*, B. XXXVII (١) (المقدمة العامة).
- MONTFRANS (H.M. VAN). — 1971. *Palaeomagnetic dating in the North Sea Basin*, Rotterdam, Prince N.V. (١٦).
- MOODIE (D.). — 1960. *The record or a series of official papers relative to the conditions and treatment of the native tribes of South Africa*, Amsterdam (٦).
- MOORSEL (H. VAN). — 1959. *Esquisse préhistorique de Léopoldville*, Léopoldville, musée de la Vie indigène (الخاتمة).
- 1968. *Atlas de préhistoire de la plaine de Kinshasa*, Kinshasa, Pub. Univ. Lovanium, 288 p. (٢١).
- MORE (B.). — 1969. « Contribution du Liberia à la science de la communication par écrit », *Symposium du Festival Panafricain d'Alger* (المقدمة العامة).
- MOREAU (R.E.). — 1963. « Vicissitudes of the African Biomas in the late Pleistocene », *Proceedings of the zoological Society of London*, 141 : 395-421.
- MOREL (J.). — 1953. « Le capsien du Kahnguet el Mouhaâd », *Libyca*, I : 103-19 (٢٢).
- MORENO (M.). — 1940. *Manuale di Sidamo*, Roma (١٠).
- MORET (A.). — 1931. *Histoire de l'Orient*, Paris, Coll. Glotz (الخاتمة).
- MORGAN (E.). — 1973. *La Fin du surmâle*, Paris, Calman-Lévy (الخاتمة).
- MORGAN (W.B.) et PUGH (J.C.). — 1969. *West Africa*, Londres, 188 p. (١٤).
- MORI (F.). — 1965. *Tadrart Acacus. Arte rupestre e culture del Sahara preistorico*, Turin, Einaudi, 260 p. (٢٤) (٢٣).
- MORITZ (B.). — 1892. *Sammlung arabischer Schriftstücke aus Zanzibar und Oman mit einem Glossar*, Stuttgart-Berlin (٦) (٥) (المقدمة العامة).
- MORNER (N.A.). — 1973. « Climatic changes during the last 35,000 years as indicated by land, sea, and air data », *Boreas*, 2 : 33-53 (١٦).
- 1975. « Eustatic amplitude variations and world glacial changes », *Geology*, 3 : 109-10 (١٦).
- MORRISON (R.B.) et WRIGHT (H.E.J.). — éd. 1968. « Means of correlation of Quaternary successions », *Proc. VII Congr. I.N.Q.U.A.*, 8 (١٦).
- MORTELMANS (G.). — 1952. « Les dessins rupestres gravés, ponctués et peints du Katanga. Essai de synthèse », *A.M.R.C.B.* : 33-55 (١١).

- 1952. *Contribution à l'étude des cultures pré-abbeyvilliennes à galets taillés du Katanga : le site Mulundwa*, 1, Bruxelles, Publications de la Soc. Roy. Belge d'anthrop. et de préhist. (٢١).
- 1952. « Les industries à galets taillés (Pebble Culture) du Katanga », *Actes II Congr. P.P.E.Q.* : 295-8 (٢١).
- 1953. « La Pebble Culture africaine, source des civilisations de la pierre », *B.S.R.B.A.P.* LXV (٢١).
- 1953. « Vue d'ensemble sur le quaternaire du bassin du Congo », *Actes III Congr. U.I.S.P.P.* : 114-26 (٢١).
- 1957. « Le Cénozoïque du Congo belge », *Proc. III P.C.P.Q.S.* : 23-50 (٢١).
- 1957. « La préhistoire du Congo belge », Bruxelles, *Revue de l'Université de Bruxelles*, 54 p. (٢١).
- 1957. « The Early Pebble Culture of Katanga », *Proc. III P.C.P.Q.S.* : 214-6 (٢١).
- 1959. « Préhistoire et protohistoire du Bas-Congo belge, une esquisse », *Volume de Homenagem ao Prof. Doutor Mendes Corrêa*, Porto, Soc. Port. Anthrop. Ethno : 329-44 (٢١).
- 1962. « Vue d'ensemble sur la Préhistoire du Congo occidental », *Actes IV<sup>e</sup> Congr. P.P.E.Q.* : 129-64 (٢١).
- MORTELMANS (G.) et MONTEYNE (R.). — 1962. « Le Quaternaire du Congo occidental et sa chronologie », *Actes III Congr. P.P.E.Q.* : 97-132 (٢١).
- MOSCATI (S.). — 1964. *An introduction to the comparative grammar of the semitic languages*, Wiesbaden (١٠).
- MUKAROVSKY (H.G.). — 1966. « ÜBER die Stellung der Mandesprachen », *Anthropos*, 61 : 679-88 (١٢).
- MULLER (D.K.). — 1923. *Geschichte der ersten Hottentotenmission 1737-1744*, Herrnhut (٦).
- MULLER (F.). — 1863. *Die Musiksprache in Zentral Africa*, Wien (١٠).
- 1867. *Reise der österreichischen Fregate « Novara » um die Erde in den Jahren 1857, 1858, 1859. Linguistischer Teil*, Wien, Staatsdruckerei (١٢).
- 1876-1884. *Grundrisse der Sprachwissenschaft*, Wien, A. Holder, 4 vol. (١٢).
- MUNSON (P.). — 1968. « Recent archaeological research in the Dhar Tichitt region of South-Central Mauretania », *W.A.A.N.*, 10 : 6-13 (٢٤)(٢٣).
- 1970. « Corrections and additional comments concerning the "Tichitt Tradition" », *W.A.A.N.*, 12 : 47-8 (٢٤).
- MURDOCK (G.P.). — 1959. *Africa. Its peoples and their culture history*, New York, McGraw-Hill Book Company, XIII + 456 p. (١٠)(٣) (المقدمة العامة) (١٢).
- MURRAY (G.W.). — 1920. « The Nilotic languages, a comparative essay », *J.R.A.I.* (١٠).
- المرشدي (حميد بن الحسن بن حميد باقجن) — ١٩٣٧ تاريخ واليس للامو (المقدمة العامة) (٥) (٦).
- MUZUE (A.) et NOSEK (E.). — 1974. « Metal examination of iron objects from Niani », *A.A.T.A.*, 11, 1 (١).

- MYINT (H.). — 1964. *The economics of the developing countries*, Londres, Hutchinson, 192 p. (٣).
- NATIONAL ACADEMY OF SCIENCES. — 1975. *Understanding climatic change. A program for action*, United Committee for the global atmospheric research program, 239 p. (١٦).
- NEI MASATOSHI et ROY COUDHURY (A.R.). — 1974. « Genetic variation within and between the three major races of man », *A.J.H.G.* 26 (١١)(١٠).
- NENQUIN (J.). — 1957-58. « Opgravingen te Sanga » (Fouilles à Sanga), *Gentse Bijdragen tot de Kunstgeschiedenis en de Oudheidkunde*, XVIII : 289-311 (٢١).
- 1967. « Contribution to the Study of the Prehistoric Cultures of Rwanda and Burundi », *A.M.R.A.C.* 59 (٢١)(١٦).
- *Inventaria archeologica africana*, Tervuren (المطبعة).
- NEWBURY (C.W.). — 1965. *British policy towards west Africa. Select documents, 1786-1894*, Oxford (٦).
- NEWMAN (P.) et MA (R.). — 1964. « Comparative chadic : phonology and lexicon », *J.A.L.*, 5, 3 : 218-51 (١٢)(١٠).
- NIANE (D.T.). — 1960. « Recherches sur l'Empire du Mali », *Etudes africaines*, Conakry (٧).
- 1960. *Soundjata ou l'Epopée mandingue*, Paris, Prés. afr. (٧)(٣).
- 1970. « Notes sur les fouilles de Niani, ancienne capitale du Mali », *W.A.A.N.* 12 : 43-6 (٢٤).
- NIELSEN (O.J.). — 1970. « Human Remains », *Scandinavian joint expedition to Sudanese Nubia*, Copenhagen-Oslo-Stockholm (٢٨).
- NILSSON (E.). — 1931. « Quaternary glaciations and pluvial lakes, in british East Africa », *G.A.*, 13 : 249-349 (١٦).
- 1940. « Ancient changes of climate in british East Africa and Abissinia : a study of ancient lakes and glaciers », *G.A.* XXII, 1-2 : 1-79 (٢١)(١٦).
- 1949. « The pluvials of East Africa : an attempt to correlate pleistocene changes of climate », *G.A.* XXXI, 1-4 : 204-11 (٢١).
- 1952. « Pleistocene climatic changes in East Africa », *Proc. II P.C.P.Q.S.* : 45-55 (٢٤).
- NKETIA (H.J.). *History and organisation of music in West Africa*, Legon, Institute of African Studies of Ghana (المقدمة العامة).
- NORDSTRÖM (H.A.). — 1972. « Neolithic and A-Group Sites », *Scandinavian joint Expedition to Sudanese Nubia*, Copenhagen-Oslo-Stockholm, Scandinavian Univ. Books (٢٨) (٢٥).
- NORRIS (E.). — 1841. *Outlines of a vocabulary of few of the principal languages of Western and Central Africa*, Londres, J.W. Parker, VII + 213 p. (١٢).
- NORRIS (Th.). — 1968. *Shinqiti folk literature and songs*, Oxford (٦).
- NOTEN (F. van). — 1968. « Note sur l'âge de la pierre récent dans la région des lacs Mokoto (Kivu, Congo) », *B.S.R.B.A.P.*, 79 : 91-101 (٢١).
- 1968. « The Uelian. A Culture with a Neolithic Aspect, Uele-Basin (N.E. Congo Republic) », *A.M.R.A.C.* 64, XIV + 154 p. (٢١).
- 1969. « A ground axe from Burundi », *Azania* IV : 166 (٢١).

- 1971. « Excavation at Munyama Cave », *Antiquity*, XLV, 177 : 56-8 (٢١).
- 1973. « Mystification en Archeologie in Noord-Zaïre » (Mystification et Archéologie au Nord-Zaïre), *Africa-Tervuren*, XIX, 4 : 97-102 (٢١).
- 1977. « Excavations at Matupi Cave », *Antiquity*, LI, 201 : 35-40 (٢١).
- 1978. « The Early Iron Age in the Interlacustrine Region », *J.A.H.* XIX, 1 (٢١).
- NOTEN (F. et E. VAN). — 1974. « Het Ijzersmelten bij de Madi » (La fonte du fer chez les Madi), *Africa-Tervuren*, XX, 3-4 : 57-66 (٢١).
- NOTEN (F. VAN), CAHEN (D.), MARET (J. DE), MOEYERSONS (J.) et ROCHE (E.). En préparation. *The Archaeology of Central Africa*, Graz, Akademische Druck - u. Verlagsanstalt (٢١).
- NOTEN (F. VAN) et HIERNAUX (J.). — 1967. « The Late Stone Age Industry of Mukinanira, Rwanda », *S.A.A.B.* 22, IV : 151-4 (٢١).
- OAKLEY (K.P.). — 1961. « Man the Tool-maker », British Museum, *Natural History*, 5<sup>e</sup> éd. (١١).
- OBENGA (Th.). — 1970. « Méthodologie en histoire africaine : sources locales », *Africa*, XXV. (المقدمة العامة).
- 1973. *L'Afrique dans l'Antiquité*, Paris, Prés. africaine (١٠).
- O'BRIEN (T.P.). — 1939. *The prehistory of Uganda Protectorate*, Londres, Cambridge Univ. Press, 319 p. (٢١).
- OLABIYAL (J.). — 1968. *Remarques sur l'état actuel des recherches linguistiques au Dahomey*, Paris, Prés. afr. (١٠).
- OLDEROGGE (D.). — 1966. « Ecritures méconnues de l'Afrique noire », *Le Courrier de l'Unesco* (١٠).
- OLDEROGGE (D.) et POTEKINE (I.). — 1954. *Les Peuples de l'Afrique*, Moscou (المقدمة العامة).
- OLIVER (R.). — 1966. « The problem of the Bantu expansion », *J.A.H.* 7, 3 (١٢).
- 1973. « African studies in London, 1963-1973 », *Proc. III Intern. W.A.C.* (non publié) (٣).
- OLSSON (I.U.). — 1973. « The radiocarbon dating of Ivory Coast shell mounds », *W.A.J.A.* 3 : 215-20 (٢٤).
- ONDE (H.). — 1963. « La géographie régionale et le monde africain », *Genève-Afrique*, II, 2 : 149-62 (٤).
- ORGAN (R.M.). — 1968. *Design for scientific conservation of antiquities*, Londres, Butterworths, XI + 497 p. (١).
- ORHONLU (C.). — 1972. « Turkish archival sources about Ethiopia », *Proc. 4<sup>th</sup> I.C.E.S.* (٦) (٥). (المقدمة العامة).
- ORLOVA (A.S.). — 1967. *Histoire de l'Afrique au XIX<sup>e</sup> siècle et au début du XX<sup>e</sup> siècle*, Moscou, Institut d'Afr. de l'URSS (المقدمة العامة).
- OUSSEDIK (O.). — 1972. « Les bifaces acheuliens de l'Erg Tihodaine : analyse typométrique », *Libyca*, 20 (٢٢).
- OZANNE (P.). — 1964. « Notes on the later prehistory of Accra », *J.H.S.N.* 3, 1 : 3-23 (٢٤).

- 1966. « The anglo-gambian stone circles expedition », *W.A.A.N.* 4 : 8-18 (٢٤).
- 1969. « The diffusion of smoking in West Africa », *Odu*, N.S. 2 : 29-42 (٢٤).
- 1969. « A new archaeological survey of Ife », *Odu*, 3, 1 : 28-45 (٢٤).
- 1971. « Ghana », P.L. SHINNIE; *African Iron age*, Oxford, Clarendon Press, 35-65 (٢٤).
- PADMORE (G.). — 1962. *Panafricanisme ou Communisme*, Paris, Prés. afr. 14 (المقدمة العامة).
- PAGER (H.). — 1971. *Ndedema*, Graz, Akademische Druck.
- 1975. *Stone age myth. and magic*, Akademische Druck.
- PALMER (H.). — 1928. *Sudanese memoirs being mainly translations of a number of arabic manuscripts relating to the central and western Sudan*, Lagos (٦) (٥).
- PANKHURST (R.). — 1966. *The royal Ethiopian chronicles*, Oxford (٦).
- PARENKO (P. et R. P.) et HEBERT (J.). — 1962. « Une famille ethnique ; les Gan, les Padoro, les Dorobe, les Komono », *B.I.F.A.N.* B, I, XXIV, 3, 4 et 6.
- PARKINGTON (J.) et POGGENPOEL (C.). — 1970. « Excavations at De Hangen, 1968 », *S.A.A.B.* XXVI : 3-36 (٢٠).
- PATTERSON (J.R.). — 1926. *Kanuri songs*, Lagos (٦).
- PAULME (D.). — 1956. « Les sculptures de l'Afrique noire », Paris, PUF (المقدمة العامة).
- 1956. *Parures africaines*, Paris, Hachette (المقدمة العامة).
- 1960. *Les Civilisations africaines*, Paris, PUF (المقدمة العامة).
- PAYDDOKE (E.). — 1963. *The scientist and archaeology*, Londres, Phoenix House, XIII + 208 p. (٩).
- PEDELABORDE (P.). — 1970. *Les Moussons*, Paris, Colin-U2 (١٦).
- PELLETIER (A.) et GOBLOT (J.-J.). — 1973. *Matérialisme historique et Histoire des civilisations*, Paris, Editions sociales (الخاتمة).
- PENDER CUTLIP (P.). — 1972. « Oral traditions and anthropological analysis : Some contemporary myths », *Azania* VII : 3-24 (٨).
- 1973. « Encyclopedic informants and early interlacustrine history », *I.J.A.H.S.*, VI : 468-79 (٨).
- PERLMAN (I.) et ISARO (F.). — 1969. « Pottery analysis by neutron activation », *Archaeometry*, 11 : 21 : 52 (٨).
- PERRET (R.). — 1937. « Une carte des gravures rupestres et des peintures à l'ocre de l'Afrique du Nord », *J.S.A.* VII, 71 : 107-123 (٨).
- PERROT (C.). — 1974. « Ano Aseman : mythe et histoire », *J.A.H.* XV : 199-212 (٨).
- PERSON (Y.). — 1962. « Tradition orale et chronologie », *C.E.A.*, 7, II, 3 (٧).
- 1963. « Classe d'âges et chronologie », *Latitudes*, n° spécial (١٥).
- 1968. *Samori. Une révolution dyula*, Dakar, I.F.A.N. 3 vol (٢).
- PETRIE (W.M.F.). — 1901. *The royal tombs of the first dynasty*, Londres (٢٨).
- 1920. « Prehistoric Egypt », *B.S.A.E.* (٢٨) (٢٣).
- 1921. « Corpus of prehistoric pottery and palettes », Londres (٢٣).



- 1939. *The Making of Egypt*, Londres (٢٨) (٢٥).
- 1953. « Ceremonial slate palettes », *B.S.A.E.* LXVI. (٢٨) (٢٥).
- PETRIE (W.M.F.), MACKAY (E.) et WAINWRIGHT. — 1912. *The labyrinth, Gerzeh and Mazghunah*, Londres (٢٨).
- PEYROUTON. — 1966. *Histoire générale du Maghreb*, Paris, A. Michel (المقدمة العامة).
- PHILIPS (J.). — 1828. *Researches in South Africa*, Londres, 2 vol. (٦).
- PHILIPSON (D.W.). — 1976. « The Early Iron Age in Eastern and Southern Africa : A critical re-appraisal », *Azania*, XI : 1-23 (٢١).
- PIAS (J.). — 1967. « Chronologie du dépôt des sédiments tertiaires et quaternaires dans la cuvette tchadienne », *C.R.A.S.* 264 : 2432-5 (٢٤).
- PICARD (G. Ch.). — 1971. « Le Périple d'Hannon n'est pas un faux », *Archéologia*, 40 : 54-9 (٢٤).
- PIGAFETTA (F.) et LOPEZ (D.). — éd. 1965. *Description du royaume de Congo et des contrées environnantes*, trad. et annoté par Willy Bal (2<sup>e</sup> éd. révisée), Louvain (٤) (١).
- PIVETEAU (J.). — 1973. *Origine et destinée de l'homme*, Paris, Masson, 167 p. (١٨).
- PIOTROVSKY (B.). — 1967. « The early dynasty settlement of Khor-Daoud », *Campagne internationale de l'Unesco pour la sauvegarde des monuments de la Nubie*, Le Caire, Service des antiquités de l'Égypte (٢٥).
- PIRENNE (J.). — 1932. *Histoire des institutions et du droit privé de l'Ancienne Égypte*, Bruxelles, Fondation égyptologique Reine Elisabeth (٢٨).
- PLAATJE (S.T.). — 1916. *Native life in South Africa before and since the European war and the boer rebellion*, Londres. (٦).
- 1930. *Mhundi : an epic of South Africa native life a hundred years ago*, Lovedale (٦).
- PLENDERLEITH (H.J.). — 1962. *The Conservation of antiquities and works of art*, Londres, Oxford Univ. Press, XV + 376 p. (١).
- PLOEY (J. DE). — 1963. « Quelques indices sur l'évolution morphologique et paléoclimatique des environs du Stanley-Pool (Congo) », *Studia universitatis Lovanium*, 17, 16 p. (٢١).
- 1965. « Position géomorphologique, genèse et chronologie de certains dépôts superficiels au Congo Occidental », *Quaternaria* VII : 131-54 (٢١).
- 1968. « Quaternary phenomena in the Western Congo », *Proc. VII Congr. INQUA*, 8 : 500-18 (٢١).
- 1969. « Report on the Quaternary of the Western Congo », *Palaeoecology of Africa, the surrounding islands and Antarctica* IV : 65-8 (٢١).
- POIRIER (J.). — 1969. *Histoire de l'ethnologie*, Paris, PUF (المقدمة العامة).
- POLOTSKY (H.). — 1964. « Egyptian at the dawn of civilisation », *The world history of the Jewish people*, ser. I. (١٠).
- POMMERET (Y.). — 1965. « Notes préliminaires à propos du gisement lupembien et néolithique de Nodjobé », *Mém. S.P.P.G.* II, 45 p. (٢١).
- 1966. « Principaux types d'outils de tradition forestière (Sangoen-lupembien-tchitolien) découverts à Libreville », *B.S.P.P.G.* II, 4 : 29-47 (٢١).

- 1966. « Les outils polis au Gabon », *B.S.P.P.G.* II, 6 : 163-79 (٢١).
- POND (W.P.) et al. — 1938. Prehistoric habitation sites in the Sahara and North Africa, The Logan Museum, Beloit College, Wisconsin (٢٢).
- PORTER (B.) et MOSS (R.L.B.). — *Topographical bibliography of ancient egyptian hieroglyphic texts, reliefs and paintings*, Oxford, The Clarendon Press (٢٨).
- PORTERES (R.). — 1950. « Vieilles agricultures de l'Afrique intertropicale », *A.T.* : 9-10 (٢٧).
- 1951. « Géographie alimentaire, berceaux agricoles et migrations des plantes cultivées en Afrique intertropicale », *C.R.S.B.* : 239-40 (٢٧).
- 1951. « Eleusine coracana Gaertner, céréale des humanités pauvres des pays tropicaux », *B.I.F.A.N.* 23 : 1-78 (٢٤).
- 1958. « Les appellations des céréales en Afrique », *J.A.T.B.A.*, 5 (٢٤).
- 1960. « La monnaie de fer dans l'Ouest africain au XIX<sup>e</sup> siècle », *Recherche africaine*, 4 (١٥).
- 1962. « Berceaux agricoles primaires sur le continent africain », *J.A.H.*, 3, 2 : 195-210 (٢٧)(٢٤)(١٤).
- 1972. « Le millet coracan ou Finger Millet », *Burg. Wart. Symp.* 56 (٢٤).
- POSENER (G.). — 1940. *Princes et Pays d'Asie et de Nubie*, Bruxelles, Fond. égyptol. Reine Elisabeth (٢٨).
- 1960. « De la divinité de Pharaon », *C.S.A.* 15 (٢٨).
- POSENER (G.), SAUNERON (S.) et YOYOTTE (J.). — 1959. *Dictionnaire de la civilisation égyptienne*, Paris, Hazan (٢٨).
- POSNANSKY (M.). — 1969. « The prehistory of East Africa », in B.A. OGOT et J.A. KIERAN, *Zamani, A survey of East african history*, Nairobi-Londres, Longmans & Co Ltd : 49-68 (١١).
- 1971. « Ghana and the origins of West african trade », *Africa quarterly* II : 110-25 (٢٤).
- PRESENCE AFRICAINE. — 1971. *Perspectives nouvelles sur l'Histoire africaine*, Paris (٥).
- PRICHARD (J.C.). — 1855. *The natural history of Man*, 4<sup>e</sup> éd., Londres, H. Ballière, 2 vol. (١٢).
- PRIDDY (A.J.). — 1970. « An Iron Age Site near Yelwa, Sokoto Province : preliminary report », *W.A.A.N.*, 12 : 20-32 (٢٤).
- PRINS (A.H.J.). — 1953. *East African age class systems*, Groningen (١٥).
- 1958. « On Swahili Historiography », *J.E.A.S.C.* LXXVIII, 2 (المقدمة العامة) (٦)(٥).
- QUEZEL (P.) et PONS (A.). — 1957. *Première étude palynologique de quelques paléo-sols sahariens*, Alger, I.R.S. (٤).
- RABIE (H.). — 1972. *The financial system of Egypt*, Londres (٥).
- RADCLIFFE-BROWN (A.R.) et FORDE (D.). — *Systèmes familiaux et matrimoniaux en Afrique*, Paris, PUF (المقدمة العامة).
- RALPH (E.K.), MICHAEL (H.M.) et HAN (M.G.). — 1973. « Radiocarbon dates and reality », *M.N.* 9, 1 : 1-20 (١).
- RAMENDO (L.). — 1963. « Les galets aménagés de Reggan (Sahara) », *Libya*, II : 43-74 (٢٢).

- RANDLES (O.). — 1974. « La civilisation bantu, son essor et son déclin », *Annales* 29, 2 (٢٧).
- RANDLES (W.G.L.). — 1958. *South-East Africa and the empire of Monomotapa as shown on selected printed maps of the 16<sup>th</sup> century*, Lisbonne (٦).
- RANGER (Y.O.). — 1962. « Emerging themes of african history », *International Congress of african historians*, Dar-es-Salam (١٥) (المقدمة العامة).
- 1967. *Revolt in Southern Rhodesia. A Study in african resistance*, Londres, Heinemann, xii + 403 p. (٣).
- RATTRAY (R.S.). — 1923. *Ashanti*, Oxford, Clarendon Press (٢٤).
- REED (C.A.). — 1964. « Natural history study of Karkur Oasis, Libyan desert », *Postilla-Peabody Museum*, 84 (٢٥).
- 1965. « A human frontal bone from the late pleistocene of the Kom-Ombo Plain », *Man*, 95 : 101-4 (٢٥).
- 1967. *Preliminary report on the archaeological research of the Yale University, Prehistoric expedition to Nubia, 1962-1963*, Le Caire, Antq. Depart. Egypt. (٢٥).
- REES (A.R.). — 1965. « Evidence for the African origin of the oil palm », *Principes*, 9 : 30-6 (٢٤).
- REINDORF (C. Ch.). — 1889. *The History of the Gold Coast and Asante*, Bâle n. d. l C. 183 (٣).
- REINISEH (L.). — 1881. *Die Kunama-Sprache in Nord-Ost Afrika*, Vienne (١٠).
- REISNER (G.A.). — 1910. *Archaeological survey of Nubia, report for 1907-1908*, vol. I, Le Caire, National Printing Dept. (٢٨).
- 1923. *Excavations at Kerma*, Cambridge, Harvard African Studies (٢٨).
- RENAN (E.). — 1855. *Histoire générale et Système comparé des langues sémitiques*, Paris, Impr. Roy., VIII + 499 p. (١).
- REVUE de géographie physique et de géologie dynamique. — 1976. N° spécial, « Oscillations climatiques au Sahara depuis 40 000 ans », Paris, Masson (١١).
- REYGASSE (M.). — 1922. « Note au sujet de deux civilisations préhistoriques pour lesquelles deux termes nouveaux me paraissent devoir être employés », *Actes 46<sup>e</sup> Congr. A.F.A.S.* : 467-72 (٢٢).
- 1923. « Découverte d'outillage moustérien à outils pédonculés atériens dans le Tidikelt, Oued Asriouel, région d'Aoulef Chorfa », *Actes 46<sup>e</sup> Congr. A.F.A.S.* : 471-2 (٢٢).
- RHODENBURG (H.). — 1970. « Morphodynamische Aktivitäts- und Stabilitätszeiten statt Pluvial -und Interpluvialzeiten », *Eiszeitalter und Gegenwart*, 21 : 81-96 (٢١).
- RHODENBURG (H.) et SABELBERG (U.). — 1969. « Zur landschafts-ökologisch-bodengeographischen und klimagenetisch-geomorphologischen Stellung des westlichen Mediterrangebiets », *Göttinger Bodenkundliche Berichte*, 7 : 27-47 (١١).
- RHOTERT (H.). — 1952. *Libysche Felsbilder*, Darmstadt, L.C. Wittich (٢٣).

- RICHARD (Abbé). — 1869. « Sur la découverte de silex taillés dans le sud de l'Algérie », *Matériaux pour l'histoire primitive de l'Homme*, 4 : 74-5 (٢٣).
- RICHARD (C. DE). — 1955. « Contribution à l'étude de la stratigraphie du quaternaire de la presqu'île du Cap Vert (Sénégal) », *B.S.P.F.* 52 : 80-8 (٢٤).
- RICHARDSON (J.L.) et RICHARDSON (A.E.). — 1972. « History of an African rift Lake and its climatic implication », *Ecol. Monogr.* 42 : 499-534 (١٦).
- RIGHTMIRE (G.P.). — 1974. *Comments on race and population history in Africa*, New York (١١).
- ROBERT (D.). — 1970. « Les fouilles de Tegdaoust », *J.A.H.* 11, 4 : 471-93 (٢٤).
- 1970. « Report on the excavations at Tegdaoust », *W.A.A.N.*, 12 : 64-8 (٢٤).
- ROBERT (D. et S.) et DEVISSE (J.). — 1970. *Tegdaoust I, Recherches sur Aoudaghost*, Paris, A.M.G. (٢٤).
- ROBERTS (A.D.). — 1967. « Oral traditions of the peoples of Tanzania », *E.A.J.* 12 : 23-5 (٧).
- 1968. *Recording East Africa's past : a brief guide for the amateur historian*, Dar-es-Salam (٧).
- 1968. « Oral tradition through the Sieve : Notes and Comments on the Second Conference on Tanzania's oral history », *E.A.J.* : 35-8 (٧).
- 1968. *Tanzania before 1900*, Nairobi, East African Publishing House, XX + 162 p. (٣).
- ROCHE (E.). — 1975. « Analyse palynologique du site archéologique de la Kamoà », D. Cahen, *le Site archéologique de la Kamoà (région du Shaba, République du Zaïre). De l'Age de la pierre ancienne à l'Age du fer*, A.M.R.A.C. 84 : 331-7 (٢١).
- 1963. *L'Epipaléolithique marocain*, Lisbonne (٢٢).
- RODIER (J.). — 1963. « Hydrologie du continent africain », *Enquête sur les ressources naturelles du continent africain*, Paris, Unesco, pp. 185-226 (١٣).
- ROGNON (P.). — 1974. « Modifications naturelles du cycle hydrométéorologique depuis 10 000 ans. Leur utilisation pour la prévision climatique à long terme », in *Influence* (١٦).
- ROSENFELD (A.). — 1965. *The inorganic raw minerals of Antiquity*, Londres (١٤).
- 1972. « The microlithic industries of Rop Rock Shelter », *W.A.J.A.* vol. II : 17-28 (٢٤).
- ROTHBERG (R.J.), dir. — 1971. *Africa and its explorers : motives, methods, and impact*, Cambridge, Mass. (٦).
- ROTHBERG (R.J.) et ROUBET (F.E.). — 1966. « Présentation comparative d'un gisement côtier, des environs de Berard, à l'ouest d'Alger », *Congr. Préhist. Français*, Ajaccio : 109-28 (٢٢).

- ROTHBERG (H.) et ROUBET (C.). — 1968. « Nouvelles observations sur l'Épipaléolithique de l'Algérie orientale. Le gisement de Koudiat Kifène Lahda », *Libyca*, 16 : 55-101 (٢٢).
- 1972. « The microlithic industries of Rof Rock Shelter », *W.A.J.A.* 2, 17-28 (٢٤).
- (à paraître) : *Une économie pastorale pré-agricole en Algérie orientale. Le néolithique de tradition capsienne. L'exemple de l'Aurès* (٢٢).
- ROTHBERG (R.J.) et MAZRUI (A.A.), éd. — 1970. *Protest and Power in Black Africa*, New York, Oxford University Press, XXX + 1274 p. (٣).
- ROUBET (C.). — 1968. *Le Gisement du Damous el Ahmar*, Paris, A.M.G. (٢٢) (٢١).
- 1971. « Sur la définition et la chronologie néolithique de tradition capsienne », *Anthropologie*, 75 : 553-74 (٢٤) (٢٢).
- RUBIN (A.). — 1970. Review of Philip Allison's « African Stone Sculpture » and Franck Willett's « Ife in the History of West African Sculpture ». *Art bulletin* 72, 3 : 348-54 (٢٤).
- RUFFIE (J.). — 1977. *De la biologie à la culture*, Paris, Flammarion 598 p. (المقدمة العامة) (١٠).
- 1977. « Génétique et Anthropologie », *Science et vie* n° 120 Hors série (١١).
- RYDER (A.F.C.). — 1965. *Materials for West African History in Portuguese Archives*, Londres (٢٤) (٦).
- 1965. « A reconsideration of the Ife-Benin relationship », *J.A.H.* 6, 1 : 25-37 (٢٤).
- SABERWAL (S.). — 1967. « The oral tradition, periodization and political system », *C.J.A.S.* I : 157-62 (٧).
- SAID (R.). — *The geological evolution of the River Nile* (١١).
- SALEH (S.A.), GEORGE (A.W.) et HELMI (F.M.). — 1972. « Study on glass and glass-making processes at Wadi-El-Natrum, 1<sup>re</sup> partie. Fritting crucibles, their technical features and temperature employed », *Studies in Conservation*, Londres, 17 : 143-70 (١).
- SAMB (A.). — 1971. « Langues négro-africaines et leurs emprunts à l'arabe », *N.A.* (١٠).
- SAMPSON (C.G.). — 1972. « The Stone Age industries of the Orange River Scheme and South Africa », *Memoirs of the National Museum Bloemfontain*, 6 (٢٠).
- 1974. *The Stone Age archaeology of Southern Africa*, Academic Press, New York (٢٠).
- SANCHO (I.). — 1781. *Letters of the late I. Sancho, an african... to which are prefixed memoirs of his life*, Londres, 2 vol. (١).
- SANDER (E.R.). « The hamitic hypothesis, its origin and function in time perspective », *J.A.H.* X, 4 : 521-32 (١٢) (المقدمة العامة).
- SANDFORT (K.S.) et ARKELL (A.J.). — 1929. *Palaeolithic man and the Nile, Fayum divide*. Oriental Institute Publication, 10, (٢٣)

- SAPIR (D.). — 1973-1974. « Linguistics in Sub-saharan Africa », in *Current trend in linguistics*, T.A. SEBEOK (dir.), Paris - La Haye, Mouton (١٢) (١٠).
- SAUER (C.O.). — 1952. « Agricultural origins and dispersion », *B.M.L.* 2 (٢٧).
- SAUNDERS (A.M.C.). — 1964. *World population : past growth and present trends*, Londres (١٤).
- SAUVAGET (J.). — 1946. *Historiens arabes*, Paris, A. Maisonneuve (المقدمة العامة).
- 1961. *Introduction à l'histoire de l'Orient musulman*, Paris (5).
- SAVAGE (G.). — 1967. *The art and antique restorers' handbook*, Londres, Barris et Rockliff, 142 p. (٩).
- SAVARY (P.). — 1966. « Monuments en pierres sèches du Fasnoun », *M.C.R.A.P.E.* 6, 78 p. (٢٢).
- SAYCE (R.U.). — 1933. *Primitive arts and crafts*, Cambridge, Cambridge University Press, XIII + 291 p. (٢٤).
- SAYRE (E.V.) et MEYERS (P.). — 1971. « Nuclear activation applied to materials of art and archaeology », *A.A.T.A.*, 8, 4 : 115-50 (١).
- SCHARFF (A.) et MOORGAT (A.). — 1950. *Ägypten und Vorderasien im Altertum*, München, F. Bruckmann (٢٨).
- SCHEUB (H.). 1975. *The Ntsomi : a Xhosa performing art*, Oxford (٧).
- SCHLÖZER (A.L. VON). — 1781. In EICHHORN J.G., *Repertorium für biblische und morgenländische Literatur*, Leipzig, Wiedmanns Erben und Reich, 1777-1786, 18 parties, partie VIII (١٢).
- SCHMITZ (A.). — 1962. « Les Muhulu du Haut-Katanga méridional », *B.J.B.E.* XXXII, 3 (٢١).
- 1971. « La végétation de la plaine de Lubumbashi (Rép. Dém. Congo) » *Publ. INEAC* 113 : 11-388 (٢١).
- SCHNELL (R.). — 1967. *Plantes alimentaires et agricoles de l'Afrique noire*, Paris, Larose (٢٧) (المقدمة العامة).
- SCHOLLAR (I.). — 1970. « Magnetic methods of archaeological prospecting advances in instrumentation and evaluation techniques », *P.T.R.S.* 269, 1193 : 103-19 (٩).
- SEBEOK (T.A.). — 1963-1974. *Current trend in linguistics*, Paris - La Haye, Mouton (١٢) (١٠).
- SECK (A.) et MONDJANNAGNI (A.). — 1967. *L'Afrique occidentale*, Paris, PUF, 290 p. (١٣).
- SEDDON (D.). 1968. « The origins and development of agriculture in East and Southern Africa », *C.A.* 9, 5 : 489-94 (٢٧) (٢٤).
- SELIGMAN (G.). — 1930. *Races of Africa*, Londres (١٠).
- SERVAT (M. et S.) et DELIBRIAS (G.). — 1969. « Chronologie du Quaternaire récent des basses régions du Tchad », *C.R.A.S.* 269 : 1603-6 (٢٤).
- 1973. « Séquences continentales et variations climatiques : évolution du bassin du Tchad au Cénozoïque supérieur », *M.O.R.S.T.O.M.*, 348 p. (١٦).

- 1974. « Les variations climatiques des régions intertropicales du continent africain depuis la fin du Pléistocène », *13<sup>e</sup> journée de l'hydraulique, Soc. Hydrotech. Fr.* (١٦).
- SETHE (K.). — 1930. *Urgeschichte und älteste Religion der Ägypter*, Leipzig, F.A. Brickhaus (٢٨).
- SEYDOU (Ch.) éd. — 1977. *La Geste de Ham-Bodédio ou Hama le Rouge*, Paris, A. Colin, Classiques africains, 18 (٢).
- SCHAPERA (I.). — 1933. *The early Hottentots*, Cape Town (٦).
- SHAPERS (I.). — 1668. *The Early Cape Hottentots, described in the writings of Dapper* (٦).
- SHAW (Th.). — 1944. « Report on excavations carried out in the cave known as Bosumpra at Abetifi, Kwahu, Gold coast Colony », *Proceedings of the prehistoric society*, Cambridge, 10 : 1-67 (٢٤).
- 1960. « Early Smoking Pipes : in Africa, Europe and America », *J.R.A.I.* (٢٤).
- 1961. *Excavation at Dawu*, Edinburgh, Nelson, VIII + 124 p. (٢٤).
- 1962. « Chronology of excavation at Dawu », *Man*, 72 : 217 (٢٤).
- 1963. « Field research in nigerian archaeology », *J.H.S.N.*, 2, 4 : 449-64 (٢٤).
- 1964. *Archaeology in Nigeria*, Ibadan, Ibadan University Press (٢٤).
- 1964. « Smoking in Africa », *S.A.A.B.* 19, 75 : 75-6 (٢٤).
- 1965. « Spectrographic analyses of the Igbo and other Nigerian bronzes », *Archaeometry*, 8 : 86-95 (٢٤).
- 1965. « 'Akure excavations : Stone Age Skeleton 9000 BC », *A.N.* 3 : 5-6 (٢٤).
- 1967. « Terminology », *W.A.A.N.* 7 : 86-95 (٢٤).
- 1969. « Further spectrographic analyses of nigerian bronzes », *Archaeometry*, 11 : 85-98 (٢٤).
- 1969. « The later Stone Age in the nigerian forest », *Actes 1<sup>re</sup> Coll. internat. Archaeol. Afr.* : 364-74 (٢٤).
- 1969. « On radiocarbon chronology of the Iron Age in Sub-Saharan Africa », *C.A.* 10 : 226-31 (٢٤).
- 1970. « The analysis of West African bronzes : a summary of the evidence », *Ibadan*, 20 : 80-9 (٢٤).
- 1971. « The Prehistory of West Africa », in J.F.A. AJAYI and M. CROWDER, *History of West Africa*, London, Longmans (٢٤).
- 1971. « Africa in Prehistory : leader or laggard ? », *J.A.H.*, 12, 1 : 143-53 (٢٤).
- 1971. *Igbo-Ukwu : an account of archaeological discoveries in eastern Nigeria*, Londres, Faber and Faber, 2 vol. (٢٤).
- 1972. « Early crops in Africa : a review of the evidence », *Burg. Wart. Symp.* 56 (٢٤).
- 1973. « Trade and the Tsoede bronzes », *W.A.J.A.* 3 : 233-8 (٢٤).
- SHELTON (A.K.). — 1968. « Causality in african thought ; Igbo and other », *P.A.* 15, 4 : 157-69 (٧).

- SHEPPERSON (G.) et PRICE (Th.). — 1958. *Independent Africa. John Chilembwe and the Origins. Setting and Significance of the Nyassaland native rising of 1915*, Edinburgh, Edinburgh University Press, X 564 p. (٣).
- SHINNIE (P.L.). — 1967. *Meroe, a civilization of the Sudan*, New York, Washington (٢٨).
- 1971. *The African Iron Age*, Oxford, Claredon Press (٢٨) (٢٤).
- SIBRAVA (V.) dir. — 1975. *Quaternary glaciations in the Northern hemisphere*, rapport n° 2, Projet 73/1/24, Prague, Unesco, 151 p. (١٦).
- SILVA REGO (A. da). — 1949-1958. *Documentos para historia do missoes de Padreoda portuguesa de oriente*, 12, Lisbonne (١).
- SIMPSON (G.C.). — 1957. « Further studies in world climate », *J.R.M.S.* 83 : 459-85 (٢٤).
- SIMPSON (W.K.) éd. — 1972. *The literature of ancient Egypt*, New Haven-London (٢٨).
- SINGER (R.). — 1958. « The Rhodesian, Florisbad and Saldanha Skulls, G.H.R. von KOENIGSWALD », *Neandertal Centenary*, Utrecht : 52-62 (٢٠).
- SINGER (R.) et WYMER (J.). — 1968. « Archaeological Investigations at the Saldanha skull site in South Africa », *S.A.A.B.* XXV : 63-74 (٢٠).
- SINGH (G.). — 1973. « Late Quaternary changes in vegetation and climates in the arid tropics of India », *Acts IX I.N.Q.U.A. Congr.* (١٦).
- SMITH (A.). — 1974. « Preliminary report of excavations at Karkarichinkat, Mali, 1972 », *W.A.J.A.* 4 (٢٤).
- SMITH (H.F.C.). — 1958. « Source material for the history of the Western Sudan », *J.H.S.N.* 1, 3 : 238-48 (١) (٥) (المقدمة العامة).
- 1961. « Arabic manuscript material bearing on the History of Western Sudan : a seventeenth century writer of Katsina », *B.N.H.S.N.* VI, 1 (١) (٥) (المقدمة العامة).
- SMITH (H.S.). — 1966. « The Nubian B-Group », *Kush*, XIV : 69-124 (٢٨).
- SMITH (P.E.). — 1966. « The late Paleolithic of Northern Africa in the light of recent researches », *A.A.* 68 : 326-55 (٢٥).
- 1966. « New prehistoric investigation at Kom-Ombo », *Zephyrus* XVII (٢٥).
- 1967. « New investigations in the late Pleistocene archaeology of the Kom-Ombo Plain », *Quaternaria*, IX (٢٥).
- SOGA (T.B.). — 1929. *Intlalo ka Zossa*, Lovedale (١).
- SOMMER (F.). — 1953. *Man and beast in Africa*, Londres, 206 p. (١٤).
- SOPER (R.C.). — 1965. « The Stone Age in Northern Nigeria », *J.H.S.N.* 3, 2 : 175-94 (٢٤).
- SOUVILLE (G.). — 1958-59. « La pêche et la vie maritime au Néolithique en Afrique du Nord », *B.A.M.* 3 : 315-44 (٢٢).
- 1973. *Atlas de préhistoire du Maroc*, « Maroc atlantique », Paris, C.N.R.S., Etudes d'antiquités africaines (٢٢).
- SOW (A.I.). — 1968. *Chroniques et récits du Fouta-Djalon*, Paris, Klincksieck, 262 p. (١).



- SOWUNMI (M.A.). — 1973. « A preliminary palynological study in the Rivers Stat », *Oduma*, I, 1 : 13-4 (٤).
- SPARKS (B.W.) et WEST (R.G.). — 1972. *The Ice Age in Britain*, Londres, Methuen, XVIII + 302 p. (٢٤).
- SPARRMAN (A.). — 1789. *A voyage to the Cape of Good Hope, towards the Antarctic polar circle, and round the world, but chiefly into the country of the Hottentots and Caffres, from the year 1772 to 1776*, Perth (٦).
- STAINER (X.). — 1898. « L'âge de la pierre au Congo », *A.M.R.A.C.* III, 24 p. (٢١).
- STANTON (W.R.) et WILLETT (F.). — 1963. « Archaeological evidence for changes in Maize type in West Africa : an experiment in technique », *Man*, 63 (٢٤).
- STREEL (M.). — 1963. *La Végétation tropophylle des plaines alluviales de la Lufira moyenne*, Liège, F.U.L.R.E.A.C. (٢١).
- STROSS (F.H.) et O'DONNALL. — 1972. *Laboratory analysis of organic materials*, USA, Addison-Wesley modular publications, module 22 (١).
- STROUHAL (E.). — 1976. *Problems of study of human races*, Prague (١١).
- STRUEVER (S.) éd. — 1971. *Prehistoric agriculture*, New York, American museum sourcebook in anthropology (٤).
- STUVIER (M.) et SUESS (H.E.). — 1966. « On the relationship between radiocarbon dates and true sample ages », *Radiocarbon*, 8 : 534-40 (١).
- SURET-CANALE (J.). — 1964. « Les sociétés traditionnelles en Afrique tropicale et le concept de mode de production asiatique », *Pensée*, 117 : 21-42 (الماتمة).
- 1968. *Afrique noire occidentale et centrale*, Paris, Editions sociales, « I. Géographie, civilisations, histoire », 339 p. (١٣) (المقدمة العامة).
- SWADESH (E.). — 1966. « A Preliminary glottochronology of Gur », *J.W.A.L.* (١٠).
- 1966. « Glottochronology », *J.W.A.L.*, III (١٠).
- SZUMOWSKI (G.). — 1956. « Fouilles de l'abri sous roche de Kourounorokale », *B.I.F.A.N.*, B, 18 : 462-508 (٢٤).
- TAIEB (M.). — 1974. *Evolution quaternaire du bassin de l'Awash (Rift éthiopien et Afar)*, Thèse, Paris, 2 tomes (١٧).
- TAIEB (M.), COPPENS (Y.), JOHANSON (D.C.) et KALB (J.). — 1972. « Dépôts sédimentaires et faunes du Plio-Pléistocène de la basse vallée de l'Awash (Afar central, Ethiopie) », *C.R.A.S.* 275 : 819-22 (١٧).
- TAIEB (M.), JOHANSON (D.C.) et COPPENS (Y.). — 1975. « Expédition internationale de l'Afar, Ethiopie (3<sup>e</sup> campagne, 1974) découverte d'Hominidés plio-pléistocène à Hadar », *C.R.A.S.* 281 : 1297-1300 (١٨) (١٧).
- TAIEB (M.), JOHANSON (D.C.), COPPENS (Y.) et ARONSON (J.L.). — 1976. « Geological and paleontological background of Hadar hominid site, Afar, Ethiopie », *Nature*, 260, 5549 : 289-93 (١٧) (١٦).
- TAIEB (M.), JOHANSON (D.C.), COPPENS (Y.), BONNEFILLE (R.) et KALB (J.). — 1974. « Découverte d'Hominidés dans les séries plio-pléistocènes d'Hadar (bassin de l'Awash, Afar, Ethiopie) », *C.R.A.S.* 279 : 735-8 (١٧).

- TALBOT (P.A.). — 1923. *Life in Southern Nigeria : the magic, beliefs and customs of the Ibido Tribe*, Londres, Macmillan, pp. 448-464 (١٠).
- TARDITS (C.). — 1962. « Religion, épopée, histoire ; notes sur les fonctions latentes des cultes dans les civilisations du Benin », *Diogenes*, n° 37 (١٠).
- TATTAM (C.M.). — 1944. *A Rewiew of nigerian stratigraphy*, Annual report of the geological survey of Nigeria, 1943, Lagos, Government printer (٢٤).
- TAUXIER (L.). — 1882. « Les deux rédactions du périple d'Hannon », *R.A.* 15-37 (٥).
- TEILHARD DE CHARDIN (P.). — 1954. « Les recherches pour la découverte des origines humaines en Afrique au sud du Sahara », *Anthropologie* (الخاتمة).
- 1955. « L'Afrique et les origines humaines », *Revue des questions scientifiques* (الخاتمة).
- 1956. *Le Groupe zoologique humain*, Paris (١٠).
- THEAL (G.M.). — 1896-1903. *Records of South-Eastern Africa*, Londres, 8 vol. (٦).
- 1897-1905. *Records of the Cape colony*, Londres, 36 vol. (٦).
- THOMASSEY (P.) et MAUNY (R.). — 1951. « Campagne de fouilles à Koumbi Saleh », *B.I.F.N.* 13, 1 : 438-62 (٢٤).
- 1956. « Campagne de fouilles à Koumbi Saleh », *B.I.F.A.N. B.* 18 : 117-40 (٢٤).
- THOMPSON (L.). — 1969. *African societies in Southern Africa*, Londres, Heinemann (٢٤) (القدمة العامة).
- TIME-LIFE BOOKS. — 1972. « The Missing Link. Emergence of Man », sér. 3 (١٩).
- TIXIER (J.). — 1957. « Le hachereau dans l'Acheuléen nord africain. Notes typologiques », *C.R. XV Congr. Préhist. Fr.* : 914-23 (٢٣) (٢٢).
- 1958-59. « Les pièces pédonculées de l'Atérien », *Libyca*, 6, 7 : 127-57 (٢٢).
- 1963. *Typologie de l'Epipaléolithique du Maghreb*, Paris, A.M.G. (٢٢).
- « Les industries lithiques de l'Aïn Fritissa », *B.A.M.* 3 : 107-247 (٢٢).
- TOBIAS (P.V.). — 1967. *Olduwai George. The cranium of Australopithecus (Zinjanthropus) boisei*, Cambridge, Cambridge Univ. Press, 264 p. (١٧).
- 1967. « Cultural hominization among the earliest African Pleistocene hominid », *Proc. Prehist. Soc.* 33 : 367-76 (٢٠).
- 1968. « Middle and early Upper Pleistocene members of the genus Homo in Africa », *Sonderdruck aus Evolution und Hominization*, Stuttgart, G. Kurth, 176-94 (٢٠).
- 1968. *Man's past and future*, Fifth Raymond Dart lecture, Johannesburg, Witwatersrand Univ. Press (٢٠).
- TOBIAS (P.V.) et COPPENS (Y.). — 1976. « Les plus anciens hominidés » *Actes IX Congr. U.I.S.P.P.* (١٧).
- TRICART (J.). — 1956. « Tentative de corrélation des périodes pluviales africaines et des périodes glaciaires », *C.R.S.G.F.* : 164-7 (١٦).

- TRIGGER (B.G.). — 1965. *History and Settlement in Lower Nubia*, New Haven, Yale University pub. in anthropology, 69 (٢٨)  
 — « Meroitic and Eastern Sudanic : a linguistic relationship ? », *Kush*, vol. 12 (١٢).
- TRIGGER (B.G.). — 1969. « Meroe and the African iron age », *A.H.S.* II (٢٨).
- TSHUDI (J.). — 1955. *Nordafrikanische Feldsmalereien*, Florence, Sansoni, 106 p. (٢٣).
- TUCKER (A.N.). — 1940. *The Eastern Sudanic languages*, Londres (١٠).  
 — 1948. *Distribution of the Nilotic-Hamitic Languages of Africa*, Londres (١٠).
- TUCKER (A.N.) et BRYAN (M.A.). — 1966. *Linguistic Analyses : The non-Bantu languages of North-Eastern Africa*, Londres-New York-Le Cap, Oxford Univ. Press, XV + 228 p. (١٢)(١٠).
- TUREKIAN (K.K.). éd. — *Late Cenozoic Glacial Age*, New Haven, Yale Univ. Press (١٦).
- TURNER (L.D.). — 1955. « The odyssey of a Zulu warrior », *J.N.H.* 40, 4 (٦).
- TWIESSELMANN (F.). — 1958. *Les Ossements humains du gîte mésolithique d'Ishango*, Mission J. de Heinzelin de Braucourt en 1950, Bruxelles, Institut des Parcs nationaux du Congo belge, 125 p. (٢١).
- UCKO (P.J.) et DIMBLEBY (G.W.) dir. — 1969. *The domestication and exploitation of plants and animals*, Londres, Duckworth, XXVI + 581 p. (٢٤).
- 1970. « The history of Africa », *C.H.M.* XII, 4 : 527-605 (١٥).
- 1972. « Les origines de l'homme », *Le Courrier*, août-sept., n° spécial (الخاتمة)
- اليونسكو — ١٩٦٥ «فن الكتابة»  
 — ١٩٧٣ «منتخبات نصوص بالعربية مأخوذة من الوثائق المغربية» بقلم الاستاذ محمد ابراهيم الكنائي، باريس (المقدمة العامة).
- 1974. *Colloque scientifique international sur le peuplement de l'Egypte ancienne et le déchiffrement de la langue méroïtique*, Le Caire, 28 jan.-3 fév. (المقدمة العامة)
- U.S. NATIONAL REPORT. — 1971-1974-1975. « American géophysical union, 15<sup>th</sup> general ass. International union of geology and geophysics, Grenoble », *Rev. geophys. Space phys.*, vol. 13, n° 3, 1110 p. (١٦).
- VAJDA (G.). — 1950. « Contribution à la connaissance de la littérature arabe en Afrique occidentale », *J.S.A.* XX : 229-37 (٦)(٥) (المقدمة العامة).
- VANDIER (J.). — 1952. *Manuel d'archéologie égyptienne*, Tome I., 1, « La Préhistoire », Paris, Picard (٢٨).
- VANDIER (J.) et DRIOTON (E.). — 1962. « Les peuples de l'Orient méditerranéen », II — *L'Egypte*, Clio, Paris, PUF (٢٨).
- VANSINA (J.). — 1961. *De la tradition orale : essai de méthode*, Tervuren, Mémoire n° 36 du Musée royal d'Afrique Centrale (٧) (المقدمة العامة)
- 1971. « Once upon a time : Oral traditions as history in Africa », *Daedalus*, 100, 2 : 442-68 (٧).

- 1973. *The Tyo Kingdom of the Middle Congo. 1880-1892*, Oxford, Clarendon Press, XIX + 590 p. (٢).
- 1974. « Comment : traditions of Genesis », *J.A.H.* XV : 317-322 (٨).
- VANSINA (J.), MAUNY (R.) et THOMAS (L.V.). — 1964. *The historian in tropical Africa*, Oxford, Oxford Univ. Press (المقدمة العامة) (١٥).
- VAUFREY (R.). — 1939. *L'Art rupestre nord-africain*, Paris, Institut de paléontologie humaine, Mém. 20, 127 p. (٢٣).
- 1946. « Le Néolithique de tradition capsienne au Sénégal », *Rivista di Scienza preistorica*, Rome (٢٤).
- 1949. « Le Néolithique paratoumbien, une civilisation agricole primitive du Soudan », *J.E.A.* 35 (الخاتمة).
- 1953. « L'Age de la pierre en Afrique, exposé synoptique », *J.S.A.* XXIII : 103-38 (الخاتمة).
- 1955 et 1970. *Préhistoire de l'Afrique*, I. « le Maghreb », II. « Au nord et à l'est de la Grande Forêt », Paris, Masson (٢٣) (٢٢).
- VAVILOV (N.I.). — 1935. *Bases théoriques de la sélection des plantes*, tome I, « Sélection générale », Moscou-Léninegrad, 1045 p. (٢٧) (١٤).
- 1951. « The origin, variation, immunity and breeding of cultivated plants », Selected writings translated by K. STAAR, *Chronica Botanica*, 13 : 1-6 (٢٧).
- VERCOUTER (J.). — 1959. « The Gold of Kush », *Kush*, VII : 120-53 (٢٨).
- VERCOUTER (J.), BOTTERO (J.) et CASSIN (E.). — 1967. *The New East, the early civilizations*, New York, Delacorte (٢٨).
- VERHAEGEN (B.). — 1974. *Introduction à l'histoire immédiate*, Paris, Duculot (المقدمة العامة) (١٥) (الخاتمة).
- VERMEERSCH (S.). — 1976. « L'Épipaléolithique dans la vallée du Nil », *Actes IX Congr. U.I.S.P.P.* (٢٥).
- VIA (Y. et M.). — 1974. *Sahara, milieu vivant*, Paris, Hatier (٢٦).
- VIDAL (O.E.). — 1852. in CROWTHER (S.A.), *A vocabulary of the Yoruba languages*, Londres, Seeleys (١٢).
- VIDAL (P.). — 1969. *La Civilisation mégalithique de Bouar. Prospections et fouilles, 1962-1966*, Paris, F. Didot, 132 p. (٢١).
- VIGNARD (E.). — 1923. « Une nouvelle industrie lithique : le Sébilien », *B.I.F.A.O.* 22 : 1-76 (٢٢).
- VOEGELIN (C.F. et F.M.). — 1973. *Index of the World's languages*, Washington (١٢).
- VOGEL (J.C.) et BEAUMONT (P.B.). — 1972. « Revised radiocarbon chronology for the Stone Age in South Africa », *Nature*, 237 : 50-1 (٢٤) (٢٠).
- VOUTE (C.). — 1962. « Geological and morphological evolution of the Niger and Benue Valleys », *Proc. IV. P.C.P.Q.S.* 1 : 189-207 (٢٤).
- WAINWRIGHT (G.A.). — 1949. « Pharaonic survivals between Lake Chad and the West Coast », *J.E.A.* 35 : 170-5 (٢٤).
- WAI-OGUSU (B.). — 1973. « Was there a Sangoan industry in West Africa ? », *W.A.J.A.* 3 : 191-6 (٢٤).
- 1974. « Pleistocene man in Africa with special reference to West Africa », *J.H.S.N.* 7, 2 : 357-68 (٢٤).

- WATTS (A.D.). — 1926. *The early hunters and explorers in South West Africa*, thesis, Cape Town, Univ. of Cape Town (٦).
- WAYLAND (E.J.). — 1929. « Rift valleys and Lake Victoria », *C.R. XV C.I.G. II* : 323-53 (٢٤)(٢١).
- 1934. « Rifts, rivers and rains and early man in Uganda », *J.R.A.I.* 64 : 332-52 (٢٤)(٢١).
- 1952. « The study of past climates in Tropical Africa », *P.C.P.*, 1947, Oxford, Blackwell : 66 (٢٤).
- WEBB (M.C.). — 1968. « Carneiro's hypothesis of limited land resources and the origins of the state : a Latin Americanist's approach to an old problem », *South Eastern Latin Americanist*, 12, 3 : 168 (٢٤).
- WELMERS (W.). — 1973. *African language structures*, Los Angeles, Univ. of California Press (١٢).
- WENDORF (F.). — 1965. *Contributions to the Prehistory of Nubia*, Dallas, Fort Burgwin Research Center and Southern Methodist Univ. Press, 164 p. (٢٣).
- 1968. *The Prehistory of Nubia*, Dallas, Fort Burgwin Research Center and Southern Methodist Univ. Press (٢٨)(١٦).
- WENDORF (F.), SAID (R.) et SCHILD (R.). — 1970. « Egyptian prehistory : some new concepts », *Science*, 169 : 1161-71 (٢٨)(٢٤).
- WENDORF (F.), LAURY (R.L.), ALBRITON (C.C.), SCHILD (R.), HAYNES (C.V.), DAMON (P.E.), SHAFIQUILLAH (H.) et SCARBOROUGH (R.). — 1974. « Dates for the Middle Stone Age of East Africa », *Science*, 187 : 740-2 (١٦).
- WENDT (W.E.) et REED (C.H.). — 1966. « Two prehistorical archaeological sites in Egyptian Nubia », *Postilla*, 102 : 1-46 (٢٥).
- WERBER (A.). — 1925. *The language families of Africa*, Londres, Society for promoting christian knowledge, VII + 149 p. (١٢)(١٠).
- 1930. *Structure and Relationship of African languages*, Londres-New York, Longmans Green and Co, VII + 61 p. (١٢)(١٠).
- WERNER (A.E.A.). — 1970. « Analysis of ancient metals », *P.T.R.S.* 269, 1193 (١).
- WESTCOTT (R.W.). — 1957. « Did the Yoruba come from Egypt ? », *Odu*, 4 (٢٤).
- WESTERMANN (D.). — 1911. *Die Sudansprachen, eine sprachvergleichende Studie*, Hambourg, L. Friederichsen, VIII + 222 p. (١٢).
- 1927. *Die westlichen Sudansprachen und ihre Beziehungen zum Bantu*, Mitteilungen des Seminars für orientalische Sprachen, Den Haag, de Gruyter (١٢).
- WESTPHAL (E.O.J.). — 1962. « On classifying Bushman and Hottentot languages », *A.L.S.* III : 30-48 (١١).
- 1966. « The non-Bantu languages of Southern Africa », A.N. Tucker and M.A. Bryan, *Linguistic analyses*, London-New York-Cape Town (١٢).
- WET (J.M.J. DE) et HARLAN (J.R.). — 1971. « The origin and domestication of Sorghum-bicolor », *Econ. Bot.* 25 : 128-35 (٢٤).

- WHEATLEY (P.). — 1964. *The land of Zanj : exegetical notes on chinese knowledge of East Africa prior to A.D. 1500*, Londres, Liverpool essays (٥).
- WICKENS (G.E.). — 1975. Changes in the climate and vegetation of the Sudan since 20 000 B.P., *C.-R. VIII Reunion A.B.I.F.A.T.* : 43-65 (١٦).
- WIERCINSKY. — 1965. « The analysis of racial structure of early dynastic populations in Egypt », *Materialow practical anthropologianich*, 72 (١١).
- WIESENFIELD (S.L.). — 1967. « Sickle cell trait in human biological and cultural evolution », *Science*, 157 : 1134-40 (٢٤).
- WILKS (I.). — 1956. « Tribal history and myth », *Universitas*, 2-3 (المقدمة العامة)
- 1961. « Begho and the Mande », *J.A.H.*, 2 : 25-34 (٢٤).
- 1963. « The growth of Islamic learning in Ghana », *J.H.S.*, 2, 4 (٦).
- 1975. « Do Africans have a sense of time ? *I.J.A.H.S.* VIII, 2 (٢).
- WILLCOX (A.). — 1963. *The rock art of South Africa*, Johannesburg, Nelson (الختامة) (٢٦).
- WILLETT (F.). — 1960. « Ife and its archaeology », *J.A.H.*, 2 : 231-48 (15).
- 1962. « The Introduction of maize into West Africa : an assessment of recent evidence », *Africa*, 32 : 1-13 (٢٤).
- 1962. « The Microlithic Industry from Old Oyo, Western Nigeria », *Actes IV Congr. P.P.E.Q.* 2 : 261-72 (٢٤).
- 1964. « Spectrographic analysis of Nigeria bronzes », *Archaeometry*, 7 : 81-93 (٢٤) (١).
- 1966. « On the funeral effigies of Owo and Benin, and the interpretation of the life-size bronze heads from Ife », *Man*, 1 : 34-45 (٢٤).
- 1967. *Ife in the History of West African sculpture*, London, Thames & Hudson (١٥).
- 1968. « New light on the Ife-Benin relationship », *African Forum*, 3, 4, 4, 1 (٢٤).
- 1969. « New radiocarbon dates from Ife », *W.A.A.N.* 11 : 23-5 (٢٤).
- WILLIAMS (M.A.J.). — 1966. « Age of alluvial clays in the western Gezira, Republic of the Sudan », *Nature*, 211 : 270-1 (١٦).
- 1975. « Late Pleistocene tropical aridity synchronous in both hemispheres ? », *Nature* 253, 5493 : 617-8 (١٦).
- WILLIAMS, CLARK (J.D.), ADAMSON (D.A.) et GILLESPIE (R.). — 1975. « Recent Quaternary research in Central Sudan », *B.A.S.E.Q.U.A.*, 46 (١٦).
- WILLIS (R.G.). — 1964. « Tradition history and social structure in Ufipa », *Africa*, 34, 4 : 340-51 (٧).
- WILSON (A.C.) et SARICH (V.M.). — 1969. « A molecular timescale for human evolution », *P.N.A.S.* 63, 4 : 1088-93 (٢٠).
- WILSON (M.) et THOMPSON (L.). — 1969-71. *The Oxford history of South Africa*, Oxford, Clarendon Press, 2 vol. (٣).
- WILSON (W.). — 1966. *Temme and the West Atlantic group*, S.L.I.R., Indiana, 226. 9. (١٠).

- WINKLER (H.A.). — 1937. *Völkerbewegungen im vorgeschichtlichen Oberägypten im Lichte neuer Pelsbilderfunde*, Stuttgart (٢٢).
- 1939. *Rock drawings of Southern Upper Egypt*, Londres, Egypt exploration society, 2 vol. (٢٢).
- WOLLIN (G.), ERICSON (D.B.) et WOLLIN (J.). — 1974. « Geomagnetic variations and climatic changes 2 000 000 BC-1970 AD », *Coll. C.N.R.S.* 219 : 273-88 (١٦).
- WORLD METEOROLOGICAL ORGANISATION. — 1975. WMO/IAMAP. « Symposium on long-Term climatic fluctuations », *Proc. Norwich*, WMO n° 421, 503 p. (١٦).
- WRIGLEY (C.). — 1970. « Speculations on the Economic Prehistory of Africa, in J.D. FAGE et R.A. OLIVER, p. 69 (٢٧).
- WYMER (J.J.) et SINGER (R.). — 1972. « Middle Stone Age occupational settlements on the Tzitzikama coast, eastern Cape province, South Africa », P.J. UCKO, R. TRINGHAM and G.W. DIMBLEBY (éd.), *Man, settlement and urbanism*, Londres, 207-10 (٢٠).
- YAMASAKI (F.), HAMADA (C.) et HAMADA (T.). — 1973. « Riken natural radiocarbon. Measurements VII », *Radiocarbon*, 14, 1 : 223-38 (٢٤).
- YILBUUDO (J.T.). — 1970-71. *Tradition orale*, Mémoire : séminaire de Koumi, Haute-Volta.
- YORK (R.N.). — 1973. « Excavations at New Buipe », *W.A.J.A.* 3 : 1-189 (٢٤).
- YOUNG (W.J.). — 1958. « Examination of works of art embracing the various fields of science », *Proceedings of the Seminar on application of Sciences in examination of works of art*, Boston (٩).
- YOYOTTE (J.). — 1959. *Dictionnaire de la civilisation égyptienne*, Paris (٢٨).
- ZAHAN (D.). — 1963. *La dialectique du verbe chez les Bambara*. Paris (٨).
- ZAKI (A.) et ISKANDER (Z.). — 1942. « Ancient Egypt Cheese », *A.S.A.E.* XLI : 295-313 (٩).
- ZEISSL (H.V.). — 1955. « Äthiopen und Assyrer in Ägypten, *Ägyptologische Forschungen*, Heft 14, Glückstadt-Hamburg-New York, J.J. Augustin (٢٨).
- ZEUNER (F.F.). — 1950. *Dating the Past*, Londres, Methuen (١٦).
- 1959. *The pleistocene period, its climate, chronology and faunal successions*, Londres, Hutchinson Scientific and technical, 447 p. (٢١)(١٦).
- ZIEGERT (H.). — 1967. *Dor el Gussa und Gehelben Ghaama*, Wiesbaden, F. Steiner, 94 p. (٢٢).
- ZINDEREN-BAKKER (E.M. VAN). — 1967. « Upper Pleistocene and Holocene Stratigraphy and Ecology on the basis of vegetation changes in sub-saharan Africa », in *Background to evolution in Africa*, ed. W.W. BISHOP and J.D. CLARK, Chicago University Press (٢٤).
- 1975. *Paleoecology of Africa*, vol. 1-9 (١٦).

## كشاف أسماء الأعلام

أرم (س) - ٣٦٥  
استفاكتور تمبوك - ١٣٩  
أثرتون (ج. ه) - ٦٤٠، ٦٣١  
أفاتيك باكدازاريان - ١٣٩  
أوبر يقيل (ه) (انظر  
الببليوغرافيا).  
أوقيانو (الودويا) - ١٤٦  
الحاج غمر - ١٤٥، ١٤٩، ٢٠٦،  
٢٠٨  
الحاج عسكية محمد - ١٤٨، ٦٧  
ابن أمينك - ٢٥٧  
ادريس نكادا - ٢٠٤  
إزيسي - ٢٨٩  
إيوا - ١٨٤، ٢٠١  
أوزي بونسو - ٦٨  
أوزي توتو - ٦٤  
أوزوركون - ٧١٩  
أوبري - ٣٨  
أوباريل سامبيا دوندو - ٢١٠  
إسوي (ف) - ٥٣٦  
ادوارد (أ. أ) - ٢٢٨، ٢٢٩  
إنمايفيا (ج. أ) - ٥٥  
إهريت (س) - ٢٩  
أهريش (س) - ٨١  
أكسدت - ٢٧٢  
أيلوار (ب) - ٦٢١، ٦٢٦  
أميري (و. ب) - ٧٢٣  
اميليانى - ٤٠٥  
أومفوكس (ج. ب) - ٥٦٤  
اونجلمير (ر) (انظر

اسكندر (ب) (انظر  
الببليوغرافيا).  
العالى (أ - س) - ١١٧  
أليمان (ه) - ٣٨٢، ٤١٢، ٥٧٥،  
٥٧٩، ٥٩٥، ٦٠٠  
ألن (ج. و) - ١٤٥  
الماغرو - باش (م) - ٦٠٠  
الميدا (م) - ٤٥  
العمري - ١٢٢، ٤٢، ١٢٤،  
أمبو (أ. م) - ٨٢  
أموري - طالبوت (ب) - ٩٥  
امداسيون - ٤٤  
أمبر (م) (انظر الببليوغرافيا).  
أمير - ١١٨  
أمو (أ. و) - ١٤٦  
أنسيودي فافو (أ) - ٥٤٧، ٥٣٦  
أندرسون (ب) - ١٤٧  
أنكرمان - ٢٨٢  
أنتر - دوك - ١٤٦  
أنطوان (م) - ٥٨٠، ٦٠٣  
أبيان - ١١١  
أبتير (د) - ٧٦  
أرامبورغ (س) - ٢٨٤، ٢٨٣،  
٤٢١، ٤٤٢، ٤٤٤، ٥٧٥، ٥٧٩  
٥٨٠، ٦٠٣، ٦١٨  
أرسيلان (أ) - ٥٩٣  
أركل (أ. ج) - ٦٠٠، ٦٠٤، ٧٢٧  
أرسطو ديموس - ١١٠  
أرسطو - ١١١  
أرنث (أ. ج) - ١٤٥

أحمد سيكو - ١٤٩  
أحمد بابا - ٢٧، ٢٤، ١٤٣  
أحمد كران - ١٣٤  
أمدوفدية - ٢٠٧  
أمينة - ٦٥  
أنوكي - ٦٤  
أردو دمبو - ١٨٣  
أرو - ١٣١  
العبدري - ١٢٤  
ابراهيم (د. ب) - ٢٧  
أبو الفداء - ٤٢  
أبو مخرمة - ١٣٨  
أبو زكريا - ٢٤  
أكتون لورد - ٤٩  
آدمس (و. ي) - ٧٢٩  
أغاتياس - ١١٥  
أغيسي (ه) - ٢٦  
إتكن (م. ج) - ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩  
٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥  
أجاي (ج. ف. أ) - ٧٧، ٨٦  
أكينجو كين (أ. أ) - ٣٦  
الأغوا (أ. ب) - ٧٧، ٢٣  
العلوي (انظر الببليوغرافيا) -  
البيرتي (ل) - ١٣٦  
اليكسييف - ٢٧٣، ٢٩١  
اسكندر (السلطان ج) - ١٣٦  
اسكندر (ج. و. س) - ٥٥٨



أودونال - ٢١٨  
 أولديروج (د. أ) - ٨٢، ١٤٠،  
 ١٥٤، ٢٦٠، ٣٠٧، ٣١٥، ٦٦٩  
 أوليفر (ر) - ٨٢، ٨٦، ٦٩٨  
 اورغان (ر. م) - ٢٣٦  
 أوزان (ب) - ٦٤٠  
 الرقيق - ١١٨  
 السعدي - ١٤٣  
 الشماضي - ١٢٤، ١٣١  
 السيزي - ١٣٢  
 الطبري - ١١٧  
 التكموتي - ١٣١  
 التمساني محمد - ١٣١  
 الترنسي - ١٣٣  
 العفراني - ١٣١  
 أم جملي - ١٠٨  
 أسواني - ١٢٠  
 الزرقاشي - ١٣١  
 إلزاي - ١٣١  
 الوري ندياي - ٣٦٨  
 أفلاطون - ٣٦٩

## ب

برودل (ف) - ٢٣  
 بولس - ٢٧، ٢٨  
 بلمر (هـ. ر) - ٢٢، ٥٢، ٥٥، ١٤٤  
 بريتشارد (أ) - ٣٢  
 بشيكو (بريرا) - ٣٣  
 بكري (ديان) - ٢٧، ٣٥  
 بونو (مانسو) - ٣٦  
 برك (جك) - ٣٦، ٣٧١  
 بطليموس (كلود) - ٤٢

اسارز (ف) - ٢٢١  
 اسكندر (زا) - ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٢  
 الجبرتي - ١٣٢  
 الخيمي الكوكباني - ١٣٥  
 الخوارزمي - ١١٩  
 المقرزي - ١٢٢  
 المرشدي (انظر البيليوغرافيا)  
 الناصري السلاوي - ١٣١  
 النويري - ١٢٢  
 البكاي - ١٤٩  
 البلادوري - ١١٧  
 الكارم برنو - ٢٤  
 البكري - ٤٢، ١٢٢، ١٢٤، ٣٦٣  
 المسعودي - ٤٢، ١٠٩، ١١٩،  
 ١٢٠  
 الادريسي - ٤٢، ١٢٢  
 البيروني - ١١٩  
 البرطايلي محمد - ١٤٤  
 الدرسي احمد - ١٣١  
 الذهبي - ١٢٢  
 الدمشقي - ١٢٤  
 الدينوري - ١١٧  
 القاصي الفاضل - ١٢٤  
 الوراق - ١٢٢  
 الوسعاني - ١٢٠، ١٢٤  
 الزهري - ١٢٤  
 ابن خلدون - ٣٣، ٤٣، ١٠٩، ١٢٢،  
 ١٣٠، ٧٥٢  
 البغدادى - ١٢٤  
 الجاحظ - ١٠٩  
 الكتاني (م. أ) - ٢٤  
 الدشراوي محمد - ١١٨  
 الشنقيطي - ١٢٣  
 العروي (ع) - ١٠٥، ١١٦، ١٢١  
 أوبنكا (ت) - ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٠  
 أوبريان (ت. ب) - ٥٥٨

البيليوغرافيا)  
 اينوشي (أ) (انظر البيليوغرافيا)  
 ايولار (أ) - ١٣٨  
 اريكسون (د. ب) - ٤٠٠  
 إرمان (أ) (انظر البيليوغرافيا)  
 أوتروب - ١١١  
 ايفرندن - ٢٣٠  
 ايونيك - ٢١٧  
 ايوا (أ) - ٦٣١  
 اير (س. ر) - ٣٥١  
 الفاسي محمد - ٣٠٧  
 إياكيموف (ق. ب) - ٧٤٧  
 ابن عبد الحكم - ١١٨  
 ابن ابي زهر - ١٢٢  
 ابن ادوار - ١٤٣  
 ابن الاثير - ١٢٢  
 ابن بطوطة - ٢٣، ٤٢، ٦٥، ٩٤،  
 ١٢٤، ٣٦٥، ٣٧٠، ٧١٢، ٧٥٣  
 ابن الفقيه - ١٢٠  
 ابن فرتوة - ١٤٤  
 ابن فاطمة - ١٢٤  
 ابن صوقل - ١٢٠  
 ابن الاظهاري - ١١٨، ١٢٢  
 ابن إلياس - ١٣٢  
 الحمياري - ١٢٤  
 ابن جبير - ١٢٤  
 ابن خريطنديه - ١١٩  
 ابن ماجد احمد - ١٣٨، ١٣٩  
 ابن مفرح - ١٢٤  
 ابن عثمان - ١٣١  
 ابن الصغير - ١٢٠  
 ابن سعيد الغرناطة - ١٢٢  
 ابن شداد - ١٢٢  
 إليف (ج) - ٧٦  
 اسحاق (ج. ل) - ٤٢١  
 اسحاق (ن) - ١٢٧

برویل (ا. ب. ه) - ۴۳۶، ۴۳۹، ۴۴۱، ۴۴۴، ۴۴۷، ۴۴۸، ۵۳۶، ۵۴۵، ۵۵۱، ۶۳۰، ۶۷۸، ۶۹۳	باسیط (ر) - ۱۲۳	بابیز (بدرو) - ۴۵
بروم (ز) - ۴۲۰، ۴۲۹، ۴۴۴	بومان (ه) - ۵۲، ۱۶۰، ۲۴۹، ۲۵۵، ۲۵۳	بیکافیتا (ف) - ۹۳، ۴۶
بروس (ج) - ۴۷، ۴۸، ۱۲۳	بایل دی هرمنس - ۳۶۸، ۵۳۶، ۵۴۹، ۵۵۳، ۵۶۸، ۵۶۹، ۶۷۷	بنزیت - ۴۶
بروکستاین (س) - ۲۱۷، ۲۱۸، ۲۱۹	بکینقام (ک. ف) - ۴۵، ۱۳۴	بلیوس - ۱۱۶
بروغمان (م) - ۶۸۹	بیدلمان (ت) - ۱۶۸	بلسومان - ۱۸۴، ۲۰۱
برانیشیک (ه) - ۸۲	بیلو محمد - ۶۷، ۱۴۵	بلیم - ۲۱۰
برانطون (ج) - ۷۲۱، ۷۲۳	بیکابیرت (م) - ۵۳۶، ۵۵۳، ۵۶۵، ۵۶۹	بلیدن - (و. ا) - ۵۴، ۱۴۷
بروسیپو (ا. ف. ه) - ۱۵۴	برجی (ز) - ۲۲۸، ۲۳۰	بوکار (ایلو) - ۲۰۲
بزیان (ا) - ۲۵۰، ۲۵۱، ۲۹۷، ۳۱۵	بزانسون (ج) - ۷۱۹	بونک - ۲۷
بریانت (ا. ت) - ۱۳۷	بیرسون (ب) - ۴۴۲، ۴۴۸، ۵۷۵، ۵۷۷، ۵۹۶، ۶۰۰	بوزوک ابن شاریان - ۱۲۰
بوشا - ۲۲۹، ۲۳۱	بیزید (ج) - ۱۳۷	با (ا. ه) - ۲۴، ۱۵۶، ۱۷۷، ۱۹۱، ۱۹۳، ۲۰۸، ۲۵۸، ۶۸۵، ۶۸۹
بودیل (ج) - ۳۸۰	بیشوب (ر. و) - ۴۰۸، ۴۰۹	بابیت (ج) - ۵۳۶
بورک (ک) - ۶۲۰	بلانکوف (ب) - ۵۳۶، ۵۶۵	بکاری - ۱۳۵
بورطون (ز) - ۴۸، ۱۴۱، ۵۰	بلیک (و. ه) - ۲۴۶، ۲۴۸، ۲۹۶، ۳۰۴، ۳۱۵، ۳۸۰	بشطلی - ۲۱۸
بوتزیر (ک. و) - ۳۷۷، ۳۷۸، ۳۸۳، ۳۹۴، ۳۹۸، ۴۱۲، ۵۵۸	بلوش (م) - ۴۲، ۷۵۴	بادا (ج. ل) - ۲۳۰، ۵۱۲، ۵۲۶
۷۲۱، ۷۲۰، ۵۹۲	بلاندل (ه. و) - ۱۲۴	بادجر (ج. ب) - ۱۳۹
بورتر (ب) - ۷۲۹	بلیدن (ا. و) - ۵۴، ۱۴۷	بحری - ۱۳۴
بورترس (ز) - ۳۵۰، ۶۳۰، ۶۳۶، ۶۹۸، ۷۰۴، ۷۰۶، ۷۱۰، ۷۱۳	بوسمان (و) - ۴۵	بیلود (ا) - ۲۴
بوزنیز (س) - ۱۱۰، ۷۲۸، ۷۳۵، ۷۳۷	بوغ (ج. س) - ۳۵۱	بلانندی (ج) - ۷۵۴
بوزدونیوس - ۱۱۶	بواج (ن) - ۲۶۰	بلبی (ا) - ۲۰۳
بریدی (ا. ج) - ۶۳۸	بویوهاما - ۱۵۶	بولمان (ر. ا) - ۲۷۸، ۶۲۰
بروکوب - ۱۰۹، ۱۱۵	یوناک (ف) - ۷۴۷	بوتون - ۳۵۳
بروتش (ر) - ۲۳۰	بوفیل (ا. و) - ۵۵	بال (ج) - ۳۷۸
باکنا (ا) - ۱۳۱	بودیش (ت. ا) - ۴۷	بلوط (ل) - ۲۸۷، ۵۷۹، ۵۹۲، ۶۰۳، ۶۶۵
بیفا مانسو - ۱۵۰	بوین - ۴۰۹	بانندی - ۴۰۸
بلاری - ۵۸۳	بولیر - ۳۹۴، ۳۹۹، ۴۰۳	باربر (ا. ج. و) (انظر البیبلوغرافیا)
بازنکو (ب) - ۳۶۶	برین (س. ک) - ۴۲۹، ۵۰۹	باربی (س) - ۶۱۹
بارتش (ج) - ۱۱۵	بریدوود (ر. ج) - ۷۹۷، ۷۰۸	بریوط (ج) - ۴۵
	بریسند (ج. ه) - ۲۸۴، ۷۳۵	بارندسون (ج. و) - ۶۲۴، ۶۲۸
		بارنس (س) - ۲۱۷
		بارو (ج) - ۶۹۷، ۷۰۳
		بارت (ه) - ۴۷، ۱۴۲

جرمان (ج) - ۱۱۶  
جرني - ۴۲۰  
جيوك (ر. د) - ۲۲۷  
جيبنيباک (ر. ف) - ۴۱۲، ۳۸۳  
جيفليو (ک) - ۱۵۲، ۱۳۵  
جينيئو (م) - ۴۴۷  
جلبير (و. ا) - ۳۴۵  
جيرار (ب. ب) - ۱۱۴  
جيبلي (م. ا) - ۲۷۰، ۲۵۸، ۱۰۰  
جزو - ۲۵۹  
جوبا - ۱۱۱، ۱۱۶  
جاياوو (ت) - ۱۳۷  
جايفو (د. ت) - ۱۳۸  
جاکسون (ج. ج) - ۱۳۹  
جاکوار (ا) - ۲۷۷  
جادان (ل) - ۱۵۲  
جانمان (ج) - ۵۳۶  
جيفري (م. د. و) - ۲۵۴  
جونسون (د. س) - ۴۲۰، ۴۰۹، ۵۰۶  
جونسون (س) - ۵۴، ۸۱، ۱۴۷، ۱۷۱  
جونستون (سیر ه) - ۵۵، ۵۲  
۲۰۷، ۲۹۷، ۲۵۷، ۲۴۸  
جونس (و) - ۳۰۳  
جوبير (ج) - ۶۰۸  
جوليان (س. ا) - ۷۶  
جانکير (ه) - ۷۲۳  
جويستان - ۱۱۱  
جويستان - ۱۱۰ - ۱۱۵

## ح

حمادي دجيفودو - ۲۱۱  
حنون - ۱۱۱، ۱۱۶، ۱۳۸

تايار دو شاردان (ب) - ۳۶۸، ۴۳۵، ۴۳۹، ۴۴۱، ۴۴۴  
تيتري - ۴۳۸  
تيجاني - ۲۰۸، ۱۲۴  
تيرتوبوکار سالييف - ۱۷۷، ۲۰۷، ۲۱۲  
تيت - ليف - ۱۱۱  
تيکسيير (ج) - ۵۸۲، ۵۸۱، ۵۷۹  
۶۰۱  
تيوسوغا - ۱۳۷  
تريفور هوير (ه) - ۴۷  
تريکار (ج) - ۲۸۷  
تريچر (ب. ج) - ۷۳۲، ۳۱۶  
۷۴۲، ۷۳۴  
تويانا (م. ا) - ۱۴۵  
توکر (ا. ن) - ۲۴۸، ۲۵۰، ۲۵۱  
۲۲۳، ۳۱۶، ۲۹۷  
توونر (ل. د) - ۱۳۷  
تويسلمان (ف) - ۵۶۷  
تتساکا - ۳۶۸  
توت عنخ امون - ۲۲۱ - ۶۶۱

## ث

ثال (ج. ه) - ۱۳۵، ۱۳۶  
ثيلمانس (ج) - ۶۴۰

## ج

جوس (م) - ۲۸  
جلزور - ۱۱۵  
جنتير (و) - ۲۲۹، ۲۳۰  
جورج (ا. و) - ۲۲۴  
جورج القبرصي - ۱۱۵

بارتسون (ج. و) - ۱۴۴  
بيدوک (ا) - ۲۳۶  
بيت (دكتور) - ۴۴۴  
بيزر (ف. ا) - ۱۳۵  
بيرهام (م) - ۵۲  
برلمان (ا) - ۲۲۱  
بريت (ر) - ۵۹۳  
برون - ۱۳۹  
بروتسون (ج) - ۴۴  
برسون (ا) - ۸۵، ۸۲، ۷۶  
پتري (و. م. ف) - ۷۲۵، ۲۳۳  
۷۲۹، ۷۲۶  
بياس (ج) - ۶۲۰  
بيکار (ج. س) - ۶۳۸  
بيدار - ۴۰۸  
بليم (د) - ۴۱۷  
بين (ج) - ۷۳۵  
بلين القديم - ۴۲، ۴۳، ۱۰۹  
۱۱۰، ۱۱۱، ۱۱۶  
بلونارك - ۱۱۱  
بولوتسکي (ه) - ۲۵۱  
بوليبي - ۱۰۹، ۱۱۰، ۱۱۴، ۱۱۶  
بوميرت (ا) - ۵۶۹، ۵۶۵، ۵۳۶  
بونڊ (و. ب) - ۶۰۰  
بولاندزاس (ن) - ۷۵۷  
بريس (ت) - ۷۶  
بريس - مارس (دكتور) - ۸۲  
بريشار (ج. س) - ۳۰۳، ۳۰۴  
بتوليومي (کلود) - ۴۲، ۱۰۹، ۱۱۱، ۱۱۶

## ت

تاييلور (ر) - ۲۸۲  
تاييلور (و) - ۲۵۴  
تشيرنوف - ۴۰۸

دریوتون - ۱۱۰، ۱۰۹، ۱۰۸ -  
 دومولان دولبلانت - ۷۴۹  
 دانهام (د) - ۷۴۱  
 دویو (ج) - ۴۷

## ر

رادلیف براون - ۵۲، ۳۱ -  
 رولی (ج) - ۳۱، ۲۷۱، ۲۷۲،  
 ۲۷۴، ۲۷۷، ۲۶۹، ۲۶۶،  
 روئبرغ (م) - ۱۴۱، ۷۶ -  
 روپرت - ۹۸، ۷۷ -  
 رینورف - ۱۴۷، ۸۱، ۵۴ -  
 رانجر - ۷۶  
 روژان (ف) - ۹۲  
 روجی (م) - ۱۱۴  
 روش (ج) - ۱۱۹، ۴۳۳، ۵۵۹ -  
 روسو (ا) - ۱۳۱  
 رودان (هـ) - ۸۳  
 روفینوس - ۱۱۱  
 ریام (م) - ۱۴۵  
 ریڈر (ا. ف. س) - ۱۵۰  
 روسی - ۱۳۱  
 روئسنون - ۱۳۵، ۴۲۰، ۴۲۹،  
 ۴۴۴  
 روئسنون (م) - ۱۴۵  
 رابی - ۱۲۲  
 راندلس (و. ج. ل) - ۱۰۵۳، ۶۹۸،  
 ۷۰۰  
 رینان - ۳۰۳  
 ریغتمیر (ج. ب) - ۲۷۹  
 رالف (ک) - ۲۲۸  
 رماندو - ۵۷۵، ۴۴۲ -  
 رامیت (و) - ۲۲۱  
 راتری (ر. س) (انظر)  
 البیلیوگرافیا

دانیل - ۶۳۶  
 دانیلز (ش) - ۶۳۹  
 داوود - ۱۳۱  
 دارجینی - ۱۲۴  
 دارلجنتن - ۶۹۸  
 داریت (ر) - ۵۰، ۴۲۰، ۴۳۸،  
 ۴۴۱  
 دافید (ن) - ۵۳۶  
 دقیس - ۶۱۸، ۶۲۰، ۶۲۴، ۶۲۵،  
 ۶۲۸، ۶۳۰، ۶۳۲، ۶۳۴،  
 ۶۹۸، ۶۳۸  
 دایرل - ۱۴۹  
 دوپونو (ف) (انظر)  
 البیلیوگرافیا)  
 دوغان (ن) - ۶۲۸  
 دولانی - ۱۴۷  
 دولپورت - ۹۸  
 دولا کروا (ر) - ۶۰۷، ۶۳۰  
 دلپیریاس - ۵۵۸، ۵۶۴  
 دموجو - ۶۷۰  
 دنی (ج) - ۱۳۰  
 دسکامپ - ۶۱۹، ۶۲۸، ۶۴۰  
 دوشان (هـ) - ۸۵، ۸۲  
 دوفیس (ج) - ۹۸  
 دیالو (ت) - ۱۴۴  
 دیترلن (ج) - ۲۴۴، ۲۵۸، ۲۶۹،  
 ۳۶۳  
 دیک (ک) - ۵۶، ۸۱  
 دیوردو - ۱۱۰، ۱۱۱، ۱۱۶  
 دیوب - ۲۴۹، ۲۶۰، ۳۰۷، ۶۳۸  
 دکسون - ۲۷۲  
 دواز (ل) - ۵۳۶  
 دوریس (ج) - ۱۱۰  
 دوریز (ل) - ۲۹۲  
 دریمانیس - ۳۹۴  
 درکسل (ا) - ۲۴۹، ۳۰۷

## خ

خیر الدین باربروسا - ۱۳۱  
 خلائیک (ج) - ۱۴۰  
 خلیفه بن خیاط - ۱۱۷  
 خلیل (ف) (انظر البیلیوگرافیا)  
 خنیهوف (م) - ۱۳۹

## ف

دامونزو - ۲۷ - ۶۵  
 داروین - ۲۷۱، ۲۸۴، ۴۵۱، ۵۰۱  
 دولافوس - ۳۲، ۴۴، ۵۲، ۵۵،  
 ۱۲۰، ۱۴۴، ۲۴۳، ۲۴۸، ۲۵۰  
 ۲۵۲، ۲۵۳، ۲۵۴، ۲۹۵، ۳۰۲  
 ۳۱۱، ۳۰۷  
 دوپروس - ۴۷  
 دوسلان - ۴۳  
 دایر - ۴۵، ۴۶  
 دلزل - ۴۶، ۴۷، ۱۴۲  
 دان فودیو - ۶۷، ۱۴۵، ۲۰۷  
 دانفوسینی - ۱۸۴، ۱۸۸، ۲۰۸  
 دوبوا (و. ا. ب) - ۸۳  
 داجی (ج) - ۲۰۸  
 دان (ا) - ۱۰۳  
 دلپی (د) - ۱۴۹، ۲۵۲، ۳۱۲،  
 ۳۲۳، ۳۲۴، ۳۲۵  
 دلونی (م) - ۶۰۰  
 دلتون (ج) - ۸۰  
 دمیر - ۲۵۸  
 داندولو (ف) - ۶۱۸  
 دکودنو - ۲۵۹  
 دنکان - ۱۳۷  
 دینا - ۱۳۹  
 دنک - ۲۸۹

سیدون (د) - ۶۳۴، ۶۹۸، ۷۰۶  
 سیل (ک) - ۷۱۸  
 سیلی (ج. ر) - ۴۹  
 سنیویوس - ۲۶۷  
 سیلاسی (نمابری) - ۱۳۴  
 ستونی (م) - ۲۲۸  
 سویس (هـ. ا) - ۲۲۸  
 سلیفمان - ۵۱، ۵۲، ۲۵۳، ۲۸۳  
 سرفانت (م) - ۳۹۴، ۳۹۸، ۳۹۹  
 ۴۰۳، ۴۱۲، ۶۲۰، ۶۲۱  
 سیت (ک) - ۷۲۸  
 سایدو (انظر البیبلوگرافیا)  
 سیدی علی - ۱۳۹  
 سلفا کوراین - ۴۶  
 سلفار یفو - ۱۵۰  
 سیمونس - ۴۱۷  
 سامبسون - ۶۱۹، ۷۳۷  
 سنجر (انظر البیبلوگرافیا)  
 سنغ (ج) - ۳۹۹  
 سیری عباس سوح - ۱۴۴  
 سرجان ابن سرجان - ۱۳۹  
 سلان (ج. م) - ۴۳، ۱۲۲  
 سمیر نوقا - ۱۳۹  
 سمیت - ۶۳۲، ۶۴۹، ۷۳۴  
 سوغا - ۱۲۸  
 سومیر (ف) - ۳۵۲  
 سویر - ۶۱۸، ۶۲۵، ۶۲۶  
 سبارکس (ب. و) - ۶۱۹  
 سبارمان (ا) - ۱۳۶  
 سبانوس - ۲۸۳  
 ستینر - ۵۳۶، ۵۵۳  
 ستانی - ۱۴۱  
 ستاینیک (ج) - ۳۶۹  
 ستیقان (ج) - ۴۹  
 ستیوارت (ج. م) - ۳۲۴  
 ستو - ۲۸۲

۵۵۹، ۶۲۰، ۶۲۱  
 زهلاز - ۳۱۶

## س

سندجاتا فاسا - ۲۲، ۲۵، ۲۷  
 ۳۳، ۶۴، ۱۵۸، ۱۷۴، ۶۸۵  
 سلامکا - ۲۷  
 ساران - ۲۸  
 سترایون - ۴۲، ۱۱۰، ۱۱۱  
 ۱۱۶، ۷۱۲، ۷۳۵  
 ستیفاند (س. هـ) - ۵۵  
 سبایازی - ۲۵۷  
 ساموری - ۱۴۹  
 سبیون - ۱۱۴  
 سبیون امیلیان - ۱۱۴  
 سینوی - ۷۳۷  
 سونی علی - ۶۲، ۶۴  
 سونی الکبر - ۶۳  
 سعید (ر) - ۳۷۸، ۳۸۳، ۴۱۲، ۷۲۱  
 سانت اوغسطين - ۱۱۵، ۷۵۲  
 سانت فولجونس - ۱۱۵  
 سیرفانتیمس - ۱۳۲  
 سلیل ابن رازیا - ۱۳۹  
 سامبسون (انظر البیبلوگرافیا)  
 سانسو (ا) - ۱۴۶  
 سوریت کنال (ج) - ۷۵۳، ۷۵۴  
 ۷۵۵  
 ساندفورد (انظر البیبلوگرافیا)  
 سند ستروم (ل) - ۵۲  
 سرباح - ۵۴  
 سافاج (ج) - ۲۳۶  
 ساکسون (ا) - ۶۰۹  
 سنوک (ت) - ۳۰۲، ۳۱۲، ۳۱۳

رید - ۷۰۸  
 ریس (ا. ر) (انظر البیبلوگرافیا)  
 ریزنرال (ل) (انظر البیبلوگرافیا)  
 رایج - ۱۴۹  
 ریفا - ۵۹۹، ۶۰۳  
 ریشارد - ۵۹۲، ۶۲۶  
 ریشارد دسنون (ج. ل) - ۳۹۴، ۳۹۸  
 ریت لو - ۴۳۸، ۴۴۲  
 رودی (ج) (انظر البیبلوگرافیا)  
 رویر - ۷۱۲  
 رونین (ب) (انظر البیبلوگرافیا)  
 روزنفیلد (ا) - ۳۴۷، ۶۳۱  
 روزنبرگ - ۴۰۸  
 روسینیول - ۴۰۸  
 روبی (س) - ۵۹۰  
 روبان (ا) - ۶۳۹  
 رادما - ۱۴۶  
 رما میرکا - ۱۴۶  
 راومبانا - ۱۴۶  
 روبینی (د) - ۱۳۳  
 رودنبرگ (هـ) - ۳۹۹، ۵۵۸

## ز

زریا - ۶۵  
 زهان (د) (انظر البیبلوگرافیا)  
 زین العابدین شرفانی - ۱۳۹  
 زاکي (ا) - ۲۲۱  
 زبویسکی (س) - ۵۳۶  
 زیسل (هـ. ف) - ۷۳۹  
 زونیر (ف. ف) - ۳۷۶، ۵۵۸  
 زیجرت (هـ) - (انظر البیبلوگرافیا)  
 زاندرن باکر - ۳۹۴، ۳۹۹، ۴۰۳

عربوس (ت) - ١٣٦  
عياش (ج) (انظر البيبليوغرافيا)  
عياض - ١٢٤

## غ

غوتري (م) - ٢٩، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣١٣، ٣١٤  
غرينبرغ (ج.هـ) - ٢٩، ٥١، ٥٣، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٩٥، ٣٠٤، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١١، ٣١٢، ٣١٤، ٣١٥، ٣٢٢، ٣٢٣، ٤٩٩، ٦٣٤  
غريفرسن (إ) - ٢٩٦  
غريفروك - ١٣٥  
غريصول (م) - ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٩، ٣٦٢، ٣٦٣  
غريفيت (ف.ل) - ٧٢٧  
غروهمان - ١١٧  
غروف (أ.ت) - ٣٧٨، ٦٢٠  
غروي (م) - ٦٠٣  
غزيل (س) - ١١٥  
غويهارد (ب) - ٦٣٠  
غيست (ر) - ١١٨  
غيان (م) - ٤٧  
غالبون (م) - ١٣١  
دوغيل - ١٥٤  
غاوولو حمادو - ٢٠٦، ٢٠٥  
غاوولو مولوم - ٢٠٦، ٢٠٥  
غاوولو وهاب - ٢٠٥  
غيزو - ٢٥٩  
غليلي - ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٧٠  
غريفوار الكبير - ١١٥  
غابل - ٦١٧، ٧٤٥

## ص

صاسير (هـ) - ١٥٤  
صفدي - ١٢٤  
صالح - ٢٢٤  
صامب (انظر البيبليوغرافيا)  
صانديل (إ.ب) - ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩  
صاندر (انظر البيبليوغرافيا)

## ط

طاسنيت - ١١١  
طبيب محمد - ٤٠٩، ٤٢١  
طيت (د) - ٣٧١  
طالبلي محمد - ١١٨  
طال (إ) - ٢٤٨  
ططام - ٦١٩  
طوكسير - ١١٦، ٥٥  
طوماسي (ب) (انظر البيبليوغرافيا)  
طومبسون (ل) - ٢٣  
طوبياس - ٤٢٩، ٤٢٠، ٤٤٤، ٦٩٢  
طورناي (ش) - ٩٢  
طوزي - ١١٨  
طراور - ٢٥٧

## ع

عبد الله سعادر محمد - ٢٠٧  
علي عيسى - ١٨٣  
عسكية محمد (انظر الحاج عسكية محمد)  
عمر - ١١٨  
عرب فقيه - ١٣٤

ستريل (م) - ٥٥٩  
ستروس (ف.هـ) - ٢١٨  
سترومال - ٢٧٩  
ستوهلمان (ف) - ٢٨٢، ٢٨٣

## ش

شليكر (إ) - ٣٠  
شليشر (إ) - ٣٠  
شاك - ٦٤، ٦٥، ٣٨  
شيباني عبد السلام - ١٣٩  
شمزاش (ج) - ١٣٧  
شليبي - ١٣٩، ١٣٥  
شيويس - ٢٢٢  
شفيرين - ٢٣٦  
شيخ صلاح - ٢٠٧  
شنيكو أمادو - ٢٠٨  
شابو - ١٢٤  
شامار (ب.هـ) - ٥٩٦  
شاميرس (د) - ١٥٠  
شاملا (م.س) - ٦٠٤، ٦٣٤  
شامو - ٢١٧  
شافيون (ج) - ٢٨٢، ٤٢١، ٤٢٣، ٤٤٢، ٤٨٣، ٥٧٥، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٩، ٦٠٠  
شلو (إ) - ٧١٧  
شسنو (ج) - ٧٥٦  
شوقاني (إ) - ٧١٢، ٧٠٠  
شيلد (ج) - ٦٩٧، ٧٢١  
شلوز (ل.أ) - ٣٠٣  
شميدز (إ) - ٥٥٩  
شنيل (ر) - ٧٠٣، ٧١٠، ٧١٢  
شولار (إ) - ٢٣٥  
شورز (هـ) - ٢٨٢  
شويدزكي - ٢٧٢

فورو (ف) - ۵۹۳  
قوا (ا) - ۲۱۹  
قريمان (ت. ب) - ۱۴۷  
قريمان - غرينفيل - ۱۴۵، ۴۴  
فريسك (ه) - ۱۱۱  
فروجر (ج) (انظر البيبليوغرافيا)  
فروڊ (ج. ا) - ۴۸، ۴۹  
فوهرلوت - ۴۴۸  
فوكيو - ۱۵۶  
قولار (ف) - ۵۵  
فوزون (ر) - ۷۴۹  
فين (ن. ف) - ۱۲۷  
فيليب (ج) - ۱۳۶  
فيليسون (د. ر) - ۵۶۹  
فيلو كوروس - ۱۱۰

## ق

قمبيز - ۹۴  
قيصر - ۱۱۱، ۱۱۴  
قنقو موسى - ۷۵۴، ۶۰  
قابو (ف) - ۵۴۱، ۵۳۶  
قادمستور - ۴۵  
قا - ۲۲۹  
قاق (ب) - ۱۴۶  
قيزل (ب) (انظر البيبليوغرافيا)  
قييل - ۷۲۹  
قابسي - ۱۱۷

## ك

كاتون - ۷۵۴  
كنوايو - ۱۲۷  
كوغوانو او طوباج - ۱۴۶  
كاتي - ۱۴۳  
كوكوبرما - ۲۵۷

فيغري (ك) - ۲۲۴  
فغان (ب. م) - ۵۶۷، ۵۶۸، ۶۴۰  
فاج (ج. د) - ۸۱، ۸۶، ۳۷۱، ۶۹۸  
فاغ (ا) - ۶۳۱، ۶۳۹  
فاع (ب. ا. ب) - ۶۲۰، ۶۲۶، ۶۳۱، ۹۳۸، ۶۳۹  
فاغ (و) - ۶۳۹  
فراج (ن) - ۲۱۸، ۲۲۲  
فرين (ب) - ۵۳۶، ۵۶۵  
فراند - ۴۰۸  
فولكنر (ر. ا) - ۷۳۷  
فور (ه) - ۲۹۴، ۵۹۶، ۶۲۱، ۶۲۶

فرومياش (د) - (انظر البيبليوغرافيا)  
فرغوسن (ج) - ۶۳۸  
فليديس (ب. ر) - ۲۲۱  
فيلزي (ت) - ۱۰۸  
فينغام - (ر) (انظر البيبليوغرافيا)  
فينزي - ۵۲۸  
فيشر (ر) - ۵۵  
فلامان - ۵۹۳ - ۶۱۰  
فليميغ (ه. س) - ۳۰۹، ۶۲۹  
فلايت (س) - ۶۱۷، ۶۲۲  
فلانث (ر. ف. ا) - ۲۷۶، ۲۷۹، ۳۹۴، ۵۵۸، ۶۲۰  
فلوتر (ر. ف) (انظر البيبليوغرافيا)  
فودو (ا) - ۳۰۹

فويرستر (ر) - ۲۸۷  
فويرس (ر. ج) (انظر البيبليوغرافيا)  
فورڊ (ج) - ۲۳  
فورڊ (د) - ۱۴۶  
فورٽس (م) (انظر البيبليوغرافيا)

غادن - (ه) - ۱۴۴  
غالئون (ف) - ۱۳۶  
غالشوف - ۷۵۴  
غاردينر (ا. ه) - ۱۰۸، ۷۲۷، ۷۳۰، ۷۲۹  
غاردنر - (ا. و) - ۵۹۳، ۶۳۴، ۷۲۵  
غاردنر (ج. ف) - ۳۹۷  
غارلاك (ب) (انظر البيبليوغرافيا)  
غارستان - ۳۷۸  
غاس (ف) - ۳۹۴، ۳۹۸، ۳۹۹، ۴۰۳، ۴۰۵  
غوتيرت (ه) (انظر البيبليوغرافيا)  
غاتو - ۱۱۸

غوسن (م. ج) - ۶۰۵  
غوتي - ۵۹۲، ۵۹۹، ۶۰۳  
غليزر - ۱۱۵  
غينتز (و) - ۲۲۹، ۲۳۰  
غوبلو (انظر البيبليوغرافيا)  
غولدي - ۵۲  
غودوين (انظر البيبليوغرافيا)  
غودي (ج) - ۱۶۳، ۱۶۴  
گرامشي (ا) - ۷۵۷  
غري - ۵۵، ۱۵۰  
غرازيني - ۴۰۸  
غيلن (ن) - ۸۲  
غيو (ر) - ۶۲۸

## ف

فريبنويس - ۲۲، ۵۲، ۵۴، ۱۱۹، ۲۵۵، ۲۸۲، ۵۹۳، ۶۶۷، ۶۷۶، ۶۹۱، ۶۸۰، ۶۷۷  
فزيلداس - ۱۳۵  
فلاكوس - ۱۱۶  
فضل حسن يوسف - ۱۲۳





- ١١٦، ١٢٨، ٤٢  
ليفني ستروس (ك) - ٢٢، ٧٩  
لوبيز (د) - ٤٦، ٩٢  
لات - ديور - ١٤٩  
لتيف - ١٨٤، ٢٠٨  
لبنا دنجل - ١٢٤  
لوبنغويلا - ١٢٧  
لويدجي - ٦٤  
لبوري (هـ) - ٥٥  
لاكروا (ف) - ٢٠٨، ٥٣٦  
لاجو (ج. د) - ٦٧٢، ٦٧٥، ٦٨٩، ٦٧٨  
لال (ب. ب) (انظر البيليوغرافيا)  
لامبيرت (ن) - ٦٢٨  
لاندمان - ٢٧٣  
لاو (ر. ك) - ٢٧، ٥٥، ٦٣٨  
لاوسون (ك. ١) - ٣٧٨  
ليكي - ٢٧٦، ٤٠٩، ٤٢١، ٤٤٤، ٤٩٩  
ليكي - (ل. س. ب) - ٥٠، ٤١٧، ٤٢١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٧، ٤٥٦، ٤٥٨، ٤٧٣، ٤٩٥، ٤٩٧، ٥٣٥، ٥٤٠، ٥٥٨، ٦١٩  
ليكي (م. و) - ٤٢١، ٤٤١، ٤٨٣، ٦١٧  
ليكي (ر. ا. ف) - ٤٢١، ٦١٧  
لوبوف (ج. ب) - ١٤٥  
لوكلان (ج) - ٦٨٥  
لمي (ر. ب) - ٧٠٠  
لوفيفر (ج) - ٧٣٧  
لوهريسي - ٢٥٩  
ليبسيوس (ك. ر) - ٢٤٨، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣١٥  
لوروا - غورمان (ا) - ٣٦٧  
لوروا (ب) - ٥٣٦  
لسلو (و) - ٢٨٩، ٢٥٠
- لوتورنو (ر) - ١٣٠  
لوفايان (ج) - ١٣٦  
ليفني بروفانسال (ا) - ١١٨، ١٣١  
لويكي (ت) - ١١٩، ١٢٠، ١٢٢، ١٣٢  
لوين (س. ن) - ٢٢٩، ٢٣٨  
لويس (ر) - ٣١٩  
لوط (هـ) - ١٢٨، ٦٠٠، ٦٣٩، ٦٦٥، ٦٦٩، ٦٨٥، ٦٩٠، ٦٩٢  
ليبرا - ١٠٨  
ليشتنستين (هـ) - ١٣٦، ٣٠٤  
لننجتن (ر. ا) - ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥  
ليني (ك) - ٢٧٦، ٢٧٧، ٤٤٤، ٤٥٦  
ليبولت (هـ. ج) - ٢٢٩، ٢٣٠  
ليفنغستون - ١٣٦، ٢٧٥، ٣٩٤، ٣٩٨، ٤٠٣  
لومبارديني - ٣٧٨  
لوكاش (ا) - ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٧، ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٣٩، ٧٤١  
لودولف (هنيوب) - ٤٥، ١٢٤، ٣٠٢  
لوغار (لورد) - ٥٢  
لوسكان - ٢٨٣  
ليل (ك) - ٤٤٥  
لينش (هـ. ر) - ١٤٧
- م  
مابا - ١٤٩  
ماغون - ١١١  
محمدملين - ١٤٩  
ماي ادريس علاوة - ٢٤، ١٤٤  
مكرو - ١٨٨  
مانسا اويلي - ٢٣  
منطون - ٤٢  
منيفان - ١٨٨
- مترنوس - ١١٦  
مازيمبا كايوكي - ٦٠  
منيليك - ١٢٤  
منيس - ٦٥٩  
محمد علي - ١٣٢  
موريس - ١٤٨  
موشيش - ١٣٦، ١٣٧  
مراد الثالث - ٢٤  
مويندو - ١٥٨  
مزليكي - ١٣٧  
ما (ر) - ٢٥١، ٣١١  
ماكولي (لورد. ب) - ٧٣  
ماكيريوني (ك. د. م) - ٥٨١، ٥٩٦، ٦٣٠  
ماك كافي (و) - ١٦٥  
ماك غريغور - ١٤٩  
ماكي - ٧٢٦  
مكزي (ج) - ٣٦  
ماك ميلان (و. م) - ٤٩  
مكي (ا. م) - ١٢١  
مالي (ج) - ٢٩٣، ٢٩٧  
ميرويتز - ٥٤  
مالينوفسكي (ب) - ٢١، ٥٢، ٧٨  
مالرو (ا) - ٣٦٩، ٦٩٠  
منيسني (ج) - ٢٩٦  
موني - ١١٨  
مانسو (ب) - (انظر البيليوغرافيا)  
منصور شفيق - ١٣٢  
منطران (ر) - ١٣٠  
ماكيت (ج) - ٣٧٠، ٧٥٤  
ماري (ب) - ٥٦٤، ٥٦٩، ٥٧٠  
مارغا (ج) - ٢٨٢  
ماران دوتير - ١١٦  
مارلياك (ا) - ٥٣٦  
مازو (انظر البيليوغرافيا)

الببليوگرافيا)  
موس (ر. ل. ب) - ٧٢٩  
موفيوس (هـ) - ٤٤٢  
موفوتا - ٢٥٨  
مهليي - ١٢٠  
موكروفسكي (هـ. ج) - ٣٠  
مختار ولدا حميدون - ١٢٣  
مولر (د. ك) - ١٣٦  
مولر (ف) - ٣٠٤، ٢٥٤، ٢٥٣  
٣٠٦  
مؤنس (هـ) - ١٢١

## ن

نابوليون بوناپرت - ١٣٢، ٤١  
نشنينغال (ج) - ٤٨  
نيوتن (ا. ب) - ٤٨، ٤٩، ٥٠  
نوريس (هـ. ت) - ١٢٣، ٤٦  
٣٠٤، ٣٠٣  
نيان (د. ت) - ٢٥٨، ٧٧  
نكرومة (ك) - ٨٦  
نيوبوري (ك. و) - ١٥٢  
نيومان (ب) - ٣١١، ٢٥١  
نكوكي - ١٣٧  
نابيير - ٤٤٤  
نبتتي (ج) (انظر الببليوگرافيا)  
ني مازاتوشي - ٢٧٧  
نوبكان (ج) - ٥٦٣، ٥٦٠، ٥٥٣  
٥٦٧  
نييلسن - ٧٣  
نلسون - ٥٥٨، ٣٧٩، ٣٧٦  
نكتيا (هـ. ج) (انظر  
الببليوگرافيا)  
نوردستروم (هـ. ا) - ٧٢٢، ٧١٩  
٧٣٣، ٧٣١، ٧٣٠  
نوريس (ا) - ٢٥٨

مونيويت (هـ) - ١٦١  
مونو (ت) - ٣٨٢، ٣٧٧، ١٢٨  
٣٩٤، ٥٩٢، ٦١٠، ٦٢٢، ٦٨٦  
٦٩٣  
مونتاغو - ٢٧٥  
مونتال (ك) - ٥٥  
مونتال فنسان - ١٤٣، ١٢٣، ٤٣  
مونتيث - ٢٠٩  
مونترفانس (هـ. م) - ٣٩١  
مونسون (ب) - ٦٢٨، ٦١٠  
٦٢٩، ٦٣٢  
موردوك (ج. ب) - ٣١٩، ٧٧، ٥٣  
٣٢٤  
موزو (ا) - ٢١٨  
مفنيك - ٨٢  
مودي (د) - ١٣٥  
مورسيل (هـ) - ٥٥٣، ٥٢٦  
٥٦٦، ٥٦٤  
مورو - ٦٢١  
موريل (ج) - (انظر  
الببليوگرافيا)  
مورينو (م) - (انظر  
الببليوگرافيا)  
موريت (ا) - ٧٢٨  
مورغان - ٢٨٢، ٣٥١، ٤٤٦  
٧٤٥  
موري (ف) - ٦٢٠، ٦٣٤، ٦٦٩  
مورينانو (ل) - ٣٠٢  
موريتز (ب) (انظر الببليوگرافيا)  
مورنو (ن. ا) - ٣٩٤، ٤٠٠  
موريسون (ر. ب) (انظر  
الببليوگرافيا)  
موريلمانس (ج) - ٥٣٥، ٤٤٢  
٥٣٦، ٥٣٧، ٥٥١، ٥٥٣، ٥٦٤  
٥٦٥، ٥٦٩  
موسكاتي (س) (انظر

مارتان (ب. ج) - ٢٦٥، ٢٤  
مارتان دل مولينو - ٦٢٣، ٥٦٩  
مارتي (ب) - ١٢٣  
ماركس (ك) - ٧٥٣، ٧٥٢، ١٠١  
٧٥٦  
ماس ليري - ١٢١  
ماتوس (ا) - ٦٣٠  
ما تقبيف - ١٢٢، ١٢٠، ١١٩، ٨٢  
موني (ر) - ١٠٨، ١٠٥، ٨٢، ٥٦  
١١٦، ١١٨، ١٢٠، ١٢٨، ٦٠٤  
٦١٩، ٦٢٤، ٦٣٠، ٦٣٢، ٦٣٣  
٦٧٠، ٦٣٩، ٦٣٨  
ميهان - ٢١٩، ٢١٨، ٢١٧  
مينهوف (ك) - ٢٥٣، ٢٥٠، ٢٤٩  
٢٥٤، ٢٨٣، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٠٥  
٣٠٦، ٣٠٨، ٣١٢، ٣١٥، ٣١٦  
مكناسي (ا) - ١٣٠  
ميناندر - ١١٠  
مريفال (هـ) - ٤٩، ٤٨  
متكلف - ١٥٢  
ميريس (ب) - ٢٢٠  
ميكايل (هـ. ن) - ٢٢٨  
ميشل السوري - ١٢٤  
ميجود (ف. و) - ٢٦٩، ٢٤٩  
ميني - ١١١  
ميلانكوفيتش - ٥٥٩  
ميلر (ج. ا) - ٤٠٨، ٤٠٩، ٥٦٥  
ميكل (ا) - ١١٩، ١٢٢  
موير صونس (ج) - ٥٥٨، ٥٥٩  
٥٧٠  
موفات (ر) - ١٣٦  
موفولو (ت) - ٣٦٩  
مختار السوسي - ١٣١  
موليما (س. م) - ١٢٨  
مومسن - ١١٥  
مومولو مسكوا - ٢٦٩

هوداس - ۱۴۵، ۱۳۱  
 هوپل - ۴۰۹  
 هوپلس (و) - ۷۴۴  
 هریک - ۱۱۹، ۱۰۶  
 هوغو (ه) - ۴۴۲، ۵۷۵  
 ۵۸۳، ۵۹۵، ۵۹۷، ۵۹۹، ۶۰۰  
 ۶۰۲، ۶۰۴، ۶۰۸، ۶۲۸، ۶۳۰  
 ۶۶۹، ۶۷۴، ۶۸۸، ۶۸۹، ۶۹۲  
 ۶۹۳، ۷۰۰، ۷۰۴  
 هنتفورد (ج. و. ب) - ۴۵۰، ۱۳۴، ۳۱۵  
 هورنر (ج) - ۴۲۰  
 هکسلی (ا) - ۵۰۱

## و

ویلیکس (ا) - ۱۴۴، ۱۴۰، ۶۸، ۴۴  
 ویستمان (د) - ۲۴۹، ۲۴۳، ۵۳  
 ۲۵۲، ۲۵۳، ۲۵۴، ۲۵۵، ۲۹۵  
 ۲۹۶، ۳۰۴، ۳۰۶، ۳۱۲، ۳۲۴  
 وارد (و. ا. ف) - ۵۶  
 ویدسون (ک) - ۸۳  
 ویلسون (م) - ۸۴  
 وریغلی (ک) - ۸۱، ۷۱۴  
 ویست (ج) - ۱۱۹  
 وینغ (ج. ث. ن) - ۱۵۴  
 والد ضیف الله - ۱۳۲  
 وی اوغوز (ب) - ۶۲۵  
 ورغه - ۱۴۰  
 وارن (ا) - ۶۲۰  
 ورط - ۱۶۳، ۱۶۴  
 واطس (ا) - ۱۳۶  
 ویلند - ۴۴۶، ۴۴۷، ۵۴۲، ۵۵۸، ۶۱۹  
 ویتلی (ب) - ۱۰۸، ۲۵۸  
 ویب (م. ک) - (انظر

هلبرن (ج. و) - ۲۱۷  
 همیت (ا) - ۱۳۳  
 هملتن - ۲۲۹  
 هان (م. ج) - ۲۲۸  
 هنوتو (ج) - ۴۹  
 هنسبری (ل) - ۸۳  
 هنسن (ک. ل) - ۲۸۳، ۴۱۲  
 هاردی (ا) - ۷۴۵  
 هرغرفیس (ج. د) - ۸۱  
 هیل (ب) - ۷۷  
 هرلان (ج. و) - ۶۳۴  
 هرلی (ج. و) - ۳۶۴  
 هریس - ۱۴۶، ۲۱۷، ۷۰۰، ۷۲۴  
 هرل (و) - ۶۲۳، ۶۳۸  
 هرتمان (ف) - ۷۱۹  
 هو (ا) - ۲۶۹، ۶۳۰  
 هویریکور - ۷۱۳  
 هیس (و. ک) - ۶۱۸، ۷۲۱  
 هیث (ب. ل) - ۱۴۵  
 هیرت - ۳۶۶، ۶۳۰  
 هیدان - ۷۱۳  
 هنتر (ب) - (انظر البیبلوگرافیا)  
 هنزلان - ۳۸۰، ۳۸۳، ۴۱۲، ۵۵۳، ۵۶۷  
 هرمان - ۴۰۸  
 هرغیو (ج) - ۵۳۶  
 هستر (ج) - ۷۰۰  
 هنتر (ف) - ۲۴۹، ۳۱۶، ۷۲۳  
 هوتمان (ا) - (انظر البیبلوگرافیا)  
 هوغنیجر (ج) - ۳۱۵  
 هولاس (ب) - ۶۳۰  
 هولم (ا) - ۶۶۹، ۶۸۰، ۶۸۲، ۶۹۱  
 همبوجر (ل) - ۲۴۷، ۲۴۸، ۳۰۷  
 هومیر - ۱۰۹

نوزک (ا) - ۲۱۸  
 نوتن (ف) - ۵۳۶، ۵۵۵، ۵۶۳، ۵۶۷، ۵۶۸، ۵۶۹، ۵۷۰  
 نوتن (ا) - ۵۶۸  
 نورودان - ۱۳۱  
 نارمر - ۲۵۸، ۲۵۹، ۲۷۰  
 ندامل غوزاس - ۲۵۷  
 نفرکاری - ۹۶  
 نجویا - ۱۴۹  
 نانغیری - ۱۸۸

## ه

هینیال - ۱۱۱  
 هرخوف - ۹۶، ۲۸۹  
 هتتر - ۲۷۶  
 هور - ۲۲۱  
 هورتون (ج. ا. ب) - ۴۸، ۵۴، ۱۴۷  
 هیجل - ۴۷، ۲۸۲  
 هیروودت - ۴۲، ۱۰۹، ۱۱۰، ۱۱۶، ۷۱۹، ۷۳۵  
 هیرنو (ج) - ۲۸، ۲۷۶، ۲۷۸  
 ۲۷۹، ۲۸۹، ۵۶۷  
 هویس (م) - ۲۹، ۳۶۲، ۳۶۴  
 هوارد (ب) - ۲۵، ۶۳۹، ۶۸۵، ۷۴۲  
 هنویک (ج. ا) - ۲۳، ۱۴۴  
 هولم (ک) - ۱۱۵  
 هیرلند (ا) - ۶۶۷، ۶۹۱  
 هیر (ب. ا. ه) - ۱۵۴  
 هلکان (ل) - (انظر البیبلوگرافیا)  
 هال (ا. ت) - ۲۱۳، ۲۱۴، ۲۱۸، ۲۱۹، ۲۲۰، ۲۲۲  
 هلمانس (ج) - ۶۲۸

## ي

يقوبا باوتشي - ٦٧  
ياقوت - ٤٢، ١٢٤  
يمازكي (ف) - ٢٨٠  
ينوبولوس (ت) - ٣٦٥  
يلبودو (ج. ت) (انظر  
الببليوغرافيا)  
يورك (ر. ن) (انظر الببليوغرافيا)  
يونغ (و. ج) - ٢٢٥  
يويوت (ج) - ١٠٩، ٦٨٥، ٧٣٥

ويليت (ف) - ٢١٨، ٦٣٢، ٦٣٩  
ويليامس (م. ا. ج) - ٣٧٨، ٣٩٤، ٣٩٩  
ويليامسون - ٣٢٤  
ويليس - ١٤٥  
ولسون (و) - ٢٥٢  
وينكلر (ه. ا) - (انظر  
الببليوغرافيا)  
ولبرغ (د. ل) - ٤٣٩  
ولان - ٣٨٩، ٤٠٠  
ويمر (ج) (انظر الببليوغرافيا)

## أسماء الأماكن

شمال شرق افريقيا - ٤٩٥، ٧٢١  
شمال غرب افريقيا - ٦٢٢  
افريقيا الغربية - ٤٢، ٨١، ١٠٩،  
١١٥، ١٢٢، ١٤٧، ١٥٢، ١٦٧،  
٢٢٦، ٢٢٧، ٢٨٧، ٣٠٣، ٣٠٧،  
٣٢٢، ٣٢٤، ٣٣١، ٣٢٩، ٣٢٢،  
٣٤٠، ٣٤٦، ٣٥٠، ٣٥٤، ٣٥٧،  
٤٥٥، ٤٩٨، ٥٢٥، ٦١٥، ٦١٩،  
٦٢١، ٦٢٥، ٦٣٠، ٦٣٣، ٦٣٨،  
٦٤٠، ٧٠٨  
افريقيا الشرقية - ٢٩، ٥٠، ١٢٩،  
١٤٦، ١٤٩، ١٧١، ١٧٤، ٢٩٣،  
٢٩٧، ٣١٦، ٣٢٢، ٣٢٩، ٣٣٢،  
٣٤٧، ٣٥٤، ٣٥٧، ٣٧٥، ٣٧٨،  
٤٠٣، ٤٠٨، ٤١٧، ٤٣٦، ٤٥٤،  
٤٥٩، ٤٦١، ٤٦٦، ٤٦٩، ٤٧٣،  
٤٧٦، ٤٧٩، ٤٨٥، ٤٩١، ٤٩٧،  
٥٠١، ٥٠٦، ٥٠٩، ٥٢٦، ٥٣٥،  
٥٤٦، ٥٥٨، ٥٧٥، ٦١٧، ٦٢٢،  
٦٦٢، ٦٦١، ٧٠٨، ٧١٤، ٧٤٩  
افريقيا فوق الاستوائية - ٣٧٥،

٢٣٦، ٥٠٢، ٥٠٤، ٥٠٦، ٥٠٩،  
٥١٥، ٥٢٥، ٥٢٨، ٥٣٠، ٥٣١،  
٥٣٢، ٥٦٥، ٦٧٦، ٦٨٥، ٦٨٨،  
٦٩١، ٦٩٣، ٧٤٩  
افريقيا الوسطى - ٢٩، ٤١، ٩٨،  
١٠٧، ١٠٩، ١٧٤، ٢٩٣، ٣٥٣،  
٣٥٤، ٣٥٧، ٤٨٥، ٤٩٧، ٥١٢،  
٥٢٩، ٥٣٣، ٥٤٦، ٥٥٣، ٥٥٧،  
٥٦٠، ٥٦٢، ٥٧٠، ٦٠٧، ٦٤٣،  
٦٧١، ٦٨٨، ٧٠٦، ٧٤٩  
افريقيا الاستوائية - ١٠٦، ١٧٤،  
٢٩١، ٣٥٣، ٥٣٩، ٥٥٢، ٦٨٥،  
٦٩٢  
شمال افريقيا - ٣٨، ٤١، ٧٥، ٨١،  
١١٤، ١٣٩، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٩٣،  
٣٠٩، ٣١٠، ٣١٦، ٣٣١، ٣٣٢،  
٣٤٣، ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٨١، ٤٦١،  
٤٨٠، ٥١١، ٥٢٦، ٥٤٩، ٥٧٩،  
٥٨٨، ٦٢٢، ٦٢٦، ٦٢٨، ٦٣٨،  
٦٩٠، ٦٩١، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧١٣،  
٧٢٢، ٧٥٥

## الببليوغرافيا

ويلمرس (و. ا) - ٣١١  
وندورف (ف) - ٣٨٣، ٤١٢،  
٦٣٤، ٧٢١، ٧٢٢، ٧٣٠، ٧٣١  
ورنر (ا) - ٢١٩، ٢٤٨، ٣٠٦  
وست (ر. ج) - ٦١٩  
وستفال - ٢٩١، ٢٩٥، ٣١٦  
ويت - ٦٣٤  
وينكز (ج. ا) - ٢٩٤، ٣٩٩  
روسنسكي - ٢٧٣  
وليكوكس (ا. ج) - ٣٧٨، ٦٩١،  
٦٩٣

## ا

ايبديجان - ٨٢، ٨٢، ٨٤  
ايومي - ٢٩، ١٠١، ٢٥٨  
الريف - ٣٣١  
ابو هرغر - ٦٥٠  
ابوقير - ٥٧٥  
ابوسميل - ٦٤٤، ٦٥٢، ٦٦٢  
ابوطيري - ٥٧٥  
اينيدوس - ٦٦٠، ٧٢٥، ٧٢٦،  
٧٢٩  
اديس ابابا - ١٣٥، ٤١٧، ٤٢١،  
٤٣٣  
الرباط - ٥٨٠  
ادجفو - ٦٧٤  
ادرار بوس - ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٨،  
٦١٣، ٦١٤، ٦٨٥  
آخر - ١٩، ٣٩٤، ٣٩٩، ٤٠٣،  
٤٠٩، ٤٢١، ٤٢٦، ٥٠٦  
افريقيا الجنوبية - ٢٩، ٢٨٢،  
٢٨٤، ٢٩٧، ٣٢٩، ٣٣١، ٣٣٥

استراليا - ٢٧٤، ٢٧٧، ٢٩٩، ٤٠٣	٢٩٥، ٣٥٤، ٤٠٤	٥٥١
النمسا - ٢٨٣	أمريكا الجنوبية - ٢٩٥	جنوب صحراء افريقيا - ٢٢، ٥٠، ٨٤
أواش (نهر) - ٣٧٧، ٤٠٥	الامزاج - ٦٥٥، ٧٢٥	٦٢٢، ٥٨٨، ٤٧٧، ٣٥٥، ٨٤
أكسوم - ٤٩٦	أناتولي - ٦٣٤	٦٨٢
إشر (واد) - ٦٠٣، ٦٧٤	أنفا - ٤٤٤	جنوب افريقيا - ٥٦، ٨٤، ١٠٦، ١٣٥، ١٦٤، ٢٢٧، ٢٥٤، ٢٧٥، ٢٧٨، ٢٩٣، ٣٠٤، ٣٠٨، ٣١٥، ٣٢٢، ٣٤٢، ٣٤٧، ٤٢٠، ٤٢٦، ٤٣٩، ٤٤٦، ٤٥٤، ٤٥٩، ٤٧٦، ٤٨٠، ٤٨٥، ٤٩٤، ٥٠٢، ٥٠٤، ٥٠٦، ٥٠٩، ٥١٢، ٥١٤، ٥١٧، ٥١٩، ٥٢٦، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٤٧، ٥٥١، ٥٦٥، ٦١٢، ٦٢٢، ٦٦٦، ٧١٢
البرازيل - ٨٢	أدوارد (بحيرة) - ٣٢١، ٣٥٣، ٣٨٠، ٤٩٧، ٤٩٥	جنوب شرق افريقيا - ١٥٣، ٥١٩
الخرطوم - ١٣٥، ١٣٣، ٥٦	أنجلترا - ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣	أغردات - ٤٩٦
٣١٦، ٣٣٨، ٣٧٨، ٤٩٥، ٤٩٧، ٦٠٥، ٦٥١، ٧١٨، ٧٣١	أنغولا - ١٤٠، ١٧١، ١٧٤، ٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٥، ٣٠٢، ٣٢٩، ٣٤٦، ٥١٧، ٥١٩، ٥٢٧، ٥٣٣، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٨، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٤، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٥١، ٥٥٣، ٥٥٧، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦٢، ٥٦٥، ٥٦٩، ٥٧٠، ٦٦٦، ٧٠٦، ٧١٢	أعادس - ٢٧٧
أرتيريا - ١٠٧، ١١١، ٤٩٦، ٧١٠	أوكر - ٦٠٥، ٦١٢	أحمر (جيل) - ٦٤٤، ٦٤٧
الكامبيون - ٨٢، ١٠٢، ٣٠، ٣٨، ١٣٠، ١٤٩، ١٥٩، ٢٠٥، ٢٤٧، ٢٥٤، ٢٨٩، ٣٢٦، ٣٦٣، ٥٣٣، ٥٤٠، ٥٤٤، ٥٤٩، ٥٥١، ٥٥٧، ٥٦٠، ٥٦٩، ٦١٧، ٦٢٣، ٦٢٢	أولف - ٥٩٩، ٦٠٠	أقريت (واد) - ٥٧٩
اسبانيا - ٥٧٩، ٦٣٦	أشنطي - ٢٢، ٤٧، ١٦٣، ٦٣٦، ٧٥٣، ٧٥٤	أقوجيت - ٦٣٦
الولايات المتحدة - ٨٦، ٢٨٥، ٣٩٩	آسيا - ٨٤، ٨٥، ٨٧، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٩، ٢٣٢، ٢٣٧، ٢٥٣، ٢٧٦، ٢٩٩، ٤٦١، ٤٦٤، ٤٦٩، ٤٧٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٥١١، ٦٣٤، ٧١٣، ٧١٤، ٧٢٢، ٧٤٩	أفريجيت - ٦٣٢
اثيوبيا - ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٧٥، ٩٣، ١٠٧، ١١١، ١١٩، ١٢٢، ١٢٩، ١٣٥، ١٣٤، ١٦١، ٢٢١، ٢٧٨، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٩، ٣١٠، ٣٢٢، ٣٤٨، ٣٧٧، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨٤، ٤٠٩، ٤٢١، ٤٢٦، ٤٢٩، ٤٣٩، ٤٥٩، ٤٦٤، ٤٧٧، ٤٨٨، ٤٩٤، ٥١١، ٥٥٥، ٦٦٢، ٧٠٨، ٧١٣، ٧١٥، ٧٤٨	أسيلار - ٧٤٩	الجزائر - ٢٤، ٤١، ١٣٠، ١٣١، ٢٨٤، ٢٤٦، ٣٥٢، ٤٣٦، ٤٤٢، ٤٤٤، ٥٧٣، ٥٧٥، ٥٧٩، ٥٨١، ٥٨٥، ٥٩٦، ٦٠٢، ٦١٨، ٦٣٨، ٦٦٦، ٧٤٦
الرأس - ١٣٥، ٢٢٩، ٣٢٥، ٤٤٥، ٤٨٠، ٥٠٤، ٥١١، ٥١٤، ٥١٥، ٥٢٣، ٥٢٩، ٦٦٦، ٦٦٩، ٦٧٦، ٦٨٠، ٦٩١، ٧٤٦	أنسيوط - ٧٢١، ٧٢٣، ٧٢٦	المالينا - ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣
الفرات - ٦٣٤	أسوان - ٨٣، ٣١٦، ٣٨٢، ٣٨٣، ٧٣٠، ٧٣٢، ٧٣٩	امدا - ٦٤٤، ٦٤٧، ٦٦١
أوروبا - ٢٢، ٢٤، ٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٣٠، ٢٧٦، ٤٠٣	المحيط الاطلسي - ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٣٩، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٩٤، ٣٩٧، ٤٠٠، ٤٠٨، ٤٩٧، ٥٩١، ٦٢٢، ٦٦٦، ٦٨٥، ٧١٧، ٧١٩	أمفري - ٥١٤
	الاطلس - ٢٢، ٢٨٤، ٣٢٩، ٣٣١، ٣٧٩، ٣٨١، ٣٨٢، ٥١٢، ٥٩١، ٦٢٢، ٦٦٥، ٦٨٢، ٦٩٠، ٧٤٩	أمزار (واد) - ٦٧٤
		أميافريت - ٢٨٠
		أمبيلو - ٥٤٤
		أميزونا - ٤٤١
		أمريكا - ٢٢٧، ٢٣٠
		أمريكا اللاتينية - ٨٤
		أمريكا الشمالية - ٨٧، ٢٨٥



٢٣٩، ١٥٢، ١٤٣  
توات - ٦٧٤  
تودنيت - ٥٩٣  
تولو - ٦٧٧، ٥٥١  
ترنسفال - ٤٢٨، ٤٢٠، ٢٤٦  
٥٢٩، ٥٢٣، ٥١٥، ٥١٣، ٥٠٤  
٦٧٢، ٦٧٢، ٦٧١، ٦٦٦، ٥٢٩  
٦٩١، ٦٨٠، ٦٧٦  
تنسانفولان - ٥٣٠، ٥٢٥  
تونس - ٤٤٦، ٣٨١، ٢٤٦، ١٣٠  
٦٠٣، ٥٨٤، ٥٨٠، ٥٧٩، ٥٧٥  
تركيا - ٤١٧، ١٣٩  
توركانا (بحيرة) - ٤٢٦، ٤٢١  
٤٨٥، ٤٧٧، ٤٦١، ٤٣٢، ٤٢٩  
٥١١، ٥٠٨، ٥٠٦، ٤٩٧، ٤٨٨

## ج

جامعي - ٦٤٤  
جبل طارق - ٥٧٩، ٣٣٤  
جبارين - ٦٨٦، ٦٧٥، ٦٦٦، ٣٤  
٦٩٠، ٦٨٨  
جفا - ٤٦١، ٤٤٧، ٤٣٦  
جيريشو - ٧٢٢، ٧٢١، ٦٥٠  
جوهنسبورغ - ٤٢١  
جوس (نجد) - ٦٣٩، ٦٢٥، ٣٢٢  
جوبي (راس) - ١١٦  
جوف - ٢٨٢

## ح

حار - ٢٩٣  
حلوان - ٦٦٠، ٦٥٦، ٦٤٩  
حوض البحر الابيض المتوسط -

٣٠٩، ٢٩٥، ٢٩٣، ٢٨٤، ٢٥٤  
٤٢١، ٤٠٩، ٢٤٦، ٣١٥، ٣١٠  
٤٤٢، ٤٣٨، ٤٢٩، ٤٢٦، ٤٢٥  
٤٧٦، ٤٧٣، ٤٦٤، ٤٥٨، ٤٤٧  
٥٠٦، ٤٩٩، ٤٩٦، ٤٩١، ٤٨٣  
٥٤٢، ٥٣٩، ٥٣٠، ٥١٢، ٥٠٨  
٦١٨، ٥٧٧، ٥٧٥، ٥٦٠  
تاوسا - ٦٢١  
تازة - ٧٢١، ٦٥٣  
تسيلي - ٦٦٦، ٦١٢، ٢٨٤، ٢٧٧  
٦٧٤، ٦٧١، ٦٧٠، ٦٦٩، ٦٦٧  
٦٩١، ٦٩٠، ٦٨٨، ٦٧٦، ٦٧٥  
تشاد - ٢٥١، ٢٠٥، ١٠٢، ٣٤  
٤١٢، ٤٠٩، ٤٠٣، ٣٩٤، ٣٣٤  
٥٩٦، ٥٩٣، ٥٣٣، ٥٣٢، ٤٤٤  
٦٩٩، ٦٧٥، ٦٦٦، ٦٣٣، ٥٩٩  
تشاد (حوض) - ٢٥٠، ٩١، ٢٥  
٣٧٨، ٣٧٧، ٣٣٨، ٣٢٩، ٢٨٧  
٧١٧، ٥٥١، ٥٤٩  
تشاد (بحيرة) - ١٠٧، ٩٣، ٩١  
٥٠٤، ٣٩٩، ٣٧٧، ٣٥٣، ١٢٩  
٦٢١، ٦٢٠، ٦١٧، ٦٠٣، ٥٩٩  
٦٣٤، ٦٣٢

تشيكوسلوفاكيا - ٨٥  
تكرور - ١٦٦، ١٢٩  
تيل - ٢٣١  
تنيري - ٦٩٢، ٦٨٤، ٦٦٦، ٦٠٨  
٧٣١  
تنسيفت - ٤٥٥  
تيسستي - ٦٦٦، ٦٥١، ٣٨١  
٧٣١  
تيشيت - ٦٢٩، ٦٣٦، ٦١٠  
٦٩٢، ٦٨٨، ٦٧٦  
تلمسي (واد) - ٧٤٨، ٦٠٥  
تلمسان - ٥٧٧  
تمبوكتو - ١٢٩، ٥٤، ٤٤، ٢٤

بيزرت - ٢٢٠  
بودي (بحيرة) - ٦٢٠، ٣٧٧  
بنغور - ٦٢٠  
بورنيو - ٢١٦  
بورنو - ٦١٩، ١٤٩، ١٤٤  
بوتسوانا - ٥٢٨، ٥١٤، ٣٦  
٦٩٤، ٦٨٩، ٦٧٢، ٦٦٦  
بوات - ٥٦٢، ٥٥١، ٥٤٩  
بوغوني - ٢٠٨، ١٨٦  
بوسا - ٦٢٥  
بوشا - ٧١٧  
برازفيل - ٥٤٢، ٥٣٦  
بروكن هيل - ٥١٤، ٤٥٥، ٢٣٠  
٥٢٦، ٥٢٥، ٥١٥  
بوراندي - ٢٣٩، ١٦٤، ٢٥  
٥٦٨، ٥٦٠، ٥٥٧، ٥٣٣، ٣٥٤  
بيزانس - ١٠٥  
باكستان - ٤١٧  
بالماس (راس) - ١٣٠  
بير (كهف) - ٥٢٦، ٥٢٥  
بريتوريا - ٥١٢

## ت

تشنغيط - ٦٠١، ٦٠٠، ٥٧٩  
تدرات آكاكوس - ٢٨٤  
تقورات - ٥٨٠  
تغيط - ٦٨٦  
تمدا - ٥٧٧  
تمنيت - ٦٧٤  
تمغروت - ١٢١  
تنجانيقا - ٣٤٩، ٣٣١، ١٥٩  
٧١٢  
تنجانيقا (بحيرة) - ٥٦٧، ٥٦٣  
تنزانيا - ١٦٧، ١٦١، ٩٠، ٣٨

۰۵۱۹، ۰۵۱۷، ۰۵۱۲، ۰۵۱۱، ۰۴۵۰  
۰۵۲۳، ۰۵۲۴، ۰۵۲۷، ۰۵۲۹، ۰۵۳۰  
۰۵۵۷، ۰۵۵۹، ۰۵۶۰، ۰۶۴۶  
۶۷۶، ۶۶۹

زنج - ۱۳۹

زنگبار - ۱۰۶، ۱۴۵، ۱۴۹، ۷۵۴  
زنبی - ۶۲۸

زمبابوي - ۰، ۵۰، ۸۴، ۳۱۶، ۳۴۳،  
۰۵۱۷، ۰۵۱۳، ۳۶۴، ۳۴۷، ۳۴۶،  
۰۵۱۹، ۰۵۲۴، ۰۵۲۵، ۰۵۲۸، ۰۵۳۰،  
۰۵۳۱، ۰۵۵۱، ۶۷۶، ۶۷۷، ۷۱۲

زوي - ۳۷۷

## س

سبته - ۱۰۵

سيلان - ۴۴۲

سنغوباي - ۷۴۶، ۵۴۲، ۴۴۶  
سناورة - ۰، ۴۸۳، ۴۰۹، ۴۴۵،  
۰۵۷۵، ۰۵۹۳، ۰۵۹۶، ۰۵۹۹، ۶۰۰،  
۶۰۳، ۶۰۵

سيكو - ۳۴، ۲۵

سيدي عبد الرحمن - ۵۸۰

سيدي منصور - ۵۸۵، ۵۷۹

سيدي زين - ۵۷۷، ۵۷۹

سيراليون - ۰، ۵۶، ۸۲، ۹۵، ۱۴۷،  
۱۴۹، ۲۵۲، ۳۱۶، ۳۲۲، ۳۴۶،  
۳۷۰، ۶۳۰، ۶۳۱، ۶۴۰

سجلماسه - ۱۳۱

سيناء - ۶۵۸

سيوا - ۶۵۵، ۶۴۴

ستانلي بول - ۰، ۵۴۴، ۵۴۵،  
۵۴۸، ۵۴۹

ستيل باي - ۰، ۴۴۵، ۵۲۸، ۵۴۷،  
۷۴۶

دراكتسبرغ - ۲۲۷، ۵۳۱، ۶۶۷،  
۶۷۶، ۶۸۰، ۶۹۱

## ر

ريغان - ۵۷۵

روديسيا - (انظر زامبابوي).

رودولف (بحيرة) - ۳۳۱، ۳۵۳،  
۳۷۷، ۳۹۸، ۴۳۹، ۴۹۵

روما - ۱۰۴، ۱۱۱، ۷۵۵

روپ - ۶۳۱

رواندا - ۲۶، ۸۲، ۱۶۸، ۲۸۹،  
۳۵۴، ۴۳۸، ۴۹۰، ۴۹۵، ۵۳۳،  
۵۵۳، ۵۵۷، ۵۶۰

## ز

زاير - ۲۲، ۳۲، ۳۵، ۴۵، ۶۱،  
۹۸، ۱۵۹، ۱۶۳، ۱۶۴، ۱۶۵،  
۱۶۷، ۲۵۴، ۲۸۹، ۲۹۷، ۳۴۶،  
۳۷۹، ۴۴۸، ۵۲۷، ۵۲۳، ۵۳۵،  
۵۳۶، ۵۳۸، ۵۳۹، ۵۴۲، ۵۴۴،  
۵۵۱، ۵۵۷، ۵۵۹، ۵۶۰، ۵۶۲،  
۵۶۵

زاير - (حوض) - ۳۴، ۱۰۶،  
۳۲۸، ۳۵۷، ۴۹۱، ۴۹۵، ۵۲۰،  
۵۲۵، ۵۳۰، ۵۳۳، ۵۳۶، ۵۳۹،  
۵۴۳، ۵۴۴، ۵۴۶، ۵۴۸، ۵۴۹،  
۵۵۱، ۵۵۲

زاير (نهر) - ۵۴۸

زاير (وادي) - ۲۸۹

زامبيز - ۴۵، ۱۰۶، ۱۲۹، ۱۴۰،  
۲۶۰، ۳۲۸، ۳۴۰، ۵۱۴، ۵۳۰،  
۵۵۸، ۶۷۶

زامبيا - ۲۴، ۱۶۱، ۲۳۰، ۳۴۹

۰۲۳۰، ۰۳۲۷، ۰۳۲۸، ۰۳۳۹، ۴۰۵،  
۴۰۸، ۴۸۵، ۷۱۷، ۷۲۹، ۷۳۹

## خ

خمي - ۵۲۵

خرجا - ۶۰۰، ۶۰۳، ۶۴۳، ۶۴۴،  
۶۴۷

خمست الديب - ۷۲۳

خنشلا - ۵۸۶

خورد ابو انفا - ۶۴۳

خوريهان - ۷۲۳

خورد داود - ۶۴۴، ۶۴۷، ۶۵۲

خورد كوسا - ۶۴۸

## د

دبا - ۵۲۵

دغومبا - ۳۸

دهومي - ۴۶، ۶۵، ۱۰۱، ۲۵۸،  
۲۶۹، ۳۲۵، ۳۴۰، ۶۱۷، ۷۵۴

ديما - ۶۳۲

دكار - ۵۶، ۸۲، ۸۴، ۱۴۴، ۲۳۴،  
۶۲۵، ۶۳۰، ۶۳۱

دخلي - ۶۴۴

درفور - ۲۰، ۹۱، ۱۳۹، ۱۵۲،  
۷۱۷

ديدر - ۶۷۰

دمبا (كهف) - ۵۶۴، ۵۶۹

دجانيت - ۶۶۶، ۶۸۲

دجيبا - ۶۲۰، ۶۲۶

دجيرات - (واد) - ۶۷۰، ۶۷۱،  
۶۷۵، ۶۸۲، ۶۸۶، ۶۸۹، ۶۹۰

۶۹۲، ۶۹۵

دنغولا - ۶۴۴، ۶۵۰، ۷۳۹، ۷۴۲



سوازيلان - ٥٢٨  
سوريا - ٧٣٧

## ش

شامي - (جبل) ٥٧٩  
شامبلان - ٥٧٥  
شري - ٣٧٨، ٩٢، ٩١  
شلال (جبل) - ٢٨٠  
شوكوتيان - ٤٤١، ٤٤٠، ٤٣٩  
٤٤٤  
شاي - ٤٤٢، ٣٤٨، ٣١٢، ٣٥  
٥٣٣، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٤٠، ٥٤٢  
٥٤٤، ٥٥٨، ٥٥٧، ٥٥١، ٥٤٦  
٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٦  
٥٦٧  
شامي - ٣٧٨  
شيل (بحيرة) - ٣٧٧  
شندي - ٦٥١  
شردا - ٦٠٠  
شنغورا - ٥٠٨، ٤٢١

## ع

عين البيضاء - ٥٨٨  
عين بوشريط - ٥٧٥  
عين بريما - ٥٧٥  
عين دكارا - ٥٨٨  
عين فريتيسا - ٥٧٧  
عين حنش - ٥٧٥  
عناية - ٥٧٥

## غ

غانا - ٨١، ٥٢، ٤٤، ٣٨، ٣٢  
٩٨، ١١٩، ١٥٢، ١٦٦، ٣٤٦

٣٥٨، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٦٧، ٦١٧  
٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٣٠، ٦٣٢  
٦٣٤، ٦٣٦، ٧٥٥

## ف

فوتا - دجالون ٢٢، ١٤٤، ٢٠٨  
٦١٧، ٦٢٤، ٦٣٠، ٦٣١  
فرناندوبو - ٦٣٣، ٢٩٧  
فوارات - ٥٧٥  
فرنسا - ٦٨٠، ٢٨٢، ٢٨١، ١٤٤  
فلسطين - ٦٥٨، ٦٥٠، ٢٨٤  
٦٣٧

## ق

قارة - ٦٤٨  
قطارة - ٣٨١، ١٥٧  
قبائل - ٢٨٥  
قصر مرون - ٧٢٣

## ك

كلهري - ٢٢، ٢٩١، ٢٣٤، ٢٣٥  
٢٣٧، ٢٤٢، ٢٤٣، ٣٥٦، ٤٧٥  
٥٣١، ٥٦٨، ٥٧٠، ٦٩٩، ٧٠٠  
٧٠٦  
كمبر فالس - ٣٤٩، ٥١٢، ٥١٣  
٥١٥، ٥١٧، ٥٢٣، ٥٢٨، ٥٥٥  
٥٥٩، ٥٦٠  
كموا - ٥٤١، ٥٤٢، ٥٥٥، ٥٥٨  
٥٥٩، ٥٦٢، ٥٦٧  
كمبالا - ٥٦

كنام - ٤٥٨

كنجرا - ٤٤٧، ٥٢٦، ٥٣٥  
كرنك - ٢٣٣، ٦٦٠، ٦٦١  
كساي - ٤٤٥، ٤٤٨، ٥٣٧، ٥٣٨  
٥٤٢، ٥٤٨، ٥٥٧، ٥٦٠، ٥٦٥  
٥٧٠

كتنغا (انظر شايابا)

كينيدوغو - ١٨٣  
كينيا - ٩٠، ٩٢، ٩٥، ١٦١، ١٦٨  
١٧١، ٢٨٤، ٢٨٧، ٢٩١، ٣٤٦  
٣٤٧، ٤٠٩، ٤١٦، ٤١٧، ٤٢٠  
٤٢١، ٤٢٦، ٤٢٩، ٤٤٠، ٤٤٧  
٤٥٨، ٤٦٤، ٤٧٦، ٤٨٣، ٤٨٨  
٤٩٢، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩  
٥٣٥، ٥٣٨، ٥٥٥، ٥٧٦، ٦٥١  
٧١٢، ٧٤٤، ٧٤٦، ٧٤٧

كينيا (جبل) - ٣٣١، ٣٧٩، ٥٥٩  
كينشاسا - ٢٤٧، ٣٢٩، ٥٤٤  
٥٤٨، ٥٥٨، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥  
٥٦٦، ٥٧٤  
كومبالا - ٧٧٧، ٥٥١  
كوماسي - ٤٧، ١٤٩  
كوانغو - ٥٤٩، ٥٥٧، ٥٦٣، ٥٦٤

## ل

لاغوس - ٢٤  
لاهاي - ١٣٥  
لسكو - ٤٣٨، ٥٨٤  
لمكروت - ٤٥٨  
لنغو - ٧٧٧، ٥٥١  
ليسوتو - ١٣٦، ٦٦٦  
لوفالوا - ٤٤٨  
ليبيريا - ٩٥، ١٢٠، ٢٦٠، ٢٦٩  
٢٣٦، ٢٤٦، ٢٧٠، ٦٣٠

## هـ

مدار - ٤٥٨، ٤٢٣، ٤٢٥، ٤٠٩، ٤٦١  
 هو (كهف) - ٥٦٥  
 هليوبوليس - ٧٢٨، ٦٥٨، ٦٥٧  
 هوغار - ٥٩٣، ٢٨٢، ٢٨١، ٢٨٤  
 ٦٠٢، ٦٠٥، ٦٦٦، ٦٦٩، ٦٧٤  
 ٧٢٢، ٦٩٠  
 هنفاريا - ٤١٧  
 هو - ٧٢٦  
 هوامبو - ٥٥٧  
 هراكس ميل - ٦٥٠

## و

وداي - ١٤٥ - ١٢٩ - ٣١  
 ونزريا - ٦٤  
 وكسا - ٦٤٢  
 ويشال - ١٣٥  
 ويليهيم (جبل) - ٤٠٣  
 ويلتون - ٤٤٩  
 ويندهوك - ١٣٧، ٥٣٠  
 ويندرسوئين - ٥١٧  
 ووندريومبورت - ٥١٤

## ي

يكا - ٦٣١  
 يام - ٣١  
 يطانغا - ١٥٩، ٦٠  
 يايو - ٦١٩  
 يمن - ٥٢، ٣٠  
 ينجيما - ٦٣١، ٦٣٠  
 يولا - ٦٢٠

٤٠٥، ٥٧٥، ٥٩٣، ٥٩٦، ٦٠٣  
 ٦٠٧، ٦٠٨، ٦١٠، ٦١٢، ٦٢٤  
 ٦٣١، ٦٣٤، ٦٣٦، ٦٦٦، ٦٨٨  
 ٧٤٨، ٦٩١  
 ممفيس - ٧٢٢، ٧٢٣  
 ميوتو (بحيرة) - ٢٣١، ٣٧٩  
 ٣٩٨  
 منروفيا - ٩٥، ٥٦  
 متاغو - ٥٢٨، ٥٢٥، ٥١٥  
 مستغانم - ٥٧٥  
 مويلج - ٥٨٦، ٥٨٣  
 مورزنيق - ٧٤، ٢٦٠، ٣٠٢  
 ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٦  
 ٥٢٠، ٥١٩

## ن

نيروبي - ٣٧٦  
 نيفاشا - ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٩٨  
 ٤٤٦، ٤٩٦، ٥٣٠، ٥٣٥  
 نيمبيا - ١٣٠، ١٣٦، ٢٩١، ٣٤٦  
 ٥١٩، ٥٢٥، ٥٢٩، ٥٣١، ٦٦٦  
 ٦٧٢، ٦٧٦، ٦٨٠، ٦٩٠  
 ننتال - ١٣٦، ٥١٩، ٥٢٥، ٦٧٢  
 ٦٨٨  
 نترين - (بحيرة) - ٤٢١، ٤٢٦  
 نجامينا - ٢٩  
 نفورو - ٥٧٠  
 نيجيريا - ٣٠، ٥٦، ٩٥، ١٠٢  
 ١٤٤، ١٤٥، ١٤٩، ١٥٩، ١٦٥  
 ١٧١، ٢٠٧، ٢٦١، ٢٨٧، ٣١٣  
 ٦١٧، ٦٢٥، ٦٣١، ٦٣٦، ٦٣٨  
 نوري - ٦٤٢، ٦٤٣  
 نزاكو - ٥٤٤

## ليبرفيل - ٢٣٥

ليبيا - ١١٦، ٢٢٨، ٢٨٤، ٢٨٧  
 ٥٧٥، ٥٩٦، ٦٥٥، ٦٦٦، ٦٨٤  
 ٦٨٩، ٦٨٥  
 ليفنستون - ٥١١  
 لندن - ١٣٥، ٢٣٦  
 لوكسور - ٢٢٢، ٢٢٣، ٥٦٠  
 لويمياشي - ٨٦  
 لوكينو - ٤٢٥  
 لوند - ٥٤٤، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦٢  
 ٥٦٤، ٥٦٥

## م

مسينا - ٣٣، ١٢٩، ١٤٩، ٢٠٦  
 ٢٣٨، ٢٠٨  
 مدغشقر - ٢٨، ١٢٩، ١٤٦  
 ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٤٠، ٣٤٢  
 ٧١٤  
 ملاوي (بحيرة) - ١٤٠، ٢٤٩  
 ٥٠٨، ٥٢٠، ٦٦٦، ٦٧٦  
 مالي - ٢٢، ٢٣، ٢٦، ٢٨، ٣٣  
 ٣٨، ٤٤، ٦٠، ١٦٤، ١٦٧، ١٧١  
 ١٧٧، ١٧٩، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣  
 ١٩٠، ١٩٥، ١٩٨، ٢٠٦، ٢٥٦  
 ٣٦٤، ٣٧٠، ٦٢١، ٦٣٦، ٦٧٢  
 ٧٥٤، ٧٤٩  
 ملندي - ١٢٨  
 مندارا - ٩٢، ١٤٥، ٦١٧  
 مندي - ٦٤، ٩٨، ١٧٩، ١٨٣  
 ١٩٦، ٢٠٦  
 متوبي - ٥٥٥، ٥٦٥، ٥٦٧  
 موريطانيا - ١١٦، ١٢٢، ١٣٣  
 ١٧١، ٢٩٥، ٣٠٩، ٣٢٩، ٣٣٤

## أسماء السلالات الحاكمة

الخارجيون (أو الخوارج) - ١٢٠،  
١٢٤  
المماليك - ١٠٨، ١٢٠، ١٢٢  
الأمويون - ١٠٥  
العثمانيون - ١٣٠، ١٣١  
بطلميس - ١١١  
الرستميون - ١٢٠  
السعديون - ١٢٠  
الساسانيون - ١١٧  
السنينيون - ١٢٤  
بنو نيري - ١٠٥

السلالة الرابعة: ٢٣٥  
السلالة الخامسة: ٢٨٩  
السلالة السادسة - ٢٨٩  
السلالة الثامنة عشرة: ٦٦١، ٦٩٠  
السلالة التاسعة عشرة: ١٠٨  
السلالة العشرية: ١٠٨  
السلالة الخامسة والعشرون:  
٧٤٢  
الفاطميون: ١٠٥  
الحفصيون: ١٠٨  
الاباطنيون: ١٢٠

العباسيون - ١٠٥  
الموحديون - ١٠٨، ١٢٠، ٣٥  
١٢٢، ١٢١  
المرابطون - ١٠٦، ١٢٠، ١٢١  
الايوبيون - ١٠٥، ١٠٨، ١٢١  
الدينا - ١٣٩  
مصر:  
السلالة الأولى: ٢٢١، ٦٣٩  
٧٢٩، ٦٨٩  
السلالة الثانية: ٦٨٩، ٧٢٩، ٧٣٤  
السلالة الثالثة: ٦٦١

## الاسماء العرفية

٧٤٩، ٦١٠، ٣٦٣، ٢٩٥، ٢٨٥  
٧٥٢  
تمه - ٢٨٧  
تدا - ٣١  
توما - ٢٧٠، ٢٧٠، ١٤٩  
توارك - ٢٦٩، ٢٧٨، ٢٨٩، ٣٥٤  
توبو - ٢٧٨  
تسوانا - ٣٧، ١٥٩  
تركانا - ٩٢  
تونسي - ٣٥٤  
توا - ٢٩١، ٥٣٢  
توي - ٢٤٧  
جودا - ١٠١  
حبشات - ٢٨٣  
حدزا - ٤٧٥  
حدزبي - ٢٩٦، ٢٩٥

٧٤٩، ٦٩٣، ٦٩١، ٦٦٨  
بريبا - ١٠٢  
بزا - ١٤٩ - ٢٧٠  
بمبا - ١٢٩ - ٢٩٩  
بول - ٢٨، ٢٩، ٣٣، ٣٤، ٣٩  
١٠٩، ١٨١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦  
٢٠٦، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٧٨، ٢٩٨  
٣٥٤، ٦٨٢، ٦٩١، ٦٩٢، ٧٤٩  
بني هلال - ٣٩  
بويو - ٣٦٤  
بوم - ٩٢  
بومي - ٩٢  
بوردي - ٣٧٠  
بوزو - ٩٥، ١٩٦  
بلوم - ٢٩٧  
بيجسي - ٢٧٤، ٢٧٧، ٢٨٣

الركييات - ٢٧٧  
عجمي - ٢٤  
اناقى - ٢٩٣  
اشنطي - ٢٣، ٢٧، ٦٤، ٣٦٣  
أمبو - ١٦١، ١٦٨  
اكان - ٢٤٨، ٢٦٧، ٢٦٠  
البرابرة - ٢٥٤، ٢٥٥  
بمبارا - ٢٩، ٣٣، ٣٥، ٦٦  
٩٥، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٦، ١٩٠  
١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٨  
٢٠٣، ٢٠٨، ٢٥٨، ٢٥٩  
بمون - ٢٤، ٩٥، ١٢٨، ١٢٩  
١٤٩  
بنتو - ٣٥، ٣٩، ٥١، ٩٧، ٩٨  
٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٥٦، ٣٠٤  
٣٠٥، ٣٢٨، ٥٣٠، ٥٥١، ٦٦٩

۲۵۸، ۲۵۶، ۲۵۵	سورکو - ۶۲	حراثتین - ۲۷۸
مسیاناک - ۲۰۸	سوئو - ۱۵۹، ۲۲	خوی خوی - ۲۹۱، ۲۸۲، ۱۳۵
ماهی - ۱۰۱	سوزو - ۲۵۴، ۲۴۲	۲۹۵، ۲۹۶، ۳۰۴، ۳۰۶، ۳۰۷
ماندی - ۳۶۵، ۲۷۰	سوازی - ۲۹۱	۶۹۳، ۵۳۲
مانکیتو - ۳۶۸	شونه - ۲۸	خویزان - ۷۴۹، ۲۹۱
مارکا - ۲۷۷، ۲۰۸، ۲۰۶	فنگ - ۱۵۹، ۲۹	دغومیا - ۳۶۶
موریس - ۳۹	فنتی - ۱۴۵، ۶۸	دنکسومنو - ۱۰۱
مبوشی - ۹۸	فون - ۲۴۴، ۱۰۱	دنکا - ۲۸۹
میون - ۱۶۴	فولانی - ۵۱	دیولا - ۲۴۸، ۱۷۱، ۱۴۳، ۱۲۹
منکوبیس - ۴۳۸	فولبی - ۲۴۷، ۲۴۱، ۹۲	۳۷۰
مرینا - ۳۱۶، ۳۰۲، ۱۴۷	کنوری - ۱۴۴، ۳۱، ۳۰	دغون - ۱۶۴، ۱۶۳، ۱۵۶، ۹۵
موزی - ۳۶۵، ۶۶	کنمبو - ۱۲۹	۱۷۱، ۱۸۵، ۱۹۸، ۲۰۸، ۲۵۷
موسی - ۶۱، ۶۰، ۵۹، ۳۹، ۲۸	کفوزو - ۱۶۷	۲۷۰، ۲۵۸
۲۴۸، ۱۶۴، ۱۵۹	کابی - ۳۶۳	دوکو - ۲۸۹
نکوندی - ۲۳	کیشوار - ۳۱۶	دروبو - ۴۷۶
نکونی - ۲۳	کیکیو - ۹۵	دوالا - ۲۴۷
نیاکوزا - ۲۳	کریدی - ۳۶۳	زاند - ۳۱۴
نما - ۱۳۶	کروا - ۹۲	زوما - ۶۲
نیانکتوم - ۹۲	کیسی - ۳۷۰	زغارا - ۱۱۹
نومید - ۱۱۶	کیسواحلی - ۲۴۴، ۱۲۹	زولو - ۲۹۴، ۲۹۱، ۱۳۶، ۶۴، ۲۳
نسییدی - ۲۶۹، ۲۶۰	کومو - ۳۶	سامو - ۳۷۰، ۶۶
نون - ۲۴۸	کنیانکی - ۳۷۰	سان - ۲۸۲، ۲۸۲، ۲۷۴، ۱۳۶
نارون - ۲۹۶	کروکیا - ۱۶۷	۲۸۵، ۲۹۱، ۲۹۲، ۲۹۳، ۳۰۴
نوسا - ۱۲۹، ۵۱، ۴۴، ۲۹	کولنفو - ۳۶۵	۳۰۵، ۳۱۵، ۳۱۶، ۴۷۵، ۴۷۶
۱۴۲، ۱۴۴، ۱۶۰، ۱۷۱، ۲۴۴	کوکاس - ۳۶۶	۴۹۴، ۴۹۵، ۵۲۶، ۵۳۱، ۵۳۲
۲۴۷، ۲۵۷، ۲۷۸، ۳۰۳	کوا - ۹۸	۵۶۸، ۶۸۰، ۶۸۱، ۶۸۹
هیا - ۲۸	کوادی - ۲۹۶، ۲۹۵	۶۹۲، ۶۹۳، ۷۰۰
هریرو - ۱۳۶	لیبو - ۲۴۸، ۲۴۴	سنفوفو - ۳۷۰، ۶۷، ۳۹
هوتو - ۳۵۴	لیبویلوف - ۲۵۶	ساو - ۱۰۲، ۲۵
هکسوس - ۷۳۷، ۲۸۳	لنقالا - ۲۴۷	سراکولی - ۲۸۸، ۲۰۸
وارسنگالی - ۲۸	لوبی - ۳۷۰، ۳۶۵	سانی - ۱۰۱
ویلی - ۳۶۵	لوما - ۳۷۰	سیریر - ۲۵۴، ۲۴۸، ۲۴۷، ۲۴۵
وولوف - ۲۴۷، ۲۴۴، ۲۴۱، ۲۹	لوپا - ۲۹۷، ۱۶۰، ۱۵۹	۲۷۰، ۲۵۶
۲۴۸، ۲۵۵، ۲۵۶، ۲۵۷، ۲۷۰	لوندی - ۶۴، ۳۳	سیفوفو - ۳۷۰، ۶۷، ۳۸
یوروبا - ۲۴۷، ۱۶۳، ۱۴۶، ۵۵	مالینک - ۲۷۰، ۶۳، ۳۳	سنفای - ۱۳۹، ۶۶، ۶۴، ۶۳
۲۵۷، ۲۶۰، ۲۶۹	ماندنگ - ۲۴۸، ۲۴۴، ۳۵، ۳۲	۲۰۸، ۲۴۷، ۲۵۴، ۲۷۹، ۶۳۴

## الموضوعات، والمفاهيم والنظريات الهامة

- علم الآثار - ٢٢٩، ٢١٢، ٤٩، ٢٤، ٢٨٤، ٣٦٤، ٤٣٢، ٤٣٥، ٦٣٠، ٧٢٠، ٧١٧، ٦٦١
- علم الانسان - ٥٢، ٥٠، ٤٨، ٣٠، ٧٨، ٢٨٥، ٣٠١، ٣٦٨، ٤٧٥
- الوثنية التجسيمية - ٦٧، ٦٦، ٣٧٠، ١٠٦
- المصادر المكتومة (او الاحيائية) - ٢٣، ٤١، ٤٤، ٩٠، ٩٦، ١٠٣، ١٠٨، ١٢٥، ١٢٧، ١٥٣، ١٧٧، ٢٥٨، ٣٦١
- التمركز العرقي - ٤٧، ٧٢، ٢٥٣، ٦٩٧
- الاسلام - ٤١، ٤٤، ٦٧، ٦٨، ١٠٣، ١٠٥، ١١٦، ١٢٠، ١٢٤، ٢٠٦
- الزراعة - ٢٨٤، ٩٢، ٣٤٨، ٣٤٠، ٣٥٧، ٤٩٥، ٤٩٨، ٦١٠، ٦٣٢، ٦٣٤، ٦٨٥، ٦٨٧، ٧١٩، ٧٤٦
- القياسات الاثرية - ٢١٤، ٢٢٠، ٢٢٦
- الاشولي - ٤٤٤، ٤٧٨، ٤٨٥، ٥٠٩، ٥١٦، ٥٣٣، ٥٣٧، ٥٤٠، ٥٥٨، ٥٧٧، ٥٩٩، ٦٢٢، ٦٤٢
- العصر الحجري - ٤٦٨، ٤٨١، ٥٥٥، ٥٦٨، ٦٢٢
- عصر الحديد - ٤٦٩، ٥٣١، ٦٣٨
- درسة الاعلام - ٢٥٦
- الانثروبولوجيا الدلالية - ٢٥٦
- الفن - ٣٦٤، ٣٧٠، ٣٧١، ٤٦٩، ٤٧٣، ٤٩٤، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٥١، ٥٥٣، ٥٨٨، ٥٩٠، ٦٣٩، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦٥، ٧٤٩
- الانسان الجنوبي القديم - ٢٨٤، ٤١٤، ٤٢١، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٥، ٤٤٤، ٤٥٦، ٤٥٩، ٤٦١، ٤٦٢، ٥٠٦، ٥٠٩، ٥٦٠، ٧٤٤
- العاطري - ٦٠١، ٦٤٤، ٦٦٢
- الدولة - ٧٥، ١٢٢، ١٦٢، ١٦٩، ٣٥١، ٣٦٩، ٧٥٣، ٧٥٧
- الكتابة - ١٠٣، ١٢٩، ١٧٧، ٢٥٨
- الاقتصاد - ٨٠
- اقتصاديات العيش - ٨٠
- اللغات - ٢٩، ٥١، ١٠٨، ١٥٥، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٧٠، ٢٨١، ٢٩٦، ٣٠١، ٣١٩
- اللسنيات (علم اللغات) - ٢٩، ٥٠، ٩٦، ١٥٥، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٧٠، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٩٥، ٣٠١، ٣١٩، ٣٦٥
- السحر - ١٨١، ٦٨٨، ٨٥١
- المنهجية - ٢٠، ٥٥، ٨٩، ٩٢، ١٠٢، ٣٦٨، ٤٦٧، ٤٧٢
- الموسيقى - ٢٩، ١٩٨، ٢٠٣، ٣٦٤
- الحركة التاريخية - ٣٧٠، ٣٥١
- الاورهام - ٦٠، ٦٣، ١٦٧، ١٧٩، ١٩١، ٦٨٨، ٦٨١
- العصر الحجري الحديث - ٢٨٥
- ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٦٩، ٤٨٣، ٤٩٥، ٥٣٥، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٦٨، ٥٨٣، ٥٨٨، ٦٠٤، ٦٢٧، ٦٥٠، ٦٦٩، ٧١٨، ٧٣١، ٧٤٥، ٧٤٨
- اولدواشي - ٤٢٣، ٤٤٢، ٤٤٤، ٤٧٨، ٤٨٣، ٥٠٨، ٥٤٩، ٥٦٠، ٦٠٨، ٦٤٢
- الديانة - ٧٩، ١٢٠، ١٢٤، ١٦٢، ١٦٤، ١٧٩، ٢٥٨، ٦٨٩، ٧٥١
- الزمان - ٣٥، ٥٩، ٦١، ٦٥، ٦٨، ٩٨، ١٦٧
- النقل الشفوي - ٢٥، ٤٤، ٦٤، ٧٧، ٨٩، ٩٠، ٩٨، ١٣٦، ١٥٥، ١٧٧، ٢٤٢، ٢٥٨
- العنصرية - ٤٧، ٥٢، ٧٤، ١٤١، ٢٥٣، ٢٧١
- ما قبل التاريخ الافريقي - ٩٠، ٣٤٥، ٤١٣، ٤٣٥، ٤٦٧، ٤٨١، ٥٠١، ٥٣٣، ٥٧٣، ٥٩١، ٦١٥، ٦٤١
- العصر الحجري القديم - ٤٦٥، ٤٧٧، ٤٨١، ٤٨٣، ٥٣٩، ٦٢٢، ٦٤٢
- العصر الحجري الوسيط - ٤٦٥، ٤٧٧، ٤٨١، ٤٨٩، ٥١٩، ٦٢٦
- العصر الحجري المتأخر - ٤٦٥، ٤٧٧، ٤٨١، ٤٩١، ٥٢٩، ٥٦٥، ٦١٧، ٦١٩، ٦٢٨، ٦٢٩
- تداخل العلوم (الاختصاصات) - ٢٣، ٣٦١، ٣٦٨، ٤٥٤

٤٧٧، ٥٠١، ٥١٩، ٥٣٧، ٥٥٣  
٥٨٣، ٥٩٥، ٦١٩، ٦٦٦، ٧٤٦  
التدوين التاريخي الافريقي -  
٤١، ٥٦، ٧١، ٧٦، ٨١، ٨٩  
١٢٩، ١٣٣، ١٣٨، ١٤٨  
القابسي - ٤٤٦، ٤٩٤، ٤٩٨  
٥٧٣، ٥٨٣، ٥٨٥، ٥٨٨، ٦٠٧  
الصيد - ٣٥٢، ٥٠٧، ٥٣٠  
٥٣٦، ٥٦٥، ٦٠٥، ٦٥٠، ٦٨٥  
العهد البليستوسيني - ٣٥٣  
٣٥٧، ٣٩٤، ٤٢٠، ٤٤٥، ٤٥١  
٤٥٨، ٤٨١، ٥٠٢، ٥١٢، ٥٥٨  
٦١٧، ٧٠٢

٤٥١  
النساء - ٦٤، ١٦٤، ٥٨٨، ٦٢٤  
٦٨٦، ٧٥٥  
علم الوراثة - ٢٧١، ٢٧٨، ٣٠١  
الجغرافيا - ٢٢، ١١٨، ١٢٢  
١٥٣، ١٦٦، ٣٢٢، ٣٢٨، ٣٤٥  
٥٣٣، ٥٥٧، ٥٩١، ٦١٧، ٦٨٩  
الجيولوجيا - ٣٢٩، ٣٤٥، ٣٥٧  
٣٨٠، ٧٤٥  
الشاعر القصاصي - ٩٨، ١٥٥  
١٦٤، ١٧٩، ١٨٣، ١٩٨، ٢٠٠  
٢٠٢، ٢٥٨  
تاريخ الاحداث - ٣٤، ١٤١  
١٦٨، ٣٦٣، ٣٧٣، ٣٨٧، ٤٠٣

الذاكرة الافريقية - ٢٠١، ٢٠٦  
أنماط الانتاج - ٧٥٣  
الاستعمارية - ٤١، ٤٧، ٤٩، ٥٢  
٥٥، ٧٦، ١٨٤  
الاستعمار - ٥٢، ٥٥، ٧٥٥  
الوعي الافريقي - ١٤٦  
الوعي التاريخي - ٦٠  
العصر الحجري المبكر - ٤٦٥  
٤٧٧، ٤٨١، ٤٨٣، ٥٣٩، ٦٢٢  
٦٤٢  
تحديد التواريخ (او تحديد العمر)  
٩٠، ٢٢٦، ٢٤٥، ٤٢٥، ٤٤٢  
٤٧٧، ٥٠٢، ٥٢٥، ٦٦٦  
التطور (التطورية) - ٢٧١، ٢٨٣

## المختصرات المستخدمة في قائمة المراجع

الانتابات العرقية - ١٠٥، ٢٤٧  
٢٨١، ٢٨٧، ٣٠٢، ٥٨٦  
الفوريميثي - ٤٤٦، ٤٧٨، ٤٩٠  
٥١٨  
علم الانساب (السلالة) - ١٦١  
٢٠٠، ٢٠٥  
التجلد - ٣٧٣، ٣٧٩، ٣٨٨  
التاريخ المبني على تطور المفردات  
والصيف - ٢٤٦  
السكن - ٢٥٢، ٤٤٣، ٤٥٣  
٤٦٤، ٤٧١، ٤٩٢، ٤٩٦، ٥٠٧  
٥١٢، ٥١٤، ٥٢٨، ٥٣١، ٥٨٦  
٦٥٨، ٦٧٧، ٧٤٨  
الهولوسين - ٣٧٣، ٣٩٤، ٤٤٨

فئات الاعمار - ٦٧، ١٦٢، ١٦٨  
طبقات الكائنات - ١٩١، ١٩٢  
علم المناخ - ٢٧٣، ٢٩١  
المناخات - ٣٢٣، ٣٧٣، ٣٨٧  
٤٠٣، ٥٠٢، ٥٢٠، ٥٣٥، ٥٨  
٥٩٢، ٦١٥، ٦١٩، ٦٩٩  
التصحّر - ٥٩١  
الاقتصاد - ٧٩  
النظام الايكولوجي - ٧٠٠، ٧١٤  
علم الاثرية المصرية - ٩٤  
١١٧، ١٣١، ٢٨٤  
بروز الانسان - ٧٤٣  
الضعالة (الزواج اللحي) -  
١٩٦

زراعة النبات - ٧٠٢  
الفن البومندي - ٦١٢، ٦٧٠  
٦٩٢  
الفن البوبالي - ٦٧٠، ٦٧٥  
٦٩٢  
المهاد الزراعية - ٦٩٧، ٧٠٣  
٧٠٦  
الجغرافيا الاحيائية - ٣٤١  
الخزافة (الفخار) - ٤٩٥، ٤٩٨  
٥٦٩، ٦٠٥، ٦١٢، ٦٣١، ٦٣٩  
٦٥٩، ٦٧٤، ٧٤٧  
رؤساء المقاطعات الرئيسية -  
٦٤، ١٠٠، ١٣٧، ١٩٦، ١٩٩  
٤٤٢، ٧٥١، ٧٥٤

- ٦٧٧ - بتروغليف -  
بليوسيني - ٤٤٥، ٤٢٠، ٣٧٤، ٥٠١  
الماطرة - ٥٣٥، ٣٨٢، ٣٧٥  
٦١٩، ٥٥٨، ٥٣٧  
مجتمعات ما قبل الملوك - ٦٥٠  
٧٣١، ٧٢٣، ٧٢٠  
المقدمات البشرية - ٤١٦، ٤١٣، ٤١٦  
٤٧٦  
العروق (النظريات المتعلقة  
بالعروق) - ٣٦٧، ٢٨٥، ٢٧١، ٧٤٩، ٦٩١، ٤٩٨  
٥٠٢ -  
سنگوين - ٤٩١، ٤٧٨، ٤٤٦  
٦٤٤، ٦٢٥، ٥٦٣، ٥٤٢، ٥١٩  
٧٤٦  
الجنسيانية - ٦٨٨  
سيجي - ١٦٤  
ستيلباين - ٥٤٧، ٤٧٩  
طوبولوجيا - ٢٥٥  
التقليديون - ٢٠٣، ١٨٣  
تراث باطني سري - ١٧٣  
التراث الملحمي - ١٦٢، ٢٦  
التراث المكتوب - ٢٥٨  
تجارة العبيد - ٤٨، ٤٧، ٢٣  
٧٥٥، ٣٥٨، ١٤١  
التشيتولي - ٥٤٦، ٥٣٩، ٤٤٥  
٥٦٦، ٥٦٣، ٥٤٧  
الولتوني - ٥٣٠، ٤٩٤، ٤٧٩  
المناطق المناخية - ٣٣٥  
علم الحيوان - ٣٥٢
- ٧٣٩، ٧١٧، ٦٣٦  
الحجارة الصغيرة - ٦٢٨، ٥٦٥  
٦٨٤، ٦٣١  
الهجرات - ٣٥٦، ٣٥١، ٢٨١  
٦٨٩، ٦٣٣، ٦١٢، ٥٣٣، ٤٩٤  
٧٤٩، ٧١٣، ٦٩٩  
المويسيني - ٥٠٢، ٤٥٥، ٤٨٨  
الموستيري - ٦٤٣، ٥٧٨، ٤٤٨  
الاسمية - ١٥٦  
علم الاعلام - ٢٥٥  
الصناعات العظمية السنية -  
٥٠٧، ٤٩٢، ٤٤٦، ٤٣٩، ٤٣٢  
الاصل الافريقي للبشرية -  
٤٩٨، ٤٧٧، ٤٥١، ٤٣٦، ٤٣٣  
٧٤٣  
الادوات - ٣٧٦، ٣٤٩، ٢٤٧  
٤٥٥، ٤٣٨، ٤٣٦، ٤٣٥، ٤٢٢  
٥١٦، ٥٠٧، ٤٧١، ٤٦٧، ٤٦٤  
٥٤٩، ٥٣٦، ٥٣١، ٥٢٧، ٥١٨  
٦١٢، ٥٩٧، ٥٨٤، ٥٧٥، ٥٦٥  
٧٤٥، ٦٦٠، ٦٤٢، ٦١٨  
المنافخات القديمة - ٣٦٧، ٣٣٠  
٣٧٦  
العصر الحجري الاول - ٤٨٣  
٦٢٨، ٥٩٧، ٥٨٣، ٥٧٧، ٥٣٥  
الانتولوجية القديمة - ٤١٣، ٩٠  
٦٧٠، ٦١٧، ٥٧٤، ٥٠١، ٤٥١  
القرابات العرقية الثقافية - ٢٤٧  
٢٧١  
منشأ الكلمة - ٢٧٥، ١٨١، ١٧٩  
الرعي - ٤٩٥، ٣٥٣  
ثقافة الحصاة - ٤٣٩، ٤٣٣  
٥٩٧، ٥٧٤، ٥٣٩، ٤٤٨، ٤٤٥
- ٥٥٨، ٥٣١، ٤٨١  
فصيلة البشرات - ٤١٧، ٤١٣  
٥٧٥، ٥٠١، ٤٦٢، ٤٤٥، ٤٢٥  
٧٤٤، ٦١٧  
الانسان الهومين - ٩٠  
ظهور الانسان - ٤٣٥، ٤١٣  
٧٤٤، ٤٣٨  
الجنس الانساني - ٤٣٣، ٤١٤  
٥٠٦، ٤٥٦، ٤٥٤، ٤٤٤  
الانسان المستقيم - ٤٣٢، ٤٢٩  
٥٩٩، ٥٦١، ٥١١، ٤٨٨، ٤٥٩  
٦٢٤، ٦١٨  
الانسان الماهر - ٤٣٢، ٤٢٩  
٥٩٧، ٥٠٦، ٤٨٨، ٤٦١، ٤٤٤  
٧٤٤، ٦١٨  
الانسان العارف - ٤٣٤، ٩١  
٥٠٧، ٤٨٩، ٤٥٥، ٤٤٤، ٤٣٥  
٧٤٧، ٥٦٤، ٥١١  
الانسان العارف العارف - ٤٥٥  
٧٤٤، ٥٢٦  
الثروات المائية - ٣٥٦، ٣٤٨  
ايبروموسي - ٦٠٧، ٥٨٣  
كافوني - ٥٣٩  
خرطومي - ٧٣١، ٦٥٠  
كينيايبك - ٧٤٣، ٤٥٨، ٤١٧  
لويامي - ٥٣٨، ٤٩١، ٤٤٨  
٦٢٦، ٥٦٣، ٥٤٥  
اقنعة - ٣٦٤  
العصبات المرتبطة بالام - ١٠٠  
٧٥٥  
النصب الحجارية - ٥٦٩، ٥٤٨  
٦٣٩  
المعادن - (انتشارها) -

تمت طباعته في  
الربع الأخير من عام ١٩٨٣  
على مطابع كانالي  
في تورينو (إيطاليا)

Achévé d'imprimer en Italie  
par Tipolitografia G. Canale & C. S.p.A. - Turin

الأيدياع القانوني: الربع الأخير من ١٩٨٣  
دار النشر: جون أفريك — ٣ شارع روكيبي — ٧٥٠٠٨ باريس  
رقم الناشر: ١/١٣٦٤